

ذِكْرُ تَرْبِيَةِ الْعَبْدِ لِلَّهِ

الجزء الأول

الجزء الثاني

الدكتور

شكر مصطفى

الناشر

وَكَاةُ التَّالِثَةِ لِلطَّبَوَعَاتِ

٢٧ شارع فهد السالم - الكويت

شكر مصطفى

دَوَّلَةُ تَبْرِيزِ الْعَبَّاسِيَّاتِ

النكاشر
وَكَاةُ التَّطْبُوعَاتِ
٢٧ شارع فهد السالم - الكويت

ذِكْرُ تَرْبِيَةِ الْعَبْدِ لِلَّهِ

الجزء الأول

الدكتور
شكر مصطفى

الناشر
وَكَاةُ الْمَطْبُوعَاتِ
٢٧ شارع فهد السالم - الكويت

شكر مصطفى

دُرُكُ تَرْبِيَةِ الْعَبْدَانِ

الجزء الأول

الناشر
وَكَاةُ الْمَطْبُوعَاتِ
٢٧ شارع فهد السالم - الكويت

بين يدي الكتاب

لبعض عصور التاريخ ، كما لبعض الناس أو الطير أو الارضين :
حفظ و مقادير : يخصب بعضها عطاء ونشاط يد وفكر في حين يفتقر غيره
فهو الجديد المسوح الملامح . وينال بعضها من الرعاية والبحث مالا تناله
أعصر أخرى هي أجدر وأحرى . . . ويشتهر من هذا العصر أو ذاك رجل
أو بلد أو حدث بينما تغمر العتمة أو غبار النسيان في عصر ثان رجالا لا
أروع وبلادا لا أجمل وأحداثا لا أند ولا أغرب . . . هي التي تصوغ
التاريخ .

والعصر العباسي الأول من العصور المحظوظة . لقد كان عصر عطاء
وخصب كثير . ولقد بحث ثم بحث منذ القديم . الأنوار التي سلطت على
رجاله وأحداثه باستمرار تركته مائل الوجود في الأذهان حتى كأنه
ما يزال يتنفس ويعيش . ولعله ليس ، بعد عصر الرسالة والفتوح ، من
عصر في التاريخ الاسلامي نال الخطوة التي نالها هذا العصر من الناس .
ويبدو انه لهذا السبب بالذات ما يزال ثمة الكثير مما يمكن أن يبحث فيه
أو يقال عنه . العصور الوافرة الفنى هي في الوقت نفسه العصور التي
يمكن أن يتكشف فيها كل يوم جديد

ولست إلى الزعم أن هذا الكتاب يأتي بالجديد الذي قد أريد منه
أو الذي قد يأمله منه الباحثون ولكنه محاولة متواضعة في هذا السبيل .
وما كان له أن يعرف أسنان المطبعة لولا الرغبة في أن يلقي كتابا سابقا من

مثله صدر قبل خمس عشرة سنة وقد تحولت عن كثير مما جاء فيه من بحث وراي .

وإذا اخذ الكتاب اسم « دولة بني العباس » ثم لم يبحث من التاريخ العباسي كله سوى العصر الأول فلاننا نتناول فيه ، من جهة ، التاريخ السياسي فحسب . ولاننا من جهة أخرى نفرق - اوجب ان نفرق - بوضوح بين عهد كانت الكلمة فيه والحكم والسلطان لبني العباس وعهود أخرى تلتها ما كان لهم فيها ولا السلطة على حاجب القصر . . . بلى ! هم الخلفاء بالبردة والقضيب والخاتم ولكنهم ليسوا اصحاب الدولة . دولة العباسيين الحقيقية إنما قتلت مع المعتصم . مصرعه كان مصرعها فلم يكن لهم بعدها من دولة أبداً . حتى حين أصابت الخلافة العباسية بعض اليقظة ما بين أواخر القرن السادس وأقسام من القرن السابع بعده لم تكن أعمال أولئك الخلفاء الآخرين أكثر من محاولة استيلاء على إمارة صغيرة حول بغداد في غفلة من المتسلطين الآخرين وعلى الطريقة التي كان فيها أي طامع في تلك المصور يقتطع إمارته اقتطاعاً . . .

وقصة « دولة بني العباس » هي قصة الدولة التي كانت لمدة قرن علي الأقل هي دولة الدنيا الأولى . والدولة المسيطرة على مقدرات أكبر عدد من البشر - عدا امبراطورية الصين - والموجهة لأكبر عدد من الشعوب تحت يدها ومن حولها . دول معدودة على الأصابع فقط هي التي عرفها التاريخ دولا أولى في الأرض وبمثل هذه الهيمنة الواسعة ، فهي حتى في مسيرة التاريخ العام للبشرية مستحقة للمزيد من البحث والدراسة وتقويم الأثر .

على ان هذا الكتاب إنما عني خاصة بنواح ثلاث . السياسة الدينية والعلاقات الخارجية والأثر الاقتصادي في الأحداث . وإنما قصد إلى ذلك قصداً . فالعصر العباسي الأول ما يزال حياً فينا الى اليوم في حياته الدينية . العالم الاسلامي ما يزال الى يوم الناس هذا عالة على ذلك العصر

بالذات في مفهومه عن « الاسلام » . فقه هذا الدين بعمقه المشهورة السخنة
او السبعة الباقية إنما تبلور واجتمعت مادته وأركانه في ذلك العصر فمنذ
يزال هو « الاسلام » وهو فكر الاسلام الرسمي حتى الآن . كان هو الحق
وما كان بعده فانما هو شروح ورقص على الهوامش . ثم إن العلاقات الدولية
تأخذ المزيد من اهتمام ونظر الباحثين الآن لأنها صورة الروابط الانسانية
ولأن هذه الروابط ما تنفك تزداد أثراً وشأناً بين البشر . وقد أسهم
العصر العباسي الاول اوضح الاسهام في دفع تلك الروابط والعلاقات ،
ووضع الخطوط الاولى في القانون الدولي . كان من اندر فترات التاريخ
التي فهمت وقادت سياستها على أساس دولي فشعوب الارض كلها
موضع اهتمام بقداد مرتبطة الاهتمام ببقداد . وأخيراً فقد طالما أهملت
العناصر المادية في تحليل الاحداث . وبالرغم من نقص الدراسات فقد
حاولنا ان نعطي العامل الاقتصادي دوره . ليست الجيوش وحدها هي
التي تسير على معدتها . كلمة نابليون هذه عمت الشعوب والانسان بعد
ماركس . المعدة بيت الداء كلمة أضحت تنطبق أيضاً على التاريخ .

وإذا اقتصر هذا السفر - رغم سعته - على بحث الجانب السياسي
من العصر العباسي الاول فانما هذا في الواقع هدفه . وإذا أطال أحياناً
في بحث الثورات وعدد ما يعدد من الفتن والمشاكل فيه فما ذلك عن رغبة
في إبرازها ولا تقديراً لشأنها في التاريخ - وهي في معظم الاحيان ضئيلة
الشأن والاثار - ولا تشجيعاً على ذلك الماضي الذي انقضى . فما التاريخ
قصيدة هجاء أو مديح ، ولكنها ضرورة استكمال صورة العصر ، هي التي
تعلى ، والرغبة في للممة اطراف الواقع التاريخي الغابر . على أنها دون شك
ليست هي التاريخ ولا هي تاريخ هذا العصر . ولقد نكون أقرب الى الحق
لو قلنا إنها شذوذه وإنها ما نشز عن حياة الناس العادية فيه وخرج على
فعاليتهم الانسانية المنتجة فهدمها هنا وهناك . هي الصورة السلبية لا
الواقع الايجابي ولا الفعالية الانشائية المعطاء . وإذا كنا نرفضها كصورة
للحياة العامة في ذلك العصر فما نوردتها إذ نورد إلا ليكمل السياق ويصدق
الخبر . وما نشرنا في حناياها من التفاصيل - وما أكثر ما تغص المصادر
الاولى بالتفاصيل - إلا بالمقدار الذي يوضح التيارات الكبرى والملاح العامة

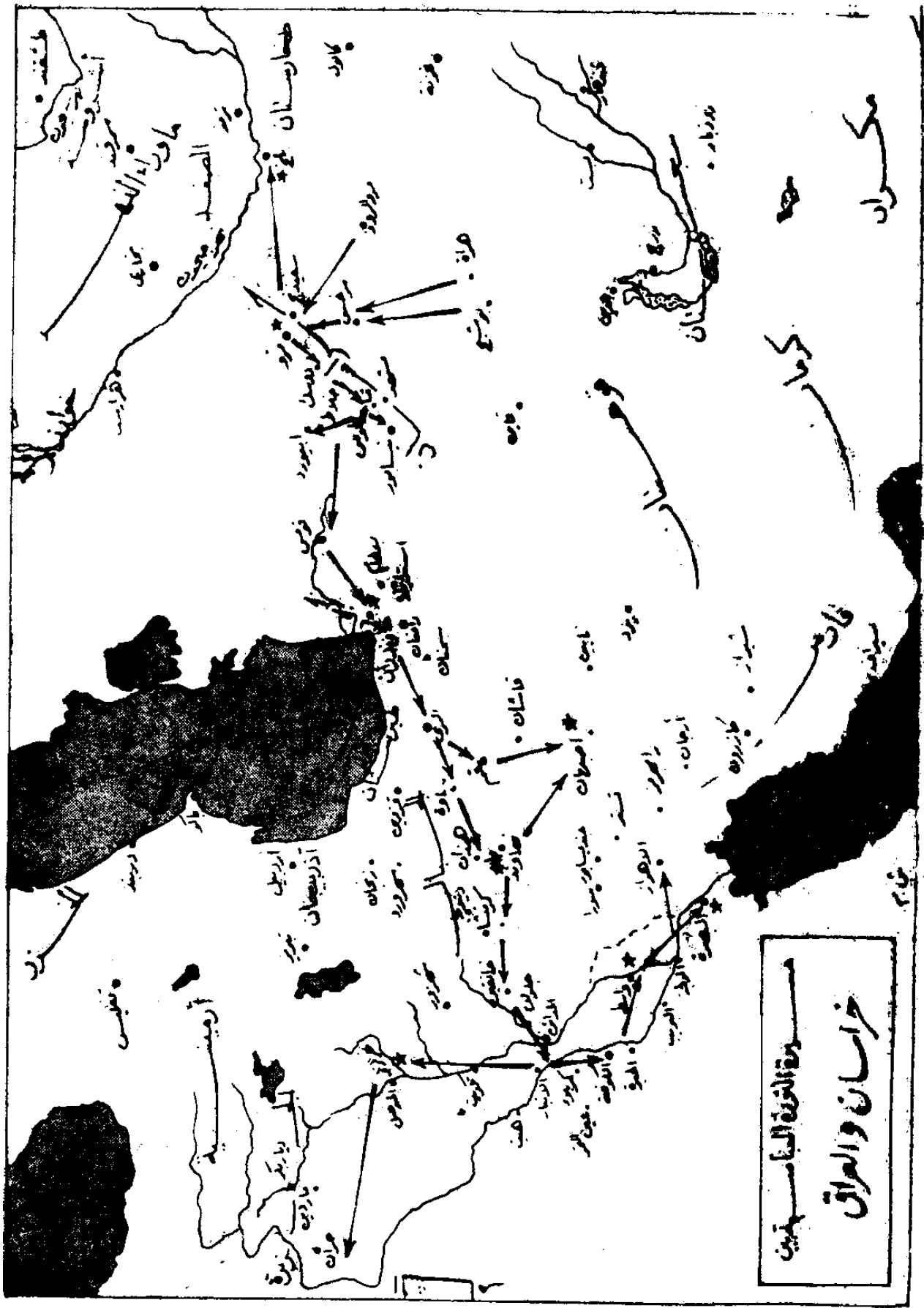
للعصر ، عارفين أن مقابل تلك الأحداث السوداء ومن ورائها وبالرغم
منها كانت ثمة حضارة كبرى تتكون هي إحدى كبريات الحضارات في
التاريخ ، وهي تاريخ هذه الأمة الحقيقي ... ولكن لبحث تلك الحضارة
كتابها الآخر المختلف !..

وأخيرا فإذا استطاع هذا السفر أن يضيف كلمة جديدة واحدة
إلى التاريخ العربي الإسلامي فهي حسبه . ولعله فعل !.

حزيران ١٩٧٣

د. شاكراً مصطفى





الفصل الأول

العالم الإسلامي في نهاية العهد العباسي

إذا ذكر العصر العباسي بين عصور الاسلام انداحت في الخواطر صور أشتات فيها من يد الادب وألف ليلة ومن الشعر والخمر وحياة الترهل أكثر مما فيها من وقائع التاريخ . وفيها من أجواء الحضارة وخبر العلم والتجارة أكثر مما فيها من معرفة الأحداث ودخائل السياسة . وإذا كان العصر العباسي هو دون شك فترة الأوج في العطاء العربي الإسلامي فانه كان أيضا على المستوى نفسه في الخصب السياسي . وإذا كنا نعتبر العطاء الحضاري هو الأهم والأبقى في التاريخ فان ذلك العطاء إنما قام على خلفية سياسية عريضة لم تكن أقل منه خصبا وتفاعلا مع حياة الناس .

وبين عصر بني العباس وعصر الرسالة قرن وثلث القرن فقط توالى فيها على قيادة دولة الاسلام بعد الرسول الاعظم الخلفاء الراشدون فترة لم تزد كثيرا على ربع قرن ثم الأمويون قرابة القرن قبل أن تؤول الامور الى أحفاد العباس فيظلموا في قمة التاريخ الإسلامي وفي عنوانه ٥٠٠ سنة هي أطول مدة عرفت أسرة في ذلك التاريخ وفي كثير من التواريخ الأخرى .

وإذا كان جيل العصر الراشد هو جيل الاسلام والفتوح وإقامة الدولة فان العصر الاموي عرف أجيال السيادة العربية وتكوين أوسع دولة عربية اسلامية موحدة في التاريخ ، وانتشار العرب على أقطار المشرق والمغرب فاتحين ومتوطنين، ودخول غيرهم معهم في الاسلام عقيدة ونظام حياة ، وتحول اللغة العربية الى لغة عالمية هي في الدين والسياسة والتجارة لغة الدنيا الاولى . ثم جاء بنو العباس فكان ظهورهم تعبيرا عن التطور الجديد الذي طرأ على التاريخ العربي الاسلامي وعلى أجياله وعلى تطلعات تلك الاجيال .

وقد استمر ذلك التطور يتفاعل ويعطى ثمراته ويأخذ أبعاده المميزة مدة قرن أو تزيد هي العصر العباسي الأول قبل أن تطرأ عليه عوامل وعناصر جديدة تضعه على مسار تطور آخر وترسم فيه ملامح عصر مختلف . وبالرغم من أن بني العباس ظلوا عنوان العصور التالية أربعة قرون أخرى واقرن اسمهم باسم بغداد حتى كانت هذه المدينة صورتهم الاخرى وكان سقوطها سقوطهم ، إلا إن القرن الاول من تاريخ بني العباس هو الفترة الوحيدة التي تستحق ان تحمل اسمهم كحكام فعليين، أما بعد ذلك فكانوا العنوان دون المضمون والرمز الديني السني في النفوس دون أبعاد على الارض أو أثر في السياسة والناس . دولة بني العباس الحقيقية هي إذن ما اصطلح المؤرخون على تسميته بالعصر العباسي الأول . لأنه في الواقع العصر الاول والاخير .

ودراسة ذلك العصر هي في الواقع دراسة للمرحلة الثالثة التي دخلتها دولة العرب والاسلام في التاريخ . وبالرغم من أنها تحمل اسم العباسيين إلا إنها مرحلة متصلة الجذور والاعماق والتطورات بالمرحلة الاموية

السابقة ولم تكن انعطافا في ذلك التاريخ بقدر ما كانت تنمة واستمرارا له . ولهذا فقد يكون الدخول الى العصر العباسي ، أوضح وأعمق إن جاء عن طريق العهد الاموي وعن طريق التعرف الى الارض التي قام عليها ذلك العصر . وإنما وصلت الاسرة العباسية الى الحلول محل الاسرة الاموية المروانية في الخلافة لأنها عرفت الاستفادة من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في ذلك العصر وأعطت مطامعها الشعارات الدينية - السياسية المناسبة . ولم تعمل أعنف العمل وأقساه وحدها ولكن عمل معها أيضا عدد من الظروف الملائمة . وإذا كان فشل الثورات العلوية وقسما بالشكل الدموي المرعب قد أعان الدعوة العباسية وعلمها الكثير فقد أعينت من جهة أخرى بما كان على أيدي الامويين من الثورات وما قام في مراكزهم بالشام من فتن وما فرقهم هم أنفسهم من نزاع عنيف كثير الدماء .

وهكذا إذن ليس بد في تفسير الظهور العباسي من التعرف الى العالم الاسلامي في نهاية العهد الاموي سواء من حيث اتساعه الجغرافي وتكوينه الديمغرافي أو حيث اتجاهاته الاجتماعية والاقتصادية وتياراته السياسية الدينية . ثم لا بد بعد هذا في تفسير النجاح العباسي من دراسة الحكومة الاموية في الناحيتين المالية والادارية، وفي مشاكل المال والادارة والثورات ومن دراسة بلاد الشام نفسها وما مزقتها وجعل الاسرة الاموية فيها تقف في الفراغ والارض الخواء ومن دراسة تدمير الامويين لانفسهم قبل أن يدمرهم العباسيون . . ولا بد الى هذا وذاك أخيرا من أن نعرف الى أي مدى ساهمت العلاقات الخارجية مع الروم خاصة في التمهيد للنصر العباسي الذي جاء نهاية طبيعية ومنطقية لسلسلة الاحداث والظروف والاعمال التي سبقته .

١ - اتساع الدولة :

حين لحق صاحب الرسالة (ص) بالرفيق الاعلى لم تكن رقعة البلاد التي تدين له تجاوز شبه جزيرة العرب وينتهي النفوذ الاسلامي شمالا عند خط يمتد بين نهايتي الخليج العربي وخليج العقبة . وبعد موجتين من موجات الفتح (زمن عمر ، وزمن الوليد بن عبد الملك) وقبل أن يمضي على عهد النبوة قرن واحد كان خلفاء الرسول يحكمون أكبر امبراطورية جمعت إلى عهدهم في التاريخ (عدا امبراطورية آتيليا) .

ففي السنين الثلاثين الاولى من القرن الثاني للهجرة كانت حدود الدولة العربية الاسلامية تمتد في الشرق من حوض السند وراء جبال هند كوش وسليمان ، الى هضبة بامير والحوض الاعلى لنهر سيحون . أما أطرافها الشمالية فتنتهي في بوادي تركستان وان كانت ترافق حوض جيحون حتى بحيرة آرال وتمشي مع الشواطئ الجنوبية لبحر الخزر ، ثم الشواطئ الغربية حتى سفوح جبال القفقاس فتسايرها الى الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر الاسود .

وكانت الحدود تتأرجح بعد ذلك في خط كثير الاضطراب والتغير من تلك الزاوية حتى جبال كيليكيا وراء خليج الاسكندرونة مارة بهضاب ارمينيا العالية وبمنايع الفرات .

واذا كان العرب قد أخضعوا قبرص من بحر الروم (الايض المتوسط) فإن باقي الجزر فيه لم تكن حتى ذلك الوقت قد وقعت في قبضتهم أو نفوذهم . وكانت مياه هذا البحر تفصل فيما بين أملاكهم في افريقيا الشمالية

وبين الشواطئ الجنوبية للقارة الاوربية حتى مرسيليا فقط على ساحل فرنسا الجنوبي ، اذ كان المد العربي قد وصل منذ عهد قريب الي تلك المنطقة عابراً اليها عن طريق جبل طارق والاندلس وهضبة قشتالة وجبال البرانس .

ولم يكن العرب مسيطرين على شبه جزيرة ايريا كلها فقد بقي منها للقوط الزاوية الشمالية الغربية وراء جبال كاتتاريك (منطقة آستوريس وغاليسيا) .

أما في شمالي افريقيا فان المحيط الاطلسي والصحراء الافريقية الكبرى أوقفاهم عن التوسع . كما أن نفوذهم في وادي النيل كان ينتهي عند الشلال الأول فأهل النوبة على هدنة وحلف معهم . وهكذا كانت الامبراطورية العربية تضم ثلاث هضاب كبرى : ايران وآسيا العربية وايريا عدا شمالي افريقيا كله .

ولم يكن في العالم اذ ذاك من امبراطورية تضاهي هذه الامبراطورية العربية الاسلامية . وأكبر الدول الباقية المتمدنة واهمها كانت دولة الروم البيزنطية التي ظلت معتصمة بالقسطنطينية وما حولها في الاناضول من جهة وفي البلقان من جهة أخرى . كما كانت ابرز الدول الاقطاعية في اوربا العربية ، دولة الميروفانجين في فرنسا ، تحت وصاية شارل مارتل . أما في المناطق الممتدة بين شمالي البحر الاسود وقزوین فتقوم مملكة الخزر وأما إلى الشرق منها حتى بحيرة آرال وبلخاش فكانت تنتقل القبائل البدوية التركية التي تشكل بعض الدول . وأما في بلقيس العالم في الشرق الاقصى فكانت هناك امبراطورية الصين محكومة من اسرة تانغ ، وفي شمالها في منغوليا يسيطر خانات اوغوز (الغز الترك) ،

وفيما بين الهند الصينية وسيام والهند كانت تنتشر عدة ممالك وامارات صغيرة •

وفترة العصر الأموي بعد العصر الراشد هي الفترة الوحيدة في التاريخ العربي الاسلامي التي كان فيها مفهوم «البلاد الاسلامية» ينطبق على كل من مفهوم الدولة العربية ومفهوم «الخلافة الأموية» • كانت المفاهيم الثلاثة واحداً في المعنى • ومنذ تسلم العباسيون الامر انفصل مفهوم البلاد الاسلامية عن المفهومين الآخرين فصار هناك بلدان اسلاميان : العباسي ، والأموي الاندلسي ودولتان عرييتان فيهما خلافة عباسية يقابلها إمارة أموية • ثم ما لبثنا بعد ذلك أن رأينا أنه وإن ظل مفهوم البلاد الاسلامية ثابتاً فإن الدول الاسلامية قد تعددت كما أن مفهومها لم يعد ينطبق على مفهوم الخلافة إذ ظهرت ثلاث خلافات عباسية وفاطمية وأموية ووراء كل منها ، وضمن إطارها في النفوذ الديني أو السياسي أو في الولاء دول اسلامية متعددة ••

٢ - السكان :

كانت الامبراطورية الاسلامية تضم عناصر شتى من السكان جمع بينها الفتح الاسلامي ، ففي ايبيريا كان سواد السكان من العناصر الايبيرية ومن القوط الغربيين (الفيزيقوط) ومن بعض اليهود والفاندال والرومان •

وفي منطقة الاطلس من شمال افريقيا وحتى ليبيا سكن البربر الحاميون يختلط بهم على السواحل بعض الفاندال وبعض الرومان •

وفي مصر كان القبط سكان مصر الاصليون مع مجموعات صغيرة من الرومان وغيرهم في الاسكندرية خاصة ، وفي جنوب مصر : النوبيون وهم من العناصر العامية - الزنجية .

وفي الشام كان العنصر السائد هو الآرامي مع مجموعات من اليهود في الجنوب وبعض العرب اليمانية (الغساسنة) على اطراف البادية حتى دمشق مع جزر محدودة من الروم واليونان في بعض المدن كمسقلان وانطاكية والقدس .

وفي العراق كانت الخلائط القديمة من البابليين والاشوريين والكلدان قد غابت وراء غطاء من العناصر الايرانية ، رقيق . ولكن كان ما يزال واضحاً فيها بعض العناصر الآرامية وتدعى في الشمال السريان وفي الجنوب النبط . كما كان عدد من القبائل العربية يرود اطراف العراق الغربية حتى الجزيرة العليا ومنها قبائل بكر وتغلب . أما في البطائح والأحواز من جنوب العراق فقد تجمعت أعداد كبيرة من الزنج المجلوين عبيداً للعمل في الأرض وفلاحتها ، ومعظمهم من شرقي افريقيا ، كما كان هناك عناصر من « الزط » انتقلوا إلى البطائح من حوض السند قبل الاسلام وبعده .

وكانت عناصر من الارمن تتوزع بين بحيرة وان وبحر الخزر في ارمينية . وإلى الجنوب منهم : في المناطق الجبلية ، بعض العناصر الكردية حتى حوض الزاب وديالي .

أما هضبة ايران فكانت عناصر الايرانيين والفرس تملؤها حتى اطراف بوادي تركستان حيث تقيم عناصر تركية صفراء ، وحتى الجبال

المطرقة على حوض نهر السند الذي تقيم فيه بعض العناصر الدرافيدية بطوائفها الطبقية الهندوسية .

وتتكلم هذه العناصر لغات مختلفة ، لها غالباً كتابات خاصة :
فالهنزقوط كانوا قد تبناوا اللغة والكتابة اللاتينيتين (عن الرومان) .

وللبربر لغتهم الخاصة التي لا تكتب . كما ان للقبط كتابتهم (الديموطيقية) ولغتهم القبطية القديمة بجانب اللغة والكتابة اللاتينيتين (لغة الحكام الروم) واللغة والكتابة اليونانيتين (لغة الثقافة) وكانت عناصر الشام والعراق تتكلم وتكتب لهجات متعددة من اللسان الآرامي ، اهمها اللغة السريانية والكتابة التابعة لها (والتي تحدثت عنها تحدرأ غير مباشر الكتابة العربية) بجانب لغة وكتابة الحكام الروم والثقافة اليونانية . أما في ايران فقد كانت للفرس لغتهم الفارسية للراقية كما كان للهنود اللغة السنسكريتية التي كانت اللغة الاوردية قد بدأت بمزاحمتها . أما الاتراك فلهم لهجات غير مكتوبة .

وعدا الاختلاف في العنصر واللغة فهناك تعدد في اديان هذه المجموعة من الشعوب . فالقسم الغربي من الامبراطورية كان قبل الاسلام يدين بالمسيحية واذا كانت ايريا الكاثوليكية وشمالى افريقيا الارثوذكسي حديثا العهد هذه الديانة . وفيهما كثير من الوثنيين ، فقد كان للمسيحية في مصر والشام والعراق مذاهب راقية متعددة اهمها : المونوفيسية (اليعاقبة السريان) والمونوتيليتية (الروم الارثوذكس) والنسطورية .

أما بلاد ايران ففيها ديانات ثلاث يتفرع بعضها عن بعض : الزرادشية : وهي الأصل ودين الاكثرية . ثم المافوية : التي كانت

يقظة للزارادشتية في القرن الرابع والمزدكية المشاعية التي ظهرت في القرن السادس الميلادي • عدا جماعات من اليهود ومن النصارى النساطرة •

وعلى هذه المناطق والشعوب ذات اللغات والاديان انساحت منذ قرن واحد ومن قلب الجزيرة العربية عناصر عربية فاتحة تتكلم اللغة العربية وتدين بالاسلام •

وبالرغم من ان الحكم تم لها في هذه الامبراطورية المتعددة الالوان فانها لم تستطع ان تصبغ جميع تلك الرقاع بصبغتها الخاصة الا ببطء وبنجاح متفاوت : نجحت في تعميم الدين الاسلامي اكثر من أي شيء آخر ومع هذا فان اسلام ايران والعراق والشام ومصر استمر يجري تدريجيا حتى القرن الثالث وبين الفتح السياسي والفتح الديني حقبة طويلة الأمد • ولم يستغل المسلمون تفوذهم السياسي لفرض دينهم • بدليل انا لا نسمع عقب الفتوح أي خبر عن إجبار الناس على اعتناق الاسلام ، بينما نسمع بالعكس اخباراً متعددة عن اسلام جموع كثيرة من العراق ومصر وفارس ومن البربر خلال العهد الاموي وفي أواخره (حتى لقد هددوا مالية الدولة) ويتبين من هذا ان سواد الناس بقوا حتى اواخر القرن الاول غير مسلمين ، ولا سيما في الشمال والغرب من ايران وفي حوض السند وبين سكان ايريا وجبال الاطلس وفي جبال وريف الشام ومزارع مصر ، كل ظل على دينه الاول لا يغيره •

ونجحت اللغة العربية اقل من نجاح الدين في الانتشار لانها تحتاج الى تعلم ومران • والمحاولة الكبرى لتعميمها انما تمت على يد عبد الملك في الشام واخيه عبد العزيز في مصر والحجاج واليه في العراق بما عملوا عليه من توجيه الناس اليها بتعريب دواوين الدولة • كما أعانها على

الانتشار ايضا أنها لغة الدين وان لها كتابة (كوفية) وأخرى لينة اشتقها العرب قبيل الاسلام عن الحيرية والنبطية وانتشرت بسرعة بينهم وبين الشعوب المفتوحة . ومع هذا فلا تتصور ان سكان الشام كانوا يفهمون كل شيء على حكامهم الامويين وان لغة التداول في مصر وفارس وبلاد الاطلس كانت غير القبطية والفارسية والبربرية . والخطوة الكبرى التي خطتها اللغة العربية لتحل محل اللغات المحلية كانت في العصر العباسي الاول حين اضحت لغة الثقافة والفكر في الحضارة الاسلامية ، بجانب كونها لغة الدين ولغة السياسة .

اما من الناحية العنصرية فان العرب الذين خرجوا من الجزيرة قد توزعوا مجموعات قبلية صغيرة أو كبيرة انتشرت في خراسان وفارس والعراق وارمينيا والشام ودلتا مصر وفي شمال افريقيا ، كما انتقلت الى الاندلس . وكونت في مختلف هذه المناطق طبقة واضحة من المستوطنين . وإذا كان لها في العراق ومصر مدنها كالكوفة والبصرة وواسط والفسطاط . فانها دخلت في صلب المدن الشامية كدمشق وحلب والقدس وقنسرين ، وفي المدن المغربية والاندلسية كما دخلت في المدن الايرانية والخراسانية كمرو وهمدان ونيسابور . وانتسب بعض العرب أحيانا الى هذه المدن . ولم تكن قوة العرب في هذه المناطق جميعا بأعدادهم — وهي اعداد هزيلة في بعض المناطق — ولكن باعتبارهم أصحاب الحكم والدين . وإذا انتصرت جموعهم في معركة التعريب فانما كان ذلك من الوجهة الثقافية (اللغوية والدينية) فقط ، اما عرقيا فقد اندمجت مع غيرها وذابت جزئيا أو كليا في بعض الاحيان . وإذا استثنينا مركز التجمع العربي والتوطن في العراق والشام خاصة فقد قامت أهم مراكز التوطن العربية على جناحي الامبراطورية في أقصى طرفيها : في المشرق (خراسان) وفي المغرب (الاندلس) .

٣ - الاتجاهات الاجتماعية الاقتصادية :

من الصعب دراسة الاتجاهات الاجتماعية - الاقتصادية منفصلة عن الاتجاهات الدينية والسياسية في المجتمع الاسلامي - الاموي ، فقد كانت كلها متشابكة مرتبطة ، فكل صيحة سياسية وجه ديني متأثر بشكل أو بآخر بجذر اقتصادي ، ولكل فرقة دينية رأي سياسي مرتبط بمصالح مادية ، كما كان لكل حزب او نحلة أو فكرة مجموعة معينة من الناس تؤيدها وبلد تبنت فيه وأسباب اقتصادية دافعة . ولعل مشكلة (الحكم) كانت نقطة التقاء وافتراق تلك الاتجاهات المختلفة جميعاً .

وإذا نحن نظرنا في تكوين المجتمع الذي ساسه الخلفاء الامويون ميزنا فيه مبدئياً جماعتين : الجماعة المسلمة ، والجماعة غير المسلمة (أهل الذمة) .

لكن تمايزاً آخر كان يظهر ضمن الجماعتين ويقسمهما بدورها الى أكثر من جماعة مما يمكن معه أن نرى في رعايا الدولة الاسلامية عدة طبقات بعضها يتصل تميزه بالدين وبعضها الآخر متصل التميز بالعرق أو بالمال أيضا . وإن لم تكن هذه الطبقات على أي حال طبقات مغلقة . فهناك :

أولاً - العرب المسلمون ومنهم آل البيت ، والأسرة صاحبة الخلافة والصحابة ، والقواد والولاة وكبار أصحاب الاقطاعات ورجال الدولة وجانب واضح من الرعية هي قبائل العرب .

ثانياً — باقي المسلمين من ابناء الشعوب المغلوبة من قوط وبربر وقبط وروم وفرس وترك وهنود . وكان يطلق على هؤلاء أحياناً ولا سيما في منطقة العراق والشام اسم الموالي . كما كان يدخل تحت هذا الاسم أيضاً العبيد المعتقون بما يستون به من رابطة الولاء لأسيادهم السابقين .

ثالثاً — أهل الذمة وهم النصارى واليهود . كما اعتبر من الذمة أيضاً الإيرانيون الذين بقوا على دياناتهم ومذاهبهم من زرادشتية ومزدكية ومانوية . وهؤلاء الآخرون كانوا ينبذون أحياناً ببعض الأسماء التي تحمل معنى الاختقار . فإذا كان يطلق على نصارى الشام والعراق اسم النبط ، ونصارى مصر اسم القبط ، فإن الفرس كانوا عند المنافرة والخصومة يدعون بالاعاجم والحمراء والعلوج .

ويختلف الوضع الاجتماعي الاقتصادي للجماعة العربية عن جماعة الموالي وأهل الذمة اختلافاً متفاوت الدرجة والوظيفة :

فأما العرب فقد كانت الفتوح قد نثرتهم ما بين مشارق الدولة الإسلامية الى مغاربها . وقد فرغت الجزيرة العربية أو كادت تفرغ خلال القرن الأول الهجري من كل تلك الزيادات السكانية التي كانت تشكل القوة الديمغرافية الضاغطة في مطالع أيام الفتح . وانتقلت كثير من القبائل العربية بكتلتها العامة الى الأمصار المفتوحة . في عملية انتشار بشرى عربي واسع وبشكل مجموعات مقاتلة ، كانت محطاتها الأولى في جنوب العراق وفي جنوب الشام . وقد اتجهت هذه الجماعات العربية منذ أواخر القرن الأول الهجري الى الاستقرار النهائي والى الحياة الحضرية في المراكز العسكرية التي نزلتها كدور هجرة (خراسان . الجزيرة وأرمينية . إفريقية . الأندلس) . ومع أنها احتفظت — وهذا طبيعي —

بالكثير من القيم والمفاهيم والروابط القبلية الا إنها أصبحت ، في الواقع ، جزءاً من مجتمعات مستقرة . ومع أنها لم تتحول الى الحرف والمهن إلا . إنها - مع احتفاظها بالصفة العسكرية - شكلت طبقة من الملاكين والاقطاعيين الزراعيين والتجار . وشاركت في مختلف الفعاليات المدنية والفكرية ، في المناطق التي نزلتها . وإذا انصرفت القبائل الحديثة الهجرة عن الزراعة الى العمل العسكري فإن القبائل السابقة لها واشرافها خاصة قد تنهوا الى قيمة الأرض وإلى إحياء الموات منها . وقد اعتبر الحكم الاسلامي كافة الأراضي في البلاد المفتوحة ملكاً لبيت المال لا علاقة لها بالغنائم والتخسيس وتركت في أيدي من بقي عليها من أصحابها يؤدون عنها ضريبة الخراج . أما ما أعطى للعرب المسلمين منها بأمر الخلفاء في الفتوح فاعتبر أرضاً عشرية .

وقد دمرت الفتوح العربية الاقطاعات الساسانية والبيزنطية القديمة التي كانت ترتبط بالنبلاء وبالأسر الحاكمة وبالمعابد وردت تلك الملكيات باسم (الصوافي) إلى بيت المال أيضاً . ويمنح الخلفة أو يؤجر تلك الأرضين أو يضمونها لمن يشاء مقابل خراج معين يدفع للدولة . وكان معظم المستأجرين أو الضامنين من العرب . وتحرر أقنان تلك الأراضي الاقطاعية بهذا الشكل فأصبحوا مزارعين لدى الاقطاعي العربي الجديد يدفعون له من الانتاج حصته . ولم يكن ثمة قانون - كالقوانين الساسانية والبيزنطية - يجبرهم على الارتباط بالأرض لا يفارقونها بل كان ثمة بالعكس مهرب واسع لهم منها عن طريق اعتناق الاسلام .

ويظهر أن السلطات الاسلامية الحاكمة لم تتوسع في تملك الأراضي الخراجية وفضلت دوماً تأجيرها أو تضمينها ضمناً ، مما أغضب الجماعات العربية المتنفذة التي طمعت دوماً في توسيع اقطاعها وفي تملك ذلك

الاقطاع • ولما كانت الثورات من جهة وتحرر اقنان الأرض المزارعين وإسلامهم من جهة أخرى قد سمحت بهجرة زراع الريف بأعداد كبيرة الى المدن وبتفريغ الأراضي من المزارعين فقد اعتمد الكثير من المالكين على العبيد في العمل الزراعي • وقد استخدم الزنج خاصة في جنوب العراق • كما استغل هؤلاء الملاكون مرة – في العراق أيضاً – ثورة ابن الاشعث لاحراق الديوان وسجلات الأرض فيه وادعوا بملكية الأرض التي تحت ايديهم من الصوافي والأرض الخراجية^(١) • وأهمية مثل هذه الحركة تظهر إذا عرفنا أن الأرض المملوكة للعربي المسلم تدفع العشر ، عشر الاتاج بينما تدفع الأرض الخراجية ضريبة لا تقل عن ٢٥٪ وتصل أحياناً الى ٤٠ – ٥٠ بالمائة • ولنلاحظ أيضاً أنه إذا كان دخول الشعوب في الاسلام قد أنقص موارد الخزينة من الجزية فإن تحويل الأرض من الخراج والايجار والضمان الى الملك العشري – وهي العملية التي كان يقوم بها المتنفذون العرب بمختلف الوسائل – كان ينقص بدوره تلك الموارد من جهة أخرى • وقد عانت السلطات الاموية عواقب ذلك وكان من اسباب انهيارها •

وصورة التوطن العربي في العراق تماثل صورته في الشام وفي خراسان ومصر وافريقية • ولكننا نلاحظ أن التوطن الذي جرى على الجبهات الاسلامية الحربية البعيدة عن المركز خراسان وافريقيا والاندلس كان اكثر قلقاً ونقمة على السلطة الحاكمة واكثر حرية في العمل من العرب الذين توطنوا في الشام ومصر وحتى في العراق • وإذا كانت خراسان «... بها الناس وجمجمة العرب وفرسانها» كما يقول صاحب أخبار

(١) الماوردي – الاحكام السلطانية ص ١٨٢ •

الدولة العباسية^(١) فقد كانت قبائل عربية كاملة بالمقابل تضطرب في افريقية والاندلس . وفي جميع الأحوال كانت الطبقة القديمة من المتوطنين العرب قد فضلت التقاعس عن حياة الحرب والتحول الى حياة الاستقرار والاقطاع الزراعي دون أن تفرط بما هو مقرر لها من « عطاء المقاتلين » . وكان المتوطنون اللاحقون يأتون فيزاحمون السابقين على هذا العطاء حتى لقد اضطر الخليفة هشام بن عبد الملك أن يأمر والي خراسان بمنع العطاء عن من يرفض الاشتراك في الحملات العسكرية فيما وراء النهر ويعطيه المقاتلة الجدد مما أثار العرب القدماء وأوجد ضمن الكتلة العربية أحياناً مجموعتين اجتماعيتين - عسكريتين متنافستين: مجموعة المستقرين السابقين ومجموعة المقاتلة الجدد .

بل إننا نلاحظ أكثر من هذا أن نوعاً من التقارب والتعاون أساسه التقاء المصالح ، كان يجمع ، أحياناً كثيرة، ما بين الطبقات العليا من العرب والطبقات العليا من الموالي بل ومن الذميين أيضاً من سكان البلاد المفتوحة . وقد وجدت لذلك الفلسفة الاجتماعية الملائمة وقالوا إن الشريف من كل قوم نسيب للشريف من كل قوم . وهكذا ظل الدهاقين في إيران والرؤساء والوجوه في الشام ومصر تحت الحكم الأموي هم وجوه المجتمع ولو أن معظمهم لم يدخل الاسلام . وكانوا جميعاً على وفاق مع ما نستطيع أن نسميه بالارستقراطية العربية وقد تعاونوا معها وعاونوها وخاصة في تأمين الجباية وتنظيم الدواوين والسيطرة على التجارات والحرف .

وتأتي بعد العرب الطبقة الاخرى : طبقة **الموالي** .

(١) اخبار الدولة العباسية لمؤلف مجهول (تحقيق ونشر الدوري - المطليبي ، بيروت

وقد كانت في الاصل من الذميين (الزارادشتيين في المناطق الايرانية
المسيحيين في العراق والمناطق المحيطة بالبحر المتوسط) وقد شهد
القرن الأول تناقص اهل الذمة لحساب طبقة الموالي الجديدة التي توسعت
اعدادها تدريجياً ولكن بشكل مستمر واسع وحاسم بدخول سكان المدن
خاصة في الاسلام وتبنيهم أحياناً اللغة العربية مع لغاتهم السابقة .

ومن الضروري أن نقرر مبدئياً أن جماهير الموالي بصورة عامة
بل وأهل الذمة أيضاً كانوا يعيشون الحياة اليومية العادية مع العرب بكل
مكان دون احتقار من جانب ولا عقد من الحقد من الجانب الآخر . وكان
الموالي هم بشكل عام أصحاب الحرف والفعاليات الاقتصادية والوظائف
والعلم في المدن كما كانوا هم الزراع في الريف . إلا إن ثمة بعض الأخبار
والحالات التي كانت تكشف نوعاً من « التعالي » مارسه لسبب أو لآخر
بعض العرب ضد الموالي وخاصة من الطبقات الوسطى والدنيا . وكانت
هذه الحالات تسمح أحياناً كثيرة بإثارة وبتراكم الاحقاد العنصرية
والطبقية والطائفية لدى الموالي كما تمهد لقيام الشعوبية ضد العرب .
وكان يزيد هذه الاحقاد مرارة تغلغل مبادئ الاسلام في النفوس وتناقض
أعمال بعض العرب مع مبادئه القائمة على المساواة والعدل .

وأسباب التعالي لدى العرب كثيرة : فالعروبة شرف لا يطوله الموالي
الذين لم يظهر فيهم الاسلام ولا قاموا بالفتوح وليس لهم الحكم . ولهذا
كان بعض العرب يشعرون بأفضليتهم كعنصر مميز رغم التناقض بين
المبادئ التي بها يؤمنون ويشرون والمفاهيم العنصرية والقبلية التي
يمارسون .

ولم يتعال العرب على الموالي لجنسياتهم فقط ، ولكن لمهنتهم

أيضاً • فحرفة العرب : السياسة والحرب بينما يشتغل الموالي بالمهن اليدوية (على الاغلب) كالزراعة ، والصناعة ، وإذا استخدم الموالي في الاعمال الكتابية والحماية فانهم قلما تولوا الوظائف النبيلة كالولاية والقضاء أو قبلوا في الجيش إلا مشاة وأما الفرسان فمن العرب •

وكان التعالي العربي يظهر خاصة ضد الموالي من الارقاء السابقين • وقد أبى العرب مقاسمة الموالي وهؤلاء منهم على الأخص ثمرات البلاد التي يفتحونها معهم فلم يجعلوا لهم « العطاء » أي الرزق الدائم الثابت الذي يعطاه المقاتلة العرب ومنحوهم بعض الغنائم عند الجهاد فأهل الكوفة سخطوا على المختار لهذا كانه وقالوا له (عمدت الى موالينا وهم فيء افاءه الله علينا فاعتقنا رقابهم نبتغي الأجر ، فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا ؟) ويعلق (الطبري) على هذا بانه « لم يكن فيما احدث المختار عليهم شيء هو أعظم من أن جعل للموالي نصيباً في الفيء » (١) •

وشمل الاستعلاء احياناً ولد الاماء فكانوا يسمونه « الهجين لانه معيب » وكان بنو أمية لا يستخلفون بني الاماء (٢) ويقولون : « لاتصلح لهم العرب » •

وقد رضي الموالي مكانهم هذا من العرب اول الامر ، بفعل العاطفة

(١) الطبري ج ١ ص ٤٣ - ٤٤ وراجع في هذا الموضوع كتاب (الموالي في العصر الاموي) لمحمد الطيب النجار وكلمة (مولى في دائرة المعارف الاسلامية) •

(٢) مثال ذلك نزع بيعة الحكم بن الوليد بن يزيد ، وتردد سليمان بن عبد الملك في عقد الولاية لابنه داوود لانه ابن أمة ... الخ (انظر مثلاً ابن عساكر تاريخ دمشق (مخطوطة القاهرة) ج ٥ ورقة ١١٩ وجه ، ج ٦ ورقة ١٠ وجه) •

الدينية والتغلب العربي السياسي ولأن معظمهم لم يكن احسن حالات تحت الحكم الساساني والبيزنطي ولعل أقدم محاولة — على رأي غولد زيهر — في اوساط الموالي لرفض النظرية القائلة بافضلية العرب هي تلك التي جرت زمن معاوية (وهي محاولة في اسلوب معتدل وتقوم على اساس ديني) اذ ثار موالي الخوارج برئاسة أبي علي الكوفي مولى بني حارث وقال الثوار : « انا سمعنا قرآناً عجيباً يهدي للرشد فأمنا به » • وان الله بعث نبينا للناس كافة ولم يزوه عن أحد •

على ان الموالي خطوا خلال العهد الاموي خطوات واسعة في طريق التساوي مع العرب • وأهم ما اعتمدوا عليه ان يبرزوا في الناحية العملية والحياة العامة فقد كانت بأيديهم معظم وظائف الدولة الاساسية ومعظم الفعاليات الاقتصادية وان يبرزوا في الناحية العلمية الاسلامية خاصة لتعديل نقصهم الاجتماعي ، حتى كان معظم الفقهاء منهم • يتبين ذلك من الحديث الذي يرويه الدميري (حياة الحيوان الكبرى) (وابن عبد ربه في العقد الفريد يروي حديثاً مماثلاً)^(١) وقد جرى بين الخليفة عبد الملك والفقهاء الزهري اذ يسنّ الزهري للخليفة ان عالم مكة ، وعلماء اليمن ومصر والشام والجزيرة وخراسان والبصرة عدا الكوفة كلهم من الموالي • على ان ذلك لم يعطهم عند الامويين الحقوق السياسية • ولهذا السبب كانت جماهير الموالي الواعية لمبادئ التسوية في الاسلام والناقمة من الاستغلال الضرائبي رداءً وعدة جاهزة لكل حركة من الحركات السياسية والدينية ولكل فتنة • وقد دخلت لذلك في مختلف الاحزاب العربية • وإن لم تتوفر لدى هذه الجماهير أي طموح واضح للقيام بأي ثورة ذاتية أو تنظيمها بغية الاستقلال أو تغيير الاوضاع السياسية •

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٦٤ •

وأما أهل الذمة أخيراً فكانوا — فيما عدا أراضي الجزيرة العربية — هم الكثرة العددية الغالبة وبأيديهم الأرض والزراعة كما أن بأيديهم المهن والحرف في المدن وطبيعي أنهم كانوا يعتبرون رعايا ذوي وضع خاص، وكانت الجزية هي التعبير عن اختلاف طبقتهم الاجتماعية ضمن الدولة الإسلامية . كما كان ابتعادهم عن العمل السياسي الحزبي — الذي كان قاصراً على المسلمين العرب خاصة ثم الموالي — هو التعبير الآخر عن ذلك الاختلاف . إلا أنهم كانوا يتابعون حياتهم السابقة للإسلام في حرية كاملة في إطار العهود والمواثيق التي منحت لكثير من جماعاتهم عند الفتح . كما أنهم احتفظوا بتنظيماتهم الدينية فلمهم الرؤساء الروحيون ولهم المعابد ولهم ما اعتادوا من طقوس وتقاليد ومواكب وأعياد ، ولهم ما كانوا ينصرفون إليه من فاعليات اقتصادية متعددة ومن «وجاهات» اجتماعية متوارثة من أمثلتها أن برمك جد البرامكة قدم على هشام بن عبد الملك في الشام في موكب من ٤٠٠ من الشاكرية (الحرس على البغال) وهو لا يزال على الزرادشتية . وللذميين إلى هذا وذاك نشاطاتهم الفكرية الخاصة ولعل من أمثلتها الواضحة أن فيلسوف الايقونية وأبرز من دافع عنها ضد الأباطرة البيزنطيين اللا أيقونيين وهو يوحنا الدمشقي (فم الذهب) لم يكن لا في القسطنطينية ولا في بلاد الروم ولكن كان يعيش في دمشق وفلسطين في ظل الامويين ويتمتع بصداقة الخلفاء .

وإذا كان اختلاف الطبقة الاجتماعية للذمة لم يمنعهم من حرية النشاط الاقتصادي والفكري الكاملة فانه لم يمنعهم من التعاون مع الطبقات الحاكمة أوسع التعاون أحياناً وأبرز ما كان يظهر هذا التعاون في طبقاتهم العليا من رؤساء دينيين أو متمولين وملاكين كبار أو أسر أرستقراطية .

وكانت علاقاتهم مع الخلفاء والامراء الامويين علاقات من الصداقة الواشجة ومن التعاون في الادارة والحكم ولعلنا نذكر ها هنا دخول الأخطل بصليبه ومُخماره على الخليفة وتقاءه مع جرير والفرزدق ونذكر بناء بعض الامراء الكنائس لامهاتهم النصرانيات (مثل خالد القسري) •

٤ - التيارات السياسية - الدينية :

كان ارتباط الفكر السياسي بالدين ، في تلك الفترة ، أمراً طبيعياً • لذلك كان لكل تيار سياسي منبعه الديني وسنده من القرآن والسنة • وإذا كان الامويون قد حكموا بالقوة والسياسة والعصبة فإنهم - وهم في الحكم - لم يكونوا في غنى عن دعم خلافتهم بالسند الديني الذي كان يتمثل خاصة في مبدأين :

١ - أن الخلافة على أساس « السنة » وبرأي « الجماعة » الاسلامية قد صارت إليهم فهم على هذا وحدهم الحكام الشرعيون بيعة من الاكثرية المسلمة •

٢ - أن ما يتم على الارض فإنما هو بإرادة الله • لأن الانسان مسير لا مخير • وفلسفة الجبرية كانت تقوم في أساس الفكر الأموي ولو أراد الله غير ما هو كائن لفعل •

وقد أورد حمزة الأصفهاني في معرض الدفاع عن العلويين نصاً هاماً يكشف أسس الرأي السياسي الأموي ومعطياته يقول: «... وصوروهم (أي صوروا العلويين المناهضين للدولة) عند أعتام عرب الشام بصورة الخوارج على أئمة العدل • وقرروا عندهم أنهم شقوا العصا وأخرجوا أيديهم من الجماعة وحاولوا انتزاع الامامة من إمام ولي عهد إمام، طامعين في أن يغصبوه على حق موروث جعله من تقدمه أولى به منهم ... حتى

ما ن عليهم (على العلويين) أولئك الاعتام باللعن والافتراء وقالوا لهم :
« تبأ لكم من معشر مفارقين للسنة والجماعة ، عاصين لخليفة الله • ثم
غبروا قريباً من مائة سنة (مدة الحكم الأموي) يحذرون الناس ناحيتهم ،
يغضونهم الى النفوس وينهون عن ملابتهم والاختلاط بهم »^(١)
ولا شك ان هذا الرأي هو الذي كان سائداً في العهد الأموي لا في الشام
فحسب ولكن في مختلف الأقطار وخاصة في مصر وافريقيا حيث كان
خلفاء بني أمية هم « الأئمة » وأصحاب « السنة والجماعة » و « أولو
الأمر » الذين تجب لهم « الطاعة » ويبدو أن الدعاية الأموية وصلت لدرجة
الادعاء بأن ثمة « سفيانياً » لا بد آت أو ان « المهدي » المنتظر هو من
بني عبد شمس • أو انه عسر بن عبد العزيز^(٢) وذلك في محاولة
لسلب المعارضين واحداً من أهم أسلحتهم •

أما التيارات المعارضة فكانت تمثل مجموعات قليلة أو كثيرة من
الناس موزعة في بؤر خاصة من المجتمع الاسلامي بالملئات أحياناً وبالألوف
أخرى لكنها لا تمثل « الجماعة » • وإن كان لكل منها منطلقه السياسي
الديني أيضاً وكان لها من الأنصار من هو على استعداد أحياناً كثيرة
للموت دونها •

وقد كانت هذه الحركات والتيارات عديدة ويلاحظ انها جميعاً كانت
تشكل في مطلع الأمر من الطبقة الحاكمة (العرب) خلافاً فيما بينهم حول
شخص الحاكم ونظام الحكم • وذلك بنتيجة الطريقة التي وصل بها

(١) حمزة الاصبهاني ، تاريخ سني ملوك الارض طبعة مكتبة الحياة - بيروت (١٩٦١)

ص ١٦٠ - ١٦١ •

(٢) روى ابن سعد في الطبقات الكبرى (٥ - ١ ص ٢٤٥) كما روى الطبري (ج ٦ ص

٥٦٦) شيئاً من ذلك •

الامويون الى خلافة المسلمين ، ثم يدخلها الموالي ايساناً بها أو لمآرب أخرى من ورائها . وكان زعماء هذه الحركات يستغلون — مع الايسان — أوضاع الموالي الاجتماعية وما كان من سوء ادارة الامويين فيهم أحياناً ومن قسوة النظم المالية الجائرة ، لضمهم الى صفوفهم . وقادة «الشعوية» الاوائل كانوا عامة من العرب الا بعضاً منهم .

والتيارات السياسية — الدينية الكبرى التي لعبت بالعهد الاموي وكانت السبب الأهم في اضطراباته هي :

أ - الشيعة :

أصل معنى اللفظ أنصار ، وقد اطلقت الكلبة أول الأمر على اتباع علي ولكن بعد وفاته . يقول الاشعري : « قيل لهم الشيعة لانهم شايعوا علياً رضوان الله عليه » وقدموه على سائر أصحاب رسول الله « لمزاياه الشخصية أو لاعتقادهم بحقه الوراثي في خلافة المسلمين » ثم أضحت الشيعة « اسماً للحزب الذي يشايح ابناء علي ويقول بالارث في الحكم ، وبحق آل البيت في هذا الارث » .

وقد سقي هذا الرأي بالدماء في موقعة كربلاء . فتحول من رأي سياسي نظري الى عقيدة إيمانية وحدث ما بين الشيعة على اختلاف فرقهما وسرعان ما دخلت الى هذه الافكار البسيطة أفكار أخرى لا سيما بعد أن ربطت الحسين بالفرس رابطة المصاهرة . فظهرت في التشيع فرق عديدة يمكن أن نقسمها الى قسمين :

أ — فرق المعتدلين : ويقولون — حسب ماذكر الشهرستاني — ،

والكليني في أصول الكافي — ان الامامة بالنص لا بالاختيار وانها في آل علي • ومن هؤلاء بصورة خاصة :

الزيديون : (انصار زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب)
وقد برزت فرقهم في أواخر العهد الأموي • وهم الذين نجد بقاياهم اليوم في اليمن •

ب — فرق الغلاة : تعددت فرق الغلاة والمتطرفين من الشيعة في العصر الأموي وكانت أهم مناباتهم في البصرة والكوفة • فمنهم أصحاب الجعد بن درهم وأصحاب بيان بن سميان، وأصحاب المغيرة بن سعيد العجلي • ومنهم الخناقون والرافضة والجناحية والبشيرية والخطابية والعسيرة والبزيعية والمفضلية والمعصرية • وقد تعددت الفرق غلواً أو تطرفاً رغم تبرؤ آل البيت من الغلاة • ونفقت بعض الفرق على الناس لاستتارها بالزهد أو ببعض النظريات الفكرية أو بتفسير بعض آي القرآن على نحو خاص • وبنتيجة كل أولئك جاء الغلاة بآراء غريبة في الاسلام •

ويرى بعض المستشرقين ان « هذه الافكار التي نشأت في مبدأ أمرها في البيئات غير العربية انما كانت بقية من عبادة الملوك ، التي كانت معروفة لدى الفرس ، بعد أن خالطها بعض العقائد الشرقية » ولعل الاصح ان نقول ان حركة الغلو كانت استمراراً لحركات دينية ظهرت في ايران وانتشرت في العراق قبل الاسلام ، كما ان بعضها امتداد للآراء الدينية القديمة من مجوسية وبوذية ومزدكية ومانوية عند أناس أسلسوا لاغراض مختلفة فكسوا آراءهم الحقيقية الثوب الاسلامي • وهي تمثل سخط الطبقات الدنيا المثقلة اجتماعياً ومالياً من جهة ، ورد فعل الديانات التي غمرها الاسلام من جهة أخرى •

وأول فرق الغلاة : (السبئية) اتباع عبد الله بن سبأ ولهذا يطلق

اسم السبئية على كل الغلاة • وهم — في رأي سيف بن عمر — أصل
البلاء في الاسلام • ومنهم تشعبت كما يذكر الشهرستاني أصناف الغلاة •

وأول ما قامت عقيدة السبئية على مذهب الوصاية الذي اقتبسه
ابن سبأ عن اليهودية ، دينه القديم ، بمعنى ان علياً وصي محمد (ص)
وانه خاتم الانبياء بعده • ثم تطورت الفكرة في السبئية الى القول بفكرة
تجسد الالهية • فهم يزعمون ان جزءاً الهياً حل في علي وهذا الجزء
الاهي يتناسخ في الأئمة من بعده • وقد لا يظهر ذلك الجزء في العالم دوماً
بل يجوز ان يعود إلى مهبطه السماوي (الغيبة) حتى يتجسد في شخص
آخر (الرجعة) ويرى الشهرستاني ان هذه الآراء مأخوذة من المزدكية ،
والبرهمية الهندية ، والفلاسفة والصابئة^(١) •

وقد كان موطن السبئية : الكوفة وما حولها • وأكثرهم من الموالي
وقليلهم من العرب ، وأول ما ظهرت أهميتهم السياسية في
حركة المختار بن ابي عبيد الثقفي (٦٤ — ٦٧ هـ) اذ استمال
الموالي والسبئية وعرف بعض مبادئها • ولم تمت الحركة بانهار ثورته
بل بقيت في الطبقات الدنيا وسرى لها اتفاضة أخرى في مطلع العهد
العباسي •

وبنتيجة حركة المختار ظهرت الكيسانية (انصار كيسان وهو اسم
المختار^(٢)) ومبادئها الاساسية متصلة بالسبئية لكنها تغلو فتنسب الى
الأئمة الاحاطة بالعلوم الالهية • وتذهب الى ان محمداً بن الحنفية قد

(١) يرى السبئية ان ابا ملجم لم يقتل علياً ولكنه قتل الشيطان • وان علياً يزور الارض
على السحاب والرعد صوته •

(٢) يذكر الاشعري القمي في المقالات والفرق (ص ٢١) ان كيسان مولى لعلي بن ابي
طالب وأنه غير المختار بن ابي عبيد الثقفي •

احاط بالعلوم كلها لان اخويه الحسن والحسين عهدا اليه بالاسرار كلها وتعلم التأويل والباطن • واتتهى اعتقادهم الى وجوب انفراد الامام بتأويل الشرع (ويجمعهم القول بان الدين طاعة رجل) - كما ذكر الشهرستاني - حتى قال بعضهم ان طاعة الامام تبطل ضرورة التسك بقواعد الاسلام • وتتفق الكيسانية مع السبئية في القول بالرجعة ولكن الفرق هو اعتبار الامام جزءاً من الاله او رمزا للعلم الالهي •

ومن هذه الكيسانية تفرعت الهاشمية ، القائلون بانتقال الامامة من محمد بن الحنفية الى ابنه (ابي هاشم) عبد الله اذ عهد محمد الى ابنه باسرار العلم • ويذكر الشهرستاني ان الهاشمية قالوا : « ان لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً • والمنتشر في الآفاق من الحكم والاسرار مجتبع في الشخص الانساني وكل من اجتبع فيه هذا العلم فهو الامام حقاً » • وقد ساعد تطرف الهاشمية هذا على تسرب كثير من الافكار الدينية القديمة اليهم • كما أدخل بينهم كثيراً ممن اسلم لطبع او لخوف دون فهم للدين • اذ وجدوا في التأويل توفيقاً بين عقائدهم الاولى وهذه العقيدة الجديدة •

واذا تورع الأئمة عن قبول ادعاءات المغالين وبرئوا منها او حاربوها فان ابا هاشم كان طموحاً فحاول الاستفادة منها • ويعتقد (فان فلوتن) « انه أول من نظم الدعوة وشجع شعور التقديس للامام والآراء المتعلقة بالتأويل » ويذكر ابن عبد ربه انه قام بأمر الشيعة وانهم كانوا يأتونه « ويقوم بأمرهم ويؤدون اليه الخراج » •

وقد ولد الحكم الاموي مع الخصومة الشيعية في مهد واحد وإذا استطاع معاوية ان ينتصر سياسياً على علي ويأخذ لقب الخليفة حتى في

حياته : فان خلفاء معاوية قاوموا بالقوة والدم حركات الشيعة ثورة بعد ثورة . وقد كانت « كربلاء » سنة ٦١ فاتحة السلسلة .

ولعل أهم الحركات الشيعية ، في العهد الاموي من بعد ذلك حركة التوابين سنة ٦٥ هـ للأخذ بثأر الحسين وثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي سنة ٦٦ ثم تلك الحركة الثورية التي قام بها زيد بن علي بن الحسين بن أبي طالب سنة ١٢١ أو سنة ١٢٢ . وإذا كانت فترة الهدوء طويلة بين التاريخين فإنما يعود ذلك من جهة إلى اسباب الارهاب والشدة التي أخذ بها الأمويون شيعة آل البيت وإلى تفضيل البارزين من آل علي سبيل الدعوة السرية (كأبي هاشم بن محمد بن الحنفية) أو الهدوء (كمحمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين ، ثم ابنه جعفر الصادق من بعده) .

وقد ظهرت ثورة زيد بن علي (وهو أخو محمد الباقر) في الكوفة زمن هشام بن عبد الملك ويبدو أن زيدا اعتبر نفسه الامام بعد وفاة أخيه (التي تمت ما بين سنة ١١٤ - ١١٧) ولم يقبل أتباع الباقر بمشايعته كما ان اتباع محمد بن الحنفية كانوا قد انضموا مع الجماعة الهاشمية في الدعوة السرية العباسية ، لذلك لم يلق زيد الكثير من التأييد الشيعي . وحين أرسل هشام بن عبد الملك جيشه بقيادة يوسف بن عمران الثقفي لم يصمد أنصار زيد للمعركة ، فقتل زيد وصلب على باب الكوفة مدة طويلة (١) .

يقول الطبري « ... ولما قتل زيد عمد رجل من بني أسد الى يحيى ابن زيد فقال له : قتل أبوك وأهل خراسان لكم شيعة فالرأي أن تخرج

(١) يذكر ابن الأزرق الفارقي في تاريخ ميفارقين (مخطوطة المتحف البريطاني رقم ٥٨٠٣ ورقة ٧١ وجه) أنه « بقي مصلوبا حتى عششت (العصفير) في صدره » .

إليها»^(١) . وخرج يحيى متخفياً إلى هناك وقد استطاع نصر بن سيار إخراجه من مكنه وأمنه بأمر الخليفة الوليد بن يزيد وأمر له بمال وهدايا على أن يسير إلى الخليفة فلا يقيم بخراسان ولكن يحيى ثار في الطريق فبعث إليه نصر بن سيار من قاتله حتى قتل سنة ١٢٥ .

إلا إن كثرة الدماء وتكرر الفشل وقوة السلطان الأموي زادت كثيراً من حذر العلويين كما زادت خبرتهم مع الزمن في أساليب المقاومة السلبية وفي بث الدعوة السرية وقد استفادوا بمهارة فائقة من شهدائهم، في استدرار العطف على آل البيت المضطهدين ، ومن مساويء الحكم الأموي : في ضم الانصار . ولهذا كان الشيعة أخطر الأحزاب في وجه خلفاء دمشق لأنهم :

آ - أثاروا الاستياء العام ضد الأمويين في كل أمر وأظهروهم خاصة ككفار يضطهدون آل البيت (آل محمد) .

ب - أعطوا الحركات السياسية المعارضة للأمويين قاعدتها الفكرية الواسعة ووضعوا لها المبادئ النظرية .

ج - أتاحوا للسوالي والفرس منهم خاصة إبراز أفكارهم الدينية الأولى في ثوب إسلامي .

د - باسهم وعلى يد أنصارهم صار تهديم العرش الأموي .

(١) الطبري ج ٧ ص ١٨٩ ثم ص ٢٢٨ - ٢٢٠ + ١٧٢٢/٢ ثم ١٧٧٠ فما بعد .

ب - الخوارج :

وهم تلك الفرقة التي ظهرت بين أنصار علي وهو عائد من صفين ، وخالفته في قبول التحكيم . وسواد هذه الفرقة - كما يلاحظ الباحثون - كان من العرب البدو ومن أهل الردة الذين نزلوا الكوفة والبصرة بعد الفتوح الاولى ومن الجساعة التي قتلت عثمان . ويرى (نيكلسون) ان الدافع الاساسي للحركة الخارجية دافع ديني برغم ما يشوبه من المظهر السياسي . والواقع ان نشأة الخوارج سياسية اقتصادية محضة . وقد كانت حركتهم الاولى نوعاً من النقمة البدوية على ما استأثر به القرشيون من الحكم والغنائم والخراج والثروات بعد الفتح لأنهم فهِسوا الاسلام على انه التسوية فرفضوا وقاوموا التميز القرشي . وقد ظلت افكارهم سياسية حتى خلافة عبد الملك بن مروان اذ مزجوا بها بعض الابحاث الدينية . وصيحة (لا حكم الا لله) التي كانت صيحتهم الاولى والتي كانت تحمل بالضرورة من المعنى الديني بقدر ما تحمل من المعنى السياسي والاقتصادي لم يكن لها من مؤدى عند التطبيق في اول الامر ، سوى تحكيم السيف .

ويرى بعض المستشرقين والكتاب ان الخوارج يشلون الحركة (الديمقراطية) في الاسلام لانهم يعتقدون ان الخلافة حق لكل عربي حر . ومنهم من ادخل على هذه الفكرة بعض التعديل - بعد دخول الموالي في الحركة - فاشتراط الاسلام والعدل بدل العروبة والحرية . وهم بهذا الشكل ، جساعة اليسار (وفيهم المعتدل والمتطرف) . مقابل الشيعة حزب اليمين (وفيهم بدورهم المعتدل والمتطرف البعيد التطرف) . واذا التقى الشيعة والامويون حول نقطة القبول ببدأ الوراثة في الحكم فهؤلاء الخوارج خالفوا الطرفين لأنهم جعلوها شوري دأسة في كافة المسلمين .

ثم انهم اعتقدوا ان العسل جزء من الايمان • فمرتكب الكبيرة ،
رغم ايسانه ، كافر ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض من الفروض ••
وهكذا صبح تعصبهم السياسي وجهة نظرهم الدينية ، فتطرفوا في الدين
تطرفهم في السياسة ، ورموا بالكفر وعاملوا معاملة الكفار ، كل من لا يقول
بنظريتهم المتطرفة •

وقد انقسم الخوارج فرقا عديدة تزيد في رأي البغدادي صاحب (الفرق
بين الفرق) على عشرين^(١) ولكن الكبرى منها أربع أو خمس وتنسب
كل منها إلى اسم صاحبها لانفراده برأيه الخاص • وهي بترتيب التساهل
فالغلو :

أ – الصفرية وينسبون إلى عبد الله بن صفار التميمي او زياد بن
الأصفر لكن « اكثر المتكلمين – في رواية المبرد – يرون أنهم الذين
اصفرت وجوههم لما نهكتهم العبادة » • وهؤلاء هم جبهة القعدة الذين
لا يرون ضرورة كبرى للقتال •

ب – الاباضية أصحاب عبد الله بن إباح المري وهم لا يكفرون
بأقبي المسلمين ولا يستحلون دماءهم • (وبقاياهم اليوم في عمان وشمال
افريقيا) •

ج – البيهسية أصحاب أبي يهس الهيصم بن جابر •

د – الأزارقة وهم أرومة الخوارج الأساسية ، أصحاب نافع بن
الأزرق الحنفي ويعتبرون اكثر الفرق تشدداً واستحلالاً لدماء باقي
المسلمين •

(١) انظر البغدادي – الفرق بين الفرق (مطبعة المعارف بمصر ١٩١٠) ص ٥٥

وهناك كذلك فرقة النجدات أتباع نجدة بن عطية الحنفي الذين لا يرون ضرورة لاقامة إمام للمسلمين . . . ولكل فرقة من هذه الفرق فقه خاص ، ولها مباحثها في مسائل القرآن والعلم والاثر والسير لكنها تتفق جميعاً من الناحية السياسية على رفض الحكم الأموي ووجوب الثورة على الظالمين . حتى القعدة منهم يرون أن الاصل هو الخروج لحرب الباطل والمفسدين والجور .

وقد حارب الخوارج الحكم الأموي باندفاع واصرار لا يصدران إلا عن اصحاب العقائد الراسخة ، حاربوه منذ معاوية حتى مروان بن محمد . واستأثروا بمعظم جهد الحجاج في العراق لان ثورتهم الكبرى كانت فيما بين حران وجنوبي العراق واطراف ايران الغربية . فلما كسرت شوكتهم مرة بعد مرة أيام عبد الملك بن مروان : بالتشردم الذي أصابهم يوم « المحنة » أواخر سنة ٦٤ بعد أن انهزموا أمام اهل البصرة إلى الاهواز وانتشقوا على ابن الازرق فرقاً . . . ثم جاءتهم ضربات المتتالية بقتل نافع بن الازرق سنة ٦٥ وطرد جماعته الى فارس وصحاري كرمان ثم بحروب المهلب بن أبي صفرة وسحق تمرداتهم أيام الحجاج مرة بعد مرة خلال اكثر من خمس عشرة سنة ثم بمقتل نجدة بن عامر من قبل الخوارج انفسهم بعد أن امتد نفوذه ما بين البحرين واليمن . ثم بانقسام جماعة قطري بن الفجاءة وسقوطه قتيلاً في طبرستان سنة ٧٧ وانهزام شبيب الخارجي الى الاهواز وغرقه في نهر دجيل في تلك السنة نفسها . . كل ذلك جعل الخوارج يتمزقون على الآفاق فرقاً صغيرة توزعتها الارض الاسلامية في فارس وكرمان ومكران وارمينية واذريجان وسجستان وخراسان ، في عملية نبذ وابتعاد عن المركز . . .

وقد خمدت ثوراتهم الى حين بينما كان دعائهم يتغنون مواطن

جديدة • ونجدهم في نهاية القرن الاول ومطالع الثاني الهجري : في خراسان وكرمان وفي عسان واليمن كما يظهرون أقوياء في افريقيا • ولم تعد القضية بالنسبة إليهم الآن هي قضية « الخلافة » والحكم ولكنهم كما لاحظ (فان فلوتن) في هذه المرحلة الثانية « نصبوا انفسهم حماة للضعفاء والمضطهدين وحرباً على المستبدين والطفاة » • واضحى الجهاد بين الامويين والخوارج (بل بين الامويين وجميع الاحزاب المناوئة لهم اذ ذاك) جهاداً اجتماعياً دينياً يدور حول عدم الرضا بأي حكومة جائرة • واضحى خوارج هذه الفترة يحاربون بسيف الدين ويقارعون بحجج الاسلام لمبادئ اجتماعية - سياسية معينة ويتفقون أحياناً مع بعض العلويين فيبايعونهم بعد ان كان نزاعهم الاصلي نزاعاً يكاد يكون « شخصياً » محضاً ينحصر في شرعية خلافة اشخاص معينين (علي او معاوية أو أخلافهما) •

وقد تكاثر الخوارج في عهد مروان الأخير في شمال العراق بخاصة بين قبائل بكر وشيبان • وحين قتل الوليد بن يزيد خرج سعيد بن بحدل الشيباني في مائتي رجل بارض كفر توثا وخرج بسطام البيهسي في عدد من بني ربيعة ، في الجزيرة أيضاً • وقد اقتتل سعيد وبسطام فيما بينهما فقتل بسطام ومضى سعيد الى العراق لاضطراب الأمر ، واقتتل اليمنية والمضرية في الحيرة والكوفة ... ولكن سعيداً مات بالطاعون وخلفه الضحاك بن قيس الشيباني الذي استطاع سنة ١٢٧ أن يدخل الكوفة رغم اتفاق قيس ويمن عليه مع جند الشام ثم حاصر مدينة واسط وتسكن سنة ١٢٨ من ان يستولي على الموصل ثم اتجه الى الجزيرة فحاصر نصيبين ومعه ١٢٠ ألفاً بين فارس وراجل يصدق عليه الرزق • ونزل بعض قواده على الرقة في وادي الفرات الاوسط • مما اضطر مروان بن محمد أن يأتي إليهم بنفسه • وسقط الضحاك قتيلاً في المعركة التي جرت بأرض

كفر توثا سنة ١٢٨ و طاف مروان برأسه في الجزيرة (١) .
وطاردتهم مروان بعد ذلك الى الموصل ثم الى جنوب العراق، فلم يزل
قواده في اتباعهم حتى دخلوا فارس والاهواز واستطاع شيبان بن عبد
العزيز اليشكري الذي خلف الضحاك في الزعامة أن يلحق مع جماعته
بالبحرين وعمان فيستقر هناك ...

بينما استقر آخرون بزعامة شيبان بن سلمة (الصغير) في سجستان
حيث تخالفوا مع عبد الله بن معاوية حفيد جعفر بن ابي طالب وبايعوه
فلما هزم وهزموا هناك انصرفوا فبعض الى السند وبعض الى خراسان .
ولم تهدأ نائبة الخوارج بذلك إذ سرعان ما اضطر مروان لأن يقاتل
خارجة أخرى منهم هو أحد زعمائهم المشهورين في التاريخ . أبو حمزة
الخارجي (٢) (واسمه المختار بن عوف الازدي السلمي) وأصله من البصرة
وكان خطيباً ، شديد التدين شجاع الفتكة . ثار الرجل في حضرموت
بعد ان تحالف وبايع لعبد الله بن يحيى (طالب الحق) في اليمن في أواخر
سنة ١٢٨ ثم سار الى الحجاز سنة ١٣٠ فبسط سلطانه عليه ووصل المدينة
فقاتله أهلها ومن فيها في معركة (قديد) فهزمهم ودخلها ثلاثة أشهر
(أواسط صفر سنة ١٣٠ وشهري ربيع وبعض من جمادي الاولى) وتعد
خطبته فيها نموذجاً للفكر الخارجي في هذه الفترة الأخيرة من العصر
الأموي . وقد حاول ابو حمزة وأصحابه المسير إلى الشام حتى ارسل
عليهم مروان بن محمد قائده : ابن عطية السعدي فرد أبا حمزة في وادي

(١) تفصيل خبر الضحاك لدى الطبري ج ٧ ص ٣١٦ - ٣٢٣ و
٣٤٤ - ٣٤٨ ثم ٣٥٠ - ٣٥٣ (١٨٩٨/٢ - ١٩٠٨ ، و ١٩٢٨ - ١٩٤٢)
ثم ١٩٤٥ - ١٩٤٨ .

(٢) تفصيل خبر ابي حمزة الخارجي ودخوله الحركة الدينية لدى
الطبري ٣٧٤/٧ و ٣٩٤ - ٤٠٢ ، (٢٠٠٨/٢ - ٢٠١٧) وانظر نص
خطبته الهامة هناك ص ٣٩٥ وما بعد .

القرى وقتله ثم أجلى الخوارج عن المدينة ثم عن مكة ولحق بهم الى اليمن حيث عتل عبد الله بن يحيى عند صنعاء وبعث برأسه وبابنه الى مروان..

ولم يصف هذا النصر صفاء كاملا للخليفة مروان بن محمد فقد قتل ابن عطية وهو عائد يريد الحج في بضعة نفر من أصحابه • قتل بعض الأعراب ..

وهكذا برغم كل الدماء والجهود التي بذلها الخوارج ، لم يكن لعملهم في النهاية سوى أثر سلبي • اذ لم يستطيعوا أن يقيسوا خلافتهم المثالية في مناطق واسعة . ولا مدى طويل وإن تركزوا في مناطق الاطراف ، القصية مثل سجستان وعبان وافريقية (ما بين طرابلس والمغرب) • ولكنهم ساعدوا على إضعاف الدولة الاموية من ناحيتين :

أ - أضعفوا قواها العسكرية وشغلوها في فترات حاسمة من تاريخها •

ب - ساعدوا على تألب الناس ضد الامويين ، ومهدوا بأفكارهم لاثارة الموالى . ولجعل الجباهير اكثر استعداداً لقبول الدعوة العباسية •

ج - المرجئة :

اسم المرجئة جاء من الارجاء أي التأجيل بمعنى أن هذه الفئة ترجىء الحكم على العصاة الى اليوم الآخر • ولعل التسمية إنما ترجع إلى الآية القرآنية الكريمة (وآخرون مرجون لأمر الله ، إما يعذبهم ، وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم) •

ولم يكن المرجئة حزباً كوته حادثة معينة أو عقيدة محددة • ولكنهم جماعة تشكلت تدريجياً خلال الاحداث السياسية في العصر الاموي ، واتخذت موقفاً سلبياً منها في الغالب ، بررته بأفكار دينية •

وليست لدينا نصوص أصيلة تكشف بصورة دقيقة عن عقيدة المرجئة • ولعل أقدم تنفة تتناول الكلام عنهم قطعة شعرية للشاعر (ثابت قطنة) نظمها في عهد عبد الملك بن مروان يقول فيها :

نرجي الامور إذا كانت مشبهة •	ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الاسلام كلهم	والمشركون استووا في دينهم قددا
ولا أرى ان ذنباً بالغ احدا	م الناس شركا اذا ما وحده الصمدا
لانسفك الدم الا أن يراد بنا	سفك الدماء طريقا واحدا جددا
من يتق الله في الدنيا فإن له	أجر التقى اذا وافى الحساب غدا
وما قضى الله من امر فليس له	رد ، وما يقض من شيء يكن رشدا
كل الخوارج مخط في مقاتته	ولو تعبد فيما قال واجتهدا
اما علي وعثمان فانهما	عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
وكان بينهما شغب وقد شهدا	شق العصا ، وبعين الله ماشهدا
يجزي علياً وعثماناً بسعيهما	ولست ادري بحق اية وردا
الله يعلم ماذا يحضران غداً	وكل عبد سيلقى الله منفردا

وهذا النص الثمين يكشف لنا المبادئ الدينية السياسية لهذه الجماعة التي كانت لا تفرق صحة الايمان بالعمل • وفي هذه النقطة بالذات نلمس الخلاف الأساسي بين المرجئة وبين الخوارج • ثم انهم يخالفونهم وأنصارهم في نقطة أخرى هي عدم تكفيرهم الخلفاء الثلاثة : عثمان وعلياً ومعاوية وأنصارهم ، اذ لا يمكن تكفير من آمن بوحداية الله • والله وحده هو الديان •

والمرجئة بنتيجة هذا الرأي يجهرون بأن جميع المسلمين اخوه في الدين . وقد سوى الايسان بينهم . وهذا هو الوجه الجتماعي لهذه الفئة . إذ أضحى كل ما تنشده هو العودة الى المبدأ الاسلامي في (التسوية) بين الشعوب . ف (إنا المؤمنون اخوة) . والعامل بين المسلمين بكتاب الله وسنة رسوله .

وأما في الرأي السياسي فإذا جاز لنا أن نعتبر الشعار الذي رفعه الحارث بن سريج وأصحابه في ثورتهم بخراسان وما وراء النهر مثلاً لرأي كافة المرجئة وأن نعتبر أعمالهم وتصرفاتهم نموذجاً للأراء السياسية التي يؤمنون بها فإن هؤلاء طالبوا « بالبيعة للرضا » من المسلمين أي طالبوا بحكم ترضى عنه الأكثرية . وقد ثاروا على الأمويين لأنهم ظلوا وأسأؤوا ثم هادنوهم حين وعدوا بالعدل واتباع الكتاب والسنة . فهم إذن يطالبون بمن يرضاه المسلمون عامة لأنفسهم سواء كان من الأمويين أو من آل النبي أو من الناس شرط الحكم الاسلامي ويرون الثورة بالسلاح على الحاكم الجائر وإن كانوا لا يستحلون الدماء إلا بعد الجدل والدعوة والاقناع^(١) .

(١) بروي الطبري (ج ٧ ص ١٠٠/٢-١٥٧٥-٧٦) قصيدة هامة لنصر بن سيار . والي خراسان والخصم السياسي للمرجئة يقول فيها ضدهم وضد الحارث بن سريج الشار خاصة :

فامنح جهادك من لم يرج آخرة وكن عدواً لقوم لا يصلونا !
واقتل مواليهم منا وناصرهم حيناً تكفرهم . والعنهم حيناً
والعائبين علينا ديننا وهم شر العباد إذا خابرتهم ديننا

وإذا لم تكن ها هنا بحاجة إلى التوسع في أفكار المرجئة فمن
المؤسف أن كتاباتهم ، فيما عدا القليل من التنف ، قد ضاعت
وضاعت معها المواد اللازمة لعمل موازنة كاملة دقيقة بين تعاليمهم
وتعاليم الفرق الاخرى المعاصرة لهم أو بين تعاليمهم والتعاليم التي قد
يكونون تأثروا بها . وقد شوهت الشائعات ذات الجذور السياسية
الكثير من أفكارهم ومواقفهم .

وإذا كان الأرجاء قد ظهر بالشام فإن آثاره ظهرت في أقصى الشرق،
في خراسان . وإذا كان كثير من المرجئة قد انضم للحركات المختلفة التي
قامت ضد بني أمية ، فإن حركة خاصة بالمرجئة قد انبعثت من خراسان
يقودها تقي ورع مصلح اسمه الحارث بن سريج ظل ثائراً حتى مات سنة
١٢٨ هـ ولم تنته حركته بموته اذ لم يسض عام واحد حتى ظهرت الثورة
العباسية على أعقابها .

وقيمة المرجئة كحزب سياسي ، لم تزد على أن اوضحت للسوالي .
وخاصة في خراسان ، أن روح الاسلام ومبادئه لا تتفق مع السياسة
الأموية .

د - المعتزلة :

وقد كان للمعتزلة والاعتزال دورهم السياسي الديني في العهد
الأموي . ولو أن الظاهر العام يعطيهم الطابع الفكري وينأى بهم عن
أجواء السياسة .

لبعد ما نكبوا عما يقولونا ...
فأنتم أهل اشـراك ومرجونا
إذا كان دينكم بالشرك مقرونا ...

والقائلين سبيل الله بفيتننا
ارجاؤكم لركم والشرك في قرن
لا يبعد الله في الاجداث غيركم

يروى ابن خلكان^(١) أن اسم المعتزلة إنما أطلقه قتادة بن دعامة السدوسي . الأعشى حين تلسس طريقه إلى حلقة الحسن البصري في مسجد البصرة فوقع على جساعة عمرو بن عبيد يتناقشون في ذات الله وصفاته والوعد والوعيد فقام عنهم يقول : إنما هؤلاء المعتزلة ! (اعتزلوا طريق الجساعة من المسلمين) والمشهور الذي يرويه الشهرستاني^(٢) أن رجلاً سأل الحسن البصري في مرتكب الكبيرة كافر هو أم مؤمن (فجعله الحسن منافقاً) واعترض تلميذه واصل بن عطاء وقال إنه غير مؤمن ولا كافر في منزلة بين المنزلتين ولما اختلف مع استاذة اعتزل عنه إلى اسطوانة أخرى في المسجد فقال الحسن : اعتزل عنا واصل فحصلوا الاسم .

وإذا أدرك الحسن البصري عهد عمر بن الخطاب فقد اشتهر في عهد عبد الملك بن مروان وهشام ابنه وتوفي سنة ١١٠ هـ . وجذور عدد من الأفكار التي قال بها الحسن البصري وواصل بن عطاء إنما نبتت في دمشق على يد أمثال : غيلان الدمشقي ومعبد الجهني قبله وقد تكلم هؤلاء في القدر ونفوه وبالغ غيلان في ذلك حتى صلبه هشام بن عبد الملك على باب دمشق . ولعل في آرائه ظلاً من التأثير بآراء معاصر له دمشقي كان من كبار علماء اللاهوت المسيحي هو يحيى الدمشقي الذي كان من دعاة حرية الإرادة فالخير من الله والشر من العبد كما كان ننفي — كما ننفي المعتزلة — الأساء والصفات عن الله لأنه من المتعذر أن يدرك المحدود (الإنسان) اللامحدود (الله) .

على أن آراء المعتزلة الأخرى تكونت فيما بعد وتركزت أصول

(١) ابن خلكان — وفيات (طبع احسان عباس — بيروت) ج ٤

ص ٨٥ (ترجمة ١٥٤١ . .)

(٢) الشهرستاني — الملل والنحل ج ١ ص ٤٨ (طبعة الباني-١٩٦١) .

الاعتزال في خمس مسائل : التوحيد ، العدل ، الوعد والوعيد ، المنزلة بين المنزلتين • الامر بالمعروف والنهي عن المنكر • وابن حزم يجعل هذه الأصول الخمسة على الشكل التالي : القول بخلق القرآن • نفى رؤية السعداء لله تعالى يوم القيامة • نفى القدر • القول بالمنزلة بين المنزلتين • نفى الصفات •

ويسمى المعتزلة أنفسهم أهل التوحيد أو أهل التوحيد والعدل • لأنهم يعتبرون فكرتهم عن وحدانية الله وعن عدله أسمى أفكارهم وهو منفذ وعده ووعيده لأن الانسان هو خالق عمله ومسئول عنه • وينفون عن الله الصفات لأنه ليس كمثله شيء ، والجعد بن درهم أول من نفى الصفات ثم أخذ عنه مقالته الجهم بن صفوان وعن طريق هذه الفكرة ظهرت الفكرة الأخرى القائلة بخلق القرآن لأن الله قديم ولا يسكن أن يكون كلامه إلا حادثاً بعده فلا يشاركه القدم وكل حادث مخلوق فالقرآن مخلوق •

وليس يستوي كافة المعتزلة في القول بمختلف هذه الآراء والتبسط في بعضها دون بعض ولذلك فقد تفرقوا طبقات وجماعات نسبت كل جماعة منها إلى رأس منها فهناك الواصلية (نسبة لواصل بن عطاء) والنظامية (أصحاب ابراهيم بن يسار النظام) والهديلية (أتباع أبي الهذيل العلاف) والخابطية (أصحاب احمد بن خابط) والجاحظية ... وقد عد الشهرستاني منها اثنتي عشرة فرقة •

على أن هذه الفرق في معظمها انسا تكونت وتكاملت في العصر

العباسي الأول وأما في العصر الأموي ما بين أواخر القرن الأول ومطلع الثاني فكانت ماتزال على الواسلية الأولى فقط .

ولعل آراء المعتزلة الدينية على الشكل الذي بدأت التكون فيه لم تكن بذات أثر في الصراع السياسي ضد الأمويين ! إن لم تكن أقرب إلى المسالمة والسلبية فلم يكن المعتزلة فيسا يتعلق بالحكم يطلبون أكثر من إمام عادل ولا يشترطون فيه أن يكون من أسرة أو نسب قدسي وقد يبرأون من معاوية ويقبلون الخروج على الامام الجائر ولكن إن توفر للجساعة الثائرة « من القوة والمنعة ما يكفي لإزالة الجور ولا يصح الخروج الا مع امام عادل... » وهم في هذا أقرب الى الخوارج منهم الى الفكر العلوي .

ومع ذلك فثمة رأي لبعض المستشرقين (نيرغ) يرى أن المعتزلة أيدوا الحركة العباسية وكانوا وجهها العقائدي أو فكرها الديني^(١) ، بدليل انهم ظهروا مع الدعوة العباسية في وقت واحد وكان لهم دعائهم الدينيون في كل الافاق وأن أول زعمائهم واصل بن عطاء ثم عدداً من زعمائهم الآخرين كانوا قبل انهيار الخلافة الأموية وبعدها ميا بين لآل البيت وعلى اتصال بالعلويين وبالعباسيين . يضاف إلى ذلك تلك الصداقة الواشجة التي كانت قائمة بين الخليفة المنصور وعسرو بن عبيد . وقد قاوم العباسيون الزندقة ودافعوا عن الإسلام بأسلحة الفكر الاعتزالي .

(١) انظر دائرة المعارف الاسلامية المختصرة (الطبعة الانكليزية) -

مادة المعتزلة ص ٤٢١-٤٢٧ .

H.S. Nyberg , in shorter En . of Islam (gibb. Kramers - Brill - 1961) P.P. 421 - 427

ويلخص نيرغ أفكاره بقوله :

١ - ان المعتزلة كانوا مندفعين متحسين لقضية الخلفاء العباسيين

• ماعدا فرقة صغيرة منهم •

٢ - كان المعتزلة بشكل قطعي ضد الشيعة الغلاة والرافضة •

٣- كانوا أيضاً بشكل قطعي ضد الجهمية وإن تأثروا بها بعض التأثير •

٤ - كانوا قديرين • وجسعوا إليهم عدداً من الفرق التي كانت

تؤمن بالقدر •

٥ - كانوا في خصومة جدية مع أهل الحديث الذين كانوا

بدورهم يرفضونهم ثم أعلنوا بعد قليل اتهامهم بالهرطقة^(١) •

وهذا ما أثر - حسب رأيه - تأثيراً عيقاً في موقف

المعتزلة الديني (التيولوجي) وبالتالي في وقوفهم بجانب

القضية العباسية • ولكن هذا الرأي كله لا يقوم

على أكثر من الافتراض المنطقي الذي لا يجد المؤيدات الكافية في الوقائع

التاريخية • لا سيما وان الفكر الاعتزالي كان • في أواخر العهد الأموي

في مطالع تكونه ولم يتكون التكون الكامل بعد ولم يكن للرواد المعتزلة

الأول من نشاط سياسي وخاصة واصل بن عطاء • وحتى عسرو بن عبيد

ظل - رغم صداقته للنصور - على مسافة بعيدة منه ومن الاشتراك في

الحكم • لا يعطيه إلا النصيحة والتفريع أحياناً • وليس يظهر للمعتزلة

أي أثر في الدعوة العباسية ثم في الأعمال والسياسة الدينية للعباسيين من

بعد ولعل الأصح أن نقول مع الاستاذ جب إن المعتزلة كانت حركة دينية

أقدم من الدعوة العباسية ومستقلة عنها وأنها استغلت فيما بعد الخلافة

العباسية لتحقيق أهدافها الدينية وليس العكس لا سيما إذا تذكرنا

المجموعة المتباينة من الأفكار والجباغات الدينية التي استغلها العباسيون

(١) المصدر السابق ص ٤٢٣ - ٤٢٤

لنشر دعوتهم السرية في خراسان • ولقد يكون المعتزلة قد رحبوا بوصول العباسيين الى الحكم — فيما بعد — وانتظروا خيراً من تغيير الخطة الأموية بخطة أكثر ارتباطاً بالاسلام والعقيدة لكن من غير المحتمل أن يكونوا ادعاة عباسيين •••

وكل ما قد يكون المعتزلة قد قدموه للحركة العباسية هي أنهم أضافوا إلى جبهة المجموعات الدينية المناوئة للأمويين مجموعة دينية تحمل آراء لا ترضى بهم ولا ترضى عن أعمالهم •

٥ - الحكومة والادارة الأموية :

تعاقب على حكم الامبراطورية الاسلامية بعد الخلفاء الراشدين خلفاء الأسرة الأموية • بدأ عهدهم بسعاوية والفرع السفيفاني ، ثم تحولت الخلافة • بعد أربع سنوات من وفاة معاوية ، الى الفرع المرواني ، واستمرت فيه حتى سقوط الأسرة • على ان تعاقب الخلفاء الأمويين لم يجر على سنة معينة • لقد ادخل معاوية نظام الارث على الخلافة ، ولكن مروان بن الحكم استثن سنة اعطاء ولاية العهد إلى أكثر من واحد بعده • فكان لعيله هذا اسوأ الأثر في تفكيك البيت الحاكم اذ كانت العاطفة الابوية ، التي دفعته ودفعته خلفاءه لهذا العهد المزدوج ، هي نفسها التي العاطفة الابوية • التي دفعته خلفاءه لهذا العهد المزدوج ، هي نفسها التي تدفع من يتاح له الملك من اولياء العهد الى ازاحة اخيه من ولاية العهد الثانية واعطائها لابنائيه ••• ولم تكن تلك الازاحة تتم دون احقاد وفسائس ودماء • كانت تضعف شيئاً فشيئاً عصبية البيت الحاكم بعضه لبعض وقيسته امام الناس •

واكبر الشخصيات المروانية : عبد الملك وابناه الوليد وهشام •

وطد الأول الدولة وعربها ، وزاد الثاني في رقعتها . اما الثالث فقد ولي الحكم عشرين سنة (١٥٠ - ١٢٥ هـ / ٧٢٤ - ٧٤٤ م) . ولكن بعد فترة من التقلبات السياسية دامت تسع سنوات وحكم خلالها ثلاثة خلفاء مختلفون في النهج السياسي بعضهم عن بعض ، ومختلفون عن اسلافهم واخلافهم أيضاً : سليمان بن عبد الملك وقد نكل باولئك القواد والرجال الذين كانوا السبب في غضة أخيه الوليد واتساع الدولة . نكل بهم لانهم قيسيون وهو يمانى الهوى . ثم عسر بن عبد العزيز الذي اتبع سياسة دينية شديدة الورع والحزم جرت عليه نقصة العناصر المسيطرة من الارستقراطية العربية وغير العربية ، لكنها انقصت موارد الدولة وتسببت مع الثورات من جهة ومع الركود التجاري الذي أصاب شرقي البحر المتوسط خلال النصف الاول من القرن الثامن من جهة أخرى في إيقاع الدولة في عجز مالي لم ينج الأمويون من آثاره وأخيراً جاء يزيد الثاني ابن عبد الملك وكان قيسي الميول فكال الصاع صاعين لجماعة أخيه سليمان ...

وبالرغم من ان هشاماً كان جدياً كثير الدأب والحذر . إلا ان العوامل التي هدمت العرش الاموي تبلورت واخذت شكلها الجدي خلال عهده الطويل ، واستفادت كذلك من تردده . فلما جاء الوليد الثاني من بعده (قيسياً) واغتصب منه الحكم يزيد الثالث (اليماني) وجاء أخيراً مروان بن محمد (القيسي) . بعد مذبحة اهلية في العائلة المالكة بدمشق . ظهر بوضوح ذلك الصدع الذي يفكك الفئة الحاكمة ويجعلها تقتل بعضها بعضاً . حتى كأن الخليفة في الفترة الاخيرة كان زعيم حزب خاص اكثر منه حاكماً لامبراطورية عظيمة موحدة الاجزاء .

ولم يكن الانقسام مقصوراً على جماعة البلاط في الشام ولكنه

تعداها الى جميع الطبقة الحاكمة من العرب رغم توزيعها بين الاندلس وخراسان ، فانقسمت مجموعتين : (قيس ويمن) حملتا الحقد عصوراً طويلة بعد ذلك ، وبلغ من تباغضهما ان ظلتا تقتتلان لأتفه الاسباب . فقد قامت الحرب بينهما مثلاً في الاندلس بضع سنوات فيما بعد في ورقة عنب ! وقد تحاربتا في دمشق سنتين من اجل بطيخة^(١) !! اما في العهد الاموي فبلغ الامر باليمانية في خراسان ان تحالفت مع ابي مسلم الخراساني فدخل بها مرو - ولولاها ما استطاع - وطرده نصر بن سيار شيخ مضر (القيسية) وعامل الامويين . كما ثارت اليمانية في فلسطين بزعماء سليمان بن هشام بن عبد الملك ضد مروان بن محمد في الوقت الذي كانت فيه صيحات الثورة تأخذه من كل جانب .

وهكذا فقدت دولة الامويين قوة (العصبية) التي لا يقوم الملك - كما يلاحظ ابن خلدون - الا بها . وخسر آخر خلفاء بني أمية مروان الثاني بالاضافة الى ذلك ولاء اهل الشام - وهم الذين كانوا دوماً رداء الامويين منذ معاوية - حين نقل عاصمته من دمشق الى حران شمال الجزيرة .

ومن الطريف ان نسوق ما ذكره غرس النعمة بن هلال الصابي في كتابه (الهفوات النادرة) قال : « ... ولما حاصر عبد الله بن علي (العباسي) دمشق لم يقدر عليها حتى وقع الخلف اليمانية والمضرية من أهلها واختلفوا وتلاعنوا في المساجد واقتتلوا بالأيدي والنعال فال ذاك الى فتحها له . وفي مدة ذلك الخلف نصبوا في الجامع قبلتين :

(١) ابو الفداء - المختصر في تاريخ البشر ج ٢ ص ١٣ .

هؤلاء (اليمانيون) يخطبون لبني هاشم ويصلون وأولئك (القيسيون) يخطبون لبني أمية ويصلون «...»^(١)

وبالرغم من ان مؤرخي العرب ، ثم مؤرخي الفرنجة ، عنوا بدراسة هذا النزاع القبلي كعامل رئيسي في سقوط الامويين فإن بعضهم الآخر مثل (فان فلوتن) يرى انه لم يكن له الا مكان ثانوي بين تلك العوامل الكثيرة التي انتهت بسقوطهم ، فان ذلك النزاع ، وان ساعد في اللحظة الاخيرة على نجاح الدعوة العباسية، فلم يكن له أثر ما في تلك الحالة الجديدة التي ظهرت عقب قيام تلك الدعوة .

وعلى أي حال فان عوامل اخرى تتعلق بسياسة الامويين العامة كانت تعمل عملها بجانب هذه الاحوال القبلية ولعل أهمها : مشاكل السياسة المالية وفشل السياسة الادارية واضطراب الشام مع أزمة الأسرة الأموية فيه .

١ - السياسة المالية الأموية ومشاكلها :

لم تكن الضرائب التي فرضت زمن عمر بن الخطاب ، على البلاد المفتوحة بالضرائب الثقيلة إذا قيست بما كانت عليه قبل الفتح . وإذا كان قوامها الاساسي ضريبتين اساسيتين هما : الجزية والخراج فقد كان النظام الضريبي عامة ، في صدر الاسلام متبايناً متنوع الاسس حسب ظروف الفتح والعهود التي اعطيت من منطقة الى اخرى فتارة ضريبة جماعية على بعض المدن (خراسان) وتارة الضريبة على الرأس (العراق . الجزيرة

(١) غرس النعمة - الهفوات النادرة (تحقيق الاشر - دمشق ١٩٦٧)

مصر) وتارة تزيد في بلد وتارة تعفى أخرى وتارة نوعية وتارة نقدية وثالثة من النوعين •

وقد بذل الأمويون جهداً كبيراً لتوحيد ذلك النظام وتنسيقه وتوطيد أسسه وجعله ذا طابع عربي • حاول ذلك معاوية ببعض التدابير الجزئية لكن الذي بدأه فإنما هو عبد الملك بن مروان^(١) (٦٥-٨٦ / ٦٨٥-٧٠٥) ثم أكمل العمل من بعد ابنه هشام^(٢) (١٠٥-١١٥ / ٧٢٤-٧٣٤) في العراق والشام ومصر •

وقد حاول عمر بن عبد العزيز خلال ذلك إعطاء النظام الضريبي أسساً إسلامية • بإلغاء الجزية عن أسلم واعتبار الأرض الخراجية

(١) من أمثلة التنظيم الضرائبي زمن عبد الملك ما جرى في الجزيرة : كانت جزية أهلها ديناراً ومدين قمحاً وقسطين زيتاً ومثلهما من الخل في العام لكل رجل واعتبر الناس طبقة واحدة واعتبر القسم النقدي من الضريبة هو الجزية والقسم العيني ضريبة الأرض فبعث عبد الملك إلى عامله الضحاك بن عبد الرحمن الأشعري فأحصى الجماعم واعتبر الناس كلهم عمالاً بأيديهم وحسب ما يكسبه العامل في سنة كلها ثم طرح من ذلك نفقته من طعامه والكساء وطرح أيام الأعياد فوجد الذي يتبقى بعد ذلك أربعة دنائير لكل فرد فالزمهم ذلك • وتحولت الضريبة من العين إلى النقد • (راجع الخراج لأبي يوسف ص ٢٣-٢٤)

(٢) من أمثلة ذلك أن عبيد الله بن الحبحاب صاحب خراج مصر كتب إلى هشام سنة ١٠٦ بأن أرض مصر تحتل الزيادة - بسبب وفرة خيرات البلاد - فراآ في كل دينار من الضريبة قيراطا (٢٤/١) وفرضت ضريبة على أملاك الكنيسة والأساقفة كما فرضت جزية دينار واحد على الرهبان •

ملكاً ليت المال فالخراج إيجارها ولا يجوز تحويلها الى أرض عشرية
.. ولكن الخلفاء من بعده نقضوا تلك الأسس تحت ضغط الحاجة
المالية .

ذلك أن موارد الدولة تقلصت بوضوح بعد عبد الملك وابنه
الوليد ، لا بسبب الحرب الاقتصادية مع الروم فقط ولكن أيضاً بسبب
كثرة الفتن وما تعطله من التجارة والزراعة وتطلبه من النفقات وبسبب
كثرة تحويل الاقطاعيين أرضهم من أرض خراجية الى عشرية وبسبب
نقص موارد الجزية بعد إقبال الشعوب المفتوحة على الاسلام . وقد
قابل الأمويون ذلك بتدابير شديدة وغير شرعية . وبالرغم من أنهم
لم يضعوا سياسة منظمة لزيادة الضرائب — وإن زادوها في بعض
الحالات — إلا أنهم تشددوا في الجباية تشدداً ولد الكثير من التذمر
بشكل عام من السياسة المالية وظهر ذلك خاصة في بعض المناطق أكثر من
غيرها :

١ - فقد اتبع العمال والجباة طرقاً سيئة في الجباية :
لا بسبب إلحاح الخلفاء أحياناً ولكن بسبب جشع العمال أنفسهم حتى
لقد ندد بهم عمر بن عبد العزيز وسماهم « عمال السوء » .

ويروي الجهمشياري^(١) أن عامل مصر قال لسليمان بن عبد الملك :
« يا أمير المؤمنين اني ما جئتك حتى نهكت الرعية وجهدت فان رأيت أن
ترفق بها وترفه عنها وتخفف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها
وصلاح معاشها فافعل ، فانه يستدرك ذلك في العام المقبل » . فأجاب
سليمان : « هبلك أمك . إحلب الدر ، فاذا انقطع فاحلب الدم والنجا » .

(١) الجهمشياري : الوزراء والكتاب ص ٥١-٥٢ .

ويذكر المقريري^(١) أيضاً أن عامل يزيد بن عبد الملك وعامل هشام من بعده قد تشددا على النصارى وزادا في الخراج في مصر • ويروي البلاذري : أن أحد أخوة الحجاج أذاق اليمن شر أنواع الجور فكان يصادر الاملاك والاموال وأثار حنقهم بفرض ضريبة معينة (وظيفة) عليهم وذلك عدا العشر الذي قرره الاسلام • وحدث ذلك في ولاية عربية خالصة أمر له معناه • ولم يكن الحال بالعراق أحسن من هذا • فقد أمر عمر بن عبد العزيز ألا يأخذ العمال (جباة الخراج) في جبايتهم من الدراهم ، ما زاد وزنه على أربعة عشر قيراطاً ومعنى هذا أنهم كانوا يتقاضون الناس دراهم ثقيلة الوزن مما يزيد في قيمة الضريبة •

كما كان بعض العمال والجباة ، وخاصة الدهاقين يستعملون العنف والاهانة فيها رمزاً للاذلال والصغار • وأجحفوا في تقدير الخراج أحياناً فكانوا في فارس مثلاً ، على ما جاء في طبقات ابن سعد يخرصون ، (يقدرون) الشار على أهلها ثم يقومونها بسعر دون سعرها الذي تباع به ويأخذونها فرقاً على ما قدروا لها من قيسة • وقد ذكر (فان فلوتن)^(٢) طريقة مخجلة لجباية الخراج لم يذكر مرجعه الاصل في فيها • وهي وان لم تكن صحيحة ، إلا أنها قد تكون صدى لاستياء الناس من طريقة الجباية • وفي كتاب الخراج لأبي يوسف ذكر لسلوك بعض الجباة أحياناً سبل التعذيب كالتعريض للشمس المحرقة أو صب الزيت المحمي أو حبل بعض الحجارة أو جرار الماء في الرقاب ! كما كانوا يوقفون المستعنين عن الدفع على قدم واحدة ساعات طويلة ، ثم يوثقونهم بحيث لا يستطيعون السجود للصلاة • وفي بلاد ما وراء النهر جرى مرة أن

(١) المقريري : الخطط ج ٤ ص ٣٩٥ •

(٢) فان فلوتن : السيادة العربية (تعريب حسن ابراهيم) ص ٣٣ •

عمال الخراج – على ما يذكر الطبري^(١) – أقاموا الدهاقين في الشمس وخرقوا عليهم ثيابهم ثم ألقوا مناطقهم في أعناقهم • أما في شمالي افريقيا فكان المقصر في الجزية يلزم أحياناً بتسليم نسائه وأبنائه للبيع • وقد أبطل عمر بن عبد العزيز ذلك ، وكتب : أن من كانت عنده لواتية فليخطبها الى أبيها أو فليردها إلى أبيها •

ب – وفرضت في العهد الأموي ضرائب اضافية كالرسوم على الصناعات والحرف وأجور نقل وخزن نصيب الحكومة من الغلات • وأجور ضرب النقود • وفرض الضرائب على الارض زرعت أم لم تزرع • والضرائب على من يتزوج أو يكتب عرضاً وأرجعت العادة الضريبة الساسانية التي تسمى « هدايا النوروز والمهرجان » والجهشياري يذكر أن معاوية « طالب أهل السواد أن يهدوا له في النوروز والمهرجان ففعلوا فبلغ ذلك عشرة آلاف درهم »^(٢) • وربما كانت هذه الضرائب الاضافية – كما يذكر بندلي جوزي –^(٣) أشد وطأة من الضرائب الاصلية لأنها لم تكن محدودة ولا مستندة الى قاعدة مقبولة وانما تتبع أهواء العمال •

ج – واتخذ العمال ولايتهم للثراء : يدل على ذلك ما شاع على الألسن إذ ذاك من اطلاق كلمة « آكل ولاية » على منصب الولاية وطالما قدمت الشكايات منذ عهد عمر بن الخطاب ضد مستغلي الولايات • وينقل

(١) الطبري ج ٧ ص ٢٥٦ (٢/١٥٠٩) •

(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢٤

(٣) انظر بندلي جوزي – من تاريخ الحركات الفكرية ص ٤٢ •

البلاذري صدى لذلك قصيدة يتهم صاحبها عدداً من الولاة وحكام
الرساتيق والمدن في فارس ، فيقول :

تؤوب إذا آبوا ونغزو إذا غزوا فأني لهم وفر ولسنا أولي وفر ؟

وقلنا كان يعنى الولاة باخفاء أعمالهم فقد اعترف والي خراسان
ليزيد بأنه قد حصل له عشرين مليوناً من الدراهم فسوغه إياها^(١) . وكان
بعض الولاة يلتصمون من الخليفة اعفاء من قبلهم من الموظفين من تقديم
بيان دقيق عما جسعوه من الاموال .

وبدل أن يتخذ الخلفاء التدابير لمحاسبة الولاة ومنع ظلمهم نجدهم
يتبعون الطريقة التي كان لجأ إليها عمر بن الخطاب — لأسباب أخرى —
وهي (المقاسمة)^(٢) فهم يقاسمون العمال فوائدهم التي جسعوها بتلك الطريقة
المعوجة . وهكذا رد معاوية مثلاً نصف الثروة التي جسعها الى بيت المال
« ليطيب له الباقي »^(٣) — على قوله — ومعنى هذا أن بعض الخلفاء
رضوا أحياناً بسوء تصرف العمال مع أهل البلاد . عدا أنه دليل على أن
بعضهم كان يهسه مصلحة الخزينة المركزية بالدرجة الاولى .

وإذا كان عبد الملك قد سن نظاماً دقيقاً للاستخراج «أو التكشيف»
أي كشف مال الوالي بعد عزله ، فلم يعدم الولاة والموظفون الصغار

(١) الجهشيارى ص ٢٩ .

(٢) من نافلة القول أن نذكر أن من اتبع طريقة المقاسمة من خلفاء
بني أمية كان يسيء تفسير واستغلال فكرة المقاسمة التي اتبعها عمر مع
الولاة الذين أثروا في عهده مستغلين مناصبهم في التجارة وقبول الهدايا .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٣٢٧ (٢/٢٠٢) .

طريقة لتهديب أموالهم بإداعها عند غيرهم • كما اضحت طريقة الاستخراج وسيلة من وسائل الانتقام •

ولم تكن الاموال المختلصة بكسيات قليلة • ويكفي مثلاً لها ما ذكره الطبري من أن يوسف بن عمر استرد من خالد بن عبد الله القسري أكثر من سبعين مليون درهم وكان راتبه السنوي في ولايته للعراق حوالي عشرين مليوناً •

د - وبالإضافة لكل هذا فقد أخذ الأمويون الجزية ممن لا تجب عليهم، ففرضوا الجزية على الرهبان مثلاً • يقول المقرئزي^(١) : « مآر (عبد العزيز بن مروان بن الحكم) بأحصاء الرهبان فأحصوا وأخذت منهم الجزية وهي أول جزية أخذت من الرهبان » • ولعل ما هو أكثر شأناً من هذا أن الجزية أخذت من المغلوبين حتى بعد إسلامهم • كما فعل الحجاج مع الموالي في العراق ، وقد درس فون كريسر ذلك وبين كيف استطاع الحجاج ارغام أولئك الذين كانوا يهربون من دفع الجزية بالإسلام ، على دفع الضريبة التي كانوا يدفعونها في عهدهم الكافر ، وكيف أجبر الذين حولوا أرضهم الخراجية الى عشرية على دفع الخراج عنها كما كان من قبل • وكيف تجلت مقاومة الناس له في ذلك بثورة ابن الأشعث ، واحراق الديوان وسجلاته •

ولكي ترد الحكومة جماهير الموالي الى واجبهم نحوها وتسد في وجوههم كل أمل في الهرب من الضرائب ومن العمل الزراعي طردتهم

المقرئزي : الخطط ج ٤ ص ٣٩٥ •

(١)

من المدن وأرسلتهم الى القرى بعد أن وُشمت أسماءهم على أذرعهم ، وقد طبقت هذه السياسة في خراسان كما طبقت في مصر • وإذا كان عمر ابن عبد العزيز قد رفعها قائلاً : « ان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جانياً » فان الذين استخلفوا من بعده أعادوها على ما كانت ، وعمسوها على افريقيا أيضاً • ويروي الجهمشياري^(١) أن يزيد بن أسلم والي شمالي افريقيا ليزيد بن عبد الملك أراد اتباع طريقة الحجاج هناك فقتلوه • كما أن أشرس بن عبد الله السلامي أمير خراسان سنة ١١٠ فرض الجزية على المسلمين الجدد في بلاد الصغد فيما وراء النهر بعد أن كان أعلن اعفاءهم فأدى ذلك الى ثورة عارمة لم تنته إلا بمجيء نصر بن سيار سنة ١٢١ •

هـ - واخيراً فقد تلاعب الأمويون بالعطاء : فأنقصوه أو حرموه مستحقه • فقد فرض عمر نظاماً خاصاً في العطاء للمسلمين ، ولكن سياسة الأمويين لم تتفق مع هذا النظام • فكانوا تارة يقدقون المنح على المعارضين تألفاً لقلوبهم ، (كما فعلوا مع الحسن والحسين مثلاً) • وكانوا تارة أخرى يمنعونها كما فعل هشام والوليد بن يزيد مع أهل الحرمين • أما الموالي فلم يكن لهم من العطاء نصيب • لأنهم لم يكونوا بعد قد أسلموا حين وضع النظام ، ويقال إن معاوية فرض لهم نصيباً زاده من بعده بعض الزيادة عبد الملك ثم سليمان ثم هشام - كما في العقد الفريد - غير ان هذا على ما يظهر لم يكن ثابتاً ولعله غير صحيح بدليل استغراب العرب ونقمتهم على المختار حين فرض للموالي نصيباً من الفيء • • ولقد شكّا خراساني مرة الى عمر بن عبد العزيز ان عشرين

(١) الجهمشياري ص ٥٧ •

ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق ! • ويذكرون من أسباب ثورة البربر على هشام بن عبد الملك أنهم كانوا يحاربون بجانب العرب ولا يمنحون العطاء الذي يمنحه هؤلاء •

ولقد كانت مساوئ الوضع المالي متفاوتة الوضوح والشدة حسب الولايات ولعل أقسى وجوهها ما كان في العراق وخراسان •

فقد اسندت الجباية في العراق الى الدهاقين « رؤساء القرى » (١) من الموالي لأنهم أبصر بالجباية وأوفى بالامانة — على حد قول عبيد الله ابن زياد — وقد سارع هؤلاء الى اعتناق الاسلام فصاروا حلفاء للسادة العرب ، وجمعوا من ذلك ثروات طائلة ابتزوها من العامة •

وبعد أن فرض الحجاج إبقاء ضريتي الخراج على الارض التي تحولت عشريه بانتقالها للعرب والجزية بعد الاسلام على من يسلم من الناس وضج العرب والموالي جاء عمر بن عبد العزيز فوضع حلاً يتفق والاسلام ويحفظ حق الخزينة • إذ أعفى من أسلم من الجزية ، ولكنه اعتبر الخراج إيجاراً للارض الخراجية التي هي ملك مشترك للمسلمين • فمنع تحولها الى أرض عشريه • ولما كان لا يستطيع فرض ذلك بأثر رجعي فقد اعتبر سنة ١٠٠ هـ مطلعاً لهذا التدبير (٢) ، وسمى تلك السنة (سنة المدة) وكتب بذلك كتاباً قرئ على الناس • وألغى الضرائب الاضافية كهدايا النوروز والمهرجان وضرائب الزواج وأجور البيوت ورسوم العرائض •

(١) اليعقوبي : ج ٢ ص ٢٩ •

على أن اصلاحات عمر ماتت بموته . وكتب خليفته يزيد الثاني الى عماله : « أما بعد فان عمر كان مغروراً .. فدعوا ما عرفتموه في عهده وأعيدوا الناس الى طبقتهم الاولى أخصبوا أم أجذبوا ، أحبوا أم كرهوا ، حيوا أم ماتوا . »

وقد دفعت كثرة الضرائب الملايين الصغار الى ان يحتموا بالملايين الكبار من طبقة العرب او من رجال الدولة . فكانت الارض تسجل باسم العامي ويدفع مالها الحقيقي جزءاً من حاصلاته لقاء الحماية من عبث العمال . وهذا هو (الالغاء) وقد كثر زمن الحجاج وألجأ عدد كبير من الملايين أملاكهم لدى مسلمة بن عبد الملك .

ولعل من المشاكل الضرائبية الكبيرة التي لم يحلها العهد الاموي (ولا العباسي من بعده حتى عهد المعتضد) هي استيفاء الخراج من الناس في المناطق الشرقية من الدولة الاسلامية (العراق وايران والجزيرة أحياناً) اعتباراً من يوم النيروز كل سنة حسب العادة الفارسية السابقة ، أي في مطلع الربيع حين لا يكون الزرع قد استحصد ويضر هذا دوماً بالناس « فهم يقترضون ويتسلفون وينجلون عن أوطانهم (هرباً) .. وكثرت شكاياتهم وظلمهم .. » وقد كان الفرس يكبسون السنين فتتعدل « ... فلما جاء الاسلام عطل ذلك » لما جاء في القرآن من أن « النسيء زيادة في الكفر » . وقد اجتمع الدهاقنة زمن هشام بن عبد الملك الى خالد القسري فشرحوا له هذا وسألوه أن يؤخر النيروز شهراً فأبى وكتب الى هشام بذلك فقال : اني أخاف أن لا يكون هذا من قول الله تعالى في النسيء « ... » وبقي الامر على حاله^(١) .

(١) انظر في هذا ما ذكره البيروني - الآثار الباقية (طبعة سخاو)

وخلاصة الامر أن النظام المالي في عهد بني أمية كان نظاماً قديماً
أضيف اليه أمور اسلامية جديدة وقد حاول الامويون إصلاح القديم
والتوفيق بينه وبين المستحدثات الاسلامية ولكن التطبيق السيئ
والاستغلالي زاد في مساوئ النظام وظلمه . ولم يتنبه الامويون الى
ما يجر ذلك عليهم من النقمة ، مع تطور الاحوال أو على الاصح انقلابها .
والنقمة هي المرتع الخصب للعمل الثوري .

ولعل أبرز ما يكشف عن هذه النقمة ، ماحوته برامج الثورات والأحزاب
في أواخر العهد الأموي من اشارات ومطالب ووعود من هذه الناحية
المالية : وإذا كانت ثورات الخوارج قد استمرت تطالب كما كانت دوماً
تطالب بالمساواة والعدل فإن المرجئة الذين يبدأ فكرهم بالمساواة وترك
حساب الظالمين لله طالبو في ثورة الحارث بن سريج بعد سنة ١١٦ في
خراسان برفع الجزية عن يسلم والمساواة في العطاء بين المقاتلة العرب
والموالي . ويزيد الثالث (ابن الوليد بن عبد الملك) خرج سنة ١٢٦/٧٤٤
على الوليد الثاني وهو يؤكد على العدل وعلى عدم ثقل مال بلد الى

ص ٣١-٣٢ ولعلنا نضيف هنا أن يحيى بن خالد البرمكي حاول زمن الرشيد
تأجيل النوروز (وبدء جباية الخراج) شهرين فتكلم أعداؤه فيه وقالوا إنه
يتعصب للمجوسية فأضرب عن ذلك حتى كان عهد المتوكل الذي حاول
التعديل سنة ٢٣٤ فقتل قبل أن ينفذه ونفذه من بعده المعتضد . وقد
قال البحتري في ذلك يمدح المتوكل :

إن يوم النيروز قد عاد إلى العهد الذي كان سنه ازدشير
أنت حولته الى الحالة الاولى وقد كان حائراً يستدير
فافتتحت الخراج فيه فلأمة في ذاك مرفق مذكور
منهم الحمد والثناء ومنك العدل فيهم والنائل المشكور .

آخر قبل أن يكفى أهله وعلى عدم إرهاب دافعي الجزية ارهاباً يدفعهم الى « مايجليهم عن بلادهم ويقطع نسلهم »^(١) وعلى عدم توسع الملكيات الكبيرة . وعلى دفع الاعطيات سنوياً والارزاق كل شهر . وزيد بن علي ثار في الكوفة ١٢٢/ ٧٤٠ وباعه الناس على كتاب الله وسنة رسوله وعلى الدفاع عن الضعفاء ورد العطاء الى من سلب منه وتوزيع الفىء بالعدل بين المستحقين وإعادة المقاتلة من المناطق النائية الى بلادهم ...

٢ - السياسة الادارية : يقول الجاحظ : « دولة بني مروان عربية أعراية » ولعل هذه الملاحظة تلخص كل سياسة الامويين . وليس هذا النهج بغريب منهم ، فالعرب هم اصحاب الاسلام وجنود الفتح والحكام الأعلون ، ثم انهم لم يكونوا قد تخلصوا بعد مما كان بهم من جاهلية وعصية . هذا الى ان الامويين لم يصلوا الى الحكم اعتماداً على رأي المسلمين ، او لسابقة لهم في الدين ، فجنحوا الى الناحية التي لهم بها سند ، ولهم فيها مجد سابق ، وهي العصية العربية .

ولنلاحظ هنا ان الامويين لم يكونوا ، في نظر الجمهور والجماعة ، غاصبين معتدين . وتلك الفرق التي سبق ذكرها ، إن حاربتهم ، فالجمهرة الكبرى من المسلمين - وهم من يعرفون بالجماعة - قبلوا بهم . ومن تاريخ هذه « الجماعة » في الواقع يتألف تاريخ الدولة الاسلامية على الحقيقة . واما ماعداها فطوائف ثائرة محدودة الاثر

(١) انظر خطبته بعد مقتل الوليد لدى الطبرى ج٧ ص٢٦٨-٢٦٩

لم تجمع على واحدة منها كلمة المسلمين ، وان ملك بعضها ملكا واسعا
أو ضيقاً في بعض حقبة التاريخ .

وقد استنتج المستشرق فان فلوتن^(١) من بعض النصوص
للشهرستاني ولحمزة الاصفهاني ان الناس كان يعتبرون الامويين
« أهل السنة والجماعة » « وأئمة العدل » ، والسواد الاعظم من
العرب كان يرى في حزب بني أمية حزب « الدين والنظام » . وترد لدى
البلاذري والطبري وغيرهما عبارات تسمى عبد الملك مثلاً « امام
الاسلام » و « أمين الله » و « جنة الدين » . على أن عامة الناس ، إن
كانوا يأخذون عليهم شيئاً ، ففي السياسة العامة فقط وأعمال العمال ،
وليس في شرعية الحكم . يقول الطبري في سبب ثورة البربر
في افريقيا آخر العهد الاموي : « ... مازالوا من أسمع أهل البلدان
وأطوعهم الي زمان هشام بن عبد الملك ... حتى دب اليهم أهل
العراق ... واستثاروهم » و اضاف « ... أنهم ردوا على أهل الاهواء
فقالوا إنا لانخالف الأئمة بما تجنى العمال ولا نحمل ذلك عليهم ... »^(٢)
أما الذين كانوا يناقشون شرعية العهد الأموي من أساسه فثلاث
فئات كونت مايمكن أن يشبه في العصر الحديث الأحزاب السياسية .
ولو شئنا أن نضعها في تصنيف متصل لوجدنا أن الحزب الأموي الحاكم
كان يقوم في الوسط بينما تقوم عن يمينه الاحزاب الشيعية ماكان منها
معتدلاً ثم ماكان في طريق الغلو أما عن يساره فيأتي المتدينون الذين
كانوا يرفضون — دون أن يشعروا — أساليب الحكم الاموي واستبداده
ثم يأتي المرجئة . وفي أقصى اليسار تقوم الأحزاب الخارجية الثائرة دوماً
والتي ترفض الأسرة الاموية أصلاً كما ترفض غيرها . وإذا كان رأي

(١) فان فلوتن السيادة العربية ص ٧١ و ص ١٤٠ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٥٤ (٢٨١٥/١) .

الشيعة يحصر الخلافة في أسرة واحدة هي آل البيت فالخوارج بالمقابل ييحبونها لكافة المسلمين .

أولا - **الخوارج** : وقد انتشرت مبادئهم (ومبادئ الشيعة كذلك) وتطورت رغم مقاومة الامويين العسكرية ومجازرهم القاسية فيهم (وربما بسبب ذلك) وللاءمتها أيضاً لتلك الاحوال الاجتماعية الجديدة التي نشأت في الدولة العربية ، في الشرق خاصة ، لاسيما منذ عهد الحجاج ، اذ انفصلت الدعوة الى الاسلام والعمل على نشره ، عن سياسة الامويين المالية والادارية لما بينهما من تعارض . وكان جواب الحكومة الوحيد على شعارات الخوارج الجديدة بطلب العدل والرجوع للدين ، هو اعلان الحرب عليهم جهاراً .

ثانياً - **الشيعة** : وقد اضطهدهم الامويون وأعملوا القتل في بعض آل البيت ، كما كانوا أحياناً يغرقونهم بالمال ، لضرورات سياسية . وكانوا ينظرون الى حركاتهم كأعمال تتعلق بسلامة الدولة ، بينما كان الشيعة يتلقون الضربات ، ويستغلونها في دعايتهم ، كعمل ضد الدين وضد عترة الرسول وآله .

ثالثاً - **المتدينون** : من قراء ومحدثين وفقهاء ، وكانوا ينكرون طريقة الامويين في استلام الخلافة وسياستهم المخالفة للدين في الناس . ونحن ندين لكتاب الامامة والسياسة^(١) (والمنسوب لابن قتيبة) بذكر رسالة يقول المؤلف إن الحسن بن علي قد أرسلها لمعاوية وسواء صحت الرسالة أم لم تصح ، فالمهم انها كانت تعبر عن عواطف دينية معينة وعن موقف الثقة من الحكم الاموي : انهم لم يروا فيه امتداداً لحكم النبي واصحابه ، ولكن حكماً قائماً على القوة . وهذه المسألة - كما يرى

(١) ابن قتيبة الامامة والسياسة ج١ ص ٢٨٤

خدا بخش - من اعظم مصادر ضعف الامويين • كما انها تفسر المعارضة الدائمة لهم • وقد كتب دي غويا ايضاً : « ... » ويتجلى الموقف بكل وضوح في أحاديث يزيد بن المهلب والحسن البصري ... اذ حين استولى يزيد على البصرة قال لأهلها : « ايها الناس إنا غضبنا لكم فانظروا لانفسكم رجلا يحكم فيكم بالعدل ويحكم فيكم بالسوية ويقيم فيكم بالكتاب والسنة ويسير فيكم بسيرة الخلفاء الراشدين » • وقد قال رجل للحسن البصري : « كأنك راض عن اهل الشام » فقال : « قبح الله أهل الشام وبرحهم • أليسوا الذين أحلوا حرم رسول الله (ص) ثلاثة أيام وباحوه انباطهم واقباطهم لايتناهون عن سيئة ولا انتهاك حرمة ، ثم نصبوا المجانيق يرمون بيت الله » ومن خطبة لأبي حمزة الخارجي سنة ١٣٠ في المدينة « خلوا بيننا وبينهم (الامويين) فإن نظفر نعدل في احكامكم ونحملكم على سنة نبيكم ... يا أهل المدينة ان تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله عز وجل بعذاب من عنده أو بأيدينا ويشف صدور قوم مؤمنين » •

ولاشك انه كان لسيرة بعض الخلفاء الامويين الاخيرين أثرها أيضاً في زيادة نقمة المتدينين على البيت الحاكم ، ولكن هؤلاء اكتفوا بالنقد والتهجم ، ولم ينتقلوا بالخوارج والشيعة الى العمل الايجابي • وقد اوجدت اقوالهم مبرراً للناس كي يتقاعسوا عن نصره الامويين في اللحظات الحاسمة •

اما **الجماهير** العامة من المسلمين - وفيها الاعداد الكبيره من الموالي الذين كان العرب انفسهم ، يدلونهم بالامر الواقع تارة وبالدهاية تارات ، الى ماعلى رؤوسهم من جور اجتماعي ومالي ، فتقسمت لفرق اعداداً كثيرة منهم ، حتى لقد كانت الاهواء السياسية قد توطنت في

المناطق المختلفة ، وعرف لكل صقع لونه المميز . يتبين ذلك من الوصية التي يذكرون ان محمد بن علي قد بعث بها الى صاحبه ابي مسلم الخراساني يقول : « أما الكوفة وسوادها فشيعة علي ، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف وأما الجزيرة فحرورية مارقة ، وأعراب كأعلاج ، وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بني امية ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما ابو بكر ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكثير وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تنقسمها الاهواء .. »

وقد بلغ الاستياء في الناس حداً بعيداً عبرت عنه تلك الاعداد الكثيرة من الثورات والفتن في السنين الاخيرة من العهد الاموي .

ففي الاندلس قام مؤنس احد قواد طارق بن زياد سنة ١٢٤ بثورة عمت الولايات الشمالية حيث توجد الجموع الكثير من البربر . فطرد العرب وزحف للاستيلاء على قرطبة . وقد سجل عدة انتصارات قبل ان يهزم عند طليطلة .

وفي شمال افريقيا ثار البربر سنة ١٢٤ بقيادة ميسرة المدغري (وهو خارجي) احتجاجاً على سوء سياسة الامويين فيهم ، فانتهت الثورة بمقتله . على ان البربر ثاروا مرة اخرى سنة ١٢٧ وطردها عامل الامويين عليهم .

وفي مصر كانت الاضطرابات بين قيس ويمن بلغت أوجها من أجل الولاية حتى لقد تقلب على مصر بين سنتي ١٢٧ و ١٣٢ هـ ستة ولاة . وتلفت مصر مروان بن محمد وهو هارب اليها ، بالفتن والاتقاض ، في كل مكان .

وثار القبط ثورات عديدة منذ سنة ١٠٧ هـ / ٧٢٥ السنة التي سجلوا فيها أولى ثوراتهم الكبيرة ثم اعقبتها ثورة أكثر عنفاً رافقتها حملة بيزنطية كبيرة على الدلتا ١٢١/٧٣٩ ثم كانت سنة ١٢٧/٧٤٥ ثورة ثالثة ولكن من القبائل العربية في الدلتا هذه المرة احتجاجاً على فداحة الضرائب . على أن ثورات القبط استمرت فيما بعد حوالي القرن .

وفي اليمن وحضر موت ثار أبو حمزة الخارجي (ومعه عبيد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق) واستطاع ان يدخل الحجاز ويحتل مكة والمدينة ثم ارتد عنهما وقتل سنة ١٣٠ هـ .

وفي الشام قام نزاع مقيت على الخلافة . فلما تولاها مروان بن محمد وانتصرت به قيس اجتمع على أهل الشام ضربتان معاً : ركود الحركة التجارية بسبب الحرب الاقتصادية مع الروم . وتوقف تجارة البحر من جهة ، ونقل مركز الخلافة عنهم وما يقطع ذلك من مصالحهم المرتبطة بها من جهة أخرى . فكان من هذا الضيق المضاعف بالإضافة الى العوامل القبلية وغيرها أن ثار ثابت بن نعيم الجذامي (اليمني) في فلسطين فوصل حتى حمص . وثار أهل الغوطة وحاصروا دمشق بعد أن ولوا على انفسهم يزيد بن خالد القسري . وثار سليمان بن هشام في قنسرين وفي حمص وتدمر . . وشغل الخليفة باخساد هذه الفتن اليمنية في قاعدة ملكه عن غيرها .

وفي العراق ثار أيضاً وأيضاً عبد الله بن معاوية بن جعفر بن ابي طالب وملك الكوفة والحيرة . وانضم اليه وبايعه جموع من بلاد فارس وكرمان والاهواز ، حتى وسليمان بن هشام الثائر الاموي بالشام . ولكنه لم يستطع ان يصمد للخوارج فانهزم الى فارس . وقتله ابو

مسلم الخراساني • وانشق في تلك الاثناء والي العراق عبد الله بن عمر على الخليفة فبعث اليه الخليفة مروان من حاربه حتى ظهر الخوارج •

اما هؤلاء فقد استفادوا من الفوضى فانحدروا من الجزيرة العليا بعد ان استخلفوا ابن بهدل الشيباني ، ولكنه اصيب بالطاعون قبل ان يتم له الامر في العراق • فقادهم الضحاك بن قيس الشيباني ودان له معظم العراق مع اذريجان وارمينية وشهرزور • وقد قتل الضحاك حول ماردین • وبالرغم من ان شيان الشكري الذي ولي أمر الخوارج من بعده قد هزم مروان الا انه انهزم بعد ذلك • وتشتت امر هذه الفئة الخارجة سنة ١٣٠ هـ بعد وصول يزيد بن هبيرة والياً على العراق •

وفي جنوب العراق ثار كذلك الزنج أكثر من مرة • ولعل ثوراتهم كانت من أولى الثورات الطبقية في التاريخ الاسلامي • كانوا قد جلبوا بأعداد كبيرة للعمل في الأرض الزراعية الصعبة في جنوب العراق • وانما ثاروا نتيجة شروط معيشتهم القاسية • وقد سجل البلاذري خاصة وابن الأثير ثورتهم مرتين :

الأولى : في آخر أيام مصعب بن الزبير (حوالي سنة ٧٠ هـ) «إذا اجتمعوا بفرات البصرة ولم يكونوا بالكثير فأفسدوا وتناولوا الثمار وكثروا • وجمع لهم والي البصرة خالد بن عبد الله جيشاً فلما بلغهم ذلك تفرقوا وأخذ بعضهم قتلهم وصلبهم» •

الثانية : كانت سنة ٧٥ هـ • فقد استغلوا حركة ابن الجارود في البصرة «فاجتمع خلق كثير منهم بالفرات وجعلوا عليهم رجلاً اسمه رباح ويلقب شيرزنجي يعني أسد الزنج وقد تلقب أيضاً بأمير المؤمنين فأفسدوا فلما فرغ الحجاج من ابن الجارود أمر زياد بن عمرو وهو على شرطنة

البصرة أن يرسل إليهم جيشاً يقاتلهم ففعل وسير إليهم جيشاً عليه ابنه حفص بن زياد فقاتلهم وقتلوه وهزموا أصحابه ثم أرسل إليهم جيشاً آخر جندله المحاربون من أخساس المدينة فهزم الزنج وقتلهم واستقامت البصرة...» (١)

ويظهر أن استيلاء هذه الطبقة الزنجية الزراعية ظل كامناً مستتراً قوياً بدليل أنهم ثاروا ثورة كبيرة في مطالع العصر العباسي . وقد سجل المؤرخ الأزدي (٢) في سطر عارض من كتابه تاريخ الموصل . كسا سجل البلاذري أيضاً . ثورة «العبيد» في البصرة ١٤١ هـ . وما من شك في أن هذه الثورات الفاشلة كانت إرهاباً ونساذج سابقة لثورة الزنج التي خربت البصرة فيما بعد ٢٥٥ هـ .

وأما في خراسان أخيراً فقد كانت الخصومة على أشدها بين نصر ابن سيار والي الخليفة (القيسي) وبين جديع بن علي الكرمانى (اليساني) وزاد في تأثرها ، عصبية نصر . وقلة قوته . أمام الزعيم اليساني وغيره من الثائرين . (فقد كانت ثورة الحارث بن سريج التي بدأت سنة ١١٦ لم تخمد بعد) . وقد حاول نصر بن سيار استرضاء الحارث واغراءه فلم يفلح . ولئن قتل الحارث سنة ١٢٨ فإن مقتله لم يمهله الثورة لأنها برزت من جديد على يد الداعية العباسي ابي مسلم الخراساني الذي استطاع الاستفادة من الخصومة بين نصر والكرمانى . ليوسع الشقة بين فرعي

(١) انظر الكامل لابن الأثير (حوادث سنة ٧٥ هـ : ج ٤ ص ٣٨٨) وانظر تفصيل ذلك لدى البلاذري انساب الأشراف (مخطوط استامبول) المصور في دار الكتب المصرية برقم ١١٠٣ المجلد ٧ الورقة ١٣ و ١٤ .
(٢) انظر تاريخ الموصل لابي بكر الأزدي ص ١٧٣ .

العرب ، ويكسب اليه الانصار • والواقع انه ليس يعود نصر ابي مسلم والعباسيين ، الى ما اتفق لهم من قوة ، بقدر ما يعود الى ضعف الامويين وتحطم قوتهم بهذه الثورات المتتالية •

٣ - اضطراب الشام وأزمة الاسرة الاموية :

لم يكن الاضطراب الاجتماعي والاقتصادي في المجتمع الأموي الأخير كافياً لتشكيل أي خطر على العرش الأموي ، ولا كانت التيارات السياسية التي قادها الشيعة أو الخوارج أو أصحاب الأفكار الأخرى بالكافية لهز ذلك العرش فقد استطاع الأمويون دوماً الانتصار عليها • وبالرغم من مشاكل السياسة الادارية والثورات ومساوئ السياسة المالية وما كانت ترهق من الناس فانها لم تكن مرة السبب الأول في التحرك ضد الامويين • تلك الامور كلها كانت تشكل إطار المشكلة • كانت الحواشي المساعدة على الاستياء والنقمة ولم تكن الصميم الذي تنبع منه عناصر تدمير ذلك البيت • وقد كان بإمكان بني أمية ان يستمروا طويلاً في عرش الخلافة لولا أن ركائز حكمهم في مستقره في الشام من جهة وفي الأسرة الأموية ذاتها من جهة أخرى كانت تمر بأزمة حادة وكانت تتحول التحول الانقلابي في تلك الفترة من أواخر العصر الأموي • وها هنا ، في الواقع ، يجب أن نفتش عن السبب الاساسي في سقوط البيت الاموي •

ولو وضعنا أزمة التحول العنيفة هذه في مكانها من تطور التاريخ الاسلامي لوجدنا أنها كانت الأزمة الرابعة القاسية في مساره • لقد سبقها أولاً حركة الردة من قبل ، ثم فتنة عشان وما تلاها حتى استقر الأمر لمعاوية • ثم كانت الأزمة الثالثة منذ عهد يزيد الأول ، يوم برز

صراع أولاد الصحابة خاصة فيما بينهم حتى انتهى الأمر باستقرار الحكم حوالي سنة ٨٥ بيد البيت المرواني بعد السفيناني . وغبرت بعد ذلك أربعون سنة مستقرة ظهرت في أواخرها في المجتمع الاسلامي ، وخاصة في الشام ، ظروف وأوضاع جديدة هزت استقراره وأوقعته منذ حوالي سنة ١٢٠ في الأزمة الرابعة التي أطاحت بالأمويين . وإذا عبرت الثورات والاضطرابات ، في تلك الفترة ، وعبر انتشار الاستياء في الناس . عن ظهور تلك الظروف والأوضاع الجديدة في العديد من مناطق الدولة فإن الأزمة أخذت شكلها الحاد الخطر في الشام ، مركز الحكم الأموي . وإذا اتجه بنو العباس بتلك الأزمة في خراسان لمصلحتهم فكانت طريقهم الى الخلافة فيما بعد فإن بني أمية لم ينتبهوا إلى أنها كانت تسير بالمقابل ، في الشام ، في اتجاه تدمير العرش الأموي ، وقد أعجلت العناصر الواعية منهم ، وعلى رأسها مروان بن محمد . قبل أن تستطيع بناء التكوين السياسي الاجتماعي الجديد الكافي لحماية ذلك العرش .

والواقع أن الثورة العباسية على الأمويين إن كانت سوف تنجح عن قريب في إسقاط البيت الأموي فلأنها ، في الدرجة الأولى . جاءت متوافقة مع وقوع هذا البيت في أزمتة الحادة . ولأنها جاءت وهذا البيت كله ينتقل من طوره القديم الى طور يحاول أن يتلاءم فيه مع الاوضاع الجديدة . وقد فوجيء بالثورة قبل أن يستكمل عناصر الخلاص من تلك الأزمة التي نسميها تجوزاً بالازمة وقد يكون في إعطائها هذا الاسم بعض التشوية لواقعها الانقلابي . انها في الحقيقة عملية تطور جذري ونهضة أخيرة كان البيت الأموي في سبيل القيام بها سواء في الفرع المالك منه أو في عصبيته الحامية أو في نوع تلك العصية ومكانها الجغرافي . والأزمة

جاءت من أن ذلك البيت وقد تخلص عن التكوينات السياسية التي حملته
قراءة القرن لم يكن قد أنشأ بعد كافة تكويناته الجديدة حين تدفق الثوار
من خراسان على العراق فكانت معركة الزاب كافية للقضاء عليه .

بدأت تلك الأزمة – النهضة حوالي سنة ١٢٠ أي في السنوات الأخيرة من
عهد هشام بن عبد الملك . لكنها أخذت أبعادها المدمرة بعده في عهد الوليد
ابن يزيد ، ثم يزيد الثالث ولم يكن صراع أبناء البيت الأموي يومذاك
سوى مظهر من مظاهرها . فلما جاء مروان بن محمد لم يستطع رغم
كفاياته الحربية والإدارية وجهده الدائب الصبور أن يوقف العجلة
الهاوية على المنحدر فسقط تحتها صريعاً . كانت عوامل الانهيار
أقوى من مدى يديه في البناء . وعناصر تلك الأزمة التطورية مشتبكة
وقد صبغت بالدماء أحياناً ويمكن أن نجعلها في نقاط ست :

١ – انتقال مركز الحكم من جنوب الشام ومن دمشق بالذات إلى
شمال الشام ثم إلى الجزيرة .

٢ – سيطرة العصبية القيسية بعد طول تسلط العناصر اليمنية .

٣ – تبدل نوعية تلك العصبية : من جماعات مدنية إلى جماعات
عسكرية .

٤ – ديب الخلافات العقدية بين أبناء البيت الحاكم ما بين جبرية
وقدرية واعتزال .

٥ – نكبة جنوب الشام بالفتن والدمار من جهة وبالأوبئة من
جهة أخرى .

٦ - انتقال عرش الخلافة ضمن البيت المرواني نفسه من أولاد عبد الملك بن مروان إلى أولاد أخيه محمد بن مروان .

والملاحظة الأساسية هنا أن ما نسيه في العهد الأموي بالعصية القبلية بين قيس ويمن كان في الواقع ، تعبيراً عن آراء سياسية . وكانت هذه العصية نفسها تتطور لتأخذ شكل ودور الأحزاب السياسية في دولة بني أمية . ولهذا كانت رغم ظاهرها القبلي تتحول من الداخل إلى حزينين سياسيين يشترك فيهما أحياناً بعض اليمانيين مع القيسيين وبالعكس . ولكل حزب مراكزه الجغرافية وعقيدته الدينية - الفكرية ، وزعامة من البيت الأموي نفسه وتنظيماته العسكرية . وفي أزمة المخاض لظهور هذين الحزينين بوضوح بين الأمويين في الشام ضربت الثورة العباسية ضربتها . وكانت معركة الزاب عند الموصل كافية لاحتلال الجزيرة والشام وإسقاط العرش الأموي

ولعلنا نلقي بعض الأضواء على هذه الأزمة إن بدأنا من جذورها الأولى فقد وصل هشام بن عبد الملك إلى الخلافة بعهد من أخيه يزيد الذي قدمه على ابنه لأنه كان شاباً بينما كان الوليد بن يزيد فتى صغيراً ولكنه في الوقت نفسه جعل ولاية العهد بعد هشام لابنه الوليد . وكان طبعياً أن يفكر هشام في تحويل الخلافة لابنه مسلمة وفي أبعاد ابن أخيه الوليد عنها ووجد في الحياة اللاهية التي يحياها الوليد مطعناً واضحاً عليه لكن ابنه مسلمة لم يكن في الواقع أحسن حالا من ابن أخيه فتشدد على الاثنين التشدد الذي جعل الوليد يهرب إلى البادية ناقساً منتظراً موت هشام بينما كان رجال الحاشية من أمثال إبراهيم ومحمد من بني مخزوم ، وبني القعقاع من عبس يحرضون هشاماً على خلة . .

وقد فرح الكثيرون من بني أمية بوفاة هشام وولاية الوليد (الثاني) من بعده وهو الشاعر ، المقبل على الحياة ولذاتها • ولكن الوليد أدار ظهره لهم : ترك دمشق ، ليجعل مقره في «الغدف» بالبادية كما فعل من قبله هشام حين جعل مقره في الرصافة • وأنفق الأموال على حاشيته وفي الاعطيات والهبات جزافاً بينما أبعد الامويين • وتشدد في الانتقام من خصومه الذين كانوا يحرضون على خلعه فأثار ضده بني مخزوم وبني عبيس ثم باع خالداً بن عبد الله القسري ، عامل العراق لهشام ، من خصمه يوسف بن هبيرة فعذبه هذا حتى الموت ••• وخالد من سادات اليمينية فلما قتل عمها الاستياء • وهكذا اجتمعت عناصر النقرة على الوليد ثم تراكت حتى شكلت تياراً اشترك فيه اليمانيون والقيسيون والكلييون وابناء القسري وبعض من هضمت حقوقهم من الكتاب وبعض الأمراء من بني أمية •••

واستهتار الوليد ، مع قصر مدته وكثرة الناقمين عليه ، قد شوهدت كلها سمعته في التاريخ وتركت للشائعات أن تنهشه نهشاً وتزعم في كثير من الظلم والكذب على الواقع • أنه مزق القرآن وشرب الخمر فوق الكعبة ••• وهي شائعات سياسية كان القصد منها تبرير تلك المؤامرة التي حاكها الناقمون جميعاً لقتله •

ولم يكن الأمر بحاجة الى كل ذلك فإن المتدينين لم يكونوا بالراضين عن سيرته • لكن جماعة منهم هم «القدريّة» كانوا هم الذين حملوا لواء تدميره • وكان هشام بن عبد الملك قد نفى هؤلاء القدريّة خارج البلاد الى « دهلك »^(١) فاستبقاهم الوليد هناك وكانوا — فيما

(١) هي جزر في البحر الاحمر تقابل مصوع وكان للامويين علاقات واسعة مع تلك المناطق .

يبدو - على علاقة واسعة ، من الناحية السياسية ، مع العلويين ويقولون -
بخلاف الرأي الأموي الجبري - بحرية الانسان ومسؤوليته عن أعماله
... وهكذا تراكمت عناصر الثورة على الوليد وتزعما ابن عمه يزيد بن
الوليد (يزيد الثالث أو الناقص) في دمشق فما هي إلا أن وصلت مجموعة
من الثائرين الى «الغدف» لاتجاوز الألف حتى انهزمت حامية الوليد
فدخل غرفته ووضع المصحف بين يديه وقال : يوم كيوم عثمان ! ...
وكان ذلك !

وأعلن يزيد الثالث السير بسيرة عمر بن عبد العزيز . خطبته التي
ألقاها لتبرير ثورته وخلافته اكد فيها تعهده باتفاق خراج الأمصار فيها .
وعدم إقامة الابنية والقصور والأخذ بالشورى ... الخ ولكن مصرع
الوليد كان أول مصرع لخليفة أموي بعد عثمان . وقد نسي الناس منذ
مقتل الامام علي أن الخلفاء يقتلون . كما كانت أول مرة في البيت
السفياي تؤخذ فيها الخلافة بالقوة والقهر لا بالعهد والشرعية ، وهذا
ما يفسر تردد الناس والولاة والامصار في البيعة ليزيد الثالث الذي
ناصرته «القدرية» أوسع المناصرة وكاد يتشكل من حوله الحزب
السياسي الأموي - اليماني ذو الرأي القدري والمتمركز في دمشق لولا
أن المنية فاجأته قبل أن يقضي ستة أشهر في الحكم ... فقضي في السنة
نفسها التي قتل فيها الوليد سنة ١٢٦ .

ولقد استخلف يزيد الثالث من بعده أخاه ابراهيم بن الوليد
بإشارة القدرية إلا إن بادرة يزيد نفسه في التسلط على الخلافة بالقوة
وبقتل الخليفة الشرعي فتحت الباب ليطمع الأمراء الأمويون الآخرون
بالعرش . وحين توفي يزيد الثالث كان شيخ بني أمية وأبرز رجالهم هو
مروان بن محمد ، المحارب المجرب ذو الخمسة والخمسين عاماً . وكان
طبيعياً أن يطمح للخلافة ولكنه أراد على ما يظهر استئصال الطامعين

الشرعيين فيها من أبناء بيت عبد الملك فأعلن البيعة لولدي الخليفة القتييل : الوليد بن يزيد • وكان الولدان بدمشق أي في قبضة الخليفة الجديد ابراهيم • فكانت بيعة مروان لهما كافية لإلقائهما في السجن ثم تقديمهما الى النطع ... وأعلن مروان بن محمد المطالبة بدم الأخوين القتيلين • بعد أن كان يحارب لخلافتهما ، وكان جيشه يسير من الجزيرة الى الشام فلم يجد بعد هزيمته لقائد جيش ابراهيم من مقاومة تذكر حتى دخل دمشق على ابراهيم ... ولم يجد صعوبة في أخذ البيعة لنفسه حتى من ابراهيم ، الخليفة القائم ذاته •

على ان خلافة مروان بن محمد لم تنقل الحكم من بيت عبد الملك بن مروان إلى بيت أخيه محمد فقط ولكنها في الوقت نفسه قلبت مراكز الثقل في الحكم الأموي رأساً على عقب وأعطتها صيغاً وأمكنة وتكوينات جديدة كان من الممكن أن تدعم هذا البيت أحسن الدعم لولا أنها كانت في أول نشوئها حين انتصر العباسيون في معركة الزاب :

فقد كانت دمشق قد ضعفت الضعف الواضح بانتقال الخلفاء عنها منذ عهد هشام وبكثرة الأوبئة والطواعين التي أصابتها ، نتيجة لتكاثر السكان فيها ، وبضعف أوضاعها الاقتصادية إثر تحول طرق التجارة العالمية إلى العراق والجزيرة • ثم جاء مروان فكرس إضعاف دمشق نهائياً ، بعد طول الإهمال ، بنقل العاصمة منها إلى الجزيرة • نقل الدواوين والأموال ومقر الخلافة إلى حران ثم أنشأ في شرقي حران ، في المنطقة المسماة باسم الموصل^(١) ، مدينة له • شق فيها الطرق وبنى

(١) انظر خبر ذلك في مادة الموصل لدى ياقوت في معجم البلدان •

السور وأقام المسجد الجامع وسكن وأسكن .. ليجعل منها عاصمة الدنيا .

ولم تكن نقلة العاصمة أمراً عادياً فقد كان ذلك يعني التخلي عن أهل الشام أي عن العصبية والمنطقة والمدينة التي كانت ، منذ عهد معاوية الأول ، سند الحكم الأموي . وكلمة أهل الشام كانت دوماً تعني جنوب الشام منذ شمال حمص خاصة حتى العقبة وقد يشمل أحياناً بعض الأرضين حتى قنسرين . وكتلة السكان العرب في هذا الشام كانت من قبائل كلب اليمانية وعلى هذه القبائل أقام معاوية حكمه ، وعليها أقامه مروان بعد أن كسب بها معركة مرج راهط؛ وإليها استند الخلفاء واحداً بعد الآخر حتى أخطأ يزيد الثاني فقضي على المهالبة ثم جاء مروان فانسحب من المنطقة كلها ليستقر ضمن القبائل القيسية في الجزيرة ويعلن العداء للشام الجنوبي ولمن فيه . ولهذا فإنه حين انهزم قرب الموصل لم يستطع الوقوف في الشام كله وكانت أول محطاته ، بعد الجزيرة ، في مصر !

وقد رافق انتقال مركز الخلافة الى الجزيرة امران هاما بظلهما مروان أيضاً :

الأول : انتقال قطع كبيرة من الجيش الشامي الى الجزيرة ، لتكون بجانب الخليفة هناك ولتتابع المعارك التي ظل يقودها أكثر من خمس عشر سنة في ارمينية وما وراء القفقاس حتى أرض الخزر في قلب روسيا وعلى نهر الفولغا . ولم يكن لهذا الانتقال - فيما عدا الناحية الاقتصادية - أن يترك الأثر الكبير لولا أن مروان المحارب القدير قد حطم التكوين القبلي للجيش واستبدل به تنظيمًا آخر يعتمد على التجنيد التطوعي

ونظام الكراديس • لم يعد الجيش كتائب قبلية تجاهد في الصيف ثم تعود في الشتاء الى مراكزها ومنازلها بل أضحي فرقاً منظمة ، تعتمد علي التدريب وترتبط بقائد يعهد إليه الخليفة بجمعها وتنظيمها وتحمل في النهاية اسمه (كالوضاحية والذكوانية) لا اسم القبيلة • اختفت اسماء القبائل من الجيش وحلت اسماء القواد بدلا منها وحلت الرواتب المنظمة بدل العطاء وأسهم الغنيمة • ومروان بن محمد لم يكن هو الذي أوجد هذا النظام ولكنه هو الذي كرسه وجعله نظامه وهذا ما أوجد من حوله في الجزيرة مجتمعاً عسكرياً جديداً قد تكون قاعدته الواسعة قيسية ولكنها تضم أيضاً الكثير من اليمانيين المتطوعين للعمل الحربي • كما انه عطل بهذا الشكل نفسه عمل المجتمع الشامي الجنوبي من الناحية العسكرية وحوله نهائياً إلى مجتمع مدني بعيد عن التأثير في توجيه سياسة الدولة

الثاني : تبنى الخليفة مروان وجماعته رأياً دينياً – سياسياً مميزاً هو الذي أعطى مروان لقب (الجعدي) • فإن هذا المجتمع العسكري ، ذا الزعيم والعاصمة والعصية ، كان في الوقت نفسه ذا رأي ديني خاص أيضاً هو مذهب الجعد بن درهم • وكان الجعد يقول – بين ما يقول – بأمرين :

أولهما : الجبرية ، وأن الانسان مسير غير مخير • الله خلق له أفعاله فليس له إلا تنفيذ مشيئة الله •

الثاني : نفي بعض صفات الله كالكلام • فالله لم يكلم موسى تكليماً ولا اتخذ ابراهيم خليلاً بالمعنى الذي تفهمه من الكلمتين • وعلى هذا المنطق نفسه فالقرآن مخلوق • لأن كلام الله ليس ذاته وليس بالقديم ولكنه محدث

وإذا كان القول بالجبرية هو الرد الأموي الفكري على الآراء العلوية التي كانت تقول بالاختيار ومسؤولية الانسان عن عمله ، فإن القول بنفي بعض الصفات عن الله كان يتلاءم مع ما يجب أن يقول به المسلمون في مجتمع كمجتمع الجزيرة يتكون معظمه من النصارى كما يجاور الروم وهؤلاء وأولئك يؤمنون بأن السيد المسيح كلمة الله وأنه ذاته ومنازعات الجدل النظري كانت لا بد أن ترافق العلاقات الحربية بين المسلمين وبين هؤلاء ...

وهكذا كان البيت الأموي يتجدد على نحو ما ، ويحقق نهضته الخاصة على يدي الخليفة مروان: يتحول الى أبناء محمد بن مروان ويبنى مجتمعاً عسكرياً ضمن عصبية جديدة في مستقر جغرافي مختلف وعاصمة مستحدثة وفي إطار أفكار دينية - سياسية خاصة ... هاجراً بذلك والى حد كبير المجتمع والعصبية والمكان الجغرافي والعاصمة والى حد ما الأفكار الدينية التي كانت تسانده قرابة القرن ... كان كذلك حين فوجيء بوصول الثوار العباسيين الى الزاب . وكانت الثورة من العنف والمفاجأة بحيث لم يستطع التكوين الجديد أن يصمد لها فسقط مروان رغم كل ما تحلى به من صفات الخليفة القوي المحارب الصبور تحت سناكبها لأن التكوين الأموي الجديد لم يكن من القوة ولا النضج بحيث يستطيع أن يسند ظهره .

٦ - العلاقات الخارجية (الحرب الاقتصادية مع الروم)

بين عوامل سقوط العهد الأموي ثمة وجه سياسي اقتصادي مهمل لا يعيره الباحثون أي التفات رغم شأنه الكبير ، هو تلك الحرب الاقتصادية التي كانت قائمة بين الدولة العربية والروم مدة تزيد على

أربعين سنة ، من أواخر ذلك العهد • وقد نجمت عن تلك الحرب الباردة أزمة اقتصادية قاسية في الشام ومصر خاصة لا تقل أثرًا عن غيرها من الازمات في تدمير الحكم الأموي •

وبالرغم من أن هذه الناحية تحتاج الى المزيد من الدرس والتعمق إلا إنه ليس من الصعب تسجيل الخطوط العريضة لها^(١) • والتي يمكن أن تكون الخلفية المادية للثورة وأحد الاسباب الاقتصادية الأساسية التي عملت على هدم العرش الأموي •

فإن توقف الفتوح قد انقص دون شك من موارد المقاتلين العرب ، ولكنه لم ينقص من موارد الدولة بالشكل الذي يجعلها تهتز وقد عوض الأمويون عن نقص الموارد المختلفة ، بعد موجة الفتوح الأولى بالاصلاح الضرائبي الذي تم زمن عبد الملك وخاصة في الشام ومصر والجزيرة والعراق (مع الحجاج) ، وكان الدخل العام في مصر وأفريقيا وفي الشام خاصة حتى أواخر القرن الثاني من الوفرة بحيث يسمح بحياة اقتصادية مزدهرة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط قوامها حرية التجارة مع البيزنطيين وعبر أسطولهم وموانئهم في جنوب أوروبا ما بين إيطاليا والناضول ، مع أوروبا الوسطى والغربية • وقد كانت هزيمة « ذات الصواري » البحرية ٦٥٥ قد اسلمت البحر المتوسط وتجارته لأيدي العرب • ولم يقاوم البيزنطيون التوغل التجاري العربي لأنهم كانوا أول المستفيدين منه كما أن هذا التوغل ظل على ما يظهر في الأيدي التقليدية

(١) درس ارشيبالد لويس جوانب من هذه العلاقات الخارجية في الفصل الثالث « فصل الغزو العربي » من كتابه : « القوى البحرية والتجارية في البحر الأبيض المتوسط » .

للمطبقات التجارية المحلية في شواطئ الشام ومصر كما ظل يجري بالنقود البيزنطية ودون أي تدخل أو توجيه من نظام الحكم في دمشق •

وقد استفادت البلاد الشامية لا من وجود عاصمة الخلافة الإسلامية عندها وتدفق أموال الخراج والغنائم عليها فقط وتركز السلطات والقوى الامبراطورية في الشام ولكن من إلغاء مراكز المكوس القديمة التي كانت تقوم زمن الساسانيين والبيزنطيين على الحدود بين الشام والعراق والجزيرة أيضاً • وبالمقابل فإن مصر التي طالما قاوم الساسانيون النشاط التجاري المتحرك منها واليها عبر البحر الأحمر أيام البيزنطيين والرومان من قبلهم حتى إنهم احتلوا في أواخر القرن السادس بلاد اليمن لإغلاق ذلك البحر على التجارة الرومية ، مصر هذه انطلقت حرة التبادل ^(١) في البحرين الأبيض والأحمر على السواء اللذين اتصل أحدهما بالآخر في عهد عمر بن الخطاب بخليج أمير المؤمنين • ولقد قال رحالة أوروبي زار الاسكندرية ٧٠٥ م هو (أركولف) ان الاسكندرية غدت ملتقى تجارة العالم كله تتوافد عليها الاعداد الغفيرة من التجارة لشراء ما بها من البضائع • وهذا الرخاء في وادي النيل في مطلع القرن الثامن جعل الوالي يبعث الى دمشق يسألها أين يضع الموارد التي لم تعد خزائنه تتسع لها فأمر أن يبنى بها المساجد ! أما ثراء شمال افريقيا والاندلس فتكشف عنه مبالغ الخراج الهائلة التي كان يرسلها ولاية تلك البقاع الى دمشق •

(١) لنلاحظ ان الوحدات البحرية العربية في البحر الاحمر ساعدت والي مصر في ثورته سنة ٦٨٤ ضد خليفة دمشق ونقلت هذه الوحدات قوات محاربة الى الحجاز سنة ٦٩٢ (انظر فييت : مصر العربية بالفرنسية) ص ٣٩ و ص ٤٤

الحرب الاقتصادية : وقد حدث في مطلع القرن الثامن تطور أدخل الاضطراب على مسالك التجارة التقليدية وطرقها البحرية والبرية في شرقي المتوسط : فقد حاول الروم البيزنطيون ان يبدلوا بالطرق المارة من بلاد العرب وبحارهم طريقاً آخر شمالياً يمر عبر البحر الأسود إلى بلاد الخزر ثم يتصل بالصين عبر السهوب التركستانية . ووطد الروم صلاتهم حتى المصاهرة مع ملوك الخزر في الوقت الذي حاولوا فيه مرات عديدة استغلال الجماعات المسيحية^(١) على الشواطئ الشامية والمصرية لإثارة الفتن في البلاد الاسلامية وتقوية الاسطول الرومي لتظل مفاتيح التجارة في أيديهم . وقد شعر عبد الملك بن مروان بكل ذلك وبأن البيزنطيين يحاولون تدمير الوحدة الاقتصادية والتقليدية للبحر الابيض المتوسط التي أبقي عليها العرب بعد الفتح . وأنهم كما قال المؤرخ ييرين، «في حرب الحياة والموت مع الأمويين يحاولون استخدام كافة مaldiهم من وسائل الحرب البحرية والاقتصادية» ولهذا ولأن الدولة الاسلامية كانت قد بلغت رشدها ونموها المستقر فقد خطا عبد الملك خطوة تعريب الدواوين ، والسكة ، وفرض الرقابة على بعض بضائع التجارة فمنع تصدير ورق البردي من مصر الى بيزنطة . وبديل شعار الثالوث عليه نصاً توحيدياً عربياً . أدخل عبد الملك بذلك عنصراً جديداً على حرب العرب للروم هو العنصر الاقتصادي الذي طالما استغله الروم قبل ذلك . وفي الوقت الذي فاوض فيه عبد الملك امبراطور بيزنطة لنقل بعض السكان (المردة) من سواحل الشام الى أرض الروم للخلاص منهم ، لم

(١) لم تنفع محاولة معاوية توطين بعض الجماعات من الفرس على الشاطئ الشامي ، في الحد من هذا الاستغلال الذي اخذ ابعاداً واسعة زمن ثورة عبد الله بن الزبير ومطالع حكم عبد الملك . وكان « المردة » في لبنان هم رأس الحربة في الدسائس الرومية .

تكن الحملات الحربية العادية بين الطرفين لتتوقف . وهكذا اتسعت الحرب بينهما في الميادين فأضحت برية ، بحرية ، سكانية ، اقتصادية .

وبالرغم من أن الامبراطور جستينان الثاني قد دخل القتال سنة ٦٩٣ جواباً على التداير العربية وخسر ذلك القتال ثم دخل الحرب حين عاد إلى العرش مرة أخرى بغارة بحرية فاشلة على مصر سنة ٧٠٩ إلا إن الحرب الاقتصادية استمرت من بعده ومن بعد عبد الملك على يد ابنه الوليد الذي زاد ففرض الرقابة على حركة التجارة في مصر خاصة : فالسفن النيلية خاضعة للتفتيش ، ويقتل من قد يوجد عليها من الروم دون اذن مسبق ، وعلى التجار الحصول على جواز يسمح لهم بالسفر الى خارج القطر ولم يضعف من تلك التداير — بل لعله زاد فيها — فشل الهجوم العربي الثالث — والأخير — على القسطنطينية سنة ٧١٧ — ٧١٨ .

وقد قابلت بيزنطة التداير العربية بأشد منها وفرضت نوعاً من الحصار البحري التجاري ضد المسلمين في السواحل التي تخضع لها سواء في ايطاليا أو موانئ اليونان أو قبرص أو شواطئ الاناضول . ولما كانت لا تستطيع فرض الحصار الشامل بسبب حاجتها الى بعض البضائع التي لا بد أن تمر عن طريق بلاد العرب كالتوابل فقد خصصت ميناء طرابزون على البحر الأسود ، ثغراً لدخول كافة التجارات العربية الى بيزنطة ، والهدف من ذلك تحويل الثقل التجاري من موانئ مصر والشام الى الداخل البري ، عبر العراق وأرمينية . وربطه بمرافأ آمن من الهجوم العربي وتحت يدها المباشرة يصبح نهاية للتجارة العربية معها .

ومنذ فشل الهجوم العربي الثالث على بيزنطة سنة ٧١٨ انتشرت القوة

البيزنطية البحرية في البحر الابيض المتوسط وامتلكت عدداً من الجزر
المواجهة للشاطئ الأوروبي : جزر الباليار ، سردينية ، كورسيكا ، بعد
أن شددت قبضتها على قبرص وكرت قأمت بذلك امتلاك سلسلة المراكز
الأمامية للمراقبة والحصار • وما من شك في أن الثورات والاضطرابات
العديدة التي قامت في النصف الأول من القرن الثامن وخاصة بعد مقتل
الوليد الثاني ١٢٦/٧٤٤ في افريقيا وفي مصر وفي الشام والعراق
وخراسان لم تكن جذورها سياسة أو دينية فحسب ولكنها كانت أيضاً
نتيجة الضائقة الاقتصادية المتزايدة بسبب هبوط الحركة التجارية عامة
في شرقي المتوسط • والقيود التي فرضها الطرفان • كل من جانبه ،
عليها • وقد تبادت هذه الثورات بدورها فتركت آثارها في إيقاف الحركة
التجارية الداخلية وتعطيل الانتاج الزراعي •

ولعله من الهام أن نذكر أن آثار هذه الحرب الاقتصادية وصلت
حتى الى فرنسا التي عانت بعد سنة ٧١٦ كساداً اقتصادياً واضحاً وانقطع
تجار سورية ومصر عن موانئها الجنوبية وتوقفت منذ أواسط القرن
ولمدة خمسين عاماً عن ضرب العملة الذهبية واكتفت بالعملة الفضية •
وهجر البحر المتوسط عامة بعد أن كان مجاز التجارة الكبير بين الشرق
والغرب •

وإذا عدنا إلى الشام مقر الخلافة الأموية وجدنا مما يلفت النظر
أن يحاول مروان بن محمد الخلاص من ثورات الشام واضطراباتهما
بنقل عاصمته الى حران على طريق التجارة الحي بين العراق وطرايزون
وأن لا يتحول الخلفاء العباسيون البرائل ، أثناء بحثهم عن عاصمة

جديدة عن محور خليج البصرة – الموصل فتتعدد عواصمهم الأولى قبل أن يستقروا أخيراً في بغداد ثم بعد ذلك في سامراء وكلها مدن تقوم على هذا المحور نفسه •

وهكذا يظهر كأننا كانت نتيجة الحرب الاقتصادية مع الروم هي التي سوف تحدد مصير النظام الأموي • ويظهر كأننا سقطت الخلافة الأموية اقتصادياً قبل سقوطها السياسي بسبب التدهور الاقتصادي – التجاري في القطرين الأساسيين اللذين تستند إليهما وهما : الشام ومصر •

العمليات البحرية :

ولقد حاول الأمويون المقاومة العنيفة دون شك بعد فشل هجومهم على القسطنطينة سنة ٧١٧ ، فقد كان لديهم أسطول سورية وأسطول مصر ثم أضافوا إليهما بعد سنة ٧٠٤ أسطولا أفريقياً فأغاروا على قبرص سنة ٧٢٦ • وفرضوا عليها الجزية الضخمة ، ثم أغاروا عليها كرة أخرى سنة ٧٤٣ وحملوا معهم عدداً كبيراً من الأسرى • وتعرضت صقلية في سنوات : ٧٢٧ – ٧٢٩ – ٧٣٠ – ٧٣٣ – ٧٤٠ – ٧٥٢ لغزوات الاسطول الإسلامي • وأغار العرب على سردينيا سنة ٧٣٥ و سنة ٧٥٢ ولم يهزموا إلا مرتين سنة ٧٣٣ و سنة ٧٣٥ ولكن الاسطول البيزنطي الذي كانت قواته تتكون من أسطول مركزي امبراطوري وأربعة أساطيل إقليمية ترابط ثلاثة منها في الحوض الشرقي من المتوسط والباقي في الحوض الغربي ، جمعت قياداته الشرقية ، في عهد ليو الثالث الايسوري ، بيد قائد أسطول جنوب الأناضول ، الذي أعطي لقب القائد العام للاسطول • وقد

استطاع هذا الاسطول ، بعد أن أضحى أضخم بكثير مما يلزم للحاجات الدفاعية في المنطقة ، في عهد قسطنطين الخامس ، أن يضيق الخناق سنة ٧٤٧ على العمارة البحرية العربية التي كانت تزيد على ألف سفينة وأن يطوقها بالنار الاغريقية في شمال قبرص ويمزقها شر ممزق فلم ينج منها سوى ثلاث سفن هاربة .

وإذا كانت هذه المعركة البحرية الفاصلة سنة ٧٤٧ هي الجواب ، بعد مائة عام تقريباً ، على معركة ذات الصواري سنة ٦٥٥ ، وإذا كانت قد أعادت سيطرة الروم على البحر المتوسط ، فانها لحد كبير قد ختمت جولات الصراع في الحروب الاقتصادية مع العرب وأعطت مفاتيحها للروم مدة طويلة بعد ذلك . وإذا كانت يزنطة قد أيدت نصرها هذا بنصر آخر سنة ٧٥٢ أنهى السفن البحرية العربية تماماً : فإن الامويين كانوا قد زالوا قبل ذلك بسنتين وتولى الأمر من بعدهم العباسيون ، وكان النظام الاموي ، قبل أن يهزم في معركة الزاب السياسية سنة ٧٥٠ قد هزم في المعركة الاقتصادية سنة ٧٤٧ .

٧ - الأمل :

ان استعراض هذا الوضع كله يفسر لنا سوء الوضع العام للخلافة الاموية ويفسر لنا تلك النظرة السوداء اليائسة التي كان ينظر بها رجال تلك الفترة إلى المستقبل والتي عبر عنها عباس بن الوليد الشاعر في قوله يخاطب الامويين :

اني أعيدكم بالله من فتن
مثل الجبال تسامى ثم تندفع
ان البرية قد ملت سيادتكم
فاستمسكوا بعمود الله وارشدوا

ونرى هذا اللون الاسود مرة أخرى في قصيدة للحارث بن عبد الله الجعدي يقول فيها :

أبيت أرعى النجوم مرتفقا	إذا استقلت تجري أوائلها
من فتنة أصبحت مجللة	قد عم أهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن	بالشام كل شجاء شاغلها
فالناس منها في لون مظلمة	دهماء ملتجة غياطلها
والناس في كربة يكاد لها	تبذ أولادها حواملها

وقد كانت تعوز الامويين في تلك الفترة - مع تسرقهم الداخلي - القوة المعنوية الضرورية من طموح ناشيء أو مبدأ ديني لقسع تلك الثورة النفسية المتراكمة في النفوس أو لتبديدها أو امتصاصها بعسل ضخيم .

وفي مثل هذه الاحوال - في العادة - يترقب الناس معجزة تنقذهم . وهذا ما يفسر لنا شيوع فكرة المهدي المنتظر في تلك الآونة بين الشعوب الاسلامية^(١) وظهور أفكار أخرى غيرها قائمة على التنبؤ : كالتنبؤ ببعض الاحداث (ع بن ع بن ع يقتل م بن م بن م)^(٢) يعنون عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس يقتل مروان بن محمد بن مروان أو التنبؤ بمصير العالم أو برجة عيسى بن مريم أو المهدي

(١) هذه الفكرة قديمة جدا ولئن شاع انها اسرائيلية الاصل فهي في الواقع منتشرة بين جميع الشعوب : تظهر في خرافة تيفون وخورس عند قدماء المصريين وفي خرافة ميترا لدى الفرس ، وفي كتب الصين القديمة وفي عقائد الهنود ، ولا تزال آثارها الى اليوم في اسكاندينافيا والمكسيك ولدينا نحن .

(٢) انظر الطبري ج ٧ ص ٣٢٠ (٢/١٩٠٣ - ١٩٠٤)

(المخلص ، المسيح) وهذه الفكرة الاخيرة قد صيغت إذ ذاك على الشكل التالي : سيظهر رجل ذو أعلام سود من المشرق ويزيل عرش بني أمية . وقد يخامرنا الشك في صحة ظهور هذه النبوءة بهذا الشكل في ذلك الوقت . لكننا نلاحظ ان محمد بن علي العباسي قد يكون أشار إليها في وصيته لابي مسلم حين ختمها بقوله : « أما بعد فاني أنفءال الى المشرق ، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » . ولقد كان هذا التفاؤل في محله لانه بناء على ما يعرفه من الدعوة السرية العباسية .

ولعله من الهام أن نلاحظ أن الحزب الاموي حاول استغلال الفكرة نفسها لمصلحته وقد ادعى الامويون ، في نوع من الدعاية المضادة ، أن « المهدي » المنتظر هو من بني عبد شمس أو أنه عمر بن عبد العزيز أو أنه « أشج بني أمية » . روى ابن سعد في الطبقات الكبرى قول العززمي : «... سمعت محمد بن علي (وانظر نسبة القول الى صاحب الدعوة العباسية الذي إن صح النقل عنه فقد قال ما قال سنة ١٠٠ وقبل تنظيم الدعوة) يقول : « النبي منا والمهدي من بني عبد شمس ولا نعلمه إلا عمر بن عبد العزيز » قال : « وهذا في خلافة عمر بن عبدالعزيز . كما روى ابن سعد قول أبي يعفور نقلا عن مولى لهند بنت أسماء : «... قلت لمحمد بن علي : إن الناس يزعمون أن فيكم مهدياً . قال : إن ذاك كذلك . ولكنه من بيت عبد شمس . قال كأنه عنى عمر بن عبد العزيز...» وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال لمن سألته عن المهدي : « هل رأيت الأشجع عمر بن عبد العزيز... قال نعم . قال : فهو المهدي...» (٢) .

(١) انظر الطبري ج ٦ ص ٥٦٦ (٢/١٣٦٢ - ٣)

(٢) ابن سعد الطبقات الكبرى ج ٥ - ١ ص ٢٤٥

واستغل الامويون فكرة «السفياني» المنتظر ولعلها إشاعة تنبؤية راجت بعد انتقال العرش الاموي إلى المروانيين لكنها في أواخر العهد الاموي وجدت سوقاً رائجة . وقد حاول بعض السفيانيين تجسيد تلك الشائعة ومنهم أبو محمد السفياني ، زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية الذي ثار أولاً سنة ١٢٦ فحبس في حران وأطلقه مروان بن محمد سنة ١٢٧ ثم « خرج ودعا إلى نفسه فبايعه ألوف وزعموا أنه السفياني . . . »^(١) حين انتصر العباسيون .

على أن الناس عامة كانوا — فيما يظهر — أكثر ميلاً إلى تصديق النبؤات الاخرى التي تصوغ أمانيتهم على شكل يخلصهم من الحكم الاموي . ومع أن الشك يحوم حول قصة من هذا النوع ذكرها الطبري فإننا نذكرها لأنها قد تكون في أصلها ، وقبل وضع المعالم الواضحة من الاحداث في سطورها ، صحيحة . يقول : إن بعض اليمانية . بعد عودتهم من مكة تجادلوا مع نصر بن سيار في تدهور الامور واتهم كل طرف الآخر فقال رجل من أهل القرى حول جرو كان معهم : « أيها الامير . حسبك من هذه الامور والولاية . فإنه قد أطل أمر عظيم . سيقوم رجل مجهول النسب يظهر السواد ويدعو إلى دولة تكون . فيغلب على الامر وأنتم تنظرون وتضطربون . . . » فقال نصر : ما أشبه أن يكون لقلّة الوفاء واستجراح الناس وسوء ذات البين »^(٢) .

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق (مخطوط الظاهرية) ج ٦ ورقة ١٨٥ وجه ويذكر في العيون والحدائق لمؤلف مجهول (طبعة دي غوية ج ٣ ص ١٢٠ ثم ص ١٢٨ و ص ١٣٩) أن أبا محمد هذا كان يحمل لقب السفياني منذ عهد هشام بن عبد الملك ويدعى ذلك .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٣٣٨ — ٣٣٩ (٢ / ١٩٣٠) .

الفصل الثاني

الثورة العباسية

١ - مقدمات الثورة : (البؤرة والدعوة) :

عرف الحكم الاموي نهاية الفاجعة سنة ١٣٢ / ٧٥٠ . وقد جاءت هذه النهاية شبيهة بالقدر المحتوم نتيجة عدد من العوامل والظروف اشتركت فيها من جهة الظروف الاجتماعية والاقتصادية السيئة وما رافقها من مساوئ السياسة المالية والادارية ومن دعاية التيارات السياسية - الدينية المناوئة ، ومن التدهور الاقتصادي في الشام ، كما اشترك فيها من جهة أخرى عناصر أخرى بعضها من عمل بني العباس وبعضها من عمل الامويين أنفسهم . وإذا كانت العناصر الاولى عناصر ثأنوية مساعدة ، فان الاخيرة كانت هي الاساسية والحاسمة . بل إن تواقى العمل العباسي مع مرور الامويين بالازمة الحادة في الشام ، هو الذي قطع الحبل بيني أمية . فقد عرف الامويون هزات أقسى وأعنف واصطدم حكمهم بثورات أكثر خطراً وقوة من الثورة العباسية سواء في مكانها الجغرافي ، أو في رجالها وأنصارها فتجاوزوها وبقوا في سدة الحكم لانهم كانوا مالكين كل الملك مستقرين أقوى الاستقرار في قاعدتهم الكبرى في الشام . وإذا استطاعت الثورة العباسية أن تنجح حيث فشلت ثورات

ابن الزبير أو ابن الاشعث أو المختار أو الخوارج أو العلويين فإن
الاسباب الأساسية إنما تعود إلى ثلاثة عوامل التقت على إنجاح بني
العباس وإسقاط بني أمية :

١ — أزمة الامويين في الشام وانشغال الاسرة بتمزقها وبناء تكوينها
الجديد في الجزيرة • وقد رأينا ملامح الصورة في ذلك وهي
صورة يمكن اعتبارها ملامح نهضة أموية لم تكمل ولم يمهلهما
الوقت لاستكمال عدتها ومداهما •

٢ — نجاح العباسيين في اختيار وفي كسب المكان الملائم للتحرك
الناجح ، وهو خراسان ، فقد عثروا فيه على إقليم واسع ،
غني ، بعيد عن متناول بني أمية ، كثير العناصر الناقمة ، نقمة
كافية سواء في عمقها أو في سعتها وفي عدد من تتناولهم للقيام
بثورة مسلحة ناجحة •

٣ — اعتماد بني العباس على دعوة سرية نظمت التنظيم الذكي الدقيق
وعمل عليها العمل الدائب أكثر من ربع قرن حتى استطاعت
أن تجمع حولها مختلف العناصر الناقمة وتدفعها في اتجاه
الثورة ، تحت شعارات غامضة يتصل أهمها بالدفاع عن آل
بيت الرسول (ص) الذين أصيبوا أمام القوة الاموية
بعدد من النكبات والهزائم الدامية •

وإذا كانت أزمة الامويين هي العنصر السلبي في هذه العوامل
الثلاثة فإن اختيار خراسان كبؤرة وتنظيم الدعوة كعمل سياسي كانا
هما العنصران الايجابيان وكانا هما العمل العباسي الجديد المختلف
عن الاعمال والثورات العلوية السابقة • وعند هذين العنصرين تقف
بعض التحليل :

ومن الهام أن نوضح ، منذ البدء ، أن ثمة صورة خاطئة أضفاها

يُعض المؤرخين العباسيين ، من ذوي الاصل الايراني^(١) ، على الحركة العباسية وتناقلها عنهم المؤرخون من بعد . ثم جاء بعض المستشرقين فأعطوها فلسفتها وصورتها العنصرية منذ أواخر القرن الماضي وتابعهم في ذلك أعداد من الباحثين العرب المحدثين وغيرهم . تلك هي الصورة التي تجعل الثورة العباسية على الامويين حركة فارسية ضد العرب . وتفسرها على أنها ثورة الموالي من الفرس ضد الطبقة العربية الحاكمة ، أي أنها حركة عنصرية واجتماعية . ولم تكن الحركة العباسية لا ثورة قومية ايرانية عنصرية ضد العرب ولا تمرداً طبقياً أو وطنياً ضد التمييز الاجتماعي أو التسلط العربي . وإذا كانت جغرافياً خراسانية انطلقت من إقليم إیراني ، وجرفت منها بهذا الشكل عناصر إيرانية عديدة فإنها كانت حركة عربية – إسلامية خالصة ببادئها وزعمائها وأهدافها . وقد قام بها جماعة من العرب كانت تسكن جانباً من جوانب الدولة القسوية (خراسان) ضد جماعة عربية أخرى حاكمة تركزت في الشام . واستغل الثوار في سبيل غايتهم أفكاراً دينية – سياسية راهنة . واضطرابات سياسية قائمة ، وأزمات اقتصادية كان يعاني منها الحكم الاموي نفسه في الشام ومصر وآلاماً مالية – ضرائبية كانت تعاني منها مختلف الاقاليم سواء في المشرق أو المغرب .

والواقع أن الثلث الاول من القرن الثاني الهجري كان فترة أزمات ذات منابت مختلفة ومظاهر متعددة في المجتمع الاسلامي

(١) نقرأ مثلاً هذا النص لدى حمزة الاصبهاني (تاريخ سني ملوك الارض ، ص ١٦٠) «... لما كان ... الذين قاموا بنقل الدولة إليهم (الى العباسيين) من بني أمية عجم خراسان باخفائهم جندهم من العرب والاعراب ... » .

الواسع • التطورات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية التي تمت في ذلك المجتمع خلال قرن من الحكم الاسلامي تجاوزت به الاوضاع القائمة منذ أيام الفتوح الاولى ، وخلقت كثيراً من التخلخل في مؤسساته • وقد كانت الثورة العباسية محاولة لحل تلك الازمات ، كما كانت تعبيراً عن الرغبة في الخلاص منها • وكانت عبقرية الدعاة العباسيين أنهم جندوا لتأييد الدعوة جماعات واتجاهات متباينة الاهداف ، رأت كل منها في هذه الثورة على الامويين تحقيقاً لمصالحها الخاصة وحلاً لمشاكلها • أو أنها حسبت ذلك •

ولعل نجاح الحركة العباسية يتضح ، بالاضافة إلى ما رأينا من الصورة العامة لاوضاع الدولة الاموية ، من خلال أمرين :

- الاول : سياسي اقتصادي يتعلق بأوضاع خراسان ، بؤرة الثورة •
- الثاني : ديني – عملي يتعلق بتكوين الدعوة العباسية في الفكر والتنظيم •

اولاً : اوضاع خراسان ، بؤرة الثورة (الوجه السياسي – الاقتصادي)

ونوجه الاهتمام بين أقاليم الدولة الاسلامية إلى هذا الاقليم في أقصى المشرق : خراسان^(١) لأن الثورة العباسية إنما تكونت

(١) خصص الباحث الدكتور محمد عبد الحي شعبان الجانب الاكبر من أطروحاته سنة ١٩٦٠ (الجدور الاجتماعية والسياسية للثورة العباسية) للبحث في اوضاع خراسان • كما كتب الدكتور صالح احمد العلي بحثاً

واكتملت سياسياً هناك • وتحليل الاوضاع في ذلك الاقليم يلقي الضوء على العوامل السياسية - الاقتصادية التي كونت الثورة وأعطتها مقومات النجاح • وبالرغم من أن تاريخ العراق بالذات ، في العصر الاموي ، كان يرشحه لقيادة الثورة التي تكتسح في يوم من الايام الحكم الاموي إلا أن قربته من الشام ، وكثرة الثورات الفاشلة فيه ، وبالتالي كثرة الشيع والاحزاب وتنبه الامويين الدائم له ، كل ذلك حرمه أن يكون مهد الثورة ونقلها إلى إقليم آخر ، تابع للعراق ، ومتصل به أوثق الاتصال عششت فيه التكوينات الأولى للتمرد ، فلما فضجت كل النضج قدمت ثمارها للعراق فكان هو الاقليم الذي قطف الثمار واستقرت به أسرة الثائرين •

وإذا تحدثنا عن خراسان من الزاوية السياسية الاقتصادية فيجب أن نميز ما بين ثلاثة مجموعات سكانية رئيسية فيها : العرب والاييرانيين والترك الموجودين فيما وراء النهر • ولكل منها أوضاعه الناقمة الخاصة :

العرب :

فحين افتتحت خراسان عقد العرب المسلمون مع مرزبان مرو معاهدة ترك فيها للدهاقين والمرازبة ، وهم الطبقة التي كانت لها السيادة ولها ملك الاراضي والضياع الواسعة والحكم السابق ، مهمة تقدير الضرائب وجبايتها • كما اشترطت المعاهدة افساح المجال لاستيطان العرب في ذلك الاقليم • وقد أنشأ الامويون هنالك قواعد

قيماً حول استيطان العرب في خراسان (مجلة كلية الاداب - بغداد سنة ١٩٥٩) .

ثابتة لمقاتلة العرب الذين كانوا يفدون من البصرة والكوفة خاصة مع قبائلهم وذرايرهم للقتال فيما وراء النهر وقد استقر هؤلاء بعد سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ خاصة وأخلدوا تدريجياً إلى حياة الاستقرار والتجارة والاستقلال الزراعي بدلاً من العمل العسكري . ولم يستقروا في المدن فقط مثل مرو التي وصفها الطبري بأنها « بيضة خراسان » ولكن في القرى المحيطة بالمدن أيضاً وخاصة حول مرو ، وحول بلخ حين اتخذها أسد بن عبد الله القسري مركزاً له وبنى القرى حولها لجنده . وكانت بعض القرى معروفة بأنها أزدية أو خزاعية أو طائية . وبلغ من اندماج هؤلاء العرب في المحيط الإيراني الفارسي أن اتخذوا مع أسمائهم القبلية أنساباً للمدن التي سكنوها . فهذا مروزي (حازم ابن خزيمة التميمي) وذاك طوسي (قحطبة بن شبيب الطائي ، والفضل ابن سليمان التميمي) وثالث كرمانى (جديع بن علي الأزدي) أو بلخي أو نيسابوري وتزوجوا الفارسيات وتكلموا اللغة الفارسية ولبسوا الملابس حتى صار من الصعوبة في عصر الجاحظ فيما بعد (أي في القرن الثالث الهجري) تمييز العرب المستقرين في خراسان عن سكان القرى الأولين . « . . . وقد نرى - كما قال - الناس أبناء الأعراب والأعرابيات الذين وقعوا إلى خراسان فلا نشك أنهم علوج القرى . . . » وهذا كله قد يوضح معنى كلمات : « أهل خراسان » و « أهل القرى » التي تستعمل في كتب التاريخ القديمة للدلالة على من نفر للدعوة العباسية فهي إنما كانت تعني العرب من السكان . وليس ثمة دليل على أن السكان الإيرانيين أو الموالي هم الذين نفروا للثورة ولا دهاقينهم والمرازمة .

وجموع العرب المقيمين في خراسان لم تكن بالقليلة في العدد ولا الضعيفة في العدة ، وأول ما نزل العرب خراسان كان حين أرسل

زياد بن أبيه أيام معاوية نحواً من خمسة وعشرين ألفاً من البصريين ومثلهم من الكوفيين إليها . وخمسون ألف مقاتل تعني خمسين ألف عائلة تتوطن هناك . ثم انضمت إلى هذه الجموع أقسام من قبائل الأزد كانت تحركت من عمان إلى العراق ثم مشيت مع زعيمها المهلب بن أبي صفرة إلى خراسان حين ولاء الحجاج ذلك الاقليم . فكان في جيش خراسان يومذاك عشرة آلاف من الأزد ومثلهم من تميم ومثلهم من قيس ونسعة آلاف من بكر وسبعة من عبد القيس (من ربيعة) . ولحق بهؤلاء وأولئك جماعات أخرى جديدة في زمن هشام بن عبد الملك وقسمت الدولة في العطاء لهؤلاء كما كانت قسمت لسابقيهم ، وأحياناً على حساب هؤلاء السابقين الذين تقاعسوا عن الحرب فإنما كان عمل الجماعة العربية هناك حماية الحدود من الترك ونشر الاسلام ..

وهكذا تألفت الكتلة العربية في خراسان من مختلف القبائل : ففيها أهل اليمن وفيها من هم من ربيعة وفيها المضرئون . ولم يكن ثمة أحزاب سياسية تمزق هذه المجموعة التي كان العمل الاساسي لها هو القتال على جبهة تركستان على أن هذا لا يعني أنه لم يكن بين عناصرها عصبية وإحن قبلية تضع بعضها ضد بعض وتثير بينها الفتن بسبب المصالح والعطاء والاقطاعات والثارات . كما لا يعني أيضاً أنه لم يكن لديها ما يثيرها ضد الحكم الاموي فالواقع أنه كانت لها أوجاع ومنازع أخرى للشكوى والنقمة عليه . فمن كان من العرب قديم الاستقرار والتوطن تقاعس عن القتال ، فلما حرمه الامويون العطاء زمن هشام نقم عليهم معتقداً أن العطاء حق مكتسب دائم . والمقاتلة الجدد الذين كانوا يفدون لسد حاجة الجبهة التركستانية زاحموا القدماء على عطائهم وأخذوه ولكنهم نقموا على الحكم الاموي

سياسة « التجبير » التي اتبعها فيهم أي إبقاء المقاتلة على الثغور في الشتاء فلا تسرح إلى أهلها في خراسان • وكان يزيد في حفيظة المقاتلين أن الوالي الأموي كان ينقص في عطاء الجند كما يخسهم جثهم في الهوى والغنائم ويختجز الكثير منها لدمشق • يضاف إلى هذا أن الدهاقين الفرس المتحالفين مع الحكام كانوا هم الذين يتحكمون في فرض الضرائب وجبايتها من الموالي ومن العرب الذين يستقرون على السواء •

وهذا ما جعل للنقمة العربية هناك جذورا اقتصادية سياسية كما أوجد تكتلات قبلية جديدة بين العرب لا تستند إلى العصبية القبلية القديمة التي اهتمت وملها الناس ولكن إلى المصالح الجديدة للقبائل العربية المتوطنة في خراسان • وفي التحليل السياسي الذي ينسب إلى محمد بن عبد الله العباسي والذي استعرض فيه أقاليم البلاد الإسلامية ومذاهبها السياسية واختار خراسان أعطى زعيم التنظيم ثلاثة أسباب لاختيار تلك البقعة مهدا للثورة • قال :

« ... عليكم بخراسان فإن هناك :

١ - « العدد الكثير والجلد الظاهر ... وهم جند لهم ابدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحي وشوارب ... » أي أنهم مقاتلون وكثيرون •

٢ - وهناك : « ... صدور سليمة وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ولم تنوزعها النحل ولم يقدح فيها فساد ... » أي لأحزاب سابقة ولا تنزق •

٣ - وهناك إلى هذا وذاك استياء عام من السلطة تعلنه : « ... أصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أفواه منكرة ... » •

ومن الواضح أن محمدا بن علي رأس الدعوة إنما كان يشير إلى العرب في خراسان خاصة (فهم الجند هناك) ويرفض غيرهم لأن « البصرة عثانية • والكوفة لآل علي والجزيرة حرورية مارقة والشام لطاعة الامويين ... »

ويبدو أن وحدة الصف العربي في خراسان كانت معروفة فحين ثار الحارث بن سريج سنة ١١٦ وقف بعض أصحابه يقول : « يا أهل خراسان • إنا كنا بمنزلة بيت واحد وثرنا واحد ويدنا على عدونا (الترك) واحدة • وقد انكرنا ماصنع صاحبكم^(١) » (يعني والي خراسان عاصم بن عبد الله) •

على أن عدوى التمزق القبلي مالبت أن دبت إلى هذه الجماعة العربية فانقسمت إلى المجموعتين المعروفتين قيس ويمن • وخاصة في مرو حاضرة خراسان ، وبعد موت الوليد الثاني وماتبعها من الشام •

وحين عين نصر بن سيار واليا على خراسان وتزعم القيسيين كان اليمانيون قد التفوا من حول جديع بن علي الأزدي (الكرمانى) إلا أن النزاع كان واهي العصبية من جهة كما أن الناس سرعان ما ملوه وضاقوا باستمراره من جهة أخرى لأنه لم يعد له من أساس رهن وقد ظهر للعرب هناك من المصالح الجديدة وضرورات التكتل المختلفة ما جعلهم يتجهون نحو تطور قبلي مصلحي جديد • يقول صاحب كتاب العيون والحدائق : « ... ولما رأى الناس أن شيعة بني مروان قد وقع بينهم الخلاف وبعضهم يقتل بعضا وأن جديعا الكرمانى قد قتل الحارث ابن سريج ، وتسلم مرو ، ثم ان نصراً قتل جديعاً ، وان علياً وعثمان

(١) الطبري ج ٧ ص ٩٧ (٢/١٥٧١) •

١) جديع مالا الى أبي مسلم وصادقاه وحلفا له دخل اكثر الناس في طاعته ...» (١) ويقول صاحب كتاب (أخبار الدولة العباسية) : «... فطالت الفتنة بين نصر بن سيار وعلي بن الكرمانى ومن كان بها من العرب حتى أضجر ذلك كثيرا من أصحابها وجعلت نفوسهم تطلع الى غير ما هم فيه والى أمر يجمعهم فتحركت الدعوة يدعو اليماني من الشيعة اليماني والربعي والربعي والمضري المضري حتى كثر من استجاب لهم وكفوا بذلك عن القتال والعصية ...» (٢) ولم تكن هذه الدعوة بالطبع عفوية ولكنها كانت بجانب جذورها العميقة المرتبطة بالمصلحة الاقتصادية ، نتيجة عمل النقباء والاثني عشر للدعوة - والذين كانوا جميعاً ، غير واحد منهم ، من العرب - وعمل من معهم من نظراء النقباء وباقي الدعاة السبعين وكتلتهم المعروفة كلها عريضة أيضاً وأيضاً .

وهذا التحول العربي نحو الاتجاه «الشيعة» العام ، الغامض الزعامة كان التحول الانقلابي الذي خسر معه نصر بن سيار ، والأمويون من ورائه ، قضيتهم لأن مختلف القبائل العربية انسحبت بذلك الى صفوف الثورة آملة بتغيير جديد . ولم ينفع نصر بن سيار ما أطلقه من الدعاية القوية البليغة لتشويه سمعة الشيعة العباسية ووصفه إياهم بالكفار الذين يعبدون الرؤوس والسنائير ، وبالرعاع ، وسقاط العرب وبالموالي والسفهاء والمجوس وبأنهم :

ليسوا الى عرب منا فنعرفهم ولا صميم الموالي إن هم نسبوا

(١) العيون والحدائق ص ١٨٨ .

(٢) أخبار الدولة العباسية ص ٢٤٨ .

فالعباسيون واجهوا ذلك بدعاية قوية مماثلة تستند الى أمر عملي وهو أنهم دعوا الى اجتماع بايعوا فيه سليمان الخزاعي شيخ النقباء العباسيين : «... على كتاب الله وسنة رسوله وإظهار العدل وإنكار الجور ورفع الظلم عن الضعفاء وأخذ الحق من الأقوياء . وقالوا :

لسنا نحابي على الرحمن من أحد فيما نطالب من مولى ومن عرب !

الايраниون : : إذا كان التذمر السياسي والخلاف القيسي اليماني ومشاكل العطاء قد حولت انظار العرب المستقرين في خراسان ، بفعل الدعوة العباسية ، الى مشكلة الحكم والخلافة فإن الجماهير الايرانية كانت بعيدة في الواقع عن التفكير بهذه المشكلة التي لا تهمها كثيراً . بقدر ما تهمها المشكلة الاقتصادية المالية المتمثلة في الواقع الضرائبي القاسي وسوء الإدارة .

فمنذ الفتح وجدت في خراسان كما وجدت بعد ذلك في ما وراء النهر مثل بخارى وسمرقند ضريبة واحدة مفروضة تدفع نقداً تنفيذاً لمعاهدات الفتح .

وتسمى هذه الضريبة خراجاً أحياناً وجزية أحياناً أخرى مما يدل على تواجد المعنيتين والضريبتين فيها هناك . وكان الدهاقين هم المشرفون على فرضها وعلى جبايتها تحت أنظار بعض العمال . ومن هؤلاء في زمن نصر بن سيار : بهرامسيس الذي لقبه نصر بمانح المجوس وذكر أنه « يمنحهم ويدفع عنهم ويحمل أثقالهم (أي ضرائبهم) على المسلمين (منهم) » .

وبهذا الشكل اتفقت مصالحهم مع رجال الدولة على حساب الرعية . ورضي الدهاقين - كما يقول المستشرق بارتولد - في العصور

الاسلامية الأولى في ايران بزوال شأنهم السياسي مقابل الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية التي نالوها في الاسلام^(١) . فكان الوضع هناك كما قال شريف أعجمي لعربي : « الشرف نسب • والشريف من كل قوم نسيب للشريف من كل قوم •• » وهكذا لم يبادر الدهاقين الى الدخول في الاسلام فقط ولكن دخلوا مع الولاة المسلمين في حلف مصلحي ودي • وكانوا محل ثقتهم وتعاونهم^(٢) كما كانوا يساعدون الجيوش الاسلامية العربية ضد الاثراك فيما وراء النهر ويحتفون بكبار العرب ويتملقونهم بالهدايا الثمينة في الأعياد والنوروز والمهرجان^(٣) •

وكانت ضريبة الخراج تفرض في خراسان وما وراء النهر على الرؤوس لا على مساحة الأرض يقول الطبري : « خراج خراسان على رؤوس الرجال » ويقول اليعقوبي « وخراجهم على رؤوس الرجال يوجبون على كل رجل بالغ جزية ••• »^(٤) • ومن السهل أن نفهم السبب في التفريق بين خراسان وغيرها في معنى الخراج وفي اختلاطه أو توحيده مع الجزية • إذ لو فرض الخراج على الأرض لوقع أكثره على الدهاقين وعلى كبار الملاكين العرب •

وحين نقص الخراج ونقصت بالتالي موارد الدولة بدخول الأعداد

(١) بارتولد - الحضارة الاسلامية (مغرب) ص ٦٥

(٢) ومثال ذلك علاقة نصر بن سيار بأمير بخاري تفشادة أو

(طوق شيادة) الطبري ج ٧ ص ١٧٦ (٢/١٦٩٣) •

(٣) الطبري ج ٧ ص ٥٠٣ و ٤٠٩ و ص ٤٦٣ •

(٤) الطبري ج ٧ ص ٥٤ (٢/١٥٠٧) • اليعقوبي (هوتسما) ج ١ ص ٢٠٧

من الموالي في الاسلام ، اعتبر الولاية تلك الضريبة خراجاً لا جزية واستمروا في فرضها . لا لأن إلغائها يتعارض فقط مع المصلحة المالية للدولة والولاية ولكن أيضاً لإضراره بمصلحة الدهاقين حياة الضرائب وفارضيتها على الناس . وقد ظهرت بارقة أمل بالإصلاح الاسلامي الذي فرضه عمر بن عبدالعزيز لكن هذه البارقة انتهت إلى الالغاء السريع ثم جاء أشرس بن عبد الله السلمي «فزاد في وظائف خراسان (أي ضرائبها) واستخف بالدهاقين» فكان ذلك سبباً في نقمة الطرفين على الدولة .

الى أن جاء نصر بن سيار (١٢٥ - ١٣١) فحاول تنظيم الضرائب في خراسان على الوجه العادل إذ قرر اعفاء المسلمين الموالي من «الجزية» ولم يلاق صعوبة مالية في ذلك لأنه وجد مقابل الألوف الثلاثين من الموالي المسلمين الذين أعفاهم ، ثمانين ألف مشرك لم يكن يدفع الجزية . ثم قسم خراسان الى مناطق ضريبية . وفرض على كل منطقة مبلغاً معيناً يجبي على الأرض أيا كان مالکها . أي أنه فصل مفهوم الجزية عن الخراج فألغى الأولى وعن أسلم وفرض الثانية على أصحاب الأرضين (٢) .

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٥٢٦ (طبع المنجد) .

(٢) يستلفت النظر أن نصر بن سيار حين قام بهذه الإصلاحات ، خطب إثر عودته من بعض الغزو سنة ١٢١ فكشف عن بعض الامور الهامة المتعلقة بالقضية الضريبية إذ قال : «الا ان بهرامسيس كان مانح المجوس يمنحهم ويدفع عنهم ويحمل أثقالهم على المسلمين . الا ان اشبداد بن جريجور كان مانح النصارى . الا ان عقيبة اليهودي كان مانح اليهود يفعل ذلك . الا اني مانح المسلمين . امنحهم وأدفع عنهم واحمل أثقالهم على المشركين . الا إنه لا يقبل مني إلا توفى الخراج على ما كتب ورفع ... فأيعا رجل منكم من المسلمين كان يؤخذ منه جزية من رأسه أو ثقل عليه في خراجهم وخفف مثل ذلك على المشركين فليرجع ذلك إلى المنصور بن عمر

وإذا كان طبيعياً أن ترضي هذه الإصلاحات سواد الشعب ولو أنها جاءت متأخرة ، إلا أنها أغضبت الطبقات المتنفذة من الملاكين العرب ومن الدهاقين^(١) على السواء وهم الذين كانت لهم معاً ، وباستمرار ، اليد الواسعة في مقاومة المحاولات الإصلاحية الأموية في هذه الناحية . ومن الهام أن نلاحظ في النهاية أن الموالي الإيرانيين لم يكونوا جميعاً ناقلين على الحكم الأموي لدرجة الثورة . وإذا وجد فيهم أمثال أبي مسلم ، والداعية العباسي شبل بن طهمان والثائر مع المرجئة أبي الصيذاء صالح بن طريف فإن كثرة الموالي وققوا ، في نيسابور ، بجانب نصر بن سيار وقد قاومت بلخ أعنف المقاومة جنود المسودة . وخاض العباسيون الثائرون قتالا مريراً ضد أهل جرجان الذين بقوا على الولاء الأموي وطرّدوا جيش قحطبة أول مرة من بلدهم . ولم تتحرك المدن الإيرانية الأخرى بجانب الدعوة إن لم تقف ضدها كما جرى في نهاوند .

(عامل الخراج) يحوله عن المسلم الى المشرك ... (الطبري ٧ ص ٧١٣ / ١٦٨٨ - ١٦٨٩) .

وقد يعني هذا أن ضامني الخراج للدولة كانوا ثلاثة وراء عامل الخراج الاساسي الخاص بالمسلمين الموالي وبملاك الاراضي على اختلافهم فواحد للمجوس وآخر للنصارى وثالث لليهود (وهذا يكشف وجود جاليات من هؤلاء وأولئك هناك) ويعني كذلك أن بهرامسيس كان يتصرف في الخراج يجمعه ويمنحه ويدفعه ويحوله على المسلمين الموالي وبعض المشركين فنصب نصر بن سيار نفسه « مانحاً » أي حامياً للمسلمين . ويقصد هنا الموالي دافعي الضرائب ، ولهذا ورد عليه بعد أسبوع واحد من هذا الاعلان ثلاثون ألف مسلم يدفعون الجزية فحول جزيتهم على المشركين المعفوين منها والذين انكشف له منهم ثمانون ألفاً .

(١) الطبري ج ٧ ص ٢٩٦ (١٨٣٤/٢)

الترك وما وراء النهر : كانت منطقة ما وراء النهر دار حرب للمسلمين وممر تجارة • وما يفتح منها أو يدخل في الاسلام من أهلها الترك ، كان يتبع إداريا والي خراسان • وبعد أن فتح قتيبة بن مسلم هذه المناطق (طخارستان السفلى سنة ٨٦، اقليم بخاري ما بين ٨٧ - ٩٠) (٧٠٥ - ٧٠٨) ثم وادي جيحون وبلاد الصفد ما بين ٩١ - ٩٣/٧٠٩ - ٧١١ ثم مقاطعات سيحون ما بين (٩٤ - ٩٧/٧١٢ - ٧١٤ حتى كشغر) انصرف الحكم الأموي إلى تثبيت النفوذ الاسلامي في تلك البقاع ونشر الاسلام ودفع الهجمات التركية من سهوب تركستان الشرقية وإعادة تسيير قوافل التجارة ، في طرقها القديمة التقليدية ، عبر تلك السهوب إلى الصين •

وهنا ، في ما وراء النهر أيضاً • أبقى العرب المسلمون على نفوذ الأمراء المحليين وتعاونوا معهم وعاملوا الناس معاملة الايرانيين في خراسان ، في إطار معاهدات الفتح • لكن الأمراء كثيراً ما كانوا ينتقضون ، لا سيما في فترات خصومة البوالة فتقع الثورات والحروب والنكبات على الشعب^(١) • كما كانت الحروب مريعة طويلة مع الترك البداة وراء الحدود الاسلامية • لإدخالهم في الاسلام وتأمين طرق التجارة من خلال أراضيهم •

وقد أراد هشام بن عبد الملك وضع حد للفتن والمآسي في المنطقة

(١) مثال ذلك ثورة أمير فرغانة بعد قتيبة، وثورة بخارى وسمرقند.

فأمر عامله أشرس بن عبد الله السلمي وكان يسمى الكامل لفضله (١٠٩ - ٧٣٧/١١١ - ٧٣٩) أن يعد من أسلم في المنطقة برفع الجزية عنه . « فسارعوا - كما قال البلاذري - إلى الاسلام حتى انكسر الخراج » (١) وكان ذلك بجهود العامل أبي الصيذاء صالح ابن طريف وعامل خراجهم حسن بن أبي العمرطة فغاف أشرس مغبة ذلك على موارد الدولة لأن « في الخراج قوة المسلمين » كما قال « وتذمر الدهاقين » لأنهم يكرهون نشر دين فيه روح المساواة بينما امتنعوا انفسهم عن دفع الخراج وقالوا لأشرس : « ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلمهم عرباً ؟ » . ويذكر الطبري (٢) والبلاذري أن أشرس عاد فأعاد الذي كان . ضيقه أول الأمر فاشتراط لرفع الجزية شروطاً وكتب لعامله : « ... بلغني أن أهل السغد وأشباههم لم يسلموا رغبة وإنما دخلوا في الاسلام تعوداً من الجزية فانظر من اختتن وأقام الفرائض وحسن إسلامه وقرأ سورة من القرآن فارفع عنه خراجهم ... » . ولم يكف هذا التدبير على ما يظهر فعاد الوالي نفسه فبعث عاملاً جديداً زوده بتعليمات تقول : « خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه ... » فألح العمال في الجباية واستخفوا بعظماء العجم وسلط (أحدهم) على الدهاقين فأقيموا وخرقت ثيابهم وألقيت مناطقهم في أعناقهم وأخذوا الجزية ممن أسلم من الضعفاء فكفرت تلك ... » (٣) .

وقابل الناس هذه السياسة الخراجية القاسية بشورة عارمة في البلاد

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٥٢٦ (طبعة المنجد) ، الطبري ٧

ص ٥٥ .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٥٤ - ٥٦ (١٥٠٧/٢ - ١٥٠٩) .

(٣) الطبري ج ٧ ص ٥٦ (١٥٠٩/٢ - ١٥١٠) .

استمرت منذ ٢١٠ حتى ولاية نصر بن سيار ١٢٥ وهاجر بعضهم خارج سمرقند بينما طلب آخرون معونة الترك البداية • ومن الهام أن نسجل هنا أن زعماء تلك الحركة لم يكونوا من الأتراك ولكن من العرب (١) ومنهم أحد الشعراء المجاهدين هناك : ثابت الازدي المعروف بثابت قطنة (٢) وقد بعث أشرس الى الثائرين من فرق جموعهم ١٠ وذهب الكثير من المسلمين الجدد قتلى • ويحدثنا الترشيحي في كتابه أخبار بخاري عن جماعة اعتصموا بالمسجد الجامع من بخاري وأعلنوا بأعلى أصواتهم الشهادتين ومع ذلك سيقوا إلى القتل أو الاسترقاق لدى والي خراسان • ثم أطلقهم من بعد الوالي الجديد أسد بن عبد الله بن مروان •

وأما ثابت قطنة فأخذ وسجن ثم خلاه الوالي بكفالة ووجهه في وجه للحرب فخرج عليه الترك واستشهد أنفة من أن « ينظر إليه بنو أمية مشدوداً مرة أخرى في الحديد » (٣) •

ثورة الحارث بن سريج : على أن عوامل الاستياء والثورة لم تذهب وقد عادت بعد ست سنوات فانفجرت من جديد على يد عربي آخر من المجاهدين ذوي الورع والزهد هو الحارث بن سريج بن ورد ابن سفيان بن مجاشيء • كان الرجل يجاهد ضد الترك ويبدو أنه تأثر

(١) يسجل الطبري (ج ٧ ص ٥٧) أسماءهم وفيهم ثلاثة من الازد وواحد من بني تميم وآخر شيباني وثالث ضبي ورابع من بني العنبر .. « خرجوا اليهم لينصروهم » .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٥٦ (١٥٠٩/٢ - ١٥١٠) وإنما قيل له قطنة لان عينه فقئت فكان يضع عليها قطنة (البلاذري ص ٥٢٦) .

(٣) تفصيل أمره لدى الطبري ج ٧ ص ٦٠ - ٥٩ (١٥١٠/٢ - ١٥١٥) .

بعدالة قضيتهم نتيجة اعتقاده مذهب المرجئة فخرج على الحكم الأموي سنة ١١٦ في بلدة صغيرة من ماوراء النهر تدعى «النخذ» أو «أندخوز» • ويلفت النظر في ثورة الحارث ثلاثة أمور :

الاول : أنه سرعان ما اجتمع حول الحارث جمع كثير ، يقال « ستين ألفاً » فيهم العرب ، من الحزبين المتنافرين مضر واليمن وفرسان أزد وتميم على السواء كما أن فيهم عدداً من الدهاقين الفرس والترک^(١) (دهقان الجوزجان • وفارياب وملك الطالقان ودهقان مرو) •

الثاني : هو الدعوة التي جعلها شعار الثورة فقد كان يدعو إلى العمل بكتاب الله وسنة نبيه والبيعة « للرضا »^(٢) أي « من يرضى الناس لأنفسهم » •

الثالث : شعار السواد فقد سود الحارث لباسه • كما يسود العباسيون وسود راياته « وكان يظهر أنه صاحب « الرايات السود »^(٣) وجعل شعاره في هتاف أصحابه : يا منصور » •

(١) انظر الطبري ج ٧ ص ٩٦ (١٥٦٩/٢) •

(٢) الطبري ج ٧ ص ٩٥ وقارن ذلك بتفسير كلمة « الرضا » في الطبري ج ٥ ص ٥٥٣ و ج ٥ ص ٥٤٥ و ج ٦ ص ٢٨٧ ولا ترد هاهنا كلمة (آل محمد) •

(٣) الطبري ج ٧ ص ٩٧ (١٥٧٠/٢) حيث يقول : « وعلى الحارث ابن سريج يومئذ السواد » ج ٧ ص ١٠٠ (١٥٧٥/٢) حيث يقول : « ... اقبل الحارث الى مرو وقد سود راياته وكان يرى رأي المرجئة ... » • و ج ٧ ص ٣٣١ (١٩١٩/٢) إذ يقول : « ... وكان الحارث يظهر أنه صاحب الرايات السود .. » و ج ٧ ص ٣٣٣ (١٩٢١/٢) حيث يقول « وبادوا يا منصور بشعار الحارث » •

فهل كان الحارث عباسيا ؟ وهل كان شعار «الرضا» يخفى وراءه كلمة «من آل محمد» ؟ إن المصادر تنسب الحارث الى المرجئة ولا يبدو أن ثمة علاقة ما بين العباسيين والحارث ولكن العناصر الثورية والشعارات التي استعملها الطرفان واحدة لدرجة أن ثورة الحارث يمكن أن تعتبر كالمقدمة والحركة التمهيدية أو التجريبية لثورة أبي مسلم فيما بعد ولم يكن بين نهاية الأولى ومطلع الثانية سوى سنتين (مابين ١٢٦ الى ١٢٨) .

تحرك الحارث بقواه من ما وراء النهر فغلب على بلخ والجوزجان والفارياب والطارقان ومرو الروذ واتجه الى عاصمة خراسان مرو (الشاهجان) وقد قال له بعض أصحابه : «مرو بيضة خراسان . وفرسانهم كثير . لو لم يلقوك إلا بعبيدهم لانتصفوا منك . فأقسم . فإن أتوك قاتلتهم وإن أقاموا قطعت المادة عنهم» ولكن الحارث رفض هذا الرأي وسار الى مرو . وكادت مفاوضاته مع عاصم بن عبد الله الوالي تنجح ، لولا أن والياً جديداً وصل من الشام هو أسد بن عبد الله القسري ، في جند جديد فاضطر الحارث الى التراجع . تخلى عن البلاد التي فتحها وانسحب الى ما وراء النهر سنة ١١٨ وتابع هناك ثورته ولكن بجانب الترك ضد الحكم الأموي لإقرار حكم اسلامي عادل بدلا منه . «وكان يظهر أنه صاحب الرايات السود» ويمني أصحابه والناس أنهم «سوف يهدمون سور دمشق ويزيلون أمر بني أمية . .» (١) .

وبالرغم من وجود بعض الدهاقين مع ابن سريج ومن دفاعه عن الترك وبجانبهم فقد كانت جمهرة أصحابه فيما يبدو من العرب ، من ربيعة

(١) الطبري ج ٧ ص ٣٣١ (٢/١٩١٩) .

واليمن حتى لقد ناشده نصر بن سيار قائلاً : « اذكرك الله في عشرين ألفاً من ربيعة واليمن سيهلكون فيما بينكم »^(١) وقد كان يتخرج من الدماء والقتل لكثرة ما عرفت المنطقة من الدماء فيما يظهر ويفضل أصحابه على ذلك أساليب المناقشة والاقناع والمسالمة . اتبعوا ذلك في معظم مواقفهم ولعل من أبرزها موقفهم عند حصار ترمذ إذ كان العرب وأهل القرى من أصحابه ينزلون على أبوابها فيكون ويشكون جور بني مروان ويسألون أهلها النزول إليهم على أن يسألوهم على حرب بني مروان فيأبون ذلك . . حتى قال له بعض أصحابه إن ترمذ لا تؤخذ بالبكاء ولكن بالسيوف ! ويمكن أن يفسر هذا الموقف «الأخلاقي» في ثورة سياسية دموية كثورة الحارث على ضوء عقيدة الإرجاء التي تسلمها جماعته . وكان جهم بن صفوان ، صاحب المرجئة الجهمية من رؤوس أصحابه وإذا كان يعزى إلى جهم على رواية ابن حزم الاندلسي - قوله : « إن الإيمان عقد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه بلا تقية وعبد الأوثان أو لزم اليهودية أو النصرانية . . . » فهذا القول هو الذي أوقف الحارث وأصحابه بجانب المسلمين الجدد من الترك يدافعون عنهم . ولعل بعض أفكارهم وأجوائهم يظهر في الكتاب الذي أرسله أصحاب الحارث إلى الكرمانى الثائر يقولون فيه : « . . . نوصيكم بتقوى الله وطاعته وإيثار أئمة الهدى وتحريم ما حرم الله من دمائكم فإن الله جعل اجتماعنا كان إلى الحارث ابتغاء الوسيلة إلى الله ونصيحته في عباده فعرضنا أنفسنا للحرب ودماءنا للسفك وأموالنا للتلف قصغر ذلك عندنا في جنب ما نرجو من ثواب الله ونحن وأنتم إخوان في الدين وأنصار على العدو . . . فاتقوا الله وراجعوا الحق فإننا لا نريد سفك الدماء بغير حلها . . . » .

(١) المصدر السابق نفسه .

وقد كان لهذا الايمان العميق ، بجانب مساوئ الادارة الأموية ،
آثره في طول عهد الثورة واستمرارها . ولم تنته إلا بجهود نصر
ابن سيار الذي كان من الحزم والمرونة السياسية بحيث فاض الحارث
وقاتله وداوره وانتهى بأن أخذ له الأمان من الخليفة سنة ١٢٦ خوفاً من أن
يتفق مع الكرمانى الثائر عليه . وأقبل الحارث «بعد اثنتي عشرة سنة
(من الثورة) ، والاقامة بأرض الشرك « الى مرو ٠٠٠ »^(١)، (٢٧ جمادى
الآخرة ١٢٧) .

وفي مرو طلب نصر بن سيار الى الحارث وأصحابه : أن يملوا على
كاتبه ما يرضون من السير والسنن (للعمل) وأن يختاروا من يرضون من
العمال لولاية الثغرين : سمرقند وطخارستان . وطلب الحارث وأصحابه
حكم الشورى ولم يكن ذلك ممكن التطبيق فبدأ الخلاف . ومن الطريف
أن الحارث بن سريج كتب سيرته فكانت تقرأ في طريق مرو والمساجد
فأجابه قوم كثير^(٢) وذات يوم ضرب بعض غلمان نصر قارئاً من قراء هذه
السيرة فقامت الخصومة والقتال بين الجانبين في المدينة واتفق الحارث
مع اليمانية وزعيمهم الكرمانى الثائر فإذا بنصر يجد نفسه مطروداً من
مرو ٠٠٠ (الجمعة ٢٦ جمادى الآخرة ١٢٨) .

وبعد ثلاثين يوماً كان الحارث بن سريج جثة بغير رأس مصلوبة
على باب مرو ٠٠٠ كانت الخصومة قد مزقت الحلف الذي قام بينه وبين
الكرمانى . فأعلن اليمانيون القتال ضد الحارث وكان مع مائة من

(١) الطبري ج ٧ ص ٢٩٤ (١٨٦٨/٢) .

(٢) انظر الطبري ج ٧ ص ٣٣٢ (١٩٢٠/٢) .

أصحابه وعدة من بني تميم حين سقط قتيلًا في معركة غير متكافئة على باب مرو ، بين الحائط (السور) والمدينة (١) .

على أن ثورة الترك في ما وراء النهر كانت بدورها قد خمدت نتيجة التدابير الإصلاحية والأعمال العسكرية التي قام بها نصر بن سيار هناك . والهدوء الذي تمتعت به تركستان في عهده القصير لم يكن كله هدوء الرضى والاطمئنان بدليل أن الأتراك المقهورين سرعان ما تجاوب بعضهم مع الصيحة العباسية وثورة أبي مسلم . ويبدو أن أعداداً منهم قد انضوت في سر وسرعة تحت راية العباسيين السوداء التي رأوا فيها بعثاً لراية الحارث بن سريج وتحقيقاً لحلمه . وقد قاتلوا في إيران كما قاتلوا تحت قيادة قتيبة الباهلي في العراق .

ولعل هذا الاشتراك في الثورة ، مع ظفر أبي مسلم وتحقيقه للنبؤات القديمة هو الذي أغرى الأتراك بأن يدعوا نسبة أبي مسلم إليهم وبأن يحفظوا له في أغانيهم الشعبية ذكرى البطل القومي كما سماه للباحثين الأتراك المحدثين أن يتحدثوا عن تفسير تركي للثورة العباسية . وهي على أي حال ظلال بعيدة وظنون تفتقر الى الكثير من النصوص والوثائق والدلائل لتصبح في منزلة الحقائق .

وخلاصة الأمر أن كافة خطوط النقمة من عربية وايرانية وتركية

(٢) ينقل الطبري (ج ٧ ص ٣٤٢) أبياتا ذكر أن نصر بن سيار قالها في مصرع خصمه الحارث بن سريج ، قال :

يا مدخل الدل على قومه	بعداً وسحقاً لك من هالك
شؤمك أردى مضرأ كلها	وغض من قومك بالحارك
ما كانت الأزد وأشياعها	تطمع في عمرو ولا مالك ..

في خراسان جاءت في خدمة الثورة • وحين تحركت قوى الثوار بقيادة قحطبة بن شبيب الطائي من ذلك الاقليم النائي باتجاه الغرب ضد الأمويين كانت كثيرة العدد وقد قدرها صاحب كتاب الإمامة والسياسة «بثلاثين ألفاً من اليمنية والشيعية وفرسان خراسان» ومعظم هذه الجماعات كما قد نلاحظ عربية • أما الموالي من الفرس والترك فكانوا موجودين في الجانبين والذين حاربوا منهم في صفوف العباسيين حارب مثلهم في صفوف الأمويين • ولم يكونوا يعملون بدافع قومي أو طبقي • ولا كان همهم الأول الوصول الى الحكم أو إلى بعضه ولكنهم كانوا يعملون في إطار الولاء العربي والمبادئ الاسلامية في التسوية وبدافع الارتزاق في بعض الأحيان وإن كان الدافع الذي جندهم ضد بني أمية إنما كان الاستياء العام من الجشع الضرائبي والقهر الاداري •

ثانياً - الدعوة العباسية (١) (الوجه الديني والعملي) :

ويبدأ امر هذه الدعوة بما يسمى : **ارث الكيسانية :**

فعهد الدعوة العباسية يرجع الى ما قبل سقوط الاسرة الاموية بثلث قرن • وهي مشتقة في الأصل من الدعوة العلوية •

(١) كتب الباحث الدكتور فاروق عمر فوزي فصلاً كثيرة هامة حول هذا الموضوع بعضها في أطروحة : الخلافة العباسية وبعضها في عدد من المجلات العلمية بعنوان : «تقويم جديد للدعوة العباسية» ، و «نصوص ساعد اكتشافها على إعادة تقويم الدعوة العباسية» (الفصل الثاني) ثم في كرة أخرى في كتابة : «طبيعة الدعوة العباسية» (الفصل الثاني) ثم في كتابه «العباسيون الأوائل» وجميعها من نشره بين سنتي ١٩٦٨ و ١٩٧١

اذ يجمع عدد من المصادر الأولى على ان ابا هاشم عبد الله بن محمد بن علي من (الحنفية) بن ابي طالب صاحب الشيعة الهاشمية ، وفد على سليمان بن عبد الملك وخاف الخليفة من طموحه ، فرحب به ولكن دس له في طريق عودته الى الحجاز من سبه • وبعضها يقول إنه مات موته الطبيعي • فلما شعر ابو هاشم بدنو أجله ، عرج في الطريق على الحميمة (وهي بلد في جنوب البحر الميت) وكان عبد الملك بن مروان قد اقطعها لعلي بن عبد الله بن العباس حين وفد هذا ليسكن دمشق ، فأساء الوليد بعد ذلك معاملته لما عرف طموحه للخلافة فانتقل سنة ٩٥ هـ الى الحميمة وبها توفي سنة ١١٨ هـ غير ان ابنه محمدا كان اقوى شخصية في ولد العباس حتى في حياة ابيه • ويقال أن أبا هاشم حين وفد على محمد هذا في سنة ٩٧ أو ٩٨/٧١٥ - ٧١٦ أوصى له بالامانة بعد أن علمه الاسرار والعلوم ودفع اليه كتبه وصرف الشيعة نحوه ، وسلم اليه الدعاة ••• أو (الصحيفة الصفراء) ثم توفي سنة ٩٨ هـ (١) •

ويحوم الشك احيانا حول هذه الوصية ولا سيما حين تتساءل عن السبب الذي جعل ابا هاشم العلوي يعطي الامامة لفرع آخر من آل محمد لم يطلب حتى الآن ان يلي الخلافة ؟ ويرى فلهاوزن ان هذه الوصية حسب روايتها ضعيفة • ولا بد انها حصلت في وقت سابق لسنة ٩٨ لوجود شهود كثيرين عليها • وربما جاء ابو هاشم الحميمة فتحالف مع العباسيين ثم توفي ولاعقب له ، فعهد الى محمد بن علي بأمر «الهاشمية» وجعلهم ينضمون الى محمد • ولم يظهر في بني العباس طموح سياسي قبل علي بن عبد الله ثم ابنه محمد •

(١) اليعقوبي ج ٢ ص وابن خلكان ج ١ ص ٤٥٤ •

هذه الوصية هي ما يدعى في التاريخ الشيعي بميراث الكيسانية ، واعتباراً من تاريخها تبدأ الدعوة العباسية وهذا يعني على أي حال أن الطموح «العباسي» الى الخلافة ليس بذئ جذور تاريخية بعيدة ولكنه يعود في أبعد الوقت الى أواخر القرن الأول الهجري ، وإذا كان محمد ابن علي العباسي هو منظم الدعوة السرية وصاحبها الحقيقي فإن إبراهيم من بعده هو مفجر الثورة • وإخوة إبراهيم هم الذين قطفوا الثمار •

فترة الدعوة السرية التحضيرية :

بدأت هذه الدعوة بفترة سرية طويلة تمتد بين سنتي ١٠٠ - ١٢٨ هـ أي منذ محمد بن علي حتى مجيء إبراهيم الامام • وعلى محاور جغرافي مثلث يمتد ما بين الحسيمة في أرض الأردن وبين الكوفة في العراق حتى خراسان في أقصى المشرق الاسلامي •

كان محمد بن علي اول من قام بالامر - على ما يذكر الدينوري - وبث دعائه في الآفاق ، فهو المنظم الاول للدعوة العباسية ، وقد بقي على مقره في الحسيمة • وكان صغر القرية وانعزالها في منطقة جرداء جنوبي الشام ووجودها تحت جناح دمشق ، بجانب الزهد المعروف عن علي بن عبد الله بن العباس ، والد محمد ، ومسالته للأمويين تشكل كلها ستاراً حسناً للنشاط السياسي السري الذي انصرف إليه محمد • ولم يغادر الرجل قرينته ولكنه جعل لنفسه داعية ، كالوكيل العام عنه في الكوفة •

واختيار هذا البلد: الكوفة كمركز لانطلاق الدعوة وللنشاط العباسي الثوري لم يكن اختياراً موفقاً فحسب ولكنه كان يدل في الوقت نفسه

على صدق البصيرة السياسية وحسن التدبير . فهي جغرافياً متوسطة الموقع بين الشام والبلاد الشرقية للدولة ، وعلى صلة مباشرة بخراسان . أما من الناحية السياسية فكان التوفيق أوضح وأشد وقد نستطيع أن نكشف في الوقت نفسه عن السبب في اختيارها عاصمة أولى للنصر العباسي بعد ذلك إذا تذكرنا الضربة الاقتصادية الساحقة التي أنزلها بها الحكم الأمري منذ الحجاج . فقد استطاعت هذه المدينة أن تصبح في القرن الأول الهجري مركز صناعة الوشي والخز الرائجة في العالم الاسلامي وصناعة الطيب^(١) كما اجتمعت فيها الاقطاعية العربية بأموالها وبما تدره أراضيها من خيرات التمور والحنطة وبما يصدق عليها من العطاء ولعل هذا الغنى الاقتصادي هو الذي جعلها ذات جراءة سياسية ومشاركة طالما أغضبت الأمويين لا سيما مع وجود الميول العلوية والقبلية المناوئة فيها . فسلط عليها الأمويون الحجاج . قال عبد الملك بن عمر الليثي : « بينما نحن بالمسجد الجامع وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه أتانا آت فقال: هذا الحجاج قد قدم أميراً على العراق »^(٢) . وقد كسر الحجاج شوكة الكوفيين بتخريب ثروتهم الاقتصادية . رأى موالى الشيعة أعواناً لهم في ثورة ابن الأشعث فطرد الموالى جميعاً من المصريين أي طرد اليد العاملة الخيرة ، صاحبة المهن ثم ألح عليهم بالضرائب المرهقة حتى

(١) انظر الجاحظ - المحاسن والاضداد (طبعة ليدن) ص ٣٤٢ .
 الاصبهاني - الاغانى ج ٢ ص ١٧٣ (ط . الساسي) . ثم انظر الثعالبي لطائف المعارف (ط . ١٨٦٧) ص ١٠٤ وابن خلكان - الوفيات (ط . بولاق) .
 (٢) المبرد - الكامل (ط . القاهرة ١٣٣٩) مصر ج ١ ص ٢٧١ وانظر ج ١ ص ٢٧٠

وانظر حمدون - التذكرة (ط . القاهرة ١٩٢٧) ص ١٠٦ - ١٠٧

دمرهم وحتى انحط الخراج نفسه وقال يزيد بن المهلب حين عرضت عليه ولاية العراق بعد الحجاج «لقد أخرج الحجاج العراق ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبته صرت مثل الحجاج .. أدخل على الناس الحرب وأعيد عليهم تلك السجون ..»^(١) وكان فيها من مساجين الحجاج أكثر من ثمانين ألفاً أخرجوا في يوم واحد زمن سليمان بن عبد الملك . وبالرغم من أن بعض الولاة قد حاولوا بعد ذلك السماح للموالي بالعودة للأمصار ، وكان الحجاج «قد نقش على يد كل إنسان اسم قرينه وطالت ولايته فتوالد القوم هناك فخبثت لغات أولادهم وفسدت طبائعهم» . ونسوا صنائعهم فلما ارتد المنقوشون رجعوا — كما قال المبرد — في صورة «الأباط» (الفلاحين) الفقراء ...^(٢) ثم جاء الكوفة بعد ذلك ولاية ساروا فيها سيرة الحجاج مثل يوسف بن عمر الوالي بين سنتي ١٢٠ — ١٢٦ والذي جرى على السنة الكوفيين تشبيهه بالحجاج^(٣) فاجتمع هذا وذاك كله على جعل الكوفة مركزاً من أعنف مراكز النقمة على الأمويين ومن أكثرها نشاطاً وفاعلية . ولم يكن للعباسيين أن يجدوا بثورة أكثر منها مواتاة للعمل الثوري السري وأحسن منها تغطية لدعاة «الإمام» وسترأ عليهم في الوقت الذي تعطيهم فيه الكوفة أخصب التربة للعمل .

أما خراسان فسوف نرى عند دراسة أحوالها عن كتب أنها الاقليم الذي كان أحسن البؤر لنمو الثورة واكتمالها لا بسبب بعدها الجغرافي

(١) انظر المبرد — الكامل (ط . القاهرة ١٣٣٩) ج ١ ص ٨١

(٢) انظر الجاحظ — البيان والتبيين (ط . القاهرة ١٣٣٢) ج ٣

ص ١٤٦

(٣) الطبري ج ٦ ص ٥٢٣ (١٣٠٦)

فحسب ولكن بسبب مشاكلها الكثيرة أيضاً سواء بين المتوطنين الغرب
فيها من قدامى وجدد أو بين السكان الأصليين من إيرانيين وترك
وأهوائهم الدينية أو بين الدولة الأموية نفسها وممالك الترك المجاورة
التي لم تكن تفتر معها الحروب

ويظهر من إجماع المصادر كاليقوبي والطبري والدينوري وابن
عبد ربه وابن خلكان على أن سنة ١٠٠ هـ . كانت السنة التي بدأ فيها
محمد بن علي دعوته . ان خلافة عمر بن عبد العزيز كانت فرصة واسعة
لنشاط أعداء الأمويين^(١) .

ويذكر الطبري ان محمد بن علي أرسل سنة ١٠٠ هـ أبارباح
ميسرة النبال . فأوفد هذا ثلاثة من الكوفيين الى خراسان ، وهناك
انتخب احد الدعاة سبعين داعية واختار محمد بن علي سنة ١٠٣ أو ١٠٤ من
بينهم اثني عشر نقيباً ومثلهم من نظراء النقباء (أي الوكلاء للنقباء)
ويختص هؤلاء جميعاً بخراسان . فأرسل محمد بن علي اليهم ارشادات
مكتوبة ولكن جملة شكوك تدور اولا حول هذا الترتيب المصطنع
لهذه الأرقام : سنة ١٠٠ ثم ٣ - ١٢ - ٧٠ ثم ان الروايات الاخرى في
الطبري نفسه تبين ان الامر لم يتسق بهذا الشكل المنظم ، عدا ان نجاح
الدعوة المحدود اذ ذاك يشكك في ضرورة وجود تنظيم كهذا . هذا الى
ان الاختلاف كثير في اسماء النقباء الأول . ولعل المؤرخين أطلقوا هذا
التنظيم الذي جرى في أواخر أيام الدعوة على الأيام الأولى لها . ولعلنا
نستطيع أن نعرف مصدر هذا التنظيم وخطوطه ، مما ذكره صاحب

(١) الدوري - العصر العباسي الاول - ص ٢٢ - ٣٢ .

(أخبار الدولة العباسية) فقد تعرف محمد بن علي أول الأمر على الدعوة الكبار للحركة وكتب لهم سجلاً ومنهم ميسرة وأبو مسلمة وبكير بن ماهان وحوالي عشرة آخرين . وكانوا جميعاً من قبيلتي بني مسلمة وهمدان . ومع أن مركزهم كان في الكوفة إلا أنهم اتخذوا فيها جانب الحذر الشديد . وقد ترأس الدعوة أولاً ما بين سنة ٩٨-١٠٠ هـ . أربعة رجال . ولم يمض كبير وقت حتى قرر الإمام عملاً بنصيحة بكير بن ماهان نقل مركز نشاط الدعوة إلى خراسان مع بقاء الكوفة نقطة ارتباط بين مرو والحيمية . . .

وبكير بن ماهان هو الذي أدخل سليمان بن كثير الخزاعي الدعوة ، خلال زيارة مرّ فيها بخراسان . وحوالي سنة ١١٨ هـ . نظم بكير أو سليمان الدعوة العباسية تنظيمًا محكمًا وجعل لها اثني عشر نقيباً أربعة منهم من قبائل خزاعة وأربعة من تميم وواحد من كل من قبائل طي وشيبان وبجيلة . أما الثاني عشر فمولى لبني حنيفة . وأن يكون أحد عشر نقيباً من العرب وإنما يعطي الثورة هويتها الحقيقية ^(١) ، وإذا كنا لا نعرف الهوية الكاملة لباقي الدعوة السبعين الذين كانوا يلون النقباء

(١) لكشف دور العرب الحقيقي والرئيسي في الثورة العباسية يراجع :
- أخبار الدولة العباسية للمؤلف المجهول (نشر الدوري - المطليبي بيروت ١٩٧١) .

- تاريخ الموصل لأبي زكريا الأزدي (نشر علي حبيبة القاهرة ١٩٦٧)
- أنساب الأشراف للبلاذري مخطوط استامبول (منه نسخة مصورة في دار الكتب المصرية) كما أن بعض أجزاءه مطبوع (الأول والرابع وقسم من الخامس) .

- تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول (نشر غرياز نيويج - موسكو ١٩٦٧)

فإن من نعرفه منهم يكشف أنهم بدورهم من العرب وفيهم عدد محدود من الموالي •

وقد ألف النقباء الأثنا عشر ما يشبه مجلس الشورى تحت رئاسة سليمان بن كثير الخزاعي • ويظهر أن لقب «نقيب» إنما اتخذ مما ورد في القرآن الكريم عن بني إسرائيل ومجلس شورا هم : «لقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم ، لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعززتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » • وقد تم اختيار الاعداد على نحو الرجال السبعين الذين اختارهم موسى من قومه والنقباء الاثني عشر لهم ، ونحو الرجال السبعين من الأوس والخزرج الذين وافوا الرسول ليلة العقبة من أهل المدينة • فتأثر العباسيون في تنظيم دعوتهم بالناحيتين معاً : « فإن سنتكم سنة بني إسرائيل وسنة النبي»^(١) كما قال محمد بن علي في كتابه إليهم •

ويبدو أن مرحلة طويلة من النضال ومن التطورات قد تمت ما بين سنة ١٠٠ و١١٨ التي تكون فيها مجلس النقباء الاثني عشر وأن ثمة تنظيمات عقائدية ومالية وعملية قد تكاملت بالتدرج ما بين عهد ميسرة النبال وعهد سليمان ابن كثير الخزاعي ويذكر الطبري أن دعاة ميسرة في خراسان، قبض عليهم سنة ١٠٢ ثم أطلق سراحهم • وفي سنة ١٠٣ انضم بكير بن ماهان الى الدعوة ودفع ماله لمحمد بن علي ، وكان كاتباً لأمير السند من قبل ، واتفق ان

(١) اخبار الدولة العباسية (نشر الدوري) ص ٢١٥ وانظر ايضاً فان فلو تن ص ٩٦ (الطبعة الثانية) .

توفي ميسرة ، فعين محمد بكيراً محله . وفي سنة ١٠٧ و ١٠٨ نكل
والي خراسان بالدعاة . كما ظهر بعضهم سنة ١١٣ فلقوا المصير نفسه .

وهذا مايدل على أن الدعاة كانوا يعملون ويقتلون ويسجنون كما
كانوا يرسلون إلى مناطق متعددة من خراسان : إلى نساوأبيورد وبلخ
ومرو وآمل وخوارزم . وكان معظمهم من العرب . وهذا هو جانب
الفداء والايمان في الدعوة . ومن جهة أخرى فقد كان أتباع الدعوة يدفعون
الخمس للإمام كي يقوم يواجهه في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»
وهذا هو جانب التنظيم المالي من الدعوة . كما كان بعض النقباء ينتهز
فرصة الحج ليلتقي بالإمام ويحمل إليه الخمس المفروض والهدايا وأخبار
الدعوة ومراسلاتها ويحمل منه الكتب والمنشورات التي تنقل تعليماته
إلى الاتباع ولدينا عدة نصوص من هذه الكتب ، وهذا هو جانب التنظيم
العملي والعقائدي في الدعوة .

وقد استكمل هذا التنظيم في خراسان بعد الثورة . وكان ابو
صالح كامل بن المظفر هو «صاحب السر» وإليه جمع الاموال وقسمتها
وعطاء الجند وكتابة الكتب . فأعادوا النظر في التنظيم : واختاروا
حرساً موثقاً يقوم بأمر المراسلات ويحفظ ما يرد على الثورة من المال
والغنائم وجعلوا رئاسته لابي اسحق خالد بن عثمان واختاروا أبا نصر
مالك بن الهيثم للقيام بأمر العسكر فيحكم بينهم ويطرد المشبوهين
منهم ، كهيئة أصحاب الشرط ، وجعلوا نصر بن مالك خليفته . وولوا
القاسم بن مجاشع القضاء كما كان اسلم بن صبيح على الرسائل^(١) .

(١) أخبار الدولة العباسية (نشرالدوري) ص ٢٧٩ - ٢٨٠

أما الصلاة فكانت لسليمان بن كثير •

ويبدو أن تنظيم الدعوة سنة ١١٨ في اثني عشر نقيياً إنما جاء بعد نكسة اتكستها هذه الدعوة إذا أرسل بكير إلى خراسان عمار بن يزيد ليرأس الدعوة فيها وهو من أقدم رجالها العالمين فبدل اسمه إلى (خِداش) (ويخطيء فان فلوتن الذي تابع الطبري والمؤرخين المسلمين في تعليل هذا الاسم • على أساس المعنى العربي فقط للكلمة بأن عمار خدش الدين ومزقه فسمى بخدش ولعل من الأصح أن نفتش عن تفسير هذا اللقب في اللغة الفارسية)^(١) • واستقر خدش في مرو ، ونجح نجاحاً طيباً • ولكنه زاغ وحاد إلى الخرمية (من المزدكية) فسمح باشتراك النساء والمال فقبض عليه والي خراسان وقتله سنة ١١٨ هـ • وتبرأ محمد ابن علي منه بعد مقتله لا قبله ، وأظهر غضبه على شيعته لاتباعهم تعاليم خدش • ثم رضي عنهم بعد مراسلات عدة • وتسلم الدعوة سليمان بن كثير الخزاعي •

وتوفي محمد بن علي سنة ١٢٥ هـ موصياً بالامر لابنه ابراهيم (الامام) وما من شك في أن محمداً كان عبقرية في التنظيم والصبر الطويل والإلحاح في متابعة الطموح فلما سلم الدعوة بعد سبع وعشرين من العمل الدائب إلى ابنه أرسل هذا سنة ١٢٦ بـكـير بن ماهان إلى

(١) قد يكون لقب خدش مشتقاً من خدا الفارسية بمعنى اله او ملك وصاحب مع اش الضمير الثالث الاضافي ويكون المعنى عند ذلك : سيد الدعوة وصاحبها وملكها . او قد يكون اللقب مأخوذاً من خديش بالياء لا بالالف بمعنى : رب العائلة او الملك وهو الأقرب . ولا ننس أن خدش قد زعم أنه يحيط بالاسرار الإلهية . وقد تلقي هذه الناحية من مبادئه بعض النور على لقبه .

خراسان فجمع الاتباع في مرو فاعترفوا بإبراهيم • ودفعوا اليه ما جمعوهم من المال باسم الامام • ولكن بكيراً توفي بدوره سنة ١٢٦ وعين إبراهيم تبعاً لوصيته ابا سلمة حفص بن سليمان خلال لرئاسة الدعوة سنة ١٢٧ وابو سلمة هذا هو الذي خرج بالدعوة الى طورها العلني •

ولا بد ان نلاحظ على فترة الدعوة السرية ملاحظات عدة :

آ - عمل الدعاة خاصة ضمن محور الحميمة - الكوفة - خراسان وبينما كان رأس المحور والحركة أي الحميمة مختفياً وراء ستار كثيف من الكتمان كانت الكوفة مركز الدعوة السري ومقر الداعية الاول للامام • وكان الدعاة منها حتى زمن خدش • ولكن خراسان كانت هدف الدعاية والبقرة التي أثمرت فيها الدعوة^(١) •

ب - كانت الدعوة عربية في زعامتها وأهدافها كما كان معظم الدعاة من العرب المتوطنين في ايران تبعتهم فيها عصبيااتهم القبلية • وكانوا جميعاً من العرب المستقرين الذين فقدوا امتيازاتهم فأيدوا الثورة ضد الطبقة العربية التي تحالفت مع الأسرة الحاكمة واحتفظت بالامتيازات وتقاسمتها مع الارستقراطية الايرانية • أما الموالى عامة فمراكزهم ثانوية كما لم يلتحق منهم بالثورة إلا أعداد محدودة •

ج - كان سير الدعوة بطيئاً أول الامر حتى خدش الذي نجح • وبدأنا نسمع عن دخول زعماء العرب المتوطنين وبعض الشيوخ المحليين

(١) خطب عبدالله بن علي في أهل الكوفة ، سنة ١٣٢ فقال : «إن لكل أهل بيت مصراً وإنكم مصرنا» ! وذلك بعد إعلان البيعة لأبي العباس في الكوفة •

(الدهاقين) في الدعوة لأول مرة سنة ١١٧ هـ ولا بد ان مجلس الشورى
— على ما يرجح ولها وزن — ان صح وجوده ، قد تكون بعد نجاح
خدش ثم انحرافه •

أما اساليب الدعوة في هذا الدور فمختلفة :

آ — قال محمد بن علي لدعائه ، : «انطلقوا ايها النفر^(١) فادعوا
الناس في رفق وتستر» ، فكان الدعوة يجوبون خراسان تجاراً في الظاهر،
ويراسلون الكوفة ومنها الى الحميمة • او يجتمعون في الحج • ولما
كشف أمر بعضهم أوصاهم الامام مرة اخرى بالكتمان والرفق في
الدعوة •

ب — عني الدعوة بالتبشير في المناطق التي بلغ فيها العداء للامويين
غايته : في خراسان وما وراء النهر ، حيث كان التدمير السياسي والمالي
والاجتماعي لدى العرب المتوطنين خاصة ، ولدى الموالي سهل جلب
الانصار • على انهم تخيروا هذه المناطق بالذات لغاية اخرى شرحها
محمد بن علي في وصيته المعروفة لدعائه ، وسواء صحت الوصية أم لم
تصح فما فيها يعرض الواقع قال : «... عليكم بخراسان» فان هناك :

(١) العدد الكثير «وهم جند لهم ابدان ...»

(٢) وهناك صدور سليمة لم تنقسمها الأهواء والأحزاب •

(٣) وهناك الاستياء والتدمير الشديد •

(١) انظر الدوري العصر العباسي الاول ص ٢٤ وما بعدها .

ج - حاول الدعاة جمع كل المقاومة الشيعية في صفوفهم على اختلاف ألوانها • وظهروا غايتهم الاولى وهي قلب الحكم الاموي ، وأخفوا الثانية وهي السعي للخلافة لشخص معين ولم يظهروا للناس بثوب الطالب للملك ولكن بوشاح الثائر للحق • وعلى هذا فلم يكونوا يدعون لشخص ولكن (لرضا من آل محمد) أياً كان هذا الذي يرضاه المسلمون من آل البيت • (وقد جمعوا بهذا الشعار ما بين رأي الشيعة من جهة ورأي المرجئة وبعض الخوارج من جهة أخرى) وكثيرا ما أعلنوا انهم ثاروا ليثأروا لشهداء العلويين • ولم يكن يعرف سر الدعوة الحقيقي الا خاصة الدعاة ، لأن العباسيين شجعوا هذا الوهم ، ابعاداً للشبهات والاضطهاد عنهم ، وايهاماً للعلويين ، الى حد أن (المنصور) بن محمد بن علي بايع في عهد هشام بن عبد الملك ، محمداً ذا النفس الزكية ابن عبد الله المحض بالخلافة لما اجتمع في المدينة عدد من بني هاشم واتفقوا على العمل لكسب الخلافة لمحمد هذا ، (إذا صحت رواية الاجتماع المذكور) •

د - اخفى غلاة الدعاة حقيقة عقائدهم عن المعتدلين ، وتساهل بعضهم في بعض العقائد الاسلامية • فأغروا الاهالي بتقربهم من العقائد العتيقة في البلاد كاشتراكية مزدك - كما فعل خدش - أو ببعض الأفكار الزرادشتية - كما فعلوا مع بهافريد •

هـ - كان لإهمال الولاة الامويين ولتحاسدهم وانشغالهم بمعالجة المشاكل الاخرى ، وللعصية القبلية بين الحاكمين ، اثرها الكبير في نشر الدعوة وفي نجاحها •

ثالثاً - الثورة العلنية والحرب

امتدت هذه الفترة بين سنتي ١٢٨ - ١٣٢ هـ وهو دور ابي مسلم الخراساني في توطيد الثورة بخراسان .

ان مشكلة خدش وتوسع الدعوة ، وقلة براعة ابن كثير وتفوذه المحلي ، جعلت الامام يرسل ابا مسلم الخراساني لرئاسة الدعوة هناك .

وشخصية هذا الداعية رغم شهرتها غامضة . وقد لحقتها مع الأيام الكثير من الاساطير والخيال الشعبي . وفي أصله اختلاف يعترف به المسعودي فيرى انه عربي^(١) . بينما يذكر الفخري انه ولد باصفهان . ونشأ بالكوفة . ويقول الدينوري : انه ولد بماء البصرة مما يلي اصفهان .

ويذكر ابن خلكان أنه من قرية تسمى (سنجد) أو ماخوان قرية من مرو وكان أبوه يجلب المواشي أحياناً الى الكوفة . ويكتب المسعودي : انه من قرية بسواد الكوفة . أما الطبري فيعين هذه القرية باسم خطرنية ، وقد يؤيد هذا الخبر أن هذه القرية كانت لمجموعة فارسية ، قدمت كثيراً من رجالها للحركات ضد الامويين .

(١) ادعى ابو مسلم ان امه كان امة لعمير بن بطين العجلي باعها وهي حامل به . كما ادعى بعد نجاحه انه من نسل سليط بن عبد الله ابن العباس .

أما صاحب (أخبار الدولة العباسية) فيذكر بين الروايات التي يذكرها أن أبا مسلم ولد في بعض قرى أصفهان من أب فارسي وأم أمة واضطر والده ، لضيقه المالي أن يبيع الأمة وهي حامل بأبي مسلم إلى عيسى العجلي بن معقل أحد الملاكين العرب هناك . فولد الصبي وسمى ابراهيم ونشأ مع أولاد العجلي ، يخدمهم ويجمع لهم ريع مزارعهم في اصفهان والكوفة . وفي هذه المدينة الأخيرة كان يلزم أبا موسى ،عيسى ابن ابراهيم السراج من علماء الشيعة وعنه وعن بعض السجناء أخذ التشيع وحين اتصل بابراهيم الامام رسولا إليه أعجبه وسماه الامام : عبد الرحمن وكناه أبا مسلم . وابن خلكان يروي أنه من ولد بزرجمهر ومؤدى هذه الروايات المختلفة إذن أن أبا مسلم إيراني الاصل في الغالب .

على أن ثمة رأياً ذكره فامبري في تاريخ بخارى ويستند فيه إلى مخطوط قرأه - فيما يقول - في آسيا الوسطى يفصل حياة أبي مسلم ، ويذكر أن هذا الرجل تركي الأصل ^(١) وأن التركمان يعتبرونه واحداً منهم وقد حباه الله صفات الرسل فأنقذ العقيدة الاسلامية من الفساد . وليس شيء من ذلك بالثابت بعد كما أنه ليس بالثابت ما يرميه به الشاعر أبو دلالة حين يهجوّه بأنه كردي الأصل فتلك شطحات شاعر قال فيها :

(١) انظر فامبري - تاريخ بخارى (ترجمة الساداتي) ص ٧٨ ويتبع الراي نفسه الباحثون الاتراك المحدثون في دائرة المعارف الاسلامية(الطبقة التركية) وهي محاولة لإظهار الدور الذي لعبه الاتراك في التاريخ الاسلامي . وقد لا تعني أكثر من اشتراك بعض العناصر التركية في جنود الثورة العباسية .

في دولة المهدي حاولت غدره ألا إن أهل الغدر آباؤك الكرد^(١)

ولسنا نعرف على الضبط اسم أبي مسلم الأصلي : قد رأينا في رواية أن اسمه الأول : ابراهيم وكان يكتب على نقوده عبد الرحمن بن مسلم . وابن خلكان يشير إلى أن هذا ليس باسمه الحقيقي . «وقيل إن اسمه عثمان وقد طلب إليه ابراهيم الامام تغييره»^(٢) ويذكر (صديقي^(٣)) أن اسمه الاصيل بهزادان ولسنا نعرف سنة ميلاده بالضبط ويقال إنه ولد سنة مائة للهجرة . وهذا يعني أنه بدأ قيادة الثورة وعمره ثمان وعشرون سنة . ثم انا لا نعرف هل كان مولى أو عبداً ؟ كما لا نعرف متى دخل الدعوة ؟ ولا من الذي قدمه للامام : سليمان بن كثير ام بكير ابن ماهان ؟ وان كان الأرجح أنه دخلها وهو يعمل في الكوفة أجيئاً عند بعض السراجين (عيسى السراج^(٤)) وان تاريخه فيها ليس يبعد فهو لا يعود فيما يروي الطبري^(٥) إلى أبعد من ١٢٤ حين «اشتراه» بكير بن ماهان لما رأى من اندفاعه للتشيع ولكنه سرعان ما استرعى انظار دعاة الحزب العباسي والامام ابراهيم «بذكاء عقله وفهمه وحسن بصره وجودة ذهنه وحسن منطقته» ويظهر أنه كان جليل الهيئة وعلى جانب حسن من الثقافة العربية والفارسية ، الى متانة في الاعصاب وذكاء في استغلال الظروف ، فتقدم في زعامة الدعوة^(٦) .

-
- (١) اخبار الدولة العباسية نشر (الدوري) ص ٣٥٦ ، العيون والحدائق (نشر دي غوية) ص ١٨٣
(٢) ابن خلكان - وفيات ج ٣ ص ١٤٥
(٣) الدوري ص ٢٨
(٤) فامبري ص ٧٧ ، واخبار الدولة العباسية ص ٢٥٣ و ٢٥٤
(٥) انظر الطبري ج ٧ ص ١٩٨ (١٧٢٦/٢)
(٦) انظر الطبري ج ٧ ص ٣٤٤ ثم ص ٣٥٣ (١٩٣٧/٢ و ١٩٤٩)

وفي ١٢٨ بعد أن «وقعت العصبية في خراسان (بين قيس ويسن) واضطراب الحبل» طلب سليمان بن كثير رجلاً يقود أمر الحركة العباسية فوضع الامام شيوخ الدعوة في طاعة ابي مسلم . وأوصاه الا يخالف الشيخ سليمان بن كثير وزوده بتعليماته .

ويذكر الطبري ^(١) وابن قتيبة لابراهيم الامام الوصية التي أوصى بها أبا مسلم ، حين ارسله ، على الشكل التالي : «يا عبد الرحمن انك رجل منا أهل البيت ، فاحتفظ بوصيتي . وانظر هذا الحي من اليسن فأكرمهم وحل بين اظهرهم ، فان الله لا يتم امره الا بهم . وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في امرهم . وانظر هذا الحي من مضر (قيس) فانهم العدو القريب الدار . فاقتل من شككت في امره ، ومن كان في امره شبهة ومن وقع في نفسك منه شيء . وان استطعت الا تدع بخراسان لسانا عربياً فافعل . فأيا غلام بلغ خمسة اشبار تنهه فاقتله . ولا تخالف هذا الشيخ – يعني سليمان بن كثير – ولا تقصه وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني .» .

ولعل هذه الوصية مزيفة ومستقاة ، في قسم منها ، من واقع اعمال ابي مسلم . ولعلها وضعت بعد ان تم له الظفر ، والقسم الاخير منها (عن قتل العرب) يناقض مطلعها . فاذا صح القسم الاول فلا شك ان القسم الاخير مدسوس او محرف على الاقل . فابراهيم الامام عربي وسليمان بن كثير المشرف على اعمال ابي مسلم خزاعي عربي . وشيوخ الدعوة الآخرون امثال قحطبة الطائي وابي داوود الشيباني هم عرب أيضاً . وإذا كان العيني صاحب (عقد الجمان) يروي ان سبعة ، من

(١) الطبري ج ٧ ص ٣٤٤ (١٩٣٧/٢)

النقباء الاثنى عشر . كانوا عربا فإنه قد ثبت من اسمائهم أن احد عشر منهم كانوا من العرب^(١) . ثم ان ابراهيم يطلب من داعيته ان يصطنع اليسانيين وكلهم عرب . ولولاهم ما انتصر . ويأمره بأن يتألف قلوب ربيعة (العربية) لينجح . هذا الى ان الثورة لم تعلن ضد العرب ولكن ضد الاسرة الحاكمة الاموية . والى ان هذا القسم من الوصية لم يطبق ولم يسع شيء من مثله . وربما كانت الجيلة في الأصل «الألا» تدع لسانا مضريا» فحرفها بعض اعداء العباسيين الى «لساناً عربياً» وقد يؤيد رأينا أخيراً . في تهافتها . انها وردت عند الطبري دون اسناد وترد في ابن قتيبة . وهو مرتبك في بعض رواياته عن العباسيين ، ولاذكر لها في اليعقوبي او ابن خلكان او المسعودي أو الدينوري . وان كان الاخير يروي ان أبا العباس أوصى ابا مسلم الا يدع بخراسان عربياً لا يدخل في امره الا ضرب عنقه . وبين هذا الامر وبين قتل جميع العرب . فرق كبير . ويحق لنا منطقياً - ان نرجح هذا الخبر الاخير من الدينوري . واعلنا نضيف أخيراً أن هذه الوصية سواء كانت زائفة أو صحيحة تكشف في نصها ذاته عن أمر هام جداً هو أن العرب وحدهم بسختلف أحيائهم وعصبياتهم لا الموالي الايرانيين أو الترك أو غيرهم ، هم الذين كانوا

-
١١. هؤلاء الدعاة هم : من خراة : سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وزباد بن صالح وطلحة بن رزيق .
ومن تميم : موسى بن كعب وعيسى بن كعب ولاحظ بن قريظ والقاسم بن مجاشع .
ومن طيء : قحطة بن شبيب .
ومن شيبان : خالد بن ابراهيم .
ومن بجيلة : اسلم بن سلام .
ومن بني حنيفة : مولاهم شبل بن ظهران وهو الوحيد من غير العرب .

موضع اهتمام ابراهيم الامام والدعوة وهم الذين كانوا مادة الثورة ومركز ثقلها . وعدم ورود إشارة إلى غير العرب يدل على أن من المسلم به أن الثورة العباسية عربية في رجالها . سواء في نظر الإمام — في حال صحتها — أو في نظر من زيف الوصية إن كانت زائفة .

٢ - تنظيم الدعوة وموقف نصر بن سيار :

اهتم أبو مسلم اول الامر بتنظيم الدعوة فبعث دعائه الى كل نواحي خراسان «يدورون كورة كورة في زي التجار» ثم «ولى على من بايعه في كل كورة رجلا من اهلها» كما ذكر الدينوري . ويؤخذ من ملاحظة المستشرق بارتولد انه استفاد من تجربة خدش فحاول التوفيق بين الاسلام وبين العقائد المحلية لا سيما في عقيدة تناسخ الارواح . كما تسامح مع حركة زارادشتية الجذور ظهرت في نيسابور على يد رجل يدعى بهافريد قام بايجاد حركة إصلاحية تحت تأثير الاسلام تجمع ما بين بعض المبادئ الاسلامية والزارادشتية . ويبدو أن أبا مسلم شجع الرجل ليكسب عطف العامة من الفرس (١) . وقد كسب بهذا وبذلك عدداً كبيراً من الدهاقين والفلاحين على السواء . وقام بجولة في غربي ايران (جسادي الثاني سنة ١٢٩) لتنسيق العمل واستمالة طوائف الشيعة

(١) تخلى أبو مسلم حين انتصرت الثورة وشارفت دخول العراق عن بهافريد هذا وقتله (وسنعرض لذلك فيما بعد) . وربما أراد بذلك إرضاء المسلمين والموايزة من الزارادشتيين أو شاء التخلص منه في الوقت الذي كان يتخلص فيه من كافة الشخصيات القوية والمراكز ذات النفوذ في خراسان لينفرد بالسلطان فيه .

المبعثرة هناك . وبعث بقحطبة الطائي لا بلاغ الامام نتائج عمله واستلام
تعليقاته .

ونجحت طرق ابي مسلم في العمل ، «فوافاه في يوم واحد اهل
ستين قرية» كما يقول الطبري ويبالغ الدينوري في قوله انه «قد
استجاب لدعوته جميع أرض خراسان» على أن هذا يدلنا على مبلغ
انتشار الدعوة التي يرى بارتولد انها جسعت «الارستقراطية» الايرانية
تحت رئاسة ابي مسلم . وهي إننا جسعت في الواقع خطأ المجسوعة العربية
اليسانية خاصة . ولم تقف في وجهه صعوبة البعد بين الاصقاع
الخراسانية . اذ جعل لاجتماعاته باصحابه مواعيد معينة . وجعل
سفيدنج . وهي قرية سليسان بن كثير الخزاعي ، مركزه الاول للثورة .
ولكن الصعوبة الحقيقية كانت في جر كافة الكتل العربية لجانب الدعوة،
والعمل فيها جنباً لجنب وقد استفاد ابو مسلم من ظرفين موافقين في
هذه الناحية :

اولا - كان عدد العرب قليلاً نسبياً في خراسان . ويقدرهم
(ولها وزن) ببائتي ألف لكنهم كانوا جنداً وكانوا يشتركون جميعاً في
النقصة على الحكم الأموي فهم إذن القوة الضاربة وإذا لم يحصروا
انفسهم بالأعمال العسكرية بل امتلكوا الضياع في الارياض واستقروا ،
واختلطوا بأهل البلاد لحد ما . وصار بعضهم يشعر بشيء مشترك مع
الاهالي فقد تناسى معظمهم عصبية القبيلة بسبب ظهور أوضاع جديدة
ومصالح خاصة أخذت تحل لديهم محل تلك العلاقة القديمة بينهم . ومع
أن هذه الطبقة العربية الحاكمة لم تكن جبهة واحدة : فهناك اليسانيون
الثائرون بزعامة الكرمانى . وهناك حي ربيعة المتربص وهناك القيسيون،
وكان الحكم في ايديهم . ووالي الخليفة نصر بن سيار منهم إلا ان

القليل منهم شعروا ، مع نصر الوالي . بضرورة الدفاع القوي عن الحكم الأموي .

ثانياً - لم يكن مقر الخلافة في الشام أو في حران قادراً على معونة نصر بن سيار بأي قوة لكثرة الفتن على الخليفة مروان . فلما ظهر امر ابي مسلم استنجد نصر بسروان فكتب اليه الخليفة «أن احسم هذا الداء الذي ظهر قبلك بما عندك» ولكن الخطر ازداد ايضاً ، فاستنجد نصر ثانية وكتب متعجباً :

أرى بين الرماد وميض نار ويوشك ان يكون لها ضرام
فإن لم يطفئها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام ..
أقول من التعجب ليت شعري أيقاظ أمية أم نيام ؟
وإن النار بالعودين تذكي وإن الحرب أولها كلام

فأرسل مروان الى والي العراق يزيد بن هبيرة ان يسارع لنجدة نصر . ولكن هذا لم يفعل . وشغل او تشاغل - على رأي المسعودي - بدفع فتنة العراق ، أو احتج بقلة ولاء العراقيين على ما يذكر الدينوري . وبقي ابن سيار لوحده في وجه العاصفة .

وكان نصر بن سيار من الكفايات الادارية النادرة وقد نجح كعامل في سرقند ثم في بلخ قبل أن يعهد إليه الخليفة هشام ١٢١/٧٣٨ بولاية خراسان جميعاً وما وراء النهر فتميز بالحذر والعدل والمرونة وبعد النظر حتى أخضع بدو الترك إخضاعاً تاماً . ونظم الادارة الاقليمية فأعاد عاصمة الاقليم الى مرو (وقد كان الوالي أسد القسري قد ابعدها شرقاً الى باخ) وعين الولاة المحليين على مدن خراسان من المضربين واليسانين

وقام بإصلاح النظام المالي بعد أن أساء الدهاقين والمرازبة تطبيقه واستغلاله وعين لمراقبتهم ولإعادة فرض الضرائب على مستحقيها : منصور بن عسر وأعفى المسلمين من الضرائب الإضافية الثقيلة التي فرضها عليهم الدهاقين ليتألف قلوبهم .. إلا إن عوامل الثورة كانت أقوى بكثير من جهوده .

وقد حطمت من قوى نصر دون شك تلك الأزمة التي قامت بينه وبين حكومة دمشق بعد مقتل الوليد الثاني . والتي استغلها جديع بن علي الأزدي الكرمانى للثورة مع أصحابه اليسانيين على نصر وسلب الولاية منه . وقد صمد نصر للأزمة حتى زالت وثبت مركزه بوصول يزيد الثالث القيسي الميول الى الخلافة كما استطاع ان يقبض على الكرمانى ويضعه في السجن سنة ١٢٧ / ٧٤٤ إلا أن هرب هذا الرجل من سجنه سح له بمعاودة الثورة ولم ينفع في إخمادها خضوع نصر للضغط وتسليمه باعادة العطاء لمن قطع عنه من اليسانية خاصة .

وثار في الوقت نفسه ثائر آخر في خراسان هو الحارث بن سريج المرجىء ضد نصر واتفق مع الكرمانى فدخل الاثنان مدينة مرو بينسا هرب نصر الى نيسابور . ومع أن الحليفين اقتتلا وسقط الحارث قتيلا على يد حليفه (رجب سنة ١٢٨ / نيسان سنة ٧٤٦) إلا إن نصراً لم يفرح ضويلاً بخلاصه من أحد خصيه لأنه كان يتهاى لاسترداد مرو من الكرمانى وينتظر مدد الخليفة الذي طلبه حين ورد عليه خبر تجمع (الشيعة) من مرو وضواحيها

بدأت المعركة سياسية أول الأمر بين الوالى ابن سيار وابي مسلم . فقد عبد الوالى الى جمع الجبهة العربية المتناحرة . عن طريق اثاراة النعرة

العربية فيها لعلها تجتمع على حرب النابتة الجديدة التي ظهرت بقيادة
أبي مسلم :

أبلغ ربيعة في مرو واخوتها أن يغضبوا قبل الأوان ينفع الغضب؟
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم كأن أهل الحجاز عن فعلكم غيب
وتتركون عدواً قد اظلمكم ممن تأهب ، لا دين ولا حسب
ليسوا الى عرب . نأ فنعرفهم ولاصميم الموالي ان هم نسبوا
قوم يدينون ديناً ما سمعت به عن الرسول ، ولا جاءت به الكتب
فمن يكون سائلاً عن اصل دينهم فان دينهم ان تقتل العرب !

ومع أن اللعب على أوتار العصبية القبلية كان نعمة قديمة تجاوزها
العرب الخراسانيون بسبب ما نجم لديهم من ظروف ومصالح جديدة فقد
تجاوب بعضهم معها على ضعف واستطاع بنو بكر ان يصلحوا اولاً بين
نصر وشيبان بن سلمة الحروري وهو أحد القوى الثائرة التي اتفقت مع
قوات الكرمانى وكانت تشكل عنصراً من عناصر الاضطراب والخطر في
خراسان . ثم تقرب نصر من جديع الكرمانى واقترح الالتقاء به على
أطراف مرو ، فقبل جديع بعد تردد ولكنه اغتيل في ذلك الاجتماع من
قبل حاتم بن الحارث بن سريج (ثأراً لأبيه) . هل كان لنصر من يد في
هذا الاغتيال ؟ ربما كان ذلك لأن نصراً صلب الرجل بعد قتله ومع هذا
فقد اقتدى علي بن جديع الكرمانى (الذي خلف أباه في الزعامة)
بشيبان و « توادعت – كما يذكر الطبري^(١) وابن خلدون – قبائل
العرب من ربيعة ومضر واليمن على وضع الحرب ، والاجتماع على

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٦٧ (٢/ ١٩٦٩)

قتال أبي مسلم « وعاد نصر فاحتل مدينة مرو وما اضطر أبامسلم لأن
ينسحب الى قرية الماخوان ولأن يخندق فيها مع أصحابه الثائرين ولكن
هذا الاتفاق لم يكن صميميا صادقا فسا عثم ابو مسلم ان صد هجمة
صغيرة قاموا بها ضده . وعسد بالمقابل الى تفريقهم بدهائه . ونجحت
دبلوماسية أبي مسلم حيث فشلت مناورة نصر .

ولم يكن موقف الخراساني قويا في البدء - كما تصوره بعض
المصادر كالدينوري وابن قتيبة والطبري - بل كان هو الذي يطلب
ود بعض العرب . ولم يستطع المقاومة العلنية . بل جعل يكتب الى
شيبان بذه اليسانية تارة ومضر اخرى . ويوصي الرسول بكتاب مضر ان
يتعرض لليسانية ليقروا ذم مضر . وللرسول بكتاب اليسانية ان يتعرض
لمضر ليقروا ذم اليسانية . وقد استراب شيبان من الموقف كله فانسحب
بجباسته الى بلدة سرخس واعترف له أبو مسلم بحكم ما بين نيسابور
وهراة وجباية ضرائبها . وكان ابو مسلم في الوقت نفسه قد أرسل
للكرمانى يقول : « أما تأنف من مصالحة نصر وقد قتل بالامس اباك
وصلبه ؟ . ماكنت احسبك تجتسع مع نصر في مسجد تصليان فيه . . »
وكتب الى الأزدي يحذرهم مغبة الاتفاق مع نصر واصحابه : « لأن السلطان
في مضر وهم عيال مروان وقتلة يحيى بن زيد » . واذا لم يتعرض ابو
مسلم لنصر فقد نجح في تفريق اليسانيين والأزدي عنه . فسالبت الكرمانى
ان اجتسع بأبي مسلم فافتنع بقطع علاقاته مع نصر حين اعترف له
بامارة خراسان وصلى وراءه . ومالبت الأزدي أن انصرفوا عن حلف مضر .

٣ - تغير الثوار العلني وشعارات الثورة :

في هذه الفترة فيسا يبدو وحين وصل الى نصر جواب الخليفة بان

يخضم الداء بما عنده استطاع نصر بن سيار ان يجند بجانبه اعدادا كبيرة من الايرانيين سكان ماوراء النهر والمسسين بالتاجيك وقد حاربوا تحت رايته وبقوا على الولاء الاموي زمنا طويلا بينما استطاع أبو مسلم — فيما يظهر أيضا — ان يكسب الى جانبه بسهولة بعض العناصر التركية فيا وراء النهر ومن خوارزم وقد حاربت بجانبه تحت الراية السوداء^(١) . ويبدو أن هذه المشاركة التركية الاولى الناجحة تركت في الخيال الشعبي التركي أصداء عتيقة من الفخر ظهرت فيا بعد في كثير من الاغاني الشعبية .

وكانت أواخر سنة ١٢٩ واولئ سنة ١٣٠ هي الفترة الفاصلة في الموقف : اذ ترك أبو مسلم الخصومة تتسلح في مرو . وانسحب الى سفيدنج . وهي قرية بني خزاعة فأمر اتباعه بالحشد . يقول الدينوري : « فأنجفل الناس على أبي مسلم من هراة وبوشنج ومرو الروذ . والطاقان ومرو ونسا واييورد وطوس ونيسابور وسرخس وبلخ والصغانيان والطخارستان وختلان وكش ونسف فتوافوا جميعاً مسبودي الشياب » وفي اليوم المعين ١٥ او ٢٥ رمضان سنة ١٢٩ رفع أبو مسلم

(١) انظر فامبري — تاريخ بخارى (ترجمة الساداتي) ص ٧٨ ويضيف فامبري (هامش ١ و ٢) انه قرأ في مخطوط يفصل حياة أبي مسلم وجده في آسيا الوسطى أن الجيش الذي هزم به قحطبة الأمويين في الزاب كان في أكثره من الأتراك . وأن أبا مسلم دخل الأغاني الشعبية الحماسية وغنى الشعراء في مدحه وجعلوه بطلا قومياً كرستم لدى الفرس . وقد أفنى عمره في حرب المشركين من الفرس . وبعض القصص التي تجري حتى اليوم لدى الأوزبك والتركمان تقرنه في الجراة وعجيب القتال بعلي ابن أبي طالب وما من شك في أن ذلك إنما لحق أبا مسلم بعد أن اشتهر ولعب الخيال الشعبي في تجاذبه وتضخمه .

اللواء الاسود (الظل) والراية (السحاب) اللذين ارسلهما الامام إليه وهو يتلو الآية الكريمة التي كتبت على اللواء « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » . وقد أوجد الكتاب العباسيون فيما بعد تأويلات لاسى الظل والسحاب أرادوا بها اصفاء بعض المعنى الديني على بني العباس يقول صاحب العيون والحدائق : « ... وتأويل هذين الاسين الظل والسحاب أن السحاب يطبق الأرض وكذلك دعوة بني العباس وتأويل الظل أن الارض لا تخلو من الظل أبدا فكذا لا تخلو الارض من خليفة هاشمي أبد الدهر ... » (١)

وفي هذه الفترة من بدء الثورة نظم الثائرون أمورهم في شبه دولة : لها صاحب الجند وصاحب الرسائل وصاحب الشرطة وحرس للقائد الثائر ورجال للسراسلات ولها صاحب المال والاعطيات . وجعلوا لأنفسهم معسكرا واسعا تخيروا له موقعا موافقا لحفر خندق حوله (من قرية الماخوان) واجتمع اليهم الواردون هناك . فما أهل هلال المحرم من سنة ١٣٠ حتى كان عددهم يزيد على عشرة آلاف ... » (٢)

ووجد الثائرون قوة لم يكونوا يحسبون حسابها من قبل فلما بدت لهم استغلوها وهي العبيد الابقون . فاعلنوا قبولهم في الجند الثائر وكثروا حتى صير لهم أبو مسلم موقعا على حدة من خندقه (٣) .

ويلفت النظر هنا شعار « السواد » في الثياب وفي الراية . فهل

(١) العيون والحدائق لمؤلف مجهول (طبع دي غوية ١٨٧١) ج ٢ ص ١٨٦

(٢) أخبار الدولة العباسية (نشر الدوري) ص ٢٧٦ - ٢٨٠

(٣) المصدر نفسه ص ٢٨١

اتخذ العباسيون هذا الشعار حدادا على شهداء آل البيت الذين ذهبوا ضحية استبداد الامويين ؟ ام اتخذ لمناقضة البياض شعار الامويين ؟ قد يكون الرأي الاول هو الأصح فيما يتعلق بالثياب فقط (لا الراية) لاسيما وان الروايات التاريخية تؤيد ذلك - كما يقول دوساسي - وان الملابس السوداء كانت الملابس الرسمية في العهد العباسي اما ان البياض كان شعار الامويين فليس ذلك بثابت . وقد استنتج (كريس) من عبارة وردت في الاغاني عن الوليد انه كان يصلي في ثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة « ان شعار الامويين البياض » وبالرغم من انه رمز النظافة - على ما يظهر - فلدينا من النصوص التاريخية ما يدل على ان الامويين لم يقتصروا على الثياب البيض . فقد كانت العمامة شعارهم الرسمي . على انه - كما يقول فان فلوين (١) - « لا يبعد ان يكون الامويون قد اتخذوا البياض شعارا لهم بعد ان قامت الدولة العباسية وبعد ان اتخذ الخلفاء العباسيون السواد شعارهم . وقد ذكر الطبري وابن الاثير حين عرض لثورات الشام ضد أبي العباس أن أهل الشام « يبيضوا » (٢) مسا يوحى بأن البياض قد يكون اتخذ في ذلك الوقت أوقبله شعاراً لبني أمية .

اما الالوية السود فلم تكن يوما شعار الحداد . فقد كان لواء الحارث بن سريج في ثورته سنة ١١٦ اسود ، وكذلك علم بهلول الخارجي سنة ١١٩ وعلم ابي حمزة الخارجي سنة ١٢٩ هـ ولم يكن احد من هؤلاء في حداد على آل البيت . ويرى فلوتن اننا « ربما استبنا السر في اللواء

(١) فان فلوتن - السيادة العربية - ص ١٢٤ وما بعدها .

(٢) انظر الطبري ج ٧ ص ٤٤٤ وص ٤٤٦ (٣/٥٣ و ٥٦) وانظر ابن الاثير ج ٥ ص ٤٣٣ و ٤٣٤ .

الاسود من بيت في قصيدة للكسيت الشاعر الشيعي وجهها للحارث بن سريج سنة ١١٧ هـ يقول :

والا فاففعوا الرايات سودا على أهل الضلالة والتعدي

فالعلاقة هي بين الالوية السود ومحاربة الضلالة والعدوان أي الكفر وتعدي حدود الله . وهذا يبين لنا معنى هذه المسألة التي اشار اليها (هساكر) وهي ان الالوية المذكورة تشل لواء الرسول الذي كان يحصله في حروبه مع الكفار . ذلك اللواء الذي اتفقت جميع المصادر على انه كان اسود . ولهذا كانت ألوية الخوارج سوداء لانها تذكرهم بحرب الضلال والجور التي شنت على الكفار في عهد الرسول الذي يعتبرونه المثل الاعلى للكسال . ولعله لهذا ايضا (وما يفيد ذكره هنا) كان لواء علي بن ابي طالب . الذي كان يحصله له (هذين) في صفين . اسود .

ويلفت النظر من جهة أخرى بين الشعارات التي رفعها الثائرون في تلك الفترة شعار : (يا محمد يا منصور)^(١) وهو شعار استخدمته الدعوة العباسية بذكاء لاجتذاب اكبر عدد ممكن من عرب خراسان واذا كانت كليلة محمد تشير في الوقت نفسه الى الرسول العربي (ص) ودينه كسا قد تشير الى محمد بن علي العباسي (الذي كان قد مات أو ذاك) فان صيحة بامنصور صيحة ثورية معروفة وقد طالما رفعت في

(١) يذكر الطبري ج ٧ ص ٢٦٩ "ان اول من سود (في خراسان) هو اسيد بن عبد الله (في بلدة) نسا ونادى : يا محمد يا منصور . وسود معه مقاتل بن حكيم وابن غزوان وسود اهل ابورد واهل مرو الروذ وقرى مرو" .

ثورات سابقة كثورة المختار الثقفي وعبد الرحمن بن الاشعث وزيد ابن علي . كما أن لهذه الصيحة رنينها الخاص لدى القبائل اليمانية لأنها تذكرها بالمنقذ اليماني القحطاني المنتظر ، وبمنصور اليمن أو منصور حمير . وقد استخدمت في خراسان بالذات ، قبل سنوات معدودة من الثورة العباسية ، من قبل الثوار المرجئة مع الحارث بن سريج .

كانت جموع المسودة ماتزال تمشي الى « صاحب الالوية السود في سفيدنج » وقد سودوا أنصاف الخشب التي كانت معهم وسموها : كافر كوبات (أي عصا الكفار بني امية)^(١) واقبلوا فرسانا وحمارة يسوقون حميرهم ويزجرونها (هرّ مروان) يسمونها لمروان بن محمد . وكانوا — والكلام هنا للدينوري — زهاء مائة الف رجل .

في تلك الفترة — على ما يظهر — شجر خلاف بين ابي مسلم وسليمان ابن كثير ، زعيمى الدعوة ، فانتقل ابو مسلم الى قرية ماخوان تاركا قرية صاحبه . ثم دبر مقتله متخلصا بذلك من كل عقبة في طريقه ليصبح رئيس الدعوة الأوحده .

ولعله من الضروري أن نشير هنا الى أن هذا التدبير من ابي مسلم لم يكن الوحيد من نوعه . فقد سبقه أو أعقبه مقتل رجل آخر شكل خطرا على ابي مسلم هو عبد الله بن معاوية الجعفري رأس الفرقة

(١) استعملت هذه العصى الشبيهة بالعمد في ثورة المختار أيضاً (انظر الطبري ج ٦ ص ٧٦) . وكان أقدم أصحاب المختار هم من الموالي الساكنين في قرية خطرينة بسواد الكوفة ويذكر الطبري (ج ٧ ص ٣٦٠) أن ابا مسلم هو في الاصل من هذه القرية ذاتها .

الجناحية المتطرفة الغالية • فقد ثار الرجل في الكوفة سنة ١٢٧ والتحق بثورته عدد من الشخصيات العباسية الهامة كابي جعفر عبد الله بن محمد • وأبي العباس عبد الله بن محمد ، وعيسى بن علي (وهم رؤوس العباسيين فيما بعد) ولعلمهم ظنوا أن بإمكانهم استعجال الامر ضد الامويين قبل ثورة أخيه ابراهيم الامام السرية أو حسبوا انهم لن يصلوا من هذه الى شيء مع وجود ابراهيم على رأسها فالتحقوا بابن معاوية حفيد علي بن ابي طالب وعلى أي حال فقد فشلت الثورة وهرب ابن معاوية الى خراسان حيث اعتقله ابو مسلم • وربما كان ذلك بتعليمات « الامام » ابراهيم بن محمد ، ثم قتله سنة ١٢٩/٧٤٦ لأنه يشكل خطرا على العباسيين بادعائه الامامة وبرفق شعار الثورة العباسية نفسه « الدعوة للرضا من آل البيت ... » • وانزاح بذلك عن أبي مسلم وعن الثورة ظل خطير •

٤ - جبهة نصر بن سيار

وبينما كان ابو مسلم يستغل كل لحظة من فترة التربص لزيادة قوته كانت جبهة نصر بن سيار قد تصدعت وكان الكرمانى يحاصر مرو عاصمة نصر • ويظهر ، من روايتين للطبري ، ان ابا مسلم اضحى اذذاك من القوة بحيث حاول كل من الطرفين ان يتفق معه • ولكنه تربص حتى دخل الكرمانى (مرو) على نصر سنة ١٣٠ وعندئذ دخلها مع المسودة وأوقف القتال بين الطرفين ، واصبح سيد الموقف •

وفي (مرو) ، بعد هذا النصر المبدئي • اخذ ابو مسلم البيعة على الجند من الهاشمية خاصة • ونصها كما جاء في الطبري : « ابايعكم على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه (ص) والطاعة للرضا من آل بيت رسوا ،

الله (ص) وعلى الا تسألوا رزقاً ولا طمعاً حتى يبدأكم به ولا تكتم ، وان كان عدو احدكم تحت قدمه فلا تهيجوه الا بأمر ولا تكتم » . وفي هذه البيعة ايضاح لموقف الحركة العباسية اذ ذاك : فهم يعدون بالسير على الكتاب والسنة ويستمرون في كتمان اسم الامام بسعنى انه لم يكن بعد قد عرف ، ويؤكدون الطاعة المطلقة ويعاهدون على التجرد في العمل ويجب الا تنكر ما كان يضطرم في جوع المسودة من اندفاع عاطفي . ويذكرون ان صفوة جند ابي مسلم كانت من « الكفية » أو أهل الكف ، ويفسرونها بانهم كانوا يكتفون من الرزق بكف (حفة) من القمح او انهم بايعوا على الا يأخذوا مالا وان تؤخذ اموالهم ان احتيج اليها . يتغنون الجنة مقابل ذلك (أي يكفون عن الدنيا)^(١) وقد يكون التفسير الثاني اقرب للصحة لكن في التفسيرين معا معنى الزهد والاخلاص المجرد للحركة .

بدأ النضال المسلح بين القوى العباسية والقوى الاخرى بفتح مرو : اذ ورد أمر الامام باعطاء قيادة الجيوش العباسية لقحطبة بن شبيب الطائي . فكان أول مافعله تصفية الجيب الخطر عنده : شيان الخارجي لئلا يكون طعنة في ظهره فوجه ابا مسلم الى شيان . الذي تحصن بسرخس ، بعد سقوط مرو . فطلب منه البيعة للامام فلما أبى هاجسه وانتصر فقتله . وفر باقي الخوارج واكثرهم من بكر . فالتحقوا بنصر في نيسابور وارسل نصر الى الخليفة ينذره بسوء الموقف قائلاً : أيقاظ

(١) في كتاب المقريري : المقفى (مخطوط المكتبة الوطنية في باريس رقم ٢١٤٤ A١ الورقة ٨٠ ظهر) يقول : «... الكفية وهم الذين بايعوا على ان لا يأخذوا مالا وان تؤخذ اموالهم ان احتيج إليها ويدخلون الجنة . ويقال إنهم اعطوا كفا من الحنطة فسموا الكفية ..»

أمية أم نيام ؟ فجاء الجواب بحالته في النجدة على يزيد بن هبيرة عامل العراق فاستبان اليأس لنصر لاسيما حين أرسل قواه الأخيرة مع ابنه ضد الجيش العباسي فهزم وقتل قرب طوس ، فراجع نصر عندئذ من نيسابور (آخر شوال سنة ١٣٠هـ) بشيخوخته المتهمة التي بلغت به الخامسة والثمانين الى قومس ، بينما كان ابو مسلم يدخل نيسابور ويجعلها مركزه . ولم ينس في الطريق اليها ان يتخلص من منافسة زعماء اليمن ، حلفائه منذ مرو فقتل عليا بن جديع الكرمانى زعيم اليمانية ، وقتل أخاه عثمان والى طخارستان مع العديد من انصارهم بعد ان ادى تحالفه معها غايته المرجوة .

٥ - موقف الخليفة الاموي :

ويظهر ان خليفة حران ، (مروان) لم يأخذ هذه الحركة على انها اكثر من ثورة من تلك الثورات التي تعود اخمادها ، فقد رأيناه لايأبه لقوتها اول الامر ، ولايعاون نصرا حين استنجده . فلما انهزم نصر بعد سحق ابنه تميم في سرخس على يد قحطبة الطائي من جهة والقاسم ابن مجاشع التميمي من جهة أخرى . أمر الخليفة واليه في العراق بارسال جيش من قبله ، فعهد هذا لبعض قواده (نباتة بن حنظلة الكلبي) بجيش لم يتعاون مع نصر . ولقيه قحطبة بن شبيب الطائي فتغلب عليه وقتله (ذي الحجة ١٣٠ / تسوز سنة ٧٤٨) وفتح جرجان ثم لحق بنصر في قومس . فلم يقف ابن سيار في وجهه الا قليلا . وهرب الى همدان . ولم يحتل جسمه المتهدم كل ذلك فتوفي شريداً في (ساوه) ربيع الاول سنة ١٣١ تشرين الاول سنة ٧٤٨ وانتهى ، في الواقع ، بسوته الحكم الاموي في خراسان .

اما مروان فاستطاع ان يعرف صاحب الحركة القابع في الحميمة ، من كتاب وقع في يده منه ، فأمر عامله على البلقاء بالقبض عليه ، وعلى بعض اصحابه ، وحملهم الى حران ، وعرف الامام ألالنجانة له من قبضة مروان ، فبعث يعهد بالامر الى اخيه الاصغر ابي العباس عبد الله بن محمد ، وقد تحملت العائلة كلها هاربة ، في السر ، من الحميمة الى الكوفة . فاخترأت هناك (من المحرم أوصفر من سنة ١٣٢ / اب-ايلول سنة ٧٤٩) لدى رأس من اكبر رؤوس الدعوة في العراق : أبي سلمة الخلال الذي اصبح منذ تلك الفترة صاحب الامر والنهي في الحركة العباسية .

ويروي الجهشياري ان ابا سلسة انكر قدوم عائلة الامام عليه وقال: خاضروا بانفسهم وعجلوا^(١) واراد ان يقيهم خارج المدينة ولكنهم ذكروه بخطر ذلك . فقبل دخولهم البلد على كره منه . وأنزلهم دار الوليد ابن سعد الجمال مولى بني هاشم . وكنتم امرهم نحوا من شهرين عن جميع القواد والشيعية من الخوف .

وقد حسب مروان ان الفتنة تنقطع بقتل ابراهيم فدرس برأسه — كما يقولون — في « النورة » (الهاب) حتى مات وقتل باقي أصحابه^(٢) ولكن الجيوش التي كانت تسير من اجله ، دون ان تعرفه ، بقيت تسير من الشرق « مطلع سراج الدنيا » .

(١) انظر الجهشياري — الوزراء والكتاب (القاهرة ١٩٣٨) ص ٨٥ .
(٢) يقول ابن الاثير : (ج ٥ ص ٤٢٢ — ٤٢٣) ان ابراهيم توفي اما تحت انقاض البيت الذي انهار عليه ، اودس له السم في الحليب . كما ان الباقيين توفوا بالطاعون . ولعل الرواية الاخيرة صحيحة .

٦ - انتقال الثائرين الى العراق :

سار قحطبة مع ابنه الحسين سنة ١٣١ هـ غربا فدخل بعد جرجان: الري ثم همدان ، ثم حاصرا الحامية الاموية في نهاوند فاحتل البلد بعد ان هزما (معركة جابلق ٢٣ رجب سنة ١٣١) نجدة بعثها ابن هبيرة لانتقاها بقيادة عامر بن صنبارة أقدر قواده . وبهذا أصبحت الخطوة التالية الى العراق ولكن والي العراق يزيد بن عمر بن هبيرة كان قد تحرك نحوهما وعسكر في (جلولاء) على الطريق الجبلية التي تصل ارض الرافدين بهضبة ايران . وقد استطاع قحطبة ان يتجنب الاصطدام به ، وينفذ الى دجلة فيجتازه الى الفرات . فلما لحق به ابن هبيرة كان قد اجتاز النهر الى الضفة الغربية وعسكر في الكوفة ، فعسكر الامويون على الضفة الاخرى (الشرقية) تجاهه . وذات ليلة من مطلع سنة ١٣٢ (٨ محرم - ٢٧ آب ٧٤٩) استطاع قحطبة ان يقوم بهجمة صغيرة مباغتة، عبر النهر ، انتصر بها على ابن هبيرة عند موقع يقال له (الفلوجة) وجعله ينسحب الى واسط . ولكن القائد قحطبة لقي حتفه بطريقة مبهمة في الليل بعد ذلك^(١) . فتسلم ابنه الحسن القيادة ودخل الكوفة في ١١ محرم سنة ١٣٢ (اثر ثورة قامت فيها بقيادة محمد القسري أخذ فيها البيعة لآل محمد) . فتلقاه فيها ابو سلمة الخلال الذي خطب في المسجد الجامع فاعلن أن الدولة هي دولة « الكوفة » أي جعلها العاصمة والمركز وزاد

(١) يقال إن عربيا لقيه وهو خارج بفرسه من الماء عابرا الفرات إلى الغرب بعد انتصاره على ابن هبيرة فهاجمه بالسيف ثاراً لأولاد نصر بن سيار وتركه قتيلاً في الماء (انظر الطبري ج ٧ ص ٤١٢ - ٤١٧/٣ - ١٢ حتى ١٨)

من أعطيات الجند فجعلها ٨٠ درهما في الشهر بعد أن كانت ٣٠٠ سنوية .
أما الخواص والنقباء فلهم ما بين ألف الى الفين ودون ذلك للقواد الصغار .

٧ - من هو الخليفة ؟

ينقضي بعد هذا التاريخ شهران ونصف الشهر لا يتغير خلالهما
الموقف العسكري الا في شمال ايران الغربي ، اذ كان مروان الخليفة
قد ارسل ابنه عبد الله من العراق الشمالي . وكان قحطبة قد بعث اليه (ابا
العون) الازدي فهزم عبدالله بن مروان عند شهرزور . وبهذا أضحى الجناح
الشرقي من الدولة كله تقريباً بيد العباسيين . على ان الذي تغير خلال
هذه الفترة هو قيادة الدعوة . فقد برز فجأة اسم ذلك الكوفي : حفص
ابن سليمان المعروف بأبي سلمة الخلال فعرف الناس ، ليس اتسابه
للدعوة فقط ، ولكن عرفوا انه ايضا كبير دعائها ، اذ انفرد بالامر ،
وتسلم الرئاسة وتسمى « بوزير آل محمد » وعسكر بالجيش بحمام
أعين قرب الكوفة . وفرق - على قول الجهشياري - « عماله على
السهل والجبل ، وصارت الدواوين بحضرته ، والكتب تنفذ منه ، وترد
عليه (١) » ويقول « انه أظهر الامامة الهاشمية . ولم يسم الخليفة .
وتساءل الناس عن شخص ذلك الامام المجهول وراء هذه الثورة ؟
وعن مقره ؟ ولكن ابا سلمة لم يذكر اسم احد من العباسيين ، ولا كشف
عن وجودهم بالكوفة . وشاء ان ينفرد وحده دون باقي رجال الدعوة
بتفسير لغز « الرضا من آل محمد » وتعيين شخصيته من كبار آل
البيت » .

وتذكر المصادر المختلفة ان ابا سلمة حاول نقل الخلافة للعلويين

(١) الجهشياري - الوزراء والكتاب ص ٨٦

وتتفق في القول إن هذه الفكرة قد راودته ، بعد ان علم بمقتل الامام ابراهيم . ولكنها بعد هذا تختلف في تفسير هذه المحاولة . فالمسعودي يرى ان ابا سلمة خاف بعد مقتل ابراهيم الامام « انتقاض الامر وفساده . فشاء البيعة لعلوي » وفي الفخري انه « سبر احوال بني العباس فعزم على العدول عنهم الى بني علي » أي أنه رأى ان الفرع العباسي من آل محمد ليس فيه من هو قادر على استقطاب ولاء الناس او على الامساك بالامر . والطبري يذكر انه لما الح عليه القواد باظهار أبي العباس اجاب : « ليس هذا وقت خروجه ، لان واسطا لم تفتح بعد » ويقول اليعقوبي انه اخفى بني العباس وآل بيته لانه دبر ان يصير الامر الى آل ابي طالب .

ولعل تفسير الامر ان الخلال كان علوي الميل وكل الكوفة ، مثله في ذلك . وقد اراد اهتبال الفرصة لتقوية مركزه في الكوفة ، وتحقيق أمله العلوي ، لاسيما والناس لا يعرفون شخص « الرضا » وقد قتل الامام وشيكا ، وليس لآخوته الباقين (أبي العباس وأبي جعفر) من سابقة أو قوة بارزة ضمن الدعوة . . . فقام بمحاولته .

ويقولون في تفصيل هذه المحاولة^(١) : ان الخلال كتب الى ثلاثة من العلويين ليعقد الامر لاحدهم : جعفر بن محمد الصادق حفيد الحسين وعبد الله المحض بن الحسن بن الحسن ، وعمر الاشرف بن علي زين العابدين بن الحسين فأحرق الاول الكتاب ورفض عمر وقبل عبد الله . ويذكر اليعقوبي انه قال : « انا شيخ كبير وابني محمد (وهو ذو النفس

(١) انظر مثلا الجهشياري - الوزراء والكتاب ص ٨٦

الزكية) أولى بهذا الامر وارسل الى جماعة بني ابيه وقال بايعوا
لابني محمد » •

ولكن البيعة لم تتم لان جعفرا الصادق حذر عبد الله ثم اقنعه
قائلا : ومتى كان أهل خراسان شيعة لك ؟ أنت بعثت ابا مسلم
لخراسان ؟ أنت أمرته بلبس السواد ؟ وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت
كنت سبب قدومهم ؟ أو وجهت فيهم ؟ وهل تعرف فيهم أحدا ؟

وما من شك في أن حذر الزعماء العلويين وترددهم بجانب تعددهم
وعدم اتفاقهم قد جعل فرصة الخلافة في هذه الفترة تقوتهم • وسمح
للفرع العباسي بالبروز كمرشح ممكن وحيد • إذ بينما كانت الحيرة
والتردد هما طابع المفاوضات مع العلويين • دبت الريبة في الخراسانية
بالكوفة (وهم جند خراسان والتسمية هنا جغرافية وليست اثولوجية
وتعني خاصة الجند العرب القادمين من ذلك الاقليم) من تصرفات ابي
سلمة وكلسوه : « مالك تدعونا وما انت لنا بامام ؟ » ثم اكتشف بعضهم
مخبأ العباسيين ، فاخبر القواد فجاؤوا وعلى رأسهم أبو الجهم — على
رواية الجهشيارى^(١) — الى ابي العباس ومعهم اصحابهم في السلاح
وبايعوه (في ربيع الاول سنة ١٣٢ / تشرين الاول سنة ٧٤٩) وجابهوا
بهذا الشكل ابا سلمة بالامر الواقع فبايع واعتذر •

وأضحى أيو العباس عبد الله بن محمد أول السلسلة الطويلة
في خلفاء بني العباس التي استمرت بعد ذلك ولمدة تزيد على ٥٠٠ سنة •

(١) انظر تفصيل الامر لدى الجهشيارى ص ٨٦ — ٨٧

٨ - مبادئ الدعوة :

قامت الدعوة العباسية على مبادئ ثلاثة :

آ - المبدأ الديني : وهو جعل الكتاب والسنة قانون جميع المسلمين • فهي تمثل لحد كبير الرغبة العتيقة لدى العرب والموالي على السواء في تطبيق الاسلام التطبيق الاكمل •

ب - المبدأ السياسي : وهو حق بني هاشم في الخلافة دون تحديد لأي فرع من الهاشيين •

ج - المبدأ الاجتماعي : الذي قد يلخصه قول شاعرهم :
لسنا نحابي على الرحمن من أحد فيما نطالب من مولى وعرب

ويقصدون دمج المسلمين كافة من عرب وغير عرب في مجتمع اسلامي واحد يتساوى افراده في الحقوق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية • فالدعوة العباسية لا تمثل نوعا من الحركة القومية أو الشعبية ضد العرب ولكنها في أبعد الاحوال تمثل اندحار الفكرة القائلة بارتباط الاسلام بجنس مسيطر واحد هو العرب •

وقد استغل الدعاة العباسيون في نشر هذه المبادئ ظروف ومبادئ وافكارا متباينة :

آ - الازمة الاقتصادية الناجمة عن الحرب الاقتصادية مع بيزنطة من جهة وعن تقلص موارد الدولة عامة من جهة أخرى •

ب - الضيق العام الناتج عن كثرة الفتن والثروات وتناحر العصبية في العهد الاموي الاخير • ونستطيع لحدما أن نقول : أن

سقوط الامويين لم يكن نتيجة ثورة في خراسان بقدر ما كان نتيجة اضطراب الحكم في الادارة وفي الاستقرار بالشام .

ج - تدمير العرب في خراسان خاصة والموالي عامة من اوضاعهم الاجتماعية والسياسية .

د - النظام المالي المطبق في الدولة واضطرابه وضيق الطبقات المختلفة من العرب والموالي به .

هـ - التيارات الدينية القديمة : التي تسرب بعضها الى الاسلام وتساهل به الدعاة : كبداً التناسخ والخلول ، ومبادئ المشاعية المزدكية . وسيظهر أثر هذه التيارات الدينية في مطلع العصر العباسي باسم : حركة بهافريد والراوندية والخرمية ... وغيرها .

هـ - الحركة العلوية وعطف الناس على آل البيت المضطهدين . وقد جرفت الدعوة العباسية معها واحتوت الكثير من الاراء المتطرفة التي وإن لم تكن هي القوة المحركة للثورة ولا عقيدة الغالبية العظمى من الثوار الا أنها حركت الحقد ضد الامويين بقوة وظهرت أشكالها المتطرفة في مطلع العصر العباسي باسم الهاشمية والعباسية والراوندية ..

و - الافكار « الاسرائيلية » التنبؤية التي كانت تبشر بمجيء منقذ « يملأ الارض عدلاً كما ملئت جوراً » او بظهور « صاحب الاعلام السود » من المشرق او مجيء « المهدي » الخ ...

ان مبادئ الدعوة تلك ، وما استغلته من الاوضاع ، سيكون له نتائج ايجابية والسلبية معا في العهد العباسي . وسيفسر لنا الكثير من سياسة العباسيين ، ومن الحركات العلوية والفارسية ، ومن الثورات لاسيما في عهودهم الاولى .

٣ - انهيار خلافة دمشق والقضاء على الامويين

كانت البيعة لابي العباس بدء العمل لانهايته فقد ألقت على كاهله الشاب اعباء جساما لعل أخفها ضرورة التقرب من اهل الكوفة الذين لم يكونوا موثوقي الولاء - كما يقول ابن قتيبة - ولا كان هواهم مع بني العباس . ثم ضرورة الاعتماد والحذر في وقت واحد من ابي سلمة الخلال وزير آل محمد ، وهو غير مأمون الاخلاص ... اما العبد الحقيقي فكان في الوضع العسكري الدقيق الذي كانت عليه الجيوش العباسية .

فدخول العباسيين للعراق من وسطه جعلهم كرأس جسر بين فكي « كماشة » اموية : فشمال العراق والجزيرة والشام ومصر والحجاز كانت لمروان الخليفة . وواسط والبصرة وما حولهما من جنوبي العراق كان لابن هبيرة وجيشه الاموي القوي . ولم يكن مع الثائر العباسي سوى خراسان وماوراءها والطريق الذي يصلها بأواسط العراق دون جنوبي فارس او شمالها الغربي . وقد استطاع ابو العباس رغم هذا الوضع القلق ان يثبت دعائم العرش العباسي .

أولا - توجه لضمان النصر على الخليفة الاموي ، وكان مروان قبل تسرب العباسيين للعراق قد بعث بابنه عبد الله في جيش تغلغل في بلاد ايران حتى جنوبي بحر الخزر متجها الى خراسان نفسها ، لكن القائد قحطبة الطائي ارسل اليه جيشا يقوده ابو العون الازدي فهزمه عند شهرزور . وتراجع عبد الله نحو شمالي العراق فاسرع ابو لهب لنجدته . وعلم ابو العباس ان ابا العون بحاجة الى نجدة أيضا فبعث اليه بحملة

يقودها عمه عبد الله بن علي • ويظهر أنه وعده بولاية العهد من بعده،
ان فاز بسروان •

ويلفت النظر بهذه المناسبة ذكاء الزعامة العباسية سواء في عهد
محمد بن علي أو ابنه ابراهيم أو ابي العباس الابن الثاني • فقد
اختاروا للزعامة للقيادة في خراسان خراسانيا هو أبو مسلم رغم أن
الثورة عربية العناصر ثم حين اندفع الجيش الثائر الى العراق كان على
قيادة عربي هو قحطبة الطائي فلما مات تلاه ابنه فلما كان دور الامويين
والشام جعلوا على القيادة عباسيا صحيحا هو عمهم عبد الله بن علي •
وسرى مثل هذا التصرف في حرب المنصور لمحمد النفس الزكية الزعيم
العلوي فيما بعد •



ومشى عبد الله العباسي في اربعين الفا متشجين بالسواد حتى خيولهم كأنما هم في موكب جنازة والتقى العباسيون بالجيش الاموي عند قرية الكشاف على نهر الزاب الكبير في شمال العراق^(١) . وكان مروان في ١٢٠ الف مقاتل او اثني عشر الفا فقط (حسب روايتي الطبري ولعل الثانية هي الاقرب للصحة ولعلمهم حوالي ٢٠ الى ٢٤ ألفا كما روى البلاذري) فجاز الخليفة النهر على جسر عقده . واستطاع ان يزحزح العباسيين اول الامر ، ولكن عوامل عديدة كانت تعمل في غير مصلحته :

آ - عدم تماسك جيشه وفتك العصبية به . يقول الطبري : « وقال مروان لقضاة انزلوا فقالوا قل لبني سليم فليزلوا فارسل الى السكاسك ان احملا فقالوا قل لبني عامر فليحملوا فارسل الى السكون ان احملا فقالوا قل لغطفان »

ب - حاول مروان تقوية عزائم جنده بالمال فعرضه عليهم فتركوا الحرب لأخذه فلما ارسل ابنه لصددهم ظنوا انها الهزيمة فهربوا .
ج - كان جند مروان قد انهك من كثرة الحروب ولم يكن للخليفة من وقت لتنظيمه وإراحته .

د - كانت معنويات الجند الاموي ضعيفة بعكس خصومهم . وقد اتفق ان هبط مثلاً سرب من الغربان السود على رايات العباسيين في المعركة ، فبان الجزع والقنوط في اصحاب مروان .

وانتهت هذه المعركة التي عرفها التاريخ باسم معركة الزاب (١١)

(١) وردت عن معركة الزاب تفاصيل واسعة هامة في تاريخ الموصل لأبي زكريا الأسدي (طبع علي حبيبة - القاهرة ١٩٦٧) ص ١٢٥ - ١٣٣

جمادى الآخرة سنة ١٣٢/ ٢٥ كانون الثاني ٧٥٠) بهزية الجند الاموي بعد عشرة أيام من القتال وبختم الخلافة الاموية . وشوهد في نهايتها حصان مروان يجري في الميدان دون صاحبه . الا ان الخليفة المهزوم كان في ذلك الحين في طريقه الى الموصل ، فلما منعه اهلها من دخولها ، توجه الى حران . فلما لم ينجح بجمع جيش جديد ، قبل ان يدركه العباسيون تابع هربه الى حمص فدمشق وطارده الخطر الاسود اليها ، فأتم طريقه الى فلسطين . وبينما كانت الموصل وحران ثم حمص تقدم طاعتها لأبي العباس ، دون قتال ، كان مروان بن محمد يعبر صحراء سينا الى مصر ، حيث دهمه بعض الجند العباسي بقيادة عامر المسلى الموصلية ومعونة بعض الاقباط في كنيسة قرية بوصير فقتل وهو يحارب في ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ وحز الموصلية رأسه وبعث به هدية لخليفة الكوفة الجديد .

ترى هل دارت بذلك الرأس المقطوع فكرة الاستنجاد بامبراطور بيزنطة قسطنطين - كما يقولون - او فكرة الاستقلال بافريقيا الشمالية؟ لسنا نستطيع الجزم بشيء من هذا ولكن أبا العباس سجد شكرا لله حين وصلتته الهدية الدامية^(١) .

وقد ذكر ابن عساكر بعضا من أولاد مروان بن محمد وأحفاده

(١) لعلنا نضيف هنا ان العباسيين لم يقتلوا خليفة أمويًا واحدا سنة ١٣٢ وانما قتلوا خليفتين هما : مروان بن محمد واخوه لأمه ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان الذي ولي الخلافة سبعين ليلة سنة ١٢٧ فلما دخل مروان دمشق خلع نفسه (صفر ١٢٧) واختفى وبقي حياً الى سنة ١٣٢ فقتل حينئذ فيمن قتل من بني أمية (انظر ابن عساكر تاريخ دمشق (مخطوط الظاهرية) ج ٢ ورقة ٢٧٩ ظهر - ٢٨٠ وجه . والسيوطي تاريخ الخلفاء ص ٢٥٤) .

أسروا حين قتل بمصر وحملوا إلى أبي العباس فظلوا في السجون العباسية حتى أطلقهم منها هارون الرشيد^(١) منهم الحكيم بن عبد الله حفيده ، وأبو عثمان ابنه ...

ثانياً - وجه أبو العباس قائده الحسن بن قحطبة لحصار يزيد ابن هبيرة في واسط ثم بعث أخاه أبا جعفر للإشراف على الحصار فشدد حضوره - كما يذكر الطبري والدينوري - من عزائم الجيش . ولكنه لم يفد في فتح المدينة التي استطاعت بمنعة حصونها ومهارة ابن هبيرة فيها أن تقاوم أحد عشر شهراً . وقد حاول العباسيون إحراق واسط عليه بأن يملأوا السفن حطباً ويضرموا فيها النار ويسيروها في النهر ، ولكنها كانت محاولة فاشلة إذ هبأ ابن هبيرة حراقات تجر تلك السفن اللاهبة بالكلايب ، ويظهر أن هذا القائد الأموي كان يأمل انتفاض البلاد على هؤلاء الثائرين . فلما قتل مروان بدأت بينه وبين العباسيين معركة سياسية غلب فيها . فاتصل بالعلويين يدعوهم للمطالبة بالخلافة ليفرق صفوف خصومه ، وليكسب عطف اليمانية الموجودين في واسط ، ولكن أبا جعفر عرف هذا منه فكتب إلى اليمانية أن « السلطان سلطانكم والدولة دولتكم » ، « وكتب أبو العباس إليهم يطمعهم » وتابع أبو جعفر الحملة فكتب إلى أصحاب ابن هبيرة « يستميلهم بالاطماع وينبهم على حظوظهم ويعرفهم انصرام دولة بني أمية فاجابوه جميعاً وكان زياد بن صالح الحارثي - عامل ابن هبيرة على الكوفة وأخص أصحابه عنده - أول من أجاب دعوة أبي جعفر » .

(٢) انظر ابن عساكر . تاريخ دمشق (مخطوط الظاهرية) ج ٥ ورقة ١٠٣ ظهر ، وج ١٩ ورقة ٧٣ ظهر

ووجدت الدسائس مع طول الحصار ، طريقها الى جيش ابن هبيرة
ما بين قيس ويمن ، فتوقف الطرفان عن الحرب • ولم يكن يقاتل مع
القائد سوى الصعاليك والفتيان^(١) • فطلب الصلح ، وكتب له بالامان
بعد طول مفاوضات^(٢) • وتسلم العباسيون واسط (أواخر سنة ١٣٢) ولكن
العهد لم يرع • وقتل ابن هبيرة بأشارة ابي مسلم – كما يذكر الطبري
وابن قتيبة واليعقوبي – وكانت دعوى القتل انه اتصل بالعلويين لنقض
الدولة العباسية كما يروي ابن أعثم الكوفي • وقد تردد ابو جعفر في
قتله وأبقاه في حجرته ، فألح عليه ابو العباس الخليفة وكثرت كتبه
بذلك ، حتى نفذ أمره وقتله مع ابنه داوود • وقد استتبع سقوط واسط
سقوط البصرة بعدها وجنوب العراق كله • فقد والي الأمويين في البصرة
هو سلم بن قتيبة الباهلي وقد اعتصم بها لا يسلمها للوالي العباسي
الجديد سفيان بن معاوية المهلب في انتظار ما يكون من أمر ابن هبيرة
وكانت قوته في نفوذه القبلي الواسع تعينه فلم يستطع سفيان دخول
البصرة بالقوة • فلما استسلم ابن هبيرة ثم قتل انسحب سلم الى
الحجاز وسقطت البصرة بدورها ...

وإذ ذاك استطاع أبو العباس ، لأول مرة ، أن يطمئن الى خلافته
والى أمن مركزه في العراق بينما كان عمه الاول عبد الله يستصفي له
الشام ومصر من الأمويين ، وعمه الثاني داوود يأخذ له البيعة في الحجاز ،
ومنابر معظم الاقطار الاسلامية تدعو له في نهاية الخطب باسم خليفة
المسلمين •

(١) انظر الطبري ج ٧ ص ٤٥٤ (٣/٦٧)

(٢) نجد نص الامان وهو بليغ قوي في كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي
(المخطوط ورقة ٢٢٣ ظهر – ٢٣٤ وجه) وفي كتاب الامامة والسياسة
لابن قتيبة .

ثالثاً - رفع اللواء الاسود على دمشق (١٠ رمضان سنة ١٣٢) أي بعد ثلاث سنوات من رفعه في خراسان ، وبعد ستة اشهر من بيعة ابي العباس . وقد اجتمع عليها عبد الله وصالح ولدا علي بن عبد الله بن العباس وعدد آخر من قواد العباسيين .

واعتصم أهل دمشق وراء أسوار المدينة ولكن جهتهم الداخلية كانت متمزقة بين قيس ويمن لدرجة أنهم أقاموا في الجامع قبلتين وتلاسنوا وتلاعنوا وتضاربوا بالنعال . ودعا عبد الله بن علي اليمانيين في المدينة وأغراهم قائلاً : « انكم وإخوتكم من ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وانصارنا فانصرفوا وخلوا بيننا وبين مضر .. » واستمعوا إليه فسقطت المدينة بعد أن قتل اليمانيون قائدها الوليد بن معاوية وفتحوا الأبواب (١٠ رمضان سنة ١٣٢ / ٢٢ نيسان سنة ٧٥٠) على أن سقوطها كان بدء مجزرة مرعبة في الامويين بدأت في جوامعها واسواقها ويوتها ثم انتشرت الى كل مكان به أموي وهدم حائط دمشق واستمر القتل ونش قبور الامويين خمسة عشر يوماً وتجاوزت المجزرة الحد اللازم لتوطيد الدولة ، لتصبح ثأراً وانتقاماً شخصياً حقوداً : وكان بطل هذه المجازر التي تعددت ازمنتها وامكنتها عبد الله بن علي الذي لقب (بالسفاح) عن جدارة ، ولا تكاد نعرف لها مثيلاً في التاريخ غير حرب الوردتين الانكليزية التي استأصلت اسراً برمتها : فقد تعقب عبد الله وبنو العباس معه^(١) الامويين في الشام كله وفي الحجاز (بطلها داوود بن علي) ومصر

(١) يروون من قول ابي العباس :
بني امية قد افنيت جمعكم كيف لي منكم بالاول الماضي
ومن قول عمه عبد الصمد :

والعراق والجزيرة ، ونكلوا بهم تنكيلا بلغ أحيانا حد المثلة (كالذي كان على نهر ابي فطرس ^(١) ، وفي حضرة ابي العباس في العراق) وانتهى الامر الى الطواف برؤوس كبار الأمويين في الشام وإلى نبش الموتى ، وبعثرة ما في القبور . وجلد الجثث ^(٢) ولئن أصدر الخليفة كتاباً بالامان للجميع ، فلقد نقض الامان بعد اعطائه . فاستتر من استتر من بني امية ، وهرب من أطلق الفرار وهم قلائل : بعضهم قصد الحبشة وبقي فيها حتى خلافة المهدي ^(٣) ، وبعضهم وصل المغرب ومنهم عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام بن عبد الملك الذي انتقل الى الاندلس فاجتزأها من الدولة . واقام فيها من جديد الخلافة الاموية الثانية .

وبالرغم من تشابه بعض الروايات عن عمليات القتل الجماعي للأمويين مما يوحي بالشك فيها ومن وجود ظل للمبالغة أحيانا في بعضها

ولقد شفى نفسي وابراسقمها اخذي بثأري من بني مروان
ومن آل حرب ليت شيخي شاهد سفكي دماء بني أبي سفيان
ومن قول عمه عبد الله بن علي لبنات مروان بن محمد : لن نستبقي
منكم احدا رجلا ولا امرأة . .

(١) يراجع في تفصيل ذلك أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص ٤٧-٥٦؛
تاريخ الموصل لابي زكريا الاسدي ص ١٣٨-١٣٩ وابن الاثير ج ٥ ص ٤٢٩-
٤٣٢ والأغاني ج ٤ ص ٩٢ وما بعدها . وقد حقق فلها وزن موضع أبي
فطرس بأنه عند كفر سابا في وادي نهر العوجا (فلها وزن - تاريخ الدولة
العربية - مترجم - ص ٥٢٤) .

(٢) يروون أن عمرو بن تمام القائد العباسي نبش قبر هشام بن عبد
الملك فوجده صحيحاً لم يتلف منه سوى أرنبة أنفه فضربه أسواطاً فانثر
ثم صلبه واحرقه بالنار وذراه بالريح . (انظر الأزدي - تاريخ الموصل
ص ١٣٨ وابن الاثير ٤٣٠/٥) .

(٣) الطبري ج ٧ ص ٤٣٨ (٤٦/٣) ابن الاثير ٤٢٧/٥

وجب للتشفي في بعضها الآخر ، ومن وجود بعض الدلائل أحياناً أخرى على تسامح عدد من القواد العباسيين واستخدامهم اللين والرفق مع الأمويين والحركات الاموية أيضاً ، ومن أنه لم يكن حتى عبد الله بن علي ولا أبو العباس أو أبو جعفر بالبعيد عن هذا الرفق ، إلا إن مثل هذه الأعمال تجد تفسيرها فيما ذكره ، في ذلك الوقت نفسه ابن المقفع الذي قال في رسالة الصحابة «... أما ما يتخوف المتخوفون من نزواتهم (الأمويين) ... فإنه لم يخرج الملك من قوم الا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها ثم كان ذلك التوثب هو سبب استئصالهم وتدويخهم...»^(١) .

فما من شك في ان موقف العباسيين إذن كان في أول الأمر موقف القمع والشدة الدموية ثم مالبت العواطف أن هدأت مع استقرار الدولة . فتوقف الذبح والقتل . وما من شك أن العباسيين كانوا أحياناً يستخدمون اللين إن وجدوا أن استخدامه لا يضر بالدولة ، وبين هذا وذاك وقعت دون ريب عدد من المذابح الرهيبة إما تشفياً أو إرهاباً كما لجأ العباسيون الى عقوبات أخرى ذكرها ابن المقفع نفسه في رسالة الصحابة يقول : «... أخذ في أمر أهل الشام على القصاص . وحرموا ، كما كانوا يحرمون الناس ، وجعل فيؤهم الى غيرهم كما كان في غيرهم إليهم . ونحوا عن المنابر والمجالس والأعمال كما كانوا ينحون عن ذلك من لا يجهلون فضله ومنعت منهم المرافق كما كانوا يمنعون الناس أن ينالوا معهم أكلة من الطعام الذي يضعه امراؤهم للعامة...» ثم ينصح ابن المقفع بالرفق فيهم والسلوك معهم في سياسة أخرى .

(١) ابن المقفع . رسالة الصحابة (طبعة رسائل البلغاء القاهرة ١٩٦٤)

ولعله من الهام أن نسجل هاهنا ملاحظة أخيرة هي أن هذه القسوة التي استعملها العباسيون ضد الأمويين لم يكن لها في تاريخ علاقات هاتين الجماعتين ما يبررها . فلم يقتل الأمويون من بني العباس سوى إبراهيم الامام ، بعد الثورة . وإذا كان العباسيون قد استعاروا أحقاد العلويين لتبرير عمليات القتل الجماعي للأمويين فإن التفسير الحقيقي الوحيد لكل تلك الدماء هو الرغبة في الخلاص من أي منافسة أموية محتملة على كرسي الخلافة .



الفصل الثالث

العباسيون

١٣٢ - ٦٥٦ هـ و ٥٧٠ - ١٢٥٨ م

استمر زمام الرئاسة العليا في العالم الاسلامي مدة خمسة قرون بيد بني العباس . ويصف صاحب الفخري دولتهم بانها «كانت دولة كثيرة المحاسن ، جمّة المكارم ، اسواق العلوم فيها قائمة ، وبضائع الآداب فيها نافقة ، وشعائر الدين فيها معظمة ، والخيرات فيها دارة» ، والدنيا عامرة والحرّات مرعية ، والثغور محصنة . وما زالت على ذلك حتى كانت اواخرها فانتشر الجبر واضطرب الامر وانتقلت الدولة...»

١ - ميزات الحكم العباسي :

من الضروري أننبه منذ البدء ان مانعنيه من ميزات الحكم العباسي لا يتناول حياة الخلافة العباسية منذ ظهورها سنة ١٣٢ حتى انهيارها على يد التتر سنة ٦٥٦ فذلك مطلب عسير التناول ومن الصعوبة بمكان التقاط ملامح عامة لدولة تطورت اطوارا عديدة خلال خمسة قرون

وإن احتفظت على القمة باسم الخليفة العباسي • إنما تنصب هذه الميزات التي نبحث عنها بشكل عام على القرن الأول خاصة من عهدها (١٣٢ - ٢٣٢) وإن شئنا التجاوز شملت القرن الثاني التالي له (٢٣٢ - ٣٣٤) • أما ما بعد ذلك مما يسمى بالعصر البويهي ثم السلجوقي فله - الى حد كبير - ميزاته الخاصة •

والقرن الأول من الخلافة العباسية هو وحده عهد الدولة العباسية الخالصة ثم سقط الحكم العباسي بين القواد الأتراك فأضحت هناك : خلافة عباسية لها بشكل متزايد الطابع الديني فقط مقابل «دول» فعلية مأمها علناً أو بشكل موارد قواد الجيش من الأتراك خاصة ، سواء في الأقاليم أو في بغداد نفسها • ولعله من الضروري كما نكون على الموضوعية والدقة أن نحصر الاهتمام بالقرن الأول •

ولعل أول ما نقف عنده في هذا الصدد هو تقييم الثورة العباسية في مسيرة التاريخ الاسلامي •

فمعظم المصادر تصور انتقال الخلافة من بني امية الى بني العباس كما لو كان نهاية عصر بائد وفاتحة عصر جديد ، او أنه انقلاب جذري في كيان الامبراطورية العربية الاسلامية • وكثير من الاوهام تتحدر من هذه الفكرة ، فإذا لم يكن انتقال الحكم من الراشدين الى الأمويين مجرد تغيير في نظام الحكم وكان انقلاباً في تكوين الدولة الاسلامية ومفاهيمها أعطائها أشكال ونظم الدول الأخرى السابقة لها ، مع ما يقتضيه الاسلام من تعديل فيها فان العصر العباسي الأول ، في واقعه العميق ، ليس اكثر كثيراً من انتقال عرش من اسرة لأخرى ، مع التعديلات التي تقتضيها سنة التطور • فاذا كان التاريخ لا يقبل الانقطاع عامة ، فانه

هـيما يتعلق بتلك الفترة ، بين أواخر العهد الأموي وأوائل العهد العباسي خاصة ، لم ينقطع . وإذا سمي العباسيون حكومتهم «دولة» فهذه التسمية تحتاج الى تحديد ، لأنهم لم يخلقوها خلقاً جديداً . وكثير من انظمتهم وتقاليدهم وسياستهم كان استمراراً للعهد الأموي ونضجاً له وتطوراً طبيعياً لمؤسساته وعلومه وتياراته الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وما أدخله العباسيون من التعديل على السياسة العامة كان مبعثه الطريقة التي وصلوا بها الى الحكم ، وظروف الدعوة التي سبقت خلافتهم . كما ان ما يبدو من التباين بين عهدهم الأول والعهد الأموي فإنما مرده الى ما اقتضاه نقل مقر الخلافة الى العراق ، واتصال الدولة المباشر والمتكاثر مع الموالي الفرس واستخدامهم فيها ، من التغير . ولعل المقارنة بين العهدين تبين لنا ميزات العهد العباسي ومدى شبهه واختلافه مع العصر الأموي :

١ - يقول الجاحظ : «دولة بني العباس اعجمية خراسانية ، ودولة بني مروان عربية اعرابية» ويرى المسعودي انه في زمن بني العباس «سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها» ويقول بيكر : «ان انتصار العباسيين معناه انتصار الفرس على العرب» . ويرى ولهاوزن «ان حكم العرب انتهى بمجيء العباسيين، وان الفارسية انتصرت على العربية تحت ستار الاممية الاسلامية» والخطأ الأساسي في مثل هذه الأحكام عامل الزمن وانتقالها في الحكم من عصر الى عصر . فقد تكون هذه الافكار صحيحة في خطوطها العامة إذا اعتبرنا ما انتهت إليه السياسة العباسية بعد قرن من التطور لكنها دون شك مبالغ فيها وغير صحيحة إذا اعتبرنا النتائج المباشرة للانتصار العباسي على بني أمية . فلم ينته سلطان العرب بخلافة العباسيين ، لان الخلفاء كانوا عرباً هاشميين ، يعتزون بنسبهم ومناقبهم . وتقريبهم الفرس لم يمنعهم من

كيل الضربة تلو الضربة ، لهم ، منذ عهد ابي العباس حتى المأمون والمعتصم
— على الاقل — واذا وصل الفرس الى الوزارة فعدد كبير من القواد
والولاة كانوا عرباً ومن اقرباء البيت المالك . وحتى الفرقة الخراسانية
في الجيش كانت في معظمها عربا كما كانت هناك فرق أخرى عربية وغير
عربية .

هذا الى ان الناس ظلوا ينزعون للفخر بالنسب العربي . ويشتري
بعض الموالي النسب شراء . وحتى ابو مسلم نفسه ادعى النسبة العربية
وسبق الى زمن ابي تمام (القرن الثالث للهجرة) نسمع الفخر بالعروبة
وتراشق الهجاء بالنسب الفارسي .

وعدا هذا فان اللغة العربية ظلت لغة السياسة والثقافة وازدادت
تعمما وانتشاراً وبدأت الترجمة من اللغات الاخرى اليها .

فحكم العرب اذن لم ينته بالعباسيين . ولكن الامتيازات التي كانت
لهم على العناصر الاخرى في الدولة زالت . والعصر العربي الخالص في
تاريخ الاسلام قد انتهى . والحياة العربية الخالصة للحكام آذنت
بالانقراض . فكانت دولة العباسيين «اسلامية» أممية ، ليس العرب
أكثر من عنصر كبير وأساسي وحاكم من عناصرها ، بينما كانت دولة بني
أمية عربية فقط . وبعض الظروف السياسية كحركة ابي مسلم وثورة
المأمون ، هي التي ابرزت الخراسانيين من بين شعوب الدولة ولكن
الخلفاء لم يختصوا دوماً بهم ، ولا بهم وحدهم .

ونعود الى كلمتي الجاحظ والمسعودي فنجد أن الجاحظ ، الذكي
القواد ، المطلع على السياسة العباسية والذي عاصر فترة الأوج من دولة

بني العباس إنما كان يقصد بكلمته عن أعجمية هذه الدولة وخراسانيتها
المعنى الجغرافي لا معنى الحكم والسياسة . ولعله إنما أراد ان يقول إن
الدولة العباسية إنما قامت بدعم من منطقة أعجمية خراسانية بينما قام
الحكم الأموي بدعم من المناطق العربية . وأما المسعودي فما من شك
في أنه كان يحكم على دولة بني العباس من خلال عصره وما انتهى إليه
الحكم والسياسة العباسيان في مطالع القرن الرابع بعد تطور قرنين على
الأقل .

ويمكن القول في النهاية أن الدولة الاسلامية ، تحولت في العهد
العباسي إلى دولة قوميات متعددة بعد أن كانت في العصر الأموي واحدة
القومية بمعنى أن الجماعة الحاكمة ، أيام الأمويين كانت من العرب في
غالبيتها العظمى وتحتها القوميات والشعوب الأخرى أما في العصر
العباسي فتحول الحكم (وهو تحول بدأ بالتدريج منذ الأمويين) إلى
حكم قوميات متعددة . جمع بينها الاسلام فكان فيه في طبقاته العليا:
بجانب العربي الذي لم يخسر مكائته الايراني والتركي كما فيه البربري
والأرمني والنبطي والزنجي والسندي ، نفذوا باعتراف الاسلام من طبقة
المحكومين الى طبقة الحاكمين وشاركوا ، باعتبارهم مسلمين ، في إقامة
وإدارة الحكم الاسلامي وفي الاستفادة من الفرص والآلاء التي يقدمها
هذا الحكم . لم تتدهور قيمة العرب كوحدة عرقية وحضارية — خلافاً لما
قال بعض المؤرخين والمستشرقين — أثناء تحول الدولة الاسلامية الى دولة
شعوب متعددة ولكن برزت معهم الشعوب الأخرى واختفى بالتدريج
التمييز الذي كان ظهر بشكل طبيعي في العهد الأموي بين العرب والموالي
وإن بقيت أشكاله ومظاهره الخارجة بقاء القواقع بعض تلاشي المحار .

ومقابل هذا جرى العكس بالنسبة للخليفة فإذا كان في العصر

الأموي على مستوى غير بعيد من أي فرد من أفراد الطبقة الحاكمة العربية فقد ارتفع في العصر العباسي ليأخذ الصفة الدينية ويصبح قمة الارستقراطية المحدودة العدد والإطار التي يمثلها مجموعة آل بيت النبي في أوسع أشكالها أي مجموعة آل هاشم .

٢ - يقول صاحب الفخري : «ان هذه الدولة (يعني العباسية) ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك فكان أخيار الناس وصلحاءهم يطيعونها تديناً والباقون يطيعونها رهبة او رغبة» . والحق ان العباسيين بحكم الطريق الذي اصطفوه اثناء الدعوة العباسية للوصول الى الخلافة ، اندفعوا في الاخذ بالصبغة الدينية . وتلك الدعوة التي استخدموها لتنفيذ الناس من الحكم الأموي تطورت في عهدهم ، ووجهت بكثير من الدهاء لكسب ثقة الامة ، وتثبيت حبها لهم .

لقد ادعى بنو العباس انهم يريدون احياء السنة وحكم العدل وارجاع الخلافة الحقة ، بدل الملك الذي اقامه الامويون . فارتدى خلفاؤهم البردة (كرمز لسلطتهم الدينية) في المناسبات الخاصة (كالجمع والاعياد) واحاطوا أنفسهم بالفقهاء وحاربوا الزنادقة . وتغيرت نظرية الحكم فبعد ان كان الخليفة الأموي اشبه بشيخ قبيلة يستمد قوته من رضى رؤساء القبائل وزعماء الناس ، اصبحت السلطة عند العباسيين مقدسة ومستمدة من الله . خطب المنصور قائلاً : «ايها الناس انما انا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده ، وحارسه على ماله اعمل فيه بمشيئته وإرادته . وأعطيه باذنه فارغبوا الى الله وسلوه ان يوفقني للرشاد والصواب وان يلهمني الرأفة بكم والاحسان اليكم...» ويذكر المسعودي من قول احدهم في تعزية المهدي بابيه : « .. لاعقبي

أجل من خلافة الله على أولياء الله» • فالخليفة اذن خليفة الله • واتخذ خلفاء بني العباس لانفسهم بعد فترة وجيزة لقب الامام • وأخذ الطابع الديني للخلافة يعمق ويظهر ، كلما تسلت السلطات الدنيوية من يدي الخليفة • فكان الخلفاء يجرون على انفسهم الدثار الديني المقدس للتعويض عن السلطة الزمنية التي كانوا يفقدونها تدريجياً بضعفهم ، في العصر الثاني والثالث والرابع • حتى ادعوا ان السلطة ستبقى في ايديهم الى الابد لا تخرج منها حتى يسلموها الى عيسى بن مريم – كما يقول الاربلي – والا فان نظام العالم سيختل (اذا ذهبت خلافتهم) وتحتجب الشمس ويستنع القطر !!

ولعل تطور الالقاب فيهم يدلنا على اتجاه السلطة في الخلافة فمن السفاح والمنصور الى المهدي والرشيد الى المتوكل على الله والمستنجد بالله والقائم بامر الله ، نرى من معاني الالقاب كيف كانت الخلافة تضعف ومن دخول : «لفظ الجلالة» كيف كانت تتخذ الصبغة الدينية • ولا شك ان تحول الخلافة العباسية الى نوع من النفوذ الديني كان السبب في العمر الطويل الذي تمتعت به كما كان السبب في احترام الفرس والترك خاصة لها كمقام ديني أعلى •

ولكن هل كان الثوب الديني الفضفاض للخلافة يعني السياسة الدينية أي تحقيق الكتاب والسنة ؟ وهل حققت دولة بني العباس ، في عهدها الاول على الاقل ، آمال اولئك الذين اغرتهم وعود الدعوة « للرضا من آل محمد ؟ » يقول فانفلوتن^(١) : « ان ذلك المثل الا على للعدالة والمساواة قد ظل وهما من الاوهام • ولم يكن جور النظام

(١) فلوتن ص ١٣٢ وما بعدها

العباسي وعسفه منذ قيام الدولة العباسية ، باقل من النظام الاموي المختل حفزاً للنفوس الى التمسك بعقيدة المهدي والتطلع الى ظهوره لتخليصها من قسوة النظام الجديد وجوره . ويذكرنا جشع المنصور والرشيد والمأمون وجور أولاد علي بن عيسى وعبثهم باموال المسلمين ، يزمن الحجاج وهشام ويوسف بن عمر الثقفي»

«ولدينا البراهين الكثيرة على فجاعة الناس في هذا العرش الجديد: من ذلك قول شريك الذي ثار في بخارى خلال خلافة السفاح : « ما على هذا اتبعنا آل محمد ، على ان نسفك الدماء ونعمل بغير الحق » . وكذلك الاضطرابات المستمرة في الجزء الشرقي للدولة العباسية (كخروج المقتنع) وثورات الخوارج المتوالية وخروج يوسف البرم الذي لم يكن غرضه سوى « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » أضف الى هذا خروج رافع ابن الليث لسوء سياسة علي بن عيسى وهكذا لم يكن ابو العطاء الشاعر هو وحده الذي نعي على ذلك النظام فسادة بقوله :

يا ليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار

ولعل الفرق بين العهدين العباسي والاموي هو ان المستفيد من الجور فيهما كان مختلفاً . فلم يكن قوام الجور العباسي - على الاقل - تسلط عنصر واحد من عناصر الدولة على العناصر الأخرى وهو ما كان عماد النظام الاداري الاموي ، إذ أن الدين - دون الجنس - كان المرجع الوحيد في تحديد العلاقات بين الحكومة والرعية لدى بني العباس ، وانما كان سبب النقمة على العباسيين عدم العدل في حكمهم ، بمعنى انه اذا اتصر بالحكم العباسي مبدأ المساواة الدينية فان العدل - على أي حال - لم ينتصر .

٣ - كثيراً ما يذكر الكتاب ان نظم الادارة العباسية كانت مقتبسة عن النظم الفارسية القديمة . والواقع كما قال (ديلافيدا) «ان النظام الاداري الذي جرى عليه العباسيون هو في جوهره نظام الامويين» . فقد استمرت النظم الاموية في الضرائب والادارة المحلية والجيش والدواوين على رسمها ، في العهد العباسي . وتهجمات الشعوبين في مخصصتهم الطويلة للعرب هي التي طوقت الادارة العباسية بهذا الوهم . ولكننا لو درسنا الانظمة الساسانية ، وما كتبه كريستنسن^(١) خاصة عنها (في كتاب ايران تحت الحكم الساساني) لتبين لنا انها كانت ابسط مما كانت عليه عند العباسيين . كما ان كثيراً من الانظمة العباسية لم يعرفها آل ساسان . فلم يكن الفرس مثلاً يميزون بين كلتي «جزية وخراج» ولم يعرفوا نظام الحسبة ولم يعرفوا في نظام البريد وظيفة التجسس على العمال والرعية (الامن العام) بالاضافة الى نقل الاخبار الخ وأهم الفوارق بين أسس النظامين العباسي والاموي هي :

آ - لم يعد ثمة تفريق بين الشعوب الاسلامية فكان من الضروري ايجاد نظام جديد للمال ، يحل المشكلة التي اوجدها ، منذ العهد الاموي ، قانون عمر بن الخطاب باعفاء العرب من دفع الضرائب ، باعتبارهم حداة الاسلام ، وتوزيع العطاء عليهم . وقد أوجد العباسيون هذا النظام الذي لا يفرق بين العرب والفرس ، في خدمة الحكومة ، ويفرض للجميع على السواء مرتبات معينة . ولكن النظام القديم بقي قائماً ولم يبلغ صراحة .

ب - حلت بالتدريج محل الارستقراطية العربية التي كانت تحيط

(١) انظر الدوري العصر العباسي الاول ص ٥٤

بالعرش الاموي ، طبقة من الموظفين (بوروقراطية) قسمت درجات يسيطر بعضها على بعض . وكان على رأسها الوزير الذي وجد منصبه في العهد العباسي ، وظهر لقبه قبل مبايعة أول خليفة من خلفاء بني العباس ، تعبيراً عن ضرورة وجود «الادارة المدنية» في الدولة الاسلامية وإثباتاً لوجودها . بعد أن استمر الأمويون منذ الفتوح العربية يربطونها بالادارة العسكرية . وظهرت بهذا الشكل طبقة الكتاب الذين لعبوا في تسيير الدولة العباسية دوراً يعدل دور ارباب السيوف ، او قد يفوقه ، وكثيراً ما كان الوزراء ينتقون من الكتاب ، ويحمل احدهم لقب «رب السيف والقلم» أو «ذي الرياستين»

ج - اعتمد العباسيون على القوة في تنفيذ سياستهم اكثر من الامويين واعتمدوا - على رأي ابن الطقطقي - على الخدع والدهاء والغدر أكثر من اعتمادهم على القوة والشدة خصوصاً في أواخر عهدهم ، وكان ابو العباس (السفاح) أول من اشار الى هذا الاتجاه في خطبته التي افتتح بها عهده . وصار للجلاد مكان معلوم في البلاد بجانب العرش ليزيد في رهبة الخليفة . ويرى (ولهاوزن) ان العباسيين اقتبسوا وظيفة الجلاد من الفرس الذين كان لملوكهم حق الحياة والموت على الرعية .

د - لم تتغير الاتجاهات السياسية والدينية للمجموعة الاسلامية في مطلع العصر العباسي . فبقي حزب الشيعة العلوية قائماً واستمر الخوارج في الثورات ، وان اندمج المرجئة مع الايام «بالجماعة» . وسننتظر الى ما بعد عهد الرشيد لنرى همود الثورة الخارجية وانهايار ممثلها ، ولنرى انكماش الحروب القبلية وتقلصها الى الجزيرة العربية وسورية ، اي الى الاماكن العربية التي لا نفوذ للموالي فيها . أما حيث

ظهر شأن الموالي (كالعراق مثلاً) وذو قرن الشعوبية والتهجم على العرب،
فقد اضطر العرب لأن يكونوا جبهة واحدة •

ولم يظهر للامويين من حزب لان العباسيين نكلوا بهم نكالا
شديداً حين ظفروا ، ولأنهم اهلوا امر الشام وشجعوا الفتن فيها . ولأن
الامويين اخيراً استطاعوا ان يقيسوا لانفسهم منذ سقط ملكهم في
دمشق ، دولة اخرى في الاندلس ، أي في ابعد قطر عن مقر العباسيين •

اما الحزب الذي استمر قائماً على حدته الاولى يناضل العباسيين
فهو الحزب العلوي المخدوع ، وزعماءه هم ابناء عم الخلفاء الجدد . اذ
ظهر بسرعة ان الحلف العباسي - العلوي الذي مكنته روح البغض لعدو
مشترك ، لم يكن بالحلف الذي يدوم طويلاً بعد هلاك العدو • وبعد
ان كان النضال هاشمياً - أموياً أضحى في الزمن العباسي نضالاً بين
آل هاشم انفسهم أي بين ابناء العمومة • ولم يكن موقف بني العباس
أرحم او اقل قسوة من موقف الامويين مع آل علي • وليست (باخرى)
باقل من كربلاء ولا عمل المنصور بهم بأرحم من عمل عبد الملك ، وهذا
ما يفسر ما يرويه الاغاني من جواب محمد ذي النفس الزكية لعه
الحسن بن الحسن بن علي حين سأله : لم تبكي على بني أمية وانت تريد
بيني العباس ما تريد ؟ قال : «والله ياعم لقد كنا نقسنا على بني أمية ما
نقمن ، فما بنو العباس الا اقل خوفاً لله منهم • وان الحجة على بني
العباس لاوجب منها عليهم • ولقد كان للقوم اخلاق ومكارم ليست لابي
جعفر» • واذا كان الامويون قد خمدوا لانهم اجتزأوا لانفسهم جانباً من
الامبراطورية العربية في أقصى الغرب ، فكانوا بذلك أول وأبعد
المنشقين ، فان الحزب العلوي استطاع من بعدهم ، وبعد ان فقد الامل
بزحزة العباسيين ان يجتزىء جانباً آخر اقرب من الاندلس الى مقر

الدولة ، وهو شمالي افريقيا فأقام العلويون اولا دولة الاداوسة ثم الدولة الفاطمية التي وصلت في الاتساع الى الشام وكادت ذات يوم ، في فتنه البساسيري ، ان تحل محل العباسيين في بغداد .

هـ - والعهد العباسي يعد تكملة للعهد الاموي في الحياة الاجتماعية والفكرية : فقد كان العهد الاموي عهد انتقال ظهرت فيه حضارة العرب البدوية بجانب حضارات الامم المغلوبة : فالتقت في بلاط الخلفاء وفي طبقات الشعب على السواء عادات العرب البدوية مع العادات الاجنبية ، وهكذا استمر وجود الاسواق - مثلاً كالمربد - والتراشق بالشعر الخ ... في نفس الوقت الذي اخذ فيه العرب بعض ضروب الغناء والموسيقى عن الفرس . واقتبس البلاط الاموي في مطلع عهده بعض التقاليد البيزنطية كاستعمال الخصيان ومجالس الشراب باكاليل الزهور والريحان ، كالروم ، ولبس الثياب الحريرية ، والملابس الرسمية (الطراز) كما اقتبس في عهده الاول والاخير بعض نظم البلاط الساساني كهدايا النوروز والمهرجان وجلوس الخلفاء خلف ستارة في مجلس الغناء ، وشرب الهفتجة (عادة فارسية لشرب الشراب مدة سبعة اسابيع في وقت معين من السنة) . وكذلك كانت القلنسوة الفارسية التي عمت الشرق في العصر العباسي معروفة ويلبسها الناس ، هي والثياب الفارسية ، في العهد الاموي .

وبالاضافة الى هذا فان التيارات الاجتماعية كالشعوبية والزندقة الخ ... انما ظهرت بواورها منذ العهد الاموي ، وان برزت واضحة في العهد العباسي الاول .

أما في الحياة الفكرية فليس هناك من يشك في الصلة الواشجة بين

المهدين : فتحت الحكم الاموي ، ومنذ زمن معاوية ، في بعض النواحي، بدأت حركة التأليف : اذ بدأ جمع الشعر الجاهلي وظهرت بوادر حركة تدوين التاريخ ونشأت الدراسات الفقهية •

وترجمت بعض الكتب زمن الامويين • واذا كانت بعض المصادر تذكر الترجمة في عهد معاوية ، فمن الثابت ان خالد بن يزيد كان أول من أمر بترجمة بعض الكتب له عن اليونانية والقبطية • وكتب ذلك الامير بعض الرسائل في الكيمياء • وفي عهد عمر بن عبد العزيز ترجم ماسرجويه بعض الكتب السريانية ، وانتقل مركز الدراسات اليونانية من الاسكندرية الى حران وانطاكية ، فسهل ذلك انتشارها بين المسلمين • وترجم سالم ابن جبلة كاتب هشام ، بعض كتب ارسطو • كما ترجم ابنه جبلة عدة كتب من الفارسية الى العربية ، منها كتاب في تاريخ الفرس منذ بدء ملكهم الى انتهائه ، ترجمه بأمر الخليفة هشام سنة ١١٣هـ وكانت نسخته مصورة ملونة بالأصباغ •

على ان حركة الترجمة هذه التي كانت فردية ومبعثرة في العصر الاموي تنظمت وصارت حكومية رسمية في العصر العباسي • ومبعث ذلك طبيعة التطور واستبحار العمران وما يقضيه •

اما عن التيارات الفكرية فقد بين كريم^(١) ان أهم مذهب فكري في العهد العباسي وهو الاعتزال (او القدرية) قد ظهر ونما ، كمذهب الارزاء ، في دمشق ، اول الأمر • ومسائله الأولى انما ظهرت في العهد الاموي ، وتأثرت لحد ما بأفكار وتعاليم رجال الدين البيزنطيين والكنيسة

(١) فون كريمر الحضارة الاسلامية ص ٤٥

الشرقية الاغريقية كما تبدو في كتابات مدرسة دمشق • يقول كريمر :
«... ونحن نجد في كتابات يوحنا الدمشقي نظرية المعتزلة التي تقول
بان الله يجازي الناس ويعاقبهم طبقاً لاعمالهم فقط» • وهي القاعدة
الاساسية لفكرة المعتزلة عن الله (فكرة العدل) • ويضيف خدابخش :
«ان معبدا الجهني (٨٠هـ) هو اول من علم في دمشق نظرية حرية الارادة
(وكان يقول بها يوحنا الدمشقي) • فأمر الخليفة بقتله — كما يذكر
الذهبي — أو قتله الحجاج • وعلم هذه النظرية غيلان بن يونس (١١٠هـ)
فقتله هشام • وكان الخليفة يزيد الثاني قدرياً وقيل ذلك عن مروان
الثاني • كما ان واصل بن عطاء الذي ينسب الناس اليه الاعتزال في العادة
هو أموي العصر أيضاً (٨٠ — ١٣١ هـ) •

٦ — ويمكن ان نجد بعض المقارنات الاخرى التي تبرز ميزات
العصور العباسية :

آ — نقل العباسيون العاصمة من الشام الى العراق لتكون على
طريق التجارة العالمية بين خليج البصرة والأراضي البيزنطية ليكونوا هم
اقرب الى انصارهم في خراسان وغير بعيد عن الشام والحجاز ومصر •
وتبديل العاصمة بتبديل الاسرة الحاكمة والدول ظاهرة عامة ، لاحظها
العلماء في تاريخ الشرق القديم كله ، وفي التاريخ الاسلامي بوجه خاص
وقد كان لعمل العباسيين هذا آثاره السياسية والاجتماعية والفكرية
ايضاً •

ب — لأول مرة ، في العهد العباسي تصبح حدود الخلافة غير
حدود الاسلام • اذ لم يصل سلطان العباسيين ابداً الى الاندلس •
ووجدت منذ خلافتهم الاولى دولتان اسلاميتان في دار الاسلام •

ج - وأهمل العباسيون عامة الولايات الغربية من الامبراطورية وحصروا همهم في الجزء الشرقي ، فساعد ذلك على انفصال تلك الولايات المبكر عن الدولة ، كما ساعد على ظهور الدول العلوية فيها .

د - أدى بعد العراق عن البحر وقلة خطر البيزنطيين البحري على مركز الدولة الى اهمال العباسيين للاسطول . فتقلص النفوذ البحري المسلم في بحر الروم إلا في بعض العهود (الأغلبة والفواطم) .

هـ - أثر موقع العراق على الطرق التجارية الهامة في الحضارة العباسية فشجع الخلفاء التجارة وانتبهوا في اختيار موقع بغداد للناحية التجارية حتى أضحي المجتمع العباسي تجارياً زراعياً بعد ان كان زراعياً حريياً في العصر الاموي وحتى أضحي «التاجر» على حد قول متر رمز الحضارة العباسية .

٢ - أقسام التاريخ العباسي وميزات العصر الاول :

اعتاد الكتاب ان يقسموا تاريخ العباسيين الى فترات اربع :

- ١ - العصر الاول أو العصر الذهبي (١٣٢ - ٥٣٣ هـ)
• (٧٥٠ - ٨٤٧ م)
- ٢ - العصر الثاني أو العصر التركي (٢٣٢ - ٣٣٤ هـ)
• (٨٤٧ - ٩٤٦ م)
- ٣ - العصر الثالث أو العصر البويهي (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ)
• (٩٤٦ - ١٠٥٥ م)
- ٤ - العصر الرابع أو العصر السلجوقي (٤٤٧ - ٦٥٦ هـ)
• (١٠٥٥ - ١٢٥٨ م)

والخطوط العامة لهذا التقسيم صحيحة غير ان التاريخ العباسي، بعد العصر الذهبي ، لم يكن أكثر من سلسلة اسماء الخلفاء . وقد سقط السلطان الحقيقي للعباسيين منذ مطلع العصر البويهي (خلافة المستكفي بالله ٣٣٣ هـ - ٩٤٦ م) . ولا شك أن العصر الوحيد الذي يمكن أن يسمى بحق العصر العباسي ويسكن أن تدعى فيه الدولة بالعباسية ، هو العصر الاول الذي لم يدم أكثرا كثيرا مما دامت دولة الامويين .

وقد دام العصر العباسي الاول قرناً كاملاً (ما بين معركة الزاب سنة ١٣٢ وخلافة المتوكل على الله سنة ٢٣٢) وتوالى على عرش الخلافة في هذا العهد تسعة خلفاء هم في الجيلة اقوى وألمع من عرف التاريخ العباسي على ذلك العرش :

- | | |
|----------------------------|-----------------------------|
| ١ - السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ) | ٦ - الامين (١٩٣ - ١٩٨ هـ) |
| ٢ - المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ) | ٧ - المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ) |
| ٣ - المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) | ٨ - المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) |
| ٤ - الهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ) | ٩ - الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ) |
| ٥ - الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) | ١٠ - المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) |

ولنا هنا بحاجة الى تبيان خطأ دراسة التاريخ الاسلامي ، على الطريقة القديمة . حسب تعاقب الخلفاء في الزمن ، وذكر أعينهم والثورات عليهم ... فالأصح دراسة الخلفاء أولاً في ميقاتهم الشخصية، ثم دراسة التيارات السياسية والدينية في العصر ، كوحدة متشابهة ، ثم دراسة السياسة الخارجية وتطوراتها في عهودهم . وخطأ هذه الطريقة أقل وينحصر في انه يوجد شيئاً من الاتصال في وحدة ذلك التاريخ ،

وفي انه قد لا يبرز العامل الشخصي للخلفاء في توجيهه • وهذا العامل الشخصي يلعب في التاريخ الحاضر دوراً محدوداً ولكنه كان ركناً من أركان التاريخ القديم ويظهر أثره الواضح في الدولة الإسلامية بنتيجة ظروفها وطراز تنظيمها • ولهذا آثرنا الجمع بين الطريقتين بتقسيم العصر العباسي الاول الى عهود ثلاثة رئيسية :

١ - عهد التأسيس (وأبرز خلفائه المنصور ونسبي العهد باسمه) ويمتد ستاً وعشرين سنة (١٣٢ - ١٥٨ هـ) •

٢ - عهد الاستقرار (وأبرز خلفائه الرشيد والمأمون) ويمتد ستين سنة (١٥٨ - ٢١٨ هـ) •

٣ - عهد القلق (وأبرز خلفائه المعتصم) وهو قصير ، انتهى بظهور الاتراك على المسرح السياسي سنة ٢٣٢ هـ • ونرجح أن نضم إليه عهد المتوكل الذي قتله الاتراك سنة ٢٤٧ هـ • وسيطروا بعده تساماً على عرش الخلافة •

على ان هذا التقسيم يجب ألا يشغلنا عن الصفة الرئيسية التي يتميز بها العصر العباسي الاول ، والتي رافقته من مطلعته الى منتهاه ، وهي أنه كان عصر صراع بين قوى مختلفة متباينة يتكرر نزاعها في كل عهد •

أولاً - صراع بين عنصري الدولة في المشرق : العرب والموالي (الفرس الايرانيين) ، واذا كانت الدولة العباسية قد اهتمت المغرب ومن فيه حتى استقل ، واتجهت للمشرق ، فان الذين كانوا يمثلون الموالي

المشاركة في الصراع هم الايرانيون^(١): فالارستقراطية الفارسية (الايرائية) صارت الخلافة ، في منصب الوزارة ، فصرت مرة بعد مرة • وعامة
الفرس (الايرائيين) قاموا ضد العرب بالحركات الشعبية وبالثورات
الدينية المختلفة الخ ••• وانهى الصراع بتحول الخلفاء الى عنصر
جديد هو الترك منذ عهد المعتصم •

ثانياً - صراع بين العرب انفسهم على الحكم : بدأ الصراع بين آل
محمد ، اول الأمر وبين الامويين ، وما كاد يغلب الامويون حتى انتقل
الصراع الى آل محمد انفسهم بين علويين وعباسيين بل نجم أيضاً بين
العباسيين انفسهم بين اولاد محمد بن علي واخوته واولاد اخوته •••
ثالثاً - صراع بين الطبقة الحاكمة التي تركزت في العراق وبغداد
وتستعت بالترف • وبين الطبقات المحكومة التي كانت في الغالب فقيرة
مظلومة • واذا كان الخوارج في آخر العصر الاموي قد تحولوا الى
الدفاع عن المظلومين بجانب رفضهم لمبدأ الارث في الحكم ، فانهم هم
الذين اضطلعوا طول العصر العباسي بقيادة المظلومين واثارتهم في
خراسان نفسها وفي الجزيرة والبحرين وفي شمالي افريقيا • وقد استطاعوا
ان يسهّدوا في هذه البلاد الاخيرة للانفصال عن الدولة العباسية •

رابعاً - صراع بين العقيدة الاسلامية والعقائد الاخرى ، ولا سيما
العقائد الفارسية القديمة • وقد ظهرت بتأثير ذلك الزندقة • وخرج
الاسلام من الصراع ، بفلسفة المعتزلة وبعده من الافكار الدخيلة المارقة
التي تجلت في الراوندية والخرمية والبابكية الخ •••

(١) يستعمل العرب في ذلك العصر كلمة فرس وفارس بمعنى ايران
وايرانيين • ومن المعلوم ان فارس تعني المنطقة الجنوبية الغربية من
هضبة ايران المطلّة على الخليج العربي الذي دعاه اليونانيون لهذا السبب
بالفارسي •

خامساً - صراع بين الحضارات المختلفة ادى الى تمازجها • ذلك ان العادة في مثل هذه العصور الممتلئة بالفعالية والخصب ان ينعكس ذلك في حياتها الفكرية أيضاً • ولذلك برز في هذا العصر دور الترجمة • وظهرت الاسس الكبرى للحضارة الاسلامية •

وعلى ضوء هذه الصلات العميقة بين أحداث العصر العباسي الاول ومع التذكر الدائم لارتباط آخرها بأولها ودلالة وجوها المختلفة على حقيقة واحدة خلفها ، يمكن أن ندرس هذا العصر الاول في فترات ثلاثة : فترة المنصور ، وفترة الرشيد والمأمون ، وفترة المعتصم •

١ - فترة المنصور وتأسيس الدولة (١٢٢ - ١٥٨)

الظفاء في عهد المنصور :

هما اثنان فقط :

١ - أبو العباس عبد الله بن محمد علي بن عبد الله بن العباس ابن عبد المطلب بن هاشم • ربيع الاول ١٣٢ - ذو الحجة ١٣٦ هـ ٧٥٠ - ٧٥٤ •

حياته : ولد عبد الله عام ١٠٠ او ١٠٣ (وهو الأرجح) بمعنى انه ولد مع الدعوة العباسية • وأمه ريطة بنت عبيد الله الحارثية • وكان فسيحاً ذكر جعد الشعر ، طويلًا أقنى الانف ، حسن الوجه واللحية • قضى عبد الله شبابه في الحميمة بالشام • ولاشك أنه أشرف على تطورات الدعوة العباسية منذ عهد خدّاش ، على الاقل ، وأسهم في العمل مع أبيه محمد ثم مع اخيه ابراهيم الامام في السنوات الاخيرة الهامة • ولما كان عربي الام فان ابراهيم قد اوصى له قبيل مقتله برئاسة الدعوة • دون اخيهما الآخر ابي جعفر ابن سلامة البربرية • مع ان هذا كان أسن منه •

البيعة : ولما وصل الكوفة هارباً بأهله ووصلت الجيوش العباسية اليها . قبل القواد والدعاة به للسبب نفسه وبايعوه بالخلافة البيعة الخاصة وخرج ابو العباس في اليوم التالي ، وهو متوعك ، الى المسجد في ثلة من الجند ، عدتها الفا فارس (اذ لم يكن — على ماروى ابن قتيبة — واثقاً من تأييد الكوفيين له) فتلقي من الناس البيعة العامة .

وتضطرب المصادر في تاريخ البيعة هذه . والمرجح انها كانت في ربيع الاول سنة ١٣٢ (واسطه او اواخره) (تشرين الثاني — كانون الاول ٧٤٩م) ويقولون بعد : ان ابا العباس صعد المنبر يوم ذاك وجلس على درجة دونه . عنه داوود بن علي . فخطب واقفاً على السنة ، وكان الامويون يخطبون جلوساً . فقال : ^(١) « الحمد لله الذي اصطفى الاسلام ... واختاره لنا وأيده بنا وجعلنا ... القوام به والذابين عنه ، وخصنا برحم رسول الله وقرابته ... ووضعا من الاسلام واهله بالموضع الرفيع اذ قال : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس آل البيت ويطهركم تطهيرا » « قل لا أسألكم عليه من اجر الا المودة في القربى » . فاعلمهم جل ثناؤه فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ... تتم الله ذلك منة ومنحة لمحمد (ص) فلما قبضه الله اليه قام بذلك الامر من بعده اصحابه ... ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزوها وتداولوها بينهم فجاروا واستأثروا بها وظلموا اهلها ، فأملى الله لهم حيناً .. فلما آسفوه ، انتقم منهم بايدينا ، ورد علينا حقنا ، وتدارك بنا امتنا . وتولى نصرنا ... ليمن بنا على الذين استضعفوا في الارض .. »

(١) انظر نص الخطبة كلها في الطبري (الجزء السابع ص ٤٢٥-٤٢٦) القسم ٢٩/٣ - ٣٠ من الطبعة الاوربية .

«يا أهل الكوفة اتم محل محبتنا • اتم الذين لم يتغيروا ولم يشكم عن ذلك تحامل اهل الجور عليكم ، حتى ادركتم زماننا واناكم الله بدولتنا فاتم اسعد الناس بنا واکرمهم علينا وقد زدت في اعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فانا السفاح المبيح والثائر المبير»

ولم يستطع ان يتابع الخطابة لوعكته فأتىها عمه داوود فقال^(١) «... الحمد لله شكراً شكراً شكراً ، الذي اهلك عدونا وأصار الينا ميراثنا من نبينا محمد (ص) • ايها الناس ... انما اخرجتنا الانفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبني عمنا وما كرتنا من اموركم • ولقد كانت اموركم ترمضنا ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم واستذلاهم لكم واستثثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم • لكم ذمة الله تعالى وذمة رسول الله وذمة العباس ان نحكم فيكم بما انزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله» •

«يا اهل الكوفة انا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى اتاح الله لنا شيعتنا من اهل خراسان ... فأحيا بهم حقنا وأظهر بهم دولتنا ... وادالكم على اهل الشام ونقل اليكم السلطان وعز الاسلام ... واعلموا ان هذا الامر (أي الخلافة) فينا وليس بخارج منا حتى نسله الى عيسى بن مريم»

هكذا وضع ابو العباس وعمه في هاتين الخطبتين ، اللتين يصح اعتبارهما خطبة العرش ، الخطوط الكبرى للقضية التي يعملان لها وللسياسة التي يعد العباسيون باتتهاجها :

(١) يراجع نص الخطبة كلها في الطبري (الجزء السابع) ص ٤٢٦-٤٢٨ (قسم ٣١/٣ من الطبعة الاوربية) .

١ - اكدا شرعية الثورة العباسية فرددا كرات كلمة «حقنا»
وبيّنا مكان العباسيين من الاسلام .

٢ - حبلا على الظلم الاموي وبيّنا ان الثورة انما كانت على هذا
الظلم وانتقاماً للناس .

٣ - وعدا بالحكم وفق كتاب الله وسنة نبيه .

٤ - تسلقا اهل الكوفة بالمديح وبالوعد بان تكون الكوفة
حاضرة العباسيين لكسب عطفهم القلبي^(١) واستغل (داوود) ضعيفة محلية
هي نقعة العراق على الشام ليثبت ذلك العطف . كما تسلق الخراسانيين
ولا شك انهم كانوا عدداً كثيراً في المسجد يومذاك .

على ان طيوفاً قوية من الريبة تطيف بهاتين الخطبتين : فالقارىء
لهما يحسب ان الامر قد تم نهائياً للعباسيين ، وان السفاح قد أخذ بيعة
جميع الاقطار الاسلامية . فالخطأ بان يتحدثان عن «دولة بني العباس»
وعن ان « الانتقام » قد تم من أهل الشام وان مروان^(٢) قد هزم وان
الخلافة ستبقى في بني العباس حتى يسلموها لعيسي بن مريم .

والواقع كما سنرى بعد قليل ان ابا العباس لم يكن اذ ذاك اكثر
من تائر . وان بويح بالخلافة من جنده . ولم يكن له الامر من كل العالم
الاسلامي فيما سوى الكوفة والطريق المؤدية الى الري وهذان اثني

(١) قال داوود بن علي من هذه الخطبة : ... فان لكل أهل بيت
مصرنا وانكم مصرنا .

(١) يقول داوود في الخطبة نفسها : «... وأدالنا الله من مروان
... ظن عدو الله ان لن نقدر عليه فنأدى حربه ورمى بمكائده فوجد
أمامه وعن يمينه وشماله ... ما أمات باطله وجعل دائرة السوء تدور به
ورد إلينا حقنا وارثنا .. قد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة
الشیطان . الشاب المكتهل (يقصد ابا العباس الخ...»

خراسان • وكان عليه ان يعمل كثيراً قبل ان يدعى ان الامر تم له •
وثمة أمر آخر هو انه لم يكن من مصلحة العباسيين في تلك اللحظات
الخطيرة القلقة من الثورة أن يدعوا بثل هذه الصراحة والقوة ان الحق
«حقهم» وانه لن يخرج منهم وانهم هم وحدهم آل البيت المخصوصون
برحم رسول الله ، بينما معظم اشياعهم واهل الكوفة انفسهم من
العلويين •

والارجح ان هاتين الخطبتين موضوعتان وضعا كاملا او محرفتان
تحريفاً كثيراً ، أو انها بعض الخطب التي القيت بعد مقتل مروان بن
محمد وانهاء الامر الاموي •

لقب السفاح :

انهماك ابو العباس بعد البيعة في جمع الامر من الامويين في يده
واقضى ذلك ان تبدأ مجزرة وصلت احياناً حد الوحشية بين
العباسيين الظافرين والبيت الحاكم الاموي • وقد رأينا كيف قتل
مروان الخليفة وابن هبيرة صاحب العراق وعشرات بعد عشرات من
الامويين في كل مكان • وكيف وصل القتل حتى بلاط الخليفة الجديد
اذ تناول السيف عنق ابي سلمة الخلال وزير آل محمد نفسه بتدبير من
ابي العباس نفسه ••• وقد استفاد لدى المؤرخين انه لهذا السبب لقب
بالسفاح بمعنى السفاك • ولكن منحه هذا اللقب يحتاج لبعض
المناقشة •

فالذي يظهر ان لقب السفاح لحق متأخراً بابي العباس منذ
القرن الرابع الهجري ، اذ لا نجد أثراً لنسبة هذا اللقب اليه في المصادر
الاولى كالطبري والجهشياري وابن قتيبة واليعقوبي ، واول مصدر
يذكره هو المسعودي ونعرف انه يعتد احياناً على القصص ولعل الامر

التبس على بعض المؤرخين فخلطوا بين ابي العباس (عبد الله بن محمد) وبين عمه (عبد الله بن علي) الذي كان يدعى بالسفاح للمجازر التي قام بها في الشام حتى اضطر الخليفة للاخذ على يده . يقول ابن قتيبة : «ذكروا أن ابا العباس ولى عمه عبد الله بن علي - الذي يقال له السفاح - الشام^(١)» . ويعدد اليعقوبي اولاد علي بن عبد الله بن العباس فيذكر بينهم «عبد الله الاصغر وهو السفاح^(٢)» وربما انسحب هذا اللقب . عند المسعودي . على ابي العباس نفسه وأخذه عنه المتأخرون . اذ عز عليهم أن يكون رأس السلسلة العباسية دون لقب كغيره . وأعانهم في هذا انهم وجدوا في خطبته الاولى قوله : «انا السفاح المبيح» ففسروها على انه السفاك . وبعض المحدثين مازال يفسرها على انه كان يتهدد أهل الكوفة الذين لا ييقون على ولاء او انه توعد اعداءه والاصح ان تفهم بمعنى الرجل الكثير العطايا والمنح فالجسلة التي تسبقها مباشرة تفسرها كذلك . يقول : «وقد زدت في اعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فانا السفاح المبيح . وتسمية الكريم بالسفاح امر قديم في العرب . يقول نيكلسون : «ما يهنا ملاحظته ان هذا الاسم قد اطلق على بعض شيوخ القبائل في الجاهلية ويقال ان سلمة بن خالد الذي قاد بني تغلب في يوم الكلاب الاول سمي السفاح لانه افرغ مزاد جيشه قبيل الموقعة» . وقد ذكر السيوطي ان النبي (ص) قال : «يخرج

(١) يكرر ابن قتيبة نسبة لقب السفاح لعبد الله بن علي ست مرات .
(٢) لما قام به عبد الله بن علي من السفك بالشام سمي السفاح وفيه يقول الشاعر :

وكانت امية في ملكها	تجول وتظهر طفيانها
فلما رأى الله ان قد طفت	ولم تطق الارض عدوانها
رماها بسفاح آل الرسول	فجز بكفيه اذقائها

رجل من أهل بيتي عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن ، يقال له السفاح فيكون اعطاؤها المال حثياً» وقد لا يكون الحديث صحيحاً ولكنه - على كل حال - يدلنا على معنى الكلمة في الزمن الذي وضع الحديث فيه ، ويدلنا على نظرة الناس الى ابي العباس السفاح اذ ذاك . هذا الى ان اليعقوبي يذكر ان التقتيل لم يعرف عن ابي السفاح الا قليلاً . ويقول المقدسي «كان ابو العباس يكره الدماء» كما ذكر ابن قتيبة انه غضب كثيراً حين قتل عمه عبد الله : العالم الزاهد عبد الواحد ابن سليمان بن عبد الملك وأمره الا يقتل أحداً من بني أمية حتى يعلم به امير المؤمنين . ولا شك ان أبا العباس قتل الكثيرين . وبعضهم قتل انتقاماً وتشفيماً ، ولكن الضرورة السياسية كانت تقضي ايضاً بذلك . ومثل هذه المقاتل تجري عادة عند كل توطيد دولة . وتكاد تتفق المصادر اخيراً على وصفه بالكرم وصلة ذوي الارحام والسباحة بالاموال بجانب وصفها له بالحلم وحسن الخلق والعقل والحياء وليس يتفق هذا لسفاح .

ولعله من الهام ان نضيف هنا أن المسعودي يعطي أبا العباس لقباً آخر غير السفاح هو المهدي^(١) وقد أيدت الكشف الأثرية هذا اللقب للخليفة العباسي الأول . ووجد الأثريون بمسجد صنعاء نقشاً ورد فيه اسم أبي العباس مقترناً بلقب المهدي . فكأنما أعطى هذا اللقب يومذاك بشكل شعبي أو في اليمن وحدها لإضفاء الصفة التنبؤية عليه باعتباره المهدي الذي ينتظره الناس . وتضارب اللقبين ، على أي حال ، مع عدم ذكر لقب مع اسم أبي العباس لدى المؤرخين المعاصرين له وإلى ما بعده

(١) المسعودي - التنبيه والاشراف ص ٢٩٢ حيث يقول : « وقد كان لقب أولاً بالمهدي » .

يقرنين دليل على أنه استمر على سنة الأمويين ولم يتخذ لنفسه لقباً •

وفاته :

بقي السفاح على عرش الخلافة اربع سنين وتسعة أشهر وتفشى الجدري في الأنبار أواخر سنة ١٣٦ فاصيب به الخليفة نفسه ومات به (١٢ ذي الحجة ١٣٦) وهو ابن ثلاث وثلاثين او ست وثلاثين سنة بعدان عهد بالامر الى اخيه ابي جعفر المنصور ومن بعده الى ابن اخيه عيسى ابن موسى •

٢ - المنصور :

ابو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (١٣٦- ١٥٨ هـ) - (٧٥٤ - ٧٧٥ م) •

نشأته :

ولد كأخيه أبي العباس مع ميلاد الدعوة العباسية سنة ٩٥ أو سنة ١٠١ من أم ولد بربرية تدعى سلامة • ولكنه تربى وسط كبار الرجال من جلة بني هاشم وصحب - كما يقول المسعودي - أباه وجده فنشأ فصيحاً ملماً بسير الملوك والأمراء • وقد كان كثير الاسفار والتنقل فخير الحياة والناس فلما استخلف أخوه لازمه • فكان يرى بقده الاسمر الطويل النحيف قائماً ابداً بجانبه • يحارب اعداءه ويصرف الامر معه وينوب عنه في الحج وقد كان عائداً من المناسك سنة ١٣٦ حين وصله النبأ بوفاة اخيه وانتقال الخلافة اليه •

ميزاته :

غضت شهرة المنصور السياسية على صفتة العلمية التي كان يعمل عليها قبل الخلافة وطلب من أجلها علم الكلام وخالط العلماء فقد كان المنصور . في شبابه الأول ، أواخر الدولة الأموية وفي أيام هشام بن عبد

الملك يجول في البلاد ويحضر المناظرات والحلقات الفكرية والدينية في مساجد المدينة والبصرة والكوفة والأهواز والموصل . وتذكر إحدى الروايات أنه عاد مرة من البصرة الى دار والده محمد بن علي في الحسيمة بالشام فأخذ يتكلم في القدر ومسائل الكلام فسنعه أبوه من ذلك . ومن المعروف أنه كان على صلة وثيقة حميمة ، قبل الخلافة وبعدها مع عسرو ابن عبيد ، الزعيم المعتزلي في البصرة وكان يحضر حلقاته فيها . كما كان معروفاً علم المنصور بالحديث والأخبار والمغازي . ورغبة فيها هي التي جعلته يطلب إلى محمد بن اسحق وضع السيرة النبوية التي وصفها لتثقيف ابنه المهدي ومن مالك بن أنس وضع الموطأ .

ولدينا خبر ، يأتي في سيرة أبي أيوب المورياني الوزير ، يذكر أن أبا جعفر وفد مع عدد من بني هاشم على عبد الله بن معاوية والي مروان ابن محمد على إصبهان والأهواز وأن عبد الله بن معاوية والي مروان هرب أبو جعفر ببعض المال وكان والي البصرة قد نصب رسداً لهؤلاء الهاربين فوق في يده وضربه بالسياط اثنين واربعين سوطاً حتى أشفق عليه أبو أيوب المورياني ، كاتب البصرة فشفع له ورمى نفسه عليه يفتديه من السياط حتى كفت عنه . فما زال أبو جعفر يذكر له هذه اليد^(١) حتى كانت خلافته فاصطنعه وقربه وجعله وزيره بسبب هذه السابقة . وثمة خبر آخر يقول إن رجال الرصد في بعض البلاد قبضوا عليه وألزموه درهمين وألحوا في دفعهما فلم يستطع ذلك إلا بالجهد فهذا سبب بخله^(٢) .

(١) الجهمشياري - الوزراء والكتاب ص ٦٦

(٢) السيوطي - تاريخ الخلفاء (المطبعة السلفية) ص ٢٦٣ نقلا عن

ابن عساكر .

أما في الصفات الخلقية فقد عرف المنصور بالحذر واليقظة والدهاء .
ويذكرون انه أوصى ان يحفر له مائة قبر وان يدفن في غيرها . وقد
وصفه ابن هبيرة بقوله : « ما رأيت رجلا في حرب أو سلم أمكر ولا أشد
تيقظاً من المنصور . لقد حاصرني تسعة شهور ومعني فرسان العرب
فجهدنا كل الجهد حتى نال من عسكره شيئاً فبا قدرنا لشدة ضبطه
لعسكره وكثرة تيقظه » . واشتهر بالجد يقول الطبري : « لم ير في دار
المنصور لهو قط » كما تميز بالبخل والميل للاقتصاد حتى كان يدعى
« الدوانيقي » و « ابا الدوانيق » وان كان يعطي الجزيل احياناً ^(١) . وقد
عرف عنه الغدر ويذكر له المؤرخون غدرات ثلاثاً مشهورة (بابن هبيرة .
وبعنه عبد الله بن علي وبأبي مسلم) . وكان للمنصور نظام يومي في
حياته لا يكاد يحيد عنه : كان ينظر صدر النهار في أمور الدولة فاذا
صلى العصر جلس مع أهل بيته . فاذا صلى العشاء نظر فيما يرد عليه
من كتب الولايات والشعور . وشاور وزيره ومن حضر من رجال دولته
فيسا أراد من ذلك . فاذا مضى ثلث الليل انصرف عن سواره وقام الى
فراشه فنام الثلث الثاني ثم يقوم من فراشه فيتوضأ ويجلس في محرابه
حتى مطلع الفجر فيخرج للصلاة بالناس ثم يعود الى ايوانه لبدء العسل . .
وكل هذه الصفات كانت تجعل من المنصور نموذجاً من أبرز النماذج
لرجال الدول في الاسلام . عرف له هذه المزايا أحفاده فقلدوه كالرشيد
والمأمون وعرفها المؤرخون فأطنبوا في ذكرها وترداد القصص حوله
وحولها . وربما لخصها قول المسعودي إنه كان : « محنك السن حازم
الرأي قد عركته الدهور . . . لا يدخله فتور عند حادثة . . . يسوس

(٣) أعطى أعمامه في يوم واحد عشرة الاف درهم . وأكرم أهل
الحجاز في احدى حجاته حتى كانوا يسمون عامه عام الخصب .

سياسة الملوك ويثب وثوب الاسد العادي ، لا يبالي ان يحرس ملكه بهلائه
غيره...» (١)

وهذه الشدة في السياسة والقسوة في البطش هما في العادة من
مميزات مؤسسي الدول . ولم يكن أبو جعفر يقوم بذلك عن طبع دموي
أو نشوة بالقوة ولكن عن تخطيط سياسي واضح في ذهنه . يروي
السيوطي أن عبد الصمد بن علي قال للمنصور : لقد هجمت بالعقوبة
حتى كأنك لم تسمع بالعفو قال : لأن بني مروان لم تبل رممهم . وآل
أبي طالب لم تغمد سيوفهم . ونحن بين قوم قد رأونا الأمس سوقة
واليوم خلفاء . فليس تتمهد هيئتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو
واستعمال العقوبة (٢) ...

ولقب المنصور الذي اتخذ لنفسه يتفق اتفاقاً كاملاً مع النتائج
التي توصل إليها بسياسته . أمضى أولاً تسع سنوات من خلافته لا يعرف
خلالها إلا بكنيته : أبي جعفر . فلما انتصر على محمد ذي النفس الزكية
(الذي تلقب بالمهدي) اختار أبو جعفر لقب : المنصور لأسباب دعائية
واضحة هي أنه هو «المنصور» الذي تحدث عنه الملاحم اليبانية . وهو
المنقذ الذي اختاره الله وأن دعوى ذي النفس الزكية بأنه المهدي دعوى
باطلة بدليل أن الله هزمه . ولقد أعطى هذا اللقب الآخر عن عمد سياسي
لابنه محمد المهدي حين اتخذ لنفسه لقبه الخاص فصار اتخاذ الألقاب
منذ ذاك سنة عباسية دائمة .

وفاته : امتدت خلافة المنصور اثنتين وعشرين سنة وكان المنصور

(١) المسعودي - التنبيه والإشراف ص ٢٩٥-٢٩٦

(٢) السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٢٦٧

مسهوداً يتسقط الاضياء من كل مكان لشفاء علمته ويطلب ترجمة كتبهم •
ويظهر انه كان لا يتبع نصائحهم فبات بسعدته ، ويقول الطبري في رواية
اخرى : « كان بدء وجعه الذي مات فيه حر اصابه من ركوب في الهواجر
وكان رجلاً محروراً على سنه ثم هاض بطنه ... » وكان في الطريق الى مكة
حين وافاه الاجل فلم يبلغها وتوفي لست خلون من ذي الحجة سنة
١٥٨ هـ •



الفصل الرابع

توطيد الدولة - ١

الثورات المناوئة للعباسيين

اقتضى توطيد الدولة العباسية حوالي خمس عشرة سنة من الجهد اضطلع بأهم أعبائها أبو جعفر المنصور حتى في خلافة أخيه . وقد قضى خلالها على كافة الثورات والحركات الطامعة بالعرش العباسي وسحق كافة الثورات التي تهز الأمن الداخلي . قضى على الأمويين ، وعلى الثائرين من آل محمد ، من عباسيين وعلويين ، وعلى الخوارج كما قضى على ثورات المتمردين من الدعاة العباسيين ومن أصحاب المذاهب الدينية المنحرفة .

ويبدو أن توطيد الحكم العباسي قد اقتضى الكثير من الدماء . ذكر صاحب العيون والحدائق أنه «... قيل إنه أحصى القتلى الذين قتلهم الدعاة والشيعة بخراسان والعراق والشام وما أمر السفاح بقتله وما تولاه عمه عبد الله بن علي وأهله وأخوه فكانوا ستمائة ألف»^(١) وقد يكون هذا الرقم من قبيل المبالغات ولكنه يدل على أي حال على

(١) العيون والحدائق (طبع دي غويه - بريل سنة ١٨٧١) ص ٢٠١
وقد خصص ابن الاثير فصلا كاملا في تاريخه لمن قتل في عهد أبي العباس (الكامل ج ٥ ص ١٦١ فما بعدها) كما خصص مثله أبو الفرج الاصبهاني في الاغانى ج ٤ ص ٩١-٩٤

مبلغ ما دخل في وهم الناس وتقديرهم من كثرة القتل والمجازر .
ولا شك أن السبب الأساسي في كثرة الدماء هو أن الدولة
العباسية واجهت في مطلعها الكثير من المخاطر التي كانت تؤدي بها أكثر
من مرة . وقد تمثلت هذه المخاطر في أربعة مشاكل كبرى: المشكلة الأموية .
ومشكلة الطامعين من آل محمد : ولها فرعان عباسي وهاشمي . ومشكلة
الخوارج . وهدفها جميعاً منازعة صاحب الخلافة على خلافته وقد
استطاع المنصور ، بجهوده ويقظته أن يحفظ الدولة الجديدة ويبقيها :
عباسية أولاً وفي أسرته ثانياً .

١ - المشكلة الأموية (ثورات الأمويين) :

شعر الأمويون في الشام متأخرين أنهم فرطوا في خلافتهم تفريط
أهل العراق قديماً في علي بن أبي طالب أو ما هو أدهى . وأن الشام
حالت اقليماً من الأقاليم الثانوية بعد أن كانت مركز الدنيا ومصب
خراجها وأموالها وتجارتها ، ومنزل حكمها بل حالت اقليماً محروماً
أيضاً ، مضيقاً عليه في الرزق والحركة . مشبوه الخطى .
كما افتقر أهله وخاصة من البيت المالك السابق .
يروى التنوخي في (المستجد) « أن هشام بن عبد الملك خلف أحد
عشر ابناً . أصاب كلا منهم في الميراث ألف ألف دينار فلم ير واحد منهم
قط إلا وهو فقير وقد شوهده أحدهم وهو يوقد في أتون الحمام على
ملء بطنه »^(١) فعمدوا ، بعد أقل من سنة على قيام العباسيين إلى الثورة
« ويبضوا » (أي لبسوا البياض الشعار الأموي) سنة ١٣٣ / ٧٥١ :

(١) التنوخي - المستجد من فعلات الأجداد (طبع محمد كرد علي
- المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٥٠) ص ١٨٤

١ - ييضبوا في البلقاء وهوران والبشينة بزعامة حبیب بن مرة المري وهو من قواد مروان بن محمد وفرسانه وقد وقف لعبد الله بن علي في جنوب الشام فقاتله في مواقع كثيرة خوفاً على نفسه وقومه القيسيين وقد استطاع عبد الله بن علي أن يقنعه بالأمان والصلح^(١) لينصرف لحرب الثورة الأخرى .

٢ - وثاروا في الشمال بقنسرین بقيادة أبي الورد مجزأة بن الكوثر الكلابي القيسي وهو بدوره من أصحاب وقواد مروان وقد ثار غضباً لأولاد مسلمة بن عبد الملك - فيما يقولون - وأظهر التبييض وقتل القائد العباسي الذي أصابهم وقتله . وكانت أهل حمص وتدمر وفيها قبائل كلب اليمانية ، فقدم عليه منهم ألوف بقيادة أبي محمد زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية الذي اتخذ الحصرة شعاراً له فنصب الثائرون أبا محمد هذا خليفة وكان يلقب بالبيطار (لأنه صاحب صيد) وقالوا : هو السفيناني^(٢) الذي كان يذكر . وقد كان هذا التحالف بين أبي الورد وأبي محمد خطيراً لأنه جمع القيسية واليمانية في حلف واحد في الشام مما يدل على ادراك الطرفين مدى الخطر العباسي على الشام ومدى الخسارة بزوال الخلافة الأموية منه . ومع أن عدة من اجتمع بقيادة أبي الورد كان أربعين ألفاً إلا إن عبد الله بن علي استطاع ، مع أخيه عبد الصمد وحמיד بن قحطبة الطائي أن يهزم هذه الجماعة في مرج الأحمز^(٣)

(١) الطبري ٤٤٢/٧ - ٤٤٣ (٥٢/٣)

(٢) ذكر ابن عساكر ترجمة زياد السفيناني (تاريخ دمشق - مخطوط الظاهرية ج ٦ ورقة ١٨٥ وجه) .

(٣) لدى ابن العديم أنها برج الاجم ويعطي ياقوت تفسير ذلك بأنه موضع قرب الفراديس من نواحي حلب (راجع ابن العديم زبدة الحلب ٥٥/١ وياقوت معجم البلدان ١٣٥/١) ، ونجد لدى ابن العديم نفسه تفصيل السبب في ثورة أبي الورد .

وثبت أبو الورد في نحو ٥٠٠ من أهل بيته وقومه فقتلوا جميعاً وبينما كان عبد الله بن علي يؤمن قنسرين ويدخلها كان أبو محمد ومن معه من قبائل كلب قد هربوا حتى لحقوا بتدمر ثم بأرض الحجاز وهناك عرف زياد الحارثي عامل المنصور بموضعه فقاتله حتى قتل وأخذ ولدين من أولاده أسرى فأرسلهما إلى المنصور مع رأس أيهما^(١) .

٣ - وفي دمشق انتقضوا كذلك وبيضوا إذ ما كاد عبد الله بن علي ينسحب شمالاً لحرب أبي الورد ويصل حمص حتى بلغه أن دمشق قد ثارت على حاميته التي تركها هناك وهي أربعة آلاف بقيادة أبي غانم عبد الحميد بن ربيعي الطائي وأن زعيم الثورة عثمان بن عبد الأعلى الأزدي هزم أبا غانم وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة واتهب ما كان عبد الله بن علي قد تركه من ثقله ومتاعه مع أولاده في دمشق ، وإن لم يعرض لأهله ومنهم زوجته أم البنين النوفلية وبعض أمهات أولاده ...

على أن هزيمة أبي الورد في الشام فتت في عضد الثورة الدمشقية في انصراف عبد الله بن علي عائداً إلى دمشق حتى هرب الثائرون وتفرقوا ، دون حرب . وآمن عبد الله أهل المدينة وجدد أخذ البيعة منهم ...

٤ - لكنه ما كاد ينتهي من دمشق حتى سمع بثورة سفياني آخر في حلب . هناك ثار العباس بن محمد حفيد معاوية^(٢) عقب هزيمة أبي الورد «ولبس الحمرة وخالف» . وسار إليه في وقت واحد : عبد الله ابن علي من دمشق وجيش أرسله أبو جعفر - وكان على ولاية الجزيرة

(١) الطبري ج ٧ ص ٤٤٢ - ٤٥٤

(٢) ابن العديم - زبدة الحلب ج ١ ص ٥٦

وأرمينية واذريجان يومذاك - بقيادة مقاتل بن حكيم العكي من الرقة .
وقبل أن يصل عبد الله الى حلب كان العكي قد واقع العباس السفيفاني
وهزمه ودخل حلب عنوة وجمع الغنائم وسار بها الى أبي جعفر في
حاران ...

وقضى عبد الله بن علي الشتاء في دابق ليسير بعد ذلك إلى ثورة
أخرى قام بها اسحاق بن مسلم العقيلي في سمياط والجزيرة .

هـ - وفي الجزيرة ما كادوا يسمعون بثورة أبي الورد حتى اتفقوا
أيضاً وبيضوا وساروا الى حران يحاصرونها على القائد العباسي موسى
ابن كعب . «ولم يكن لهم رئيس يجمعهم» فما كاد يصل إليهم اسحق
ابن مسلم العقيلي من أرمينية (حيث هرب حين بلغه هزيمة مروان) حتى
ولوه القيادة بينما كانت قبائل ربيعة قد ثارت بدورها في داروماردين
بزعامة رئيس لها كان من الخوارج الحرورية يقال له بريكة .

وأرسل ابو العباس أخاه «أبا جعفر فيمن كان معه من الجنود على
حصار ابن هبيرة في واسط ، فمضى حتى مر بقرقيسيا على الفرات وأهلها
مبيضون وقد غلقوا أبوابها دونه . ثم قدم مدينة الرقة (على الفرات أيضاً)
وهم على ذلك ... فمضى نحو حران ...» .

ولم يستطع أبو جعفر قتال اسحق ومن معه قبل الانتهاء من جماعة
ربيعة وقتل بريكة الحروري ولكن الوقائع التي قادها ضد اسحق وأخيه
بكار عند الرها لم تنته إلى شيء حاسم . وكتب أبو العباس الى عمه
عبد الله بن علي في الشام وكان قد انتهى من ثوراته فاجتمع مع أبي جعفر
دون جدوى لأن اسحق كان قد تحصن في سمياط واجتمع إليه ستون
ألف مقاتل من كافة أهل الجزيرة ، وامتد الحصار سبعة أشهر لا ينالون
منه شيئاً واضطروا لمفاوضته ومكاتبته على الأمان ووثقوا له فيه وأعطوه

العهود وكان يقول : في عنقي بيعة لمروان فأنا لا أدعها حتى أعلم أن صاحبها مات أو قتل . فلما أثبتوا له مصرع مروان قبل الصلح ، ثم كان من أثر أصحاب أبي جعفر (١) .

٦ - وثار أبان بن معاوية (٢) بن هشام بن عبد الملك في أربعة آلاف من نخبة جند اسحق . ويبدو أنه استطاع رغم هزيمة أصابته أمام حميد ابن قحطبة أن يدخل سميساط ويتحصن بها فسار إليه عبد الله بن علي حتى فتحها عنوة .

٧ - وثار أيضاً وايضاً أموي آخر هو محمد بن سعيد بن عبد العزيز الأموي واتفق في حركته ضد أبي جعفر ، والي الجزيرة ، مع ثائر آخر من الخوارج هو بكر بن حميد الشيباني . وقتل محمد بن سعيد في المعركة التي جرت مع قوات أبي جعفر .

٨ - وثار كذلك أهل الموصل . ومع أن هذا البلد أغلق أبوابه في وجه مروان بن محمد بعد هزيمته في الزاب وأخذ الكثير من أهله أجرهم من المال والاقطاع والحباء جزاء موقعهم المناصر للعباسيين إلا أن ذلك لم يمنع من ظهور الثورة فيهم بعد قليل سنة ١٣٣ بسبب خيبة الأمل كما لم يمنع العباسيين ، حين اخمدوهم ، من أن يفعلوا بهم ما لا يفعله «المسلمون» من القتل . فقد تولى الموصل يحيى بن محمد بن علي العباسي وشعر أن في أهلها « ميلا الى بني أمية » (٣) وكانوا قد رفضوا قبله والياً عباسياً يدعى محمد بن صول هو من موالى خثعم ، فنزل يحيى العباسي الموصل في اثني عشر ألفاً وأقام شهراً لا يظهر لأهلها

(١) الطبري ٤٤٧/٧

(٢) ابن العديم فريدة الحلب ج ١ ص ٥٦

(٣) انظر لدى ابي زكريا الأزدي - تاريخ الموصل ص ١٤٥ و ١٥٠

شيئاً ينكرونه ثم دعا دعوة فقتل منهم اثني عشر رجلاً من الوجوه . فلما نفر أهل الموصل الى السلاح نادى مناديه : « من دخل الجامع فهو آمن بأمان الله ورسوله » فلما اجتمع الناس هناك أقام على أبواب المسجد من قتلهم . ثم قتل النساء الذين يكون قتلهم والأطفال ثلاثة أيام وهلك من القتل الذريع^(١) أحد عشر ألفاً حتى سميت السنة سنة القتل وحتى كانت ذكراها تبكي الشيوخ فيما بعد فيقولون : « من زعم أن هؤلاء مسلمون ؟ » . وقد خربت اسواق المدينة في هذه الملحمة وبقيت مهجورة ثلاث سنين وهاجر الكثير من سكان المدينة إلى أذربيجان .

٩٠ — واستغل هذه الفرص سكان الجبل في لبنان فثاروا بدورهم ٧٥٢/١٣٥ بقيادة المقدم الياس وأغاروا على قرى البقاع ونهبوها . فأرسل والي دمشق رسلاً يسعون بالصلح فلما رفض الثائرون جرت معركة في قرية المرج (بالبقاع) قتل فيها الياس . وحين عاد عسكر الشام عاد أصحابه فدفنوه في مكان هناك قرب الجامع (ولعلها هي بلدة قب الياس اليوم)^(٢) .

(١) انظر في المصدر السابق ذاته تفاصيل المذبحة ص ١٤٥ — ١٥٤ ويقول اليعقوبي ان عدة من قتل هو ١٨ ألفاً من صلب العرب غير الموالى والعبيد .

(٢) ينقل كرد علي في خطط الشام (ج ١ ص ٧١٩ — ١٨٠) هذه الحادثة عن ماسماه بتواريخ الموارد . وإنما ذكرت في تاريخ الطائفة المارونية لاسطفهان الدويهي الذي طبع سنة ١٨٩٠ وقد نقل يوسف الدبس في تاريخ سورية (ج ٥ ص ٢٩٢/٢٩٣) وناقش مصدرها الاساسي الذي هو تاريخ القلاعي وبين أنها قد لا تكون من أحداث هذه الفترة ولكن من الاحداث المتأخرة في القرن الثاني عشر أو السابقة في عهد عبد الملك بن مروان كما ورد في تاريخ القلاعي .

لكن الثورة لم تهدأ وأقام الثائرون مقدماً عليهم سمعان ابن أخت
المقتول فسارت إليه عساكر الشام وكانت الحرب بينهم في قرية الشوير
(أو المروج ؟) فانكسر العسكر الشامي وارتد راجعا بينما دام القتال بعد
ذلك سنين عديدة •

١٠ - ويبدو أن ثورة الجبل اللبناني وجدت بعد ذلك سنداً قوياً
من البيزنطيين كما استمدت اسبابها العميقة من ظلم عمال الخراج لأهل
القرى الجبلية • ويذكر ابن عساكر أن من الوقائع التي وقعت زمن رياح
ابن عثمان الذي ولي إمرة دمشق لصالح بن علي الهاشمي العباسي
«أن الروم دخلوا طرابلس ثم ظهر في لبنان رجل من أهل المنيطرة شاب
ممتلئ الجسم وذلك في سنة اثنتين أو ثلاث وأربعين ومائة وسمي نفسه
الملك ولبس التاج وأظهر الصليب واجتمع عليه أنباط جبل لبنان
وغيرهم •••»

«ثم استفحل أمرهم فسبوا قرى البقاع فقتلوا المسلمين وأخذوا
ما وجدوا •

وكتب بندار (وهذا هو اسم قائد الثورة)^(١) الملك الى أهل بعلبك
يعلمهم بمصيرهم ويأمرهم بقتالهم •••» ويبدو أنه هاجم بعلبك ونهب
البقاع ولكنه وقع في كمين خسر فيه الثائرون الكثير من القتلى عند
أسفل الجبل وطاردتهم القوي العباسية التي أرسلها صالح بن علي الى
الجبال وسقط حصن المنيطرة الذي كان مقر الثورة • «وهرب بندار
الى بلاد الروم • فكتب صالح بن علي يأمر بإخراج من بقي من الجبل

(١) اذا لم يكن الاسم لاتينياً أو يونانياً وكان صفة أطلقت على هذا
الرجل فقد تكشف أنه من التجار المحتكرين للمؤن والبضائع فالبندار
فارسية الاصل وتعني التاجر الذي يلزم المعادن ويخزن البضائع للغلاء •
وكان في الفرس كذلك من يحمل اسم بندار كاسم علم •

وتفريقهم في بلاد الشام وكفورها يعني قراها^(١) «...» « وأقر من بقي منهم على دينهم وردهم إلى قراهم » .

وقد أشار البلاذري^(٢) الى هذه الحادثة وقال : إن سببها الشكوى من عامل الخراج في بعلبك كما ذكر أن الامام الأوزاعي (وهو في الأصل من مواليد بعلبك ومن ناشئة البقاع وقد استقر في بيروت) احتج على التدابير التي اتخذها صالح بن علي ضد أهل القرى وكتب إليه رسالة طويلة يقول فيها : «...» وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ... فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم وحكم الله تعالى أن لاتزرر وارزة وزر أخرى وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى عن رسول الله...»

ومع أن هذه الثورات الشامية - الجزرية قد انتهت بسرعة وأحياناً بالأمان إلا إنها كانت في الواقع سبباً في زيادة حقد العباسيين على الشام وفي زيادة النكبة والتمادي في تتبع البقية الباقية من الأمويين وقتلهم بكل مكان كما كان بالمقابل سبباً في زيادة بغض أهل الشام للعباسيين . ذكر ابن عساكر أن المنصور قال مرة في مجلسه وهو والي الجزيرة : «يا أهل الشام • احمدا الله الذي رفع عنكم الطاعون في سلطاننا • فأجابه جعونة بن الحارث بن قرّة من قبائل قيس : «الله أعدل من أن يجمعك علينا والطاعون»^(٣) فقتله المنصور ...

(١) ابن عساكر - تاريخ دمشق (تهذيب بدران) ج ٥ ص ٣٤١ (في ترجمة رياح بن عثمان) .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان (طبعة المنجد) ج ١ ص ١٩٢ .

(٣) ابن عساكر - ج ٣ ص ٣٩٢ (في ترجمة جعونة بن الحارث) .

وقد عرف ذلك عن أهل الشام لذلك العهد وسجله ابن المقفع في رسالة الصحابة إذ يقول : «... أما أهل الشام فإنهم أشد الناس مؤونة وأخوفهم عداوة وبائقة وليس يواخذهم امير المؤمنين بالعداوة ولا يطمع منهم في الاستجماع على المودة...» •

الواقع أن بعض الأخبار والدلائل تشير إلى أن التعصب للأمويين في الشام • وأحياناً في غير الشام أخذ طريقه سرباً في النفوس وعبر عن نفسه تارة في بعض الثورات اللاحقة وتارة في بعض الأعمال الفردية وتارة ثالثة في الشعر ورابعة في تأليف الكتب ، وخامسة في تكوين الفرق الدينية السياسية أو في بعض آراء المذاهب ، هذا عدا إقامة إمارة الاندلس •

١ - فمن الثورات مثلاً ثورات الشام زمن الرشيد سنة ١٧٤ ثم ١٧٦ ثم ١٨٠ ثم ١٩٠ و ١٩١ وثورة دحية المرواني في مصر (بين سنة ١٦٥ - ١٦٩) وثورة حمص السفينانية (بقيادة العيسر علي بن عبد الله حفيد معاوية ١٩٤) الذي كان اصحابه ينادون في الأسواق : قوموا بايعوا مهدي الله ! • ثم ثورة سعيد بن خالد السفيناني زمن المأمون وثورة أبي حرب المبرقع اليماني زمن المعتصم ... الخ •

٢ - ومن الأعمال الفردية ، أن جماعة في رصافة بغداد كانوا يسقون السوق والسكر والماء البارد ويقولون : اشربوا على حب معاوية ! وصار من عادة السائقين في العراق الترحم على معاوية عند سقاء الناس حتى أمر الخليفة المعتضد بمنعهم من ذلك ومنع القصاص من ذكر روايات تخص معاوية • وكان بين « حنابلة العراق غوال مشبهة يفرطون في حب معاوية ويروون في ذلك أخباراً منكراً » وكان في أصنفهان

أيضاً غلو في حب معاوية^(١) حتى كانوا يحسبونه مرسلًا ولقد ذكر
المقدس في أحسن التقاسيم عن عابد زاهد هناك أنه حين أخبره عن حقيقة
معاوية وأنه ملك أخذ يقول : أنت رافضي^(٢) !

وبلغ الأمر ببعض الناس أن زيف ألقاباً للخلفاء الأمويين يضاهي بها
الألقاب العباسية ويرويها فمعاوية هو (الناحر لحق الله) ويزيد (المستنصر)
ومعاوية الثاني (الراجع الى الله) .. وعبد الملك (المؤثر لأمر الله) ...
وعمر بن عبد العزيز (المعصوم بالله) .. الخ .

وقد نقل المسعودي روايتين من هذا النوع وناقشهما وردهما^(٣) .
٣ - وأما في الشعر فقد بكى الكثير من الشعراء الامويين كحكام
وقتلَى وذكروا تارة عهدهم وتارة قتلاهم وتارة فضائلهم . ولئن ذهب
معظم هذا الشعر لما تشل روايته من معنى المعارضة للعباسيين من جهة
والتعصب ضد الشيعة وآل البيت من جهة أخرى فإن آثاره باقية نجدها
منشورة ضائعة في تاريخ الموصل للأزدي وفي الطبري وابن قتيبة وثنايا
الدواوين ومنها قصائد لبشار بن برد ومنقذ بن عبد الرحمن الهلالي
وابي عطاء السندي (في رثاء ابن هبيرة والي العراق الأموي) وأبي هرمة
ومروان بن أبي حفصة القائل :

بنو أمية قومي اعتقوني وكل الناس بعد لهم عبيد
وابي العباس الأعشى القائل :
خليت المنابر والأسرة منهم فعليهم حتى المات سلام

(١) المقدسي احسن التقاسيم (طبع ليدن) ص ٢٨٩

٢١ (المقدس - احسن التقاسيم (طبع ليدن) ص ٣٩٩ .

(٣) المسعودي - التنبيه والاشراف (طبعة الصاوي - القاهرة ١٩٣٨)

ص ٢٩٠-٢٩١ .

وابن قيس الرقيات القائل :

ما نقصوا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنتهم سادة الملوك فما تصلح إلا عليهم العرب !

وقصيدة أبي عبد الله بن عمر العبلي التي يعدد فيها مواقع المذابح :
أشاب المفارق (أو أفاض المدامع) قتلى (كدا) وقتلى بكثوة لم ترمس
وقتلى (يوج*) وباللاتين ومن يشرب خير ما أنفس
وبالزباب قتلى ملوك ثوت وأخرى بنهر أبي فطرس
أولئك قوم أناخت بهم نوائب من زمن متعس
هم أضرعوني لرب الزمان وهم ألصقوا الرغم بالمعطس
فما أنس لا أنس قتلهم ولا عاش بعدهم من نسي !
وقوله أيضاً :

فبنو أمية خير من وطىء الثرى شرفاً وأفضل ساسة امراؤها

٤ - وأما تأليف الكتب فقد ذكر المسعودي أنه قرأ حين كان في
طبرية سنة ٣٢٤ كتاباً لمؤلف أموي مجهول في ٣٠٠ ورقة عنوانه
(البراهين في إمامة الأمويين ونشر ما طوى من فضائلهم)^(١) ولخص
المسعودي ما فيه في صفحة كاملة وذكر أنه ينتهي الكتاب إلى سنة ٣٢٠
ويذكر خبر قدوم السفيناني ورجوع الدولة كما كان من مصادر كتاب
مروج الذهب للمسعودي . « كتاب التاريخ وأخبار الأمويين ومناقبهم
وذكر فضائلهم وما أحدثوه من السير في أيامهم من تأليف أبي عبد
الرحمن خالد بن هشام الأموي »^(٢) وقد ألف ابن أبي العجائز أحمد
ابن حميد (من القرن الرابع نفسه) كتاباً في تاريخ

(١) المسعودي مروج ج ١ ص ١٤-١٥ (طبعة x x)

(٢) المصدر نفسه ص ٢٩١-٢٩٢

دمشق وذكر فيه بني أمية من كان منهم في الغبوة ومن كان بدمشق . كما ألف بعض أحفاد الأمويين الكتب في أحسابهم وأنسابهم كأبي الفرج والأصبهاني «حفيد مروان بن محمد» والأبيوردي صاحب كتاب أنساب آل أبي سفيان . وإذا لم نضف إلى ذلك مؤلفات الاندلسيين كابن حزم وابن عذارى فما من شك في أن الكثير من مثل هذه الكتب كان ذا انتشار وتداول محلي وبالتالي فقد ضاع مع الأيام .

وأما في الفرق الدينية والمذاهب فالناتئة والكرامية والحنابلة جميعاً كانوا يصرحوا بقبول الامامين علي ومعاوية معاً أو بافضلية معاوية وتأييد إمامته وكانوا ينتشرون في العراق وفارس واصبهان حتى همدان والري . ولا نذكر اليزيدية لأنهم ليسوا ليزيد كما يصرحون ويصرح بعض المستشرقين في الأرجح ليزدن والزرادشتية الأولى .

وإذا كان التعصب الأموي في مطالعه قد تأثر ببغض العباسيين فلا شك أنه إنسا استمر وانتشر جواباً على التعصب العلوي والتشيع .

... وفي هذا الوقت وجدت اسطورة (السفياني) طريقها معبداً الى نفوس الشاميين ، ولئن كانت هذه الفكرة قد اشتقت من الايمان بيسيح أو مهدي منتظر ، وكانت شائعة ولها حركاتها منذ اواخر العصر الاموي (ولقد يكون مبتدعها هو خالد بن يزيد بن معاذ كما يفهم من رواية للاغاني) وكان لها أيضاً وجوها مختلفة ، اذ آمن اليمانيون (بالقحطاني المنتظر) والمصريون (بالتيمسي) الخ ... لئن كان ذلك فان هذه الاسطورة قد استيقظت الآن كرد فعل للاضطهاد العباسي المرعب ، في انتظار تجسدها في شخص أحد الامويين . وقد لحقها مع الايام كثير من الحشو والمحالات والآمال بسير «الخيال الشهب والرايات الصفر»

من الاندلس الى الشام والتنبؤ بما سيكون لها من الوقائع والزخوف الخ... وقد استمرت هذه النعمة بالشام أكثر من مائتين وخمسين سنة إذ نجدها ، بعد عدة انتفاضات قد ظهرت سنة ٢٩٤ وحمل السفيناني يوم ذاك الى بغداد^(١) ثم تجدها أيضاً سنة ٣٨٥ إذ ظهر في الشام سفيناني آخر حمل الى القاهرة فشهّر ثم قتل^(٢)... هل تراها انقطعت بعد ذلك ؟ يظهر انها لم تنقطع لأنها كانت قد سجلت في كتب متداولة في الشام بين الأمويين وقد رأى المسعودي بعضها وتحدث عن «... ظهور السفينان في الوادي اليابس من أرض الشام في غسان وقضاة ولخم وجذام وغاراته وحروبه ومسير الأموية من بلاد الاندلس إلى الشام وأنهم أصحاب الخيل الشهب والرايات الضفر وما يكون لهم من الوقائع والحروب والغارات والزخوف^(٣)...» .

خامساً - انفصال الاندلس :

ولعل أهم ما نجح به الأمويون ضد العباسيين وانتقموا به لأنفسهم وملكهم هو اقتطاع أقصى جزء في غرب المملكة الإسلامية وإقامة إمارة أموية فيه ولم يكن في إمكان العباسيين أن يتنبأوا أن ذلك الذي استطاع الفرار ذات ليلة من انتقامهم في إحدى قرى الفرات : عبد الرحمن بن معاوية ، سيقنطع منهم جزءاً من المملكة الواسعة هو الاندلس ، يبعث فيه الملك الأموي . ولم يكن في مقدورهم ان يرسلوا الجيوش الى أقصى الأرض لاستصفائها قبل ان يتم الامر لهم في الذي بأيديهم ،

(١) ابن الاثير ج ٧ ص ٥٥٧ وكرد علي يقول (خطط الشام ١/ ١٧٧)

انها انقطعت سنة ٢٩٤

(٢) انظر المقرئزي : انعاظ الحنفا ج ١ ص ٢٨٥ و ص ٢٧٨

(٣) التنبيه والاشراف للمسعودي (طبع الصاوي - القاهرة ١٩٣٨)

لاسيما والمتغلب على الاندلس اذ ذاك : يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب
الفهري لم يكن والياً اموياً ، ولكن كلمة العرب هناك اتفقت على توليته
في انتظار انجلاء الموقف في الشرق •

وهكذا استطاع عبد الرحمن ، في غفلة وانشغال من الاسرة
الجديدة ، ان يجمع لنفسه ، رغم التستر والقلّة الدائمة من الانصار ،
ما كفاه للدخول الى الاندلس سنة ١٣٨ والتغلب بالتدريج عليها • وأفاق
المنصور من غمرة الاحداث التي حوله ، على هذا الاموي البعيد الدار ،
وعرف عجزه عن أخذه بالقوة فلجأ الى الحيلة والدهاء : بعث يستميله
بالرسل وطفق يطري عزيزته وسماه «صقر قریش» ولكنه لم يظفر بشيء
منه ، كما لم يظفر باثارة القلاقل ضده في بلده ، فقد ذكر المؤرخون^(١)
ثورة عباسية رفع علمها الاسود : العلاء بن مغيث اليحصبي سنة ١٤٦
ببعض نواحي الاندلس ولكن عبد الرحمن هزمها ، وبعث برأس العلاء
وبعض أصحابه ، فألقيت سراً في السوق بالقيروان ، كما حصل منها الى
مكة ، اثناء حج المنصور ، فبعثت هناك ، ومعها العلم الاسود وكتاب
كتبه المنصور للعلاء ••• ومنذ ذلك الدرس تيقن المنصور انه ليس بطائل
الاندلس بنفسه ، فأخذ يتقرب من ملك الفرنجة ليعينه عليها •
أي أضحى موقفه منها جزءاً من سياسته الخارجية •

٣ - الطامعون من آل محمد :

كان المنصور على يقين من انه لاخطر على عرشه من الامويين ، وان
لا نصير لهم ، عنده من القوة ما يهدد دولة بني العباس • ولكن الخطر
كان من أهله أنفسهم على هذا العرش الجديد : من عشيرته الاقربين بني
العباس ، ومن اولاد عمه آل ابي طالب • ولقد استطاع أبو جعفر أن

(١) ابن الاثير ج ٥ ص ٥٧٥

ينقذ خلافته من الطرفين بالقوة وبالخداع ويحفظ الملك في بنيه خمسة قرون :

اولا - المشكة العباسية :

تمرد عبد الله بن علي : هو عم ابي العباس وقائده الذي هزم مروان بن محمد . ويظهر ان ابا العباس وعد من يقضي على مروان بولاية العهد فلم يتقدم لذلك سوى عبد الله . وقد استصفى الشام لابن اخيه وتولاها من قبله . وكان ينتظر ان يؤول الامر اليه ولذلك فوجيء حين وصله خبر البيعة لابي جعفر المنصور ، وهو في موضع دلوك (شمال حلب) في الطريق الى حرب الروم بناء على تكليف ابي العباس . فنادى : الصلاة جامعة . وخطب في الجند والناس ان الامر له وبايعه الذين معه : وكان عامتهم من أهل الشام الذين يتمنون اضطراب الامر العباسي فتبعوه ، كما كان فيهم (١٧) الفاً من الخراسانيين الذين لا يعرفون سوى الولاء للقائد . وسار عبد الله بجموعه شرقاً باتجاه شمال العراق (أو خراسان) لينحدر منها عائداً الى جنوب العراق .

وإذا كان تاريخ عبد الله في خدمة الحركة العباسية وفي إقامة الدولة، حافلاً بالماثر ويكفيه منه أنه أقامها ووطدها في دار ملك الأسرة السابقة بعد أن أخمد مختلف ثورات الشام فإن ثورته لم تكن ضد الدولة العباسية ولكن ضد شخص الخليفة . كانت شخصية اذن وليست لمبدأ ولا سند لها من دعوة سابقة أو وعد بخير مقبل أو حق مهضوم سوى ما ادعاه عبد الله بن علي نفسه من وعد ابي العباس له بالخلافة من بعده ويمكن بهذا الشكل اعتبارها أول مشكلة من مشاكل ولاية العهد في دولة بني العباس كما قد تعتبر استمراراً وشكلاً جديداً لهذه المشكلة القديمة في العهد الأموي .

وتكشف المداولات التي ذكر المؤرخون انها دارت بين أصحاب عبد الله وقواده مدى الاضطراب والتردد الذي سادهم بسبب ثورته المفاجئة . وإذا تبعه بعض جنده من الخراسانية الذين لم يكن يهمهم إلا «الرضا من آل محمد» دون تحديد ولم يكن أبو جعفر الذي استخلف بذئ ذي علاقة معهم تفرض عليهم أي عبء معنوي تجاهه ، فإن الخراسانية حذروه من الشقاق وانسحب بعضهم من تأييده ثم غادروه بعد أن قتل بعضهم (كالهيثم بن زياد الخزاعي) وتآمر على بعضهم الآخر (كحميد بن قحطبة الطائي الذي دبر اغتياله في حلب فأحسّ بالأمر وخرج الى العراق) . ورفض ولاية أذربيجان وأرمينية وسميساط وحران تأييده لا لأنهم غير مرتبطين بنفوذه فحسب ولكن حفاظاً ، مع الآخرين ، على روابطهم مع أبي العباس وأخيه ابراهيم الامام ومع أيهما محمد وهم أصحاب الدعوة الأساسية .

وقد عوض عبد الله عن هؤلاء التحاق عدد كبير من أهل الشام به . يذكر البلاذري وابن قتيبة والمدايني أن أغلب القواد والأشراف والشيوخ الذين مشوا معه كانوا من الشاميين ، ومن «موالي بني أمية» «وفرسان أهل الشام» ومن «رجال مروان بن محمد» الذين ثاروا من بعده ثم هادنوا عبد الله بن علي . ولعل تنظيم عبد الله لدولته الجديدة يدل على هوية ثورته فإنه قد عين عدداً من زعماء الشام لأعماله : سسى زفر بن عاصم المهلبى لقنسرين والحكم بن صبغان لفلسطين وعثمان بن سراقبة الأزدي لدمشق ومنصوراً الكلبي للشرطة كما كان من قواده البارزين بكار بن مسلم العقيلي . وهذا ما جعل ثورة عبد الله بن علي بجانب كونها شخصية ، ثورة محلية ذات طابع شامي سواء في موقعها الجغرافي أو في جندها . أو في أطماع عدد من رجالها . وما من شك في أن

الشاميين وجدوا في ثورته الأمل في الخلاص من الدولة «الخراسانية» الجديدة وفي أن يستردوا وتسترد الشام معهم مركزها السابق في العهد الأموي . وكان من التناقض الخطر في حركة عبد الله بن علي أنها تستند الى جيش ذي ميول أموية في الغالب لتحقيق مطمح سياسي عباسي .

ويبدو أن أبا العباس وأبا جعفر كلاهما كانا يخشيان عسها ويتوقعان أن يثور إذا اعطيت الخلافة لغيره . فأبو العباس عند موته كلف عيسى بن موسى (الذي صارت إليه ولاية العهد) أن يبعث وفداً برئاسة أبي غسان يزيد بن زياد حاجب أبي العباس ليخبر عبد الله بوفاة الخليفة واستخلاف أبي جعفر وأخذ البيعة منه . وأبو جعفر — ما كاد بدوره يصل العراق — ولم تكن ثورة عمه قد أعلنت بعد — أمر كذلك جيشاً يقوده صالح بن علي العباسي بالتحرك إلى الشام لأخذ البيعة بالقوة إن لزم الأمر . وكان ما توقعه أبو جعفر . فلم يجد الخليفة في قواده خيراً من أبي مسلم الخراساني يقاتل عمه . وقد أرسله بالرغم من شكه فيه وضيقه منه لأنه كان يخشى أن يتحرك أبو مسلم في خراسان والجيش العباسية مشغولة في الشام . كما كان يأمل التخلص من أحدهما كما قال وزيره المورياني . « نحن لا يي مسلم أشد منا تهمة لعبد الله . الا انا نرجو واحدة » .

والواقع أن أبا جعفر كان يرجو بجانبها واحدة أخرى هي أن يستطيع أبو مسلم اجتذاب الخراسانية الثائرين مع عبد الله بسا له عليهم من دالة وصلات سابقة .

ولما كان أبو مسلم نفسه غير راغب في قتال عبد الله فقد قال — على رواية اليعقوبي — : «أمضي الى خراسان وأخلي بين هذين الكبشين فأيهما غلب كتبنا له ، سمعنا وأطعنا ، فرأي انا قد انعمنا عليه ...»^(١)

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٦٥ (طبعة بيروت ١٩٦٠)

ولكن كاتبه اقنعه بعكس ذلك الرأي ، وتأمل ان يضيف الى مجده الحربي ، نصراً على عبد الله العباسي ، وذلك بالتأثير على من معه من الخراسانية . وقال : «انما عامة جنده ومن معه من أهل خراسان وهم لا يعصونني» .

بلغ من اهتمام أبي جعفر بالمعركة أنه أنفق على جيشه ما بين ١٢ الى ١٨ مليون درهم وزاد في أعطيات الجند وخرج فجعل معسكره عند دير الجاثليق على نهر دجلة وألحق بأبي مسلم جيشاً آخر يقوده الحسن بن قحطبة . ووزع الجند في المراكز الاستراتيجية على نهري الفرات ودجلة باتجاه الشام وبعث الى عبد الله قائداً من قواده (محمد ابن صول) يدعي الولاء له ليتجسس عليه وقد قتل عبد الله هذا المتجسس إذ كشف أمره .

وحين سار أبو مسلم في اتجاه الشام كان عبد الله بن علي قد سار يحاصر حران على صاحبها مقاتل العكي الذي ظل على الولاء لأبي جعفر وأخذ المدينة بالأمان بعد أربعين يوماً من الحصار^(١) ثم ذهب فتحصن في بلدة نصيبين حين علم بوصول أبي مسلم إليه .

وقد استمرت الحرب بين القائدين خمسة شهور من مطلع سنة ١٣٧ هـ «وأهل الشام أكثر فرساناً واكمل عدة» كما يقول الطبري ولم يظفر ابو مسلم من عبد الله بغرة أول الامر ، ولا سجل عليه نصراً ، لأنه تحصن في المناطق الجبلية بنصيبين . ولكن سوء تدبير عبد الله أوقعه في النهاية مهزوماً فقد :

(١) بعث عبد الله بمقاتل العكي مع ابنه بالامان الى واليه على الرقة : عمشان بن عبد الأعلى الأزدي فقتله . ثم اخرج ابنه بعد هزيمة عبد الله فقتلها (الطبري ٤٧٥/٧) .

١ - أضعف عبد الله جيشه حين استراب بالخراسانيين فقتل آلافاً منهم تبلغ سبعة عشر ألفاً (١) واستراب بحميد بن قحطبة الطائي فبعث به إلى والي حلب لقتله ، فعرف حميد الأمر ، وتحول إلى أبي مسلم يعاونه ، ويدل على مواطن الضعف في عبد الله .

٢ - خدع أبو مسلم عبد الله عن مركزه الحصين ، اذ أعلن انه ماجاء الـ والياً على الشام ، وانه لن يقاتل . فخاف الشاميون على اهلهم وذرائعهم فانسحبوا لحمايتهم . واضطر عبد الله لمسايرتهم . فلما ترك نصيبين رجع أبو مسلم فتحصن فيها .

٣ - كانت المعركة الأخيرة في السابع من جمادى الآخرة سنة ١٣٧ . فمزق أبو مسلم جند عبد الله واضطره للفرار . ومنع أبو مسلم جنده من تعقبه . فمضى عبد الله إلى أخيه سليمان والي البصرة فاختفى عنده وهرب أخوه الآخر عبد الصمد على الذي كان مسمى لولاية العهد وولاية الجزيرة فقبض عليه في الرصافة . وألح المنصور على عمه سليمان باظهار عبد الله ، واعطاه الأمان (٢) . ويقال انه اخذ من عبد الله البيعة ايضاً ولكنه حبسه لما ظهر . وابقاه في السجن تسع سنوات (٣) بحجة

(١) انظر الطبري ج ٧/٤٧٥ (٣/٩٤) وص ٤٨١ (٣/١٠٢-١٠٣)

(٢) قصة هذا الأمان معروفة في تاريخ الادب فقد كتبه عبد الله بن المقفع الكاتب المشهور وتأنق في صوغه وفي إحكام ثفراته حتى لا يكون فيه مجال لنقض . وقد كلف ذلك ابن المقفع حياته لانه قتل بسببه . ونجد النص الكامل لهذا الأمان خاصة في كتاب أبي بكر الأزدي - تاريخ الموصل ص ١٦٧-١٧٠

(٣) حاول المنصور قتل عمه بواسطة عيسى بن موسى ولما ألح عليه أخبره عيسى انه قتله . وعند ذلك حرض المنصور أعمامه لاختار أخيهم من عيسى كي يتخلص منه بعد ان اعطى منصبه - أي ولاية العهد - لابنه المهدي فلما ثار الأعمام على عيسى أخرج عبد الله من السجن فاذا هو ما يزال حياً . وفشلت مؤامرة المنصور على الاثنين .

الخوف عليه من الخراسانية . ثم قتله سنة ١٤٧ هـ في ظروف غامضة ويقال إنه جعله في بيت أساسه ملح ثم افاض عليه الماء فأنهار عليه . . . ولم يستثمر أبو مسلم نصره في نهب بلاد الشام أو إذلال أهلها . ولا ولايتها أملا في العودة لقواعده في خراسان وحين ذهب وفد من الشام الى أبي جعفر معذراً مستغفراً عن «الفتنة» التي أثارها عبد الله بن علي و«أغرى» بها الشاميين قبل الخليفة اعتذارهم ورد أملاكهم وضياعهم التي كان صادرها . على أن خزائن عبد الله بن علي وما فيها كانت من مشاكل أبي مسلم والخليفة والجند . فقد اعتبرها أبو جعفر من حقه وحده بينما احتوى أبو مسلم عليها . وطالب قادة الجند الخراسانية بأربعة أخماسها باعتبارها غنيمة . وتنازل أبو جعفر عنها لهم وزاد فضاغف لهم الجزاء .

ثانيا : المشكلة العلوية : محمد نفس الزكية – الثورة العلوية :

كانت البيعة لابي العباس مفاجأة غريبة دون شك للعلاة من العلويين ، كما كانت موضع اشمزاز ونفرة لدى آل علي انفسهم . لان الطامحين منهم اعتبروها خدعة . واذا صح خبر المؤتمر الهاشمي الذي يتحدث الطبري والأزدي ، والأصفهاني والبلاذري وصاحب الفخري^(١) انه تم في «ذيل دولة بني أمية» في موقع «الأبواء» قرب مكة سنة ١٢٧ / ٧٤٤ بدعوة من عبد الله المحض – على ما تذكر بعض الروايات – واتفق فيه على الدعوة السرية ، والبيعة لذي النفس الزكية : محمد بن عبد الله المحض ابن الحسن بن الحسن بن علي وانه قد حضر المجلس «اعيان بني هاشم علويهم وعباسيهم» ، وفيهم أبو العباس وأخوه أبو جعفر (المنصور) والامام جعفر الصادق . . واذا صح ذلك فبنو العباس خالفوا تلك البيعة الرسمية فيما بينهم وحرموا «الرضا من آل محمد»

(١) الفخري للطقطقي ص ١١٩

حقه • وربما لم يكن حديث المؤتمر صحيحاً بالشكل الذي ورد ولعله انقض دون اتخاذ قرار بالبيعة وهو الأرجح ، ولكن ذلك يعني بالنسبة لنا شيئاً هاماً هو ان ابرز الطالبين لدى قيام الامر العباسي هو محمد الملقب بالنفس الزكية من آل الحسن • يدل على ذلك ايضاً ان يزيد بن هبيرة كاتبه ، وهو محاصر في واسط ، يحرضه على طلب الامر لنفسه • ومع أن الامام جعفر الصادق لم يكن بأقل شأنًا في رجال آل البيت من محمد ذي النفس الزكية إلا إنه فيما يبدو لم يكن بذوي مطامح سياسية حتى إنه فيما يذكرون عارض في مؤتمر الأبواء مطامح محمد هذا وتنبأ للعباسيين بالخلافة •

وقد صانع ابو العباس آل علي جميعاً • ولعله كان يشعر بحقهم وبمرارة الخيبة التي منوا بها فسلك معهم سبيل الاكرام ، وخاصة آل الحسن منهم • وبالرغم من ان محمداً النفس الزكية رفض البيعة لابي العباس فقد قدم عبد الله المحض (والد النفس الزكية) على ابي العباس «فبره وآثره ووصله بالصلوات الكثيرة — كما يقول اليعقوبي — وكان اذا بلغه عن محمد بن عبد الله امر يكلم اياه حتى اخذ منه عهداً بالولاء ، قال فيه «لك عهد الله وميثاقه ألا ترى منهما (أي من ولديه محمد واخيه ابراهيم) شيئاً تكرهه ما كان محمد في الدنيا وطفيء امر محمد في خلافة ابي العباس ، فلم يظهر منه شيء» (١)»

(١) قال ابو العباس لعبد الله المحض :

اريد حياهه ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد
فأجابه عبد الله :

وكيف يريد ذاك وانت منه بمنزلة النياط من الفؤاد ؟
انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٣٦٠

ولعل سياسة أبي العباس مع زعماء العلويين إنما كان سببها ذلك الشك الذي يحيط «بإرث الكيسانية» وبقصة «الوصية» من أبي هاشم إلى محمد العباسي . وعدم تسليم آل أبي طالب بأن ذلك يسقط حقهم الشرعي في الحكم الذي تسلمه - دونهم - العباسيون . ولعل مؤتمر الأبناء خير دليل على ذلك الشك . لهذا أحل أبو العباس التودد محل البطش وصلة «الرحم» محل «شرعية الوصية» في سياسته مع العلويين ولكن ذلك لم يخدم حركات المتطرفين منهم خاصة وقد عرضت لهم الكثير من فرص التحريض على الثورة في العراق وخراسان نتيجة اتصال عدد من الزعماء أو التأثيرين بهم ، بدءاً من أبي سلمة الخلال حتى شريك بن شيخ المهري ، مروراً بيسام بن إبراهيم ثم عبد الجبار الأزدي . من بعد .

على أن وفاة السفاح الوشيجة ، وتحول الخلافة إلى أخيه أبي جعفر (المنصور) ، أثارت المشكلة العلوية وحركت آمال محمد من جديد : لا سيما وأبوه يشيع عنه أنه «المهدي الذي بشر به» كما كان أهل الحرمين يحبونه كل الحب . ولا يخفى ما في ذلك من القوة له ، ومن الخطر على مركز الخليفة الديني ، وهو قد اضحى إلى هذا وذاك في حل من العهد الذي قطعه أبوه للخليفة الأول . . . وهكذا وصلت الأخبار إلى المنصور أن العلويين ، بزعامة محمد يتحركون .

كانت الحركة العلوية في الواقع قد أضحت - بعد سحق الأمويين - قطب المعارضة للعباسيين وقد نقلت الطوائف الناقمة على هؤلاء ولاءها كاملاً إلى الجانب العلوي - عدا الشام - بالإضافة إلى أن فكرة «المهدي» كانت من الجاذبية والاعراء بحيث يجتذب الطبقات الفقيرة وزمر البائسين في كل مكان .

ويظهر ان محمداً انتفع من درس الدعوة العباسية فاراد ان ينهج في دعوته وحركته منهجاً في التكتّم والسر والتمهيد بالدعاية . فاختفى عن الأعين وبث الدعاة في الامصار ، من أهله : فارسل ابنه عبد الله الى خراسان ثم الى السند وابنه الحسن الى اليمن وثالث أولاده علياً الى مصر واخاه يحيى الى الري وطبرستان واخاه ادريس الى المغرب (ويظهر ان بعض هؤلاء قد ذهب الى هذه البلاد بعد فشل الثورة) اما اخوه ابراهيم فكان ساعده الاول وقد قام بالدعوة في البصرة .

وعلم المنصور ان في الافق العلوي امراً ، فلم يكن همه الا طلب (محمد النفس الزكية) والمسألة عنه وعما يريد . ودعا بيني هاشم رجلاً رجلاً يسألهم في خلوة ، عنه . فبعضهم هون أمر محمد ، وبعضهم حذر منه ومن وثوبه «فلما حج المنصور سنة ١٤١ هـ وتخلف محمد واخوه ابراهيم عن المثل بين يديه ، لم يبق لديه شك في نواياهما . فعمل بكل وسيلة على تعقبهما ولكن دون جدوى ، لأن الأمر كان قد جاوز مرحلة التمهيد الى العمل الفعلي . وقبض على أبيهما عبد الله المحض وسجنه لانه أبى أن يدلّه على مقرهما » .

واتخذت مطاردة أبي جعفر لمحمد وابراهيم ابني عبد الله المحض شكل الإلحاح العنيف الذي اضطرهما للهرب من الحجاز اكثر من خمس سنوات (ما بين سنتي ١٤٠ - ١٤٥) فإن الطبري يذكر أنهما ، أشفقا حين أخذ أبو جعفر والدهما «فخرجا الى عدن فخافا بها وركبا البحر حتى صارا الى السند فسعى بهما الى عمر بن حفص فخرجا حتى قدما الكوفة وبها أبو جعفر ...» ويروى عن أم ولد لابراهيم قولها : «لا والله ما أقرتنا الأرض منذ خمس سنين . مرة بفارس ومرة بكرمان

ومرة بالحجاز ومرة باليمن...^(١) ويذكر خبر آخر أن ابراهيم ألم بالشام أيضا خلال هربه السري كما ألم بالموصل وقد عرف الفضل بن صالح بن علي العباسي أمره بعد أن كان هرب إلى البصرة فكتب بذلك إلى أبي جعفر الذي «أمر بإذكاء العيون ووضع المراصد والمسالخ...»^(٢) وكان يسأل عنه حتى المنجمين ليجده^(٣)...

وفي أثناء ذلك كان المنصور قد جعل وظيفة والي المدينة التحري عنهما . ولهذا اتهم واليه زيادة بن عبيد الله الحارثي بالتساهل ، وسجنه وصادره سنة ١٤١/٧٥٨ . وعزل الثاني محمداً بن خالد القيسري بعد أن أغدق عليه الأموال لعله يظفر بذي النفس الزكية ، وارسل من بعده رياح بن عثمان بن حيان المري (رمضان كانون الاول ٧٦١) وهو شامي، قيسي ، من تلك القبيلة التي كان منها مسلم بن عقبة المري صاحب واقعة الحرة التي فتكت بالمدينة سنة ٦٤هـ ٦٨٣ الفتك الذريع . فتهدد المدينة بأنه «الافعى بن الافعى ... والله لأدعنها بلقعا» وذكرهم أنه ابن عم مسلم ابن عقبة وسجن ١٣ رجلاً من زعماء الطالبين وتشدد . فلما تطاول عليه اهل المدينة هددهم المنصور «... لئن لم تنزعوا ليبدلنكم من بعد أمنكم خوفاً ، وليقطعن البر والبحر عنكم...» واشتد رياح في تعذيب آل علي ، حتى بلغ بالناس أن حصبوه في المسجد فاستتر عنهم ، وعمد المنصور عدا ذلك إلى بث المتجسسة والعيون من التجار ورقيق الاعراب والمدعين بالولاء العلوي في المدينة وظاهرها ، كما أخذ يبعث بالكتب على السنة قواده إلى محمد ذي النفس الزكية ، يوهمه انهم معه ، ويدعوه فيها

(١) الطبري ج ٧ ص ٦٢٢ (٢٨٢/٣-٢٨٣)

(٢) المصدر نفسه ص ٦٢٣ (٢٨٢/٣)

(٣) المصدر نفسه ص ٦٢٦ (٢٨٨/٣)

للظهور أو يبعث بها باسم الاقطار الاسلامية... ولكنه مع كل هذا لم يظفر بمحمد وان ظفر باجباره على تعجل الثورة ، لا سيما حين حج المنصور سنة ١٤٤/٧٦٢ فحمل معه زعماء العلويين المسجونين الى الهاشمية في العراق وبالرغم من أن الروايات والاساطير تلف بالغموض مصيرهم إلا ان النتيجة منها واحدة وهي أن أبا جعفر أمر بقتل عبد الله ومحمد بن عبد الله العشاني ومحمد بن ابراهيم بن الحسن ، ومات الباكون في السجن، لم يطلق إلا نفرأ منهم بعد فشل ثورة ذي النفس الزكية والواقع أن محمداً تألم للنكال الذي نزل بأهله وبخاصة ما شاع من مقتل أبيه^(١) وتوهم أن كل الامصار معه فقد خطب بأهل المدينة يوم ثار : «والله ما جئت هذه وفي الارض مصر يعبد الله ، الا وقد أخذت لي فيه البيعة » وأيدت موقفه فتوى الامام مالك بنقض بيعة المنصور (اذ قال لأهل المدينة انما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين) وكان محمد قد قرر الثورة مع اخيه ابراهيم في يوم واحد بالمدينة والبصرة . ولكن ظلم رياح بن عثمان لأهله جعله يسبق الموعد ويشي الى مسجد المدينة في ٢٥٠ رجلا لإعلانها بعد أن هاجم السجن فأطلق من فيه وهاجم دار الحكم فاعتقل رياحاً المري نفسه . أما اخوه فكان اذ ذاك مصاباً بالجذري لا يطيق حراكاً في البصرة . وقد بين محمد في خطبته الاولى اسباب الثورة بقوله : «... كان من امر هذا الطاغية عدو الله ابي جعفر مالم يخف عليكم وان أحق الناس بالقيام بهذا الدين انباء المهاجرين والانصار ... اللهم انهم قد احلوا حرامك وحرموا حلالك

(١) البلاذري والمسدودي يذكر ان اعتقال اقرباء محمد وما شاع عن مقتل أبيه كان السبب في ثورته بينما يذكر الطبري والاصفهاني ان السبب هو اعتقال اخيه موسى الذي فشل في الدلالة على مكن اخيه محمد لوالي المدينة رياح المري فاعتقله وارسل الى الهاشمية مما اضطر محمداً للظهور واستنقاذه .

وآمنوا من أخفت وأخافوا من آمنت ... اللهم فاحصهم عدداً واقتلهم
بدداً ...» وهو يتهم كما نرى ابا جعفر (المنصور) بالطغيان وبالخروج
عن حدود الله ويعلن حق أهل المدينة من المهاجرين والانصار (ليتألفهم)
في الخلافة لاحقه الشخصي فيها ، ويعرف هذه الخلافة بانها «القيام
بالدين» ...

أما أبو جعفر فكان يبني بغداد حين وصله خبر الثائر العلوي :
فأوقف البناء واتجه لمعالجة الموقف . ويظهر انه لم يكن يريد الحرب ،
إما خوفاً من قوة محمد أو لعدم استعدادده ، أو لظهور حجة العلويين
وميل الناس اليهم وحاجته لان يجد عذراً يبرر حربه لهم .

كما يظهر ان ابا جعفر اهتم بهذه الناحية الاخيرة اهتماماً واضحاً ،
لا سيما لدى الخراسانيين . فقد خطب فيهم منبداً بآل علي مستعرضاً
تاريخهم من وجهة نظره . ثم قال في ختام خطبته : «... اني والله يا أهل
خراسان ما أتيت من هذا الامر ما اتيت بجهالة . بلغني عنهم بعض السقم
والتعرم . وقد دسست لهم رجالاً فقلت : قم يافلان قم يافلان وخدمك
من المال كذا ، وحذوت لهم مثلاً يعملون عليه ، فخرجوا حتى أتوهم
بالمدينة ، فدسوا اليهم تلك الاموال ، فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب
ولا صغير ولا كبير الا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم واموالهم ،
وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي ، وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج
عليّ . فلا يرون اني اتيت ذلك على غير يقين .. وحيل بينهم وبين ما
يشتهون كما فعل باشياعهم من قبل انهم كانوا في شك مريب^(١) » .

ويظهر انه لهذا السبب آثر المنصور مراسلة محمد النفس الزكية، ومقارعتة بالحجة اولا . اذ ان تلك المراسلات (والطبري يذكرها كاملة ينصوصها^(١)) لم يكن لها من أثر في موقف الطرفين السياسي ، فكأنما كتبت للدعاية فحسب، وليس لاقناع الخصم . وشأنها ينحصر في احصائها احصاء واضحا حجج كل من العلويين والعباسيين في حق الخلافة . عدا ايضاحها موقف كل منهما من الآخر اذ ذاك . وخلاصة تلك الرسائل :

١ - رسالة من المنصور يتوعد فيها محمدا ثم يعده إن رجع ، بالأمان له ولأهله ومن اتبعه وبمليون درهم .

٢ - جواب من محمد يبين فيه حقه ، ويعير المنصور بهجنته . ويعرض عليه الأمان ايضاً دون ان ينسى تغييره بالعدو .

٣ - جواب من المنصور يبين بالحجة الفقهية حق العباسيين، وقيامهم بالعمل للخلافة حين عجز العلويون .

ومن الطريف أن أبا جعفر حين علم بثورة محمد وجد نفسه في حاجة الى استشارة عمه عبد الله بن علي بالرغم من أنه في سجنه . قال : «إن هذا الأحق لا يزال يطلع له الرأي الجيد في الحرب» وسأله فلما احتج بأن المحبوس محبوس الرأي قال أبو جعفر : لو جاءني حتى يضرب بابي ما أخرجتك . وأنا خير لك منه وهو ملك أهل بيتك . وقد ندد عبد الله أمام قادة أبي جعفر بيخله : «إن البخل قد قتله» ولكنه أشار بأن يجثم أبو جعفر فوراً على اكباد أهل الكوفة لأنهم شيعة أهل البيت

(١) الطبري ج ٧ ص ٥٦٦ فما بعد (٢/٢٠٨ فما بعد) ويذكرها كذلك البلاذري وابو زكريا الأزدي وابن عبد ربه وصاحب العيون والحدائق والمبرد . وينقلها عنهم معظم المؤرخين المتأخرين كابن الأثير وابن الجوزي والذهبي وابن خلدون .

وأنصارهم وأن يخفها بالمسالح (أي النقاط العسكرية) فلا يخرج أحد ولا يردّها أحد إلا قطع عنقه • وأضاف أن على أبي جعفر أن يأتي بسلم ابن قتيبة من الري مع جنده وأن يكتب الى أهل الشام لبيعثوا إليه من أهل البأس والنجدة ما يحمل البريد ، وأن يحسن جوائز الجميع ويفرق الأموال لأنها سوف تعوض^(١) • • وكانت هي نفسها الخطة التي اتبعها أبو جعفر • إذا استدعى الجند من الري والشام • وأقام بقسم منهم في الكوفة يقوم فيها بالمنورة اليومية وبايقاد النيران بالليل كي يوهم الناس بكثرة عدده بينما بعث بأربعة آلاف فارس وألفي راجل - على قول المسعودي - عليهم ابن أخيه وولي عهده (عيسى بن موسى) ثم أردفهم بعد قليل ، بمحمد بن قحطبة في جيش كثيف • وكان اختيار عيسى لهذه المهمة أمراً مبيتاً • فالمنصور أراد ان يتخلص منه • وقال : «لا أبالي أيهما قتل صاحبه» عدا ان الحاجة ماسة لوجود قائد هاشمي على رأس جيش يحارب علويّاً كبيراً وفي المدينة •

على أن موقف محمد في المدينة لم يكن بالقوي ، في غير عطف الناس • فلا أخوه ثار في البصرة لتتوزع قوة المنصور بينهما • ولا الحجاز بالبلد الغني فيكفي فيه أصحابه • إذ لا مال فيه ولا سلاح ولا رجال ولا كراع • كما قيل وقتئذ له^(٢) وقد قطع الخليفة الميرة من الشام ومن مصر عنهم • وحفر محمد خندقاً حول المدينة (اقتداء بالرسول) فكان ذلك خطأ في الاستراتيجية العسكرية لأنه أتم بذلك حصارها الاقتصادي •

(١) الطبري ج ٧ ص ٥٦٥ (٣/٢٠٦-٢٠٧)

(٢) - قيل لمحمد ان يخرج لمصر فرفض وقيل له : ألسنت تعلم انك في اقل بلاد الله فرساً وطعاماً وسلاحاً واضعفها رجالاً • ألسنت تعلم انك تقاتل أشد بلاد الله رجالاً واكثرها مالا وسلاحاً ؟

وخطب في أصحابه يخيرهم بين المقام معه أو الانصراف - وكانوا على تقدير الطبري - مائة الف فتسللوا حتى بقي في شردمة ليست بالكثرة أغلبها من جهينة وبني شجاع وكاتب عيسى بن موسى بعضهم فتخلوا عنه . وهكذا تجسعت الاسباب لإحباط امر محمد الثائر . وبينما كان بنو غفار ذوي الميول العباسية يسهلون دخول الخراسانية الى المدينة . قامت احدى العباسيات بخدعة لجند محمد^(١) فانهمزوا عنه في المعركة حتى قتل (١٤ رمضان ١٤٥/٦ كانون الاول ٧٦٢) وحوّل رأسه الى أبي جعفر في العراق ليطوفه في أسواق الأقاليم ..

وإذا كانت للهزيمة ذيولها في الأوساط العلوية نقصة ويأساً فقد كان لها في المدينة ذيول من نوع آخر غريب . لقد ثارت فيها الطبقات الدنيا من العبيد لا من أجل المعاش ولكن حمية لأسيادهم المهانين ... ذلك أن المدينة وقعت إثر الهزيمة فريسة الاضطراب والفوضى . وزاد في آلامها صفوف الإذلال التي تعرضت لها من مصادرة املالك الثائرين وتعسف السلطة وسوء تصرف الجند الخراساني . وقد تأثرت طبقات الفقراء والعبيد بالإضافة الى التجار بالحصار أولاً ثم بسا أعقبه من نهب ومصادرة وعدوان على الناس والأموال . ثم وصل والي المدينة الجديد عبد الله ابن الربيع الحارثي في شوال سنة ١٤٥/ كانون الثاني سنة ٧٣٦ فلم يفعل شيئاً لإيقاف جنده عند حدهم مما ملأ الناس تدمراً . فانفجرت الاضطرابات^(٢) في الأسواق من قبل العبيد السودان خاصة والموالي الذين ثاروا (في ٢٣ ذي

(١) دست الى المئذنة من صاح فيها بهزيمة محمد العلوي فتفرق

بقية المقاتلين عنه .

(٢) نجد تفاصيل الثورة في الطبري خاصة ج ٧ ص ٦٠٩-٦١٤

(٢٦٦/٣ - ٢٧١)

الحجة سنة ١٤٥هـ الأسيادهم العرب — وربما بتحريض منهم — فقتلوا عددا من
من الجند ونهبوا دارين كانا مخزينين لطعام الجند وفي هذا دليل على أن
قلة المؤن وتهديد المجاعة كانا من محرضات هؤلاء الفقراء على الثورة .
وقد تجمعوا بسرعة بعضهم الى بعض حين نفخوا في الابواق وتزعمهم
زعماء منهم (وثيق ، يعقل الجزار ، رمقه ، مسعر ، أبو النار ، عنقود ،
أبو قيس) وأخرجوا المساجين من السجون بينما هرب والي المدينة الى
ظاهرها وهم يطاردونه ... كانت آلامهم الاقتصادية والاجتماعية قد
أزدوجت مع آلام المدينة وأهلها فثاروا .

وشعر كبار أهل المدينة بالخطر فالزمهم أفلت منهم لأن السودان
« لا نظام لهم بدعوة وإنما أخرجتهم الحمية » وخافوا النكال من أبي جعفر
و « اصطلاح البلد وأهله » فتزعم التهدة جماعة منهم الاصبع بن سفيان
والحكم بن عبد الله والقاضي محمد بن أبي سبرة الذي كان في السجن
لميوله العلوية فأخرجه السودان في الحديد فصار يصلي بالناس ...
فعادوا بهم الى المسجد ، ثم ذهبوا الى والي الهارب فأعادوه ... وانتهت
الثورة بقطع أيدي أربعة من زعماء السودان المتمردين .

بالثورة السابقة لثورة ابراهيم بن عبد الله المحض (التي انتهت
بالخلاص من العلويين) : وقد ثار ابراهيم في البصرة في مطلع رمضان
سنة ١٤٥ أي بعد شهرين من اعلان أخيه محمد الثورة في المدينة لكن لم ينتفع
الأخوان من تواقث الثورتين لأن ابراهيم إنما خرج قبل أسبوعين فقط
من مقتل أخيه ومع أن البصرة لم تكن دار ثورة لمثله بسبب مركزها
الاقتصادي وموقعها في أقصى جنوب العراق وتنوع السكان والأهواء
فيها ، وإيمان غالب أهلها « بالكف » « وعدم القتال » ورفض كل سلطة ،
إلا إنها وقفت بجانب ابراهيم بسبب رفضها للعباسيين لا بسبب التشيع

لآل علي. وغلب الرجل على المدينة واستطاع أن يصرف بالحسنى والى البصرة العباسي (سفيا بن معاوية المهلبى) ويحتل دار الامارة ويتسلم بيت المال فيوزع ما فيه على أصحابه والطبقات الفقيرة المضطهدة التي كانت عدة لكل ثائر ٥٥ درهما للفرد. وكان في ديوانه للجند ٤ آلاف بصري وشدا زرة الفقهاء والمعتزلة والزيدية وأيده الامام ابو حنيفة وسفيان الثوري وبايعه الناس بعد مصرع أخيه ، وانتشر امره فيما بين البصرة الى واسط حيث كان يكثر الزط والزنج والقبط الفلاحون والمحرومون. لكن الصدفة لعبت دورها في انقاذ الخليفة ابي جعفر : ذلك انه لم يكن لديه في موقفه الحرج أكثر من النفي رجل فكتب الى عيسى بن موسى ان يترك المدينة ويرجع بالرجال لقتال ابراهيم واستطاع - (وهو في جوار الكوفة - أن يأخذ هذه المدينة بالشدة والإرهاب قبل أن يصل إليها ابراهيم ففرض فيها الاحكام العرفية . ونظم الجند في ثلاث كتائب تقوم بأعمال الدورية في المدينة وتتناوب الدخول إليها وتوقد النيران الكثيرة في الليل بالمعسكر للإيهام .

ومنع الدخول والخروج من الكوفة وأخذ تعهداً من بعض رجالها بالسكينة . وفي الوقت نفسه أرسل أبو جعفر فاحتل الأهواز بواسطة خازم بن خزيمة وطرد والى ابراهيم عليها . وأتى من الري بسلم بن قتيبة الباهلي وجنوده لاستمالة بني باهلة في البصرة .

كل ذلك و ابراهيم ، بالمقابل متردد بطيء التحرك لا يسجيز لنفسه السير الى الهاشمية ومهاجمة أبي جعفر الذي كان في الواقع تهىء نفسه للهرب واللاحاق بابنه في الري ولا مباغته الكوفة لتلا تقع مجزرة يذهب فيها الابرياء وفضل مواقعه الجيش العباسي نفسه وجهاً لوجه . وقد كان ذلك ، اذ سرعان ما جاء الخبر أن ثورة المدينة قد أخمدت . وعاد عيسى المنتصر في ١٥ ألفاً فلقى ابراهيم سائراً نحو الكوفة في حوالي

عشرة آلاف • وكانت المعركة في باخمري (جنوب الكوفة) وهزم ابراهيم
وقتل (٢٤) ذي القعدة سنة ١٤٥/١٣ شباط سنة ٤٦٣) بعد سبعين يوماً
من مصرع أخيه • وحين وصل رأسه الى أبي جعفر تنفس الصعداء وقال :
وألقت عصاها واستقرت بها النوى كما قر عيناً بالاياب المسافر

أما قلق أبي جعفر وخرج مصيره في تلك الأيام العصيبة فلعله
يصورها ما رواه الطبري عن «السندي» وصيف أبي جعفر القائم بالمذبة
على رأسه قال : «... لما كشف أمر ابراهيم وغلظ أقام (أبو جعفر) على
مصلى نيفاً وخمسين ليلة ينام عليه ويجلس عليه وعليه جبة ملونة قد
اتسخ جيبها وما تحت لحيته منها • فما غير الجبة ولا هجر المصلى حتى
فتح الله عليه ^(١)...» •

وعلى أثر هذه الانتصارات على العلويين اتخذ أبو جعفر لنفسه
لقب المنصور : بما يحمل اللقب من مفهوم ديني واسطوري تنبؤي •

٣ - مشكلة الخوارج :

تلك الخلافات التي جرت خلافاً بين اقرباء وابناء عمومة واخوة،
على أمر مقرر فيما بينهم انه لهم • ولكن تلك الفرقة المسلمة (الخوارج)
التي ترى ان الخلافة حق لكل مسلم ، كانت ما تزال منبثة بين المسلمين •
ولم يكن رأيها في البيت الحاكم الجديد ليختلف عن رأيها في البيت
البائد : فكلهم لا يصلح للخلافة ، ولم يختار اختياراً حراً صريحاً ولم
يستوف الشروط التي يجب توفرها في الإمام وكلهم يجب الخروج عليه
ومقاتلته ، وعزله ان امكن وقتله •

(١) الطبري ج ٧ ص ٦٣٩ (٣/٣٠٦)

على أن المجموعة الخارجية كانت منذ أواخر العهد الأموي قد
اختلفت عن عهدها الاول قبل قرن في ثلاثة أمور :

أ - كانت كتلة الخوارج من العرب وخاصة البداة فانضاف إليهم
قبيل العهد العباسي بعض الايرانيين في فارس وكرمان وسجستان
وخراسان وأعداد هائلة واسعة من البربر في افريقية والمغرب .

ب - كانت قضيتهم سياسية فقط فأصبحت سياسية اجتماعية .
وكانوا يشورون لمشكلة الحكم فصار العدل الاجتماعي ورفض الظلم
والدفاع عن الضعفاء من عقائدهم المحركة .

ج - وكانت المواقع الجغرافية التي يتركزون فيها ، في العهد
الأموي هي الاقاليم المركزية ما بين الجزيرة والعراق حتى الاهواز
وفارس ثم تحولوا منذ أواخر ذلك العهد الى أقاليم أكثر بعداً عن المركز:
الى اذربيجان وسجستان وخراسان وكرمان وعمان واليمن وخاصة
الى افريقية . كانت الضربات المتلاحقة نوعاً من القوة النابذة جعلتهم
يلجأون إلى المناطق البعيدة عن المتناول القريب للسلطة دون أن يتخلوا
بالطبع عن مراكزهم الأولى .

وبالرغم من أن قوة الخوارج كانت قد خضدت منذ العصر الأموي
الأخير فإن مجيء العباسيين لم يغير موقفهم من الثورة وقد حاربوا بني
العباس في صلابة وجلد لا يقلان عما كان منهم في عهد بني أمية . ولم
يكن قد مضى على أبي العباس في العرش سنة واحدة حين تحرك عليه
الخوارج :

١ - في الجزيرة :

تحرك بريكة بن حميد الشيباني مع قبائل ربيعة ، في الجزيرة ،
وهذه القبائل وتلك المنطقة كانت دوماً بؤرة الحركة الخارجية . وقد

انضم الى الثائرين بعض الأمراء الامويين مثل محمد بن سعيد بن عبد العزيز • وامتدت الثورة بين دارا وماردين فوجه أبو جعفر - وكان والي الجزيرة - إليهم مقاتلا العكي فدحر بريكة أولاً فلما تحصن في جبل دارا حاصره حتى لقيه مصرعه •

٢ - في اندريجان :

وثار مسافر بن كثير الشيباني أيضاً في اندريجان وأرمينية ويعرف بمسافر القصاب^(١) • وكان الضحاك بن قيس قد عينه عاملاً على هذين الاقليمين قبل أن يقتل سنة ١٢٨ وتبعه هناك جماعة كثيرة واستولى على عدد من المواقع (اردليل ، البيلقان ، قلعة الكلاب •••) فتولى أبو جعفر ، في ولايته للجزيرة وأرمينية ، أمر قتاله وأرسل اليه بأمر أبي العباس القائد محمد بن صول ، الذي تمكن من هزيمته وقتله • وفر أتباعه إلى مناطق سجستان •

٣ - في عمان :

وتحرك خوارج عمان الاباضية^(٢) وعلى رأسهم الجلندي بن مسعود الأزدي ، الذي أعطى الإمامة وأعلن استقلال منطقته في عاصمته (نزوة) كما تحرك الخوارج الصفرية بزعامة شيبان بن عبد العزيز الشكري ، في جزيرة ابن كاوان (في الخليج) الذي أعلن أصحابه اختياره

(١) البلاذري فتوح البلدان (تحقيق المنجد) ج ١ ص ٢٤٦

(٢) - هم من الاباضية اتباع عبد الله بن إياض وقد توفي زمن عبد الملك وما تزال بقاياهم الى اليوم في زنجبار وحضرموت والمغرب وأما شيبان الشكري هذا فكان من اتباع الضحاك بن قيس الذي ثار في عهد مروان بن محمد سنة ١٢٧ ثم قتل سنة ١٢٨ وهرب بعض أتباعه وفيهم شيبان الى عمان .

للإمامة أيضاً • فأرسل أبو العباس أحسن قواده خازم بن خزيمة التميمي سنة ١٣٥ في جيش حمله البحر الى جزيرة ابن كاوان أولاً • ولكن شيبان انهزم أمامه وركب البحر مع أصحابه هارين الى ساحل عمان لكن الجلندي تلقاهم هناك بالعداء ونصب لهم كمينا فيما يظهر فاتهى الأمر بعد القتال الشديد بمصرع شيبان وأصحابه •••

ووصل خازم بن خزيمة بعد ذلك فنزل الساحل ، عند بقعة صحراوية منه فخرج لهم الجلندي على شاطئ البحر ورفض اعلان الولاء للعباسيين وقتلهم ثلاثة أيام كانت الحرب فيها سجالات بين الطرفين حتى أشار بعض أصحاب خازم (١) عليه أن يأمر جنوده فيجعلوا المشاققة على أطراف الأسنة ويرووها بالنفط ويشعلوا فيها النار ليضرموا بها بيوت الخوارج الخشبية • فلما اشتغل الجلندي وأصحابه بعيالهم وبالحرير ، تمكن خازم من وضع السيف فيهم فقتل عشرة آلاف منهم حملت رؤوسهم ، عن طريق البصرة ، الى السفاح •

على أن معركة (جفار) هذه وإن أنهت التمرد الخارجي في عمان إلا أنها لم تنه الوجود الخارجي فيها ولا ألغت الإمامة فقد ظل الإباضية هناك على مذهبهم وعلى اختيار إمام منهم فيما بعد • وقبل الولاة العباسيون ذلك وأول وال عباسي على عمان هو الذي دشن سياسة المرونة والاعتراف بالإباضية ونفوذهم في عمان ، فبقوا سادة المنطقة • ولا شك أن السبب الاساسي في ذلك إنما يعود إلى أن طريق التجارة العالمي بين البصرة والهند كان يمر بجزءاً بخليج عمان وكان العمانيون

(١) راجع في تفاصيل ابن الاثير ج ٥ ص ٤٥١-٤٥٢ والطبري ٤٦٢-

يحارة ممتازين لا بد من ضمان الهدوء في بحرهم لتستقر التجارة
ويأمن الطريق •

٤ - وما طال العهد بأبي العباس ليرى الثورة الخارجية التي
قامت في الجزيرة سنة ١٣٧ بعد سنة من ولاية أخيه ، يقودها ملبّد بن
حرملة الشيباني^(١) الذي فرض نفوذه ما بين أذربيجان وأرمينية الى
تكريت واحتل الموصل وقتل الحاميات العباسية الكثيرة • ولم يستطع
قائد المنصور يزيد بن حاتم المهلبى ، أن يمثل دور عمه المهلب بن أبي
صفرة فانهزم ، وانهزم من بعده قواد آخرون عديدون ، حتى وصل
خازم بن خزيمة في ٨ آلاف مقاتل ولحق بالثائر الخارجي الى ما وراء
الموصل في الشمال ، فانتصر وقتل ملبّد في مذبحة لم تكن أقل شأنًا
من وقعة الجلندي ولا مواقع الامويين الاولى •

٥ - وتحركت الصفارية في أرمينية مرة أخرى ، فوجه المنصور
قائده الحسن بن قحطبة عاملاً عليها • واضطر الحسن أمام قوة
الخوارج لطلب المدد من الخليفة • وانتهى بأن انتصر عليهم بعد أن
قتل - على رواية اليعقوبي - في يوم واحد ستة عشر ألف إنسان •
ثم انصرف الى تفليس ، فقتل من كان معه من الأسرى أيضاً •

٦ - وقد قامت عدا هذا وذاك ثورات أخرى للخوارج في
الموصل خاصة ولكن بأعداد تافهة من مائة أو مائتين (كثورة عطية بن
بعثر التغلبي وثورة حسان بن مجاهد الوادعي سنة ١٤٨/٧٦٥)
ولكنها كانت تمردات ناقمة صغيرة ذات طابع بدوي تجتمع حول
قائد ناظم حتى إذا قتل تفرقت •

(١) تفاصيل ثورة الملبّد لدى الطبري ج ٧ ص ٤٩٥-٤٩٦ ثم
ص ٤٩٨ - ٤٩٩

٧ - وثار خوارج اليمن على أبي جعفر سنة ١٤٠ وكانوا بقية تلك الجماعة التي قادها قبل عشر سنوات أبو حمزة الخارجي حتى المدينة . وقد سلط عليهم أبو جعفر سنة ١٤١ أحد قادته الاشداء : معن بن زائدة الشيباني وهو من ربيعة مع تعليمات بأخذ الناس بالشدّة فبقي هناك سنوات قتل فيها الكثيرين حتى أحفظ اليمانيين ضده . وحين عين أبو جعفر على البحرين واليمامة عقبة بن مسلم الأزدي اليماني أوقع المجازر الرهيبة بقبائل ربيعة فيها ثأراً لليمانيين . وإذا رضي المنصور عن عمل الاثني فأنما كان ذلك لخطّة سياسة اختطها في الخلاص من خوارج اليمن من جهة وتفجير التحالف التقليدي بين اليمن وربيعة من جهة أخرى وإثارة العصبية القبلية والثأر بينهما لئلا يتفق الطرفان عليه . ونجح المنصور بينما دفع الربيعي واليماني ثمن أعمالهما فقتل معن في سجستان من قبل بعض اليمانية كما اغتيل عقبة اليماني في بغداد .

٨ - في سجستان : وتحرك الخوارج في أواخر عهد المنصور في أصقاع ايران الجنوبية في كرمان وفارس وخاصة في سجستان حيث كسبت هذه الحركات ، في الواقع ، بعض العطف من الموالي الايرانيين الذين وجدوا فيها تعبيراً عن نقيمتهم المكبوتة ضد الحكم العباسي . وقد كانت أخطر تلك الثورات الخارجية وأهمها وأطولها عمراً تلك التي عرفتها منطقة سجستان^(١) .

فهذه المنطقة الداخلية التي تمتد جغرافياً ما بين حوض السند وخراسان كانت قد دخلت في إطار الفتح الإسلامي منذ عهد عثمان .

(١) يدخل قسم منها في غرب افغانستان الحالية وقسم في ايران .

وعاهدت • وترك لها الحكم العربي أميرها الذي يبدو أنه كان يلقب
رتبيل وترك لها دياناتها • وكانت مناطقها الغربية زارادشتية أما في
الشرق الجبلي فيبدو أنها كانت بوذية ولها معابدها وفيها أصنام من
ذهب أعينها من ياقوت^(١) أما عاصمة الامراء فكانت بلدة زرنج في
الاحواض الواطئة وكان الحجاج قد صالح هؤلاء الامراء على أن
يدفعوا كل سنة ألف درهم^(٢) عروضا لا مالا • ثم انقطعت هذه
الإتاوة منذ عهد يزيد بن عبد الملك فلم يعد رتبيل سجستان يعطي أحداً
من عمال بني أمية شيئاً ••

وفي أثناء ذلك كانت بعض الجماعات العربية قد توطنت في المنطقة
وكان قسم واضح منها هو من تلك الجماعات الثورية المهزومة في
العراق والجزيرة كما كان بعضهم من أهل الشام • وإذا هرب ابن
الأسعث الى سجستان وانتحر هناك فإن الجماعات الخارجية وجدت
فيها مهرباً بعيداً أميناً واستطاعت أن تشكل فيها بؤرة واسعة ما لبثت
أن أضحت ناشطة ديناميكية خطيرة • ويروى « أن أول من دعا
أهل سجستان (يعني العرب المستوطنين فيها) الى رأي الخوارج
رجل من بني تميم يقال له عاصم أو ابن عاصم » ويبدو أن التوطن
العربي كان في المناطق الغربية المنبسطة أكثر منه في المناطق الشرقية

(١) يذكر البلاذري ان الفاتحين كسروا صنما من هذا النوع (فتوح
البلدان ج ٢ ص ٤٨٦)

(٢) البلاذري (فتوح ص ٤٩٣) يرد لديه هذا الرقم الذي يبدو أنه
يمثل الإتاوة الشخصية المفروضة على الملك وحده لا على المنطقة كلها ،
فخراجها تجاوز أرقاما من مثلثات الألوف (انظر البلاذري ص ٤٩١ ، وانظر
ابن حوقل ص ٣٥٧ ، وانظر اليعقوبي ص ٢٨٦)

الشمالية الجبلية الوعرة ، كما يبدو أن السكان الاصليين هم من تلك المناطق وهم زارادشتيون لم يقبلوا إلا الاقبال القليل على الاسلام مثلهم كمثل أهل خراسان وايران ولكنهم أكثر من هذا لم يبدو أي اهتمام بالمشاغل السياسية التي كانت تشغل رؤوس الخوارج . ولهذا فقد كانوا - فيما عدا من يدخل الاسلام منهم على أيدي الخوارج وعلى المذهب نفسه - خارج نطاق تلك المعركة التي كان هؤلاء يقودونها منذ العصر الاموي واستمروا عليها في العصر العباسي . ظلت الحركة الخارجية مذهباً غريباً لجماعة غرباء . ولكن أهل سجستان وأميرها كانوا ينظرون بعين الرضى دون شك الى تلك الملاحم والمعارك التي كانت تقوم بين هؤلاء الغرباء وبين خلفاء دولتهم . أو كانوا يتعاونون بالفعل مع تلك الثورات لأنها على الاقل تنتقم للظلم والتعسف الخراجي الذي كان الناس غالباً ما يلقونه من عمال الدولة وتعطيهم الفرصة للتعبير عملياً عن تدميرهم من الحكم الغريب وأصحابه .

ويبدو أن الثورات العديدة في خراسان ثم ما كان على أيدي المنصور من الثورات الاخرى قد سمح لسجستان أن تتابع علاقاتها العادية مع الخلافة العباسية الناشئة دون أن تدفع لها الإتاوة « فلم يدفع رتبيل لعمال أبي مسلم » يوم كان صاحب خراسان أي شيء^(١) بالرغم من أنه بعث إليهم ثلاثة عمال واحداً بعد الآخر قبل أن يقتل : بعث مالك بن الهيثم من أهل خراسان الذي طلب من سجستان إخراج من فيها من أهل الشام وأذن من يحميهم بالحرب ويبدو أنه أخرج جماعة من القيسية قبل أن يفتديهم الناس منه بألف درهم ثم أخرجوه

(١) البلاذري - فتوح ص ٤٩٣

من البلد فبعث أبو مسلم عمر بن العباس من أحفاد حاجب بن زرارة فلما قتلوا أخاه حاربهم وحاربوه حتى جاء بدلا عنه أبو النجم عمران ابن اسماعيل •

وكذلك لم يدفع أمير سجستان شيئا من بعد لأبي جعفر المنصور الذي شغل عنه بما كان على يديه من المشاكل الثورية الى سنة ١٤٥ • فلما استقرت له الامور بعد ذلك اتجه الى فرض نفوذه الفعلي في سجستان وعين لها ابراهيم بن حميد المروزي الذي كان من الطبيعي أن يأخذ الناس بالخراج وأن يطالب رتبيل سجستان الذي كان انحاز الى المناطق الشرقية الجبلية بالإتاوة السنوية^(١) •

ويظهر أن عودة النفوذ للحكم العباسي كانت ثقيلة سواء على السكان الاصليين والأمير من جهة أو على الجالية العربية ومعظمها قد أشرب الفكر الخارجي فتمخض ذلك عن ثورة خارجية انفجرت سنة ١٥٠ ولم يستطع ولي العهد المهدي أن يقوم حيالها بشيء كثير وطلب النجادات من أييه • فقد استدعى المنصور على الفور واليه على اليمن : معن بن زائدة الشيباني • الذي كان قد برهن^(٢) بعنفه الدموي هناك — تسع سنوات — عن سيرة تشبه سيرة الحجاج في الفتك وإقرار النظام •

وتسمية معن لولاية سجستان وهو المعروف بتعصبه القيسي ضد اليمن يدل على أن الجماهرة الواسعة من عرب سجستان كانت يمنية

(١) خليفة بن خياط — تاريخ ج ٢ ص ٤٣٩ ونجد تفصيل الخبر لدى اليعقوبي — البلدان ص ٢٨٥
(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٧٢

كما يدل على محاولة تألف من بها من الخوارج القيسية الشيبانيين وقد رماهم المنصور بسعن رغم كبر سنه « فقدم سجستان وانصرف المهدي وأقام معن وبعث عماله عليها يجبون الخراج سنة ١٥١ • وكتب — كما يقول البلاذري — إلى رتبيل يأمره بحمل الإتاوة التي كان الحجاج صالح عليها • فبعث يابل وقباب تركية ورقيق • وزاد من قيمة ذلك للواحد ضعفه فغضب معن^(١) «...» وقام للحرب ولعلب الطلب نفسه لم يكن أكثر من وسيلة لشن الحرب على امير سجستان الذي أعان أو تعاون مع الخوارج دون الدولة ولم يكن لغضب معن سوى هذا التفسير لأنه أعقبه بقصد منطقة الرخج (في الشرق) وعلى مقدمته يزيد ابن مزيد (ابن أخيه) فوجد رتبيل قد خرج منها ومضى الى ذابليستان ليضيف بها • ففتحها وأصاب سبايا كثيرة «...» « وكانت عدة من سبي وأسرى زهاء ثلاثين ألفاً » و « وطلب ماوند خليفة رتبيل الأمان على انه يحمله (معن) الى أمير المؤمنين فامنه وبعث به الى بغداد مع خمسة آلاف من مقاتلتهم فأكرمه المنصور وفرض له وقوده^(٢) «...» « بينما » أقام معن لقتال من هناك من الخوارج حتى قتل منهم خلقاً عظيماً وافناهم^(٣) » وخاف معن « شتاء الجبال وهجومه فعاد الى بست » من البطاح الواطئة حيث بنى لنفسه منزلاً ولكن « قوماً من الخوارج أنكروا سيرته ولما رأوا أنهم لا قوة لهم بمحاربته استعملوا الحيلة فاندسوا

(١) البلاذري : فتوح ٤٩٣ — ٢٩٤ واليعقوبي ج ٢ ص ٣٨٤

(٢) البلاذري فتوح ص ٤٩٤ وقد أسر في هذه الواقعة رجل اسمه زياد الرخجي سيكون لابنه الذي أسر معه مكانته في البلاط العباسي وهو فرج الرخجي ، وقد روى فرج نفسه بعض مشاهد تلك الواقعة الرهيبة .

(٣) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٨٤ وانظر كذلك اليعقوبي في كتاب البلدان

مع فعلة كانوا ينون المنزل وأخفوا سيوفهم في حزم القصب وتربصوا
أياما حتى دخلوا عليه وهو يتحمم في قبه ففتكوا به ^(١)» .

ويتنازع دعوى الفتكة هذه ثلاث هجمات : فالمؤلف المجهول صاحب
تاريخ سجستان يعزو مقتل معن الى ظلمه وطغيانه الاداري والمالي فأهل
سجستان هم الذين دبروا اغتياله . والمؤرخون اليمانيون كالخزرجي
يجعلون ذلك ثارا قبليا يمينا قام به اثنان من الحضارمة انتقاماً لأهلهم
الذين قتلهم معن في اليمن فلحقوه بالثار الى سجستان . وباقي المؤرخين
ومنهم البلاذري واليعقوبي والطبري ^(٢) ، وهم أقرب المؤرخين لذلك
العهد يجعلونها مؤامرة خارجية . وبالرغم من أن الظلم الإرهابي والمالي
قد يكون من بعض أسبابها ومن أن الذين نفذوها قد يكونون من
اليمن إلا أنها كانت على الأرجح من عمل الخوارج بدليل أن يزيد بن
مزيد الذي تسلم الولاية إثر مقتل عمه « تجرد (لهم) فقتل من الخوارج
خلقا عظيماً حتى جرت دماؤهم كالنهر . . . » ^(٣) كما قتل أصحاب المؤامرة
ومنهم « أبو الغلام الطائي ^(٤) فلم ينج منهم أحد . . . »

واشتدت وطأة (يزيد) على العرب والعجم من أهل سجستان . . .
فاحتال بعض العرب فكتب على لسانه كتابا الى المنصور يخبره أن كتب
المهدي قد حيرته وأدهشته ويسأله أن يعفيه من معاملته (أي من التبعية
له) فأغضب ذلك المنصور « كما أغضب المهدي فعزله وأمر بحبسه وبيع

(١) البلاذري - فتوح ص ٤٩٤ - واليعقوبي ج ٢ ص ٣٨٤

(٢) انظر الطبري ج ٨ واليعقوب - ج ٢ ص ٣٨٤ والبلاذري

فتوح ص ٤٩٤ . وانظر الخزرجي مخطوط الكفاية والاعلام . وتاريخ
سجستان (ط . طهران ١٣١٤) .

(٤) البلاذري ص ٤٩٤

كل شيء من زرنج . ثم إن كلم فيه فأشخص الى بغداد فلم يزل بها
مجفواً ...» (١) .

غير أن الخوارج لم يرضهم أن يخرج يزيد سالماً معافى عن أيديهم
فلحقوه بمؤامرة اغتيال أخرى كانت الأولى والاخيرة من نوعها يقوم بها
الخوارج في قلب بغداد على الجسر ويظهر أنهم كانوا جماعة كبيرة حين
قاموا بها ... يقول اليعقوبي إن يزيد « كان يركب في موكب ضخم
من موالي عمه وعشيرته فلم يظفروا له بغرة حتى صار على الجسر
ببغداد فشدوا عليه فترجل فقتل منهم خلقاً عظيماً وضربوه ضربات
باليوف وكانت وقعة جليلة ... فلا يعلم أن الخوارج دخلت قط بغداد
ظاهراً فقتلت أحداً الا ذلك اليوم ... » ولكن يزيد نجا من القتل وخرج
من المعركة ببعض الجراح التي « حركت أمره قليلاً » - كما يقول
البلاذري - لدى بلاط بغداد ...

أما خوارج سجستان فقد كان نجاحهم في قتل معن وإبعاد يزيد
من العوامل التي شجعتهم على متابعة الحركة الثورية متابعة فعالة .
وإذا كانت سجستان قد عرفت بعد ذلك زعيماً خارجياً اسمه عامر
الشييباني الخارجي ثار مع ألف من أتباعه ثم قتل قبل مضي سنة علي
ثورته . فإن التحرك الخارجي هناك سوف يشهد في زمن المهدي والرشد
نشاطاً خطيراً واسعاً وإذا كان عامر الشييباني ، من العرب فسوف يكون
الزعماء الخوارج المقبلون في سجستان من الموالي كيوسف البرم مولى
ثقيف والحسين مولى ثعلبة وحمزة بن أترك فكأنما ظهرت بهؤلاء تأييدت
المرحلة الثانية للحركة الخارجية التي انتقلت في العهد العباسي من

الاحتكار العربي والشكل البدوي الى النطاق الاسلامي الأوسع وإلى أيدي الموالي سواء في المشرق الاسلامي أو في افريقيا والمغرب •

ولما كانت ثورات الخوارج لمبدأ يعتبرونه من الفروض الدينية فانه لم يكن لمصارعهم المتكررة الا تأثير محدود على انتشار الفكرة الخارجية وعلى معاودة الثورة • وهكذا نجدهم يعاودون الخروج كالعادة دون ملل • ولكن مصارعهم وفشلهم المتكرر وقلة انصارهم كل ذلك دفعهم بعيدا عن مركز الحكم لعلهم يأمنون اليد القوية للسلطة • وإذا كانت ايران أو عمان أو اليمن أو حتى سجستان ماتزال قريبة الموقع من العراق فقد كان من حسن الاختيار والتفكير بالنسبة اليهم إنشاء مراكز لهم وقواعد في أفريقية القصية • وهناك في الواقع قامت أقسى الثورات وأطولها عمراً •

٩ - خوارج افريقية والمغرب (الصفريه والاباضية) :

كانت منطقة افريقية والمغرب قد ظهرت فيها ومنذ العهد الاموي أسرة حاكمة وراثية محلية لحساب الامويين هي أسرة حبيب الفهري • وكان الوالي الاموي أيام انتصار العباسيين في المشرق هو عبد الرحمن ابن حبيب الفهري الذي استقل بالامر في بلاده دون الاعتراف بخليفة العراق • وكانت الدعوة الخارجية منتشرة متفشية بين البربر خاصة في تلك البلاد ، منذ مطلع القرن الثاني الهجري ، وتجد القبول لديهم بسبب ما يجدون فيها من التسوية مع العرب من جهة ومن التعبير العملي الثوري عن استيائهم ورفضهم للظلم ولحكام المركز والمشرق من جهة آخر •

وقد وجد الفكر الخارجي هناك ، خلال العهد الاموي الاخير ، تربته الخصبة فاستغلها وانتشر الانتشار الواسع فلما كان الانقلاب

العباسي اغتتم الخوارج الفرصة فوسعوا من قواعدهم هناك وبرز منهم خاصة مجموعتان :

(١) الصفرية (أتباع زياد بن الأصفر وكانوا لا يكفرون العقدة) وقد انتشرت أفكارهم في الاقاليم الغربية من افريقيا (الجزائر الحالية) والمغرب وتزعمهم أبو قرّة المغيلي اليفرني الذي أعلن نفسه إماماً في تلمسان سنة ١٣٩ - ٧٥٧ - ٨

(٢) الاباضية وقد استمالوا الناس في المنطقة الممتدة ما بين طرابلس وتونس . وانتخبوا سنة ١٣٩ أيضاً أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري إماماً آخر . وقد سبقت الصفرية الاباضية في الانتشار هناك كما كانت أكثر اتساعاً في المناطق وقد استطاعت سنة ١٤٠ أن تحتل القيروان وأن تبني في السنة التالية سنة ١٤١ - ١٤٢ مركزاً صفرية جديداً هو مدينة سجلماسة . وبذلك انقطع المغرب - لفترة ما - عن الخلافة في المشرق وخلص للخوارج الذين عرفوا في تلك الفترة عصرهم الذهبي في افريقيا . . . لاسيما وأنهم استغلوا انصراف العباسيين للشرق ومافي الشرق من فتن كما أنهم نالوا تأييد البربر ثم استكملوا أسباب السيطرة على المغرب كله بمقتل حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب الفهري على يد الصفارية سنة ١٤٠ وانقراض الاسرة الفهرية التي كانت تسيطر على ولاية المغرب للامويين ثم لحسابها .

ولكن انقسام الخوارج وتصادم الفرقتين إحداهما مع الاخرى دمر السلطة الخارجية الناشئة فقد سارت الاباضية من طرابلس ضد الصفرية الذين احتلوا القيروان بحجة استنكار ماسفكوا من الدماء وارتكبوا من المعاصي والمنكرات والطغيان . واستطاع أبو الخطاب أن

يهزم الصفريّة عند القيروان ويدخلها (صفر سنة ١٤١) ويعين لها والياً من قبله هو عبد الرحمن بن رستم^(١) الفارس .

وسير الخليفة أبو جعفر : محمداً بن الأشعث الخزاعي والياً على إفريقيا سنة ١٤٣ في خمسين ألفاً . بعد أن كان بعض قواده قد فشل في دخول هذه المنطقة سنة ١٤٢ فلم يكن حظ ابن الأشعث بأحسن منه لكنه استطاع بالخدعة والتظاهر بالانسحاب أن يباغت جيش أبي الخطاب ويسحقه (صفر سنة ١٤٤ / نيسان مايس سنة ٧٦١) « وظن ابن الأشعث أن مادة الخوارج انقطعت وإذا قد أطل عليه منهم أبو هريرة الزناتي في ستة عشر ألفاً فلقبهم ابن الأشعث وقتلهم جميعاً (ربيع الاول سنة ١٤٤) وكتب الى أبي جعفر بظفره وبرأس أبي الخطاب ورتب الولاية في الاعمال وبنى سور القيروان ٠٠٠ » وبلغ من الشدة حداً الامر بقتل كل من يحمل اسماً أموياً ٠٠٠ ولحق ابن الأشعث بالاباضية في المغرب الاوسط وقتل امامهم الجديد (عبد الله بن حيان لكنه لم يشأ أن يتابع الطريق بعد ذلك ليقضي على الدولة الخارجية الصغيرة التي أقامها عبد الرحمن بن رستم في بلدة (تاهرت) ولا على الدويلات الصفريّة في طنجة وتلمسان وفي سجلماسة حيث نصب الصفريّة لحكم الولاية أبا القاسم بن سمعون بن واسول المكناسي . فاستمر بعد فترة اضطراب قليلة على ولايته تلك حتى سنة ١٦٨ جعل من نفسه سداً بينها وبين الخلافة العباسية لكن نجاح ابن الأشعث لم يدم طويلاً فسرعان ما سقط صريع النزاع القبلي بين قيس ويمن داخل جيشه إذ ثار عليه بعض

(١) يراجع في تفصيل هذه الحركات : ابن عذاري - البيان المغرب بيروت ج ١ (لندن) ج ١ ص ٧١-٧٢ وص ٧٨-٨٥ ، ابن خلدون ج ٤ ص ٤٠٩-٤١١ ، وابن الاثير ج ٥ ص ٣١٣-٣٢٠ (حوادث سنة ١٢٦).

الجند المضرية وحاصره وطرده من القيروان سنة ١٤٨/٧٦٥ ٠٠٠

وقد أرسل المنصور بعده الاغلب بن سالم التميمي (جد الاسرة الاغلبية فيما بعد) الذي نجح في الولاية لكنه صرع بدوره في نزاع مع جنده سنة ١٥٠/٧٦٦ قبل أن يكمل الستين ٠٠٠ وقد سمح هذا النزاع للحركة الخارجية أن تظهر من جديد فقد تحرك في هذه المرة الخوارج الصفرية : بقيادة أبي قرّة بن دوناس اليفرّبي الذي نصب للإمامة، ومشت معه قبائل زنّانة أكبر قبائل البربر وأكثرها تشبعا بالمبدأ الخارجي . وتجمع الاباضية وراء امام من أبرز الائمة المحاربين هو أبو حاتم يعقوب ابن حبيب . واضطربت سياسة المنصور تجاه المغرب حتى إنه عين الحسن ابن حبيب الكندي قائد التمرد ضد الاغلب راليا على أفريقية املا في ان يجد لديه الغناء وفي انتظار العثور على قائد في مستوى المسؤولية وقد وجده في أبي جعفر عمر بن حفص العتلي المهلي (من ولد قيصة بن ابي صفرة) وكان يعرف « بهزارمرد » وهو لقب فارسي يعني ألف رجل ٠٠

قدم ابن حفص القيروان في صفر سنة ١٥١ في ظرف كان فيه البناء الاقتصادي في افريقيا والمغرب قد اضطرب نتيجة الاضطراب السياسي والقحط فكثر المجاعات وضروب البؤس والفقر مما جعل تحرك الخوارج عاما . وخرجت جموع البربر من كل فج مرة واحدة فأضحت الحاميات العباسية في أفريقيا أشبه بالجزر المحاصرة ضمن المجموع الثائر ويبدو أن ابن حفص استطاع أول الامر اقرار الهدوء في المنطقة ثلاث سنوات ثم انفجرت الثورة في جميع المغرب وافريقيا : أجمعت كافة القوى الخارجية على التحرك مرة واحدة: أبو قرّة ، وابن رستم ، وأبو حاتم وقرى أخرى عديدة تزيد على اثنتي عشرة يذكر ون

لها أرقاما هائلة من المقاتلة^(١) .

وبينما كان ابن حفص في بلدة طبنة يعمل على إخماد الثورة تجمعت حوله كل القوى وقد استطاع تفريقها عنه بالدسائس والمال ليرجع فيجد عاصمة القيروان محاصرة من قبل أبي حاتم . وقد استمر الحصار ثمانية أشهر حتى وقعت في المجاعة وأكل الناس الدواب والكلاب . وحين سمع ابن حفص أن المنصور بعث نجدة لتخليصه مع يزيد بن حاتم بن قبيصة أنف لموقفه فبادر القتال حتى قتل (١٥ ذي الحجة سنة ١٥٤) . ودخل أبو حاتم القيروان .

أنفق المنصور على جيش يزيد بن حاتم ما يقدر بـ ٦٣ مليون درهم جهز بها ستين ألف مقاتل . وماكاد يزيد يصل الى طرابلس سنة ١٥٥ حتى بادر أبو حاتم الى لقاءه مع الاباضية وهزم طلائع الجيش عند جبل نفوسة ثم التقى الجيشان (ربيع الاول سنة ١٥٥) وبالرغم من استماتة ابي حاتم في الدفاع وتحصنه في المناطق الوعرة الا أنه خسر المعركة وخسر معها حياته . وقتل من جيشه حوالي ثلاثين ألفاً وظل العباسيون يقتلون الخوارج في جبل نفوسة قرابة الشهر . . .

ثم غدا يزيد الى القيروان فدخلها (٢٠ جمادى الآخرة سنة ١٥٥) بينما تراجع الخوارج الاباضية بعد سحق ثورة أخرى قاموا بها في طرابلس الى المغرب الاوسط . . . وتعقبهم يزيد في الجبال ويقولون انه

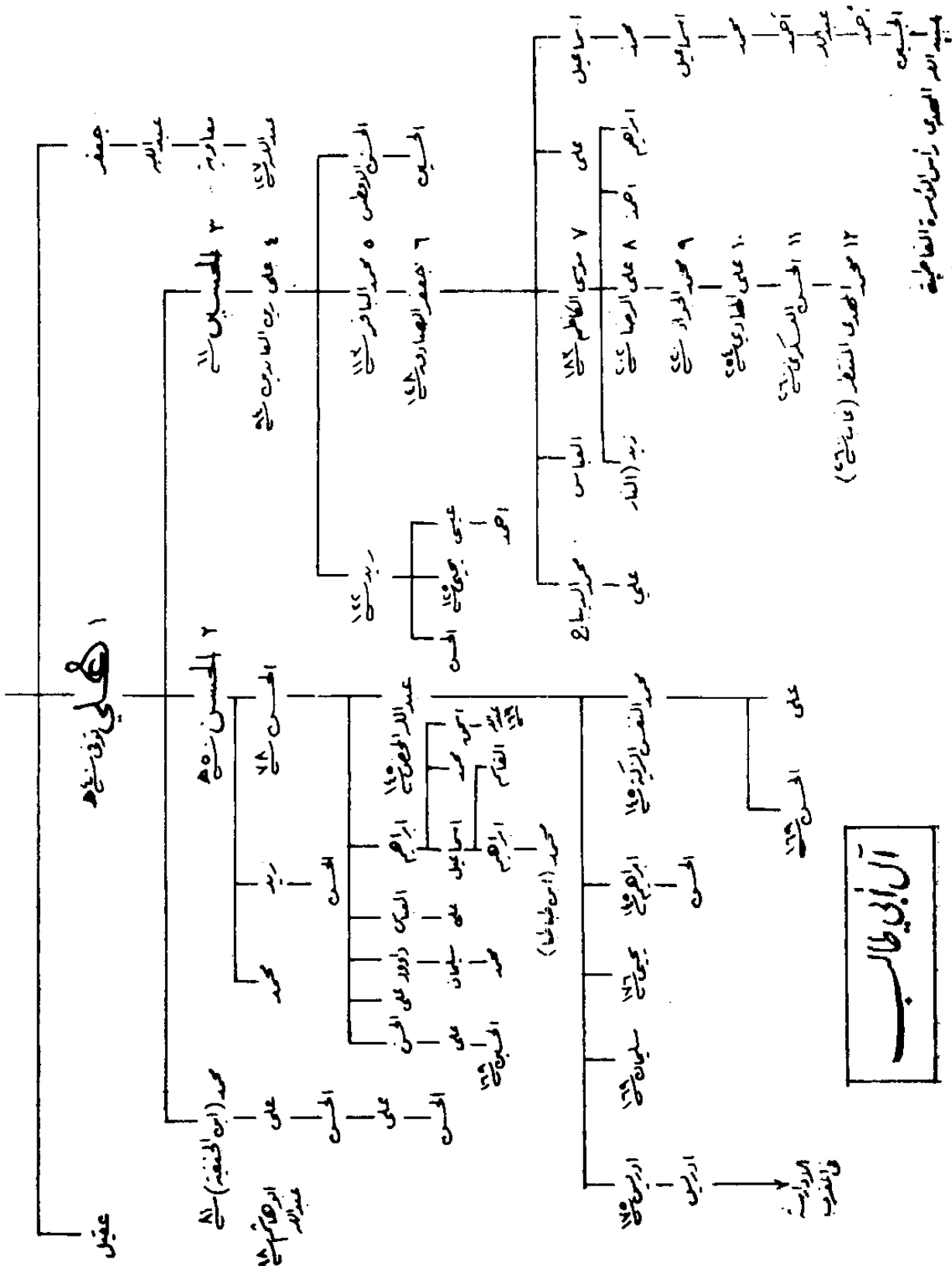
(١) ذكر ابن عذاري (البيان المغرب - ج ١ ص ٩١) ان عدد قوات البربر مجتمعة كانت ٣٥٠ ألفاً و ٤٠ ألفاً مع ابي قرعة عدا ٣٥ ألفاً من الخيل و ١٣٠ ألفاً كانت عدة جيش ابي حاتم . . وهي ارقام مبالغ فيها لا تدل على اكثر من وجود الجموع الكثيرة .

كان بين الخوارج وجند المنصور منذ بدأ عمر بن حفص قتالهم إلى نهاية
أمرهم نحو من ثلاث مائة وخمس وسبعين موقعة

ولكن يزيد استطاع أن يمنح بعد ذلك منطقة افريقيا والمغرب فترة
من الهدوء والاصلاح الداخلي والعمران وتنظيم الحرف والاسواق
والازدهار الاقتصادي لم تشهدها منذ أيام حسان بن النعمان وقد
استمرت حتى وفاته في رمضان سنة ١٧٠ أيام الرشيد .



أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم



آل أبي طالب

الفصل الخامس

توطيد الدولة - ٢

المشاكل الداخلية

لم تكن هذه المشاكل أخطارا كبيرة تستهدف العرش العباسي مباشرة ومن حيث الاساس ، ولكنها كانت انحرافات في مفهوم الحكم والدين تنجست عن الاشخاص الذين تولوا الدعوة العباسية بجهودهم وتأيدهم وعن الاقاليم التي قامت بها الدعوة وما بها من رواسب دينية واجتماعية واقتصادية وعن الطريقة الواسعة المتسامحة التي سلكها الدعاة العباسيون في العمل وفي جمع الانصار وبمعنى آخر ظهرت من ذيول الدعوة العباسية ، وفي أعقاب الثورة ، وبعد نجاحها مشاكل من انواع ثلاثة : بعضها يتعلق بزعماء الدعوة من الايرانيين خاصة ، وبعضها يتعلق بالشعب الايراني ممن تجند معها أملا في تطورات بعيدة ، أو ممن حركته الثورة لا تتظار أو لمحاولة تحقيق تطورات سياسية ودينية واجتماعية ملائمة لآماله فلم يتحقق له ذلك .

ومعظم هذه المشاكل لم يكن هدفه المطالبة بالخلافة ولكنها هددت الامن الداخلي للدولة وكان أصحابها أشخاصا خطرين على شخص الخليفة أو على دين الدولة واستقرارها لاحتركات ذات آراء سياسية مناوئة للسيادة العباسية . وكان من نتائجها توطيد الادارة العباسية

في مختلف الاقاليم ودعم سلطة الخلافة الجديدة واسلاميتها ومركزيتها
وليس إلغاء تيارات سياسية قائمة في المجتمع الاسلامي ضد العرش •

وهذه المشاكل الكثيرة بنوعها إنما نجمت عن أن العباسيين
الاثنيين اللذين تسلموا الثورة جاهزة منتصرة الجيوش في العراق وغيره
ونعني أبا العباس والمنصور أرادوا أن يجعلوا الدولة « عباسية » فقط ،
ولهما فقط ، وفاقا للمفهوم الذي فهما به الدعوة والمبادئ • بينما كانت
الثورة في دعوتها السرية • ثم في حركتها العلنية قد جرفت معها ولملت
أهواء شتى وأعواناً ذوي نوازع مختلفة وأعطت المجال بانتصارها لنمو
كثير من المظالم لدى أعوانها الكبار ولم يكن يعدل غموض شعار
(الرضا من آل محمد) إلا غموض المبادئ التي يدعو الدعاة لها
كالحكم بكتاب الله وسنة نبيه وعدم المحاباة ورفض الجور الاموي ••
الخ • كانوا يهدفون قبل قيام الدولة الى جمع كافة العناصر المعارضة
للحكم الاموي في جهة واحدة وقد نجحوا في ذلك فلما تم لهم النصر
أخذوا يصفون هذه العناصر لمصلحتهم ولأن بعضها قد بدأ يعمل ضدهم
حين تبين له أنه خدع قبل أن ينتصر العباسيون النصر النهائي كانوا في
الواقع قد صفوا عددا من الاعوان الذين عاونوهم في مرحلة من
المراحل : من امثال عبد الله بن معاوية الجعفري ، وشيبان الخارجي
وبها فريد الفارسي ، والكرماني وأولاده • وإذا كان هؤلاء ليسوا من
صلب الثورة ولكن من الروافد التي رافقتها • فإن العباسيين لم يترددوا
في تصفية أكثر أنصارهم أيا كانوا حين ثاروا يريدون فرض المفهوم
« العباسي » الذي كانوا يفهمون واصطدم هذا المفهوم التائر بالخط
العباسي « الرسمي » الذي يرسمه الخليفة الجديد •

١ - ثورات الدعاة :

وإذا كانت الثورات ، كالقسط ، تأكل أولادها فقد كان بين الثائرين والضحايا في الوقت نفسه الثلاثة الكبار الذين قامت على اكتافهم الدولة وكان فيهم عدد من الدعاة العريقين في الدعوة « للرضا من آل محمد » وفي الإخلاص للعباسية من أمثال : جهور العجلي ، عبد الجبار الأزدي ، خالد الذهلي بسام بن ابراهيم ، زياد بن صالح • وكان فيهم من ذلك عدد من الانصار العاديين ، وقد خلق هؤلاء وأولئك على السواء مشاكل داخلية مختلفة منها مثلاً :

١ - منصور بن جمهور : الذي عينه أبو العباس واليا في السنة ١٣٢/ ٧٥٠ مكافأة له على ترك التولي للامويين في العراق والانحياز للعباسيين • فلما عين أبو مسلم للسند واليا آخر هو المفلس العبدى في نوع من عدم الاكتراث بأمر الخليفة لجأ منصور الى العصيان وقتل المفلس ورفض أمر أبي مسلم الذي أرسل عليه موسى بن كعب فقتل على جيشه وألجأه الى الهرب والموت عطشاً في الرمال^(١) •

٢ - شريك بن شيخ المهري^(٢) : ولعله كان من قدماء الدعاة لكنه رفض سياسة العباسيين في الفتك والبطش الدموي وقال : ما على هذا بايعنا آل محمد وقام بثورة علوية في بخارى سنة ١٣٣ • انضمت

(١) انظر خليفة بن خياط - التاريخ ص ٢٣٢ - ، ٢٥١-٢٥٢ ، الدينوري الاخبار الطوال ص ٣٧٤ ، الطبري ٤٦٤/٧ (٣-٨٠) ، العيون والحدائق ص ٢١١

(٢) العيون والحدائق ص ٢١١ ، الطبري ٥٤٩/٧ (٣/٧٣) ، ابن الاثير ٤٤٨/٥ ، النرشخي - تاريخ بخارى ص ٦٢ فما بعد ، اليعقوبي ج ٢ ص ٤٢٥ .

اليه فيها كافة العناصر التي خاب أملها في الحكم العباسي في ماوراء النهر وخراسان كما دعمه العلويون وانحاز اليه بعض عمال العباسيين. مما جعل حركته شعبية واسعة القاعدة (٣٠ ألفا) وجعل القضاء عليه صعبا . ولم يخسر شريك المعركة الا حين انفصل عنه أحد قاداته من كبار بخارى : قتيبة بن تفضالة وانضم الى القائد العباسي زياد بن صالح الخزاعي . وقد قتل شريك في المعركة وأسر عدد كبير من أصحابه

٣ - وقد تولى زياد على الصفد وبخارى مكان شريك ومع أنه كان أحد النظراء السبعين في الدعوة^(١) لكنه مالبث أن ثار بدوره على تحكيم أبي مسلم في الدولة وثار في بلخ قائلا : «لقد بايعناهم على العدل وإحياء السنن وما أبو مسلم الا ظالم جائر يسير سير الجبابة وانه مخالف قد أفسد قلوب أهل خراسان ...» ويبدو أن أبا العباس نفسه كان وراء هذه الحركة . لكن عددا من قواد زياد تركوه الى أبي مسلم الذي سار من مرو إلى آمل ثم إلى بخارى لاختاد الثورة . فهرب زياد الى بعض الدهاقنة (دهقان باركت) فوثب عليه الدهقان وجاء برأسه الى أبي مسلم^(٢) .

٤ - وأعلن عيسى بن ماهان وهو بدوره من قواد الثورة العباسية وأحد النظراء السبعين سخطه على ماجرى بزياد ومع أنه كان يحارب بسام بن ابراهيم العباسي الاخر الثائر إلا إنه أبلغ الناس أن الخليفة أبا العباس ساخط منكر لما فعل أبو مسلم « وقد تبرأ منه وبعث الي بعدي

(١) أخبار الدولة العباسية (نشر الدوري) ص ٢١٨ و ص ٢٢٠

(٢) الطبري ٤٦٦/٧ (٣/٨١-٨٢)

على خراسان ... » ولكن أبا مسلم استطاع أن يتخلص بسرعة من عيسى إذ أرسل إلى رئيسه وصديقه أبي داود و خالد بن ابراهيم الربيعي الذهلي بستة عشر كتابا وجدها من عيسى بدم أبي داود ونقده قائلا : « ... هذه كتب العليج الذي صيرته عدل نفسك فدونك به » وطسب أبو داود من عيسى أن يقدم عليه ويترك ثورة بسام فلما وصل اعتقله وكشف له الكتب وجلده ثم أسلمه الى جنده فأدخلوه في جوالق وضربوه بالاعمدة حتى مات (١) ..

وقد عظم على الخليفة أبي العباس مقتل عيسى وأرسل إلى أبي مسلم أن يأخذ أبا داود بعيسى ويقتله فرفض أبو مسلم ذلك وبعث يسيط غدر أبي داود ويضيف أن ابن ماهان لو ترك لكان منه من إفساد الناس وحملهم على المعصية والخلاف ماكان من زياد بن صالح صاحبه .

٥ - تمرد بسام بن ابراهيم : وكان الرجل في الاصل من أكبر أعوان نصر بن سيار ثم انضم للدعوة العباسية وفتح لها سرخس على شيبان الحروري . ثم كان احد قواد قحطبة الطائي في الزحف على العراق ثم قاتل عبد الواحد بن عمر في الأهواز ثم كان احد قواد عبد الله بن علي في احتلال الشام وإخماد ثوراته . وقد كلف عبد الله بعد هزيمة أبي الورد أن يلاحق الخليفة السفياي أبا محمد زياد (حفيد معاوية) الذي هرب الى تدمر ، لاجئا إلى مقاومة القبائل الكلبيّة هناك . ونجح بسام في احتلال المدينة ولكنه اختلف مع عبد الله بن علي أواخر سنة ١٣٢ هـ فأعلن الثورة وخلع أبا العباس ودعا لولد علي بن أبي طالب

(١) المصدر نفسه ٧/٤٧٦

لكنه لم يستطع البقاء بين قبائل كلب التي هزمها في تدمر لاسيما حين قل جنده بانفصال عدد كبير من الجند الخراسانية فقطع البادية الى العراق، وبعث أبو العباس إليه بجيش يقوده خازم بن خزيمة فالتقى في ناحية المدائن • فهزم بسام وقتل عامة أصحابه وهرب فاستخفى بالكوفة •

ويبدو أنه بعث الى الامام جعفر الصادق يعرض عليه الخلافة فخشي الامام أن يكون ذلك شركاً متصوباً للايقاع به ، واتصل بأبي العباس يكشف له الامر • ثم دلهم اسماعيل ابن الامام جعفر على مكمنه فقبضوا عليه وقتلوه وقتلوا ابنه معه^(١) • هل كان ذلك زهداً في الخلافة من العلويين ؟ أم كان خوفاً من القوة السياسية ؟ أم ان القصة كلها مختلفة لتبرير قتل أحد كبار الدعاة ؟ إن قضيتي بسام وشريك المهري تدلان على الأقل على أن الكثير من الدعاة لم يقبلوا بعد بتفسير كلمة (الرضا من آل محمد) على أنها أبو العباس •

٦ - ثورة جهور بن مرار العجلي : وهذا بدوره من الدعاة ومن قواد قحطبة الطائي • وقد أرسله أبو جعفر المنصور سنة ١٣٦ هـ فقصى على ثورة سباز في خراسان والري وقتل من أصحابه في الهزيمة نحواً من ستين ألفاً وسبى ذراريهم ونساءهم قبل أن يقتل سباز نفسه وهو هارب دون أن تدوم ثورته أكثر من سبعين يوماً •

واستولى جهور على خزائن سباز وكان فيها خزائن أبي مسلم الخراساني واعتبرها جهور فيئاً فوزعها على المقاتلين وطالبه أبو جعفر بها لأنها من حقه ولأن فيها أيضاً خزائن عمه عبد الله بين علي وكان أبو مسلم قد احتواها • • • واشتد اللجاج من الخليفة على جهور فخاف وخلع

(١) الأزدي - تاريخ الموصل ص ١٤٠ ، ابن الاثير ٥/٤٥٠ (وهو يذكر الثورة سنة ١٣٤)

بيعة المنصور فلما أرسل الخليفة واليا آخر إلى الري قتله جهور وأعلن الثورة • ولم يكن له من أمل كبير في النجاح إذ توجهت نحوه ثلاثة جيوش من ثلاثة اتجاهات : أحدها من خراسان والثاني من الخليفة يقوده محمد بن الأشعث الخزاعي والثالث من شمال العراق يقوده عمر بن حفص المهلبى • ومع أن نخباً من فرسان العجم حاربت مع جهور وقاتلت القتال الشديد إلا أنه هزم بعد أن قتل الكثير من أصحابه ولحق جهور بأذربيجان لعله يجد الحماية لدى واليها يزيد بن حاتم المهلبى ويجد بعد ذلك الوسيلة لاسترضاء الخليفة لكنه أخذ في الطريق وقتله بعض أعوانه^(١) •

٧ - وعبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي كان من الدعاة والقواد العباسيين في خراسان وقد جعل أبو العباس إليه الشرطة ثم أقره عليها أبو جعفر ثم أعطاه ولاية خراسان سنة ١٤٠/٧٥٧ وهناك اصطدم برؤوس الشيعة العباسية من العرب الذين لم يرضوا إلحاحه في الجباية وعنفه فيها فسجنهم وقتل بعضهم واتهمهم بالميل للعلويين وكان منهم خالد بن كثير ولكنه خشي ثورة الأزدي إن عزله فأراد أن يخفف من قوته أولاً بأن طلب منه إرسال بعض النجديات لحرب الروم فاعتذر بأن الثغور مع الترك أشد خطراً وحين عاد المنصور فأبلغه أنه سيرسل إليه القوى لصد الترك عرف ماوراء هذه النجديات فأبلغ الخليفة أنه لا يجد عنده من الميرة ما يكفي القادمين و... •

و حين أرسل المنصور ولي عهده المهدي يعاونه حازم بن خزيمة التميمي ضده كان الأزدي قدثار مدعياً أن المنصور « دعاه لعبادته » ورفع

(١) الطبري ج ٧ ص ٤٩٥ و ٤٩٧ (٣/١٢٠ و ١٢٢) •

شعار العلويين وبعث الى محمد ذي النفس الزكية أو الى أخيه أن
يشخص الى خراسان ليبياعه ولكن أحدا منها لم يستجب للدعوة
الخطرة فنصب الأزدي بعض العلويين واسمه ابراهيم بن عبد الله الحسني
خليفة!.

ووصل خازم بن خزيمة فانحاز اليه بعض أنصار الأزدي وأعانه
آخرون عليه فانهمزم ثم وقع في الأسر وحمل الى المنصور في هاشمية
الكوفة سنة ١٤٢ فصلب فيها . لم يستجب المنصور لرجائه في أن يذيقه
« ميتة شريفة ! »

٨ - عيينة بن موسى التميمي : وكان كما كان أبوه موسى من قدماء
الدعاة . وقد عين الأب واليا على السند سنة ١٣٣ / ٧٥٠ عقب ثورة
منصور ثم استدعاه أبو العباس وخلفه ابنه عيينة . ويبدو أنه تعصب
على اليمانيين وقتل عددا منهم فلما عزل المنصور سنة ١٤٢ / ٧٥٩ ثار
واعتصم بالبلد لكنه لم يصمد لجيش الخليفة كما لم يصدق معه اتباعه
فتخلوا عنه . وكان هاربا نحو سجستان حين عرف به بعض اليمانية
فبلغوا ثأرهم منه في كمين أقاموه له .

٢ - مصارع زعماء الدولة :

وإذا كانت هذه الانتفاضات محدودة الاثر ومحصورة في المشرق،
وخاصة في خراسان ويدعى معظمها السخط على أبي مسلم لاعلى الدولة
وقد انتهت كلها بقطع رؤوس أصحابها « ولم يكن لأبي مسلم - كما
قال صاحب العيون والحدائق - فيها تدبير ولا كثرة جنود بل مجرد السعادة
والاقبال وابتداء دولة مسعودة وانتشار جبل دولة قد ولت سعادتها

فلا يفيد السعي في اصلاحها ...» (١) فقد كان أخطر منها بكثير تلك المشاكل التي كان موضعها في عاصمة الدولة ومقرها وكان أصحابها هم أصحاب اليد العليا في قيام الدولة وتديرها وأصحاب السلطان الاقوى والاقدم فيها .

والواقع أنه لا يكاد يذكر قيام الدولة العباسية دون أن تذكر أسماء كل من سليمان بن كثير الخزاعي وأبي سلمة الخلال ، وأبي مسلم الخراساني . ولكن هؤلاء أنفسهم إنما قتلوا جميعا بسيف العباسيين أنفسهم . ويعلل صاحب (الفخري) الاسباب قائلا : « ... وكان المخترع للدولة يكون عنده من الدالة والتبسط ما تأنف من احتماله نفوس الملوك وكلما زاد تبسطه زادت الانفة عندهم حتى وقعوا به ...» (٢) ولكن هذا السبب الشخصي على وجاهته لا يكفي لتعليل تلك الفتكة التي تكررت في عهود كافة خلفاء العصر الاول تقريبا .

١ - فأما سليمان بن كثير الخزاعي فقد كان نقيب النقباء العباسيين حين زحفت الثورة الى العراق فإنه كان هناك في حصنه المكين ... ولكن تعيين أبي مسلم لتلك الولاية أعاد الحزازات القديمة بين الطرفين منذ أيام الدعوة يوم كان أبو مسلم تبعاً للخزاعي .

وقد كان أبو مسلم قد قص جناحا هاما من أجنحة الخزاعي حين أزال من الوجود أحد أقربائه الهامين وهو ختنه : أبو جعفر لاهز ابن قريظ التميمي (٣) . وقد كان الرجل أحد النقباء الاثنى عشر من الدعوة ،

(١) العيون والحدائق ص ٢١١

(٢) ابن طباطبا - الفخري .

(٣) يسميه صاحب اخبار الدولة العباسية لاهز بن قريظ انظر ص ٢١٧ ،

٢٢٠ ، ٢٥٥ ، ٢٧٣ . الخ ويسميه الطبري لاهزا ايضا وإن كانت بعض المراجع تجعله باسم لاحظ .

أخذ فيها بواسطة الخزاعي مكان أبي المغيرة خالد بن كثير . وكان لاهز أحد ثلاثة اختاروا أبا مسلم نفسه للدعوة حين كان يعمل عند أبي موسى السراج وقد اتهمه أبو مسلم بأنه اتصل بنصر بن سيار وأشار عليه بالهرب أو ترك له فرصة الهرب حين طوقه ابو مسلم وكاد يقبض عليه . وقد يكون ذلك صحيحا . وشهد عليه فيه خالد بن كثير إياهم فقال له أبو مسلم : يالاhez أتدغل في الدين ؟ وضرب عنقه^(١) .

ولم يطب سليمان بن كثير نفسا بولاية أبي مسلم ويذكر عنه أنه قال مرة : اللهم سود وجه أبي مسلم كما سودت هذا العنقود واسقني دمه ... » وقد انتظر حتى وصل أبو جعفر خراسان فاتصل به ويبدو أنه شكك له تسلط أبي مسلم وقال : « إنما كنا نحب تمام أمركم وقد تم بحمد الله ونعمته فاذا شئتم قلبناها عليه » . ووصل الخبر الى أبي مسلم فاستدعى سليمان بن كثير وقال : أتخفظ قول الامام : من اتهمته فاقتله ؟ قال نعم ! قال : فاني قد اتهمتكم وأمر بضرب عنقه . وانصرف المنصور الى أخيه ابي العباس يقول : لست خليفة ولا أمرك بشيء إن تركت أبا مسلم ولم تقتله ! والله ماتصنع إلا ما أراد^(٢) » .

وتغطية للقتل يبدو أن أبا مسلم اتهم سليمان بن كثير بالاتصال بعبيد الله بن الحسن الاعرج العلوي ليقب مع الدولة علوية . وهو زعم يكذبه ماضي سليمان العباسي الطويل وان يكن ممكن الوقوع .

وقد ألحق أبو مسلم بسليمان : ابنه محمدا بن سليمان . اتهمه بالخداشية ، والقول بالمبادئ الزارادشتية المغايرة للدين وأنه بال على

(١) انظر الطبري ج ٧ ص ٣٨٤-٣٨٤ (٢/١٩٩٤-١٩٩٥)

(٢) انظر ابن قتيبة الامامة والسياسة ص ٢٣٨-٢٤٠ ، الطبري

٤٥٠/٧ (٦١/٣)

كتاب الامام فقتله • فكان أول قتيل في الدولة العباسية بتهمة الزندقة • وإذا لم يكن قتله بشيء كثير فقد كان قتل أبيه مع مكاتته في الدعوة دون استشارة الخليفة ودون علم أبي جعفر ، أخي الخليفة الموجود في خراسان يحمل الكثير من الاعتداد والتحدي للخلافة وحين كتب أبو مسلم بذلك إلى أبي العباس بلغ من استياء الخليفة وغيظه المكتوم أنه لم يجبه بشيء •

٢ - وأما أبو سلمة الخلال الذي قضى في خدمة الدعوة العباسية أكثر من ثلاثين سنة فقد صرعه أولاً علويته ، ذلك ان أبا العباس لم ينس له تلك البادرة في تحويل الخلافة الى العلويين • كما صرعه في الوقت نفسه ، إدلاله بمنصبه (كوزير لآل محمد) الذي لم يكن يدين به لأبي العباس • يقول ابن قتيبة^(١) : « كان أبو سلمة يظهر الادلال والقدرة على أمير المؤمنين » ويذكر الدينوري انه كان ينفذ الامور « من غير مؤامرة » (أي دون مشاورة) •

واذا كان هذا نتيجة طبيعية لظروف تلك الفترة ، فإنه كان بادرة خطيرة في الدولة الجديدة ، صدمت أبا العباس وأوحشته • ولكنه تردد كثيراً في الطريقة التي ينقذ بها « اوتوقراطيته » في الحكم ، لأنه خشي أن يكون أبو مسلم الخراساني درءاً لأبي سلمة • فاختار أن يكون أبو مسلم في جانبه وأن يقتله ، إن أمكن ، بيده •

وتتفق المصادر (كالطبري واليعقوبي والفخري والجهشياري وابن قتيبة) على ان صاحب فكرة القتل هو أبو العباس ، وإن أبا مسلم كان

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٣١

المنفذ لها • غير ان الدينوري^(١) والمسعودي^(٢) ينفردان بتبرئة الخليفة ووضع المسؤولية على عاتق أبي مسلم ، حسداً منه لأبي سلمة على مركزه كوزير للدولة • ولعل الأرجح هي رواية المصادر الاولى التي تضيف إن أبا مسلم بعث من عنده بمن قتل أبا سلمة : « وجه مرار بن أنس الضبي فلقه ليلاً فأنزله عن دابته ثم ضرب عنقه ... » ولم يكن قد مضى على وزارته ونفوذه إلا قرابة أربعة أشهر •

وما من شك في أن أبا العباس كان ذكي التدبير حين عهد الى أبي مسلم بتصفية صاحبه فانه أبعد عن نفسه التهمة بدم الرجل الذي خدمهم السنين الطوال وطمأن في الوقت نفسه أبا مسلم ، لئلا يخشى لنفسه المصير ذاته •

وأعلن للناس أن الخوارج هم الذين قتلوا الرجل وكان تعليق
أبي مسلم على قتله : « إن حفصاً كان غاشاً لله ورسوله والأئمة فالعنوه »
وأما عبد الله بن علي فقال : « كلب أصابه قدر فطاح ... » ! وعلق على ذلك الشعراء تعليقات ذات معنى • إذ قال أحدهم :

إن الوزير وزير آل محمد أودى فمن يشناك كان وزيراً
وقال آخر :

ويح من كان مذ ثلاثين عاماً يبتغي حنف نفسه غير آل !!

٧ - وأما ابو مسلم الخراساني فلم يكن بأقل خطراً وادلالاً من أبي سلمة وكان الخراسانيون أو بعضهم يتعلقون به ، لا كوال وقائد

(١) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٣٦٨
(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٠٣

فحسب ، ولكن كشخصية دينية أيضاً • فكا ن من الصعب جداً إزالة
شبحه الطاغى على العرش • وقد عاد ابو جعفر المنصور سنة ١٣٣ هـ
من خراسان فقال لأخيه « لست بخليفة مادام أبو مسلم حياً • فاحتل
لقتله قبل أن يفسد عليك أمرك فلقد رأيته وكأنه لا أحد فوقه ، ومثله
لا يؤمن غدره ونكته » • ولم يكن تفوذه مقصوراً على الخراسانيين
الذين أشربت قلوبهم حبه ، واتباع أوامره ، وإيثار طاعته — على قول
الدينوري — ولكنه كان مائل النفوذ في العاصمة (الهاشمية) أيضاً رغم
بعده • وكان ابو العباس لا يقطع أمراً دون رأيه — كما قال ابن قتيبة —
الذي قد يكون في قوله بعض المبالغة ، وكان ابو الجهم بن عطية الباهلي
عينا للخراساني ، عند الخليفة يكتب اليه بكل خبر •

ولم تكن علاقة أبي مسلم بأبي العباس أو بأخيه أبي جعفر بالعلاقة
الطبيعية التي تكون بين خليفة وكبير رجاله بل كان فيها من الاعتداد
والتحدي الشيء الكثير • وقد أوغر الخراساني صدر الخليفة وأخيه
في أمور كثيرة :

فما كان بالهين عليهما قتل سليمان بن كثير الخزاعي دون معرفتهما
ولئن هان كما هان قبله قتل الكثير من الدعاة الكبار على يد أبي مسلم فما
كان بالهين أن يريا الى القسم الشرقي من الدولة العباسية يتصرف فيه
أبو مسلم كما يشاء دون الرجوع إليهما بل وضد إرادة الخليفة أيضاً :
يعين أبو العباس والياً في السند مثلاً (ابن جمهور) فيطرده أبو مسلم
ويعين بديلاً عنه (المفلس) ويسمى أبو العباس عمر عيسى بن علي لولاية
فارس فيرسل أبو مسلم والياً آخر عليها هو محمد بن الأشعث مع تعليمات
بقتل عيسى • وإذا لم ينفذها ابن الأشعث تخرجاً من قتل عم الخليفة
فإنه طرد عيسى على أي حال وأخذ عليه العهد واليمين « بألا يعلو منبراً
ولا يتقلد سيفاً إلا في جهاد ... » •

ولا شك ان مقتل ابي سلسة دونما ضجة ، قد شجع أبا العباس على التفكير جدياً في أمر أبي مسلم . ولكنه كان يخشاه ولما « ثقلت وطاته - كما قال الجهشياري^(١) - على أبي العباس وكثر خلافه إياه ورده لأمر استنصح الخليفة خالدا البرمكي فأشار عليه بأمر فيه إضعاف لجيش الخراساني ، وقد تم ذلك ، وسر له ابو العباس » . ثم شاء أن يضعفه بالثورة فاستعمل زياد بن صالح والي بلاد ما وراء النهر : للقيام ضده . وأمره ، ان رأى فرصة ، ان يشب على أبي مسلم فيقتله . ولكن الثورة سنة ١٣٥ هـ (٧٥٢ - ٧٥٣ م) فشلت بسرعة ، رغم الكتاب الذي يحمله زياد من الخليفة ، بتوليته على خراسان . ثم حاول ابو العباس إثبات الوجود والنفوذ العباسي في خراسان بإرسال أخيه أبي جعفر إليها يزورها ويطلع عن كذب على الامور فحيا ابو مسلم مقدمه بقتل سليمان ابن كثير وعاد أبو جعفر مسلوأ رعباً وتحذيراً . ثم مر ابو مسلم بالعراق حاجاً ، قبيل وفاة السفاح بأسابيع ، فحرض أبو جعفر أخاه على قتله ، ولكنه لا يزال يخشاه فرفض وكل ما فعله أنه أمر أبا مسلم ألا يأتي الهاشمية في أكثر من ألف رجل وكان معه ثمانية آلاف ففعل .

وآل الأمر سريعاً الى أبي جعفر المنصور وله هذا الرأي في أبي مسلم ، فكان طبيعياً أن يبدأ عهده بحل مشكلته . وقد وضع كل دهائه وحذره في ذلك . ولا شك ان تصرفات أبي مسلم أمام أبي جعفر ، قبيل الخلافة وبعدها ، قد عجلت في وقوع الأزمة ، وملأت الخليفة الحذر ، بالحق والخوف على سلطته .

وكانت علاقات الاثنين الاخيرة في فترة الحج ترشحهما للاصطدام

(١) الجهشياري ص ٩٣

المباشر . فقد كان أبو العباس قد عين أبا جعفر لإمارة الحج مما أغضب أبا مسلم وجعله يتحدى أبا جعفر طول الطريق . وإنما كان حج أبي مسلم في الأصل سياسياً وليس دينياً تماماً وكان يريد إثبات وجوده في مقر الخلافة في العراق وفي مكة ، مهبط الإسلام وفي موسم الحج وأن « يصلي بالناس » كما يقول الطبري في الكعبة ، مقابل إثبات الوجود الذي حاوله أبو العباس حين أرسل أخاه إلى خراسان . ولهذا لم يأبه أبو مسلم لأبي جعفر فكان يتقدمه بموكبه وينيف عليه في البذخ والهبات والاعمال . ثم توفي السفاح والرجلان في طريق العودة فأبطأ أبو مسلم أياماً - فيما يقولون - في البيعة لأبي جعفر . كما يقولون إنه في الكوفة حرض عيسى بن موسى ، ولي العهد الآخر ، على الثورة وأخذ الخلافة ولكن عيسى رفض المغامرة . . ولقد هم أبو جعفر بأبي مسلم وهما بعد في الطريق . وكاد يبعث من يقتله (وهو عطية بن عبد الرحمن) ولكن أصحابه أقنعوه بالترث ليروا ما يكون من أمر بيعة الناس أجمعين .

وكان الرأي صواباً إذ اتفق في تلك الفترة أن ثار عبد الله بن علي عم المنصور ، فاغتنمها الخليفة فرصة يضرب بها الخطرين القائمين عليه أحدهما بالآخر ، فيبعد الخراساني عن أنصاره في خراسان ويرمي به عمه ، لا يبالى أيهما قتل صاحبه ؟ وما كاد الاثنان يصلان العراق حتى استدعى أبو جعفر أبا مسلم وكلفه السفر إلى الشام لقمع ثورة عمه عبد الله . ومع أن أبا مسلم لم يكن في نيته الدخول في هذه الخصومة إلا إنه وجدها فرصة لزيادة نفوذه وللبعد عن أبي جعفر فقبل ولم ينس الخليفة أن يبعث مع أبي مسلم بعدد من القواد الآخرين منهم الحسن بن قحطبة ، يراقب أعماله . فكتب هذا إلى الخليفة كتاباً ملاًه تصميمات على قتله : « ... إني قد ارتبت بأبي مسلم منذ قدمت عليه . انه يأتيه

الكتاب من أمير المؤمنين فيقرؤه ثم يلوي شدقه !... » وانتصر أبو مسلم على الثائرين في الشام وبعث الخليفة بمن يحصي غنائم أبي مسلم من عبد الله بن علي ، فغضب الخراساني وقال : « أؤتسن على الدماء ولا أؤتمن على الأموال ؟ » وهم برسول الخليفة ، لولا أن منعه أصحابه ، وأن ادعى الرسول قدومه للتهنئة !

ويظهر ان أبا مسلم « عزم على الخلاف » إثر ذلك ، فانه قرر العودة الى خراسان عن طريق الزاب وحلوان في أعالي العراق دون أن يعود الى الهاشمية ويرى أبا جعفر الخليفة . وقد كتب الحسن بن قحطبة الى أبي جعفر يقول : « يا أمير المؤمنين إن الشيطان الذي كان ينفخ في رأس عبد الله (ابن علي) قد انتقل إلى رأس أبي مسلم » .

وكان أول خلاف علني ، بين الاثنين رفض أبي مسلم إطاعة أمر أبي جعفر بالبقاء بالشام والياً عليها وعلى مصر . قال : هو يوليني الشام ومصر ، وخراسان لي ؟ وكتب إليه : « ... !نه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه الله منه وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء ... فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت .. حريون بالسمع والطاعة غير انها من بعيد حيث تقارنها السلامة ... فان أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك وإن أبيت إلا أن تعطي نفسك إرادتها ، نقضت ما أبرمت من عهدك ، ضناً بنفسي^(١) » ورأى المنصور أن يقابل هذا التحدي والتهديد بالحيلة ، إذ لا قوة تنفع . فبعث إليه برسالة عتاب خاسية لينة معاً حملها صديقه عيسى بن موسى ، يقول فيها : « ... فهت

(١) الطبري ج ٧ ص ٤٨٣ (١٠٤/٣) .

كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين
يتمنون اضطراب جبل الدولة لكثرة جرائمهم • فإنما راحتهم في انتشار
نظام الجماعة • فلم سويت نفسك بهم وأنت في طاعتك ومناصحتك
واضطلاعك ... وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك فإنه
لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طبه من الباب الذي
فتحه عليك ... » ووجه أبو جعفر إليه جرير بن زيد البجلي « وكان
داهية عصره » ليسترضيه ويزين له زيارة أبي جعفر ، ويهدده أن خالف ،
أن يحاربه الخليفة بنفسه • وكتب في الوقت نفسه إلى أبي داود خالد
الذهلي (والي خراسان في غياب أبي مسلم) بالامارة على خراسان
وأطمعه ، فبعث أبو داود ينذر الخراساني ، ألا يرجع إلا بإذن
الخليفة ... وحرص الخليفة عدداً من كبار العباسيين والقادة أن يكتبوا
له بالطاعة والنصح بعدم التمرد ...

ونجح المنصور بالمناورة السياسية في سوق طريدته إلى قصره ،
بحفاوة كبيرة • بعد أن كاد يفلت وبعد أن خرج المنصور من الأنبار
فأقبل حتى نزل المدائن ليعترضه على الطريق دون حلوان ...

ويروي الطبري^(١) قصة طويلة عن حوار رفيقي الدعوة
العباسية ، حين اجتمعا ، وعن التهم التي وجهها المنصور لأبي مسلم
وخلاصتها في روايات مختلف المؤرخين :

١ — عدم تحيته حين زار أبا العباس في الهاشمية وذكره باسمه
لا بكنيته في بعض الرسائل •

(١) الطبري ج ٧ ص ٤٨٩ - ٤٩٢ (٣/ ١١٢ - ١١٦) .

- ٢ - تقديم اسمه على اسم الخليفة في الرسائل •
- ٣ - تقدمه على أبي جعفر في طريق الحج وعدم انتظاره •
- ٤ - تأخره في بيعة أبي جعفر •
- ٥ - تحريض عيسى بن موسى على التمرد وطلب الخلافة •
- ٦ - تدخله في شؤون أبي العباس •
- ٧ - قتل سليمان بن كثير الخزازي دون استشارة الامام • وقتل
أفصح بن مالك الفزاري الداعية الآخر • وقتل ٦٠٠ ألف من المسلمين
صبراً ...
- ٨ - أخذه بعض متاع وجواري عبد الله بن علي لنفسه •
- ٩ - خطبته لأمانة بنت علي وادعائه النسب لسليط بن عبد الله
ابن العباس •
- ١٠ - مراوغته ومحاولته الخروج لخراسان رغم استدعاء
الخليفة له •

وقد يكون المؤرخون قد أضافوا وتبسطوا وسطروا ما توهّموه من الاتهامات والأجوبة بين أبي جعفر وأبي مسلم وإنما ساقوا كل ذلك تبريراً وتعليلاً للنهاية المأسوية التي انتهت إليها أبو مسلم الذي وجد لكل اتهام جواباً • ويقول الطبري : ان المنصور صفق في نهاية الحديث فأطبق أربعة من جنوده الاشداء بالسيوف على أبي مسلم (٢٥ شعبان ١٣٧ هـ) ورمى المنصور برأسه وبيدر المال معه ، إلى أصحابه ، ففرقوا ... وخطب المنصور بتلك المناسبة يبرر هذا العمل بقوله : « ... انه من نازعنا هذا القميص أجزرناه خبي هذا الغمد ، وان أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا ، على انه من نكث بنا فقد أباح دمه لنا ، ثم نكث بنا هو ، فحكنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا . ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه » • بهذه الكلمات ، وبصرع أبي مسلم قبلها وبالجواب

الذي أجابه أبو جعفر استرحام أبي مسلم حين قال : استبقني لأعدائك
فأجابه وأي عدو أعدى لي منك ؟ حدد الخليفة أبو جعفر مفهوم الدولة
الجديدة الأوتوقراطية للسلطة وموقفها الحاسم من أصدقائها وأعدائها
على السواء إما مس أحدهم سلطانها المطلق •

ولقد كان مصرع أبي مسلم موضوع بحث توقف عنده عدد كبير
من المؤرخين وبالرغم من أن مؤرخينا القدامى جمعوا أسباب مصرعه في
تلك التهم العشر التي وجهها إليه أبو جعفر وبعضهم كالذهبي ومؤرخي
الفرق أضاف إليها أسباباً دينية إلا إن الباحثين المحدثين ، وخاصة
المستشرقين أصرّوا على محاولة تقصي السبب الحقيقي لمصرع «صاحب
الدولة العباسية» • فبعضهم بحث عنده عن الأفكار الدخيلة على الاسلام
(بروكلمان : بارتولد) وبعضهم حاول كشف ميوله العلوية (بلوشيه)
وبعضهم أعاده الى حججه الحقيقي وإنه إنما تضخم اسمه ودوره فيما بعد
(جيب ، كاهن) لكنه ما من شك في إن مقتله كان لسبب سياسي واضح
يتعلق بما أضحى يشكله من الخطر على الاوتوقراطية العباسية الناشئة
ومع أن مقتل أبي مسلم قد مر دون مضاعفات آنية حادة وقد «باعه
أصحابه بالدراهم» كما قالوا هم أنفسهم حين قبلوا أموال أبي جعفر إلا
إن ملحمة أبي مسلم تركت في أذهان الناس في خراسان وتركستان على
السواء دويماً أخذ مع الأيام الصيغ الاسطورية ونسجت حول اسمه
القصص الخيالية وأصبح البطل القومي الشعبي في خراسان ولدى الترك
أيضاً الذين ادعوه لأنفسهم • وبينما كان عدد من الثوار في ايران يرفع
شعار الثار لأبي مسلم كمبرر للثورة على العباسيين كان أبو مسلم يغفل
في خسير الناس ويتبناه الشيعة المتطرفون والفرس المتذمرون وتستغل
اسمه ثورات الفرس فيما بعد من المقنع الى سباز الى استاذسير ...
الى الرزامية والخرمية •

وكان لمصرع أبي مسلم ذيول تناولت أصدقاءه وقد قتل بعضهم من
أمثال :

— أبي الجهم الباهلي وهو أحد نظراء النقباء وقادة الجيش الى
العراق • اتهمه أبو جعفر بمراسلة الخراساني وموافقته على الاستياء من
السياسة العباسية فدبر مقتله بالسهم • سقاه إياه في سوق اللوز كما
يروون •

— ابي داود خالد بن ابراهيم الربيعي الذهلي : وقد كان الرجل
أحد النقباء الاثني عشر ومن أعوان أبي مسلم الكبار وقد عهد إليه
بولاية خراسان عند سفره الى الحج وأقره أبو جعفر عليها ليفصله عن
أبي مسلم ويمنعه من العود الى خراسان •

على أن خالداً الذهلي لم يكن يتوقع — فيما يظهر — قتل أبي مسلم •
فلما علم بذلك « أنكره وذكر المنصور ذكراً قبيحاً ونسبه الى القدر ...
وكتب أبو جعفر يأمره بالقدوم إليه فرفض • قال : « ... ما يقربني عليه
إلا لمسألتي عن أمور أبي مسلم وأمواله ثم قتلي بعد ذلك ... يا أبا جعفر
غر غيري ! » • كان خالد يعرف ما قدمت يداه من قبل حين قتل عيسى بن
ماهان وأغضب أبا العباس فأمر أبا مسلم بقتله ولكن الخراساني
حماه ...

وعمد أبو جعفر الى التآمر فطلب الى أبي عصام صاحب شرطة
خالد في خراسان أن يغتاله • وأثار أبو عصام بعض الاضطراب والفوضى
حول قصر الإمارة تمهيداً لمؤامرتة وأطل خالد من شرفة القصر ليعرف
الأمر ويبدو أن كثيراً من جنده أطل معه ف وقعت الشرفة ... ومات
الرجل !

... وصار أبو عصام والي خراسان !

٣ - مشكلة عامة الايرانيين :

واجهت العباسيين أيضاً أيضاً ، ومع كل المشاكل التي واجهتهم في مطلع عهدهم الأول مشاكل من نوع آخر ديني هذه المرة قامت في المواطن والمواقع التي انطلقت منها ثورتهم أي في ايران وخاصة في شمالها الشرقي خراسان . وكثرة هذه الحركات وإبكارها في الظهور وشدة بعدها عن الإسلام كل ذلك مما يحتاج الى التفسير وتدخل في هذا التفسير عناصر عدة كانت الأساس في تلك المشكلة وهي ترجع الى جذور سياسية دينية واقتصادية واجتماعية ونفسية .

فما من شك في أن الاسلام انتشر بين الايرانيين في العهد الاموي انتشاراً بطيئاً ولم يرافقه انتشاره فهم عميق له ولا كان - حتى نهاية ذلك العهد - قد استطاع استئصال جذور الديانات الأولى وفروعها هناك بين زارادشتية ومانوية ومزدكية ، من نفوس عامة الايرانيين بل وخاصتهم من المرازية والموابذة والدهاقين ، وما من شك بالمقابل في أن نجاح الدعوة العباسية في الوصول الى الخلافة بعد انطلاقها الأول من أرض ايران ووجود جماعات ايرانية في قيادتها وفي رجالها قد أثار في الايرانيين آمالا عديدة متنوعة كان العباسيون بعيدين جداً عن تحقيقها ولعل أهمها الآمال في استعادة المكانة السياسية القديمة التي زادت بعد الفتح العربي ولعلها حلت بزوال الحكم العربي كله وبزوال الاسلام أيضاً وإذا كانت الدعوة العباسية قد بشرت بالمبادئ الاسلامية الخالصة من تسوية وعدل ورفض للظلم إلا إنها استغلت التشيع أيضاً وتبنته وقد وحد بعض دعايتها وأنصارها فيه مجالا لدس الرسوبات الدينية

القديمة لديهم والاقتباس منها (كما فعل خدّاش ثم بها فريد) بغية استقطاب العامة عن طريق المنزع الديني بعد استقطابهم عن طريق رفض الظلم الاجتماعي وقد تواءمت النظرية الشيعية في حق آل البيت مع نظرية الحق الإلهي المقدس القديسة في التراث الفارسي كما خطر دون شك لبعض الإيرانيين أن يصلوا الى بعض المركز السياسي في الدولة الجديدة وموقف أبي سلمة وأبي مسلم بعد الثورة دليل واضح على ذلك • لكن الأمور لم تسر تماماً على ما يشتهي الإيرانيون • فقد نجحت الثورة وبويع أبو العباس ثم أبو جعفر من بعده بالخلافة ووصل عرب خراسان الثائرون الى المناصب ولكن قتل أبو سلمة ثم أبو مسلم كما قتل الكثيرون من الدعاة العباسيين من عرب وغيرهم وسرعان ما تبين الإيرانيون أن شيئاً لم يتغير لا على مستوى الحكم – الذي لم يصبح لآل علي – ولا على مستوى السياسة العامة التي استمرت مركزية دموية كالأمويين ولا على مستوى السياسة المالية التي استمرت بعيدة عن التسوية والسدول ولا تختلف في الجشع المالي عن الدولة السابقة •

وبالرغم من أن العناصر الإيرانية لم تكن هي الأساس في الثورة العباسية وكانت عنصراً إضافياً فيها إلا أن الإيرانيين شعروا بسرعة أنهم لم يجزوا بسقدار آمالهم التي ثارت في نفوسهم من جهة ولا – على الأقل – بمقدار ما أسهموا وقدموا من عون في تلك الثورة من جهة أخرى •

وإذا كان انتصار الدعوة قد جاء بالبيت العباسي إلى الحكم فإنه قتل أبا مسلم – وهو شاب في السابعة والثلاثين ، مع أنه أكبر الرؤوس الإيرانية في الدعوة وأهملها وهذا ما انعكس يأساً في جماهير الإيرانيين ودفعها لأن تنظر – مع الأيام الى أبي مسلم باعتباره رئيساً دينياً ، أو

قوميا ، وأحياناً إماماً وأحياناً أخرى خليفة لزارادشت • أما في ذلك الوقت المبكر فكل ما تبين لتلك الجماهير بوضوح هو أن مفهوم الدعوة العباسية لديها وآمالها فيها كانت مختلفة تماماً عن غرض آل محمد العباسيين منها وأعقب الآمال العريضة موجة واسعة من اليأس والنقمة تجلت في اندفاع الإيرانيين عامة وراء كل ثائر ، لا سيما وأن الكثير منهم وخاصة في تلك المدن التي قاومت الثورة العباسية ظلوا يحتفظون ببعض عواطف الولاء للأمويين أيضاً^(١) •

وهكذا فإن هذا اليأس من العباسيين هو نفسه الذي دفع العناصر الناقمة من الإيرانيين في مجاري مختلفة من الثورة والتمرد سواء كانت سياسية أو دينية •••

— فبعضهم وقد رأيناه — انضم الى حركات بعض دعاة العباسية الذي انقلبوا عليها مثل جمهور العجلي • وعبد الجبار الأزدي ورافع بن الليث •

— وبعضهم انضم الى الحركات العلوية في خراسان والديلم •
— وبعضهم أيد الخوارج في سجستان وخراسان وفارس وكرمان •
— وبعض أخيراً كان أكثر تطرفاً وجذرية لسبب رقة اسلامه أو غلبة

(١) ظل هذا الولاء في مثل بلدة اصفهان حتى أواسط القرن الرابع ويبدو أن لوجود مجموعة أموية في تلك المدينة أثره في تلك العاطفة التي سجل وجودها المقدسي البشاري لدى الزهاد والعباد في اصفهان (المقدسي — احسن التقاسيم ص ٣٨٩) ولعلنا نذكر أن أبا الفرج الاصبهاني (من القرن الرابع) صاحب الاغاني المعروف هو حفيد مروان بن محمد • كما أن الشاعر الابيوردي كان من السلالة الأموية وظل يؤلف في انساب الأمويين في القرن الخامس الهجري •

الأفكار الزارادشتية أو رواستها عليه فالتحق بالحركات المتطرفة •
ولا شك أن التذمر هو الذي كان يجمع بين الإيرانيين وبين هذه
الحركات وليس الايمان بها •

وتلك الأعداد الواسعة التي التحقت بدعاة العباسية أو بالخوارج
أو بالعلويين أو بالثورات الدينية المنحرفة لم تكن كلها مؤمنة بما
ناصرته من المبادئ بقدر ما كانت تجد فيها متنفساً لنقمتها ويأسها
الكامن • وهذا هو السبب في أن موقف الإيرانيين عامة من الحكم العباسي
في الفترة الأولى كان يتسم بثلاثة اتجاهات : اتجاه يحاول التعاون مع
الحكم العربي ولكنه كان يقيم باستمرار (كما جرى للبرامكة) واتجاه
يهاجم هذا الحكم فكرياً وثقافياً فيما يسمى بالحركة الشعبية واتجاه
يثور أو يلتحق بكل ثورة •

وضمن خط الثورة نفسه وجدت ألوان من المتمردين الإيرانيين
يمتدون ما بين من يريد حمل العباسيين على تأكيد عباسيتهم إلى من يريد
نصر العلويين إلى من يريد نصر الخوارج ورأيهم في التسوية ودفع الظلم
عن المضطهدين إلى من يريد نسف أسس الدين الاسلامي نفسه بعضاً أو
كلاً بثورة دينية مناهضة ذات عقيدة جديدة • وضمن هذا الإطار الأخير
تميزت الحركات الدينية الإيرانية بثلاثة أمور :

— الأول أنها كانت تبشر بفكرة «مهدي» منتظر وزعيم منقذ وذلك
لمعادلة اليأس العام وإرضائه •

— الثاني محاولة التوفيق بين بعض الأفكار الزارادشتية القديمة
وبعض العقائد الاسلامية في ايجاد تكوين عقائدي جديد وهذا ما أوجد
مضاعفات غريبة من العقائد البعيدة عن الاسلام •

— الثالث ارتباطها على الأغلب — كما يقول براون — من ثورة سنباذ واستاذسيز الى بابك الخرمي — بذكرى ابي مسلم الذي جعلته تلك الحركات رمزاً وضخمت ذكره مع الأيام وأدخلته في الملاحم والنبؤات والأساطير الشعبية كشخصية بطولية خارقة • وحين ظهر الشعور القومي الإيراني في القرن الرابع صار يمثل ذلك الشعور ولهذا فقد لاحظ مؤرخونا القدماء ، كالبيروني والمقريزي وابن الجوزي وغيرهم أن تلك الحركات الفارسية كانت ذات هدف مزدوج هو هدم الاسلام وازالة الحكم العربي ، فكل تلك الفرق تعمل على محاربة الاسلام بالحيلة وبادعاء الايمان به • وبعضها أخذ ينتظر رجعة ابي مسلم ليملا الأرض عدلاً ، ويعيد دولة المجوس ، ويستولي على الأرض كلها ، ويزيل ملك العرب وغيرهم •

على أنه من الضروري ، قبل استعراض الحركات الدينية الإسلامية في إيران أن نسجل ثلاث ملاحظات :

الأولى : ان اثر الدعاية المسلمية ظل مقصوراً على بعض نواحي إيران ، وعلى بعض الطبقات فقط وقد تنكب عنها ورفضها الإيرانيون المسلمون • وكان هذا من أهم العوامل الداعية الى فشل حركاتها في العصر العباسي الاول •

الثانية : أن المواقف اليائسة والثورات التي كنا ذكرناها ، إن وجدت جغرافياً في إيران فإنها لم تكن مواقف خاصة بالإيرانيين وحدهم فقد شاركهم في تلك المواقف والثورات عناصر من العرب الذين يسكنون إيران كما شاركهم أيضاً فيها الرعايا الآخرون في الشام ومصر وأفريقية بدليل ما قامت لديهم من ثورات في تلك الفترة نفسها • على أن مشاركة

العناصر العربية في الثورات بإيران ضد العباسيين لم تصل درجة المشاركة في الثورات الدينية التي كانت خاصة بإيران والاييرانيين وهذا يعني أنها كان تستقي أيضاً من ينابيع أخرى غير النعمة واليأس من عدل العباسيين • ويعني في لإسلاميتها يمكن أن تعتبر نوعاً من الوعي القومي الايراني الذي استفاد أيضاً من ذلك الحلف الذي سبق العهد العباسي وجمع بين الجماهير العربية وبعض الجماهير الايرانية على مقاومة الظلم الأموي والذي ظل يعمل على تغذية الثورات الأخرى غير الدينية ضد العباسيين الأوائل وقد تطورت هذه الأنواع من النعمة الدينية والثورة الاجتماعية والسياسية ، مع الأيام لتصبح فيما بعد حركات محلية فارسية انفصالية •

الثالثة : أن الحركات الدينية الانحرافية بدأت في الواقع قبل إعلان الثورة العباسية بسنوات كثيرة • ظهرت ثورتها الأولى على يد خدش سنة ١١٦ ثم ظهرت حركتها الثانية على يد بهافريد سنة ١٢٩ فهي إذن حركة مستقلة عن الدعوة العباسية لحد كبير وسابقة لها في الجذور وقد استغلت الدعوة لجمع الأنصار من عامة الفرس ثم آنت في نفسها من القوة ما سمح لها بالظهور العلني قبلها ومنفردة عنها مرتين مستغلة موجة الاضطراب العام في خراسان للتعبير عن بعض الآمال الكامنة في نفوس الشعب الايراني الباقي على الزارادشتية أو الذي ما يزال في نفسه شيء كثير أو قليل منها •

ويمكن ان نصنف تلك الحركات حسب تباعدها عن العقائد الاسلامية في ثلاثة أقسام :

١ - الراوندية :

كان أهل خراسان - على حد قول محمد بن علي العباسي - قلوباً

فارغة وصدوراً سليمة لم تتقسطها الالهواء ولم تتوزعها النحل • ولهذا فان التشيع الذي عرفته لآل محمد لم يكن تشيعاً علوياً ولكنه كان تشيعاً على الطريقة التي شاء دعاة العباسيين تلقينها للناس ، أي تشيعاً لبني العباس • ولهذا السبب لانكاد نجد في كل الحركات الفارسية التي ندرسها غير طيف ضئيل من التشيع العلوي •

وتنسب الراوندية الى قرية رواند قرب نيسابور ، وهي فرق عديدة تتضارب فيها أقوال المؤرخين العرب : فيطلق بعضهم احياناً اسم الراوندية على كل الفرق ، ويطلق الآخرون الاسم على بعض منها • وهي عباسية العقيدة • ويظهر أنها نشأت في خراسان قبل مجيء ابي مسلم ، بتأثير بعض الافكار الشيعية - الحلولية (المأخوذة عن السبئية والكيسانية حسب رأي فلوتن) فقد زعم احد الراوندية - على رواية المدائني في الطبري^(١) - ان الروح التي كانت في عيسى بن مريم صارت في علي بن ابي طالب ثم في الأئمة ، في واحد بعد واحد ، الى ابراهيم بن محمد ، وانهم آلهة ... وربما دخلت في الراوندية بعض الافكار المزدكية ، كاشتراكية النساء •

ويبدو أن الحركة الراوندية لم تكن مقصورة على ايران فقد ظهر جانب منها في بلاد الشام فإن ابن العديم يذكر أنه «ظهر في سنة احدى واربعين ومائة قوم يقال لهم الراوندية خرجوا بحلب وحران وكانوا يقولون قولاً عظيماً • وزعموا أنهم بمنزلة الملائكة وصعدوا تلابجب ، فيما قالوا ، ولبسوا ثياباً من حرير • وطاروا منه فتكدوا (ولعها فنكسوا)

(١) الطبري ج ٦ ص ١٤٧

وهلكوا...^(١)» ولعل هذه الجماعة كانت من الخراسانية التي وردت الشام مع عبد الله بن علي أو مع أبي مسلم ثم توطنت ، مع عقائدها ، فيه .

وقد درس الاستاذ الدوري^(٢) ، معتمدا على دراسة الاستاذ (صديقي) مشكلة الراوندية درساً وافياً خرج منه بتقسيمها الى مجموعتين :

الاولى : مجموعة تعتقد بانتقال الامامة من ابي هاشم الى محمد بن علي بالوصاية ، ولعلمهم من أوائل من انضم الى الدعوة العباسية . وقد انقسموا بعد وفاة ابي العباس ثلاث فرق :

أ - فرقة تعتقد بامامة ابي جعفر ومن بعده المهدي .

ب - فرقة انشأها عبد الله الراوندي تعتبر ابا جعفر الامام القادر القدير ، وهو إله . ونبيه هو ابو مسلم الذي حلت به روح آدم . فلما قتل أبو مسلم عند أبي جعفر ، على يد عثمان بن نهيك وأربعة آخرين من الحرس ، زعم الراوندية أن روح آدم حلت في عثمان ...

وقد ثارت هذه الفرقة ضد المنصور «ربها الذي يطعمها ويسقيها» اذ جاء^(٣) بعضها من خراسان الى هاشمية الكوفة (حوالي ٦٠٠ شخص

(١) ابن العديم - زبدة الحلب (تحقيق الدهان - دمشق ١٩٥١) ج ١ ص ٥٩ - ٦٠

(٢) الدوري ص ٨٤ وما بعدها .

(٣) يذكر الدينوري انهم جاؤا طلباً لثأر ابي مسلم ولكن هذا الراي

في رواية الطبري) فسكنوا فيها وجعلوا يطوفون بقصر المنصور .
ويقولون : هذا قصر ربنا ! وصعدوا الى قصر الخضراء ، واخذوا يلقون
انفسهم منه كأنهم يطيطون ... فتضايق المنصور منهم ، فحبس مائتين من
زعمائهم . فثار الباكون واخرجوا اصحابهم وهجموا على القصر يريدون
قتله وكادوا يقتلونه لعدم وجود الحرس الكافي ، لولا ان انقذه معن بن
زائدة الشيباني ! وكان ذلك أحد الاسباب في البحث عن بناء عاصمة
جديدة .

ويلاحظ ان المنصور قد تسامح معهم ، كما تسامح الدعاة من قبل
في عقائد الايرانيين ، لجمع اكبر عدد من الانصار حولهم ، فلما جهروا
بآرائهم أوقفهم . يدل على ذلك قوله لأبي بكر الهذيلي اذ دخل عليه
قائلا : انهم يبابك يقولون : هذا رب العزة ! هذا الذي يطعمنا ويسقينا .
فأجابه المنصور : «يا هذيلي ! يدخلهم الله النار في طاعتنا ويقتلهم ، أحب
اليّ من ان يدخلهم الجنة بمعصيتنا» . ويلاحظ ان هذا الموقف ، أي
الاستفادة من — الافكار المتطرفة ، ثم محاربتها ، موقف ظهر مثله في
دعوة الفاطميين كما أنه نموذج من نماذج السياسة المكيافيلية التي عرف
بها المنصور .

ج — فرقة نقلت الامامة من ابي العباس السى ابي مسلم وهي
فئتان : فئة اختلط بها بعض الخرمية ، وتسمى (المسلمية) وتعتقد ان

بعيد لانهم قلائل ولأن ثمة فترة طويلة بين مقتله وثورتهم ثم كيف يثأرون
من الههم اذا هو قتل نبيه ويرى دوزي انهم جاؤوا لتقديم الطاعة للمنصور ،
فلما سجن زعماءهم فقد الوهيته في نظرهم وفقد بالتالي حكمه ، لان فكرة
شرعية الحكم متصلة عند الفرس بفكرة الالوهية .

أبا مسلم لم يمت ، وأنه في رأي بعضهم نبي ، أرسله زارادشت ، وفي رأي الآخرين حلّ فيه جزء الهي ، فهو فوق الملائكة . وفئة تعتقد موت أبي مسلم ولكنها تنسب إليه المعجزات والخوارق . وهم (الرزامية) أتباع رزام .

الثانية : مجموعة تتبع أبا هريرة الراوندي تعتقد ان الرسول أوصى بالامامة لعنه العباس^(١) ثم ورثها عنه أولاده . وهي ، على ما يظهر من معتقدها ، أحدث من المجموعة الاولى وتسمى (العباسية) . وقد تطرفت في تقديس أبي مسلم ، ونقلت الرياسة الدينية اليه . ولعل ذلك عن طريق ادعائه بأنه من نسل سليط بن عبد الله العباسي .

ويعطيها المؤرخون المسلمون أسماء شتى ، حسب أسماء أو أو صفات دعائها . فهي تارة خدائية مزدكية أو مسلمية ، وتارة محمرة أو مبيضة وتدعى أيضاً البركوكية والفاطمية (نسبة لفاطمة ابنة أبي مسلم) كما أخذوا يدعونها ، بعد عصر المنصور ، بالمقنعية والبابكية والرزامية الخ . . . وكل هذه الفرق ، في رأي المؤرخين المسلمين ، تطورات لمبادئ مزدك . يتفق في وصفها بهذا ابن النديم والشهرستاني والبيروني وابن الجوزي على السواء .

وقد جاء اسم الخرمية في رأي بعض الباحثين من خرم (اسم إحدى بلاد ميديا) أو من كلمة (خرم) الفارسية ومعناها (لذيذ) يقول فانفلوتن «فاذا ما تكلمنا عن (خرم - دينياً) فنعني ان هؤلاء كانوا لا يعرفون ديناً

(١) انظر الرازي - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (طبعة القاهرة ١٩٣٨) ص ٦٣

غير اللذة • وإذا ما جعل للنساء عندهم مكانة ارقى مما في البلاد الشرقية الاخرى ، فانما ذلك بقصد الاستمتاع» لكن كتاب سياسة نامہ لنظام الملك (١٠٩٢) يرى أن خرم هو اسم زوجة مزدك • هربت بعد مقتله مع اثنين من اتباعه من المدائن الى الرّي واستمرت تبشر بمبادئ زوجها •

ومن المؤلفين القدماء من جعل اسم الفرقة مشتقاً من الكلمة الفارسية «خرم» بمعنى مقبول على أساس أن اتباعها يعدون كل مقبول جائزاً شرعاً • ولعل الأرجح أن هذا الاسم مشتق من خرم وهي ناحية بأردبيل ، ولعل الفرقة قد نشأت فيها^(١) •

والمطهر بن طاهر المقدسي في البدء والتاريخ ، يقول وقد لقي جماعة من الخرمية في منازلهم : «هم فرق وأصناف غير أنهم يجمعون على القول» :

- أ - بالرجعة • ويقولون بتغيير الاسم وتبديل الجسم •
- ب - ويزعمون أن الرسل كلهم على اختلاف شرائعهم واديانهم يحصلون على روح واحد • وأن الوحي لا ينقطع أبداً •
- ج - وكل ذي دين مصيب عندهم ! إذا كان راجي ثواب وخاشي عقاب • ولا يرون تهجينه والتخطي إليه بالمكروه ما لم يرم كيد ملتهم وخسف مذهبهم •
- د - ويتجنبون الدماء جداً إلا عند راية الخلاف •
- هـ - ويعظمون أمر أبي مسلم ويلعنون أبا جعفر على قتله •

(١) انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة خرم (ج ٨ ص ٢٩٩-٣٠١ من الترجمة العربية) •

— ويكثر على الصلاة على مهدي بن فيروز لأنه من ولد فاطمة بنت أبي مسلم •

— ولهم أئمة يرجعون إليهم في الأحكام ورسول يدورون بينهم ويسمونهم فريشتكان •

— ولا يتبركون بشيء مثل تبركهم بالخمور والأشربة •

— وأصل دينهم القول بالنور والظلمة •

ومن شاهدنا منهم في ديارهم ماسبذان ومهرجان قذق فإننا وجدناهم في غاية التحري للنظافة والطهارة والتقرب إلى الناس بالملاطفة وتقديم الصنيعة ووجدنا منهم من يقول بإباحة النساء على الرضا منهن •

وإباحة كل ما يستلذ النفس وينزع إليه الطبع مالم يعد على أحد بالضرر • ويضيف الاصطخري إلى هذا أنهم في قراهم ومساجدهم يقرؤون القرآن غير أنه يقال إنهم لا يدينون في الباطن بشيء إلا الإباحة •••» •

توطنت هذه المبادئ كما يشير الطبري في شمال وغرب إيران • ويوضح ابن النديم المنطقة الجغرافية للخرمية بقوله : «وهم بنواحي الجبال فيما بين أذربيجان وأرمينية وبلاد الديلم وهمدان ودينور منتشرون • وفيما بين أصفهان وبلاد الأهواز •••»^(١) عششت الخرمية هناك حتى مجيء أبي مسلم وكان أكثرهم كما يقول المسعودي في القرى والضياع • وكانت هذه هي العناصر التي نجح أبو مسلم في ضمها أو

(١) ابن النديم — الفهرست ص ٣٤٢

ضم ولائها لبني العباس عن طريق شخصه .

ولم يكن في مبادئ الخرمية قبل ظهور أبي مسلم شيء يتعلق به وإنما كانت ديناً سلوكياً مشاعياً أقرب إلى الحياة المائعة إلى المعنى السياسي . ثم دخل عليها ، بعد ظهوره ، عنصر جديد حين أخذ هذا الرجل مكانة دينية خاصة جاءتته دون شك من مكاتبة السياسية التي كسبها بيروزه المفاجيء السريع بعد قرن من توالي الحكام العرب في المنطقة الايرانية . وقد تعلق الخرمية به تعلقاً يتراوح بين التقديس والنبوة والتألية . ولا شك - كما يقول صديقي - إن الخرمية جميعاً اعتبروه كرئيس ديني . وها هنا في الواقع مجال سؤال كبير يتعلق بنوع ومدى وسبب العلاقة الدينية بين أبي مسلم - وهو فيما نعرف مسلم وعباسي الهوى - وبين الخرمية المزدكية ...

ويظهر ان ابا مسلم كان يعرف نفوذه الديني القوي هذا ، ويرضى عنه ويعتد به ، تجاه الخلفاء الجدد من العباسيين ، فلما قتل نبعت الحركات المختلفة من مقتله . ومن هذه الحركات :

أ - ثورة سنباد :

يقول المسعودي : « ... لما نسي مقتل أبي مسلم الى خراسان وغيرها من الجبال ، اضطربت الخرمية^(١) » وثار سنباد (أوشنفاذ أو سنفاذ ويسميه صديقي سنباد) في خراسان . يقول الطبري

(١) المسعودي ج ٣ ص ٢٢٠ (ج ٣ ص ٣٠٦ من طبعة محمد محي الدين عبد الحميد) .

« كما خروجه غضباً لمقتل ابي مسلم فيما قيل وطلباً لثأره » (١) .
« وأخبر اتباعه ان ابا مسلم لم يمت وانه تلا اسم الله الاعظم ، قبل أن
يقتل فصار حمامة بيضاء وطار ... »

وسنباذ قروي من (أهن) احدى قرى نيسابور كان أحد قواد
جيش أبي مسلم ومن المقرين إليه وقد بدأ حركته في هذه المدينة ، فالتف
حوله عدد من الخرمية والمزدكية والغلاة . واجابه كثير من طبرستان
والجبال (شمال غرب ايران) وكانوا حتى ذلك الوقت مجوساً ويستظهر
(صديغي) من هذا ان في الثورة روحاً قومية ، وجدت رمزها في ابي
مسلم . يدلنا على هذا تبشير سنباذ بين اتباعه بنهاية السلطان العربي
واعلانه انه سيذهب الى الحجاز ويهدم الكعبة ! ويبدو أن عدد أتباعه
الذي بلغ ٩٠ ألفاً حسب بعض المصادر ومعظمهم من الخرمية أهل الجبال
قد أغراه بهذا التحدي كما أغراه بأن يأخذ لنفسه لقب فيروز أصبهذ أي
القائد المنتصر .

وتسلط سنباذ على ما بين نيسابور وقومس والري حتى همدان ،
فيما لا يزيد عن شهرين وحاول رشوة اصبهذ طبرستان وضمه الى صفه
فأرسل إليه بعض خزائن أبي مسلم التي استولى عليها عند فتح الري
(وكان ابو مسلم قد تركها هناك حين سار الى الحج) ولكن هذه المحاولة
لم تفده كما لم تفده انتصاراته الأولية لأنه هزم امام الآلاف العشرة من
الجنود الذين أرسلهم المنصور ضده بقيادة جمهور بن مراد العجلي .
وقتل ممن معه — على رواية المسعودي — ستون ألفاً وسببت ذرايرهم
ونسائهم ثم قتل هو بدوره بين طبرستان وقومس . وحول المنصور

(١) الطبري ج ٧ ص ٤٩٥ (٣/ ١١٩ - ١٢٠) .

اصبهذه طبرستان الى ولد هرمز بن الفرخان وتوجه • ويلفت النظر في هذه الحركة أمور عدة :

- (١) سرعة انتشار امر سنياذ ولم تدم حركته اكثر من سبعين يوماً • وهذا يعني أن جذورها الأولية كانت جاهزة قائمة منذ زمن طويل •
- (٢) كثرة اتباعه الذين بلغوا في تقدير (صديقي) تسعين أو مائة الف • ولعل في هذه الأرقام بعض المبالغة ولكنها تدل على أي حال على ماتوهم الناس من العدد الهائل لاتباع سنياذ •
- (٣) ولاء الخراسانيين لابي مسلم ولاء سيستمر واضحاً في الحركات المقبلة • وسوف يتضخم كثيراً مع الايام •
- (٤) ضخامة عدد المتذمرين من حكم العباسيين ، وهو بعد في أوله •

(٥) أن سنياذ كان «خرمياً» أو على الأقل لم يكن صحيح الاسلام والطبري ينسبه إلى المجوسية كما أن عامة أنصاره كانوا من الخرمية أيضاً • وتنسبه بعض المصادر إلى المزدكية • فهل كان على الاسلام ثم ارتد ؟ أم أن ابا مسلم كان يجند ويحمي الانصار - أيا كانت عقائدهم سواء كانوا مسلمين أم مجوساً ؟

(٦) أنه اعلن بصراحة بين شعاراته شعار إزالة الحكم العربي والاسلام وهدم الكعبة مع أنه كان قد ثار للأخذ بثأر أبي مسلم • وهي شعارات سياسية - دينية معاً تكشف بعض الاعماق الفكرية التي كان يستند إليها أبو مسلم نفسه ••

(٧) أن الشعارات الأخرى التي أعلنها كانت تحوي بعض الأفكار المزدكية والزرادشتية بجانب بعض الأفكار الاسلامية التي تبنتها فيما بعد فرق الغلاة من الشيعة • وقد طلب الى أنصاره التوجه إلى الشمس بالصلاة بدل الكعبة • وهذا يعني أن مصرع أبي مسلم أوجد نوعاً من

الردة الدينية أيضاً بجانب ما أثار من مشاكل سياسية وثورية .
٨ (سرعة انهيار الحركة • ويبدو أن تلونها باللون المجوسي
الواضح واجتماع العرب المسلمين المستقرين في الجبال بقيادة عمر بن
العلاء ضدها وتأيد الموالي من الفرس المسلمين للسلطة العباسية هو
الذي هزم الحركة •

لكن فشل سبأذ زاد في مرارة اليأس عند الخراسانيين فينما
نراهم ينضمون بسرعة بعد فترة قليلة الى جهور بن مراد العجلي نفسه
حين ثار نجد أن «السبأذية» سوف تغفل بين العامة وتبقى ضمن العقائد
المحلية في الري وقزوین حتى مابعد القرن الخامس الهجري •

ب - ثورة اسحق الترك :

هو ، من دعاة أبي مسلم الذين هربوا عند
مقتله الى ما وراء النهر (ولهذا دعي بالترك حسب قول ابن النديم •
وبعضهم ينسبه الى ولد يحيى بن زيد بن علي وبعضهم يجعله أمياً من أهل
ما وراء النهر) • ثار اسحق لمقتل مولاه وادعى ان ابا مسلم حي سجين
في جبال الري ، وسيخرج في وقت معين • ويذكر ابن النديم^(١) ادعاه
انه نبي أنقذه زارادشت الحي الذي لا يموت والذي سوف يخرج ليقم
هذا الدين ... واجتمع اليه (المبيضة) انصار ابي مسلم • ولئن قبض
والي خراسان ابو داود خالد الذهلي عليه وقتله سنة ١٤٠ ، فان شيعة التي
تسمت بالمسلمية استمرت في الخفاء • ويذكر ابن النديم وجودها في
عصره (القر الرابع) ولكن في الخفاء في قرية خرنباد حول بلخ وتسمى

(١) ابن النديم الفهرست ص ٣٤٤ - ٣٤٥

بالمسلمية الحرمدينة كما يذكر المستشرق بارتولد ان بعضها كان يعيش في قرى بلخ في القرن الثاني عشر (السادس الهجري) • وربما استطعنا في تقييم أخير للحركات التي نجمت عن مقتل ابي مسلم أن نسجل هذه الملاحظات :

أولاً — أنه أوجد ردود فعل دينية — سياسية معاً ، وكانت هذه الردود مباشرة مما يدل على عمق تأثير الايرانيين بشخصية أبي مسلم وأعماله •

ثانياً — أن هذه الردود ظهرت في مناطق عدة من خراسان منذالري الى بلخ إلى نيسابور ثم الى ما وراء النهر حيث تعيش أيضاً شعوب تركية • مما يدل على سعة نفوذه في الرقعة الجغرافية •

ثالثاً — أن ردود الفعل هذه ظهرت بأشكال عديدة حسب المذاهب المجوسية فبينما تظهر كما قال صديقي علاقة ابي مسلم بمزدك في حركة سباز ترتبط علاقته بزارادشت في حركة اسحق الترك والرزامية • وكانت الحركات دوماً ثورية دينية وسياسية •

رابعاً — أنصار كافة الحركات ، بعد فشلها ، كانوا يتحولون الى جمهور مستعد لتأييد كل ثورة فأتباع سباز انحازوا الى جمهور العجلي وجماعة اسحق الترك انضموا إلى عبد الجبار الازدي في تمرده على العباسيين بقيادة زعيمهم الجديد براز • وفي هذا دلالة على القطيعة الكاملة التي سرعان ما قامت بين البيت العباسي الذي استقر في العراق وبين الاقليم الذي احتضن ثورته وأيدها وأوصلها الى النصر : خراسان •

٣ - الحركات المارقة :

وهي التي كشفت عن علاقتها الصريحة بالعقائد القديمة • وإنما جراًها على الظهور النصر الذي شارك الفرس مع غيرهم في إحرازه ضد العرش الأموي • ونعد من هذه الحركات :

آ - ثورة بهافريد (به أفريد) : وقد ظهر في نيسابور منذ سنة ١٢٩ قبل خلافة أبي العباس يدعى النبوة - كما قالوا - وأنه خليفة زارادشت (صدق زارادشت) •

ويبدو أن الرجل كان على شيء من الثقافة والایمان ببعض المبادئ الأخلاقية وله بعض الاطلاع على مبادئ الاسلام بجانب الزارادشتية وقد أفاد من التطواف في الآفاق ما بين ما وراء النهر الى الصين قبل أن يقر في نفسه وضع عقيدة جديدة باسمه • ويروي البيروني: أن بهافريد عاد من الصين بعد غياب سبع سنين «وحمل من طرفها مع نفسه قميصاً أخضر يسع مطوياً قبضة الانسان دقة ونعومة وصعد الى ناووس ليلاً ثم نزل منها بالغداة وبصر به رجل حراث يكرب أرضاً له فأخبره أنه كان في السماء مذ غاب عنهم وأن الجنة والنار عرضتا عليه وأوحى الله إليه وألبسه ذلك القميص وأنزله الى الأرض في تلك الساعة • فصدقه الحراث وأخبر الناس بأنه شاهده وهو ينزل من السماء (١)»

ويتفق البيروني مع ابن النديم وغيره في أن دعوة (به أفريد) قد

(١) البيروني - الآثار الباقية ص ٢١٠

لاقت رواجاً واسعاً في الناس « واستجاب له خلق كثير^(١) » من المجوس ولعل السبب في ذلك أن الرجل حين رأى دخول الزارادشتيين المتتابع في الاسلام أراد أن يقطع الطريق على هذا التطور الديني بنقل محاسن ما يراه الناس في العقيدة الاسلامية إلى الزارادشتية نفسها وتطوير تلك العقيدة في الاتجاه الإسلامي •

وهكذا أدخل بهافريد تعديلات أساسية على المجوسية تأثر فيها بوضوح بالروح الاسلامية وبشيء من البوذية فأمر أصحابه بترك شرب الخمر أو أكل الميتة أو نكاح الأمهات والأخوات والبنات وبنات الأخ كما فرض عليهم سبع صلوات في اليوم ، كل صلاة لأمر • وأولها في توحيد الله وجعل التوجه أثناء الصلاة إلى الشمس حيثما استدارت بدل التوجه إلى الكعبة • وهذا التحول المجوسي إلى التوحيد هو تحول هام فقد كانت الزارادشتية قد تحولت إلى العقيدة الثنوية • ولعل مبدأ الرجعة (الذي اقتبسه بهافريد عن الشيعة الغلاة) كان هأم مبادئه فقد ظل أتباعه قروناً من بعده ينتظرون عودته •

وقد استغل بهافريد فرصة الاضطراب والفوضى التي وقعت بها خراسان إثر اعلان الثورة العباسية لنشر دعوته وأفكاره ، في منطقة نيسابور التي ظهر فيها وجيل بالذغيس حيث كانت الزارادشتية ما تزال مستقرة بين السكان وقد تقبل عامة المجوس هذه التعديلات الجديدة على الديانة القديمة واتبعوها لأنها في الوقت الذي تربطهم فيه مع دين الحكم لا تقطع صلتهم مع دين الآباء الذين مضى على توطده فيهم ثلاثة

(١) ابن النديم - الفهرست ص ٣٤٤

عشر قرناً على الأقل حتى ذلك الوقت • ولا بد من الإشارة الى أن في تاريخ المجوسية الزرادشتية محاولتين أخريين من هذا النوع قامتا لتجديدها إحداها قام بها ماني في القرن الثالث الميلادي فأوجد بها المانوية موفقاً فيها بين الزرادشتية والمسيحية التي انتشرت وانتصرت في تلك الفترة ، والثانية قام بها مزدك في القرن السادس محاولاً حل مشاكل الظلم الاجتماعي برد أمره الى أمرين : المال والمرأة وضرورة حل ذلك الظلم باباحة هذين المصدرين من مصادر البلاء ! ولهذا لم يكن غريباً أن يظهر (بهافريد) في محاولة جديدة ثالثة لتطوير المجوسية على أساس مبادئ الاسلام الآخذة مع هذه المحاولة التوفيقية التي ترضى قناعاتهم الأولى • وقد صاغ بها بهافريد أفكاره في كتاب كتبه بالفارسية وزعم أنه وحي يوحى ...

ويبدو أن بهافريد وجه همه لبعض الاصلاحات العسراية والاجتماعية ففرض على اتباعه دفع سبع أموالهم وكسب أعمالهم (مقابل الزكاة الاسلامية أو مقابل خمس الغنائم) لتعير الطرق وإصلاح القناطر كما منع أن تتجاوز المهور ٤٠٠ درهم ، وأمر باطلاق الشعور والجسم ومنع الزمزمة عند الطعام كما حرم ذبح الأنعام الا ما هرم منها ولعل السبب في ذلك ضرورة استخدامها في العمل الزراعي والحرث • فالزادشتية تحث على العمل وكسب الرزق والانتاج والزراعة والرعي • فشق الأرض بالمحراث خير عندهم من تقديم ألف قربان للآلهة وعشرة آلاف دعاء وهذا ما يكشف الجذر الاقتصادي وطابع الثورة الفلاحية في الحركة التي لا تشك أنها هدت بذلك طبقات الكهنة المجوسية المتحالفة مع الاقطاعية الايرانية ودعت الطرفين للتعاون معاً على مكافحتها. واستعداد الحكم الاسلامي ضدها •

ومقارنة أفكار بهافريد بالزارادشتية الأولى تكشف أن الرجل حاول إعادتها لحد ما الى مبادئها الأولى في التوحيد فقد كانت في الأصل موحدة تحارب الشرك والاصنام كما تؤمن بالبعث والحساب والجنة والنار والصراط في اليوم الآخر وهذا التشابه هو الذي استغله بهافريد فأضاف إليه بعض المبادئ الاسلامية لإقامة عقيدته •

وهذا بالضبط ما أثار عليه كهان المجوسية المحافظين أكثر مما أثار المسلمين لأنه «خالف المجوس في أكثر الشرائع» بحركته الملحدة ، لهذا اجتمع الهرايذة والموايذة الى أبي مسلم حين قدم نيسابور وشكوا إليه بهافريد الذي «أفسد دين الاسلام ودينهم» • ويذكر البيروني أن أبا مسلم بعث عبد الله بن شعبة إليه من الجبال « فحملة إليه فقتله ، ومن ظفر به من أتباعه» بينما يذكر ابن النديم أنه قبل العودة للإسلام أولاً وسود ثم استمر في «كهايته» فقتل سنة ١٣٧ ويذكر الشهرستاني أن قتله كان على باب الجامع في نيسابور وأن الذي سلمه هو موبذ المجوس^(١) •

على أن البهافريديّة لم تمت بموت صاحبها • فقد قامت في بادغيس سنة ٧٦٧/١٥٠م ، في عهد المنصور نفسه ، بزعامة رجل يدعى أشناس • كما يشير ابن النديم الى وجودها في القرن الرابع الهجري • ويشير البيروني إلى أن البهافريديّة استمروا بعد زعيمهم «يعادون المجوس عداوة شديدة ويزعمون أنه صعد السماء على برذون وسينزل إليهم كما صعد وينتقم من أعدائه» •

(١) انظر الشهرستاني - الملل والنحل (ط) . الكيلاني - القاهرة

(١٩٦١) ج ١ ص ٢٢٨ - ٢٢٩

ثورة استاذسيز :

قامت هذه الثورة ، في خراسان سنة ١٥٠ هـ . وقد تجمعت فيها على ما يبدو من اتساعها - كافة الطبقات الحاكمة هناك على العباسيين ، كما انعكست فيها - على ما يبدو من عنفها - كل عقايل الآمال الفاشلة التي عقدها الخراسانيون على العباسيين فخابت ، وكل المرارة التي أصابتهم بانهمزام ثوراتهم المحلية المتتالية . كانت نوعاً من المحاولة الأخيرة للتعبير عن رفض العرش العباسي لدى أولئك الذين ساهموا في إقامته ورجوا من وراء تلك المساهمة مكاناً من المكان في الدولة الجديدة .

واستاذسيز الذي تزعم الثورة كان على ما يظهر أميراً على بعض الجيوش الخراسانية فخرج بها - كما يقول السيوطي - عن الطاعة . وسرعان ما استطاع الاستيلاء على مدن خراسان واحدة بعد الأخرى وبعد أن احتل هراة ومنطقة سجستان اتجه الى مرو الروز عاصمة خراسان «وعظم الخطب واستفحل الشر وعظم على المنصور الأمر ...» وبلغ ضريبة الجيش الخراساني ثلاثمائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل فعمل معهم أجشم المروزي (قائد مرو) مصافاً (فلم يستطع الوقوف لهم) فقتل أجشم واستبيح عسكره ...» . في الوقت الذي كان فيه يزيد بن منصور والي خراسان (وخال الخليفة المهدي بن المنصور) يهرب من بست عاصمة سجستان بعد معارك قاسية إلى نيسابور ..

وقد ظهر هناك قائد يساعد استاذسيز اسمه الحريش قراد في إرباك الموقف العباسي كله في المشرق .

وبالرغم من أن المصادر تتهم استاذسيز بادعاء النبوة ويذكر

الشهرستاني أن السيسانية تحمل مبادئ بهافريد ذاتها وأن الاثنين فرقة مجوسية واحدة فكأن ثورة الثاني استمرار لحركة الاول إلا إن هذا الاتهام لا يسانده في الواقع إلا ظاهرة وجود الاعداد الهائلة من المجوس مع أستاذسيز . من خراسان وسجستان على السواء . ولكن شكل الحركة السياسي يشكك في هويتها الدينية وقد يحمل على الظن - مع عدم وجود أي فكرة دينية مجوسية جديدة يعلنها أستاذسيز - أن الاتهام الديني بالنبوة لم يكن إلا تبريراً عباسياً دعائياً . وما كانت الحركة ، في هذه المرة على الأقل سوى ثورة سياسية ضد المنهج العباسي في الحكم، هذا المنهج الذي لم يخفف من الظلم الأموي السابق شيئاً بل لعله زاد من وطأته على الفقراء والفلاحين والمستضعفين بعد أن كانت الدعوة العباسية نفسها قد فتحت عيونهم على آفاق وآمال جديدة .

وقد اختار المنصور لمقاومة هذه الثورة الشاملة ابنه المهدي أرسله مع الجيش فعسكر في الري ثم أتبعه بأعرق قواده : خازم بن خزيمة التميمي الخراساني . لكن المعارك الأولى مع جماعة أستاذسيز كانت خاسرة بسبب تضارب القيادات وتوزع الجيوش . وطلب خازم من المهدي أن يعهد إليه بالأمر كله ويجمع في يديه قيادة الجيوش كلها ففعل ولما لم ينفع ذلك في تحطيم الثورة طلب المهدي نجدة القوى في طخارستان . وعسكر خازم وخندق في مكان حصين قرب نيسابور واستطاع في حركة انسحاب مخادعة أن يعاود الكرة على جموع أستاذسيز والحريش معه ويهزمه في موقعة دامية عنيفة بلغ عدد قتلاها فيما تذكر المصادر سبعين ألفاً وعدد الأسرى أربعة عشر ألفاً ضربت أعناقهم أيضاً . . .

وهرب أستاذسيز في الجبال مع أعداد من جنده فلاحقه خازم وحاصره مدة حتى استسلم فأرسل في القيود الحديدية الى بغداد حيث

قتل بينما عفا المهدي عن ثلاثين ألفاً من جنده الذين استسلموا معه ،
وهذأت خراسان كما استطاع جيش يقوده عبيد الله بن العلاء أن يدخل
(بست) عاصمة سجستان سنة ١٥١ ويعيدها إلى الطاعة العباسية . وعاد
المهدي تلك السنة إلى بغداد ليستقبل فيها الاستقبال الحافل .

ح - المقنع والمقنعية (١٥٩ - ١٦٣ / ٧٧٦ - ٧٧٩)

وبالرغم من أن هذه الحركة قد قامت بعد وفاة المنصور بسنة
واحدة واستمرت في عهد ابنه المهدي فإنها في الواقع خاتمة تلك الحركات
«الملحدة» أو «المسلمية» التي قامت في نسق متصل في خراسان مدة
تقارب نصف قرن (ما بين حركة خدّاش ١١٦ ونهاية المقنع ١٦٣)

وصاحب الحركة المقنعية هو هاشم بن حكيم^(١) (وقيل حكيم
أو عطاء) وهو قصار من مرو وأصله من قرية حولها يسمونها (كازه) أو
(كاوه كيمردان) . كان أبوه أحد القواد في خراسان أيام المنصور ويبدو
أنه حصل بعض العلوم «وتعلم الشعبذة والنيرنجات والطلّسات ...
وكان في غاية الذكاء ... وصار بارعاً للغاية في السحر ...» وقد عمل
هاشم هذا في قيادات خراسان أيام أبي مسلم ثم صار «وزيراً» أي كاتباً
للوالي عبد الجبار الأزدي وأسر معه حين أسروا أخذ إلى بغداد ثم أطلق
فعاد إلى مرو ثم ادعى الألوهية لا النبوة . وقد لقب بالمقنع لتبرّقه
بالحرير الأخضر أو لاتخاذ وجهاً من ذهب^(٢) زعم في تعليقه أن

(١) البغدادي - الفرق بين الفرق ص ٢٤٤ والنرشخي - تاريخ
بخاري ص ٩٤ .

(٢) النرشخي ص ٩٤ وابن الأثير ٦ ص ٣٨ والفخري ص ١٣٢ .

الناس لا يستطيعون تحمل نوره فلهذا اتخذه كي لا يحترقوا بينما يقول المؤرخون المسلمون انه كان اعور أصلع مشوه الخلق «في غاية القبح» فأخفى بذلك وجهه الشائه .

وتقوم عقيدة المقنع على فكرة الحلول والتناسخ «فالله - كما يروي له النرشخي والفخري^(١) - خلق آدم فتحول في صورته . ثم في صورة نوح وهلم جرا (أي الى ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد) ثم الى ابي مسلم الخراساني ثم الى هاشم . وهاشم في دعواه هو المقنع» وهكذا ادعى الألوهية وانه تجسد اذ ليس لاحد ان ينظر اليه قبل التجسد» ولكنه - على ما يذكر البيروني^(٢) - لم يظهر ذلك لجسيع أتباعه وكان يكتب لأتباعه : «اعلموا أن الملك لي ولي العزة والربوبية ولا إله غيري^(٣)» -

ويذكر القزويني في آثار البلاد وابن خلكان ان آية المقنع (قسرا) اظهره للناس فكانوا يرونه من مسافة شهر من محله وبقي ذكره في الناس والاشعار والقزويني فسر ذلك القمر بانه «ماكان الا بطريق الهندسة ، وانعكاس شعاع القمر على طاس كبير مملوء بالزئبق في قعر بئر^(٤)» وقد ذكر النرشخي أنه استخدم انعكاس الشمس في المرايا على أتباعه حين ألحوا في رؤيته .

وقد تعددت لدى المؤرخين مبادئ المقنع وتنوع ما يحمل عليه من

(١) البيروني ص ٢١١ وابن الاثير .

(٢) القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ج/١/ ص ١٣٢ .

(٣) النرشخي - تاريخ بخاري ص ٩٥ -

(٤) البغدادي الفرق بين الفرق ص ٢٤٣ .

الأفكار وخلاصة ما يذكرون :

- أ - أنه ادعى الألوهية • وقد أجمعوا على ذلك •
- ب - أنه قال بالحللول والتناسخ فقد حل الله في سلسلة الانبياء إلى محمد ثم بأبي مسلم ثم المقنع •
- ج - أنه قال بالرجعة وأنه سيعود إلى الأرض لنشر العدل •
- د - أوصل أبا مسلم لدرجة الألوهية (كما فعلت الرزامية) •
- هـ - اسقط كافة الفرائض عن أتباعه وألغى الحلال والحرام •
- و - أعلن التعاليم المزدكية من إباحة للمال والمرأة وطبقها بين أتباعه •
- ز - رفض السلطة العباسية وتحالف مع الترك ضدها • وأباح لاتباعه ولهم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم •

وهكذا فقد جمع المقنع عددا من المبادئ في حركته • واستعراضها يكشف أن المقنع كان «رزامياً» (من الفرقة التي تبادت في تقديس أبي مسلم حتى اعلنت فيه روح الآله بطريق التناسخ) وإذا نظرنا في الذي يذكره النرشخي وابن الأثير والبيروني والشهرستاني من اجتماع «المبيضة» (وهم من جماعة أبي مسلم) حوله ، ثبت لنا اتصال الحركة بدعوة أبي مسلم الخراساني وإن ظلت هذه الجماعة تعمل منفصلة عنه على ما يظهر • على أنا نلاحظ فيها إلى هذا وجهاً دينياً مزدكياً (خرمياً) من جهة وآخر سياسياً قومياً (فارسياً) من جهة أخرى •

فمبادئ خرم المزدكية في المشاعية ظهرت لدى المقنع الذي أباح لاتباعه - كما يقول البيروني - «الاموال والفروج وشرع لهم جميع ما أتى به مزدك» • والبغدادى يقول إنه «أباح لاتباعه المحرمات وحرم عليهم القول بالتحريم واسقط عنهم الصلاة والصيام وسائر العبادات» •

ثم أن الرزامية نقلت الامامة من العباسيين الى الزعيم الفارسي ابي مسلم فهي بذلك لاتعترف بامامة العباسيين أو بسلطتهم واذا كان هذا يفسر التفاف (المبيضة) حولها فانه يبين في الوقت نفسه أن في الحركة جذوراً سياسية أيضاً لا سيما واننا نجد جميع العناصر الساخطة على العباسيين (لاسباب مختلفة) تجتمع اليها : فامير بخارى (بخاراخذات) يؤيد الثورة (ولهذا قتل بعدها) وخاقان الترك يساعد المقنع (كما ذكر ابن الاثير) والأتراك «الخلجية» كانوا معه واهل الصغد • فهي إذن حركة مثلثة الأقطاب فيها وجه العلاقة مع الحركات المسلمية ولكن فيها أيضاً إثبات الزارادشتية — المزدكية ورفض الاسلام ، مع إقامة الجبهة الايرانية — التركية ضد الحكم العباسي العربي ولعل فيها لذلك وجهاً رابعاً يعقد نوعاً من الصلة عن طريق مبادئ الرجعة والحلول بينها وبين بعض الأفكار الشيعية العالية •

وقد انتشرت حركة المقنع من خراسان الى ما وراء النهر : فعبرت جيحون الى نواحي كش ونسف • وجعل صاحبها مركزه في بلدة (نرشيخ) قرب بخاري • ويبدو أن هذه الحركة مرت بثلاثة أطوار : فقد ثار في البدء جماعة المقنع نفسه إثر انتشار تعاليمه • وكان مختفياً في هذه الفترة في مرو بينما كان دعاة يجوبون أنحاء خراسان في الدعوة له فأصلوا كثيراً من الناس حسب ماكرر النرشخي في القول وكان أكثر مالقيت الدعوة من التجاوب في قرى بخارى وقرى الصغد • ثم دخلت حركته مرحلتها الثانية حين وجد فيها المبيضة أصحاب أبي مسلم في خراسان وما وراء النهر مجالا لتحقيق ثورتهم فانضموا إليها ووجدوا جهودهم معها ثم كانت المرحلة الثالثة حين انضم الترك الى الحركة لا عن ايمان بالمقنع وتعاليمه والتحاق بثورته ولكن كعنصر ثالث يريد الاستفادة من الحركة في دفع الحكم العربي — الاسلامي إلى الوراء : وفي هذه المرحلة

الثالثة انتقل المقنع من مرو وخراسان إلى ما وراء النهر وجعل لنفسه قلعة جبيلة حصينة عند نرشيخ اسمها سيام أو بسباب : اتخذها مقراً وسكناً يحج إليه الناس •

وقد تعاون المبيضة مع المقنعية مع الترك في تحالف سياسي عسكري -عقائدي فأرهبوا القوات العباسية في المنطقة جميعها بالمعارك والهجمات وقطع الطرق على القوافل ونهب القرى وسبي المسلمين وابنائهم «حتى اشتد البلاء على المسلمين» شدة كبيرة^(١) • ويبدو أن بعض العرب المتوطنين مالوا المقنع وانضموا الى الايرانيين والترك في دعمه ويذكر النرسخي اسم عبد الله بن عمرو الذي أيد المقنع وزوجه ابنته !

وعجز والي خراسان حميد بن قحطبة الطائي عن ضبط الأمر بل عجز رغم الحاميات التي نصبها لمراقبة شواطئ نهر جيحون عن منع المقنع من العبور الى ما وراء النهر وارتبكت الأمور في خراسان وبخارى نفسها ببعض الأحداث والمضاعفات التي أطالت من أجل الثورة المقنعية • فبالرغم من أن القائد الذي عينه المهدي لما وراء النهر : جبريل بن يحيى استطاع بعد أربعة أشهر من القتال حول بخارى أن ينتصر ويجبر المقنعية والمبيضة على الانكماش الى قواعدهم إلا إن ثورة محلية قامت عليه في تلك المدينة هي ثورة يوسف البرم الخارجي سنة ١٦٠ فأجبرته على التوقف ومع أنها أخمدت بسرعة إلا إن ولاية خراسان - الأم اضطرت بدورها إذ توفي واليها حميد بن قحطبة فتلاه ابنه عبد الله الذي لم يلبث أن استبدل به أبو عون عبد الملك الأزدي ثم عين بدلا عنه وال رابع هو

(١) انظر تفاصيل هذه الاحداث لدى النرسخي - تاريخ بخاري ص ٩٤ - ١٠٤ •

معاذ بن مسلم سنة ١٦١ مما أربك العمليات الحربية ضد الثائرين .

وقد جمع معاذ أقصى ما يستطيع من آلة الحرب ومن أعداد المحاربين (٧٥ ألفاً)^(١) في بخارى وقصد السغد وسمرقند وخاض مع المبيضة ومع الترك حروباً دامت مدة عامين ، ربح بعضها وخسر بعضها الآخر ثم يئس من النصر النهائي واختلف مع القائد سعيد الحرشي أمير هراة فطلب إعفائه وتولى المسيب بن زهير الضبي أميراً على خراسان في مرو سنة ١٦٣/٧٧٩ فجاء بخارى ليتولى بنفسه قيادة المعارك . . التي نصب لقيادتها سعيد الحرشي نفسه كما أرسل حاكم بخارى الجنيد بن خالد الى الثوار في خوارزم . . . وإذا كانت حركة المقنص تكشف عن انتشار الفقر والجهل بين الطبقات القروية في خراسان وما وراء النهر وكان انضمام المبيضة إليها دليلاً على تأصل المجوسية هناك ووجود جموع كبيرة ما تزال عليها في تلك المناطق كما تحقق على انتشار الاسلام والمسلمين فمما لا شك فيه أن انضمام الترك بدورهم وبهذا العنف ، الى الحركة إنما هو يقظة لتلك المعارك القديمة التي خاضوها ضد التوغل العربي الاسلامي في ما وراء النهر في أواخر العهد الأموي . والتي استطاع نصر بن سيار في النهاية تهدئتها . وهي تعود الآن ، بعد ثلاثين سنة في تنمة جديدة ذات ثوب ديني رقيق جعلته ستاراً أو استغلت مناسبه لمعاودة النضال للهدف القديم : رفض التوغل الاسلامي في المنطقة .

ولا شك أن السلطات العباسية المركزية قدرت ، بعد تمادي

(١) يذكر النرشخي (تاريخ بخاري ص ١٠٠) أنه جمع ٥٧٠ ألفاً وأعلىها ٧٥ ألفاً .

الثورة ، مدى أخطارها ومعناها الحقيقي لدرجة أن الخليفة المهدي نفسه انتقل الى خراسان لمراقبة الموقف .

وقد استطاع الحرشي في النهاية حصار المقنع حيث اعتصم في قلعة سيام وطال الحصار أربعة عشر شهراً فيما يظهر^(١) والمقنع صامد في حصنه الذي كان يحيط به من دونه قلعة واسعة اجتمع فيها من انصار المقنع حوالي ثلاثون ألفاً . فلما ضيق سعيد الحرشي عليه وأتى بجلود الجواميس ليملاها تراباً ويجعل منها جسراً على الخندق «فتح قائد (المقنع) الباب وخرج طائفاً واعتنق الاسلام واستولى المسلمون على القلعة» أما المقنع فلم يبق معه سوى ألفين من الرجال وحين عرف أنه لا يمكنه الاحتفاظ بالحصن الداخلي طويلاً قام بعملية انتحار جماعية من نوادر ما يحدث في التاريخ (جری مثلها عند حصار قرطاج في نهاية الحروب البونية مثلاً) . ويذكرون أنه سقى نساء وأهله بعض الشراب المسموم فلما تهاووا أمواتاً قتل غلامه الأخير وكان قد أحصى التنور ثلاثة أيام وأذاب فيه النحاس والقطران فألقى بنفسه أخيراً في النار الموقدة ! كان ذلك على الأرجح سنة ١٦٣^(٢) .

وهذه الخاتمة الانتحارية التي اختارها المقنع لحياته وإن كان

(١) ذكر النرشخي (تاريخ بخاري ص ١٠٣) أن الحصار دام ١٤ سنة وهو خطأ واضح ولعله كان يريد أن يقول ١٤ شهراً كما نرجح أو لعل الناسخ الفارسي للكتاب الأصلي أخطأ فوضع كلمة سنة بدل كلمة شهر .

(٢) يذكر النرشخي أن نهاية المقنع كانت ١٦٧ وأما البيروني فيجعلها ١٦٩ ثم يذكر النرشخي نفسه والبغدادى أن حصاره استمر ١٤ سنة ويبدو أن ذلك من خطأ المؤرخين .

القصد منها أن لا يظفر العباسيون به أو بأهله وهو يعرف مصيره بين أيديهم ، إلا إنها سمحت لمبادئه أن تستمر من بعده ولأتباعه أن لا يفقدوا الأمل بعودته • فإحراق نفسه في اللحظة الأخيرة « زاد في افتتان من بقي من أصحابه » فزعموا أنه صعد الى السماء • ويقولون إنه وعد بالعودة في شكل رجل أشمط على برذون أشهب بعد عدد معين من السنين فهم ينتظرونه • ولدى المقدسي والبغدادى والبيروني وابن العبري إشارات متعددة تدل على وجود المقنعية في مواضع مختلفة مما وراء النهر حتى القرن السابع الهجري (١٣ م) • وأنهم متخفون ويظهرون الانسلام •

٤ - مشكلة طبرستان ...

هذه المنطقة الجبلية الصعبة في شمال ايران • على الأطراف الجنوبية من بحر الخرز شكلت بالنسبة للمنصور والخلفاء من بعده مشكلة إيرانية من نوع آخر • اشتبك فيها عامل الاستقلال المحلي المتمثل في أسرة حاكمة قائمة مع العامل الديني المتمثل في مذهب الخرمية الحرة وطبرستان إحدى البؤر الرئيسة لهذا المذهب • وقد كانت منذ الفتح العربي والعهد الأموي تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي والديني تحت حكم أسرتها الحاكمة •

وكانت علاقة اصهبذ طبرستان بالعرب إنما تنظمها خاصة معاهدة أردبيل التي عقدها معه حذيفة بن اليمان سنة ٢٢٢هـ / ٦٢٤ أيام الفتوح وتتضمن تحديد الخراج السنوي للعرب والحرية الدينية والسياسية للطبريين وقد حددت هذه المعاهدة زمن سليمان بن عبد الملك • ولم يكن ذلك بالأمر الجديد على طبرستان فقد اعتاد ملوكها شراء استقلالهم الذاتي من الساسانيين بجزية سنوية •

وحيث قامت الثورة العباسية قبل الاصبهذ دفع الجزية السنوية هذه للعباسيين لما سار جيشهم الى العراق • وقد توسط خالد البرمكي في ذلك • وأول أزمة بين الاصبهذ والدولة الجديدة إنما كانت حين والى أهل طبرستان ثورة سباز (اثر مقتل أبي مسلم) وحين أنفذ سباز بعض خزائن أبي مسلم الى الاصبهذ • ويروي لنا ابن اصفنديار^(١) في تاريخ طبرستان والطبري كلاهما قصة انتهاء الاستقلال السياسي لهذه المنطقة إثر تلك الأزمة التي لم تكن سوى المبرر الظاهري لأطماع المنصور • فإن خليفة بغداد كان يعلم شأن خراسان وأهلها في قيام العباسيين ودعمهم والطريق بين خراسان وبغداد تمر باستمرار في منطقة الجبال على أطراف طبرستان • وقد جعل المنصور إقامة ابنه المهدي في الري في تلك الأطراف مدة طويلة (١٤٠ - ١٥١) خوفاً من أي تحالف محتمل بين ثوار خراسان المتعددين ودولة الاصبهذ •

وطبيعي أن يفكر المنصور في الخلاص من هذا «الجيب» غير المسلم الذي يشكل بالنسبة إليه خطراً محتمل الوقوع دوماً على خط المواصلات السياسي - العسكري الحيوي للخلافة وكما كان طبيعياً أن يفكر أيضاً بتحويل هذه المنطقة الى دولة الاسلام بسبب موقعها الاستراتيجي بين خراسان وارمينية وبسبب غنى الموارد فيها وطبيعي أخيراً أن يجد

(١) انظر ابن اصفنديار (بهاء الدين محمد بن الحسن البوشخي المتوفى سنة ٦٢٥) - تاريخي طبرستان (جزءان تحقيق ونشر عباس اقبال - طهران ١٣٢٠ / ١٩٤٢) الصفحات ١١٩ - ١٣١ من الجزء الاول . والمؤرخ الطبري وهو بدوره من هذه المنطقة روى ذلك ، انظر الطبري ج ٧ ص ٥١٠ - ٥١١ ، (١٣٦ / ٣ - ١٣٧) ثم ٥١٢ - ٥١٣ (٣ / ١٣٩ - ١٤٠) . وقد حاولنا التوفيق المنطقي بين روايتي الطرفين •

أمام نفسه المبرر الكافي لهذا الفتح وهو المبرر الديني وضرورة تحويل طبرستان الى الدين الاسلامي في إطار خطة العباسيين الواسعة لإسلام شعب خراسان وما وراء النهر بعد تلك الثورات المارقة التي نبتت فيهم .

وبالرغم من أن الطبري يبرر غزو طبرستان بأنه «لما ظفر المهدي بعبد الجبار (الأزدي) بغير تعب ولا مباشرة قتال . كره المنصور أن تتبطل تلك النفقات التي أنفق على المهدي (وعلى تجهيز جيشه) فكتب إليه أن يغزو طبرستان» إلا إن هذا المبرر لا يكفي بل يكشف بالعكس أنه كان من خطة المنصور ، حين جهز هذا الجيش أن تكون ضربته التالية بعد عبد الجبار وثورته للأصبهيد الذي كشف عن استقلالية ذاتية واضحة ، وعداء مستور لخليفة بغداد لا سيما حين طلب منه المنصور خزائن أبي مسلم مرة بعد مرة دون جدوى ورأى ما رأى من دعمه للثورات المارقة .

وطلب المهدي إلى أبيه أن لا يلحف في طلب الخزائن لتلا يلجأ الاصبهيد الى الثورة والانفصال النهائي وأن يحاول خديعته لأن البلاد كثيرة القلاع وعرة الجبال لا تحتل بالقوة . وقد نفذت الخطة في إحكام بارع : أرسل المنصور الى الاصبهيد ببعض الهدايا ومعها تاج ملكي . فكان جواب الاصبهيد على ذلك تنفيذ المعاهدات مع المسلمين بإرسال الجزية السنوية ثم أرسل المنصور الى ابنه المهدي أن يطلب من الاصبهيد الذي كان إذ ذاك يحارب جاره المصمغان (ملك ديباوند على الشاطيء الجنوبي الغربي من بحر قزوين) . السماح لجيوش المسلمين بعبور الطريق الشمالي المؤدي عبر طبرستان إلى خراسان بحجة ان أعداد المقاتلة كثيرة ولا بد من سرعة سيرها . ووافق الاصبهيد على الطلب

البريء • لكن ما إن دخلت قوات أبي الخصب مرزوق ، مولى المنصور،
وخازم بن خزيمة إلى طبرستان حتى بدأت الاحتلال •

ولم تكن قصة الاحتلال بايرمر السهل فما إن أحس الاصبهذ
توغل الجيوش في بلاده بدلا من طريق خراسان حتى أوقف الحرب مع
المصمغان الذي كان من بعد النظر السياسي بحيث تحالف معه ضد
الجيش الاسلامي قائلا : متى صاروا إليك صاروا إلى ! وطالت الحرب •
فأوفد المنصور جيشاً آخر يقوده عمر بن العلاء^(١) «أعلم الناس ببلاد
طبرستان» فاحتل بعض المدن والقلاع والح في القتال وكثر القتل وصار
الاصبهذ الى قلعته : قلعة الطاق الحصينة وطلبت الأمان على أن يسلم
ما في القلعة من ذخائره •• وكتب المهدي بذلك الى أبيه فبعث أبو جعفر
بوفد من عنده أحصى ما في الحصن وانصرف • ويبدو أن الاصبهذ
هادن الجيش العباسي بعد أن انهار حليفه المصمغان وأسر مع عائلته في
الحرب^(٢) وقتل • فأقره المهدي على مكانه وقلعته «فهذا فتح طبرستان
الأول» سنة ١٤١/٧٥٩ •

وفي السنة التالية ١٤٢ نقض الاصبهذ العهد مع المسلمين وقتل من
كان يبلاده منهم فتوجه إليه قواد العباسيين مقاتلين فأقاموا على حصنه
مخاضرين له ولمن معه حتى طال القتال والمقام • ولجأ القواد العرب

(١) كان لدى المنصور أخ للمصمغان اسمه ابرويز وهو الذي أشار
عليه بارسال عمر بن العلاء الذي يقول بشار فيه للخليفة :
إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمراً ثم نم
(الطبري ٧/٥١٠) •

(٢) أخذت بنات المصمغان إلى القصر العباسي فكان منهن أمهات
أولاد... (الطبري ٧/٥١١) •

الى الحيلة : اقترح أبو الخصيب أن تحلق لحيته ورأسه ويترد فيلجأ
إلى الاصبهذ ويتدبر فتح القلعة . ويذكر الطبري تفصيل الحيلة الناجحة
التي استطاع بها أبو الخصيب أن يصبح آمر الباب الحجري الضخم
للقلعة ...

ويبدو أن الاصبهذ غادر قلعته إلى جيلان في التماس النجدات
والمعونة وفي تلك الاثناء رمى أبو الخصيب إلى أصحابه بنشابة حدد لهم
فيها موعد فتح الباب ... وسقطت القلعة ومعها البلاد كلها سنة ١٤٣هـ أما
الاصبهذ فحين علم سقوط معقله : قلعة الطاق مص خاتماً له فيه سم
وقتل نفسه (١) ...

وتسلم ابو الخصيب حكم طبرستان في خطة واضحة لنشر الاسلام
فيها وبناء المساجد . ولكن مهمته لم تكن بدورها سهلة لأن الاضطرابات
استمرت ضده ، وضد من جاء بعده فلم يكن السلطان العباسي قائماً فيما
وراء جدران المدن حيث تقيم الحاميات العسكرية . وقامت الصعوبات
في وجه انتشار الدين لأن الناس كانوا شديدي التعلق بديانتهم الأولى
تعلقهم بأمرائهم الأولين . بل لجأ بعضهم إلى التشرّد في الجبال متوحشين .
وخاصة شعب المصمغان . يقول الطبري : «... ولمسات المصمغان
تحوز أهل ذلك الجبل فصاروا حوزية لأنهم توحشوا كما تتوحش حمر
الوحش» (٢) ذلك أن الأفكار الدينية المزدكية الخرمية التي كانت

(١) يذكر الطبري ما كان من أمر عائلة الاصبهذ التي دخلت بدورها
بلاط العباسيين . ومنهن مشكلة أم ابراهيم بن المهدي . وهي بنت خونادان
قهرمان المصمغان ، وباكد اخت الاصبهذ الأصم وابنتها البحرية أم
منصور بن المهدي (الطبري ٥١٣/٧) .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٥١١ (١٣٧/٣) .

مستقرة في طبرستان وفي الجبال الغربية الشمالية من ايران ، وجدت نوعاً من اليقظة الدينية بدخول أفكار الفرق «المسلمية» (لأبي مسلم) عليها . كما وجد السكان في هذه العقيدة الخرمية المجددة والتي تسمى أحياناً بالحمرة نوعاً من أسلحة المقاومة للتسلط العباسي الاسلامي . ولهذا كان أهل طبرستان ظهراً لكل نائر خرمي : مثل سنياذ وبهافريد واستاذسيز والمقنع في حركاتهم المختلفة .



الفصل السادس

تنظيم الدولة

تلك البوائق والفتوق على خطرهما لم تستأثر بكل جهد ابي العباس والمنصور . فقد قابلها أيضاً . جهد ايجابي لتنظيم الدولة . ولئن بقيت الخطوط الكبرى للنظام الاداري الاموي قائسة في العهد العباسي ، لا سيما في مطلعها . فقد ابتكر المنصور خاصة كثيراً من التقاليد والقواعد في الادارة العباسية . يقول صاحب الفخري^(١) انه «أصل الدولة وضبط المملكة ورتب القواعد واقام الناموس واخترع اشياء...» ويمكن أن نعتبر عهده نهاية دور البناء والتأسيس - وهو الدور الاول - وقد تقرر بصورة تقريبية سعة الدولة العباسية ، وشأن الاقطار التي تتألف منها بعضها بالنسبة لبعض ، كما رست خطوط السياسة العباسية العامة . ووضع مبدأ اعتماد الخلفاء على القوة والدهاء في توطيد الدولة . واصبح للخلافة معنى ديني كما أضحت سلطة الخليفة مطلقة . ويمكن أن ندرس مناحي التنظيم العباسي في :

أ - ولاية العهد :

كان بالامكان أن ندرج هذه المشكلة في إطار مشاكل الطامعين في

(١) الفخري ص ١١٥

العرش من آل محمد فقد كانت في الواقع نزاعاً في قمة البيت العباسي على الخلافة ولكن المنصور هو الذي فجر هذه المشكلة تنفيذاً منه لمخطط اقتنع به في تنظيم الدولة ويتصل بتوارث العرش على أساس رأسي لا أفقي ولا أسري (مشيخي) •

فعهد عهد أبو العباس بالخلافة إليه عهداً دون نظام مسبق بعد أن كان وعد عمه عبد الله بن علي بها ، وجعل في الوقت نفسه لأبي جعفر ولي عهد يتلوه هو ابن أخيه : عيسى بن موسى وبالرغم من أن أبا العباس مشى في نقل الخلافة إلى أخيه على أساس عرضاني أفقي إلا أن مفهومه لورثة العرش إنما كان على أساس أسري بدليل أنه وعد عمه من جهة وعهد فعلياً إلى ابن أخيه من جهة أخرى • فلما جاء أبو جعفر أراد : أن يحفظ العرش أولاً في أولاد أبيه دون باقي الأسرة ، أي أن يلغي المفهوم الأسري ثم أن يحفظها في أولاده هو دون باقي أولاد إخوته أي أن يلغي المفهوم العرضاني في التوارث •

فأما المفهوم الأسري فكان قائماً في نفوس الكثيرين من بني العباس ويمكن أن نعد منهم ثلاثة على الأقل هم :

أولاً : عبد الله بن علي الذي ثار وحارب الحرب العنيفة للوصول إلى ما كان يراه حقاً له في الخلافة • ولكنه هزم وانهى رغم الأمان المحكم والايان الموثقة إلى القتل •

ثانياً : صالح بن علي بن عبد الله العباسي ، وهو شقيق عبد الله السابق • « وكان يتولى لأبي جعفر قنسرين والعواصم • فبلغه كثرة عدده ومواليه • فخافه • فكتب إليه في القدوم عليه فكتب إنه شديد

العلة فلم يقبل ذلك . وكان قد سل ، فصار الى بغداد فلما رآه أبو جعفر صرفه ولم يأمر له بصلة ولا بر فلما صار الى عانات من كور الفرات مات وكان نظير أبي جعفر في السن . . . »^(١)

ثالثاً : اسحق بن الفضل بن عبد الرحمن من نسل الحارث بن عبد المطلب . وكان يرى أن الخلافة تجوز في صالح بني هاشم جميعاً وكان يكثر في قوله للاكبر من بني عبد المطلب . . . » . وقد سجنه المنصور في المطبق واستمر سجنه في عهد المهدي باستمرار السعاية فيه بذلك^(٢) وإن أنكر اسحق هذا القول كله أمام المهدي ثم أطلق من السجن . على أن المفهوم الأسري (المشيخي) لم يكن مرشحاً للبقاء مع دولة بدأت تأخذ بالنظم الفارسية ، وقد حكمت نتيجة الحرب مع عبد الله بن علي بإقصاء هذا المفهوم الاسري نهائياً منذ هزم عبد الله وسجن ثم قتل . وأما المفهوم الثاني فكأنه أقسى مراساً لأنه يتصل في الواقع باثنين :

(١) محمد بن أبي العباس الخليفة الاول .

(٢) عيسى بن موسى ، ابن أخ الخليفين معاً والذي نص عهد أبي العباس لأبي جعفر على جعله ولياً للعهد .

وقد كان أمر الاول هينا لانه لم يكن يطلب الخلافة مع وجود عمه فيها . ولكن أبا جعفر أراد التاكيد من إقصائه حتى عن المطالبة بها فيما بعد وعن التفكير في جمع الانصار لها وعن تقبل الناس أنفسهم

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٨٣

(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ١٥٥ - ١٥٦ ثم ١٦٢ ثم ١٩١ (٣/٥٠٧ -

٥٠٨ ، ٥١٦ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ .

لفكرة خلافته • وكان سبيله إلى ذلك سهلاً بارعاً في وقت معاً • إذوجه
بمحمد بن أبي العباس واليا على البصرة « ووجه معه ... بالزنادقة
والمجان فكان فيهم حماد عجرد • فأقاموا معه بالبصرة يظهر منهم
المجون • » ويعلق الطبري على الخبر بقوله : « وإنما أراد بذلك
أن ييغضه إلى الناس »^(١) وقد عرف بالناس بالفعل ذلك وعرفوا قصة
عشقه لاحدى بنات عمه وركوبه إلى المربد يطمع أن تكون هناك في بعض
المناظر ... فهان عليهم • »

أما المشكلة الصعبة فكانت مشكلة عيسى الذي كانت ولايته للعهد
لا تتصل بارادة أبي جعفر وتعديل في شرعيتها خلافة أبي جعفر نفسه •
ثم إنه كان أحد القواد البارزين بل كان اليد اليمنى لأبي جعفر في كثير
من الازمات وقد أخذ له عددا من الثورات أهمها وآخرها ثورة
محمد ذي النفس الزكية ثم أخيه ابراهيم •

وكان لأبي جعفر ستة أولاد من الذكور اكبرهم : محمد (المهدي)
وجعفر^(٢) وهما من أم موسى أروى بنت منصور الحميري وقد غني
أبو جعفر بهذين الاثنين فأعطى الاول ولاية خراسان ، وهو بعد شاب
صغير ، وضم إليه أبا عبيد الله معاوية يدبر أمره وخازم بن خزيمة
القائد المعروف لقيادة الجيش • كما أعطى جعفرا ولاية الموصل • وجعل
للاخوان المربين من كبار العلماء يعلمونهما أيام العرب وأخبارها
والشعر مع الدين وعلوم العربية •

(١) الطبري ج ٨ ص ٨٦ (٤٢٢/٣) •

(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ١٠٢ (٤٤٢/٣) وجعفر كان يلقب بالأكبر

لدى المؤرخين لا لأنه هو الأكبر سناً ولكن لأن لأبي جعفر ابناً آخر سمي
بجعفر الأصغر واه أم ولد كردية • وكان يقال له ابن الكردية •

ولم يكد المنصور يفرغ من ثورة ذي النفس الزكية وأخيه
حتى أخذ يمهد للخلاص من عيسى بن موسى ولتحويل ولاية العهد
لابنه محمد . بالدعاية وتوجيه الانظار أولا إذ اصطنع بعض الشعراء
ينشدونه مديح محمد ويلمحون الى ضرورة توليته ليصبح ذلك نوعا
من المطلب الشعبي . وهكذا : دس رجال الحاشية الى أبي نخيلة الشاعر
الراجز فأنشده .

أنت الذي ولاك رب المسجد أحسن ولي عهدا بالاسعد
عيسى فزحلقتها الى محمد^(١)

وبعث المنصور الى مطيع بن إياس الشاعر المحدث فوضع على
لسان النبي حديثاً يحدث أن « المهدي منا آل البيت واسمه كاسي »^(٢)
وبعث الى البوالة أن يتحدثوا بذلك فتحدثوا ... ثم أعطى المنصور
ابنه لقب المهدي سنة ١٤٦ تمهيدا للخطوة التالية في إقناع عيسى بالتنازل
له .

ولم يكن عيسى بالغافل عن ذلك ولقد كان يرفض بحث الامر كله .
وينكشف موقفه من أنه بعث لابي نخيلة وهو في الطريق الى الري لقبض
جائزته من المهدي فظفر به فلم يقتله فقط ولكن كشط جلد وجهه . ثم
صرح الامر بين الطرفين سنة ١٤٧ حين فاتح أبو جعفر عيسى بذلك وكان
يجلسه دوما على يمينه فقال عيسى : فكيف بالايمان والمواثيق ؟ ليس
! الى ذلك سبيل ياأمير المؤمنين ! .. فبدأ أبو جعفر عند ذلك في مرحلة
ثانية من التدابير التي تهدف الى تحطيم أعصاب عيسى والغض من

(١) انظر ابن عساكر ، تاريخ دمشق (تهذيب بدران) ج ٢ ص ٣٢١

(٢) الأغاني ج ٢١ ص ٢

مكاته فكان يأذن للمهدي قبله أو يؤخر إذنه أو يأذن لغيره قبله »
ثم صار الى أغلظ من ذلك فكان (عيسى) يكون في المجلس فيسمع
الحفر في أصل الحائط فيخاف أن يخر عليه وينظر الى الخشبة من
سقف المجلس قد حفر عن أحد طرفيها لتقلع فيسقط التراب على قنسوته
وثيابه » ثم كان إذا شكا ذلك الى المنصور قال له : يا ابن أخي
إني والله أخاف عليك وعلى نفسي فانهم قد اشربت نفوسهم حب ذلك
الفتى (يعني المهدي) فلو قدمته بين يديك .. » ثم انتهى الامر الى أن
دس المنصور لعيسى بعض ما يتلفه مما دبره وجراه عليه طبيبه
بختيشوع حتى اغتال عيسى وتمعط شعره ثم بعث الى ابنه يهدده .
وكلم الابن أباه إشفاقا ولكن عيسى أبى التنازل مع كل ذلك . وأخيرا ،
وبعد الاهانات والتآمر الذي وصل حتى محاولة القتل انقطع عيسى في
الكوفة فبدأ بينه وبين المنصور تبادل الرسائل .

ونستطيع أن نرى الحجج التي تلمسها المنصور لاقتناع عيسى
ابن موسى بالتنازل عن ولاية العهد في الكتاب الذي أرسله اليه ، اول
ما أرسل سنة ١٤٧ يرأوده عن تلك الولاية يقول :

١ - إنه لم ينقذ آل بيت العباس من الظلم ومن «أهل بيت اللعنة»
أي الامويين الا ظهور أنصار يطلبون بثأرهم ويحبونهم الحب الخالص .
وقد أحب هؤلاء الانصار الان محمدا المهدي وقد « نشأ هذا الغلام
فقذف الله في قلوب أنصار الدين الذين ابتعثهم لنا مثل ابتدائه لنا في أول
أمرنا وأشرب قلوبهم مودته . وقسم في صدورهم محبته فصاروا لا يذكرون
إلا فضله ولا ينوهون إلا باسمه ولا يعرفون إلا حقه »

٢ - أن من حق هؤلاء الأنصار أن تستجاب رغباتهم « أمير
المؤمنين لا يمنع مما اجتمعت عليه العامة ولا يجد مناصا عن خلاص مادعوا
إليه ، وكان أشد الناس على أمير المؤمنين في ذلك الاقرب فالاقرب من

خاصته وثقاته من حرسه وشرطه فلم يجد أمير المؤمنين بدا من استصلاحهم ومتابعتهم »

٣ - ثم إن هذا الامر شيء إلهي « فلما رأى أمير المؤمنين ماقدف الله في قلوبهم من مودته (مودة المهدي) وأجرى على ألسنتهم من ذكره ومعرفتهم إياه بعلاماته واسمه ودعاء العامة الى طاعته أيقنت نفس أمير المؤمنين أن ذلك أمر تولاه الله وصنعه لم يكن للعباد فيه أمر ولا قدرة ولا مؤامرة ولا مذاكرة للذي رأى أمير المؤمنين من اجتساع الكلمة وتتابع العامة »

٤ - واخيرا فان المهدي هو « المهدي » الموعود حقا و « أمير المؤمنين وأهل بيته أحق من سارع الى ذلك وحرص عليه ورغب فيه وعرف فضله ورجا بركته وصدق الرواية فيه وحسد الله إذ جعل من ذريته مثل ما سألت الانبياء قبله . إذ قال الرجل الصالح : « فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضا » فوهب الله لامير المؤمنين وليا ثم جعله تقيا مباركا مهديا وللنبي صلى الله عليه وسلم سميا وسلب من اتحل هذا الاسم ودعا الى تلك الشبهة التي تحير فيها أهل تلك النية وافتتن بها أهل تلك الشقوة فانتزع ذلك منهم وجعل دائرة السوء عليهم وأقر الحق قراره وأعلى للمهدي مناره »

٥ - ولهذا كله « أحب أمير المؤمنين أن يعلمك الذي اجتمع عليه رأي رعيته وكنت في نفسه بسنلة ولده ويرى لك ، إذ بلغك من حال ابن عمك ماترى من اجتماع الناس عليه أن يكون ابتداء ذلك من

قبلك • ليعلم أنصارنا من أهل خراسان وغيرهم أنك أسرع الى ما أحبوا
مما عليه رأيهم في صلاحهم ، منهم الى ذلك من أنفسهم ... »

ولم يكن بإمكان هذه الرقى والتهاويل أن تؤثر في عيسى بن
موسى لدرجة التسليم بحق يعتقده لنفسه ولهذا اقتصر جوابه على الكتاب
الخليفي بقوله إن عهده هو بدوره من الله ولا يجوز نقضه :

١ - فكتاب الخليفة إعلان بأنه أجمع « على خلاف الحق وركوب
الاثم في قطيعة الرحم ونقض ما أخذ الله عليه من الميثاق من العامة بالوفاء
... متابعة للشيطان في هواه ، ومن كابر الله صرعه ... »

٢ - « إن الذي أسس عليه البناء ... من الخليفة الماضي عهد
لي من الله وأمر نحن فيه سواء ليس لاحد من المسلمين فيه رخصة دون
أحد فان وجب وفاء فيه فما الاول بأحق به من الآخر ... فاقبل العاقبة
وارض من الله بما صنع »^(١)

وتوالت المجاورة والمفاوضة بين المنصور وعيسى بن موسى
دون طائل ... وأخيرا ، وبعد الاضطهاد المرير دبر المنصور مؤامرة أوهم
فيها عيسى بأنه سوف يذبح ولدا من أولاده بحضوره ... وهي قصة
يقولون إن الابن نفسه دبرها لينقذ أباه من العناد ومن تضيق الخليفة
عليه ... فلما شهد عيسى بالحبل يشد على عنق ابنه استسلم وقال :
« والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الامر يبلغ منك هذا كله فمر بالكف

(١) انظر الرسالة وجوابها لدى الطبري ج ٨ ص ١٤ - ٩١

• (٣٣٨/٣ - ٣٤٤) •

عنه فانما لم أكن لارجع الى أهلي وقد قتل بسبب هذا الامر عبد من عبيدي فكيف بابني ... وهذه يدي بالبيعة للمهدي^(١) ... » ! وقيل أيضا ان خالد بن برمك مضى اليه بجماعة وقد أمره المنصور بقتله إن رفض التنازل فلما أصر على الرفض أشهد الجماعة عليه زورا بخلع نفسه ليحقن دمه ... وتمت بذلك البيعة للمهدي^(٢) أما عيسى فقد منحه المنصور مقابل ذلك المال والضياع وولاية العهد الثانية بعد المهدي فكان بعض أهل الكوفة إذا رأوا موكبه يقولون : هذا الذي كان غدا فصار بعد غد ... » ! ونجح المنصور بذلك في وضع اللبنة الاولى في نظام ولاية العهد الرأسي على أن اقرار هذا النظام لم يكن في يده ولكن في يد ابنه وأحفاده من بعده . ولقد ترك لابنه المهدي حين أعطاه ولاية العهد بذور المشكلة نفسها بقبول بقاء عيسى وليا ثانيا للعهد . فكأنه في الواقع أجل المشكلة ولم يحلها ولعله كان يرغب في أن يحلها الزمن بموت عيسى نفسه .

ب - الوزارة :

ظهرت الوزارة لأول مرة في تاريخ الاسلام ، قبل استخلاف ابي العباس السفاح بشهرين تقريبا . ولم يكن للعباسيين يد في ظهورها لأن ابا سلمة الخلال أول رجل تقلدها ، منح لقبها لنفسه ، أو منحه اياها الدعاة^(٣) ، باسم (وزير آل محمد) تقليداً للطريقة الساسانية القديمة

(١) انظر القصة لدى الطبري ج ٨ ص ١٣ - ١٤ (٣٢٧/٣ - ٣٢٨)

(٢) انظر تفصيل ذلك لدى الطبري ج ٨ ص ١٩ - ٢٠

(٣٤٥/٣ - ٣٤٦) .

(٣) الجهشياري - الوزراء والكتاب ص ٨٤

في الحكم ، اذ رأى هو وأصحابه ، انه يدبر الامور جميعاً دون صاحب الدعوة . ونتج عن هذه النشأة العفوية ان نظام الوزارة وسلطات الوزير لم تكن مركزة ، ولا واضحة الحدود . ويجب ان تنتظر حتى نهاية العصر العباسي الاول لنرى تكامل ذلك بالتدريج . وعلى حساب دماء الوزراء أنفسهم .

ويجدر بنا ان نذكر هنا ان وظيفة الوزراء الاول (كأبي سلمة وغيره) كانت كوظيفة الكاتب لدى الامويين . وان منصب الخلال لم يكن اكثر من تطور طبيعي لمنصب سلفه عبد الحميد الكاتب ، صاحب مروان بن محمد مع زيادة الاسم . يؤيد هذا قول الجهشيارى : « ... وعسكر أبو سلمة بحمام أعين (من أحياء الكوفة) فأقام بها وفرق عماله وصارت الدواوين في حضرته ، والكتب تنفذ منه وترد اليه ... »^(١) وقول المسعودي : « استخارت بنو العباس تسمية الكاتب وزيرا لوجود الآية (واجعل لي وزيرا من اهلي) » . ثم الوزير استمر « صاحب القلم » دوما ورئيس دواوين الدولة ، وبقي ينتقي ممن يجيدون الكتابة . وعلى هذا فالعهد العباسي لم يحدث تغييراً إدارياً جوهرياً بالوزارة ولكن اسم (الوزارة) واشتراك الفرس في السلطان عن طريقها ، وظهور الوزراء الاقوياء كآل برمك أدى كله الى ثبوت هذا النظام الجديد في الادارة العباسية .

وبعد مقتل ابي سلمة حل خالد بن برمك - وكان على ديواني الجند والمال - محل الوزير كما ذكر الجهشيارى . وكان يعمل - على قول الفخري أيضا - عمل الوزير ولا يسمى وزيراً « اذ كان يتجنب

(١) المصدر نفسه ص ٨٦

التسمية» تطيراً مما جرى على ابي سلسة .

ولعل قيمة الوزارة في الدولة العباسية الناشئة تظهر لنا من موقف المنصور منها حين استخلف . اذ يظهر أنها لم تكن قد اصبحت بعد شيئاً ، فان اهتمام ابي جعفر بملكه وحذره الدائم أدى الى مركزية شديدة في الادارة كانت استمراراً للشكل التقليدي في الحكم الخلافي المركزي الذي وطده الامويون بعد الراشدين كما كانت تطويراً له في اتجاه الحكم المطلق وترك كافة مظاهر حكم « المشيخة » البدوي الذي كان ما يزال يلاحق الامويين . فكان الخليفة المنصور يشرف بنفسه على كل شيء . . . يقول صاحب الفخري « . . . فلم تكن الوزارة في ايامه طائلة ، لاستبداده واستغنائه برأيه وكفاءته . ، وكانت هيئته تصغر لها هبة الوزراء وكانوا لا يزالون على وجل منه وخوف فلا يظهر لهم ابهة ولارونق . . . (١) » ويظهر انه استغنى عن الوزارة في سنيه الاخيرة فالمسعودي يذكر انه بعد ان استوزر وزيرين او ثلاثة (هم ابان بن عطية الباهلي وابو ايوب المورياني الخوزي وابو الفضل الربيع بن يونس) استكتب ابان بن صدقة الى ان مات (٢) .

وثمة شك في أن يكون أبان الباهلي قد ولي وزارة المنصور أما أبو أيوب المورياني فهو الوزير البارز . وأصله من موريان بعض قرى الاهواز وكان خفيف الظل عالماً بالعلوم كلها من طب ونجوم وحساب وكيمياء حتى السحر . إلا الفقه فقد كانت بضاعته منه قليلة . ولكنه

(١) الفخري ص ١٢٧ .

(٢) صاحب الفخري يجعل الربيع بن يونس وزير المنصور حتى موت المنصور .

بلغ من الحظوة لدى المنصور أن ظن الناس أنه سحره^(١) وكان عبد الملك بن حميد على كتابة المنصور وديوانه فلما اعتل تسلم أبو أيوب هذه الاعمال ثم سماه المنصور للوزارة وشفعه بكل شيء واستشاره في الامور حتى في قتل ابي مسلم الخراساني

وتبسط أبو أيوب في استخدام أهله واستغلال المنصب له ولاصحابه حتى وقع في شر أعماله ونقل للمنصور من أعماله ما يكفي لتدميره . وكان رأس السعاة فيه منافس له من الحاشية هو الربيع بن يونس وعاش أبو أيوب فترة من الرعب قبل أن ينكب حبسه المنصور وأخاه وبني أخيه وطالبهم بما لا يطيقون من الاموال وعذبهم حتى نال منهم ثم قتل أبا أيوب وبني أخيه جميعا سنة ١٥٤ .

ثم استوزر المنصور الربيع بن يونس وهو في الاصل لقيط او ابن أمة نشأ في حجر يونس بن أبي فروة وانتسب اليه ثم كان في خمسين وصيفا أهدوا للمنصور وكان من خدمه ثم ارتقت به الحال مع الذكاء والولاء إلى أن أصبح حاجب الخليفة فلما نكب المورياني أرسل اليه حلة الوزارة فكان مثال الموظف الخادم حتى الموت ، موت المنصور فانهم يذكرون أنه أقامه بعد أن مات في الفساطيط وكأنه حي حتى أخذ البيعة لابنه المهدي من جميع الناس وفي مقدمتهم عيسى بن موسى

(١) المسعودي - مروج الذهب ج ٣ ص ٢١٢ . والجهشياري - الوزراء والكتاب ص ٦٥ ويقال أيضا إن سبب حظوته انه كان قد خلص ابا جعفر من الضرب بالسياط في البصرة من قبل عامل مروان بن محمد عليها في اواخر العهد الأموي . وكان أبو جعفر متهماً بالهرب ببعض اموال العامل باصبهان (الجشياري ص ٦٦) .

ولي العهد • بل زيف وصيته بتجديد البيعة قرأها قبل ذلك على
الناس حتى استقام الامر للمهدي •

ج - الولاية :

قد يكون من المبالغة والاختاء الشائعة القول : بان دولة بني
العباس قامت على اكتاف الفرس • فالواقع انهم ساهموا بها فقط • ولم
يكونوا كل شيء فيها • فأبو العباس مثلاً لم يعدل عن العرب الى
الفرس ، في ولاية امور الدولة ، الا في أمرين : استيزار ابي سلسة
وليس له في وزارته يد ، وقد قتله فيما بعد ، وتولية ابي مسلم لخراسان ،
ولكنه استراب منه ، فجفاه وابقاه حيث هو ، في خراسان • ولولا انه
رهبه لقتله • واما الذين استعملهم على الاقطار الاسلامية فكانوا جميعاً
من أقربائه ، ومن قواده العرب • استعمل اخاه ابا جعفر ، واعمامه :
داود وعبد الله وسليمان واسماعيل ويحيى ، وقواده ابا العون والحسن
ابن قحطبة الطائي وموسى بن كعب التميمي ويزيد بن أسيد السلمي الخ •
وقد كانت هذه القاعدة من الامور المقررة لدرجة أن الموصل حين عين
لولايتها محمد بن صول أحد موالى أبي العباس ثارت ثورة كلفتها
أحد عشر ألف قتيل وخراب عدة سنوات • فالخطة الاموية اذن في
الاعتماد على العرب ، ظلت متبعة • والمؤرخون المسلمون يعرفون
ذلك اذ ذكروا أن أول من استعمل مواليه في الاعمال ، وقدمهم ، هو
ابو جعفر المنصور ، الخليفة الثاني •

والحق ان هذا الاتجاه يتعلق بطريقة المنصور الادارية المركزية،
اكثر مما يتعلق بتطور الاحوال والظروف ، أو بالرغبة عن العرب فقد
كان يرى اختيار من كان أكثر طواعية لإرادته وأقل أطماعاً سواء كان

من الأقرباء أو من العرب أو الموالي كما كان تقييمه للشخص المناسب على أساس الكفاية والاخلاص له • ومن هنا اعتمد على بعض الموالي • ولعلنا نستطيع فهم هذه الطريقة من حديث للمنصور رواه الطبري^(١) قال : « • ما كان أحوجني أن يكون على بابي أربعة نفر ، لا يكون على بابي أعف منهم • • هم أركان الملك : فقاوض لاتأخذه في الحق لومة لائم ، وصاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ، وصاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية ، فاني عن ظلمه غني ، والرابع • • • (ثم عض اصبعه السبابة ثلاث مرات في كل مرة يقول : آه) صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة » • لهذه المركزية القوية والحذر الشديد ، سمح المنصور لنفسه أن يعين للولايات العرب والموالي على السواء ، لأنه كان يعنى باختيارهم ، عنايته بعد ذلك ، بمراقبتهم ، ومحاسبتهم ، وتحديد سلطاتهم •

فأما اختيارهم فكان بعضهم من اهل بيته : (اسماعيل بن علي في فارس ، وسليمان بن علي في البصرة ، وعيسى بن موسى في الكوفة ، وصالح بن علي في قنسرين والعواصم ، والعباس بن محمد في الجزيرة وجعفر بن سليمان في المدينة) وكان بعض عماله عرباً (ومن أشهرهم يزيد بن حاتم المهلبى والي افريقيا ، ومعن بن زائدة الشيباني والي اليمن ، وخازم بن خزيمة والي ارمينية ، والحسن بن قحطبة الطائي ، والمسيب بن زهير الضبي الخ • • •) كما انه لم يتردد في استخدام الموالي الذين يأمن لهم • يقول السيوطي : « والمنصور اول من استعمل مواليه على الاعمال وقدمهم (فمنهم مرزوق ابو الخصيب ، وعمارة بن

حمزة ، وواضح ، وغزوان) واليعقوبي^(١) يذكرهم جميعاً بأسمائهم .

وأما مراقبة العمال فعهد بها إلى عمال البريد . وكان يطلب إليهم أن يكتبوا إليه يومياً « سعر القمح والحبوب والأدم ، وبسعر كل مأكول وبكل ما يقضي به القاضي في نواحيهم ، وبما يعمل به الوالي ، وبما يرد بيت المال من المال ، وكل حدث » وصار ارتباط عمال البريد به مباشرة . وقد لاحظ نولدكه أن المهدي ، (ولي العهد) كان خاضعاً لرقابتهم ، حين عين والياً على غربي إيران . وهذا يعني أن المنصور كان أول من نظم جهاز الاستخبارات في الدولة .

وأما محاسبة الولاة فكانت شديدة حتى ثقل عليهم « تفقده الأعمال ومراعاته لها . » بلغه عن والي البحرين أنه يخرج للصيد فعزله ، قائلاً : « ما هذه العدة التي أعدتها للنكاية في الوحش ؟ أنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش » وراقب جباة الضرائب كي لا يستأثروا بأموال الدولة . وصادر « العمال المتلاعبين » لاستخراج ما اختلسوه من أموال الدولة ، كما فعل بخالد بن برمك ، بعد أن ولاه إقليم فارس ، إذ « ألزمه - كما يقول الجهشياري - ثلاثة آلاف درهم » .

وأما تحديد سلطان الولاة فيظهر من رقابة عمال البريد عليهم ، ومن فصل القضاء عنهم أيضاً . « فقد كان أول (؟) من ولي القضاء الأمصار من قبله » على ما يقول اليعقوبي^(٢) . وكان تعيينهم قبل ذلك بيد

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ١١٧ .

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ١٢٣ .

الولاية في الغالب^(١) .

ولم يدخل المنصور أي تعديل يذكر على التقسيم الإداري الأموي في الإمبراطورية . فقد ظلت الدولة على ماهي عليه ، سوى ما كان من خسارتها للاندلس . وأقاليم الدولة لم يكن يحكم كلاً منها وال واحد ، وقد يحكم الوالي الواحد عدة أقاليم . وأما تلك الأقاليم ، اذ ذاك ، فهي :

١ - جزيرة العرب وتشمل الحجاز (ومركزه المدينة) واليمن (صنعاء) وعمان وهجر .

٢ - العراق ويشمل الكوفة والبصرة وواسط (وبغداد) وحلبوان (سامراء) حتى جنوبي الموصل .

٣ - الجزيرة (العراق الشمالي) وفيه ديار ربيعة (مركزها الموصل) وديار مضر (الرقة) وديار بكر (آمد) .

٤ - الشام وتضم خمس مقاطعات : قنسرين (وعاصمتها حلب) ومعها انطاكية والاسكندرونة ثم حمص وتشمل ما بين تدمر الى سواحل اللاذقية ، ثم دمشق ومعها الساحل ، من طرابلس الى صيدا ، ثم الاردن ومركزه طبرية ، ومعها صور وعكا وبيسان ، ثم فلسطين ومركزها الرملة وفيها يافا والقدس وغزة وقيسارية واريحا وعمان والشرارة حتى تبوك .

(١) نشير هنا الى ان ابن المقفع كتب للمنصور تقريراً في كيفية سياسة الدولة نعرفه اليوم باسم (رسالة الصحابة) أي اصحاب الخليفة . وقد استعرض له فيه أهم الأقاليم واحداً بعد آخر ، ومرافق الدولة . وبين الوسائل التي يجب انتهاجها لتنظيم الحكم وحسن سير الأمور . وهذا التقرير نافذة نطل منها على حاجات ذلك العصر ونفسية سكانه ورغباتهم .

- ٥ - مصر وهي مصر الحالية والواحات وقد تضم اليها برقة •
وقصبة الاقليم الفسطاط ثم أضحت القطائع •
- ٦ - افريقيا وتشمل ما بين طرابلس الى مراكش وقصبتها القيروان
وكانت تشمل الاندلس في العهد الاموي •
- ٧ - ماوراء النهر (شمال شرقي نهر جيحون) وفيه فرغانة وفاراب
والشاش واشروسنه والصغد وبخارى •
- ٨ - خراسان وهي ايران الشرقية الشمالية الآن مع قسم مسن
افغانستان وقصبتها مرو •
- ٩ - الديلم وهو في شمال غرب ايران ويشمل قومس وجرجان
وطبرستان •
- ١٠ - ارمينية وتشمل ارمينية واذريجان وتفليس •
- ١١ - الجبال وهي ايران الغربية الوسطى وتشمل الري وهمدان
واصفهان •
- ١٢ - البصرة اوخوزستان (ويعرف اليوم بعربستان) وهو الى
الشمال الشرقي من خليج البصرة •
- ١٣ - فارس وهو الاقليم الذي يلي خليج البصرة الى الشرق •
ومن مدنه شيراز واصطخر •
- ١٤ - كرمان وهي في شرقي فارس وجنوبي ايران •
- ١٥ - السند وتشمل مكران بشرقي ايران وبعض جهات
افغانستان مع بلوچستان وحوض السند •

د - الموقف المالي :

جى ابو العباس ملكه الجديد على الطرق الاموية نفسها ، وعهد
يديوان الخراج الى واحد من كبار رجال الدعوة الفرس : خالد بن برمك

فلم يدخل على جباية الضرائب تعديلاً يذكر • ولكنه ادخل على الدواوين طريقة جديدة ، فبعد أن كانت الأمور تسجل في الدروج (أي الصحف المدرجة) اتخذ خالد دفاتر الدواوين من الجلد • وسيجعل حفيده جعفر ، في زمن الرشيد ، هذه الدفاتر من الكاغد (الورق) •

ولم يكن للمال في نظر أبي العباس من قيمة • فكان وجود به على أقربائه وقواده وعلى الشعراء ، وهو في هذا خليفة أموي ، لحد كبير ، ولكن أخاه المنصور كان يختلف عنه في ذلك ، إذ كان (المال) أحد الأركان الأساسية في سياسته العامة • فكان يجمعه من كل وجه ، حتى لقد فكر مرة في بيع قراطيس الدولة ومكاتباتها ، لأنها كانت كثيرة في خزائنه • فقال لصاحب المصلى عنده : « ... بها وإن لم تعط بكل طومار إلا داتقاً ، فإن تحصيل ثمنه أصلح منه ! » وكان يقتّر في اتفاق المال حتى ليحاسب على الداتق والحبة • ويصادر ما قد يهبه ابنه من الهبات • خطب في الناس يوم عرفات سنة ١٥٠ هـ فقال : « أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه وخازنه على فئة أعمل بمشيئته ، وأقسمه بإرادته ، وأعطيه بأذنه ، قد جعلني الله عليه قفلاً ، إذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم ، وقسم فيئكم وأرزاقكم ، فتحني ، وإذا شاء أن يقفلني أقفلني ، فارغبوا إلى الله أيها الناس وسلوه في هذا اليوم الشريف » ولم يكن هذا الإمساك في المنصور عن شح طبيعي ، ولكنه كان يعرف شأن المال في دعم الدولة • يقول المسعودي^(١) : « ... كان يعطي الجزيل والخطير ما كان عطاؤه حزماً ، ويمنع الحقير اليسير ما كان عطاؤه تضييعاً ... » إلا أنه « كان المنع عليه أغلب » كما يذكر صاحب

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣١٨

الفخري • وقد اوصى بمثل هذه السياسة ابنه المهدي قال له : « انك لا تزال عزيزاً مادام بيت مالك عامراً » وبالرغم من كل ما اتفق المنصور في بناء بغداد والرصافة وفي القضاء على الثورات ، فقد ترك في بيت المال لدى وفاته ستمائة ألف ألف درهم واربعة عشر ألف ألف من الدنانير •

جمع هذا المال بالتقتير خلال حكمه ، وكان لا يقبل من دافعي الضريبة الاّ النقود الجيدة يقول ابن الاثير^(١) « وكانت الهيرية والخلدية واليوسفية أجمل نقود بني أمية ، ولم يكن المنصور يقبل في الخراج غيرها » •

وسوف نعرض فيما بعد لسياسة العباسيين المالية في عهد المنصور وخلفائه حتى آخر العصر العباسي الاول ونكتفي بأن نذكر هنا أن المنصور في السياسة المالية قد ادخل اصلاحاً هاماً • يرويهِ الماوردي • فإن الخراج في السواد كان يؤخذ نقداً وعلى مساحة الارض سواء زرعت ام تركت بوراً — حسب نظام عمر بن الخطاب — وقد رخصت الاسعار حتى لم يعد تتاج الارض يفي بخراجها ، فوضع المنصور نظام المقاسمة • وهو ان تدفع الارض جزءاً من محصولها • وقد توفي قبل ان ينجز هذا الاصلاح ، فأتمه ابنه المهدي •

هـ - الجيش :

كان الجيش الذي قاد الثورة العباسية الى النصر مكوناً بصورة

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ٥٣

أساسية من العرب لامن الاعاجم ، في قواده وجنده ، على السواء • وكان هذا الجيش يدعى (بالخراسانية) جغرافياً نسبة الى الموضع الذي تجمع به لالكثرة النسبية التي وجدت فيه من الايرانيين فقد كانت هذه الكثرة في الواقع ، من الغرب • وبالرغم من ان ابا العباس اعتمد على بعض الموالي وزاد في مدحهم واکرامهم ، كما اتبع المنصور من بعده السنة نفسها ، وأوصى بها ابنه المهدي ، بالرغم من ذلك ، فان خراسان بسبب وضعها الجغرافي ، في أقصى الجانب الشرقي من الامبراطورية ، ولعدم انسجام سكانها ، عنصرياً ودينياً مع الحكم العباسي ، لم تستطع ان تلعب ، في خلافة العباسيين الدور ، الذي لعبته الشام المتوسطة المنسجمة ، بالنسبة للامويين وكانت بالعكس احدى مراكز الضعف العباسي والثورات الخطرة •

لذلك وبسبب التجمع العربي سرعان ما اصبح العراق ، دون خراسان ، موئلاً بني العباس • كما ظهرت في الجيش الفرق الاخرى ، غير الخراسانية ، من العرب • وقد ساعد على بروزها حذر المنصور الشديد ، وخوفه من ان يتفق الجيش عليه • فما زال بجنده يستغل العصبية القبلية لتفريقهم حتى قسمهم الى فرق اربع متنافرة : المضرية والرابعة واليمينية والخراسانية • وجعل للجيش معسكرين احدهما ببغداد ، والثاني تجاهها ، على الطرف الشرقي من دجلة ، في الرصافة لابنه المهدي • وقال الذي نصحه بهذه التفرقة للجند : « حتى يكونوا أحزاباً يخاف احدها ان يحدث حدثاً فيضربه الخليفة بالحزب الآخر » على ان المنصور كان لا يني يتفقد جنده ويستعرضه بين آونة واخرى • وآخر استعراض له كان سنة ٨١٥٧ •

وليس لدينا شيء من المعلومات ، عن عدد رجال هذه الفرق ولا

عن مكاتنها • وإذا جاز لنا ان نفترض انها كانت متساوية العدد ،فذلك يعني ان غالبية الجيش العباسي الأول كانت عربية • وهي نقطة هامة من نقاط البحث في تركيب الدولة الاول •

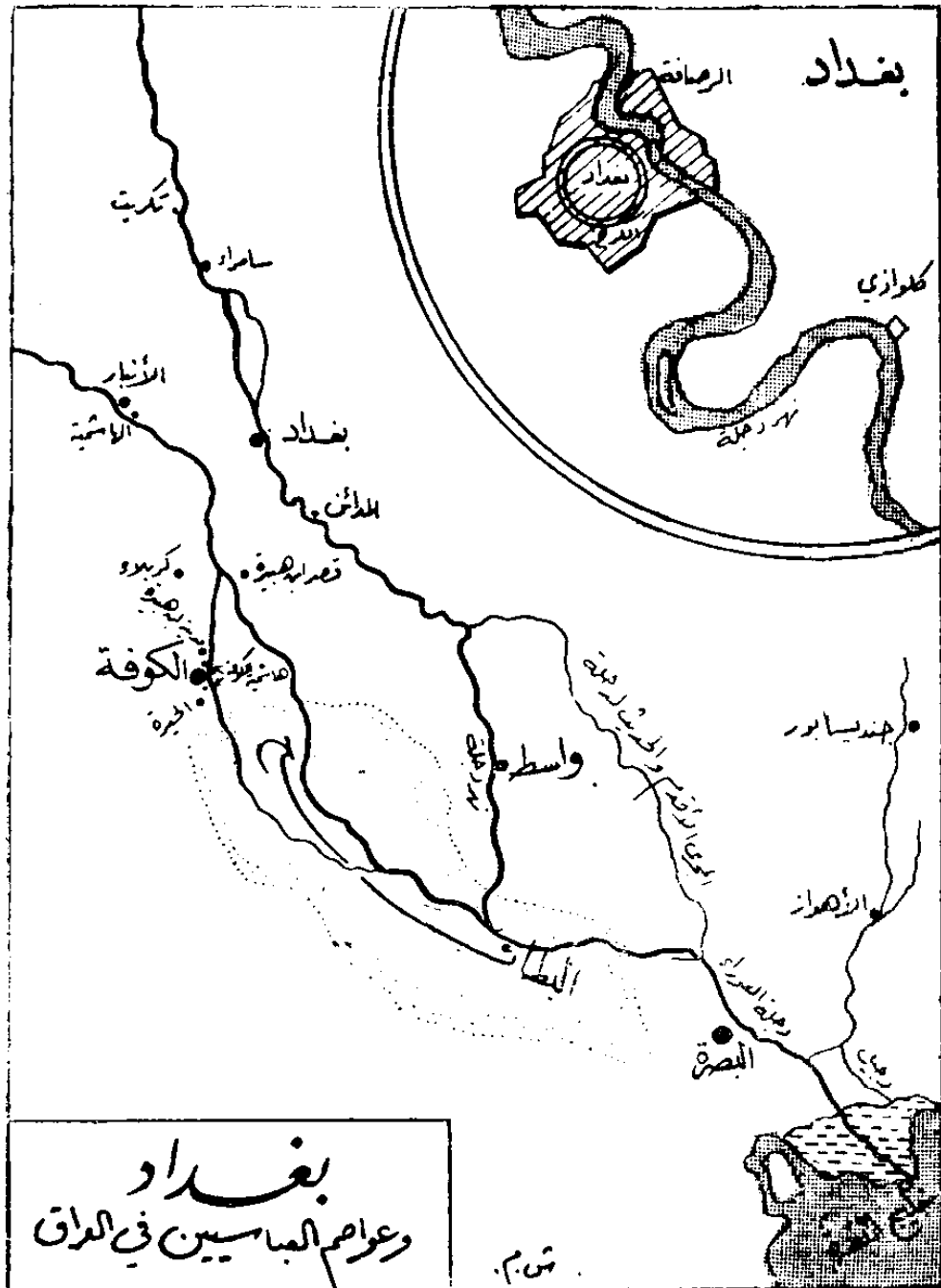
و- العاصمة :

كان من تمام اعمال تأسيس الدولة وتنظيمها ، أن يستقر البيت المالك الجديد في عاصمة معينة • ولم تكن دمشق تصلح لذلك فهي اموية ، وقرية من الروم ، وبعيدة عن خراسان • كما لم تكن المدينة جديرة بذلك ، اذ لارجال فيها ولاسلاح ولاكراع ولاغنى ••• ومصر بعيدة عن المشرق ، كما ان خراسان متطرفة ، فالعراق أحسن منزل لاسيما وان طرق التجارة العالمية كانت في ذلك الوقت قد تكاثفت فيه • ولكن على الخلفاء الجدد ان يتخيروا مكانهم منه •

لقدبويح ابو العباس في الكوفة • ولكنه بدل مقر حكمه مرات عديدة • فقد كان يعرف ان اهل الكوفة لآل علي • وشعر منذ ايامه الاولى بأن هواهم في غير جانبه • فانتقل اول الامر الى الهاشمية سنة ١٣٢هـ قرب الكوفة ثم أبدل بها الحيرة ثم عدل عنها الى الانبار سنة ١٣٤هـ ومكانها على بعد عشرة فراسخ الى الغرب من بغداد • وهي في الاصل من بناء ملوك الفرس • ويظهر أنأبا العباس استطاب البلد الجديد • يقول الدينوري « انه ابتنى بها مدينة بأعلى المدينة عظيمة لنفسه وجموعه وقسمها خططاً بين اصحابه من اهل خراسان وبنى لنفسه في وسطها قصرأ عالياً ••• واقام بتلك المدينة طول خلافته • وهذه هي الهاشمية - على قول اليعقوبي - وجدير بالملاحظة أنها بنيت تقريباً على المخطط نفسه الذي بنى به العرب البصرة والكوفة والقطائع والقيروان وواسطاً،

وهو مخطط يشبه المعسكر . وهذا مايلقي على الهاشمية صبغة عسكرية .

ويظهر ان المنصور لم ترق له هاشمية الانبار هذه ، فمكث اول الامر في هاشمية الكوفة (بين الحيرة والكوفة أو في شمالي الكوفة عند مدينة ابن هبيرة) وبنى بها قصراً له . ولكنه سرعان ماتبين انها



ليست بعاصمة ، او مقردولة : فلاهي منيعة ، كما ثبت له في فتنة الراوندية ،
« يوم الهاشمية » إذ كاد يقتل فيها ، ولاهي حسنة المناخ لان سافيات
الصحراء تصفعها وحميات البطائح في جنوبها ، وليس فيها من شيعة
العباسيين وعصبيتهم الا العدد النزر . هذا عدا جوارها القريب للكوفة ،
موئل العلويين ، ومجمع « اهل الشقاق والنفاق ، والاغراق في الفتن »
... « فوالله ماهي بحرب فأحاربها ولاهي بسلم فأسالها فرق الله بيني
وبينها » كما روى المسعودي عن المنصور في إحدى خطبه .

وهكذا امر المنصور بالتفتيش عن موضع يقيم فيه مقر ملكه .
وكان انسب الاقطار الاسلامية لهذا المقر : العراق ، لقربه من خراسان
من جهة ، وتوسطه بينها وبين الشام والحجاز ومصر من جهة أخرى .
وخرج المنصور بنفسه يرتاد المواضع التي تذكر له ويبت في امرها ، حتى
نزل بموضع :

بغداد : وهي قرية فارسية او آرامية قديمة يرد أول ذكر لها في
التاريخ الاسلامي في غارة قام بها المثنى سنة ١٣هـ على سوقها . ورجع
منه بغنائم كثيرة . وقد قدر لهذا الموضع الذي لم يكن فيه اذ ذاك الا
دير للنساطرة ، ان يمنح ارضه واسمه ، للمدينة التي اصبحت فيما بعد
رمز الحضارة الاسلامية ، وأعظم عاصمة للاسلام .

وقد اختار المنصور هذا الموقع لأسباب عديدة أوردتها المؤرخون
العرب في كثير من القصص . واذا غلب على هذه القصص طابع الوضع ،
فانها على كل حال توضح الميزات التي رآها الناس فيما بعد ، وتفسر
ازدهارها السريع وبقائها الى اليوم .

أما التي جعلت المنصور نخعاً

من إلهامه سبحانه برأيه وحيد

فهي أولا تتوسط العراق : « فانت متوسط للبصرة وواسط
والكوفة والموصل والسواد كله ، وانت قريب من البر والبحر والجبل »
وهي إلى ذلك تقوم في منطقة زراعية واسعة « بين أربعة طاسيج ...
فتكون بين نخل وماء . فإن اجذب طسوج وتأخرت عمارته كان في الآخر
فرج » ثم إنها على الطرق التجارية الهامة : « ... مشرعة الدنيا . كل
ما يأتي في دجلة من واسط والبصرة ... والاهواز وفارس وعمان
والبحرين فإليها يرقى . وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة واذريجان
وارمينية ... وما يأتي من الرقة والشام والثغر ومصر والمغرب ... فيها
يحط وينزل » وهي إلى هذا وذاك سهلة التموين : « ... تجيك الميرة
في السفن والقوافل من مصر والشام وتجيك الآلات من الصين في البحر
ومن الروم » عدا أنها « حصينة الموقع » « ... وانت بين انهار لا يصل
إليها عدوك » وطيبة المناخ « قليلة البق^(١) » . فهي إذن ذات ميزات
اقتصادية عسكرية صحية هامة .

وتقرر بناء المدينة في هذا الموضع . وأعطاه المنصور اسم
« دار السلام » غير ان الناس أعطوها أسماء أخرى وبقي الاسم الاول
للمناسبات الرسمية . سموها « المدورة » لاستدارتها و « الروحاء »
لطيب هوائها و « الزوراء » لازورارها عن القبلة — على حد قول
المؤرخين — وقد استنتج (لوسترانج) من تفضيل الفرس لهذا الاسم ،
انه من الممكن ان يكون إحياء لاسم فارسي قديم لذلك الموضع . ولعل
هذا صحيح . فان صاحب الفخري يؤيد ذلك بقوله « وكان موضعها

(١) انظر النص لدى ابن طباطبا الطقطقي (الفخري — طبعة صادر —
ص ١٦٢) وهو ينسبه إلى بعض عقلاء النصارى الذي نبه المنصور إلى
فضيلة مكان بغداد .

يسمى الزوراء قديماً » وقد يكون السبب في هذا الاسم أيضاً ازورار أبواب المدينة نفسها فانها لسبب دفاعي لم تكن مداخلها مستقيمة ولكنها مزورة على الاسم الذي درج على كل لسان هو « بغداد » . وقد أتعب المؤرخون المسلمون اذهانهم في تصيد معنى الكلمة وكلهم على انها فارسية مؤلفة من مقطعين (باغ) وتعني اما بستان او اسم لصنم او اسم للملك الصين و (داد) وهو ! ما اسم لرجل ، او بمعنى هبة أو عطية ، فيكون المعنى على الجملة عطية داد او بستان دادويه الخ ... و (لوسترانج) يرى « ان الاشتقاق الصحيح للكلمة جاء من الكلمتين الفارسيتين القديمتين (بغ) أي الله و (داد) أي تأسيس فالمعنى أسسها الله .

وقد ظهر لبعض الباحثين الحديثين العارفين باللغة السريانية رأي قد يلقي ضوءاً آخر على الاسم يقول : إن اللفظ آرامي الاصل مبنى ومعنى وهو مؤلف من (ب) المقتضبة من كلمة بيت (وكثيراً ما يقع هذا كما في بعقوبة وباعدرا وباجرمي الخ ...) ومن (كدادا) ومعناها غنم فمعنى اللفظ سوق الغنم ، لان الموضع سوق قديمة جداً . وقد وجد اسم قريب منه (بكدود) في وثيقة قانونية من عهد حمورابي (القرن ١٨ ق م) وفي حجر من أحجار الحدود الكشية وفي بعض آثار الاشوريين (القرن ١٢ ق م) ويؤيد هذا ان البقعة نزلها الآراميون قديماً في حركة هجرتهم الاولى الى بلاد الشام كما تدل اسماء عدة اماكن حول بغداد كالكرخ ، والشماسية والحيرة . وقد يفيد ان نذكر أن في الذي يرويه المسعودي ، ما يفيد أن اصل الاسم آرامي . والطبري يذكر انه كان على الطرف الشرقي من دجلة (تجاه بغداد) قرية ودير كبير كانت تسمى « سوق البقر » .

وضع مخطط المدينة على نهج مستحدث في بناء المدن الإسلامية، لاحظته مؤرخو العرب : إذ بنيت على شكل دائرة يتوسطها قصر الخليفة ومسجده ، ويحيط بها قصور القواد ورجال الدولة ؛ ثم تقوم الاسوار في سورين أحدهما ضخمة (قاعدته خمسون ذراعاً وقمته عشرون) والثاني يليه من الداخل ويسكن بينهما الرعية ، ثم سور ثالث خارجي تقوم أمامه الخنادق . ويرى الاثر الفارسي واضحاً في هذا المخطط . ولعل المنصور تأثر بهندسة العواصم الآسيوية القديمة كمدينة (أقباطان) /همذان/ عاصمة الميديين ، التي كان محل الملك فيها في الوسط ، ويسكن رعايها بين أسوارها السبعة المتتالية . ومدينة ميفارقين التي بنيت في القرن الخامس الميلادي^(١) وكانت في استدارة سورها المثلث تشبه تمام الشبه بغداد . ومثلها في ذلك آمد وكلتاها من مدن الجزيرة البارزة في الاسلام . أما فصل الرعية عن الخليفة في بغداد ؛ وضخامة القصر في الوسط ، وحصر السكان بين السورين فقد يشير الى التأثير الفارسي . والى ترفع صاحب السلطة ونفوذه المطلق ، وهذا يتعارض - كما لاحظ الدكتور الدوري - مع الديمقراطية الإسلامية من جهة ؛ ويختلف عن الارستقراطية الاموية من جهة أخرى ولكنه على أي حال يتوافق مع عقلية المنصور ومركزيته في السلطة .

وأما مساحة دائرة المدينة الاولى ، فقد اختلف في تحديدها المؤرخون ويورد الخطيب البغدادي ست روايات تعطي مساحات تتفاوت فيها المساحة ما بين ثلاثة كيلومترات مربعة واثنى عشر ونصف . وقد

(١) انظر وصف ميفارقين لدى الازرق الفارقي - تاريخ ميفارقين (مخطوط المتحف البريطاني) ورقة ٧ وجه حتى ١٢ ظهر . وقد نقل هذا الوصف ياقوت في معجم البلدان .

قسم المنصور بغداد المدورة إلى أربعة أقسام أو أرباض أناط الاشراف على البناء في كل ربض بثلاثة رجال : قائد ومولى ومهندس . أما الاشراف العام على البناء فعهد به الى الحجاج بن أرطاة ، والامام أبي حنيفة النعمان ، من ذوي العدالة والفقہ والامامة والمعرفة بالهندسة والبناء . ولم يشرع المنصور بالبناء حتى تكامل لديه من الفعلة وأهل المهن آلاف كثيرة ، وحتى جمع المال اللازم للمشروع واشترى الارضين من أصحابها بعد المساومة وأقطعها أهل بيته وقواده وصحابته وجنده وكتابه .

وبعد أن وافق المنصور على المخطط رسم على الارض . ومر الخليفة بالشوارع والامكنة فأعجته ويقال انه بات في الموضع فارتاح اليه ثم امر بصب النفط على الخطوط وإشعاله ليلا ليشرف على روتقها . وأمر باحضار المهندسين والبنائين من الشام والعراق وبلاد الديلم وبدأ ضرب اللبن وطبخ الآجر^(١) . . . وكا زعدد العاملين مائة ألف . بدأ بناء المدينة سنة ١٤٥ ، ولعل العمل توقف فجأة ، حين وصل خبر قيام محمد ذي النفس الزكية ، بالثورة في الحجاز . فلما انتصر المنصور عاد الى بناء المدينة سنة ١٤٦ هـ وكان يشرف على الصغيرة والكبيرة فيها ، ويحاسب العمال على الدائق والحجة . بينما كانت القطائع التي منحها لاهله وقواده ، تبنى بدورها من قبلهم . فما أتت سنة ١٤٩ هـ حتى كانت المدينة قد تمت بناء . وجعل لها خندق يليه سور مضاعف ،

(١) يروى ان المنصور قرر هدم طاق كسرى في المدائن واستعمال حجارته في بناء مدينته . لكن خالد بن يحيى البرمكي اشار عليه الا يفعل ولكنه اتهمه بفارسيته وبدأ فعلا ثم توقف لتكاليف ذلك . (انظر الفخري لابن طباطبا) (طبعة صادر - بيروت ١٩٦٦) ص ١٥٧

بينهما « فصيل » مرصوف لا يسكن • للاسوار أربعة أبواب مضاعفة من الحديد وعليها الابراج العظام ، وقد نقل المنصور خمسة منها من مدينة الحجاج : واسط • وقد تفردت هذه الأبواب بظاهرة معمارية هامة هي الازورار فكان الداخل من الباب الخارجي لا يدخل مباشرة الى المدينة ولكنه يعطف الى اليسار في دهليز أزج يفضي الى الباب التالي ولعل السبب في ذلك عسكري دفاعي ، ولم يعرف ذلك لمدينة قبل بغداد ، أما في وسط المدينة فقام (قصر الذهب) للمنصور يعلو قبه تمثال فارس برمح ، والمسجد الجامع ملاصق للقصر من شماله الشرقي ، وهناك دار لصاحب الحرس وأخرى لصاحب الشرطة وذلك ضمن رحبة واسعة دعت بالرحبة العظمى هي قلب المدينة يفضي إليها دهليز عظيم عليه بابان من الحديد • وتكلف حوالي خمسة ملايين درهم ، مع رخص الاسعار • ولا شك أن البناء كان رائعاً فقد وصف الجاحظ بغداد ، بعد قليل من عهد المنصور ، بقوله : « لم أر مدينة قط أرفع سمكا ولا أجود استدارة ولا أوسع أبواباً من الزوراء • وهي مدينة أبي جعفر المنصور • كأنما صبت في قالب وكأنما أفرغت افرأغا » •

وسرعان ما ازدحمت المدينة بالوافدين اليها من علماء ، وشعراء ، وقواد وتجار ، وباعة صغار ، وصناع ، حتى ضاقت بهم • فأمر المنصور سنة ١٥٧ بتخطيط الاسواق في الكرخ ، جنوب المدينة ، وشق الانهر فيها ، ونقل الباعة اليها ، وجمعهم حسب مهنتهم • فتيسر له بذلك توسيع شوارع مدينته ، والعناية بنظافتها •

وقد وصل بغداد ، بعد انتهاء بنائها ، ولي العهد المهدي ، في جيش خراسان • ولكن أباه كان قد بنى له قصرأ ومعسكرأ في الرصافة ،

على الضفة الشرقية من دجلة ، تجاه بغداد ، فنزل فيه • وقد تخير
المنصور ذلك الموضع عامداً اذ « يصير ذلك بلداً وهذا بلداً فان فسد
عليك – كما قال له الناصحون – أهل هذا الجانب ضربتهم بأهل
ذلك الجانب » • وما عتمت الرصافة أن توسعت توسع بغداد وأضحت
تضاهيها وتكملها في الروق والقصور وكثرة الخلق قبل أن تندمج
نهائياً فيها •



الفصل السابع

العلاقات الخارجية

السياسة الخارجية : سياسة تأمين الحدود والاتجاه القاري

كانت الدولة التي تربع في قمتها العباسيون الآن ، الدولة العظمى الاولى ، في عالم القرون الوسطى ، واتساع رقعتها جعلها على تماسر مباشر ، في الحدود والصلات ، مع كل الدول القوية إذ ذاك ، إلا دولة الفرنجة الكارولنجيين فقد قام بينهم وبينها في الاندلس دولة الامويين الجديدة ، التي انكششت عن العالم الاسلامي كله الى تلك الرقعة الجزرية المحدودة . وكان من الطبيعي ، من جهة أخرى ، في عصر كالعصر العباسي الاول ، كله حركة ونشاط وفعالية ، أن يصيب السياسة الخارجية جانب من النشاط ، سواء في الاعمال الحربية ، أو في العلاقات الدبلوماسية . وبالرغم من ان الفترة الاولى من هذا العصر ، نعني فترة التأسيس ، كانت كثيرة المشاكل الداخلية ، فان مشاكل الحدود والجهاد لم تنقطع . وقد جهد المنصور خاصة لتأمين تلك الحدود أكثر مما فكر بالهجوم . ولهذا فانه من الصعب أن نسمي علاقات الدولة العباسية بما جاورها من البلاد ، في المشرق خاصة ، بسياسة خارجية أو بعلاقات خارجية ولعل الأصح أن تسمى سياسة تأمين الحدود لأن الاعتماد فيها إنما كان على القوى العسكرية والحصون لا على العلاقات الدبلوماسية والرسل والوفود . ولعل

العلاقات الخارجية الوحيدة التي عقدها المنصور انما كانت تلك العلاقات المحتملة مع الصين من جهة ومع مملكة الفرنجة من جهة أخرى •

على أن الملاحظة الأساسية هنا هي أن انتقال الخلافة من بيت الى بيت ومن عاصمة الى أخرى إذا لم يكن في كافة النواحي الداخلية والإدارية والاقتصادية والثقافية سوى استمرار للعهد الأموي إلا أنه في ما يتعلق بالسياسة الخارجية بالذات كان انتقالا بالدولة الإسلامية من عالم الى عالم ومن سياسة الى أخرى مختلفة • لقد نجم عن مسيرد الخلافة نحو المشرق واستقرارها في العراق وانقطاع الأندلس عنها ثم انقطاع المغرب بعد قليل ، وسيطرة الروم على المتوسط إثر هزيمة الأمويين أمامهم أن أخذت الدولة الإسلامية العباسية الطابع القاري لا البحري وانتقلت من عالم البحر المتوسط الى عالم آسيوي يختلف عنه في كل ناحية • ولم يعد للعباسيين من يد في الأعمال التي تمت في هذا البحر بعد ذلك فصقلية إنما فتحها بنو الأغلب ، وكريت جباة الرض الأندلسيون • وصارت شواطئ المتوسط بالنسبة للعباسيين أشبه بالحدود والنهايات التي ينبغي حمايتها منها بالشعور ومراكز الانطلاق الى السيادة على ذلك البحر وما وراءه •

وهكذا لم يستفد المسلمون في المشرق من وجودهم على شواطئ المتوسط الشرقية والجنوبية ويجب الانتظار في هذه الناحية حتى تظهر الدول شبه المستقلة في افريقيا وفي مصر لتظهر القوة البحرية العربية (ما بين الأغالبة – والطولونيين حتى الفاطميين) وليعود النفوذ الإسلامي – ولكن تحت رايات أخرى غير الرايات العباسية – الى مكانه من ذلك البحر •

ولما كانت معظم الجبهات العباسية برية لذلك يمكن أن تقسم
البحث في ذلك حسب الجهات الى ثلاث : المشرق وبيزنطة والبحر
المتوسط الغربي •

١ - جبهة المشرق (الهند الصين المحيط الهندي تركستان)

كان اهتمام المنصور متجهاً نحو الشرق أكثر منه نحو الغرب ،
والى الهند والترك وايران أكثر منه الى جبهة الروم والاندلس وافريقية •
ولعل الشاعر السيد الحميري قد عبر عن شيء من ذلك حين أنشده :

أعطاكم الله ملكاً لا زوال له
حتى يقاد إليكم صاحب الصين ...
وصاحب الهند مأخوذاً برمته
وصاحب الترك محبوساً على هون^(١)

ولم يأبه الشاعر كثيراً بذكر الروم أو افريقية • والواقع أن
الدولة العباسية بدأت اتجاهها القاري الآسيوي وارتبطت بالشرق
منذ ربطت نفسها بخراسان وأهل خراسان وأصبح هذا الاتجاه سياسة
مقررة دائمة وطدت أعمال المنصور والمهدي والرشيد ثم خاصة
المأمون فكأنما كان ظهور الدولة العباسية إحياء للدولة الساسانية
وسياستها العامة •

وكانت تقوم الى الشرق والى الشمال من الدولة أيام العباسيين

(١) الاصبهاني - الاغانى ج ٧ ص ٢٦٠

الاولين مجموعتان من الدول :

أ - مجموعة من الدول الكبيرة ولكنها بعيدة المواقع ولا تتصل بالاتصال المباشر بخلفاء بغداد مثل ممالك الهند (مملكة قنوج في شمال الهند، ومملكة أسرة راشتراكوتا في الدكن ومملكة سرنديب) و امبراطورية الصين، ومملكة الاتراك الشرقيين (الأويغور) في منغوليا • ومملكة الخزر في جنوب روسيا •

ب - مجموعة من الدول أو الشعوب الصغيرة المحيطة بالأرض العباسية سواء في الهند (كشمير - دهلي - الزط - قندهار - الملتان - الميد) أو في تركستان (مثل بلاد الصغد وسجستان والتبت وفرغانة وأشروسنة) أو في شمال أرمينية (مثل دولة الصنارية واللان والسرير والابخاز والكاسكية وكشك) وهذه الدول هي أشبه بما يسمى بالدول الحاجزة أو دول «الصدام» •

وبديهي أن يحيط الغموض وتقل المعلومات حول علاقات العباسيين مع المجموعة الاولى من الدول خاصة • على أننا نستطيع أن نتبين أحيانا بعض الملامح من خلال العتمة ومن خلال الغבלقة مع الدول الصغرى والثورات والعمليات الحربية على مناطق الحدود •

اولا : فأما في الهند فقد كان الثغر هناك في حوض السند قد وقع منذ سنة ١٣٠ في يد منصور بن جمهور الكلبي الثائر على السلطان الأموي • ويبدو أن أبا العباس سكت عن منصور أو قبل ولايته ولكن أبا مسلم بعث الى السند بعبد الرحمن بن أبي مسلم العبدى وقد مر معنا كيف فشل في طرد منصور ولقي حتفه حتى إذا وفد موسى بن كعب الشيمي استطاع النصر حتى ألجأه منصوراً الى الصحراء يموت

فيها عطشاً • وهرب جماعته وأهله الى بلاد الخزر^(١) وأقام موسى ينشر الاسلام فيني المساجد ومن ذلك مسجد المنصورة كما يوطد السلطان العباسي بالهجوم على الامارات الهندية المجاورة وتجديد بناء المدن - الحصون هناك •

كانت تلك طليعة النفوذ العباسي في المنطقة الذي اضطرب حين عاد كعب إلى العراق مخلفاً ابنه عيينة مكانه ، فقد خالف عليه قوم من اليمن فقتل عامتهم فأظهروا العصيان وبعث أبو جعفر بعمر بن حفص بن أبي صفرة العتكي المعروف بهزارمرد فتسلم البلاد سنة ١٤٢ رغم مقاومة عيينة التي أدت الى طرده ثم مقتله^(٢) •

وإذا كانت هذه الاعمال تدخل في إطار توطيد الدولة أيام المنصور فقد اتصلت بها أيضا شؤون العلاقات الخارجية في هذه المنطقة • فان عمر بن حفص^(٣) الذي أقام عشر سنوات في تلك البقاع اهتم بنشر الاسلام وحماية الحدود دون التوسع وقد حاول محاولة للاتفاق

(١) انظر الطبري ج ٧ ص ٤٦٤ (٨٠/٣) ابن الاثير ج ٥ ص ٤٥٣

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٧٣

(٣) يجعل البلاذري ولاية عمر بن حفص بعد هشام التغلبي وقد اتبعنا الطبري واليعقوبي في جعل عمر هو السابق لان الطبري يحدد تاريخ بدء ونهاية الولاية (انظر البلاذري - فتوح ص ٥٤٤ - اليعقوبي ج ٢ ص ٣٧٣ - الطبري ج ٧ ص ٥١٢/٣-) علما أن اليعقوبي يذكر ان ولايته كانت سنتين بينما يجعلها الطبري حسب التواريخ قرابة عشرة اعوام • وكان من الممكن التوفيق بين هذه الروايات جميعا بافتراض عودة عمر بن حفص مرة ثانية الى ولاية السند ، بعد هشام ، لمدة سنتين ايضا بعد سنواته العشر الاولى • لولا ان عمر ولي افرقية منذ سنة ١٥١ وقتل في القيروان سنة ١٥٤ • فخير السنتين عند اليعقوبي خاطيء •

مع بعض الامارات الهندية ضد آل العباس • ذكروا أنه كان يتشيع
لآل علي فأوفد محمد ذو النفس الزكية (ويعرف أيضاً بالأشتر) ابن
عبد الله الى بلاد السند مستتراً في زي تاجر خيل مع جماعة • وكان
يعرف ميول ابن حفص فكشف له عن أمره وطلب البيعة لأبيه محمد
فبايعه وهياً لنفسه الملابس البيض كما ينقض بيعه المنصور ولكنه
فوجيء قبل يوم من إعلان الأمر بحرقه تصل من البصرة وعليها كتاب
من زوجته تبلغه فيه مقتل ذي النفس الزكية ••

واقترح ابن حفص على العلوي أن يجعله مع جماعته الزيدية
عند ملك من ملوك السند (المجاورين) عظيم المملكة كثير التبغ وهو
على شركة أشد الناس تعظيماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم^(١)
وقد بلغت عدة هؤلاء اللاجئين السياسيين ٤٠٠ زيدي « من أهل
البصائر » •• وبلغ المنصور ذلك فيما بعد شيء من ذلك فكتب الى
ابن حفص أن يغزو الامير الهندوكي فلما تردد طويلاً سأله المنصور
عن موضوع عبد الله العلوي • ويذكر الطبري أن أحد رجال عمر
افتداه بنفسه وادعى أنه المسؤول أمام المنصور عن الامر فقتل وأما
عمر بن حفص فأعطي ولاية افريقية سنة ١٥١ •

وتولى السند بدلا عنه هشام بن عمرو التغلبي فكان عمله هجوماً
بعكس ابن حفص : هاجم كشمير فافتتحها وأصاب سبايا ورقية
كثيراً^(٢) وغزا اقليم الكجرات واستولى على مدينة (بروج) ميناء
بحر العرب وكان بها جالية إسلامية كبيرة •

(١) انظر الطبري ج ٨ ص ٣٣-٣٥ (٣/٣٦١-٣٦٣) •

(٢) البلاذري - فتوح ٥٤٣ - اليعقوبي ج ٢ ص ٣٧٣

وقيل لهشام : إن المنصورة لا تحملك • والمثلتان بلاد واسعة
ومنها معرى • فسار إليها واستخلف على المنصورة أخاه بسطام بن
عمرو •• وخرج صاحب المثلتان في خلق ليرده فكانت وقعة عظيمة
وانهزم صاحب المثلتان ونزل هشام المدينة وسبى سبياً كثيراً فخضع
له أقليم المثلتان كله •

ووجه أسطولاً من البوارج بقيادة عمرو بن جمل إلى بلدة ناربند
(جنوبي شبه جزيرة راجكوت) •• ثم عمل السفن وحملها على نهر
السند حتى القندهار ففتحها • وسبى وهدم المعبد وبنى موضعه
مسجداً •• « ويبدو أنه في إحدى هذه الحملات ورغم ما يعزى
إلى هشام بدوره من ميول علوية قتل عبد الله العلوي اللاجيء وبعض
أتباعه • قتله السفيج أخو هشام في بعض المعارك وبعث برأسه
إلى المنصور • ولعل الأمانة التي كان لجأ إليها إذن هي كشمير ••

وقدم هشام التغلبي على المنصور بما لم يقدم به أحد من السعديين
لكنه لم يقيم بالعراق إلا قليلاً حتى مات فولى المنصور معبد بن الخليل
التميمي ••

ثانياً : وأما الصين فقد كان اتصال الدولة العربية الإسلامية بها
يجري عن طريقين :

أولهما بحري جنوبي ، عبر المحيط الهندي ثم مضيق سنغافورة
وهو رغم بعده كان يعتبر طريق الاتصال المباشر بالصين •

والثاني بري شمالي عبر بلاد الترك ثم ممر زنجاريا ، وبالرغم من

ان طريق البحر كان أرخص كلفة وأقل مشقة وتعرضاً لتهديد القوى المتغلبة على مداه الطويل فان طريق البر لم يكن أقل شأنًا ولا حركة ونقلًا للبضائع من طريق البحر . على أن الأهواء السياسية والنزاع الاقتصادي الحربي المستمر منذ العهد الفارسي اليوناني ، في الشرق الاوسط ، كانت تلعب دورها في تنشيط أو إضعاف أحد الطريقين أو تحويلهما باستمرار .

وعلاقة الدولة العربية الاسلامية بالصين أكثر غموضاً من علاقاتها مع الهند ذلك أن المصادر العربية لم تبد أي اهتمام بذكر شيء عن هذه العلاقات التي نكاد - لولا شواهد الصلات التجارية الواشجة - لا نجد أي خبر يتعلق بها . ولكن ذلك لا يعني أنها لم تكن قائمة أو كثيرة النشاط . وإن كان البعد الجغرافي قد جعل بالضرورة العلاقات التجارية أقوى وأوسع بكثير من العلاقة السياسية . وإذا سكنت المصادر العربية عن هذه العلاقة فان ثمة في المصادر الصينية ما يشير الى قيامها بين خلفاء الاسلام ومعاصريهم ، أباطرة الصين من أسرة تانغ (أوتونغ) الذين امتد حكمهم ما بين سنة ٦١٨ حتى سنة ٩٠٧ أي مما قبل الهجرة بخمس سنوات حتى أواسط العصر العباسي الثاني . وثمة ما يشير الى أن العلاقات بدأت ، عن الطريق البري ، منذ خلافة عثمان بن عفان . وقد تكرر وضوح لعلاقة في زمن الامويين في ظل عهد الوليد وهشام خاصة .

أما في مطالع العصر العباسي فيبدو أن الطريق البحري كان قد أضحى مألوفاً للناس فقد رووا أن المنصور حين بنى بغداد قال في تفضيل موضعها وميزاته : : « ... وهذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء .

يأتينا منها كل مافي البحر ...»^(١) والرواية وإن تكن في شكلها العام موضوعاً لبيان ميزات بغداد إلا أنها على أي حال تعبر عن حقيقة يقر بها الناس في ذلك الوقت وهي انه ما دامت دجلة موصولة بالبحر فليس بين بغداد والصين شيء والرحلة بينهما مفتوحة على المصرعين .

والواقع أن العرب المسلمين نشطوا كثيراً في الحركة التجارية البحرية في المحيط الهندي ثم بحر الصين منذ القرن الثاني الهجري (الثامن) خاصة ويبدو أن أعداداً كبيرة وصلت منهم الى ميناء كاتون (خانفو) الصيني في ذلك القرن . يذكر مؤرخ صيني من تلك الفترة (بين سنة ٧١٣ و سنة ٧٤٢) « أن برابرة الغرب دخلوا المملكة الوسطى جماعات كالطوفان جاءت من مسافة تبعد ألف فرسخ على الاقل وأتت أكثر من مائة مملكة تحمل معها كتبها المقدسة ... كأنها فريضة ، فأخذت هذه الكتب ووضعت في بهو القصر الامبراطوري المخصص لترجمات الكتب المقدسة ...»^(٢) وتذكر المصادر الصينية أيضاً - وهي لم تكن تفرق تماماً - يومذاك بين العرب والفرس ولا تذكر شيئاً عن العرب أنه كان للفرس (البوسيه Po-ss) قرية أو مستعمرة كبيرة جداً في جزيرة هاينان عام ٧٤٨ / ١٣٠ هـ . وقد ورد ذكرهم في هذه السنة نفسها الى جانب البراهمين وسكان الملايو أصحاباً لسفن على النهر عند كاتون ...^(٣) ويسجل تاريخ كوانغ

(١) الطبري ج ٧ ص ٦١٤ (٢٧٢/٣)

(٢) توماس ارنولد - الدعوة الى الاسلام (الترجمة العربية) ص ٣٣٤

(٣) جورج . فضلو حوراني - العرب والملاحة في المحيط الهندي (الترجمة العربية) ص ١٩٢-١٩٣

توتغ قدوم أوائل الوافدين منهم على النحو التالي : « ... في عهد دولة تانغ وفد على كاتون عدد كبير من الغرباء من مملكة أنام وكمبوديا . ومدينا (وتعني المدينة يثرب) وبعض بلاد أخرى . وكان هؤلاء الغرباء يعبدون الله وليس لهم في معابدهم تمثال أو صنم ولا صورة . وكانت مملكة مدينا (أي مملكة الاسلام) قريبة من مملكة الهند وفيها نشأت ديانة هؤلاء الغرباء التي تختلف عن ديانة بوذا . وكانوا لا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر ويعتبرون الذبائح التي لا يذبحونها بأيديهم طعاماً نجساً ويطلق عليهم الآن اسم (هوى هوى) . ولما استأذنوا الامبراطور وحصلوا منه على إذن بالاقامة في كاتون بنوا دوراً جميلة من طراز يختلف عن ذلك الذي كان في بلادنا . وكانت لهم ثروة عظيمة ودانوا بالطاعة لرئيس اتخبوه بأنفسهم ... »^(١) .

ويبدو أن هذه الجساعة التجارية المتكاثرة من جهة واصطدام القوى العربية الاسلامية في ما وراء النهر مع القوى الصينية - كما سوف نرى - من جهة أخرى هي التي أدت الى إقامة علاقة سياسية عسكرية بين الصين والدولة العباسية الناشئة في أواسط القرن الثامن الميلادي (بين ١٣٢ - ١٤٠ هـ) . فقد كان الصينيون يسيطرون على طريق التجارة البري عبر بلاد تركستان ويعتبرون هذه البلاد منطقة نفوذ مباشر لهم . فلما توغلت الجيوش العربية الاسلامية هناك في بلاد

(١) توماس ارنولد - المصدر نفسه ٣٣٤ و ٣٣٢ وقد نقل النص بدوره عن الجزء الاول من كتاب :

D. De Thiersant, Le Mohamétisme en Chine, (Paris 1878) Vol. L PP 153 et 19-20

الترك وتدخل امبراطور الصين لحماية بعضهم هزم جيشه هزيمة قوية (أواخر سنة ١٣٣ هـ / تموز ٧٥١ م) • قتل فيها الالوف وأسر الالوف من الصينيين • ولم ينجم عن تلك المعركة انسحاب السيطرة الصينية من تلك المنطقة كلها فحسب ولكن نجم عنها أيضاً اقامة تعاون سياسي عسكري بين الخليفة المنصور والصين • فقد قامت ثورة داخلية سنة ٧٥٤ في الصين أدت الى أن يطرد أحد الغاصبين وهو الثائر التركي الرهيب آن لوشان An - Lu - Shan الامبراطور عن عرشه • والى أن يتنازل عن العرش لابنه سو - تسونغ سنة ٧٥٦ فطلب هذا الابن النجدة من الخليفة العباسي المنصور فأجابه بإرسال قوة عسكرية نجح بمساعدتها في استرجاع عاصمته (سي - تان - فو) و (هو - فان - فو) من أيدي الثوار ... (١) •

ولسنا ندري بالضبط متى تحركت تلك القوة الاسلامية الى الصين ؟ وعن أي طريق ذهبت - ولعله الطريق البري الشمالي - ولا عدد هذه القوة وقائدها • فان المصادر العربية الاسلامية تصمت عن ذلك كله ، رغم أهميته ورغم أنه يشكل انعطافاً وتطوراً هاماً جداً في اتساع نفوذ وسمعة الدولة الاسلامية عبر كل الدنيا المعروفة آنذاك • وهذا ما يشكك في صحة الخبر ، وقد يدفع الى الظن بأن قصة المعونة العسكرية العباسية قد لا تكون في الاصل سوى تطوع بعض التجار العرب أو المرتزقة أو القرصان من مختلف العناصر التي تنتمي في

(١) انظر توماس ارنولد - الدعوة الى الاسلام (الترجمة العربية - الطبعة الثانية ١٩٥٧) ص ٣٣٣ وانظر كذلك بدر الدين حي الصيني - العلاقات بين العرب والصين (القاهرة ١٩٥٠) ص ٣٦ ، ٤٦ • وجورج فضلو حوراني - العرب والملاحه ص ١٩٣ و ص ٢٠٠

الاساس للدولة العباسية كالفرس والنساطرة واليهود وغيرهم لدعم قضية الامبراطور الابن في وجه الثائرين . ولعل هؤلاء المتطوعين قد تدخلوا أو أن التجار العرب المسلمين مولوهم وجندوهم أملا في بعض الامتيازات والحقوق التجارية التي نالوها بالفعل فيما بعد .

وعلى أي حال فإن بقية القصة ترجح هذا الافتراض . فالمصادر الصينية تذكر ان قوة النجدة العباسية لم ترجع الى بلادها بل بقيت في الصين وتزوج أفرادها هناك واستقروا .. والروايات التي تذكر هذا الاستقرار تعلله بسبب واضح التهافت . بعضها يقول إنهم عادوا بالفعل الى بلاد الاسلام ولكنهم أخرجوا منها لأكلهم من لحم الخنزير في الصين . وبعضها يذكر أنهم أشفقوا أن يعودوا لانهم خافوا الاتهام بهذه الكبيرة فعدلوا عن الرجوع وهم على أهبة السفر . وحين حاول حاكم كاتتون إجبارهم على الرحيل انضموا الى اخوانهم في الدين وسلبوا المتاجر الهامة في المدينة . فأنفذ الحاكم نفسه بالالتجاء الى سورها . ولم يتمكن من العودة إلا بعد أن حصل من الامبراطور على إذن لهذه الجيوش العربية بأن تقيم في هذه البلاد وخصصوا لهم أراض ودوراً في مدن مختلفة حيث استقروا وتزوجوا من نساء البلاد^(١) ..

وقد يكون هذا الخبر السابق هو نفسه الخبر الذي ذكر فيه المؤرخ الصيني صاحب (تاريخ أسرة تانغ) في أخبار سنة ٧٥٨ م وسنة ١٤٠ هـ : « ... أن العرب Ta-shu والفرس Po-ssc قد نهبوا

(١) توماس ارنولد - الدعوة الى الاسلام ص ٣٣٣ (نقلًا عن المصدر السابق نفسه ص ٧٠-٧١)

مدينة. كوانغ - شو (كاتون) وأحرقوها معاً ثم عادوا أدراجهم في البحر . » وكان فيها جموع كثيرة من هؤلاء الاجانب^(١) ...

وقد يكون من التناقض أن نرى المنصور يقدم المعونة العسكرية لامبراطور الصين البعيد ، وهو في الوقت بالذات أحوج الناس اليها لقمع الثورات عليه وتوطيد الدولة له ، ومن التناقض أيضاً أن يعمل على توطيد علاقاته السياسية مع الامبراطور الصيني بهدف كسب حياده في منطقة تركستان على الأقل بينما تجرؤ بعض الجماعات التجارية أو القراصنة المسلمين على هدم العلاقات الاقتصادية القوية التي كانت قد بدأت في التوطد بين بحر البصرة وبحر الصين وتنهب مرفأ الاتصال بين البلدين .

ولعل الأرجح أن تلك الجماعات التي دعمت الامبراطور عسكرياً أو نهبت كاتون كانت تعمل لحسابها ولتأمين مصالحها الخاصة في تلك الاقطار النائية . وقد تكون قد قامت بالتطوع والدعم بعلم المنصور وتأنيده وأعطت متطوعها هذا الاسم ليكون له الوقع والقبول وغرضها الحصول على الامتيازات فتمنا منعت نائلها بالقوة واستقرت بينما انسحب بعضها ، أو انسحبت القوى الاسلامية التي استجلبتها من الموانئ الاخرى لدعمها ..

وعلى أي حال فان السياسة الصينية قد ماتت بعد إخماد ثورة آن - لويشان إلى الانكماش على الذات وإذا لم تعد تتدخل في شؤون

(١) حوراني - العرب والملاحه ص ١٩٣

تركستان وتركيتها بكاملها للنفوذ العباسي الاسلامي فانها بالمقابل أغلقت ميناء كاتتون^(١) نهائياً في وجه التجار الاجانب ، ومنهم العرب والفرس وغيرهم ، وقد ظلت موانئ الصين محرمة عليهم بعد ذلك أكثر من ثلث قرن ..

وفي هذه الفترة على ما يظهر ضعفت حركة المراكب التجارية الاسلامية في الرحلات البعيدة أو غلت تكاليفها ويبدو أن هذا الضعف والغلاء قد جراً عمليات القرصنة التي زادت بشكل ملحوظ أيام المنصور مابين سنتي ١٤٠ حتى ١٥٣ في بحر البصرة والبحر الهندي ...

ثالثاً : وأخبار النشاط العباسي البحري في المحيط الهندي شحيحة جداً :

وبالرغم من شح الاخبار لا سيما فيما يتعلق بالنشاط العسكري وبأمن الطرق البحرية التجارية عبر الخليج العربي (وكان يدعى بحر البصرة) وما وراءه الى الهند وشرقي افريقيا والى الصين ، فان المعلومات القليلة التي وفرها لنا خليفة بن خياط المؤرخ البصري الذي عاش جانباً من العصر العباسي الاول ، في نهايته ، تكشف أن الاسطول العباسي كان ضعيفاً للدرجة التي كان فيها قرصان البحر يضربون ضرباتهم حتى في البصرة نفسها . وتتكرر هذه الاخبار في تاريخه خاصة مابين سنتي ١٤١ - ١٥٣ في عهد المنصور . وتنسب القرصنة في بحر البصرة في هذه الفترة الى شعب أو جماعة تعرف بالمليذ وهم

(١) حوراني - العرب والملاحه ص ٢٠٠

قوم من حوض السند ، في غربه ، ومركزهم في بلدة سزست أو سرشت يقول البلاذري^(١) : « وأهلها الميذ الذين يقطعون البحر ويبدو أنهم اشتهروا بذلك واتخذوه عملاً دائماً خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين حتى أضحت « مغزى أهل البصرة » وموضع عدائها وهجومها الدائم . يقول ابن خياط : في سنة ١٤١ « أن أبا جعفر ولي محمد بن أبي عيينة (بن المهلب بن أبي صفرة) البحر . فنزل مدينة قيس ، جزيرة في البحر (ولعلها جزيرة قيشم على مدخل الخليج العربي) فأتته مراكب الميذ فلم يخرج اليهم وخرج ابنه فقتل في جماعة من المسلمين . وخلي ابن أبي عيينة المدينة فخربها العدو فهي خراب الى اليوم . . . »^(٢) ولعل تلك المدينة لم تكن أكثر من مركز من المراكز التجارية لاهل البصرة على طريق الهند .

— وفي سنة ١٤٨ يبدو أن الميذ قد اجتروا ، مع ضعف القوة

(١) البلاذري — فئوح البلدان ج ٣ (طبعة المنجد) ص ٥٣٩ ، ويقول المسعودي (في التنبيه والاشراف ص ٤٩) وفي نهر مهران بالسند «جنس» يقال لهم الميذ وهم خلق عظيم حرب لأهل المنصورة (في السند) ولهم بوارج في البحر تقطع على مراكب المسلمين المجتازة الى أرض الهند والصين وجدة والقلزم وغيرها كالشواني في بحر الروم . . » ويقول ابن خردادبة (ص ٦٢) «الميذ لصوص . . . » وفي البلاذري قصة سفينة كانت تحمل بعض الجواري هدية للحجاج فهاجمتها بوارج الميذ فأخذوها بما فيها . . . ويقترن اسم الميذ وقصة القرصنة باسم جنس هندي آخرهم الكرك . ويقول ابن خردادبة (ص ٥٦) أنهم من بلاد السند . وكانوا يعملون ايضاً بالقرصنة وقد هاجموا كما سوف نرى مدينة جدة في البحر الاحمر مما اضطر المنصور لارسال حملة تأديبية ضدهم وقد ذكر ذلك الطبري .

(٢) خليفة بن خياط — التاريخ (طبعة العمري — بغداد) ج ٢ ص ٤٤٦

والذهبي ج ٦ ص ٥

العباسية في وجههم ، على الصعود من الخليج العربي حتى أعاليه .
ونسلم لأول مرة أنه قد « دخل الميذ من البحر فأتوا دجلة البصرة »
أي شط العرب^(١) .

— ويتكرر الهجوم القرصني نفسه في السنة التالية ١٤٩ ويضاف
إليه في رواية ابن خياط خبر هام آخر لعله يتعلق بأبي جعفر المنصور
نفسه وبرحلة بحرية تفقدية أجراها في الخليج العربي ولم تذكرها
المصادر التاريخية كما لم تلمح أي واحدة منها إليها ولا الى نتائجها .
يقول : « إن العدو — وهكذا يسمي ابن خياط الميذ — لقي أبا جعفر
بخارك (وهي جزيرة في وسط الخليج العربي ولعلها جزيرة البحرين
أو فيلكه) فأصيب هو وأهل مركبه^(٢) فان صح فهم النص على أنه
يتعلق بأبي جعفر فان للأمر معناه البعيد .. »

— ولكن الميذ استمروا بعد ذلك في جرأتهم على البصرة
« فدخلوا سنة ١٥١ دجلة البصرة » ولكنهم في هذه المرة — على ما
يبدو — لم يفاجئوا أهلها كما جرى في المرات السابقة فقد لقوا المقاومة
العنيفة « تلقاهم (بها) أبو عبيدة السعدي .. »^(٣) .

— ثم وصلوا في السنة التالية سنة ١٥٣ الى أن دخلوا بعض

(١) المصدر نفسه ص ٤٥٢

(٢) المصدر ذاته ص ٤٥٣ والنص المنشور يضع الاسم : أبا جعفر
وليس لهذه القراءة من مبرر أو سند ولعل الاصح قراءتها كما قرأنا :
أبا جعفر .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٥٤

الانهار الفرعية في شط العرب • متوغلين أكثر فأكثر فيه • يقول ابن خياط : « دخل الميذ نهر الامير (هل هو نهر قارون ؟) بدجلة البصرة فقتلوا وسبوا » ولعلمهم اختاروا النهر الفرعي لئلا يصطدموا بقوى البصرة نفسها كما جرى في السنة السالفة • ويروي ابن خياط شهادة شاهد عيان يقول : « حدثني نضلة أنه شهدهم يوم نهر الايسر وقتلهم وجماعة معه حتى صاروا الى بوارجهم واستنقذوا ما في أيديهم .. » (١)

وانقطاع أخبار هذه القرصنة الجريئة بعد سنة ١٥٣ قد يعني ، مع الخبر الآخر الذي يروي مجيء المنصور الى البصرة وتوجيه أسطول لغزو القراصنة الكرك ، الذين يهاجمون جدة في البحر الاحمر ، أن عناية خاصة قد بذلت لاقامة قوى بحرية ترافق الاساطيل التجارية وتقطع دابر القرصنة في الخليج • وإخراج القراصنة الميذ منه الى عرض المحيط الهندي • وقد يدل على ذلك أن المهدي - كما سوف نرى - سيرسل حملة بحرية الى السند لتأديب القراصنة فيها بقيادة عبد الملك بن شهاب المسمعي •

رابعاً : وأما مجموعة الدول الأخرى الصغيرة المطوقة للدولة الاسلامية في آسيا الوسطى ، وهي المعروفة لدى المؤرخين ببلاد ما وراء النهر (وقد يشار اليها قديماً في نوع من التعميم والتوسع باسم خراسان وتسمى حديثاً تركستان) فالواقع أنها أنواع ثلاثة من الدول التركية أو التركية - الايرانية • فبعضها فتح بالقوة ودخل في إطار الحكم الاسلامي وأبقى المسلمون ، بسوجب المعاهدات ، على عقائده وعلى حكامه

(١) المصدر نفسه ص ٤٥٥

المحليين يتوارثون فيه الحكم مثل الصفد واشروسنة • (ومثلها سجمستان أيضا وطبرستان) • ومنها ممالك لم تفتح ولكنها تحت النفوذ العربي الاسلامي بسبب الجوار والعلاقة التجارية مثل الشاش وفرغانة والختل، وباميان وطخارستان وكابول ومنها مجموعة ثالثة أبعد في المواقع وأكثر إغلافاً في السهوب التركية والجبال العالية ، كالتيبت ، والخرلخية (القزلوق) والتغزغز والقرخانين والأويغور وهي تشكل مع الدول السابقة لها مجموعة الدول الحاضرة في البر بين امبراطورية الصين ودولة الاسلام • ويجب أن نضيف إليها فيما بين بحر قزوين والبحر الأسود دولة الخزر •

وعامة شعوب هذه الدول ليست على الاسلام فما كان منها في دائرة الحضارة الايرانية فهو زارادشتي وأحياناً مانوي كالسغد والأويغوز وما كان منها خارج تلك الدائرة ولا سيما في سهوب الترك فبعض على البوذية والاعلب وثني الديانات •

وقد كانت امبراطورية الصين تعتبر آسيا الوسطى جميعاً حتى أطراف الدولة الساسانية منطقة تابعة لها تسيطر فيها إلى أبعد ما تستطيع من المسافات على الطرق التجارية العالمية الممتدة عبر آسيا الوسطى ما بين الشرق الاقصى والغرب الاوروبي وهي الطرق التي نشطها كل النشاط جوستنيان (في القرن ٦) فكان نفوذ المسلمين الى ما وراء النهر ، منذ العهد الاموي (في القرن السابع) مثار قلق للصين التي كانت تتدخل في شؤون المنطقة في كل فرصة • وقد اغتتم الصينيون فرصة النزاع الاموي — العباسي فمارسوا استعادة نفوذهم من جديد لا سيما وأن

الترك بصورة عامة كانوا لا يعتبرون أنفسهم طرفاً في ذلك النزاع الذي شغل السلطة الإسلامية عنهم ، وما كاد الأمر يستتب للعباسيين حتى حاول أبو مسلم الذي تسلم خراسان بعد نصر بن سيار أن يجدد بسط السلطان الإسلامي على المناطق التركية الشرقية فاصطدم هناك بالنفوذ الصيني الذي يتقدم حتى استطاع الصينيون سنة ١٣٠/٧٤٨ الاستيلاء على مدينة (سوياب) وتخريبها ..

وقد برز هذا الاصطدام في حادثة بلاد الشاش . ذلك أن إخشيد فرغانه اختلف مع ملك الشاش « فاستنجد الإخشيد بملك الصين الذي أنجده - فيما تقول المصادر العربية - بمائة ألف مقاتل حاصروا ملك الشاش الذي نزل على حكم الصين فلم يتعرض له ولأصحابه بما يسوءهم .. » . لكن الصينيين - فيما يبدو - تأمروا على هذا الملك فقتلوه بعد ذلك فاستنجد ابنه بالقوى الإسلامية في خراسان (وأواخر سنة ١٣٣/ربيع سنة ٧٥١) وحرصها ضد التدخل الصيني . وتكشف استجابة المسلمين السريعة لهذه النجدة مدى شعورهم بالخطر الصيني السياسي والاقتصادي فقد توجه زياد بن صالح الخزاعي فوراً فاشتبك مع الجيش الصيني في معركة على نهر طراز (ذي الحجة سنة ١٣٣/تموز سنة ٧٥١) كانت من المعارك الفاصلة في التاريخ لان القائد الصيني (كاو - هسين - تشي) قتل وقتل معه - حسب قول المقدسي وابن الاثير ما بين ٤٥ الى خمسين ألفاً كما أسر عشرون الى ٢٥ ألفاً . وهرب الباقيون الى الصين . والمصادر الصينية تجعل عدة الجيش كله لا تجاوز ثلاثين ألفاً (١) . وما كان لهذه المعركة أن تذكر لولا أنها قررت مصير ما وراء النهر حضارياً خاصة وسياسياً فقد نجم عنها :

(١) انظر المقدسي - البدء والتاريخ وابن الاثير ج ٥ ص ٤٤٩

أ - انسحاب النفوذ الصيني السياسي ، وانسحاب الحضارة الصينية نهائياً من المنطقة الى ماوراء مرزنجاريا وتركها لسيطرة الاسلام السياسي أولاً وللحضارة الاسلامية ديناً وفكراً وفناً وتقاليد بعد ذلك إلى اليوم وقد حدث أن بعث أمير اشروسنة إلى الصين يستعديها على العرب سنة ١٣٤ / ٧٣٥ فرفضت تلبية النداء .

ب - ابعاد الصين عن المعركة الدائرة بين العرب والأتراك (الشرقيين والغربيين على السواء) وانقطاع التعاون السياسي-العسكري الاقتصادي القديم بينهم وبين الامبراطورية الصينية وانتقال هذا التعاون بأنواعه من شرقي تركستان الى غربها أي أن الاتراك غيروا بعد تلك المعركة قطب الاتجاه والتأثر وبات عليهم أن يلقوا النفوذ الاسلامي وحدهم وبالاغتراس على جهودهم ومواردهم وحدها مما نجم عنه تمزقهم واصطناع العرب لبعضهم ومحاربتهم لبعضهم الآخر مدة طويلة قبل أن يصبوا أخيراً في الحضارة الاسلامية .

ج - تسليم الصين للمسلمين بالسيطرة نهائياً على طرق التجارة العالمية المارة في آسيا الوسطى ، وهي الطرق التي كانت دوماً وراء تدخل الصين في أمور الاتراك وسوف تصبح هذه الطرق بعد الآن بمختلف شعبها ودروبها بأيدي المسلمين .

ولم يكن هذا الكسب العربي الاسلامي بانسحاب الصين هو الكسب الوحيد ولكن كسباً آخر لا يقل عنه أهمية حضارية قد تحقق

(١) انظر Barthold Histoire des Turcs d'Asie Central.

ولا شك أن في الرواية العربية بعض المبالغة الواضحة .

في تلك المعركة • فقد كان بين الاسرى الصينيين فيها من كان يعرف سر صناعة الورق • وكانت من قبل احتكاراً صينياً خاصاً • وكما فصح البيزنطيون أيام جوستنيان سر صناعة الحرير من قبل كشف العرب الآن صناعة الورق وأقاموا في سمرقند عدة مصانع ثم ما لبثت هذه الصناعة أن انتقلت إلى بغداد في أواخر القرن الثاني (زمن الرشيد) ومنها عرفت في الشام ومصر والاندلس • وقدم العرب بذلك للفكر أحسن اداة تعمل على حفظه ونشره الواسع الرخيص •

على أن هزيمة الجيش الصيني لم تكن هي السبب الوحيد في الانسحاب الصيني الشامل من المنطقة فقد تراكمت تلك الهزيمة مع احداث أخرى جعلت ذلك الانسحاب نهائياً ودائماً : هي تلك الثورة الداخلية في الصين سنة ٧٥٤ التي أدت الى استنجد الامبراطور الصيني بالمنصور أو بالجمالية العربية الاسلامية عنده حتى أعانته على النصر ضد الثائرين • وربما كان لهذا التعاون – المباشر أو غير المباشر – أثره دون شك في إقامة صفحة جديدة من العلاقات الطيبة بين الاسرتين يدعمها ازدياد في التبادل التجاري وتأمين للمصالح الاقتصادية المتبادلة • وقد ساعد على بقاء هذا التعاون والمسالمة من بعد ضعف كل من أسرتي تانغ وبني العباس في القرن الثالث (التاسع الميلادي) •

ويبدو أن وفوداً وسفراء قد جرى تبادلهم في الزيارة بين بلاطي

(١) انظر كتاب توماس ارنولد – الدعوة الى الاسلام (الترجمة العربية – الطبعة الثانية ١٩٥٧) ص ٣٣٣ وانظر كذلك بدر الدين حي الصيني – العلاقات بين العرب والصين (القاهرة ١٩٥٠) ص ٣٦ ، ٤٦

العباسيين والصين لان المصادر الصينية تتحدث عن وفود أرسلها (هان-مي - مو - ميني) أي أمير المؤمنين (أبو لوبا) أي أبو العباس وأبو شافو أي أبو جعفر ...

ومن جهة اخرى لم يكن انسحاب الصين هو التطور الوحيد الذي جرى على الجبهة التركية في مطالع العهد العباسي فالواقع أن تطورات هامة كانت تجري في المنطقة التركية كلها في الوقت الذي كان العباسيون يزيجون فيه الامويين ويغيرون مركز الخلافة من الشام الى العراق . مطلع التطورات التركية إنما كان حين استطاع نصر بن سيار في ولايته بسمرقند ثم في خراسان أن يقضي على دولة الشركس (الترك الغربيين) سنة ١٢١/٧٣٩ فقد سمح انهيارهم لشعوب القارلوق (الخرخ) التي كانت تعيش في شرقهم وتكون دولة تجارية هناك أن تنساح على أراضيهم وأن تفرض نفوذها عليهم سنة ١٤٨/٧٦٦ في عهد المنصور . بينما كانت منطقة منغوليا ، الخلفية البعيدة ، تنتقل بدورها حوالي سنة ١٢٧/٧٤٥ ولمدة قرن بعد ذلك من حكم الاغز (الترك) الى حكم شعب تركي آخر هو الاويغور ...

على أن سياسة العباسيين مع الترك لم تختلف كثيراً عن سياسة الامويين من قبل . ولا عن سياستهم كذلك في السند كانت سياسة هؤلاء قائمة على ثلاثة أسس :

أ - استخدام القوة لتوطيد النفوذ السياسي والتوسع الاقليمي . وهو ما يمكن أن نسميه بسياسة العصا الغليظة . وقد بذلوا في ذلك الكثير .

ب - توطين الجند العرب مع أهلهم وذرائعهم وقبائلهم في المواقع المتقدمة أولاً فأول . ثم القفز من المنطقة المضمونة الى المنطقة التي تليها .

ج - نشر الاسلام كوسيلة سياسية لفرض سلطان « الخلافة » في آسيا الوسطى الجديد الوحيد في السياسة العباسية في هذه الاصقاع تأكيد العباسيين أكثر من الامويين على محور نشر الاسلام . لقد تنبه له الامويون واستخدمه بعض ولائهم استخداماً واضحاً^(١) . ولكن العباسيين جعلوا هذه الناحية الثالثة ، ولا سيما بعد غياب الخلفاء الاوائل ، الوسيلة الاولى بامتياز وتوسعوا في استخدام الدين كطريق للسيطرة السياسية بينما تناقص بوضوح أثر الوسيلة الثانية : وسيلة التوطين بسبب تناقص الاعتماد على العنصر العربي تناقصاً مطرداً . ولم تكن قد مضت سنة واحدة على قيام الخلافة العباسية حتى بدأت ملامح هذه السياسة المزدوجة الوسيلة ، تظهر واضحة في التطبيق العملي الذي كان يهتم بثلاثة أمور :

أ - أن يترافق التوسع الديني مع التوسع الاقليمي ويوطد نشر الدين في كل بقعة الحكم الاسلامي فيها .

ب - أن تتحول الدول المحلية « المعاهدة » الى مقاطعات اسلامية تحت الحكم المركزي المباشر للخليفة .

ج - أن تتحول دول الجوار الى دولة معاهدة ليكون بالامكان تحويلها بدورها الى مقاطعات اسلامية وفرض النفوذ على ما وراءها .

(١) انظر لدى النرشخي - تاريخ بخارى (ص ٧٤) كيف كان قتيبة ابن مسلم يقيم منادياً كل جمعة بأن من حضر الصلاة اعطاه درهماً .

وهكذا نجد أنه في سنة ١٣٣/٧٥١ قام قائد من قواد أبي مسلم الخراساني بعمليات عسكرية على الجبهة التركية يمكن أن نعتبرها تأديبية أو انتقامية . ولعل السبب فيها هو تردد ملوك هذه البقاع في دعم الثورة العباسية ومحاولتهم استغلال الفوضى السياسية ضمن الدولة الإسلامية للتحكم في الطرق التجارية . فقد توجه أبو داود خالد بن ابراهيم من منطقة الوخش الى الختل (وهي المشرفة على ممر زنجاريا التجاري العسكري شمال هضبة بامير) فدخلها ولم يمتنع عليه حنش بن السبل^(١) ملكها ، وأتاه ناس من دهاقين الختل فتحصنوا معه (مما يدل على أن في الامر خلافا داخليا بين شعب الختل) فلما ألح أبو داود على حنش خرج من الحصن ليلا ومعه دهاقينه وشاكرته حتى انتهوا الى أرض فرغانة ثم خرج منها في أرض الترك حتى وقع الى ملك الصين . وأخذ أبو داود من ظفر به منهم ... الى بلخ والى أبي مسلم^(٢) وامتد النفوذ الإسلامي الى مشارف هضبة بامير .

وفي السنة التالية سنة ١٣٤ عاد أبو داود نفسه « فغزا أهل كش فقتل الإخريد (الاخشيذ) ملكها وهو سامع مطيع قدم عليه قبل ذلك بلخ ... وأخذ أبو داود من الاخريد وأصحابه حين قتلهم من الاواني الصينية المنقوشة المذهبة التي لم ير مثلها ومن السروج الصينية ومتاع الصين كله من الديباج وغيره ومن طرف الصين شيئا كثيرا . فحملة أبو داود أجسع الى أبي مسلم بسمرقند . وقتل أبو داود ودهقان كش

(١) يسميه ابن الاثير (حسب النص المطبوع ج ٥ ص ٤٤٩) حبش ابن السبل .

(٢) انظر الطبري ج ٧ ص ٤٦٠ (٧٤/٣) .

في عدة من دهاقينها • واستحيا طاران أخا الاخيريد • وملكه على
كش ••• » ثم يضيف الطبري الى ذلك قوله : « وانصرف أبو
مسلم الى مرو بعد أن قتل في أهل الصغد وأهل بخارى وأمر ببناء حائط
سمرقند • واستخلف زياد بن صالح (الخزاعي) على الصغد ••» (١) •

وقد ضعفت المقاومة التركية كثيرا بعد تخلي الصين عنها في مطالع
عهد أبي جعفر المنصور ولهذا لا يسجل عهده مثلاً سوى مشكلة فرغانة
ويبدو أن ملكها فران بن افراكفون ، اعتدى على القوافل التجارية أو
رفض دفع الاموال للمنصور أو قاوم التوسع الاسلامي فتوجه اليه الليث
ابن طريف مولى المهدي (وكان ولياً للعهد) وحاصره في عاصمته كشغر
فحاربه محاربة شديدة حتى ألجأه الى طلب الصلح فصالحه على مال
كثير • وأوفد ملك فرغانة رجلاً من أصحابه يقال له باتيجور الى بغداد،
وربما كان إيفاده لتسوية الامور أو نوعاً من الرهينة • يقول اليعقوبي:
« ••• فعرض عليه الاسلام فأبى فلم يزل محبوساً الى أيام المهدي وقال:
لا أخون الملك الذي وجهني •• » (٢) ويسجل الطبري كذلك غزو حميد
ابن قحطبة الطائي لملك كابول سنة ١٥٢ (٣) ولعلها حركة من نوع الحركة
السابقة •

على ان الحركات التركية اذا كانت قد خمدت كحركات سياسية
عسكرية على الحدود فان تلك الشعوب لم تلغ عداها للحكم العباسي
الاسلامي ولكن دفعته الى الحلف والى الهدوء فقط في انتظار مناسبة

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٨٧

(٢) الطبري ج ٨ ص ٤١ (٣٦٩/٣) •

ينكشف فيها من جديد • والواقع أننا نجد المناطق التركية في ما وراء
النهر رداء وعونا لمختلف الثورات التي ماجت بها خراسان في عهد
المنصور ضد الحكم العباسي والاسلامي • أي أن القوة الاسلامية
حولت المقاومة التركية من الشكل السافر الى الشكل المستتر ومن شكل
الكتل المقاومة الى المقاومة الشعبية • وهي أول الخطوات نحو ذوبان
المقاومة •

٢ - جبهة الشمال والشمال الغربي (الخزر والروم)

وهي كذلك قطاعان : قطاع عليه الخزر وقطاع عليه الروم •

أولا - العلاقات مع الخزر :

فيما وراء جبال القفقاس (القبق) بين بحر قزوين والبحر الاسود
وعلى الأحواض السفلى لأنهار الفولغا ، والدون والدينير كانت تقوم
دولة الخزر • وهي شعوب تركية الأصل برز اسمها بوضوح قبل الفتح
الاسلامي بسنوات معدودة إذ كانت الحليف الأقوى للروم في انتصارهم
على الساسانيين الفرس ٦٢٧ م • وقد كانت عاصمة الخزر في السهوب
وراء القفقاس ثم انتقلت منذ مطلع القرن الثامن الميلادي الى مدينة إيتل
على مصب نهر الفولغا (قرب استراخان الحالية) • وكانت تقوم بين الخزر
وبين الاراضي التي افتتحها العرب من أرمينية واذريجان عدد من
الشعوب الصغيرة على أطراف جبال القفقاس الجنوبية تخضع تارة
للمسلمين وأخرى للخزر حسب الظروف ومعظمها على المسيحية مثل
اللان والسرير وجرزان والصنارية وكشك والكرج والكاسكية (١)

(١) يطلق الجغرافيون العرب على معظم هذه الشعوب اسم : اللكر •

والابغاز كما كان هناك بعض المجموعات من الروس والصقالبة وحين تقدم الفتح العربي الى تلك المناطق استخلص من الخزر تلك الاراضي الموجودة في جنوب القفقاس ، والتي كان الخزر قد أخذوها في السابق من الفرس (١) .

وكان المورد الرئيسي الذي تقوم عليه هذه الدولة إنما هو التجارة والأعشار عليها فقد ظلت تسيطر على الطرق الشيطنة منذ عهد جوستنيان ما بين الشرق الأقصى والبحر الأسود ويزنطة من جهة وما بين أرض الخلافة العربية والشمال السلافي والاوروبي من جهة أخرى . ويحمل ملك الخزر لقب خاقان أما قائد الجيش فانه لقب بك أي أمير والسلطة قسمة بين الاثنين فشؤون الدين والدولة للأول لكن السلطة الفعلية للثاني . وكان ثمة تسعة من الحكام المسلمين والنصارى واليهود والوثنيين يقضون بين أهل الحاجات .

وقد كان جوار الخزر وتعاملهم مع كل من يزنطة والعرب وتقاطع الطرق التجارية المختلفة عبر بلادهم من أسباب انتشار الديانتين المسيحية ثم الاسلامية وبين هذا وذاك اليهودية أيضا فيما بينهم . وجاء وقت في القرن الثالث الهجري وجد فيه في ايتيل العاصمة عشرة آلاف مسلم لهم ٣١ مسجداً . وكانت الشعوب الصغيرة بينهم وبين العرب على المسيحية مثل اللان والسرير أو على اليهودية مثل سمندر . أو على الاسلام مثل دربند (الداغستان) أو على المانوية الزارادشتية أحيانا . على أن خاقان الخزر خوفا من التأثير بأحد النفوذيين البيزنطي أو الاسلامي

(١) انتهت مملكة الخزر على يد الروس سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م وفي ذلك الوقت انتشر فيهم الاسلام نتيجة حروب مأمون بن محمد أمير خوارزم لهم أيضاً .

— على ما يظهر — اعتنق الديانة اليهودية مع مجموعة من رجال الطبقة الحاكمة الغنية^(١) وأول الخانات المتهودين هو بولان الذي تهود سنة ٧٤٠ أي قبل الخلافة العباسية بعشر سنوات ويبدو أن هذا الخاقان هو الذي حاصر المنصور وحاربه • ثم انتشرت اليهودية بين الخزر بالتدريج حتى القرن العاشر والمسهودي يجعل بدء التهود في زمن الرشيد •

وقد قام حلف تجاري — سياسي قبيل قيام العباسيين بين الخزر والروم ودعمه الامبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس (٧٤١—٧٧٥) بزواجه من أميرة خزرية ثم بتحول العرش من بعده الى ابنه ليو الرابع (٧٧٥ — ٧٨٠) الذي لقب بالخزري نسبة لأمه • وهذا ما يفسر فيما يظهر تلك الحملات العنيفة التي قام بها مروان بن محمد الأموي أيام ولايته هناك على جبهة ارمينية والقفقاس والتي أسر فيها المسلمون حوالي عشرين ألف أهل بيت ووصلت جيوش الأمويين حتى نهر الدون • وهرب ملك الخزر ثم بعث يطلب الصلح والدخول في الاسلام فأقره مروان على

(١) يذكر اليهود اسباباً أخرى لتهود الخزر ذكرتها الموسوعة اليهودية العالمية منها قصة الفيلسوف موسى بن ميمون الذي يزعم أن الخاقان جمع (بناء على تعليمات ابن ميمون لليهود) بين شيخ المسلمين وقسيس النصراني وحبر اليهود عنده وقال انه سوف يؤمن بمن يجتمع الثلاثة على الايمان به من الرسل • فلما وجد أنهم مجمعون على الايمان بموسى قال : تؤمن إذن بموسى ! ومنها أيضاً أن الخزر أسلموا فلما وجدوا أن الاسلام يحرمهم الخمر وهم لا يستطيعون تركها بسبب بلادهم أتى اليهود : ديانتنا هي مثل الاسلام ولكننا نبيع الخمر فتهود الخزر لذلك • ولعل السبب السياسي هو الأصح وهو الذي عليه المؤرخ الروسي المعاصر فرنادمسكي • ومما يذكر أن يهود روسيا كافة ويهود نيويورك ونصف يهود اسرائيل هم نسل هؤلاء اليهود الخزر •

ملكه . كما قرر أنواع الهدنات والجزى والاموال السنوية على مختلف البلدان هناك (١) .

ولكن انهيار الأمويين بعد ذلك فتح المجال لحركات الخزر الانتقامية ولاسترداد الكثير مما خسروا . وقد تولى ابو جعفر (المنصور) ولاية الجزيرة واذريجان وأرمينية لأخيه أبي العباس فلما صارت الخلافة إليه أقر أعوانه الذين كان أرسلهم من قبله إلى اذريجان وأرمينية ولاة عليها وهما : يزيد بن حاتم المهلبى ويزيد بن أسيد السلمى . ويبدو أن المنصور لم يصرف انتباهها كثيرا لهذا الثغر الواسع أول الأمر واكتفى بعملية توطين القبائل العربية التي قام بها المهلبى إذ «نقل اليمانية من البصرة إليها وكان أول من نقلهم» إلى تلك الاصقاع واعطاهم الحصون . «وانزل الرواد بن المثنى تبريز الى البذ وأنزل المر بن علي الطائي زيز وانزل ... الهمداني الميانج وفرق قبائل اليمن فلم يكن باذريجان من نزار أحد إلا الصفر بن الليث العتبي وابن عمه البعث بن حلبس ...» (٢) .

على أن الخزر ما لبثوا أن تحركوا ضد الجبهة الاسلامية وتصاعدت هجماتهم وربما كان ذلك نتيجة احتكار المسلمين التجارة الصينية اثر الوفاق الذي قام بين المنصور وامبراطور الصين وتحول قوافل التجارة الى المرور بأراضي خراسان بدل المسير من شمال بحر الخزر . وكتب يزيد السلمى الى المنصور يكشف الأخطار المتكاثرة على الجبهة فاقترح المنصور عليه اقتراحاً تعلمه دون شك من تاريخ المنطقة فإن كسرى أنو

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٢٤٤ - ٢٤٦

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٧١

شروان كان قد كف عن حدوده هجمات الخزر بعملية زواج سياسي تزوج بها ابنة ملك الخزر وزوجه من فتاة زعم أنها ابنته (١) ٠٠٠ ثم بنى بينه وبين أرض الخزر سورا بعيد المدى عرضه ٣٠٠ ذراع وعليه أبواب الحديد يحرسها مائة فارس ! وهكذا كتب المنصور الى يزيد يقول : «إن بلاد ارمينية لا تستقيم ولا تصلح إلا بمصاهرة الخزر والرأي عندي أن تصاهر القوم حتى تستقيم البلاد وإلا فاني خائف عليك وعلى جميع عمالك من الخزر فإنهم إذا أرادوا واجتمعوا غلبوا . فانظر ولا تخالف أمري واجتهد في مصاهرة الخزر والسلام ٠٠٠» (٢) .

ونفذ يزيد الاقتراح وتزوج من ابنة خاقان على صداق مائة ألف درهم . ولكنها ماتت بعد ثلاث سنوات ومات معها ابنها وهي في النفاس . ويربط ليفوند المؤرخ الأرمني ما بين وفاة هذه الأميرة وبين غزوة الخزر التي ثارت بشكل عنيف قوي سنة ١٤٥/٧٦٢ على بلاد الكرج وارمينية (٣) ٠٠٠ وقد يكون ذلك صحيحاً لكن الدوافع الأقوى كانت دون شك الدوافع الاقتصادية لأن عنف الهجمة وسعتها لا تتناسبان مع موت أميرة في ولادتها أو حتى قتلها !

(١) البلاذري فتوح البلدان ص ٢٣٢

(٢) يتوسع ابن اعثم الكوفي في كتابه الفتوح فميا يجمله البلاذري من أخبار هذه العلاقة مع الخزر . انظر ابن اعثم مخطوط الفتوح (مكتبة أحمد الثالث باستامبول رقم ٢٩٥٦) الورقة ٢٤١ حتى ٢٤٣ وجه من المجلد الثاني وهو الوحيد الباقي هناك . وهو يبدأ بذكر خروج المختار الثقفي وينتهي بآخر خلافة المعتصم .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية - مادة الخزر (ج ٨ ص ٣٠٦ من الترجمة العربية) .

وأقبل رأس طرخان^(١) في خلق عظيم قدر عدده بأكثر من مائة ألف مقاتل . فانهزم أمامه عمال يزيد السلمي تاركين للسبي والفتن من المسلمين وأهل الذمة خلقاً كثيراً ولم يكن لدى يزيد نفسه أكثر من سبعة آلاف فارس . فاستنجد بالمنصور فأرسل إليه لحماية ما سماه «بالشجر الأعظم» عشرة آلاف مقاتل من أهل الشام ثم وجه جبريل بن يحيى البجلي - على ما يبدو - في عشرين ألفاً من أهل الشام والجزيرة والموصل فواقعهم الخزر فقتل خلق من المسلمين وانهزم جبريل ويزيد معه حتى أتيا بلدة خرس في أرمينية بعد أن دخل الخزر تفليس ثم توالى النجذات فوصل ١٠ آلاف مع محمد بن الحسن وعشرة آخرون مع حميد الطائي وعشرون ألفاً من أهل الجزيرة والشام مع يزيد بن مزيد الشيباني وخمسة آلاف مع حرب بن عبد الله الراوندي من الموصل . وبهذا الشكل استطاعت الجبهة أن تتوازن رغم أن المعركة الهامة في أرض شروان لم تكن رابحة وقد انهزم المسلمون بعدها إلى بلدة بردعة بعد أن قتل فيها الراوندي . ويبدو أن المعارك استمرت حتى سنة ١٤٧/٧٦٤^(٢) وتوقفت حدة الهجوم الخزري دون معركة فاصلة .

واتهز المنصور المناسبة لينظم هذا «الشجر الأعظم» ويحميه . وجد

(١) كذلك يسمى لدى اليعقوبي (ج ٢ ص ٣٧١) واسمه في المخطوط الأصلي حليس والطبري يسميه استرخان الخوارزمي (ج ٨ ص ٧ ؛ ٣٢٨/٣) . وله تسمية أخرى رج طرخان (انظر دائرة المعارف الإسلامية) .
(٢) يذكر ابن اعثم أن المعارك كانت سنة ١٤٥ ويذكر المؤرخون أنها كانت سنة ١٤٧ وليس ثمة من تعارض بين التاريخين لإمكان استمرار الحرب أكثر من سنة واحدة . أما حرب الراوندي الذي قتل فهو الذي تنسب إليه محلة الحربية في بغداد (الطبري ج ٨ ص ٧) .

أن سياسة التوطين العربي وحدها لا تكفي فأضاف إليها ما اعتاد تنظيمه في الشغور الأخرى تجاه الروم أو السند أو الترك :

(١) بناء المدن الحصون : «أخرج سبعة آلاف من أهل السجون وبعث فجمع من كل بلد خلقاً عظيماً ووجه بهم وبفعله وبنائين فبنى مدينة كمخ ومدينة المحمدية ومدينة باب واق وعدة مدن أخرى مثل أرحيل الكبرى وأرحيل الصغرى اللتين بناهما يزيد بن أسيد السلمى • وأنزلهما أهل فلسطين ، جعلها رداءً للمسلمين وقلاع دفاع بدلا من الساساني •

ب) أقام نظام الأجناد في تلك الحصون ورتب فيها المقاتلة المستقرين من أهل النجدة من العراق والجزيرة والشام وأجرى عليهم الأرزاق التي كان بنو أمية يجرونها من قبل • وأقام بالقلع والحصون سكاناً تقوى بهم المدن وتنمو •

ح) وتابع الى هذا وذاك إرسال مجموعات قبلية جديدة أسكنها في أرمينية واصطنع من الأرمن جماعات تعين العرب المسلمين وتكون عيوناً لهم وأعواناً في المنطقة •

وأضاف أبو جعفر المنصور إلى هذه التدابير توجيه العناية الخاصة لولاية أرمينية المتاخمة للحدود •

وقد كانت هذه الولاية مأهولة بالأرمن النصاري الذين كانوا دوماً على علاقة عادية مع الروم ولهم امراؤهم الحاكمون في المنطقة ويحملون لقب بطريق ورؤسائهم الروحيون الذين يحملون لقب كاثوليكوس • وكان ثمة أسرتان من الأمراء تتنازعان الزعامة : بغراتوني ، وماميكونيان ، وقد اصطنع مروان بن محمد ، حين كان والياً على الجزيرة وأرمينية ، الأمير آشوط من الاسرة الاولى فنصبه والياً محلياً :

بطريقاً مما آثار حسد الأمراء من الأسرة الثانية وأبرزهم موشائيل
وسمباط . وكان مروان يجري على الجيش الأرمني كل سنة مائة ألف
دينار^(١) .

وحين انهار الحكم الأموي اتفق أمراء المايكونيان على الثورة
فلما عارضهم الأمير آشوط^(٢) قبضوا عليه وسلموا عينيه سنة ٧٥٠/
١٣٢ هـ إلتقاماً لما لقوه من النفي في عهد مروان . . . ولأن أحد إخوتهم
قتل على يديه . . .

وطال اضطراب أرمينية بين الخوارج وبقايا الأمويين وتسلبت الأمراء
المحليين مدة السنوات الأولى من الحكم العباسي حتى أرسل المنصور
إليهم يزيد بن أسيد السلمي فصاهر الخزر ودوخ الأرمن حتى أدوا
الخراج وجبي الرسوم على النفط والملح في أرض شروان (باكو) وبني
مدينتي أرجيل ثم استدعى سنة ٧٧٠ هـ فجاء من بعده بكار بن مسلم العقيلي
مدة سنة واحدة ثم اختار المنصور الحسن بن قحطبة الطائي سنة ٧٧١ هـ وهو

(١) انظر التاريخ العام للمؤرخ الإرميني فارطان (من القرن ٣١
الميلادي) الترجمة الفرنسية بعنوان الحكم العربي في أرمينية (ترجمة
مويلدرمائز - باريس ١٩٢٧) ص ١٠٦ .

La Domination Arabe en Armenie, (extrait de l'His. Uni. de
Vardan) par J. Muyldermans Paris, 1927 .

(٢) آشوط هذا هو جد ملوك أرمينية وجورجيا فيما بعد . واللقب
الذي أخذه من مروان هو لقب Patrice بطريق وقد توفي سنة ٧٦١ (في
عهد المنصور) وابنه سمباط هو جد ملوك أرمينية بينما ابنه فاساك هو
جد ملوك جورجيا .

(٣) انظر غيفوند - Ghévond - تاريخ الحروب والفتوح العربية
في أرمينية (بالفرنسية باريس سنة ١٨٥٦) ص ٤٨

من ابرز قواده فأرسله مع ٥٠ ألفا من أهل خراسان والشام والعراق^(١) .
ويبدو أن الخزر كانوا قد ارتحلوا حين وجدوا تكاثر القوى الاسلامية
فلم يجد الحسن منهم من يقاتله لكنه ما كاد يوزع حكم البلاد بين أولاده
الثلاثة : قحطبة و ابراهيم ومحمد حتى فوجيء بالثورة الأرمينية عليه
ولا شك أن هذه الثورة كانت أحد ذبول الهجوم الخزري ونتيجة الفتكة
القاسية التي حطت سعة الحكم العربي في المنطقة وقد تكون الخزر
وراءها في التحريض والتسليح لكننا لا نملك الأدلة على ذلك . وكل
ما يمكن تأكيده هو أن عدم انتصار العرب في معركة حاسمة وثقل الخراج
وقسوة العمال الذين تذكرهم التواريخ الأرمينية بالكره . كل ذلك حرض
فيما يظهر الجساعة الأرمينية على الثورة . وتزعم الحركة أمراء أسرة
ماميكونيان في منطقة محمد بن الحسن وانضم اليهم أيضا أمراء أسرة
بغرتومي والمصادر العربية تسمى الثائرين باسم الأرمن الصنارية وقد
قادهم موشائيل ماميكونيان الذي أعلن الامتناع عن دفع الخراج سنة ٧٧١
وقتل مائتين من العمال ثم قتل في معركة أخرى أربعة آلاف . . .
واتشرت الثورة بشكل أروع الحسن بن قحطبة وأشعره أنه «ليس لديهم
قوة . . فكتب الى أبي جعفر بخبرهم وكثرتهم» طالباً النجدة وقد زاد
في قوة الأرمن أن راهباً «خدع - كما يقول مؤرخ أرمني قديم -
موشائيل فكان يقص عليه النبوات والخرافات الكاذبة ويقول : إن أيام
اسماعيل أي العرب (المسلمين) قد انتهت . . .» وأرسل المنصور على
الفور عامر بن اسماعيل الحارثي الجرحاني وعيسى بن موسى والفضل

(١) انظر البلاذري - فتوح البلدان ص ٢٤٦ - ٢٤٧ ؛ اليعقوبي

ج ٢ ص ٣٧٢ . وكان الارمن يسمون الوالي العربي (اوستيكان) .

ابن ديتار ومقاتل بن صالح في حوالي ثلاثين ألفاً من المقاتلة^(١) وبالرغم من أن مؤرخي الأرمن يجعلون الجيش الأرمني خمسة آلاف فقط فالذي يبدو من ضخامة الامدادات الاسلامية ، ومن أرقام القتلى الأرمن الذين بلغوا فيما يذكر اليعقوبي ، ستة عشر ألف إنسان في يوم واحد . يوم الهزيمة ، أن عدد الثائرين الأرمن كان لا يقل عن عدد الجيش الاسلامي . وقد التقى الطرفان في معركة قرب جبل آارات سنة ٧٧٢ قادها عامر بن اسماعيل وعرفت في التاريخ الأرمني باسم معركة بغريفاند Bagrevand^(٢) سحقت فيها الارستقراطية الأرمنية وقتل - حسب الرواية الأرمنية - ثلاثة آلاف قتيل كان من بينهم موشايل وسمباط ابن آشوط زعيما الاسرتين الكبيرين .

وقد أخذت الثورة والهزيمة الشكل الديني لا بسبب الأفكار التنبؤية التي كانت تقودها ولما اشترك فيها من الرهبان ورجال الدين ولكن لأن النجيدات التي وصلت من العراق وجدت الأسلحة مخزونة في الكنائس . وقد نجم عن ذلك نهب لمحتويات هذه الكنائس من جهة وإمعان في قمع الثوار بمختلف الانحاء من جهة أخرى يقول اليعقوبي : «... ثم انصرف (عامر) الى تفليس فقتل من كان معه من الأسرى ووجه في طلب الصنارية حيث كانوا ... » .

(١) هذا هو الرقم الذي يذكره قارطان في تاريخه السابق الذكر ص ١٠٨ كما يذكره في الوقت نفسه ابن اعثم الكوفي في كتابه الفتوح ج ٢ ورقة ٢٤٣ وجه .

(٢) التواريخ الارمنية تعطي هذا التاريخ للمعركة التي تلت تعيين الحسن بن قحبة سنة ٧٧١ (سنة ١٥٤) لأرمنية . وفي كتاب الفتوح لابن اعثم أنها كانت سنة ١٤٨ هـ أي سنة ٧٦٥-٦

«ثم استقامت الأمور» على قول البلاذري وولى المنصور واضحاً
مولاه على أرمينية فلم يزل عليها وعلى اذريجان خلافة أبي جعفر
كلها !...» ...

ثانياً - قطاع الجبهة البيزنطية (الروم)

النزاع على هذه الجبهة قديم يرجع الى عهد الحروب الفارسية -
اليونانية . وقد كتب الأمويون فصلاً منه وورثه العباسيون الآن ليكتبوا
فصولاً أخرى . ولم تكن الحدود المشتركة بين البيزنطيين والدولة
الاسلامية ، ولا فريضة الجهاد ضد الكفار ، أو طمع بيزنطة باسترجاع
الشام ، هي التي تؤثر وحدها هذا النزاع وتثيره ولكن وراء كل ذلك ،
منذ العهود القديمة ، عاملاً اقتصادياً ناتجاً عن طمع كل من يسيطر على
قسم من هذه المنطقة ، بالاشراف على الطرق التجارية كلها بين الشرق
والغرب . فقد كان ثمة طريقان بين الهند والصين وآسيا الوسطى من
جهة وبين أوروبا الشرقية من جهة أخرى : أحدهما بري يمر بإيران
والقفقاس ، والآخر بحري في الجنوب يمر بالبصرة (وبغداد) والموصل
وينفذ ، اما من الشاطيء السوري بحراً . أو عبر الاناضول براً ، الى
القسطنطينية التي ظلت مركزاً للأسواق التجارية في أوروبا الشرقية ،
طوال العصور الوسطى تقريباً . فلما حل المسلمون محل الامبراطورية
الساسانية في السيطرة على القسم الأكبر من هذين الطريقين بالإضافة الى
احتلالهم الشام ، واضحت التجارة العابرة تمر بأراضيهم وتدفع للخليفة
المكوث والضرائب ، ورثوا عن آل ساسان ذلك النزاع بينهم وبين
البيزنطيين ، وقد قام به الامويون مدة قرن . وكان على العباسيين حمل
عبئه الآن .

على انا نلاحظ ان هدف هذا النزاع ، في أعين المسلمين على الأقل ، قد تغير في العهد العباسي ، عنه في العهد الاموي . فقد اضحت فكرة فتح القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطية الآن من قبل المسلمين ، أو استرداد الشام من قبل البيزنطيين ، مجرد حلم او رغبة بعيدة ، لا هدفاً تحشد له القوى وتنطلق الجيوش . واذا لم يظهر هذا التغير واضحاً في عهد تأسيس الدولة العباسية والمنصور ، فانه سيتضح تدريجياً خلال العقود التالية من بني العباس : فقد غدت الحرب مع البيزنطيين تقليداً سياسياً يرثه الخلفاء بعضهم عن بعض ويزيلون عن كاهلهم فيه فريضة «الجهاد» المحتومة على خليفة المسلمين ضد الكفار ، عدا انها تمرين للجنود على الاعمال العسكرية ، ومجال لإشغالهم ، ولتأمين الغنائم اللازمة .

وربما كان السبب في هذا التغير فشل محاولات الامويين الثلاث في فتح القسطنطينية ، وبعد العاصمة الجديدة عن الخطر البيزنطي ، واهتمام العباسيين بالبر القارى ، والمناطق الشرقية ، واهمالهم البحر المتوسط والغرب ، بينما لايفتح القسطنطينية الا من يمتلك القوتين البرية والبحرية معاً .

وهكذا اخذت حروب العباسيين مع الروم ، شكل غزوات منظمة فصلية : منها الصوائف ومنها الشواتي ، كما تنظمت مناطق الحرب فامتدت بين ملطية عند منابع الفرات وطرسوس ، بشمال خليج الاسكندرونة في سلسلة من الحصون سميت بالثغور ، وانقسمت قسمين : ثغور الجزيرة في الشمال الشرقي للشام ، وثغور الشام في الشمال الغربي ، وعرفت منطقة الحدود كلها باسم «العواصم» لان المسلمين كانوا يعتصمون بها . وكان ملك الثغور والعواصم الامامية يتنقل فترة بعد

اخرى : بين يدي الروم والمسلمين ، فيتموج ، تبعاً لذلك ، خط الحدود بينها تسوجاً مطرداً .

وواضح ان مثل هذا التنظيم الثابت ليس الغرض منه الهجوم والنفوذ الي ما وراءه . واذا لم نكن نستطيع وصف اعمال العباسيين الاوائل على الجبهة البيزنطية بأنها أعمال دفاعية - كما يصفها بعض الكتاب - بسبب قوة العباسيين ، واذا كان غرضها - على ما يظهر منها - تأمين الحدود والسيطرة عليها ، فمن الواضح ان الحروب في العصور العباسية التالية كانت كذلك .

كان التاج الامبراطوري في بيزنطة قد انتقل منذ سنة ٧١٧ الى الاسرة الايسورية اللايقونية . وقد عاصر فترة الانتقال العنيفة بين الامويين والعباسيين من تلك الاسرة ، الامبراطور قسطنطين الخامس . (٧٤١ - ٧٧٥) ولكن مشاغله الداخلية في توطيد اللايقونية ، والخطر البلغاري على حدوده : منعاه من ان يستفيد كثيراً من الاضطراب الداخلي في المملكة الاسلامية . ومع هذا فقد استغل انشغال مروان بن محمد عنه ، وعن الاهتمام بالبحر خاصة ، فاستولى على جزيرة قبرص سنة ١٢٨ هـ (٧٤٦ م) واستطاع الامبراطور في السنة الثانية من الخلافة العباسية ان يتخطى غزوة محدودة من غزوات الصائفة يذكر الطبري أنها قامت بقيادة سعيد بن عبد الله وراء الدروب^(١) ، (سنة ١٣٣ ، ٧٥٠ م) وان يفتح ملطية ، أهم حصون الحدود ، ويخربها ، كما فتح قواده الارمن (بولي) و (كوش) عدداً من الحصون الاخرى ، ونقلوا سكانها الى

(١) الطبري - حوادث سنة ١٣٣ ج ٧ ص ٤٦٠ (٧٤/٣)

ببزنطة ، ووصلوا الى ارض روم بفتحهم وتخريبهم واجلائهم السكان الى داخل الاراضي الرومية . وبالرغم من مشاغل أبي العباس الداخلية فقد اضطر أن يأمر عمه عبد الله بن علي بالمسير ضد الروم . وتجهز الجيش وكان عبد الله في (دلوك) شمال حلب في الطريق الى القتال حين وصله نبأ وفاة أبي العباس واستخلاف المنصور . فأعلن الثورة ثم خسرها . ولكن مشروع القتال ضد الروم ألقى بذلك على المنصور الذي أخذ على عاتقه حماية هذه الحدود . ويظهر لنا اهتمامه البالغ بها في سلسلة من الأعمال: فقد أطلق جيوشه بقيادة عمه صالح بن علي سنة ١٣٨ فكانت أول غزوة ضد الروم منذ غزوة الغسر بن يزيد سنة ١٢٥^(١) وكان مع الصائفة عمتان من عسات المنصور وفاء لنذر نذره بالجهاد إن زال الأمويون . فقد استرجع المسلمون ملطية أولا سنة ١٣٩ هـ (سنة ٧٥٧م) وجمع صالح بن علي لها الصنائع من كل بلد لبناء سورها ، فتم ذلك في ستة أشهر . وأنزل فيها المقاتلة وأقطعهم المزارع . ويبدو أن القصد من كل ذلك لم يكن الهجوم ولكن الدفاع وإزالة آثار حملة الامبراطور سنة ١٣٣ فقد تم في تلك السنة ١٣٩ اول فداء بين الروم والمنصور استنقذ فيه اسرى المسلمين . غير أن الجبهة لم تهدأ بعد ذلك^(٢) على ما يظهر ولعل أهم أحداثها أن المنصور استغل انشغال قسطنطين الخامس بحرب البلغار ، فدحر قائده الارمني (بول) وقتله وأسر العرب اثنين واربعين

(١) انظر اليعقوبي - تاريخ ج ٢ ص ٩٩ ، ١٢٤

(٢) يذكر البلاذري (فتوح ص ١٩٥ - ٩٦ و ص ٢٠٧ ، غزوة صائفة سنة ١٤٠ قادها الحسن بن قحطبة ومعه عبد الوهاب بن ابراهيم الامام (ابن اخي المنصور) كما يذكر اليعقوبي (ج ١ ص ١٢٤) غزوتين للصائفة في سنتي ١٤٢ و ١٤٣ قادهما العباس بن محمد وغزوة ثالثة قادها حميد بن قحطبة سنة ١٤٥ .

من قواده سنة ١٤٢/٧٦٠ م فلم يجر فداؤهم حتى سنة ٧٦٦ م وحصنوا سميساط بعد ان نقلوا اهلها الى فلسطين ، لانهم كانوا يتآمرون مع البيزنطيين . وفعلوا مثل ذلك برعش وأهلها سنة ٧٦٩ . وكان ذلك ضمن خطة سياسية عسكرية منظمة أراد بها المسلمون تأمين الثغور البرية والبحرية على السواء على الحدود مع الروم . . . وهكذا - كما يذكر البلاذري - «تبع المنصور حصون السواحل ومدنها فعمرها وحصنها وبنى ما احتاج الى البناء منها» . وفعل مثل ذلك بصدن الثغور ومنها المصيصة التي بنى سورها بعد أن شعته الزلازل وأقيم فيها مسجد جامع وأعيد اسكان أهلها وسميت بالمعمورة سنة ١٤٠ . وتوج المنصور عمله على ما يظهر سنة ١٥٥ هـ ٧٧٣ م ببناء مدينة الرافقة على الفرات . شيدها على طراز بغداد ورتب فيها الجند من الخراسانية ، لتكون مركزه العسكري الخلفي ونقطة التجمع والانطلاق ، كلما غزا الحدود . وقد اجتمع سكان المكان على المنصور يحتجون قائلين : «تعطل علينا اسواقنا وتذهب بمعاشنا وتضيّق منازلنا (الطبري) ولكنه أصغى ، عوضاً عنهم ، الى الضرورات الاستراتيجية .

ويبدو أن المنصور بعد أن اهتم بالغزوات ذات الصبغة الدفاعية وبتحصين الثغور في الفترة الأولى من علاقاته مع الروم تحول بعد سنة ١٥٢ الى سياسة الهجوم . فأول عملية هجومية واسعة نتجت عنها المصادر إنما كانت سنة ١٥٣/٧٧٠ حين غزا الصائفة معيوف بن يحيى الحجوري «... فسار الى حصن للروم ليلاً وأهله نيام فسبى وأسر من كان فيه من المقاتلة ثم صار الى اللاذقية المحترقة (وهي مدينة في الأناضول) ففتحها وسبى منها ستة آلاف رأس من السبي سوى الرجال البالغين^(١)» .

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٣ (٣/٣٨١) .

ورأى امبراطور بيزنطة تحول العرب الى الهجوم ، بعد تحصينهم للحدود ، وهو مشغول بحرب شديدة قاسية مع ملك البلغار تيلتز ثم خلفه تيليرغ ، فقدم سنة ١٥٥/٧٧٢ مقترحات للسلم . ولكن المنصور رفضها وأرسل سنة ٧٧٥ حملة برية وبحرية على بلدة سيس توافق ظفرها مع مقتل الامبراطور البيزنطي تلك السنة وتولي ابنه ليو الرابع بدلا منه (٧٧٥ - ٧٨٠) ومع وفاة المنصور نفسه وتولي ابنه المهدي ! الذي تسلم مع الخلافة وصية ابيه التي يقول فيها : «... وليكن أهم أمورك إليك أن تحفظ أطرافك وتسد ثغورك... وارغب إلى الله في الجهاد والمحاربة عن دينك واهلاك عدوك...» .

ويظهر ان البيزنطيين لم يكونوا يكتفون بالنضال العسكري على الحدود ، بل كانوا يمدون يد الدسائس والمساعدة الى نصارى جبل لبنان ، ويفزون الساحل السوري لتقويتهم ، فقد دخل الروم طرابلس مرة زمن المنصور . وظهر - كما رأينا من قبل - رجل من أهل المنيطرة سنة ٢ - ١٥٣ هـ هو (بندار) و«سمى نفسه الملك . ولبس التاج وأظهر الصليب واجتمع إليه انباط جبل لبنان واستفحل أمره» كما يقول ابن عساكر فلما انهزم فر إلى ملك الروم... وتلا هربه إجلاء ، بعض أهل لبنان .

٣ - جبهة الغرب :

وهي بدورها كذلك قطاعان : إحداهما في الاندلس والآخر في أوروبا الغربية مع الفرنجة ، ولا بد كي يفهم القطاعان من دراسة الوضع السياسي في افريقية والمغرب .

فقد حكمت علاقة العباسيين الأوائل بالجنح الغربي البعيد من بلاد الاسلام ، العوامل الجغرافية بالدرجة الأولى • فإن المساحات الشاسعة مع كثرة الثورات والمخاطر في المشرق وعدم وجود أي ركيزة للأسرة العباسية الجديدة فيما بين افريقيا الى الاندلس لعدم اهتمام الدعاة العباسيين بغير خراسان ، كل ذلك جعل من تلك الأقاليم الممتدة فيما وراء ليبيا مناطق متروكة لمصيرها سواء أثناء الثورة والصراع مع الأمويين أم أثناء العمل على توطيد الدولة وإخماد الثورات العديدة • وسرعان ما كلف ذلك كله العباسيين غالياً إذ تراجعت حدود دولتهم عن كافة تلك الأقاليم وإذا كانوا قد استطاعوا استعادة افريقيا من الخوارج بالقوة وبسبب من تناحر الجماعات الخارجية نفسها فإنهم كادوا يفقدون أيضاً منطقة المغرب في وقت مبكر جداً على يد بني حبيب الفهري لولا تناحر هؤلاء أيضاً فيما بينهم أمّا الاندلس فمع أنها تأخرت في الانفصال عن العباسيين بضع سنوات إلا أنها حين انفصلت كان انفصالها نهائياً •

وإذا كان ابو جعفر المنصور قد نجح بعد أبي العباس في كافة الأمور التي باشرها لتوطيد الدولة وتنظيمها وإقامتها بالسياسة والقوة والتنظيم : فأخمد كافة الثورات عليه ، وقتل كافة أعدائه • ووطد النفوذ العباسي من أقصى التركستان حتى اليمن ومصر وبرقة ثم انتصر في افريقيا إلا إنه خسر المعركة مع الفهريين في المغرب ولم يربح المنطقة إلا حين تناحروا وكان ربحاً مؤقتاً مع ذلك • كما خسر الجولات التي قاوم بها انفصال الاندلس ومن هنا في الواقع تنكشف الأسس الأولى لسياسته في الغرب •

اولا : فاما المغرب فقد كانت ثورات الخوارج والبربر في افريقيا تعزله

وتعزل الأندلس معه عن المشرق كما أن أيام أبي جعفر التي كانت — كما قال ابن طباطبا الطقطقي «... ذات فتوق وأحداث» حتى إنه «لم يشرب ريقاً حلواً من ذلك...»^(١) لم تسمح لأبي جعفر بالانصراف بكليته الى امور المغرب والأندلس وبهذا الشكل كان مصير هذا الجناح من العالم الاسلامي مرتبطاً بصراع القوى الداخلية فيه .

وقد كانت أسرة الفهري وهي سلالة عقبة بن نافع هي الأسرة البارزة في أواخر العهد الأموي ، في تلك البقاع . زعيمها عبد الرحمن ابن حبيب كان بين أولئك الزعماء الذين كانوا ثاروا في الأندلس وثار بهم في حركة البربر سنة ١٢٢/٣٤٠ بينما كان الخوارج في الوقت نفسه ثائرين في افريقية فلما أخمدهم فيها حنظلة بن صفوان طلب إليه أهل الأندلس أن يرسل إليهم والياً ينشر السلام هناك . فأرسل أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبي^(٢) سنة ١٢٥ وقد نجح الحسام بفضل عصبية الشامية وسنه في إعادة سلطان الخلافة الأموية الى الأندلس . وأخرج منها إلى افريقيا عدداً من زعماء الفتن من بينهم عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي استقر في تونس . فلما اضطرب أمر الخلافة الأموية في الشام بين سنة ١٢٥ و ١٢٧ بمقاتل الخلفاء وخلعهم انتهز ابن حبيب الفرصة وأخرج والي المغرب حنظلة بن صفوان نفسه من القيروان سنة ١٢٧ وبدأ العمل ليكون المغرب مملكة له ولبنيه ... ولكن نجاح عبد الرحمن مع اضطراب أمر بني امية في المشرق سمح لكثير من الطامعين بتقليده والافراد

(١) ابن طباطبا — الفخري (طبعة صادر بيروت ١٩٦٦) ص ١٦٧

و ص ٣٠ .

(٢) انظر أخبار مجموعة للمؤلف المجهول ص ٤٥ .

بحكم ما تحت أيديهم • وقامت الثورات في تونس وطرابلس وباجه وأوراس • من العرب والبربر ومن الخوارج وأهل الجماعة على السواء • على أن أخطر الجماعات وأشدّها كانت الخوارج (الاباضية خاصة والصفرية) • وقد اصطدم عبد الرحمن بن حبيب بالإباضية في طرابلس وخاصة سنة ١٣١-١٣٢ واتصر عليهم وعاد إلى القيروان ويبدو أنه في تلك الفترة أنفذ ، بناء على طلب أهل الأندلس ، قربه (أو ابنه) يوسف بن عبد الرحمن الفهري والياً عليها من قبله باسم بني أمية ، كما أنه غزا عبر البحر جزر صقلية وسردينية وأخذ منهما الجزية سنة ١٣٥ هـ بينما كان المغرب الأوسط والأقصى بيد الخوارج الصفرية •

أما أحداث المشرق وانقلاب الخلافة إلى العباسيين فلم يكن لها إلا أضعف الأثر على عبد الرحمن بن حبيب الذي اعترف اسماً بخلافة أبي العباس أول الأمر ثم ما لبث أن تنكر الطرفان أحدهما للآخر وكان العباسيون يعدون حملة بحرية بركة في الإسكندرية ضد المغرب حين توفي أبو العباس سنة ١٣٦ فانفض أمر الحملة بسبب ثورة عبد الله بن علي ضد ابن أخيه أبي جعفر •

وأجاب عبد الرحمن على هذا التنكر العباسي باصطناع الأمراء الأمويين الهاربيين بدمائهم إلى المغرب واستقبالهم وانزالهم المنزل الحسن والزواج منهم التماساً لنوع من الشرعية في الحكم فلما أنس منهم بدورهم العمل على الوصول إلى الحكم فتك بهم^(١) (قتل ولدي الوليد بن يزيد

(١) انظر ابن عذارى - البيان المغرب ج ١ ص ٦١ : ابن الأثير حوادث سنة ١٢٦ •

كما كاد يقتل عبد الرحمن بن معاوية الداخل لولا هربه (وعاد في سبيل دعم حكمه بالشرعية فاتصل بأبي جعفر (المنصور) وبيعه . فلما حاول أبو جعفر ممارسة نوع من السلطة على عبد الرحمن وكاتبه أخذ منه البيعة الشكلية فلما طالبه أبو جعفر بالأموال . وكان يدقق في جعبتها من الولاة : كانت القطيعة لأن عبد الرحمن كتب إليه يقول : « ان افريقيا قد أصبحت اليوم إسلامية كلها وقد انقطع السبي منها . . . » . فلما تهدده أبو جعفر بقرر القطيعة مع العباسيين وترجم عبد الرحمن موقوفه الحاد في خطبة الجمعة إذ صعد المنبر فقال : « . . . اني ظننت أن هذا الخائن (المنصور) يدعو الى الحق ويقوم به حتى تبين لي خلاف ما بعته عليه من إقامة العدل . واني الآن قد خلعتك كما نعلي هذا . . . » .

كان ذلك سنة ١٣٧ أي في السنة التي انتقل فيها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام (الداخل) تحت إلحاح أقاربه خفية الى الاندلس .

ولم يمكث عبد الرحمن بن حبيب في الإمارة بعد ذلك سوى أشهر معدودة إذ قتل في أواخر سنة ١٣٧ هـ . بيد أخيه ومساعدته الاساسي الياس بن حبيب ويبدو أن الذي صرعه هو تفكيره في إقامة ملك خاص له في الاندلس والمغرب وفي جعل ابن حبيب ولياً لعهد . ويبدو أن شقيقه الياس ، وكان ينزل منه منزلة ابي جعفر من أبي العباس ، أراد أن يكون له العهد بعد أخيه على سنة أبي العباس فلما رأى الامور تسير الى ابن أخيه حبيب فتك بعبد الرحمن . . . ويبدو كذلك أن الدسائس الاموية والعباسية معاً قد اجتمعت على التفرقة بين الأخوين . فبينما كانت امرأة إلياس ، الاميرة الاموية (بنت الوليد بن يزيد التي قتل عبد الرحمن أخوها) تعرض زوجها كان زعماء المؤامرة متفقين على البيعة لأبي جعفر في المشرق !

ولكن نجاح الشطر الاول من المؤامرة وهو التخلص من عبدالرحمن لم يتبعه نجاح الشطر الثاني إذ قام حبيب بن عبد الرحمن ليثأر لأبيه من عمه الياس وسرعان ما انهار الفهريون بعد ذلك في المعارك الاهلية التي قامت بينهم كما حطمهم في الوقت نفسه اصطدامهم بالخوارج الذين عاودوا الثورة في افريقيا والمغرب من جهة أخرى •

وإذا انتصر حبيب على عمه إلياس وحمل رأسه ورؤوس أتباعه على الرماح وهم وجوه العرب في الاقليم كله ودخل بها القيروان سنة ١٣٧ فان الأمر لم يدم له هناك أكثر من عام لأنه قتل بدوره سنة ١٣٨ (مطلع ٧٥٥) على يد أنصار الياس والخوارج المتحالفين معهم ••

ودخل المغرب كله إثر ذلك في دوامة الثورات التي عرف فيها الخوارج عصرهم الذهبي إذ انفردوا بالسيطرة على تلك البقاع ما بين سنتي ١٤٠ - ١٥٥ وكانت حدود خلافة ابي جعفر المنصور في هذه الفترة لا تتجاوز عملياً حدود مصر الغربية في منطقة برقة • وإن ظل يحاول دون انقطاع مد نفوذه وراءها • حاول ذلك خمس مرات ، قبل أن ينجح في الأخيرة :

— سنة ١٤٢ بقيادة العوام بن عبد العزيز البجلي (الذي انهزم في سرت) ثم ابي الاحوص عمر بن الاحوص العجلي ، وقد انهزم الاثنان في منطقة سرت الواحد بعد الآخر أمام الخوارج من جماعة أبي الخطاب المعافري الإباضي •

— سنة ١٤٣ بقيادة محمد بن الاشعث الخزاعي الذي سقط صريع النزاع القبلي سنة ١٤٨ رغم نجاحه في الولاية •

— وسنة ١٤٩ بقيادة الاغلب بن سالم التميمي (جدالأغالبة) الذي صرع في نزاع مع جنده سنة ١٥٠

— وسنة ١٥١ بقيادة عمر بن حفص العتكي المهلبى (هزار مرد) الذي قتل سنة ١٥٤

— وسنة ١٥٥ بقيادة يزيد بن حاتم بن قبيصة الذي أقر النفوذ العباسي في افريقيا والمغرب حتى سنة ١٧٠ •

ومع أن المنصور نجح أخيرا ولكن هذا النفوذ لم يكن بذي جذور في المنطقة فسرعان ما تحول إلى علاقة واهية ما لبثت أن انقطعت بين بغداد وبين الأسر التي تسلطت على افريقية والمغرب بعد ذلك •

ثانيا : اما الاندلس : فلم يكن انقطاعه عن الدولة الاسلامية الموحدة فجائياً إثر سقوط الامويين في المشرق ولكنه تم بالتدريج خلال سنوات، فحين تهاوت الدولة الاموية في المشرق كانت الاندلس تحت حكم يوسف الفهري واليها القيسي • وكان أمره بيدي الصميل بن حاتم المولى الاموي ، الكريم الداهية الذي كان قد بدأ التصرف في الحكم منذ أيام الوالي السابق ثوابة بن سلامة اليسانى سنة ١٢٧ وقد توفي ثوابة فعمل الصميل على وصول يوسف بن عبد الرحمن الفهري للولاية ، ومكن للقيسيين أن يحكموا الاندلس ، مع أنهم أقل كثيراً من اليمنين ما بين سنتي ١٢٨ — ١٣٨ هـ •

خلال هذه الفترة كان العباسيون قد أخذوا الخلافة في المشرق ولكن الاندلس . لم تأبه كثيراً أو لم تتأثر كثيراً لأحداث المشرق كما أن الحكام الجدد هناك لم يعيروها أي التفات واكتفوا بذكر اسم

ال خليفة العباسي في خطبة الجمعة وقد مرت عليها في هذه الفترة سنوات عجاف ، من المحل المتصل • وسنوات من النزاع الدموي دمر فيه القيسيون زعماء اليمينيين في المعارك حتى لقد قتل الصميل صبراً من زعمائهم الأسرى حوالي السبعين أمام المسجد الجامع في قرطبة (١) •••

ولم تكن هاتان العصبيتان وحدهما في الاندلس فقد كان بجانبهما عصبيتان أخريان الأولى : عصبية البربر الذين كانوا في الغالب أحلافاً لليمانية وعصبية الموالي ، موالي الامويين وكانوا يقفون بجانب القيسية بزعامة الصميل • وهم يكونون كتلة الجند الاموي •

وقد حاولت القوى المناوئة للفهري أن تتحرك في الاندلس في ثورة قادها الحباب بن رواحة الزهري سنة ١٣٦ وأيدته فيها اليمانية كما أيدته فيها ثائر آخر هو عامر بن عمرو العبدري قائد الجهاد ضد الاسبان واتفق الجميع على الدعوة للعباسيين وحاصروا الصميل في سرقسطة مركز ولايته •• ولم تكن الحركة عباسية ولكنها إنما اتخذت هذا الشعار كيداً بالوالي يوسف الفهري وصاحبه ••

وفي هذه الفترة كان عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) يسيّر رسائله ودعائه لموالي الامويين في الاندلس ، من الجند • وقد أعان هؤلاء الصميل على فك الحصار عنه وظلوا يفاوضونه سنة كاملة لعله يرضى بمد يد العون لعبد الرحمن بن معاوية ••• ولكن الصميل وجد في وصول هذا الامير الاموي الى الاندلس ما يهدد نفوذه فأنذر الدعوة

(١) انظر اخبار مجموعة للمؤلف المجهول ص ٥٩ وابن الاثير . ٣٧٥/٥

أن أول سيف سوف يشهر ضد عبد الرحمن إن نزل أرض الاندلس
سيكون سيفه !... .

واضطر الوالي للتوجه الى الحزب الآخر ، اليماني « الذين وغرت
صدورهم يتمنون شيئاً يجدون به سبيلاً الى طلب تأرهم من
القيسية ... (١) » وهكذا استدعى عبد الرحمن الى الاندلس فنزلها
في ميناء صغير بين المرية ومالقة في ربيع الاول سنة ١٣٨ / ١٤ آب
(اغسطس) سنة ٧٥٥ (٢) وبعد تسعة اشهر (في ذي الحجة) أي في نهاية
العام نفسه أنهى عبد الرحمن الداخل حكم يوسف الفهري في الاندلس ،
في معركة المصاراة وهزم الفهري والصميل تاركين في الميدان ولديهما بين
القتلى الكثيرين • وكانت كتلة جيشه من اليمانية وموالي الامويين ...
وبعض المنشقين على الفهري من القيسيين أيضاً •

ودخل عبد الرحمن قرطبة وتلقى البيعة في جامعها كأمر للاندلس
ولكن الدعاء بقي للخليفة ابي جعفر عشرة أشهر أيضاً بعد ذلك • ولم
ينفع القيسيين والفهري والصميل ثورة حاولوا بها احتلال قرطبة فقد
حاصرهم عبد الرحمن واضطروهم للاستسلام • وتم توقيع الصلح في
كتاب حضره زعماء الامويين والقيسين وقاضي قرطبة وزعماء الجند في
٢ ربيع الاول سنة ١٣٩ / ٤ آب سنة ٧٥٦ أي بعد سنة واحدة من نزول
عبد الرحمن بأرض الاندلس ... أما قطع الخطبة لابي جعفر فقد تريت
به عبد الرحمن حتى هدده بعض أعضاء الاسرة الاموية بالانتحار إن

(١) المصدر السابق ص ٧٤ .

(٢) انظر ابن الابار الحلة السيرة (طبع مؤنس) ج ١ ص ٣٥ .

لم يفعل^(١) ولعله كان يتردد امام إمكان اقتطاع قسم من العالم الاسلامي وشق أرض الخلافة إلى قسمين ... فان ذلك كان يجري لأول مرة في تاريخ الاسلام .

ولم يستطع ابو جعفر - وافريقية مع المغرب خارج يده وليس تحت يده اسطول بحري - أن يصل بيده الاندلس . ولقد علم بقطع عبد الرحمن الداخل لخطبته ولكنه لم يحرك ساكناً، في انتظار القيام بتدبير ناجح ضده . فسا ان انتهى من ثورة محمد ذي النفس الزكية سنة ١٤٦ وتلقب بالمنصور حتى وجد الفرصة السانحة في ثورة العلاء بن مغيث اليحصبي . وكان أحد وجوه مدينة باجة وقد تبعه في ثورته خلق كثير شكلوا خطراً كبيراً على عبد الرحمن الداخل بعد سبع سنوات من الحكم ويبدو أن العلاء كان على اتصال بسحمد بن الاشعث والى المنصور على افريقيا كما أخذ منه الاموال والوعد بالولاية واللواء الاسود الذي رفعه ... ويقول ابن القوطية إن المنصور كتب إليه : « إن كان فيك محلل لمناهضة عبد الرحمن وإلا فابعث من يعينك^(٢) » .

وقد حاصر عبد الرحمن الثائر في حصن منيع (حصن قرمونة) فامتنع عليه شهرين وأدرك أن المعركة معركة مصير فجمع ٧٠٠ من جنده المخلصين ثم أوقد ناراً عظيمة عند باب الحصن فألقى الجسيم بجفان سيوفهم وهاجموا جند العلاء في حركة مباغته أربكتهم فانهزموا ...

(١) انظر المقرئ - نفح الطيب (طبعة محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٩ ج ١ ص ٥٩ .

(٢) ابن القوطية - تاريخ افتتاح الاندلس (طبعة بيروت ١٩٥٨ المصورة عن مجريط ١٨٦٨ ص ٥٧ .

ودارت الدائرة عليهم وكثر القتل حتى ليذكر أحد المؤرخين أنهم كانوا سبعة آلاف كان من بينهم العلاء نفسه^(١) .

ويقول المؤرخون ان عبد الرحمن اختار عددا من الرؤوس فجعل في كل رأس رقعة باسم صاحبه ووضعها في جواليق ومعها اللواء الاسود وسجل المنصور للعلاء . ثم دس من رماها في سوق القيروان .^(٢) وقيل إن بعض الرؤوس رميت في مكة أثناء حج المنصور

وكانت هذه هي المحاولة الاولى والاخيرة لاسترداد الاندلس من قبل العباسيين الذين لم ينالوا منها إلا الذكر بالاسم على المنابر فترة قصيرة عابرة . وهذا الموقف الجغرافي - التاريخي معاً هو الذي يفسر علاقة العباسيين بالفرنجة .

ثالثا : الفرنجة : ففي غرب أوروبا كانت تقوم دولة الكارولنجيين، الدولة التي كان أسسها على أنقاض الحكم الميروفنجي : شارل مارتل صاحب معركة بلاط الشهداء . وكان عداؤها للحكم الاسلامي الاموي في الاندلس متصلا بجذرين أحدهما ديني والآخر دفاعي ضد الغزوات الاسلامية لجنوب فرنسا ولم يكن مسكناً أن تقوم بينها وبين الدولة الاموية إلا علاقات العداء رغم الصلات التجارية المتصلة ما بين الثغور الاسلامية والموانئ في جنوب فرنسا خاصة . فإذ قامت الدولة العباسية وتبين الكارولنجيون اتقسام البلاد الاسلامية وإمكان الاستفادة

(٣) لسان الدين بن الخطيب - اعمال الاعلام (طبعة بروفنسال - بيروت) ج ١ ص ٩ .

(٤) ابن عذارى - البيان المغرب ج ٢ ص ٧٩ . المؤلف المجهول - اخبار مجموعة ص ١٠٣ - وانظر ابن القوطية - افتتاح ص ٥٧ .

من عدااء المنصور لعبد الرحمن الداخل المتسلط على الاندلس حتى بادروا لاستغلال الفرصة في محاولة للتخفيف من ضغط هذا الوالي الطامح على الاراضي الفرنجية وارااضي مملكة ليون المسيحية في شمال اسبانيا ولعل للتجار اليهود المعروفين بالرأداية والذين كانوا يترددون بين الموانئ الإسلامية والفرنجية يداً في نسج تلك الصلات الواهية بين خلافة المشرق والفرنجة . فقد نفّض المنصور يده من الاندلس بعد فشل صاحبه اليحصبي ولعله رضي بعد ذلك باستخدام الضغط السياسي الخارجي ضد صاحبه عبد الرحمن الذي كان يعجب به ويسميه صقر قریش بقدر ما كان يحتد لانه سجل هزيمة المنصور الوحيدة في تاريخه السياسي . وتذكر بعض المصادر اخباراً . لا نعرف مدى دقتها . عن علاقات اتصت بين ملك الفرنجة (يمين) القصير رأس الاسرة الكارولنجية والمنصور . فيذكرون ان الملك الفرنجي بعث سنة ٧٦٥ (سنة ١٤٧ هـ) بوفد الى الخليفة العباسي . أعاده المنصور مصحوباً بسفراء من عنده ، وبهدايا نفيسة . فوصلت بلاد الفرنجة بعد سنوات ثلاث . و مر الوفد العباسي في البحر الى مرسيلية ثم قضى الشتاء في متز باللورين . وأقام في قصر سلس بضاف اللوار . ثم عادوا الى الشرق . في البحر عن طريق مرسيلية ويعلق المؤرخ ميور على هذه الوفود والمفاوضات بانها لم تؤد الى شيء ، سوى ما ولدته في نفس عبد الرحمن الداخل من خوف هجوم الفرنجة على بلاده . وبذلك لم يحاول اظهار عدائه الحربي للخليفة العباسي . ولعل الأصح ان ينظر لهذه العلاقات على وجه آخر . فعبد الرحمن لم يكن في حالة تسكنه من الهجوم الحربي على العباسيين . ونظرة الى مواقع الدول الكبرى حول البحر المتوسط في ذلك الحين (دولتي المسلمين : العباسية والاموية في شرق وجنوب وغرب البحر الابيض المتوسط . ودولتي المسيحيين : في شماله الشرقي وشماله الغربي)

تفسر لنا سر ذلك التعاطف بين الفرنجة والمنصور ، الذي كان يقابله تعاطف مماثل بين أمراء الاندلس وأباطرة بيزنطة • يقول رينو : « وبينما كان ملوك قرطبة يرسلون قياصرة القسطنطينية الذين باتوا في حرب مع مسلمي الشام وفارس ومصر ، كان خلفاء الشرق يعقدون معاهدات مع ملوك الفرنسيين الذين كانوا في حرب مستمرة مع مسلمي الاندلس » • ذلك ان مصلحة العباسيين اتفقت ، بالتقابل والعمل المتبادل ، مع مصالح الفرنجة • فأصحاب الاندلس هم أعداء الفرنجة الاقربون واعداً العباسيين الاقربين ، ومنافسي الفرنجة الابعدين • واذا تذكرنا تلك المنافسة القوية التي قامت بين قسطنطين الخامس وبين (يبين) للفوز بالسلطة السياسية في العالم المسيحي ، والتي كسبها يبين في النهاية ، إذ جر البابا الى جانبه ، فباركه وبارك عمله ، بينما اتهمت الكنيسة البيزنطية ، أثر ذلك ، الى الانفصال عن الكرسي البابوي ، وانتهى النفوذ البيزنطي الى الزوال عن ايطاليا ، اذا تذكرنا ذلك اتضحت لنا أسرار تلك المفاوضات العباسية - الفرنجية وما دار فيها من أمور •

ومن الضروري أن يضاف هنا أن العباسيين ربما انساقوا الى هذه العلاقة مع الفرنجة بالدافع الاقتصادي في محاولة لعقد الصلات التجارية المباشرة بين الموانئ العربية الاسلامية في مصر وافريقيا وبين جنوب فرنسا دون وساطة البيزنطيين ••• إن طبيعة تلك الصلات القائمة على الوفود والهدايا توحى بذلك لا سيما إن تذكرنا أن أعضاء هذه الوفود كانوا شخصيات مغمورة لا تتناسب مع كبر المهمة السياسية التي تعطى لهم • ولعلمهم كانوا هم أنفسهم من التجار الذين يتمسحون بالقوى الحاكمة في البلدين لادعاء القيمة والاستفادة من السعة والحماية •

ولعل المهم في هذا كله ان المنصور بتقربه من الفرنجة وضع تقليداً

سياسياً هاماً سار عليه الخلفاء من بعده ولا سيما في عهده حفيده الرشيد.



عند نهاية هذا العهد ، عهد المنصور والتأسيس كانت دولة بني
العباس قد ثبتت أقدامها على أرض المملكة الإسلامية فأزالت الطامعين
بالعرش ، وأخمدت الحركات الشاذة ، وبنت لنفسها عاصمة ، ووضعت
نظاماً للإدارة كما رسمت حدودها الخاصة وحتت تلك الحدود ، ومهدت
السييل بذلك كله لعصر الاستقرار المقبل .



الفصل الثامن

عصر الرشيد والاستقرار - الخلفاء

(١٥٨ - ٢١٨ / ٧٧٥ - ٨٣٣)

دام هذا العصر ستين سنة كانت فترة الأوج ، لافي الخلافة العباسية فحسب ، ولكن في التاريخ الاسلامي كله . فقد كانت دولة بني العباس الدولة الكبرى والاولى في العالم من الوجهة السياسية . تنتشر على أطرافها الدول الاخرى : فدول صغرى هندية فيما وراء حوض السند ، وامبراطورية الصين المصابة بالفوضى والحروب الاهلية ، تحت أسرة تانغ في الشرق الاقصى . وخانات الخزر في شمالي قزوين . والامبراطورية البيزنطية بعدهم على العدو بين آسيا واوروبا . ثم تأتي في غرب أوروبيا بين المانيا وايطاليا وفرنسا امبراطورية شارلمان . ثم اماراة الاندلس الاموية . وفي الجنوب مملكة الحبش بينما دولة الخليفة في قلب هذا العالم كله .

وأما من الناحية الاجتماعية فقد اختلقت عناصر الدولة بعضها ببعض فظهرت الألوان المتباينة من النزعات الاجتماعية ، التي تجمع في صعيد

واحد ، منتهى الجدل الى متطرف اللهو ، والتقي الزهد الى أبشع الزندقة ، وأبلغ التعصب مع أجمل التسامح ، وأعظم الغنى والبذخ الى أشأم الفقر والاملاق ، ولعل وجود التطرف في جانب من الحياة كان شرطاً ونتيجة ، في وقت واحد ، للتطرف في الجانب الآخر . وهذا من صفات العصور الممتلئة الخصبة .

وتكوّن الفكر الاسلامي واكتملت أسباب نضجه في هذا العصر بنتيجة تآزر الثقافات ، وترجمتها جميعاً الى لغة واحدة . واذا كان من الانقلابات الهامة أن تصبح اللغة العربية لغة العلم ، بجانب كونها لغة الدين ، والسياسة والتجارة والأدب ، فانه لما يستلفت النظر أيضاً أن تستلي هذه الفترة بشخصيات ما اجتست ، في كثرتها وتنوع نبوغها ، في عصر إسلامي آخر : فالفقه الاسلامي وضعه في ذلك الحين الأئمة الأربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل . وفي القضاء ظهر أبو يوسف والشييباني وفي اللغة الاصمعي والفراء والكسائي والخليل بن أحمد وفي الأدب المبرد والجاحظ وفي الشعر أبو نواس وأبو العتاهية ومروان بن ابي حفصة والعباس بن الاحنف وفي الغناء ابراهيم بن المهدي (أخو الرشيد) وابراهيم الموصلي وابنه اسحق ، وفي الضرب والزمر : زلزل وبرصوما ، وفي العلم والفلسفة والطب والفلك آل بختيشوع وأولاد شاكر وحنين بن اسحق والمأمون الخليفة وابن ماسويه وابن البطريق وغيرهم ولا شك ان هذا الجمع الحافل من الاسماء اللامعة يعبر عن يقظة فكرية — كما قال فيليب حتي — تعد من النهضات الهامة في تاريخ التقدم الفكري في العالم كله .

وقد تجمعت كل روعة فترة الاستقرار هذه في عهد الرشيد الذي يمكن أن يعتبر مثلاً لها وتعتبر سيرته ، بنتيجة ذلك ، كما قال فيليب —

« مكملّة للميراث الفكري الذي خلّقه الانسانية » • ويمكن ان يقارن عصره بعصر أوغسطس في الرومان ، أو بركليس في اليونان أو لويس الرابع عشر في فرنسا أو فكتوريا في انكلترا • وقد نقلت قصص ألف ليلة وليلة صورة الرشيد وعصره الى أذهان العالم ، حتى أصبح الرشيد لدى الغربيين يشل – كما قال فيليبي أيضاً – نواحي الجلال والعظمة في الامبراطورية العربية ، ويمثل كل ما هو عظيم وجميل في تاريخ الاسلام ولففت بغداد والشرق والحضارة الاسلامية من وراء تلك الصورة بكثير من السحر والاسطورة • وليس تقدير المؤرخين من العرب للرشيد بأقل من هذا • فقد سميت أيامه « أيام العروس » ووصفها السيوطي « انها كلها أيام خير ، كأنها في حُسْنِها أعراس » كما يذكر الفخري : ان دولته كانت من احسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً وأوسعها رقعة مملكة ... وقال البغدادي : اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لأحد من جد أو هزل « وزرائه البرامكة وقاضيه أبو يوسف وشاعره مروان بن ابي حفصة ونديمه عم أيّه العباس بن محمد وحاجبه الفضل بن الربيع ومغنيه ابراهيم الموصللي وضاربه زلزل وزامره برصوما وزوجته أم جعفر الخ ... »

على انا نلاحظ ان حصالة كل تلك الحضارة قد تجسّعت من العالم الاسلامي كله في العراق ومن العراق كله في بغداد نفسها التي وصفت من المعاصرين عن جدارة بأنها « سرّة الدنيا » ونلاحظ الى هذا أيضاً ان هذا العصر الباذخ قد حمل بين طياته ، وبين الاسباب التي أدت الى روعته ، بذور العوامل التي ستعمل على هدمه وتندّر بمطالع الانهيار المقبل •

الخلفاء :

توالى في هذه الفترة من التاريخ العباسي (١٥٨ - ٢١٨) هـ
خمس خلفاء هم : المهدي وابناه الهادي والرشيد ثم ولدا الاخير :
الامين والمأمون .

المهدي محمد بن عبد الله ابي جعفر بن محمد

(١٥٨ - ٢٣ المحرم ١٦٩ هـ) = (٧٧٥ - ٧٨٥ م)

نشأته : ولد في الحيمة (من اروى بنت منصور بن عبد الله
الحميري) سنة ١٢٦ هـ . وكان عمره عشر سنوات ، حين صارت الخلافة
لأبيه ابي جعفر^(١) . ويظهر من مجموع تصرفات الوالد والولد مع
بعضهما ، ان رابطة قوية من الحب كانت تربطهما - فقد تعهد المنصور
ابنه ، مبكراً ، بالثقافة والتربية الحرة والادارية ، ليكون جديراً
بالمنصب الذي سيصير اليه : عهد به الى المفضل الضبي فنشأ على ثقافة
عربية واسعة ، ومعرفة بالشعر وقرضه ، ورواية لأخبار العرب وامثالها .
وطلب من ابن اسحق فكتب لتثقيفه السيرة النبوية وبعث به ، وهو
ما يزال غض العود ، في الخامسة عشرة ، في صحبة قائد من اشهر قواده :
خازم بن خزيمة لمهمات صعبة متتالية : إخماد ثورة عبد الرحمن بن
عبد الجبار الازدي والي خراسان ، ثم الاصبهذي والي الثائر بطبرستان ،
ثم استاذ سيز ، مدعي النبوة في خراسان . وحالف التوفيق خازماً في

(١) كان لابي جعفر اولاد آخرون هم : جعفر الذي لقب بالاكبر لانه
توفي في حياة ابيه فسمى ولداً آخر من اولاده بجعفر (ابن الكردي) فعرف
بالاصغر . وكان لجعفر الاكبر عدة اولاد لعبوا دورهم زمن الرشيد منهم
زبيدة زوج هارون الرشيد .

في هذه المهمات التي كانت دروساً حربية قاسية للمهدي . ثم زوجه أبوه من ابنة عمه : ربطة بنت أبي العباس ورأى أن وجه خراسان خطر قلق وأن ابنه استطاب المقام في الري فولاه أخيراً خراسان والجلال بين سنة ١٤٨ هـ - ١٥١ هـ فلما عاد بعد ذلك إلى بغداد ببغيته الخراسانية سنة ١٥١ هـ بنى له أبوه معسكراً على الضفة الشرقية من دجلة ، تجاه بغداد (الرصافة) فاستقر ثم أرسله سنة ١٥٣ هـ أميراً للحج بدلاً عنه . كما أرسله سنة ١٥٥ / ٧٧٢ على الفرات إلى بلدة الرقة فبنى عندها معسكراً ضخماً هو مدينة الرافقة قضى سنة في بنائها .

وقد بويح المهدي البيعة الخاصة في مكة . والبيعة العامة في بغداد حيث كان مقيماً عند وفاة أبيه وذلك في (ذي الحجة ١٥٨ ، تشرين الأول سنة ٧٥٧) .

ميزاته : يذكر عن المهدي أنه كان معتدل القامة ، اسمر حسن الوجه جعد الشعر . وتتفق المصادر على وصفه بالكرم ولين الجانب ، كما تصفه بحسن العفو والحلم . وقد كان لهذا أثره الواضح في عهده ، لأن أخلاقه الخاصة انعكست في سياسته العامة فجعلته - كما قال المسعودي - « محبباً إلى الخاص والعام » .

لقبه : كان أبو جعفر هو الذي اختار لقب المهدي لابنه ويظهر أنه اختاره له في الوقت الذي اختار لنفسه لقب المنصور أي سنة ١٤٦ هـ بعد هزيمة محمد ذي النفس الزكية يدل على ذلك أن لقب المهدي ظهر على سكة ضربت في الري سنة ١٤٦ هـ كما ظهر على سكة أخرى من الباب وثالثة ضربت سنة ١٥٢ هـ في أران ، والمهدي ما يزال والياً للعهد ثم ورد اللقب له في نص تشييد بتاريخ الحرم سنة ١٥٥ هـ على قطعة من الرخام

في عسقلان وفي طراز قطعة نسيج بتاريخ سنة ١٥٩ في مصر . وفي قطع
أثرية أخرى في بخارى ومكة وغيرها^(١) . فاللقب ثابت له وإن كان اتخذه
أبو العباس ، أو الخلفاء ، أو أعطى له أول الأمر .

ويبدو أن المنصور وحاشيته كانوا يشيعون ثم يعودون فيؤمنون
بما أشاعوا من أن المهدي هو مهدي الله الموعود حقاً وصدقاً . وإنالنجد
ذلك واضحاً في كتاب المنصور الى عيسى بن موسى يراوده عن ولاية
العهد سنة ١٤٧ اذ يقول : « . . . ولم يجد أمير المؤمنين بدأ من متابعتهم
(الخاصة والثقات) وأمير المؤمنين أحق من سارع إلى ذلك وحرص
عليه وعرف فضله ورجا بركته وصدق الرواية فيه وحمد الله إذ جعل
في ذريته مثل ما سألت الأنبياء قبله إذ قال العبد الصالح : « فهب لي من
لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضىاً . » فوهب
الله لأمير المؤمنين ولياً ثم جعله تقياً مباركاً مهدياً وللنبي (صلى الله عليه
وسلم) سميّاً وسلب من اتحل هذا الاسم ودعا الى تلك الشبهة التي
تحير فيها أهل تلك النية وافتتن بها أهل تلك الشقوة فاتزع ذلك منهم
وجعل دائرة السوء عليهم . . . وأعلن للمهدي مناره وللدين أنصاره^(٢) »
سياسته العامة : ترك المنصور لابنه وصية سياسية قرأها يوم البيعة
قال فيها ، بعد ان حذره طويلاً من عذاب الآخرة والحساب :

« . . . وليتسع انصافك وينبسط عدلك . وواس بين الرعية في الاحتكام
واطلب بجهدك رضا الرحمن ، وأهل الدين فليكونوا أعضادك . وأعط
حظ المسلمين من اموالهم ، ووفر لهم فيئهم ، وتابع اعطياتك عليهم وعجل

(١) انظر مراجع ذلك لدى حسن الباشا - الالقاب الاسلامية

ص ٥١٤ - ٥١٥

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٦ (٣/ ٣٤٠-٣٤١) .

ينفقاتهم إليهم سنة سنة وشهراً شهراً • وعليك بعمارة البلاد ، بتخفيف
الخراج ، واستصلاح الناس بالسيرة الحسنة والسياسة الجميلة ، وليكن
أهم امورك إليك تحفظ اطرافك وسد ثغورك و... وارغب الى الله عز
وجل في الجهاد والمحاربة عن دينه... وابذل في ذلك مهجتك... وتفقد
جيوشك ليك ونهارك ، واعرف مراكز خيلك ومواطن رحلك... »

وقد اتبع المهدي روح هذه الوصية في سياسته للدولة • على أنا
نلاحظ انها لا تتفق مع سياسة المنصور العامة فهل هي مزيفة عليها ؟ أم
هل أدرك ذلك الخليفة القوي تغير العهد وضرورة التطور في السياسة ؟
أم كان يفهم ابنه وطباع ابنه بهذا العمق ؟ لانكاد نشك في أن المهدي
استفاد من الوصية • ولكنها لم تكن العامل الحاسم في توجيه سياسته •
فالذي رسم خطوط السياسة العامة له ، هي أخلاقه الخاصة من جهة ،
وظروف عصره من جهة أخرى • وهذا سبب نجاحه وحُب الرعية له •
فقد كانت الدولة استقرت بعد ثورة واحتاجت الى اللين ، بعد طول
الشدة كما بدأت تظهر في تلك الفترة آثار التمازج الثقافي والاجتماعي
بين ثقافات وعناصر الدولة المختلفة ، وطلائع الميزات التي تميز الحضارة
الاسلامية • لهذا جاء عهد المهدي عهداً انتقالياً ، وسطاً ، بين عهد ابيه
الشديد قبله ، وعهد ولديه الرضي من بعده ، وكانت أبرز الميزات في
سياسته :

(١) سياسة الأمن والطمأنينة والهدوء في الداخل والخارج ، ان
المنصور وهم خرج إلى مكة المكرمة ، فبقيت الناس ثلاثة
أصناف : فقير لا يرجو إلا أن يترك ما في يده من أمواله ، ومسجوناً
لا يرجو الخروج إلا موتاً ، وبينهم من كان يطمح في الشهية ولا تمدد لهم

كل المد ... » وسواء صحت الوصية أم لم تصح فانها تعبى عن حقيقة واقعة . فقد بدأ المهدي ، بعد عهد المنصور الشديد ، سياسة الانفتاح والفرج على الناس جميعاً سواء منهم الأقربون أو من كانوا موضع الريبة والعداء وصل أولاء أهله ومواليه فقرر لكل واحد من أهل بيته ستة آلاف درهم في السنة . وحاول استرضاء العلويين فأخرج من كان في السجن منهم « وأمر لهم بجوائز وصلات وارزاق دارة » على قول اليعقوبي واستخدم عدداً كبيراً من الزيدية .

وحاول كذلك استرضاء بعض الامويين ويذكر الطبري ان المهدي « لما وجه الرشيد الى الصائفة سنة ١٦٣ خرج يشيعه فلما حادى قصر مسلمة (بن عبد الملك) قرب الفرات في شمال الشام) قال له بعض مرافقيه العباسيين: يا امير المؤمنين . إن لمسلمة في أعناقنا مئة . كان محمد ابن علي مر به فأعطاه أربعة آلاف دينار وقال : يا ابن عم . هذان ألفان لدينك وألفان لمعوتك فإذا نفدت فلا تحتشمنا » فقال المهدي : أحضروا من هاهنا من ولد مسلمة ومواليه فأمر لهم بعشرين ألف دينار وأمر أن تجرى عليهم الأرزاق ثم قال لمحدثه : هل كافأنا مسلمة وقضينا حقه ؟ (١) ويروي له المسعودي قصة أروع من هذه يوم لجأت مزنة امرأة مروان بن محمد الى الخيزران وهي في الأطمار البالية . وأحسن إليها الخيزران فلما علم المهدي بالامر بكى واستدعاها ورحب بها ورفع منزلتها فوق أحسن نساء القصر . ثم تفاوض معها أخبار أسلافهم وأخبار الناس والدولة وتنقلها فما تركت (مزنة) لأحد في المجلس . فقال المهدي : يا بنت عم لاشيء أصون لك من حجابي وكونك مع أسلافك

(١) الطبري ج ٨ ص ١٤٤ (٣/٤٩٥)

في قصري • لك مالهن وعليك ماعليهن ••• ثم أقطعها مثل مالهن من
الاقطاع وأخدمها وأجازها • فأقامت في قصره الى أن قبض المهدي وأيام
الهادي وصدرا من أيام الرشيد وماتت في خلافته لايفرق بينها وبين نساء
بني هاشم • فلما قبضت جزع الرشيد والحرم جزعاً شديداً ••• (١)

واسترضى المهدي عامة الناس باطلاق المسجونين كافة « إلا من
كان قبله تباعة من دم أو قتل ومن كان معروفاً بالسعي في الأرض بالفساد
أو من كان لأحد قبله مظلمة أو حق » وأضاف الى ذلك أنه كسا
ووصل كل من أطلقه •

وترضى بعض الأقطار الاسلامية المنكوبة : فقد حج سنة ١٦٠ هـ
فوزع على أهل الحجاز ثلاثين مليون درهم ونصف مليون دينار ومائة
 وخمسين ألف ثوب — على روايات الطبري — وأرجع جرايات الحبوب
إليهم من مصر وكان قطعها المنصور لدن ثار محمد ذو النفس الزكية •
واصطفى لنفسه خمسمائة رجل من الأنصار فأجرى عليهم الأرزاق
الواسعة وجعلهم حرسه الخاص (٢) (تأكيداً للتقرب وللموازنة مع
العرب الخراسانيين في الدولة) وأكرم سنة ١٦٤ هـ عامة أولاد المهاجرين
والأنصار وفرق فيهم ثلاثة ملايين درهم • وأراد تهدئة الشام فزار
دمشق والقدس وحاول التوفيق بين قبائل البادية الشامية ووزع المال
فيهم •

ولاشك أن ماتركه المنصور في بيت المال هو الذي أعان المهدي

(١) المسعودي — مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢٣-٣٢٥

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٣٣ (٣/٤٨٣)

على هذه السياسة « الكريمة » و « بسط يده في الإعطاء فأذهب جميع ماخلفه المنصور سوى ما جباه في أيامه » •

(٢) العدل : وأول ما بدأ فيه بنفسه إذ أنه نظر في « دفتر القبض » حيث كان يسجل المنصور مأخذه من أموال الناس بالمصادرة فسرده الأموال لأصحابها وصاحب الفخري يعزو ذلك إلى وصية والده إذ قال : « يا بني إني قد أفردت كل شيء أخذته من الناس على وجه الجباية والمصادرة وكتبت عليه أسماء أصحابه فإذا ولت أنت فأعده إلى أربابه ليدعو لك الناس ويحبوك ! » •

وعني المهدي بأمر المظالم فكان يجلس لها بنفسه ويشرك القضاة معه عند النظر فيها ويقول : لو لم يكن ردي للمظالم الأحياء منهم لكفى واتخذ بيتاً له شباك حديد تطرح فيه القصص (رقاع الشكايات) وتجمع بعد ذلك لئلا يكون ثمة مجال لإخفاء الشكاية أو تأخيرها • وبهذه الوسيلة حمى الرعية من تعدي البوالة وجورهم (ومن جورهم هو أيضاً) وخاصة في قضايا الضرائب والأراضي •

(٣) احترام الدين : كسب منصب الخلافة زمن المهدي ظلاً دينياً واضحاً فقد كان الخليفة يقرب رجال الدين والفقهاء ويتأثر لدى تلاوة القرآن وقد أمر بتوسعة المسجد الحرام حتى توسطته الكعبة بعد أن كانت في جانب منه ، وحمل إليه الأساطين من مصر (غير أنه محاسن الوليد ابن عبد الملك من حائط الحرم وكتب اسمه بدلاً منه) ووسع مسجد الرسول في المدينة والمشروعان إنما بدأ بهما في الواقع أبوه المنصور قبله وقد اغتنى له أبو حنيفة بمصادرة الدور حول الكعبة لتوسعتها كما وسع مسجد البصرة بما يتناسب مع تكاثر السكان فيها ونمو شأنها التجاري إذ ذاك •

هذا إلى أنه قام بأعمال اجتماعية كثيرة ذات طابع ديني فوضع « دور المرضى وأجرى على العميان والمجذومين والضعف وأهل السجون في جميع الآفاق » وبنى المحطات والبرك على طريق الحج العراقي من القادسية الى مكة . يقول الطبري : « ٠٠٠ وأمر المهدي سنة ١٦١ ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي بناها أبو العباس ٠٠٠ وترك منازل أبي جعفر على حالها وأمر باتخاذ المصانع في كل منها . وتجديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع ٠٠٠ » (١)

وقد اتفق أن تفشت الزندقة في الناس في زمنه لعوامل مختلفة حتى أضحت نوعاً من « التطرف » و « المودة » فكافحها المهدي مكافحة تميز بها عهده . يقول صاحب الفخري : « كان شديداً على أهل الإلحاد والزندقة لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم » « وقد جد في طلبهم والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم » وعين موظفاً خاصاً باسم « صاحب الزنادقة » لمطاردتهم كما أمر بتأليف الكتب للرد عليهم . وقد كان خارجاً في حملة ابنه الرشيد لغزو الروم سنة ١٦٣ فلم يمنعه ذلك من أن يبعث وهو في حلب بعبد الجبار المحتسب « لجلب من بتلك الناحية من الزنادقة فقتل جماعة منهم وصلبهم وأتى بكتب من كتبهم فقطعت بالسكاكين ٠٠ » (٢) وقد كان من ضحايا هذه المكافحة الواسعة عدد من الشخصيات المعروفة ولا سيما في الميدان الأدبي كابن المقفع وبشار بن برد ٠٠٠

وفاته : قضى المهدي عشر سنوات على عرش الخلافة واحتضرت سنة ١٦٨ هـ وعمره ثلاث وأربعون سنة . يقال إنه مات في بعض صيده للظباء

(١) الطبري ج ٨ ص ١٣٦ (٤٨٦/٣)

(٢) نفسه ص ١٤٨ (٤٩٩/٣)

أو لأكله بعض الطعام المسموم وهو في ماسبدان في طريقه إلى بلاد فارس لرد ابنه (الهادي) إلى طاعته !

الهادي موسى بن محمد بن عبد الله

(١٦٩ - ١٧٠ هـ) = (٧٨٥ - ٧٨٦ م)

نشأته : ولد الأخوان موسى ثم هارون لأبيهما المهدي في الري سنة ١٤٥ وسنة ١٤٨ من أم ولد جرشية (وجرش صقع في اليمن) اسمها الخيزران بنت عطاء أخذها من بيت حاكم طبرستان الثائر ... ويقال إنها كانت مملوكة لرجل من بني ثقيف باعها في مكة واستحسنها المنصور فاشتراها ووهبها لابنه المهدي فولدت له قبل سنتين من ولايته للعهد ابنه الاول موسى ثم هارون سنة ١٤٦ . وكان ذلك في الري ، مقرر ولي العهد اثناء ولاية تلك الاصقاع .

ونشأ الاثنان في محيط مترف فظهر أثر ذلك في ثقافتهما وأخلاقهما، وقد صارت الخلافة الى موسى^(١) وهو بجرجان يخمد ثورة هناك . وقد كان أبوه قد عينه لولاية المشرق كله من قبل فأخذ له البيعة

(١) ولدت ريطة بنت ابي العباس من زوجها المهدي ولداً اسمه علي . عرف فيما بعد بعلي بن ريطة . ولكنه كان الابن الثالث للمهدي فتقدم عليه موسى وهارون . وقد تزوج المهدي كذلك حين حج سنة ١٦٠ من رقية بنت عمرو العثمانية . ولعله كان زواجاً سياسياً قصد منه تألف قلوب الانصار في المدينة . وكان مع المهدي في حجه هذا ابنه هارون في رعاية مربيه أبان بن صدقة الذي كان في الاصل كاتباً لأبي أيوب المورياني وزير المنصور . وقد نقل أبان بعد ذلك لخدمة موسى الهادي وجعل مكانه بجانب هرون : يحيى بن خالد البرمكي .

١٠٩
١٠٩

أخوه في بغداد . وكان موسى « طويلاً جسيماً أبيض الشعر أفوه »
وتشترك كثير من المصادر بوصفه بالجرأة الشرسة وقسوة القلب . يقول
المسعودي « كان ... أشد الناس بدنأً وأجرأهم مقدماً في تسرع وجبرية
ينسب بهما إلى الهوج » كما عرف عنه الكرم المسرف : فقد تحدى مرة
أخاه هارون فأجابه جواباً مؤدباً يمتلىء بالعاطفة فأمر له بألف ألف
دينار وخمسمائة ألف متى وصل الخراج . ومنح ابن دأب ثلاثين
ألف دينار على أبيات أنشدتها له فاستحسنها . وأعطى سلباً الخاسر
ثلاثمائة ألف درهم في قصيدة أعجبه منها هذا البيت :

لولا هداكم وفضل أولكم لم تدر ما أصل دينها العرب !
وأكرم ابراهيم الموصلني بخمسين ألف دينار في ثلاثة أبيات أضربته .
وقال اسحق بن ابراهيم : « والله لو عاش لنا الهادي لبنينا حيطان
دورنا بالذهب ! »

سياسته العامة : كما زفي وصية المهدي لابنه أن يتبع سياسته في
تصيد الزنادقة والتنكيل بهم فتابع الهادي عهد أبيه في ذلك . وقتل جماعة
كبيرة منهم وقد شارك أباه بغضه للخوارج . ولكنه خالفه في موقفه من
الأمويين فقد كان يبغضهم وتهذأ نفسه إن ذكر قصص الفتك بهم كما
خالفه في موقفه من العلويين . يقول اليعقوبي إنه « جد في طلب الطالبين
وأخافهم خوفاً شديداً وقطع ما كان المهدي يجري لهم من الأرزاق والاعطية »
وتطرفه هذا أثار عليه الحسين بن علي بن الحسين بن الحسن : وإذا
استطاع الهادي أن ينكل به وبجماعة من أنصاره في واقعة (فخ) وهي
أخت كربلاء وباخمرى فإنه من هذه الواقعة خرجت دولة الأدارسة
التي اجتزأت المغرب الأقصى من الدولة العباسية .

الوفاة : لم تدم خلافة الهادي أكثر من سنة وقرابة شهرين فقد

توفي وشيكاً في بغداد (أو في الحديثة قرب الموصل) وظروف هذه الوفاة غريبة وإذا كانت إحدى الروايات تنسبها لقرحة في معدته فإن الروايات الأخيرة تتهم بها أمه الخيزران . . . فقد كانت كثيرة الدالة في الدولة زمن أبيه والأشهر الأولى من زمنه . . . فتضايق الهادي منها وكان شديد الغيرة على النساء وقال لها يوماً : « ما هذه الموابك التي تغدو وتروح إلى بابك ؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك ؟ أو بيت يصونك ؟ لئن بلغني أنه وفد ببابك أحد من خاصتي أو قوادي أو من خدمي لأضربن عنقه ! » « لا تخرجي من خفر الكفاءة إلى بداءة التبذل فليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك » . ويقال إن الخيزران احتملت هذه الإهانة على مضض فلما كان أمر ولاية العهد وخافت على ابنها الثاني هارون وكان « أحب إليها من الدنيا بجميع مافيها » قررت الفتك به ولعله كان مريضاً كما يفهم من رواية الجهمساري فأوعزت لجواريتها بخنقه وهو نائم ! والقصة التي يرويها يحيى البرمكي عن ليلة الحادثة تؤيد اشتراك الخيزران في الأمر (ربيع الأول سنة ١٧٠) وهو « ليلة مات بها - كما يقولون - خليفة وجلس خليفة وولد خليفة » (المأمون) .

الرشيد هارون بن محمد بن عبد الله

(١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠ - ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ)

(١٤ ايلول ٧٨٦ - ٢٤ آذار ٨٠٨ م)

نشأته : ولد الرشيد ، مع مولد بغداد سنة ١٤٦ هـ ومن عجب أن بقي الاسمان متلازمين دوماً في الازدهان يعضد أحدهما شهرة الآخر، منذ ذلك الوقت الى الآن . ولسنا نعرف الا القليل عن نشأة الرشيد الاولى . التي كانت في الري وأوضح مافيها أن هارون نشأ مع أولاد

يحيى بن خالد البرمكي الذي كان على ديوان المهدي هناك وهما الفضل وجعفر كما رضع من أمهاتها . وحين عاد مع أبيه وأمه الى بغداد منذ سنة ١٥١ اختير لتربيته كبار العلماء كالشأن في غيره . . . غير أن هارون يظهر لأول مرة سنة ١٦٣ هـ وهو في قرابة الثامنة عشرة قائداً لحملة تسير ضد البيزنطيين وتفتح بعض القلاع على الحدود . وكان المهدي قد بالغ في الحشد لهذه الحملة حتى زادت على تسعين ألف مقاتل كما بالغ في الاتفاق على تجهيزها وإعدادها . . . وإذا لم تكن لهارون من تلك القيادة سوى المظهر الاسمي في الغالب فإنها على كل حال تدل على ما أصابه من مران عسكري ودربة مدنية كان لا بد من توفرها في افراد البيت الحاكم ونجد أباه المهدي إثر ذلك يزوجه من ابنة عمه زبيدة^(١) ثم يعاود إرساله فجأة الى جبهة الروم في مائة الف مقاتل إثر هزيمة هزمها هناك أحد قواد الدولة (عبد الكبير بن عبد الحميد) ويرسل معه اكبر قواد الدولة يزيد بن يزيد الشيباني . ونجحت الحملة حتى أشرفت على البوسفور ويعود هرون بالنصر ليلقبه أبوه بالرشيد ويعقد له بتأثير من الخيزران ولاية العهد بعد اخيه موسى سنة ١٦٦ .

(١) ولدت زبيدة سنة ١٤٩ في حديثة دجلة (قرية جنوبي الموصل) وتوفى أبوها جعفر الأكبر بن المنصور سنة ١٥٢ فكفلها جدها وهو الذي سماها زبيدة لبياضها وقد تزوجت من الرشيد سنة ١٥٦ وولدت له الامين سنة ١٧٠ وتزوج الرشيد غيرها أمة العزيز أم ولده علي . وأربعاً أخريات غير هاتين . وكان له من أبناء الجواري عشر أبناء منهم أبو اسحق المعتصم ، عدا البنات (انظر الطبري ٢٢٨/٨) و ص ٣٥٩ (٣/٧٥٧) وقد ذكر الشافعي في الديارات (طبع كوركيس عواد - بغداد ١٩٦٦ ص ١٥٧) أن « اسم زبيدة أمة العزيز وزبيدة لقب وكان أبو جعفر يرقصها وهي صغيرة وكانت سميعة ويقول : ما انت إلا زبيدة فمضى عليها هذا الاسم » فهي إذن أمة العزيز الأولى وأم علي هي الثانية وتحملان اسماً واحداً .

ويستخلف الهادي سنة ١٦٩ فيعيش الرشيد تلك السنة خائفاً
يتربس استياء أخيه منه ثم يشغر العرش فجأة فيستلمه هارون وهو ابن
اربع وعشرين سنة •

شخصيته : ليس يسيراً أن نقرر نصيب الخيال في الصورة التي
يعرفها الناس وتحفظها الكتب للرشيد ونصيب الحقيقة فقد امتزجت في
أخباره روعة الخيال بحقائق التاريخ ومبالغة الأقاويص فاجتمع له
من الصفات المتباعدة ما ندر أن يجتمع في شخص واحد •

فهو حيناً الخليفة الذي ينهمك في المجون ويشرب النبيذ وترقص
في حضرته مائة من الجوارى مرة واحدة في أحسن هيئة ويبدل في جارية
واحدة مائة ألف درهم ويطرب للموسيقى والغناء منذ فتوته الأولى
ويتعرض في ذلك لغضب أبيه الطروب أيضاً ، وله جمعت الأصوات
المائة التي قام على أساسها أبو الفرج الأصبهاني كتابه (الأغاني) ••
وهو حيناً آخر الخليفة الورع الذي تسقط الموعظة دمه والذي كان
يصلي في اليوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا « وكان يحج سنة ويغزو
أخرى » فهو بين حاج وجهاد مدة خلافته حتى ليقول له الشاعر أبو
المعالي الكلابي :

فمن يطلب لقاءك أمر يردده فبالحرمين أو أقصى الثغور ••
ويتخذ قلنسوة كتب عليها : « غاز حاج » •••• ويبلغ به التقى
أن يحج ماشياً فيكون أول من يفعل ذلك من الخلفاء • وأن يحج معه
مائة من الفقهاء وأبنائهم وأن يتصدق كل يوم من صلب ماله بألف درهم •
ثم هو تارة الخليفة اللاهي المسرف في اللهو حتى ليقضي وقته

بين جارية ودن ، المنصرف عن تدبير الملك حتى ليحسد البرامكة على من اجتمع ببابهم من اصحاب الحاجات ، وهو تارة أخرى الخليفة الحازم اليقظ الذي يعس في الليل متنكرا يتفقد احوال رعاياه والخليفة الذي يشتكي إليه أحد أعوانه وهم في بعض الدروب مايلقون من غنت ومشقة وثلج والرعية نائمة فيجيه الرشيد : اسكت ! على الرعية المنام وعلينا القيام !

وهو مرة العطوف المتلاف للمال الكثير الصفح والرحمة المتواضع حتى ليصب بنفسه الماء على يد ضيفه ابي معاوية الضرير ، وهو مرة أخرى السفاك العنيف الحديد القلب حتى ليستحل دم اقرب المقربين دون خلجة ضمير والتهيا الذي لايحتمل أن يرى يدا تعلو يده في الدولة أو تنتقص من سلطته المطلقة .

وقد يكون الرشيد هذا كله معاً وقد يكون يشل بذلك عصره بما فيه من متناقضات وتطرف . والذي يظهر من وراء هذه الصفات أن عاطفة الرشيد المرفهة كانت تسيطر على تصرفاته ، وأنه كان انفعالي الطباع وسرعة تأثره بالموعظة أو باللحن أو بالغضب أو بالثقة هي التي كانت تلون نفسه لونا بعد لون . على أن المصادر تكاد تتفق على أنه كان صحيح الدين ، كريم الكف ، قائماً بواجبات منصبه كخليفة للمسلمين عليه الجهاد والامامة ، متمتعاً بما يجلبه ذلك المنصب من نعم ومن اتصال بالشعراء والعلماء والخاصة والرعية وكانت كل ناحية في حياته متسمة للأخرى « فمتاع الجسد جزء من حياته يعدل كثرة الحجج » ومع لهوه كان يجد الوقت الكافي للجهاد ولتفقد حال الناس ولتشجيع العلوم والفنون والترجمة .

وإذا كانت صفات الرشيد هذه نتيجة لطبيعته وتربيته وللعصر الذي عاش فيه فهي قد عادت فأثرت بدورها في ذلك العصر وكثير من اعمال الرشيد السياسية إنما تفسرها تلك الصفات .

ومن الواضح أنه اذا كان العصر الحديث قد حرم الشخصيات التاريخية من أن يكون لها الأثر الأول في توجيه التاريخ والاحداث فعصور التاريخ السابقة كانت تترك لهم المجال الواسع . واذا كانوا في الواقع ابناء الظروف المادية والروحية التي مهدت لهم وأوجدتهم فإنهم كانوا بدورهم يعودون فيؤثرون بتلك الظروف ويوجهونها . وهكذا تمثلت حيوية الدولة العباسية وتمثل مزيجها الاجتماعي والديني الذي لم يكن قد حان له بعد أن يصبح مركباً منسجماً - في الرشيد وأبرزه . فهو صورة للعصر والتطرف وهو سبب ونتيجة له في وقت واحد .

ولعل صورته تكون كاملة إذا نحن جعلناها مزيجاً من صفاته الشخصية (وبرزها الانفعالية السريعة) ومن واجبات المنصب الذي تولاه (كخليفة وإمام) ومن ظروف العصر والبيئة الكثيرة الخلائط التي وجد فيها (في العراق ! ذاك) .

سياسته العامة : أعلن يوسف بن القاسم بيعة الرشيد على العالم الاسلامي بكتاب قال فيه بعد أن بين مكان العباسيين من بيت النبوة والدين « .. وهو (أي الرشيد) يعدكم من نفسه بالرأفة عليكم والرحمة بكم من الجائرة مما أفاء الله على الخلفاء مما في بيوت المال ما ينوب عن رزق كذا وكذا شهراً غير مقاص لكم بذلك فيما تستقبلون من اعطياتكم وحاملاً باقي ذلك للذب عن حريمكم ومالعه أن يحدث في النواحي والاقطار من العصاة المارقين ... فاحمدوا الله وجددوا له شكراً يوجب لكم المزيد في احسانه اليكم بما جدد لكم من رأي امير المؤمنين ... ايده الله بطاعته ! » .

هكذا يبدأ الرشيد عهده بتوزيع المال : اعطيات اضافية للجند ، ويؤكد على سلطته المطلقة ويعد بالرفقة وبحفظ الأمن وبال دفاع عن الحدود ثم يسمع الناس بعد ايام أن البرامكة قد اصبحوا سادة الدولة بتكليف من الخليفة الذي قال ليحيى البرمكي : « ياأبت ! قد قلدتك امر الرعية وأخرجته من عنقي اليك • فاحكم بما ترى واستعمل من شئت واعزل من رأيت ... » فإني غير ناظر معك في شيء » : ولكن هذا التقليد المطلق لم يحرم الخليفة من ممارسة التأثير على سير الدولة تأثيراً يختلف شدة وضعفا حسب الظروف ، ويذكر الطبري ويؤيده المؤرخون إن الرشيد « كان يقتني آثار المنصور الا في بذل المال فانه لم ير خليفة قط قبله أعطى منه للمال » وقد يكون ذلك صحيحا في بعض نواحي السياسة وفي بعض الاحايين ولكنه خالف سياسة جده كثيراً في بعض النواحي الاخرى • واهم الاسس في سياسته العامة :

١ - **التقيد بالدين** : فقد كان الرشيد ينظر الى الدين نظرة آل البيت اليه كأساس للدولة ، ويعمل على أن يتجسم فيه ذلك ، وما الحج والصدقات والجهاد والصلوات التي تدوم الليل كله سوى وجوه وتطبيقات لتلك النزعة كما كان منها اعماله في عبارة طريق الحج وكسوة الكعبة ... إلخ وقد اضاف الرشيد اليها ، في آخر ايامه شيئا من عدم التسامح مع أهل الذمة إذ أمرهم أن يلتزموا زيا معيناً في اللباس يميزهم وأن لا ترتفع بيوتهم عن بيوت المسلمين وهدم بعض الكنائس ولعله تأثر في هذا بالموقف الخارجي مع البيزنطيين •

٢ - **التمسك بالسلطة المطلقة** : يقول فيليبي : « إن هرون الإطاعية بمولده وتربيته والظروف المحيطة به ، فهو وارث فلسفة سياسية اتحدت

فيها على وجه غريب ظاهرتان متناقضتان : الأولى ديمقراطية فنية نبتت في جزيرة العرب ، والثانية تقليد خائر يمثل في الملكية الفارسية المطلقة . . . ولعلنا لانحتاج لمثل هذا التعقيد ، في تفسير سياسة الرشيد . فقد كان كغيره من الخلفاء ومن الملوك القدماء في فارس وغيرها في التمتع بالسلطة المطلقة . ولكن طبع الرشيد الحساس ومزاجه الحاد جعل اغيخته على سلطته أبرز وأعنف ، وتصرفاته أكثر حدة وقوة ، كما في نكبة البرامكة .

٣ - عدم التدقيق في محاسبة العمال أو أمر البلاط : وقد خالف

الرشيد في هذا ركناً من أهم أركان سياسة المنصور ، فأنتهى ذلك به إلى مشاكل عديدة ، منها ثورة خراسان على واليهم الجائر علي بن عيسى ، ومنها انقطاع الشمال الافريقي عنه ، وظهور دولة الأغالبة ثم دولة الأدارسة . وإهماله لأمر البلاط ، هو الذي سمح للحريم بالتدخل في أمور الدولة ، كما أنه أدى لتكوين حزين سياسيين في الحاشية : عربي وفارسي ، سيتزعمان الحرب الأخوية بين ولديه الأمين والمأمون .

٤ - الصبر السياسي والتخطيط الهادئ : ويبدو أنه اكتسب هذه

الصفات خلال السنوات الأولى لحكمه ومن خلال التفكير في مقامه السياسي الديني . ولعل أبرز الأدلة على طريقة السياسة الصابرة المخططة عملية الخلاص من البرامكة وابعادهم عن السلطان في الدولة مرّة بعد مرّة قبل الخلاص النهائي منهم وعملية ولاية العهد الثلاثية وتوثيقها بين الاخوة وتعليقها في الكعبة لتأخذ الصبغة الدينية ، وإذاعتها في الناس لتكتسب الصفة الشعبية العامة .

وعملية القضاء على جيش خراسان البرمكي • وجعل الغزو والحج
عملين دوريين ••• وإذا نجحت مخططاته كلها عدا مايتعلق بمنع الخلاف
بين ولديه فلأنه مات فلم يستطع السيطرة على الظروف التي جرت بعد
موته وجعلت ذلك الخلاف محتوماً ••• ومامن شك في أنه استخدم
ونجح في استخدام كافة الاساليب والوسائل : العصا الغليظة والدين
والمال والسيف والمكر والكتمان والتجسس والتهديد لجعل مخططاته
السياسية كاملة النجاح •

وفاته : أخفى هرون علته بالسرطان ، إلا عن طبيبه ، واحتمل
ألمه في مثل جلد الراوقين – كما يقول فيلبي – وكان شاخصاً لنجدة
قائده هرثمة فيما وراء النهر حين اشتدت به علته في مدينة طوس ، ومات
فيها ودفن (صفر سنة ١٩٣) قريباً من البلد الذي ولد فيه دون أن يجاوز
كثيراً السادسة والأربعين !

الامين محمد بن هارون

(١٩٣ – ١٩٨ هـ) (٨٠٨ – ٨٣٣ م)

المامون عبد الله بن هارون

(١٩٨ – ٢١٨ هـ) (٨١٣ – ٨٣٣ م)

أخوان • ولد أولهما محمد بعد أخيه عبد الله بستة أشهر • وكان
عبد الله قد ولد ليلة استخلف الرشيد من إحدى جواريه (مراجل)
الفارسية • وأما والدته محمد فزبيدة حفيدة أبي جعفر المنصور •

وقد نشأ الولدان بين أيدي الترف ، إذن ، وتحت رقابة الخليفة
وزوجه • وعني الخليفة الرشيد خاصة بتربيتهما دون غيرهما من أولاده،
فاختار لهما في الأدب والعلم أكبر رجال عصره : فكان الاصمعي والكسائي

وقطرب النحوي وحماد عجرد لتأديب محمد ، وكان أبو محمد الزيدي والحسن اللؤلؤي لعبد الله • واختار لهما أعظم رجال الدولة ليتمرسا بالحكم فكان محمد في وصاية الفضل بن يحيى البرمكي وعبد الله عند جعفر بن يحيى •

وقد بكرت المنازعات تطوف بالأخوين ، إذ كان البلاط العباسي قد بدأ يشهد مولد حزين واضحين متنافسين ، لعلهما يرزا من زوجتي الرشيد الوالدين ومن وجود كتلتين من الرجال حول الخليفة : كتلة هاشمية عربية ، وأخرى برمكية فارسية •

وقد أرادت الكتلة الهاشمية ، وعلى رأسها زبيدة ، أن تسجل نصرا سياسياً تعتبره من حقها • ضد الكتلة الأخرى ، بإعلان ولاية العهد لمحمد الأمين (الهاشمي أمأ وأبأ) ، فعقد الرشيد الولاية له سنة ١٧٥ وعمر الأمين خمس سنوات • ولم تستطع الكتلة الفارسية أن تصل إلى نصر مماثل إلا في سنة ١٨٣ ، حين جعل الرشيد للمأمون وعمره ثلاث عشرة سنة ، ولاية العهد الثانية بعد أخيه • ثم جعل الولاية الثالثة لابنه القاسم ولقبه المؤتمن سنة ١٨٦ •

ويظهر أن الأمر قدحز في نفوس الحزب العربي وبلغ من خطره أن اضطر الرشيد في تلك السنة ١٨٦ ، أن يستوثق من كل أخ لأخيه في الكعبة نفسها ، حيث علق العهد بالتوليات • وزاد على ذلك بأن جعل لكل منهم ، ما يحكمه وما يتدرب به على الإدارة والحكم • فكان الأمين وكيل أبيه في بغداد حين غيابه ، بعد أن كان من قبل صاحب الجناح الغربي من الدولة • وكان للمأمون ولاية خراسان وجعل للمؤتمن الجزيرة والشعور • وإذا كان اختيار بغداد للأمين أمراً طبيعياً ، فإن اختيار

خراسان للمأمون - وهو ابن الفارسية - كان في الغالب نتيجة بعض
المساعي الفارسية في البلاط العباسي .

أخلاق وسياسة الأمين : تأثرت سياسة الأمين لحد كبير بأخلاقه
الشخصية وتصرفات حاشيته . على أن الصورة التي تروى عن تلك
الأخلاق في معظم الكتب التاريخية ، صورة مشوهة في الغالب ، وقد
لعبت الدعاية ، التي نستطيع أن ندعوها بالمأمونية أو الفارسية ، دوراً
كبيراً في تشويه سمعة الأمين . ولو راجعنا ماكتبه الطبري^(١) عنه ، لرأينا
عجباً من الاخبار التي لاتصدر إلا عن مافون ، أو من به لوثة : يذكرون
من قصص فسادده وخلقه المائع ، مثلاً أنه كان يصطاد السمك وبغداد
محاصرة من جيوش أخيه ، وجاءه من يخبره أن المدينة استسلمت فأجاب :
ويلك ! دعني فإن كوثر (خادمه) قد صادسمكتين وماصطدت غير
واحدة!!^(٢) .

ويذكرون أنه بعث ليلة تولى الخلافة ، في طلب الملهين من كل ناحية،
وأنه في اليوم التالي لبيعته أمر ببناء ميدان حول قصر الخلافة (قصر ابي
جعفر) للصوالة واللعب وأنه تسبب في معركة من أجل خادم جميل
تركي ، وأنه قاد بنفسه في ليلة أنس جوقة من مائة جارية^(٣) عدا مذكروا
من أخبار الحراقات التي ابتناها في دجلة على أشكال الحيوان وأخبار
المتنزعات والفسق النواصي وغيره . . . ويمكن أن نلخص تحامل المصادر

(١) ينقل بعض هذه الاخبار صاحب عصر المأمون (ج ١ ص ٢٠٠
بـ بعدها) .

(٢) هذه هي رواية المسعودي (مروج ٢/٣٠١-٣٠٢) والطبري يروي
مثلاً (ج ٨ ص ٣٩٥-٨٠٣/٣) ولكنه يذكر انها كانت حين وصل خبر هزيمة
جيشه امام أخيه .

(٣) انظر الاغانى ج ١٦ ص ١٣٣

التاريخية عليه في الكلمة التي لخص بها ابن الاثير أمره إذ قال : « لم نجد له ما نستحسنه فنذكره ! » • ويظهر أن أسباباً عديدة تدعو للشك في هذا الذي يروى • وأن أخلاق الأمين لم تكن من السوء بذلك الدرك، وإنما جاءت سمعته المشوهة من :

١ - **الدعاية المامونية** : ويسكن أن يعرف مقدار التلفيق في بعض أخبارها ، من عرض تلك الأخبار على النقد التاريخي • فهم يذكرون مثلاً من رأي الرشيد في ولديه • مارواه المسعودي ، من أنه قبل العهد للمأمون قال الرشيد عنه : « إني أَرْضَى سيرته وأحمد طريقته ، وأثق بحسن سياسته » • وقال عن محمد الأمين : « فيه مافيه من الانقياد لهواه والتبذير لما حوته يده ومشاركته النساء والإماء في رأيه » • وكان عمر الأخوين أقل من ١٣ و ١٢ سنة فقط !! •

ويذكرون كلمة مثلها للرشيد في ابنه الأمين قبل العهد له ولم يكن عمره آنذاك أكثر من خمس سنوات !

ويذكرون تأييداً لذلك ، حلاً منظم الرواية يقولون فيه : إن زبيدة رأت فيه ، فيما يرى النائم ، أربعة من الملائك يحفون بسرير ابنها وهو طفل ويقول أولهم : « ملك قصير العمر ، ضيق الصدر ، عظيم الكبر ، واهي الأمر ، كثير الوزر ، شديد الغدر » • ويقول الثاني : « ملك قصاف ، مبذر متلاف ، قليل الانصاف ، كثير الاتلاف » ويقول الثالث : « ملك ضخم ، قليل الحلم ، كثير الأثم ، قطوع للرحم » • ويقول الرابع : « ملك غدار ، كثير العثار ، سريع الدمار^(١) » • الخ • ويشبه أن يكون هذا الحلم بما فيه من صفات مسجوعة ، ملخصاً لرأي المصادر المختلفة في الأمين ، حبكها مؤلف متأخر العصر •

(١) يراجع في الاخبار الطوال للدينوري

٢ - المبالغة في أعمال الأمين : فليس غريباً على خليفة يأتي بعد الرشيد أن يمازج حياته شيء من اللهو ، وشيء من السرف في اللهو أيضاً . ولقد كان الأمين يلهو كأبيه ، فبالغوا في ذكر لهوه ليبرروا مصرعه على أيدي جنود أخيه .

وليس غريباً على الأمين أن يكون كريم اليد كغيره من الخلفاء العديدين ، إلا أن خسارته لقضيته جعلت من كرمه نقیصة من النقائص ، ولو نجح لكان ذلك فضيلة وعد من أسباب نجاحه . وكان طبيعياً الى هذا وذلك ، أن يستمع الأمين لحاشيته ، كغيره ، فلما انهزم اعتبر ذلك منقصة له ، وحملت عليه أخطاء حاشيته كلها .

٣ - أخلاق الأمين نفسه : فقد كان ميالاً للاستفادة من ترف الخلافة والقصص في ذلك عديدة ملونة . وكان قليل الحزم السياسي ، لا يفهم الوسطة التي تبررها الغاية . فقد كان ولداً أخيه المأمون ، عند الثورة واللجاج في العنف ، عنده في بغداد فرفض أن يقبض عليهما ويتخذهما رهائن لديه . ولقد ثار عليه الحسين بن علي بن عيسى ابن ماهان وخلعه فعفاً^(١) عنه وجعله قائداً له حتى فتكت به الحاشية فيما بعد ولو كان ذلك للمنصور لفتك به هو نفسه فوراً . وكان لا يحسن اختيار حاشيته ، حتى لقد انفضوا من حوله عند الشدة . كما كان يؤمن بالنجوم ، أكثر قليلاً من غيره ، وبكلمة واحدة كان غير ذي دربة في السياسة عامة أو على الأصح غير مهياً للسياسة المكيافيلية التي استخدمها أخوه المأمون أذكى الاستخدام ضده .

وقد خذله الناس لانه لم يعرف كيف يستغل نقاط القوة في موضعه ضد أخيه فظهر كأنه خذل دون سبب ..

وهكذا اذن لم يكن الامين بحيث وضعه المؤرخون من الفساد والبله • وخصومه قالوا عنه انه « مخذول » ولم يقولوا إنه « ضعيف » ولو نشرنا جميع اخباره في صعيد واحد لتبين لنا وجه آخر للأمين قلما انتبه له المؤرخون مع وجوده بين ايديهم • نقرأ مثلاً في وصيته لعلي ابن عيسى بن ماهان حين سار بالجيش الى خراسان ما يلي :

« •• امنع جندك من العبث بالريعية • والغارة على اهل القرى • وقطع الشجر • وانتهاك النساء ، وولّ الري يحيى بن علي • واضمم اليه جنداً كثيفاً ، ومره ليدفع الى الجند ارزاقهم مما يجيء من خراجها ، وولّ كل كورة ترحل عنها رجلاً من اصحابك • ومن خرج اليك من جند اهل خراسان ووجوهها فأظهر إكرامه ، وأحسن جائزته ، ولا تعاقب ائماً بأخيه ، وضع عن اهل خراسان ربع الخراج ، ولا تؤمن احداً رماك بسهم ، أو بأصحابك برمح^(١) •• »

ولدينا بعض الاخبار التي تذكر سهر الأمين الليل في إدارة الدولة وحزن بغداد عليه حين قتل كما أن في بعض مارثي به من الشعر دليلاً على بعض صفاته — برغم ما في الشعر من الكذب الحلال في العادة — : قالت لبابة بنت علي بن المهدي فيه :

ابيك لا للنعيم والانس بل للمعالي والرمح والترس
وقال الحسين بن الضحاك :

ياخير أسرته — وإن زعموا —
إنني عليك لمثت أسف
هتكوا بحرمتك التي هتكت
حرم الرسول ودونها السجف

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٠٦ (٣/٨١٩)

وقال :

سنندب بعدك الدنيا جواراً
ونتدب بعدك الدين المصوناً
هو الجبل الذي هوت المعالي
لهدته وريع الصالحونا

ومثل هذا الشعر جدير أن يكون من أقذع الهجاء لو صح ما يذكرونه عن الأمين من البله والتهتك والاهمال للدولة .

ومن هذا نستطيع أن نلخص الأمين في نقطتين :

الأولى : ميل الى اللهو اتج بعض الاهمال لمشاكل الدولة مما سمح للحاشية بالتدخل ، وسمح للحريم ، كزبيدة ، أن يكون لهن رأي وتفوذ في دست الحكم .

الثانية : فشل في اختيار الأعوان خاصة . لاحظ المأمون نفسه فذكره في كلمة أطلقها ليغسل يده من دم أخيه ويبرئ ساحته أمام التاريخ إذ قال :

« أما إنه أول من يؤخذ بدمه (دم الأمين) يوم القيامة ثلاثة : الفضل بن الربيع وبكر بن المعتز . والسندي بن شاهك . هم والله ثار أخي وعندهم دمه » .

وهذا الهرب من الجريمة ، رغم مافيه من محاولة التبرئة ، يستند الى واقع الأمر فأبرز رجال الأمين هم الفضل بن الربيع الذي اختبأ في الأزمة الاخيرة . والحسين بن علي بن عيسى الماهاني الذي ثار على الأمين في بغداد ثم قبض عليه وسجن والعباس بن عيسى بن موسى الذي

بايع المأمون سراً وصار عيناً له على الأمين ، يقول شاعر معاصر :

أضاع الخلافة غش الوزير
وفسق الامام وجهل المشير
ففضل وزير وبكر مشير
يريدان مافيه حتف الأمير

وقد وضع الأمين ثمن ذلك دمه • فقتله جند طاهر بن الحسين على
نهر دجلة !

سياسة المأمون : تجمع المصادر التاريخية على امتداح المأمون
منذ طفولته ووصفه بالذكاء الخارق • وتشبيهه بالمنصور في الدهاء
والتدبير مع العلم أن ثمة الكثير من الاشارات التي تؤكد أن المأمون
كان مكروهاً من الناس ولاسيما في بغداد وأنه كان يجد الرقاع بشتيه في
الطريق أو يسمعها بنفسه ولعله ظل منكسراً منذ علقت به جريمة قتل
أخيه •

ويمكن أن نجمل الخطوط السياسية الكبرى في عهده بنقاط أربع
كان لها أثر كبير ، لافي عهد المأمون فحسب ولكن في التاريخ الاسلامي
كله :

١- السياسة الغائية (المكيافلية) فقد استخدم كل وسيلة للوصول
الى غرضه بصرف النظر عن « اخلاقية » تلك الوسيلة • حارب بالدعاية
التي مايزال جناحها الأسود يلاحق الأمين في مصادر التاريخ الى اليوم •
واستغل أخيه ليرفع من مكانته هو عند الناس • وحالف العلويين
حين احتاجهم ثم لماضحوا عبئاً عليه ، عند انتقاله الى بغداد ، تخلص منهم

وسمى (علياً الرضى) احد ائمة العلويين وهو في الطريق بعد أن كان جعل له ولاية العهد من قبل • واستخدم بني سهل حتى اخذ الخلافة ثم نكبهم نكبة اعادت الى الازدهان بعض صبور النكبة البرمكية • واستفاد من خؤولته في أهل خراسان حتى صار الى بغداد فلما تمكن بها لم يعد يسأل عنهم !! ولعل أهم ما اصطنعه من الوسائل : التجسس والاستخبار على الناس بجهاز كامل واسع من المخبزين يقول ابن ظافر الازدي المؤرخ : « جعل المأمون برسم الأخبار ألف عجز بيغداد وسبع مائة عجز فما كان يخفى عنه شيء من أمور الناس ظاهراً وباطناً • وكان لا ينام كل ليلة حتى يقف على جميعها ... » (١)

٢ - مزج الدين بالدولة مزجاً لعله اقتبس فكرته عن بيزنطة في تلك الأحيان بالذات حين كانت المشكلة اللاأيقونية على أشدها أو عن المثل الساساني بتنظيم الزرادشتية في ظل الأكاسرة فقد أعلن المأمون تبني الدولة رسمياً للمبدأ الاعتزالي في (خلق القرآن) وفرض هذا المبدأ على الناس بالقوة وحملهم عليه مرغمين وعقد له مجالس الجدل • حتى لقد أضيف ذلك القول الى الشهادة بالوحدانية (لا إله إلا الله صاحب القرآن المخلوق !!) وعزل من لا يقول بذلك من القضاة وأهين • ولأول مرة يتدخل خليفة المسلمين في أمر العقيدة هذا التدخل الاساسي العنيف ولأول مرة يصدر أمر من أمير المؤمنين باعتراف فكرة معينة واعتبارها مذهب الدولة الرسمي الذي يعاقب مخالفوه • وقد كان الخليفة قبله يشرف على تطبيق أحكام الدين واعلاء كلمته فأصبح المأمون فقيه الدولة الرسمي !

(١) انظر ابن ظافر الازدي - الدول المنقطعة (مخطوط المتحف البريطاني) ورقة ١١٧ ظهر •

٣ - افساح المجال للفرس أول الأمر ثم اهمالهم في الدولة : فقد كانت ام المأمون فارسية • ونشأ الفتى ليرى نفسه وسط حزب فارسي في البلاط الخلافي ، ثم كان مقر عمله في خراسان حتى استخلف ومعظم من كان في حاشيته كان من الفرس وأبرزهم الفضل بن سهل الذي بلغ من أثره أن اعتبر المؤرخون الخلافة بين ولدي الرشيد خلافاً بين الفضلين (ابن الربيع وابن سهل) واعتبروا نصر المأمون نصراً للفرس على العرب • ولكن المأمون لم يحقق للفرس (او لبعض الطامحين منهم على الأقل) غايتهم في النهاية فتحول بعد سنوات من خلافته عن خراسان كلها وعن الفرس جميعاً فانتقل الى العراق وأهمل الخراسانيين فكان ذلك خاتمة عهد التعاون بين اهل خراسان والعباسيين • كما كانت نكته لبني سهل الذين كانوا يمثلون الأرستقراطية الفارسية نهاية اتفاق تلك الأرستقراطية مع الخلافة العباسية وبدء اتفاقها مع الجماهير الفارسية ضدها لا سيما بعد أن يئست هذه الجماهير من الرفاه العباسي المأمول • وبهذا الشكل بدأت تنشأ الإمارات شبه المستقلة في إيران (كالطاهرية والصفارية والسامانية) وبلغت الحركة الانفصالية أوجها بظهور البويهيين ثم دخولهم بغداد سنة ٣٣٤هـ والسيطرة بالعكس على الكرسي الخلافي كله وماضم !

٤ - تألف القلوب بالعفو والعطاء : وهو مذهب في السياسة عرف عن المأمون وسجله له المؤرخون • يقول اليعقوبي : « وكان أكرم الناس عفواً وأحسنهم مقدرة وأجودهم بالمال وأبذلهم للعطايا •• » ثم يعدد من عفوه سبع عشرة حادثة يستحق صاحب كل واحدة منها لدى أمثال المنصور القتل ولكنها قوبلت من المأمون بالعفو : كالذي كان من العفو عن ابراهيم المهدي وقد بقي خليفة سنتين ، وعن نعيم بن حازم الذي حاربه سنتين وعن سهل بن سلامة المطوعي الذي كان يدعو الناس

لخلعه وعن مهدي بن علوان الخارجي الذي حاربه وعن دعبل الشاعر الذي هجاه وعن عدد من العلويين الثائرين وعدد من المتسلطين في الاقاليم... كما عدد اليعقوبي أخبار جوده بالمال لدرجة إفراغ بيت المال وذكر أنه أمر في يوم واحد لثلاثة نفر بألف ألف دينار وخمس مائة ألف دينار لكل واحد خمس مائة ألف دينار ثم جاءه بعده ذلك مال خراسان وكان على عزم أن يستقرض عشرة ملايين درهم من التجار ، وكان هذا المال ثلاثين مليون درهم فركب ليراها ولم يعد من رؤيتها الا وقد فرقها جميعا وهو راكب... ثم عاد^(١) وأعطى مرة عامله ابن عباد على الهند ستة ملايين درهم كان عاد بها اليه .

هـ - العناية بالعلم والعلماء : فقد كان للمأمون ولعه الشخصي بالامور العلمية الفلسفية وكان يعقد مجالس المناظرة في حضرته ويبحث في طلب العلماء الاعلام لحضورها حتى من يزنطة ، وكان يتصيد الكتب النادرة ويدفع فيها المبالغ الطائلة ويجعل بعضها شرطاً من شروط الهدنة مع الروم كما اقام (دار الحكمة) فجمع فيه مكتبة ضخمة هائلة وجهازاً كبيراً للترجمة من مختلف اللغات الى اللغة العربية ، حشد له حوالي سبعين مترجماً . ولقد أدى هذا العمل الى ظهور عصر الترجمة الثاني ، في تاريخ الفكر الاسلامي أو الى التعجيل في ظهوره على الاقل كما مزج الثقافات المختلفة مزجاً قوياً وأغنى اللغة العربية بتراث فكري واسع وعجل كثيراً في ظهور ما نسميه بالثقافة الاسلامية .

وفاته : بالرغم من أن المأمون كان عالماً ولم يكن محارباً إلا أنه قضى له أن يتوفى وهو في الطريق الى عمل حربي . فقد حم في بعض دروب الروم وتوفي فدفن بطرطوس سنة ٨٢١٨ هـ .

(١) انظر اليعقوبي - مشاكلة الناس لزمانهم (تحقيق وليم ميلورد - بيروت سنة ١٩٦٢) ص ٢٨-٣٠ وانظر كذلك الطبري ج ٨ ص ٦٥٢-٦٥٣ (١١٤٣/٣-١١٤٤)

الفصل التاسع

مشاكل الحكم ١- ولاية العهد

برزت في فترة الاستقرار هذه من العصر العباسي الاول ، مشاكل الحكم إلى المرتبة الاولى • فأصبحت أهم قضايا الدولة • ولعل أبرزها: مشكلة ولاية العهد ومشكلة الاسر الوزارية الايرانية • وكان لدسائس رجال البلاط في الحاليين وتناحرهم اكبر الدور في تلك المشاكل •

ولاية العهد :

المهدي وولاية العهد : إذا كانت المشكلة السياسية الاولى في العهود الاسلامية هي مشكلة الخلافة فان أبرز مظهر من مظاهرها عدم وضع نظام ثابت لولاية العهد • وإذا كان من العرف الملكي المتبع والمقبول أن يلي الابن الأكبر أباه في الحكم فان من غلطات الخلفاء ، منذ العهد الاموي ، أنهم كانوا ينساقون مع العواطف الابوية فيعهدون بالولاية الى ولدين أو أكثر من أولادهم بالتتابع مما يوجد بذور الحقد في الاسرة لأن الابن الذي يصل الحكم دوماً يفضل ابنه على اخيه • وإذا لم يفعل

ذلك أبو العباس فقد فعله أبو جعفر واستطاع إزاحة عيسى بن موسى (المعين من قبل أبي العباس معه لولاية عهده) لمصلحة ابنه محمد المهدي على أن يكون عيسى من بعده .

وواجه المهدي منذ الايام الاولى لخلافته مشكلة إزاحة عيسى مرة أخرى لمصلحة ابنه الفتى موسى (الهادي) وتكررت مرة أخرى قصة عيسى مع المنصور بحذافيرها .

كان عيسى ليلة وفاة المنصور قد تمنع عن مبايعة المهدي . « فاقبل القواد الذين حضروا يقربون ويتباعدون ... فنهض علي بن عيسى بن ماهان فاستل سيفه ثم جاء إليه فقال : والله لتبايعن أولاً ضربن عنقك . فلما رأى عيسى ذلك بايع وبايع الناس بعده ... »^(١) ولعل هذا كان السبب في استعجال المهدي بإزاحة عيسى نهائياً عن ولاية العهد . فتحرك وتحرك معه بعض بني هاشم وشيعتهم من خراسان في ذلك ... بعد أن رسم لهم المنصور الطريق بالدعاية المبدئية للامر . ويقصر الخبر اسماع عيسى فيتهياً للرفض والمقاومة وجمع الأنصار ويبدو أنه كان في بني هاشم من يؤيده وقد تلكأ بعضهم في بيعة المهدي لولا أن الربيع الذي كان يعرف دخائل نفوسهم جمعهم ساعة موت المنصور فأوهمهم أنه حي وأن لديه وصية منه قرأها عليهم وأخذ البيعة منهم للمهدي أولاً ثم كشف لهم عن موت الخليفة بعد ذلك^(٢)

على أن المهدي لم يمهل عيسى وأسرع في مفاتحته بالتنازل وهو

(١) انظر الطبري ج ٨ ص ١١٢ (٣/٤٥٥)

(٢) الطبري ج ٨ ص ١١١ (٣/٤٥٤)

في ضيعة له بالرحبة على الفرات • وكان طبيعياً أن يأتي الجواب بالرفض • فدعاه المهدي أن يأتي بغداد فلم يفعل مخافة الغدر به • وتكررت المفاوضة والرسل بين الطرفين وكتب المهدي كما يقول الطبري الى عيسى يقول: «... إنك إن لم تجبني إلى أن تنخلع منها حتى أبايع لموسى... استحللت منك بمعصيتك ما يستحل من العاصي وإن أجبتني عوضتك منها ما هو أجدى عليك وأعجل نفعاً...»^(١) وعرض عليه مبلغ عشرة آلاف درهم ويقال عشرين وقطائع كثيرة ..

وطالت المفاوضة دون طائل • واستقر عيسى في الكوفة فأرسل إليه المهدي عمه العباس بن محمد يقنعه فلما أصر على الرفض أرسل إليه بقائده أبي هريرة محمد بن فروخ الأزدي يأتي به طوعاً أو كرهاً ، ومعه ألف رجل من أصحابه من ذوي البصيرة في التشيع (لبني العباس) وجعل مع كل رجل منهم طبلاً • فدخل الكوفة ليلاً في وجه الصبح وضرب أصحابه بطبولهم جميعاً (في وقت واحد) فراع ذلك موسى روعاً شديداً ثم دخل عليه أبو هريرة فأمره بالشخص فاشتكى العلة فلم يقبل ذلك منه وأشخصه من ساعته الى مدينة السلام ... »

وفي السادس من محرم سنة ١٦٠ وصل قصر الخليفة واستقبله ولكنه لم يكلمه في الأمر وتركه للحرب النفسية والتهديد والشتائم يشنها عليه أنصار المهدي أياماً متتالية^(٢) حتى هدد بالقتل والاهانة فارتضى الخلع في ٢٦ محرم وخطب بذلك في المسجد الجامع وكتب العهد بالتنازل

(١) الطبري ج ٨ ص ١٢١ - ١٢٣ (٣/٤٦٧-٤٦٩)

(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ١٢٤-١٢٨ (٣/٤٧١-٦) وقد ذكر الطبري

نص وثيقة التنازل أيضاً .

في صفر سنة ١٦٠ وعاد بالمال لينزوي في قصره بالكوفة ... وأعلنت
البيعة بولاية العهد لموسى الهادي وكتب إلى الآفاق يأخذ البيعة له ...

وقد لام الكثيرون عيسى على موقفه الذي باع فيه حقه وقال
شاعرهم :

كره الموت أبو موسى وقد
كان في الموت نجاء وكرم
خلع الملك وأضحى ملبساً
ثوب لوم ماترى منه القدم ...

والحقيقة أن عيسى كان في جوالي الستين من العمر ولم يكن
له مع شباب المهدي وقوة سطوته ومظاهرة الناس والقوى له من أمل
كبير في أن يخلعه بعده من الخلافة إلا بصدفة يختصر فيها المدي اختصاراً
ولهذا أثر العافية مرغماً ... ولقد توفي فعلاً في خلافة المهدي سنة ١٦٧
فلم يشهد خلافة الهادي من بعده .

ولقد أخطأ المهدي بعد ذلك خطيئة بعض الخلفاء غيره فخضع
لتأثير زوجته الخيزران ولعواطف الابوة معا ولدسائس الحاشية فعقد
ولاية العهد الثانية بعد ابنه موسى لابنه هارون في رجب سنة ١٦٦/
شباط ٧٨٣ . وقد لعب الدور في هذه التسمية أمه الخيزران ويحيى
ابن خالد البرمكي و ... النصر الذي انتصره هارون على الروم تلك
السنة . وقد لقبه أبوه في حفل ولاية العهد بالمسجد الجامع أمام أمراء
بني هاشم وقواد الدولة ورجالها بالرشيد ! .

ويبدو بوضوح أن النصر الذي حققته الخيزران وحزبها بايصال

الرشيـد إلى ولاية العهد الثانية لم يكن المطمح الوحيد الذي يرجونه فما كادوا ينتهون من هذه الخطوة حتى بدأوا يهيئون للخطوة التالية :تقديمه على أخيه ولي العهد الاول ويبدو أن المهدي نفسه لم يكن يمانع في هذه الفكرة أو أنه على الأقل كان يرى قوة الجماعة المؤيدة لهارون فيسايرها بينما كان موسى الهادي ، في جرجان يحارب بعض الثائرين فيها . وبالرغم من أن حزبه كان يضم عددا من أمراء بني العباس (عبد الملك بن صالح موسى بن عيسى ، العباس بن محمد) كما يضم بعض كبار الدولة (ابان بن صدقة ، الفضل بن الربيع ، علي بن عيسى بن ماهان) وبعض كبار القواد (يزيد بن مزيد الشيباني ، محمد بن فروج الازدي ، عبد الله بن علاثة ، عبد الله بن خازم) إلا إن غيابه عن العاصمة كان يترك المجال واسعا لحزب هارون .

وخطى المهدي خطواته الاولى في هذا السبيل مع أنه كان يعلم من تجربته الخاصة ماذا تعني تلك الخطوة فانه سمع مرة خطأ بأن أباه المنصور يفكر بنقل الخلافة الى ابنه الآخر جعفر (المعروف بالاصغر) فارسل الى أبيه يقول : « والله إن فعلت ذلك لاقتلته وقال المنصور : لقد سعت خطأ ونحن أشفق على جعفر من أن نعرضه لك^(١) . . . » وأرسل المهدي الى ابنه بجرجان « بعض أهل بيته ليقطع أمر البيعة ويقدم الرشيـد فلم يفعل . . . فبعث إليه المهدي بعض الموالي فامتنع عليه موسى من القدوم وضرب الرسول . . . »^(٢) ولم يجد المهدي بدا من الخروج بنفسه لاقناع ابنه بما يريد . . . ولم يكن قد جاوز بغداد بعيدا حين . . . مات

(١) الطبري ج ٨ ص ٦٨-٦٩ (٣/٤٠٠)

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٦٨ (٣/٥٢٣)

فجأة كان قد عسكر في ماسبذان قرب النهر وان وتمت عليه دون شك هناك المؤامرة « البلاطية » من حزب الهادي . ولا يصرح المؤرخون بهذه المؤامرة ولكن اختلافهم في تعليل موته المفاجيء يكشف الريبة التي لا يصرحون بها ، وتخطب الروايات ناجم دون شك عن تعمد الرواة الاوائل لهذا الحادث اضاءة آثار المؤامرة . فتارة أن المهدي طرد ظبياً في الصيد فسقط عن فرسه وهو يطارده وتارة أنه مات في كمثرية مسمومة وأخرى من لوزينج مسموم ويبدو أن الرواية الاخيرة كانت الاكثر شيوعاً بين الناس لان الجهشياري يذكر في بعض الحديث : « أن المهدي أكل من اللوزينج المسموم المشهور خبره فمات من وقته . ويقال من الكمثرى . . . »^(١) .

وليس طبعياً أن تظل أسباب موت خليفة الناس في ذلك الوقت مجهولة لولا أن مصالح معينة لمن جاؤوا بعده كانت تقضي ببقائها مجهولة وقد أشارت المصادر إلى مخاوف بعض هذه الجماعات كما ذكرت حدوث الشغب والاحراق لأبواب بعض الكبراء في بغداد^(٢) ولكن الاموال التي وزعت غطت على كل شيء ويلاحظ أن مؤلف كتاب الامامة والسياسة يتهم الهادي بصراحة أنه « دس على أبيه بعض الجواري المتمكنات منه فسمته » وأن المهدي أحس بمؤامرة ابنه الهادي^(٣) .

(١) الجهشياري - الوزراء والكتاب ص ١٦٨

(٢) انظر الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة الدينوري ج ٢

ص ٢٩٠ و ٢٩١

(٣) انظر الطبري ج ٨ ص ١٨٧-١٨٨ (٣/٥٤٥-٥٤٧)

ويبدو أن هذه الجريمة المptomose المعالم لم تكن الوحيدة التي تسببت فيها مشكلة ولاية العهد فان الهادي نفسه كان ضحية الجريمة التالية ... المptomose المعالم بدورها أيضاً : فالذي يظهر من الاحداث أن حزب الرشيد وعلى رأسه يحيى بن خالد البرمكي أراد فوراً التصرف بحكمة والاحتياط والحيلولة دون حرب أهلية تمزق الدولة بعد أن فشل مشروع نقل ولاية العهد بالقوة الى الرشيد .

وبعد أن سجل الحزب الآخر نصره بمصرع المهدي نفسه ، لاسيما وان ما كان يسعى اليه الرشيد قد حصل فعلاً الآن . فهو ولي العهد الفعلي والأول للخليفة الجديد الهادي . وهكذا فيما يبدو وطد الرشيد الأمور لأخيه في بغداد وأخذله البيعة من الناس وبعث إليه بشعائر الخلافة مع البيعة ... فلما عاد الهادي من جرجان بعد ١٨ يوماً الى عاصمته كان يحيى بن خالد البرمكي أول من قدم له آيات الولاء والخضوع والبيعة .

الهادي وولاية العهد : وخلافة الهادي القصيرة تميزت فيما يتعلق بولاية العهد بامرين :

الاول إزاحته لنفوذ أمه الخيزران وضغطه الشديد على حزبها وتدخله في الدولة .

الثاني : محاولة التخلص من ولاية عهد أخيه وتحويلها ، كالعادة ، الى ابنه جعفر .

وعادت المشكلة من جديد حين استشار الهادي أصحابه في عزل أخيه وتقديم ابنه جعفر وكان لايزيد في العمر على ثماني سنوات . ومع أن بعض الحاشية من أمثال يزيد بن مزيد الشيباني ومحمد بن فروخ الأزدي وعلي بن عيسى بن ماهان وافقوا على ذلك وبرروه بأن يحيى

ابن خالد متسلط على الرشيد وأن الملك لا يصلح إن انتقل إليه وهذا بجانبه^(١) إلا أن آخرين لم ينصحوا الهادي بذلك وبرزهم الفضل بن الربيع صاحب الهادي المقرب إليه وإبراهيم بن ذكوان الحراني من رجاله البارزين الذين أغضبوا أباه المهدي من أجله . وكان الفضل يحب الرشيد ويتودد الى زوجه زبيدة لفضل جدها المنصور عليه وعلى أبيه الربيع بن يونس كما كان إبراهيم الحراني يسيل الى يحيى البرمكي وقد عين له بعض أنصاره (اسماعيل بن صبيح) على زمام الشام فكان ينقل أخبار الهادي وجماعته الى البرمكي^(٢)

ولكن الهادي صمم على خطوته وطلب من أخيه هارون التنازل طوعا مع الوعد بالخير الجزيل ، على العادة الدائسة وعزم هارون على إجابته فمنعه يحيى بن خالد وقال : « إنها الخلافة ولعل ماتقدر أنه يبقى لك (من المال والاقطاع) لا يبقى ولم يزل به حتى ثبته »^(٣)

وسمع الهادي بذلك فاستدعى البرمكي وأكرمه بالاقطاع والمال « ثم ناظره في خلع هارون فقال له : ياأمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم أيمانهم وجرأتهم على حل العقود التي تعقد لهم ولو تركت الامر في بيعة أخيك بحاله وبويع لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته فقال له : صدقت ونصحت^(٤) »

على أن الهادي إن كان اقتنع عقلا فانه لم يقتنع عاطفة » ولم

(١) انظر اليعقوبي - ج ٢ ص ٤٩٠

(٢) الجهشياري - الوزراء والكتاب ص ١٦٨

(٣) المصدر ذاته ص ١٦٩ والطبري ج ٨ ص ٢٠٨ (٥٧٣/٣) .

(٤) الجهشياري ص ١٧٠ والطبري ص ٢٠٩

تطب نفسه فدعا يحيى فحبسه . . . » ثم خلاه ودعا اليه وسأله رأييه فقال يحيى : « . . . أرايت إن كان ما تعوذ بالله منه قبل بلوغ جعفر ، وقد خلعت هارون هل تتم الخلافة لمن لم يبلغ الحلم ؟ قال لا : قال فدع هذا الامر حتى يبلغ جعفر . فاذا بلغنا الله ذلك فعلى أن آخذ بيد هارون حتى يبايعه عفواً . . . والله والله يا أمير المؤمنين إن فعلت هذا وحدث ما نعوذ منه وثب على هذا الامر أكابر أهلك . وخرج الامر من ولد أهلك . والله لو لم يعقد المهدي لهارون لوجب أن تعقدله ليكون في بني أهلك . . . » (١)

ولكن هذه الحجج كلها لم يكن من شأنها إلا تأجيل المشكلة لا حلها وصرح الهادي عن موقفه وأطلق لحاشيته حرية التعبير عن موقفها المعادي للرشيدي حين أمر بأن لا يسار أمام موكبه بحربة . على العادة في مواكب أولياء العهود . وكان ذلك ايذاناً بمرحلة الاضطهاد العلني تعرض لها الرشيدي فكان « شيعة الهادي يتكلمون في أمره ويتنقصونه في مجلس الجماعة ويقولون : لا نرضى به . . . حتى اجتنبه الناس وتركوه فلم يكن أحد يجترى أن يسلم عليه ولا يقربه » (٢) ومع أن الهادي شغل عن أخيه بثورة الحسين بن علي بن الحسن سنة ١٦٩ إلا أن انتصاره السريع عليها في (موقعة فخ أعاده إلى الاهتمام بأمر ولاية العهد بشكل جدي حاسم وعزم بتحريض « جماعة من مواليه وقواده » على خلع الرشيدي أجابه الى الخلع أو لم يجبه . واشتد غضبه منه وضيق عليه . . وقال يحيى (البرمكي) لهارون : « استأذنه في الخروج للصيد فاذا خرجت فاستبعد ودافع الايام . . . » وهكذا كان فلما انكر الهادي غيابه جعل يكتب إليه فيتعلل حتى تفاقم الامر وأظهر شتمه وبسط مواليه

(١) المصادر ذاتها ص ١٧١ وص ٢١٠

(٢) الطبري ج ٨ ص ٢٠٧ (٣/٥٧٢) .

وقواده ألسنتهم فيه • وخافت الخيزران على ابنها الرشيد وقد بعث يشكو إليها تصرف أخيه معه ، وكانت قد خاصمت الهادي لا تكلمه حياتها فبعثت الى يحيى البرمكي تقول : « الله الله في ابني لا تقتله ودعه يجيب أخاه الى ما يسأله ويريده منه فبقاؤه أحب إلي من الدنيا بجميع ما فيها فصاح بها •• وما أنت وهذا • إن يكن ما تقولين فاني وولدي وأهلي سنقتل قبله •• فان اتهمت عليه فلست متهماً على نفسي ولا عليهم •• » •

وكان الهادي ، في الواقع ، قليل الحظ من الرجال الناصحين المتمرسين بالعمل السياسي • لأن أبان بن صدقة مريه ورجله ووزيره الاول مات في جرحان قبل خلافته ، والربيع بن يونس وزير المنصور والمهدي مات بعد أشهر معدودة من خلافته وعبيد الله زياد بن أبي ليلى مات كذلك ••• ثم يفاجأ الناس بعد ذلك بخبر موت الهادي وهو بعد في الثالثة والعشرين من العمر بينما كان جو الازمة بينه وبين أخيه قد بلغ الذروة ! ••

وتفاصيل الامر تتلخص في أن الهادي : خلع أخاه الرشيد أولاً عن ولاية غرب الدولة الاسلامية وعين لها القائد محمداً بن فروخ الازدي فسار بجيوشه عن طريق الشام على الفور ثم استدعى يحيى البرمكي فاشتد في تأنيبه وشتمه قائلاً : ترضى هارون للخلافة ونفسك للوزارة ؟ « والله لآتين على نفسك ونفسي قبل ذلك »^(١) ثم أمر بحبسه في موضع لا يكاد يمد فيه رجله وشفع به ابراهيم الحراشي فنقل الى سجن آخر • وسمعت الخيزران بالخبر وخشيت عواقب العصيان على الرشيد فاستدعته

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٩٠

الى بغداد . فلقى أخاه . وعرف أنه معزول عن العهد حين خرج مع ابن أخيه جعفر في موكب فلما قارباً قنطرة النهر وتقدم لاجتيازه اتهمه قائد الموكب أبو عصمة وقال : مكانك حتى يجوز ولي العهد (١) .

ولم يمض كبير وقت بعد ذلك حتى أمر به الهادي فسجن في سجن خاص يشرف عليه سجان المنصور والمهدي القديم : سلامة الأبرش ومنعت عنه الزيارة . وبايع الجماعة لجعفر بن الهادي في بغداد .

وفي ذلك الوقت فيما يقولون وبينما كان الهادي يبحث مع حاشيته في قتل يحيى البرمكي والرشيدي (٢) ، دخل بيته فلم يخرج ! ويقولون انه مرض ثلاثة أيام فمات .

ولكنهم في الوقت نفسه يعطون ذلك الحادث الشكل التنبؤي إذ يذكرون أن حلاًماً رآه المهدي كان يتنبأ بقصر عهد الهادي أو أن المنجمين قالوه . ويعزون الى يحيى بن خالد البرمكي أنه قال للرشيدي حين نصحه بالغياب عن بغداد للصيد : « ... واعلم ان مدة موسى قصيرة على ما أوجبه قضية المولد » (٣) .

كما يذكرون أن الخيزران حين سمعت بمرض الهادي أرسلت الى يحيى البرمكي في سجنه تقول : « إن الرجل صائر الى ما به فاستعد لما ينبغي ... » (٤) . ويقول ابن الاثير إن الخيزران أرسلت الى يحيى

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٣٢ (٦٠٢/٣) .

(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ٣٢٠ (٦٠٠/٣) .

(٣) المسعودي مروج الذهب ج ٣ ص ٣٤٣ و ٣٤٤ و ٣٤٥ (طبعة

محي الدين عبد الحميد) وانظر ابن الاثير ج ٦ ص ٩٧ - ٩٨

(٤) الطبري ج ٨ ص ٢١٢ (٥٧٨/٣) .

تأمره بالاستعداد فأحضر يحيى كتابا فكتبوا الكتب من الرشيد الى العمال بوفاة الهادي وأنه قد ولاهم ما كان وما يكون فلما مات الهادي سيرت الكتب !» (١) • ويضيف ابن الاثير والطبري إنه « لما مات الهادي قالت الخيزران : قد كنا نتحدث أنه يموت في هذه الليلة خليفة ويملك خليفة ويولد خليفة (إذ ولد في تلك الليلة المأمون) ••• (٢) » • ولما مات الهادي كان أول من استدعته الخيزران من السجن يحيى بن خالد البرمكي • روى هو نفسه الامر قال : « ••• حبست وقد أيقنت من الموت • فأنا مفكر في ليلتي ما يجيئني الغمض حتى سمعت صوت القفل فقدرت ••• أن موسى (الهادي) دعاني ليقتلني فاذا بخادم يقول لي : السيدة تريدك • فأتيت الخيزران فقالت لي : ان هذا الرجل قد مات • ونحن نساء فادخل فأصلح من أمره فدخلت •• وإذا بأمة العزيز تبكي عند رأسه وهو ميت فغمضته وانطلقت الى (قصر) الخلد أريد الرشيد ••• » (٣) •

وهذه الاخبار كلها قرائن على أن شيئاً ما قد كان في القصر • ولكن خلافة الرشيد ثم عصر الرشيد الطويل المتألق قد غطى على حقيقته ••• ويكشف الطبري جانباً مما كان إذ يقول : « قال بعضهم : كانت وقاته من قرحة كانت في جوفه وقال آخرون كانت وفاته من قبل جوار لأمه الخيزران كانت امرتهن بقتله لاسباب نذكر بعضها ••• (منها) أن الهادي نابذ أمه ونافرها ••• » • ومنعها التدخل في أمور الدولة • يقول الطبري : « وحدثني بعض الهاشميين أن سبب موت الهادي كان أنه لما

(١) ابن الاثير ج ٦ ص ٩٩

(٢) انظر المصدر السابق وانظر الطبري ج ٨ ص ٢١٢ (٣/٥٧٩) •

(٣) الجهشيار ص ١٧٥

جد في خلع هارون والبيعة لابنه جعفر وخافت الخيزران على هارون منه
دست إليه من جواربها لما مرض من قتله بالضم والجلوس على وجهه •
ووجهت الى يحيى بن خالد أن الرجل قد توفى فاجدد في أمرك
ولا تقصر...»^(١) •

وبسقتل الهادي رد حزب الخيزران بسرعة على الضربة التي وجهها
اليه حزب الهادي يوم مصرع المهدي ، وقد كان الرد من السرعة والمفاجأة
بحيث لم يترك لحزب الهادي مجال التفكير في موقف آخر سوى التسليم ،
ولا شك أن الجريمتين اللتين توالتا في سنتين متواليتين ١٦٩ و ١٧٠
وذهبتا بخليفتين من خلفاء البيت العباسي كاتتا أول الوهن في الدولة
العباسية وطلائع المصارع التي سوف تذهب مع رؤوس الخلفاء بهيبة
الخلافة وتفوذها وتفتح باب الجرأة على ذلك المقام الاول • ولقد
كان بإمكان هذين الحادئين أن يهزا الدولة العباسية هزة عنيفة لولا أنها
كانت في تلك الفترة في أوج قوتها ولو لا أن مدبري المؤامرتين من
الحزبين المتصارعين تحلوا بالكثير من الحكمة ومن التكتم •

الرشيد وولاية العهد : وتولى الرشيد الخلافة وامتدت خلافته
ولكنه بدوره أيضا لم يتعظ في أمر ولاية العهد بنفسه وأبيه وارتكب
الغلطة ذاتها بتولية ابنائه الثلاثة : الامين ثم المأمون ثم القاسم أحدهم
بعد الآخر لولاية العهد بالتتالي ، ولم يكن القاسم مشكلة لأنه لم يكن
بذئ حزب قوي واضح بعد أن خضدت شوكة حاميه عبد الملك بن

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ (٣/٦٩ - ٥٧٠) •

(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ٤٣٩ ثم ص ٤٤٥

صالح في السجن فترة طويلة حتى من عليه الامين بالافراج وقد استطاع الامين حين استخلف أن يتخلص تخلصا هينا من القاسم • أما محاولته التخلص من أخيه المأمون والبيعة لابنه موسى الناطق بالحق فقد كلفته عرشه وحياته معاً وكانت من أكبر الهزات التي تناولت العرش العباسي كما كانت واحدة من اكبر مشاكل ولاية العهد في التاريخ الاسلامي •

خلاف الأمين والمأمون : وعوامل الخلاف الذي دام خمس سنوات بين الاخوين ترجع في التحليل الاخير إلى :

١ - ظروفهما من جهة •

٢ - تديرهما أحدهما تجاه الآخر من جهة أخرى :

أولاً - كانت الظروف التي وجد فيها الاخوان تهياً للخلاف بينها فقد كان صغر ولدي الرشيد (محمد وعبد الله) أول أيام خلافته سبباً في طمع بعض بني العباس بولاية العهد والطبري يذكر ذلك بصراحة^(١) بقوله : « وكانت جماعة بني العباس قد مدوا أعناقهم إلى الخلافة لأنه لم يكن له ولي عهد » فجعل الرشيد يفكر في الأمر واستطاعت جماعة بني هاشم أن تؤثر عليه حسب رواية الأربلي^(٢) الذي يقول على لسان الرشيد « ولو لا أم جعفر وميل بني هاشم اليه (إلى الأمين) لقدمت عبد الله عليه » ويؤيد ذلك المسعودي^(٣) الذي ذكر ان سبب البيعة للأمين أن بني هاشم « مائلون إلى محمد بأهوائهم » •

(١) الطبري ج ١٠ ص ٥٣ (الطبعة الحسينية) .

(٢) الأربلي الدر المسبوك ص ٨٧

(٣) المسعودي ج ٣ ص ٢٧١

فَعَقَدَ الرَّشِيدُ لَابْنَهُ هَذَا « وَلَهُ يَوْمُئِذٍ خَمْسُ سِنِينَ » وَانْكَرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ بَعْضُ بَنِي الْعَبَّاسِ حَسَبَ رِوَايَةِ الطَّبْرِيِّ لَصَغُرِ سِنِ الْأَمِينِ •

ثُمَّ عَقَدَ الرَّشِيدُ سَنَةَ ١٨٣ لَابْنَهُ الثَّانِي الْمَأْمُونُ بَوَلَايَةَ الْعَهْدِ الثَّانِيَةِ بِتَأْثِيرِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى الْبُرْمَكِيِّ كَمَا يَرَوِي الطَّبْرِيُّ فِي كَلِمَةٍ عَلَى لِسَانِ الْأَمِينِ : « إِنْ رَأَى الرَّشِيدُ (فِي بَيْعَةِ الْمَأْمُونِ) كَانَ غَلْطَةً شَبَّهَهَا عَلَيْهِ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بِسَحْرِهِ وَاسْتِمَالِهِ بِرِقَاهُ » وَلَا عِلَاقَةَ لِأَخْلَاقِ الْأَمِينِ بِهَذِهِ الْبَيْعَةِ إِذْ كَانَ مِنْ صَغُرِ الْعُمُرِ (١٣ سَنَةً) بِحَيْثُ لَا يَعْرِفُ خَيْرَهُ مِنْ شَرِّهِ وَلَا مَيُوعَتَهُ مِنْ حَزْمِهِ • وَلَعَلَّ الْأَصْحَحَ أَنْ يَنْسَبَ عَزْمُ الرَّشِيدِ هَذَا إِلَى رَغْبَتِهِ فِي حِفْظِ الْخِلَافَةِ فِي سُلَالَتِهِ دُونَ بَاقِي بَنِي الْعَبَّاسِ •

ثُمَّ عَقَدَ الرَّشِيدُ لِلْأَخِ الثَّالِثِ الْقَاسِمِ (الْمُؤْتَمِنِ) سَنَةَ ١٨٦ هـ وَبِتَأْثِيرِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ صَالِحِ الْعَبَّاسِيِّ الَّذِي كَتَبَ لِلرَّشِيدِ - وَكَانَ الْقَاسِمُ فِي حَجَرِهِ يَرِيهِ - :

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي	لَوْ كَانَ نَجْمًا كَانَ سَعْدًا
اعْقُدْ لِقَاسِمِ بَيْعَةٍ	وَاقْدَحْ لَهُ فِي الْمَلِكِ زَنْدًا
اللَّهُ فَفَرْدٌ وَاحِدٌ	فَاجْعَلْ وَلَاةَ الْعَهْدِ فَرْدًا ^(١)

« فَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ مَا حَضَرَ الرَّشِيدَ عَلَى الْبَيْعَةِ لِلْقَاسِمِ » ، كَمَا يَقُولُ الطَّبْرِيُّ • أَمَّا الدَّوَافِعُ الْحَقِيقِيَّةُ فَقَدْ تَكُونُ نَاجِمَةً عَنْ ظَهْوَرِ حِزْبٍ مِنْ بَنِي

(١) الطَّبْرِيُّ ج ٨ ص ٢٧٦ (٦٥٢/٣) وَلَنَلَاظِظْ أَنَّ الْيَعْقُوبِيَّ يَجْعَلُ تَوَلِيَةَ الْقَاسِمِ لِلْعَهْدِ سَنَةَ ١٨٩ وَهُوَ أَمْرٌ لَا يَتَّفَقُ مَعَ نَصُوصِ الْعَهْدِ الَّذِي كَتَبَهُ الْأَمِينُ عَلَى نَفْسِهِ فِي الْكَعْبَةِ وَلَا مَعَ صَاحِبِ فِكْرَةِ التَّوَلِيَةِ عَبْدِ الْمَلِكِ ابْنِ صَالِحِ الَّذِي سَجَنَ مِنْذُ سَنَةِ ١٨٧ (انْظُرِ الْيَعْقُوبِيَّ ج ٢ ص ٤٢٥ وَ ١٢٥)

العباس لا يسيل لا الى الامين ولا الى المأمون ويخشى عواقب الصراع بينهما .

وعلى أي حال فقد خطرت للرشييد ، تحت ضغط الصراع التحزبي في البلاط دون شك ، خاطرة ذكية ظنها الضان الكافي لإقرار عهده من بعده وإحلال السلام والتعاون بين الإخوة وتأكيد تعاقبهم أو على الأقل تعاقب الأمين والمأمون على الخلافة وإلجام كل جموح قد يركبه أحد الحزبين من ورائهما . فقد انتهز مناسبة حجه سنة ١٨٦ فاصطحب الولدين معاً ، مع جمع من قواده ووزرائه وقضاته وبني هاشم . وهناك في مكة استكتب كل واحد منهما بخطه عهداً صيغ بشكل كتاب مرفوع إلى أبيه الخليفة يشترط على نفسه الوفاء بالعهد لآخيه الآخر والتعاون معه . ونص كتاب الامين على أن للمأمون إن أفضت إليه الخلافة أن يبقى أو يخلع أخاه القاسم كما يشاء .

ثم أمر الرشييد فقرئ الكتابان على الاخوين في المسجد الحرام وشهد عليهما من حضر من رجال الدولة ثم قرئ الكتابان على أهل ذلك الموسم كافة ليشهدوا عليه . ثم كتب الرشييد بذلك كله إلى الامصار يأمر العمال أن يعلنوه للناس . ويشتوه في الديوان فأخذت البيعة كما قال اليعقوبي «على الناس كلهم حتى أهل الاسواق»^(١) . أما الكتابان الاصليان فقد أمر بتعليقهما في الكعبة ، في عهدة حجابها . . أترأه ، في هذا التوثيق كله ، كان يشك في قرارة نفسه في إمكان تنفيذ هذه العهود،

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤١٥

والنقد الداخلي لنصوص الكتابين كما أوردهما الطبري^(١) تكشف
أن بعض التعديل والإضافة على الأقل قد دخل عليهما وأنهما في شكلهما
الموجود متحيزان للمأمون التحيز الواضح ، ويستبين الزيف الداخل
عليهما في عدد من النقاط التي إنما نبتت مشاكلها وظهرت بعد موت
الرشيد ومنها :

أ - إصرار الكتابين على منح المأمون فقط - دون الأمين -
التأكيدات والضمانات بجميع حقوقه في ولاية العهد وفي خراسان وفي
الاموال والحاشية •

ب - إصرارهما أيضا على منح المأمون في خراسان الاستقلال
الكامل الذي يقطعها انقطاعاً تاماً عن الدولة وهذا ما لا يمكن أن يقرره
الرشيد •

ج - اعطاء العذر الشرعي للمأمون في أخذ الخلافة فوراً إن
انتقصه أخوه الأمين قليلاً أو كثيراً مما اعطاه الرشيد •

د - التأكيد أكثر من مرة على أن المأمون يفي للأمين « ما وفي
له أخوه » فإن انتقصه شيئاً فلا وفاء •

هـ - أدخل على الكتابين تحديد ولاية خراسان والكور التي
أضيفت إليها ليكون ذلك تسديداً للمشكلة التي قامت فيما بعد بين
الاخوين على سلخ بعض الكور المضافة الى تلك الولاية •

و - ذكر في كتاب المأمون عهد « قمراسين » وهذا العهد إنما
كان سنة ١٨٩ •

(١) في الطبري ج ٨ ص ٢٧٧ - ٢٨٦ (٦٥٤/٣ - ٦٦٦) نجد
نصوص هذه العهود وكتاب الرشيد الى الآفاق . وانظر ج ٨ ص ٢٨٦
فيما يتعلق بعهد قمراسين وتجديد البيعة سنة ١٨٩ •

ز - ذكرت في كتاب الامين بيعة القاسم وجعل للمأمون أن ينفذها
أو يلغيا بينما لم يذكر من ذلك شيء في كتاب المأمون الذي قال إن
للأمين « إن أراد أن يعين من يشاء من ولده العهد والخلافة بعدي » !!
فكان الفقرة المتعلقة بالقاسم إنما أدخلت لايجاد العذر الشرعي للمأمون
لأنه لم يجعل القاسم خليفة بعده .

وعلى أي حال فقد علق بعض المؤرخين على العهد المثلث وقسمة
الدولة بتخطة الرشيد كابن الاثير . وإذا كان هؤلاء إنما يحكمون بعد
أن سجل التاريخ ما جرى من القتال الأخوي فان آراء المعاصرين أنفسهم
انقسمت - على ما يظهر - بشأن خطوة الرشيد هذه وقد شعر بعضهم
بأخطار ذلك يقول الطبري : « ولما قسم الارض بين أولاده الثلاثة
قال بعض العامة : قد أحكم أمر الملك . وقال بعضهم : بل ألقى بأسهم
بينهم وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة على الرعية ... » وقال شاعر
من شعر طويل :

رأى الملك المذهب شر رأي	بقسمته الخلافة والعبادا
أراد بها ليقطع عن بنيه	خلافهم ويتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل	وأورث شمل إلفتهم بدادا
فويل للرعية عن قليل	لقد أهدي لها الكرب الشدادا
ستجري من ومائهم بحور	زواخر لا يرون لها نقادا

وزادت غلطة الرشيد سوءاً بتقسيمه امبراطوريته بين أولاده فجعل
للمأمون شرق البلاد منذ همدان . وللمؤتمن الشغور والجزيرة . وللأمين

العراق والحجاز والشام ومصر ... وفصل بين سلطاني الامين والمأمون في مناطقيهما كل الفصل بشكل يصعب معه ارتباطهما إذ لم يدع لاحدهما مطلقاً من علاقة مع الآخر .

والطبري^(١) يذكر من نصوص العهد مثلاً قوله : ليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحول عنه (عن المأمون) قائداً ولا مقوداً ولا رجلاً واحداً ممن ضم إليه من أصحابه الذين ضمهم إليه أمير المؤمنين ولا يحول عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولاه إياها هارون ... ولا يولي عليها أحداً ولا يبعث عليه ولا على أحد من عماله وولاة أموره بداراً ولا محاسباً ولا عاملاً ولا يدخل عليه في صغير من أمره ولا كبير حزراً ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتدييره ... ومثل هذه الوثيقة يمكن أن تعتبر جزءاً من قصة انقسام الامبراطورية العباسية . ولو أنها طبقت بحذافيرها لكانت نواة لقيام دولتين عباسيتين ! وقد لاحظ ذلك المعاصرون وعبر عنه الأمين بقوله : « لا يجتمع فحلان في أجمة » . إن الرشيد نفسه قد وضع أول خطوط النضال الاخوي الذي أراق دم ابنه الأمين .

ثم ان الأمين والمأمون كلاهما وجدا منذ يفعا حزينين جاهزين لهما : فالهاشميون والعرب سعوا لخلافة الامين وعلقوا الآمال عليه . وكان لهم تأثيرهم في الدولة حتى اعترف بذلك الرشيد حين ولاه . واعترف الفضل ابن سهل ، حين حذر المأمون منهم وهو ما يزال في بغداد قبل وفاة الرشيد فقال له : « ... سله أن يشخصك معه (مع الرشيد) فانه

(١) الطبري ج ١٠ ص ١٢٨

علي . وغير مأمون إن يحدث عليه حادث ، أن يشب عليك أخوك فيخلعك .
وأمه زبيدة وأخواله من هاشم ^(١) » . والفرس (وعلى رأسهم الفضل بن
سهل) اعتبروا المأمون ابن اختهم . والفضل حين جعل يشد من عزمته
كان يقول له : « إنك بين أخوالك .. اصبر وأنا أضمن لك الخلافة ^(٢) » .
وقد انقاد الاخوان لدسائس الحاشية فقاد المعركة السياسية وراء
الامين الفضل بن الربيع ، وقادها من خلف المأمون الفضل بن سهل .
فحاشية الامين دفعته لنقض العهد (يشهد بذلك اليعقوبي والجهشياري
والطبري والفخري في نصوص واضحة) ولكن يظهر ان فكرة النقض
كانت قائمة ، من قبل ، في نفس الامين (ذكروا انه حلف بالوفاء في
الكعبة وهو ينوي الغدر وانه قال لا يجتمع فحلان في أجمة ... وانه
حين بلغه قرب وفاة والده أرسل كتباً سرية ليرد الجيش الى بغداد مع
ان الرشيد أوصى به للمأمون ... ولم يكن لاحد من حاشيته وزن كبير
إذ ذاك . وبالمقابل طمع الفضل بن سهل لصاحبه بالخلافة وليس دون
ذلك ^(٣) . وكثيراً ما شدد عزيمة المأمون ونصحه بالعناد وألف حوله
الانصار وأجاب وفود الامين بدلاً منه .

ثانياً — تدير الأخوين بعضهما لبعض أوصال لدرجة الحرب
الاخوية :

استند الامين في عمله الى أن بغداد العاصمة في يده وان الكتلة العربية
تعمل بجانبه والى ان جيوش الدولة تأتمر بأمره ولقب الخلافة له وسلطتها
المطلقة تسحبه أن يتصرف كما يشاء . بينما استند المأمون الى خراسان

(١) المسعودي ج ٣ ص ٢٧١

(٢) الجهشياري ص ٢٨٠

والى العهد القانوني الذي منحه إياه الرشيد والى جيش خراساني فقط .
وكان ظاهراً منذ البدء ان زمام الموقف بيد الامين - ولعل هذا كان
سبباً في اهماله أخذ أخيه بالحزم - غير أن المأمون وأصحابه عدلوا الكفة
بالتسل المنظم الدقيق وبالدهاية الواسعة .

ومن المناسب أن نسجل هنا أن الامين ، في محاولة خلع أخيه
المأمون لم يأت بجديد في السياسة العباسية . ولكنه اتبع السنة التي
استنتها المنصور ثم اتبعها الخلفاء التي توالوا بعده حتى الامين .
أبو جعفر هو الذي حول الخلافة لابنه المهدي وطرد عنها ابن أخيه
عيسى بن موسى بالرغم وبالتهديد والوعيد . والمهدي حولها لابنه الهادي
وزاد فعهد لأخيه الرشيد معه طارداً عنها عيسى نفسه . ولم يكن سوى
يوم أو بعض يوم بين الهادي وبين قتل أخيه الرشيد وإعلان البيعة لابنه
جعفر لولا أن العمر انقطع به والرشيد نفسه أعطى الخلافة لابنه
ثم لابنه الثاني ثم للثالث وألقى بالسجن ذلك الذي فكر فيها من أقربائه:
عبد الملك بن صالح . وسوء حظ أو تدبير الامين هو الذي جعله يفشل
فيما نجح فيه السابقون له .

وبالمقابل ويبدو من عدد من القرائن أن المأمون لم يكن بعيداً عن
التفكير ومنذ وقت مبكر جداً في الوصول الى الخلافة وفي انتزاعها
من أخيه . فإنه مقابل تفكير هذا الأخ في خلع عن ولاية العهد ألغى
اسمه عن الطراز والنقود وقطع عنه البريد منذ ١٩٤ كما تسمى في الوقت
نفسه بالإمام ليتوازي معه في اللقب بل يذكر صاحب العيون والحدائق
أن المأمون «تسمى ١٩٥ أمير المؤمنين وانقطع ذكر الامين من جميع أعمال
خراسان . . .»^(١) ثم ما كاد جيش المأمون ١٩٦ يسجل نصراً على جيش

الأمين حتى زحف المنتصرون على الفور الى بغداد فحاصروها • ولم يحاول المأمون — وقد امتد الحصار سنتين — أن يفاوض أخاه أو يقيم صلحاً يؤكد فيه حقه في ولاية العهد لأن الخلافة كانت قد أضحت مطمعه • وطال الحصار فلم يفكر المأمون في أنه إنما يحارب صاحب البيعة الشرعية وأنه هو نفسه لاحق له في الخلافة مع وجود الأمين فحربه اذن غير شرعية • وحين استسلم الأمين لجيش المأمون ما كان لقادة هذا الجيش أن يقتلوه لولا أن تعليمات المأمون إليهم كانت تقضي بذلك • ولعلنا نذكر أن قائد جيش الأمين كان يحمل معه ، عند مسيره الى خراسان قيلاً من الفضة لتقييد المأمون بينما لم يقدم قائد المأمون غير السيف للأمين في بغداد • وهكذا فإن المأمون بدلاً من ولاية العهد أخذ الخلافة نفسها وروح أخيه •

وقد شوهت الدعاية المأمونية سمعة الأمين في عهده ثم لدى المؤرخين من بعد بينما أشادت بقابليات المأمون منذ صغره وبحزمه ونسكه ... «ذكروا للرشيد قوله عنه : أتعرف فيه حزم المنصور ونسك المهدي ، وجرأة الهادي ولو شاء أن انسبه في الرابعة لي لفعلت» ولا شك أن خلافة المأمون الطويلة وسمعته العلمية الرائعة قد انعكست على ماضيه قبل الخلافة وزادت في تألقه وفي تعصب العلماء له ، بينما ظل الأمين المهزوم سيء السمعة يسميه التاريخ (بالفاسق) و (المخلوع) ، • ويتهم بشتى التهم • فلا يجد مع قصر عهده ومطاعن أخلاقه وهزيمته في النهاية ، من يدفع تحيف الدعاية له • وهذه الدعاية لعبت دورها خلال فترة النزاع نفسها حتى — كما يقول الجهشياري^(١) — «سارت الركبان في الآفاق

(١) الجهشياري ص ٢٩٢

بغدر محمد وبحسن سيرة المأمون فاستوحش الناس منه وانحرفوا عنه
وسكنوا إلى المأمون ومالوا إليه» •

مر النزاع بين الأخوين ، ككل نزاع غيره ، في طورين : طور
دبلوماسي سلمي حاول به الأمين الوصول إلى ما يريد بالسياسة والمراسلة
وقابله المأمون بالمطالبة • ثم جاء دور السيف بينهما بعد ذلك •

الطور الدبلوماسي السلمي :

(يفصله الطبري^(١) تفصيلاً واسعاً) ودراسته تعطينا فكرة عن
الجو السياسي ومناوراته في ذلك العصر ، وقد قاد العملية الدبلوماسية
والسياسية لدى الأخوين وزيراهما : الفضل بن الربيع لدى الأمين
والفضل بن سهل لدى المأمون لدرجة أن بعض الكتاب اعتبر المعركة
الأخوية معركة بين الفضلين • وقد وردت أخبار ومراسلات الأخوين في
الطبري دون ترتيب تاريخي ، ولعلنا إذا اعتمدنا على محتوياتها وعلى
شيء من المنطق ، نستطيع أن نعطيها ذلك الترتيب المتسلسل ، وأن نلخص
هذا الطور بالنقاط التالية :

١ — حاول الأمين أن يأخذ الحيطة ويركز كل القوى بيديه حين
عرف علة أليه في طوس • وهكذا بعث من يأتيه بأخباره وبكتب ظاهرة
يسأل فيها عن صحة الخليفة ، وأخرى باطنة إلى القوم والعسكر بالعودة
إلى بغداد ، ومحاولة الأمين تجريد أخيه من القوة ، هذا الشكل لم يخف
على الرشيد نفسه ، الذي جدد البيعة للمأمون ، وأوصى له بالجيش •

(٢) الطبري ج ٨ ص ٣٧٤ - ٣٨٤ (٧٧٦/٣ - ٧٩١) وكذلك
ص ٣٩٤ - ٤٠٥ (٨٠٣/٣ - ٨١٧) •

ولكن الرشيد توفي ، ووجود الفضل بن الربيع في القوات العباسية كان كافياً لاعادتها إلى بغداد دون أن تعرج على المأمون^(١) الذي عقد مجلساً لبحث الأمر ، ولكن الفضل بن سهل حذر المأمون من ملاحقتها لثلاث قبض عليه وتقدمه هدية لمحمد ، وقد بعث وراءها برسولين عوملا من الفضل ابن الربيع أسوأ المعاملة ... فأكد ذلك للمأمون ضرورة بقاءه في مرو ... منذ الأيام الأولى .

٢ - حاول المأمون بالمقابل توطيد مركزه ، وذلك باسترضاء الخراسانيين ليكونوا معه فكرم القواد والملوك (الارستقراطية) والفقهاء وتألف الشعب بالعدل وبتخفيض ربع الخراج ، حتى سر بذلك الناس وقالوا حسب رواية الطبري^(٢) : «ابن اختنا وابن عم رسول الله» . ومن جهة أخرى حافظ المأمون ... ولكن وفي السنة الاولى من حكم الأمين فقط بالطبع على مظاهر الولاء لأخيه و«تواترت كتب المأمون إلى محمد بالتعظيم والهدايا إليه من طرف خراسان^(٣)» !

٣ - بدأ الأمين مشروعه يسيط تفوذه أولاً على أخويه ثم عزلهما من ولاية العهد أو تقديم ابنه عليهما . بدأ بالقاسم فعزله عن الجزيرة سنة ١٩٣ هـ ثم عن الولاية جميعاً سنة ١٩٤ هـ وولى مكانه خزيمه بن خازم ثم استقدمه لبغداد^(٤) ثم عزله من العهد في السنة نفسها . وقد تم ذلك دون ضجة أو كبير عناء لقلّة انصار القاسم الذي لحق بشيبي المأمون في

(١) الجهشياري ص ٢٧٧

(٢) الطبري ج ٨ ص ٣٧٢ و ٤١١ (٣/٧٧٤ و ٨٢٥) .

(٣) الطبري ج ٨ ص ٣٧٣ (٣/٧٧٥) .

(٤) الطبري ج ٨ ص ٣٧٤ (٣/٧٧٦) .

خراسان ١٩٧ فولاه على جرجان^(١) ... لكن المأمون أدرك منذ سمع بعزل القاسم ، كنه المشروع فقطع البريد عن أخيه محمد ومحا اسمه عن الطراز إيذاناً له بعدم الموافقة ، أو على الأقل بالاستنكار وضرب الدنانير والنقود بخراسان « وأمر ألا يثبت فيها اسم محمد »^(٢) الأمين .

٤ - ظهرت للأمين ضرورة إضعاف أخيه والحد من نفوذه وكاد يطلب منه بعض أرض ولايته ولكن القاسم بن صبيح نصح الأمين ألا يفعل لئلا يتأكد لدى المأمون سوء الظن ويأخذ من ذلك حذره «ولكن تكتب إليه حاجتك إليه وشوقك إلى قربه ... ومشورته^(٣)» «فإذا قدم عليك وفرقت بينه وبين جنده ظفرت به وصار رهناً في يدك^(٤)» . وأرسل الأمين وفداً بهذه الرسالة فأكرمه المأمون وحار ماذا يجيب أخاه ولكن الفضل بن سهل شد من عزمته ونصحه بتقوية الجيش وبالاعتذار عن المسير . ودبج للاعتذار رسالة جاء فيها «إن الامام الرشيد ولاني هذه الأرض على حين كلب من عدوها ... ومتى زلت عنها لم آمن انتقاض الأمور فيها وغلبة أعدائها عليها بما يصل ضرره إلى أمير المؤمنين حيث هو فرأى أمير المؤمنين أن لا ينقض ما أبرمه الامام الرشيد» .

٥ - عاد الأمين إلى رأيه الأول فطلب ان يتجافى له المأمون عن بعض كورخرسان وان يرسل إليه العمال من قبله وان يقيم عامل بريد لديه . فاضطرب المأمون وعقد مجلس شوري قرر له أن يوافق . إلا إن

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٣٩ ثم ص ٤٤٥

(٢) الطبري ج ٨ ص ٣٨٩ (٧٩٥/٣) .

(٣) الجهشياري ص ٢٩١

(٤) الدينوري ص ١٣١

الفضل بن سهل رأى الرفض قائلاً : «هل تثقون بكفه (كف الأمين)»
بعد إعطائه ذلك وألا يتجاوز بالطلب ؟ إنه يطلب ما ليس له بحق» وكان
الرفض وكتب المأمون يقول لأخيه : «لو لم يكن ذلك مثبتاً بالعهود
والمواثيق المأخوذة ثم كنت على الحال التي أنا عليها من إشراف عدو
مخوف الشوكة ، وعامة لا تتألف عن هضمها وأجناد لا يستتبع طاعتها
إلا بالأموال ، لكان في نظر أمير المؤمنين لعامته وما يجب من لم أطرافه
ما يوجب عليه أن يقسم له كثيراً من عناية ويستصلحه ببذل كثير من ماله .
فكيف بمسألة ما أوجبه الحق والعهد ؟ ..» الخ !

٦ — عاد الأمين فأكد الطلب مع وفد اوصاه بنشر بذور الخلاف
على المأمون في خراسان وكتب إليه إن الرشيد أضاف إلى خراسان
«كوراً من أمهات كور الأموال لا حاجة لك فيها فالحق أن تكون مردودة
في أهلها ... وأن تأذن لقائم بالخبر يكون بحضرتك يؤدي لنا علم
مانعني به من طرفك .. فائن على همتك أثن عن مطالبتك» . ولكن
الوفد احيط به منذ وصل حدود ارض المأمون فلم يدعه الفضل بن سهل
يقابل احداً غير المأمون . وسماه أمام الوفد (بالامام) ومنعه ان يناقشه
وكلف المأمون الوفد بتأدية رسالة الى الأمين يقول فيها : «لا تبغني
يا ابن أبي علي مخالفتك . وانا مذعن بطاعتك وارضى حكم الحق في
امرك أكن بالمكان الذي أنزلني به الحق فيما بيني وبينك ... وقال :
أعلموه أنني لا أزال على طاعته حتى يضطرني بترك الحق الواجب إلى
مخالفته ...» .

٧ — بعث الأمين بكتاب غضوب ملاء بالتهديد قال : «... بلغني
كتابك غامطاً لنعمة الله عليك معترضاً لحراق نار لا قبل لك بها ... وان

كان قد تقدم مني متقدم فليس بخارج عن مواضع تفعلك .. فاعلمني رأيك» . فاجاب المأمون : «... أولى به (بالأمين) ان يدير الحق في امره ثم يأخذ به ويعطي من نفسه . واما ما وعد من بر طاعته واوعد من الوطأة بمخالفته فهل أحد فارق الحق في فعله فأبقى للمتبين موضع ثقه بقوله ؟» .

٨ - أوفد الامين - حين صرح الخلاف - وفداً سياسياً من ثلاثة رجال عليه العباس بن موسى بن عيسى يطلب الى المأمون تقديم موسى ابن الأمين بين يديه ويذكر له أن جد العباس (عيسى بن موسى) قد تنازل عن ولاية العهد مرتين . ولكن الفضل بن سهل استطاع ان يمنع النقاش في الامر قائلاً : «اسكت ! لقد كان جدك بين يديهم أسيراً وهذا بين أخواله وشيعته^(١) واستطاع فوق هذا ان يمني بالوعود رئيس الوفد ويأخذ منه البيعة للمأمون ويجعل منه عيناً له في بلاط الأمين !» «يكتب إلينا (أي إلى الفضل بن سهل) بالأخبار ويشير علينا بالرأي^(٢)» ٩ - رأى الأمين أخيراً وضع اخيه امام الأمر الواقع فأوقف الدعاء للمأمون واعلن بيعته ابنه موسى الناطق بالحق بدلا منه وضرب لذلك دراهم ودنانير تذكارية .

منذ هذه اللحظة ينتقل النزاع الى طوره الثاني المسلح . على انه من الضروري ان نلاحظ ان النزاع الدبلوماسي بقي قائماً خلال الحرب الاخوية . فالمأمون يلقب نفسه حتى قبل أن يخلع ولاية العهد ، بالامام لا بالخليفة . فإن الجماعة الاسلامية لم تعتد حتى تلك الفترة ظهور

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٧٦ (٣/٧٧٨)

(٢) المصدر ذاته .

خليفتين في وقت معاً (عدا سنة الثورة العباسية ١٣٢) ويريث المأمون بالخلع أشهراً متخوفاً من ذلك ثم يجهر بالخلع^(١) سنة ١٩٦ هـ حين اتصر جيشه على جيش علي بن عيسى قائد أخيه • (وتلك أول مرة يتخذ فيها العباسيون لقب الامام ولعل المأمون رأى فيه توكيداً للسلطة الدينية التي يحتاجها في نضاله) • ويرسل الى اعيان العسكر في بغداد من يستميلهم ويكتب اليه بموقف بغداد منه • كما يكتب المأمون الى قائد اخيه علي بن عيسى بن ماهان بأن الامين حل عقدة انت شددتها (لأن علياً هو الذي أخذ البيعة للمأمون في ولاية العهد) ويخطب في الخراسانيين يمنيهم بوعود هي أكثر مما منا هم به اسلافه يوم الدعوة العباسية • يقول : «أيها الناس إني جعلت لله على نفسي ،إن استرعاني أموركم ، أن أطيعه فيكم ولا أسفك دماً عمداً لا تحله حدوده ولا آخذ لأحد مالا ولا أحكم بهوأي في غضبي ولا رضاي ... جعلت كله لله عهداً مؤكداً وميثاقاً مشدداً ... فإن غيرت أو بدلت كنت للعبير مستأهلاً وللنكال متعرضاً^(٢) ...» ولهذا العهد شأنه في المستقبل اذ أن فشل المأمون في تحقيقه سيقطع آخر صلة بين خراسان والعباسيين •

ويظهر من تصرفات المأمون حتى في نهاية الامر انه لم يكن واثقاً من النجاح ولقد حاول الهرب حين شغب عليه الجند بمرو • بينما يظهر من تصرفات الأمين واصحابه انهم كانوا واثقين من الظفر ، حتى ان

(٣) جرى احيانا أن أعلن بعض الخوارج نفسه اميراً للمؤمنين ولكن جمهرة المسلمين لم تنظر الى مثل تلك المحاولات نظرة جدية . كما أعلن ادريس بن ادريس العلوي نفسه خليفة في اقصى المغرب ولكن في رقعة ضيقة معزولة هناك ولم يعترف به .

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٣٨

زبيدة ارسلت القيود الفضية لتكبير المأمون واعطت التعليمات لقائدها
بكيفية معاملته معاملة تليق بابن ملك • ولم يلجأ الأمين الى الدس على
أخيه لدى قواده الا حين حاصروا بغداد وحينذاك فقط كتب الى طاهر
ابن الحسين يقول : « ما قام لنا قائم بحقنا وكان جزاؤه إلا السيف »
ويعلق طاهر على ذلك « ما هذا كتاب مضعوف ولكنه كتاب مخدول ! » •

طور النزاع المسلح :

وهو مفصل في الكتب ويمكن تلخيص مراحل الحرب وأطوارها
فيما يأتي :

كان الأمين بالطبع هو الذي سوف يتخذ خطوة اللجوء إلى
السلاح لحل الخلاف باعتباره الخليفة والرجل الأقوى ولأن المأمون
معتصم منه بولايته البعيدة ولهذا : سيرقائه على بن عيسى بن ماهان
الى خراسان وعقد له عليها • وحشد في الجيش طاقته كلها (مطلع ربيع
الآخر سنة ١٩٥) وأعطى الجند مالا عظيماً بعد أن عقد مجلساً عاماً قرأ فيه في
مسجد الجامع على الناس نقض أمر أخيه لعصيانته •

وحمل على بن عيسى قيلاً من الفضة لتقييد المأمون أما وصية
الأمين له فكانت سياسية حازمة : اكرم من خرج إليك من قواد خراسان
وضع عن أهل خراسان ربع الخراج ولا تبغ على أحد يشهر عليك
سيفاً أو يرمي عسكرك بسهم • ولا تدع عبد الله (المأمون) يقيم إلا ثلاثاً
من يوم أن تصل إليه حتى تشخصه إلى^(١) • فإذا اشخصته فليكن مع أوثق
أصحابك عندك ...

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٠٦ (٣/٨١٩)

وقد اشترك في الجيش عناصر عربية قوية من كبار القواد واجتازوا الطريق الى همدان ومنها الى الري . ولم ينتظر علي بن عيسى ورود النجديات له من جنوب إيران واشتبك عند الري في معركة مع قائد جيش المأمون : طاهر بن الحسين (شوال ١٩٥) . وحاول طاهر المراوغة وتكرار قصة صفين إذ علق عهد البيعة على الرماح ونادى على بن عيسى : أأست أنت الذي أخذ البيعة من الناس لعبد الله (المأمون)؟^(١) . ثم جاءت المعركة بنتيجة غير منتظرة إذ هزم جيش الأمين وقتل علي بن عيسى فما وصلت الانباء إلى المأمون حتى قعد للتهنئة ثم أعلن بعد أشهر خلع أخيه الأمين ودعا لنفسه بالخلافة في خراسان . وتحول الجيش المدافع إلى جيش مهاجم يسير في منطقة الجبال باتجاه العراق . . . وفي هاتين المبادرتين السريعتين إلى إدعاء الخلافة والهجوم العسكري على بغداد بعد اتخاذ لقب الامام دليل على أن المأمون وحزبه كانا يبيتان مشروع الخلافة من قبل وما كان موقفهما السلبي قبل ذلك سوى مرحلة تكتيكية . فما ان سنحت الفرصة لتحقيق المشروع حتى بادرا بأسرع مما ينتظر إلى استغلالها أوسع الاستغلال .

وإذا كان في معركة ابن عيسى وطاهر بعض الشبه من معركة ابن هبيرة وقحطبة الطائي في الثورة العباسية فإن الفرق كبير بين الجيش الزاحف الآن ومعظم عناصره إيرانية فارسية وذلك الجيش الثائر الذي كانت معظم عناصره عربية خالصة وإذا كان ثمة من تأثير فارسي في التاريخ العباسي فيمكن أن نعد هذه المسيرة باسم المأمون هي نقطته الانقلابية الهامة .

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٩٣ (١/٣) ٨٠١

وعلى أي حال فإن هذه المسيرة الثانية من خراسان والتي جاءت بعد حوالي خمس وستين سنة من المسيرة الأولى كانت هي الحركة الإيرانية الحقيقية التي ادخلت العنصر الفارسي أو حاولت إدخاله ، في طلب الحكم العباسي وإن انقلب المأمون نفسه عليها فيما بعد .

ووصل جيش المأمون إلى همدان ثم حلوان — على الطريق ذاتها التي كان قد سار عليها قحطبة من قبل . وانتقلت الحرب من الهجوم على مداخل خراسان إلى الدفاع عن مداخل العراق من ناحية الجبال . . . وجمع الأمين آخر قواه لصد جيش طاهر بن عيسى جند عشرين ألفاً من العرب بقيادة أحمد بن يزيد وعشرين ألفاً من الأبناء بقيادة عبد الله بن حديد بن قحطبة الطائي . ولكن الجيشين وصلاً خائفين ثم اختلفا وعادا دون لقاء طاهر^(١) الذي سلم ما بيده من البلاد لقائد جديد بعثه المأمون هو هرثمة بن أعين وانحدر إلى الأهواز ليدخل العراق من الجنوب . فانتصر هناك على محمد بن يزيد المهلبى وأنفذ العمال إلى البحرين وعمان واليمن ومكة والمدينة وعبر البلاد إلى واسط بينما كان هرثمة بن أعين يدخل العراق عن طريق حلوان ويضع الحصار على بغداد بعد أن هزم ٤٠٠ لواء عقدها الأمين لجيش يقابله دونها . وعلى بغداد وافتاه جيش طاهر .

ولم يكن تقدم هذه الجيوش سهلاً فيما يظهر لأنها قضت في ذلك معظم سنة ١٩٦ . ولم يكن حصار بغداد هيناً ولا كان الدفاع عنها ضعيفاً فقد قضى المحاصرون في ذلك سنة ١٩٧ أيضاً . وحفرت الخنادق وبنيت الحيطان وهدمت الدور بالمجانيق والعرادات ، وسمحت الحرب

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٢٣ (٣/٨٤٠)

للعيارين بفرصة ذهبية لممارسة اللصوصية والفوضى وتتالت المعارك على الأبواب والمواقع .. حتى انتهى الأمر أخيراً باستسلام بغداد . بعد أن فقدت الأمن والمؤونة والقوى واستأمن قائد الامين الأساسي خزيمة بن خازم للجيش المحاصر . أما الأمين فلقى مصرعه (٤ صفر ١٩٨) وهو في طريقه للاستئمان عند هرثمة بن أعين .. فقد دبر طاهر مقتله . وفي هذه المؤامرة كاد هرثمة نفسه يفرق في دجلة ! وبينما نصب رأس الأمين على باب الأنبار طارت الرسل إلى المأمون بالفتح ، فلم يدر هو وأصحابه رغم الفرح به ، كيف يصوغون الاعتذار أمام الناس عن مقتل الأمين^(١) ! يقول الطبري : «... لما بعث طاهر (بن الحسين) برأس محمد (الأمين) الى المأمون بكى ذو الرياستين (الفضل بن سهل) وقال : سل علينا سيوف الناس وألسنتهم ! أمرناه أن يبعث به أسيراً فبعث به عقيراً . وقال له المأمون : قد مضى ما مضى فأحتل في الاعتذار منه . فكتب الناس فأطالوا وجاء أحمد بن يوسف بشبر من قرطاس فيه : أما بعد فإن المخلوع كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة فرق الله بينه وبينه في الولاية والحرمة لمفارقة عصم الدين وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين ... فلا طاعة لأحد في معصية الله ... وقد قتل الله المخلوع ! ... » .

وباعتبار نكث العهد معصية دينية عاقبها الله ، انتهى الفصل الأخير من الدعاية المأمونية ضد الأمين ومن أمر الأمين نفسه !

(١) يعقّد الطبري صفحات طويلة لتفصيل المعارك في بغداد وللقصائد التي قيلت في نديها وتصوير حالها السيئة . (ج ٨ ص ٤٢٨ - ٥٠٨) ، (٣/ ٨٤٦ - ٩٥٠) .

(٢) الطبري ج ٨ ص ٥٠٧

على أننا نلاحظ حول تلك الحرب الأخوية الملاحظات التالية :

١ - مبالغة الكتاب في تقليل جيش المأمون جعلوه (٣٨٠٠) امام جيش الأمين الذي ذكروا أنه كان ٤٠ ألفاً .

٢ - ضعف معنويات جيش الأمين . ومن آيات ذلك ان علي بن عيسى لم يكن يقيم وزناً لطاهر بن الحسين ، واحمد بن مزيد الذي رجع دون قتال . ثم كثرة الدخلاء على الجند فيه من الزناquil واللصوص والسطار .

٣ - افسد الأمين جنده بكثرة العطاء دون ان يتأكد من ولائهم وقد شغبوا بعد مقتل عيسى قائدهم فزاد في عطائهم .

٤ - قيام الاضطرابات في العاصمة بغداد نفسها وكان المفروض أن تكون العاصمة بعد كل شيء حصن الأمين وموئله .

٥ - خطأ الأمين في تولية علي بن عيسى لحرب الخراسانيين وهو عدوهم منذ زمن الرشيد .

٦ - كان المأمون بالمقابل موفقاً في القواد وقد قال الأمين: «... وهل كان المأمون لو اجتهد بنفسه وتولى الامر برأيه بالغ عشر ما بلغه طاهر...» كما أنه كان متجانس الجيش . وجنده يدافع عن وعوديمني نفسه بها .

٧ - انتقضت قبيل حصار بغداد وخلالها ، بعض الأقطار على الأمين . فقد خشي عاملا البصرة والكوفة (وهما منصور بن المهدي والعباس بن موسى الهادي) أن تعدو خيل طاهر بن الحسين عليهما بعد أن دخلت من الأهواز الى واسط فبايعا المأمون . وكتب بالبيعة صاحب الموصل (المطلب بن عبد الله) وجمع داوود بن عيسى بن موسى عامل مكة والمدينة الناس وأهل الشرف والفقهاء فذكرهم عهد

الرشيـد واحراق الأمين له وأنه غدر فبايعوا المأمون وذهب داوود الى مرو فعاد منها بخمس مائة ألف درهم ... ووجه طاهر بن الحسين من بغداد يزيد بن جريس القسري على اليمن عاملا فاستطاع أخذ البيعة للمأمون ... وقد أثر ذلك كله في خذلان الأمين العسكري عدا المعنوي .

٨ - فشلت قبل أن تتحرك محاولة شامية لا تقاذ الأمين فقد كتب إليه عبد الملك بن صالح سنة ١٩٦هـ وكان قد أخرج من السجن سنة ١٩٣ : «إن أهل الشام مسارعون الى طاعتي فإن وجهي أمير المؤمنين اتخذت له جنداً تعظم نكايتهم في عدوه في كلام طويل ...» وكان الوعد حينما أطلقه الأمين من السجن أن يقوم بالمناصرة والولاء «فولاه الأمين الشام واستحثه فلما قدم عبد الملك الرقة أرسل كتبه ورسله الى رؤساء أجناد الشام ووجوه الجزيرة فلم يبق من يرجي ويذكر بأسه إلا سارع فوعد الناس ومناهم فقدموا عليه رئيس بعد رئيس وفوج بعد فوج فأجازهم وخلع على كل من قصده وأجازه ثم ... اختلف جماعة من الجند (الخراساني والشامي) فأعان كل فريق صاحبه وتضاربوا بالسيوف ونشبت الحرب وتفاقم الأمر فنادى الناس : الهرب أهون من العطب والموت خير من الذل . النفير النفير قبل أن ينقطع الشمل . وكان عبد الملك مريضاً . فمات في تلك الأيام ...»^(١) وفشلت النجدة التي كان من الممكن أن تغير في مصائر الحرب والخلافة لو أنها تمت .

(١) انظر العيون والحدائق للمؤلف المجهول ص ٣٢٨ وانظر الطبري ج ٨ ص ٤٢٤ - ٤٢٦ (٣/٨٤١-٨٤٥) فلهذه تفاصيل كثيرة حول فشل هذه النجدة

٩ - أتت الحرب الاخوية على بغداد التي حوصرت عامين وخرب قسم كبير منها أو احرق وقتل اهلها وترك لنا الشعراء صورة جهمة لكل ذلك (١) .

١٠ - يبدو أن النزاع الأخوي لم يقتصر على الأخوين وحدهما ولا على مناطقيهما في خراسان والعراق ويذكر اليعقوبي حين يعرض لوفاة عبد الملك بن صالح العباسي سنة ١٩٩ في الرقة ، اضطراب الناس وتحزبهم وحربهم بعضهم لبعض في الجزيرة والعواصم والثغور . يقول : «واضطرب البلد بعد وفاته . وتغلب كل رئيس قوم عليهم . وصار الناس حزبين : حزب يظهر بمحمد وحزب يظهر بالمأمون . فلم يبق بلد إلا وبه قوم يتحاربون . لا سلطان يمنعهم ولا يدفعهم (٢) » .

١١ - قد نستطيع تلخيص حرب الأخوين وتائجها بكلمة كلود كاهن الذي قال : «... إن جيش (المأمون) لم يجد مشقة كبرى في عقد عرى التفاهم مع الأوساط الايرانية في بغداد بينما عجز الأمين عن إخماد المنازعات القبلية بين العرب الذين استنجد بهم . فوقع في ضيق شديد وحوصر في بغداد مما اضطره الى توزيع السلاح على العامة الذين أبدوا ضروباً من الشجاعة اليائسة التي بقيت دون جدوى .. واستولت خراسان مرة ثانية على مقاليد الأمور وكان هذا الانتصار أعظم أثراً منه في المرة السابقة لأنه تحقق على حساب النصف العربي من السكان ولم يتم بسؤازرتهم الجزئية ...» (٣)

(١) جمع صاحب عصر المأمون اطراف تلك الصورة في القسم الاخير من كتابه ، ونجدها لدى الطبري في أحداث ١٩٦ ، ١٩٧ و ١٩٨ .

(٢) اليعقوبي ح ٣ ص ١٦٩

(٣) كلود كاهن - تاريخ العرب والشعوب الاسلامية (الترجمة العربية ،

بدر الدين القاسم - بيروت ١٩٧٢) المجلد الاول ص ١٠٨

١٢ - أدى اعتماد الأمين على عناصر «العامة» في بغداد الى تكتيلها وشعورها بقوتها ولهذا فإنها سوف تظهر خلال العهود المقبلة ولمدة قرون كجماعة مسلحة وذات تأثير مباشر في الأحداث المختلفة ولا سيما عند الأزمات . وسينجم عن وجودها - وهو وجود يرجع في أسبابه وجذوره الى المستوى المعاشي الواطيء الذي تعيشه والى فقد فرص العمل والى التفاوت الطبقي المالي خاصة - الكثير من المآسي والنكبات في بغداد .

١٣ - قتل الأمين في النهاية وهزم الحزب الاميني ولما كان أغلبه من العرب فقد أدى ذلك الى اختلال التوازن بين القوى العربية والايرانية في الدولة زمن المأمون الذي أخذ الناس عليه نظره فقط «لعجم خراسان» ... مما مهد للجوء المعتصم من بعده الى عنصر جديد هو العنصر التركي .

وبعد هل انتهت بانتهااء الخلاف الاخوي مشكلة ولاية العهد ؟ لقد حاول المأمون محاولة غريبة في ذلك اذ حوّل ، لفترة قصيرة، ولاية العهد الى العلويين ممثلين في شخص علي الرضا العلوي (الامام الثامن للشيعة الاثنى عشرية) ولبس المأمون الخضرة بدل السواد كما يقولون وأشخص اليه ذلك الامام من المدينة الى مرو وقربه وزوجه ابنته (رمضان سنة ٢٠١ هـ) (آذار سنة ٨١٨ م) .

واذا كان الرأي الشائع ان نصر المأمون نصر فارسي وكان يتضمن تأييد العلويين فان المستشرق غبريلي ينقض ذلك من ناحيتين :فالتشيع كان اذ ذاك عربياً ثم ان النزعة الفارسية لم تكن سياسة المأمون لكن سياسة الفضل بن سهل وقد قتل فيما بعد ... فالمسألة اذن تحتاج الى تحقيق وهي لم تبحث بعد .

والطبري يعلل ذلك قائلاً : «إنه (أي المأمون) نظر في بني العباس وبني علي فلم يجد أحداً هو أفضل ولا أروع ولا أعلم منه» — ولعله أخذ التعليل من المنشور الذي أصدره المأمون لتفسير ذلك • لكن فضائل الرضا لا تكفي لتفسير هذه الخطوة السياسية الهامة • ويظهر أن الفضل ابن سهل ووجود المأمون في خراسان هما اللذان انتهيا بالمأمون إلى هذا العمل • ويوافق الفخري واليعقوبي والجهشياري على تدخل الفضل في الأمر وقد شاع ذلك في بغداد آنئذ • كما يظهر أن للخراسانيين يداً فيه ويظهر ذلك من احتفائهم العظيم بالرضا ومن سلطته الكبرى فيهم ، ولعل ذلك إنما كان ليأسهم من بني العباس وبدء ميلهم إلى العلويين •

وملاحظة أخرى حول طريقة المأمون في إعطاء ولاية العهد للرضا بشكل يكاد يكون اجبارياً قوله : (لا بد من قبولك ذلك ، فإنني لا أجد محيصاً عنه) ، تدل على اضطرابه لهذه الخطوة ، فهل شعر بضعف مركزه حتى في خراسان بعد أن خسر تأييد العباسيين له فأراد استغلال الميول الشيعية الناشئة هناك ؟ والتي تفتشت بعد يأس خراسان من العباسيين ؟ أم أن الفضل بن سهل أراد تحويل الخلافة إلى علي تمهيداً لتحويلها ملكاً كسروياً ، كما اتهم في وجهه أمام المأمون إذ ذاك ؟ قد يكون في هذا شيء من الصواب ولعل الأقرب منه إلى الواقع أن المأمون رأى تلك الثورات العلوية التي ملأت اليمن والحجاز والعراق ، وعرف انحراف أهله من بني العباس عنه فأراد اجتذاب العلويين إليه باختيار واحد منهم فتهدأ ثورتهم ! ..

ويجب أن نفتش عن تفسير هذا «الانقلاب العلوي» في تفكير المأمون ، في تلك الصلة الفكرية القوية التي كانت قائمة منذ حوالي القرن مابين الشيعة الزيدية وبين مذهب المعتزلة من جهة وبين جماهير

الفقهاء في العالم الاسلامي من جهة أخرى • فإذا كان الكثير من الفقهاء المشهورين وأتباعهم قد عرفوا بميول علوية معتدلة ووصف بعضهم بالزيدية مثل مالك بن أنس وأبي حنيفة وسفيان الثوري والأعمش ومحمد بن هرمز وابن غيلان ... الخ • فإن الزيدية كانت تبني فكرها الفلسفي الفقهي على أساس الاعتزال وكانت نظرية الزيدية والمعتزلة في الإمامة متطابقة وهي تعطيها لأجدر الناس بها دون اعتبار الفرع النبوي الذي ينتسب إليه • ولاشك أن المأمون الذي وجد نفسه خارج النظرية العباسية ووجد انكماش الجماعة العباسية كلها عنه أراد أن يثبت حقه في الخلافة عن طريق تبني الفكر الاعتزالي - الزيدي - الذي يبرر إمامته ويوجد بين مختلف الاتجاهات الاسلامية وقد أراد تأكيد ذلك بإعطاء ولاية العهد لأبرز أبناء البيت العلوي في ذلك الوقت كبرهان على حق الامامة للأفضل وعلى ضرورة توحيد الاتجاهات الاسلامية • واختار لهذه العملية السياسية - الدينية «علياً الرضى» مع أنه ليس من الزيدية ولكن من الفرع الجعفري • ولنلاحظ أن المأمون ظل على اصطناع الخضرة بدل السواد حتى بعد وصوله إلى بغداد بأشهر كما أنه ظل على الجدل بفضل علي زمناً طويلاً بعد ذلك وظلت المنابر تعلن بأمره أن علياً خير الخلق بعد الرسول •

أما ان الأمر كان مناورة سياسية من المأمون لتهديد بغداد ومن بها من العباسيين ليعودوا الى القبول به تمهيداً لانتقاله اليهم فيظهر أن ذلك بعيد الاحتمال إذ كان للبيعة العلوية وقع الصاعقة في بغداد ... فزادت فيها الفوضى والنقمة على الوالي الحسن بن سهل وعلى الوزير البعيد الفضل (أخيه) وبائع الناس ابراهيم بن المهدي ! • ولم يعلم المأمون بما

جری ، وإنما علمه متأخراً من الرضا نفسه • إذ صرح له بما كان يجري ويكتّم عنه ، فقرر المأمون سوء خطة ابن سهل وضرورة العودة عنها والاعتماد على بغداد والعباسيين ، ولا بأس في سبيل ذلك ، من التضحية بالرضا وبالفضل ، فتخلص من الرضا بعد قليل بالسّم وتخلص معه من الفضل نفسه بينما كان في الطريق إلى عشيرته من العباسيين في بغداد ، أول سنة ٢٠٣ هـ •

وهكذا لم تحسم مع المأمون مشكلة ولاية العهد • وبالرغم من أنه خلع أخاه القاسم من بعده إلا أنه لم يعين أحداً بعده • ظل على ذلك خمس عشرة سنة ، حتى كان مرضه الأخير فعهد بالأمر إلى أخيه محمد أبي اسحق المعتصم متجاوزاً في ذلك ابنه العباس رغم حب الجند له • وترك المأمون لأخيه وصية ضمنها خلاصة تجاربه السياسية^(١) يطلب فيها إليه: متابعة القول بخلق القرآن والاهتمام بجمهور الرعية «الرعية الرعية» ، العوام العوام ، فإن الملك بهم والترفيه عنهم ، والتعجيل بالرجوع إلى العراق ، والاهتمام بالثغور والبواصم والجد في محاربة الخرمية وان لا يستوزر أحداً وأن يرفق بالعلويين «فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئتهم ، واقبل من محسنهم وصلاتهم فلا تفضلها في كل سنة عند محلها» •



(١) الطبري ج ٨ ص ٦٤٧ - ٦٥٠ (٣/١١٣٦ - ١١٤٠)

الفصل العاشر

مشاكل الحكم - ٢

الوزارة

أ - وزارة المهدي والهادي :

إن استقرار عهد المهدي بعد المنصور جعله يترك شيئاً فشيئاً شؤون الدولة لمن سمي (بالوزير) ، وابن الطقطقي يقول : «وفي أيامه ظهرت أبهة الوزارة ... بسبب كفاءة وزيره أبي عبيد الله معاوية بن يسار ، ففوض إليه المهدي تدبير المملكة» ، ومن هذا الوقت تبدأ مكانة الوزراء بالظهور في العهد العباسي ، ويأخذ تسرب السلطة إليهم ومنازعة الخلفاء لهم على حدود تلك السلطة شكل نكبات يذهب بعضهم ضحيتها . وغالباً ما كان تعيين الوزراء يأتي بنتيجة مقدرة كتابية أو إدارية لا مكافأة على خدمة أو نفوذ كما كانت نكباتهم ترجع إلى بعض الدسائس والحذر ، لا إلى عجز أو انحراف ، وظلت مؤسسة الوزارة مقلقة الوضع تتبع هوى الخليفة في التعيين والعزل والالغاء . وقد استأثر ببحث الوزارة باهتمام المؤلفين منذ ظهرت الوزارة وألفت فيه الكتب من الأقدمين

والمحدثين^(١) على السواء . بسبب ما أصاب هذه المؤسسة وأصحابها الوزراء من النكبات والاضطراب في التاريخ الاسلامي . بدأت الوزارة العباسية قبل ظهور الخلافة العباسية ذاتها وكان نصيب أول وزير لها القتل كما كان ذلك نصيب الثاني ونجا الثالث (الربيع بن يونس) الى حين فقد توفي المنصور قبل أن ينكب أو يصاب بسوء وقد نحاه موت المنصور بشكل آلي .

واستوزر المهدي أبا عبيد الله معاوية بن يسار ، ويسميه الجهشيارى أبا عبيد الله عبيد الله بن عمران ، ثم قتل ابنه على أنه زنديق وصرفه^(٢) . ويبدو أن للدسائس في البلاط أثراً في صرفه وفي مقتل ابنه سنة ١٦٣ وقد كان كما يذكر الطقطقي « كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقاً وعلماً وخبرة » .

وجعلت الوزارة من بعده ليعقوب بن داوود حتى غلب على كل شيء في الدولة ، وحتى قال بشار بن برد : « الخليفة يعقوب بن داوود ! » ثم نكب يعقوب سنة ١٦٦ هـ ونكب أهله بحجة ميله للعلويين فسجن في المطبق حتى اطلقه الرشيد منه سنة ١٨٧ هـ وقد ذهب بصره . ثم تلاه في

(١) من أهم الكتب القديمة الباقية في هذا الموضوع كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى ، وكتاب الفخري في الآداب السلطانية لابن طباطبا الطقطقي . وكتاب تحفة الامراء في تاريخ الوزراء لهلل الصابىء عدا عدد من الكتب الأخرى التي ما تزال مخطوطة . وأما من الكتب الحديثة فهناك كتاب سورديل عن الوزارة في العهد العباسي (بالفرنسية) وكتاب الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية لتوفيق سلطان اليوزبكي (بغداد) وكتاب الوزراء العباسيون لمحمد احمد برانق (القاهرة) .

(٢) يتحدث الفخري بإسهاب ص ١٢٤ عن الدسائس التي أدت إلى صرفه وصاحبها هو الربيع بن يونس .

الوزارة الفيض بن ابي صالح شيرويه حتى نهاية خلافة المهدي وكان الفيض نصرانياً في الأصل ومن المشهورين بالعلم والأدب والكرم الواسع وقد انتهت وزارته بموت المهدي سنة ١٦٩ ومات بعد ذلك بأربع سنوات • ووزر للهادي رغم قصر عهده ابو الفضل الربيع بن يونس (وزير المنصور من قبل) فقد كان هو الذي أخذ البيعة للهادي في بغداد ثم صرف عن الوزارة^(١) وأعطيت لإبراهيم بن ذكوان الحرائي • ولكن عهد الهادي ذهب بسرعة فذهب معه ابراهيم أيضاً •••

ب - وزارة الرشيد وقضية البرامكة

ماكادت الخلافة تؤول الى الرشيد حتى استدعى كاتبه يحيى بن خالد بن برمك وعهد إليه بالأمر كله قائلاً : «يا أبة ! أنت أجلسني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك وقد قلدتك الرعية وأخرجته من عنقي إليك فاحكم بما ترى واستعمل من شئت واعزل من رأيت وأسقط من رأيت فإنني غير ناظر معك في شيء •••»^(٢) يقول ابن الطقطقي : «وظهرت دولة بني برمك حينئذ» •

و(برمك) أو برموك ليس باسم ولكنه لقب لكبير سدنة معبد النوبهار في بلخ • يقول المسعودي : وكان الموكل بسدنته (النوبهار) يدعى البرموك وهو سمة عامة لكل سدنته ومن أجل ذلك سميت البرامكة لأن خالد بن برمك كان من ولد من كان على هذا البيت^(٣) ويفهم من

(١) مات الربيع بن يونس في تلك السنة ١٦٩ وصلى عليه الرشيد وهو ولي عهد وقيل إنه مات مسموماً بيد الهادي (حسب رواية المسعودي وابن خلكان) •

(٢) الجهشياري - الوزراء الكتاب ص ١٧٧

(٣) المسعودي ج ٢ ص ٤٤٣ •

بعض المؤرخين (كالمسعودي وابن خلكان) ان النوبهاريت زرادشتي كبير للنار والأرجح انه معبد بوذي كما يتضح من أقوال ابن الفقيه والقزويني ومما يذكره ياقوت الحموي أيضاً إذ يقول الأول : «انه لعبادة الأصنام» ويقول الثاني : «كان فيها (بلخ) النوبهار وهو أعظم بيت من بيوت الأصنام ...» وليس في معابد النار أصنام ويضيف القزويني قوله : «... وملوك الهند والصين يأتون اليه» وهم البوذيون في الغالب إذ لا مجوس هنالك^(١) . واثبات بوذية البيت البرمكي دون مجوسيته له شأنه الكبير في دراسة النكبة البرمكية .

الجذ : أول من اتصل اسمه بالاسلام والتاريخ الاسلامي من البرامكة هو برمك نفسه . وقد نقل ابن العديم في بغية الطلب خبراً عن اسحق البلخي الشاعر أنه رأى برمك قدم على هشام بن عبد الملك في خمس مائة شاكري فأكرمه وأعلى منزلته وأعجب به ثم أسلم فكان جليل القدر عظيم الموقع منه^(٢) . ويروي ابن ظافر الأزدي خبراً آخر مشابهاً يقول فيه : إن برمك كان كاتباً ظريفاً أديباً قد تبهر في أخبار ملوك الفرس وعلمائهم ونظر في علوم الاسلام وأنه صحب خواص عبد الملك بن مروان حتى اتصل به فحسن موقعه عنده ورزق الأولاد والعدد والغنى ...^(٣) .

(١) ويتابعهم في ذلك بعض المستشرقين مثل براون (في تاريخ الادب الافرنسي) ونيكولسن (في الادب العربي) .

وتراجع مادة (برمك) في دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) ذكر ذلك ابن العديم مرتين في كتابه المخطوط بغية الطلب (مخطوط أحمد الثالث ٢٩٢٥) ج ٣ ورقة ٢١ ظهر وج ٤ ورقة وهو ينقل الخبرين عن كتاب إلى حفص عمرو بن الأزرق الكرمانى : أخبار البرامكة .

(٣) ابن ظافر - الدول المنقطعة (مخطوط المتحف البريطاني) ورقة

١١٢ وجه .

ويبدو ان هذه المنزلة هي التي سمحت لابن برمك واسمه خالد ان يكون من الوجهاء البارزين في خراسان ثم أن يدخل في الدعوة العباسية السرية ويصبح داعية لمحمد بن علي العباسي ثم لابنه ابراهيم الامام . ويظهر أنه على كفاية في الادارة فكان يقسم الغنائم في جيش قطجة وقد نظم الخراج بخراسان^(١) ثم ولي لابي العباس ديوان الخراج والجند . وقام له بعد مقتل الخلال مقام الوزير ثم كان والياً في عهد المنصور على فارس ثم على الري وطبرستان واحتفظ بمكاته زمن المهدي ولئن غضب عليه فقد استطاعت الخيزران رده الى منزلته عنده فعهد اليه بتربية هارون ابنه سنة ١٦١ هـ وقلده كتابته عند قيادة الصائفة سنة ١٦٣ حتى توفي خالد سنة ١٦٥ (٧٨١ - ٧٨٢ م) .

الاب : يحيى :

وقد عني أبوه بتربيته وكان كاتباً لدى هارون منذ تولى المغرب (أي كل ما يلي الفرات الى الغرب ، من المملكة العباسية) وأقره الهادي على مكانه عند الرشيد وقد لعب يحيى دوره في عدم نقل ولاية العهد عن هارون . ويظهر أنه كان على تعاون في ذلك العهد مع ام الخليفة : الخيزران فلما صارت الخلافة إلى الرشيد استدعى يحيى وقال له : «يا أبت أجلسني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك وقد قلدتك امر الرعية وأخرجته من عنقي اليك فاحكم بما ترى واستعمل من شئت واسقط من رأيت فاني غير ناظر معك في شيء»^(٢) وكانت الدواوين كلها اليه عدا الخاتم فضم اليه في السنة التالية سنة ١٧١ هـ «هو أول من

(١) الجهشياري ص ٨٧ .

(٢) الطبري ج ٨ ص ٢٣٣ (٦٠٣/٣) وابن خلكان ج ٢ ص ٤٤٣ :

أمر من الوزراء» على قول الجهشيارى^(١) وكانت الكتب تنفذ باسم الخليفة فأصبحت تنفذ باسمه وكان من سداد الرأي والتدبير والسيرة بحيث تسكن مع ابنه الفضل وجعفر من قيادة الامبراطورية العباسية سبع عشرة سنة (١٧٠ - ١٨٧ م) - (٧٨٦ - ٨٠٣ هـ) •

الولدان :

أكبرهما هو الفضل وكان أخا الرشيد بالرضاع ، ودراسة سيرته تظهر بعض الجفوة والجد في طباعه • وكان يسمى «الوزير الصغير» لسلوكه هذا ولما كان يقوم به من دور عملي في الدولة : فلقد أخذ ثورة يحيى بن عبد الله المحض دون دماء وتولى للرشيد سنة (١٧٦ هـ - ٧٩٢ م) الجبال وطبرستان وارمينية ثم تولى خراسان (١٧٨ - ٩) فسار فيها سيرة حسنة في الخراج وزيادة رواتب الجند وأنشأ فرقة خراسانية من خمسمائة ألف دعاها (العباسية) • وحفر قناة يبلخ وبنى المساجد والرباطات ... كل هذا بسنة واحدة عدا ما كان من انسه وملذاته التي عاتبه عليها أبوه •

والفضل هو الذي ربي الأمين وأخذ له البيعة في خراسان بولاية العهد • وإذا تابعنا الطبري^(٢) والجهشيارى^(٣) قلنا أن الفضل قد لعب دوراً رئيسياً في دفع الرشيد لمبايعة ابنه محمد الأمين • ولا نلاحظ له فيما عدا هذا الأمر أي نشاط في مشاكل البلاط الخاصة • فقد كان رجل

(١) الجهشيارى ص ١٧٧ :

(٢) الطبري ج ٨ ص ٢٤٠ (٣/٦١١)

(٣) الجهشيارى ص ١٩٣ •

دولة وأما جعفر الأخ الثاني فأصغر من الفضل وقد لعب دوره في البلاط لا في الأعمال الرسمية كأخيه . كان من البلغاء حتى أصبحت توقعياته على رقاع المظالم نماذج للكتاب وكان من الظرف والتألق بحيث اختص بمنادمة الرشيد دوماً وملازمته فلم يفارقه إلا سنة ١٨٠ هـ التي ذهب فيها لتهدئة الشام . وقد عين لبعض الولايات للمغرب سنة ١٧٦ ولخراسان سنة ١٨٠ فلم يذهب اليها بل أرسل من ينوب عنه في الحكم (١) وكان يحكم قرية من الخليفة واسع النفوذ حتى كان يدعو به بأخيه ولا يقدم عليه أحداً . ونعرف دالته على الرشيد من قصته مع عبد الملك بن صالح العباسي ، التي يرويها الجهشيارى ويدهش لها ويرويها صاحب الفخري . وفيها إن عبد الملك زار جعفر البرمكي فجأة فوجده على شراب قد لبس الثياب المعصفرة كالذي جرت به عادة القوم إذ ذاك عند الشرب ، فاضطرب جعفر فقال عبد الملك : لا عليك . هاتوا لنا من هذه الثياب ! وارفقوا بنا فمالنا بهذا عادة ! فعلم جعفر أن له حاجة فتلطف به حتى بسطها فقال : إن في قلب أمير المؤمنين هنة فتسأله الرضى عني ، فقال جعفر ، قد رضي عنك أمير المؤمنين ، قال : وعلي أربعة آلاف درهم تقضى عني قال : إنها لعندي حاضرة لكن أجعلها من مال أمير المؤمنين قال وابني ابراهيم أحب أن أشد ظهري بصهر من أولاد الخليفة قال : قد زوجه أمير المؤمنين غالية (ابنته) قال : وأحب أن يخفق لواء على رأسه ، قال : «قد ولاه مصر» . وإذا كان من الأمور ذات المعنى الواضح أن يقصد عبد الملك إلى جعفر في هذه الأمور الخطيرة ولا سيما في مسألة الزواج بابنة الرشيد ، فما يبرز بوضوح مكانة جعفر ، أن الرشيد أقر في اليوم التالي وعوده وأنفذها !

(٩) الطبري ج ٨ ص ٢٦٦ (٣/٦٤٤)

ولقد بلغ من قرب جعفر إلى الرشيد أن نقل ديوان الخاتم إليه من أخيه ، وأشركه معه في النظر بالمظالم وحول دار الضرب اليه ، وهو أمر لم يتنازل عنه الخلفاء من قبل لأحد^(١) وأمر بكتابة اسمه على الدراهم والدنانير وجعل له ديوان البريد وديوان الطراز كما عهد إليه بتربية ابنه المأمون وكان سبب العهد إليه بعد أخيه الأمين ، حتى لقد خاف يحيى ابو جعفر على ابنه مغبة هذه الصداقة الشخصية الزائدة فتقدم الى الرشيد أن يخفف عنه كما نصح إلى جعفر بأن ينهه من اندفاعه !

وكان للفضل وجعفر اخوان آخرون تولوا بعض القيادات والاعمال هما : محمد وموسى ولكنهما لم يكونا بالواضحين في السياسة العباسية وإن كان لأعمالها بعض الأثر ، من قريب أو بعيد ، في النكبة البرمكية .

مكانة العائلة :

ويظهر ان مكانة هذه العائلة لا ترجع فقط الى براعتها وسابقتها في خدمة العباسيين والاخلاص لهم ولكن ايضاً الى عمل امرأة ذات نفوذ كبير في البلاط هي الخيزران ام الرشيد ففي الطبري والجهشياري^(١) اشارات واضحة الى ان يحيى البرمكي كان لا يصدر الا عن رأيها فلما توفيت سنة ١٧٣ هـ (٧٨٩ - ٧٩٠ م) خسر البرامكة بها حليفهم لدى الرشيد . ولعله مما يبين مكانة الخيزران وتوضح بعض غوامض المشكلة البرمكية ان هارون الرشيد حول ديوان الخاتم بعد وفاتها من البرامكة الى عدوهم الفضل بن الربيع وذكر له ان امه كانت تمنعه من هذا فيطيعها . ويروي الطبري أنه أعطاه خاتم الخلافة يوم موت الخيزران

(١) المقرئ شذور العقود في ذكر النقود ص ١١ .

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٣٢ و ص ٢٣٤ (٣/ ٦٠٠ و ٦٠٤)

عند قبرها وقال : «وحق المهدي .. !ني لأهم لك من الليل بالشيء من التولية غير ما تمنعني أُمي فأطيع أمرها^(١) فخذ الخاتم من جعفر (البرمكي) «...» .

اسباب النكبة :

ينبغي قبل البحث التنبيه الى نقاط أربع :
أنه لم يكشف الرشيد أبداً عن سبب النكبة ويروي اليعقوبي أنه قال : «لو علمت يميني بالسبب الذي له فعلت هذا لقطعتها^(٢)»... .
٢ - يختلف المؤرخون في اسباب النكبة ويسجلون ذلك الاختلاف كلما بحثوا الأمر منذ عهد اليعقوبي والطبري إلى عهد المسعودي ثم إلى عهد أبي الفداء ومن جاء بعده وتكتم الرشيد بعد النكبة وسكوت البلاد هو الذي سمح للشائعات ان تدخل في درج الحقائق وللحقائق ان تشتبه بالشائعات .

٣ - من العسير أن يخرج الباحث برأي نهائي في موضوع النكبة البرمكية بالاعتماد على المصادر وحدها فإنها تتعصب للبرامكة أو عليهم ولئن كان أغلب المصادر في جانبهم وما يرد ضدهم لا يتعدى التنف المبعثرة فإن لهذه التنف دلالتها الهامة . ومرد ذلك التعصب للبرامكة السي :

أ - تعصب الاعاجم من الكتاب والمؤرخين لهم وكثير من المصادر من تأليفهم .

ب - تعصب الكتاب لهم (كسهل بن هارون) لأن البرامكة كتاب في الاصل ومن مؤسسي هذه الطبقة .

(٢) الطبري ج ٨ ص ٢٣٨ (٣/٦٠٩)

(٣) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٢٢

- ج - كرم البرامكة الواسع الذي غطى على كثير من مساوئهم •
- د - العطف الذي اثارته فظاعة الفتك بهم •

٤ - لم تكن نكبة البرامكة مفاجئة ، كما يظهر من بعض الاخبار أو يعتقد بعض المؤرخين ، فنسيجها قد بدأ منذ وفاة الخيزران سنة ١٧٣ هـ أو على الاقل منذ سنة ١٧٩ حين بدأ الرشيد أن للبرامكة سياسة خاصة يتابعونها وينون من أجلها الركائز في خراسان . وثمة سلسلة من أعمال الرشيد تشهد بذلك وتدل على انه كان يراقبهم مراقبة شديدة : فهو قد عين الفضل بن الربيع عدوهم على خاتمه أول الامر ثم صرف سنة ١٧٩ محمداً بن خالد بن برمك عن حجابته واعطاها للفضل وولى في السنة التالية علي بن عيسى بن ماهان رغم معارضة يحيى على خراسان وهو عدو البرامكة وخراسان ما هي في الولايات العباسية ورفع جعفر عن الحرس الخلافي وعين له هرثة بن أعين احد كبار قواده^(١) . وسخط الرشيد اخيراً على الفضل بن يحيى سنة ١٨٣ «فشخص هذا الى الرقة - كما يقول الجهشيارى^(٢) - ومعه امه •• فرضي عنه ••• ولم يرد اليه شيئاً من أعماله» • واتهم موسى بن يحيى عند الرشيد بسكابة أهل خراسان للوثوب بالخلافة فأمر بسجنه سنة ١٨٦ هـ ثم اطلقه بعد توسط ام الفضل وبعد وعد من يحيى بضمان ابنه •

ولدينا بعض الأخبار التي تؤكد ما نقرره من ان الامر مبين قديم: ففي العقد الفريد^(٣) قصة يرويها عن اسحق بن علي بن عبد الله بن العباس يذكر فيها الرشيد شكه بالبرامكة لقريبه ثم يقول «كان قتلهم بعد ست

(١) الجهشيارى ص ٢٠٧ .

(٢) الجهشيارى ص ٢٢٧ .

(٣) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٦٣ .

سنوات من ذلك اليوم» وفي اليعقوبي^(١) رواية مماثلة عن ابن صبيح اسماعيل الكاتب سمع بها الرشيد يتهدد البرامكة ... ثم «حال الحول وحول ثان ثم ثالث فلما كان رأس الحول الرابع قتلهم» ويروي الجهشيارى^(٢) للسندي بن شاهك صاحب الشرطة أن الرشيد أسر إليه ان يستعد للقبض على البرامكة قبل سنة من تنفيذ العقوبة .

ويحلو لبعض المؤرخين أن يفسروا النكبة على أنها ثورة عاطفية ولكن اصرار الرشيد عليها منذ سنة ١٨٧ هـ حتى وفاته سنة ١٩٣ هـ لا يدع مجالا لمثل هذا الفرض . فان البرامكة لم يقتلوا جميعاً في لحظة واحدة وقد بقي منهم ومن أنصارهم عدد في السجون فلو كان الأمر من نزوات النفس العابرة لكان في السنوات الست التي تلت النكبة ما يهدىء تلك النزوات .

• الاسباب التي ذكرها المؤرخون للنكبة ، تتلخص فيما يلي :

١ - قصة العباسة^(١) :

يذكرون أن الرشيد لم يكن يصبر عن منادمة جعفر ولا عن منادمة أخته العباسة فعقد له عليها ليحضرا مجلسه على ألا يدخل بها ولكنه فعل واستولدها ولداً فغضب الرشيد ونكب العائلة . ذكر القصة ابن الأثير في مطلع الاسباب وذكرها الطبري في آخرها كما ذكرها الاتليدي في كتاب واضح الاسطورة والاضطراب والبعد عن الدقة سماه (إعلام الناس في ما وقع للبرامكة مع بني العباس) واقتبسها زيدان من المحدثين

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٢٢

(٢) الجهشيارى ص ٢٣٦

(٣) الطبري ج ٨ ص ٢٩٤ ، ابن الاثير ج ٦ ص ١٧٥

في قصة (العباسة اخت الرشيد) والاب أنطون اليسوعي (الرشيد والبرامكة) وقد راجت القصة بين الناس لصيغتها العاطفية كماضحى زيدان واليسوعي بالامانة التاريخية في سبيل التسلية وقبلها بعض المؤرخين (كالمدور وخدايش) بشكلها الاسطوري ويمكن لنا أن نرجح أن هذه القصة موضوعة لأسباب عديدة :

آ - يروي الجهشيارى^(١) ان عبد الله بن خاقان سأل مسروراً الكبير (منفذ الاعدام في جعفر) في خلافة المتوكل عن سبب إيقاع الرشيد بالبرامكة فاجاب مسرور «كأنك تريد ماتقوله العامة فيما ادعوه من أمر المرأة ... لا والله مالشيء من هذا أصل ... ولكنه من ملل موالينا وحسد هم» .

ب - هناك عدد من المؤرخين كالدينوري وبعضهم من الموثوق بهم وبمعرفة أخبار العراق وقربهم من عهد الرشيد كاليقوبي لا يذكرونها والجهشيارى بدوره يردّها وابن كثير يقول : «ومن العلماء من انكر ذلك» .

ج - يفهم من ابن قتيبة^(٢) ان العباسة كانت متزوجة يقول : «...أما العباسة فزوجها هرون : محمد بن سليمان فمات عنها زوجها فزوجها من ابراهيم بن صالح بن علي» واذن قصة زواجها الاسمى من جعفر وما أولدها من الولد الخ ... غير ممكنة .

د - يتصدى ابن خلدون لنبد القصة منطقياً في مقدمته ويذكر : ما يجب ان يكون للعباسة من العفاف «لقرب عهدها بالبدواة وسداجة

(١) الجهشيارى ص ٢٥٤ .

(٢) كتاب المعارف ص ١٦٦ .

الدين البعيدة عن عوائد الترف ومواقع الفحش • فأين يطلب الصوت والعفاف اذا ذهب عنها ؟ ... أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم ؟ وكيف يسوغ الرشيد أن يصهر الى موالي الاعاجم على بعد همته وعظم آبائه ..» •

ويضيف ابن خلدون أنه : «لو قاس المنصف هذا الامر على ملك من ملوك زمانه لاستبعده فكيف بالعباسة والرشيد ؟» ولعله مما يؤيد هذا الرأي انه كان من حجج المنصور في قتله ابي مسلم طلبه الزواج من عمة المنصور • فمن البعيد أن يزوج الرشيد أخته من جعفر !

هـ - ليس من المعقول ان يكتم البلاط امر علاقة بلغت مبلغ ولادة البنين بين العباسية وجعفر دون أن تفتضح ، وفي البلاط أعداء كثيرون للبرامية على رأسهم زبيدة وحزبها والفضل بن الربيع ومن حوله •

د - ويمكن ان نضيف أخيراً أن شمول النكبة لجميع البرامية ومن والاهم سنين طويلة ينفي ان يكون سببها أمراً شخصياً ومتعلقاً بشخص جعفر وحده •

٢ - السبب الديني :

يتهم عدد من المؤرخين البرامية بالزندقة ومنهم البغدادي فيذكر أن الباطنية (من المجوس) لما لم يستطيعوا اظهار عبادة النار زينوا للمسلمين اتخاذ المجامر للبخور في المساجد «وكان البرامية قد زينوا للرشيد ان يتخذ في جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها العود ابدا فعلم الرشيد انهم أرادوا من ذلك عبادة النار في الكعبة وان تصير الكعبة بيت نار فكان ذلك أحد أسباب القبض على البرامية» • وابن النديم يقول • «أن البرامية بأسرها - عدا محمد بن خالد بن برمك - كانت زنادقة» وقد

ظهرت من البرامكة أعمال تتهمهم بعض التهمة في ذلك ومنها تقرييهم لبني سهل وهم مجوس وتقديم الفضل بن سهل وكان مجوسياً اذ ذاك السي المأمون .

ولعل هذا السبب واضح التهافت ؛ فلو كان البرامكة يطنون الكفر ، لاستطاع الناس أن يأخذوا عليهم — وقد امتدت أيامهم نصف قرن — أكثر من هذه الاتهامات الغامضة . ولكانوا أيضاً تبينوا بعض الأفكار الدينية أو السياسية ليفطوا عقائدهم المجوسية . وإنما أتى البرامكة في هذه الناحية من الحسد ، ولنذكر انهم كما رأينا من قبل لم يكونوا في الغالب مجوساً . كما أن الاتهام بالزندقة والمجوسية في العصر العباسي الأول كان حجة سياسية طالما أشهرت في وجه كل أعجمي يتهم في أمره .^١ ولنلاحظ أن الجهشيارى حين نفى ، على لسان مسرور الخادم قضية العباسية نفى في الوقت نفسه قصة المجامر المتخذة للبخور في الكعبة قائلاً عن الأمرين : لا والله مالشيء من هذا أصل !

٣ - السبب المالي :

يقول ابن خلدون «... إنما نكب البرامكة ما كان من استيادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه^(١) » . ويقول الجهشيارى^(٢) : «... وكان البرامكة قد فارقوا الرشيد على شيء يطلقونه من المال للحوادث ، سوى نفقاته وما يحتاج إليه هو وعياله ، وأنه طلب من جعفر عشرة آلاف درهم ، فقال :

(١) ابن خلدون المقدمة ص ١٥

(٢) الجهشيارى ص ٢٤٣ وص ٢٤٩

«لا توجد عندنا دراهم» • مع أن وارد الدولة السنوي كان يبلغ في ذلك العهد (٥٣٠) مليون درهم ونيف حسب قول الجهشيارى نفسه • وهو يروي مرة أخرى أن الرشيد طلب مرة من يحيى مليون درهم فلم يجب طلبه ، وكان قد ورد من فارس ستة ملايين درهم ، ثم أخذ يحيى منها مليوناً ونصف المليون وفرقها في عماله ٠٠٠ (١) •

وملك البرامكة عدا هذا كثيراً من الضياع «وحاز جعفر - على قول الدميري - ضياع الدنيا لنفسه ، فكان الرشيد لا يمر بضیعة ولا بستان ، إلا قيل هذا لجعفر ٠٠٠» وبني قصرأ كلفه عشرين مليون درهم (٢) • ويروي الجهشيارى أن يحيى البرمكي شاور بعض أصحابه حين رأى تغير الرشيد عليه فقال له : «ان أمير المؤمنين قد أحب جمع المال وكثر ولده فأحب أن يعقد لهم الضياع ، وقد كثر على أصحابك عنده ٠٠٠ فلو نظرت إلى ما في أيديهم ٠٠٠ فجعلتها لولد أمير المؤمنين وتقربت بها إليه ، رجوت لك السلامة» فلم يرض يحيى بذلك •

وقد شعر الرشيد بتسلطهم المالي وغناهم ، فهو يقول لمسرور : «قد نهبوا أموالى وذهبوا بخزائنى» ويروي الاتليدي له قوله : «أغنيانهم وأفقرنا أولادنا ، ولم تكن لأحد من أولادنا ضیعة من ضیعة البرامكة» وقد «ضرب الرشيد يحيى مائتي سوط ليقر له بما أخفاه من الأموال (٣)» ويمكن أن نكون فكرة تقريبية على مال البرامكة من :

(١) الجهشيارى ص ١٤٩ و ص ٢٤٣

(٢) الطبري ج ٨ ص ٢٩١ (٣/٦٧٣)

(٣) الجهشيارى ص ٢٤٤

أ - واردهم السنوي الذي بلغ (في رواية ابن عبد ربه وابن قتيبة) عشرين مليون درهم .

ب - مقدار ما قبضه الرشيد من أموالهم وقد بلغ ثلاثين مليوناً وستمائة وستين ألف درهم (في بعض الروايات) . هذا عدا ضياعهم وغلاتهم ودورهم ورياشهم وهي ثروتهم الحقيقية لانهم كانوا ينفقون المال - على ما يقول الجهشيارى - ولا يدخرونه .

ج - عطايا البرامكة وأخبارها كثيرة : وقد بلغ بعض عطاياهم أربعة ملايين درهم^(١) . وأحياناً عشرة ملايين درهم ، كما في قصة منصور بن زياد التي رواها الجهشيارى . وقد قلد جعفر الخلفاء في العطاء ف ضرب دنانير خاصة للصلوات : وجد في خزائنه في صرة ألف دينار قيمة كل دينار مائة دينار ودينار ، وفي بركة له أربعة آلاف دينار من هذا النوع وكان قد أمر ان تضرب له دنانير قيمة كل منها ثلاثمائة دينار^(٢) .

وهذا السبب كما يظهر ، كان عاملاً من العوامل الرئيسية في النكبة ولكنه لا يمكن أن يقوم وحده لتفسيرها .

٤ - السبب الشخصي :

يذكر المؤرخون كثيراً من القصص كأسباب للنكبة ، كقصة غناء الجارية له بيتين من الشعر :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

(١) يمكن أن نرى نتفاً من أخبار العطايا الجزيلة في الجهشيارى ص ١٩٢ وص ٢٢٢ والطبري ج ٨ ، ص ٢٩١ والبغدادى ج ٧ ص ١٥٢
(٢) البغدادى ج ٧ ص ١٥٦

وأكدت في غناء الشطر الأخير ورجعته ، حتى قام الرشيد من ساعته
فأمر بنكبة البرامكة^(١) . وثمة قصة شراء إحدى الجوارى بمال كثير جداً
فأراد جعفر أن يظهر للرشيد إنكاره ذلك ، فجعل المال كومة كبيرة في
طريق الخليفة في القصر ليرى ضخامة المبلغ فيحجم فأكنها الرشيد له .
وقد لا يكون لمثل هذه الأمور الشخصية أكثر من قيمة وقتية حددت
يوم الفتك ولكنها لم تكن سببه ، وبلغت بتراكم الأسباب لدى الرشيد
بعد التصميم ولكنها لم تكن السبب الدافع ولا الوحيد ولا يسكن ان تهم
الرشيد بالاعتطاط التقدير السياسي الى هذا الدرك ، على انا نعد من جملة
الاسباب الشخصية امر الوشاية والدس . ويظهر انه كان لهذا الامر
شأنه الاول في تدير النكبة : فقد كانت علاقة الرشيد بجعفر خاصة ،
قائمة على الصداقة وال عاطفة وهي عرضة - في مثل طباع الرشيد
الحساسة - للتأثر والاضطراب وقد أحس بذلك يحيى الاب فقال يوماً
للمرشيد «والله إني أكره مداخلة جعفر منك ولست آمن ان ترجع العاقبة
في ذلك علي منك . فلو اغفيتها واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم
اعمالك كان ذلك واقعاً بموافقتي وآمن لك علي» .

وقد دخل الخصوم على البرامكة من ناحية الدين والدولة على
السواء واستغلوا كل الاتهامات الآلية والسياسية والدينية والاعطاء
الادارية لتضخيم خطرهم وتشويه اعمالهم وإشمار صدر الرشيد عليهم :
وعلى رأس هؤلاء الاخصام زبيدة زوج الرشيد التي كانت تكره البرامكة
(وكانوا هم بدورهم يضايقونها) وتشكرهم للرشيد (حتى ابلغ ذلك مرة
ليحيى نفسه) ويقال انها حملت القضية عليهم منذ أكد جعفر البيعة في

(١) انظر الطبري ج ٩ ص ١٢٦ (١٢٢٢/٣)

الكعبة للمأمون على الأمين (والمسعودي يعتبرها أحد أسباب النكبة) ثم نذكر من الأخصام الفضل بن الربيع وهو حاجب الرشيد وابن خلكان يذكر أثر سعايته في نكبتهم وهو الذي أعلم الرشيد بإطلاق سراح يحيى ابن عبد الله العلوي في السجن بأمرهم . ونذكر أيضاً علي بن موسى واتهامه لموسى بن يحيى بالتآمر مع الخراسانيين على الرشيد مما أدى لسجنه . كما كان يتبرع الكثيرون (رغبة أو حسداً) للدس على البرامكة ونسمع في بعض الأخبار بأمر قصائد تصل الرشيد ضدهم وعظات تلقى عليه ليوقفهم عند حدهم ، كموعظة محمد بن النيث له في انهم لا يغفون من الله وقد جعلهم بينه وبين الله الخ ...

ويظهر ان اثر هذه الوشائات قوي كل القوة بعد تنكر الرشيد لأمور البرامكة وثبات الرية منهم في نفسه . ويمكننا ان نطلع على ذلك من روايتين رواهما الجهشيارى^(١) وابن الطقطقي هما ان الرشيد كان في أوائل حكمه جالساً على شرفة قصر الخلد فسمع صيحة عظيمة عرف انها خارجة عن المتظلمين الذين اجتمعوا حول يحيى بن خالد فقال : «بارك الله عليه واحسن جزاءه فقد خفف عني وحمل الثقل دوني وناب منابي» . وسمع الرشيد الضجة نفسها من المكان نفسه بعد سنين عديدة فقال : «فعل الله بيحيى وفعل ، استبد بالامر دوني وأمضاها على غير رأيي وعمل بما احبه دون محبتي» .

٥ - السبب السياسي :

ولعله ابو الاسباب جميعاً وعقدتها ويمكن ان نبثه من وجهات ثلاث :

(١) الجهشيارى ص ٢٤٥ :

أ - في التشيع :

وللمستشرق بارتولد رأى ملخصه ان المذهب الشيعي انتشر في ايران بين الطبقات العامة لأنها وجدت فيه وسيلة لمقاومة الامويين السنة وان الارستقراطية الفارسية اتفقت مؤقتاً مع العامة واجتمعت تحت راية ابي مسلم «وهو احد رؤساء الشيعة» وحاربوا الأمويين ولما بلغوا العاية تباينت المنافع فقتل ابو مسلم وقام انصاره ضد العباسيين وقد ثابر البرامكة مثلوا الطبقة الارستقراطية على السمل لصالح الخلفاء العباسيين حتى صاروا ضحية رد الفعل الديني في أواخر خلافة هارون الرشيد^(١) «وفي هذا الرأي خطأ وتناقض فالنزاع بين الأمين والعباسيين لم يرتد يوماً ما صبغة نزاع سني - شيعي . وبلاد ايران لم تعرف التشيع العلوي حتى اواسط العصر العباسي الاول وانما كانت الدعوة الاولى فيها عباسية لا شيعية ونرى من ناحية اخرى اننا لسر سلماً بصحة الرأي وبان الارستقراطية عادت بعد اتفاقها الموقت مع العامة الى تأييد البيت الحاكم فان ذلك لا ينتج عنه أن البرامكة يمكن ان يكونوا شيعة . ولا يمكن ان نعتبر نكبتهم نتيجة رد فعل ديني من الرشيد ضد التشيع ولم نعرف عن الرشيد التسامح مع العلويين في أول عهد لنعتير النكبة البرمكية رد فعل منه ضدهم في اواخر أيامه . ولقد يكون البرامكة ميول علوية ولكن الفرق كبير بين وجود الميول وبين وصفهم بالتشيع . على انه ليس بالبعيد أن يكون لهذه الميول العلوية أثرها في تهيئة مقاتل البرامكة في خاطر الرشيد^(٢) .

ب - في العامل القومي :

يوصم البرامكة دوماً بالميل مع فارسياتهم ويشترك مع هذه الوصمة

(١) بارتولد - الحضارة الاسلامية ص ٦٥ - ٦٦ .

(٢) للدكتور احمد فريد الرفاعي في عصر المأمون رأى بان البرامكة كانوا معتزلة ولاندري مصدره في هذا ولا مبلغ ذلك في تفسير النكبة .

دوماً الاتهام الديني بالمجوسية واذا كانت هذه التهمة بعيدة فالتعصب للفرس - على ما يظهر - امر محتمل الوقوع . فالمنصور يتهم خالداً البرمكي وهو يحاوره في هدم ايوان كسرى بالليل مع اعجميته . وقد كان البرامكة يعضون العرب ويحاولون اقضاءهم عن مناصب الدولة فهم كما ذكر ابن النديم يكرهون محمد بن الليث لميله على العجم ويسعون لدى الرشيد للايقاع بيزيد بن يزيد الشيباني ولاتهامه بالتراخي في حرب الخوارج من بني شيان . . . كما يذكر البيروني ان الفرس اجتمعت لخالد تسأله تأخير النوروز (الانقلاب الصيفي وموعد جباية الخراج) نحو من شهرين ليتفق موعد الجباية مع نضج الزرع كما كان عليه الامر زمن بني ساسان فعزم يحيى فتكلم اعداؤه فيه واتهموه بالتعصب للفرسية (المجوسية) فأضرب عن ذلك . كما أنهم حين استحكم لهم الأمر نظموا جيشاً في خراسان من نصف مليون جندي عمل الرشيد طويلاً - بواسطة علي بن عيسى بن ماهان - على ضرب قواعده وتشتيته .

ويظهر انه كان للبرامكة يد في تكتيل ما يشبه الحزب الفارسي في الدولة فقابله العرب بتكتل آخر تزعمته زبيدة زوج الرشيد . ومن نتيجة نزاحم هاتين الكتلتين كان النزاع الاخوي بين الامين والمأمون ويلاحظ ان بعض الحُصام البرامكة (كعلي بن عيسى بن ماهان) ينضمون الى الكتلة العربية نكاية بهم ولاسقاطهم .

ج - في ادارة الدولة :

وها هو المجال الرئيسي لبحث سر النكبة : فالمؤرخون يجمعون على أن البرامكة استبدوا بالدولة (يذكر ذلك الطبري واليعقوبي

والجهشياري والمسعودي (٠٠٠) وانهم «غلبوا الرشيد على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في شؤون ملكه» «وقد يكون في هذا بعض المبالغة ولكنه يستند الى اساس واقعي من النفوذ البرمكي» ، ويعزو اليعقوبي نكبتهم الى ذلك بقوله : «قيل ان جعفرا والفضل ظهر منهما من الادلال مالا تحمله نفوس الملوك فنكبتهم لذلك» ويرى رأي ابن العماد في شذرات الذهب والياضي في مرآة الجنان ..

ولعل ابن خلدون كان من أنفذ المؤرخين نظراً في الأمر حين أجمل أسباب النكبة في أربعة أمور واضحة :

- ١ - استبداد البرامكة بأمر الدولة وعلو اسمهم على اسم الخليفة .
- ٢ - استيلائهم على الضياع والمال .
- ٣ - اصطناع الأقارب والمحاسيب في الوظائف .
- ٤ - سعاية الحساد بهم عند الخليفة .

ويلفت النظر عند ابن خلدون كلامه عن استئثارهم بالمناصب وقوله إنهم «عمرؤا مراتب الدولة وحططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم عن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة حجابة وسيف وقلم ٠٠٠» وقد لا يكون لهذه الأمور قيمتها وقد تكون تلك الدالة من جمع المال وتعيين الأقارب أمراً عادياً لولا أنها أضحت في النهاية مجالا للفساد عليهم من الحساد من جهة ومجالا لارتباب الرشيد في أمرهم وولائهم الشخصي له من جهة أخرى والسير الحقيقي للنكبة يجب أن يبحث عنه في هذه

النقطة بالذات التي أدت - في فترات من قصر النظر السياسي - إلى
الغزو البرمكي وإلى أن يتصرف البرامكة تصرفات سياسية خطيرة
في الدولة تجاوزوا حدودهم فيها ولا شك أن الرشيد رآها تعبر عن ميول
معيّنة خطيرة على سلامة دولته فلم يحتملها - وعند هذه التصرفات
الخطيرة إذن تقف قللاً بالتحليل لأنها السبب المنطقي الوحيد الذي
يكشف النكبة البرمكية .

د - تهديد خلافة الرشيد : يبدو أن الرشيد بعد مرور سنوات
على تسليمه أمور خلافته التسليم المطلق للبرامكة بدأ يشعر بخطر بعض
تصرفاتهم عليه . ويبدو أن انتباهه إلى تلك التصرفات - ولا شك أن
لرجال العاشية من أعداء البرامكة يداً في إثارة هذا الانتباه - إنما بدأ
بالذات سنة ١٧٩ ، كما يبدو أخيراً أن الأسباب قد تراكت لديه سنوات
عديدة بعد ذلك حتى أفضت إلى النكبة سنة ١٨٧ ، وترفدنا في هذا
المجال قصة تذكر أنه أخذ عليهم «أربعة عشر أمراً» يروي الجهمياري
ذلك نقلاً عن مسرور الخادم ، جلاد الرشيد ويروي بعض تلك الأمور في
قصة أثنى فيها الخليفة يحيى بن خالد البرمكي من السجن فندد به وهو
يسددها ومنها^(١) :

أولاً : أن يحيى البرمكي حمل إلى يحيى بن عبد الله المحض
وهو ثائر بالديلم مائتي ألف دينار وقد أقر بذلك وبأنه إنما أراد أن
تقوى شوكة العلوي فيتوجه الفضل بن يحيى لقتاله فينتصر عليه فيكون

(١) الجهمياري - الوزراء والكتاب ص ٢٤٢ - ٤٣

أحظى عند الرشيد . وقد تم ذلك بالفعل وسقط العلوي في السجن^(١) .
ثانيا : أن البرمكي أنفذ مع غلامه رياح إلى ثائر علوي آخر هارب
مختلف بالبصرة هو أحمد بن عيسى بن زيد سبعين ألف دينار .

ثالثا : أن عائلة الرشيد طلبت وهو بالبصرة ، ألف ألف درهم من
يحيى البرمكي وقد ورد عليه من خراسان ستة آلاف ألف درهم فرفض
ثم أخذ هو منها ألف ألف وخمسمائة ألف ففرقها في عماله . واضطر
الرشيد أن يقترضها منهم بواسطة يونس بعض رجاله .

وإذا لم تأت القصة ببقية الامور فلعلنا نستطيع أن نقدر بعض هذه
البقية في النقاط التالية : ويرجع أقدمها الى سنة ١٧٩ وهي :

رابعا : مشكلة جيش خراسان وخراسان : ولعلها النواة التي
تكونت وتراكت من حولها باقي الاسباب فقد عين الرشيد الفضل بن
يحيى سنة ١٧٨ والياً على الجانب الشرقي من الدولة فشنخص الى خراسان
وأقام فيها عاماً وبعض العام . ولم تكن تصرفاته كوال تختلف عن تصرفات
أمثاله من الولاة المطلق اليد والسلطة ولكنه قام بعمل خطير لا شك أن
حاشية الرشيد العربية استطاعت أن تكشف له أبعاده السياسية وتجعله
ركيزة الشكوك : ذلك أن الفضل جند جيشاً عظيماً من ٥٠٠ ألف جندي
من العجم — وهو رقم خطير لم يجتمع من قبل جيش في عدده وقد يكون
فيه بعض المبالغة — وسماهم العباسية ودون أسماء جنده في سجلات

(٢) كان ذلك سنة ١٧٦ أي قبل النكبة بزمان طويل وفي وقت كان
فيه الرشيد مسلماً بكل شيء للبرامكة لكن هذا لا يمنع من أن يكون
الرشيد ، بعد انتباهه لتأمر هؤلاء وتقريره نكبتهم قد عاد بذاكرته الى
مثل هذه الحادثة فحل معناها وضمها الى أخطاء وزرائه وعدها دليلاً على
تأمرهم .

خاصة وأجرى عليهم الارزاق الدائمة «وجعل ولاءهم لهم» أي للعباسيين فلما قدم بغداد ، قدم في عشرين ألفاً منهم سموا في بغداد الكرمنية وخلف الباقي بخراسان على اسمائهم ودفاترهم^(١) . كما خلف على الولاية أخاه موسى بن يحيى الذي قيل عنه إنه «أحد الفرسان الشجعان» وأنه مغامر «يفعل ما لا يجد»^(٢) وأقيم للفرقة الكرمنية في بغداد معسكر في الرصافة وجعلوا حرساً للرشيد !

ولا شك أن أعداء البرامكة - وفي الحاشية والبلاط منهم الكثير - استطاعوا أن يؤكدوا للرشيد أنه أصبح الآن الأسير المطلق كل التطويق من البرامكة وهذا ما يفسر تحركه البطيء والثابت في الوقت نفسه للخلاص من هذا الخطر : وقد أخذت سياسة المطاولة والتدبر البطيء بعض الوقت منه : عزل أولاً الفضل بن يحيى عن خراسان سنة ١٧٩ وأبقاه على ولايتي طبرستان والرويان ثم عزله عنهما سنة ١٨٠ وعن الري وعين مكانه أخاه جعفرأ سنة ١٨٠ / ٧٩٦ بعد أن أخذ الخانم منه وجوله الى أبيه يحيى ..

ولم يسمح الرشيد لجعفر بالمسير الى خراسان لأنه وإنما عينه لتبرير عزل أخيه فلم تمض عشرون يوماً على التعيين^(٣) حتى عزله عنها أيضاً وجعله رئيساً للحرس ثم عزل جعفرأ أيضاً عن الحرس وجعله لهرثمة بن

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٥٧ (٦٣١/٣) وانظر العيون والحدائق لمؤلف

مجهول ص ٢٩٦

(٢) الجهشيارى - الوزراء والكتاب ص ١٩٨ والطبري ج ٨ ص ٢٩٣

(٦٧٥/٣)

(٣) الطبري ج ٨ ص ٢٦٦ (٦٤٤/٣)

أعين ... وبرر الرشيد عزل جعفر عن خراسان بأن أعطاهما لواحد من كبار الامراء العباسيين : عيسى بن جعفر (أخى زبيدة زوج الرشيد) . ولم يستطع اليرمكي أن يقول شيئاً في ذلك لمكان عيسى من الأسر المالكة ، ثم لم تمض أشهر حتى عزل الرشيد عيسى بن جعفر وأعطى ولاية خراسان الى علي بن عيسى بن ماهان وهو من أكبر أعداء البرامكة .

وسار ابن ماهان إلى خراسان مسرعاً فكان أول ما فعله أن قطع أرزاق الجند العباسية في خراسان فأنحل أمرهم . واضطهد أنصار البرامكة من الدهاقين والطراخنة وقسا عليهم بالمصادرة والقتل حتى « قتل وجوه أهل خراسان وملوكها وطراختها » (١) وتنقل ما بين الري ومرو وسمرقند يجمع الأموال الطائلة ، بغية الاقفار في الغالب . بدليل أن الوفود الخراسانية جاءت تشكوه إلى الرشيد وأن البرامكة اتهموه عنده أنه « قد أجمع على الخلاف » (٢) و « حمل عليه » فاستدعاه الرشيد سنة ١٨٣ فجاءه وقد حمل مالا عظيماً .. روى الجهمشياري أنه كان ألف بدرة معمولة من ألوان الحرير وفيها عشرة آلاف درهم .. إلا أنه لم يعزل .. وبقي على الولاية يحكمها ، ذلك أن الرشيد عرف في تلك السنة ١٨٣ أموراً أخرى أضيفت إلى الأولى .

خامساً : وصل ضغط الحزب الفارسي - اليرمكي في سنة ١٨٢ - ١٨٣ إلى أوجه لإعطاء ولاية العهد الثانية للمأمون . وقد شهد الرشيد حماسة جعفر اليرمكي وتحريكه كل القوى لهذه القضية

(١) الجهمشياري - الوزراء ص ٢٢٨
(٢) الطبري ج ٨ ص ٧٢٠ (٣/٦٤٨-٩)

وبالرغم من أنه قبلها وأقرها وقبل معها إعطاء المأمون ولاية خراسان إلا إنه أبقى على تلك الولاية علي بن عيسى بن ماهان باسم المأمون^(١) . ولا شك أنه إنما قصد إلى متابعة سياسته المرسومة في إفقار الجهابذة والدهاقين هناك وتدمير القواعد التي بناها البرامكة لأنفسهم في المنطقة .

سادساً : في تلك الفترة نفسها : اتصل الرشيد — عن طريق الفضل بن الربيع زعيم الحزب العربي — أن جعفرأ قد أطلق يحيى بن عبد الله المحض من السجن دون معرفته . وقد أتى الخليفة بجعفر وسأله فاعترف له جعفر بالأمر . فقال الرشيد : « نعم ما فعلت . ما عدوت ما كان في نفسي » فلما ذهب جعفر قال الرشيد : « قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك ! »^(٢) .

ويعقب الطبري على هذه الرواية بقول أبي محمد الزيدي راويها « — وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم — من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله فلا تصدقه... »^(٣) .

(١) الطبري — المصدر ذاته وابن الاثير ١٦٣/٦

(٢) الطبري ج ٨ ص ٢٨٩ (٣/٦٦٩-٦٧٠)

(٣) تكاد تجمع المصادر كالمسعودي (مروج ٣/٣٥٢) وأبي الفرج الاصبهاني (مقاتل الطالبين ص ٤٧٢) واليعقوبي (٣/١٤٠) وابن الحنبلي (شذرات ٢/٣٣٧) أن يحيى بن عبد الله قتل في السجن وتحدد بعض المصادر موعد ذلك بعد سنة ١٧٦ بقليل وفي هذا ما ينفي قصة اطلاق سراحه وأثرها في نكبة البرامكة . إلا أن تكون قضية مقتله في السجن (وهي مختلفة الروايات) إنما كانت من قبيل التغطية على هربه . وأن تكون

سابعاً : وعلم الرشيد في تلك الفترة من سنة ١٨٣ وما بعدها بأمر آخر من النوع نفسه : فقد كان قد دفع إلى الفضل بن يحيى بالإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق وأراد منه أن يتناوله بالعقوبة - وكان ذلك دون شك عن تخطيط سياسي يقصد إلى تشويه موقف البرامكة أمام العلويين لا سيما وقد كان الرشيد « قد صرف الفضل بن يحيى عن الأعمال التي كان يتقلدها - أولاً بأول - كما قال الجهشيارى - ^(١) فلم يفعل الفضل . وبلغ الرشيد أن الإمام عنده في رفاهية وسعة . وكان الرشيد في الرقة فأرسل إلى السندي بن شاهك صاحب شرطة بغداد أن يجلد الفضل ويحتفظ لديه بالإمام وقال بحضور يحيى البرمكي الأب: أيها الناس إن الفضل قد عصاني وخالف طاعتي فرأيت أن ألعنه . » .

واضطر الفضل أن يشخص إلى الرقة ومعه أمه زبيدة بنت منير (مرضة الرشيد) يسترضيه : « فرضي عنه وأقره مع الأمين لحضاته » ولكنه « لم يرد إليه شيئاً من أعماله » ^(٢) بعد ذلك .

ثامناً : سجن الرشيد عبد الله بن الحسن العلوي المعروف بالأفطس عند جعفر بن يحيى فضيق عليه تضيقاً جعل عبد الله يكتب إلى الرشيد كتاباً فيه اللوم والسباب فطلب الرشيد من جعفر أن يرفه عنه ولا يلجئه إلى مثل هذا الكلام ولكن جعفر أقتله وبعث برأسه

معرفة الرشيد بالهرب إنما جاءت متأخرة سنوات عن تاريخ هربه الحقيقي . . وان يكون يحيى قد ظل متخفياً لا يظهر لاسيما بعد نكبة البرامكة حتى توفي . . وهو ليس بغريب في ذلك العصر .

(١) الجهشيارى - الوزراء والكتاب ص ٢٢٧

(٢) المصدر ذاته

إلى الرشيد ! ولعله ظن في ذلك القربى وإثبات الولاء فارتاع الرشيد وبهت • وعاتب جعفرأ ووبخه^(١) ••• ولكن بعد أن دمر جعفر علاقة الرشيد بكثير من العلويين • ذلك أن الرشيد كان يتخرج دوماً من أن يتهم بدم أي علوي كما يظهر ذلك من إشهاده الشهود على شحوب يحيى بن عبد الله المحض ، وموت موسى الكاظم الموت الطبيعي^(٢) •

تاسعاً : ووصل الرشيد أيضاً في تلك الفترة ذاتها من سنة ١٨٣ وما بعدها من ابن ماهان صاحب خراسان أن التهمة التي توجه إليه إنما هي تغطية لأعمال البرامكة أنفسهم في تلك المنطقة فإن موسى بن يحيى البرمكي كان يكتب أهل خراسان - وهم يطيعونه ويحبونه - ليسير إليهم ويخرجهم عن الطاعة ، فأقر ذلك في نفس الرشيد وشعر موسى - كما يبدو - بالأمر ، فتواري فترة عن الأنظار • وادعى البرامكة أنه ركه دين وأنه اختفى من غرمائه ، فتوهم الرشيد أنه صار إلى خراسان كما قيل له •• ويبدو أن والده يحيى أقنعه بالاستسلام وانتهاز مناسبة عودة الرشيد من الحج مع وليي عهده سنة ١٨٦ فوافاه موسى في الحيرة فأمر به فسجن عند العباس بن موسى في الكوفة ثم تشفعت أمه في أمره على أن يضمه أبوه •• فأطلقه^(٣) •

وهذه الأمور كلها جعلت الرشيد يقصر من حبال البرامكة ويتربص الفرص السانحة لموقف حاسم يسحب به من أيديهم كل

(١) ابو الفرج الاصبهاني مقاتل الطالبين ص ٣٢٨

(٢) انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٤١٤ والبغدادي - تاريخ بغداد ج ١٣

ص ٣٠ و ج ١٤ ص ١١٠ والطبري ج ٨ ص ٦٢٠

(٣) ابن الاثير ج ٦ ص ١٧٧ والطبري ج ٨ ص ٢٩٣ (٦٧٦-٦٧٥/٣)

السلطات التي كان أعظامهم إياها . وقد كان تسليمه كافة أمور الدولة لهم في السنوات العشر أو الاثنتي عشرة الأولى هي التي تخرج موقفه في سحبها كلها الآن منهم . وتروى بعض القصص أنه كان حائراً يستخير الله . ويروون عن مسرور خادمه أنه فاجأه وهو متعلق بأستار الكعبة سنة ١٨٢ يقول : اللهم إني استخيرك في قتل جعفر .. فتواري الخادم رعباً أن يراه (١) .

ولم يكن موقف الرشيد المتزايد في البرودة وفي التباعد بالود ليخفي على يحيى بن خالد البرمكي الأب ، ونجد في المصادر أنه يطلب أكثر من مرة الاذن له بالمقام في مكة وجدة (٢) . . كما نجد بين الأخبار أنه كان بدوره يستنجد الله في الكعبة (٣) . . وأنه عرف تغير الرشيد عليه وعلى أولاده فذهب يستشير المقربين ماذا يفعل . (٤) وأنه كان دائم الخوف من انقلاب الرشيد على الأسرة (٥) . . ويبدو في الوقت نفسه أن جفاء الرشيد مع البرامكة لم يبق سراً في الفترة الأخيرة كعهدهم وكان الناس فيما يبدو يتحدثون في نكبة البرامكة قبل أن تحدث ويروي الطبري أن « الناس قالوا في البرامكة فأكثروا وكان ذلك أول ما ظهر في تغير حالهم » (٦) كما يروي أبو الفرج الأصبهاني أن إسحق الموصلي دخل على الرشيد فسأله : إيه يا إسحاق . بماذا يتحدث الناس

(١) الجاحظ - كتاب التاج في اخلاق الملوك ص ٦٦

(٢) الطبري ج ٨ ص ٢٦٨ و ص ٢٧٤ و ص

(٣) الطبري ج ٨ ص ٢٩٢ (٣/ ٦٧٤ و ٦٧٥) والجهشياري ص ٢٢٢

(٤) الجهشياري - الوزراء ص ٢٢٧ .

(٥) الطبري ج ٨ ص ٢٩٣ و ص ٢٩٢ والجهشياري ص ٢٢٤-٢٢٦

(٦) المصدر نفسه ص ٢٨٨ (٣/ ٦٦٩) .

قلل : يتحدثون بأنك ستقبض على البرامكة وتولي الفضل بن الربيع
الوزارة فصاح الرشيد بوجهه : ويلك . وما أنت وذلك ؟ فسكت
إسحق ولم يجر جواباً^(١)

وجاءت أخيراً القشة التي قصمت ظهر البعير في مشكلة خطيرة
أخيرة هي :

عاشراً : مشكلة عبد الملك بن صالح بن علي العباس . فقد عاد
الرشيد من الحج سنة ١٨٦ ، بعد أن علق عهد ولديه في الكعبة ورأى
بعينه أن جعفر بن يحيى يمسك بالأمين ويطلب إليه أن يقول ثلاث
مرات عن أخيه المأمون : خذني الله إن خذلته^(٢) . . ولكنه علم فيما
يظهر وهو في طريق العودة أن جعفرأ متفق مع عبد الملك بن صالح
العباسي على تحويل الخلافة إليه . .

لا تذكر أي من المصادر هذا الأمر بهذه الصراحة ولكن القرائن
تؤدي إلى مثل هذه التهمة :

أ - فإن عبد الملك بن صالح أبرز وجوه الأسرة العباسية
يومذاك كان من أشد خصوم البرامكة من قبل ولكنه أضحى في تلك
الفترة من أصدقائهم المقربين .

ب - ما كاد الرشيد ينتهي من قتل وسجن ومصادرة البرامكة
حتى أعلن أنه كشف تآمر عبد الملك عليه في سنة ١٨٧ نفسها . وتذكر
المصادر أن الذي تطوع وكشف الأمر للرشيد هما اثنان : عبد الرحمن

(١) الاصبهاني - الاغانى (ط . بولاق) ج ٥ ص ١١٤

(٢) الجهمشيري ص ٢٢٢

ابن عبد الملك نفسه ، وقمامة كاتب عبد الملك^(١) وهو أمر مستغرب لو لم يشعر هذان الاثنان بأن نكبة البرامكة القاسية سوف تلحق بهما أيضاً وإلا فما الذي يدفعهما لكشف التآمر .

ج - ما كاد الرشيد يقبض على عبد الملك حتى بعث إلى يحيى البرمكي في السجن يطلب منه معلوماته عن المؤامرة ويتهدده بقتل ابنه الثاني الفضل ، وهو سجين معه إن لم يدل بما يعرف^(٢) .

د - وأخيراً لم يكن الرشيد قد وصل عاصمة ملكه بغداد حين أمر بقتل جعفر والتمثيل به : أتى برأسه إليه وقطع جثته نصفين وصلبها على الجسرين في بغداد ثم أمر بعد ذلك بسنوات بإحراقها ! بينما اكتفى بسجن أبيه وإخوته ومصادرة أملاك الأسرة وأصحابها . ثم ما كاد يعلن تآمر عبد الملك العباسي حتى تشدد أقصى التشدد مع البرامكة ثم رفض أي التماس للعفو عنهم حتى من أمهاته المرضعات ومن أقرب الناس إليه وكان يقول : « لو وثقت بصفاء نيتهم لأعدتهم إلى حالهم ولكنهم قوم كفروا النعمة وأرادوا الشر بي . ومن أراد بي ذلك فلا غفران له .. » أو يقول « عظيم ذنبكم أمات خواطر العفو عنكم .. »^(٣) ومات يحيى وابنه الفضل في السجن .

وهذه السرعة من ايقاع النكبة والرشيد ما يزال في الطريق إلى

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٠٢-٣٠٣ (٢/٣٦٨٩-٦٩٠)

(٢) الطبري ج ٨ ص ٣٣٠ (٣/٦٩٣)

(٣) انظر ابن خلكان (طبعة بولاق) ج ٢ ص ٣٦٥ وابن قتيبة - المعارف ص ١٣٥ - وقد مات يحيى بن خالد في السجن سنة ١٩٠ في بلدة الرقة وعمره سبعون سنة .

بغداد^(١) وتلك القسوة الشديدة التي رافقت تنفيذها ليس يبررها إلا أن يكون الأمر يتعلق بسلامة الرشيد نفسه وملكه ومما لا يمكن معه الإهمال والمهادنة ، ويبدو أن الرشيد فضل على طريقته من المداورة الهادئة أن يفتك أولاً بجعفر وأهله وهم الأبعدون فلما انتهى منه التفت إلى الجناح الثاني من المؤامرة أي إلى الأقربين وادعى أن ابن عبد الملك وكاتبه قد تطوعا لكشف تآمر عبد الملك عليه وذلك كي لا يحتاج أنصار البرامكة والعباسيين المتآمرون معاً ضده لو فتك بالطرفين في وقت معاً .. ولهذا ترك الرشيد مقتل جعفر ونكبة أهله بدون تبرير واضح . وإذا لم يعلن فيما بعد ارتباط المتآمرين عليه أحدهما مع الآخر فلائنه كره أن يعرف الناس أن أقرب المقرين إليه عائلياً ووظيفة يكرهان معاً بقاءه ويتآمران معاً عليه .

وتروي المصادر أن الرشيد أتى بعبد الملك إليه فندد به وأخذ بشهادة ابنه وكاتبه ضده واتهمه بأنه ليس لصالح العباسي ولكنه لمروان الجعدي^(٢) ثم سجنه وهو يقول : أما والله لولا الإبقاء على بني هاشم لضربت عنقك ..

فهل كان بإمكان عبد الملك أن يتآمر وحده للوصول إلى الخلافة.

(١) يذكرون أنه عاد من الحج إلى الحيرة فأقام أياماً ثم شخص بالسفن إلى الأنبار فنزل بناحيها عند العمر ومن هناك أمر بما أمر في البرامكة (الطبري ج ٨ ص ٩٢٥)

(٢) كانت أم عبد الملك جارية لمروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين أخذها صالح بن عبد الله فولدت له عبد الملك وقيل أنها كانت حاملاً به من قبل مروان . فلما عيره الرشيد بذلك قال : ما أبالي أي الفحلين غلب عليّ (الطبري ج ٨ ص ٣٠٥ - ٣٠٦/٣) .

لو لم يكن قد اتفق مسبقاً مع أقوى الجماعات المسيطرة على الدولة وليس من جماعة يومذاك تعدل في قوتها البرامكة وأنصارهم ومواليهم وصنائعهم الذين كانوا يشكلون دولة أخرى في دولة الرشيد كما قال أبو الفرج الأصبهاني^(١) وبالمقابل فإن انصراف الرشيد عن البرامكة بعد إذلالهم السابق وظهور ذلك في تصرفاته كان سبباً كافياً لإغراء جعفر البرمكي بقبول الاتفاق مع عبد الملك العباسي ضده . صورة الأخوة التي كانت موجودة بين الرشيد وجعفر قبل سنة ١٨٠ لم تعد موجودة ولا كانت هي نفسها بعد سنة ١٨٣ . ولم يكن أي تحرك برمكي ممكناً ضد الرشيد إن لم يجد البرامكة شخصية عباسية بديلة عنه وقد وجدوها في عبد الملك وطموحه . وقد سجن عبد الملك أسوأ السجن أولاً ثم ترفق الرشيد بقرابته فجعله في سجن يليق بمثله لدى الفضل بن الربيع ولكنه لم يطلقه حتى جاء الأمين . ثم مات عبد الملك في الرقة سنة ١٩٩ في خلافة المأمون .

حادي عشر : وثمة أمر هام يلفت النظر في تصرفات الرشيد بعد سنة ١٨٠ لم يعرفه الباحثون أي التفات رغم اتصاله بالقضية البرمكية هو رغبته في الخلاص من بغداد ، هذه العاصمة التي ارتبط اسمها به واسمه بها على الدهر . لقد جرب الرشيد الخروج منها إلى مقر جديد مرتين ثم هرب منها في النهاية حتى آخر حياته ، وهذا أمر يجب أن يكون له معناه السياسي ومكانته من القصة البرمكية .

يحدثنا ابن الأثير أن الرشيد سار سنة ١٨١ الى الحيرة وابتنى بها

(١) أبو الفرج الاصبهاني - الاغانى ج ٤ ص ٣٩

المنازل فأقطع أصحابه القطائع فثار بهم أهل الكوفة وأسأؤوا مجاورته (ولعل ذلك لميولهم العلوية) فعاد إلى بغداد^(١) .. ومن الصعب أن تفسر محاولة الرشيد الهرب من بغداد التي أصبحت مجمع الدنيا في عهده إن لم تذكر أنه في تلك الفترة بالذات بدأ يرتاب بالبرامكة .. وما من شك في أنه كان يصطنع الحذر منهم ويخشى أعوانهم بدليل أنه حين عزم على الفتك بهم وكان عائداً من الحج لم يدخل العاصمة ولكنه انحاز إلى الأنبار ثم فتك بجعفر هناك . ولكنه عرف بعد ذلك أن بغداد لن تكون له دار قرار لما قد يكون فيها من أعوان البرامكة الكثر فأخذ يفكر جدياً في الخلاص منها وتبلور تفكيره في مشروع مدينة جديدة يبنها بجوارها ، ويحدثنا عنها الطبري قائلاً : إن الرشيد كان - كما يقول - إذا ضجر من بغداد يتنزه في القاطول . وقد بنى هناك مدينة بقيت آثارها (موجودة) وبقي سورها قائماً إلى عهد المعتصم^(٢) .. ويكشف الطبري سبب البناء بقوله : « وقد كان خاف من الجند ما خاف المعتصم » . وإذا كان اختيار المكان بقرب بغداد ناجماً عن حاجة الرشيد إلى البقاء قريباً من دواوينه ورجاله وحاشيته ، فيبدو أنه ، خلال البناء ، عاود التفكير في أن قرب القاطول من بغداد لم يعطه الأمن الذي يريد . وهكذا قرر الابتعاد النهائي عن بغداد . « فلما وثب أهل الشام بالشام وعصوا خرج الرشيد إلى الرقة سنة ١٨٩ فأقام بها وبقيت مدينة القاطول - على حد قول الطبري - لم تستم .. » .

واتخذ الرشيد بعد ذلك طريقة عدم الاستقرار ، رغم علته

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ١٥٢-١٥٣

(٢) الطبري ج ٩ ص ١٧ (١١٨٠/٣)

السرطانية التي كانت تهدد كيانه . فكان في قلقه الواسع هارباً باستمرار من علقته ومن بغداد فتارة في مكة وتارة على جبهة الروم وتارة في طريق خراسان فإذا شاء الراحة أقام في الرقة ، وإذا اضطره الطريق إلى العبور ببغداد ألم بها إلاماً سريعاً فلم يقف . كان كما قال الطبري « يطوي بغداد » فلا ينزلها فلما سئل أجاب جواباً يكشف بوضوح مخاوفه التي يريد تطمينها : « إنها لوطني ووطن آبائي ودار مملكة بني العباس . وما رأى أحد من آبائي سوءاً ولا نكبة منها . ولا شيء بها إلى أحد منهم قط . ولنعم الدار هي .. ولكنني أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق (يقصد الشام) .. مع ما فيها من المارقة والمتلصصة .. »^(١) واتخذ الرشيد الرقة « وطناً » والتقل طريقة حتى مات في الطريق إلى خراسان !

ولعلنا بعد كل هذا نستطيع أن نلخص الأمر البرمكي كله بكلمة أوردتها الأربلي في التبر المسبوك إذ يقول : « قيل أرادت البرامكة افساد الملك فقتلهم الرشيد لذلك » ويظهر الأثر العميق لهذه الأسباب في نفس الرشيد من أنه أعلن ألا أمان لمن يؤوي أحداً من البرامكة غير محمد بن خالد وولده وحشمه لأنه « عرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة » وهذا يدل على أن جريمة جعفر خاصة ومعه يحيى والفضل كانت في نظر الرشيد عامة تتعلق بسلامة الدولة ولم يسلم منها إلا من لم يكن على علاقة بأعمال الدولة كمحمد بن خالد البرمكي .

وهكذا فإن الحادثة البرمكية كانت النهاية الدموية الفاجعة لصراع

(١) الطبري ج ٨ ص ٣١٧ (٣/٧٠٦)

خفي متبادل بين الرشيد والأسرة التي سيطر عليها الحكم دام ثماني سنوات (١٧٩ - ١٨٧) والأسباب الرئيسية في نكبة البرامكة هي على ما رأينا تعود إلى :

- ١ - غموض الحدود بين سلطة الوزراء وسلطة الخلفاء لحدثة مؤسسة الوزارة .
- ٢ - تباين مصلحة الخلفاء العباسيين مع ميول وزرائهم الفرس .
- ٣ - استرابة الرشيد بصدق ولاء البرامكة لخلافته استرابة بلغت حد الشعور بالخطر .

وقد زاد في وضوح هذه النواحي وشايات الحساد وادلال البرامكة بمكائنتهم وطبيعة الرشيد الحساسة . واستمر توضيحها ونضوج الفكرة في النكبة لدى الخليفة سنوات طويلة كان خلالها يضربهم ضربات محدودة غايتها الحد من سلطانهم حتى كانت المؤامرة من جهة وهي مجهولة الحدود . وكانت الفتكة الكبرى من جهة أخرى وهي موجودة التفاصيل في جميع المصادر (ولا سيما في الطبري) ولم تكن تلك النكبة بدءاً في علاقات العباسيين بوزرائهم ولا في علاقات الكثير من الملوك المطلقين مع كبار موظفيهم وإنما كانت حلقة من سلسلة بدأت بأبي سلمة الخلال ووصلت بعد البرامكة إلى بني سهل في عهد المأمون ، وإن كان اتساع دائرة النفوذ البرمكي وعمقه هما اللذان جعلتا النكبة واسعة عميقة عنيفة الأثر ، فاجعة الدماء .

على أنه من الضروري أن نلاحظ أن بعض المؤرخين القدامى (كالجيشياري^(١) وابن خلكان) وبعض المحدثين أيضاً ، يروون أن

(١) الجيشياري ص ٢٥٨ ص ٢٦٥ وابن خلكان ج ٢ ص ٢٤٦

الانحلال سرى في الامبراطورية العباسية بعد البرامكة ، والواقع هو ما قاله (بارتولد) من أن سقوطهم لم يؤثر في الدولة كثيراً لا سيما وأن فترة نشاط الرشيد الحربية خاصة ، كانت من بعدهم . وإذا أدى سقوطهم إلى شيء فإلى زيادة الخصومة بين العرب والفرس لفترة محدودة فقط .

ج - الوزارة بعد البرامكة :

صارت الوزارة بعد البرامكة إلى الفضل بن الربيع فبقي عليها حتى نهاية عهد الأمين ، وكانت له يد في تأريث الخلاف بينه وبين أخيه ، ثم توارى عن الأنظار قبيل انهيار أمر الأمين ..

والفضل هو ابن الربيع بن يونس وزير المنصور . والربيع في الأصل مدخول النسب وكان من خدم المنصور ثم ارتفعت به الحال حتى أصبح وزير الدولة ثم كان ابنه الفضل من كبارها .. ويحلو لبعض المؤرخين أن يرى في هذه النشأة المتواضعة للربيع وابنه نوعاً من مركب النقص^(١) شوه الاثنين وملاهما حقداً على الناس ورغبة في الدس والتآمر . وقد انصب حقد الفضل خاصة على البرامكة الذين لم يكن بإمكانه أن يبلغ شأوهم ما داموا في مجدهم وفي وداد الرشيد ، وما داموا من الأرومة الإيرانية العريقة وما داموا أخيراً بذلك الكرم الواسع والشرف من الدولة .. وكما دس الربيع من قبل على أبي أيوب المورياني لدى المنصور وعلى أبي عبيد الله معاوية لدى المهدي

(١) بحث ذلك الدكتور أحمد شلبي في فصل طويل من كتابه التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية - الجزء الثالث ص ٣٢٦-٣٧٨

كذلك دس ابنه الفضل على البرامكة .. وكما نجح الأب نجح الابن ..
ولقد يكون لعقدة النقص لدى الربيع (الأب) دورها ولكنها بعيدة
عن الابن الذي نشأ في العز . على أنه من التعسف في الحالين أن نعزو
نكبات الوزراء منذ المورياني حتى البرامكة . ثم صراع الأخوين الأمين
والمأمون لمجرد الدسائس ، ولاشباع عقدة النقص عند الربيع وابنه
الفضل .. فلذلك عوامل عديدة أخرى . وإلا فما الذي يفسر نكبة بني
سهل من بعد ولم يكن وراء تلك النكبة لا الربيع ولا الفضل ؟

ولم يكن الفضل بن الربيع بمثل كرم البرامكة واتساع نفوذهم
وكثرة أنصارهم ولا كان من السياسيين الذين يخشى خطرهم ولكنه
كان الموظف الداهية الأمين وقد انحاز للحزب العربي في البلاط وتزعمه
وعمل له قبل نكبة البرامكة وبعدها وتابع السياسة نفسها في زمن
الأمين لأنه إنما كان أبرز شخصيات حزب الأمين وقد قاد المعركة بعد
ذلك ضد المأمون في مهارة بارعة لا تقل عن مهارة منافسه وسميه
الفضل بن سهل لولا أن انهزام جيش الأمين أفقده التفوق العسكري
فخسر القضية . ولعله اعتقد أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون وهو مما
لم يبق عليه — كما قال ابن تغري بردي^(١) — فأثر السلامة واستتر .
ثم ظهر حين بايعت بغداد لابراهيم بن المهدي بالخلافة فلما اضطرب
أمره بدوره عاد إلى الاستتار . ويقال إن طاهر بن الحسين ، قائد
المأمون أدخله عليه من بعد فرضي عنه لكنه ظل دون عمل حتى مات
سنة ٢٠٨ عن ثمان وستين سنة .

(١) ابن تغري بردي — النجوم ج ٢ ص ١٣٨ والجهشياري ص ٢٣٧
وابن خلكان ج ٤ ص ٣٩

أما المأمون فاستوزر بني سهل ، يقول ابن الطقطقي^(١) :
« وكانت دولتهم في جبين الدهر غرة .. وكانت مختصرة لدولة
البرامكة وهم صنائع البرامكة » وتكرر في بني سهل قصة الخلال
أو بني برمك إياها :

فالفضل بن سهل أول وزراء المأمون كان في الأصل على المجوسية
وأسلم على يدي المأمون سنة ١٩٠ وكان البرامكة هم الذين اختاروه
للكتابه عنده . وهو الذي سعى إليه بالخلافة وكافاه المأمون على ذلك
بأن سماه (ذا الرياستين) أي رياسته الحرب ورياسته التدبير^(٢) (أو
السيف والقلم) ووقع له في كتاب يسميه اليعقوبي^(٣) (كتاب الشرط
والحياء) على ما يظهر « .. وقد جعلت لك مرتبة من يقول في كل شيء
فيسمع منه ولا تتقدمك مرتبة أحد ما لزم ما أمرتك به من العمل
لله ولنبيه والقيام بصلاح دولة أنت ولي بقيامها .. »^(٤) .

ولكن الفضل « استولى على المأمون » حسب اصطلاح صاحب
الفخري وقطع الأخبار عنه وعاقب من حاول إخباره بخبر ليصرف
بذلك الأمور حسب سياسته الفارسية ولم يتورع عن تشويه الأخبار
للمأمون فأعلن له ثورة بغداد وبيعته لآبراهيم بن المهدي على أن
البغداديين « صيروا إبراهيم أميراً يقوم بأمرهم » لا خليفة . وعين
أخاه الحسن على العراق وما يليه — دون طاهر بن الحسين القائد

(١) الفخري ص ١٦٤

(٢) الجهشيار ص ٣٠٥

(٣) اليعقوبي ج ١ ص ٧١٩

(٤) الجهشيار ص ٢٧٨

العسكري - ليتم له التمكن من زمام السلطة .

ونستطيع أن تبين سياسة الفضل الفارسية في أمور عدة :

آ - ادخال المراسم والتقاليد الساسانية على البلاط العباسي ويقولون إنه : كان يجلس على كرسي مجنح ويحمل فيه إذا أراد الدخول على المأمون ويعلق الجهشيارى^(١) بأن هذه العادة كانت لبعض وزراء الأكاسرة . ولعل الجناحين جناحا آهورا مزدا إله الخير الزراداشتي .

ب - ذهب هرثمة بن أعين ضحية لأطماع الفضل في السجن لأنه قدم إلى خراسان واجترأ على نصيحة المأمون وأخبره بأعمال الفضل قائلاً « قدمت هذا المجوسي على أوليائك وأنصارك » ونفى نعيم بن خازم لأنه بيّن للمأمون أن الفضل يريد أن يزيل الملك عن بني العباس إلى ولد علي (وقت بيعة الرضا) ثم يحتال عليهم فيغير الملك كسروياً ولهذا عدل عن البياض لبسة علي وولده ، إلى الخضرة وهي لباس كسرى والمجوس^(٢) .

ج - أبقى الفضل علي المأمون في مرو بخراسان ليقبى مقر الملك بين القرس .

وأخيراً تنبه المأمون لسياسة الفضل ويتفق المؤرخون أن علي الرضا هو الذي أعلم المأمون بحال الدولة ونبهه إلى سياسة الفضل الشعوية . فقرر النقلة إلى بغداد (سنة ٢٠٢/٨١٧) ولم يكن هذا انتقالاً عادياً ،

(١) الجهشيارى ص ٣١٦

(٢) الجهشيارى ص ٣١٣ وابن الاثير - الكامل ج ٦ ص ١١

ولكنه انقلاب سياسي : فيه هجر للسياسة التي تمثلها مرو والفضل ،
وعودة إلى السياسة العباسية التقليدية . وقد اقتضى هذا الانقلاب
التخلص من الوزير ابن سهل ومن ولي العهد علي الرضا ومن الخضره (١) !
وهكذا .. مات الاثنان خلال الطريق إلى بغداد (قتل الأول في سرخس (٢)
من قبل بعض الخدم . ومات الثاني بشكل مفاجئ في قرية النوقان
قرب طوس أول سنة ٢٠٣) وبعد وصول المأمون إلى عاصمة آباءه
بأيام تتراوح بين الأسبوع والشهر رجع عن الخضره إلى السواد .

على أن علاقة المأمون ببني سهل لم تنته بمقتل الفضل فإن المأمون
(المكيافيلي) ترضى العائلة باستيزار الحسن بن سهل أخي الفضل
والزواج من ابنته بوران (في عرس حافل) زينت بذكر ما كان من
بذخه صدور الكتب ، واعتل الحسن بعد فترة وجيزة أو تمارض ،
والفخري (٣) يذكر أنها « سوداء أصابته جزعاً على أخيه » ولزم منزله
فاستكتب بعده المأمون الكتاب مدة ويظهر من حديث للوزير الجديد
بعد الحسن وهو أحمد بن أبي خالد الأحول إلى الخليفة ان عزل
الحسن بن سهل لم يكن لسبب مرضي ولكن لأمر أراده المأمون فالوزير
أحمد الأحول يقول كما في المسعودي (٤) : « يأمر المؤمنين اغضي
من التسمي بالوزارة وطالبني بالواجب فيها » . ويقول كما في الفخري :
« .. اجعل بيني وبين الناس منزلة يرجوني لها صديقي ويخافني بها

(١) الدوري - العصر العباسي الاول ص ٢١٤

(٢) الطبري ج ٨ ص ٥٦٥ (٣/١٠٢٧)

(٣) الفخري ص ١٦٨

(٤) المسعودي التنبيه والإشراف ص ٣٠٤

عدوي في بعد الغايات إلا الآفات» (١) .

وتوفي أحمد الأحول قتلاه على الوزارة أحمد بن يوسف بن القاسم من الموالي وكان كاتباً من خيرة الكتاب وأجودهم خطأ ، وقد مات ببعض تدبير المأمون لبادرة بدرت منه . فأعقبه القاضي يحيى بن أكثم (ولعله اتخذه مستشاراً له) فكان له تدبير المملكة ورئاسة القضاء معاً وقلما اجتمع ذلك لغيره ثم جاء الوزارة أبو عباد ثابت بن يحيى الرازي ثم أبو عبد الله محمد بن يزداد بن سويد ولم تكن لهؤلاء من قيمة في الوزارة ولم يكونوا يزيدون في المنزلة عن الكتاب العاديين المحدودي الكفاية كما يتبين ذلك من اختيارهم وسيرتهم ولعلمهم استوزروا لأنهم كانوا كذلك في نظر المأمون ، الذي نصح أخاه من بعده ألا يستوزر أحداً (على طريقة المنصور) .

* * *

(١) الفخري ص ١٦٨

الفصل الحادي عشر

السياسة الداخلية

ليس الهدف في هذا الفصل أن نبث في التكوين الإداري للدولة وفي نظام الجيش كجهاز عسكري ولا في الحياة الاقتصادية - المالية للمجتمع العباسي في القرن الثاني الهجري ، فلذلك محله من البحث الحضاري لهذا العصر ولكنه محاولة لتحديد الخطوط العامة لسياسة العباسيين الأوائل ومواقفهم وتصرفاتهم في الأمور الإدارية والمالية وفي تطور قواهم العسكرية ، ولطريقتهم في فهم المشاكل التي واجهتهم وفي حلها . إنه إذن دراسة لطرائق الحكم لدى الخلفاء الأوائل من بني العباس وليس بدراسة للمجتمع الذي عرفهم ولا لطبيعة وتكوين الأجهزة التي استعانوا بها .

ولعله من الضروري أن نلاحظ منذ البدء أن الخطوط والملامح العامة التي سوف نرسم لسياسة هؤلاء العباسيين قد لا تنطبق أحياناً إلا على بغداد أو منطقة العراق أي على الاقليم الذي يقع مباشرة تحت تصرف الخليفة . وأما أقاليم الدولة الأخرى فقد كانت تخضع للسياسات نفسها في الغالب ولكن بمقدار فهم الولاة العباسيين لتلك السياسات وتطبيقهم لها ، وبمقدار ما هو معروف من ولاء تلك الأقاليم أو عدم الولاء للأسرة الحاكمة . وهكذا لم يكن الموقف الإداري ولا العسكري ولا المالي واحداً في الحجاز أو الشام أو خراسان كما لم تكن السياسة

العباسية أحياناً كثيرة هي نفسها في سجستان أو في مصر أو في الجزيرة
وغالباً ما نجد أن صورة الحكم العباسي المعروفة إنما تتصل بالعراق فقط
دون باقي أنحاء الدولة الإسلامية .

وإذا كان لكل حكم أسسه التي يقوم عليها فللحكومة العباسية بدورها
أسسها في سياستها الداخلية . وفي رأي بعض المستشرقين أن الحكم
العباسي إنما قام على ثلاثة أركان : الدين والجيش والكتاب . وفي هذا
الرأي الكثير من الصواب ، لأن الدين كسياسة ومبدأ عمل كان قوام عرش
بني العباس كما كان الروح الحية الكامنة وراء صمود البيت العباسي
وبقائه خمسة قرون طويلة . أما الجيش كقوة مادية تنفيذية فقد ارتبطت
به قوة وضعفاً أمجاد الدولة العباسية وانحطاطها بينما كان النظام
الإداري الذي أداره الكتاب وأقاموا به الحكم والجباية المالية هو
العمود الفقري للحكم العباسي كله .

على أنا نستطيع التمييز بين هذه الأركان الثلاثة في الوظيفة والدور
وخاصة في العصر العباسي الأول . فإن الدين كان لدى الخلفاء الأوائل
هو السند المعنوي ومبرر النظام ومنطلق السياسة وأساس التشريع لكن
الترجمة العملية لذلك لم تكن أكثر من إمامة الصلاة والخطبة على المنبر
والقضاء في الناس عن طريق الجهاز القضائي . ولم يكن للخلفاء على هذا
الجهاز — فيما عدا سلطة التعيين — إلا أضعف النفوذ في الأحكام .
وكثيراً ما ينعدم ذلك النفوذ . بينما كانت المقومات الفعلية للحكم
العباسي إنما تتمثل عملياً في ما كان يعبر عنه في تلك العصور بكلمتي
السيف والقلم أي في المؤسستين اللتين يشرف عليهما القواد العسكريون
رمز القوة والسلطة من جهة والوزير مع الكتاب أسياد الدواوين والجباية
المالية من جهة أخرى . وتشترك المؤسساتان — ومعهما الجهاز القضائي

أيضا - في القمة بالخضوع لإرادة الخليفة الذي كان يمثل مع السلطة
الدنيوية الآمرة السلطة الدينية المعنوية في الوقت نفسه .

وإذا كان مفهوم الحكم والإدارة في تلك العصور يشمل بصورة
خاصة تصريف الامور والمشاكل وإقامة العدل والقضاء بين الناس
وجباية الاموال وقرار الامن والنظام والدفاع ، فلعلنا قبل أن ندرس كل
ناحية من هذه النواحي منفردة نعطي صورة إجمالية عن السياسة الداخلية
العباسية في مبادئها وشكلها النظري المثالي كما في واقعها التنفيذي ،
وفي تطورها العام ما بين مطلع العصر العباسي الاول ونهايته . ولدينا
لحسن الحظ في هذا السبيل تقريران هامان كتب لاول ابن المقفع في
أوائل العصر حوالي سنة ١٤٠ - ١٤٣ للخليفة المنصور وتحت ظله وكتب
الثاني طاهر بن الحسين سنة ٢٠٦ في عهد المأمون اذان العصر لابنه
عبد الله بن طاهر حين توجه لولاية أخطر وأهم الولايات العباسية :
خراسان (١) .

فأما التقرير الذي كتبه ابن المقفع فيحمل اسم : « رسالة الصحابة »
وكلمة الصحابة استعملت في العصر العباسي الاول وحتى عهد الرشيد

(١) يمكن ان نقرأ النص الكامل لرسالة الصحابة التي كتبها ابن
المقفع في كتاب محمد كرد علي - رسائل البلغاء (انظر طبعة البابي -
القاهرة سنة ١٩١٣ ص ١٢٠ - ١٣٠) كما نجد في كتاب يوسف ابو حنيفة -
ابن المقفع ، الادب الصغير ... طبع مكتبة البيان - بيروت سنة ١٩٦٠
ص ١٤٩ - ١٨٣) أما رسالة طاهر بن الحسين فنجدتها في مظان كثيرة منها
الطبري ج ٨ ص ٥٨٢ - ٥٩٣ (١٠٤٦/٣ - ١٠٦١) وكان من أسباب
انتشارها ونقلها في مختلف المصادر بلاغتها وقد اعتبرت من النصوص
الادبية .

بمعنى الحاشية ورجال البلاط اصحاب الخليفة ثم استبدل بها كلمة الخاصة لثلاث تلبس مع صحابة الرسول . ورسالة الصحابة نقد واقعي عملي للسياسة القائمة ولطرق الاصلاح الواجب اتباعها . وأما رسالة طاهر فأخذت شكل الوصية التي ترسم صورة الحاكم «المثالي» في نظر ذلك العصر . وإذا كانت الرسالتان تحيطان بالعصر في مبدئه ومنتهايه فهما تحيطان به في الوقت نفسه واقعاً ومثلاً أعلى .

رسالة الصحابة :

بدأ ابن المقفع رسالته بامتداح رغبة أمير المؤمنين في استماع النصيحة :

أ - ذكر موضع الشكوى قبله : فوال لا يهمه الاصلاح وإن أهمله لم يكن له رأي وإن وجد الرأي لم يتوفر له العزم والحزم «وأعوان ، ليسوا على الخير بأعوان » « وأمة إن أخذت بالشدة حميت وإن أخذت باللين طفت » .

ب - ثم تناول أمر الجند من أهل خراسان فامتدحهم أحسن المديح : قوة وطاعة ، وناقش قضية هذه الطاعة ثم نصح أمير المؤمنين «لصلاح هذا الجند أن لا يولى أحداً منهم شيئاً من الخراج فان ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ... وداعية الى ذلة وحقيرة » كما نصحه أن يحسن اختيار القادة منهم وأن « يتعهد أدبهم » وثقافتهم « في تعلم الكتاب والسنة » . وأن ينظم دفع رواتبهم و « يوقت لهم وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة أشهر أو ما بدا له ... فينقطع الاستبطاء والشكوى » وأخيراً أن يعمل أمير المؤمنين على « أن لا يخفى عليه شيء من أخبار الجند وحالاتهم وباطن أمرهم بخراسان والعسكر والاطراف وأن يحتقر في ذلك النفقة » .

ج - ثم ذكر أمير المؤمنين بأهل المصرين : **البصرة والكوفة**
« لأنهم بعد أهل خراسان أقرب الناس الى أن يكونوا شيعته وحقييته »
و « في أهل العراق من الفقه والعفاف والالباب والالسنة شيء لا يكاد
يشك أنه ليس في جميع من سواهم من أهل القبلة نصفه ولا مثل
نصفه ... » وقد أزرى بأهل العراق أن ولاته فيما مضى كانوا أشرار
الولاة وأن أعوانهم من أهل « أمصارهم كانوا كذلك ... » .

د - وعرض ابن المقفع بعد ذلك الى مشكلة **القضاء** واختلاف
الاحكام بين بلد وآخر وما ينجم عن ذلك من فوضى وضياح حقوق
وبعد أن حلل ذلك نصح بتوحيد الاحكام وأن يكتب أمير المؤمنين بذلك
كتاباً جامعاً يكون هو الأساس فيها .

هـ - ثم عطف على ذكر أهل الشام وأن على أمير المؤمنين أن
« لا يؤاخذهم بالعداوة ولا يطمع منهم في الاستجماع على المودة . فمن
الرأي في أمرهم أن يختص أمير المؤمنين منهم خاصة ممن يرجو عنده
صلاحاً أو يعرف منه نصيحة أو وفاء ... »

د - وينتقل بعد ذلك الى التذكير بامر **صحابة الخليفة** « وقد عمل
فيه من كان وليه من الوزراء والكتاب قبل خلافة أمير المؤمنين عملاً
قبيحاً مفرط القبح داعياً للأشرار طارداً للأخيار ... » بينما « لصحابة
أمير المؤمنين مزية وفضل . وهي مكرمة سنية حرية أن تكون شرفاً لاهلها
وحقيقة أن تصان وتحظر ولا يكون فيها إلا رجل بدر بخصلة من الخصال
أو له خاصة بقرابة أو بلاء أو يكون شرفه ورأيه وعمله أهلاً لمجلس
أمير المؤمنين وحديثه ومشورته أو صاحب نجدة يعرف بها يجمع مع
نجدته حسباً وعفافاً فيرفع من الجند الى الصحابة أو رجل فقيه مصلح

أو شريف لا يفسد نفسه » •

هـ - وبعد أن يذكر ابن المقفع بعض **أهل بيت الخليفة** يتناول أمر الأرض والخراج والسياسة المالية فأوضح الفوضى في كل ذلك وبين الخطر الجسيم في أن لا يكون « للعمال أمر ينتهون إليه ويحاسبون عليه ويحول بينهم وبين الحكم على أهل هذه الأرض أو تلك .. فسيرة العمال فيهم إحدى اثنتين إما رجل أخذ بالخرق والعنف من حيث وجد ... وإما صاحب مساحة يستخرج ممن زرع ويترك من لم يزرع فيغرم من عمر ، ويسلم من أخرب ، مع أن أصول الوظائف على الكور لم يكن لها ثبت ولا علم وليس من كورة إلا وقد غيرت وظيفتها مرارا ... فلو أن أمير المؤمنين أعمل رأيَه في التوظيف على الرساتيق والقرى والأرضين وظائف معلومة وتدوين الدواوين بذلك وإثبات الأصول حتى لا يؤخذ رجل إلا بوظيفة (ضريبة) قد عرفها وضمنها ولا يجتهد في عمارة إلا كان له فضلها ونفعها لرجونا أن يكون في ذلك صلاح للرعية وعمارة للأرض وحسم لأبواب الخيانة وغشم العمال • وهذا رأي مؤوته شديدة ورجاله قليل ونفعه متأخر » •

و - ويعطف ابن المقفع في القسم الأخير من رسالته على أمر جزيرة العرب من **الحجاز واليمن واليامة** وينصح بأن تسخو نفس أمير المؤمنين عن أموالها من الصدقات وغيرها وأن يختار لولايتها الخيار من أهل بيته » •

ز - ثم يذكر أن « ما بالناس من الحاجة الى تقويم آدابهم وطرائقهم ما هو أشد من حاجتهم الى أقواتهم التي يعيشون بها • وأهل كل مصر وجند أو ثغر فقراء الى أن يكون لهم من أهل الفقه والسنة والسير والنصيحة مؤدبون مقومون يذكرون ويبصرون الخطأ ويعظون عن

الجهل ويمنعون عن البدع ويحذرون من الفتن ... وفي كل قوم خواص رجال عندهم على هذا معونة اذا صنعوا لذلك وتلطف بهم وأعينوا على ... معاشهم ببعض ما يفرغهم لذلك ... » . « وحاجة الخواص الى الامام الذي يصلحهم الله به كحاجة العامة الى خواصهم وأعظم من ذلك ... » .

هذه خلاصة لرسالة الصحابة . وهي وإن تكن غير وافية إلا إنها تلقي ضوءاً هاماً على عدد كبير من أمور الادارة والسياسة الداخلية العباسية . إنها تكشف على الاقل ، أن أهم أركان تلك السياسة وهي أمور القضاء ، والخراج ، والحاشية ، كانت فوضى فلا بد من وضع نظام لها . وحتى الجند الخراسانية وهم قوام الدولة كان لهم ما يشكون منه وما يهدد طاعتهم بالترزع .

وابن المقفع ، صاحب الرسالة ، إنما صدر فيها عن فكر سياسي واقعي ورأي تجريبي عملي وليس عن تفكير ديني أو معطيات نظرية . حاول أن تكون تقريراً شاملاً لوجوه النقص والالام في الدولة مع المقترحات الكافية ، في نظره للإصلاح . ولم يهتم كثيراً بربط الادارة وما يجب لها بمبادئ الاسلام والدين لانه هو نفسه لم يكن أسلم الا منذ عهد قريب جدا من تاريخ الرسالة كما لم يكن الفكر الديني من همومه ولكنه حرص على أن يعطي من خلاصة ثقافته الفارسية ، ومن واسع علمه بالتاريخ الفارسي وسياسة الفرس ما ظن أنه يصلح أمور الدنيا للناس وللخليفة على السواء . ولعل محاولته إنما كانت تطعيم أنظمة الدولة الاسلامية في أمور الجند والقضاء والصحابة والخراج وإدارة الولايات بنظم الفرس وتجاربهم في الادارة والسياسة . وقد كان التيار الثقافي الذي يشله ابن المقفع أحد الروافد الاساسية التي لونت الحضارة الاسلامية في العهد العباسي .

ولقد أخذ المنصور ، في الواقع ، بالكثير من الآراء التي عبر عنها ابن المقفع . ولقد لا يكون ذلك نتيجة لرسالة الصحابة بقدر ما كان نتيجة للحاجة الواقعية في الدولة الجديدة لانظمة وحلول تتفق مع تطور الدولة وتعقد أمورها وإدارتها .

واما رسالة طاهر بن الحسين لابنه عبد الله وهي ما يدعوه الطبري بالوصية فهي تقرير من نوع آخر كتب والدولة العباسية قد استقرت ووضعت نظمها ومضت أمور خلفائها على ما يشتهون وأخذت طابعها الديني فلم يكن الهدف من الرسالة تحليل الواقع السياسي في الدولة وان كان غير بعيد عنه ولكن رسم المثل الاعلى للحاكم العباسي المسلم . هي تصوير لما يجب أن يكون وليس لما هو كائن . ولذلك فاللهجة فيها مختلفة ولكن المواضيع والرأي ليست على كثير من الاختلاف ، والنقاط الاساسية فيها تتناول :

١ - تطبيق الدين : تبدأ الرسالة بقول الأب لابنه : « عليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته ومزايلة سخطه وحفظ رعيته ... والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله وينجيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه ... والقيام بحقه وحدوده فيهم والدفع عن حريمهم والحقن لدمائهم والامن لسبيلهم وادخال الراحة عليهم في معاشهم ... وأول ما تلزم به نفسك .. المواظبة على .. الصلوات الخمس والجماعة بسواقيتها . واتباع سنن الرسول وآثار السلف وأثر الفقه وأهله والدين وحملته ... »

« وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها ... واعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز » .

« ولا تنهض أحداً من الناس ما توليه من عملك قبل تكشف أمره بالتهمة . فان ايقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم مآثم واجعل من شأنك حسن الظن باصحابك واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة . وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسؤول عما صنع فان الله جعل الدين حرزا وعزاً فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وأقم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه . ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة واشدد لسانك عن قول الكذب والزور وأبغض أهله وأقص أهل النيمة . لان الكذب رأس المآثم »

ب - العدل والقضاء : يقول صاحب الرسالة : « واجتنب سوء الاوهام والظلم وأظهر براءتك من ذلك لرعييتك وأنعم بالعدل سياستهم واملك نفسك عند الغضب وإياك أن تقول إني مسلط أفعل ما أشاء فإن ذلك سريع فيك الى نقض الرأي واعلم أن الملك لله يعطيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ولن تجد تغير النعمة وحلول النعمة الى احد أسرع منها الى أصحاب السلطان »

« واعلم ان القضاء من الله بالمكان الذي ليس به شيء من الامور لأنه ميزان الله الذي تعتدل به الاحوال في الارض وباقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية وتأمين السبل وينتصف المظلوم ويأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ويقوم الدين وتجرى السنن والشرائع .

ج - السياسة المالية : « واعلم أن الاموال إذا كثرت وذخرت في الخزائن لا تثمر وإذا كانت في إصلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف المؤونة (التكاليف) عنهم ربت ونمت فليكن كنز أموالك تفريق .

الاموال في عمارة الاسلام وأهله ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين
قبلك حقوقهم ... واجتنب الشح واعلم أنه أول ما عصى به الانسان
ربه ... » •

« ... وانظر هذا الخراج الذي قد استقامت عليه الرعية وجعله
الله للاسلام عزاً ورفعة ولاهله سعة ومنعة ولعدوه كبتاً وغيظاً ولاهل
الكفر من معاهدتهم ذلاً وصغاراً فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل
والتسوية والعموم فيه ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه وعن غني
لفناء ولا عن كاتب لك ولا عن أحد من خاصتك ولا تأخذن منه فوق
الاحتمال ولا تكلفن أمراً فيه شطط » •

د - الجند : « ... وتفقد أمر الجند في دواوينهم ومكاتبتهم
وأدرر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم في معاشهم ليذهب الله بذلك فاقتهم
ويقدم لك أمرهم ويزيد به قلوبهم في طاعتك ... » •

هـ - السياسة الادارية : « ... واعلم أنك جعلت بولايتك
خازناً وحافظاً وراعياً ... » •

ومتى « ... أعنت على الصلاح درت الخيرات ببلدك وفشت
العمارة بناصيتك وظهر الخصب في كورك فكثرت خراجك وتوفرت أموالك
وقويت بذلك على ارتباط جندك وإرضاء العامة باقامة العطاء فيهم من
نفسك ... » •

و - صاحب البريد : « ... واجعل في كل كورة من عملك أميناً
يخبرك أخبار عمالك ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل
عامل في عمله ... » •

ز - الحاشية : « ... وانظر أحزار الناس وذوي الشرف منهم
ثم استيقن صفاء طويتهم فاستخلصهم وأحسن اليهم وتعاهد أهل البيوتات
ممن دخلت عليهم الحاجة فاحتل مؤتهم ... » • « ... وأكثر مجالسة
العلماء ومشاورتهم ... » •

ح - الخدمات الاجتماعية : « وأفرد نفسك للنظر في
أمور الفقراء والمساكين وتعاهد ذوي البأساء ويتاماهم وأراملهم واجعل
لهم أرزاقاً من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين • واجر للاضرء من بيت
المال وقدم حملة القرآن في الجراية على غيرهم ، وانصب لمرضى المسلمين
دوراً تؤويهم وقواماً يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم ... » •

ط - الموظفون : « واستعمل على (رعيك) في كور عملك ذوي
الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف ووسع
عليهم في الرزق فان ذلك من الحقوق اللازمة ... » •

« ... وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك ، فوقت لكل رجل
منهم في كل يوم وقتاً يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامراته وما عنده من
حوائج عمالك وأمر كورك ورعيك ... ثم فرغ لما يورده عليك من
ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك فما كان موافقاً للحزم فأمضه ، وما
كان مخالفاً لذلك فاصرفه الى التثبت فيه والمسألة عنه » •

هذه هي رسالة طاهر بن الحسين واذا كان الفرق ما بين رسالته ورسالة
ابن المقفع هو الفرق ما بين الواقع السياسي والمثل الاعلى فهو في الوقت
نفسه الفرق ما بين السياسة الداخلية في مطلع العصر العباسي وفي نهايته
كما أنه الفرق ما بين الحاجات الادارية والدولة في طريق التوطيد وبين

هذه الحاجات نفسها والدولة قد استقرت ورسخت هيبتها وقبولها في قلوب الناس . . غير أننا نستطيع أن نلاحظ تأكيد طاهر بن الحسين على الدور الديني للحاكم من جهة والكلمات القليلة التي خصصها للجند من جهة أخرى مقابل ابن المقفع الذي لم ير في الحاكم إلا السلطة السياسية وحدها فلم يشر إلى دوره الديني بينما أكد بالمقابل ووضع في مطلع الرسالة دور الجند كما سمي الرسالة برسالة الصحابة لأن الدولة العباسية كانت وهي ابنة ثمان أو عشر سنوات سنة ١٤٠ - ١٤٢ تفتش عن الاعوان الأكفاء وعن الرجال الذين يساندون الخليفة الجديد في شؤون الحكم بكل مكان في الدولة المترامية الأطراف الفائرة بالثورات والاطماع .

وإذا كانت الروح الطبقية في النظر إلى الناس على أن فيهم أهل بيت الخليفة والاشراف والصحابة والاغنياء وفيهم العامة والفقراء . . . الخ هي حد مشترك بين الرسالتين يعكس الواقع الطبقي للعملية الادارية العباسية فليس أقل من ذلك أهمية ما تكشف عنه الرسالتان وتشتركان فيه من تحديد عناصر السياسة الداخلية للدولة في أربع نقاط : سياسة الناس وأمر القضاء والاموال والجند . وعلى هذا الاساس فأننا اذن نستطيع أن ندرس السياسة العباسية الداخلية لا في تكوين أجهزتها ولكن في ممارستها العملية في النقاط التالية :

أ - ادارة الدولة وتشمل العملية الادارية في المركز والولايات كما يرتبط بها أمر القضاء والقضاة في الوقت نفسه .

ب - الاموال والسياسة الضرائبية للخلفاء .

ج - المؤسسة العسكرية (الجيش) ودورها الاداري والسياسي في الأمن والنظام .

ويلخص هذه النقاط قول طاهر بن الحسين في رسالة لابنه : « إنك جعلت في ولايتك خازناً وحافظاً وراعياً » .

١ - السياسة الادارية

في الوقت الذي كانت تطرح فيه على العصر العباسي الاول الكثير من مسائل ومشاكل الفكر والدين والتطور الاجتماعي والتحول الاقتصادي كانت مسائل ومشاكل موازية تطرح على العباسيين الاوائل في نواحي السياسة والادارة . وتضطرهم الى ايجاد الحلول لها عن طريق تنظيم وتوسيع وتعميق أجهزة الحكومة والادارة والقضاء . وما من شك في أن تاريخ الادارة العربية الاسلامية يحتفظ لعمر بن الخطاب ، من الخلفاء الراشدين ، ولعائشة ثم عبد الملك بن مروان خاصة ، من الخلفاء الامويين بمكائهم الخاصة . إلا أن معالم النظام الحضاري الاسلامي الذي يمكن أن يدعى « بالكلاسيكي » إنما برزت وتوطدت في العصر العباسي الاول ثم الثاني من بعده . ولئن رسمت الخطوط العريضة للمؤسسات الادارية والقضائية الاسلامية منذ أواسط العصر الاموي حتى أواخره فانها لم تعرف الكمال والاستقرار والثبات الا في العصر العباسي .

كان الحكم الاموي - رغم طابعه الملكي الوراثي - أقرب الى الحكم القبلي . يشرف فيه الخليفة من على الامور الكبرى . وللولاة القسط الوافر من الاستقلال الاداري في ولاياتهم على ما يشتهون . ولقد كان ثمة جهاز مركزي ولكنه كان محدود الاتصال والسلطة على الولاة . أما الحكم العباسي فقد اتجه اتجاهاً حثيثاً نحو مزيد من المركزية

والرقابة وبالنتيجة نحو مزيد من التعقيد أيضا»^(١) وتميز في هذه النواحي الثلاث عن طريقة الحكم الأموي كما تميز في ناحية رابعة هي مزج الدين بالدولة بشكل لا يتجه الى تطبيق الدين بقدر ما يهدف الى استغلاله السياسي ، وجعله نظاما سياسيا .

وقد نستطيع أن نرى ملامح الادارة العباسية الاولى بمركزيتها ورقابتها وتعقيدها وجوها الديني اذا نحن استعرضنا القوى الاساسية التي كانت توجه وتنفذ تلك الادارة وهي أربع :

- أ- رئاسة الدولة (الخليفة) والحاشية والبلاط .
- ب - الدواوين والكتاب (جهاز الادارة الاختصاصي) .
- ج - القضاء والقضاة (التشريع واقامة الحقوق) .
- د - الولاة .

١ - رئاسة الدولة (الخليفة) والبلاط والحاشية (الصحابة والخاصة):

اذا تجاوزنا الخليفة العباسي الاول (أبا العباس) الذي لم يكن في مفهومه للخلافة وفي ممارستها بمختلف عن الخلفاء الأمويين ولم يطل عهده ليطور لنفسه مفهوماً خاصاً حولها ، فإن الذي أوجد التطور الاساسي في مفهوم « الخلافة » الاسلامية بعد معاوية هو المنصور . لقد أدخل عليها فكرة الاختيار الالهي التي حاول أواخر الأمويين اضعافها على أنفسهم . فلم يكن فقط وريث الخلافة المشيخية ، خلافة الصحابة ،

(١) راجع ما كتبه حول هذه النقطة كلود - كاهن في كتابه تاريخ العرب والشعوب الاسلامية (الترجمة العربية ج ١ ص ١١٧) .

التي أوجدها الخلفاء الراشدون ولا الخلافة الملكية الوراثية التي أوجدها الأمويون ، ولكنه كان أيضا وريث صاحب الرسالة نفسه من جهة بمقتضى الشرع كما كان الرجل الذي اختاره الاله لقيادة الامة من جهة أخرى ولهذا « نصره » على الآخرين كافة فهو « المنصور » . ومصدر قوته مزدوج يجمع بين النسب النبوي والاختيار الالهي . ومن هذا وذاك أخذت السلطة العباسية الرداء الديني بالإضافة الى الرداء الديوي . كانت أوتوقراطية دينية . كل السلطات فيها مجموعة في يد الخليفة الذي يعتبر الرقيب والامين على تنفيذ أحكام الدين بجانب تسيير أمور الدنيا .

ولم يكن ثمة يمين يحلفها الخليفة ، على طريقة الابطرة البزنطيين ، ولا عرف العباسيون الثورات لازاحتهم عن العرش (إلا من قبل بعض آل البيت أنفسهم كالفاطميين) وإن عرفوا الكثير من الثورات لاغتصاب جزء من الحكم منهم في بعض الاقاليم . وكان الناس هم الذين يقسمون اليمين على الولاء لهم فيما يسمى بالبيعة من خاصة وعامة . فالرعية مسؤولة أمام الخليفة العباسي أما هو فمسؤول أمام الله . وثمة فرق كبير بين موقف الخليفة الراشد المسؤول امام الرعية مسؤولية مباشرة حتى عن العدل في ثوب يرتديه وبين الخليفة العباسي الذي انتهى — بعد الاموي — بأن لا يكون مسؤولا حتى عن مثل نكبة البرامكة أو هبة مائة مليون درهم في عمل ارتضاه ...

وقد كانت « الخلافة » منذ العصر الاموي قد تحولت الى سلطة اوتوقراطية ولكن العباسيين منذ المنصور خاصة زادوا في صفتها هذه فجعلوها أوتوقراطية مطلقة . وإذا كان الولاة في العهد الاموي يتمتعون بقدر واسع جداً من الاستقلال فان المنصور قد وضع للخلافة العباسية

بالعكس تقاليد المركزية المتشددة ، وجعل نظام الرقابة عنده على مستوى الأهمية والسعة التي كان عليها نظام الادارة نفسه ، حتى لم تعد « الوزارة في عهد طائفة » كما قالوا . وازدياد المركزية مع اتساع الدولة كانا يقتضيان نشوء نظام بورقراطي متزايد التعقيد وهو ما كان بالفعل مما اضطر الخلفاء لزيادة الدواوين في العدد وفي الاختصاص والتسلسل .

وأضاف المنصور الى هذا وذاك احتجاب الخليفة عن الناس : تمثل ذلك في مظاهر عديدة منها بناء قصر الخلد وضرب الاسوار المغلقة من حوله ، ومنها اصطناع « الوزراء » وجعلهم نوعاً من الوسطاء في إبلاغ الناس إرادة الخليفة والتعهد بتنفيذها ، ومنها اتخاذ الألقاب .

ولم يكن ثمة في العصر العباسي الاول من ألقاب سوى اللقبين اللذين يحملها الخليفة وولي العهد . كان الخليفة (وابنه) هما الوحيدان اللذان يحق لهما التمتع باللقب كأنما أضحيا في الاعتبار العام ، أعلى من أن يذكر باسميهما المجردين على ما كان عليه الامر في العهد الاموي .

وبينما كان للخليفة الاموي بلاط على جانب قليل أو كثير من البساطة لا يفصله عن الرعية أو على الاقل عن اشراف العرب أي حاجز احتجب الخليفة العباسي تماماً وصار الوصول اليه من الصعوبة بحيث أضحي الحاجب من أعظم شخصيات الدولة .

ونمت الى هذا كله باطراد الصفة التيوقراطية في سلطة الخليفة العباسي . تعتمد المنصور واولاده من بعده ذلك جواباً وتحدياً لادعاءات العلويين من جهة ولأطماع الامويين من جهة أخرى وتجاوباً مع حاجات العصر الذي ازدادت فيه أعداد المسلمين من الامم الاخرى زيادة كبيرة .

وقد تمثل هذا التطور كله في « بغداد » التي أفرغ المنصور في شكل بنائها - وإن لم يرد - مفهومه كله في الخلافة والادارة فقد صممت المدينة المدورة « دار السلام » لتكون مقر العرش العباسي فجعلت مدورة دون جهات واضحة ، لان الخليفة ليس لجهة • وجعلت لها أربعة ابواب: باب باتجاه خراسان مصدر قوة الدولة يقابله باب آخر باتجاه الحجاز مصدر سلطة العباسيين وباب باتجاه الشام مصدر قلق الدولة يقابله باب باتجاه البصرة والسواد مصدر القوة الاقتصادية والمال • وجعلت هذه الابواب مزورة فلا يجب ان يكون الدخول الى الخليفة ومدينته ميسورا لكل طارق • وأقيمت للمدينة الاسوار المضاعفة بأبواب الحديد لتكون فاصلاً بين صاحب السلطة والناس ، وحماية كافية له ثم يأتي حاجز سكني من أنصار الخليفة ورجاله الذين أقطعهم القطائع فهم سياجه البشري وبطاته وتقوم في مركز المدينة ، ومركز الدائرة الرحبة العظمى لا ينفذ إليها إلا من خلال دهليز ينتهي بيايين من الحديد وفي وسط الرحبة قصر الخلافة (قصر الخلد أو باب الذهب) ذو القبة الخضراء يستقل به الخليفة مع حرمه وآل بيته ، وليس على مقربة منه الادارالحرس وسقيفة لصاحب الشرطة ومنازل أولاد المنصور الا صاغر والدواوين : للرسائل والخراج والخاتم والجند وخزانة السلاح وبيت المال ... والمسجد الجامع ... كان ذلك قريب الشبه بالمدينة الملكية الصينية • ولم يكن لاحد أن يدخل الرحبة العظمى وهو راكب ولو كان من عمومة المنصور^(١) • ثم ضاق المنصور بوجود أسواق الناس في بغداد فطرد هذه

(١) انظر الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٨ وانظر الطبري

الأسواق خارج الاسوار ! كانت بغداد اذن الصورة المادية لفكر المنصور الاداري وتصوره للدولة . واذا كان هذا الانسحاب والاحتجاب عن حياة الناس العامة قد أعطى الخليفة العباسي صورة ملوك الشرق القدماء كالاكاسرة مثلاً فانه جعل لظهور الخليفة بموكبه الباذخ في الاعياد وصلاة الجمعة وفي المسير للجهد وفي المناسبات العامة نوعاً من الهالة القدسية ، ينسجم مع النسب النبوي ومع صفة الاشراف على تنفيذ أوامر الله .

ولا شك أن المنصور بمفهومه الاداري الملكي المختلف عن المفهوم الاموي (الديمقراطي) قد صدم الرأي العام في عصره وأثار انتقاد الاتقياء والمؤمنين بالبساطة الحكومية وبمثال الشيخين وقد استوقف أحدهم المنصور في الكعبة فقال له : لقد استرعاك الله أمر عباده فأغفلت أمورهم وجعلت بينهم وبينك حجاباً من الجص والآجر وأبواباً من الحديد وحراساً معهم السلاح^(١) . . . » كما لم تخف أهداف المنصور من هذا البناء المركزي الحصين على معاصريه ولم تخف بخاصة على أعدائه العلويين الذين أنحوا عليه بالتهجم المرير وباللاتهام حتى درجة التكفير . فقد خطب محمد (النفس الزكية) في الناس يوم الثورة بالمدينة فقال : « أما بعد : أيها الناس فانه كان من أمر هذه الطاغية عدو الله أبي جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التي بناها معانداً لله في ملكه وتصنيفاً للكعبة الحرام . وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الاعلى^(٢) . . »

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٨ (٣ / ٣٧٧) .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٥٥٨ (٣ / ١٩٧) .

وثمة على أي حال فرق كبير جداً بين مفهوم المدينة الذي بنيت على أساسه بغداد بظروف بنائها وبأسوارها ومركزها المغلق • وبين المفهوم المنفتح الذي بنيت على أساسه سامراء بامتدادها وقصورها الباذخة وشوارعها الضخمة وظروف ذلك البناء المختلفة •

وقد نفذ المنصور فكره الإداري في الحزم المعروف عن مؤسسي الدول فلما جاء من بعده المهدي تراخت القبضة الإدارية الحديدية التي عرفت عن أبيه ، وتسامح المهدي مع الناس ومع نفسه ، وإذا كان المنصور قد ضرب بالطنبور رأس الضارب عليه حين سمع الدندنة في القصر فإن الخوارج كانوا يرددون صدى مايقوله الناس حين كتبوا الى المهدي ينددون بسيرته ويأخذون عليه عدم إقامة الحدود واتخاذ الإماء والتنوق في البناء وإدمان الصيد والغناء ، ويضيف أحدهم ، وهو عبد السلام الشكري :

« ... وقد زادني غيظاً أنك تسميت بالمهدي وأبعد من سالك ... ففي أي دين يسعك وفي أي كتاب إذ تعدو وظيفة ، أو تنقص مساحة ، أو تصطفي بستاناً أو تبذخ في مركب ، أو ترمي به في النزهة ، أو تفاوض عن جند أو تحبس عطاء أو تنسى من غزا أو تعاقب بالسوط ، سافكاً الدم ... أيها الطاغية ... » ^(١) ونرى المآخذ نفسها تؤخذ من قبل هؤلاء الخوارج على الرشيد ، ويكتب اليه حمزة بن أترك : « ... وقد فقد المسلمون عطاياهم وأرزاقهم وصدقاتهم بعد الخلفتين فصارت تؤخذ من غير موضعها وتصرف الى غير أهلها ... » هذا الى مايتعاطى عمال

(١) انظر الرسالة كاملة في المصدر الوحيد الذي ذكرها وهو خليفة ابن خياط - التاريخ (طبعة العمري) ج ٢ ص ٤٧٥ - ٤٧٧

السلطان « من سفك الدماء وإباحة الأموال وركوب الفواحش وما لم يحله الله لعباده... »^(١) وإذا كانت بعض التواريخ قد ظلت الأمين في سيرته اللاهية اللامبالية فليس ثمة دخان دون نار وإذا كانت سيرة المأمون « الرسمية » تجعله أنموذج الخليفة السياسي العالم الواعي فإن صورته في عصره لدى الناس لم تكن كذلك أبداً . وثمة إشارات كثيرة تكشف نظرة الناس السيئة إليه ومؤاخذته بدم أخيه وبالظلم كما تكشف بالمقابل خوفه من الناس ونظام التجسس الذي أقامه وقد اكتمل سوء الموقف ضده حين أخذ الناس آخر عهده بمذهب الاعتزال .

على أن شكاوى الناس من الخلفاء ظلت مجرد كلام في الهواء ولئن حولها الخوارج إلى قتال فقد كان قتالاً فاشلاً لم تؤثر إلا في بعض الفترات أو بعض النواحي على مسيرة الإدارة العباسية والتأثير المؤقت فقط .

فقد كانت أعمال المنصور وجهوده لإقرار النظام العباسي كافية لكي يستمر هذا النظام قائماً من بعده فترة تقارب القرن هي العهد الذهبي للإدارة العباسية . ولم تسر هذه الإدارة بأزمة من الأزمات الحادة إلا في تلك السنوات التي رافقت حرب الأخوين الأمين والمأمون وخاصة تلك التي أعقبت مقتل الأمين سنة ١٩٨ وامتدت حتى ما بعد وصول المأمون إلى بغداد سنة ٢٠٣ بقليل .

تلك السنوات الخمس كانت الفترة المظلمة القلقة في تاريخ الإدارة

(١) انظر رسالة الرشيد وجواب حمزة بن اترك كاملين في كتاب تاريخي سبستان (بالفارسية) مؤلف مجهول (طهران سنة ١٣١٤) ص ١٦٢ - ١٦٨

العباسية . ذلك أن غياب السلطة المركزية ، الغياب المطلق ، فكك النظام الإداري كله وبلغ من تمزيق الدولة الحد الذي أقام في كل بلد وأحياناً في كل قبيلة أو جماعة متغلباً يدعو لنفسه أو لبعض المتنفذين أو بعض آل البيت . ويعطينا اليعقوبي صورة كاملة مرعبة لذلك التفكك النيفسائي يقول : « ... وفي سنة ١٩٨ وجه المأمون الحسن بن سهل إلى العراق عاملاً عليها وعلى غيرها من البلد . وقد كان وثب الأصفر المعروف بأبي السرايا واسمه السري ابن منصور الشيباني بالكوفة ومعه محمد بن ابراهيم العلوي ... ثم توفي محمد فأقام ابو السرايا مكانه محمد بن محمد بن زيد . وأخذ البصرة العباس بن محمد بن موسى الجعفري ... وقدم معه زيد بن موسى بن جعفر ... وأخذ واسط محمد بن الحسن المعروف بالسلق وأخذ اليمن ابراهيم بن موسى ابن جعفر . وأخذ الحجاز محمد بن جعفر . وتغلب على نصيبين وما والاها احمد بن عمر بن الخطاب الربيعي . وبالموصل السيد بن أنس وبمبافارقين موسى بن المبارك الشكري وبأرمينية عبد الملك بن الجحاف السلمي ومحمد بن عتاب وبانوبيجان محمد بن الرواد الأزدي ويزيد بن بلال اليمني . ومحمد بن حميد الهمداني وعثمان بن أفكل وعلي بن مر الطائي . وبالجبل أبو دلف العجلي ومرة بن أبي الرديني وعلي بن البهلول ومحمد بن زهرة وسانان وزيد بن ... وبالسلسة وعين جساس وناحياتها بسطام بن السلس الربيعي . وبكفرتوثا ورأس عين حبيب بن الجهم وبكيسوم وما والاها من ديار مضر نصر بن شيبان النصري . وكان أصعب القوم شوكة ... وبقورس وما والاها من كور العواصم العباس بن زفر الهلالي . وبالحيار وما والاها من كور قنسرين عثمان بن تمامة العبيسي وبالحاضر الذي الى جانب حلب منيع التنوخي ... (وحاربهم

يعقوب بن صالح الهاشمي حتى خرب الحاضر وألصقه بالأرض وكان فيه عشرون ألف مقاتل) وكان بمعرفة النعمان وتل منس وما والاهما من اقليم حمص الحواري بن حنطان التنوخي . وبحماه وما والاهما حراق البهراني وبشيزر وما والاهما بنو بسطام . وبمدينة حمص بنو السمط وبالمصيصة واذنة دما والاهما من الثغور الشامية ثابت بن نصر الخزاعي (وكان عاملاً للأمين فلما كان من أمره ما كان تغلب على البلد) واقام بدمشق والاردن وفلسطين جماعة من سائر القبائل . وبصر السري بن الحكم بقصبة الفسطاط والصعيد (اي الدلتا وتونس) عبد العزيز الجردى وبالحوفين القيسية واليمانية .

وغلبت لخم وبنو مدلج على الاسكندرية ورئيس لخم رجل يقال له احمد ابن رحيم اللخمي . ثم غلب الاندلسيون (جماعة الربض الذين قدموا في اربعة آلاف مركب بقيادة ابي عبد الله الصوفي) . وكان ببرقة مسلم بن نصر الأعور الأنباري » (١) .

وهكذا كان الجزء الوحيد من الدولة الباقي على النظام العباسي هو خراسان وايران حيث كان يستقر المأمون . وكان على هذا الخليفة أن يعاود من جديد جهود المنصور لالغاء هذه الزعامات والتسلطات المحلية وإقرار النظام العباسي المركزي بدلاً منها . وحتى خراسان لم تسلم للمأمون إذ خرج بها بعد مغادرة المأمون لها تأثير خطر هو منصور بن عبد الله بن يوسف البرم . وحتى بغداد التي فتحت وقتل خليفتها وثب بعض اهلها (أهل الحرية) كما وثب الابطناء وبعض الجند بقيادة محمد بن أبي خالد بالحسن بن سهل حتى أخرجوه من بغداد وبرغم مقتل ابن أبي خالد عند واسط فإن الابطناء وقواد الحرية اجتمعوا فبايعوا لابي

(١) يعقوبي ج ٢ ص ٤٤٥ - ٤٤٦

ابن المهدي (وهو المعروف بابن شكلة) في مطالع سنة ٢٠٢ ودعي له بالخلافة وسمي بالمرضى . . . ونزل بالرصافه وصلى بالناس وعقد الالوية وكتب بالولايات واستقامت له الامور . . . (١) » .

ولكن هل استقامت فعلا ؟ الواقع انها استقامت متأخرة في سنة ٢٠٦ حين « ولي المأمون قائده عبد الله بن طاهر الجزيرة والشام ومصر والمغرب وصير إليه جميع أعمالها وأمره بمحاربة المتغلبين بها . فنفذ عبد الله في سنة ٢٠٦ بعد نفوذ أبيه الى خراسان بشهرين فصار الى الرقة فواقع نصر بن شيبان النصري المتغلب بكيسوم وما والاها من ناحية الجزيرة . وكتب الى سائر المتغلبين في النواحي من الجزيرة والشامات . وأنفذ اليهم الرسل في المعاونة . فكتب القوم جميعا أنهم في الطاعة . وسألوه أن يكتب لهم الامانات فقبل ذلك منهم (٢) » .

« ووجه المأمون خالد بن يزيد بن يزيد الشيباني الى مصر ومعه عمر بن فرج الرخجي في جيش وأمرهما أن يتكاتفا على النظر فاذا فتحا البلاد نظر . . . الرخجي في أمر الخراج وكان الى خالد المعاونة والصلاة » . . . ثم قدما مصر وعلى بن عبد العزيز الجروي متغلب بأسفل الارض . . . فكتب اليهما أنه في السمع والطاعة . . . » .

ولكنه زاغ منهما بعد ذلك ولا سيما حين انهزما أمام عبيد الله بن السري وأسر خالد ثم اطلق بالسراح الجميل الى العراق بينما ذهب الرخجي الى الحج بمكة . . . ثم لم تسقط مصر بيد المأمون حتى أرسل لها عبد الله بن

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٥٠ - ٤٥١

(٢) المصدر نفسه ص ٤٥٦ و ص ٤٥٧

ظاهر نفسه (١) فحارب وانتصر في صفر سنة ٢١١ هـ .

وجرى الامر نفسه في اليمن وكان أحمد بن محمد العمري (من ولد عمر بن الخطاب) قد وثب بقسم من اليمن فلما استنزله منها بالامان ابو الرازي محمد بن الحميد والي اليمن ثم مكر به صار بعض اليمن للسامون أما القسم الآخر الذي غلب عليه ابراهيم بن جعفر الحميري فكان في منطقة الجبال الوعرة وقد استطاع الحميري أن يكمن لابي الرازي فيها فيقتله مع أصحابه ثم يخرب مدينة السلطان (زييد) سنة ٢١٢ هـ .

وهذا كله يعني أن الادارة العباسية استمرت بعد سنوات الاضطراب الخمس سنة (١٩٨ - ٢٠٣) ما لا يقل عن ثماني أو تسع سنوات أخرى حتى عادت آليتها الى المسير المنتظم القديم وعاد للسلطة المركزية نفوذها في أنحاء الدولة ولكن بعد أن زرعت فيها بذور التفكك المقبل .

ونتقل من رئيس الدولة وعمله الاداري الى البلاط حوله فنجد فيه : ولي العهد والصحابة . ولم يكن لولي العهد من دور إداري . بلى ! كان يتمرس على الادارة بأن يعطى بعض الولايات . وكان - ولا سيما في الفترات الاولى - يذهب الى تلك الولاية ، وهي في الغالب خراسان ولكنه عند ذلك يصبح واحدا من الولاة وليس الموجه لسياسة الدولة كلها . ومنذ عهد المنصور أضحى ولي العهد نوعا من « الخليفة الصغير » في الشكليات والمراسم دون السلطات والنفوذ . كان يخرج في موكب خاص به ويمشي صاحب الشرطة بين يديه « بالحرية » ثم تعقد الموكب مع الايام وازدادت المراسم حتى إذا كان عهد المتوكل نجد أن تلك المراسم أضحت

(١) المصدر نفسه ص ٦٠

معقدة منظمة • يروي الطبري^(١) أن المتوكل عقد لكل واحد من أولاده الثلاثة لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهد والآخر أبيض وهو لواء العمل وضم إلى كل واحد منهما من العمل : أفريقية والمغرب حتى العراق لابنه محمد المنتصر وكور خراسان وفارس مع بيوت المال ودور الضرب لابنه المعتز وأجناد الشام لابنه المؤيد ... ونستخلص من كتاب المنتصر في عزل أخويه هذين أنه كان من الرسم أن يعلن اسم ولي العهد في الخطبة، وأن يجعل له ديوان وتضم إليه الكتبة ويعطى الاقطاع اللازم ويكتب اسمه على الاعلام والمطارد وتوسم دواب الشاكرية (الحرس) والرابطة باسمه^(٢) ولكن الاثر الاداري لاولياء العهود لم يكن ليزيد عن أثر أي وال من الولاة مع كل ذلك •

علي أن الجديد في الادارة العباسية هو ظهور « مجلس » استشاري من كبار الرجال في مختلف الامصار يختار أعضاؤه اختيارا ليكونوا بجانب الخليفة على الدوام ، يجضرون القصر كل يوم فيدخلون على مراتبهم مجلس الخليفة ، فيشهدون لقاءه مع الناس ويستشيرهم في الرأي ويكتبون له بما يرون من الامور ويسامرونه أحيانا ويحضرون بجانبه في المناسبات الرسمية من عرض للجيش أو بيعة لولي عهد أو تهنئة أو عزاء ، كما ينتقى منهم أحيانا بعض الرجال لبعض المهام من قيادة وسفارة وولاية • هذا المجلس الذي قد يبلغ أعضاؤه عدة مئات كان يدعى « بالصحابة » ويبدو أنه تقليد عربي قديم نما في زمن الامويين فكان يحضر مجالس خلفائهم وولاتهم وجوه العرب ثم نظم ذلك العباسيون الاوائل تنظيما أوفى وأوسع • يروي الطبري قول معن بن زائدة :

(١) انظر الطبري ج ٩ ص ١٧٦ (١٣٩٥/٣ - ١٣٩٦) .

(٢) الطبري ج ٩ ص ٢٥٠ (١٤٩٤/٣) •

« ... كنا في الصحابة سبعمائة رجل فكنا ندخل على المنصور كل يوم فقلت للربيع (بن يونس) : اجعلني في آخر من يدخل فقال : لست بأشرفهم فتكون في أولهم ولا بأخسهم نسبا فتكون في آخرهم وإن مرتبتك لتشبه نسبك^(١) » ... هؤلاء هم الحاشية الرسمية • وكان لها من الخليفة الجراية المعلومة المتفاوتة من الرزق (الراتب) والمعونة (المؤن والعدد للقتال) ولها في توجيه الادارة الاثر المتفاوت أيضا حسب افرادها وقيمهم وحسب الخلفاء •

ويبدو أن أول ما ظهر هذا المجلس من الصحابة إنما كان حول الخليفة الاول أبي العباس بسبب حاجته وحاجة الدولة الجديدة الى الاعوان والخبراء • كما يبدو أن الصحابة الاوائل هؤلاء كانوا يجمعون أو يقبلون في مجلس الخليفة دون تدقيق في الاختيار بسبب طبيعة مرحلة التأسيس التي كانت تجتازها الدولة • وقد سمحت الفترة الاولى، للوزراء والكتاب بسبب الفوضى والسرعة ، أن يدخلوا في صحابة الخليفة أناسا لا ينظر الناس اليهم نظرة تقدير مما جعل الطبقات الارستقراطية تحجم عن الترحيب بصحبة الخليفة • وقد أشار ابن المقفع في رسالة الصحابة الى آلام الناس وتقدهم الشديد لهذا الوضع قال^(٢) :
« ... ومما يذكر به أمير المؤمنين أمر اصحابه فان من أولى أمر الوالي بالثبوت والتخير أمر أصحابه الذين هم فناؤه وزينة مجلسه وألسنة رعيته

(١) الطبري ج ٨ ص ٦٤ (٣/٣٩٣ - ٣٩٤) .

(٢) انظر في رسالة الصحابة لدى محمد كرد علي - رسائل البلغاء (طبعة البابي - القاهرة سنة ١٩١٣) ص ١٢٧ - ١٢٨ وانظرها لدى يوسف ابو حلقة في كتاب (ابن المقفع - الادب الكبير) - طبعة بيروت ١٩٦٠ ص ١٧٢ - ١٧٤ .

والاعوان على رأيه ومواضع كرامته والخاصة من عامته فان أمر هذه الصحابة قد عمل فيه من كان وليه من الوزراء والكتاب قبل خلافة امير المؤمنين (المنصور) عملا قبيحا مفرط القبح ، مفسدا للحسب والادب والسياسة ، داعيا للاشرار طاردا للاخيار . فصارت صحبة الخليفة أمرا سخيفا فطمع فيه الاوغاد وتزهد اليه من كان يرغب فيما دونه . . . » ثم يروي ابن المقفع أنه كان في ناس من وجوه أهل البصرة دعاهم أبو العباس « فأبوا أن يأتوه فمنهم من تغيب فلم يقدم ومنهم من هرب بعد قدومه اختيارا للمعصية على سوء الموضع لا يعتذرون في ذلك الا بضياغ المكتب (أي ما يكتبون) والدعوة (أي الاذن على الخليفة) والمدخل (الدخول عليه) يقولون : هذه منزلة كان من هو أشرف من أبنائنا يرغبون فيما هو دونها عند من هو أصغر من أمراء ولاتنا اليوم ولكنها كانت مكرمة وحسبا . إذ الناس ينظرون ويسأل عنهم فأما اليوم ونحن نرى فلانا وفلانا ينفر بأسمائهم على غير قديم سلف ولا بلاء حدث فمن يرغب فيما هنا يا أمير المؤمنين ؟ » .

لا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا

« وإن أمر هذه الصحابة قد كان فيه أعاجيب دخلت فيها مظالم : أما العجب فقد سمعنا من الناس من يقول : ما رأينا أعجوبة قط أعجب من هذه الصحابة ممن لا ينتهي الى أدب ذي نباهة ولا حسب معروف ثم هو مسخوط الرأي مشهور بالفجور في أهل مصره قد غبر عامة دهره صانعا يعمل بيده ولا يعتد مع ذلك ببلاء ولا غنا إلا إنه مكنه من الامر صاغ (مال) فاتته الى حيث أحب فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والانصار وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل بيوتات العرب . ويجرى عليه من الرزق الضعف مما يجري على كثير من بني هاشم وغيرهم من سراة قریش ويخرج له من المعونة على نحو ذلك . . » .

« وأما المظلمة التي دخلت في ذلك فعظيمة قد خست قريشا وعمت كثيرا من الناس وأدخلت على الاحساب والمروءات محنة شديدة وضياعا كثيرا فان في اذن الخليفة في المدخل عليه والمجلس عنده وما يجري على صحابته من الرزق والمعونة وتفضيل بعضهم على بعض في ذلك حكما عظيما على الناس في أنسابهم وأخطارهم . . . وليس ذلك كخواص المعروف . . . يختص بها المولى من أحب ولكنه باب من القضاء جسيم عام يقضى فيه للماضين من أهل السوابق والباقيين من أهل المآثر وأهل البلاد والغناء بالعدل . . . ولصحابة أمير المؤمنين - اكرمه الله - مزية وفضل وهي مكرمة سنية حرية أن تكون شرفا لاهلها وحسبا لاعقابهم وحقيقة أن تصان وتحظر ولا يكون فيها إلا رجل بدر بخصلة من الخصال (قرابة . شرف . رأي . حديث . مشورة . نجدة . حسب . عفاف . فقه) ثم تكون تلك الصحابة المخلصة على منازلها ومداخلها لا يكون للكاتب فيها أمر في رفع رزق ولا وضعه ولا للحاجب في تقديم إذن ولا تأخره . . . »

في هذه الصورة النادرة صور ابن المقفع واقع الامر في تكوين مجلس الصحابة ودوره زمن ابي العباس وفي مطالع عهد المنصور . ويبدو من أخبار هذه الصحابة أن أمر تعيينها وضمها الى الخليفة كان يخضع للاختيار الحروكان يعمل فيه الوزراء وكبار الكتاب والولاة بجانب الخلفاء: فصالح بن علي العباسي سار من مصر عائدا ومع عدة من أهلها صحابة لأمير المؤمنين^(١) وأبو عبيد الله وزير المهدي نظر الى أربعة رجال من قبائل شتى من أهل الادب والعلم فضمهم الى المهدي فكانوا في صحابته^(٢)

(١) المقرئ - الخطط (طبعة بيروت) ج ٢ ص ٧٥ .

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٣٧ (٤٨٧/٣ - ٤٨٨) .

وأعجب الرشيد بفصاحة عبد الواحد بن بشر النصري الذي اعتذر لديه
عن أهل دمشق القيسيين ، فأثبته في صحابته^(١) . . .

ويبدو من جهة أخرى أن هذه الصحابة لم تكن من العرب وحدهم
وكان فيها الموالي أيضا كما لم تكن تختار لاحسابها أو غناها فقط ولكن
يراعى في اختيارها عدد من الصفات وقد اعطى ابن المقفع الصورة المثالية
لهذا الاختيار بقوله : « . . . ولا يكون فيها إلا رجل بدر بخصلة من
الخصال أو رجل له عند أمير المؤمنين خاصة بقرابة أو بلاء أو رجل يكون
شرفه ورأيه وعمله أهلا لمجلس أمير المؤمنين وحديثه ومشورته أو صاحب
نجدة يعرف بها ويستعد لها يجمع مع نجدته حسبا وعفا فرفع من الجند
الى الصحابة أو رجل فقيه مصلح يوضع بين أظهر الناس لينتفعوا بصلاحه
وفقهه أو رجل شريف لا يفسد نفسه أو غيرها . . . » وهذا يعني أن إطار
الاختيار كان يدور حول هذه الصفات ففيه القواد وفيه الفقهاء وفيه
أقرباء الخليفة كما فيه الاشراف العرب وغيرهم وأصحاب الرأي
والمحدثون . . . ويظهر أنه كان يراعى فيهم التوزيع الجغرافي فمنهم من
هو من خراسان كما ان منهم من أهل الشام ومن مصر ومن الحجاز
ومن البصرة والجزيرة وقد ورد في كتاب القاضي أحمد بن عبيد الله
العنبري الى المهدي يوم استخلص قوله : « . . . فان رأى أمير المؤمنين
أن يكون بحضرته قوم منتخبون من أهل الامصار أهل صدق وعلم
بالسنة ، أو لو حنكة وعقول وورع لما يرد عليه من أمور الناس وأحكامهم
وما يرفع اليه من مظالمهم فليفعل فلن أمير المؤمنين وإن كان الله أنعم عليه
بما أفاد من العلم بكتابة رد عليه أمور هذه الامة أهل شرقها وغربها

(١) ابن عساكر - تاريخ دمشق (تهذيب بدران) ج ٧ ص ١٧٧

وقاصيها ودانيها فيشغله بعضها عن بعض ، ففي ذلك عون صدق على ما هو فيه ان شاء الله ... (١) » .

ولم يحفظ لنا المؤرخون إلا أسماء القليل من هذه المئات العديدة من صحابة الخلفاء فمن صحابة أبي العباس ذكروا مثلاً فراس بن جعدة المخزومي ، و أبا بكر الهذلي وعبد الله بن شبرمة وإبراهيم بن جلبة الكندي وخالد بن صفوان . كما عرضت الصحابة على ابن المقفع وغيره . ومن صحابة أبي جعفر نعرف معن بن زائدة الشيباني وابن أبي الكرام الجعفري والحجاج بن أرطاة النخعي وجعفر بن حنظلة البهراني واسحق ابن مسلم العقيلي ، والشرقي بن القطامي وعثمان بن عمارة وعبد الله ابن الربيع المداني وسلم بن قتيبة الباهلي ونصر بن مالك الخزاعي وتامة ابن الوليد العبسي ... وإذا كان العدد الأكبر من هؤلاء الصحابة عرباً فقد كان ذلك نتيجة تكوين الجماعة المناصرة للدولة ولأن كثرة المسلمين كانت ماتزال من العرب . وإنما كان اختيارهم في الأصل لا لعروبتهم ولكن لانهم « أهل الامصار » .

ويظهر ان التنافس ومحاولة السيطرة على رأي الخليفة وتنازع النفوذ كانت على أشدها في البلاط العباسي ولا سيما بين العرب والموالي . أو بين هاتين الكتلتين وبين الجهاز التنفيذي الذي يرئسه الوزير . وهذا ما أثر تأثيراً سيئاً على كتلة الصحابة وعلى نموها كمجلس ذي نفوذ وسمح للوزراء بأن يهدموا ذلك النفوذ بالتدريج يروي الطبري أن أبا عبيد الله الوزير « لما رأى غلبة الموالى على المهدي وخلوتهم به نظر الى أربعة رجال من قبائل شتى (عربية) من أهل الادب

(١) انظر وكيع - أخبار القضاة ج ٢ ص ١٠٧ (طبعة القاهرة ١٩٤٧)

والعلم فضمهم الى المهدي فكانوا في صحابته فلم يكونوا يدعون الموالي
يخلون به ... » . وكانت الغلبة في النهاية للوزراء لا سيما حين تسلم
أمر الخلافة كافة خالد بن برمك في عهد الرشيد . فتقلص ظل الصحابة
وتقلص معه نفوذهم السياسي والاداري في الدولة .

ومن الهام أن نلاحظ أن الصحابة لم يكونوا يعملون أو يشيرون
ويقررون « كمجلس » ولكن كأفراد بارزين . لم تكن لجماعتهم صفة
« المؤسسة الاستشارية » وإن كانوا مجموعة من الافراد جاهزة
للمشورة والولاية والنجدة وحسن توجيه الادارة . طبيعة الحكم
الاولتوقراطي المطلق الذي وطده المنصور لم يسمح لهذه الجماعة بالنمو
والتوطد والتحول الى كيان رسمي منظم بقي بابها مفتوحا دون عدد
محدد او نظام معروف او مدة معينة . وبقيت قيمتها مرتبطة بوزن أفرادها
ومدى تقديرهم الشخصي لدى الخليفة او كبار موظفي الدولة (من
وزير وكاتب وحاجب) ... وبدلا من النمو والتوطد اتجهت جماعة
الصحابة شيئا فشيئا في الاسم والاختصاص والدور السياسي نحو
الاضحلال في عهد الخلفاء التالين : تحول اسمها منذ عهد المهدي الى
« الخاصة » ولعل لارتفاع قيمة صحابة الرسول واختصاصهم المتزايد
بهذه التسمية أثرا في حملهم الاسم الآخر . واستقرت الدولة في القبول
العالم للناس فاستغنى الخلفاء عن البحث في وجهاء الامة عن أعوان
يستقدمونهم الى البلاط مادام الناس يقدمون من أنفسهم عليهم ويطلبون
الزلفى اليهم . ولئن بقي التقليد المنصوري بتعيين رجال « الخاصة »
في البلاط وفي منحهم الارزاق والمعونة الا إن دورهم السياسي
والاداري تضاعف كل التضائل فأضحى الدخول في « الخاصة » مجرد
تشریف ينعم به الخليفة على من يرتضيه من طبيب أو كبير أو قائد أو

شريف من الاشراف ، ويشكل بهم « الارستقراطية » الرسمية في الدولة .

ويبدو من الاخبار التاريخية أن مجلس الصحابة لم يكن للخلفاء فقط ولكنه كان لاولياء العهود : تربية لهم من جهة وتهيئة للمجلس كي يمنو ويتوطد مع الخليفة المقبل من جهة اخرى شرع في ذلك الخليفة المنصور أيضا فحين أرسل ابنه المهدي على خراسان سنة ١٤٦ جعل له حاشية من الصحابة يعينونه على الولاية ويوجهونه^(١) وحين ورد المهدي من خراسان سنة ١٥١ توافد أهل بيته من كان منهم بالشام والكوفة والبصرة وغيرها للتهنئة بمقدمه فأجازهم المنصور وكساهم « وجعل لابنه المهدي صحابة منهم وأجرى لكل رجل منهم خمسمائة درهم »^(٢) ولكن دور الصحابة لدى ولي العهد كان في الغالب دور المرابين والمدرين على المسؤولية المقبلة .

ونجد من جهة اخرى أن بعض الوزراء كانوا يصطنعون لانفسهم صحابة معينة أيضا وكانوا ينظمونها أحيانا . ولعل أول من بدأ ذلك هو يعقوب بن داود حين أضحى المتنفذ الاول في الدولة فقد روى الطبري أنه « ضم اليه (سنة ١٦١) من متفقهة البصرة وأهل الكوفة وأهل الشام عددا كثيرا وجعل رئيس البصريين والقائم بأمرهم اسماعيل بن علية الاسدي ومحمد بن ميمون الغنبري وجعل رئيس أهل الكوفة وأهل الشام عبد الأعلى بن موسى الحلبي^(٣) » على أن هذه الصحابة الوزيرية أخذت طابع الاصطناع والارتزاق في عهد البرامكة ثم اقتضت

(١) البعقوبي تاريخ ج ٢ ص ٤٥٦ .

(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ٣٧ (٣٦٤/٣) .

(٣) الطبري ج ٨ ص ١٣٦ (٤٨٦/٣ - ٤٨٧) .

في ما يظهر على جمهور الكتاب ورجال الدواوين فكانوا هم رجال الوزير وصحابته بعد ذلك .

ب - الكتاب والدواوين : الجهاز الاداري العباسي كان سلسلة بورقراطية متصلة من الموظفين تبدأ من القمة بالوزير وتنتهي بصغار المحررين ويمكن أن يشملها جميعا اسم : الكتابة . والوزارة ذاتها انما هي بنت الكتابة . من كان يسمى في أواخر العهد الاموي كاتباً صار في مطلع العهد العباسي يسمى وزيراً وهو ليس اكثر من رئيس الكتاب . وليس من قبيل الصدفة أن أولئك الذين اختارهم العباسيون الاوائل للوزارة كانوا في كافتهم من طبقة الكتاب فاقصى آمنيات هذه الطبقة منصب الوزارة . وقد ذكر ان عمرو بن مسعدة وقع على ورقة رفعت الى جعفر ابن يحيى البرمكي فأعجب بالتوقيع وضرب يده على ظهر عمرو قائلاً : أي وزير في جلدك ! وهكذا فان وجد لدى العباسيين وزراء فانه لم توجد لديهم « وزارة » بمعنى أنه لم توجد لديهم مؤسسة سياسية - ادارية تناط بها طائفة من الاعمال فتديرها ادارة مستقلة (١) .

تضخمت فقط أعمال رئيس الديوان وكبرت مكاتته فصار يسمى بالوزير . وإذا كان هذا يفسر مصارع الوزراء المتتالين الذين كانوا ينتقلون - في لحظة تسامح من الخليفة - من وظيفة الكاتب المنفذ الى

(٤) إنما كان تعدد الوزراء بتعدد الاعمال من نظام الاندلسيين « فقد قسموا خطة الوزارة اصنافاً وافردوا لكل صنف وزيراً فجعلوا لحسبان المال وزيراً وللترسل وزيراً وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً وللنظر في احوال اهل الثغور وزيراً » انظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٢ ص ٢٠٦ .

وظيفة الأمر التلوي فانه يكشف في الوقت نفسه أن هذا الانتقال الذي قام به أمثال يعقوب بن داوود ثم خالد بن برمك وابنه جعفر ثم قام به الفضل بن سهل كان التذود عن القاعدة وأن عمل الوزير - في نظير الخلفاء في صدر العصر العباسي على الأقل - ليس الوزارة ولكن الكتابة ورئاسة الدواوين ، لم تصبح لهم خطة السيف مع خطة العلم أي سلطة تصريف الامور السياسية والادارية والمالية والعسكرية الا في عهد متأخر من ذلك العصر حين بدأت الوزارة تصبح ، عن طريق الممارسة الواقعية ، مؤسسة مستقلة مميزة .

والكتابة هو اسم عمل الموظفين في الدولة العباسية . والكتاب هم السكرتيرون والموظفون في شتى دواوين الحكومة وأعمالها . ومن الملاحظ أن كتاب الدولة العباسية ، لا في العصر الاول فحسب ولكن بعده أيضا ، كانوا من حيث الاصل ايرانيين ، ومن حيث الثقافة مشبعين بالثقافة الفارسية ، ومن حيث الدين غير عميقي الايمان بالاسلام أو غير مسلمين ، ولم يكن ذلك بالغريب ولكنه كان نتيجة الظروف السياسية والجغرافية التي أحاطت بقيام الدولة العباسية . فاذا كانت غالبية الكتاب لدى الامويين في البلاط المركزي بالشام من سكان الشام القدامى ومن النصاري فان كتاب العراق وايران كانوا حتى في العهد الاموي من الايرانيين . وقد ورثتهم الدولة العباسية حين نشأت في العراق وزاد اعتمادها عليهم دون الشاميين ما دام مركز ثقلها السياسي انما هو في خراسان وايران . ولنلاحظ أن ارتباط الاسرة العباسية بخراسان هو الذي أدى الى ظهور «الوسطاء» بينها وبين الايرانيين من امثال أبي مسلم الخرساني والبرامكة ثم آل سهل كما كان السبب في زحف الكتاب الايرانيين خاصة الى وظائف الدولة .

ومنذ العهد الاموي كانت قد بدأت بين هؤلاء الكتاب روح جماعية تدفعهم الى الشعور بانهم يكونون جماعة خاصة أو وحدة وظيفية وإذا تجلت هذه الروح مثلاً في نصيحة عبد الحميد الكاتب « لمعشر الكتاب » فإنها قد تطورت ، في العهد العباسي ، حتى حولتهم الى طبقة بورقراطية شبه مغلقة شبيهة بطبقة المثقفين الصينيين •

تضافرت على هذا التطور عوامل شتى : فإذا كان هؤلاء الكتاب من الناحية الاجتماعية مجموعة من الايرائين المستعربين من أهل العراق أو ايران فقد حاولوا أن يتمسكوا بوظائفهم ويرفعوا من شأنها ويضعوا لها المؤهلات والتقاليد ، كما تؤمن لهم تلك الوظائف من حياة مترفة ونفوذ اجتماعي كبير وإذا كانوا ثقافياً يمثلون تيار الثقافة الفارسية فقد سعوا الى تقريبها ونشرها بين الناس وطبع الدولة العباسية العربية بطابعها الاداري – السياسي وإذا كانوا في الدين جديدي الدخول في الاسلام فقد ظلوا بصورة عامة أميل الى الزندقة كما كان فيهم الكثير من الشنوية أو من اهل الذمة المحافظين على دياناتهم •

وقد أضيف الى ذلك عوامل أخرى زادت في وضوح الطابع الطبقي لدى الكتاب وفي علو منزلتهم ونفوذهم ذلك أن عددهم ازداد في العصر العباسي الأول « مع اتساع الاجهزة الادارية وازداد في الوقت نفسه التعقيد التقني المتعلق بأعمالهم وتضافرت مصلحة الدولة مع الحاجة الى التأهيل التقني (المهني) فاتجه هؤلاء الكتاب الى حصر وظائفهم في سلاسلهم أو في أقربائهم بعد أن كانوا في الأصل ينتقون من بين موالي العائلات الكبيرة ... » (١) •

(١) كلود كاهن – تاريخ العرب والشعوب الاسلامية (الترجمة العربية) ص ١٢١ •

وزاد في قيمة الكتاب وفي تشكيلهم طبقة متنفذة أنهم كانوا جهازاً إدارياً مستتراً واختصاصياً بتغيير الخلفاء دوماً وبتعرض الوزراء للعزل والنكبات وهم باقون على آلة الإدارة الواسعة يديرونها على طرائقهم بالإضافة إلى أن الخلفاء من بني العباس أسرعوا وتوسعوا في استخدام الكتاب في الوقت الذي كان فيه نفوذ الوزراء يتعاضم . ووجد هؤلاء الخلفاء ضالتهم لتنظيم الدولة وضبطها ومركزيتها في النماذج الإدارية والتنظيمية التي نقلها لهم هؤلاء الكتاب عن الفرس وعن آداب البلاط الساساني فاصطنعواهم اصطناع محتاج لخبرتهم ، راض بهذه الخبرة مقدر لأصحابها ميسر لهم في المكانة والرزق والنفوذ جزاء ما يبدونهم من « صناعة » الإدارة والسياسة والحكم .

وقد وضع الكتاب منذ ذلك العصر أسس التأهيل المهني لصناعتهم في شكل معلومات وتقاليد ومفاهيم ثقافية محددة وكتبوا في ذلك الكتب التعليقية من أمثال : أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر وكتاب (الكتاب) لابن درستويه وغيرها . وينكشف في هذه الكتب ما كان يطلب من ابن « الصناعة » معرفته والامام به من لغة وإملاء ونحو وتاريخ وجغرافيا ومسالك وبيان وشعر وفقه ومن معلومات عسيلة تستد من بري القلم إلى تقسيم الإرث أو مساحة الأرض أو صيغة العقود أو معرفة البريد والمنارات ومطارات الحمام الزاجل . ويحدثنا الجاحظ عن ثقافة الكتاب هازئاً منها قائلاً : « ... والناشيء فيهم إذا ... صارت الدواة أمامه وحفظ من الكلام فتيقه ومن العلم ملحه ومن برز جمهر أمثاله ومن أزدشير عهده ومن عبد الحميد رسائله ومن ابن المقفع أدبه وصير كتاب نردك معدن علمه ودفتر كليلة ودمنة كنز حكيمته توهم أنه الفاروق الأكبر في التدبير وابن عباس في العلم بالتأويل ... والنظام في الكلاميات والأصمعي في اللغات ... »

إلخ » ومهما كان تقديرنا لهذه الثقافة السطحية المتنوعة ذات الدائرة الواسعة والعمق المحدود فإن قيستها العملية بالنسبة للكتاب كانت كبيرة كما انها وضعت أسس الثقافة « الكلاسيكية » الأدبية في التاريخ العربي ومنحتها طابعها الموسوعي •

وكانت نتيجة نفوذ الكتاب من جهة ووضعهم الثقافي من جهة أخرى أن اشتهروا بالكبر وبقلة الدين • وهاتان الصفتان كانتا محور الرسالة التي كتبها الجاحظ « في ذم أخلاق الكتاب » وهي تعكس الكثير من حسنة الجو الديني الثقافي والاجتماعي ضد الكتاب في ذلك العصر من التهجم والنقد وقد يكون في بعضه وجه للحن •

فاما في موقفهم الاسلامي • فقد حلل الجاحظ هذه الناحية الدينية بقوله « ... يكون اول بدو الكاتب الطعن على القرآن في تأليفه ثم يظهر فيه ظرفه بتكذيب الأخبار ... فان استرجح أحد أصحاب الرسول (ص) فقل عند ذكرهم شذقه وإن نعت له الحسن (البصري) استثقله • وإن وصف له الشعبي استحمله • ثم يقطع ذلك من مجلسه بسياسة ازدشير بابكان وتدير انوشروان ... فإن حذر العيون رجع بحكم القرآن الى المنسوخ وبذكر السنن إلى المعقول لا يرتضي من الكتب إلا المنطق ... » ويضيف الجاحظ « ... هذا هو المشهور من أفعالهم والمتصوف من أخلاقهم ومن الدليل على ذلك أنه لم ير كاتب قط جعل القرآن سميده ولا التفقه في الدين شعاره ولا الحفظ للسنن والآثار عماده فإن وجد الواحد منهم ذكراً شيئاً من ذلك لم يكن لدوران فكيه به طلاقة ... وإن أثر الفرد منهم السعي في طلب الحديث ... وكتب المتفقهين استثقله أقرانه وقضوا عليه بالادبار في معيشتهم وللحرفة في صناعته حين حاول ما ليس

من طبعه . . . » (١) .

ويسجل المستشرق جب ها هنا ملاحظة هامة تعلق على هذا الأمر يقول فيها : « إن اصطناع الدولة العباسية لطبقة الكتاب بصفتها هذه وانتحالها - عن طريقهم - للتقاليد الملكية الفارسية وللنحى الإداري - السياسي الفارسي بشكل متزايد . قد استتبع صراعاً بين المثل العليا الأخلاقية والاجتماعية في المجتمع العباسي دار أكثره في ما قد نسميه معركة الكتب . وتسمى حركة بث الصبغة الفارسية باسم الشعوبية وجرى الناس على أن يعتبروها تياراً من رد الفعل ظهر بين الفرس ضد السادة العرب إلا إن هذا التفسير غاية في الضيق فقد كان أصحاب هذه الحركة هم طبقة الكتاب العاملين في الدواوين وكان نفوذهم قد ازداد زيادة بالغة في ظل الدولة العباسية . . . وقد عثر أولئك الكتاب منذ آخر الدولة الأموية على النماذج التي يحتذونها في أدب البلاط الساساني . فأهمية الحركة الشعوبية إذن تكمن في أنها تشل جهود طبقة الكتاب ليفرضوا - وهم يتحاشون الاصطدام جهاراً بالنظام الديني - سيطرة تقاليد البلاط الفارسي . ليس هذا وحسب بل لكي يبعثوا البناء الاجتماعي الفارسي القديم بكل ما يحويه من مراتب طبقية متميزة ولكي يحلوا روح الثقافة الفارسية محل ما خلفته التقاليد العربية من مؤثرات في المجتمع المدني الجديد المتطور بسرعة في العراق . . . » عن طريق ترجمة كتب فارسية تلقى ذيوغاً ورواجاً بين الناس .

ومن هنا نشأ التصادم بين طبقة الكتاب وطبقة الفقهاء التي لجأ بعض رجالها - كالمعتزلة - إلى الفلسفة الاغريقية للوقوف في وجه التيار

(١) الجاحظ - آثار الجاحظ (طبع أبو النصر - بيروت) ص ٥٤-٥٥

الفارسي • وظهر الانقسام بين النظام السياسي والنظام الديني وبالرغم من ان النظام الأخير هو الذي انتصر إلا إن عناصر رئيسية عديدة من المؤثرات الساسانية كانت في النهاية قد ادمجت في آداب العلوم الانسانية العربية وفي التقاليد السياسية الاسلامية^(١) •

وأما في الجو الاجتماعي فبالرغم من أن بعض الكتاب كانوا زهرة المجتمع الادبي وكانت لهم شهرتهم الأدبية فإن الناس — وهم في طبعهم أعداء من حكموا — كانوا يجعلونهم هدفاً للنقد ويكرهون منهم خاصة الكبر ويأخذون عليهم « الترفع » وروح الطبقة • وهذا ما جعل الحديث في مساوئهم كثيراً وجعل الوجه المذموم من سيرهم مجال ذكر وتسجيل يذكر الجاحظ مثلاً • أنهم « يضربون بالكتاب فيما بينهم المثل ويحكمون له بالبصيرة في الأدب (والعلم والنبل) ••• ولعله عمر بن فرج في السفه والمباهة وابراهيم بن العباس في الشره والرقاعة ونجاح بن سلمة في الطيش والسخافة واحمد بن الخصيب في اللؤم والجهالة وآل وهب في النهم والندالة ويحيى بن خاقان في الذل والفاقة وموسى بن عبد الملك في الرخم والبلادة وابن المدير في الخب والمكابرة والفضل بن مروان في القدامة القصوى •••»^(٢) وهؤلاء هم مشاهير الكتاب في عصره • ويستعرض الجاحظ في موضع آخر تاريخ الكتاب منذ نشأوا وخاصة في العهد العباسي فيقول : « ••• كتب لبني العباس ابن المقفع فأغرى بهم عبد الله بن علي ••• ثم كتب لهم يونس ابن أبي فروة وكان زنديقاً ••• واستكتب الرشيد (يزد ابعادان) على ديوان الخراج وكان ثنويًا • ثم

(١) انظر جب — دراسات في حضارة الاسلام ص ١٥-١٨

(٢) آثار الجاحظ ص ٥٧

لم ينوهوا بذكر كاتب حتى ولي المأمون تقدم معه ابن أبي العباس الطوسي فيه انتشرت السعاية في العراق . واستكتب أبا عباد وكان سخيلاً جداً ثم كتب له رجاء بن أبي الضحاك ، وكان أظلمهم وأغشمهم واستخلف حفصويه على ديوان الخراج وكان ركيكاً لسعايته ثم كتب له ابن يزدان وكان أشقاهم حتى هلك وكتب له عمرو بن مسعدة فكان رسائلها فقط واسترجح المأمون - وهو بخراسان - على غير بلوى ... ابراهيم بن اسماعيل ... وكان شعوبياً ويتهم بالثنوية وأحمد بن يوسف وكان مأفوناً ... »^(١) إلخ ومع كل أولئك فهؤلاء هم الذين كانوا قوام الادارة العباسية في عصرها الذهبي .

مارس الكتاب أعمالهم ونفوذهم وأثرهم من خلال أجهزة الادارة التي عرفت باسم الدواوين . ويتضح تكامل العمل الديواني في العملية البوروقراطية والورقيات ، وفي ظهور أسلوب خاص في المراسلات الادارية ، وفي وجود « سجلات » تسجل فيها المراسلات والمعاملات ونظام « للأرشفة » يحفظ الوثائق الرسمية ، وقد استكمل الديوان العباسي هذه الملامح كافة فقد ساعد انتشار صناعة الورق منذ عصر الرشيد على توطد صفة الدواوين البوروقراطية ووجد أسلوب في المراسلة عرف منذ ذلك الوقت بالانشاء كما كان للدواوين سجلات وأرشفة يرجع إليه عند الحاجة وفيه جرائد بارتفاع الخراج وسجلات بمساحة الارضين ومقادير الضرائب محفوظة سنة بعد سنة .

يذكر البلاذري فيما يتعلق ببعض وثائق فتح النوبة وادعاء النوبيين أن البقظ ليس مفروضاً عليهم كل سنة قوله : « ... ولم يوجد لهذه

(١) آثار الجاحظ ص ٦٠-٦١

الدعوى ثبت في دواوين الحضرة (بغداد) ووجد في الديوان بمصر»^(١) ويذكر المقرئ أن أمير مصر عبد الله بن طاهر سأل رجلاً من حاشيته عن بعض أمور النبوة فأجابه «... فوجه الأمير إلى الديوان بظاهر المسجد الجامع بمصر فامتخرج منه خبر النبوة فوجده كما فكرت فسرته ذلك»^(٢).

ومن جهة أخرى فقد توسع الجهاز الإداري الحكومي تدريجياً وتعددت معاملاته في العصر العباسي وكانت الإدارة تزداد بورقراطية مع ازدياد أوتوقراطية الخلفاء واتجاههم المتماضي نحو المركزية ومن هنا نشأت الحاجة إلى زيادة عدد الدواوين وتعدد أنواعها وأعمالها حتى صار لكل شأن إداري ديوان تقريباً. وحتى نستطيع القول إن الهيكل الإداري الكلاسيكي في الحضارة الإسلامية إنما توطد في ذلك العصر. المؤسسات الإدارية التي كانت تتسم بالنقص أو الانقطاع عن غيرها أو بعدم الاستقرار أو بغموض الوظيفة في العهد الأموي أعطاها العصر العباسي الأول أبعادها الكاملة تحت ضغط الحاجة من جهة وبنتيجة اتساع الخبرات وتخصيصها، من خلال طبقة الكتاب، من جهة أخرى.

ومن الصعب جداً تقديم جدول إحصائي كامل بكافة الدواوين التي عرفت في الإدارة العباسية. لم يسجل المؤرخون «ولادة» الكثير منها ونشر على أسماء بعضها بالصدفة: لدى تعيين مشرف عليها أو إلغائها أو اتصال حادث بها أو ترجمة عامل من عمالها. وإذا كانت الدواوين الرئيسية سواء في مركز الخلافة أو في الولايات ثلاثة تتفق مع أركان الإدارة الثلاثة وعلى رأس كل منها كاتب يرئسها وهي:

(١) البلاذري - فتوح البلدان (ط. المنجد) ص ٢٨١

(٢) المقرئ - الخطط (ط. بيروت) ج ١ ص ٣٥٤

- ١ - ديوان الرسائل للمراسلات الإدارية والسياسية .
 - ٢ - وديوان الخراج للشؤون المالية والضرائبية ويسمى أحياناً ديوان الخراج الأعظم^(١) .
 - ٣ - وديوان الجند لتنظيم المؤسسة العسكرية وأمور الجيش .
- فإن ثمة ديواناً رابعاً أساسياً عمله الرقابة على إدارة الدولة كلها هو ديوان البريد يرئسه صاحب البريد . أما القضاء فقد ظل إدارة متروكة للقضاة أنفسهم في كل مصر بما في ذلك بغداد نفسها في قسميها الشرقي والغربي حتى أحدث منصب قاضي القضاة لأبي يوسف زمن الرشيد لتوحيد الأحكام لا الدواوين القضائية .

على أنه وجد بجانب الدواوين الأربعة الأساسية أعداد أخرى من الدواوين أوجدتها الحاجات لشتى الشؤون ويمكن أن نجعلها في مجموعات ثلاث تبعاً لوظيفتها وطبيعة عملها :

- ١ - دواوين عملها تدير شؤون البلاط والخليفة مثل ديوان الحوائج وديوان الأحشام (الحشم والخدم) وديوان التوقيع والتتبع على العمال وديوان الخاتم وديوان الرقيق وديوان الخزائن (خزائن السلاح والثياب) وديوان الغلمان والموالي الذي استحدثه المعتصم ومطبخ العامة ... وديوان السر الذي تقلده للمنصور أبان بن صدقة وللرشيد اسماعيل بن صبيح^(٢) وديوان الضياع لقطاعات الخلافة .

(١) انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٨

(٢) انظر الجهشيارى - الوزراء والكتاب ص ٢٦٦ وص ١٢٤ وانظر

كذلك بالنسبة لذكر الدواوين الأخرى خليفة بن خياط - التاريخ ج ٢ ص ٤٦٦ ، ٤٦٧ وغيرها واليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ والطبري ٩ ص ٢١٤ وغيرها .

٢ - دواوين ومؤسسات لتأمين العدالة والأمن للناس وأهمها ديوان المظالم (ويشبه محكمة الاستئناف أو التمييز والنقض والابرام) وأعمال صاحب الشرطة والمحتسب وصاحب الأحداث وصاحب المعونة وصاحب المناصب .

٣ - دواوين مساعدة للشؤون المالية مثل ديوان الصوافي أو صوافي الأرض وأحوازها (وقد أوجده الرشيد) وديوان الجوالي لما يجمع من الجزية ، وديوان الصدقات لتوزيع مال الزكاة على المستحقين وديوان المصادرات الذي أوجده المنصور وسجل به أسماء من صادرهم ومقدار ما صادر وديوان المستغلات وأخيراً ديوان الاستخراج الذي ظهر في نهاية العصر العباسي الأول لمحاسبة العمال والولاة المتهمين بالرشوة .

وقد نجم عن ازدياد المركزية زمن العباسيين وتعدد أمور الدولة وتكاثرها وضرورة تنظيمها التنظيم المناسب أن اقيمت في العاصمة بغداد دواوين للأقاليم المختلفة فهناك ديوان خراسان وديوان الشام وديوان مصر ... إلخ تحتفظ بنسخ الوثائق الرسمية والرسائل المتبادلة مع ولاء تلك الأقاليم وتضبط شؤونها . وأقيم بجانب ديوان الخراج المركزي دواوين لخراج الأقاليم أيضاً : فخراج الشام له ديوان وخراج الكوفة له مثله وخراج الجزيرة كذلك وهكذا ... وبجانب ديوان الجند المركزي كانت هناك أيضاً دواوين لجنود الأقاليم : ديوان جند خراسان وديوان جند الشام وديوان جند مصر (المغاربة)^(١) ... وهذا التوازي بين المركز

(١) لعلنا نوضح هنا أن كلمة الديوان مفردة كانت تستعمل للدلالة على ديوان الرسائل ومقر السجلات التي تحفظ فيها البيانات الخاصة بنواحي الإدارة فان أريد الإشارة الى غير ذلك أضيفت كلمة : الجند أو المال (أو الخراج) أو الضياع أو غيرها ، كما يجب أن نوضح أن ديوان الخراج أو المال ليس يعني بيت المال . فديوان المال أو الخراج يعني

والاقاليم أوجد الكثير من البورقراطية الادارية في المركز ، واستدعى بالنسبة للناحية الحساسة من هذه الدواوين وهي دواوين الخراج والمال وجود مشرفين عليها يجمعون أمرها وينسقون ما بينها . ظهرت هذه الحاجة زمن المهدي الذي عين عمر بن بزيع على الدواوين كافة « فلما جمعت له الدواوين تفكر فاذا هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان فاتخذ دواوين الأزمة » . وكان أول من عمل ذلك . . . وولى كل ديوان رجلاً فكان واليه على زمام ديوان الخراج اسماعيل بن صبيح وعلى زمام خراج العراق النعمان بن عثمان ولم يكن لبني امية دواوين أزمة « ويبدو أن الحاجة ازدادت بعد ذلك الى وجود ديوان يكون بدوره زماماً لهذه الأزمة فولى المهدي سنة ١٦٨ علي بن يقطين ديوان زمام الأزمة على عمر بن بزيع^(١) الذي ضعف شأنه . وقد تقلد هذا الديوان بعد ذلك بقليل الربيع بن يونس وأقره فيه الخليفة الهادي حتى مات سنة ١٦٩ فتولاه من بعده ابراهيم بن زكوان الحراني . وهذا يعني أن التسلسل البورقراطي الهرمي قد استكمل في هذه الفترة أسبابه وأركانه . ويبدو أن هذه الدواوين ظلت نشيطة فعالة حتى ما بعد عهد المعتصم ثم تناقص نشاطها وقلت جدواها باضمحلال الروابط المركزية وبدء

بتسجيل الخراج وجرائده وسجلات الضرائب ومقاديرها وكان يدعى في العصر العباسي الاول ديوان الزمام ، أما بيت المال فهو خزانة مال الدولة وما يجتمع لها من نقد أو محاصيل بعد الجباية .

(١) ذكر الطبري خبر ديوان الأزمة مرتين (انظر ج ٨ ص ١٤٢-٣/ ٤٩٣ و ص ١٦٧-٣/ ٥٢٢) والخبر الثاني لا يوضح الاول فقط ولكن يصدق الخبر الذي أورده الجهشيارى (الوزراء والكتاب ص ١٦٦ و ١٦٧) والذي يوضح فيه الفرق ما بين ديوان الأزمة وديوان زمام الأزمة ويضيف مصححاً خطأ غيره : « واحسب أن من ذكر أن المهدي أول من أحدث الأزمة إنما أراد أزمة على الأزمة . . . »

القطاع الاقاليم حتى إذا جاء المقتصد (٢٧٩ - ٢٨٩ / ٨٩٢ - ٩٠٢)
كانت قد تقلصت اعمالها فضم الخليفة دواوين الولايات كلها في ديوان
واحد سمي ديوان الدار وله ثلاثة فروع : ديوان المشرق وديوان المغرب
و ديوان السواد . ووضعت أزمة الدواوين كلها في يد رئيس واحد . .

وليست لدينا معلومات واضحة عن أعداد العاملين في الدواوين
العباسية على اختلافها . وإذا كان من الراجح أن يكون عدد العاملين
في دواوين الخراج اكبر واكثر من العاملين في دواوين الرسائل كما كان
نوع عمل أصحاب الرسائل يعتمد على البلاغة وحسن الخط بينما يعتمد
عمل اصحاب الخراج على الحساب ومعرفة الزراعة وحدود المعاملات .
وقد ألبس العباسيون الأوائل موظفي الدواوين ملابس خاصة بهم،
ضمن إطار التقليد الذي نقلوه عن الفرس ، وجعلوا به لكل طبقة من
الناس ملابسها التي تعرف بها فللوزراء لباس الوزارة وللقضاة الطيلسان
وللجنود الزي المعروف للجنود (وقد حدده المنصور) وصورة الكاتب
الديواني صورها الجاحظ في معرض النقد لكبرياء الكتاب فقال : « يتوهم
الواحد منهم أنه إذا عرض جبتة وطول ذيله وعقص على خده صدغه
وحذف شاربه على وجهه أنه المتبوع لا التابع . . . » (١) وقد ذكر
الجهشياري في صدد ملابس الكتاب أنه « كان من رسم ملوك الفرس
أن يلبس أهل كل طبقة ممن في خدمتهم لبسة لا يلبسها أحد ممن في غير
تلك الطبقة . فإذا وصل الرجل الى الملك عرف بلبسه صناعته والطبقة
التي هو فيها . . . » (٢)

وأما أرزاق الكتاب في العصر العباسي الأول فلم تكن فيما يبدو

(١) آثار الجاحظ (طبعة ابو النصر - بيروت) ص ٥٤ .

(٢) الجهشياري - الوزراء والكتاب ص ٣ .

بالكيرة رغم نفوذهم الكبير كما كانت متفاوتة لا بين كبار الكتاب وصغارهم فقط ولكن بين ديوان وآخر أيضاً • واكثر الدواوين رواتب كانت الدواوين التي تتعامل بأمور المال والخراج • وكان التفاوت فيما يظهر كبيراً جداً •

ذكر الجاحظ أن « صاحب ديوان الرسائل ينال العشر من رزق صاحب الخراج ويرزق المحرر الجزء الأول من رزق صاحب النسخ من ديوان الخراج »^(١) ويبدو أن رواتب الكتاب في الدواوين كانت تتراوح ما بين عشرة دراهم حتى ٣٠ درهماً لصغار الكتاب في الشهر وتصل الى ٣٣٠ درهماً لكبارهم ورواتب الصغار التي يعادل ما بين ثلث درهم الى درهم في اليوم تتمشى مع الأجور التي دفعها المنصور لمعلمي البناء والعمال في بناء بغداد • ويروي الطبري في هذا الصدد قوله : « كان أرزاق الكتاب والعمال أيام أبي جعفر (للرؤساء) ثلاث مائة درهم فلما كانت كذلك لم تزل على حالها الى أيام المأمون • فكان أول من سن زيادة الارزاق الفضل بن سهل فأما في أيام بني أمية وبني العباس فلم تزل الارزاق من الثلاثمائة الى مادونها »^(٢) •

وعلى أن هذه الرواتب لم تكن مصدر الرزق الوحيد للكتاب • وكانت الهدايا والمنح من الرؤساء أو من الناس تشكل أحياناً عند بعضهم أرقاماً كبيرة • ذكر ابن العديم أن أحمد بن نهيك كاتب عبد الله بن طاهر رافقه حين ولى غرب الدولة من قبل المأمون • وحين كانا في دمشق قدم أحمد لعبد الله بطريق الخطأ ، بدلاً من بعض الاوراق التي طلبها كشفاً

(١) آثار الجاحظ ص ٦٢ •

(٢) الطبري ج ٨ ص ٩٥ - ٩٦ (٣/٤٣٤ - ٤٣٥) وانظر أيضاً

الجهشياري ص ١٢٦ •

بالمهدايا التي تلقاها من الناس أثناء السفر فإذا هي سبعون ألف دينار • واضطرب ابن نهيك حين اكتشف خطأه ولكن ابن طاهر استدعاه وسمح له بها بحجة أن عليه نفقات كثيرة وأعطاه فوقها مائة ألف درهم (١)•••

على أن الكتاب توسعوا في نهب الرزق بكل سبيل بعد ذلك ولا سيما في زمن المعتصم والوائق وتكشف الأرقام المربعة من الأموال التي صادرها الخليفة الواثق من الكتاب في سامراء سنة ٢٢٩ عن مدى تفشي الفساد المالي في هذه الطبقة • يذكرون أنه أخذ من سليمان بن وهب (كاتب إيتاخ) ٤٠٠ ألف دينار ومن أحمد بن الخصيب وكاتبه ألف ألف دينار ومن أحمد بن إسرائيل ٨٠ ألف دينار ومن نجاح ٦٠ ألفاً ومن أبي الوزير ١٤٠ ألفاً • وهي أرقام ليست عادية في مستوى من المعيشة يكفي فيه ديناران في الشهر للعيش الحسن وغريب وجودها لدى جماعة راتبها الشهري الرسمي لا يزيد عن ٣٠٠ الى ٤٠٠ درهم (١٥ — ٢٠ ديناراً) •

وكانت الدواوين حتى أيام المهدي تعمل كافة أيام الأسبوع إلا يوم الجمعة فهو للصلاة والعبادة ثم « اتصل بالمهدي أن أبا الوزير (عمر بن مطرف وكان يتقلد ديوان الخراج) احتجهم يوم الخميس في ديوانه فأمر أن يجعل يوم الخميس للكتاب يستريحون فيه وينظرون في أمورهم ولا يحضرون الدواوين ويوم الجمعة للصلاة والعبادة • فلم يزل الأمر جارياً على ذلك الى أن كتب الفضل بن مروان للمعتصم • فأزال ذلك الرسم وأخذ الكتاب بحضور يوم الخميس (٢)••• »

(١) ابن العديم — بغية الطلب (مخطوط احمد الثالث) ج ٢ ورقة

٩٥ ظهـ ر •

(٢) الجهشيارى — الوزراء والكتاب ص ١٦٦ •

ولعلنا نشير هنا إلى أن الكتاب والدواوين لم تكن خاصة بالدولة فقط وكان من الكتاب جماعة تلتحق بحاشية كبار الموظفين والقواد . وبرغم عملهم الشخصي لهؤلاء فإنهم بحكم الاختصاص الكتابي كانوا يلحقون بطبقة الكتاب لأنهم في الأصل منها على أن كثرتهم في هذه الحالة إنما كانت من أهل الذمة . وقد ظهرت هذه الجماعة خاصة في الأقسام الأخيرة من العصر العباسي أيام المعتصم والواثق والمتوكل . ونجد مثلاً للقائد إيتاخ الخزري كاتبين هما سليمان بن وهب وقدامة بن زياد النصراني . « وكان سليمان على أعمال السلطان وقدامه على ضياع إيتاخ خاصة »^(١) وكان للقائد بغا كاتب اسمه دليل بن يعقوب النصراني . ثم صار الرجل كاتب ضياع العباس بن المستعين^(٢) . وكان لأم الخليفة المستعين كاتب يدعى سلمة بن سعيد النصراني^(٣) وهؤلاء الكتاب الافراديون كانوا بدورهم اجزاء بشكل أو بآخر في الجهاز الاداري الواسع لبني العباس .

وتقف من الدواوين خاصة عند ديوان البريد الذي عض المنصور سبائبه وهو يذكره دلالة على شأنه الاداري الخطير فقد كان نقل الرسائل أهون مهمات هذا الديوان الذي هو ميراث بيزنطي ساساني مع ما يتعلق به من عمال ومنازل ودواب وطرق وقد اقتبسه معاوية أول من اقتبس في الاسلام واستخدمه الأمويون أحياناً في نقل الفسيفساء من بلاد الروم ثم انقطع في مطالع الدولة العباسية بعض الانقطاع ويظهر أن المنصور هو

(١) الطبري ج ٩ ص ١٦٩ (١٣٨٦/٣) .

(٢) الطبري ج ٩ ص ٢١٢ (١٤٣٨/٣) وج ٩ ص ٢٦٣ (١٥١٣/٣) .

(٣) الطبري ج ٩ ص ٢٦٣ (١٥١٣/٣) .

الذي أعاده^(١) لا بسبب الحاجة الى نقل الرسائل فقط ولكن تطبيقاً لمبدأ المركزية في الادارة وإحكام القبضة الخلفية على الاطراف من جهة وتنفيذاً للمبدأ الآخر الذي يقض مضاجع المنصور دوماً في الرقابة الدائمة على الولاة والعمال وعلى من قد تحدثه نفسه بالثورة . ويمكن أن نعرف مهمة صاحب البريد من خلال عهد بولاية بريد ورد لدى بعض المؤلفين يقول : إن على صاحب البريد « أن يعرف حال عمال الخراج والضياح . . ويتتبع ذلك تتبعاً شافياً وينهيه على حقه وصدقه . وأن يعرف حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاختلال وما يجري في أمور الرعية فيما يعاملونه من الانصاف والرفق والجور والعسف فيكتب به مشروحاً وأن يعرف ما عليه الحكام في حكمهم وسيرهم . . . وأن يعرف حال دار الضرب وما يضرب فيها من العين والورق . . . ويكتب بذلك على حقه وصدقه وأن يوكل بمجلس عرض الأولياء وأعطيائهم من يراعيه . . ويكتب بما تقف عليه الحال من وقته . وأن يعرض المرتبين لحمل الخرائط (أي الكتب) في عمله ويكتب بعددهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم وعدد السكك في جميع عمله وأميالها ومواضعها ، ويوعز الى المرتبين بتعجيل الخرائط المنفذة على أيديهم والى الموقعين بإثبات المواقيت وضبطها حتى

(١) يذكر القلقشندي (صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٦٧ وما بعدها) أنه « ملك السفاح ثم المنصور ثم المهدي والبريد لا يشد له سرج ولا تلجم له دابة » ثم إن المهدي رتب بريداً يأتيه بأخبار ابنه هارون في غزوة للروم فلما ملك الرشيد ذكر حسن صنيع أبيه في ذلك البريد وحسن له يحيى ابن خالد البرمكي اجراء البريد فأمره بذلك . . . « فرتب البريد على ما كان عليه أيام بني أمية وجعل البغال في المراكز . . . » ويظهر أن ما يذكره القلقشندي غير دقيق وفي بعضه غير صحيح فثمة أخبار لدى الطبري وغيره عن حركة البريد زمن المنصور والهادي .

لا يتأخر أحد منهم عن الاوقات التي سبيله أن يرد السكة فيها . وأن يفرد لكل ما يكتب فيه من اصناف الأخبار كتباً بأعيانها فيفرد لأخبار القضاة وعمال المعاونة والاحداث والخراج والضياح وأرزاق الأولياء ونحو ذلك كتباً ليجري كل كتاب في موضعه . . . » (١) .

ونصح أبو يوسف في كتاب الخراج ، الخليفة الرشيد أن يكتب إليه صاحب البريد بكل ما يحدث وأن يتوعد الخليفة عمال البريد على ستر الأخبار عنه ويحذر ميلهم مع العمال على الرعية كما أوصى بأن يدر الرزق لهم من بيت المال « ومتى لم يكن أصحاب البريد والأخبار في النواحي ثقات عدولاً فلا ينبغي أن يقبل منهم خبر في قاض ولا وال . . . » (٢) .

فنحن إذن أمام نظام رقابة إدارية واسع دقيق يشمل اختصاص صاحبه رقابة الولاية والعمال على الخراج والقضاة ودار الضرب وديوان الصدقة والاحداث والشرطة والحياة الاقتصادية وكل ذلك على وجه السرعة والدقة والصدق . فكان صاحب البريد هو عين الادارة المركزية في الاقاليم :

ذكر الطبري أن ولاية البريد في الآفاق كلها كانوا يكتبون إلى المنصور أيام خلافته في كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل مأكول وبكل ما يقضي به القاضي في نواحيهم وبما يعمل به الوالي وبما يرد بيت المال من المال وكل حدث وكانوا إذا صلوا المغرب يكتبون

(١) ذكر ذلك قدامة بن جعفر في كتاب الخراج وصناعة الكتابة (هو مخطوط) وقد اوردنا النص نقلاً عن آدم متز - الحضارة الاسلامية - الترجمة العربية ج ١ ص ١٠٠ .

(٢) أبو يوسف - كتاب الخراج ص ١٨٥ - ١٨٦ .

إليه بما كان في كل ليلة إذا صلوا الغداة ، فإذا وردت كتبهم نظر فيها فإذا رأى الاسعار على حالها أمسك وإن تغير شيء منها عن حاله كتب الى الوالي والعامل هناك وسأل عن العلة وإن شك في شيء مما قضى به القاضي كتب إليه بذلك وسأل من بحضرته عن عمله فإن أنكر شيئاً عمل به كتب إليه يوبخه ويلومه»^(١) واستخدم العباسيون الدواب (من بغال و خيل) لحمل البريد ولم نسمع عن خبر استخدامهم لوسيلة أسرع إلا مرة واحدة حين استخدم الحمام الزاجل لنقل أنباء الحرب مع بابك الخرمي وهزيمته الى الخليفة المعتصم سنة ٨٣٧^(٢) .

ولم يكن الامر مع ذلك متروكاً في هذا كله لصاحب البريد وحده فإن المنصور قد استخدم في تسقط الاخبار التجار والمسافرين أيضاً يتجسسون له ولم يقصر عن ذلك الخلفاء الآخرون ويذكر ابن ظافر الأزدي في كتابه الدول المنقطعة . أن المأمون « جعل يرسم الاخبار ألف عجوز ببغداد وسبعمائة عجوز فما كان يخفى عنه شيء من امور الناس ظاهراً وباطناً وكان لا ينام كل ليلة حتى يقف على جميعها»^(٣) .

وكان طبعياً أن يضطرب هذا الجهاز أو يقوى ويضعف تبعاً لأحوال السلطة في المركز فقد قوي وتوطد زمن المنصور والمهدي والرشيد ثم اضطرب في نهاية عهده بسبب انشغاله بحروب الروم وبالثورات وعدم استقراره في المركز يذكر الجهمشياري «أن أمور البريد والأخبار في أيام الرشيد (والأصح في آخرها) كانت مهمة وأن مسروراً

(١) الطبري ٨ ص ٩٦ (٤٣٥/٣) .

(٢) انظر المسعودي - مروج الذهب (طبعة بلا) ج ٤ ص ٣٥٤ .

(٣) ابن ظافر - الدول المنقطعة (مخطوط المتحف البريطاني) ورقة

١١٧ ظهر .

الخادم كان يتقلد البريد والخرائط • ويخلفه عليه ثابت الخادم» ويضيف
— حسب رواية ثابت هذا : «أن الرشيد توفي وعندهم أربعة آلاف خريطة
لم تفض^(١)» • وقد انتظم الأمر في السنوات الأولى من عهد الأمين
حتى كانت الرسائل والهدايا تذهب وتجيء بينه وبين أخيه في خراسان
ثم اضطرب البريد وانقطع تماماً إثر مقتل الأمين • وتقطعت أوصال
الدولة وروابطها مع الإدارة المركزية سنوات عديدة قبل أن يعاود المأمون
ربطها به في بغداد ••

وتبقى في النهاية ملاحظة أخيرة هي أن جهاز البريد كان يستخدم
أحياناً لبعض التحركات المستعجلة • فالنصور استخدمه لاستقدام
نجدات الجند من الشام • روى الطبري أنه : «لما ظهر محمد (النفس
الزكية) شاور أبو جعفر شيخاً من أهل الشام ذا رأي فقال :
وجه إلى البصرة أربعة آلاف من جند الشام ••• قال :
ومن لي بهم ؟ قال (الشيخ) اكتب إلى عاملك عليها
يحمل إليك في كل يوم عشرة على البريد • قال فكتب بذلك أبو
جعفر^(٢) ••» وهو رأي كان طبقه الأمويون يروي الطبري أيضاً أنه
حين قتل الترك باللان (شمال جورجيا) الجراح الحكمي سنة ١١٢ نصح
سعيد بن عمرو الحرشي الخليفة أن يبعثه على ٤٠ دابة من دواب البريد
ثم يبعث إليه كل يوم ٤٠ دابة عليها ٤٠ رجلاً حتى يوافيه أمراء
الأجناد^(٣) •••» على أن الجهشياري يروي خبراً ذا معنى في هذا الصدد
هو أن موسى الهادي حين بويغ بالخلافة وكان بجرجان «ركب دواب
البريد» رغبة في سرعة الوصول إلى بغداد واستلام العرش المضطرب
ثم يضيف «ولا يعلم خليفة ركبها غيره^(٤)» ••• •

- (١) الجهشياري الوزراء والكتاب ص ٢٦٥ .
- (٢) الطبري ج ٧ ص ٦٢٩ (٢٩٢/٣) .
- (٣) الطبري ج ٧ ص ٧٠ (١٥٣١/٢) .
- (٤) الجهشياري الوزراء والكتاب ص ١٦٧ .

ح - الولاية

توزيع السلطة :

الصورة التقليدية للوالي في الادارة الاسلامية تجعله نوعاً من الخليفة المصغر وهي صورة قد تنطبق على بعض العهود والظروف ولكنها بعيدة عن واقع الولاية في العصر العباسي الأول أو على الأقل لا تنطبق إلا على حالات خاصة من الولاية المطلقين الذين استبدوا بولاياتهم لأسباب شتى ، أما الولاية على النمط الذي أقره المنصور والذي ينسجم مع ادارته المركزية فكانت السلطات فيها موزعة بين ثلاث قوى لا يرتبط بعضها ببعض ولكن تستمد كل منها شرعيتها وقوتها من الخليفة نفسه • وترجع في النتيجة إليه • فهناك دوماً :

— الوالي وكانت له امرة الجيش وكثيراً ما يكون من قواده في الأصل وله مع القيادة الصلاة أي إمامة الناس في الجامع كما يتبعه صاحب الشرطة وصاحب المعونة وإليه أمر تعيينهما وله أحياناً حق ضرب النقود •

— العامل (عامل الخراج) وهو الذي يتولى الشؤون المالية في الاقليم : له تنظيمها وتقييلها (منح الالتزام) وجبايتها وإرسال حصّة الخلافة منها بعد استيفاء حاجة الاقليم •

— القاضي ويأتي تعيينه بدوره من بغداد •

فالسلطة في الولاية مثلثة الرأس يرئسها الوالي ولكن تنفصل فيها السلطة العسكرية عن المالية وتنفصل الاثنان بدورهما عن السلطة القضائية • على أن هذا لم يكن يمنع الخليفة أحياناً كثيرة من الجمع لبعض ولااته بين مناصبي الوالي وعامل الخراج لكن الولاية لم يتولوا أمر القضاء أبداً وندر جداً أن ترك لهم الخلفاء أمر تعيين القضاة • وهذه التجزئة

في السلطة كانت بالنسبة للمنصور وخلفائه من ضرورات السياسة والادارة . وتقرأ في كتاب الولاة والقضاة للكندي باستمرار أن الخليفة ولي فلاناً على الصلاة بمصر وفلاناً على الخراج أو ولي فلاناً صلاتها وخراجها ونجد مثل ذلك لدى الطبري واليعقوبي اللذين يعددان في نهاية كل سنة أو في نهاية عهود الخلفاء ولا تهم وعمالهم^(١) وإذا كانت تطلب في القاضي الكفاية الفقهية وفي عامل الخراج الكفاية المالية فلم يكن يطلب من الوالي أكثر من الكفاية الادارية لا سيما إذا اجتمعت إليها القدرة الحرية .

الولاء هو الاساس :

لم يكن ولاه العصر العباسي الأول ، بصورة عامة يختارون ولا سيما في الفترات الأولى على أساس القومية ، أو المال . أو النفوذ الشخصي ، أو الأقليم . الأساس الوحيد لاختيارهم كان هو الولاء للخليفة . وفي إحصاء مبدئي لأسماء مائة وال ممن جاء بين مطلع الدولة العباسية وعهد المأمون نجد أن النصف منهم من العرب وفيهم كثرة واضحة من أبناء البيت العباسي نفسه ، والنصف الآخر من الموالي وبعضهم من الأتراك أو من الأرمن . وهم مزيج من العناصر القبلية والاقليمية والاجتماعية المتباينة فيهم بنو هاشم وفيهم الخدم والأرقاء المعتقون ، وفيهم من هم من اليمن أو من قيس ومن هم من صميم العجم أو أمراء الترك وفيهم الكثير من الخراسانية كما فيهم من أهل الشام ومصر واليمن والعراق وفيهم أصحاب الثروات الطائلة ومن هم من البورجوازية التجارية . وتلك

(١) انظر على سبيل المثال لدى الكندي - الولاة والقضاة . الصفحات :

١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ... الخ .

المجموعة التي جمعها المنصور من حوله حين بنى بغداد وأقطعها فيها
القطائع والتي التقى فيها أصناف الناس من بني هاشم والموالي والعرب
وأهل خراسان وزعماء القبائل إنما ترمز في الواقع إلى تلك الأخلاط من
أنصار العباسيين التي كان ينتقي منها الخلفاء الأعوان دون تقيد بجماعة
أو قبيل سوى مدى الاخلاص للخليفة الجديد .

ونستطيع أن نجد قوائم شبه كاملة للولاة في مختلف الأمصار
فولاة سجستان مثلاً نجدهم خاصة لدى اليعقوبي في (البلدان) وولاة
خراسان في تاريخ الرسل والأنبياء لحمزة الاصبهاني . وولاة مصر لدى
الكندي في كتاب الولاة والقضاة وولاة البصرة والكوفة والمدينة لدى
الطبري وخليفة بن خياط . ولدى اليعقوبي في التاريخ هذا الى ولاة
الجزيرة والشام واليمن وعمان وفارس والسند وطبرستان وأرمينية
واذربيجان . الخ .

ويجتمع لنا من ذلك حصيلة واسعة من الاسماء لا يخفى فيها
الطابع الطبقي الذي يميزها . فهي دوماً من الطبقات الارستقراطية سواء
من العرب أو من الايرانيين أو من الترك والارمن . كان التعاون العباسي
طبقياً واضحاً يتجه الى الطبقات العليا من المجتمع وقد عبر يحيى البرمكي
عن ذلك في قوله لولده : «لابد لكم من كتاب وعمال وأعوان فاستعينوا
بالأشراف وإياكم وسفلة الناس فإن النعمة على الأشراف أبقي والمعروف
عندهم أشهر والشكر منهم أكثر»^(١) «...» حتى من يدعون «بالموالي»
ممن استخدمهم العباسيون كانوا ، بسبب اتصالهم بالخليفة وبآل البيت

(١) انظر الطبري ج ٨ ص ٥٤٥ وانظر العيون والحدائق لمؤلف
مجهول ص ٣٥١ .

العباسي وبالولاء الذي تميزوا به ، قد انتقلوا إلى الطبقات الارستقراطية ومحووا الأصول الوضيعة التي جاؤوا منها .

وإذا كان وصول العباسيين إلى الحكم قد أوجد سلماً جديداً للنباله والارستقراطية فإنه لم يبلغ السلالم القديمة : فقد أضاف آل البيت العباسي الي رأس القائمة وميز الارستقراطية الخراسانية (من عربية كآل قحطبة وإيرانية كالبرامكة) ولكنه تقبل الارستقراطية العربية كما كانت حتى التي كانت على العداء له وأرستقراطية الشعوب الأخرى من ترك وأرمن ونوبة وبربر فتعاون معها ومن هؤلاء وأولئك كان الولاة وكبار رجال الدولة العباسية الذين يمكن أن نستعرضهم في عدة زمر :

وقد اعتمد العباسيون الأوائل خاصة على اعضاء البيت العباسي الذين أصابتهم ، بعد قيام الدولة ، فورة من الحماسة جعلتهم كلهم سياسيين وقواداً وجندتهم في خدمة الخلفاء منهم . ثم خفت الحماس بالتدريج بعد ذلك . ولعل آخر الأسماء اللامعة قبل نهاية القرن الثاني كان اسم عبد الملك بن صالح الذي قضى سنواته الأخيرة في سجن الرشيد قبل أن يطلقه الأمين ليموت وشيكاً في الشام . . . وفي تلك الفترة سنة ٢٠٠ بال ضبط جرى إحصاء لولد العباس فبلغوا ٣٣ ألفاً مابين ذكر وأنثى^(١) . وهو عدد كان له وزنه في البلاط وفي قضايا ولاية العهد ولكنه كان معدوم الأثر الإداري فإننا لانجد إلا واحداً منهم على ولاية إذ ذاك . كان التطور السياسي - الإداري للدولة قد أقصاهم . وبعد أن كان أكثر ما يتولى الولاة من بني العباس الولايات الخطرة كالشام والبصرة والثغور أو المناطق المقدسة تحولوا إلى حاشية للخليفة حتى إذا

(١) الجهشيارى - الوزراء والكتاب ص ١٧٩

خاول بعضهم كعبد الوهاب حفيد ابراهيم الامام أي حركة ذات معنى سياسي سحق •

واعتمد العباسيون العرب ، وقسم حسن منهم (وهم اليمانية خاصة) اعتبر الدولة العباسية دولته • هكذا ردد المنصور لهم كي ينسحبوا من جند ابن هبيرة : «السلطان سلطانكم والدولة دولتكم» وهكذا أيضاً خاطبهم عبد الله بن علي عند أبواب دمشق ليفتحوها له • على أن باقي الجماعات العربية سرعان ما التفت حول الدولة بعد قيامها ومنحها الخلفاء العباسيون الرعاية والنفوذ واختاروا منها الكثير من رجال الادارة ، وقواد الفرق • وكثيراً ما رأينا الخلفاء كالرشيد يرمون بقواد العرب في مناطق الثورات الخارجية وكثيراً ما كانوا يستخدمون الولاء القبلي (من جيش وقواد) في خدمة الولاء العباسي • وبالرغم من أن المأمون كشف أوراقه السياسية لذلك العربي الذي سأله : لم لا ينظر الى عرب الشام كما ينظر الى عجم خراسان إلا إن جوابه كان يدل — رغم ما يحوي من تباعد عن العرب — على اضطرار المأمون سياسياً لمصانعة الجماعة العربية واصطناعها ولو بالمال •

وأما أهل خراسان فقد كانوا الحزب السياسي العسكري الذي حمل بني العباس فترة تقارب القرن الكامل ظل هذا المصطلح :الخراسانية يعني مركز الثقل السياسي للدولة منذ نشأتها : كانت فرقة الصدام في الثورة العباسية ثم كانت اليد الحديدية للخلفاء في البطش بالثورات والقيام بالحروب في كل مكان والمساندة في الأزمات الخطرة • وقد استخدم المنصور ، رغم قتله أبا مسلم ، كما استعمل المهدي والرشيد كثيراً من الولاة والقواد من أهل خراسان ورعوا رأيهم في أمور ولاية

العهد ، وتعيين القضاة و .. ثم لما كانت الفتنة بين الامين والمأمون استعاد الخراسانية من جديد تأثيرهم في الدولة بانتصار المأمون ودفعوا إليها بجموعة جديدة من رجال الادارة والجيش . أكدوا فيه نهائياً التأثير الخراساني في الدولة قبل أن يزيحه العنصر التركي الوافد مع المعتصم ...

وأما الموالي فقد سجل معظم المؤرخين القدامى ظاهرة زحفهم الي مناصب الدولة وإدارة الولايات منذ عهد المنصور على أننا يجب الا نذهب مع كلمة الموالي إلى المعنى المطلق لها ولكن معنى محدداً هو .. «موالي الخلفاء العباسيين» خاصة . فهم إذن جماعة بأعيانها فيها العبيد السابقون وفيها من ارتبطوا بالبيت العباسي برابطة الولاء من كل جنس ولأبي سبب . وقد برز أمر هذه العلاقة القانونية الاجتساعية التي يدعونها «بالولاء» بروزاً كبيراً على يد العباسيين الأوائل بسبب حاجتهم إلى جساغات تجعل الولاء اهم وللنظام العباسي فوق كل ولاء قومي أو ديني أو اجتساعي أو اقليمي . وتكون في الوقت نفسه أدوات طيعة متواضعة في أيدي الخلفاء .

ويروي الطبري في هذا الصدد حديثاً له معناه جرت بين عبد الصمد ابن علي والمهدي إذ قال له : يا أمير المؤمنين إنا أهل بيت أشربت قلوبنا حب موالينا وتقديسهم وانك قد صنعت من ذلك ما أفرطت . قد وليتهم أمورك كلها وخصصتهم في ليالك ونهارك ولا آمن تغيير قلوب جندك وقوادك من أهل خراسان . قال : يا أبا محمد إن الموالي يستحقون ذلك وليس أحد يجتمع لي فيه أن أجلس للعامة فأدعو به فأرفعه حتى تحك ركبته ركبتي ثم يقوم من ذلك المجلس فأستكفيه سياسة دابتي فيكفيها لا يرفع نفسه عن ذلك إلا موالي هؤلاء . فإنهم لا يتعاضدهم ذلك ولو

أردت هذا من غير هم لقال : ابن دولتك والمتقدم في دعوتك وابن من سبق الي بيعتك لا أدفعه عن ذلك ..» (١) .

وقد أخذ هؤلاء الموالي العباسيون ، مكانة سياسية خاصة رأوا فيها أنفسهم في دولة بني العباس أرفع منزلة من العرب والعجم معاً . وقد عبر الجاحظ عنها - على لسانهم - بقوله : «الولاء لحمة كلحمة النسب . وحليف القوم منهم لأن السنة قد نقلت الموالي إلى العرب في كثير من المعاني لأنهم عرب في المدعى وفي العاقلة وفي الوراثة .. فلنا النسب الذي يصوبه العربي ولنا الاصل الذي يفتخر بهم الأعجبي .. فقد شاركنا العربي في فخره والخراساني في مجده والبنوي في فضله . ثم تفردنا بما لم يشاركونا فيه ولا سبقونا إليه ...» (لأن) شرف المولى راجع إلينا» (٢) .» .

وقد ذكر المؤرخون والكتاب القدامى كاليقوبي والجاحظ أن المنصور كان أول من اصطنع مواليه وقدمهم وعهد إليهم بالادارة والقيادة وزاد المسعودي أنه فضلهم على العرب ومنذ ذلك الوقت سقطت قيادات هؤلاء وذهبت مكاتبتهم . وفي هذا الرأي الأخير الكثير من المجازفة أما اعتماد المنصور على مواليه لا على الموالي الفرس عامة - فكان أمراً واقعاً ورثه عنه المهدي وغالي في الغلو الكبير فكان ولاته على أرمينية واذريجان ومصر وهمدان والري ودبناوند وقومس منهم احياناً كثيرة كما أعطاهم العديد من المناصب الهامة كديوان البريد وديوان الزمام والنيابة

(١) الطبري ج ٨ ص ١٧٥ (٣/٥٣١) .

(٢) انظر رسالة الجاحظ في مناقب الترك وعامة جند الخلافة في

رسائل الجاحظ (ط . دار النهضة - بيروت) ص ٢٧ - ٢٩

عنه في بغداد (أعطاهما للربيع بن يونس مولاه) وبالرغم من وجود جساغات من أصل فارسي بين هؤلاء الموالي إلا إن اصطناعهم في الدولة لم يكن نتيجة التأثير الفارسي لأنه لاهلاقة لهم به ولكن نتيجة «الولاء» المباشر للخليفة . وقد ظلت هذه الرابطة واضحة الأثر في الإدارة العباسية زمن الرشيد الذي استخدم مواليه كأبيه . والمأمون الذي جاءه مرة بعض الأقباط يطلب أن يكون مولاه ... غير أن عناصر جديدة في البلاط زاحمت موالي الخلفاء في أيام الرشيد على مكنتهم هي طبقة الخدم ... وقد عهد الرشيد إلى بعضهم ببعض الإدارات .

ويجب أن نضيف أخيراً أن العباسيين الأوائل قبلوا على مناطق الحدود ولواء على الأقل طاعة الحكام المحليين التقليديين ومنحوهم الحكم الذاتي فأقروهم في حكم أقاليمهم ، على النهج الذي اعتادوا ، واحتفظوا لهم بدياناتهم وبلغاتهم وألقابهم بل وجنودهم ونظامهم السياسي على أن يقبلوا عامل الخراج الذي يجمع الضريبة السنوية المتفق عليها . طبق ذلك في منطقة أرمينية وجورجيا مع البقارطة ، وفي طبرستان والاصبهذ فيها من آل المازيار ومع ملوك الترك من الصعيد والخلع والغزو والشاش وفرغانة ومع أمراء سجستان الرتايل وأمراء السند ، ومع جساغات البجة وملوك النوبة . كان هؤلاء يشكلون ولا سيما على القوس الممتدة ما بين دلتا نهر السند والزاوية الشرقية من البحر الأسود من مناطق شبه الظل العباسي تفصل ما بين المناطق العباسية الخالصة وبين المناطق غير المسلمة وراءها . وبهذا الشكل دخل في قائمة الولاة العباسيين سلالات من الأمراء المحليين غير المسلمين لا يد لبني العباس لا في تعيينهم لأنهم وراثيون ولا في توجيه انظمتهم تقليدية وقائمة ولكنهم ضمن الإطار السياسي للدولة العباسية .

التقسيم الاداري وجهاز الادارة

لم يغير العباسيون إلا أقل التغيير ، وبسبب بعض الضرورات في الأقسام والحدود الادارية للولايات التي ورثوها عن الامويين والموروثة بدورها عن البزنطيين والساسانيين • كانت حدود الأقاليم الجغرافية تتطابق لحد كبير في دولتهم مع حدود الاقاليم الادارية •
والتعديلات الوحيدة التي طرأت جرت أولا في عهد أبي العباس الخليفة العباسي الأول ، وقد تناولت بلاد الشام التي كانت بسبب كونها مركز الأمويين مقسمة إلى أجناد لا ولايات فجعلت ولايات ثلاثة في فلسطين ودمشق وقنسرين ، وإن احتفظت باسم الاجناد • كما تناولت فصل ارمينية واذربيجان عن الجزيرة لأسباب عسكرية دفاعية وأخيراً أجرى الرشيد تعديلا تناول الثغور والعواصم •
وفيما عدا ذلك فقد ظل النظام الاداري العباسي يعتمد كالنظام الأموي من قبل :

(١) أسلوب الادارة المبسطة •

(٢) واعتبار المدينة أساس التنظيم الاداري •

ولم يسر العباسيون بالتقسيم الاداري أي خطوة نحو التعقيد أو نحو إعادة التنظيم • لم يجدوا الحاجة إلى ذلك • واستمروا يقبلون المفهوم الاداري المبسط أو الأفقي الذي يميل الى الاقسام الادارية الصغيرة تيسيراً لضبط الأمن وجمع الخراج • أما النظام التسلسلي العمودي الذي كان يقسم الوحدة الادارية أو الولاية الى أجزاء ويقسم كل جزء بدوره إلى أجزاء صغرى ويربط الجميع بموظفين يرتبطون على الأساس نفسه بنظام هرمي — على الطريقة الرومانية — فهو مفهوم لم يستعمله العباسيون ولا المسلمون بصورة عامة •

وهكذا فمصر مقسومة الى كور • وحوض دجلة والفرات كان حوالي ١٥ كورة • وتتألف الكورة من مدينة هي القصبه أو المصر يتبعها مدن أو بلدان تكثر أو تقل ولكل مدينة أو بلد إقليمه (ريفه) أو زمامه • وهكذا فالوالي المركزي يتبعه عمال الكور وهؤلاء يتبعهم عمال المدن المسؤولون عن المدينة وإقليمها • وتأخذ الكورة في ايران وفي العراق أحيانا التسمية الفارسية : الطسوج أو الرستاق (وهو اكبر من الطسوج)

وهكذا يبدو كأن الكورة (أو الرستاق) هي الوحدة الادارية الاساسية في الدولة • وقد كان للسدينة في المناطق الايرانية من حرية الادارة والتصرف ما يجعلها تدير شؤون نفسها بنفسها إلى حد كبير لا سيما مع وجود المحتسب فيها والشرطة الخاصة وجهاز فرض الضريبة وتوزيعها • وهذا ما كان يجعلها أشبه بالمدن الحرة في أوروبا الوسيطة • وبعض هذه المدن كان يتسع مع ضواحيه وأريافه ليصبح أشبه بالإمارة الصغيرة وهذا ما كان عليه مثلاً وضع بلخ (ومساحتها تزيد على عشر فراسخ) ولها الأسوار لحمايتها • وأوضاع سمرقند وهرات وبخارى وخوارزم ونيسابور والري وهمدان وغيرها من مدن المشرق الاسلامي •

وقد نجم عن هذا التبسيط الاداري أن عدد الموظفين في الادارة العباسية (والاسلامية عامة) لم يكن يزيد على خمس العدد في الادارة الرومانية المماثلة •

فأما دواوين الولاية وجهاز الادارة في الكور : فكانت نسخة مصغرة من دواوين مركز الخلافة وكتابها وجهازها فلكل ولاية ديوان للرسائل برئاسة كاتب الوالي • وديوان للخراج ويتسلمه كاتب الخراج

للعامل وديوان للجند ، وهناك القاضي وصاحب بيت المال وصاحب الشرطة وصاحب المعونة وصاحب البريد . وتتكرر الصورة نفسها على مقياس أصغر في الكور ولنضرب مثلاً على ذلك ولاية سجستان فقد ذكر ابن حوقل أن ارتفاعها (أي مبلغ خراجها) كان مع (منطقة) الرخج عن جميع أعمالها وجباياتها وقوانين أدائها مائة ألف دينار ومن الورق ثلاثمائة ألف درهم ولكل ناحية منها قاض وصاحب خبر وبريد وصاحب بريد وكاتب سلة يعرف بالبندار يطالب بالخراج ووجوه الأموال الواجبة للسلطان وأكثرها لصاحب خراسان»^(١) .

ومثل آخر من الجزيرة يرويه المؤرخ ميشيل السرياني نقلاً عن ديونيسيوس التلمحري (المتوفى سنة ٢٢٩/٨٤٣) والذي يشكو في آخر كتابه من كثرة عدد العمال في الجزيرة « لأنهم بهذه الكثرة يغتصبون عيش الفقير بكل الوسائل » ففي مدينة الرقة على الفرات ، (وكانت موئل الرشيد) كان ثمة قاض وكاتب سلة يعرف بالبندار يطالب بالخراج ووجوه الأموال وصاحب جند وصاحب بريد ينهي اخبار الولاية للخليفة ومتول للضياع السلطانية وصاحب معونة^(٢)

ونضيف هاهنا أن بغداد حين انتقل منها مركز الخلافة الى سامراء عرفت وضعاً إدارياً خاصاً ظهر فيه منصب جديد لم يعرف لغيرها هو : خلافة أمير المؤمنين بمدينة السلام وقد تولى هذا المنصب سنة ٢٣٧ محمد ابن عبد الله بن طاهر وتولى معه الشرطة والجزية وأعمال السواد^(٣) .

(١) ابن حوقل - صورة الأرض ص ٣٥٦

(٢) نقل هذا المثال آدم متر - الحضارة الاسلامية (ترجمة أبي ريدة)

ص ٩٨ - ١٠٠

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٨٨ (٢/١٤١٠)

تطور الإدارة العباسية للولايات : أخذ هذا التطور عدداً من الاتجاهات كانت تنتهي كلها بالتمهيد لتفكك الدولة :

١ - فقد عبد الخلفاء . منذ مطلع الدولة ، الى العهدة للوالي الواحد بأكثر من ولاية . وإذا كان هذا من باب الضبط وإحكام القبضة على الحكم في السنوات الأولى (كما في حالة أبي مسلم وأبي جعفر زمن أبي العباس) فإنه فتح الباب لتسلطات الولاية فيما بعد ولتوسيع نفوذهم على حساب الإدارة المركزية وبدلاً من أن يتجه الخلفاء ، في الوقت نفسه ، الى توطيد الفصل بين سلطات الولاية اتجهوا بالعكس الى الغائه مما أدى لظهور الوالي المطلق اليد في الجند والمال والإدارة وإذا كانت حالات جمع السلطات هي الغالبة فجمع الولايات كان أكثر ما يكون في ما بين ولايات الجزيرة وأرمينية واذربيجان . أو ما بين خراسان وسجستان وما وراء النهر وكانت هذه الولايات الأخيرة كثيراً ما تعتبر وحدة إدارية تعطى لوال واحد في الغالب وحتى عهد الرشيد ولي العهد . ولكن الأمر اختلف منذ أيام المهدي الذي أطلق مرة يد الوزير يعقوب بن داوود في كل شيء المدرجة التي أنشد فيها الشاعر :

بني أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داوود

ثم عين ابنه الهادي للأقاليم الشرقية كلها في الدولة يساعده عليها يزيد بن المنصور وأبان بن صدقة وعين بعد قليل ابنه هارون على الأقاليم الغربية يساعده في أمرها يحيى بن خالد البرمكي . . . ولم يكن بالخطير كثيراً أن يتقاسم أولياء العهود حكم الدولة لكن التصرف الخطير كان حين استخلف الرشيد فأطلق يد يحيى البرمكي وأولاده فيما وراء بابه مدة زادت على خمس عشرة سنة في الوقت الذي تقلصت فيه الرقابة المركزية على الولاية التقلص الكبير . ولم يتكشف المأمون عن شخصية

اداري كبير بالرغم من محاولاته تقليد المنصور ولذلك فإنه لم يستطع معالجة الازمة الادارية الكبرى التي وقعت فيها الدولة أثناء خصومتها مع أخيه إلا بتفويض وزيره الفضل بن سهل بالامر كله ثم باعطاء عبد الله بن طاهر حكم نصف الدولة الغربي مما بعد العراق ثم تخويل آل طاهر حكم خراسان وما وراءها ... وأضحت قسمة الدولة بعد ذلك بين القواد الكبار تديراً ادارياً عادياً ، فلم يجد الناس كبير أمر ، في أن يعطي الواثق حين توليه الخلافة الى قائديه أشناس وإيتاخ حكم الدولة من بابه الى آخر المغرب للاول ومن كور دجلة حتى فارس والسند الى الثاني ...

وكان ذلك يعني ان الدولة لم تعد لبني العباس .

٢ - الظاهرة الثانية مشتقة من الاولى وهي الانابة في الولاية .

أضحت التسمية للولاية منذ عهد الرشيد لا تلزم صاحبها بالسفر الى ولايته ومباشرة الحكم . صارت تشريفاً لا تكليفاً ومنحة من الرزق لخدمة للدولة . أصحاب الدالة من أفراد البيت العباسي أو من البرامكة أو وجوه العرب أو كبار الموظفين هم الذين ابتدعوا أن يدير الجوالي ولايته دون أن يغادر بغداد ، ورضي الخلفاء أن يمنحوا الولايات لمن يختارون من رجالهم يديرونها باسمهم ولحسابهم . وحتى حين وصل الأمر أن يلي بعض الخدم المناصب الرفيعة كانوا ينيبون . ذكر الجهشيارى «أن مسروراً الخادم كان يتقلد البريد والخرايط ويخلفه عليها ثابت الخادم !»^(١) فكانت النتيجة أن توفي الرشيد ولديهم أربعة آلاف خريطة (رسالة) لم تفض ! ..

ومست ظاهرة الإنابة الخلفاء أنفسهم . فقد ذكر الجهشيارى أيضاً أنه كان للرشيد خادم يقال له سعيد الخفقاني وكان خادماً جليلاً .

(١) الجهشيارى الوزراء والكتاب ص ٢٦٥ .

وكان من خاصته بالرشيد ومحلّه منه أنه أمر العمال أن يقبلوا كتبه
وينفذوا أمره في مائة ألف درهم»^(١) .

واستمرت هذه الظاهرة مقبولة في الجو الاداري العباسي تتكرر
باستمرار ومن ذلك أنه لما ولي أشناس وإيتاخ حكم جناحي الدولة للخليفة
الواثق أنابا عنهما الولاة . ومن ذلك أيضا أن المتوكل عهد الي بعض
خواصه أن يولي عمال الخراج والضيايع والبريد والمعاون والقضاة في
جميع الدنيا . . .»^(٢) . وكانت النتيجة هي تراخي القبضة المركزية تراخياً
كبيراً على الاقاليم ونسف الأساس الاداري الذي وضعه المنصور لهذه
الدولة .

٣ - غياب الادارة المدنية : إذا كان طبعياً أن يكون الولاة في أوائل
الدولة من القواد العسكريين فإن بني العباس الأوائل أعطوا إدارتهم
حين استقروا الصبغة المدنية . واستعراض اسماء الولاة الذين سماهم
المنصور والمهدي والرشيد يكشف أن معظمهم من وجوه الدولة . وأن
نسبة القواد العسكريين فيهم محدودة . غير أن الاعتماد على آل البيت
العباسي وعلى العرب وعلى موالي الخلفاء وكبار الخراسانيين بدأ يقل
بوضوح بعد الفتنة الأخوية بينما ازداد بالمقابل الطابع العسكري في
الولاة وكثر فيهم القواد . والنقلة بين سلكي الجند والإدارة وإن كانت
معروفة دوماً في كل العهود والدول إلا إنها خلقت مع كثرة الثورات
وضعف الجهاز المركزي في بغداد وسامراء ، سلطات إدارية في الاقاليم
مرشحة للانفصال .

(١) المصدر نفسه ص ٢٦٦

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٩

وما كادت الصيغة التقليدية للجيش العباسي تغيب ويسيطر فيه الجانب التركي مع المعتصم حتى تركزت الادارة العسكرية بسيطرة القواد الترك على الخلافة نفسها .

٤ - ضعف الرقابة المركزية : فإن انشغال الدولة حتى عن فض خرائط البريد لم يكن إلا أحد مظاهر الاهمال الاداري المتماذي للأقاليم وهو الاهمال الذي كان يقابله من الجهة الأخرى تزايد السلطات المطلقة للولاة وضعفت بين هذا وذاك أجهزة الرقابة والمحاسبة حتى لقد كانت تغيب أحياناً كثيرة . فكان سوء الادارة أو حسنهما إنما يتصلان بشخص الوالي وقلما كان الولاة ممن يعفون عن أموال الناس أو دمائهم أو يرفعون الحقوق وما من شك في أن بعض الولاة كانوا يتخرجون من تجاوز حدود الله والناس . فحين تولى علي سليمان العباسي مصر «أظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - كما يقول الكندي - ومنع الملاهي والخمور وهدم الكنائس المحدثه بمصر . . .» وحين تولى عبد الرحمن ابن أبي الزناد خراج المدينة أخذ يستعين «بأهل الخير والورع والحديث» وحين عهد الرشيد الى الفضل البرمكي بولاية خراسان «أزال - على مايقول 'جهشيارى سيرة الجور' وعمل على بناء الحياض والمساجد البقايا (من الضرائب) وزيادة العطاء . . .»^(١) على أن هذه السير امر . لما سجلت لبروزها كأعمال حسنة . وكان الغالب في سير الولاة : الإ . الخراج وجمع الأموال والأخذ بالإرهاب والدماء . وعدم رعاية الحقوق فكان نتيجة كل أولئك :

— قيام الثورات وقد عرف منها العصر العباسي الكثير ولا سيما في مناطق خراسان وسجستان ومناطق أرمينية والجزيرة وفي الشام ومصر واليمن •

— ثراء الولاية الفاحش الذي قد يتبعه نكبة الوالي ومصادرته • ومن الأمثلة ذات المعنى مصادرة الرشيد لعلي بن عيسى والي خراسان الذي بلغت أمواله ثمانين مليون درهم ! خلال عشر سنوات من الولاية بالعسف • ومنها أيضاً قصة علي بن هشام الذي قتله المأمون وكتب في المنشور المتعلق به أنه أعطاه من المنح ما بلغ مجسوعه خسين ألف ألف درهم ولم يكفه ذلك «فمد يده الى الخيانة» ثم استقال أمير المؤمنين فأقاله وولاه الجبل وأذربيجان وكور أرمينية ومحاربة الخرمية على ألا يعود لما كان منه فعاود أكثر ما كان بتقديمه الدينار والدرهم على العمل لله ودينه وأساء السيرة وعسف الرعية وسفك الدماء المحرمة»^(١) •

هـ — عدم فعالية الإدارة العباسية في أطراف الدولة : فإذا كان العباسيون قد ورثوا الدولة الإسلامية كلها عن الأمويين فقد تسلموها منقوصة منذ اليوم الأول (بضياع الاندلس) ثم انقطع عنهم المغرب في أيام المنصور والمهدي (لحساب الخوارج) ثم أضاعوا أيام الرشيد مناطق السند في الشرق ومنطقة إفريقية في الغرب لمصلحة الولاة الموجودين فيها • وظهرت خاصة دولة الأغالبة ضمن جلد الدولة العباسية • ثم مالبت خراسان أن وجدت طريقها في الحكم الذاتي أيام المأمون نفسه على يد آل طاهر ... وهكذا كان ضعف الإدارة المركزية يتمشى طرداً مع انقطاع الاطراف وظهور الدول المنقطعة • ذلك أن الإدارة العباسية

(١) الطبري ج ٨ ص ٦٢٨ (١١٠٨/٣) •

كانت في عهد التأسيس مشغولة بمركز الدولة وما حوله وأما بعد ذلك فلم تكن فعالية الجهاز الاداري فيها تصل الى بعض المناطق النائية أو تهتم بها . وقد قامت دولة خارجية في سجستان سنين طويلة دون أن يتمكن الرشيد ثم المأمون من إلغائها وانقطعت افريقية فلم تجد بغداد طريقاً سوى التسليم بالأمر الواقع وأسس البقارطة الأرمن دولتهم في أرمينية وملوك طبرستان فاعترفت لهما بغداد بالحكم الذاتي . . . فلما انشلت القوة المركزية بتسلط الجند الاتراك على البلاط العباسي كان هذا هو الطريق الذي سلكته الكثير من الاقاليم للانفصال . . . وإلغاء دولة بني العباس وإن ظلت العمامة والبردة والقضيب للرأس الرمزي الباقي بعد الدولة باسم الخليفة العباسي .

٤ - القضاء والقضاة

عناية العباسيين بالقضاء والقضاة مشتقة من سياستهم الدينية ومن حرصهم على دعم المظهر الديني لخلافتهم . ولما لم يكن للخلفاء في الاسلام - كما لأباطرة الرومان وغيرهم - سلطة التشريع لأنه إلهي ، علوي ، سابق للدولة ولا كانت لهم حتى سلطة تفسير النصوص الدينية التي اضطلع بها الفقهاء (والفقه عملية تعمق في النص لإبداع من خارجه) لهذا كان أقصى ما يستطيع الخلفاء العباسيون عمله في هذا المجال هو المزيد من الاشراف على التطبيق والتنفيذ أي على القضاء .

وقد كان الجهاز القضائي الاسلامي موجوداً قبل بني العباس ، منذ عمر بن الخطاب . وكان مستقلاً عن الجهاز الاداري أيضاً . لذلك كان كل ما يمكن المنصور عمله هو تعيين القضاة في الأقاليم المختلفة بعد أن كان هذا الأمر متروكاً في العهد الأموي للولاة . وقد سجل المؤرخون للمنصور هذه الأولوية التي كان يقصد منها الى إحكام المركزية وتوطيدها

من جهة والي مراقبة كفايات الولاية من جهة ثانية وإلى توحيد الأحكام بين القضاة من جهة ثالثة . وإذا كان الهدفان الأول والثاني لهما الطابع السياسي – الإداري فإن الهدف الثالث كان من مشاكل الدولة الكبرى التي تشغل بال الناس طويلاً في تلك الفترة . وقد أشار إليها ابن المقفع في رسالة الصحابة إذ بعث إلى الخليفة يقول : «... ومما ينظر أمير المؤمنين فيه ... اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ من اختلافها أمراً عظيماً في الدماء والفروج والأموال فيستحل الدم والفرج بالحيرة وهما يحرمان بالكوفة . ويكون مثل هذا الاختلاف في جوف الكوفة فيستحل في ناحية منها ما يحرم في ناحية أخرى . غير أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحرمتهم يقضي به قضاة جائز أمرهم وحكمهم مع أنه ليس ممن ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا لج به العجب بما في أيديهم . والاستخفاف عن سواهم . أما من يدعى السنة فيجعل مالمس سنة حتى يبلغ ذلك به إلى أن يسفك الدم يغير نية (ويحتج بأن الخليفة فلانا فعل كذا) . فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسير المختلفة فترفع إليه في كتاب ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس ثم نظر في ذلك أمير المؤمنين وأمضى في كل قضية رأي الذي يلهمه الله ... وينهي عن القضاء بخلافه . وكتب بذلك كتاباً جامعاً . لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكماً واحداً صائباً ... برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه ثم يكون ذلك من إمام آخر ، آخر الدهر ...»^(١)

(١) ابن المقفع رسالة الصحابة – لدى محمد كرد علي رسائل البلغاء (طبعة البابي سنة ١٩١٣) ص ١٢٥ – ١٢٦ ولدى يوسف أبو حلقة – الأدب الصغير (ط . بيروت) ص ١٦٦ – ١٦٨ .

أراد ابن المقفع أن ينتهي الناس من تضارب اجتهادات الفقهاء مع
تعقد الحياة وكثرة المجتهدين وتشقيق الآراء بمنح الخليفة سلطات
امبراطور رومي أو ملك ساساني وجعله هو القاضي الأكبر الذي يقن
ويجمع الأحكام ويعديلها ويصدرها في كتاب واحد جامع يكون أشبه
بمجموعة جوستينان أو غيرها وتتجدد من امام لآخر . ويبدو أن
المنصور أخذ بهذا الرأي من ابن المقفع أو غيره فإن المصادر تذكر أنه
طلب من الامام مالك بن أنس أن يضع له كتاباً في الفقه يجعله دستوراً
للناس وقال له : «واقصد الي أواسط الأمور وما اجتمع عليه الائمة
والصحابة لتحصل الناس إن شاء الله على عليك وكتبك .» لكن هذا
الطلب لم ينفذ من قبل مالك . والموطأ والمدونة إنما جمعتهما تلاميذه من
كلامه ولم يكتبتا على أي حال وفي النية أن يكون سجل تشريع للدولة
ولكن مدونة أحاديث نبوية .

ومن جهة أخرى فإن المنصور كان يعلم أنه — ولو كان الخليفة —

فليس باستطاعته أن يحمل الناس في الفقه والتشريع على رأي واحد
يأخذهم به في تلك الفترة التي كان الفقه فيها في مطالع تكونه وكان
الفقهاء المشهورون في الاسلام (أبو حنيفة . مالك . الليث . الأوزاعي .
الحسن البصري . الشعبي .) في أوج عطائهم الفكري كما كان الحديث
النبوي في مرحلة التدوين والتثبيت . لذلك كان قصارى ما يستطيعه
المنصور تعيين القضاة من عنده ، ومراقبة أحكامهم عن طريق صاحب
البريد ومناقشتهم في تلك الأحكام لئلا يكون فيها ما يمس الدولة من
الناحية السياسية كفتوى مالك مثلاً للناس يوم ثورة محمد النفس
الزكية بتحليلهم من بيعة المنصور «لأنكم إنما بايعتم مكرهين وليس على
مكره يمين» أو فتوى الأوزاعي ورسالته بعدم جواز ترحيل اهل الجبل
في لبنان عن قراهم بسبب ثوراتهم . وقد حاول المنصور أن يستقطب

لمعونة جماهير الفقهاء وهم أهل القضاء - فهو يساير مالك بن أنس ويحاور عمرو بن عبيد • ويسترضي ابن أبي ذئب ويسميه خير أهل الحجاز ويعرض على الليث بن سعد إمارة مصر فلما رفضها جعل أمير مصر وقاضيتها وعالها من تحت أوامره فإذا رابه من أحد منهم أمر كاتب فيه الخليفة فيعزله • ويرأود أبا حنيفة على تولي القضاء فيأبى ثم يأبى لدرجة إغضاب المنصور ومجازاته على الرفض بأن يعمل مراقباً في بناء بغداد ! • وقد أبى قبول القضاء مثله من الخليفة الإمام الأوزاعي ، وأبى التعاون معه سفيان الثوري وابن أبي ذئب • كما أبى سفيان نفسه المسير مع المهدي الى بغداد ليعينه على أن يسير بالناس سيرة الشيخين ولما أصر عليه في تولي القضاء اضطر سفيان إلى الهرب فلما ألغى القبض عليه أمر المهدي بعدم قتله ولكن بكتابة عهده على قضاء الكوفة على ألا يعترض عليه في حكم ولكنه توارى عن الانظار بعد ذلك ...

وهذا الحرص على استرضاء أهل الفقه وهذا الاصرار على كبار الفقهاء في تولي القضاء يكشف عن القيسة السياسية والدينية التي كان يعقدها خلفاء بني العباس الأوائل على هذه الخدمة الحكومية في تصريف الحقوق بين الناس ويكشف عن رغبتهم في جعل القضاء مؤسسة رسمية ناجحة وعن إدراكهم القوة التي يثملها الفقهاء والقضاة في الحياة العامة وفي مسيرة الإدارة •

وقد مشى الرشيد على خطى والده وجده في التقرب للفقهاء والقضاة فتقرب الى الليث بن سعد وترضى الشيباني واصطنع أبا البخري وأبا يوسف ثم مشى خطوة أخرى تجاوز فيها موقف أسلافه فأوجد في القضاء ما يشبه صاحب «الأزمة» في الدواوين • جمع أمور

القضاء في الدولة كلها في يد واحدة وجعل للقضاة في الدولة رأساً
واحدة : في شخص قاضي القضاة •

ولقد يكون في انشاء هذه المنصب ظل من الشبه أو التقليد
للمنصب الذي كان يحمل الاسم نفسه بالضبط (موبذ موبذان) في
العهد الساساني - الزارادشتي • ولكنه إنما وجد في عهد الرشيد
بنتيجة حاجات الدولة وتعقد الادارة فيها وضرورة توحيد جهاز القضاة
في إشراف واحد وأهم من ذلك كله توحيد الاحكام في مذهب فقهي
واحد تتبناه الدولة ويصبح هو المذهب الرسمي المتبع • ويبدو أن
شخصية أبي يوسف وشخصية تلميذه الشيباني بعدما كان لأبي حنيفة
من وزن ضخيم في العراق جعلت الرشيد بعد أن يختار ابا يوسف لقضاء
بغداد يختار من خلاله مذهب أبي حنيفة مذهباً للدولة • وكان الرجل
من أبرز تلاميذه • وهكذا مالبث أن سماه الرشيد : قاضي القضاة
وطلب منه وضع كتاب الخراج والاشراف على اختيار القضاة وصحة
الأحكام حسب المذهب الحنفي • ولم يكن المنصب يعني أكثر من هذا.
فلم يكن لأبي يوسف من اختصاص قضائي يفوق ما كان لسائر القضاة •
فهم جميعاً متساوون في حقهم وفي قدرتهم على إصدار الاحكام طبق
الشرع ولا ينقض قاضي القضاة حكمهم إلا بالاتفاق مع الخليفة •
ولكنه يشرف على اختيار الهيئة القضائية وعلى مراقبة الكفاية الفقهية
لدى القضاة •

ولم يعزز المنصب الجديد مكانة القضاء والقضاة إلا من الناحية
الادارية فإن مكانته الدينية كانت سابقة وظلت لاحقة خلال العصور •
أما اختيار أبي يوسف له فقد عزز فقط المذهب الحنفي كمذهب رسمي
لما يتمتع به الرجل من مكانة فقهية كبرى •

لكنه مع ذلك لم يفرض هذا المذهب على الناس لأن الشام كانت تحكم على مذهب الأوزاعي فلم تدافع • ومصر ظلت على مذهب الليث ابن سعد والحجاز على مذهب مالك • وقد اتفق مرة أن أمضى اسماعيل ابن اليسع الكندي الأحكام في مصر على مذهب أبي حنيفة فلم يرض به أهلها وطلب الليث من المهدي عزله قائلاً : إنك وليتنا رجلاً يكيد سنة رسول الله بين أظهرنا ! فاضطر المهدي للعزل !

وهكذا فإن تحول المذهب الحنفي الى مذهب رسمي لم يكن له من نتيجة مباشرة سوى توحيد مذهب القضاة في العراق وايران خاصة ، واضطرار القضاة الآخرين لرعاية هذا المذهب في الأقاليم الأخرى • حتى وصف قضاة الرشيد عامة بأنهم عثمانية إلصاقاً لهم بالمذهب الرسمي الحنفي •

وكان هذا أول تدخل إداري عباسي في شكل الأقضية والأحكام عامة وفي توجيهها وكان هذا من الأسباب التي اكدت لأصحاب النورع من الفقهاء صحة موقفهم السلبي من الدولة وضرورة الاصرار على رفض منصب القضاء لئلا يحول بينهم وبين قول الرأي الديني الذي يرون أي عائق • واحتالوا في الهرب من المنصب حيلة شتى حتى لقد تهرب الشعبي منه بلبس المعصفر ولعب الشطرنج لكي يقال إنه من أهل اللهو فلا يصلح للقضاء ! والذين قبلوا منهم العمل القضائي رفضوا بدورهم الانحياز لرغبات الخلفاء واهوائهم • وإذا استشار المنصور الفقهاء في عقد الأمان الذي عقده لعمه عبد الله بن علي فلم يجدوا فيه منفذاً للنقض فإن الرشيد طلب إلى قضاته مثل ذلك في الأمان الذي كتبه ليحيى بن عبد الله المحض ورفض القضاة إيجاد المخرج لنقضه وتعرض القاضي الشيباني ، تلميذ أبي يوسف وكبير القضاة لغضب الرشيد في ذلك وللإقصاء لا سيما حين أفتى أبو البختری بجوازالنقض

من أوجه مختلفة فقال الرشيد : أنت أعلم بذلك ! ومزق الأمان ! ..
لكن أمثال هذه المواقف السياسية القضائية العنيفة كان قليلاً جداً وتندر
أن تدخلت السلطات الادارية في سلطة القضاء التي ظلت بصورة عامة
مستقلة مصونة المكانة ، وكان أصحابها يستقيلون أحياناً إن رفضت
تلك السلطات إنفاذ أحكامهم كالذي كان من قاضي مصر في أوائل العهد
العباسي خير بن نعيم إذ حكم بالسجن على جندي من أهل خراسان
فلما أمر والي مصر أبو عون الأزدي بإطلاقه استقال القاضي^(١) ...

وتوالى على منصب قاضي القضاة بعد أبي يوسف تلميذه محمد
ابن الحسن الشيباني صاحب (السير الكبير) ثم شغل المنصب فترة طويلة
قبل أن يعين له المأمون قاضيه يحيى بن اكثم . أما في الأمصار والمدن
والبلدان الهامة فقد كان منصب القاضي من الشأن بحيث كان يسجل
اسم القاضي مع اسم الوالي في التواريخ ووجدت كتب مثل كتاب الولاة
والقضاة للكندي (القرن ٣) للحديث عن ولااة وقضاة مصر . كما
وجدت كتب عن القضاة وحدهم مثل أخبار القضاة لوكيع (القرن ٣)
الذي سجل فيه أسماء واحكام القضاة في الأمصار الكبرى . وسجل
المؤرخون كابن خياط واليعقوبي منذ ذلك العصر أسماءهم في أعقاب
الكلام عن الخلفاء وعهودهم . وبلغ من اهتمام أصحاب كتب التراجم
ورجال الفقه والمذاهب بالقضاة في كل بلد ومصر أن أضحي لدينا من
ذلك قوائم كاملة أحياناً بعد قوائم مما يدل على القيمة الكبرى لهذه
المؤسسة الاجتماعية السياسية في تاريخ الحضارة الاسلامية .

وقد اصطنع العباسيون الاوائل لباساً خاصاً للقضاء هو

(١) الكندي - الولاة القضاة ص ٣٥٦

الطليسان • وجعلوا للقاضي موكبه الرسمي زيادة في الهيبة • وقد بعث والي البصرة يحيى بن قارب مع القاضي عمر بن حبيب العدوي قائداً في مائة (جندي) • فكان إذا جلس للقضاء قام الجند عن يمينه وشماله سباطين فلم يكن قاض أهيب منه ...»^(١)

ومكان القاضي إنما كان في المسجد الجامع وقد يقضى في أي مكان شاء • وقد سجلوا على بعض قضاة مصر أنه اختصم عنده بعض الذمة فأدخلهم الجامع وكان أول من فعل ذلك • وإذا كان لكل مدينة ومصر قاضيه فقاض في الرقة وقاض في الفسطاط وقاض في نيسابور فقد كان لبغداد وحدها قاضيان أحدهما في الجانب الغربي والثاني في الجانب الشرقي (في الرصافة) وموسى الهادي هو أول من فرق القضاء في جانبي بغداد»^(٢) وقد تسلم المنصب الثاني «أبو معشر يوسف بن أبي يوسف : وحين كان أبو يوسف يسافر مع الرشيد كان ابنه يقضي بمدينة السلام» في الجانبين^(٣) • وقد كان ثمة قضاة يجمعون ما بين عدة مدن : فأبو الحسن محمد ابن الامام الشافعي ولي قضاء قنشرين والعواصم • كما كان ثمة قضاة للجند يكرنون مع العسكر للفصل في الخصومات •

وأما رواتب القضاة فيبدو أنها كانت مرتفعة وقد ذكر مؤرخ متأخر أن أحد قضاة مصر في العصر العباسي الأول كان يتقاضى أربعة آلاف درهم في الشهر^(٤) وهو مبلغ قد يكون فيه بعض الشطط ولقد يكون

(١) انظر وكيع - اخبار القضاة (طبع القاهرة سنة ١٩٥٠) ج ٢

ص ١٤٢ •

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٥٤

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٥٦

(٤) السيوطي

راتب قاض بعينه ولكنه ليس مقياس رواتب الآخرين التي قد لا تزيد عن العشر منه .

ويبدو من جهة أخرى أن عناية العباسيين الأوائل باختيار القضاة — وهم موظفون اختصاصيون — وبمراقبة أحكامهم كانت تعدل أو تزيد على عنايتهم باختيار رجال الإدارة . وثمة أخبار كثيرة في المصادر تذكر سؤال الرشيد للوفود التي تأتيه من البلاد عن القضاة عندهم وتحريره لسيرتهم فإذا شكوا شيئاً استشارهم في من يعين لهم من القضاة أو قبل من يقترحونه بأنفسهم لهذا المنصب^(١) . ويذكر أحياناً مثل ذلك عن المأمون . على أن القضاء كمؤسسة أصابها ما أصاب باقي أجهزة الإدارة في الدولة من الإهمال والفساد فيما بعد وضغطت عليها المؤسسات العسكرية والإدارية حتى أفقدتها الكثير من استقلالها . ولا تستكمل صورة القضاء العباسي إلا بثلاث مؤسسات أخرى تتعلق به :

١ - الشهود :

وهم جماعة من وجهاء البلد معروفون بالعدالة وحن السيرة مهنتهم مساعدة القاضي في بعض أعماله وأهمها : التثبت من مواضيع الشكاوي والنظر في صحة الإجراءات القضائية فكأن دورهم هو دور التحقيق الأولى والشهادة بعد ذلك عند القاضي بما عرفوا من الأمور على ضمانتهم وابداء الرأي كهيئة «المحلفين» . كان ظهور هذه الجماعة ضرورياً في مجتمع لم تكن الكتابة ولم تكن بالتالي العقود الخطية شائعة فيه وليس للقاضي في زحمة العمل من الوقت ما يكفي للتحقق من كل أمر . بالإضافة الى أن قيمة الشهادة الشفهية في تلك العصور كانت أعلى بكثير من الشهادة المكتوبة .

(١) انظر وكيع — أخبار القضاة ج ٢ ص ١٤٣ و ص ١٤٥

وبالرغم من أن وجود الكتاب العدول والشهود العدول سابق
للعصر العباسي إلا إن توطد جماعة الشهود كهيئة رسمية ، بجانب
القاضي وظهور دورها القضائي والاداري إنما كان في العصر العباسي
الأول وقد اشتق منها جماعة أخرى عرفت فيما بعد باسم «الشروطيين»
مهمتهم كتابة العقود ، تحت اشراف القاضي ، بين الناس .

٢ - الحسبة :

وهي وظيفة « مدنية » نشأت بسبب حاجة المدن
الاسلامية إلى العناية بأمورها العامة في أسواقها وبنائها ومرافقها العمومية
وفي جماعاتها الحرفية ، وخدماتها الاجتماعية وضمان العدل والأمن لها
في عمليات التجارة والتعامل ورعاية الصحة العامة والآداب العامة ...
وهذه الأمور هي في الأصل من واجب كل مسلم والاشراف عليها من
واجب « السلطان » الذي عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
وقد ظهرت وظيفة المحتسب مبكرة في الاسلام ومهما يكن من
الاختلاف في أصل نشأتها فقد جاء العصر العباسي وهي مؤسسة قائمة
موجودة وثمة أخبار مبشرة عن محتسب عزل أو عين أو كان في وفد ..
ولا شك أن الحسبة كانت تحل الكثير من المشاكل اليومية قبل أن
تصل الى ميدان القضاء .

٣ - المظالم :

وهي مؤسسة قضائية ثالثة يعود الفضل في تكاملها
إلى العباسيين الأوائل . وسماع المظالم ، وهو نوع من استئناف
الاحكام أو عرض الظلمات على السلطة العليا ، وهي الأمير ، المسؤول
عن إقامة العدل ، وأول ما كان ذلك بشهادة اليعقوبي والماوردي ، في
العهد الأموي . «فإن عبد الملك بن مروان هو أول من أفرد للظلمات

يوماً يتصفح فيه قضايا المتظلمين وتبعه في ذلك عمر بن عبد العزيز ثم كان المهدي أول من جرى على هذه السنة (من خلفاء بني العباس) فكان يجلس بنفسه للمظالم ويحيط جلوسه بهالة من الهيبة قوامها من يجمعه حوله من الفقهاء لمثل هذا المجلس • وقد ذكروا أن المهدي كان يطلب جلوسهم معه ويقول : « لو لم يكن ردي للمظالم إلا حياء منهم لكفى... » وقد تبعه في ذلك ابنه الهادي فجلس لها وتبعه الرشيد والمأمون • وآخر من جلس لها هو الخليفة المهدي الذي استخلف ما بين سنتي (٢٥٥ - ٢٥٦ / ٨٦٩ / ٨٧٠) •

وسلطة المظالم ، التي كان لها ديوانها المستقل كانت تتناول الطبقات كافة بما فيهم الولاة والقضاة أنفسهم كما تتناول الخلفاء وقد ذكرت القصص العديدة عن اتصاف بعض المتظلمين من كبار رجال الدولة ومن بعض الخلفاء كالمهدي والرشيد عن طريق المظالم ^(١) التي كانت نوعاً من صمام الأمان القضائي والإداري في الوقت الذي تشكل فيه السلطة القضائية العليا المنفصلة عن القضاء •

٢ - السياسة المالية

١ - النظام المالي : نلعه من الضروري قبل عرض هذه السياسة أن نهد لها بعض الملاحظات المبدئية : وهي تتناول بصورة خاصة النظام المالي نفسه :

١ - أن نظام الضرائب الإسلامي إنما يستند في أساسه إلى تمييز المكلفين تبعاً لجماعتهم الدينية • فعلى المسلمين تكاليف وضرائب (كالصدقة والزكاة والعشر على الأرض) لا تجب على أهل الذمة الذين

(١) انظر الماوردي - الاحكام السلطانية (طبعة البابي - القاهرة ١٩٦٦) ص ٧٨ واليعقوبي ج ٢ ص ٣٦٧

يدفعون بالمقابل الجزية على الرؤوس والخراج على الأرض . ثم تطور ذلك النظام فأضيفت إليه انواع شتى من الضرائب شملت الجميع كضرائب الأسواق ومكوس التجارة . كما تحولت ضريبة الخراج فارتبطت بالأرض بدلا من ارتباطها بمالكها وبدين هذا المالك أي لم تعد تسقط أو تتغير بإسلامه . والسبب في ذلك أن الأرض اعتبرت المصدر الأساسي للضرائب التي تقيم أود الدولة كما كانت ضرائبها أكثر الموارد المالية انتظاماً وثباتاً .

٢ - لم تكن الضرائب الإسلامية ، ومنذ مطلعها الأول في عهد الفتوح ثم العهد الأموي مجرد إتاوات اجمالية ثابتة الكمية تجبى من الأقطار حسب الاتفاق معها . فان هذه الفكرة التي نشرها المستشرق ولها وزن وحاول آخرون من أمثال بيكر وكايتاني وغروهمان وبل أن يدللوا عليها بالحجج المختلفة وأن يقولوا إن العرب أخذوا الضرائب البيزنطية والساسانية نفسها وأعطوها الأسماء القديمة ذاتها ولم يكن لديهم فرق بين الجزية والخراج هذه النظرية كلها قد نقضت الآن من واقع أوراق البردي والوثائق المالية التي وجدت ودرست وبينت أن النظام الضريبي الاسلامي كان مكوناً من عدد من الأنظمة الضريبية المختلفة باختلاف الاقاليم وتراثها ومعاهدات الصلح معها وأن هذه النظم كانت تحوي ، منذ بدء الدولة أنواعاً عديدة من الضرائب ، التي فرضها العرب وهي ثابتة الأسماء وإن اختلفت كسياتها من إقليم إلى آخر (١) .

(١) فرض العرب مثلاً الجزية على الرؤوس في مصر ولم تكن موجودة فيها في العهد البيزنطي الأخير . وأعادوا فرضها في عهد عبد الملك على الجزيرة بعد أن قاموا بإحصاء دقيق فيها أما في المناطق الساسانية فكانت موجودة من قبل . وحددوا العشر على الأرض التي ألت للعرب الفاتحين وجعلوا الخراج على الأرض الباقية لأصحابها وهو ما لم يكن معروفاً قبلهم .

فكما عدا بعض المناطق على أطراف الدولة التي احتفظت باستقلالها الذاتي وبحكامها الأصليين وقبل منها العرب مبلغاً سنوياً معيناً حددته معاهدات الصلح .

٣ - وقد ثبت ، بجانب هذا أيضاً أنه كان لدى الدولة الإسلامية، منذ عهد الراشدين جهاز ضريبي يروقراطي تكامل في العهد الأموي ثم ورثه العباسيون فزادوه دقة وكانت له خطة عمل دقيقة منظمة وسجلات ودفاتر وجرائد وإيصالات عند الدفع بقي لنا منها الكثير على أوراق البردي في مصر وعلى قطع الفخار . كما كان هذا الجهاز مرتبطاً بمركزية شديدة مع العاصمة (دمشق ثم بغداد) التي تشرف على كل صغيرة وكبيرة في أمور الضرائب . وقد برز في التدقيق بذلك في العهد الأموي عبد الملك ثم ابنه هشام^(١) كما عمل عليه أيام العباسيين المنصور خامة ثم يحيى البرمكي للهادي ثم للرشيد .

وقد استخدم الخلفاء في هذا الجهاز الضريبي وفي مختلف العهود أولئك العمال المحليين الذي كانوا يعملون من قبل لدى البيزنطيين والساسانيين ولكن تحت الاشراف المباشر للعمال المسلمين الذين يرسلهم الخليفة نفسه أحياناً مع الوالي .

٤ - تستعت بعض المدن بيزات خاصة (كالقدس والحيرة) وكانت مبالغ الجزية تختلف بين سكان المدن والريف كما كانت ضريبة الخراج تختلف بين الريف القريب من المدينة والريف البعيد عنها . وكانت الضريبة في المدن نقدية وفي الريف نقدية وعينية أو عينية فقط . ولم تكن الجزية والخراج هي الضرائب الوحيدة فالذي يبدو من الأوراق البردية في مصر أنه كان ثمة بجانبها ضريبة قمح . وضريبة لنفقات

(١) انظر الطبري ج ٧ ص ٢٠٣ (٢/١٧٣٢ - ٣٣)

الموظفين المحليين وثالثة لتغطية نفقات الاعباء الرسمية للدولة من ضيافة وكسوة . وقد كانت تقديرات الضرائب على أي حال تسجل في قوائم (أو جرائد أو سجلات) وترسل الى عاصمة الاقليم لتدقيقها قبل فرضها وجبايتها . وكان ثمة باستمرار سواء في السواد أو في مصر . وفي الشام أو الجزيرة أو خراسان آبقون من الفلاحين أهل الريف خاصة (ويسمون أحياناً النبط في السواد والشام) يهربون من الضريبة إلى المدن لانهم متى تركوا الأرض لم يعد ثمة من يفرض عليهم تكاليف الضريبة وقد عانى من هذه المشكلة الأمويون والعباسيون الأوائل على السواء .

٥ - كانت سجلات الضرائب ، ومدوناتها المختلفة ، تسجل باللغة المحلية والعربية معاً اعتباراً من أيام عبد الملك . والوثائق البردية التي وجدت في مصر ، وجدت مكتوبة باللغة اليونانية وبالقبطية وبالعربية ولكن العربية استأثرت وحدها بالوثائق الرسمية منذ أواخر القرن الثاني الهجري أي منذ ظهور الورق واستعماله الواسع .

٦ - إذا حدد عمر بن عبد العزيز أو نصر بن سيار أو غيرهما المصطلحات الضريبية بوضوح حين فرق الأول ما بين الأرض الخراجية والعشرية و فرق الثاني ما بين ضريبة الأرض (الخراج) والرأس (الجزية) فإن السبب في هذا الايضاح لا يرجع إلى غموض مفهومها في الديلة ولكن اختلاف النظام الضريبي حسب الاقاليم المختلفة وهو اختلاف سببه وراثته النظم القديمة السابقة للإسلام من جهة وشروط الصلح من جهة أخرى وشيوع بعض المصطلحات في منطقة دون أخرى من جهة ثالثة . وقد أثبتت الوثائق البردية والفخارية في مصر أن ضريبة الأرض (الخراج) كانت تسمى بالاسم اليوناني Demosion وكانت مختلفة عن

ضريبة الرأس (الجزية) المسماة : Diagraphon أو Andrismos وقد استعمل عمال الخراج في مصر كلمة Demosions بالجمع (أي الخراجات) للدلالة على مجموع الضرائب المتوجبة كما استعملت أحياناً في كتب الأموال والخراج كلمتا : «جزية على أرضهم» أو «خراج على رؤوسهم» بسبب شيوع كلمة خراج في الولايات الإسلامية الشرقية حتى صار معنى الكلمة فيها تعني أحياناً الضريبة بشكل عام وشيوع كلمة جزية في الولايات الغربية وخاصة مصر حتى صارت هذه الكلمة علماً على كل الضرائب^(١) وقد كتب ابن قيم الجوزية (في القرن الثامن) تعريفاً يكشف ذلك إذ قال : الخراج «هو جزية الأرض كما أن الجزية خراج الرقاب وهما حقان على رقاب الكفار وأرضهم للسلسين ٠٠٠»^(٢)

٧ - كان الخراج مبالغ وعروضاً عينية يحددها الانتاج أما الجزية فكانت مبلغاً محدداً وعلى الرجال فقط ولا تضرب على النساء والرهبان ولا الفقراء والعجزة ولا الصبيان إلا من جرت عليهم الموسيقى ورغم ورود أسماء نساء في ايصالات الضرائب اليونانية أو القبطية أو العربية إلا إن ضريبة الجزية (الرأس) لم تكن ضمن هذه الضرائب أبداً بل لقد وجد نص يقول : «لما نمي الى علمنا أن مينا جعل النساء وريثاته فقد محونا أسماءهن من قوائم الضريبة»^(٣) . ولم تكن ضريبة الجزية

(٢) ابن قيم الجوزية - احكام اهل الذمة (تحقيق صبحي الصالح - حورت بالفارسية إلى هراك أو حراك . وقد استعادها العرب من اللفظة الإدارية الدارجة قبلهم .

(٢) ابن قيم الجوزية - احكام اهل الذمة (تحقيق صبحي الصالح - دمشق ١٩٦٣) ج ١ ص ١٠٠

(٣) انظر فوزي فهمي جاد الله - مقدمة كتاب الجزية والاسلام (الترجمة العربية) ص ١٨ نقلا عن البرديات القبطية .

متساوية الكمية في مختلف الأقاليم ولا في مختلف العهود وكانت تتدرج حسب دخل الفرد فإذا أسلم أعفى منها • وقد ذكر ساويرس ابن المقفع المؤرخ القبطي المصري أن الخليفة العباسي الأول أعلن أن «كل من يصير على دينه (أي دين الخليفة) ويصلي كصلاته يكون بغير جزية ... فمن عظم الخراج والكلف عليهم انكر كثير من الاغنياء والفقراء دين المسيح»^(١) • وهذا الإجراء الحالي - الديني الذي لا شك أنه كان إجراء عاماً في الدولة • كان جواباً سياسياً على تدابير الأمويين المالية التي كانت لا تعفى من أسلم في بعض الاقاليم من الجزية خوفاً على موارد الدولة من النقصان •

٨ - وأخيراً فقد استمر العباسيون بصورة عامة سواء في النظام الضريبي أو في جهاز الجباية وطرائقها على الأسس نفسها التي سار عليها الأمويون من قبل فكان للسواد نظام من الضرائب يختلف عن مثيله في الجزيرة أو في خراسان أو في مصر أو الشام • وإن جرى تعديل ضريبي في اقليم فليس يعني ذلك بالضرورة أن ذلك التعديل كان عاماً في أقاليم الدولة بل العكس هو الصحيح بمعنى أنه كان في الغالب محلياً لكل اقليم حسب ظروفه وآلامه ومشاكله وأهواء ولايته •

ب - السياسة المالية العباسية : كانت الآمال التي أطلقها العباسيون بثورتهم وبوصولهم الى الحكم أعرض وأوسع من أن يتناسوها أو يفضوا الطرف عن تحقيق جانب منها وخاصة ما تعلق منها بالعلاقة المالية ما بين الحكام والمحكومين • وإذا لم يتح الوقت لأبي العباس كي يعني بذلك فإنه كان في الواقع من مهام أخيه المنصور وفي رسالة الصحابة التي كتبها ابن المقفع للمنصور والتي يسكن اعتبارها وثيقة إدارية من

(٤) ساويرس ابن المقفع - سير الالباء البطارقة (تحقيق vetts :

طبعة باريس ١٩٠٧) ص ١٨٩ - ١٩٠

وثائق العصر يقول صاحبها في وجوب تنظيم الخراج : «... إن أصول الوظائف (الضرائب) على الكور لم يكن لها ثبت ولا علم • وليس من كورة إلا وقد غيرت وظيفتها (ضرائبها) مراراً فخفيت وظائف بعضها ووقيت وظائف بعض» وهكذا : «فليس للعمال أمر ينتهون إليه ولا يحاسبون عليه • فسيرة العمال احدى اثنتين : إما رجل أخذ بالخرق والعنف من حيث وجد وتتبع الرجال والرساتيق بالمغالة ممن وجد وإما رجل صاحب مساحة يستخرج ممن زرع ويترك من لم يزرع فيغرم من أعرم ويسلم من أخرب •... فلو أن أمير المؤمنين أعمل رأيه في التوظيف (نظام الضرائب) على الرساتيق والقرى والأرضين وظائف معلومة وتدوين الدواوين بذلك وإثبات الأصول حتى لا يؤخذ رجل إلا بوظيفة قد عرفها وضمنها ولا يجتهد في عمارة إلا كان له فضلها ونفعها لرجونا أن يكون في ذلك صلاح للرعية وعمارة للأرض وحسم لأبواب الخيانة وغشم العمال •...»^(١) وهذا رأي مؤوته شديدة ورجاله قليل ونفعه متأخر وليس بعد هذا في أمر الخراج إلا رأي قد رأينا أمير المؤمنين أخذ به ولم نره من أحد قبله من تخير العمال وتفقدهم والاستعتاب لهم والاستبدال بهم •...»^(١) •

والواقع أن مشكلة الخراج وتنظيمه وضبطه كانت من أهم المشاكل التي تواجه المنصور مؤسس هذه الدولة الجديدة بعد اضطراب

(١) انظر الرسالة كلها في رسائل البلقاء - محمد كرد علي «طبعة البابي الحلبي سنة ١٩١٣» وهذا النص في الصفحة ١٢٩ - ١٣٠ وانظرها أيضاً في جُمهرة رسائل العرب الذي نشره أحمد زكي صفوت ج ٣ ص ٢٥ وما بعدها • (طبعة البابي الحلبي - القاهرة ١٣٥٦ - ١٩٣٧) وهي منشورة في ضحى الاسلام ج ١ ص ٢١٠ فما بعد) •

الأوضاع الاقتصادية والسياسية وانقلاب الدولة أسرة وأنصاراً ومكاناً .
وكانت المشكلة ذات شقين : جهاز الجباية الخراجية من جهة وضبط
كميات مال الخراج من جهة أخرى .

جعل المنصور أولاً ديوان الخراج في مكان قرب قصره في بغداد
ثم جعل له سجلات يرجع إليها في تقدير قيمة الخراج ومع أنه كان يختار
له أكثر رجاله كفاية إلا إنه أخضعه لإشرافه المباشر حتى «لم يعد للوزارة
في عهده رونق ولا قيمة» كما قالوا . وكان نموذجهُ الأعلى في رجل
الخراج العامل الذي «يستقصي ولا يظلم» . وقد أمر عمال الخراج ألا
يقبلوا من الدراهم إلا الهبيرة والخلدية واليوسفية أجود تقود بني
أمية ^(١) كما استحدث كيلاً جديداً لجباية الخراج عرف بالقفيز الهاشمي
وعني كل العناية ب مراقبة عمال الخراج ومحاسبتهم المحاسبة الدقيقة
الدائمة . وخلال ذلك أخذ المنصور أيضاً بضبط مبالغ الخراج وأمواله
فقد أمر - كما يروي الجهشيارى - بتعديل السواد ^(٢) وقلد ذلك حماداً
التركي كما أرسل سنة ١٤٠ سنة ١٤١ عمالاً إلى كور الشام ليسوزوا أنواع
الأراضي ويعدلوا مقدار الضريبة عليها كما أمر بمنع تحويل الأراضي الخراجية
إلى عشرية فيها وهكذا عدلت أراضي حمص وبلبك ثم الغوطة ... ^(٣)
وكان المنصور كذلك يرمى الأسعار التي غلت في مطالع عهده

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٥٧٦

(٢) الجهشيارى - الوزراء والكتاب ص ١٣٤

(٣) يروي ذلك ابن عساكر في ترجمة اسماعيل بن عياش الذي كلف
بهذا التعديل وقد نقله عنه ابن العديم في ترجمة هذا الرجل (انظر بغية الطلب
مخطوط أحمد الثالث ج ٣ الورقة ١٣٩ ظهر يقول : «وبعثه أبو جعفر
المنصور الى دمشق فعُدل أرضها الخراجية» وقد نقل نص ابن عساكر
أيضاً فون كريمز وقلها وزن وغيرهم .

كما يتبين من بعض الإشارات في رسالة الصحابة وبعض أخبار الطبري عن خمرسان سنة ١٤١ فكان «ولادة البريد في الأفاق كلها يكتبون إلى المنصور أيام خلافته في كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل مأكول . . . وبما يرد إلى بيت المال . . . فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك وإن تغير شيء منها عن حاله كتب إلى الوالي والعامل هناك وسأل عن العلة التي نقلت ذلك عن سعره . فإذا ورد الجواب بالعلة تلتطف إلى ذلك برفقه حتى يعود سعره ذلك إلى حاله . . .»^(١) ونجحت سياسة المنصور فإننا نسمع الجهشيارى يروي أن قد «رخصت الأسعار في أيام أبي جعفر»^(٢) ويروي الخطيب البغدادي خبراً عن رجل من عصر المنصور يقول إن الكبش كان بدرهم والحمل بأربعة دوايق والتمر ستين رطلاً بدرهم والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم والسمن ثمانية أرطال بدرهم . والرجل يعمل بالروزجاز في السور كل يوم بخمس حبات !! . «وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطلاً بدرهم ولحم الغنم ستين رطلاً بدرهم»^(٣) .

وتنظيم أمر الخراج من جهة مع رعاية الأسعار ورخصها من جهة أخرى إذا أضفنا إليها ما عرف عن حرص المنصور المالي وشدته فيه هو الذي سمح له أن يترك في خزانة الدولة لابنه المهدي ٦٠٠ مليون درهم، وأربعة عشر مليون دينار (= ٢١٠ ملايين درهم)^(٤) كما سمح له أن يقول لابنه المهدي : إني تركت لك من المال ما لو انقطع عنك الخراج عشر

(١) الطبري ج ٨ ص ٩٦ (٤٣٥/٣)

(٢) الجهشيارى ص ١١٧

(٣) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٠ و ص ٤٣

(٤) انظر ماري بن سليمان - أخبار بطارقة كرسي المشرق (طبع

روما ١٨٩٩) ص ٧٠

سنوات لكفالك • على أن هذا المال كله مع وارد الدولة السنوي أيضاً ذهب في السنوات العشر التي قضاها المهدي على العرش • وكان وزيره أبو عبيد الله يشير عليه عبثاً بالاقتصاد فلما وزر له يعقوب بن داوود زين له ما يهوي حتى أشرفت الخزانة على الافلاس • ذلك أن طريقته كانت أن يربط الناس به عن طريق الدرهم والدينار حتى أضحي كما قال المسعودي «محبياً إلى الخاص والعام» •

وقد ذكر بعض مؤرخي النساطرة أن المهدي حين عقد له الأمر «... ترك خراج سنة على الناس ورد ضياعهم عليهم وعاملهم في أموالهم بخلاف سيرة أبيه» •

ويقول المسعودي «... وبسط (المهدي) يده في الإعطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور ... سوى ما جباه في أيامه • فلما تفرغت بيوت المال أتى أبو حارثة الهندي خازن بيت أمواله فرمى بالمفاتيح بين يديه وقال : ما معنى مفاتيح لبيوت فرغ ؟ قال ففرق المهدي عشرين خادماً في جباية الأموال فوردت الأموال بعد أيام قلائل وحينئذ قال لخازنه : كنت تظن أن الأموال لاتأتينا إذا احتجنا إليها ؟ فقال أبو حارثة إن الحادثة إذا حدثت لم تنتظرك حتى توجه في استخراج الأموال وحصلها .. » (١) •

غير أن رخص الأسعار أدى إلى الظلم الضرائبي القاسي لأن ثبات قيمة الضريبة مع الرخص كان يستهلك القسم الأكبر من انتاج الأرض ولهذا عمد المهدي إلى إصلاح ضرائبي جذري ألغى فيه نظام المساحة والضريبة الثابتة النقدية الذي كان متبعاً منذ عهد الفتوح بل منذ العهد الساساني في السواد واستبدل به نظام المقاسمة • على الانتاج والضريبة

(١) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ١٧٧ و ص ١٧٥

النسبية العينية ويبدو أن الناس سألوا المنصور في آخر خلافته ذلك فأجابهم ثم لم يتح له تطبيق هذا النظام في عهد المهدي (١) ولعل ذلك كان حوالي سنة ١٦٠ فصار يؤخذ كما يقول الماوردي «٠٠٠ النصف على الأراضي التي تسقى سيحاً . والثالث على الأراضي التي تسقى بالدوالي (النواعير على الدواب) والرابع على تلك التي تسقى بالدوالي (باليد) ولا شيء عليهم سوى ذلك ٠٠٠» أي أن الأراضي غير المزروعة معفاة من الضريبة أما الثمار فبقيت على نظام المساحة . مع مراعاة قرب الأرض من الأسواق ولكن هل طبق ذلك على غير السواد في العراق ؟

لقد أيد أبو يوسف قاضي الرشيد في كتاب الخراج نظام المقاسمة بالأدلة الفقهية وهذا لا يعني أن النظام قد عمم على الأقاليم الإسلامية الأخرى بل إن ثمة ما يدل على بقاء نظام المساحة القديم في كثير من المقاطعات الإيرانية وفي بلاد الشام ومصر حيث ظلت كميات الخراج ثابتة وكان على الفدان في مصر ديناران كل سنة وقد كشف الأزدي في تاريخ الموصل أن يحيى بن خالد البرمكي قد أعاد خراج الموصل إلى المساحة : كسر الخراج سنة ١٧٥ وكان يؤخذ العشر من البرية والرابع من المرج فاستدعى بعض أهل الموصل إلى بغداد بسبب ذلك فاحتجوا بوجود الخوارج فدعاهم إلى فرض ضريبة ثابتة فرفضوا (٢) ولكن

(١) ذكر الماوردي (الاحكام السلطانية ص ١٦٨) أن المنصور هو الذي بدل إلى نظام المقاسمة بينما يعزو ابن الطقطقي (ص ١٦٤) ذلك إلى المهدي ويبدو أن البلاذري كان أدق من الاثنين (في فتوح البلدان ص ٣٣٣) حين أوضح أنها طلبت من المنصور ونفذها المهدي .

(٢) الأزدي - تاريخ الموصل ص ٢٧٦

البرمكي ألزمهم ذلك . وعمل حساب الجريب من البذور والانتاج من الحنطة والشعير وقوم هذا وذاك : وكان جريب القمح بثلاثين درهماً والشعير بعشرين فألزمهم الربع على أساس المساحة^(١) .

ح - طرق الجباية والانفاق : ولعل أهم من ذلك أن أساليب الجباية بقيت على حالها القديم منذ العهد الساساني والبيزنطي في مختلف الأقاليم وإذا قممها الناس على الأمويين فإنها لم تتغير في شيء زمن العباسيين وظلت على ما كانت عليه من أساليب التعذيب والارهاق والسوط . وقد حاول المهدي الإصلاح إذ يذكرون أنه أمر بمنع تعذيب الناس في جباية الخراج و«كتب الى جميع العمال برفع العذاب عن أهل الخراج» وكانوا «يعذبون بصنوف من العذاب من السباع والزناير والسنانير»^(٢) .

على أن هذا الأمر بدوره لم ينفذ فيما يبدو كل التنفيذ فإننا نجد القاضي أبا يوسف يندد ، في عهد الرشيد ببعض عمال الخراج وأنهم «ليسوا بأبرار ولا صالحين . . . يأخذون الخراج بالعسف والظلم والتعدي» كما يلزمون أهل الخراج (دافعي الضرائب) برزق العمال (الجباة) وإنزالهم وطعامهم ويأخذون منهم ثمن صحف وقراطيس وأجور الكياليين ومؤوتتهم ويقتطعون من الدراهم طائفة « ويقال : «هذا رواجها وصرفها» ويدعون عليهم «بنقيصة فتؤخذ منهم . . .» وبجانب هذا الظلم في الاداء المالي كان ثمة ظلم في المعاملة الانسانية «وقد يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنع من الصلاة وهذا عظيم عند الله شنيع في الاسلام» .

(١) الجهشياري الوزراء والكتاب ص ١٤٢ .

(٢) الجهشياري - الوزراء والكتاب ص ١٤٢ .

«ويعلقون لهم الحجارة في الاعناق ...» ولا يبالي المتقبل (أي الضامن والملتزم) هلاكهم «لعله أن يستفضل بعدما يتقبل به فضلاً كثيراً ...»^(١)

كما أن نظام المقاسمة في السواد لم يسلم في نهاية عهد المهدي من التعديل ويبدو أنه زيد فيه العشر أيضاً فأضحى ٦٠٪ بدلاً من ٥٠ بسبب كثرة تفقات الخليفة كما أن المهدي أوجد ضريبة على الأسواق في بغداد وأمر بجبايتها وجعل عليها الأجرة وجعل سعيد الحرشي لذلك فكان أول ما جبيت أسواق بغداد ...»^(٢) وتدل الاشارات لدى المؤرخين أن هذه الضريبة عمت على ولايات الدولة أو طبقت على الأقل في مصر أيضاً وفي خراسان .

على أن الولاة كانوا في الواقع يتصرفون في أمر خراج الأقاليم وجباية الأسواق وعشر التجارة كما يرون فحين قلد المهدي خالد بن برمك ولاية فارس أناب عنه ابنه يحيى فاتخذ تديرين للتخفيف عن الناس إذ «قسط الخراج على أهلها (من جهة) ووضع عنهم خراج الشجر وكانوا يلزمون له خراجاً ثقيلاً ...»^(٣) بينما نجد بالمقابل أن موسى بن صعب الموصلبي حين ولى صلاة وخراج مصر سنة ١٦٧ من قبل المهدي «شدد ... في استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما يقبل (يضمن ويلتزم) به وارتشى في الاحكام وجعل خراجاً على الأسواق وعلى الدواب فكرهه الجند ونابدوه ...»^(٤) فكانت نتيجة ذلك الثورة

(١) انظر كتاب أبي يوسف : كتاب الخراج (المطبعة السلفية - القاهرة ١٣٥٢) ص ١٠٥ و ١٠٧ و ١٠٩ و ١١١ .
(٢) اليعقوبي - ج ٢ ص ٣٩٩
(٣) الجهشياري - الوزراء والكتاب ص ١٥١
(٤) المقرئ - الخطط ج ١ ص ١٠٣

ومقتله في تلك السنة نفسها ...

وقد ذكر ساويرس ابن المقفع بدوره أن موسى بن مصعب ، عامل الخراج في مصر «ضاعف» (سنة ١٦٧) ما كان يؤخذ من الخراج عن كل فدان ثم فرض الخراج على أهل الأسواق وعلى الدواب» فقامت الثورة في غرب الدلتا بشكل عنيف وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

لو يعلم المهدي ماذا الذي يفعل له موسى وأيوب
بأرض مصر حين حلا بها لم يتهم في النصح يعقوب...^(١)

ويعقوب هو ابن داوود الوزير . وطبيعة النظام المالي (الموروث بدوره عن الروم والساسانيين) كانت تميل عامة إلى الزيادة الدائمة في أعباء دافعي الضرائب كما كانت تعطي فرصاً استثنائية للعمال الثانويين في ابتزاز الأموال . وهذا ما كان يدفع الكثير من صغار الفلاحين الى الهرب من أرضهم تخلصاً من الاعباء جرى ذلك في السواد وفي الجزيرة وفي مصر حيث تحفظ بعض أوراق البردي أسماء الأبقين . على أنه كان لبعض الملاكين الصغار طرفهم في الهرب من عسف الحياة ، أو في تقليل قيمة الخراج ومن ذلك الإلجاء أي الاحتماء باسم متنفذ كبير أو تسجيل الأرض باسمه . وقد ظهر مثل ذلك منذ العهد الأموي ويظهر أنه زاد في العصر العباسي يروي الجهمشياري أن رجلاً من الأهواز جاء الى أبي أيوب المورياني وهو وزير (لدى المنصور) فقال : ان ضيعتي بالأهواز قد حمل على فيها العمال فإن رأى الوزير أن يعيرني اسمه أجعله عليها وأحمل إليه في كل سنة مائة ألف درهم فأعطاه اسمه وحال الحال فأحضر الرجل المال ودخل على أبي أيوب وهو لا يعرفه وأعلمه أنه قد اتفق

(١) انظر ساويرس - سير الاءاء البطارقة ص ١٥٥ و ص ١٦٣
والكندي الولة والقضاة ص ١٢٥

باسمه وأنه قد حمل المال ... (١)» وإذا كان هذا يعني أن الإلجاء كان عملية مجدية مربحة للطرفين فإنه كان يعني أن إقطاعات المتنفذين لم تكن تدفع الخراج ... وهي دون شك إقطاعات واسعة لا في السواد فحسب ولكن في كل ولاية . وقد كان الإلجاء بدوره سبباً في توسع الإقطاعية الكبيرة فيما بعد لأن بعض من كانوا يلجئون الأرضين كانوا يستولون عليها .

ويبدو أن الخراج كثيراً ما كان «يكسر» أيضاً أي يتملص أهله من دفعه ولدينا أخبار عن كسره في الموصل زمن الرشيد ، وفي مصر ، وفي السواد . و«كانت العمال إذ ذاك تكتب الى الخلفاء» مباشرة بذلك باعتبار الخراج ملكاً لبيت مال المسلمين . وكان يجري من أجل ذلك اقتداب مندوب خاص يرسله الخليفة للاستيفاء وقد يرسلون من أجل ذلك الجيوش والقوات العسكرية . وقد أرسل الرشيد مثلاً عمر بن مهران إلى مصر حين كسر الخراج فيها سنة ١٧٦ «فاستوفى جميع مال مصر وانصرف» ويعلق صاحب العيون والحدائق على ذلك بقوله : «ولا يعلم أحد استوفى جميع مال مصر سواه» .

وكان الخراج لا يدفع كله دفعة واحدة عند الاستفتاح (أي بدء السنة الخراجية في النيروز) ولكن يدفع منجماً (٢) على (اقساط) نجوم ثلاثة . أو على الأقل هذا ما كان يجري في مصر . وكان الجباة أو الولاة يتقاضونه في بعض الأحيان دفعة واحدة مما يثير الكثير من التظلم والاحتجاج ...

وبالرغم من أن الأساس في الخراج هو الجباية المباشرة لكن يبدو

(١) الجهشيارى - الوزراء ص ١١٨

(٢) انظر العيون والحدائق للمؤلف المجهول ص ٢٩٥ و ص ٢٩٦

أن العباسيين اعتمدوا شيئاً فشيئاً نظام التقبل (أي الضمان) في جبايته حتى أصبح التقبل منذ نهاية عصر الرشيد النظام الوحيد السائد . فإذا كان أبو جعفر يكتب سنة ١٤١ الى نوفل بن الفرات عامل خراج مصر أن يعرض على محمد بن الأشعث ضمان ذلك الخراج فإن ضمنه يشهد عليه ويعود هو الى الخليفة وإلا بقي في عمله فلم يقبل ابن الأشعث^(١) فإن أخبار القرن الثالث لا تتحدث فيما يتعلق بالخراج إلا عن الضمان والضامين . وقد رفع محفوظ بن سليمان إلى الرشيد أن يضمن له خراج مصر عن آخره بغير سوط ولا عصا» فولاه الرشيد الخراج^(٢) ومع أن القاضي أبا يوسف قد حمل في كتابه على نظام التقبل لما يؤدي إليه من ظلم الفلاحين فإنه بقي النظام السائد لأنه أخف مؤونة على الحكومة وأثبت دخلاً . . . وكان متولي الخراج في كل إقليم يجلس – قبيل موعد جباية الخراج – فيتبارى المتقبلون في المزايدة على الكور عنده صفقة صفقة . . .

وإذا فاق الهادي أباه في إنفاق المال فلأن موارد الدولة كانت – على ما يظهر – تسمح بذلك وحين جاء الرشيد لم يدخل على السياسة المالية من جديد سوى أنه في سنة ١٧٢ «وضع عن أهل السواد العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف . . .»^(٣) ثم أراد تنظيم الخراج على أساس شرعي اسلامي منظم فسأل قاضية أبا يوسف أن «يضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جبايته الخراج والعشور والصدقات والجوالي وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به . . .» وإنما أراد بذلك رفع الظلم

(١) المقرئزي الخطط ج ١ ص ٣٠٦

(٢) المقرئزي ج ١ ص ٣٠٩

(٣) الطبري ج ٨ ص ٢٣٦ (٦٠٧/٣)

عن رعيته والصالح لأمرهم» كما قال ابو يوسف في مقدمة الكتاب الذي يمكن أن يعتبر وثيقة مالية بجانب كونه وثيقة فقهية هامة • فإنه بين واقع السياسة المالية ونظامها الواجب أي ما هو كائن منها وما يجب أن يكون • وبالرغم من أنه وافق على نظام المقاسمة إلا إنه اقترح تعديله بما ينصف الناس : فبدلاً من النصف على الأراضي المسقية سيحاً طلب جعل الضريبة $\frac{5}{2}$ وعلى المسقية بالدوالي $\frac{10}{3}$ بدلاً من الثلث وعلى غلال الصيف (ولعلها سقي الدواليب) الربع وعلى الأثمار الثلث^(١) •

ولكن هذه المقترحات لم تنفذ فيما يظهر واستمرت الجباية الضريبية على الطريقة القديمة وربما حاول بعض الولاة التخفيف عن المكلفين بإعفائهم من الضريبة المتراكمة عن السنوات السالفة فإن الفضل بن يحيى مثلاً حين توجه الى خراسان سنة ١٧٨ «أزال سيرة الجور ... وأحرق دفاتر البقايا»^(٢) •

ويذكر البلاذري «أن ضياعاً رفضت في خلافة الرشيد وتركها أهلها فوجه الرشيد هرثة بن أعين لعمارتها فدعا قوماً من مزارعيها واكرتها إلى الرجوع إليها على أن يخفف عنهم من خراجهم ولين معاملتهم فرجعوا فأولئك أصحاب التخفيف وجاء قوم منهم بعد فردت عليهم أرضوهم على مثل ما كانوا عليه فهم أصحاب الردود ... وبفلسطين فروز - كما يقول - بسجلات من الخلفاء مفردة من خراج العامة وبها التخفيف والردود ...»^(٣) •

وخفض البرامكة خراج ثغر قزوين ليتسكن أهله من احتمال

(١) انظر كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٥٠

(٢) الجهشياري - الوزراء والكتاب ص ١٩١

(٣) البلاذري - فتوح البلدان ص ١٧١

ما يغرّمونه للجهاد والغزو^(١) غير أن القاعدة السائدة كانت حتى أواسط عهد الرشيد هي المبالغة في استخراج أموال الخراج ذكر اليعقوبي أن الرشيد سنة ١٨٤ «أخذ العمال والتناة والدهاقين وأصحاب الضياع والمبتاعين للغلات والمقبلين (الملتزمين) وكان عليهم أموال مجتمعة فولى مطالبتهم عبد الله بن الهيثم ٠٠٠ فطالبهم بصنوف من العذاب ٠٠٠» ولكن الرشيد - فيما يذكرون - اعتل تلك السنة علة شديدة أشفى منها فدخل إليه الفضيل بن عياض فرأى الناس يعذبون في الخراج فقال: ارفعوا عنهم فإنني سمعت أن رسول الله يقول من عذب الناس في الدنيا عذبه الله يوم القيامة ٠ فأمر برفع العذاب عن الناس فارتفع العذاب من تلك السنة (سنة ١٨٤) ٠٠٠»^(٢)

وربما كانت قصة العذاب ورفع هذه إنما تتعلق بالسواد في العراق فقط أما حال الأقاليم فكان دون شك مشابهاً في العذاب لا في منعه على الأغلب ولعل مثال مصر من ابرز الأمثلة على ذلك ٠ وإنما عرفناه لأن أخبارها حفظت أكثر من غيرها :

فإننا نجد أن هذا البلد الذي يبلغ خراجه السنوي قرابة ثلاثة ملايين دينار قد ثار ثلاث مرات في عهد الرشيد ٠ خرج سنة ١٧٨ على اسحق بن سليمان بن علي لأنه «زاد على المزارعين في الخراج زيادة أجحفت بهم فهزموا جيشه»^(٣) وإذا بعث الرشيد هرثمة بن أعين في جيش عظيم فجبى خراج مصر كله فان أهل مصر عادوا فانتقضوا بعد ذلك سنة ١٨٦ إذ «خرجوا على الليث بن الفضل البيوردي لأنه بعث

(١) أبو يوسف - كتاب الخراج ص ٣

(٢) اليعقوبي ج ٣ ص ٤١٥

(٣) المقرئزي - الخطط ج ١ ص ٨٠ و ص ٣٠٩

بمساح يسحون عليهم أراضي زرعهم فانتقصوا من القصبه أصابع^(١) وتظلم الناس فلم يضع منهم فحدثت موقعة عنيفة بينه وبينهم ولم يقدر عليهم إذ منعوا الخراج فذهب إلى الرشيد وسأله أن يبعث معه بالجيوش فإنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الجوف (وهم عرب القيسية واليمانية والدلتا الغربية) إلا بجيش يبعث معه ٠٠٠» وتعهد محفوظ بن سليم بجباية خراج مصر عن آخره بلا سوط ولا عصا^(٢) فأرسله ٠ ثم عاد الناس فانتقصوا كوة ثلاثة في ولاية الحسين بن جميل سنة ١٩١ وامتنعوا من أداء الخراج فبعث الرشيد إليهم بقوة عسكرية مع يحيى بن معاذ ثم استدرج الوالي زعماء العرب الثائرين فقيدهم وسار بهم إلى العراق ٠٠٠

وهكذا فيما يبدو وصلت جباية الخراج زمن الرشيد حدودها العضوي ولم يبلغ رقم واردات الدولة — على ما يظهر — في أي عهد من العهود ما بلغه في عهد الرشيد من الارتفاع ٠ وبالرغم من أن الاتفاق الواسع دون حساب كان سياسة كل من الرشيد والبرامكة على السواء فإن الدولة في الواقع لم تشك العجز المالي ٠ بسبب ضخامة الموارد التي بلغت أكثر من ٥٣٠ مليون درهم في السنة ٠ ومن أمثلة هذا الاتفاق أن يحيى البرمكي اتفق في حفر بعض الأنهر عشرين مليون درهم^(٣) وفرق في الناس نصف مليون درهم باسم ولده الصغير ابراهيم ووزع ابنه الفضل في خراسان عشرة ملايين درهم ٠ ونال مروان بن أبي حفصة الشاعر في جولة مديح ببغداد سبع مائة ألف درهم^(٤) ٠ وبني جعفر بن

(١) المصدر نفسه

(٢) المصدر نفسه

(٣) الجهشيارى — الوزراء والكتاب ص ١٧٧

(٤) الجهشيارى — الوزراء والكتاب ص ١٩١

يجب قصره فلأنفق فيه عشرين مليون درهم وقضي ديناً على عبد الملك ابن صالح بمليون درهم... وحين نكبه الرشيد «قبض من سائر أموالهم ثلاثون ألف ألف وستمئة ألف وستة وسبعون ألفاً . الى سائر ضياعهم وغلاتهم ودورهم ورياشهم والدقيق والجليل من مواهبهم ٠٠٠» (١) .

وبالمقابل فإن الرشيد بعد كل ما أنفق ووهب في حياته ترك ثروة هائلة يروي الطبري أنه مات وفي بيت المال «٩٠٠ ألف ألف ونيّف» (٢) من الدراهم . ولا شك أن عملية الاتفاق الواسع قد نجم عنها ازدهار واسع في بغداد والعراق بصورة خاصة . وهو الازدهار الذي جعل «دولة الرشيد - على قول ابن الطقطقي - من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً» ولكن هذا كله كان دون شك على حساب الجماهير الواسعة الكادحة التي كانت تعمل لتأدية خراج الدولة وتصبه من أنحاء العالم الاسلامي في بغداد وتكدس الثروات في يد الفئة الحاكمة خاصة . ولعل من أمثلة ذلك أن غلة الخيزران - ام الهادي والرشيد - التي ماتت سنة ١٧٣ كانت مائة ألف ألف وستين ألف (ألف) درهم . وأن والي البصرة محمد بن سليمان بن علي مات في العام نفسه عن غلة كانت تبلغ «مائة ألف درهم في اليوم» . فلما قبض الرشيد أمواله كانت نيّفاً وخمسين ألف ألف درهم سوى الضياع والدور والمستغلات ٠٠٠ وبلغت أموال علي بن عيسى التي صودرت بعد حكم دام حوالي عشر سنوات في خراسان : ثمانية ألف ألف درهم . وقد روى أن خزائنه حملت على ١٥٠٠ بعير حين أرسلت الى الرشيد وهو بجرجان وكان هذا الوالي نفسه قد قدم بعد سنتين من ولايته على الرشيد ببغداد ومعه من المال

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٣ ص ٢٦١

(٢) الطبري ج ٨ ص ٣٦٤ (٣/٧٦٤)

— كما يروي الجهشيارى — ألف بدرة معمولة من ألوان الحرير وفيها
عشرة آلاف ألف درهم^(١) .

وكان الرشيد يقتفي آثار المنصور ويطلب العمل بها إلا في بذل
المال فإنه لم ير خليفة قبله أعطى منه للمال^(٢) وكان الغالب عليه عدم
محاسبة الوزراء أو العمال أو القواد . ترك للبرامكة أن يستولوا على
ما يشاءون ويتصرفوا كما يحبون بأموال الدولة سبع عشرة سنة ولم يأبه
بشكوى خراسان من علي بن عيسى حتى قامت عليه الثورة ويروون أن
الرشيد توفي وعنده أربعة آلاف خريطة (كتاب مالي) لم تفض ...
ومقابل هذا كله ، ومقابل هذه الأموال المتجمعة المكدسة نجد ،
في بغداد العاصمة ، ارتفاع الأسعار وضيق أسباب المعيشة بالفقراء .
وقد سجل ذلك الشعراء . يقول ابو العتاهة :

من مبلغ عني الامام	نصائحاً متواليه :
اني أرى الأسعار	أسعار الرعية غالية
وأرى المكاسب نزره	وأرى الضرورة فاشية
وأرى اليتامى والأرامل	في البيوت الخالية
من مصيبتات جوع	تسي وتصبح طاوية
يشكون مجهدة بأصوات	ضعاف عالية !
ويقول الشاعر الآخر :	

بغداد دار لأهل المال طيبة
وللسفليس دار الضنك والضيق
ظللت حيران أمشي في أزقتها
كأنتي مصحف في بيت زنديق !

(١) الجهشيارى الوزراء والكتاب ص ٢٢٨

(٢) الطبري ج ٨ ص ٣٤٧ (٧٤١/٣) .

ويقول ثالث عن بغداد :

تصلح للموسر لا لامرء

يبست في فقر وإفلاس

لوحلها قارون رب الغنى

أصبح في هم ووسواس !

ونجد تجمع أعداد كبيرة من الفقراء والزواquil والعراة وباعة الطرق والطاردين والزعار والسطار والعيارين في بغداد - وهم تتاج ذلك التكس غير الطبيعي للثروة في أيد قليلة ودليل على التفاوت الاقتصادي الشديد بين الطبقات وقد ألفوا في فتنة الأمين وحصار بغداد كتلة تصل أحياناً إلى أكثر من مائة ألف يقاتلون بالمقاليع وبدروع من الخوص والخيش وينهبون الدور فإذا أحرق منزل نهبوا خشبه وإن قتل ذو مكانة مسحوا عن الأرض بيته ... إن سوء الوضع المعيشي جعل من هؤلاء ثورة قيد الانفجار باستمرار منذ الآن وخلال القرون التالية . ضد الطبقات المالية الموسرة وخاصة التجار والمتمولين وأصحاب الاقطاع ورجال الطبقة الحاكمة .

د - الموارد العامة للدولة : وقد حفظ لنا الجهشيارى وثيقة هامة

جداً عن موارد الدولة في عهد الرشيد أيام وزارة يحيى البرمكي كتبها بعض كتابه بتفصيل جبايات الأقاليم وأقسامها ويتبين منها أن الخراج كان على قسمين : قسم مالي بالدرهم والدنانير وقسم عيني ويدفع على شكل أمتعة وعروض مما يتميز به كل اقليم من الانتاج . فإذا تركنا جانباً

المواد العينية وهي كميات كبيرة بدورها فإن مبالغ الجباية المالية الشتوية
كانت حسب القائمة التالية^(١) :

منطقة السواد	٩٥ ٥٨٠ ٠٠٠ درهم	عدا الامتعة والمنتجات
العينية في المناطق كافة		
منطقة كسروكور دجلة	٣٢ ٤٠٠ ٠٠٠ درهم	
منطقة حلبوان والأهواز	٢٩ ٨٠٠ ٠٠٠ درهم	
فارس وكرمان ومكران	٣١ ٦٠٠ ٠٠٠ درهم	
السندومايليها	١١ ٥٠٠ ٠٠٠ درهم	
سجستان	٠٤ ٦٠٠ ٠٠٠ درهم	
خراسان	٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم	
جرجان وقومس	١٣ ٥٠٠ ٠٠٠ درهم	

(١) اوجزنا القائمة بجمع مبالغها الى بعض وقد درس محمد ضياء الدين الرئيس هذه القائمة مع القائمة الأخرى التي أوردها ابن خلدون (ونقلها عنه عدد من الباحثين كالخضري وزيدان وحتى) ونسبها الى عصر المأمون وبين أنها هي نفسها قائمة الجهمشياري . ثم صحح الأرقام فيها بعد دراسة مستفيضة . وقد اتبعنا في القائمة التي نقدمها تصحيحاته (راجع كتاب الخراج والنظم الإسلامية - (طبع القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٦١) ص ٥٠٤ حتى ص ٥٢٠)

أما قائمة الجهمشياري الأصلية فهي في كتاب الوزراء والكتاب ما بين ص ٢٨١ فما بعد .

طبرستان والرويان ودبناوند	٠٠٠ ٣٠٠ ٠٦ درهم
الري	٠٠٠ ٠٠٠ ١٢ درهم
اصفهان وهمدان	٠٠٠ ٠٠٠ ٢٣ درهم
ماه البصرة والكوفة	٠٠٠ ٧٠٠ ٢٠ درهم
شهمزور وما يليها	٠٠٠ ٧٠٠ ٠٦ درهم
	(هي في الأصل ٢٤ مليون ٠)
	والتصحيح عن ابن خلدون ٠
الموصل وما يليها	٠٠٠ ٠٠٠ ٢٤ درهم
الجزيرة والفرات	٠٠٠ ٠٠٠ ٣٤ درهم
اذريجان	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٤ درهم
موقان ٠ الكرج ٠ جيلان ٠ أرمينية	٠٠٠ ٣٠٠٠ ١٣ درهم
قنرين والعواصم	٠٠٠ ٤٩٠ دينارذهبي
حمص	٠٠٠ ٣٢٠ دينارذهبي
دمشق	٠٠٠ ٤٢٠ دينارذهبي
الاردن	٠٠٠ ٠٩٦ دينارذهبي
فلسطين	٠٠٠ ٣٢٠ دينارذهبي
مصر (عدا تينس ودمياط والاشمونين)	٠٠٠ ٩٢٠ ٢ دينارذهبي
	(هي في الأصل ١٩ مليون ٠)
اليمن	٠٠٠ ٨٧٠ دينارذهبي
الحجاز	٠٠٠ ٣٠٠ دينارذهبي
برقة	٠٠٠ ٠٠٠ ١ درهم
افريقية	٠٠٠ ٠٠٠ ١٣ درهم

وإذا عرفنا أن سعر الدينار في ذلك الوقت هو ٢٢ درهماً (أو ١٥ درهماً كما يرجح بعض الباحثين) كان مجموع الخراج السنوي :

من الدراهم ٤٠٤ ٧٨٠ ٠٠٠
(عن الدنانير بسعر ٢٢ درهماً للدينار) ١٢٥ ٥٣٢ ٠٠٠ (أو ٨٥٠٥٩٠ ٠٠٠٠٠)
فمجموع خراج الدولة إذن في
عصر الرشيد هو بين : ٣١٢ ٠٠٠ ٥٣٠ درهم أو
٤٩٠٣٧٠٠٠٠ درهم

هذا دون حساب ائمان الأمتعة والعروض وفيها الحلل النجرانية والسكر والزبيب وماء الورد والعسل والتمر والفيلة والثياب والقرنفل والبخور والفضة والبراذين والرمان والشمع والعسل والرقيق والبزاق والبغال . وبعضها بأرقام كبيرة فمن زبيب الشام ٣٠٠ ألف رطل ومن عسل همدان ٢٠ ألف رطل ومثل ذلك من الموصل . ومن رمان قومس ٤٠ ألف رمانة ومن ثياب خراسان ٢٧ ألف ثوب ومن ماء الورد في فارس ٣٠ ألف قارورة ومن سفرجلها والرمان ٢٥٠ ألفاً ! وهذه البضائع في مجموعها لا تشكل رقماً هاماً وقد لا تزيد في الثمن عن ١٠ الى ٢٠ مليون درهم ويمكن اعتبارها نوعاً من هدايا الأقاليم ، فرضت عليها ليشارك الحاكم في معرفة انتاج ذلك الاقليم عن قرب .

ويمكن أن نضيف على هذه القائمة بعض الملاحظات :

١ - أن الخراج كان يقدر ويدفع بنوعي العملة المعروفين : الدرهم والدينار تبعاً لمنطقتي التعامل الفضي (في المشرق) والذهبي (في الشام ومصر واليمن) في الدولة العباسية لأن الدولة كانت ثنائية المعدن ونظامها النقدي مزدوج . والدرهم وزن من الفضة يعادل ١٠/٧ من وزن الدينار

أي يعادل قرابة ٣ غرامات (بالضبط ٢٩٧٥رغ) ويقسم الدرهم الى ستة دواق ويقسم الدائق الى قيراطين • والقيراط الى طسوجين والطسوج الى حبتين والحبة إلى فلسين • والفلس أصغر وحدات النقد •

وأما الدينار — فهو وزن من الذهب يسمى مثقالا ويعادل ٢٥رغراماً ويقسم بدوره إلى ستة دواق ذهبية كما انه يساوي ٧٢ حبة (وزن حبة الذهب ٠٠٥٩رغ) والدائق الذهبي ١٢ حبة •

ولعلنا نستطيع أن نعرف قيمة هذه النقود الشرائية إذا ذكرنا أن الكبش في أواخر عهد المنصور كان بدرهم وأن الزيت ستة عشر رطلا بدرهم والسمن بضعف ثمن الزيت والتمر ستون رطلا بدرهم • ولعلنا نستطيع أن نعرف السوية المعاشية إذا عرفنا مثلاً أن أجر الأستاذ من البنائين الذين عملوا حسب رواية الطبري في بناء بغداد كانت قيراطاً في اليوم وأن أجر الروزكاري (أي الفاعل العادي) كان بين الحبتين الى ثلاث حبات^(١) وذكر ان المنصور استكثر أن يدفع أجر يوم وبعض اليوم لرئيس البنائين خمسة دراهم يدخل فيها ثمن الأجر والجص الذي استعمله في بناء طاق شبيه بالبيت فما زال ينقصه حتى أعطاه أربعة !

٢ — أن قائمة الجهمشياري للخراج لا تمثل بالطبع موارد الدولة العباسية كافة • فإذا كانت كلمة خراج تعني بصورة أساسية الضريبة

(١) الطبري ج ٧ ص ٦٥٥ (٣/٣٢٧) ويذكر الخطيب البغدادي الخبر ذاته بشكل مماثل ويقول (ج ١ ص ٧٠) إن الأستاذ من الصناع كان يعمل يومه بقيراط إلى خمس حبات والروزجاري يعمل بحبتين الى ثلاث حبات ...» ويقول الطبري في خبر عن عيسى بن المنصور انه وجد في أوراق أبيه أن مبلغ ما انفق على بناء بغداد وجامعها وقصر الذهب والأسواق والفصلان والخنادق وقبابها وأبوابها (٤٨٣٣.٠٠) درهم ومبلغها من الفلوس مليار و ٢٣ ألف فلس !

على الأرض الباقية في أيدي أصحابها الأولين ، وكانت كلمة جزية (وهي في الأصل ضريبة الرؤوس أو خراج الرؤوس وتسمى أحياناً الجوالي) تدخل أحياناً كثيرة ضمن مصطلح الخراج لدى الفقهاء وكتاب الدواوين وكانت ضريبتها مندمجة في الغالب معها فهناك عدا ذلك أموال الأعشار وهي تحمل معنيين : وتشمل عشر الأراضي التي كانت في الأصل للعرب المسلمين أو أعطيت لهم عند الفتح كما تعني عشر التجارة التي تجبى في الموانئ وفي مداخل المدن على البضائع التجارية . وإذا كانت هذه الأعشار تدخل بدورها أحياناً ضمن اصطلاح الخراج الواسع فإن هناك إلى هذا وذاك : أموال الصدقات (الزكاة) التي حدد الشرع نسبتها ومصرفها . وهناك أخماس الغنائم (من الأسرى ، والسبي والارضين والأموال والعقارات) وهناك النفيء (من الأرض والعقار الذي يتركه العدو بسبب الفتح) وهناك المستغلات أي ما تدره (الصوافي) أملاك الدولة التي تؤجر للمستغلين وهناك الهدايا السنوية كهدايا النوروز وهناك موارد الركاز والمعادن الخبيثة المستخرجة والمواريث كما أن هناك أخيراً ما تدفعه بعض الدول المجاورة (من الهند والترك والخزر ومن الروم أيضاً) من أتاوات وجزية سنوية للدولة . وإن كانت هذه الموارد الأخيرة إنما تكثر وتقل أو تنقطع حسب مشاكل الدولة على الحدود وحسب قوتها فإنها كانت موجودة في عصر الرشيد والأمين^(١) .

(١) روي الطبري أن الناس غزوا في زمن محمد الأمين على أن يرد عليهم الخمس فرد عليهم فأصاب الرجل ستة دنانير (٨ ص ٥٢٤) فإذا كان عدد المقاتلين خمسين ألفاً فمبلغ القيمة مليون ونصف مليون دينار في غزوة واحدة .

٣ - يلاحظ في القائمة ذلك الارتفاع الكبير في رقم خراج السواد: إنه يكاد يعدل وحده خمس خراج الدولة كلها . ولا شك أن السبب في ذلك يعود إلى عدد من العوامل :

الأول : توفر الاسباب الكافية لاستغلال الأرض وإحياء مواتها سواء من حيث المال الذي كان ينصب من أنحاء الدولة على العراق ويعني أهله بعد أن أصبح مركز الخلافة أو من حيث الايدي العاملة من الفلاحة والزراعة إذ توسع الاقطاعيون في استخدام الآلاف المؤلفة من الزنج في العمل الزراعي ... كآلات المملوكة ، لا سيما بعد أن هرب الفلاحون (النبط) من معظمها وتجمعوا في المدن .

الثاني : توسع النشاط التجاري بشكل لم يعرفه تاريخ المنطقة من قبل حتى أضحت طريق العالم وأصبحت البصرة كما يقولون «مشرفة الدنيا» وهذا ما زاد في الثروات بشكل واضح كما زاد في استثمارها وفي مردودها الاتاجي .

الثالث : تكاثر السكان في العراق فقد اجتذبت الخلافة واستقطبت بغداد والبصرة والكوفة رجال الدنيا في الفكر والادارة والأدب والعمل والتجارة والقيادة مما جعل الحياة الاقتصادية تبلغ حدها الأقصى في النشاط .

الرابع : ولا يقل عن غيره من العوامل شأننا هو عناية الخلفاء بأعمال الري في السواد . لقد ذكر أبو يوسف ضرورة سهر السلطان على صيانة السدود وسد البثوق . ولم يكن خلفاء بغداد بعيدين عن تبني هذه السياسة لما يلمسون من آثارها المباشرة في ثروة الدولة والخراج . وقد عمل المنصور على تنظيم جداول الري والترع في السواد من مياه الفرات ودجلة ومد قناة دجيل (من مياه دجلة) كما فتح

قناة أخرى من كرخايا الذي يأخذ ماءه من الفرات ووصلهما بمدينة بغداد في عقود محكمة من حجر الكلس والآجر • فكان ماء كل قناة منها يدخل المدينة وينفذ في الشوارع والدروب والارباض ولا ينقطع صيفاً ولا شتاء • وأنفق المهدي بدوره اموالا طائلة في حفر نهر الصلة قرب البصرة • وحفر الرشيد عدداً من الأنهار في العراق منها نهر القاطول ونهر أبي الحيل وأنفق عليه عشرين مليون درهم ٠٠٠

٤ - يكشف رقم القائمة بصورة خاصة مدى ثروة الأرض الزراعية في الدولة ومقدار انتاجها كما يعبر عن قوة أجهزة الجباية ومدى ارتباطها بالسلطة المركزية ومدى سيطرة هذه السلطة عليها • ولعل بالإمكان على أساس أرقام القائمة تكوين فكرة تقديرية عن عدد السكان في ذلك العهد • في كل اقليم تجعل مجموعهم لا يزيد عن ٣٥ إلى ٤٠ مليون نسمة^(١) •

٥ - يمكن تقدير الدخل العام لمجموعة الشعوب الداخلة في إطار الدولة العباسية بمبلغ لا يقل من الزراعة وحدها عن ضعف موارد الدولة من الخراج أي بحوالي ألف مليون درهم باعتبار أن نظام المقاسمة كان يعطي السلطات نصف الانتاج الزراعي وإذا كان ثمة أراض تدفع أقل من ذلك فهناك عمليات التهرب من الخراج وهناك ما يختلسه العمال الجباة فيما بين اخذ الضريبة من المكلف وما بين إيصالها إلى الخزنة المركزية • • • ولعلنا نستطيع أن نضيف الى مبلغ الألف مليون درهم

(١) هذا الرقم تقديري على أي حال وقد يكون فيه الكثير من الخطأ ولكنه نتيجة حساب معقد أدخلنا فيه عدداً من العوامل المتعلقة بعدد المكلفين وعدد العائلات الوسطى ومقدار النفقة اليومية ونسبة الضريبة إليها وأجر العامل اليومي وغير ذلك •

مقدار نصفها أيضاً لمقابلة الدخل العام في التجارة وفي الأعمال الصناعية والحرفية والتعدينية •

٦ - ذكر آدم متر أن الأسرة العادية في عهد الرشيد كان في مكنتها أن تعيش في دخل لا يتجاوز ٣٠٠ درهم في السنة • وأن الأسرة التي كان دخلها نحواً من ٧٠٠ دينار في السنة كانت تعتبر أسرة ثرية اقرب إلى الطبقة الممتازة منها الى الوسطى وإذا صح الرقمان فإنهما قد يدلان على مستوى المعيشة الذي استطاع الخلفاء العباسيون تأمينه للرعية ذلك العصر •

هـ - بدء الانهيار المالي : غير أن هذه القمة في جباية الخراج ومركزيته وانصبابه في بغداد والعراق لم تدم طويلاً : وقد عاد الخط البياني للجباية فأنحسر بعد عهد الرشيد مباشرة كما أن مركزيته بدورها قد ضعفت باضطراب الولايات وبظهور السولاة المسيطرين في الأقاليم الذين ما لبثوا أن انقطعوا في ولاياتهم مقابل مبلغ مقطوع يؤدونه سنوياً لخزانة الخلافة •

وقد بدأ هذا كله أيام فتنة الأمين والمأمون • وأول ما كان من الأمر ذهاب المأمون بخراج خراسان والكور التي أضيفت إليها وهو أكثر من أربعين مليون درهم ثم تبارى الأخوان في تألف قلوب الناس بالاتفاق في التجهز للحرب • وبينما أمر الأمين للجند يوم خلافته برزق أربعة وعشرين شهراً أعطى المأمون للجند رزق اثني عشر شهراً عدا ما أعطى للناس من المال وخفض خراج خراسان بمقدار الربع • وحين سير الأمين جيشه بقيادة على بن عيسى بن ماهان ضد أخيه أمر له من صلب ماله بثلاثة ملايين درهم وحين انتصر المأمون جعل لوزيره الفضل بن سهل عمالة ثلاثة آلاف ألف درهم أيضاً ! •••

ثم انخفضت الموارد لدى الأخوين على السواء فبينما : «تفرق ماكان في يد (الأمين) من الأموال» لا سيما مع اسرافه الذي بلغ حد اتفاق ثلاثة ملايين درهم في بناء حراقة بنهر دجلة وقل ماله حتى انه عند حصار بغداد «... أمر ببيع كل ما في الخزائن من الأمتعة وضرب آنية الذهب والفضة دنائير ودراهم» لينفق منها على «أصحابه وفي نفقاته - كما يقول الطبري -» نجد بالمقابل أن جيش المأمون الحاصر لبغداد وصل الى الحالة نفسها ولم يبق بيد قائده طاهر بن الحسين مال للجند «فضاق به أمره ... ووثب الجند به مطالبين بالأرزاق فأحرقوا بابي الأنبار والبستان وشهروا السلاح ..» حتى «أقرضه رجل من بغداد عشرين ألف دينار فأمر طاهر للجند برزق أربعة أشهر فرضوا ...» . صحيح أن المأمون أعطي من جاءه برأس الأمين ألف ألف درهم ولكنه حين جاء بغداد سنة ٢٠٤ لم يكن معه إلا خمسون ألف درهم ^(١) على أن بغداد نفسها كانت قد دمرت وخربت أحيائها وانقطع ذلك السيل من الذهب الذي كان يردّها من افريقيا ومصر والشام واليمن والجزيرة بسبب انقطاع هذه الأقاليم وثوراتها المحلية فلم يعد بعد ذلك قط وإلا في جانب منه ...

وقد بلغ من فقر الخلافة ببغداد أن هذا البلد حين بايع ابراهيم بن المهدي لهذا المنصب مطلع سنة ٢٠٢ لم يجد الخليفة الجديد في خزائنه ما وعد به الجند من أرزاق ستة أشهر فشغبوا عليه فأعطى كل رجل منهم مائتي درهم وكانوا حوالي مائة ألف أو أكثر قليلا فلما نفذ المال حول

(١) انظر في هذه الاخبار كلها الطبري ج ٨ ص ٤٤٦ (٨٦٩/٣)

وص ٤٩٦ (٩٣٤/٣) ص ٤٨٨ (٩٢٥/٣) وص ٥٧٥ (١٠٣٨/٣)

بعضهم على السواد لأخذ قيمة ماله حنطة وشعيراً فخرجوا في قبض ذلك ولم يبروا بشيء إلا اتهبوه ! (١) •

أما أشد ما أصاب النظام الإداري المالي فهو إحراق الدواوين (٢) وسجلاتها خلال الفترة سنة ١٩٧ ١٩٧ فإن ذلك مع فتن الأقاليم قد شل الآلة المالية العباسية تمام الشلل • فلم تعاود هذه الآلة عملها إلا حين وصل المأمون بغداد وبدأ تنظيم أمر الخراج من جديد سنة ٢٠٤ «وهي - كما قال قدامة بن جعفر - الكاتب المعاصر - أول سنة يوجد حسابها بالدواوين» •

أراد المأمون أن يتألف قلوب أهل السواد الذين حل بين أظهرهم فأمر في سنة ٢٠٤ نفسها «بمقاسمة أهل السواد على الخمسين وكانوا يقاسمون على النصف» (٣) وكان وهو في الطريق إلى بغداد سنة ٢٠٣ قد أسقط عن أهل الري ألفي ألف درهم من الوظيفة (٤) (الخراج السنوي) واتخذ القفيز الملجم (وهو عشر مكاك) كيلاً مرسلًا لأنه على ما يبدو أصغر من القفيز الهاشمي الذي كان أمر به المنصور في الكيل الخراجي • غير أن هذه السياسة المأمونية كانت تتصل بأقطار معينة وبظروف معينة أيضاً لأن نجد بالمقابل أن المأمون حين توطدت خلافته عاد إلى السيرة القديمة وإلى التشدد في جباية الخراج ولدينا من ذلك مثال : أهل قم من بلاد الجبل الذين «استكثروا ما عليهم من الخراج» وكان

(١) الطبري ج ٨ ص ٥٥٧ (١٠١٦/٣)

(٢) قدامة بن جعفر - نبذة من كتاب الخراج (نشر دي غوية - ليدن.

سنة ١٨٨٩) ص ٢٣٧ وقد صحح الناشر تاريخ الاحراق من سنة ١٨٣ إلى سنة ١٩٧

(٣) الطبري ج ٨ ص ٥٧٦ (١٠٣٩/٣)

(٤) المصدر نفسه ص ٥٦٨ (١٠٣٠/٣)

خراجهم ألفي ألف درهم فأرادوا المأمون أن يخفف عنهم كما خفف عن أهل الري ... فلم يجبههم إلى ماسألوا فامتنعوا من أداء الخراج سنة ٢١٠ فوجه إليهم المأمون جيوشاً فحاربهم «وهدم سورهم وجباها سبعة آلاف ألف درهم بعد أن كانوا يتظلمون منه ألفي ألف درهم» (١) .

والمثال الآخر في مصر : فإن هذا البلد استمر على سيرته في الثورة على الظلم الخراجي التي عرفها في عصر المهدي والرشد . فقد ثار سنة ٢١٤ على ظلم والي الخراج صالح بن شيرازاد . (نائب أبي اسحق شقيق المأمون وهو المعتصم) الذي ظلم الناس وزاد عليهم في خراجهم وقد هزموا عدداً من الجيوش وقتلوا بعض القواد حتى جاء أبو اسحق بنفسه من بغداد فحاربهم وأسر بعض وجوههم فرحل بها الى العراق... (٢) ولكن «أسفل الأرض - كما قال المقرئزي - (أي الدلتا) انتقض بأسره : عرب البلاد وقبيلها سنة ٢١٦ وأخرجوا العمال وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيهم...» (٣) وبالرغم من أن الافشين عاد من برقة فأوقع مع الوالي عيسى بن منصور الراققي بالثائرين إلا إن المأمون لم يجد مناصاً من زيارة مصر بنفسه فلما لمس الظلم الخراجي أمر بحل لواء عيسى الراققي الوالي وقال : لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس مالا يطيقون وكستني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد...» (٤) .

ولكن هذا كله لم يمنع من إخماد الثورة نفسها وتنظيم الخراج

(١) الطبري ج ٨ ص ٦١٤ (٣/١٠٩٢ - ١٠٩٣)

(٢) المقرئزي - الخطط ج ١ ص ٨١ و ص ٣١١

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٨١

تنظيماً واسعاً — على ما يظهر — زادت به مقاديره أيام المأمون حوالي ٥٠٪ عما كانت عليه زمن الرشيد فإن المقرئ يذكّر : أن خراج مصر «بلغ في أيام المأمون على حكم الانصاف في الجباية أربعة آلاف آلاف دينار ومائتي ألف وسبعة وخمسين ألف دينار» بمعدل دينارين عن كل فدان^(١) .

وبرغم هذه السياسة المالية المتشددة فإن مبلغ الخراج العام قد نقص على ما يظهر فإننا نجد مثلاً أن السند التي كانت تعطي الدولة قرابة ١٢ مليون درهم في السنة تولاهما سنة ٢٠٥ داوود بن يزيد المهلبى على أن يعطي كل سنة ألف ألف درهم فقط ثم عصى وخالف ولم يحمل إلى المأمون شيئاً من الخراج . كما أن الفتن في مصر وفي اليمن وفي الجزيرة وفي الشام وانقطاع المغرب على أيدي الأدارسة وأفريقية على أيدي الأغلبية انقطاعاً تاماً كان من شأنه دون شك أن ينزل بالموارد المالية للدولة نزولاً كبيراً . في الوقت الذي لم يكن فيه المأمون بأقل اسرافاً في الاتفاق من أبيه وأخيه . كانت نفقاته اليومية في القصر — ستة آلاف دينار — كما يروي ابن الطقطقي^(٢) فيكون في السنة ٢١٦٠ ٠٠٠ دينار أي أكثر من ٤٧٥ مليون درهم . وقصة عرس بوران مشهورة بما كان فيه من بنادق المسك والرقاع بالضياع والعقار والبدر بعشرات ألوف الدنانير وشموع العنبر والحصير المنسوج بالذهب وحصى الياقوت . وبالرغم من أن المأمون في سنواته الأخيرة قد واجه إفلاس الخزانة فإنه ظل على الاسراف يروون أن المأمون حين كان في دمشق «كان قد قل

(١) المقرئ الخطط ج ١ ص ٨١ وص ٩٩ وانظر كذلك الكندي —
الولاة والقضاة ص ١٨٥

(٢) ابن الطقطقي — الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٠٧

المال عنده حتى ضاق» «وكان أمر في يوم واحد لثلاثة نفر بألف ألف وخمسمائة ألف دينار • فجمع أصحابه وقال : ••• استقرضوا لنا من التجار عشرة آلاف ألف درهم •••» ورفض ما قدمه له رجال الحاشية^(١) وشكا قلة المال الى أخيه أبي اسحق (المعتصم) فقال له : يا أمير المؤمنين كأنك بالمال قد وافاك بعد جمعه ••• وكان حمل إليه ثلاثون ألف ألف من خراج ما يتولاه له ••• فلما ورد عليه ذلك المال ••• خرج المأمون وأصحابه حتى أصبحروا ووقفوا ينظرونه «وقد حليت أباعره وألبست الاحلاس الموشاة والجلال المصبغة وقلدت العهن وجعلت البدر بالحرير الصيني الأحمر والأخضر والأصفر وأبدت رؤوسها •••» فقال المأمون لقاضيه المرافق له : ينصرف اصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة خائبين إلى منازلهم وتنصرف بهذه الأموال قد ملكناها دونهم ؟ إنا إذن للثام» ثم دعا (المأمون) بكاتبه فقال وقع لآل فلان بألف ألف ولآل فلان بمثلها ولآل فلان بمثلها ••• قال راوي الرواية : فوالله إن زال كذلك حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف درهم ورجله في الركاب ثم قال : ادفع الباقي إلى المعلى (قائده) يعطي جندنا ! •••^(٢)

ويبدو أن المأمون كان يشتري رضى الناس بالمال وقد عبر عن ذلك في الشام نفسه في تلك الفترة إذ تعرض له رجل من أهل الشام يقول : يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان فقال : أكثر علي يا أخا أهل الشام والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد^(٣) •••

(١) اليعقوبي مشاكلة الناس لزمانهم ص ٢٩

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٧ والطبري ج ٨ ص ٦٥٢ - ٣ (٢/١١٤٣)

. (١١٤٤)

(٣) الطبري ج ٨ ص ٦٥٢ (٣/١١٤٢)

على أن هذه السياسة وإن سمحت للمأمون بالوصول إلى الخلافة والاستقرار فيها إلا إن عهده من الوجهة المالية كان عصر خسران مالي متباد وإذا دفعت الدولة غالباً ثمن وصوله إلى الخلافة فقد كلفها المأمون غالباً فيما بعد في محاولاته جمع القلوب حوله . والوجه الآخر للقضية لا يعني أن المال قد توفر لجماهير الناس وبقي لهم ولكن يعني أن أموال الخراج لم تعد تجبي من الآفاق تصب كلها في خزانة مركزية واحدة . بل تفرقت في معظمها على خزائن المتسلطين الذين ظهرُوا في الأقاليم المختلفة وكان هذا ، في الواقع بدء الانفصال والتفكك السياسي في الدولة .

ولعل فقر الخزينة زاد أيضاً مع كثرة الحروب ضد الروم في السنوات الأخيرة من عهد المأمون مما دعا إلى اتخاذ بعض الاجراءات المالية التعسفية سنة ٢١٧ ومن بينها مثلاً جباية ضريبة الخراج كلها يوم الاستحقاق (الاستفتاح) . وقد كانت تجبي من قبل على هون خلال السنة . وقد احتج على ذلك أهل الموصل وخرجوا إلى لقاء المأمون بالرقعة وقالوا : إنهم شرطوا للرشيء أن يؤدوا «خراج سنة في سنة» واستخرج الشرط فلما وجد المأمون صحة ذلك قبله منهم^(١) ولكن هل كان لدى الأقاليم الأخرى مثل هذا الشرط ؟

ولعل من تلك الإجراءات أيضاً ما أمر بالقيام به في الشام حين وصل دمشق سنة ٢١٦ من «تعديل» الأراضي أي إعادة مساحتها وإعادة فرض ضرائب الخراج عليها وبالرغم من أن مشكلة الأرض الخراجية وظلم ضرائبها والتعسف

(١) ابن عساكر - تاريخ دمشق (التهذيب) ج ٤ ص ١٠٧ - ١٠٨

وابن عساكر يخطئ في تاريخ وصول المأمون الى دمشق فيجعله سنة ٢١٤ والصحيح أنه كان سنة ٢١٦ لأن المأمون غادر بغداد سنة ٢١٥ .

في جمعها كانت بين الأسباب الأساسية في ثورات الشام إلا إن المأمون لم يقصد إلى ذلك بقدر ما قصد إلى إيجاد موارد أخصب للخزانة . وهكذا استقدم أولاً بعض رؤساء أهل الجزيرة والموصل والرقّة فقدم جماعة من بينهم حرب بن محمد بن علي الموصلّي الطائي وسفيان بن عبد الملك الخولاني ولكنهم استعفوه فاجتلب لتعديل الشام مساحي العراق والاهواز وأقام بدمشق تلك السنة حتى أقر التعديل قبل أن يمضي إلى مصر . ولعل من الإجراءات المتأخرة التي تمت أيضاً فيما بعد ، في عهد المتوكل أو بعده بقليل أن الخلافة جعلت الأساس في دفع الخراج الذهب بدل الفضة . أي أنها حسب الدراسة التي نشرها المستشرق كريمر «استخدمت عوضاً عن الأساس الفضي أساساً ذهبياً في القرن التاسع . وبعد أن كانت الضرائب (من خراج وجزية وعشر ومكس ... الخ) تحصل من الأقاليم الشرقية بالدرهم الفضية (باعتبار أن الدولة ثنائية المعدن) تحول الحساب بالدينار الذهبي . ولم يحل الدرهم محل الدينار (مرة أخرى) إلا بعد ذلك ...»^(١) ولهذا معناه الواضح فإن سعر الصرف الذي كان في مطلع العصر العباسي بحوالي ١٢ درهماً لكل دينار وصار في عهد الرشيد ١٥ درهماً للدينار صار في أواخر القرن الثالث ومطلع الرابع ٢٢ درهماً وهذا ما جعل نسبة خراج الدولة في المناطق الفضية (الشرقية) الدافعة بالدرهم يصبح قرابة النصف في القيمة بالنسبة للمناطق الذهبية (الغربية) الدافعة بالدينار ... وهذا وجه من وجوه زيادة الخراج على الناس ... وهم لا يشعرون !

وإذا كان الاضطراب المالي هو في العادة من النذر والاسباب الأولى في القلق السياسي لكل نظام حكم فقد عبر هذا الاضطراب عن نفسه وكشف عن نتائجه في عصر المعتصم ومن بعده .

(١) فازيليف - العرب والروم ص ١٨

٣ - المؤسسة العسكرية العباسية (الجيش)

يلاحظ المستشرق غرونباوم أن الحضارة الإسلامية - رغم الطابع العسكري للدولة - كانت حضارة مدنية • والنماذج الانسانية التي اجتذبت معظم طاقة الاسلام الخلاقة لم تكن نماذج عسكرية ولكن نماذج العالم والأديب والتاجر وكان المدني فيها يتقدم دوماً على الجندي في تركيب الطبقات الاجتماعي • ورغم تولي الجند - كطائفة - حكم الدولة وظيفه مدنية • والخليفة أو الأمير ليس بقائد عسكري إلا عند الملهمات ...^(١) وصواب الملاحظة لا يعني أن الجهاد وعملية الدفاع والنماذج العسكرية الرائعة لم تكن في أركان الحضارة الإسلامية وفي أساس تكوينها أو أن المؤسسة العسكرية ليست في الدور الحضاري بمنزلة المؤسسات الأخرى •

وإذا تجاوزنا أيام الفتوح والأيام الأموية فإن أساس قيام دولة بني العباس يعود إلى نجاح هذه الاسرة في تكوين جماعة عسكرية لها وتحمل مع المبادئ الاسرة نفسها إلى العرش • لقد جاءت الى الحكم ومعها قوتها العسكرية الجاهزة المعتمدة على إقليم واسع غني الموارد كثير السكان أعمى الولاء •

وقد كان الجيش العربي ، منذ العهد الأموي قد باعدت المسافات الجغرافية من جهة والزمانية من جهة أخرى بينه وبين قبائله ودخلت عليه لأساليب في القتال جديدة فقط ولكن كذلك عناصر مقاتلة جديدة من أبناء البلاد المفتوحة (بربر • ايرانيين) ومصالح جديدة • وجاءت

(١) انظر غرونباوم : حضارة الاسلام (ترجمة عبد العزيز جاويد - القاهرة الألف كتاب) ص ٣٠٤ - ٣٠٥

الحركة العباسية فاخترت خراسان ، وأهل خراسان جنداً لها فكان نجاحها كافياً لتحويل هذه المنطقة إلى خزان عسكري استمر يعطي الدولة العباسية قرابة القرن حاجتها الأساسية من الجند . كان «أهل خراسان» منذ قيام الدولة على الأقل حتى نجاح المأمون في دخول بغداد هم المصطلح الذي يعني العمود الفقري للجيش العباسي والقوة العسكرية والسياسية لبني العباس .

ومع ذلك فإن العباسيين اضطروا ، منذ الأيام الأولى لتوطيد الحكم وإخماد الثورات إلى الاعتماد على جماعات عسكرية أخرى . جندوها لقضيتهم من العرب . وهكذا بدأت الدولة العباسية ولديها جيشان :

الأول - جيش جغرافي الولاء جديد التكوين حققت به الثورة ومع أن الكثرة الواضحة فيه كانت في البدء وفي أيام الثورة . عربية إلا إن اسمه كان «خراسانياً» ، وتكوينه كان يزداد يوماً بعد يوم اصطفاً بالصبغة الإيرانية سواء في العدد أو في الولاء . وكان هذا هو الجيش النظامي الوحيد ، والدائم ، والمركزي والمحترف وله الديوان والرواتب . ويتبع هذا الجيش مجموعات من المرتزقة . أو من المطوعة للجهاد من كل جنس .

الثاني - جيش قبلي عربي تقليدي التحق بالأول فيما بعد أعداده كبيرة ولكنه كان استمراراً للجيوش الأموية العربية التي كانت تقوم بالفتوح والحروب عند الحاجة . ولها الأعطيات التقليدية وحصصها من الغنائم وتقودها الأرستقراطية العربية ذات الأصل البدوي والمستقرة في الأمصار .

على أننا لو انتقلنا مرة واحدة إلى نهاية العصر العباسي الأول

لوجدنا الأمر مختلفاً جداً . فقد كان هناك جيش من خمس فرق . وقد جاء في كلمة للجاحظ كتبها في عهد المعتصم : «إن جند الخلافة اليوم على خمسة أقسام : خراساني وتركبي ومولى وعربي وبنوي . . .»^(١) وفي حديث بين المازيار والأفشين أثناء المقابلة التي جرت لهما أمام المتوكل وهما في أسره سنة ٢٢٥ يقول المازيار إن شقيق الأفشين كتب لهم يحثهم على الثورة قائلاً ان خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيري (أي الجيش الخراساني) ومعني الفرسان وأهل النجدة والبأس فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة : العرب والمغاربة (جيش مصر) والأتراك^(٢) . . . وهذا وذاك يعينان أن تحولات جذرية وخطيرة أصابت المؤسسة العسكرية العباسية ما بين عهد أبي العباس سنة ١٣٢ وعهد المتوكل بعد قرن منه سنة ٢٣٢ - ٢٤٧ والخطوط الأساسية لهذه التحولات نجملها في النقاط التالية :

١ - في تكوين الجيش :

تطور تكوين الجيش خلال العصر العباسي الأول ماراً بثلاثة أطوار: كان قبلياً في كتلته الكبرى أول الأمر ثم تحول لتصبح كتلته العامة من المرتزقة ومحترفي الجندية ثم انتهى بأن أصبحت الكتلة المسيطرة فيه ، في خاتمة الفترة . من الممالك وأنا لنلاحظ ذلك من خلال سيرة مختلف الفرق المكونة للجيش :

الخراسانية :

الخراسانية : الواقع أن الأسرة العباسية وصلت العراق وأعلنت

(٢) الطبري ج ٩ ص ١٠٩ (٢/١٣١١ - ١٣١٢)

(١) رسائل الجاحظ (دار النهضة بيروت) ص ٢١ (في رسالة مناقب

الترك وعامة جند الخلافة) .

مخلافاتها على أكتاف الجيش الخراساني كان قوتها الضاربة الصلبة •
وكان جيشاً مختلط التكوين • العناصر العربية فيه هي الغالبة ولكنه كان
يحتوي عناصر إيرانية كثيرة • وما لبث هذا الجيش بسبب انتصاراته من
جهة وحاجة الدولة الناشئة إليه من جهة أخرى وبسبب ولاء قياداته
للأسرة الجديدة من جهة ثالثة أن أصبح جيشاً دائماً • ولما كانت إقامة
الأسرة في العراق فقد أضحى هو الجيش المركزي حولها • ولم تمض
فترة من الوقت حتى اضطر الخلفاء الأوائل لتنظيم هذا الجيش : جعلوا
له الديوان • وأجروا عليه الرواتب المنظمة أي تحول الى جيش نظامي
مرتزق • وقد حافظ ابو العباس ثم المنصور والمهدي على وحدة هذا
الجيش ، ككتلة عسكرية جغرافية واحدة • فإنه منذ مطلع تكوينه لم
يسجل على الاساس القبلي ولكن على أساس المدن والقرى الخراسانية •
حتى قواده كانوا يحصلون في ذيل نسبهم العربي النسبة الجغرافية واسم
البلد الذي ينتمون إليه من مروزي • وكرماني • وبلخي • وطوسي ،
وتفكيك الرابطة القبلية فيما بين أفراد هذه المجموعة المحاربة كان
إقراراً بأمر واقع هو أن هذه الجماعة العربية قد اضطبغت • مع الإقامة
الطويلة • في خراسان بالصبغة الإيرانية وتوطنت واتخذت الزوجات
والتقاليد الفارسية والولاء للأرض • فعودتها الى العراق كانت غربة
أخرى • وقد استفاد العباسيون من ذلك التفكك القبلي ومن هذه
الغربة معاً فربطوا ولاء هذه الجماعة ربطاً كاملاً بهم فكان الخراسانية
كما قال ابن المقفع في وصفهم «جنداً لم يدرك مثاهم في الأسلاء
أهل بصر بالطاعة • وفضل عند الناس • وكف عن الفساد وذل للولاة
فهذا حال لانعلسها توجد عند أحد غيرهم» (١) •

(١) انظر ابن المقفع رسالة الصحابة (في رسائل البلغاء لمحمد كردعلي

— طبعة البابي سنة ١٩١٣) ص ١٢١

ونستشف من خلال رسالة الصحابة لابن المقفع أن تنظيم هذه الجماعة وتحويلها الى جيش مركزي محترف دائم مر ببعض المراحل وأنه تم بعد سنة ١٤٠ - ١٤٣ كما نستخلص منها ، بعض أحوال الخراسانية في عهدهم الأول ومنها ، أن الخلفاء استخدموا بعضهم في جباية الخراج وأن الكثير من قادتهم لم يكونوا من الأكفاء ولكن ارتباطهم بالدعوة هو الذي رفعهم وأن أرزاقهم لم تكن منظمة المواعيد ولا كان لهم ديوان منظم فكانوا يشتكون . وكانوا جهالاً أو محدودي الثقافة والعلم بالدين مسرفين الاسراف الواسع بسبب كثرة ما تغدقة عليهم الدولة . ولعل ما هو أهم من هذا وذاك أنهم كانوا يناقشون مشكلة الولاء والطاعة أو أن بعضهم على الأقل كان يناقشها ويتساءل : عن المدى الذي يجب أن يقف عنده في طاعة بني العباس ؟ والسبب هو «أن في ذلك القوم أخلاطاً من رأس مفرط غالٍ ، وتابع متحير شاك» فلا مبدأ يجتمعهم وولاؤهم معرض للاهتزاز وفيهم من يقول أن لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق . ومن يقول إن الله جعل ما سوى ذلك من الأمر والتدبير الى الرأي وجعل الرأي الى ولادة الأمر وليس للناس في ذلك الأمر شيء ! فكان العباسيين كانوا ، في نوع من الدعاية المنظمة ضمن هذه المجموعة العسكرية ، يعملون على تلقينها ضرورة الطاعة الكاملة على أساس ديني ومنطقي . . . وقد نصح ابن المقفع للمنصور في أمرهم : (١) بأمور :

أول ما نصح به ضرورة إيجاد «عقيدة» معينة ثابتة تجمع أفكار

(١) في النصوص التالية انظر ابن المقفع - رسالة الصحابة (المصدر السابق) ص ١٢١ - ١٢٤ (وانظر كتاب أبي حنيفة عن ابن المقفع ص ١٥٤ - ١٦٣) .

الجماعة الخراسانية • فإن فيها بلبلة في الرأي قد يضيع معها الولاء
العباسي •

«... ومن كان إنما يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة
في الرأي فهو كراكب الأسد الذي يوجل من رآه والراكب أشد وجلاً •
فلو أن أمير المؤمنين كتب أماناً معروفاً بليغاً وجيزاً محيطاً بكل شيء يجب
أن يعملوا فيه ويكفوا عنه • يحفظه رؤسائهم حتى يقودوا به دهماءهم
لكان ذلك إن شاء الله لرأيهم صلاحاً • فإن كثرة المتكلمين من قواد أمير
المؤمنين إنما عامة كلامهم فيما يأمره الأمر ويزعم الزاعم...» •

وينصحه «...» لصلاح هذا الجند ألا يولى أحداً منهم شيئاً من
الخراج فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة لأنهم... إذا كانوا جلاباً
للدراهم والدنانير اجتروا عليها وإذا وقعوا في الخيانة صار أمرهم
مدخولاً : نصيحتهم وطاعتهم • فإن حيل بينهم وبين (ذلك) أخرجتهم
الحمية... مع أن ولاية الخراج داعية الى ذلة وحقيرة وهوان وإنما
المقاتل منزله الكرامة واللفظ...» •

- تقدير الأكفياء «أن منهم من المجهولين من هو أفضل من بعض
قاداتهم فلو التمسوا واصطنعوا كانوا عدة وقوة وكان صلاحاً لمن فوقهم
من القادة ومن دونهم من العامة» •

- تشقيفهم : «...» ومن ذلك تعهد أدبهم في تعلم الكتاب والسنة
والأمانة والعصمة وأن يظهر فيهم القصد والتواضع... حتى يعلموا أن
معروف أمير المؤمنين محظور عن يكتنزه بخلاً أو ينفقه سرفاً في العطر
واللباس والمغالاة بالنساء والمراتب...» •

- تنظيم الرواتب : «ومن ذلك أمر أرزاقهم وأن يوقت لهم أمير
المؤمنين وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ما بدا له • وأن

يعلم عامتهم العذر الذي في ذلك من إقامة دواوينهم وجمل أسمائهم ويعلموا الوقت الذي يأخذون فيه . فينقطع الاستياء والشكوى ... وإن الكلفة الواحدة تخرج من أحدهم في ذلك أهل أن تستعظم وإن باب ذلك جدير أن يحسم . مع أن أمير المؤمنين قد علم كثرة أرزاقهم وكثرة المال الذي يخرج لهم» .

— **مراقبة الجند :** «...» ومن جماع الأمر وقوامه أن لا يخفى على أمير المؤمنين شيء من أخبارهم وحالاتهم وباطن أمرهم بخراسان والعسكر والأطراف . وأن يحتقر في ذلك النفقة ولا يستعين فيه إلا بالثقات النصاح فإن ترك ذلك وأشباهه أحزم بتاركة من الاستعانة فيه بغير الثقة» .

وعلى أي حال فقد أخذ الجيش الخراساني كامل مظاهر الجيش النظامي خلال عهد المنصور : صار له الديوان والرواتب المحددة الجيدة تدفع في أوقاتها وله القواد المحترفون وله الملابس الخاصة التي وضعها الخليفة كزي للجند مما جعل «الجندية» حرفة ممتازة في خراسان يقبل عليها أبناء العرب والایرانیون على السواء ويقبلون فيها . وزاد في توسع هذه الفرقة ما منحها الخلفاء من تفوذ سياسي في الدولة . فإنهم في الوقت الذي كانوا فيه يعتزون بها ويرهبون بها الأعداء كانوا يصبحون أسرى لها ، ولما قد تريد من الاتجاه السياسي . إن اسم «أهل خراسان» ورضى أهل خراسان وما يقولونه أو ما يكون عليه موقفهم كان الهاجس الأساسي في الأزمات السياسية التي كان يمر بها البيت العباسي كأزمات ولاية العهد . بل إن عم المهدي جاء مرة يحذره مغبة تقديمه الموالي لأن يغضب أهل خراسان ! الذين اتخذوا لأنفسهم عدداً من الاسماء تكشف دالتهم ومكائتهم فهم «الشيعة» وهم «أنصار الدولة» وهم «القواد» و «أهل الدعوة» ... الخ .

وحين بنيت بغداد أقطع المنصور القطائع فيها ومن حولها لرؤساء الخراسانية من أمثال حميد بن قحطبة الطائي الطوسي وعبد الملك بن يزيد العتكي الجرجاني والفضل بن سليمان الطوسي وعبد الجبار الأزدي ... وحرب بن عبد الله البلخي الراوندي . كما جعل معسكراتهم حول المدينة وكان هذا كافياً كي يتوطن هؤلاء حيث أقاموا فلم يفسد كبير وقت حتى خرج منهم «الأبناء» الذين ورثوا عنهم الولاء العباسي ، وبغداد ، وحرفة الجندي . وصارت كلمة «الأبناء» منذ عهد الرشيد وما بعده علماً على الجيل الثاني والثالث والرابع من نسل الخراسانية في العراق والذين صاروا بدورهم فرقة من الجيش العباسي . يفخر أحدهم كما – قال الجاحظ – بقوله : «أنا أصلي خراسان وهو مخرج الدولة ... وفرعي بغداد وهي مستقر الخلافة وفيها بقية رجال الدعوة وأبناء الشيعة وهي خراسان العراق وبيت الخلافة ...» و«البنوي خراساني وإن نسب الأبناء نسب آبائهم وإن حسن صنيع الآباء هو حسب الأبناء ...»^(١) .

على أن خراسان ظلت خلال ذلك ترسل الجنود المرتزقة إلى بغداد وإذا انفصل «الأبناء» في فرقة خاصة فإن اسم الفرقة «الخراسانية» و «أهل خراسان» لم يغب من فرق الجيش وكانت الفرقة تتجدد بمن يأتيها من خراسان متوسلين بسابق الولاء والرابطة . وفي إطار هذه الوسيلة استطاع الفضل بن يحيى البرمكي أن يؤسس في خراسان سنة ١٧٩ – ١٨٠ أيام الرشيد جيشاً باسم «العباسية» عدته نصف مليون جندي ... وصل منهم بغداد عشرون ألفاً جعلوا حرس الخليفة . وإذا

(١) الجاحظ – رسائل الجاحظ (طبع دار النهضة الحديثة-بيروت)
رسالة في مناقب الترك ص ٢٩ وص ٢٣

كان ارتياب الرشيد بأغراض البرامكة وبالهدف من هذا الجيش قد دفعه الى سحقه عن يد واليه علي بن عيسى بن ماهان فإن «الخراسانية» ظلت أبرز فرق الجيش العباسي النظامي . ولقد لا تكون كلها مؤلفة من عناصر إيرانية ولقد يكون فيها الكثير من الترك والعرب والديلم ولكنها كانت فرقة معروفة البلاء على جبهة الروم وغيرها . وجرت فيها التقاليد العسكرية وتكاملت فرقة الحرب ، كما خضعت ، عن طريق الديوان والرواتب المنظمة ، للتنظيم والمراقبة الدقيقة والتدريب العسكري وقد أفرد قدامة بن جعفر في كتابه الخراج مبحثاً خاصاً . ضمن مباحث الجند والادارة والخراج . يوضح فيه تفاصيل مراقبة هوية الجند وفحص أسلحتهم ودوابهم وعتادهم ...

وقد ترك لنا الجاحظ صورة طريفة للهيئة التي كان عليها الجند الخراساني في عهده و «بالأجسام والمناكب العظام والجباه العراض والسواعد الطوال ... واللحى والشوارب المنقربة . والتجايف . والأعساد المعقفة . والقلائس الشاشية . والخيول الشهرية . والكافركوبات (عصا الكفار) . والطبرزينات في الأكف . والخناجر في الأوساط . وحسن الجلسة على الخيل ...» (١) .

بهذا كله كانت الفرقة الخراسانية فرقة مميزة في الجيش وإذا كان الكثير من هذا التميز قد زایلها ما بين نهاية عهد الرشيد والمأمون . غير انها استطاعت أن تجدد نفوذها وشبابها في المسيرة الثانية من خراسان إلى العراق التي دمرت عرش الأمين وأتت بالمأمون خليفة إلى بغداد . وبالرغم من ان بين المسيرة الأولى سنة ١٢٩ - ١٣٢ وبين المسيرة الثانية سنة ١٩٥

— ١٩٦ حوالي ثلثي القرن إلا إن النتائج كانت لحد ما متشابهة بالنسبة للجيش الخراساني الذي أصابه إثر النجاح الغرور والتخلخل واختلط بعناصر شتى التصقت به مما دعا إلى إعادة تنظيحه • وقد حفظ لنا الجاحظ قصة ذلك التنظيم بعد أن حلل الأحوال التي تردى بها ذلك الجيش فقال : «... كان حميد بن عبد الحميد عند دخول المأمون مدينة السلام وبعد سكون الهيج ... رفع الى المأمون يذكر أن في الجند دغلا كثيراً ممن دخل فيه بسبب تلك الحروب في أيام الأجناد وهم قوم من غير أهل خراسان ممن تشبه بهم وادعى إليهم من الأعراب والدعاة ومن لا يستحق الديوان • وقوم من أهل خراسان صارت لهم الخواص الشيعة لم يكن لهم من الغناء ما يستحقون به مثلها • وذكر أن بيت المال لا يحصل ذلك • وسأل المأمون أن يوليّه تصنيف الجند • ولم يكن مذهب حميد في ذلك التوفير على المأمون ولا الشفقة على بيت مال المسلمين ولكنه تعصب على أبناء أهل خراسان واضطغن عليهم محاربتهم إياه أيام الحسن بن سهل مع ولده محمد بن أبي خالد وغيرهم • وما كانوا قد انتحوه به من تلك الوقائع والهزائم وما ذهب له من الأموال بذلك السبب • فولاه المأمون التصنيف وأمر للجند برزق شهرين • فولى حميد العطاء والتصنيف محمود بن عبد الكريم الكاتب • وعرف محمود ما عنى فتحامل على الناس واستعمل فيهم الأحقاد والإحن وخفض الارزاق وأسقط الخواص وبعث في الكور وأنحى على أهل الشرف والبيوتات حسداً لهم • • • فقصدهم بالملكوروه والتعنت فامتنت طائفة من الناس من التقدم الى العطاء وتركوا اسماؤهم • وطائفة اتدبوا مع طاهر بن الحسين بخراسان • فسقط بذلك السبب بشر كثير • ثم إن المأمون أمر بتسليم اعطياتهم واكتسب محمود بن عبد الكريم المذمة

وصار ملعنة في محال بغداد ومجالسها وطرقها...»^(١) .

غير أنه لا هذا التنظيم ولا معاودة المسيرة قبل ذلك الى بغداد ولا سابق السعة العسكرية استطاعت كلها إن تعود بالزمان القهقري وتجعل الخراسانية هي الفرقة العسكرية الأولى لبني العباس . ذلك أن فرقا أخرى ناشئة قد زاحمتها من جهة وأن منطقة خراسان قد بدأت تأخذ طريقها الذاتي في الاستقلال عن المركز على يد آل طاهر ، من جهة أخرى ، وبدأت لهذا السبب تستوعب فائض القوى العسكرية فيها محليا وفي إنشاء الدول الاقلية المتتالية التي نشأت في تلك الإصقاع ...

وعلى أي حال فقد جاء العصر العباسي الأول الى نهايته والفرقة الخراسانية واحدة من فرق الجيش الأساسية . وقد ولدت فرقة أخرى بغدادية . تفرعت عنها هي الأبناء . وكلتا الفرقتين جند نظامي ، مرتزق محترف للجندية . وتابع للمركز في بغداد .

العرب برغم أن القوة الضاربة العباسية كانت خراسانية (بالمعنى الجغرافي للكلمة) فإن الثورة العباسية وبالتالي دولة بني العباس لم تنجح وتتوطد إلا بالجيوش العربية ، القبلية التكوين التي التحقت بها . والأحداث الفاصلة التي مكنت للعباسيين في العرش إنما قامت بالدور الحاسم فيها مقاتلة القبائل العربية كان ذلك مثلا في الكوفة والبصرة والموصل ودمشق وغيرها . ويبدو أن الجيش العباسي الأول ظل فترة من الوقت ما بين عهد أبي العباس والسنوات الأولى من عهد أبي جعفر يشكل مجموعة عسكرية واحدة حتى كانت فتنة الرواندية واستبان لأبي جعفر أنه مكشوف الجانب فلا موئل من المدن له ولا الجند بالآلة .

(١) آثار الجاحظ ص ٦٣ - ٦٤ (طبع عمر ابو النصر - بيروت) من رسالة في ذم اخلاق الكتاب .

الطبعة في يده . وقد دخل عليه شيخ كبير من المقدمين في بني العباس فقال له ابو جعفر - حسب رواية الطبري - : أما ترى ما نحن فيه من التياث الجند علينا ؟ قد خفت أن تجتمع كلستهم فيخرج هذا الأمر من أيدينا . فما ترى ؟ قال الشيخ : عندي في هذا رأي ! ومضى فدرس غلاما من غلصانه يسأله وهو داخل دار الخلافة بين أصحاب المراتب (من القواد ورجال الدولة) أي الحيين أسرف : اليس أم مضر ؟ فلما فعل قال الشيخ : مضر لأن منها رسول الله وفيها كتاب الله وفيها بيت الله ومنها خليفة الله فامتعضت اليس واذوا الشيخ فثارت مضر قائلة . أينعل هذا بشيخنا ؟ ونقر الحيان واقترق الجند : فصارت مضر فرقة واليس فرقة والخراسانية فرقة وربيعه فرقة ! وقال الشيخ لأبي جعفر : قد فرقت جندك وجعلتهم أحزابا . يخف كل حزب منهم أن يحدث حدثا فتضربه بالحزب الآخر . وقد بقيت عليك في التدبير بقية . . . هي أن تعبر بابل فتزله في الجانب الآخر قصرا وتحول من جيشك معه قوما فيصير هذا بلدا وهذا بلدا . فإن فسد عليك أهل هذا الجانب ضربتهم بأهل ذلك الجانب وإن فسدت عليك مضر ضربتها باليس وربيعه والخراسانية . . . » (١١) .

وإذا كانت القصة تكشف عناصر الجيش العباسي الأول فإنها تكشف أنه في كئلته الكبرى كان عربيا . ومن مختلف القبائل وأنه بعد فترات الحساسة الأولى التي دمجه بعض مع بعض قد عاد بسرعة الى تكوينه القبلي المألوف في العهد الأموي ما عدا الخراسانية الذين كانوا قد تناسوا عصبياهم القبلية وحولوها عصبية اقليلية . وقد كرر المنصور هذه العملية : فرق تسد حين كسر الحلف القديم القائم بن ربيعة واليمن

بإطلاق يد معن بن زائدة الشيباني (القيسي) في أهل اليمن وهو وال
عليهم . فإن المجازر التي قام بها هناك أجاب عليها عقبة بن سلم الهنائي
(اليمني) وإلى اليمامة والبحرين الذي أخذ الثأر هناك من ربيعة (قبيلة
الشيباني) . وارتاح المنصور إلى النتيجة التي تمنع قوى الطرفين من أن
يكون لهما ولاء غير الولاء العباسي !

وهذا يعني أن قوة الجيش العباسي الأول كانت في
معظمها عربية وقد يدل على ذلك أيضاً أن القطائع التي أقطعها أبو جعفر
في بغداد للجند كان القسم الأكبر منها لقواد ورجال من العرب .

وهذا يعني أن قوة الجيش العباسي الأول كانت في
الأول دوراً محدداً مختلفاً عن دورها في العهد الأموي . لقد اقتصر
الخلفاء في استخدامها على جبهات الغزو الخارجي . وكانوا يرسلونها
إلى جبهة الروم أو أرمينية خاصة . على الطريقة التقليدية للتوضن وحماية
الحدود . وقلما كانوا يرسلونها لأعمال الأمن الداخلي مثل إخماد الثورة
الخارجية في سجستان مثلاً أو حرب الخوارج في الجزيرة . ولما كانت
أعمال الفتح محدودة أو معطلة في العهد العباسي فإن هذه الجيوش
القبلية أخذت تجد نفسها دون عمل وبالتالي دون عطاء ومغانم فتحوّلت
تدريجياً إلى جنود يتطوعون للعمل مع القواد العرب الذين يعهد إليهم
بالتجنيد أو ببعض المهام العسكرية . وبينما كانت تتضاءل فيهم الروح
القبلية كانت فرق التجنيد الارتزاقى تتجذّبهم وتمسّوغيهم كسفائلة في
تكوين عسكري جديد : أصبحوا يجندون على أساس أقاليمهم ومدنهم
لا قبائلهم . وحرفنا قرأ مثلاً لدى الطبري . ومنذ وقت مبكر سنة ١٤١
أو سنة ١٤٣ « أن الجنود من أهل خراسان معسكرون على أدنة مع
مسيلة البجلي ومن أهل الشام مع مالك الباهلي . وأن المنصور استدعى

عند ثورة محمد النفس الزكية أربعة آلاف من جند الشام وأن الحسن ابن قحطبة الطائي غزا سنة ١٦٢ بلاد الروم في أهل خراسان وأهل الموصل والشام وأمداد اليمن ومطوعة العراق والحجاز .. الخ ..

ولقد كان بعض القادة من ذوي النفوذ القبلي أمثال معن بن زائدة الشيباني ويزيد بن مزيد الشيباني ، وعقبة بن مسلم الهنائي وخازم بن خزيمة التميمي يصطحبون معهم للغزو الخارجي خاصة بعضاً من قبائلهم مع الجيش النظامي وكان هؤلاء الأعراب يعودون بعد الغزو إلى قبائلهم أو يتوطنون على الجبهات الأمامية لكنهم مع ذلك لم يكونوا يعتبرون من القوى العسكرية ولا كانوا من التأثير بحيث يعودون بالجيش إلى التكوين القبلي القديم . وكانت السلطات ترضى باستخدامهم لامتناعهم كقوى فائضة في القبائل ، قابلة للقيام بأي عمل ثوري أو تخريبي ولمعونة الجيش في العدد وفي أعمال التغطية والحركة السريعة .

وهكذا ظهر نظام المقاتلة والأرزاق في العرب بدل نظام التطوع والعطاء . ولم نعد نسمع فيما بعد عصر الرشيد عن «عطاء» يعطى لغير الهاشمين والعلويين وبعض «الأنصار» أي للأرستقراطية الدينية العربية أما عامة العرب فقد صار لها عند التجنيد «رزق» محدد كما للخراسانية ... أي أن النظام القبلي القديم قد ألغي من نفسه . ولئن بقيت منه بقية تعمل على الجهاد في الحدود فقد كانت الحكومة تتجاهلهم تجاهلاً متزايداً لا سيما وأنها إنما كانت ترسلهم . مع قوادهم للتوضن في عملية أبعاد غير مقصود ! وهكذا أوقف العباسيون نهائياً نفوذ العرب في الجند . وفي الحرب والغنائم بتحويلهم إلى فرقة من جلة الفرق العسكرية .

وقد انتعش نفوذهم بعض الانتعاش أيام فتنة الأخوين الأمين والمأمون وجاءتهم الفرصة لاسترداد النفوذ في الدولة حين جعل الأمين اعتماده على الكتلة العسكرية - السياسية العربية مقابل اعتياد أخيه على الكتلة الخراسانية . غير أن هزيمة الأمين كانت بمثابة الضربة الفاصلة . وحين صار المأمون في بغداد كان ذلك يعني أن القوى العسكرية العربية - رغم أنها أضحت قوى نظامية - لم يعد لها مكان على الأقل في البلاط العباسي .

ويتبين موقف المأمون من هذه القوى في الخبر الذي يروي أن عربياً جاءه في الشام يقول : يا أمير المؤمنين انظر الى عرب الشام كسا نظرت الى عجم خراسان فأجابه إنك ظلمتني وفند له مواقف القبائل العربية المختلفة وتألفه قلوب بعضها بالمال وانصرافها جسيماً عنه ثم طرد الرجل !

والواقع أن القوة العسكرية العربية في عصر المأمون وما بعده ما كانت لتبقى واضحة في الجيش لولا أنها إنما كانت تجتمع وتشكل القوى المحاربة الموجودة لدى الكتلة العربية من السكان وهي كتلة تشكل أكثر من نصف الدولة ولهذا فإننا نرى وجودها واضحاً في الأقاليم العربية كالشام ومصر والجزيرة . ولو أن دورها في العاصمة كان الضئيل الضئيل . وقد أنهى المعتصم هذا الدور حين أمر بإسقاط أسماء العرب من الديوان ووقف العطاء عنهم لعدم خضوعهم لنظام التجنيد ووضع بذلك النقطة الأخيرة في النظام الذي كان وضعه عمرو الذي كان قد تعطل مفعوله العسكري منذ زمن طويل . ولكنه في الوقت نفسه أوقف رسمياً كل تطوع من أصل عربي في الجيش العباسي . « وإذا لم ينجم عن ذلك القضاء على كل قوة مسلحة عربية فقد نجم عنه الانقطاع بين القوى المركزية العباسية وبين المتطوعين للجهاد على الحدود والذين

يعيشون على الغارات وتتجاهلهم الحكومة تجاهلاً متزايداً وهم بالمقابل يتجاهلون وجودها... وبعد أن كان نفر كبير من العرب يشكلون الجيش الفاتح... فقد عادوا بعد ذلك إلى حال البداوة والبؤس!»^(١) .

الموالي: وتقصّد موالى الخلفاء العباسيين . تلك المجموعة المتعددة العناصر التي جمعها الخلفاء وبنو العباس من حولهم خولاً واعواناً وأقاموا معها . لاجتذاب اخلاصها . رابطة «ولاء الاصطناع» . ولو أن بعضها كان من عبيدهم السابقين وبعض من متفرقة الناس من عرب وعجم . ولم يكن لهؤلاء . أول الأمر من دور عسكري أو علاقة بالجيش . وحين يذكر المؤرخون اصطناع الخلفاء (أو المنصور والمهدي بالذات) لمواليهم فإننا كانوا يعنون ما أعطوهم إياه من أعمال إدارية في البلاط أو في الولايات .

غير أن هؤلاء الموالى مالّبشوا أن وجدوا طريقهم إلى الجيش وصرنا نرى على رؤوس بعض الحملات فلاناً «مولى أمير المؤمنين» يظهر ذلك منذ عهد المهدي . الذي أرسل العباس بن محمد حتى انقره سنة ١٥٩ وعلى مقدمته الحسن الوصيف من الموالى... ولم يجعل للعباس على الحسن ولايته في عزل أو غيره كما يقول الطبري وأرسل الربيع بن يونس مع ابنه الرشيد سنة ١٦٣ وسنة ١٦٥ في غزوات ناجحة ضد الروم . ويبدو من هذه الأخبار أن أعداد الموالى كانت قد تكاثرت التكاثر الواسع حتى أضحت من الممكن تشكيل فرقة عباسية منها وقد أقيمت تلك الفرقة بالفعل بشكل نظامي وبرز فيها بعض الموالى كقواد ناجحين مثل هرثمة بن أعين وغيره ولعل تكاثر عدد الموالى هو الذي

(١) كاهن - تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ص ٢٤٠ (الترجمة العربية) .

دفع الخلفاء الى استخدامهم في الجندية . كان العمل العسكري هو الوحيد الذي يمكن أن يستوعبه الفائض منهم . ويجند اخلاصهم لمصلحة الدولة والأسرة الحاكمة . واستمرت هذه الفرقة العسكرية قائمة حتى ما بعد العصر العباسي الأول لأنها كانت تغذى باستمرار بأعداد غير منقطعة من «موالي» الخلفاء وعبيدهم السابقين .

الترك : دخل الترك الجيش العباسي ، والخلافة العباسية من باب «الموالي» «والولاء» هم بدورهم جزء من الموالي ولكنه جزء تضخم في الناحية العسكرية حتى ابتلع الدولة نفسها .

دخل الأتراك بغداد عبيداً للخلفاء فأصبحوا بالعتق موالي لهم ونجد بدء ظهورهم في قيادات الجيش منذ زمن الرشيد : فأبو سليم فرج الخادم التركي هو الذي بنى طرسوس للرشيد وحصنها ، ومسروور الخادم رافق هرثمة بن اعين الى الروم سنة ١٩١ . وكان ثمة حرس تركي لدى الرشيد كما كان ثمة حرس تركي لدى المأمون . وقد كان يرشح الترك للعمل العسكري في الجيش العباسي عوامل كثيرة منها جمال القامات . والشجاعة الساذجة «وأن التركي يرمي الوحش والطير والناس وقد ملأ فروج دابته مقبلاً ومدبراً ويمنة ويسره وصعداً وسفلاً ويرمي بعشرة أسهم قبل أن يفوق الخارجي سهماً واحداً .» والترك «هم علموا الفرسان حمل قوسين وثلاثة قسي من الأوتار على حسب ذلك .» ولهم «الصبر على الجنب وعلى مواصلة السفر وعلى طول السرى» وعلى الركوب «ولو حصلت مدة عمر التركي وجسبت أيامه لوجدت جلوسه على ظهر دابته أكثر من جلوسه على الأرض .» وأخيراً فالتركي «ليس يقاتل على دين ولا على تأويل ولا على ملك ولا على خراج ولا على عصبية ولا على غيرة دون الحرمة ولا على حمية ولا على عداوة ولا على

وطن ومنع دار ولا مال وإنما يقاتل على السلب . . . والخيار في يده . . .»^(١) . لقد وضع الجاحظ رسالة من رسائله في مناقب الترك ذكر فيها الكثير من مثل هذا الحديث .

ولم يكن هذا كله بالكافي في الواقع لكي يبرز الترك كقوة كبرى ضمن الجيش العباسي لولا أن ظروف البحث عن عصبية جديدة ليست بالإيرانية ولا العربية هي التي دفعت المعتصم لاختيار هذه العصبية العسكرية المتاحة من بين موالي الخلفاء بالإضافة إلى أن الترك هم أرومة أمة وأن بلادهم كثيرة السكان . وقيد الغزو المستمر ومورد أساسي من موارد الرقيق وهكذا نشأت بسرعة ونست الفرقة التركية التي ما لبثت أن أصبحت دون الفرق الأخرى سيدة الجيش العباسي وأضحى قوادها سادة البلاط والخلفاء معاً . وتجنيد الترك إنما كان يجري عبر عبوديتهم . كانوا يأتون عبيداً ثم يعتقون ليكونوا جنوداً مضسوبي الولاء للخليفة الذي أعتق رقابهم . فهم في الواقع أول جيش مملوكي في الاسلام .

وإذا بدأ العصر العباسي وكتلة الجيش العباسي عربية ذات تنظيم قبلي تطوعي فقد انتهى وللدولة جيش نظامي دائم محترف مرتزق مركزي والعناصر المسيطرة فيه هي العناصر التركية .

٢ - في عناصر الجيش : كانت الجندية في مطلع العهد العباسي قد كفت منذ زمن عن أن تكون امتيازاً عربياً . وقد دخل مع العرب في العمل العسكري أعداد كبيرة من الموالى ، مسلمي الشعوب المختلفة . وما ذكرنا في الفقرات السابقة من سيرة الجيش العباسي لم يكشف في

(١) رسائل الجاحظ (طبع بيروت - دار النهضة) ص ٣٩ . ٤٠ . ٤٢٦ (رسالة في مناقب الترك) .

الواقع عن عناصر الجيش العباسي كافة • ولكن عن الكتل الكبرى فيه وعن تطور الجياعات المسيطرة وانتقال النفوذ في الجيش من أيدي العرب إلى أيدي الإيرانيين ثم إلى أيدي الترك في مسيرة متصلة نحو الشرق وأعماق آسيا •

كان الجيش العباسي خليطاً دوماً ولكن الخليطة الثلاثية الماضية كانت هي المسيطرة •

وقد غلب كل عنصر منها العناصر الأخرى فترة تعدل ثلث قرن • وخلال ذلك كله كانت ثمة عناصر أخرى تلعب دورها الواسع أو الضيق في المؤسسة العسكرية وتلون الجيش العباسي بألوانها المرقشة وإن لم تتح لها السيطرة فيه •

وإذا حوى جيش الثورة العباسية مجموعة محاربة من العبيد الآبقين أفرد لهم أبو مسلم جانباً خاصاً من معسكره قرب مرو فسنذ زمن مبكر من العهد العباسي أيضاً يمر معنا وجود فرقة من الزنج ضمن الجيش الذي ساقه أبو العباس لإخماد ثورة الموصل سنة ١٣٣ وكانت عدتها أربعة آلاف فلما أطلقت يدها في القتل والنهب أوقفت وقتل عدداً كبير من أفرادها^(١) • كما يمر معنا وجود جماعة من السودان لم يكن حول أبي جعفر غيرهم حين أعلن محمد النفس الزكية ثورته^(٢) ويعدون جوالي ١٥٠٠ رجل •

ونلتقط الاشارات العابرة في المصادر فنجد أن مجموعات من مختلف العناصر كانت تعمل في آلة الحرب العباسية • وإذا تجاوزنا العناصر المعروفة من عرب وإيرانيين وترك ، قرأنا ، في إحدى القصائد

(١) أبو زكريا الأزدي - تاريخ الموصل ص ١٥٣ •

(٢) الطبري ج ٧ ص ٦٣٩ (٣/٣٠٥)

التي نذبت خط بغداد وتدميرها أيام الفتنة الأخوية بين الأمين والمأمون ورواها الطبري :

أين الجرادية الصقالب والاحبش تعدو هدلاً مشافرها
ينصدع الجند عن مواكبها تعدو بها سرباً ضوامرها
بالسند والهند والصقالب والنوبة شيت بها برابرها
طيراً أبابيل أرسلت عبشاً يقدم سودانها أحامرها (١) .

وهكذا نجد في جند الخلافة عناصر صقلبية (روس) وأحباشاً وهنوداً ومجموعات من السند والنوبة والبربر والسودان وكان ثمة أيضاً جماعات من الخزر . وقد أقطعهم المعتصم قطيعة في سامراء حين بناها (٢) وهناك كذلك مجموعة المغاربة أي الجنود المرتزقة من مغرب الدولة في مصر . وهم من أهل الحرف (٣) ولقد يكونون في جمهرتهم من العرب ولكن فيهم دون شك عناصر من الاقباط الذين تحولوا إلى الاسلام .

ومن الهام أن نسجل هنا أن هذه العناصر قد تكون هي نفسها جمهرة «موالي الخلفاء» من العبيد السابقين الذين كانوا يستخدمون حرساً ورديفاً في القتال . غير أن اسم «موالي الخلفاء» أوسع شمولاً إذ أنه يضم أيضاً مجموعات من الأحرار الإيرانيين وغيرهم الذين كانوا يلتصقون ببيت الخلافة . وهذا كله يعني أن الجيش العباسي الذي بدأ

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٤٩ - ٤٥٠ (٣/٨٧٥)

(٢) اليعقوبي ج - البلدان ص ٣٦٢

(٣) المسعودي - مروج الذهب ج ٤ ص ٩ وانظر الطبري ج ٩ ص ١٠٩

(٣/١٣١١ - ١٣١٢) .

في مطلع الدولة وحيد العنصر تقريباً مع وجود جماعة محدودة من العناصر الإيرانية ، تحول في نهاية العصر العباسي الأول جيشاً إسلامياً يضم بين أفرادهِ جماعات من مختلف العناصر المكونة للعالم الإسلامي ومن العناصر المحيطة به أيضاً .

٣ - في أعداد الجيش : بالرغم من فقد كل إحصاء ثابت ومن إمكان الشك في الأرقام التي تقدمها المصادر القديمة عن أعداد الجيوش فإن الأرقام التي يسكن التقاطها قد تعطي فكرة عن أعداد القوى العسكرية العباسية .

ولقد يكون من المنطقي الشك في الرقم الذي يعطيه الدينوري لعدد «المسودة» الذين حصلوا راية السواد من المشرق ووصلوا بها العراق يوم الثورة العباسية . يقول إنهم زهاء مائة ألف رجل . وهي مبالغه تريد تضخيم دور الخراسانية في الدولة . لكن الأعداد الأخرى أكثر تواضعاً . وهي كثيرة جداً نقتطف منها بعض النماذج :

١ - في مطلع أيام الدولة : حين وصل الخبر بثورة إبراهيم بن عبد الله المحض في البصرة «ما كان في عسكر أبي جعفر كثير أحد . . . ما هم إلا سودان وناس يسير . . .» وذلك أنه كان فرق جنده في القتال . يروون أنه قال يومها : «والله ما أدري كيف أصنع ؟ والله ما في عسكري إلا ألفا رجل . فرقت جندي فمع المهدي بالري ثلاثون ألفاً . ومع محمد بن الأشعث بأفريقية أربعون ألفاً والباقون مع عيسى بن موسى (وهم أربعة آلاف) والله لئن سلمت من هذه لا يفارق عسكري ثلاثون ألفاً . . .» (١) .

(١) انظر الطبري ج ٧ ص ٦٢٧ - ٦٣٨ (٣/ ٣٠٤ - ٣٠٥) وانظر

أيضاً ج ٧ ص ٥٧٧ و ج ٧ ص ٦٣٩ (٣/ ٣٠٥)

— في أواسط العصر العباسي الأول : تحرك هارون (الرشيد) بأمر أبيه المهدي في حملتين ضد الروم سنة ١٦٣ ثم سنة ١٦٥ كان عدد من حارب معه في الحملة الثانية (الكبرى) التي حشدت لها حشود غير عادية حوالي مائة ألف يروي الطبري أنه كان معه من المرتزقة سوى المطوعة وأهل الأسواق خمسة وتسعين ألفاً وسبعمائة وثلاثة وتسعين رجلاً * وهو رقم ضخم لأن أكبر الحملات قبل ذلك لم تكن تزيد أعدادها عن ثلث هذا العدد كحملة الحسن بن قحطبة سنة ١٦٢ التي كانت «ثلاثين ألف مرتزق سوى المطوعة» *

— وبعد ذلك في سنة ١٩٠ خرج الرشيد لحرب نقفور امبراطور بيزنطة يقول الطبري : «٠٠٠ وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم» وغزا هرقله «ودخلها فيسا قيل في ١٣٥ ألف مرتزق سوى الاتباع والمطوعة ومن لا ديوان له ٠٠٠» *

— وفي يوم عبورية سنة ٢٢٣ ، يروون أنه «نودي في الأمصار بالنفير والسير مع أمير المؤمنين» «وسار المعتصم من التغور الشامية .. ودخل الناس من سائر الدروب فلم يكن يحصى الناس العدد ولا يضبطون كثرة فسن مكثر ومقلل * فالمكثر يقول خسمائة ألف والمقلل مائتي ألف .. وتجهز جهازاً لم يتجهز مثله قبله خليفة من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط ٠٠٠» (١) *

— وبعد ذلك بعشر سنوات تقريباً كانت مشكلة أذربيجان وارمينية ويذكرون أن المتوكل وجه زيرك التركي في ٢٠٠ ألف فارس الى تلك البقاع ٠٠٠» (٢) ..

(١) الطبري ج ٨

(٢) الطبري ج ٩ ص ١٦٥

— بلغ عدد الجند في عرض عسكري أيام الخليفة المقتدر أمام
الرسل البيزنطيين نحو ١٦٠ ألفاً من الفرسان والمشاة... هذه الأرقام
على علاتها تسمح برسم فكرة عن أعداد القوى العسكرية كما تشير إلى
أن هذه القوى تضاعفت في العدد مرتين أو نحوهما ما بين مطلع العصر
العباسي الأول ونهايته ولم يكن ذلك ناجماً عن ازدياد الأعباء العسكرية
على الدولة أو حاجة الفتح الحربي أو ضرورات الدفاع ولكنه في الغالب
نتيجة أمور أخرى منها : تزايد سكان الدولة من جهة وتحول الجندية
إلى مهنة رابحة من جهة أخرى . وسيطرة الجيش على الدولة من جهة
ثالثة ويبدو أن التزايد الواسع إنما كان في المجموعتين الخراسانية
والتركية خاصة ، ثم في الموالي بينما كان عدد الأبناء بالضرورة محدوداً
وتقلصت مجموعة العرب لا سيما بعد إسقاط اسمائها من الديوان
وحرمانها من التجنيد النظامي . وإذا كانت أعداد الفرق التركية كبيرة
وكانت الثقل العسكري الأساسي فإن الجاحظ كتب في عصر المعتصم
على لسان الخراسانية يقول : «... ونحن أكثر مادة وأكثر عدداً وعدة
ولو أن يأجوج ومأجوج كثروا من وراء النهر منا لظهروا عليهم بالعدد...
ولو أن خيول الأرض ، وفرسان جميع الأطراف جمعوا في حلبة
لكننا أكثر في العيون وأهول في الصدور . ومتى رأيت مواكبنا وفرساننا
وبنودنا التي لا يحملها غيرنا علمت أننا لم نخلق إلا لقلب الدول وطاعة
الخلفاء وتأيد السلطان...» (١) .

٤ - في تنظيم الفرق والقواد وتنظيم الجيش :

قسم العباسيون الأوائل قواهم العسكرية على أساسين : عنصري
واقليمي . وهكذا كانت فرق الجيش زمن المنصور واحدة خراسانية

(١) رسائل الجاحظ (طبعة دار النهضة - بيروت) ص ٢٦ (رسالة
في مناقب الترك) .

(على أساس الاقليم) وثلاث عربية (على أساس القوم) ولما كانت الكتلة العربية ضخمة فقد انتظم الجنود العرب على أساس انتمائهم القبلي : مضر وربيعة واليمن • وعلى نهج الفرقة الخراسانية ظهر في الجيش العباسي جند أهل الشام • وجند الموصل وجند أهل الكوفة والمغاربة (جند مصر) ... والمثاغرون أي جند الثغور المستقرون فيها تجاه جبهة الروم أو جبهة الترك • وبعض هؤلاء من الجند النظامي الذين لهم الديوان والفروض (الرواتب) وبعض من المتطوعين احتساباً أما على الأساس العنصري فوجدت بجانب الفرق العربية (التي أخذت بسرعة في الاضمحلال وفي ترك مكانها القبلي للفرق العربية النظامية الاقليمية) فرق عنصرية أخرى منها الترك ، ومنها الأبناء ومنها كذلك الموالي (باعتبار أن الولاء نسب) كما وجدت فرق صغرى أو ثانوية من الزنج والخزر والصقالبة وغيرهم ...

ويبدو أن من الضروري الإشارة إلى أن هذه الفرق العنصرية لم تكن خالصة للعنصر الذي تحمل اسمه فكما كان في الفرق الخراسانية كثير من الدخيل بل ومن الأعراب كذلك كان في الفرق التركية وغيرها وكانت التسمية للكثرة الغالبة •

وبجانب هذه الفرق وتلك كانت ثمة مجموعة ثالثة من الفرق العباسية ولكنها متحولة التكوين باستمرار وتحمل من الاسماء ما ينبئ عن مهامها : وأبرزها المطوعة • وهم عناصر شتى من الناس والأجناد الذين يتطوعون للجهاد حسبة لوجه الله سواء للتكفير عن ذنوب سابقة أو تقرباً الى الله • ونجدهم خاصة على مناطق الثغور حيث القتال ضد الكفار كما نجدهم في مثل الحرب ضد بابك الخزمي • وينقل ابن العديم كلمة في هؤلاء تقول : «واكثر هؤلاء المطوعة من أهل الجبل وخراسان •

معهم غلظ الأعجمية وسوء أدب الصوفية ...»^(١) لكن فيهم أيضاً الكثير من أهل الشام والعراق والحجاز .

وهناك مجموعة «المرابطة» وهم كالمشاغرين في الثغور ولكنهم يسكنون الرباطات ويعملون في الجهاد . وهناك مجموعات ذات تشكيل عسكري عارض غير دائم : كالطالعة والبعوث . فالطالعة رابطة فصلية تأتي الثغر من المدن الخلفية الأهلة فتربط فيه للدفاع مدة الصيف ثم تعود الى قواعدها الخلفية في الشتاء . وأما البعوث فهي ما يفرض على بعض الامصار تجنيده وإرساله نجدة للثغور المهددة أو تنفيذاً لبعض المهام الكبرى ، وفي الطواريء ، كالذي فرضه المأمون مرة على أجناد الشام من تقديم أربعة آلاف رجل لدعم الجبهة ضد الروم ... ويفرض لهؤلاء المبعوثين فرض في العادة أمر المأمون مثلاً أن يجري على الفارس منهم مائة درهم وللراجل أربعون . وفرض ما يشبه ذلك على مصر والجزيرة . وهناك أخيراً الشاكرية (الكلمة الفارسية جاكِر = حارس) وهم مجموعات الحرس التي كانت ترافق الأمراء وتتضخم أعدادها أو تنقلص حسب قيمة من ترافق .

وأما قيادة الجيش فقد كانت تعتبر دوماً لأmir المؤمنين بحكم كونه «الأمير» فليس ثمة إذن من قائد عام ولكن ثمة قواد للفرق المختلفة . وإذا استثنينا الخليفة الفاطمي العزيز فلسنا نعرف خلفاء في التاريخ الاسلامي كانوا يخرجون بأنفسهم لقيادة الجيوش والقتال والجهاد سوى خلفاء العصر العباسي الأول . خرج بعض أولياء العهود كالذي كان من يزيد ابن معاوية والرشيد في عهد والديه . أما من الخلفاء فقد تفرد العباسيون

(١) انظر ابن العديم - بغية الطلب (مخطوط احمد الثالث) ج ٦ ورقة ١١ ظهر وهو ينقل النص عن ابن زولاق في سيرة خمارويه .

الأوائل بجانب الخروج للحج بالخروج للجهاد ومباشرته بأنفسهم .
خرج المهدي والرشيـد والمأمون والمعتصم على الأقل وكلهم عرفوا جبهة
الزوم . وحاول الرشيـد منهم أن يرأس حملة تأديبية داخلية ولكنه توفى
اثناءها في طوس .

أما قواد الجيش العباسي فقد كانت كثرتهم في مطلع العصر
العباسي من العرب وكان منهم زعماء قبليون وقد ظللنا نسمع عن أمثال
هؤلاء حتى عهد الرشيـد والمأمون (من أمثال معن بن زائدة الشيباني وابن
يهس الكلبي) غير أن هذا النوع القبلي تقلص ثم انقرض مع تقلص
وانقراض فرقه وحل محله القائد المحترف ، كالجندي المحترف . وقواد
الجيش العباسي في العصر الأول أعداد واسعة نستطيع أن نعد منها
عشرات بعد عشرات . وقد كان بعضهم — كما في الولاة — من آل البيت
الحاكم (كعبد الله بن علي . وعيسى بن موسى . وعبد الملك بن صالح)
وبعض من الارستقراطية العربية (كالشيباني وقحطبة الطائي) وبعض من
موالي الخلفاء (كهزيمة بن أعين) وبعض من الايرانيين (مثل علي بن
عيسى بن ماهان . وطاهر بن الحسين والأفشين) . والكثرة الواضحة
منهم في السنوات العشرين الأخيرة من العصر كانت من الترك (مثل
إيتاخ . زيرك . بغا . اوتامش ، شاهك) . وهؤلاء وأمثالهم هم الذين
لعبوا أسوأ الأدوار في انهيار الدولة العباسية .

وقد كان معظم هؤلاء القواد العباسيين لا يجد فرقة جاهزة ولكن
عليه أن يشكلها بنفسه . تفرض له الفروض (أي الأموال) اللازمة للعدد
الذي يحدد له وعليه أن يجند الفرقة ويقودها . ولما كان التجنيد بهذا
الشكل شخصياً فقد كان موت القائد في الغالب سبباً في تفرق أصحابه
ودخولهم في تشكيلات عسكرية أخرى لقواد آخرين . وكانت صناعة

«القائد» العسكري مريحة . ومع أن حالة الأفشين شاذة فإنها تعطينا فكرة عما يتقاضاه القواد مثلاً في حالات الحرب فقد كان المعتصم يجزيه في مقامه بإزاء بابك سوى الأرزاق والأنزال والمعاون في كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم وفي كل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم . ومنحه يوم اتصر عشرين مليون درهم يفرق نصفها في عسكره

ويجب أن نضيف الى جماعة القواد عدداً من الأمراء المحليين في إيران وبلاد الترك كانوا يأتون بجنودهم لينضموا الى الجيش العباسي ومن هؤلاء مثلاً ملك ديناوند واسمه أبرويز بن المصمغان الذي كان خالف أخاه والتحق بالمنصور مستأئناً فأكرمه وأجرى عليه رزقاً فلما كان «يوم الرواندية أتى المنصور فقاتل معه»^(١) ومنهم أيضاً ماوند صاحب سجستان . طلب الأمان من معن بن زائدة فبعث به الى بغداد مع خمسة آلاف من مقاتلتهم فأكرمه المنصور وفرض له وقوده»^(٢)

ويجري هؤلاء مجرى قواد المجموعات القبلية عند العرب . ونجد منهم في تاريخ الجيش العباسي جماعة : منها بعض أمراء طبرستان ومنها كذلك الأفشين نفسه .

وهكذا تحولت قيادات الجيش العباسي من أيدي العرب بالتدريج لتصبح اسلامية يستطيع أن يصل إليها أي جندي في الجيش لأن المناصب العسكرية العليا كانت مفتوحة أمام الجنسيات كافة !

وأما تنظيم الجيش فنشير فيه فقط الى أمرين :

الأول : أن نظام الكراديس الذي فكك به مروان بن محمد التشكيل القبلي للجيش الأموي . كان الأساس الذي بني عليه تنظيم الجيش العباسي النظامي فيما بعد . وهكذا اندثرت بالتدريج آخر

(١) الطبري ج ٧ ص ٥٠٦

(٢) البلاذري - فتوح البلدان (ط . المنجد) ص ٤٩٤

مظاهر القوة البدوية في الدولة الاسلامية لتحل محلها أسس التنظيم العسكري الحضري • وإن بقيت ملامح التنظيم الأول حتى أواخر العصر العباسي الأول •

الثاني : أن «العيارين» وهم الجنود الشعبية البروليتارية التي دافعت بجانب الأمين عن بغداد وزادت أعدادها الى عشرات الألوف نظمت نفسها تنظيمًا عجيبًا • ذكر المسعودي^(١) بأنه كان هناك الأمير وتحتة عشرة قواد وجنده عشرة آلاف ويليهِ القائد وتحتة عشرة نقباء وجنده ألف ثم النقيب وتحتة عشرة عرفاء وجنده مائة ثم العريف أخيراً وتحتة عشرة من الجنود تقريباً •

ولنا أن تتصور أن هذا التنظيم لم يكن من ابتكار العيارين وأنه كان تقليداً لما كانوا يعرفون من تنظيم الجيش النظامي • الذي سكت المصادر عنه ، فليس لدينا حوله سوى بعض الإشارات العابرة وقد نستطيع أن نفترض أنه هو نفسه التنظيم في القوى العسكرية العباسية أو شيء غير بعيد عنه •

هـ - من العطاء الى الرزق

... وتطورت أيضاً العلاقة المالية ما بين الدولة والجند في العصر العباسي الأول • كان معظم الجيش في البدء عربياً قليلاً وهذا يعني أنه كان على نظام العطاء التقليدي • غير أن الخراسانية كانوا - على ما يبدو - مجندين على أساس الرزق أي الرواتب المحددة شهرياً • ويبدو أيضاً أن الخلافة العباسية تأخرت في تنظيم هذا الرزق فهو مضطرب المواعيد وإن كانت في الوقت نفسه تغدق على جندها الخراسانية الكثير • وقد أشار ابن المقفع في رسالة الصحابة الى ضرورة توقيت وقت معروف كل ثلاثة أو أربعة أشهر لقبض أرزاقهم وأن ينظفوا في ديوان كما أشار أهم

(١) انظر المسعودي - مروج الذهب - القاهرة (١٩٤٨) ج ٣ ص ٤١١

من هذا إلى « كثرة المال الذي يخرج لهم » وأنه إذا كان الخرج رائجاً الآن فإنه قد ينقص ومن الحكمة إنقاص الرزق بالنسبة التي ينقصها الخراج . بالإضافة إلى أمر آخر وهو أن يخلي أمير المؤمنين شيئاً من الرزق فيجعل بعضه طعاماً وبعضه علفاً ويعطوه بأعيانه^(١) انصافاً لبيت المال .» .

وإذا كنا لا ندري إن كان المنصور قد أنقص الارزاق للخراسانية فعلاً أو اتبع النصيحة فاعطاهم بعض الرزق طعاماً وعلفاً ولكن من المؤكد أنه نظم مواعيد الأرزاق ولعله أجرى بعض الفرق القبلية العريضة على أساس الرزق أيضاً فقد تضاءلت الأعطيات وانكمش أصحابها خلال العصر العباسي حتى اقتصر العطاء على الهاشمين (من علويين وعباسيين) وانقطع عن عامة العرب وأخيراً أسقط المعتصم أسماء العرب من الديوان فأزال بذلك العطاء رسمياً . أما الرزق للمرتزقة فكان مختلفاً : كان متوسطه للجندي ، في عهد أبي العباس ، ٩٦٠ درهماً في السنة (٨٠ درهماً في الشهر) بجانب الأرزاق الأخرى ونصيبه في الغنائم . وكان الفارس يتال ضعف ذلك . ولا تنس أن أبا العباس « زاد في الاعطيات » منذ اليوم الأول لخلافته « وأعلن ذلك في خطبته الأولى » وكسب بذلك لقبه : السفاح .

وقد حافظ المنصور والمهدي على المستوى العالي لأرزاق الجند : الأول لضمان ولاء الجند مع كثرة الثورات والحروب والثاني تألفاً لقلبه وكرماً عليه ثم انخفض رزق الجندي في أواخر عهد الرشيد إلى ٦٠ درهماً فقط (= ٦ أضعاف عامل البناء في بغداد) . ويبدو أن كثرة الجند

(١) ابن المقفع - رسالة الصحابة (ضمن رسائل البلغاء لمحمد كرد علي) ص ١٢٤ . (كتاب أبو حنيفة : الأدب الصغير ص ١٦٠)

ورغبة الأجناس المختلفة في الرفاه الذي يناله الجنود مع رخص الأسعار
هي الاسباب في ذلك التخفيض الذي تكرر مرة أخرى زمن المأمون
فأضحى راتب الجندي ٢٠ درهماً فقط في الشهر • ولل فارس أربعون •
ولعل تدفق الترك بأعداد واسعة وبستوى منخفض من المعيشة إلى
التجند أثر في هذا التخفيض الثاني لكن السبب الرئيسي إنما كان في
ارتفاع قيمة الدينار بالنسبة للدرهم فقد كان الجند يتناولون ارزاقهم
ذهباً على حساب أن الدينار يساوي عشرة دراهم غير أن سعر الدينار
ارتفع منذ عهد الرشيد حتى المأمون الى ٢٠ و ٢٢ درهماً •

وكانت هذه الأرزاق تزداد للجنود في أيام المحن كما تزداد للمستقرين
في جبهات القتال فإن المأمون مثلاً فرض على جند الشام أربعة آلاف
رجل سنة ٢١٨ وأمر أن يجري على الفارس منهم مائة درهم وعلى
الراجل أربعون • وحين أسكن المنصور ملطية أربعة آلاف مقاتل من
أهل الجزيرة أنزلهم بها «على زيادة عشرة دنانير في عطاء كل رجل ومعونة
مائة دينار سوى الجعل الذي تتجاعله القبائل بينها ٠٠٠» والرشيد حين
بنى طرسوس سنة ١٧١ اتدب إليها خمسة آلاف من خراسان والمصيصة
وانطاكية «على زيادة عشرة دنانير لكل رجل في أصل عطائه ٠٠٠»
وتكررت الزيادة نفسها عند بناء أذنه سنة ١٩٤ وهكذا ٠٠٠ ولعل
ضخامة هذه الأرقام لا تظهر في الشكل الفردي ولكن في مجموع
النفقات : ولعلنا نأخذ فكرة عن ضخامتها إن ذكرنا أن حملة الرشيد على
الروم سنة ١٦٥ كلفت الدولة ١٩٥ ألف دينار و ٢١٥ مليون درهم
حسب رواية الطبري • وقد وجه المعتصم مع إيتاخ سنة ٢٢٢ الى الأفشين
ثلاثين مليون درهم عطاء للجند والنفقات في قتال بابك ! ٠٠٠

٦ - في طرق القتال وهدفه : منذ أواخر العصر الأموي كانت

طريقة القتال العربي البدوي قد تجاوزها العصر ولم تعد كافية للتجارب مع الحاجات الجديدة . كانت تكاليفها زهيدة والتفوق التقني فيها يعتمد على سرعة الحركة كما أنها تقوم على الشجاعة الفردية ولا تعرف السلاح الثقيل ولا حرب الحصار ، وتجهل من الناحية التعبوية تنظيم رماة السهام ... بينما كانت أساليب القتال في تلك الفترة (القرن الثاني الهجري) تتطور في أوروبا وقلب آسيا وتظهر فيها الخيالة الثقيلة وكان الخراسانيون والترك ، قد ورثوا عن الجدود البراعة في استخدام الفرسان من رماة السهام ، ولعم المواقع الحصينة وقذفها بالمجانيق واستعمال النفاطات ... وهي أمور تقنية سمحت للخراسانية ثم للترك بالثبات في صلب الجيش العباسي على حساب التكوينات العربية البدوية التي انسحبت تدريجياً منه . يضاف إلى هذا أن هذه الأساليب القتالية لا يمكن تلقينها إلا لجيش محترف . كالخراساني والتركي . وهكذا رافق تطور التكوين في الجيش العباسي والتحول إلى الاحتراف والنظامية تطور مماثل في تقنية القتال : أمكن معناه لهذا الجيش أن يستعمل قاذفات السهام التي أشار إليها الجاحظ وهي أقل مرونة من المقوس لكنها أقوى أثراً (هي كالرشاش بالنسبة للبندقية) ولعلها من ابتكار الترك المحاربين في ما وراء النهر . في تلك الفترات . كما تحسنت لديه وسائل المنجنيق في قذف الأبراج المحصنة ووسائل استخدام النفط^(١) ... ونقب الحصون وإحكام الحصار ...

وإذا كان المؤرخ أومان يقول : «كان ثمة أمران يجعلان المشاركة

(١) انظر كاهن - تاريخ العرب والشعوب الإسلامية (الترجمة العربية)

في القرن العاشر (الثالث الهجري) عدواً خطراً (على بيزنطة) : عددهم الكبير وقدرتهم الفائقة على التحرك ..» فإن الامبراطور البيزنطي ليو الحكيم (٨٨٦ - ٩١٣) كان يتكلم عن تجربة حين قال في الكتاب المنسوب إليه : «بين كل الأمم المتبربرة هؤلاء المشارقة هم أصحاب أحسن الآراء وأحكم الخطط في تحركاتهم الحربية» . ويصف تعبثهم بأنها على شكل مربع طويل يصعب اختراقه . ومن هنا تستعوا بأعظم مزايا الدفاع في التحرك والقتال» ويقول امبراطور آخر هو قسطنطين «لقد كانوا من القوة والميل إلى الحرب بحيث لو أن ألفاً منهم احتلوا موضعاً لأصبح من المستحيل إزاحتهم عنه ..» .

وأما في أهداف القتال العباسي أخيراً فالتطور الهام والأساسي في هذه الناحية هو أن الجيش تحول من جيش للجهاد أولاً ثم للأمن في العهد الأموي إلى جيش للأمن أولاً ثم للجهاد . وهذا التبدل في الترتيب له أثره الكبير ومعناه . فقد كانت مهمة المؤسسة العسكرية العباسية هي في الدرجة الأولى إبقاء الدولة : داخلياً بخنق الثورات ودعم العرش وخارجياً بحسن الدفاع وحفظ الرقعة الأرضية بعكس ما كان في العهد الأموي فقد كانت مهمة الجند أيامه هي عملية التوسع والانسياح السطحي الجغرافي ثم إقرار الأمن الداخلي وسحق الثورات . وليس من الصعب أن نلاحظ أن أعمال العباسيين العسكرية على الحدود كانت كلها دفاعية حتى عند الهجوم بينما انصرفت طاقات الجيش وجهوده بصورة أساسية لإخماد الثورات وإقرار الأسرة العباسية في الخلافة .

الفصل الثاني عشر

المشاكل والحركات السياسية

يمكن أن نقسم المشاكل الداخلية في هذه الفترة، (بين سنة ١٥٨-١٢١٨هـ) وملات الكتب أحيانا بالأخبار وكانت قصصا عن الدماء المراقبة والجثث دنية ، على أن نقرر سلفاً أن الحركات السياسية كانت تحمل أحيانا الطابع الديني كما كانت الحركات الدينية تحمل عناصر سياسية واضحة .

ولعل من الضروري جدا قبل بحث هذه الحركات أو تلك سواء في هذا الفصل أو في الفصول السابقة أو اللاحقة أن نلح في إيضاح نقطة جوهرية هامة في هذا الباب كله هي أننا ونحن نبث الثورات والفتن المختلفة لاعتبرها - ولايسكن أن نعتبرها - هي تاريخ هذا العصر .

إن هذه الثورات والفتن وإن طغت على السطح السياسي للأحداث وملات الكتب أحيانا بالأخبار وكانت قصصا عن الدماء المراقبة والجثث بالآلاف والرؤوس المقطوعة والأجساد المصلوبة أو التي اهترأت في السجون ليست هي أبدا الصورة الحقيقية والواقعية للتاريخ العباسي وللعصر . لقد كانت بالعكس هي الصورة السلبية له وهي نقاط الشذوذ ولحظات الازمات بالنسبة لبعض العقائد أو لبعض الأقالييم

أو لبعض السياسيين • والمؤرخون حين سجلوها (وحين نسجلها نحن بدورنا بعدهم) فانما كانوا يشيرون اليها كأحداث غريبة • وأما الجماهير الواسعة التي كانت تعيش حياتها بشكل هادئ رخي • وتبدع الاداب والفنون وتعمل في الصناعات ، وتخدم الحياة ، أو تعمل على بناء صروح الفكر والثقافة والكتب أو تسير قوافل التجارة ومراكبها في البر والبحر هذه الجماهير التي كانت تشكل الكتلة الكبرى والرئيسية من الرعية وتعيد بأيديها وجهودها ماتخربه الأعمال السياسية والفن من بناء وأسوار وزرع وشجر وما تقطع من صريق أو تنزق من ارحام أو خبرات أو إنتاج فلم يكن المؤرخون في الواقع يجدون حاجة للحديث عنها • وهكذا فان صورة هذه الفتن والثورات تصدق في تصوير العصر العباسي (وغيره أيضاً) بمقدار ما تصدق أخبار وإحصاءات الجرائم والسرقات والمظاهرات التي تنشرها الصحف في تصوير حياة المجتمع الحالي الذي نعيش • ومن الضلال الكبير أن تفهم على أنها أكثر من الصورة السلبية المحدودة لواقع ايجابي أوسع منها بكثير وأرحب منها بكثير وأشد منها انشاء وألقاً وجدارة بالعناية والتذكر • ويكفي أن نذكر أنه مقابل هذه الاحداث السوداء كان ثمة حضارة كبرى تبنى وتتكون بأيدي الجماهير الاخرى الواسعة التي كانت تشكل الاكثرية العاملة ..

ولعله من المفيد هنا أن نضيف أن كافة الامبراطوريات والممالك الكبرى في التاريخ عرفت من الاحداث والفتن والثورات مثل ما عرفت الدولة الاسلامية ولعل بعضها عرف أكثر منها بكثير أيضاً وأمثلة التاريخ الروماني والبيزنطي والصيني والساساني - بل وامبراطوريات العصر الحديث أكثر من أن تحصى عند المقارنة في هذا المجال الخصيب •

الحركات السياسية :

لا يكاد يختلف الموقف السياسي الداخلي كثيراً في فترة الاستقرار، وعصر الرشيد عن الفترة السابقة المنصورية بل ولا عن العهد الأموي : فانا نجد دوماً - بجانب أطماع بعض أبناء البيت المالك - حركات العلويين ، والخوارج والثورات المحلية الخاصة تظهر لدوافعها المعروفة وتموت بالقوة العباسية . غير انا نلاحظ في هذا العهد ، وهو فترة الأوج في التاريخ الإسلامي انه كان أيضاً مطلع الانهيار وكان يحمل في ذاته أوائل وبذور التجزؤ المقبل .

أصحاب هذه الحركات هم إما عباسيون وعلويون وخوارج من جهة أو ثوار في الأقاليم المختلفة من جهة أخرى وإذا كان الأوائل أصحاب مبادئ ومطامح يشورون من أجلها فان حركات الأقاليم إنما كانت في معظمها ذات جذور اقتصادية خاصة تتعلق بظلم العمال يضاف اليها - حسب اختلاف الاقطار - بعض العناصر الدينية أو القومية أو القبلية الأخرى .

١ - الطامعون العباسيون :

بالرغم مما قد يبدو من التناقض بين كلمتي «الاستقرار العباسي» والطامعين من آل العباس فقد عرف الخلفاء العباسيون وهم في فترة الأوج محاولات عباسية للخلاص منهم وتحويل الخلافة من فرع الى آخر أو من شخص الى آخر فيهم وإذا نحن لم نعتبر مشكلة الخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون ، من هذا النوع من المشاكل (مع أنها في واقعها منها) فإننا نستطيع أن نعد من هذا الباب محاولات ثلاثاً على الأقل :

أ - محاولة عبد الملك بن صالح : فقد غبرت منذ نزاع المنصور
وعبد الله بن علي سنوات طويلة تزيد على نصف القرن استطاع أولاد
المنصور وأحفاده خلالها أن يحتكروا عرش الخلافة فلا طامع ينزعهم
هذا الحق أو يقض مضجعهم في الأسرة العباسية . وأول مفاجأة في هذا
الباب تفاجئنا سنة ١٨٧ عقب نكبة البرامكة إذ يلقي الرشيد في السجن
بأبرز شخصية في البيت العباسي كله يومذاك : عبد الملك بن صالح بن
علي العباسي وعدد أفراد هذا البيت كان يومذاك - حسب الإحصاء
الذي تم سنة ٢٠٠ ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين ذكر وأُنثى^(١) وكان لرجاله
جميعاً الرواتب اللازمة كما كان للبارزين منهم مراكزهم من الدولة .
وآل صالح بن علي استقروا في حلب وكانت لهم إقطاعاتهم الواسعة فيها
ولهم مكاتئهم التي استمرت عدة قرون منذ ولي تلك المنطقة صالح بن
علي وضرب النقود باسمه فيها^(٢) . (١٣٧ - ١٥٢ هـ) وبعد أن تولى
ابنه الفضل الولاية فترة أعطاها المنصور لغيره حتى إذا جاء الرشيد
أعطاها لعبد الملك بن صالح سنة ١٧٥ فترة قصيرة ثم أعاده إليها بعد
سنة ١٨٢ سنوات . ويوصف الرجل بالفصاحة . والنصوص الباقية
المنسوبة إليه تجعله في سوية البلغاء البارزين . وعلى أي حال فإن
الرشيد ما كاد ينفذ يديه من دم جعفر البرمكي ويحبس أهله حتى
كشف للناس عن تأمر عبد الملك بن صالح عليه .

ذكروا أن عبد الرحمن بن عبد الملك نفسه وأن كاتبه ومولاه

(١) الطبري ج ٨ ص ٥٤٥ (٣/ ١٠٠٠)

(٢) ذكر ابن العديم هذه الاسرة اكثر من مرة في موسوعته بغية
الطلب المخطوطة كما ذكر في بعض اخبارهم في زبدة الحلب وانظر فيما
يتعلق بولاية صالح وضرب النقود ج ١ ص ٥٩ فما بعد .

قمامة رفعا للرشيـد أن عبد الملك «يؤهل نفسه للخلافة وأنه يرأس
رؤساء القبائل والعشائر في الشام والجزيرة» • ويبدو أن هذا الاتهام —
إن صح — متصل بنكبة البرامكة أنفسهم فإن عبد الملك يعلم قبل غيره
أن الوصول إلى الخلافة لا يقوم بتأييد أهل الشام والجزيرة وحدهم ولا
بد خاصة من تأييد خراساني فهناك سند البيت العباسي • وهذا التأييد
إنما كان يملك أمره في ذلك الوقت — وعن طريق الصلات مع دهاقين
خراسان — آل برمك •

وجاء الرشيد بعبد الملك يندد به فأنكر واستعمل بلاغثة فقال
الرشيد أتضع لي من لسانك وترفع لي من جنانك ! وجاءه بابنه وكاتبه
يشهدان عليه • فلما أصر على الإنكار قال الرشيد : أما أمرك فقد وضح
ولكني لا أعجل حتى اعلم الذي يرضي الله فيك ! ثم أعاده إليه في مجلس
تحقيق آخر أنهاه الرشيد بقوله : أما والله لولا الإبقاء على بني هاشم
لضربت عنقك • واتهمه بأنه ليس لصالح ولكنه ابن مروان بن محمد
الجعدي من إحدى جواريه وحقق بشأنه مع يحيى البرمكي السجين أيضاً
وأخيراً أرسله إلى السجن • والشفاعة الوحيدة التي قبلها فيه أنه أخرجه
من سجن المطبق فجعله في سجن الفضل بن الربيع « فلم يزل سجيناً حتى
توفي الرشيد • فأطلقه الأمين وعقد له على الشام »^(١) بعد أن عاهده عبد
الملك أن يجندله الأجناد ويدعمه ضد أخيه المأمون ولكن الموت أعجله
سنة ١٩٦ وقد سئل حين أطلق عن التهمة فأنكرها أيضاً وقال : « والله إن
الملك لشيء ما نويته •• ولو أردته لكان أسرع إلي من السيل إلى
الحدود • وإني لمأخوذ بما لم أجن ••• ولكنه حين رآني للملك قمنا

(١) انظر الطبري ج ٨ ص ٣٠٢ — ٣٠٧ (٣/٦٨٨ — ٦٩٤) واليعقوبي

ج ٢ ص ٤٢٤ ، ٤٣٤ ، ٤٣٩ •

وللخلافة خطراً . . . ورأى لي يدا تنالها إذا مدت . . . عاقبني عقاب من
قد سهر في طلبها . . . فإن كان (الرشيد) إنما حبسني على أنني أصلح لها
وتصلح لي فليس ذلك بذنب فأتوب منه وإن زعم أنه لا صرف لعقابه
إلا بأن أخرج له من الحكم والعلم والحزم . . فلا يستطيع العاقل أن
يكون جاهلاً . ولو أردتها لأعجلته عن التفكير ولما كان من الخطاب إلا
اليسير ومن بذل المجهود إلا القليل . . » .

ب - خلافة ابراهيم بن المهدي : والرجل من ولد المهدي ومن
اخوة الرشيد أمه أم ولد من طبرستان تدعى شكلة . ومع أنه كان أسود
شديد السواد ، ونصف وجهه شامة وسمح المنظر وكانوا يدعونه
عنقوداً لهذا السبب إلا إنه كان محبوباً إلى الناس وخاصة الفنانين كما
كان من المغنين المعروفين .

وقصة خلافته التي دامت سنتين في بغداد . يجب أن تسلكه في
عداد خلفاء بني العباس . وما كان ابراهيم ليفكر بالخلافة لولا أن
بغداد التي دمرت في الحرب الأخوية بين الأمين والمأمون
ظلت على القلق والاضطراب منذ مقتل الأمين سنة ١٩٨ وحين
وصلها الحسن بن سهل سنة ١٩٩ والياً على العراق وما وراءه إلى أقصى
المغرب لم يستطع دخول المدينة بسبب رفضها له بالقوة واستمر
الاضطراب حتى تكلم بنو هاشم والقواد فيها وقالوا : نصير بعضنا
خليفة ونخلع المأمون ! وفاوضوا أحد أحفاد المنصور (محمّد بن صالح)
فرفض وأرادوا منصور بن المهدي على الخلافة فخشي مغبة هذه المبادرة
وأبى ذلك عليهم فلم يزالوا به حتى صيروه أميراً سنة ٢٠١ ولكن خليفة
للمأمون ببغداد والعراق . وقالوا : لا نرضى بالمجوسي بن المجوسي

(الحسن بن سهل) ونظرده حتى يرجع الى خراسان . . . اما منصور فقال:
أنا خليفة امير المؤمنين حتى يقدم أو يولي من أحب ! . . . وأما جند هذه
الحركة فكانوا من جماعات الابداء وأهل بغداد والمطوعة والشطارين
والعيارين الذين بلغت عدتهم ١٢٥ ألفاً بين فارس وراجل^(١) يقودهم
محمد بن أبي خالد . وقد قتل في المعارك مع الحسن بن سهل تلك السنة
سنة ٢٠١ فخلفه على القيادة ابنه عيسى . . .

في تلك الغمرة وصل كتاب من الفضل بن سهل الى أخيه الحسن
ياثقل المأمون الى الاتجاه العلوي وأنه ترك السواد الى الخصرة وأنه
جعل ولاية العهد من بعده للامام علي بن موسى الكاظم وسماه الرضى
من آل محمد !

وتلقت بغداد أسوأ التلقي هذا الخبر . ومع أن عيسى بن ابي
خالد كان قد اتفق مع الحسن بن سهل ووعد أهل بغداد بتعجيل رزق
شهر إليهم والباقي متى أدركت الغلة إلا أنهم اختلفوا الاختلاف الكبير بعضهم
قبل البيعة وبعضهم رفض وأنكر . وظن بعضهم أنها دسيس من الفضل
ابن سهل وأما بنو العباس فغضبوا — وكان طبعياً أن يغضبوا —
« واجتمع بعضهم الى بعض وتكلموا فيه وقالوا : نولي بعضنا . وكان
المتكلم في هذا والمختلف والمتقلد له (الاخوان) ابراهيم ومنصور ابنا
المهدي »^(٢) .

كان ذلك في الأيام الأخيرة من سنة ٢٠١ واتفق العباسيون على

(١) الطبري ج ٨ ص ٥٥٠ (١٠٠٨/٣) وانظر كذلك اليعقوبي ج ٢ ص ٤٥٠

(٢) الطبري ج ٨ ص ٥٥٥ .

مبايعة ابراهيم بن المهدي بالخلافة ومن بعده ابن أخيه اسحق بن موسى ابن المهدي . وبايع البغداديون على الفور وخلعوا المأمون في أول المحرم من سنة ٢٠٢ وأخذ الجند أرزاقهم ٢٠٠ درهم لكل رجل !

«وتلقب ابراهيم بالمرضى وصلى بالناس وكتب بالولايات وعقد الألوية . وأطاعه الأبناء (الجند) وأهل الحرية وما والاها إلا من كان في طاعة المأمون»^(١) . ثم غلب ابراهيم على الكوفة ولكن جيشه هزم أمام الحسن بن سهل المتحصن في واسط ...

وبلغ الخبر المأمون ، وكان الفضل بن سهل فيما يقولون يكتنم عنه الأبناء كلها فاضطرب وقرر المسير الى بغداد يستقر فيها بدلا من مرو المنعزلة .

ولكن المسيرة طالت كثيراً . بدأت مرحلتها الأولى الى سرخس حيث قتل (في مطالع شعبان سنة ٢٠٢) الفضل بن سهل الوزير . وتحرك الموكب من هذه المدينة يوم عيد الفطر الى طوس حيث مات ولي العهد علي الرضى (صفر سنة ٢٠٣) وكتب المأمون إثر ذلك الى أهل بغداد يعلمهم موت علي ويسألهم الدخول في طاعته فأجابوه «بأغلظ ما يكتب به الى أحد» وتحرك المأمون بعد ذلك الى جرجان ثم الرى ... بينما كانت جماعته - على ما يبدو - تشتري له الناس في بغداد فقد تأمر عيسى ابن ابي خالد مع قائد جماعة المأمون عند بغداد وأخذ عدد من بني هاشم ومن القواد يتسللون إليه وبعضهم يعرض القبض على ابراهيم الخليفة

(١) البعقوبي ج ٢ ص ٤٥١ . ويقول السيوطي (تاريخ الخلفاء ص ٢٠٧) إنه لقب بالمبارك .

نفسه • وأسقط في يد ابراهيم فاختنى (أواخر ذي الحجة سنة ٢٠٣) بعد
خلافة دامت سنتين إلا أياماً ...

كان المأمون إذ ذاك في الرى فاتجه الى بغداد ودخلها (في صفر
سنة ٢٠٤) ! وبعد سبع سنوات ظفر بابراهيم بن المهدي متنكراً في ثياب
امراة فعفا عنه مع أن أصحابه جسيماً أشاروا بقتله^(١) ...

ج - حركة ابن عائشة :

وهو ابراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن ابراهيم الامام • ويبدو أن
بغداد والعباسيين لم يرضوا بالمأمون حتى بعد مرور سنوات على إقامته
ببغداد ولهذا نجد هذا العباسي الاصيل يسعى لاعادة الخلافة الى ابراهيم
المهدي • مع فريق من موالي العباسيين وقد وشى بهم أحد الوشاة
إلى المأمون (صفر سنة ٢١٠) فوقعوا في قبضته بينما كانوا على وشك
تنفيذ مؤامرة للاطاحة به • وفيهم خليط من الجماعات التي كانت تضسهم
بغداد مثل مالك النفري من السواد ومحمد بن ابراهيم الافريقي وفرج
البغفاري وكانوا قد « دونوا الدواوين وأثبتوا أسماء الرجال وسوا
العمال »^(٢) • وفي السجن ثاروا وأيدهم المساجين وسدوا باب السجن
مما اضطر المأمون حين سمع بذلك إلى أن يخرج بنفسه إلى البلد وإلى
السجن • ويبدو أن المؤامرة كانت مدبرة بحيث تبدأ بحريق واضطراب
في بغداد • فان ابن طيفور يذكر أن ابن عائشة وأصحابه كانوا قد دسوا

(١) الطبري ج ٨ ص ٦٠٤ - ٦٠٦ (١٠٧٦/٣ - ١٠٨١) ، اليعقوبي

ج ٢ ص ٤٥٨ •

(٢) الطبري ج ٨ ص ٦٠٢ - ٦٠٤ (١٠٧٦ - ١٠٧٣/٣) ، اليعقوبي

ج ٢ ص ٤٥٩ •

من أحرق سوق العطارين والسيارفة والصفارين والفرائين وأصحاب
الرامدار ... وقبل ذلك أوبعده أحرقوا أصحاب الحطب في البغين ..
ويذكر المؤلف نفسه ، أن المأمون استنفر أخاه المعتصم وجميع القواد في الليل ،
وأوقف الجند بمئات الشموع على أبواب بغداد وهم على ظهور دوابهم
وقد فوقوا قسيهم (أي في وضع الاستعداد للقتال) فان تحرك شيء
أتوا عليه ...»^(١) وقد رأى المأمون رجلا يلعب بكلب الجنة وقد جعل
لحافه ترسا وتسليح بحطبة للقتال فشكره وأمر له بعشرين ألف درهم .

وأشاع أنصار المأمون أن ابن عائشة وأصحابه تنصروا » ...
وشدوا الزناير ووضعوا الصلبان في أعناقهم ... » وذلك لتبرير العقوبة
الفورية التي أوقعها بهم المأمون إذ ذهب الى السجن ف ضرب أعناق جماعة
منهم وصلبهم أياما . وفيهم ابن عائشة الذي قيل إنه « شتم المأمون
في وجهه » تلك الليلة .

٢ - العلويون : أهم ما يسجل للعلويين في هذه الفترة ويوضح في
الوقت نفسه موقفهم تجاه العباسيين أن كلمة آل البيت أضحت مصطلحا
شائعا ولكنه يحمل معاني مختلفة يمكن تلخيصها بأنها تضم بيوتات أربعة
تشكل أربع دوائر متداخلة وبعضها أكبر من بعض : الدائرة الاولى
الفاطمية تضم أولاد فاطمة فقط وهم بدورهم فرعان : بيت الحسن وبيت
الحسين وهي أضيق الحلقات والمفاهيم . الثانية : العلوية وهي أوسع
من الاولى لأنها تضم العلويين أي كافة البيوت من نسل علي بن أبي
طالب .

الثالثة : الطالبية وهي أشد سعة وتضم الطالبين جميعاً من نسل

(١) انظر ابن طيفور - تاريخ بغداد ص ٩٧ - ٩٨ و ص ٩٩ .

أبي طالب ومنهم آل عقيل وال جعفر •

الرابعة : وهي أوسع الدوائر ويمكن أن ندعوها بالهاشمية أحياناً لأنها تضم العباسيين خاصة في آل البيت وتضم معهم باقي الأسر من آل عبد المطلب بن هاشم •

وكان الشقاق والتزاحم بين هذه المفاهيم يعكس الاطماع المختلفة لأبناء هذه البيوتات الشريفة • في الميدان السياسي • وكثيراً ما كان أبناء الدوائر الأضيـق ينفون أبناء الدوائر الأوسع عن القربى المباشرة بالرسول وبالتالي عن منابع الشرعية في الحكم وقد أدى ذلك إلى حقد بعضهم على بعض أحياناً وعمل بعضهم ضد بعض حتى درجة الوشاية للسلطات أو القتال •

وقد أدى هذا التوزع مع تكاثر الأبناء والعدد في آل البيت وتشابك الأهواء السياسية والدينية المختلفة ضمن المجتمع الإسلامي إلى ظهور الفرق المختلفة التي تنسب إلى آل النبي بشكل أو بآخر • وإلى تضارب الصلات بين هذه الفرق وتعدد العقائد التي يحملها أشياعها مع الزمن وهكذا صارت الفرق الطالبية خاصة — إذا تركنا جانباً الجماعة الهاشمية العباسية الحاكمة — مجموعة واسعة تضم أشتاتاً من الآراء تمتد بين أقصى الغلو والباطنية وبين التشيع المعتدل الذي لايزيد عن احترام آل البيت •

على أننا نكتفي هنا بالاهتمام بالفرق والتحركات التي عبرت عن مطمح سياسي أو أثرت في مسيرة الدولة العباسية • وفي هذا المجال نلاحظ :

آ - ان البيت الذي استأثر بأكثر الحركات في هذه الفترة إنسا
كان البيت الفاطمي دون باقي الجماعات الأخرى بل استأثر بها خاصة
الفرع الحسيني من الفاطميين دون الفرع الحسيني أيضا . وبسعى آخر
قام بهامن تسموا بالفرقة الزيدية دون الفرقة الأخرى التي عرفت بالامامية^(١)
والواقع أن الزعماء من آل الحسن هم الذين قادوا وحدهم تقريبا الطسوح
السياسي لآل البيت في العصر العباسي الاول فكان من ذلك ثورات
عديدة فاشلة وتكوين دولة علوية في أقصى المغرب ينسب اكتفى الحسينيون
بالطسوح العلوي فكان من ذلك انشاء الفرقة الامامية (المعروفة بالاثني
عشرية) والمذهب الفقهي المعروف بالجعفري . وقد تأخر الحسينيون
في تبني الافكار والاطماع السياسية الى أواخر القرن الثالث الهجري
حين ظهرت منهم الحركة القرمطية الباطنية في المشرق ثم ظهرت بعد ذلك
الحركة الفاطمية في المغرب .

ب - بالرغم من أن العلويين (الحسينيين) نجحوا لأول مرة في
التاريخ الاسلامي في اجتزاء قسم من الدولة العباسية . بعيد عن بغداد
كل البعد ، فأقاموا فيه دولتهم الاولى (الادريسية) في عهد الرشيد
فان الخارجين والمطالبين بالخلافة منهم كانوا رغم كثرتهم يفشلون لانهم
غالبا ماكانوا يخرجون في عدد قليل من الانصار ودون تهيئة حكيمة
لثورة فينتهي الامر بمقاتلتهم أو بسقوطهم سجناء أو طرداء .

(١) بالرغم من أن زيد بن علي زين العابدين هو من نسل الحسين فان
اولاد عمه آل الحسن هم الذين تبنوا الافكار السياسية التي قال بها في
أواخر العهد الاموي وأهمها أن الامامة محصورة في من يثور لها من أبناء
الحسن والحسين . وأن الثورة واجبة على الامام الظالم . ولقامة الحق
وإزالة البغي . ولهذا دعى الحسينيون بالزيديين بينما أخذ الحسينيون
اسم الامامية لقولهم بتسلسل الامامة في الائمة الاثنى عشر .

ج - أدى النشاط السياسي العنيف الذي عاشته الدولة العباسية في عصرها اولال الى ظهور الجدل النظري الكلامي بين العلويين والعباسيين فاذا كانت حرب آل هاشم للامويين حربا لا يختلف عندها في افضلية اهل البيت عامة على بني أمية فقد احتاج الطالبون الآن لمنافسة ابناء عمهم المباشرين منافسة نظرية بجانب الجهاد العسكري الحربي . واقتضى ذلك ترتيب الحجج الشرعية لأفضليتهم والدعاية الدقيقة - لاسيما في الشعر - لرأيهم وحقهم . فكان من ذلك ركام من الشعر والنثر اتجته قرائح المواليين لهم آتت في الفقه وعلم الكلام والشعر . ومن أشهر شعرائهم اذ ذاك السيد الحميري (الكيسان) اسماعيل بن محمد (١٧٣ هـ) وقد اسرف في ذم السنيين والصحابة حتى نبذ شعره . ثم دعبل بن علي الخزاعي الذي هجا خلفاء بني العباس وولاتهم وكبار دولتهم هجاء حفظت بعض كتب التاريخ والادب شيئا قليلا منه .

وظهر بالمقابل لدى العباسيين من يبين شرعية حكمهم إسلاميا بالاستناد الى الفقه الاسلامي كما ظهر من يصوغ شعرا لهم يسير على الالسن ويؤيد حقهم مثل : مروان بن أبي حفصه وغيره .

د - وبالمقابل فقد أدى فشل معظم الحركات العلوية مع بعض الاسباب الاخرى (كدخول الافكار غير الاسلامية في التشيع وتنافس افراد العلويين حول الامامة) الى دخول التشيع منذ نهاية عصر المأمون في طور سري ظهرت منه عقائد غريبة تغلغلت فيها الفلسفة وترسبات الاديان المختلفة الاولى ، كما تسربت هي بدورها بين الطبقات العامة فاستخدمت هذه الطبقات غرضا ووسيلة لعدة حركات مقبلة .

على ضوء هذه الملاحظات العامة ندرس بالمقابل تطور السياسة العباسية تجاه العلويين بفرعهم الحسيني والحسني أو الامامي والزيدي^(١)

أولا الحسينيون : (الامامية) رسم كل من عبد الله المحض زعيم آل الحسن وجعفر الصادق كبير الحسينيين منذ مطلع العصر العباسي الطريق السياسي لهذين الفرعين من آل البيت فاذا كان الاول ذا مطامع سياسية جعل يصبها ويحولها الى ابنه محمد (النفس الزكية) ويرجو له أن يكون « المهدي » المنتظر فان جعفرا الصادق قد اتجه الى العلم وسالم العباسيين فتقبلهم وتقبلوه . وقد استمر الخط الذي رسمه هذان الزعيمان هو خط الفرعين حتى آخر العصر العباسي الاول : للاولين الثورة وللآخرين العلم .

كان جعفر الصادق يهتم بالعلم والفقه على سنة ابيه محمد الباقر وجده زين العابدين في الشغل بالدين والبعد عن السياسة^(٢) وقد وجه اهتمامه مثلهما الى « إمامة » الجماعة الشيعية التي قادها ٢٨ سنة والى بناء تكوينها الفكري . وإذا عاصر الصادق ثورات الشيعة الزيدية ومصارعها أيام الامويين فقد اتخذ التقية مبدأ وكان يسمى الثائرين « بالغصاب » لأنه لا يرى حمل السلاح ضد الحاكمين وهكذا رفض

(١) بهذين الاسمين كان يعرف الفرعان في العصر العباسي الاول . يروي الطبري أن جماعة كانوا في مجلس المامون « . . . فتناظروا في التشيع فنصر محمد بن أبي العباس الامامة ونصر علي بن الهيثم الزيدية وجرى الكلام بينهما . . . » انظر الطبري ج ٨ ص ٥٧٧ (١٠٣٩/٣ - ١٠٤٠) .
(٢) انظر سبط ابن الجوزي - تذكرة الخواص ص ١٩٢ الذي يقول إنه شغل بالعبادة عن طلب الرئاسة والاصبهاني حلية الاولياء ج ٣ ص ١٩٢ الذي يقول إن الصادق « أثر العزلة والخشوع ونهى عن الرئاسة والجموع »

محاولات أولئك الذين عرضوا عليه الخلافة في مطلع العهد العباسي وكان على صلات طيبة مع ابي جعفر المنصور الذي سماه هو نفسه بالصادق وكان يظهر له الاحترام والتبجيل الشديدين مصانعة وسياسة. ويراقبه في الوقت نفسه (١) فلما سمع أن بعض الغلاة كابي الخطاب الاسدي قد التفوا حوله ويثرون باسمه واسم ابنه اسماعيل استدعاه المنصور مع ابنه الى العراق (٢) وقتل أحد انصارهما (بسام بن عبد الله الصرفي) . كما قتل الكثيرين من اتباع الصادق مثل المعلی بن جنيس الذي أخذ الصادق علنا ثأره من صاحب الشرطة الذي قتله ومثل أولئك الذين قتلوا حين قمع والي المنصور ثورة ابي الخطاب في البصرة سنة ١٣٨ واذا استطاع الصادق أن يحافظ على مكاتته وحياده رغم أنه وجد في فترة من أصعب وأدق الفترات التاريخية فقد تابع موسى الكاظم خطة أبيه بعد وفاته سنة ١٤٨ فكان للعلم وللمسالمة السياسية ومع ذلك فقد سجن مرتين ثم أعفى حياته في المرة الثالثة بسجن الرشيد سنة ١٨٤: كان سجنه الاول بأمر المهدي نوعا من السجن الاحترازي : ويبدو انه دعا به من المدينة فأنزله منزلا إجباريا لدى بعض رجال حاشيته الربيع ابن يونس وتلا المهدي ذات يوم وهو في الصلاة : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الارض وتقطعوا أرحامكم » فاستدعى موسى الكاظم وقال : قد خفت أن أكون قطعت رحمك فوثق لي أنك لا تخرج علي .

(١) انظر ابن طولون - الائمة الاثنى عشر ص ٨٥ .

(٢) انظر كتاب اثبات الوصية المنسوب للمسعودي ص ١٥٣ (طبع

المكتبة المرتضوية - النجف) .

(٣) انظر الكليني - الكافي ج ٨ ص ٣٦ - ٣٧ (الروضة من الكافي -

مكتبة الصدوق طهران ١٣٨١) حيث يروي قصة حديث بين المنصور والصادق .

قال نعم : فوثق وخلاه^(١) » وسجن في زمن الرشيد مرتين : أطلقه في المرة الاولى بعد أن رأى في منامه عبدا حبشيا يهدده أن ينحره بحربة إن لم يطلقه فأخرجه واعطاه ثلاثين ألف درهم^(٢) ثم سجن في المرة الثانية بسبب وشاية - فيما يذكرون - وصلت الخليفة عنه : قالوا إن يحيى بن خالد البرمكي أغرى علي بن اسماعيل بن الصادق بالمال وكان على علم بأخبار موسى الكاظم فذكر للرشيد أن الاموال تحبل اليه من المشرق والمغرب وأن له بيوت اموال وانه اشترى ضيعة بثلاثين الف دينار وسماها اليسيرة ... وذكر حساده أيضا أن الناس يعتقدون امامة الكاظم ويحملون اليه خسر أموالهم وأنه عازم على الخروج^(٣) ... ولكن المصادر الامامية تذكر اسبابا أخرى فتقول : إن الرشيد حين حج سنة ١٨٣ وقف أمام قبر الرسول في موكب بني هاشم والمهاجرين والانصار فقال : السلام عليك يا رسول الله يا بن عم « مفتخرا بنسبه فتقدم موسى فقال : السلام عليك يا رسول الله يا أبت ... فتغير لون الرشيد^(٤) . أو تقول ان محمد بن اسماعيل بن الصادق كان يكتب لعمه موسى ويعرف اسراره فقال للرشيد : إن في الارض خليفتين يجبي اليهما الخراج فقال الرشيد ويلك ! أنا ومن ؟ قال : موسى بن جعفر وكشف أمره فقبض

(١) الطبري ج ٨ ص ١٧٧ (٥٣٣/٣) والمصادر الامامية تجعل القصة مع الهادي (انظر بن عنبه - عمدة الطالب ص ١٦٩)

(٢) المسعودي يذكر القصة . مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥ - ٣٥٧ .

(٣) انظر الاصبهاني - مقاتل الطالبين ص ٥٠١ - ٥٠٢ وابن طباطبا الفخري ص ١٩٦ .

(٤) انظر المفيد - الفصول المختارة من العيون والمحاسن ج ١ ص ١٥ والطبري - اعلام الوري باعلام الهدى ص ٢٩٧ .

الرشيـد عليه وكان سبب هلاكه^(١) . أو تقول إن الرشيـد اراد ارجاع « فـدك » (وهي إقطاع الرسول لابنته فاطمة) الى موسى الكاظم فكان موسى يأبى ذلك ولما ألح عليه الرشيـد قال : أقبلها بحدودها قال الرشيـد وماحدودها ؟ قال : عدن وسمرقند وافريقيا وسيف البحر مما يلي الخزر ... فغضب الرشيـد وقال : فلم يبق لنا شيء فتحول الى مجلسي وعزم على قتله^(٢) .

ولم نذكر هذه الاخبار الا لاعطاء فكرة عما كان يجول في أفكار العلويين عامة من الناحية السياسية ولكننا نرجح أنها أخبار موضوعة عامة في نطاق الجدل السياسي – الفقهي والارجح من خلال سيرة الكاظم وآبائه أنه لم يكن ليحبه الرشيـد بالتفاخر ولاليواجهه بكشف المطمع السياسي وقد لا تكون قصة الوشاية من قبل ولدي اسماعيل بن الصادق وقصة البرمكي والاعراء بالمال أكثر من روايات وضعت للحط من قدر هؤلاء ولكن يبقى مع كل أولئك أمر هام رئيسي هو قصة « الخمس » الذي كان يجبى من أنصار هؤلاء الائمة فلاشك أن هذه الجباية بالذات كانت سبب الريبة والشكوك والسجن .

فالذي يظهر أن الامام الصادق نظم فيما نظم أمر الفرقة الامامية جمع هذا الخمس للائمة وكانت الاخبار التي تترشح لابي جعفر عن هذه الجباية هي التي تثير قلقه فكان يطمئن من الامام جعفر ويتوثق من ولائه بين فترة وأخرى . ويبدو أن المهدي عرف بالامر على شكل

(١) ابن عنبه – عمدة الطالب ص ٢٣٣ – ٢٣٤ .

(٢) ابن شهر آشوب – مناقب آل ابي طالب ج ٤ ص ٣٢٠ – ٣٢١ ،

وانظر سبط ابن الجوزي – تذكرة الخواص ص ٣٥٩ – ٣٦٠ .

أوضح فخشي أن تكون هذه الاموال التي تجمع مطلع حركة انتفاض فسجن موسى حتى توثق منه فأطلقه . أما الرشيد فقد كان يقتر من عطائه لآل البيت . ذكروا أنه أعطاه مرة مائتي دينار بينما أعطى غيره خمسة آلاف وعلى ذلك قائلًا لو أعطيته ماأمنت ان يضرب وجهي غدا بمائة ألف سيف ولهذا فقد كانت الجباية التي ترد من أنصار الامام بمختلف أنحاء الدولة الاسلامية جديرة بان تقلق الرشيد وتثير الريبة والشك عنده وتدفعه للحجر على الكاظم الذي يترأس عمليا منظمة دينية . له فيها الامامة ومن الممكن أن تتحول في أي لحظة الى منظمة سياسية وقد حصل الكاظم أولا من المدينة فسجن بالبصرة لدى واليها عيسى بن جعفر بن المنصور الذي كتب الى الرشيد يسأله الاذن باطلاقه ويبدو أن الرشيد خاف تساهل هذا الوالي فنقل الكاظم الى بغداد لكن الرجل مالبت أن توفي في سجنه الثاني سنة ١٨٤ فأخرجه السنيدي ابن شاهك ودعا ثمانين من القواد والكتاب الهاشمين والقضاة والطلابين وكشف عن وجهه وأشهدهم انه ليس به أثر اغتيال قبل دفنه . ولئن كان هذا التصرف نفسه يؤكد الشكوك التي يثيرها الامامية حول قتله ^(١) لا موته فإنه من المحتل جداً أن يكون الموت طبيعيا وان تكون تلك الشهادة عملية احتراس دعوى امامية قد تتحول الى حركة سياسية لا مبرر لها .

أما الذي تولى الامامة بعد الكاظم فإنه علي الرضا . وقصته مع

(١) الدوري - العصر العباسي الاول ص ١٤٢ والمسعودي (مروج ٣ ص ٣٦٥) يذكر انه مات مسموماً وتجمع المصادر الامامية على موته بالسم . انظر المفيد - الارشاد ص ٣٠١ - ٣٠٢ و الصدوق - الامالي ص ١٤٩ - ١٥٠ .
١

المأمون سبق أن عرضنا لها في مشكلة ولاية العهد . وقد انتهى الرضا بدوره الى الموت في ظروف غامضة سنة ٢٠٣ ولكن المأمون الذي كان علوياً في نزعتة الفكرية النظرية رعى محمدا الجواد ابن الامام الكاظم وكان عمره ست سنوات عند موت ابيه ثم زوجه من ابنته . ولكنه احتضر وهو في ريعان الصبا سنة ٢٢٠ ليخلفه ابنه الامام الهادي علي بن محمد الذي عاصر الخلفاء حتى عهد المعتز

على أنه من الضروري أن نذكر للإمامية ، في العصر العباسي الاول ثلاثة أمور إن لم يكن لاولهما من نتائج سياسية هامة سوى تسجيل بعض الثورات السياسية فقد كان للثاني والثالث نتائجهما الخطيرة الواسعة الأبعاد في التاريخ الاسلامي كله حتى اليوم :

فأما الأول فهو أن الجماعة الحسينية الإمامية لم تنهج كلها ، في الواقع ، المنهج السلمى وقد لجأ بعضها إلى الثورة المسلحة وثمة أكثر من خبر عن خروج بعض زعمائها : ففي زمن المهدي ظهرت بعض فرق الغلاة التي سميت بالحسينية أتباع الحسين بن أبي المنصور^(١) وقدمزقها المهدي حين ثارت وقبض على زعيمها فقتله . وفي عهد الرشيد خرج أحمد ابن عيسى بن زيد الحسيني فحبسه الرشيد بالرافقة (على الفرات) سنة ١٨٨ فهرب الى البصرة وأخذ يكاتب الشيعة ويدعوهم الى نفسه فبث الرشيد عليه العيون وجعل لمن يجيء به الأموال فلم يظفر به وظفر بصاحبه والمدير لأمره وكان في التسعين من عمره ويسمى بحاضر فلم يدله على موضعه فقتله وصلبه . وطفى أمر أحمد بن عيسى ولم يعرف خبره بعد

(١) وتدعى هذه الفرقة بالخناقين وقد انشأها ابو المنصور العجلي في العهد الأموي وقتل بها . وفي مذهبهم خنق مخالفهم وقد صور الجاحظ (في الحيوان ج ٢ ص ٢٦٤ - ٢٦٥ و ٢٧١ وج ٦ ص ٣٩ - طبعة هارون) نشاط هؤلاء وعملهم .

ذلك^(١) كنا استغل بعض آل الحسين فترة الفوضى العامة التي أعقبت مقتل الأمين في الدولة فظهر منهم ثلاثة ثوار على الأقل : زيد (النار) بن موسى الكاظم في البصرة وأخوه ابراهيم في اليمن ومحمد الدياج في مكة . وسوف نعرض فيما بعد لهذه الثورات الثلاث باعتبارها ذيولا لقضية أخرى . ويكفي هنا أن نشير إلى أنها كانت مع تلك التحركات الحسينية الأخرى حركات محدودة العدد ومحدودة الأثر في وقت معاً .
وأما الثاني : فهو انقسام الفرقة الامامية ، ومنذ عهد جعفر الصادق الى طائفتين :

فرقة تسوق الإمامة لابنه الكبير اسماعيل رغم أن أباه حرمه ورغم أنه توفي في حياة أبيه (وهم الاسماعيلية)^(٢) فهو الامام السابع عندهم (أو ابنه محمد هو السابع) وتعرف هذه الفرقة بالسبعية أيضاً . وقد لعب الدور الأهم في وجودها الأول أبو الخطاب الأسدي بالاتفاق مع اسماعيل .

وفرقة أخرى تسوق الإمامة لموسى الكاظم ، الأخ الأصغر لاسماعيل ، وهم جمهرة الإمامية وبعض منهم حول الإمامة الى محمد الأخ الثالث المعروف بالدياج ويعرف هؤلاء بالسمطية^(٣) .

وبعضهم يسوقها الى الأخ الرابع عبد الله الملقب بالأبطح (وإن لم يطل أمد إمامته) . وإذا نتجت عن هذه التفرعات مضاعفات كثيرة

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٧٠

(٢) ويدعون أيضاً المباركية نسبة الى المبارك مولى اسماعيل بن جعفر وسوف يدعون في المستقبل باسم الفاطمية أيضاً ، وهم بالطبع غير الفرقة الاسماعيلية المعروفة اليوم .

(٣) نسبة الى رئيس لهم أيضاً يقال له يحيى بن أبي السميط .

اتهمت بظهور كثير من الفرق الصغرى حول الإمامية التي أصبح اسمها فيما بعد الامامية الاثنى عشرية . فإن المضاعفات التي نجمت عن الفرق الاسماعيلية السبعية كانت أكثر خطراً وتعقيداً وأهم في الدور السياسي إذ أنها اصطنعت المذهب الباطني وخرج منها فرقة بعد فرقة الجماعة القرمطية والفاطمية والحاكمية (الدرزية) والاسماعيلية الصباحية ... وقد لعبت هذه الفرق أكثر من دور خطير في تاريخ الاسلام كما أن بعضها ما يزال قائماً الى اليوم .

وأما الثالث فهو بلورة المذهب الإمامي وتكوينه في العصر العباسي الأول . وإذا كانت علاقات العباسيين بآل الحسن عدائية في الغالب فإنها على الأقل لم تكن على العداء مع آل الحسين والإمامية مما مكن هذه الفرقة أن تتكون بهدوء مستفيدة من علم الامام جعفر العزيز من جهة ومن الأخطاء السياسية التي ترتكبها الفرق العلوية الأخرى وهكذا ظهر « مذهب آل البيت » القائل بالامامة والعصمة والتقية كبداية سياسية بجانب المذاهب السنية الأخرى وأصبح أحد المذاهب الخمسة أو الستة الكبرى في الاسلام حتى اليوم .

ثانياً : حركات آل الحسن (الزيدية) : كانت علاقاتهم مع العباسيين قد وصلت أسوأ اطوارها عقب هزيمة محمد النفس الزكية وما سبقها وما تلاها من المآسي . لقد تصيد المنصور كبارهم قبل الثورة ومنهم ثلاثة من إخوة عبد الله المحض معه « .. فلم يزالوا في الحبس حتى ماتوا وقد قيل إنهم وجدوا مسمرين في الحيطان ... » وسحق رجالهم عند الثورة سواء في المدينة أو في البصرة . يقول المسعودي إنه « قتل مع (ابراهيم بن عبد الله) من الزيدية من شيعته أربع مائة وقيل خمس مائة

رجل ٠٠»^(١) ويقول ابن الساعي : « ٠٠ ابتلى الله تعالى المنصور بأذية آل الحسن السبط ٠٠ فقصوا بين مقتول ومسموم ٠٠»^(٢) وهرب بعض دعاة الزيدية الى اليمن فأقاموا فيها أسس الحركات والدول التي سوف تظهر هنالك فيما بعد وسنعرض لها عند بحث حركات اليمن ٠٠٠

وقد تنفس آل الحسن الصعداء عند موت أبي جعفر ٠ وزال الكابوس عنهم حين أعلن المهدي سياسته في اللين والرحمة العامة وحسبوا أن عهد التراحم والمسالمة الذي مر مروراً عابراً لسنوات معدودة زمن أبي العباس السفاح قد عاد كرة أخرى حين حاول المهدي استرضاءهم «فأخرج من كان منهم في السجن ، وأمر لهم على قول اليعقوبي – بجوائز وصلات وأرزاق دارة ٠٠٠»^(٣) ثم أعاد إليهم قطائعهم التي صادرها أبوه وألغى الحصار الاقتصادي عن الحجاز ووزع عليهم أثناء حجه ، وعلى كبار أهل الحجاز ، المبالغ الطائلة ٠ (٣٠ مليون درهم ونصف مليون دينار) وأمن الحسن بن ابراهيم حفيد عبد الله المحض حين استأمن إليه وأقطعته مالا من الصوافي بالحجاز وأحسن جائزته وصلته^(٤) كما ساعد استيزاره ليعقوب بن داود على زيادة التفاهم معهم لما عرف من ميوله الزيدية ٠ فإن المهدي كان يقول : «لو وجدت رجلاً من الزيدية له معرفة بآل الحسن وبعيسى بن زيد (بن علي زين العابدين) فأجتنبه الى على طريق الفقه فدخل بيني وبينهم فدل على يعقوب بن داود» فجعله من خاصته ثم «ما زال أمره يعلو حتى استوزره وفوض إليه أمر الخلافة.

(١) المسعودي – مروج الذهب ج ٣ ص ٣٠٨

(٢) ابن الساعي – مختصر اخبار الخلفاء ص ١٨ (منسوب الى ابن

الساعي – المطبعة الاميرية – القاهرة سنة ١٢٩٠ .

(٣) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٩٤

(٤) الطبري ج ٨ ص ١٣٣ (٣ سنة ٤٨٣) .

فأرسل (يعقوب) الى الزيدية فأتى بهم من كل أوب وولاهم من أمور الخلافة في المشرق والمغرب كل جليل وعمل نفيس ...» (١)

.. ولكن هذا العهد الرخي لم يدم طويلاً لأن السعيات أقبلت تقنع المهدي أن المشرق والمغرب في يد يعقوب وأصحابه وقد كاتبهم وإنما يكفيه أن يكتب إليهم فيثوروا في يوم واحد فيأخذوا الدنيا لاسحق بن الفضل ...» (٢) ونكب يعقوب وعزل أصحابه عن الولايات ولكنه لم ينكب الزيدية معه ... ولقد يكون استراب بهم كما استراب بالامام موسى الكاظم ولكنه لم يشعر بحركة لهم إلا مرة واحدة إذ قدم على بن العباس بن الحسن الى بغداد فدعا سراً لنفسه وتبعه بعض الزيدية ولكن امره كشف للمهدي فحبسه فلم يزل في السجن حتى استوهبه من المهدي الحسين بن علي بن الحسن فوهبه له ويذكر الاصبهاني الذي يروي الخبر أنه دس له حين أطلقه سماً «فلم يزل ينتفض عليه حتى قدم المدينة فتفسخ لحمه وتباينت أعضاؤه فمات» (٣) .

وإذا كانت سياسة المهدي مع العلويين على الرحمة والوفاق بصورة عامة فإن الهادي قلب هذه السياسة الى عكسها فجاء «في طلب الطالبين واخافهم خوفاً شديداً وقطع ما كان المهدي يجري لهم من الارزاق والاعطيات وكتب الى الآفاق في طلبهم وحملهم ...» (٤) ! ولم يكن هذا الموقف القاسي نتيجة لفشل سياسة المهدي اللينة مع العلويين بقدر ما كان يرجع الى عنف الهادي وتعصبه المتطرف . فخرج

(١) الطبري ج ٨ ص ١٥٦ (٣/٥٠٨)

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٥٧ (٣/٥٠٩)

(٣) الاصبهاني - مقاتل الطالبين ص ٤٠٣

(٤) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٠٤

الطويون ضده في المدينة : تزعم الحركة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب آخر سنة ١٦٩ في موسم الحج .

ويبدو أن الرجل دفع دفعاً إلى الخروج إذ « عزم الشيعة وغيرهم إليه وكا نله مذهب جميل وكمال مجد وقالوا له أنت رجل أهل بيتك وقد ترى ما أنت وأهلك وشيعتك فيه من الخوف والمكروه فقال : وائني وأهل بيتي لانجدناصرين فننتصر فبايعه خلق كثير ممن حضر الموسم . » (١) على الثورة واللاحق به متى أعلنها . ولا شك أن الحسين كان متأثراً كل التأثير بسياسة والي المدينة للهادي : عمر بن عبد العزيز العمري (حفيد ابن الخطاب) الذي أفرط في التحامل على الطالبين حتى أخذ كلا منهم بكفالة قريبه ونسيبه وإثبات وجوده اليومي في البلد . كما عامل بعضهم معاملة سيئة مهينة اندفاعاً مع أهواء الخليفة (٢) . كما لا شك من جهة أخرى أن الحسين كان «تواعد» مع بعض أصحابه «على الخروج بمنى أو بمكة في الموسم كما كان قد كاتب قوماً من أهل الكوفة من شيعته» فجأؤوه « وبأيامه » « وكمناوا » في بعض الدور . (٣) ينتظرون فلما بايعه الخلق الكثير في الموسم بمكة اتفق معهم على كلمة السر : «من رأى الجمل الأحمر ؟» وعاد الى المدينة فخرج بأصحابه ونادى بالكلمة « فما وافاه إلا أقل من خمس مائة » (٤) أما من كان في الموسم من الشيعة العباسية ومن الجند ومن لحق بهم عند سماع نداء الثورة بأمر الهادي

(١) اليعقوبي المصدر نفسه

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٩٢ - ١٩٣ (٣/٥٥٢ - ٥٥٣) وهو يذكر أن والي المدينة أوقع الحق على بعض العلويين في شرب الخمر والمصادر الميالة للتشيع كالإصفهاني واليعقوبي تنفى ذلك .

(٣) المصدر ذاته ص ١٩٣ (٣/٥٥٣ - ٥٥٤)

اليعقوبي ج ٢ ص ٤٠٤ - ٤٠٥ والإصفهاني يجعلهم ٣٠٠ فقط .

فكانوا في تقدير المسعودي عدة جيوش في أربعة آلاف فارس^(١) وأراد الحسين الثائر أن ... يتحول من المدينة الى مكة بعد ايام من خروجه وكان معه من اخوة محمد ذي النفس الزكية ادريس ويحيى (ولدا عبد الله المحض) فلاقاهم الجيش العباسي عند (فخ) قرب مكة يوم التروية (٨ ذي الحجة سنة ١٦٩/ ١١ حزيران سنة ٧٨٦) وكانت موقعة خاسرة لا تقل قسوة عن باخمري وكربلاء قتل فيها الحسين الثائر وأصحابه وجماعة من أهله وتعطى بعض المصادر ... للهادي صورة يزيد وبكائه حين ورد عليه رأس الحسين ويقول المسعودي إنه قال : ايتمونني مستبشرين كأنكم جئتم برأس رجل من الترك أو الديلم . إنه من عترة رسول الله . إن أقل جزائكم عندي ألا أثيبكم . ولم تكن تلك الواقعة بالمهمة في حد ذاتها ، لولا النكال الذي كان بها . ولولا انها قضت على أثر سياسة اللين التي اتبعها المهدي^(٢) . ولولا أنها أخذت شأنها الكبير في النتائج التي ترتبت عليها :

١ - فقد فر منها ادريس بن عبد الله المحض (خال الحسين الثائر) الى مصر ومنها الى المغرب الاقصى فجمع لنفسه بعض الاشياع وفشا امره وتسمى بالخلافة (سنة ١٧٢ هـ - سنة ٧٨٨ م) وهي أول مرة يظهر فيها خليفتان معاً في الاسلام^(٣) ولم يستطع الرشيد ان يبعث اليه في مراكش بجيش يقضي عليه ، فيقال إنه استعمل له بمشورة يحيى البرمكي ، رجلا يدس له السم . وتم له مصرعه سنة ١٧٧ هـ غير أن

(١) المسعودي - مروج الذهب ج ٣ ص ٣٣٦

(٢) انظر التفاصيل الواسعة لدى الطبري ج ٨ ص ١٩٣ - ٢٠٢

(٣) ٥٥٣/٣ - ٥٦٧

(٣) وكان الخوارج يسمون من يختارون بالإمام لا الخليفة .

أشياءه انتظروا ولادة جنين له من إحدى إماءته ، فسموه أدریس واقاموا له الدولة التي عرفت بدولة (الادارسة) والمستقلة عن الدولة العباسية وسوف نببحثها فيما بعد ويكفي أن نشير هنا إلى أنها كانت أول دول العلويين . وثاني جزء من البلاد الاسلامية ينشق عن سلطة العباسيين وبغداد ، نظرياً وعملياً .

٢ - وفر من موقعة فخ أيضاً اخ ثانی لأدریس هو يحيى بن عبد الله دخل بلاد الديلم يدعو لنفسه . وبالرغم من ان الرشيد بدأ عهده بازالة أثر سياسة اخيه القاسية ، فبذل الامان للطالبين وأخرج الخمس لبني هاشم ، ورفع الحجز عن كان منهم في بغداد سنة ١٧١ هـ وسيرهم الى المدينة (عدا العباس بن الحسن بن عبد الله) وبرغم ما يروي الفضل بن الربيع من ميول الرشيد العلوية ، والتي يظهر انها لم تكن تتجاوز حدود العطف على الاقارب ، فان هارون اضطرب لما علم بخروج يحيى في الديلم سنة ١٧٦ هـ وادعائه الامامة ، واجتماع الانصار اليه من الامصار والكور . هذا الى بعد البلاد ومناعتها . فندب الفضل بن يحيى البرمكي في خمسين الف رجل له . ورفده بأعظم القواد بعد ان ولاءه ، جميع كور المشرق وخراسان ، وامره بقصد يحيى والجد به ، وبذل له الامان والصلة ان قبل ذلك^(١) !..

واتبع الفضل طريقة الاقتناع والمفاوضة مع يحيى . ولعلها كانت مثله سياسة من جهة ، وميلاً الى العلويين من جهة اخرى . ودس الى صاحب

(١) الاصبهاني - مقاتل الطالبين ص ٤٧٠ . وانظر الجهمشيري - الوزراء والكتاب ص ١٩٠

الديلم من استماله بمليون درهم على قول الطبري ^(١) ، فانحرف عن يحيى . فلما رأى العلوي «تفرق أصحابه وسوء رأيهم فيه ، وكثرة خلافهم عليه ^(٢)» أجاب الفضل الى الصلح . واشترط ان يكتب الرشيد الامان بخطه ، ويشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بني هاشم . وورسي الرشيد أن يكتب الامان على مارسم يحيى . وجعل منه نسختين أرسل احدهما بتوقيعه وخاتمة الى يحيى ^(٣) . فقدم هذا على الرشيد فسّر به «واجازه بجوائز سنية» وبالنح في اكرام الفضل البرمكي ووضع يحيى تحت اشرافه وفي كنفه .

على أن يحيى أحس بأن « في نفس الرشيد الحيلة عليه ^(٤) » فاستطاع ان يؤثر على الفضل ليطلقه . فسافر الى الحجاز ثم علم الخليفة بالأمر وجاءه من يوسوس له ان يحيى يدعو لنفسه ذأمر بحمله الى بغداد وسجنه في سرداب ^(٥) . . . وكان يناظره بين حين وآخر . ثم احضر الفقهاء ليجدوا له مخرجاً من الأمان المكتوب له . فلم يجزؤ أن يفتي بذلك سوى ابي البخري القاضي ، فحمله الرشيد مسؤولية الفتوى . وختست حياة يحيى بشكل غامض في السجن ، بعد الفتوى بحوالي شهر ^(٦) .

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٤٣/ (٣/٦١٤) والمسعودي (ج ٣ ص ٣٥٢) يذكر انه «باعه» بمائة مليون ولعله خطأ النسخ .

(٢) مقاتل الطالبين ص ٤٧٠

(٣) المصدر نفسه وانظر الطبري ج ٨ ص ٢٤٣

(٤) الاصبهاني - مقاتل الطالبين ص ٤٧١

(٥) المصدر نفسه ص ٤٧٢

(٦) الطبري ج ٨ ص ٢٥٠ (٣/٦٢٣ - ٦٢٤) . والاصبهاني - مقاتل الطالبين ص ٤٧٢ . واليعقوبي يقول إنه مات جوعاً بينما يذكر المسعودي انه قد بنى عليه ركن بالحصى والحجارة وهو حي . . (مرو ج ٣/٣٥٢) .

وإذا تذكرنا موقف الرشيد من موسى الكاظم الذي أنهى حياته في السجن ومن أحمد بن عيسى بن زيد الذي هرب من السجن ثم اختفى أثره أمكننا القول إن الرشيد كان لا يزال على الرعاية والعلاقة الطيبة مع العلويين ما داموا مسلمين لا يعبرون عن رأي طموح سياسي فإن تنبه منهم الى طيف من ذلك تحول كغيره الى رجل دولة يريد الحفاظ على دولته بأي ثمن ودون أي اعتبار لقراءة أو حرمة ولم يتردد عن استخدام السجن والغدر والمطاردة .

ولم يظهر للعلويين من أثر واضح زمن الأمين والفتنة . أما المأمون فيتفق المؤرخون : كالطبري واليعقوبي والمسعودي والذهبي ، على وصفه بالتشيع . ويذكرون له أنه أمر سنة ٢١١ هـ بأن يقال : «خير الخلق بعد النبي صلى الله عليه وسلم على ...» وأنه جادل الفقهاء في فضل علي وكاد يأمر بلعن معاوية على المنابر .. ثم أمسك . وأنه رد (فدك) إلى آل فاطمة ، (وكان أبو بكر الخليفة الأول قد استردها منها بعد وفاة والدها الرسول الذي كان أقطعها إياها وقال : سمعت رسول الله يقول : «الأنبياء لا يورثون») . وربما كان هذا الميل العلوي في المأمون نتيجة اتصاله ببني سهل ، ولكن المأمون لم يكن في الواقع شيعياً إلا في الميل العاطفي الديني ، على حد قول المستشرق غبريللي ، الذي درس علاقة المأمون بالعلويين درساً وافياً خلص منه إلى هذه النتيجة . وربما كان الأصح أن نقول أن تشيعة إنما كان على أساس المنطق الفكري الاعتزالي وقد تطور هذا الميل لديه أول الامر وبتأثير الفضل بن سهل والظروف السياسية إلى درجة مبايعة أحد العلويين (علي الرضا) بولاية العهد ... على أن العلويين قبل هذه البيعة كانوا قد استغلوا الفوضى الشاملة بسبب الحرب الأهلية فاشعلوا العراق والحجاز واليمن بالثورة ووقعت هذه البلاد مؤقتاً في سلطانهم على اختلاف في المتزعمين لها .

ويرجع سبب سيطرتهم السريعة إلى عوامل عدة :

أ - بقاء المأمون في مرو بسبب خوفه من أهل بغداد وسياسة الفضل بن سهل لابقائه فيها . فبقي بعيداً لا يعلم بما يجري في قلب البلاد ليعالجه .

ب - سخط العناصر العربية على سياسة الفضل الفارسية . وسخط العباسيين خاصة على المأمون .

ج - الفوضى الشاملة التي نتجت عن حصار بغداد ، ومقتل الأمين ورفع يد طاهر بن الحسين العسكرية وتعيين الحسن بن سهل .
د - طموح العلويين وسنوح الفرصة المناسبة لطعن العباسيين .
هـ - ويمكن أن نضيف أخيراً ضجر الناس من الخصومة الأخوية ورجاءهم الخلاص من ذلك الوضع السيء .

مهد كل ذلك لانتشار الثورات التي ظهرت أخطرها في العراق سنة ١٩٩هـ / ٨١٥ م على يد أبي السرايا (السري بن منصور الشيباني) . ويختلف تصوير هذا الرجل لدى المؤرخين فهو عند الطبري مشاغب مغامر ، وعند الاصفهاني (في مقاتل الطالبين) بطل شيعي وعند غبريللي: «فارس عربي من الطراز القديم»^(١) ويقال إن السبب المباشر في إخروجه أنه كان من رجال هرثة بن أعين فمظله بأرزاقه وأخره بها فمضى إلى الكوفة غاضباً ثائراً^(٢) .

وقد اتخذ أبو السرايا بجانبه شخصية علوية يدعوا لها هي ابن طباطبا (واسمه :محمد بن ابراهيم بن أسماعيل من الفرع العلوي الحسني) الذي ظهر في الكوفة وانضمت إليه كل القوى العلوية التي كانت

(١) انظر الدوري - العصر العباسي الاول ص ٢٠٦

(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ٥٢٩ (١/٩٨٧)

بالعراق • ويؤكد غبريللي أن ثورته وثورة صاحبه أبي السرايا عربية عراقية صرفة • وإن التشيع كان حتى ذلك الوقت عربي الصبغة وكان هدف الثورة تحطيم بني العباس ، والصبغة الفارسية التي أغرقوا فيها (أيام المأمون خاصة) •

وأعلن ابن طباطبا برنامج الثورة في دعوته الناس إلى « كتاب الله وسنة نبيه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسيرة بحكم الكتاب... » ولكن المأمون استطاع أن يقاوم هذه الحركة عن طريقين :
أ - سلباً بنصب علي الرضا لولاية العهد والمجيء به من المدينة إلى مرو ومبايعته (في ٧ رمضان سنة ٢٠١) ونشر المأمون منشوراً على الناس يسترضيهم فيه وتظهر فيه مسحة الدعاية لصاحبه العلوي ، وحب تألف القلوب العلوية يقول فيه : « أنه بعد استخارته الله تعالى واجهاده نفسه في جقه وبلاده ... اختار من البيتين العلوي والعباسي علي بن موسى بن جعفر (الرضا) لما رأى من فضله البارِع وعلمه الناصع وورعه الظاهر وتحليه من الدنيا وتسلمه من الناس » • فلما قتل أبو السرايا (ومن قبله ابن طباطبا) تخلص المأمون من علي الرضا بدوره اذ لم يعد له لزوم في سياسته ولا مكان في خطته •

ب - ايجابياً اذ نصب المأمون لقيادة جيشه قائده الكبير هرثمة ابن أعين ووجهه إلى الكوفة • وأعين المأمون على أبي السرايا بعدد من العوامل: فإن ابن طباطبا العلوي توفي فجأة (ويقال إن أبا السرايا سمه لانه علم أن لا أمر له معه^(١)) ثم أن أهل الكوفة تخاذلوا في نصره الثائر وتخلّى اشرافهم عنه وتهاونوا مع هرثمة لا سيما حين « أقام أبو السرايا غلاماً أمرد حدثاً من العلويين مكان ابن طباطبا (هو محمد بن محمد حفيد

(١) الطبري ج ٨ ص ٥٢٩ (٣/٩٧٨)

زيد بن علي) فكان أبو السرايا هو الذي ينفذ الأمور ويولى من رأى ويعزل من أحب . . . » ويضرب الدراهم بالكوفة بينما انتشر الطالبيون في البلاد^(١) وهزم أبو السرايا عدداً من الجيوش التي أرسلها الحسن بن سهل ضده فاضطر ابن سهل الى أن يعهد الى هرثة بن أعين «أعظم القواد بحربه رغم مغاضبته له ، لا سيما حين أضحى جنوب العراق كله حتى مشارف بغداد بيد أبي السرايا الذي وجه اثنين من العلويين أخذ أحدهما المدينة دون حرب بينما هرب الوالي العباسي (داوود بن عيسى ابن موسى) وهرب بعده موالي بني العباس^(٢) من مكة فتركوها للعلوي الثاني الذي وصلها في آخر موسم الحج وهو الحسين بن الحسن الافطس .

لكن هرثة كان في تلك الأثناء قد تصدى لأبي السرايا وهزم رجاله أكثر من مرة حتى ألجأه إلى الكوفة حيث انتهب العلويون دور العباسيين ودور مواليهم وأموالهم وطردوهم أقبح الطرد^(٣) ولكنها كانت نوعاً من الانتقام المتأخر حين شعروا بسيل الكفة ضدهم حين خسروا واسط والبصرة تكاد تسقط وهرثة قادم في إثرهم إلى الكوفة ولم يمض من مطالع سنة ٢٠٠ سوى اسبوعين ونيفاً حين هرب أبو السرايا ومن معه من الطالبين من الكوفة وكانوا على الطريق إلى الأهواز حين التقوا

(١) المصدر نفسه ٨ ص ٥٣٠ (٣/٩٧٨)

(٢) يذكر الطبري (ج ٨ ص ٥٣٢) أن بعض عبيد وموالي العباسيين حاولوا تحريض داوود بن عيسى الوالي على المقاومة والدفاع عن ملك أهله فرفض وقال : أي ملك لي والله لقد اقامت معهم حتى شيعت فما ولوني ولاية حتى كبرت سني . . . إنما هذا الملك لك ولاشباهاك .

(٣) الطبري ج ٨ ص ٥٣١ (٢/٩٨١)

بالحسن بن علي الباذ عيسى المعروف بالمأموني فقاتلوه فهزمهم وجرح أبو السرايا في المعركة جراحات شديدة وهرب مع جماعته شمالاً يريدون الجزيرة وبلدة رأس العين منزل أبي السرايا . ولكنهم أخذوا في الطريق وجيء بهم إلى الفضل بن سهل بينما كانت البصرة تسقط في يد الجيش العباسي وأسر زيد بن موسى العلوي فيها وكان يسمى زيد النار لكثرة ما حرق من دور بني العباس واتباعهم في البصرة وما حرق من المسودة الذين كانوا يقعون بيده^(١) . . .

وانتهى امر ابي السرايا بالقتل والصلب بعد ان دامت حركته(منذ جمادى الاخرة سنة ١٩٩ الى ذي القعدة سنة ٢٠١ هـ) أما محمد بن محمد العلوي فقد عفا ابن سهل عنه قائلاً : لعن الله من غرر بك ! ولكن موقف العلويين من المأمون لم يصف نهائياً ولا انتهى الى وفاق . فبالرغم من انه غطى على سياسته الغائية بمعاملة العلويين بالرفق ، فان بعض آل علي كانوا يدبرون الأمر للخلاص منه وقد خرج عليه عدد منهم :

١ - محمد الديباج ابن جعفر الصادق في مكة وإنما كانت حركته أحد ذيول حركة أبي السرايا . فإن العلوي الذي دخل باسسه مكة وهو الحسين بن الحسن الأفطس جلس في مطلع سنة ٢٠٠ فنزع «كسوة الظلمة» العباسيين عن الكعبة وكساها ثوبي قزريق كتب عليهما : «مما أمر به الأصفر بن الأصفر أبو السرايا داعية آل محمد . . .» وأقبل الحسين مع جماعته على دور بني العباس ومواليهم وأموالهم بالمصادرة والعقوبة حتى أقاموا «داراً للعذاب» فلما بلغهم مصرع أبي السرايا وطرده الطالبين من الكوفة والبصرة جاؤوا الى محمد الديباج وكان شيخاً

(١) الطبري ج ٨ ص ٥٣٥ (٣/٩٨٦) .

وادةاً محبباً إلى الناس ، يروي العلم عن أبيه ويظهر السمات والزهد
فحملوه على أن يتسمى بأمرة المؤمنين ويؤكد الطبري أن الرجل أبي
التورط السياسي فما زالوا به وما زال به ابنه علي حتى قبل • وبايعوه ••
وقد انقضت الأشهر القليلة التي قضاها على ذلك أسوأ الانقضاء بسبب
سوء سيرة ابنه واصحابه من الناس حتى جاء الجيش العباسي من اليمن
وعليه اسحق بن موسى بن عيسى العباسي وانتهى الصدام بأن طلب
محمد الديباج وجماعته الأمان على أن يخرجوا حيث شاءوا •• وخرج
الرجل فلقني من العنت والعدوان والعذاب بعد ذلك الكثير وفقد في بعض
المعارك عينه ثم طلب الأمان من الوالي العباسي فدخل إثر ذلك الى مكة
وصعد المنبر فخلع نفسه وجدد البيعة للمأمون وعليه قباء أسود وقلنسوة
سوداء ولكن ••• دون سيف ! وذكر أنه إنما قبل البيعة لأنه سمع أن
المأمون توفي ! ثم خرج به عيسى بن يزيد الجلودي إلى العراق ثم لحق
بالمأمون في خراسان فعفا عنه (١) •

ب — عبد الرحمن بن أحمد (بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي
طالب) في اليمن سنة ٢٠٧ «وكان السبب في خروجه — على ما روى
الطبري — أن العمال باليمن أساءوا السيرة» فبايع الناس عبد الرحمن •
وقد وجه اليه المأمون بجيش كثيف مع القائد دينار بن عبد الله ومعه كتاب
بالأمان • واختار عبد الرحمن كتاب الأمان فجاء بهم دينار الى المأمون
في بغداد ويبدو أن اللقاء به لم يرض المأمون أو تطاول في الحديث

(١) انظر في تفصيل حركة محمد الديباج : الطبري ج ٨ ص ٥٣٦ —

٥٤٠ (٣/٩٨٨ — ٩٩٥)

«فمنع المأمون عند ذلك الطالبين من الدخول عليه وأمر بأخذهم بلبس السواد...»^(١) .

ح - القاسم بن اسماعيل بن ابراهيم (بن الحسن بن الحسن بن علي) • وقد استتر في مصر زهاء عشر سنين ثم بايعه أهل مكة والمدينة والكوفة والري وقزوين وطبرستان والديلم وكاتبه أهل البصرة والاهواز فعاد إلى الحجاز ومنها إلى تهامة ، واختفى في اليمن حين طلبه المأمون • ولم ينته أمره حتى زمن المعتصم سنة ٢٢٠ هـ • وربما كان يلخص رأي المأمون وموقفه من القضية العلوية قوله لبعض العلويين حين أراد الاعتذار عن حركاتهم السابقة : كف واستمع مني : أولنا وأولكم ما تعلمون وآخرنا وآخركم ماترون وتناسوا ما بين هذين...»^(٢) .

٣ - الخوارج :

تنتهي في هذه الفترة (١٥٨ - ٢١٨ هـ) قصة الخوارج بعد أن دامت قرناً ونصف القرن فيسجلون في عصر الرشيد أواخر انتفاضاتهم الدموية • وتشبي عقيدتهم إلى التوطن والهدوء في بعض الاقطار النائية عن مركز الدولة أو الجبلية العسرة ذلك أن الظروف السياسية والاجتماعية للدولة الاسلامية كانت قد تجاوزت الآراء الخارجية وجعلتها متخلفة عن زمانها وغير ذات موضوع :

آ - فأما خوارج افريقية والمغرب فيدخل أمرهم في بحث حركات الأقاليم لما نجم عنها عن استقلال تلك الاقطار •
ب - وأما خوارج عمان . أصحاب الجندلي فقد كانت الضربة

(١) الطبري ج ٨ ص ٥٩٣ (٣/١٠٦٢)

التي نزلت بهم أيام ابي العباس من القسوة بحيث أخذوا بعدها إلى الهدوء أربعين سنة وإن لم يتخلوا عن المذهب الخارجي . يقول البلاذري : «... ولم تزل عمان مستقيمة الأمر يؤدي أهلها صدقات أموالها ويؤخذ ممن بها من الذمة جزية رؤوسهم حتى كانت خلافة الرشيد . فولأها عيسى بن جعفر بن سليمان (بن علي بن عبد الله بن العباس) فخرج إليها بأهل البصرة فجعلوا يفجرون ويسلبون ويظهرون المعازف فبلغ ذلك أهل عمان . وجلهم شراة (خوارج) فحاربوه ومنعوه من دخولها . ثم قدروا عليه فقتلوه وصلبوه . وامتنعوا على السلطان ولم يعطوه طاعة وولوا أمرهم رجلا منهم ...»^(١) .

كانت هذه الثورة التي تمت سنة ١٧٥/٧٩١ احدى أخطر الثورات التي تمت في العهد العباسي وذلك بسبب النتائج البعيدة التي ترتبت عليها . فإنها رغم قرب عمان من العراق لم تكن ثورة عادية ينتهي امرها بإخمادها وقتل زعيمها ولكنها كانت ثورة شعبية كاملة أقنعت الرشيد أن لا أمل للحكم العباسي فيها . وبالرغم من أن خوارج عمان قد أقاموا لأنفسهم «إماماً» منهم ينافس خليفة بغداد فإن الرشيد لم يحاول زحزحة هذا الإمام أو حربه بعد أن بايعه الناس . وهكذا كان محمد بن عفسان هو الإمام الأول ثم تلاه سنة ١٨٥ إمام آخر هو الوارث بن كعب ، وثالث سنة ١٩٢ هو غسان بن عبد الله ... وكل ذلك في عهد الرشيد . ويستمر الأمر في يد غسان حتى يليه في عهد المأمون سنة ٢٠٨ عبد الملك ابن حميد ثم المهني بن جعفر سنة ٢٢٨ وينعم أئمة عمان بالاستقلال على هذا النحو ما يزيد على مائة سنة حتى يفتك بهم العباسيون سنة ٢٩٠ هـ (٨٩٣ م) في عهد الخليفة المعتضد فيقتلوا امامهم حسن بن سعيد ويرسلوا

(١) البلاذري - فتوح البلدان (ط . المنجد) ج ١ ص ٩٣

برأسه الى بغداد • ولكن ذلك لم يكن يعني — على ما يظهر — تبعية عمان لبني العباس لانا لانبث ان نرى اماماً جديداً يظهر في عمان هو :
الحواري بن مطرف سنة ٢٩٢ ويبقى الحكم في يد هؤلاء الأئمة (وينشرون مذهبهم الخارجي في زنجبار بشرقى افريقيا) حتى سنة ١١٩٣ هـ ، أي يبقى فيهم زهاء عشرة قرون إلى ان يزيلهم عنه جماعة «الاسياد» واولهم حميد بن سعيد وما يزال الحكم في أحفاده هناك إلى اليوم •

ج — وأما خوارج الجزيرة فقد أخرجهم علي المهدي والرشيدي خاصة تلك النزعة الخارجية المتأصلة فيهم منذ العهد الأموي ، وظلم الولاة الذي قال فيه شاعرهم :

أنا الوليد بن طريف الشاري ظلمكم أخرجني من داري

وأخيراً ما يأخذونه على الخلفاء من مجافاة للدين وعمل بما لا يتفق مع أوامره ومع الواجب نحو الجماعة الاسلامية • وقد تعددت حركاتهم في هذه الفترة حتى لنعد منها خلال حوالي عشرين سنة (١٦٠ — ١٨٠) ما يزيد على عشر ثورات ، أخذ بعضها برقاب بعض ومن تلك الثورات :

— خروج عبد السلام بن هاشم اليشكري في أرض الجزيرة سنة ٧٧٦/١٦٠ وقد اشتدت شوكته ما بين الموصل وحلب وكثر اتباعه للدرجة التي استطاع معها أن يقود الثورة في هذه المنطقة الواسعة الممتدة على مركز الخلافة والمسيطرة على طرق التجارة مدة سنتين وأنها هزم عدداً من قواد المهدي واحداً بعد الآخر • وقد حاول المهدي محاورته • كتب إليه كتاباً يسأله فيه : «إني قد عجت من إحدائك وبنيك حيث أسألك ما نقت إذ حكمت (أي صرت خارجياً) • تكلمت بكلمة حق تريد بها :

ما الله مخزيك به ... (ولعل الإشكري كان يطالب بالعمل بكتاب الله
وسنة نبيه) ... فأقسم لأغزينك أجنادا مطيعة ... يفضون جمعك
ويهتكون بناك ... فاعمل لنفسك أو دع ... » ويحفظ
عن خليفة بن خياط نص جواب الإشكري الذي يقول فيه : « من عبد
السلام بن هاشم الى محمد بن عبد الله (ولا يخاطبه بالخلافة) : سلام
على من اتبع الهدى ، واجتنب النغي ، وقام بالحق ، فلا الهدى ابتغيت
ولا النغي اجتبت ولا بالحق قمت .. أتاني كتابك تعجب عما نقت إذ
حكمت فلست بتاركك في عمياء مما أنت مع أنك إنما خدعت عن هذا
نفسك وقد علمت أنني إنما ... حكمت حين تركت الأمة تائهة لا حدودها
أقمت ولا حقوقها أدت . وشغلت يامائك ... وبنائك ... والصيد
فإذا انشيت من صيدك تغذيت وغنيت فيمين الله ما أفحش هذا ممن يدعى
خلافة الله وأنت إذا خطبت كذبت وإذا عاهدت نكثت .. خدعك يعقوب
ابن داوود أخا أخيت .. ففي أي دين يسعك وفي أي كتاب إذ تعدو
وظيفة ، أو تنقص مساحة ، أو تصطفي بستانا ، أو تبذخ في مركب ، أو
ترمي به في النزهة ، أو تفاوض في جند ، أو تحبس عطاء ، أو تنسى من
غزا ، أو تعاقب بالسوط سافكا الدم أيها الطاغية ... » ونحن نقرأ
في الرسالة المأخذ التي كان يأخذها الخوارج على سياسة المهدي وإدارته .
لكن الطريف الذي يلفت النظر هو ما يكشفه كتاب المهدي إلى الإشكري
من أن العباسيين في حربهم للخوارج كانوا ينصبون أنفسهم محامين عن
علي بن أبي طالب ومن أنهم كانوا يعتبرون الخروج عليهم خروجا على
طاعة الله . يقول المهدي في كتابه : « ... تكلمت بكلمة حق تريد بها
ما الله مخزيك به وسألك عنه مع مناوأتك خليفة ونزعك يدك من طاعة .
وشتمك أبا الحسن علي بن أبي طالب ووقوعك فيه وتنقصك إياه فقد

أتاك حديث صادق عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وقوله : من كنت مولاه فعلي مولاه «فكنت المكذب بذلك والحائد عنه ...» وهما مبدآن أساسيان للعباسيين الأوائل ندر أن نجدهما مجتمعين في وثيقة كهذه الوثيقة .

وقد ندب المهدي لقتال الشكري ألف فارس أعطى كلا منهم ألف درهم معونة ووجههم لنجدة جند الجزيرة وقائدها شبيب بن واج المروزي الذي واقع في النهاية عبد السلام فهزمه ثم لحق به الى مقره في قنسرين فقاتله عليها وقتله سنة ١٦٢ (١) .

— خروج ياسين التميمي سنة ١٦٨ وقد هزم عسكر الموصل وغلب على أكثر ديار ربيعة الجزيرة قبل أن يجتمع عليه أثنان من خيار قادة المهدي : ابو هريرة محمد بن فروخ وهرثمة بن اعين فيقتل في معركة معهما ويهزم أصحابه (٢) .

— خروج حمزة بن مالك الخزاعي سنة ١٦٩ الذي كرر قصة سابقه في منطقة الموصل قبل أن يقتل اغتيالاً (٣) .

— ثورة الصالح الخارجي سنة ١٧١ زمن الرشيد وهي نسخة أخرى من الثورات السابقة الفاشلة التي تنتصر أولاً ثم تموت وقد حاربته

(١) انظر ابن الاثير ج ٦ ص ٤٨ وص ٥٧ وانظر خليفة بن خياط — التاريخ ج ٢ ص ٤٧٥ (طبعة العمري — بغداد) .

(٢) المصدر نفسه ٦ ص ٧٨

(٣) المصدر نفسه ٦ ص ٩٥

أبو هريرة ثم عزل عن الجزيرة بسببه ولكن بعد أن قتل الخارجي (١) .

— ثورة الفضل الخارجي سنة ١٧٦ الذي ظهر بنواحي نصيبين وجبى الأموال منها وسار الى آمد وأرزن ودارا وخلط فجباها جميعاً وهزم عسكر الموصل عند الموصل ، على الزاب ولكنه .. قتل في النهاية (٢) .

— ولعل أخطر الثورات وأهمها كانت ثورة الوليد بن طريف الشاري الذي خرج سنة ١٧٨ وجعل مركزه في مدينة نصيبين بعد أن فتك بها وبعامل الرشيد فيها . وهزم عدة جيوش للخليفة في ارمينية واذربيجان وجعل يتجه إلى الجنوب مهدداً السواد . وندب له الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني (ابن اخي معن بن زائدة صاحب الراوندية ومن قبيلة الوليد نفسها) . فاتبع معهم سياسة المخاطلة والمطاوله . ولكن البرامكة وسوسوا الى الرشيد انه يتهاون مع بني عمه فأمره بالجد في القتال ... وقتل الوليد سنة ١٧٩ هـ في مبارزة فردية مع يزيد فتضعف شمل اصحابه من بعده . وبالرغم من ان اخته ليلي (وهي شاعرة ومحاربة) تولت القيادة بعده غير ان مقاومتها كانت قصيرة . وقد استطاع يزيد ان يردّها الى الهدوء بأن أخجلها في الميدان .

— ومن أواخر الثورات تلك الثورة التي اعقبت هزيمة الوليد وقد قام بها في عدة مئات خراشة بن شيبان سنة ١٨٠ ويفصل خليفة بن خياط

(١) ابن الاثير ٦ ص ١١٢

(٢) المصدر نفسه ٦ ص ١٣٣

المؤرخ في خبر خراشة الذي لا يعدو أن يكون خبر مغامر شجاع انتهى
نهاية أصحابه^(١) على يد مسلم بن بكار العقيلي .

وسيرة هذه الثورات المختلفة تكشف عن تشابه كامل إذ تبدأ عنيفة
قوية ثم تمتد على مناطق متعددة وتجبي الأموال في محاولة لايجاد نظام
حكم خارجي أعدل وتهزم عدداً من الجيوش العباسية قبل أن تتكاثر
عليها هذه الجيوش فتقتل زعيمها وبعض أصحابه فيؤدي ذلك إلى قتلها
بدورها . وهذا التشابه قد يوحي باحتفاظ الخوارج حتى بعد مرور قرن
وربع أو نصف القرن على ظهورهم الأول بالسذاجة الثورية وبالاخلاص
الديني العنيف للذين ما انفكا من ميزة الحركات الخارجية . على أن
تكرر هذه الثورات دون انقطاع إنما كان دليلاً وتعبيراً عن الاستياء
المتمادي والنظرة الحاقدة العدائية التي كان ينظر بها عرب الجزيرة خاصة
للحكم العباسي . أما السكان الاصليون ومعظمهم من الذميين واليعاقبة
والأرمن فإنهم وإن كانوا ناقلين فإننا لا نجد لهم ظلاً في هذه الحركات
الخارجية بل كانوا بدورهم من ضحايا تلك الثورات .

على أن الظروف العامة من سياسية ودينية واقتصادية واجتماعية
كانت تتغير في الشرق العربي منذ مطلع القرن الثالث الهجري ، ولهذا
تهمد حدة الثورات الخارجية في الجزيرة بعد الوليد بن طريف فلا
نكاد نسمع إلا النادر من حركاتها وأخبارها سنة ١٨٠ ثم سنة ١٨٤ ثم
ثورة سيف بن بكير سنة ١٩٠ ثم ابنه شروان بن سيف سنة ١٩١ - ١٩٢
ثم ثورة خارجية أخرى سنة ٢٠٢ ثم تموت الأخبار بعد ثورة بلال الشاري سنة

(١) خليفة بن خياط التاريخ ج ٢ ص ٤٨٨ - ٤٩٠

٢١٤ فلا نسمع للخوارج من هميس في الجزيرة لأن هموماً ومثلاً كل
أخرى كانت تجذب اهتمام أهلها .

١- خوارج خراسان كانت الثورة الخارجية التي انجذبت اليها
خراسان منذ العهد الأموي وعشتت خاصة في سجستان أي في المنطقة
الجنوبية منها ما تزال ناشطة فعالة حتى عصر الرشيد . كانت الظروف
العامّة للمنطقة تسمح لها بالبقاء والنشاط . ولعل أخطر جرّاتها :

— ثورة يوسف بن ابراهيم البرم : وأصل الرجل من موالي ثقيف
في بخارى ويبدو أنه كان على جانب حسن من التقوى والاخلاص الحار
للمعتقد الديني . وإذا كان ثمة شك حول اتسائه السياسي جعل الطبري
يسكت مرة عن هذا الانتماء ويروي مرة أخرى إنه عند بعض المسلمين
ككافر^(١) ويحكي ابن الأثير إنه « قيل إنه كان حرورياً » إلا إن جرأة
الرجل وشعاراته وأعماله والمكان الذي ظهر فيه مع بعض القرائن الأخرى
ترجح كلها أنه حروري خارجي . فقد دعا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر وأنكر على المهدي الحال التي هو بها وسيرته التي يسير عليها مسا
يذكرنا بالدعوة التي نادى بها في الوقت نفسه عبد السلام الشكري في
الجزيرة وقد ثار الاثنان في سنة واحدة سنة ١٦٠ واتفقا لا في الأمر
بالمعروف فقط ولكن في نقد سيرة المهدي أيضاً واجتمع البشر الكثير
حول يوسف البرم ومن بينهم بعض الفقهاء كابي معاذ الفاريابي . بدأت
الثورة في بوشنج وعليها مصعب بن زريق (جد طاير بن الحسين) فهرب
منه وعند ذلك تغلب على بلدان أخرى في المنطقة منها مرو والروز والطاقان

(١) الطبري ج ٨ ص ١٢٤ وص ٣٧١

والبجوزجان وفشا أمره للدرجة التي جعلت المهدي يرسل عليه قائده المشهور يزيد بن يزيد الشيباني . وفي المعركة التحم الرجلان حتى صارا إلى المصارعة الجسدية وانتصر يزيد . قيل إنه رفع علماً أحمر وأمن من يصير تحته فصار إليه كل أصحاب يوسف^(١) وأسر يوسف مع بعض أصحابه فوجه بهم يزيد إلى بغداد . وفي النهروان - حيث كانت أول هزائم الخوارج الأولين : وضع يوسف على بعير وقد حول وجهه إلى ذنبه وأصحابه مثله فأدخلوهم الرصافة على تلك الحال ويذكر اليعقوبي أن يوسف حين ادخل على المهدي كلمه بكلام غليظ فشتمه المهدي وقال: لبئس ما أدبك أهلك . وانتهى الرجل بأن قطعت يداه ورجلاه ثم قتل مع أصحابه وصلبوا على الجسر قرب عسكر المهدي^(٢) .

— خروج الحصين بن الرقاد مولى قيس بن ثعلبة سنة ١٧٩ وهو من أهل أوق ثار فيها وهزم جيش والي سجستان عثمان بن عمارة واستطاع الاستيلاء على بادغيس وبوشنج وهراة ، واضطر الرشيد أن يأمر واليه على خراسان الفطريف بن عطاء (وهو خال الرشيد) بملاقاته فسير إليه جيشاً من اثني عشر ألفاً لقيهم الحصين في ست مائة نفر فهزمهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ثم سار في خراسان متمرداً قرابة السنة قبل أن يقتل سنة ١٧٧^(٣) .

— وما كادت ثورة الحصين تنتهي حتى ورثها أخرى في المنطقة

(١) انظر ابن الأثير ج ٦ ص ٤٣ والطبري ج ٨ ص ١٢٤ (٣/٤٧٠)

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٩٧

(٣) انظر ابن الأثير ج ٦ ص ١٢٤ وثمة بعض المصادر كالشهرستاني

في الملل والنحل (ص ١٣٠) تسمي هذا الرجل بالحسين بن الرقاد .

نفسها واثار آخر على النهج نفسه ..

ولكن الثورة كانت في هذه المرة من أطول ما عرف التاريخ
العباسي من الثورات الخارجية كما كان الثائر من أعند ما لقي العباسيون
من المناوئين ويعرفه المؤرخون باسم حمزة ثم يختلفون في اسم ابيه فهو
تارة أترك وأخرى أدرك وثالثة عبد الله بن الأزرق^(١) . ولا يعني هذا
الاختلاف أنه نكرة في زعماء الخوارج أو مذهبهم فإنه أحد الرؤوس
ذات الرأي والفقه في الفكر الخارجي .

يتفرع مذهب حمزة من مذهب العجاردة (أصحاب عبد الكريم بن
عجرد) وهو يقول بأن القدر خيره وشره من العبد . وبأن قتال السلطان
الجائر واجب كما أن من الواجب حده مع من رضى بحكمه وكان
لا يكفر القعدة بين الخوارج ولكن يكفر من يخالفه في الرأي ويضعهم
جميعاً في زمرة المشركين ويستحيل على هذا الأساس قتلهم وإحراق
أموالهم وعقر دوابهم بل ويقتل الأسرى منهم . وإذا سحت له ثورته
التي استمرت ثلث قرن تقريباً أن ينشيء ويوطد مذهب «الحمزية» الذي
نسب إليه فإنه لم يسلم من مخالفة بعض الخوارج في المنطقة له فقد أنكر

(١) يسميه الطبري (ج ٨ ص ٢٦١) ويتابعه ابن الأثير (ج ٦ ص ١٤٧)
باسم حمزة بن أترك السجستاني ويسميه البغدادي في الفرق بين الفرق
(ص ٥٨) حمزة بن أترك ولكننا نجد الاسم لدى الشهرستاني (في الملل
والنحل ص ١٢٩) ابن أدرك . وهو كذلك لدى المسعودي في مروج الذهب
وابن ظافر الأزدي (في الدول المنقطعة - مخطوط المتحف البريطاني ورقة
١١١ وجه) ابن أدرك الشاري وأما صاحب تاريخي سيستان (ط . طهران
١٣١٤ - ١٥٦) فيسميه حمزة بن عبد الله بن الأزرق الشاري .

رأيه في القدر زميله خلف الخارجي فبريء كل منهما من صاحبه وانحاز
خلف الى كرمان ومكران بينما أعلن حمزة جواز قيام إمامين للمؤمنين
في عصر واحد ما لم تجتمع الكلمة ولم تقهر الاعداء...»^(١).

ويظهر أن حمزة كان تلميذاً للحسين (أو الحسين) بن الرقاد^(٢)
صاحب الثورة السابقة فلما قتل أستاذه قام بها سنة ١٧٩/٧٩٥ وانتشر
أمره ما بين بوشنج وهرارة^(٣) فخرج إليه عمرويه بن يزيد الأزدي ،
صاحب هرة في ستة آلاف فهزمه حمزة وقتل من أصحابه جماعة وبينما
مات عمرويه في الزحام ... أعلن حمزة نفسه أميراً للمؤمنين سنة ١٨١
وقد كتب إليه الرشيد ، على طريقة المهدي يدعو به الى الانضمام للجماعة
ويندد بخروجه ويهدد ويعد فأجابه حمزة بجواب عنيف على الطريقة
الخارجية أنهاه بالشعار الخارجي «لاحكم إلا الله يفصل بالحق وهو خير
الفاصلين» . ولما ولي علي بن عيسى خراسان تأخر حتى بعث إليه ابنه
الحسين في عشرة آلاف فلم يستطع الابن أن يفعل شيئاً بل لم يحارب
حمزة الذي سيطر فيما يبدو على المنطقة وقطع طرق التجارة ما بين شمال
الهند وافغانستان وخراسان . فسير علي بن عيسى ولده الثاني عيسى
وبالرغم من أنه انهزم بدوره فقد أعاد أبوه تجهزه وإرساله لا سيما حين
استفحل الخطر واستطاع حمزة العبث بعدد من مواقع المنطقة منها
باذغيس سنة ١٨٥ والانتقال منها الى نيسابور . وأدركه عيسى هناك

(١) انظر الشهرستاني - الملل والنحل ج ١ ص ١٢٩ - ١٣٠
والبغدادي - الفرق بين الفرق ص ٥٨ والأشعري مقالات الاسلاميين (ط .
محمد محي الدين عبد الحميد) ج ١ ص ٩٤ .

(٢) الشهرستاني - الملل والنحل ص ١٣٠ .

(٣) الطبري ج ٨ ص ٢٦١ (٣/٦٣٨) وابن الأثير ج ٦ ص ١٤٧ .

ودارت الدائرة على حمزة الذي فقد - فيما يقولون - عشرة آلاف من
اتباعه وبقي في اربعين رجلا فقصده صحراء قوهستان هربا ... بينما
وزع عيسى أصحابه إلى أوق وجوين وسار بنفسه حتى بلغ كابل
وزابلستان والقندهار (من الهند) فقتل من بها من الخوارج وقصد القرى
التي كان أهلها يعينون حمزة فأحرقها وقتل من فيها حتى وصل إلى
زرنج فقتل ثلاثين ألفا فيها ... (١) .

كان غرض عيسى أن يدمر القواعد التي يستند إليها حمزة
لترفضه المنطقة ويظهر أن قاعدة عمله كانت في زرنج التي نكبت بمذبة
مروعة وخلف عيسى عليها رجلا اسمه عبد الله بن العباس الشنقي فجبي
منها الأموال التي فرضت عليها لإفكارها وسار عنها . وكان على حمزة أن
يثبت وجوده الدفاعي فخرج لعبد الله ولمن معه من الصغد (وكانت جمهرة
جيشه على ما يظهر منهم) عند بلدة أسفنديار فصبر له عبد الله في القتال
حتى انهزم حمزة بعد أن جرح في وجهه وقتل كثير من أصحابه واختفى
في الكروم ...

ثم عمد حمزة بعد ذلك إلى بعض الأعمال التخريبية الانتقامية
ومنهم قتل معلم كتاب مع ثلاثين من تلاميذه وبلغ الخبر إلى طاهر بن
الحسين الذي كان قد تسلم حكم بوشنج فأجاب على ذلك بعمل انتقامي
أشد وأقسى إذ «أتى قرية فيها قعد الخوارج وهم الذين لا يقاتلون
ولا ديوان لهم فقتلهم طاهر وأخذ أموالهم . وكان يشد الرجل منهم في
شجرتين ثم يجمعهما ثم يرسلهما فتأخذ كل شجرة نصفه . فكتب القعد

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ١٥٠ - ١٥١ (حوادث سنة ١٨١) والطبري

ج ٨ ص ٢٧٣ (٢ سنة ٦٥٠) .

البي حمزة بالكف ... فوعدهم وأمن الناس مدة^(١)» ...

على أن حمزة عاد فاسترد مكاتته وقوته في المنطقة تدريجياً وبعد تلك الضربة الساحقة التي أصابته سنة ١٧٩ كان عليه أن ينتظر أكثر من اثنتي عشرة سنة ليستطيع الظهور من جديد سنة ١٩٢ وقد انتهاز فرصة انشغال الدولة بثورة رافع بن الليث في ما وراء النهر وانصراف القوى العسكرية العباسية إليها فاستعاد السيطرة لا على المنطقة التي كان فيها ولكن تقدم نحو خراسان . يقول ابن الأثير : «... وحصر هرثمة (بن أعين) رافع بن الليث بسمرقند وضايقه واستقدم طاهر بن الحسين فحضر عنده فخلت خراسان لحمزة الخارجي حتى دخلها وصار يقتل ويجمع الأموال . ويحملها إليه عمال هراة وسجستان» ويبدو أن حمزة كان يأمل أن يعمل على إقامة دولة خارجية في تلك البقاع لأنه على ما يظهر من تصرفاته كان يقيم نوعاً من النظام والجباية ولا يأبه كثيراً لوجود المأمون ولي العهد الثاني والياً على المنطقة ...

وقد أرسل إليه المأمون بجيش من عشرين ألفاً يقوده عبد الرحمن النيسابوري استطاع بعد القتال المرير أن يصد هجوم حمزة وتوسعه وأن يردّه بعد أن قتل خلقاً من أصحابه نجو الجنوب حتى بلغ هراة سنة ١٩٤ ثم كتب المأمون فرد الجيش إليه^(٢) ... ولعل السبب في هذا

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ١٥١ وانظر في أخبار الثورة كلها وغيرها كتاب المؤلف المجهول : تاريخي سيستان (ط . طهران سنة ١٣١٤) ص ١٥٦ فما بعد حتى ص ١٧٠ - بالفارسية .

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٠٩

الارتداد هو أن المأمون شعر أن ولايته كلها في خطر بعد مكاشفة الأمين له بنزعه عن ولاية العهد وقدر أنه أكثر حاجة للجيش في الدفاع ضد جيش أخيه القادم عليه منه إلى إخماد ثورة هذا التأثير ...

وبالرغم من أن سجستان قد فك ارتباطها الإداري^(١) بالمركز منذ عهد الأمين ثم المأمون وربطت بخراسان فقد استمر حمزة والخوارج هم المتغلبون على سجستان حتى سنة ٢١٣/٨٢٧ حين هزم حمزة أمام جيش المأمون . وبعض المصادر تقول إنه قتل في المعركة وبعضها تقول إنه غرق في واد بكرمان^(٢) .

ولم يكن بإمكانه ، بعد أن أسس نوعاً من الدولة الخارجية ، وقاد ضد العباسيين حركة من أطول الحركات الثورية الانفصالية ، أن يحول حكمه إلى الشكل الوراثي لأن المبدأ الخارجي لا يقول بذلك ولأن مقاومة إسلامية كانت قد بدأت ضده ضمن البلاد ذات اتجاه سني عباسي . ويبدو أن العباسيين هم الذين غدوا هذه المقاومة التي أخذت بمحاربة الخوارج محلياً وبأسلحتهم . ولكن مذهبه الخارجي ظل يعرف باسمه من بعده وظهرت له في سجستان فروع منها الأطرافية والمحمدية .

لكن الحماسة للمذهب الخارجي انحسرت تدريجياً بعد ذلك حتى

(١) اليعقوبي - البلدان (طبعة دي غويا سنة ١٨٩٢ مع كتاب ليون

رسته) ص ٢٦٨

(٢) البغدادي - الفرق بين الفرق ص ٥٨ وأما الفرق فيذكره ابن

ظافر الأزدي في الدول المنقطعة (مخطوط المتحف البريطاني رقم ٣٦٨٥

ج ٥) الورقة ١١١ وجه .

صاروا يلجئون الى الحصون وصار الناس يتطوعون «حسبة لله» لقتالهم ويؤلفون الجماعات العسكرية لذلك . ومن أواخر رؤساء هؤلاء الخوارج (في اواسط القرن الثالث) عمار بن ياسر الذي قتل في معركة مع جماعته من المطوعة اجتمعوا حول رجل «يظهر الحسبة في الغزو وقتال الخوارج» هو درهم بن نصر . وكان بين رجال درهم هذا أربعة إخوة عرفهم التاريخ باسم آل الصفار هم الذين أسسوا الدولة الصفارية^(١) في سجستان .

وما من شك في أن ما عجزت عنه الدولة العباسية من محو الخوارج إنما قامت به وفي نجاح واضح الدول المحلية المنقطعة التي ظهرت في ايران أمثال الصفارية والظاهرية وما تلاهما حتى لم يعد للمذهب الخارجي من وجود في تلك البقاع وهو بالضبط ما جرى في المغرب العربي حيث تكفلت الدولتان الأغلبية والادريسية وما تلاهما بالمهمة ذاتها .

٤ - حركات الاقاليم :

كانت عوامل مختلفة تلعب ببعض أقطار الدولة العباسية فتدفعها، في تلك الفترات ، الى الثورة . وقد ترتب على بعض تلك الحركات نتائج خطيرة إذ كانت سبباً في بدء تجزؤ الدولة وهي في أوج قوتها .

أ - في افريقية :

كان المنصور قد حسم أمر ولاية افريقية والمغرب (تونس وما يليها

(١) انظر ابن حوقل - صورة الارض ص ٢٥٣

من الشمال الافريقي). وأمر من بها من ثائرة الخوارج والبربر بتعيين قائده القدير يزيد بن حاتم المهلبى الذي استقامت افريقية على يديه فلم يعد المؤرخون يسجلون ما اعتادوا تسجيله من أخبار المعارك والحروب والفتن في عهده الذي استمر حتى وفاته سنة ١٧٠ وقد سجلوا بالعكس الأعمال الانشائية التي سمح له الأمن والسلام أن يقوم بها . فقد اهتم بأسواق القيروان ونشاطها التجاري وتنظيمها حتى قال النويري : «إنه هو الذي حضرها» وجعلها حاضرة . وعني بالزراعة كما عني بالحياة الأدبية والدينية . فاجتمع إليه الشعراء والفقهاء . وفي عهده انتشرت آراء مالك ومذهبه في افريقية .

وقد كفى ممكناً أن ينشأ في تلك البقعة أسرة مهلبية شبه مستقلة وبدأت هذه الأسرة الظهور بالفعل لولا أن الظروف أوجدت بدلاً منها الأسرة الأغلبية . فإن داوود بن يزيد المهلبى لم يسبق في الحكم سوى تسعة أشهر بعد وفاة أبيه سنة ١٧٠ ثم أعطى الرشيد الولاية لعنه روح ابن حاتم ولكنه بالرغم من ضبطه البلاد وقبضه تمرد الخوارج الاباضية لم يظن به العسر فتوفي سنة ١٧٤ وبايع الخلد ابنه قبيصة . ولكن صاحب البريد الذي كان قد كتب إلى الرشيد بشيخوخة روح وأخذ موافقته على تعيين نصر بن حبيب المهلبى بدلاً له إن توفي، مشى مع أخذ القواد إلى نصر وأبلغاه عهد الرشيد ونصباة بدلاً من قبيصة^(١) وعمل الجند وأمر بغداد كلاهما يعنيان أن ثمة نوعاً من الاعتراف العام الرسمي والشعبي بأن الولاية قد أصبحت لبني المهلب .

(١) ابن علقمة البيان المغرب ج ١ ص ٨٥ . والنويري - نهاية العرب (مخطوط) الجزء ٢١ الورقة ٩٩ وجه .

على أن عهد المهلبين الذي دام حتى الآن عشرين سنة ونيفاً لم يدم أكثر من ثلاث سنوات أخرى لأنهم دمروا أنفسهم بأنفسهم : فقد سعى الفضل بن روح المهلبى لدى الرشيد حتى عهد إليه بالولاية فوصل إفريقية في مطالع سنة ١٧٧ ولكنه ما لبث إلا سنة وبعض السنة حتى اصطدم بثورة الجند عليه من تونس لأنه عهد بهم إلى ابن أخيه «وكان غير ذي تجربة ولا سياسة للجمهور»^(١) كما كانوا هم بدورهم ميالين إلى نصر بن حبيب فاختاروا زعيماً لهم هو عبد الله بن الجارود وأكدوا له البيعة والمواثيق وطرّدوا ابن أخ الفضل . وأجابهم الفضل على ذلك بإرسال وال آخر من أهل بيته مع عدد من القواد والجند فاعترضهم بعض عسكر تونس في الطريق وقتلوا القائد الجديد وأسروا كبار أصحابه .

ويظهر أن ابن الجارود لم يكن يريد الوصول إلى مثل هذه المواجهة المباشرة ولكن أحد قواده وهو محمد بن يزيد الفارسي كان رأسها المدبر وقد كاتب القواد المختلفين في القيروان ووعدهم بالمناصب فأعطوا الشوار تأييدهم وهكذا سار ابن الجارود في العسكر إلى القيروان ففتحت له أبوابها فأخرج منها الفضل بالأمان ولكن القواد عادوا فردوا الفضل وهو في أول الطريق إلى المشرق ثم اعتقلوه وتناظروا في أمره فحسم بعضهم الجدل بقتله (شعبان سنة ١٧٨ تشرين الثاني سنة ٧٩٤) وانتهت بمقتله أسرة المهلب في إفريقية لأن

(١) ابن عذارى - البيان المغرب ج ١ ص ٨٦ ، وانظر ابن الأثير (حوادث سنة ١٧٧) ج ٦ ص ١٣٥ - ١٣٦ ولديه تفصيلات واسعة حول ثورة ابن الجارود .

ابن الجارود طرد منها كافة المهلبين الآخرين ..
وعرفت إفريقية بعد ذلك فترة اضطراب دامت سبعة أشهر قتل خلالها الفارسي بمؤامرة من ابن الجارود نفسه وخرج ابن الجارود وخصمه العلاء بن سعيد قائد البربر كلاهما من إفريقية إلى المشرق بينما وصل القائد هرثمة بن أعين ، والياً على البلاد من قبل الرشيد (١) في مطلع سنة ١٧٩/٧٩٥ . وهدأت الأحوال واستطاع هرثمة أن يقوم ببعض أعمال التحصين الدفاعي ومنها بناء سور لمدينة طرابلس من ناحية البحر وبناء القصر الكبير المعروف بالمنستير (٢) ، وهو الرباط المعروف قرب سوسة والذي سوف يصبح فيما بعد أشهر رباطات الساحل الإفريقي . وهذا يعني أنه كان يشعر بتهديد الاسطول البيزنطي المرباط في صقلية .

ويظهر أن هرثمة شعر بالانقطاع البعيد عن مركز الخلافة مع « سوء الطاعة » (٣) في الناس فاستعفى من الولاية ولما يقض فيها سوى سنتين ونيافاً وغادر إفريقية (رمضان سنة ١٨١ / تشرين الاول سنة ٧٩٧) بعد أن حل محله محمد بن مقاتل العكي ، شقيق الرشيد بالرضاع (٤) . غير أنه لم يكد يمضي ثلاث سنوات حتى ثار عليه الجند مرات بسبب سوء سيرته فيهم وفي الناس ، ومن ذلك أنه اقتطع

(١) انظر ابن عذاري - ج ١ ص ٨٨ وان الاثير ٦ ص ١٣٦ والنويري - نهاية الارب الورقة ١٠٢ وجه . وقد اكرم الرشيد العلاء بالحباء والهدايا بينما مات ابن الجارود في مصر بعد قليل .

(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٨٩

(٣) ابن عذاري ج ١ ص ٨٩

(٤) ابن الاثير ج ٦ ص ١٥٤

أرزاقيهم وضرب وسجن أحد الزهاد المشهورين في إفريقية (البهلول ابن راشد) لأنه وعظه وسفه تصرفاته وخاصة منها المهادن بعض الروم في صقلية بالسلاح . وكادت تتكرر مع العكسي مأساة الفضل المهلبى إذ ثار عليه جند تونيس تمام للتميمي وطرده سنة ١٨٣ و بينما كان في الطريق إلى المشرق تدخل قائد آخر فرده إلى القيروان . وهذا القائد هو إبراهيم بن الأغلب التميمي الذي سيبدأ بـ «تاريخ جديد للمنطقة وتبدأ باسمه أسرة حاكمة ودولة شبه مستقلة فيها .

كان قائد الثوار تمام أضعف من ابن الأغلب الذي كان يقود البربر ولذلك استطاع أن يدخل القيروان دون قتال وأن يرد العكبي الذي صارت النساء من كوى المنازل يعيرنه بأنه يدين لابن الأغلب بملك إفريقية (١) و « ثقل ذلك على أهل البلد » مما شجع تماماً على معاودة الثورة . فتدخل ابن الأغلب مرة أخرى وسار إليه في جيش كثيف و انتهت المعركة العنيفة التي قامت بهزيمة تمام ثم باستسلامه وطلب الأمان في مظلم سنة ١٨٤ . فأرسل مع باقي رؤوس الثورة إلى حيث سجن في المطبق بغداد (٢) .

وأما ابن الأغلب فقد وضح للناس أنه يطمح في شيء من الولاية . وقد كان تمام قد جرب الواقعة بينه وبين العكبي فأرسل إليه يبتين من الشعر يقول فيهما :

(١) انظر ابن عذارى البيان المغرب ج ١ ص ٩٠ وابن الأثير (سنة ١٨١) ج ٦ ص ١٥٤ - ١٥٥

(٢) انظر ابن خلدون ج ٤ ص ٤١٩

وما كان ابراهيم من فضل طاعة يرد عليك الملك لكن لتقتلا
فلو كنت ذا عقل وعلم بكيده لما كنت منه يا ابن عك لتقبلا (١)
فلما انتهى تمام وضعت أطماع الأغلب الذي أصبح منذ ذلك
الوقت القوة الأولى في افريقية . وقد استغل قوته هذه أحسن الاستغلال
ليؤسس ما عرف في التاريخ بدولة الاغالبة .

كان باقي أفريقية حتى أقصى المغرب قد عرف تطورات خطيرة
واسعة في تلك الفترة ما بين سنة ١٧٠ و سنة ١٨٤ وهي تطورات أخرجته
في الواقع عن نطاق الدولة العباسية وأعطته مصيره الخاص الذي سوف
نبحثه فيما بعد ، في عرضنا للسياسة الخارجية ويكفي أن نذكر هنا لإتمام
الصورة أن دولة للخوارج هي الدولة الرسمية كانت قد ظهرت واستقرت
في المغرب الأوسط ودولة أخرى للعلويين الإدارية كانت قد قامت في
المغرب الأقصى إن لم نذكر بعض الامارات الصغيرة الأخرى أيضاً . وكان
تقود بغداد ينتهي في افريقية (تونس) التي سوف تستقل بدورها أيضاً
في ظل الاغالبة .

الدولة الاغلبية : يذكر ابن الأثير أن « أهل البلاد حملوا ابراهيم
ابن الأغلب على أن كتب إلى الرشيد يطلب منه ولاية افريقية » وتقول
رواية أخرى أن صاحب البريد كتب الى الخليفة بحسن بلاء ابن الاغلب
الذي عرف من هراسة بن أعين وغيره اخلاص ابن الاغلب « وعقله ودينه
وكفايته » وحب الناس له فعينه والياً على البلاد . والواقع أن الأغلب
أرفق طلبه للولاية بعرض مفر قدمه لبغداد كان كافياً لرحضة العكي المستند
إلى رضاعه والى تأييد جعفر البرمكي وهو أن ابن الاغلب عرض على
الرشيد الاستغناء عن المعونة السنوية التي كانت تحول من مصر الى

(١) ابن عذاري - البيان ج ١ ص ٩٠

افريقية ومقدارها مائة ألف دينار وأن يدفع بالعكس ٤٠ ألف دينار الى بيت المال^(١) .

على أن أهم الاسباب في تعيين ابن الاغلب كانت دون شك رغبة الرشيد في إقامة سد قروي في وجه الدولة الادريسية التي بدأت الظهور في المغرب وضرورة وجود وال قوي الجند والنفوذ يستطيع الوقوف ضد توسعها إن لم يستطع القضاء عليها . وهكذا كتب الرشيد عهد ابن الاغلب في مطالع سنة ١٨٤ على افريقية بينما انتزع العكي نفسه منها اقتزاعاً^(٢) .

وبدأ ابن الاغلب حكمه بعمل ندر من الولاة من قام به^(٣) وهو يدل على التصميم البعيد في الحكم هو بناء مدينة له قرب القيروان . ولا شك أن مشروعه الأول لم يكن يطمح إلى أن تكون أكثر من حصن واسع يجمع قصره مع مسجد جامع ومساكن للحاشية ومعسكرات للجند يأمن معها التمردات التي تعودها الجند في القيروان وتونس وذلك على المثال الذي جعل المنصور يبني بغداد حين خاف الهاشمية وجعل المعتصم يبني سامراء حين أراد الخلاص من ضغط الجند في بغداد وربما كانت رغبة ابن الأغلب في ان يعيش حياته الخاصة بعيداً عن أهل القيروان من بين الدوافع لبناء المدينة .

(١) انظر ابن الأثير ج ٦ ص ١٥٥ (حوادث سنة ١٨١)

(٢) يروي النويري - (نهاية الأرب (المخطوط) ج ٢١ ورقة ١٠٤ ظهر ١٠٥ وجه) أنه زيف رسالة بتجديد تعيينه فلما علم الرشيد غضب واستدعاه مع التوبيخ له .

(٣) قام به مثلاً صالح بن علي العباسي في مصر حين دخلها وأسس مدينة العسكر وقام به ابن طولون حين بنى القطائع .

بدأ ابن الأغلب البناء منذ السنة الأولى لحكمه سنة ١٨٤ وأتمه في السنة التالية وسمى المدينة بالعباسية^(١) وإن سماها الناس باسم القصر القديم وكان من الحصافة السياسية بحيث حقق هدفه دون أن يشير ثائرة الجند عليه أو ارتياهم فقد احتل شراصة أعمالهم وداراهم في الوقت الذي كان يشتري أعداداً واسعة من الرقيق السودان زعم أولاً أنه يريد استخدامهم في الصناعة تخفيفاً على الناس ثم جعلهم لحمل سلاح الجند كي يحملوا عنهم أثقالهم إكراماً لهم ثم استطاع ذات ليلة أن ينتقل إلى مدينته مع عبيده السودانيين وقد سبقه السلاح والعدد^(٢) فإذا هو في حرس خاص له • وإذا بالجند دون سلاح •

وقد برهنت العباسية عن فائدتها فور انتهائها فقد احتسب بها ابن الأغلب من أول ثورة قامت عليه من الجند سنة ١٨٦/٨٠٢ ثم هزم الثوار بعد ذلك عند سبخة تونس (شط الجريد) أشنع هزيمة إذ فقدوا مع زعيمهم عشرة آلاف قتيل •

ثم برهنت مرة أخرى على قيمتها حين ثار على ابن الأغلب قائده الأول عمران بن مجالد اللريعي الذي اجتذب الكثير من القادة والانصار

(١) موقعها على مسيرة ثلاثة أميال جنوب القيروان وقد استقبل ابن الأغلب فيها سنة ١٨٥ رسل شارلمان الذين جاؤوا لنقل رفات القديس سيبرين إلى فرنسا • وقد بنى الأغلبة سنة ٢٦٤ عاصمة ثانية على بعد ثمانية أميال من جنوب القيروان هي رقادة مالبت أن فقدت مكانتها بانهياء الدولة الأغلبية •

(٢) انظر ابن عذارى - البيان المغرب ج ١ ص ٩٣ والنويري ورقة

١٠٥ وجه •

إليه وغلب على معظم افريقية وعلى القيروان وحاول استعلاء الفقهاء على سيده . واحتفى ابن الأغلب وراء أسوار مدينته وخندقها مدة الثورة التي استمرت عاماً طويلاً ولم يخلصه منها سوى وصول الأموال من قبل الرشيد لدفع مرتبات الجند^(١) فبعث ابن الأغلب فنادى من كان من جند امير المؤمنين فليات لأخذ عطائه وتراكم الجند يتركون عمران الى ابن الأغلب ، فلما قل عدده هرب ودخل الأغلب القيروان فقلع أبوابها وهدم سورها لئلا تعود للثورة وحكم بعد ذلك حتى وفاته سنة ٨١٢/١٩٦ فلم تعرف افريقية - على حد قول ابن السريق المؤرخ - والياً عدل ولا أحسن سياسة ولا أرفق بالرعية ولا أضبط للأمور منه»^(٢) .

وقد بلغ من براعته أنه أقام - رغم تمثيله للخلافة العباسية - علاقات عادية وأحياناً علاقات من الود والتعاون مع دولة الخوارج الرسمية التي كان نفوذها يمتد عبر الصحراء الجنوبية حتى جبل نفوسة في طرابلس كما نجح في استمالة بعض أعوان ادريس العلوي حتى هدد دولته واضطره لطلب المودة والكف عنه^(٣) .

وقد عهد ابراهيم بن الأغلب قبل وفاته الى ابنه عبد الله بالولاية دون الرجوع الى بغداد إما لأنها كانت أعطته الحق الوراثي أو لانه استغل حصارها في فتنة الامين والمأمون فأخذ هذا الحق لنفسه . وكان

(١) انظر ابن الأثير ج ٦ ص ١٥٦

(٢) نقل الجملة النويري ج ٢ ورقة ١٠٦ وجه . كما ذكر مثل ذلك

ابن عذارى ج ١ ص ١١٦

(٣) ابن الأثير ج ٦ ص ١٥٧ وابن خلدون و ج ٦ ص ١١٩

عبد الله يحارب الخوارج في طرابلس فصالحهم على أن تكون المدينة والبحر له والبر من جبل نفوسة وما وراءه إليهم ثم جاء القيروان فعاش على جهود أبيه خمس سنوات ذلك أنه أحدث بأفريقية وجوهاً من الظلم شنيعة وشدد على الناس في المغارم واستخف بالفقهاء والصالحين الذين كانوا ينصحونه وطردهم . ولكنه توفي سنة ٢٠١ ليخلفه أخوه زيادة الله . وكانت الخلافة في بغداد على اضطرابها . وعلى البيعة لإبراهيم بن المهدي أو للمأمون . وهذا ما مكن للأغلبة مكانهم من الملكية الوراثية التي لا ترتبط مع بغداد بأكثر من رابطة المبلغ المالي السنوي والاعتراف بالولاء الاسمي الذي كانوا يحكمون الشرعيين الوحيدين في أفريقية والمغرب في أنظار الناس .

استمر عهد زيادة الله اثنتين وعشرين سنة (٢٠١ - ٢٢٣) ويعتبر في نظر المؤرخين أعظم وأفضل الأمراء الأغلبة . كاتب المأمون أولاً فجاءه التقليد منه وظل مخلصاً له فلم يمل مع إبراهيم بن المهدي فلما وصل المأمون بغداد سنة ٢٠٤ شكر له ذلك ^(١) لكنه حين بعث يطلب منه الخطبة على منبره لعبد الله بن طاهر الذي ولي النصف الغربي من الخلافة كله سنة ٢١١ غضب زيادة الله وبعث مع رسول الخليفة كيساً به ألف دينار مضروبة بأسماء بني إدريس العلويين بالمغرب . . . يهدده بالانضمام للإدارة . . . وسكوت المأمون بعدها عنه كان اعترافاً كاملاً باستقلال الأغلبة لكن قوة زيادة الله لا ترجع إلى هذا الاعتراف بقدر ما ترجع إلى انتصاره على الثورات المتتالية التي قام بها الجند العربي ضده وخاصة سنة ٢٠٨ ،

(١) انظر ابن الخطيب أعمال الاعلام القسم الثالث ص ١٦ .

سنة ٢٠٩ وسنة ٢١٠ وكان من نتيجتها تحطيم القوى العربية في افريقية •

ولعل أهم مقام به زيادة الله هو أولاً جهده العمراني فقد ترك في القيروان والعباسية وتونس وسوسة الكثير من الآثار والابنية من المساجد والقناطر والأربطة وخزانات الماء •

وأما الامر الثاني فهو غزو جزيرة صقلية والنزول فيها منذ سنة ٢١٢ ولم يكن السبب في ذلك الغزو محبة التوسع السياسي والغنائم والجهاد الديني والفتح فقط ولكن كان وراءه دافعان أساسيان آخران هما قمع الأعمال العدوانية التي يقوم بها الاسطول الرومي ضد الموانئ الافريقية ثم السيطرة على طرق التجارة البحرية مابين حوضي البحر المتوسط الشرقي والغربي • ويمكن أن يضاف الى ذلك رغبة زيادة الله في إشغال جنده وخاصة منهم البربر لئلا يشغبوا عليه بعد أن أخذ الثورات المختلفة التي قامت ضده •

وقد تولى الحكم بعد زيادة الله أخوه ابو عقال مدة ثلاث سنوات وقد أخذ الناس بالحسنى وقمع المظالم وزيادة ارزاق الجند والتودد الى الناس كما تابع بدوره عملية الغزو الصعب بصقلية • وأعقبه أبو العباس محمد بن الأغلب بن ابراهيم ما بين سنتي ٢٢٦ و ٢٤٢ واستمر الحكم للإغالبة بعد ذلك حتى سنة ٢٩٦ حين هزم زيادة الله الاخير أمام أبي عبد الله الشيعي ، مؤسس الدولة الفاطمية وهرب الى مصر •

ب - في مصر : عرفت مصر في عصر الرشيد فترة حسنة من الاستقرار ولكنها مع ذلك لم تكمل حتى النهاية وبعد فترة هدوء نسبي استمرت حوالي خمس وثلاثين سنة لم يعكرها سوى حركة تمرد واحدة،

عرفت عهداً من الفوضى والتدمير وفقد الأمن لم تعرفه إلا في فترات قليلة من تاريخها • وقد استمر أكثر من خمس وعشرين سنة ولم ينته إلا مع انتهاء عهد المأمون •

والحركات التي قامت في مصر بعضها سياسي ناجم عن أطماع المتسلطين المحليين وبعض مالي ناجم عن الإهمال والظلم في الخراج وجبايته وقد أثرت أسباب هذه في تلك في معظم الأحيان وزاد في حدتها ومآسيها •

١ - فأما الحركات السياسية فقد ظهرت مرتين الأولى أموية في عهد المهدي والثانية انفصالية خلال فتنة الأمين والمأمون •

ففي زمن المهدي سنة ١٦٧ خرج دحية بن مصعب ، حفيد مروان ابن الحكم الأموي « في صعيد مصر وناشد ومنع الأموال ودعا إلى نفسه بالخلافة • فبلغ ذلك إبراهيم بن صالح (والي مصر) فتراخى عنه ولم يحفل بأمره حتى ملك عامة الصعيد فبلغ ذلك المهدي فسخط على إبراهيم وعزله عزلاً قبيحاً^(١) وأرسل عليها موسى بن مصعب الذي أخذها بالجور والشدة والافقار وأرسل على دحية جيشاً من خمسة آلاف من أهل الديوان^(٢) وقبل أن يقوم هذا الجيش بعمل حاسم كانت مشكلة موسى الإدارية قد تعقدت بانتقاض أهل الحوف العرب عليه فلما خرج إليهم قتل على أيديهم ونجت بذلك حركة دحية الذي أسرع الناس فكاتبوه ودعوه إلى دخول الفسطاط^(٣) فلما قدم الفضل بن صالح

(١) الكندي - الولاة والقضاة ص ١٢٤ •

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٦ •

(٣) المصدر نفسه ص ١٢٩ •

العباسي والياً على مصر سنة ١٦٩ • كانت « تضطرم لما كان من ثورة أهل الحوف وخروج دحية » فأرسل إليه الفضل بجيش استطاع عند بلدة بويط (جنوب أسيوط) أن يقتل الفتح بن الصلت صاحب أمر دحية وقائده • فانكسر دحية لمقتله « ومضى في طائفة معه الى طريق الواحات فبعث الى أهلها يدعوهم إلى القيام معه وكانوا من المسالمة والبربر يتدينون بالشراية (أي من الخوارج) فقالوا لا نقاتل إلا مع أهل دعوتنا فبعث إليهم دحية : إنا على مذهبكم • فخرجوا إليه وقاتلوا معه يوم الدير • • » وهي المعركة التي هزم فيها الجيش العباسي أمام دحية ولكن « أهل الواحات وجدوا عليه إثارة العرب على الموالي وتقديسهم على البربر فقالوا هذا ظلم والاسلام واحد ولسنا نقاتل معك حتى نمتحنك بالبراءة من عثمان فامتنع دحية وقال : والله ما أرجو الجنة إلا بالرحم بيني وبين عثمان » فلما انصرفوا عنه عاد عليه الجيش العباسي فحاربه أشد الحرب حتى انهزم وأخذ أسيراً في أتون لشبي الفخار ف ضربت عنقه^(١) و صلب وأرسل رأسه الى الهادي •

وكانت الحركة السياسية الثانية عند ظهور النزاع الأخوي بين الأمين والمأمون سنة ١٩٤ - ١٩٥ وقد أخذت الشكل الانفصالي • فقد كان في مصر جند من الخراسانية موالون الى المأمون فلما خلعه الأمين من ولاية العهد غضبوا وتزعّمهم واحد منهم هو السري بن الحكم الذي دخل مصر مع جند الليث بن الفضل والى مصر زمن الرشيد (١٨٢ -

(١) الكندي المصدر نفسه ص ١٣٠ - ١٣١ وانظر اليعقوبي ج ٢ ص ٤٠٥ وهو يذكر أن جيشين قد هاجما دحية أحدهما بقيادة عباسية والآخر يقوده رجل من أهل الفيوم (العرب) اسمه عبد الله بن علي المرادي •

١٨٧) ثم ارتفع شأنه بغضبه للمأمون . ولكن لا يبدو أن المأمون أقام معه الصلات اللازمة لأنه لم يكن يومذاك بالوجه المعروف . وجل مافهمه المأمون وأصحابه من الحركة هو أن عليهم ألا يهملوا ، في النزاع مع الأمين ، أمر مصر وأن فيها جماعة خراسانية يمكن الاعتماد على دعمها للقضية . وهكذا أسرع المأمون فكتب إلى وجوه القوم في مصر فأجابوه في السر وأرسل هرثمة بن أعين قائد المأمون إلى عباد بن محمد بن حيان وكيل ضياعه في مصر فخلع مع الجند بيعة الأمين سنة ١٩٦ وطرده واليه جابر بن الأشعث وادخل البلد في طاعة المأمون .

وبغت الأمين للضربة الاستراتيجية التي طوقه بها أخوه من خلفه في غرب الدولة فبعث إلى زعيم قبائل قيس في الحوف الشرقي (شرق الدلتا) فجعله والياً على مصر ليلقى بأسهم بينهم وهكذا تجندت هذه القبائل لقضية الأمين وقاتلت والي المأمون ومؤيديه ولكن حصار بغداد الطويل ثم مقتل الأمين مع بعد المأمون أنسى الناس قضية الأخوين وحول القتال بين المتنفذين إلى نزاع على التسلط الذاتي في مصر .

وبرز في الحوف الشرقي عبد العزيز بن الوزير الجروي فتسلط عليه سنة ١٩٩ بينما سيطر في القسطاط والصعيد السري بن الحكم الذي ولي مصر بمبايعة الجند له سنة ٢٠٠ ثم بأمر المأمون سنة ٢٠١ . أما الحوف الغربي (غرب الدلتا) فقد سيطرت فيه قبيلتا لخم وجذام ثم زاد المشكلة تعقيداً أن جاءت من الاندلس جالية واسعة من ١٥ ألف لاجئ هم جماعة الربض^(١) الاندلسيون فنزلوا بجوار الاسكندرية ثم مالبتوا أن يسيطروا

(١) هم الذين طردهم الحكم بن هشام الأموي بعد موقعه الربض من

عليها وأقاموا فيها نوعاً من الجمهورية الصغيرة سنة ٢٠٠ تعاونا فيها
أولاً مع جماعة محلية من الصوفية ثم تركوهم وأستأثروا بالحكم بزعامة
أبي حفص الكناني .

وتقسمت مصر ، على هذا الشكل بين أربع قوى متناحرة : ثلاث
في الدلتا والرابعة تسيطر على الوادي . لكنها كانت جميعاً راغبة في
الاستقلال بمصر أو بما تحت يدها منها على الأقل عن الخلافة العباسية .
حتى السري بن الحكم الذي ولاه المأمون الأمر تسليماً منه بالامر الواقع
لم يكن صادق الولاء لأنه انما والاه التماساً لشرعية الحكم . وقد
انعكست أحداث بغداد ومرو سنة ٢٠٢ على مصر فلما بايع المأمون بولاية
العهد لعلي الرضا وكتب إلى الآفاق بذلك بايع بعض الجند في مصر
وامتنع آخرون ولما نصبت بغداد ابراهيم بن المهدي في الخلافة وجد
هذا الخليفة نصيراً له في عبد العزيز الجروي وفي الكثيرين غيره كيداً
بالسري بن الحكم . . . فلما مات الرضا وانخذل ابن المهدي وأمر المأمون
بغسل المنابر التي بويغ عليها للرضا عادت القوى في مصر الى خلافاتها
الاولى وحروبها المتصلة .

وبالرغم من أن سنة ٢٠٥ شهدت غياب الزعيمين الكبيرين : السري
والجروي إذ لقي الجروي مصرعه وهو يحاصر الاسكندرية ثم لحقه
السري بالموت بعد ثلاثة أشهر فقد ورث النزاع ولداهما علي بن عبد
العزيز وأبو نصر بن السري كل من موقعه هذا في الصعيد وغرب الدلتا
وذاك في شرقها وتهادنا بعد حروب دامية فلما مات أبو نصر وأعقبه أخوه

قرطبة سنة ١٩٨ هـ فاخاروا اللجوء الى مصر وجاؤوها في ٤٠ مركباً بينما
بقي قسم منهم في المغرب .

عبيد الله بن السري سنة ٢٠٦ بقي الجروي على الهدنة ٠٠٠ لا سيما حين استطاع ابن السري هزيمة وال أرسله المأمون الى مصر وبالرغم من أن الخليفة عاد فأقر ابن السري والجروي كل منهما على ما بيده سنة ٢٠٧ إلا إنه ظهر كأن مصر قد خرجت من أيدي الخلافة العباسية لاسيما حين هاجم ابن السري أرض الجروي وأخذ منه عاصمته تنيس فهرب الجروي إلى الفرما ثم العريش سنة ٢٠٩ (١) ٠٠٠

في تلك الاثناء ولم يكن على ابن السري إلا هزيمة الجروي هزيمة نهائية ثم أخذ الاسكندرية من أهل الرض لتصبح مصر كلها ولاية خالصة له قدم عبد الله بن طاهر بن الحسين والياً من قبل المأمون سنة ٢١٠ فانضم الجروي إلى جيش ابن طاهر وقدم له الأموال والمعونة . وبالرغم مما أعد ابن السري من السفن وعدة الحرب وما حضر من الخندق حول الفسطاط فقد هزم أسطوله في البحر لأن ابن الجروي الخبير بحرب البحر قاد المعركة . كما هزمه ابن طاهر عند الفسطاط في البر في مطلع سنة ٢١١ . وطلب ابن السري الأمان فأعطى كتاب أمان بتوقيع المأمون وخرج من مصر ليموت في سامراء سنة ٢٥١ ويمكن اعتبار أسرة السري أول أسرة شبه مستقلة في مصر وقد كانت تمهيداً لظهور اسرة ابن طولون المقبلة .

أما جمهورية الاسكندرية فقد نزل عليها ابن طاهر سنة ٢١٢ وحاصر الاندلسيين فيها بضع عشرة ليلة مما اضطرهم للخروج إليه بالأمان . وصالحهم على أن يتركوا الاسكندرية حيث أحبوا على ألا يخرجوا في مراكبهم أحداً من مصر ولا عبداً ولا آبقاً فإن فعلوا حلت دماؤهم ! وقد

(١) انظر في تفصيل هذه الامور الكندي - الولاة والقضاة ص

كاد يحرق مراكزهم لأنه اكتشف بعض المخالفة ثم سألوه الرد إلى شرطهم
الأول فارتضاه ... وساروا من الاسكندرية الى كريت ففتحوها
واستقروا بها ...
وعادت مصر بهذا الشكل ولاية عباسية .

٢ - أما الحركات النابعة من جذور مالية وبسبب التعسف في أمر
الخراج فقد كان أصحابها حتى نهاية عهد المنصور هم القبط ثم تسلم
أمرها العرب المسلمون النازلون في مصر منذ عهد المهدي . والواقع أن
طرفي الدلتا من الشرق والغرب وهما الحوف الشرقي والحوف الغربي
كانا قد أصبحا عربيين منذ زمن . إذ نزلت لخم وجذام في الغربي ثم
أنزل ابن الجحباب بطوناً من قيس في الشرقي سنة ١٠٩ هـ واشترط عليهم
العمل بالزراعة .. ولما كانوا قد استقروا في عهد المهدي فقد ذاقوا عضة
الخراج ومشاكله فقاموا خلال فترة خمسين سنة ما بين عهدي المهدي
والمأمون بخمس ثورات :

حدث سنة ١٦٧ ان « تشدد موسى بن صعب والى المهدي
في استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما تقبل به
ثم عاد موسى الى الرشوة في الاحكام وجعل خراجاً على أهل الاسواق
والدواب .. » « وظهر الجند لموسى الكراهية والشنآن . وبعث عمالاً
(للخراج) على الحوف فأخرجهم أهل الحوف ونابدوه وعقدت قيس
واليمانية (أي أهل الحوفين) حلفاً فيما بينهم ... (وعينوا والياً لهم)
وكلّموا أهل الفسطاط من الجند وخوفوهم الله وذكروا لهم ما أتى موسى
إليهم فأعطاهم الجند من أهل مصر العهود والمواثيق أنهم ينهزموا عنه
إذا خرج إليهم فلا يقاتلون معه وتحالفوا هم وأهل الفسطاط على ذلك »
في الوقت الذي كان فيه الصعيد قد ثار بزعامة دحية بن مصعب الأموي .

وقام هذا الحلف بين العرب المستقرين والجند العباسي بدوره إذ
« خرج موسى بجند مصر كلهم (نحو الدلتا) وأقبل إليهم أهل الحوف
يمنىها وقيسها فانهزم أهل مصر بأجمعهم وأسلموا موسى بن صعب فقتل^(١)
« وبلغ المهدي مقتله فغضب الغضب الشديد وحلف على الانتقام ولكن
الموت أعجله . وقد كتب إليه بعض الشعراء :

لو يعلم المهدي ماذا الذي يفعله موسى وأيوب
بأرض مصر حين حلا بها لم يتهم في النصح يعقوب

وكان يعقوب بن داود كاتبه ينصح بعدم الموافقة على سياسة
موسى وعمله .

وقدم الفضل بن صالح بن علي العباسي والياً على مصر سنة ١٦٩
« وهي تضطرم لما كان من أهل الحوف ولخروج دحية بن مصعب »
فأرسل الجيوش ضد أهل الحوف في البر والنهر حتى خمدت الثورة .
ولكن خمودها كان مؤقتاً لأنها مالبت أن عادت سنة ١٧٨ إذ « كشف
اسحق (بن سليمان والي مصر) أمر الخراج وزاد على المزارعين زيادة
أجحف بهم فخرج عليه أهل الحوف وعسكروا . فبعث الجيوش لحربهم »
فقتلوا جمعاً من أصحابه واستنجد بالرشيد « فعقد لهرثمة بن أعين
في جيش عظيم » ما إن نزل الحوف حتى « لقيه أهله بالطاعة وأذعنوا
بإداء الخراج كله » .

— وخرج أهل الحوف كرة ثالثة سنة ١٨٦ على الليث بن الفضل

(١) انظر في تفصيل ذلك الكندي - الولاة والقضاة ص ١٢٥ - ١٢٧ .

الوالي لأنه » بعث بمساح يمسحون عليهم أراضي زرعهم فانتقصوا من القصبه أصابع فتظلم الناس الى الليث فلم يسمع منهم فعسكروا وساروا إلى القسطنطينople فلما لم تسفر معركتهم مع الليث عن نصر حاسم ، رجعوا إلى منازلهم ومنعوا الخراج ... وذهب الوالي إلى بغداد يطلب جيشاً وذكر أنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف إلا بجيش وكان بباب الرشيد رجل يدعى محفوظ بن سلمان فرفع الى الخليفة أنه يضمن جباية خراج مصر عن آخره بلا سوط ولا عصا . فولاه الرشيد الخراج ... لكن الهدوء لم يدم سوى سنوات معدودة .

— وعاد الحوف الى الثورة مرة رابعة سنة ١٩١ من ولاية الحسين ابن جميل وامتنعوا عن اداء الخراج وذهب بعضهم لقطع الطريق حول أيلة (بين فلسطين والحجاز) وعادت الخلافة مرة رابعة فأرسلت جيشاً ما إن نزل بلبيس حتى أذعن أهل الحوف بالخراج ...

وإذا غرقت مصر في الفوضى بين المتنفذين خلال فتنة الامين والمأمون اكثر من خمس عشرة سنة وشغلت بما قاست من المآسي خلال ذلك فانها حين انتظمت الامور على يد عبد الله بن طاهر بن الحسين عادت إلى الثورة لأن صاحب الخراج » صالح بن شيرزاد ظلم الناس وزاد عليهم في خراجهم فانتقض أسفل الارض (الدلتا) وعسكروا ... » في مطالع سنة ٢١٤ ... وقد كانت هذه الثورة أشد الثورات وأقساها وأكثرها طولاً في المدة وخطراً في النتائج رغم تقطعها وقتل زعمائها منذ السنة الأولى ..

وقد استمرت تلك الثورة ثلاث سنوات • وكانت تشور دوما في مطلع موسم الجباية والخراج خاصة من كل سنة وهزم المتمرّدون جيوش الولاة العباسيين واحدا بعد الآخر كما انهزموا مرات امامهم دون طائل • وقتل في الحروب المتقطعة جموع كثيرة ولكن الاستياء الكامن كان يفجر التمرد من جديد وكلما اخمد • ومنذ الايام الاولى شعر المأمون بخطر الثورة فأرسل عليها أخاه أبا إسحق (المعتصم) والياً على مصر ففاجأ أرض الثوار بجيش من الاتراك نزل بين أظهرهم وهزمهم وأسر زعيمى القيسية واليمانية : عبد الله بن حليس الهلالي وعبد السلام بن أبي الماضي فقيدهما ثم أقامهما للناس ثم ضرب أعناقهما وصلبهما في القسطنطينية • (أواخر سنة ٢١٤) ثم خرج الى العراق ومعه جمع من الاسرى في حر وجهد شديد « لكن السنة التالية شهدت عودة بعض أهل الحوف الغربي للتمرد وهزيمتهم • ثم شهدت سنة ٢١٦ ثورة « أسفل الارض كلها عربها وقبطها ... وأخرجوا العمال وخالفوا بالطاعة وكان ذلك لسوء سيرة العمال فيهم ... »^(١) وثورة القبط هذه في تحالفها مع المزارعين العرب هي أول ثورة لهم بعد هدوء نصف قرن •

فأرسل أبو إسحق (المعتصم) الوالى على مصر قائد الافشين الذي سحق بؤر التمرد في الدلتا الواحدة بعد الاخرى • وضرب أعناق زعمائها وأسر الكثير من رجالها • ومع ذلك فإن الخليفة المأمون إدراكاً منه لأبعاد تلك الثورة وخطرها قرر المجيء بنفسه الى مصر • وترك جبهة الروم إليها في مطلع سنة ٢١٧ وسماها « بالحدث العظيم » وأدرك منذ وصل سببها • قال لصاحب الخراج عيسى بن منصور : « لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك • حملتم الناس مالا يطيقون وكتتموني

الخبر حتى تفاقم الامر واضطربت البلد ...»^(١) ثم حل لواءه وأمره « بلبس البياض » (بدل السواد — كأنما أضحي من الاعداء) « عقوبة له » على حد قول المقريري^(٢) .

ولكن هذا لم يمنع المأمون — الذي بقي خمسين يوماً في مصر — من أخذ الناس بأقصى الشدة فقتل وسبا وتتبع (لا رؤوس الثورة فقط ولكن كل) من يومى إليه بخلاف فقتله فقتل ناساً كثيراً ...»^(٣) أما القبط فكان عقابهم عنده أقسى وأشد إذ نزلوا على حكمه بعد هزيمتهم أمام الأفشين « فحكم بقتل الرجال وبيع النساء والاطفال فبيعوا وسبى أكثرهم ... » وهم قبط البشرد وسخا والبيما ويعلق المقريري على ذلك بقوله « ومن ذلك اليوم ذل القبط بمصر .. » ويروي اليعقوبي أن المأمون استفتى فقيهاً مالكيًا يدعى الحارث بن مسكين في عمله «فقال: « ان كان خروجهم لظلم نالهم فلا تحل دماؤهم وأموالهم ... » فقال المأمون : « أنت تيس . ومالك أتيس منك ، هؤلاء كفار لهم ذمة ، إذا ظلموا تظلموا إلى الامام . وليس لهم أن يستنصروا بأسيا فهم ولا يسفكوا دماء المسلمين في ديارهم » وفي هذا اعتراف من المأمون بالظلم ولكنه — على قول المقريري^(٤) — ينسب ذلك لعامل الخراج وجباة . فعزله وساق رؤساء الثورة القبطية إلى بغداد .

ج - في اليمن : كان انتشار التشيع في اليمن نوعاً من المقاومة

(١) الكندي المصدر نفسه ص ١٩٢

(٢) المقريري - الخطط ج ١ ص ١٤٥

(٣) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٦٦

(٤) المقريري الخطط ج ٢ ص ٩٩ .

السلبية ورد الفعل على جور الولاة العباسيين • ولكن اليمنيين في مختلف بقاع اليمن على ما يظهر ، لم يكتفوا بالموقف السلبي بل قاوموا بالسلاح ذلك الجور • فقد ثارت اليمن ضد واليها حماد البربري سنة ١٧٩ هـ مدة تسع سنين • وبالرغم من إلقاء القبض بعد ذلك على زعيم الثائرين الهيصم ابن عبد المجيد الهمداني فإن هذه الثورة لم تهدأ إلا بعد عزل حماد • ولكنها تركت مكانها لثورات أخرى ، واضطر المأمون لمشاورة وزيره الحسن بن سهل في أمرها فأشار عليه برجل من ولد زياد بن أبي سفيان هو محمد بن ابراهيم الزيادي فولاه اليمن سنة ٢٠٤ فتوجه إليها وفتح منطقة تهامة واختط فيها مدينة (زييد) سنة ٢٠٤ وجعلها حاضرتة وعظم أمره مع دوام ملكه إلى سنة ٢٤٥ حتى أضحى كالمملك المستقل لولا خطبته لبني العباس ، وحسله الخراج والهدايا اليهم • وقد صار الملك في أبنائه ، ثم في مواليهم وموالي مواليهم من آل نجاح إلى سنة ٥٥٤ هـ ، وتعرف دولتهم جميعاً باسم الدولة الزيدانية • وهي أولى الدول استقلالاً باليمن •

وبالرغم من أن يعفر بن عبد الرحيم بن ابراهيم الحوالي قام بعد ذلك سنة ٢٤٧ وقام من بعده أولاده وأحفاده بولاية صنعاء (منطقة النجود في اليمن) وأسسوا الدولة اليعفرية بين (٢٤٧ — ٣٨٧) إلا أنهم كانوا يخشون آل زياد ويرسلون لهم الخراج إلى زييد كأنهم عمال لهم • ومثل ذلك موقف الأئمة الرسية الذين ظهروا في صعدة من عسير سنة ٢٨٠ وامتدت أيامهم إلى سنة ٧٠٠ هـ وتعاقب على الحكم منهم (١٧) إماماً •

د - في الشام : كان أهل الشام مايزالون على موقفهم المعادي للعباسيين وإن اضطروا في كثير من الأحيان إلى إرسال وفود الطاعة والترضية والولاء الظاهري إلى بغداد • وكان العباسيون بدورهم يعرفون

ذلك جيد المعرفة ويعاملون الشام تارة بالاهمال وتارة بالشدة العنيفة وثالثة بالمدارة تبعاً للظروف . وكانت تحركات الشام من الكثرة في هذه الفترة بحيث اجبرت الخلفاء على أن يتخيروا اليها اعظم رجال الدولة كجعفر البرمكي نفسه أو أقرب الناس رحماً إليهم كابراهيم بن المهدي أخو الرشيد وبعض أولاد المنصور أو أولاد صالح بن علي بل أزعجت أحياناً الخلفاء حتى اضطر الرشيد ذات مرة لأن يخرج إليها بنفسه . يذكر الطبري أنه حين ورد بغداد سنة ١٨٨ لم يبق بها وقال بعد ان امتدحها « . . . ولنعم الدار هي . ولكن اريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق والبغض لأئمة الهدى والحب لشجرة اللعنة بني أمية مع مافيها من المارقة والمتلصصة ومخيفي السبيل ولولا ذلك ما فارقت بغداد ماحييت ولا خرجت عنها أبداً . . . »^(١) وهكذا تبادل العراق والشام الدور في العصر العباسي وصار الشاميون هم «أهل الشقاق والنفاق» بسبب انتقال الحكم منهم ولكن حركات الشام في هذه الفترة كانت مختلفة الأسباب فبعضها فتن قبلية بين قيس ويمن . وبعضها انتفاض أموي على بني العباس وبعضها أخيراً ثورة على الظلم أو غضب للعروبة . وليست هذه الأسباب بنت هذه الفترة التي ندرس (١٥٨ - ٢١٨) ولا انتهت بانتهاؤها . لهذا فحركات الشام التي ظهرت فيها كانت حلقة من سلسلة سبق بعضها في زمن المنصور وسيتبع الباقي في زمن المعتصم والمتوكل ومن بعدهما .

فأما النصبية القبلية فيظهر أن العباسيين كانوا يفضون الطرف عن بقائها . وكان بعض ولااتهم يشجعها ، ويتحزب لأحد القبيلين على

(١) الطبري ج ٨ ص ٣١٧ (٣/٧٠٦) .

الآخر • وكان القيسيون غالباً حزب العباسيين وبعكسهم اليمانيون • ويستمر ذلك إلا إذا استشرت الفتنة • فيتدخل جند الخليفة لإقرار الأمن • وال واحد فقط هو ابراهيم بن المهدي (ابن شكلة) - وقد ولى دمشق لأخيه الرشيد مرتين : سنتين ثم أربع سنوات - كان يفخر بأنه الوحيد الذي نجا من أن ينبذ بلقب من تلك الألقاب التي اعتاد الشاميون أن ينبذوا بها ولاتهم فإن مال لقيس لقبه اليمانيون وإن مال لليمن لقبه القيسيون كما كان يفخر بأنه نجح في إقرار التوازن القبلي بين قيس ويمن بالشام ومعاملتهم بالتساوي التام إذ جعل جلوسهم في مجلسه حسب مراتبهم وبالتناوب مابين قيسي يتلوهم يمني ثم قيسي وبتناوب التحول من يمن إلى شمال يوماً بعد يوم • وكان لا يقضي مصلحة لأحد الحين إلا نادى في الحي الآخر هل من مصلحة لأحد منه تشبهها فيقضيها ؟ • • والسبب في هذا التوازن الميكانيكي المتعب في الارادة هو تراحم الجماعتين الاقتصادي دون شك ونزاعهم على النزول والاستئثار بأحسن الأراضي • وليست العصبية القبلية سوى الشكل الظاهري لهذا النزاع والزحام • إنهم أعطوا الاسم التقليدي للواقع الاقتصادي الاجتماعي الجديد الذي كانوا يعيشونه وهو عملية التحول من الرعي إلى الزراعة والاستقرار في كتل عربية متسلسلة تحفظ قراباتها المتصلة في القرى المتجاورة التي نزلتها • وتداخل القبائل الشالية والجنوبية في النزول بهذه القرى الشامية ورغبتهم في الحفاظ على مجموعهم في كتل متقاربة وفي استملاك القرى الاخصب هو الذي كان يثير الفتن التي عرفها العهد الأموي والعهد العباسي الأول باسم العصبية القبلية •

ومن أخطر الفتن العصبية بالشام فتنة دمشق سنة ١٧٦ التي دامت سنتين • • • تلتها سنوات • وقد برزت فيها أحقاد التيسية (المضرية)

على اليمانيين واستماتتهم في الدفاع عن استقرارهم وأراضيهم لأنهم كانوا الأقل ثروة وعدداً بينما كان اليمانيون يفخرون بأنهم « أهل الثروة والعدد والعز » كما يروي المؤرخ المدائني عنهم ، كما كانوا « أجمع داراً من قيس » أي أكثر جموعاً . ولا شك من أن ازِمات الجذب والجفاف وقلة المطر بين سنة وسنة كانت تساهم في إثارة الفتن بين الحيين وتطلق قواهم للصدام فيما بينهم بسبب الضنك والغلاء والعطالة عن العمل ونجد أثر ذلك في فتنة سنة ١٧٦ هذه فإن أيام ابن معيوف، امير دمشق اليماني ، في تلك الفترة كانت كما يروي ابن عساكر « أيام بؤس وجذب وغلاء » وقال أهل دمشق في ذلك الأشعار ومنها :

ما كنت أحسب أن الخبز فاكهة حتى تربع في «الخضراء» معيوف^(١)

والمؤرخ المدائني ، حباً منه في الإغراب ، يعزو سبب الفتنة الى النزاع على « بطيخة » ويروي أن العصبية ثارت بسبب رجل من بني القين (القيسيين) قاتله جماعة من لحم وجذام لأنه أخذ بعض البطيخ والقثاء من حائط (حقل مسور) لهم فقتل واحداً منهم وبالرغم من محاولات الصلح فقد غزا اليمانيون بعض القرى القيسية فقتلوا عدة مئات وهاجم القيسيون بالمقابل بعض القرى اليمانية فقتلوا مثل ذلك... وتوالت المعارك... وفشل الوالي عبد الصمد بن علي الذي عينه الرشيد للشام في ايجاد مخرج من دوامة الثارات المتبادلة !

تزعّم القيسيين المضرية في هذه الفترة « أحد فرسان العرب المشهورين » الذي تذكرنا أعماله المثيرة للاعجاب من فروسية وشجاعة

(١) الخضراء هو قصر معاوية بن ابي سفيان في دمشق وكان لصق الجامع الاموي على جداره الجنوبي . وقد اتخذته الولاة العباسيون مقراً للحكم .

وحكمة بكبار الفرسان المشهورين في الجاهلية وأصحاب المروءات وهو :
ابو الهيثام عامر بن عمار بن خريم المري وكان مسكنه في بصرى وله
منزلة في دمشق . والرواة يعطونه بدوره سبباً شخصياً إذ يروون أنه
كان مع أخيه في سجستان فقتل عامل الرشيد أخاه فعاد مغضباً وجمع
الجموع للثورة...^(١) وليس يبدو أن أبا الهيثام اشترك في الفتنة من
أولها فقد حافظ الرجل على برودة أعصابه - حسب ما يظهر من الأخبار -
أكثر من سنة وإن كان خلالها يحرك القوى القيسية ويتزعمها . ولكن
خبر غضبه لمصرع أخيه قد يكون صحيحاً فقد رويت على لسانه بعض
الأشعار التي يتحدث بذلك ومنها :

سأبكيك بالبيض الرقاق وبالقنا فإن بها ما يدرك الطالب الوترا
ولكنني أشفي الفؤاد بغارة ألهب في قطري كتائبها جمرًا

وعزل الرشيد عبد الصمد بن علي واستبدل به ابراهيم بن صالح
ابن علي والناس « على ذلك الشر » ثم تداعوا الى الصلح فاصطلحوا
وشخص ابراهيم الى بغداد بوفد ضخم يضم ١٢٠ رجلاً من أهل الشام

(١) انظر تفاصيل هذه الثورة في ترجمة ابي الهيثام لدى ابن عساكر
- تاريخ دمشق (مخطوط الظاهرية) ج ٨ الاوراق ١٩٥ وجه فيما بعد
وفي تهذيب التاريخ ج ٧ ض ١٧٦ - ١٩٣ ويختصرها ابن الأثير في حوادث
سنة ١٧٦ (ج ٦ ض ١٢٧ - ١٣٣) ومن الهام أن نلاحظ أن هذه الترجمة
تعين على معرفة منازل القبائل العربية في غوطة دمشق ومنطقتها ونجد
مثل ذلك في ترجمة مسلمة بن يعقوب . (تاريخ دمشق لابن عساكر -
المخطوط ج ١٦ الورقة ٢٣١ فما بعد) . كما ان الهام أن نلاحظ أن الرواية
التي يرويها ابن عساكر نقلاً عن المدائني تميل مع القيسيين ميلاً كبيراً
وتمجد بطولاتهم الخارقة وتذكر انتصارات ابي الهيثام الرائعة بالاعداد
القليلة على العدد اليماني الكبير ولعلها الرواية القيسية لتلك الاحداث .
فهى إذن تفتقر الى وجهة النظر اليمانية .

فيهم أبو الهيثام . وقد مال ابراهيم ، تحت تأثير كاتبة اليماني ، مع اليمانية وهياً خطياً منهم يخطب بين يدي الرشيد ويثيرة على قيس غير أن الخطيب القيسي قاطعه يقول : إنما ما جئنا وافدين ولكننا أتيناك مذنبين فإن يعاقبنا أمير المؤمنين يعاقب مستحقين وان يعف فأهل لذلك . فأعجب به الرشيد وأثبتته في صحابته ووصل الوفد وانصرفوا ...

غير أن الأمور لم تجر على النحو السلمي في الشام لأن الوالي ابراهيم بن صالح الوالي استخلف عليه ابنه اسحق الذي حمل بدوره ميل أبيه إلى اليمانية وكان كاتبه من كندة فأغضب القيسيين ثم حبس نفراً منهم وضرب أربعين من زعمائهم وحلق لحاهم ورؤوسهم فنفروا إلى السلاح وإلى القتل والسلب والغارات ... أشهر عديدة وكثر اللصوص والزواquil . وفي هذه الفترة - على ما يبدو - تحرك أبو الهيثام . جاءته امرأة قيسية قتل ابنها فألقت ثيابه بدمائه بين يديه فقال : انصرفي حتى انظر فلست أريد أمراً على ظلمة ... تأتي الأمير ونرفع إليه دماءنا فإن نظر فيها وإلا فأمر المؤمنين ينظر . أو أرى رأيي ! وعرف اسحق ابن ابراهيم تحرك أبي الهيثام فأرسل إلى عامله على حوران أن يحمله إلى دمشق فجاء به مع ابنه وجماعة من قومه فلم يأذن لهم اسحق وحجبههم فأنار ذلك أبا الهيثام ثم جاءه أن اليمانية أغاروا على قرية تليفيا (تلفيتا) القيسية فركب سلاحه إلى قصر الأمير وطلب عزل الوالي المحلي وحلف لا يخلع سلاحه حتى يعزل فعزله اسحق وعاد فدبر مؤامرة يأتي بها اليمانية من أبواب دمشق على أبي الهيثام فيفتكون به ولكن الرجل انتصر على المهاجمين واحتل دمشق وأطلق كافة من به من المساجين من قيس ويمن . « فقامت اليمانية وكانوا » أجمع داراً من قيس قد ملأت كلب (اليمانية) بالبقيع والجولان ... » فاستنجدوا بعشائهم واستنجد أبو الهيثام

بالمضرية • وقامت المعارك كرة أخرى •••

وبدا بوضوح أن الحرب القبلية انما كانت حرب إزاحة عن القرى
والخصب وتأمين للاستقرار الجماعي في القرى الأخصب إذ قالت اليمانية:
« نحن أهل الثروة والعدد والعز فتخرج مضر (قيس) من الشام فلا
يدعو لهم داعية » وقال أبو الهيثام بدوره :

لولا الخليفة والاسلام ماتركت خليي بأرض بني قحطان جوالا!

في هذه المرحلة الثانية كانت المعارك في دمشق وعند أبوابها وفي
قرى الغوطة وحوران • وقد تناوب الطرفان الهدم والنهب والحرق
والقتل لقرى بعضهم بعضاً : فخربت عدد من القرى اليمانية (وكانت
داريا أعظمها ومنها كفر سوسية، والاوزاع وزملكا وحجيرا وعريل •••)
أحرقها حمدون السلمي قائد ابي الهيثام كما أحرق قرية ابن معيوف
اليماني امير دمشق السابق وقصوره في قرية عين ثرما • وخربت بالمقابل
قرى القيسيين مثل بلاس ، وتلفثايا والقטיפفة ودومة وبراق وبعض قرى
حوران • على أن أبا الهيثام كان يحمي من يطلب حمايته من اليمانيين
يضع لواءه أمام منازلهم فلا يقربه أحد ! وكلما تخرج الحال مع أحد
الحين أوقد النار يستدعي الرجال من البعيد : يوقد ابو الهيثام على
جبل المانع (عند الكسوة) ليأتيه المدد من حوران والبلقاء ويوف
اليمانين على جبل دير مران (سفح قاسيون عند قبة السيار) حتى
لقد جاءت النجيدات اليمانية من حمص وتحولت القبائل كلها جنودا
وجيوشاً تقتتل وتصل الى عشرات الألوف ••• كل ذلك « وأبو الهيثام
في أيام الفتنة داخل مدينة دمشق متغلباً عليها واسحق بن ابراهيم بن
صالح خارج باب الجابية في قصر الحجاج •• » ويبدو أن البلد كان
في معظمه قيسياً •

وتحركت بغداد فأرسل الرشيد لولاية الشام موسى بن يحيى بن خالد البرمكي ومعه جماعة كبيرة من القواد ورؤوس الكتاب منهم هرثمة ابن أعين ورجاء السندي وما أطلت طلائع الجيش العباسي مع السندي حتى حاولت اليمانية إثارتة على أبي الهيثم الذي أرسل إليه وفداً لقيه عند مرج عذراء (عدرا) وأبلغه أنه على الطاعة • ودخل السندي دمشق قائلاً : لا أريد قتالك ولو أوامر بذلك • وبعث أبو الهيثم إلى أهل دمشق يقول : اختاروا لأنفسكم إن شئتم خرجت حتى أرد السندي عنكم أو أموت وإن شئت تركتكم فلما عرف أنهم على الطاعة تجهز فخرج بعد أسبوع من دمشق في موكب ضخم يعد تسعة آلاف فارس...

وكانت المرحلة الثالثة للمعارك حين ثارت اليمانية أن يخرج أبو الهيثم سالماً - كما قالوا - بدمائهم وأموالهم فقال لهم السندي : إن أردتم قتاله لم أمنعكم فدو نكموه ... وقدم موسى البرمكي بعد أيام فقبل دعوى اليمانية ثم خرج إلى حوران في القواد وأشرف أهل الشام وأبو الهيثم يظهر ويختفي في حوران وطلبه موسى بالحاح شديد فلم يفلح في أخذه ودبر مؤامرة يتسور فيها عليه بعض الجند منزله في بصرى ففشلوا وعادت الجموع فاجتمعت إلى أبي الهيثم وهزمت بعض الجند العباسي عند مسرح بصرى • وفي عدد من المواقع الأخرى من حوران وأخيراً أخذ الرجل بحيلة : « احتال عليه (الرشيد) بأخ له كتب إليه فأرغبه » فترك أصحابه في ٢٠ رمضان سنة ١٧٧ ولحق بأخيه الذي « شد على أبي الهيثم فقيده وحمله إلى الرشيد بالركة ... فلما دخل عليه أنشده :

فأحسن أمير المؤمنين فإنه أبى الله إلا أن يكون لك الفضل ...

فمن عليه الرشيد وأطلقه ليموت بعد ذلك بخمس سنوات سنة

١٨٣ تاركاً للقيسيين ملحمة طويلة من المفاخر . . . ولكن العصية القبلية لم تمت بل خمدت إلى حين لا سيما بعد أن حمل موسى البرمكي جماعات من رؤوس الفتنة إلى بغداد فرد الرشيد أمرهم إلى وزيره يحيى بن خالد البرمكي الذي عفا عنهم وأطلقهم فكانت تلك مناسبة يتحدث بها الشعراء بمناقب البرامكة :

قد هاجت الشام هيجاً	يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها	بخيله وجنوده . . .
فدانت الشام لما	أتى نسيج وحيده . . .

ثم انفجرت المشكلة مرة أخرى سنة ١٨٠ . . . كانت كل عناصرها مازال قائمة مستعرة . « فاغتم الرشيد بذلك » كما يقول الطبري « وعقد لجعفر بن يحيى على الشام وقال له : إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا . فقال جعفر : بل أقيك بنفسي ! فشخص في جلة القواد والكراع والسلاح وجعل على شرطه . . . وعلى حرسه (بعض كبار القادة) فأتاهم في حملة تأديبية واحدة فأصلح بينهم وقتل زواقيلمهم والمتلصصة منهم » على أن البرمكي الثاني اتخذ طريقة التجريد من السلاح وسيلة للخلاص من قتال الطرفين ولا شك أنه فرض على الناس ضريبة قاسية جمعها منهم « . . . حتى لم يدع بها رمحاً ولا فرساً . . . » !

ويعلق الطبري بقوله : « فعادوا إلى الامن والطمأنينة » وعاد الشعراء بدورهم يغنون للبرامكة حين عاد جعفر إلى بغداد عاهداً بولاية الشام إلى عيسى بن العكي . . .

وأما الانتفاض على العباسيين فكان يعتمد في الغالب على أسطورة (السفيناني المنتظر) ! وقد خرج هذا السفيناني الموهوم مرات عديدة أهمها خروج علي بن عبد الله حفيد خالد بن يزيد بن معاوية الملقب بأبي

العميطر سنة ١٩٥ وهو عالم رواية دعا لنفسه وتسمى بالخلافة وعمره تسعون سنة فيما يذكرون . وكان يقول : انا ابن شيخي صفيـن (لأنه علوي من جهة الأم) وأقبل أصحابه يدعون الناس في أسواق دمشق قائلين : قوموا بايعوا مهدي الله !^(١)

استغل أبو العميطر دون شك انشغال الأمين بحرب أخيه ثم حصار بغداد وذلك القلق الذي وقعت فيه خلافة بني العباس في السنوات الأخيرة من القرن . والتف حوله اليمانيون فقاومه القيسيون في دمشق ففتك بهم . وحاصر الوالي العباسي سليمان بن أبي جعفر المنصور فاتته به وسبا حريمه ولم يفلت منه إلا بعد اليأس . واحتل الخضراء ، فكان إذا خرج منها مشي في موكب بين يديه من ٥٠٠ رجل على رؤوسهم القلائس الشاميات وفي أيديهم المقارع وقد استتب له الأمر فترة من الوقت على ما يبدو وأعانه الخطاب بن وجه الفلس مولى بني أمية وكان قد تغلب على صيدا كما أطاعه اليمانيون في البقاع وحوران والبلقاء والسواحل وحمص . ولعل مما أعانه على ذلك نسبه وتقدمه في العمر وحسن سيرته وأن « الناس كانوا قد أخذوا عنه علماً كثيراً » .

على أن الرجل وقع في دوامة العصبية القبلية . حين وقف القيسية

(١) نجد شيئاً من تفاصيل هذه الأحداث لدى ابن الأثير ج ٦ ص ٢٤٩ — ٢٥٠ ونجدها موسعة في المصدر الذي نقل عنه ابن الأثير وهو الترجمة الواسعة لدى ابن عساكر لأبي العميطر في — تاريخ دمشق — مخطوط الظاهرية ج ١٢ الورقة ٢٢٣ وجه وما بعدها .
والعميطر على وزن سفرجل اسم الحرذون وقد لقب به من قبل القيسية دون شك .

يناهضونه ووجدوا في محمد بن صالح بن يهس الكلابي وهو الفارس الشاعر زعيماً يمثل موقفهم السياسي الرفض^(١) . فخرج أبو العميطر الى قرية حرجلة القيسية فقتل من ظفر به ونهب القرية وأحرقها ثم جعل وأصحابه من اليمن يطلبون من في دمشق من القيسية فيقولون : ربح قيسى نسمها من هذه الدار فيضربونها بالنار أو يسمرون الأبواب على من فيها ممن رفض البيعة حتى هرب القيسية كافة من دمشق . وكتب أبو العميطر الى ابن يهس يقول : « ... العجب كل العجب لتخلفك عن بيعة أمير المؤمنين وحجداً لك نعم آبائك عليك وأنت تعلم مكان حرمتك بقرية تلقياثا وإن عشيرتك بالغوطة كرش منشورة وأمير المؤمنين يخلف لك بالله لئن سمعت وأطعت ليلغن بك غاية الشرف وليولنيك ما خلف بابك ولئن تخلفت ... ليعثن إليك ما لا قبل لك به من الزخوف التي تتلوها الحتوف ... » .

ولكن ابن يهس لم يجب على الكتاب واستطاع بالعكس أن يهزم جيشاً تذكر الرواية أنه كان في اثني عشر ألفاً طاردهم ابن يهس حتى أبواب دمشق فقتل منهم ألفين وأسر ثلاثة آلاف ... خلق رؤوسهم ولحاهم واستحلفهم أن يصيروا إلى باب أبي العميطر فيصيحوا : نحن عتقاء ابن يهس ! وضعف أبو العميطر وحصر بدمشق فكتب الى السواحل وحمص وبلبك والبقاع فاجتمع إليه خلق عظيم فاشتبك جيشه مع ابن يهس مرتين فقد السفيناني في الأولى ابنه قائد الجيش القاسم الذي قطع رأسه وأرسل الى الأمين ثم فقد في الثانية مولاه وقائده

(١) كان أبوه صالح بن يهس سفير الرشيد الى ايرين ملكة الروم في الفداء سنة ١٨٤ (انظر خليفة بن خياط التاريخ ج ٢ ص ٤٩٢) .

أيضاً : المعتز وانهزم أصحابه هزيمة منكرة أوهنته وأطمعت فيه قبائل قيس وذلك في معركة دامت أياماً من مطالع سنة ١٩٨ بين قريتي شبة وقرحتا . وبينما كان جيش أبي العميتر يهزم كانت مؤامرة أخرى تتم عليه هو نفسه في دمشق . إذ أن ابن يهس مرض فجمع رؤساء بني نمر فعرض لهم أنه عليل وأن عليهم أن يبايعوا بعض بني مروان وأشار عليهم بمسلمة بن يعقوب حفيد عبد الملك بن مروان فتسرع هؤلاء وجاءوا بالبيعة لمسلمة وكانت أخبار بغداد ومقتل الأمين فيها وغرقها في الفوضى أخباراً مشجعة على المغامرة . وهكذا جمع مسلمة مواليه ودخل على السفيناني أبي العميتر في الخضراء فقبض عليه وقيده وجلس مكانه . . .

ولعب مسلمة لعبة بارعة في تدبير البيعة له من رؤساء بني أمية . بعث إليهم على لسان أبي العميتر يطلب الحضور فكلما دخل واحد منهم وقفوا بالسيف على رأسه يقولون : بايع . . . وبايع الناس ! وليس مسلمة الثياب الحمر وجعل أعلامه حمراً وأدنى بالطبع بني نمر القيسية وأقطعهم ضياع المرج (شرق دمشق) وجعل لكل رجل من وجوه قيس منزلاً بدمشق وأعطاهم الولايات . . . ولكن هذا الحل المتسرع أغضب فيما يظهر ابن يهس الذي شفي من مرضه وحاول السيطرة على مسلمة ودمشق فأبوا عليه ذلك فسار بقواه من شبة عليها وما كاد يصلها حتى صاح الديدبان بالسلاح . . . واصطدمت القوتان على أبواب دمشق وخاف القيسية على أنفسهم من هذا الانقسام فاتفقوا مع ابن يهس وانحازوا له فاستطاع بالخيول والرجالة أن يحاصر البلد ثم تسورها بالسلالم من الجنوب (باب كيسان) واستولى على دمشق (١٠ محرم سنة ١٩٨) بينما كان مسلمة والسفيناني معاً يهربان بثياب النساء الى المهزة . . .

كان ذلك بدء حكم قيسي استمر قائماً في دمشق عشر سنوات لم يعكره على ابن يهس إلا حرب اليمانية له : حاربه أهل المزة وداريا وبيت لها . . ولئن صالحه أهل بيت لها فقد أقام الآخرون على حربه ثم استطاع اليمانيون أن يحرضوا بعض الأمويين على ادعاء الخلافة . وهو سعيد بن خالد العثماني وكان يسكن قرية القديس في حوران . فتسمى بالخليفة وتطلب القيسية وقتلهم واضطر ابن يهس أن يرسل ابنه لمطاردته في حصنه فهرب من أرضه إلى البلقاء ومنها إلى الجنوب مهزوماً مرة بعد مرة رغم جموعه الكثيرة التي تفرقت بعد ذلك .

وبقي ابن يهس يحكم دمشق حتى استقرت أمور المأمون في العراق على ما يظهر فكتابه « فولاه المأمون إمرة دمشق » فكان يحارب الثائرين باسم الخليفة العباسي وقد روي عنه شعر يقول فيه :
منعت بني أمية ما أرادت وقد كانت تسمت بالخلافة
أبدتهم من الشامات قتلا ولم يك لي بهم في ذاك رافة
أناضلهم عن المأمون إني على من خالف المأمون آفة (١)

وقد جاء عبد الله بن طاهر دمشق سنة ٢١٠ فأقره على ما يظهر في مكانه حتى إذا عاد إليها من مصر أخذ ابن يهس معه الى العراق فمات بها (٢) وسوف يظهر في الشام ابن يهس آخر لعلة ابنه أو من ولد أبيه .

(١) انظر الصلاح الصفدي - الوافي بالوفيات ج ٣ ص ١٥٦
(٢) ابن الاثير ج ٧ ص ٢٥٠ والصلاح الصفدي في المصدر السابق يجعل وفاته سنة ٢١٠ أو قبلها ولا يبدو ذلك صحيحاً إذا كان رافق ابن طاهر في عودته الى العراق . ويذكر ان ابن طاهر حمله بالامان الى العراق وهو خطأ على ما يؤكد شعره .

• وأما الثورات على الظلم فقد كانت تأخذ شكل التمرد على النظام العام والسطو على الأمن وقطع الطريق عصابات عصابات • والواقع أن كثرة من كانوا يسمون في ذلك الوقت «بالزواقل» «والمخلص» والمارقة كانت كثرة تسترعي النظر ولا تجد تفسيرها إلا في الفقر الاقتصادي وفي كثرة المظالم التي تخرج بالناس عن الطاعة وتدفعهم إلى التماس العيش بالنهب • ويظهر أن الاستياء العام أخذ هذا الشكل الانتقامي وكثر كثرة واسعة في أواخر عهد الرشيد وامتد في عهد الأمين والمأمون حتى مطالع عهد المعتصم حتى لقد اشترك فيه أيضاً بعض الذمة وإذا كان قلق الرشيد من هذه الأمور قد أخرجه من بغداد إلى شمال الشام فإن المعتصم قد بدأ عهده بحملة على اللصوص وأزال بها قطع الطريق وكبس القرى في الجزيرة^(١) وفي الشام الشمالي على الأغلب •

ومن أمثلة هذه الأعمال أن ابراهيم بن المهدي حين ولي دمشق (فيما بين سنة ١٨٥ - ١٩١ على الأغلب) أخبروه أن الآفة كانت في قطع الطريق في عمل دمشق من ثلاثة نفر : دعامة والنعمان وهما من موالي بني أمية ويحيى بن أرميا من يهود البلقاء (جنوب حوران) وأنهم لم يضعوا أيديهم في يد عامل قط • فكتبهم ابراهيم فارعوى الاثنان وأبى الثالث أداء الجزية فقتل في معركة مع الجند ثم لم يقطع على أحد في عمل ابراهيم طريق^(٢) ••• وخرج في الشام سنة ١٩١ رجل يدعى ابو النداء فوجه الرشيد في طلب يحيى بن معاذ وعقد له على الشام فاستمرت فتنة الرجل سنة حتى أسر وأخذ الى الرشيد وهو بالركة فقتله^(٣) ••

(١) ماري بن سليمان - اخبار البطارقة ص ٧٧

(٢) محمد كرد علي - خطط الشام ج ١ ص ١٩٠

(٣) الطبري ج ٨ ص ٣٧٤ (٣/٧٧٦) وص ٣٣٩ (٣/٧٣٢) •

ومن الأمثلة أيضاً الفتن التي قامت بدمشق بسبب القلة البلورية التي اغتصبها الأمين من الجامع الأموي • وكان فيما قيل يعجبه البلور فلما شعر الدمشقيون بذلك ثاروا وافتن الناس وامتدت فتنهم حتى قالوا : لا صلاة بعد القلة فصارت مثلاً ! ولعل القضية لم تكن أكثر من مجرد دسيسة من أنصار المأمون في دمشق لإثارة الناس ضد الأمين • فلما ولي المأمون أرجع القلة الى مكانها ...

ومن هذا النوع من الفتن ثورات حمص العديدة فقد وثب أهل حمص — وهم يمانيون — بواليهم سنة ١٩٠ وطرده لظلمه دون شك لكن خروج الرشيد تلك السنة الى الشمال ووصوله منبج بخيله ورجله جعل البلد يرسل وفداً إليه هناك يعطون بأيديهم ويسألون العفو ... حتى إذا كانت سنة ١٩٤ اختلف الحمصيون مرة أخرى مع عاملهم اسحق ابن سليمان فانتقل عنهم الى سلمية • وعلم الخليفة الأمين فعزله واستعمل مكانه قائده عبد الله بن سعيد الحرسى الذي قاتل أهل حمص وضرب المدينة من نواحيها بالنار • حتى سألوا الأمان فأنهم ولكن العودة إلى الجباية الظالمة — فيسا يظهر — هاجتهم فأخذهم الوالى بالارهاب وضرب عدة من وجوههم ورؤوس الحركة فيهم^(١) •

وزادت الفوضى في الشام المتروك لمصيره أيام فتنة الأمين والمأمون وبعدها • وبرز خلالها من العصاة المتغلبين عدد كبير من بينهم ابن السرج وابن أبي الجبل وابن أبي الصقر وغيرهم • ويبدو أن المأمون أدرك السر في فتن الشام وثوراته حين جاءه بنفسه فأصدر أمره سنة ٢١٥ باعادة

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٢٧ •

تعديل الأراضي ووجه في ذلك الى رؤساء اهل الجزيرة والموصل والرقه فاستغفوا من العمل وجلب بدلا منهم بعض مساح العراق والأهواز فأتموا التعديل ووضع كشف جديد للأرض لا أملا فقط في منح الناس بعض العدالة ولكن في زيادة الخراج الوارد منها^(١) وكان عبد الله بن طاهر قد سبق المأمون ، قبل سنوات فصار « يستقري الشام بلداً بلداً لا يمر ببلد إلا أخذ من رؤساء القبائل والعشائر والصعاليك والزواقل وهدم الحصون وحيطان المدن ويسط الأمان للأسود والأبيض والأحمر وضمهم جميعاً ونظر في مصالح البلدان وحط عن بعضها الخراج فلم يبق مخالف ولا خالع إلا خرج من قلعته وحصنه وعاد ابن طاهر الى دار السلام يحمل معه المتغلبين على الشام امثال ابن السرج وأصحابه .

وأما الثورة التي تمثل فيها غضب الشام والجزيرة لعروبة الدولة فهي ثورة نصر بن شيبث العقيلي وقد ظهرت في الجزيرة لا في الشام ولعلها أخطر ثورة هددت العرش العباسي والتقت فيها آلام الشام مع النزعة الأموية والعصبية العربية في وقت معاً ...

وكان الشاميون يأخذون على بني العباس (لا سيما زمن المأمون) ميلهم مع الفرس حتى استوقف واحد من أهل الشام مرة المأمون وكلمه في ذلك قائلاً :

يا أمير المؤمنين : انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان . فقال : لقد اكرت علي يا أخا أهل الشام . والله ما أنزلت قيساً من ظهور الخيل إلا وأرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد . وأما اليمن فوالله

(١) ابن عساكر - تاريخ دمشق (التهذيب) ج ٤ ص ١٠٧ - ١٠٨ .

ما أحببتها ولا أحبطني قط • وأما قضاة فسادتها تنتظر السفيان وخروجه فتكون من أشياعه وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر • ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شارياً (من الخوارج) اغرب ! فعل الله بك ... » (١)

ونصر بن شيبث صاحب الثورة هذه المرة قيسي • وقد تزعم القيسية في شمال الشام والجزيرة الغزية خاصة وتذكر المصادر السريانية بجانبه ثائراً آخر اسمه عباس وتقول عنهما « وكان الثعبانان نصر والعباس يسودان المنطقة الغزية (من الجزيرة) كلها ويذيقون الناس العذاب وكانا يتحاضنان على الشراب ويتنافسان في القدرة على احتماله ... » (٢) على أن هذا لا يعني أكثر من أن العباس هو أكبر أو أهم اعوان نصر في الثورة •

ولئن كان نصر بن شيبث عباسياً من أنصار الأمين فلقد ثار على الأمين والمأمون معاً سنة ١٩٨ (٣) ثم حارب المأمون - كما قال - « محاماة عن العرب لانهم يقدمون عليهم العجم » فتبعه من تبعه بهذا الهدف • فكانوا جميعاً من العرب يدل على ذلك قوله لمن جاءه يشترط عليه أن يطاء بساط المأمون ليغفو عنه : « ويلي عليه ! لم يقو عيسى

(١) الطبري ج ٨ ص ٦٥٢ (٣/١١٤٢)

(٢) انظر تاريخ ميخائيل السرياني (الكبير) بالفرنسية ترجمة شابو ج ٣ ص ٣٨ وثمة تفاصيل كثيرة عن هذه الثورة نجدها في الصفحات ٢١ - ٢٧ و ٣٠ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٤٧ و ٥٢ و ٥٥

(٣) يذكر أبو زكريا الأزدي (تاريخ الموصل ص ٣٢٨) أن ابن شيبث كان والياً على الجزيرة من قبل الأمين « فعزله بعبد الله بن سعيد وأنفذ إليه داوود بن عيسى فقتله نصر ... » سنة ١٩٨

اربعمائة ضفدع تحت جناحه (يعني ثورة الزط) فكيف يقوى على
حلبة العرب ؟ » •

وتغلب نصر على بلدة كيسوم (شمالي حلب قرب سميساط)
وفشا أمره مدة خمس سنوات وصار له ما بين سميساط الى الضفة
الشرقية للفرات الى أرض الجزيرة وتبعه من بها من الاعراب •

وأتى نفر من الطالبين الى ابن شبت فقالوا : قد وترت بني العباس
وقتل رجالهم وأغلقت المغرب عنهم فلو بايعت خليفة كان أقوى لأمرك •
قال من أي الناس ؟ قالوا : بعض آل علي قال : أبايع اولاد السوداوات
فيقول : إنه خلقي ورزقني ؟! قالوا : فبايع لبعض بني أمية • قال أولئك
قد أدبر أمرهم والمدير لا يقبل أبداً ••• ولو سلم علي مدبر لأعداني
إدباره • وإنما هو في بني العباس وإنما حاربتهم محاماة عن العرب
لأنهم يقدمون عليهم العجم ••• » (١) •

وقد عهد المأمون إلى قائده طاهر بن الحسين بحرب ابن شبت
فتحصن منه بكيسوم سنة ١٩٩ ولم يقبل دعوته الى الطاعة ولم يظفر
طاهر منه بشيء حين لقيه في القتال المرير بل عاد إلى الرقة مغلولاً أو
شبه المهزوم (٢) وبقيت الجزيرة وشمال الشام في يد الثائر سنوات عديدة •
صادر فيها أحياناً التجار وسيطر على طرق التجارة • لكنه عامل المسيحيين

(١) الأزدي - تاريخ الموصل ص ٣٣٤ وابن الاثير ج ٦ ص ٣٠٨ •

(٢) ابن العديم - زبدة الحلب ج ١ ص ٦٥ - ٦٦ وابن الاثير ج ٦

في المنطقة — رغم ما يذكرون من « طغيانه » — معاملة حسنة يقول المؤرخ السرياني إنه « كان يحب المسيحيين ويفرض أقصى الجزية على من يترك منهم دينه . ويقول : ليس لي عليكم إلا الجزية وكل امرئ بعد ذلك حر في دينه . وهكذا — كما يقول المؤرخ نفسه — عاد الكثيرون من المساجد إلى الكنائس »

وكان في ثورة نصر شيء من السذاجة البدوية التي تمثلت من قبل في ثورات الخوارج بالجزيرة . ويظهر ان المأمون شعر بخطورة الأمر في المغرب كله فولى عليه عبد الله بن طاهر سنة ٢٠٧ فضيق هذا على نصر بن شيبث ثم ضيق وحارب وفاوض ثلاث سنوات حتى لقد بعث المأمون إليه رجلاً يقنعه بالحنسنى أن يكف عن الثورة ^(١) حتى انتهى الأمر بأن قنع بقبول الصلح سنة ٢٠٩ هـ شريطة الأمان فكتب له « وأمير المؤمنين يختم كتابه بشهادة أن لا إله إلا الله وضمانة لك في دينه وذمته الصلح عن سوائف جرائمك ومتقدمات جرائمك وانزالك ما تستأهل من منازل العز والرفعة ان أتيت وراجعت ان شاء الله » ^(٢) فسلم نصر بعد ثورة دامت اثنتي عشرة سنة وجيء به إلى بغداد سنة ٢٠١ هـ (آذار سنة ٨٢٥) حيث وكل به المأمون الحفظة .

ويلفت النظر مذكرته المصادر السريانية خاصة عن علاقة نصر بن شيبث بالروم وهي ظلت غائبة عن المؤرخين العرب وتقول : « حين علم نصر الثائر أن المأمون ، ملك الطائمين (العرب) تهيأ للقدوم الى بغداد

(١) الطبري ج ٨ ص ٥٩٨ (١٠٦٧/٣ - ٨)

(٢) المصدر نفسه ٨ ص ٦٠٠ (١٠٧٢/٣ - ٣) .

دعا كاتبه وهو مسيحي متعلم وأملى عليه خطاباً بالطريق أمانويل كأنه يريد التحالف مع الروم . ولما علم الامبراطور ميخائيل بذلك بعث رسله فوصلوا الى كيسوم فوجدوا نصراً قد خرج إلى سروج وبلغه الخبر وهو بها فجمع أصحابه وأعلمهم الخبر وافتخر بقدوم رسل الروم . وغضب أنصاره وقالوا : أتريد أن تغضب الله وترتد ؟ ! إلى أن أوغروا صدره حقداً بهذا الحديث فأرسل من قتل رسل الروم ...»^(١) ويبدو أن مبادرة نصر بالكتابة إلى الروم غير صحيحة ولو أنها كانت لعرف بها أصحابه من قبل ومنعوه منها . والأرجح أن امبراطور الروم أو قواده على الجبهة أرادوا الاتصال به واستغلال ثورته . ولعله مال إلى التعاون معهم ثم استشار أصحابه وانتهى إلى رفض التعاون الذي يوقعه في الشبهة دينياً وسياسياً فقرر قتلهم تعبيراً عن قطع كل جسر وكل احتمال لذلك التعاون . ولو أنه كان طلبهم بنفسه لاكتفى بصرفهم حيث جاؤوا . وبعد أن وقع نصر ، جمع عبد الله بن طاهر المتغلبة على مدن الشام أمثال: ابن السرج وابن ابي الجمل وابن ابي الصقر فحملهم وراءه إلى بغداد ايضاً وتابع طريقه إلى دمشق ليقضي على ابن يهس على أن أصداء ثورة نصر بقيت أزماناً طويلة في نفوس الناس واحتفظت الملحمة الرومية الشعبية بذكرى ثورته حتى أصبحت فصلاً من فصولها لأنها وقعت في المنطقة نفسها (سميساط) التي تقع فيها أحداث البطل الرومي ...

هـ - في السواد : بالرغم من قرب هذه المنطقة من عاصمة الدولة فانها كانت في بعض السنوات من هذه الفترة مركز ثورة وشغب ولكن من قوم غريب عن العالم الاسلامي هو : الزط (النور) ويظهر ان الزط اخلاط من الهنود يقدر عددهم بسبع وعشرين ألفاً وصلوا لسبب لا نزاله

نجهله الى سواحل خليج البصرة • ويظهر من أخبار البلاذري^(١) أن أصل الزط من منطقة السند • وانهم كانوا أهل مستنقعات يرعون فيها الجواميس فتنقلوا في بلاد كرمان وفارس وكور الأهواز ووصلوا أخيراً إلى بطائح العراق ، وسبب ترحلهم على قول المسعودي^(٢) هو مجاعة وغلاء حلت بهم في ناحية الهند • واسم (الزط) في العربية مشتق من اسمهم الهندي (الجات) وما يزال منهم هناك بقايا يعيشون في الحوض الأدنى المستقي من حوض السند • ولغتهم هناك مستعملة إلى اليوم •

ويبدو أن قدومهم إلى العراق سابق للفتح الاسلامي لأن البلاذري يشير إلى وجود جماعة من الزط ، في منطقة البصرة عند الفتح^(٣) ، قد جاء بهم الساسانيون ولقيهم الفاتحون فيما بين رامهرمز وأراجان فهم يذكرون أرضاً باسمهم هناك • وقد نقل معاوية ، أسراً عديدة من الزط ، من البصرة إلى سورية سنة ٦٧٠ ثم أتى الحجاج ببعضهم (او سمح لهم) باستيطان منطقة البطائح ليستفيد منهم في استغلالها • ثم نقلهم الوليد أو نقل بعضهم - ، وكذلك يزيد الثاني في النصف الأول من القرن الثامن إلى شمال سوريا الغربي فأقراهم في أنطاكية والمصيصة يعني على التخوم مع الروم • وكان في أنطاكية منذ عهد معاوية والوليد بن عبد الملك جي يسمى بحي الزط لأنهما انزلاهم وفي بوقا من عمل اللاذقية قوم من اولادهم^(٤) •

ويظهر أن مستواهم المعاشي كان واطناً جداً لأنهم أخذوا يقومون

(١) البلاذري ص ٤٦١

(٢) التنبيه والاشراف ص ١٩٦ •

(٣) البلاذري - فتوح ص ٤٦٠

(٤) المصدر نفسه ص ١٩٣ و ص ٤٦٣ •

يبعض أعمال اللصوصية الصغيرة « بأن يسألوا الشيء الطفيف ،
ويصيبوا غرة من أهل السفينة فيتناولوا منها ما يمكنهم اختلاسه^(١) »
وقد زاد عددهم كما زاد فقرهم وعبثهم أيام المأمون حتى أصبحوا
خطراً على المواصلات والأمن . ويفسر البلاذري ذلك بأنهم « غلبوا
على البطيحة وتنازلوا بها ثم إنه ضوى إليهم قوم من أباق العبيد
وموالي باهله وغيرهم فشجعوهم على قطع الطريق ومبارزة السلطان
بالمعصية » وهذا يدل على أنهم كانوا إحدى الطبقات التي دفعها سوء
الوضع المعاشي إلى التذمر ثم إلى الثورة . لهذا نجدهم حين ثاروا قد
« احتملوا الغلات من البيادر بكسكرو وما يليها من البصرة » وسوف
يشور الزنج ، تلك الطبقة الأخرى التي تشبه الزط في الشروط المعاشية،
بمنطقة البطائح نفسها بعد حوالي نصف قرن مثل ثورة الزنج .

وقد انتهز الزط قيام الفتنة الاخوية بين الأمين والمأمون فاستولوا
على طريق البصرة ومنعوا الميرة عن بغداد وفرضوا المكوس الجائرة على
السفن التجارية . وكان على رئاستهم زعيم يسمى محمد بن عثمان
وصاحب أمره رجل يقال له : سلق .

وقد عجزت جيوش المأمون ما بين سنة ٢٠٥ حتى وفاته عن قهرهم
رغم ما بعث من قواد حتى ارسل المعتصم من بعده عفيف بن عنبسة
فأحاط بهم وسد مسالك الانهار والقوت عليهم تسعة أشهر واضطروهم
لطلب الامان ثم حملهم في السفن مطلع سنة ٢٢٠ فمر بهم في بغداد
وكانت عدتهم مع النساء والصبيان سبعة وعشرين ألفاً والمقاتلة منهم اثنا

(١) البلاذري ص ٤٦٢ .

عشر ألفاً أيضاً فاستعرضهم الخليفة في سفنهم على تعبثهم وهم ينفخون في البوقات^(١) ثم نقلوا في البر إلى (عين زربة) في آسيا الصغرى فأسرهم هناك الروم سنة ٢٤١ ونقلوهم إلى أوروبا وعرفوا هناك باسم جيسي^(٢) .

و- في الموصل : كانت الموصل رغم قربها من بغداد - العاصمة على علاقة سيئة مع الحكم العباسي منذ ثورتها الأولى عليه ونكبتها في تلك الثورة سنة ١٣٣ على الأقل وربما كان يشجعها على الثورة ما يقوم وراءها إلى الشمال من ثورات الخوارج وغيرهم في الجزيرة واربينية واذريجان . ويبدو أن خراج البلد كان ثقيلاً عليها بينما تدمر الثورات حولها إنتاجها فكان يكسر عليها الخراج فلا يدفع في بعض السنوات . وقد تشكى أهل الموصل ذلك أكثر من مرة وجاء وفد منهم سنة ١٧٥ إلى يحيى بن خالد البرمكي فأجبرهم على تسوية تقوم على أساس مساحة الأرض^(٣) .

ويبدو أن هذه التسوية لم ترض الناس فانا نجد في السنة التالية سنة ١٧٧ تحالف قائد من قواد الموصل وفرسانها المعروفين وهو العطاف ابن سفيان الأزدي مع بعض القواد الآخرين ومع صعاليك البلد وأهله ضد الرشيد . وبالرغم من أن المصادر لا تشير إلى سبب هذه الثورة .

(١) انظر ابن الأثير ج ٦ ص ٤٤٤ و ٤٤٦ والطبري ج ٩ ص ٨١٠ (١١٦٧/٣ - ١١٦٨) .

(٢) يرى المستشرق (دي غويا) أن الزطهم أصل (غجر أو نور) أوروبا غير أن الرأي لقي معارضة شديدة لا سيما من الفرنسي (بتايار) الذي يرجع وجود الزط في أوروبا إلى أزمنا سحيقة .

(٣) أبو زكريا الأزدي - تاريخ الموصل ص ٢٦٦ - ٢٦٧

إلا إن قيام فارس موصلي بها وتحالفه مع صعاليكها وتأييد البلد له
تأييداً شاملاً جعل الرشيد يحلف بأن يقتل من يلقاه من أهل الموصل وأن
يهدم سورها • كل ذلك بالإضافة الى ما قام به العطف من «جباية
الخراج وحبس العمال» إنما يدل على أن قضية الخراج هي السبب في
الحركة • وكان جيش العطف أربعة آلاف فاستطاع «منع عمال هارون
(الرشيد) من الجباية واستخرج هو المال ٠٠٠» وأضحى هو «الغالب
على الأمر كله وهو في يده ٠٠٠» (١) واستمر الأمر على ذلك ثلاث
سنين حتى شخص الرشيد سنة ١٨٠ بنفسه الى الموصل وكاد العطف
يكنن له ويهاجمه لولا أن رجاء شيوخ البلد ألا يفعل بينما كان الرشيد
قد أقسم أن يقتل من يلقاه من أهلها ٠٠٠ فذهب وفد منهم الى أبي
يوسف القاضي يرجون أن يجد لهم مخرجاً فوجده : طلب إليهم أن
يجهروا بالأذان في العشاء فلما فعلوا قال الرشيد : ما هذا ؟ قال ابو
يوسف إنهم قوم مسلمون ومن أهل الصلاح وفيهم قراء القرآن ولا يجوز
قتلهم فقال الرشيد وما الحيلة في يميني ؟ قال : ادخل المدينة ليلا فلا
يجب عليك قتل من لا ترى • وكان ذلك ثم أمر بهدم سور المدينة
ونادى مناديه : من هدم ما يليه من السور فهو آمن • • • • • وهرب العطف
الى ارمينية بجنوده فلم يعف عنه الرشيد أبداً • • أما الموصل فطولبت
بخراج السنوات السابقة وقهرت وظلمت بالعسف الشديد حتى جلا عن
البلد كثير من أهله الى اذربيجان وخلت قري كثيرة من سكانها فلم تعمر
بعد ذلك (٢) •

(١) المصدر نفسه ص ٢٨٥

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٧

ز - في خراسان : لم تجن خراسان شيئاً من كل الخدمات التي قدمت لها لبني العباس . فلقد ثارت - مع العرب الذين سكنوها - على بني أمية لتحقيق بعض الافكار الدينية والاصلاحات المالية والاجتماعية وقد هزم المنصور ثوراتها المنحرفة عن الدين فتحوّلت الى السر ، ثم فشلت في تحقيق الاصلاح المالي اذ لم يكن الولاة العباسيون أقل ظلماً للخراسانيين من اسلافهم الامويين . واخيراً فان الذي افاد من المساواة الاجتماعية مع العرب كانت الارستقراطية الايرانية وحدها دون جماهير الشعب . ولهذا سنرى خراسان تشور في هذه الفترة التي ندرسها (١٥٨ - ٢١٨) على الظلم ثم تحاول لعب دور جديد في الدولة الاسلامية يوم الفتنة الاخوية حتى اذا فشلت انتهى بها اليأس الاخير الى الانفصال التدريجي عن الدولة .

والواقع ان أكثر ولاة خراسان اهتموا بمصالحهم وثرانهم دون امانى الرعية . وبعضهم (كعبد الجبار بن عبد الرحمن والمسيب بن زهير) زادوا في الضرائب دون مبرر . ولعل الفضل بن سليمان الطوسي (٧٨٣ - ٧٨٧) والفضل بن يحيى البرمكي (٧٩٤ - ٧٩٥) هما الواليان الوحيدان اللذان سعيا لخير خراسان . ولعل اصلاحات الأخير من إزالة سيرة الجور وبناء الحياض والمساجد واحراق دفاتر البقايا وزيادة العطاء ، قللت الوارد من خراسان وأغضبت الرشيد ، كما يقول الجهشيارى^(١) .

وولى هارون بعد ذلك علي بن عيسى بن ماهان سنة ١٨٠/٧٩٦ في مهمة محددة عهد إليه بها فيما يبدو - وترمى الى تدمير القواعد التي

(١) الجهشيارى ص ٢٢٨

بناها البرامكة هناك وتبديد الجيش الذي نظموه بالأعداد الضخمة وإفقار أنصارهم وقتل الاقوياء من الدهاقين المواليين لهم . فكان الوالي القاسي الظالم مدة عشر سنين (٧٩٦ - ٨٠٦م) حمل من أموال الناس إلى الرشيد «ألف بكرة معمولة من ألوان الحرير فيها عشرة آلاف الف درهم»^(١) فسر الرشيد بذلك وزاد علي في الخطوة عنده . فلما شكوا كبراء خراسان من ظلمه وسوء سيرته فيهم لم يستمع لشكواهم^(٢) ثم ثارت المنطقة عثاً أيضاً : قاد ثورتها سنة ١٨٣ أبو الخصيب وهيب بن عبد الله النسائي ، أحد موالي الحريش بينما كان علي بن عيسى يحمل الهدايا للرشيد . فأعادته الخليفة إلى خراسان للقاء الثائر الذي كان «قد غلب على بلده نسا وعلى ايورد وطوس وسرخس ونيسابور وخرب وأفسد وكثفت جموعه وقوي أمره فخرج إليه علي بن عيسى بجيش قضى عليه سنة ١٨٦ وقتله وانتقم من أهله وذرائعه بالسبي وحمل رأسه إلى مرو»^(٣) . ولا يبعد أن تكون هذه الثورة على علاقة بالفضل البرمكي أو أن تكون عناصرها من أشياع بيته .

ويبدو أن هذه السياسة الإرهابية كانت من وحي الرشيد وتخطيطه لتدمير قواعد البرامكة في خراسان فرضي بها وأبقاها حتى بعد مصرع البرامكة ثم وسوس إليه بعض الوشاة أن علياً ينوي الثورة فمضى بنفسه إليه (سنة ١٨٩ هـ - ٨٠٤م) ولكن علياً قدم على الرشيد وعلى حاشيته «بالهدايا والأموال والطرف من المتاع والمسك والجوهر وآنية الذهب

(١) الجهشپاري ص ٢٢٨

(٢) الطبري ج ٨ ص ٣١٥ (٧٠٣/٣ - ٤)

(٣) ابن ظافر الأزدي الدول المنقطعة - مخطوط المتحف البريطاني

ورقة ١١١ وجه والطبري ج ٨ ص ٢٧٠ وص ٢٧٥ (٦٤٩/٣) و (٦٥١) .

والفضة والسلاح والدواب ، وأهدى بعد ذلك إلى جميع من كان معه من ولده وأهل بيته وخدمه وقواده على قدر طبقاتهم ومراتبهم» فقنع الرشيد بولائه ولعله أبقاه خوفاً من أن يكون هناك في خراسان بعض الموالين للبرامكة فيتحركون للثأر لنكبتهم •

وأخيراً افترض أمر علي سنة ٨٠٥م (١٩٠ هـ) بأن ثارت خراسان مرة أخرى ••• ولكنها لم تكن ثورة برمكية ، وإنما كانت ثورة اجتماعية دينية ، مشتبهاً بالطبقات المسحوقة وراء شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قاد الثورة رافع بن الليث (حفيد نصر بن سيار) ، وبالرغم مما يروي الطبري^(١) من أن الثورة كانت لسبب شخصي (هو إيقاع الحد الشرعي برافع) فإن بعض المؤرخين كالدينوري^(٢) يعزوها إلى ظلم علي • « وتحامله على من في خراسان من العرب » وما من شك في أن ضيق الناس بظلم هذا الوالي هو الذي يفسر نجاح رافع وكثرة أنصاره حتى بلغ عددهم زهاء ٣٠ ألف رجل وأيدته بلاد الترك أيضاً : « كتب – مثلاً – أهل نسف إلى رافع: يعطونه الطاعة ويسألونه أن يوجه إليهم من يعينهم على قتل علي بن عيسى فوجه صاحب الشاش في أترাকে قائداً من قواده فأتوا عيسى بن علي فأحدقوا به وقتلوه (سنة ١٩١) ولم يعرضوا لأصحابه^(٣) • وانتشرت الحركة بين أهالي فرغانة واشروسنة والصغانيان وبخارى وخوارزم والختل^(٤) فناصروا رافعاً في ثورته مما يبين انتشار التذمر من سياسة

(١) الطبري ج ٨ ص ٣١٩ (٧٠٧/٣ - ٧٠٨)

(٢) الدينوري الاخبار الطوال ص ٣٩١

(٣) الطبري ج ٨ ص ٣٢٣ (٧١٢/٣)

(٤) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٣٥

العباسيين ، كما أن بعض خصوم الدولة العباسية مثل «حاكم الشاش والترك والتغزغز والخرلخي (الكارلوق) وجنود التبت ، أرسلوا نجدات لمساعدته حين استنصر بهم» وهكذا على ما يظهر بدأت ثورة رافع عريية ثم لحق بها الايرانيون والترك ، الناقمون المتذمرون فصارت ثورة اقليمية ثم أيدها أمراء الترك المجاورون فصارت ذات طابع دولي على نحو ما وظهر أن نوعاً من الحلف أو الجبهة الثائرة قد قام على اقصى الحدود الشمالية الشرقية للدولة يشترك فيه كافة الترك المعاهدين مع المجموعة العريية المستقرة هناك والسكان الايرانيين . والترك (المسلمين وغير المسلمين) ويبدو أن مقر رافع بن الليث وحلفه كان في «سمرقند» «حيث تحصن» وأن الرباط الجامع بين أصحابه هو ظلم والي خراسان فإن الرشيد حين أرسل هرثمة أمره «بالشخص الى سمرقند ومحاولة ما قبل حامل (يقصد رافع) ومن كان على رأيه ممن أظهر خلافاً وامتناعاً من أهل كور ما وراء النهر وطخارستان بالدعاء الى الفئنة والمراجعة وبسط أمانات امير المؤمنين . . . إذ أجابهم الى طلبتهم . . وكفاهم ولاية من كرهوا ولايته وأمر بإنصافهم في حقوقهم وظلاماتهم . . .» .

واتخذ الرشيد تدابير عديدة ، فعزل علي بن عيسى وأرسله هرثمة مع اولاده وعماله بالقيود الى بغداد «فأظهر (الناس) السرور وانفسحت آمالهم وعلت بالتكبير والتهليل أصواتهم . . .» واستنصف الرشيد أمواله فبلغت ثمانين مليوناً من الدراهم» وكتب إليه في كتاب العزل : «خالفت عهدي ونبتت وراء ظهرك أمري حتى ظلمت الرعية وأسخطت الله وخليفته لسوء سيرتك» وأوصى القائد هرثمة بن أعين الذي خلف علياً على الولاية باستخراج أموال الخراج التي اغتصبها علي «وبانصاف المسلمين والمعاهدين منه ورد حقوقهم ومعاملتهم بالحسنى وأن يتقي الله

ويهتدي بكتابه «...»^(١) إلا أن هذه التداير جاءت متأخرة فلم تستطع القضاء على الثورة التي بلغ من خطرها أن قرر الرشيد المسير إليها بنفسه سنة ١٩٢ وكان في طريقه إليها حين توفي ...

كان هرثمة القائد ، قبيل وفاة الرشيد قد هزم ابن الليث في واقعة فتح بعدها بلدة بخارى وأسر بشير بن الليث شقيق رافع فلما أدخلوه على الرشيد بطون وهو مريض كشف الحوار الذي دار بينهما عن مدى حقد الرشيد ونقمته على الثائر ولعل لمرضه السرطاني أثراً في تأجيج تلك النقرة إذ قال حين استعطفه : والله لو لم يبق من أجلي إلا أن أحرك شفتي بكلمة لقلت : اقتلوه ثم أمر القصاب ألا يشحذ سكاكينه وأن يقطع أعضائه فقطعه ٢٤ قطعة^(٢) .

ويبدو أن المأمون الذي كان يرافق أباه أراد تهدئة أيه والثورة معاً إذ كتب «إلى» أبناء أسد بن سامان وكانوا فيما يظهر من أكبر بيوت ما وراء النهر فأمرهم بمعونة هرثمة على رافع . ولكن هؤلاء الأبناء فضلوا المسعى السلمي وحملوا رافعاً على عقد صلح مع هرثمة أيذوه بمصاهرة بينهما^(٣) . ويقول النرشخي «وفرغ بال الرشيد من هذا الأمر» وقد كان يخشى أن يستولي رافع على كل خراسان وقد رأى المأمون أن هذا الأمر (أي الصلح) قد جاء في حينه تماماً» لأن التهدئة جاءت على ما يظهر لتعطي الرشيد بعض الراحة وهو على أبواب الوفاة . فما توفي حتى عادت الحرب كرة أخرى .

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٢٧ (٣/٧١٦ - ٧١٧) وقد ذكر أن خزائن علي

ابن عيسى حملت على ١٥٠٠ بعير .

(٢) الطبري ج ٨ ص ٣٤١ - ٣٤٢ (٣/٧٣٤)

(٣) النرشخي - تاريخ بخارى ص ١٠٥

وبالرغم من معونة الترك فإن رافعاً «تراجع الى سمرقند فتحصن بها... ثم استعان رافع بجيغويه (التركي) الخرخي وكان جيغويه هذا قد أسلم على يد المهدي فجعل يخادع هرثمة ويوهمه أنه معه ومعوته وهو له رافع . ثم أظهر المعصية والخلع فقوي أمر رافع بمكانه وأحرق السواد بالنار وتبرأ من أهله ودعا لغير بني هاشم...»^(١) وكان هذا يعني أن الأمور قد تخرجت حرجاً شديداً دعا هرثمة إلى أن يشدد القتال حتى «أخذ بأكظامهم» سنة ١٩٣ ودخل حائط (سور) سمرقند فلجأ رافع الى المدينة الداخلة وراسل الترك فوافوه فصار هرثمة بين رافع والترك...»^(٢) .

ويبدو أن دبلوماسية المأمون وعمل حاشيته مع وجهاء ما وراء النهر وبيوته الكبيرة قد فعلت فعلها وفي الوقت الذي كان يترضى أهل خراسان كان يفاوض رافعاً ويعمل لدى ملوك الترك حتى يتخلوا عن رافع وقد سحبوا جيوشهم سنة ١٩٤ فعلا بينما قنع رافع بحسن سيرة المأمون - على قول الطبري - فبعث يطلب الأمان منه وأسرع هرثمة فقبل أمانه وأخرجه مع أهله وأصحابه وقدم رافع على المأمون سنة ١٩٥ - وهرثمة ما يزال في سمرقند - فأكرمه وعفا عنه . وهو عفو يجد تعليله دون شك في ما كان على المأمون ان يواجهه في تلك السنة من حرب أخيه ومزاحمة على الخلافة . كان المأمون يتدبر سلم ولايته وما حوله ليتفرغ للمشكلة الكبرى^(٣) .

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٣٦

(٢) الطبري ج ٨ ص ٣٧٣ (٣/٧٧٥) .

(٣) يذكر ابن الأثير أن هرثمة قتل رافع بن الليث وأن ذلك كان

سنة ١٩٥ (أنظر ج ٦ ص ٢٠٩) .

ولعل أهم ما تمخضت عنه ثورة رافع بالنسبة لمستقبل خراسان التاريخي أنها فتحت الطريق لآبناء أسد بسبب تعاونهم مع المأمون ليكونوا أمراء على مرو وسمرقند ثم ليكون آبناءؤهم من بعدهم مؤسسي الدولة السامانية في خراسان اعتباراً من سنة ٢٥١ بمرسوم من الخليفة الواصل .

أما فيما بين ثورة رافع وأواسط عهد المأمون فقد عاشت خراسان تجربة ظنت معها أن الآمال التي فاتها بعد الثورة العباسية قد عادت لتحقيق متأخرة ستين سنة . وكانت مسيرة جيش طاهر بن الحسين الى بغداد تجديداً ، على نحو ما ، لمسيرة قحطبة الطائي وحسب المأمون أن بإمكانه أن يدير الدولة كلها من أقصى شمالها الشرقي كما حسب الخراسانيون وخاصة منهم الإيرانيون المسلمون أن بإمكانهم أن يأملوا في السيطرة على الدولة محل العرب .

على أن هذه التجربة التي جربتها خراسان مع المأمون لم تنجح وكانت نوعاً من السراب فما كاد يتم له أمر الخلافة حتى فرض الواقع الجغرافي والتكوين السياسي والاقتصادي للدولة نفسه عليه فانتقل إلى بغداد وقتل الفضل بن سبل . . . فمهد ذلك لاقصال المنطقة جميعاً على يد الأسرة الطاهرية . وبالرغم من ارتياب المأمون بهذه الأسرة فإن أعماله هي التي وطدت أقدامها بخراسان .

كان طاهر بن الحسين هو القائد الذي فتح للمأمون العراق وبغداد وقتل الأمين . وقد كان معسكراً في الرقة ومخاصماً للحسن بن سهل وإلى العراق حين وصل المأمون ببغداد . فاستقدمه إليه وولاه المغرب أولاً ثم ولاه الشرطة ببغداد . ثم أعطاه سنة ٢٠٥ هـ ولاية خراسان والجبال

من حد حلوان . وقد أشار على المأمون بهذا وزيره أحمد بن أبي خالد وصديق طاهر وكان يعرف رغبته في الولاية لطموحه ، ولخوفه من أن يفتك به المأمون انتقاماً لأخيه . وقد علق المأمون على ذلك الاقتراح بقوله حسب رواية الطبري «هو والله خالع^(١)» أو حسب رواية الفخري : «اني أخاف ان يغدر ويخلع^(٢)» وحاور وزيره في الأمر ولكن أحمد ضمن طاهراً (ويقال إنه قبض ثمن ذلك الضمان منه ثلاثة ملايين درهم^(٣)) ، وحذر المأمون من ضعف غسان بن عباد (ابن عم الفضل بن سهل) والي خراسان . ويروي اليعقوبي^(٤) أن الوزير أحمد زور رسالة على لسان غسان يستعفي فيها من الولاية ، فأمنى المأمون المنصب إلى طاهر ، ولم يكتشف التزوير إلا قيماً بعد ذلك .

ثم كان ما حذره المأمون ، فقد ظهر التمرد في كتب طاهر أولاً ، ثم تطور الأمر إلى الانفصال الظاهر ، فقطع طاهر بعد قليل (سنة ٢٠٧) الخطبة للمأمون ، وأنحى الخليفة باللائمة على وزيره وطالبه بالضمان . فتوفي طاهر فجأة في خراسان بتدبير الوزير^(٥) . ولعل المأمون - على عادته السياسية مع العلويين أو مع الفضل بن سهل - أراد درء التهمة عن نفسه فولجى طلحة بن طاهر مكان والده ، وولى أخاه عبد الله المغرب . فلما توفي طلحة سنة ٢١٣ حول المأمون عبد الله إلى خراسان فثبت بذلك أقدام هذه الأسرة التي أسست أول إمارة شبه مستقلة في إيران .

(١) الطبري ج ٨ ص ٥٧٩ (١٠٤٢/٣) .

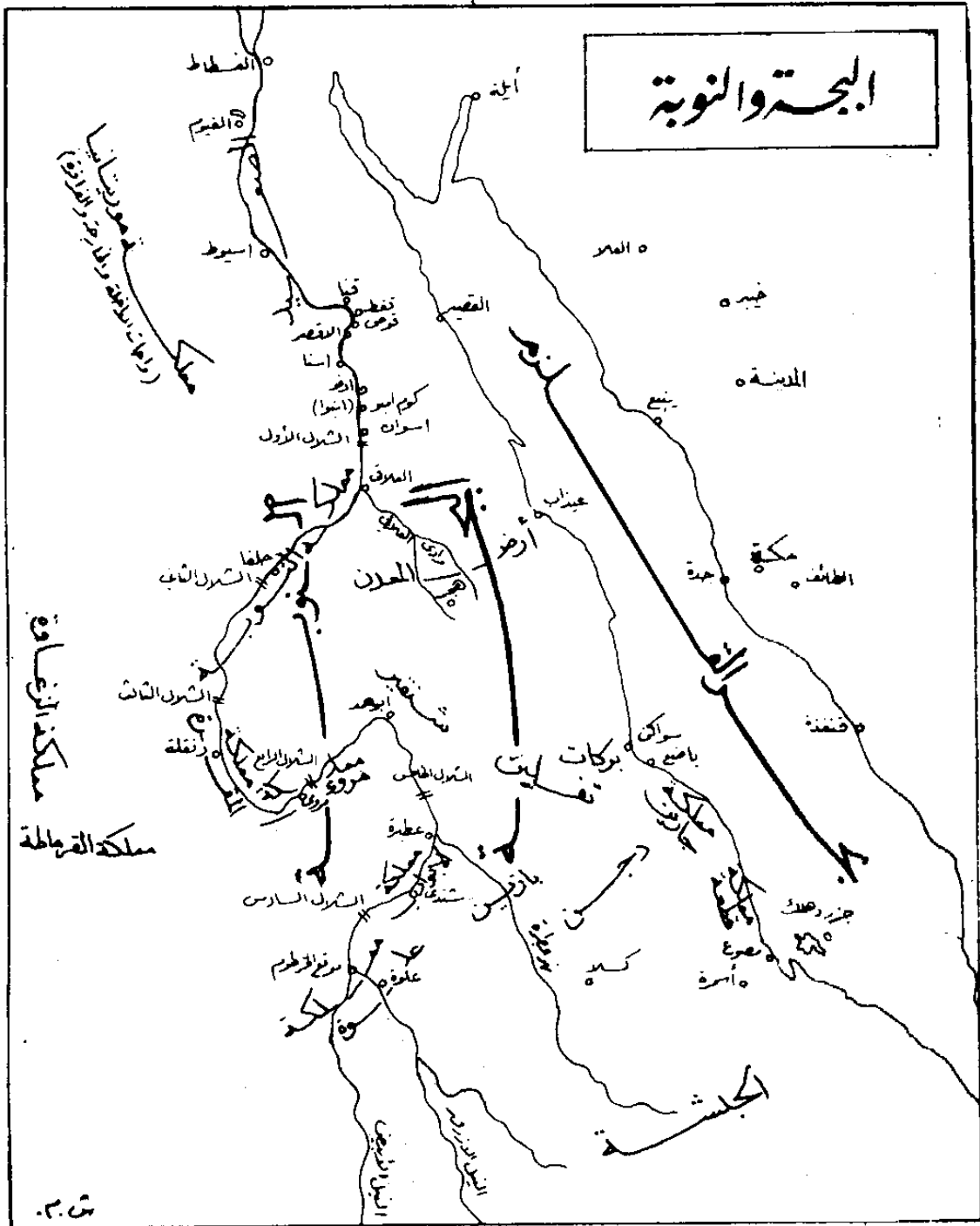
(٢) الفخري ص ١٦٨

(٣) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٥٧

(٤) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٥٦ .

(٥) هناك روايات متعددة لموت طاهر (الطبري ج ٨ ص ٥٩٤ - ٥٥٥)

(اليعقوبي ج ٢ ص ٤٥٧) (الفخري ص ١٦٨) (ابن خلكان ج ١ ص ٢٣٧) .



الفهرس

الصفحة	الموضوع
٦-٣	بين يدي الكتاب
٩٠-٩	الفصل الاول : العالم الاسلامي في نهاية العهد الاموي
٩	العالم الاسلامي في نهاية العهد الاموي
١٢	اتساع الدولة
١٤	السكان
١٩	الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية
٢٨	التيارات السياسية - الدينية
٣٠	الشيعية
٣٦	الخنوارج
٤١	المرجئة
٤٤	المعتزلة
٤٩	الحكومة والادارة الاموية
٥٢	السياسة المالية الاموية ومشاكلها
٦٣	السياسة الادارية
٧١	اضطراب الشام وأزمة الاسرة الاموية
٨٠	العلاقات الخارجية (الحرب الاقتصادية مع الروم)
٨٣	الحرب الاقتصادية
٨٦	العمليات البحرية
٨٧	الأمم
١٦٢-٩١	الفصل الثاني : الثورة العباسية
٩١	مقدمات الثورة (البؤرة والدعوة)
٩٤	اوضاع خراسان - بؤرة الثورة (الوجه السياسي - الاقتصادي)
٩٥	المغرب
١٠١	الاييرانيون
١٠٥	التترك وما وراء النهر

الصفحة

الموضوع

- ١٠٧ ثورة الحارث بن سريج
١١٣ الدعوة العباسية (الوجه الديني والعملي) إرث الكيسانية
١١٥ فترة الدعوة السرية التحضيرية
١٢٧ الثورة العلنية والحرب
١٣٢ تنظيم الدعوة وموقف نصر بن سيار
١٣٧ نفير الثوار العلني وشعارات الثورة
١٤٣ جبهة نصر بن سيار
١٤٥ موقف الخليفة الأموي
١٤٧ انتقال الثائرين الى العراق
١٤٨ من هو الخليفة ؟
١٥١ مبادئ الدعوة
١٥٣ انهيار خلافة دمشق والقضاء على الامويين

الفصل الثالث : العباسيون

- ١٦٣-١٩٣
١٦٣ ميزات الحكم العباسي
١٧٨ اقسام التاريخ العباسي وميزات العصر الاول
١٨٢ فترة المنصور وتأسيس الدولة - أبو العباس
١٨٦ لقب السفاح
١٨٩ المنصور

الفصل الرابع : توطيد الدولة - ١ - الثورات المناوئة للعباسيين ١٩٤-٢٤٤

- ١٩٥ المشكلة الاموية (ثورات الامويين)
٢٠٧ انفصال الاندلس
٢٠٨ الطامعون من آل محمد
٢٠٩ المشكلة العباسية
٢١٤ المشكلة العلوية - محمد النفس الزكية - الثورة العلوية
٢٢٦ مشكلة الخوارج
٢٣٨ خوارج افريقية والمغرب (الصفريه والاباضية)

الفصل الخامس : توطيد الدولة - ٢ - المشاكل الداخلية ٢٤٥-٣٠٠

- ٢٤٥ المشاكل الداخلية

الصفحة

الموضوع

٢٤٧	ثورات الدعاة
٢٥٢	١٤٠٠ مصرار عزماء الدولة
٢٦٥	مشكلة عامة الايرانيين
٢٧٠	الراوندية
٢٧٧	ثورة سباز
٢٨٠	ثورة إسحاق الترك
٢٨٢	الحركات المارقة
٢٨٦	ثورة أستاذ سيز
٢٨٨	المقنع والمقنعة
٢٩٥	مشكلة طبرستان

الفصل السادس : تنظيم الدولة

٣٢٩-٣٠١	١٤٠٠ ولاية العهد
٣٠١	السوزارة
٣٠٩	الولاية
٣١٣	الموقف المالي
٣١٧	الجيش
٣١٩	العاصمة
٣٢١	بفداد
٣٢٣	

الفصل السابع : العلاقات الخارجية

٣٨٣-٣٣٠	السياسة الخارجية : سياسة تأمين الحدود والاتجاه القاري
٣٣٠	جبهة المشرق (الهند ، الصين ، المحيط الهندي ، تركستان)
٣٣٢	جبهة الشمال والشمال الغربي (الخزروالروم) - العلاقات مع الخزر
٣٥٥	قطاع الجبهة البيزنطية (الروم)
٣٦٥	جبهة الروم
٣٧٠	

الفصل الثامن : عصر الرشيد والاستقرار - الخلفاء

٤١٤-٣٨٤	الخلفاء - المهدي
٣٨٧	الهادي
٣٩٥	الرشيد
٣٩٧	

الصفحة	الموضوع
٤٠٤	الأمين - المأمون
٤٥٣-٤١٥	الفصل التاسع : مشاكل الحكم - ١ - ولاية العهد
٤١٥	ولاية العهد - المهدي وولاية العهد
٤٢١	الهادي وولاية العهد
٤٢٧	الرشيد وولاية العهد
٤٢٨	خلاف الأمين والمأمون
٤٣٧	التطور الدبلوماسي السلمي
٤٤٣	طور النزاع المسلح
٤٩٥-٤٥٤	الفصل العاشر : مشاكل الحكم - ٢ - الوزارة
٤٥٤	وزارة المهدي والهادي - وزارة الرشيد وقضية البرامكة
٤٦٢	اسباب النكبة
٤٦٤	قصة العباسية
٤٦٦	السبب الديني
٤٦٧	السبب المالي
٤٦٩	السبب الشخصي
٤٧١	السبب السياسي
٤٩٠	الوزارة بعد البرامكة
٦٤٢-٤٩٦	الفصل الحادي عشر : السياسة الداخلية
٤٩٦	السياسة الداخلية
٤٩٩	رسالة الصحابة
٥٠٨	السياسة الادارية
٥٠٩	رئاسة الدولة والبلاط والحاشية
٥٢٨	الكتاب والدواوين
٥٤٨	الولاية - توزيع السلطة
٥٤٩	الولاء هو الاساس
٥٥٦	التقسيم الاداري وجهاز الادارة

الصفحة	الموضوع
٥٥٩	تطور الادارة العباسية للولايات
٥٦٤	القضاء والقضاة
٥٧٢	الشهود
٥٧٣	الحسبة - المظالم
٥٧٤	السياسة المالية
٥٨٥	طرق الجباية والانفاق
٦٠٣	بدء الانهيار المالي
٦١١	المؤسسة العسكرية العباسية
٦١٣	في تكوين الجيش
٦٢١	العرب
٦٢٦	الموالي
٦٢٧	الترك
٦٢٨	في عناصر الجيش
٦٣١	في إعداد الجيش
٦٣٣	في تنظيم الفرق والقواد وتنظيم الجيش
٦٣٨	من العطاء الى الرزق
٦٤٣-٧٤٢	الفصل الثاني عشر : المشاكل والحركات السياسية
٦٤٥	الحركات السياسية - الطامعون العباسيون
٦٥١	حركة ابن عائشة
٦٥٢	العلويون
٦٧٦	الخوراج
٦٩٠	حركات الاقاليم في افريقية
٧٠٠	في مصر
٧١٠	في اليمن
٧١١	في الشام
٧٣٠	في السواد
٧٣٣	في الموصل
٧٣٥	في خراسان

ذِكْرُ تَرْبِيَةِ الْعَبْدِ لِلَّهِ

الجزء الثاني

الدكتور
شكر مصطفى

الناشر
وَكَاةُ الْمَطْبُوعَاتِ
٢٧ شارع فهد السالم - الكويت

ذِكْرُكَ تَرْبِيَةِ الْعَبْدِ

أَجْزَاءُ الثَّانِي

الدكتور
شاكِر مصطفى

الناشر
وَكَاةُ الطَّبَوَعَاتِ
٢٧ شارع فهد السالم - الكويت

مقدمة

ما كان في خاطري أن يكون هذا الكتاب « دولة بني العباس » منذ وضعته إلا جزءاً واحداً متكاملاً . أما وقد شاء الطبع والنشر أن يكون جزءين تسهيلاً للقراءة والتناول فهذا هو الجزء الثاني من الكتاب ، يتم سابقه ويلحق بأبحاثه . وقد شاء هذا التقسيم أن يكون ثبت المصادر والمراجع ، وثبت الاعلام ملحقين بهذا الجزء شاملين لمباحث الجزءين معاً . وإني لأرجو ، إن تيسرت لهذا الكتاب طبعة أخرى مقبلة ، أن تكون أكثر أناقة وكمالاً بما يرفدها من نقد الزملاء الكرام .

والكمال لله من قبل ومن بعد .

شاكِر

دمشق ١٩٧٤

الفصل الأول

السياسة الدينية

الملاح العامة للسياسة الدينية العباسية

ليس المقصود من هذا العنوان بالطبع دراسة التيارات الدينية والفرق وآرائها وعلوم الدين والفقهاء وما الى ذلك في العصر العباسي الأول وإنما نريد فقط الى معرفة موقف الخلفاء والسياسة العباسية من تلك التيارات والفرق وبيان تصرفات الخلفاء وعما لهم تجاه كل أولئك وهي سياسة وتصرفات يجب أن نسجل مسبقاً أنها كانت الأمر الوحيد الباقي الى اليوم في المسلمين من ذلك العصر العباسي البعيد .

والفلك العام الذي كانت سياسة العباسيين الدينية تدور فيه ، في عصرهم الأول يمكن أن يتلخص في عدد من النقاط :

أ - اتبع العباسيون الأوائل في الحكم سياسة اسلامية مقابل السياسة العربية التي أخذ معظم الأمويين بها الناس . وكان هذا يعني أن الدين كان الدستور والمصدر للعمل السياسي والاداري وأن شعوب الدولة الاسلامية ، بما فيها العرب أضحت على مسافة واحدة ، أو أضحت متساوية القرب والبعد السياسي من الخلفاء . كما يعني في

الوقت نفسه أن أساس الرابطة الجامعة في الدولة قد تحول من الاشتراك في الأصل العربي مع الحكام الى الاشتراك في العقيدة الواحدة مع المحكومين .

على أننا يجب أن نسرع الى القول بأن هذه السياسة الاسلامية لم تكن من ابتكار العباسيين وإن برزت على أيديهم ولكنها كانت قد فرضت نفسها منذ أواخر العهد الأموي تحت ضغط عدد من الظروف «ولو لم تتغير الدولة (الأموية) لكان مقدراً - كما قال المستشرق جب - للتطور الذي بدأ في ظل الأمويين نحو إقامة نظم ملكية مركزية ونحو صهر العرب ذوي السيادة والتميز حتى ذلك العهد ، في نطاق الامة الاسلامية عامة ، أن يستمر استمراراً طبيعياً إلا إن تغير الدولة أسرع بإنجاز ذلك التطور وجعل وجهته واضحة محددة (١)» .

ب - حل العباسيون ، باستلامهم الخلافة ، محل الأمويين في الصراع مع الفرق الدينية الأخرى الطامعة بالحكم . ولكنهم - دون الأمويين - كانوا أقوى موقفاً بسبب صلة القربى المباشرة التي تربطهم بصاحب الرسالة . وقد أدى ذلك الى عدد من النتائج الهامة لعل أبرزها بقاء هذا البيت في الحكم خمسة قرون وارتباطه في نظر الكثير من المتأخرين بنظام الكون نفسه .

ح - أن السياسة العباسية الدينية لم تكن نابعة من منطلق عقائدي بقدر ما كانت ذات هدف سياسي . كان اصطناع الطابع الديني

(١) جب - دراسات في حضارة الاسلام (الترجمة العربية - بيروت ١٩٦٤ ص ١٣)

أحد الوسائل السياسية لدى الخلفاء العباسيين لدعم نظام الحكم •
و لضمان بقاء البيت العباسي على رأسه • كانت مظاهر الأعمال الدينية
تستخدم كلها في هذا السبيل من نشر للإسلام وجهاد وحج واتخاذ
ألقاب وبلورة لعقيدة رسمية سنوية للدولة كما كانت تصب جميعاً في
القناة السياسية •

د — وبالمقابل فإنه بالرغم من أن شعار العباسيين في الثورة إنما
كان يتلخص في أمرين :

البيعة للرضا من آل محمد والعمل بكتاب الله وسنة نبيه فإن
شيئاً أساسياً لم يتغير في سياسة العباسيين العملية عما كان في العهد
الأموي سوى ما تم من ازدياد التعاون مع الشعوب غير العربية في
المشرق (الموالي من انباط العراق والشام والایرانیين والترك) وهذا
قد يعني أن العباسيين اعتبروا وصولهم للحكم تحقيقاً للشعار الأول
كما اعتبروا قبولهم للشعوب الأخرى ونشر الإسلام بينها تحقيقاً للشعار
الثاني • وكانت المظاهر الدينية — فيما عد ذلك — هي التي تغطي
الفجوة ما بين واقع الحكم العباسي والالتزامات التي كان يرمي بها
الحكم الأموي •

هـ — وأخيراً فقد وضع العباسيون عملياً نظرية سياسية سنوية
عباسية في الخلافة كانت نتيجة الواقع العملي والممارسة السياسية أكثر
مما كانت نتيجة الفكر النظري والاستلزام الديني وتقوم هذه النظرية
على أسس ستة :

١ — إبراز القرابة من الرسول والحق في إرثه كأساس للشرعية في

الحكم وقد أخذوا هذا المبدأ عن العلويين واستخدموه بدوره ضد العلويين •

٢ - القيام بأمر الدين كتطبيق عملي لتلك القرابة مقابل ماأخذوه على الامويين من إهمال كتاب الله وسنة رسوله •

٣ - تمثيل «الجماعة» الاسلامية في الحكم • وقد أخذوا هنا المبدأ عن الأمويين واستخدموه أيضاً ضد الأمويين انفسهم وضد غيرهم (من العلويين والخوارج) •

٥ - التعايش مع أهل الذمة كرعايا في الدولة الاسلامية باعتبارهم جماعات يعترف بها الاسلام ولكن ضمن حدود ذلك الاعتراف •

٦ - رفض الحركات المارقة والزندقة ومحاربتها باعتبارها تهديداً للدين الاسلامي ولنظام حكمه (الخلافة) في وقت معاً • وإذا كانت النقاط الأربعة الأولى هي الوجه الايجابي لسياسة العباسيين الدينية فإن النقطتين الأخيرتين هما وجهها السلبي الدفاعي • وسوف نبحثهما على حدة في فصلين تالين •

وقد كان لكل أساس من هذه الأسس شكله النظري الفكري ومجاله التطبيقي العملي في الحكم ولقد يختلط الشكل والتطبيق أو يسبق أحدهما الآخر لكن الخط العام في النظرية كلها إنما هو دعم الدين الاسلامي والدفاع عنه وجعل الخلافة هي الصورة السياسية له • أما أبرز الواضعين لهذه النظرية فهو دون شك أبو جعفر المنصور الذي أقام حدودها وخطوطها الأساسية ولم يضاف عليها الخلفاء الذين جاؤوا من بعده الا بعض التفاصيل والتزيين والتأكيد • وسنبحث تباعاً اذن هذه الأسس :

١ - القريب من الرسول وحق الارث :

اعتبر العباسيون ان من البديهيات المسلمة أن تكون قيادة المسلمين بعد الرسول من أهل بيت الرسول . تلك هي الركيزة الأولى لنظريتهم في الخلافة وشعار «آل محمد» كان حصان طرواده الذي دخل العباسيون عن طريقه الى المنصب رافضين بضرورة مسبقة الآراء الأخرى من خالصة وأموية أو سنية عامة وإذا كان هذا الشعار يعطيهم الشيء الكثير من الحرمة والقدسية المستخدمتين من صاحب الرسالة نفسه ومن الصفة الإلهية لرسالاته فإنهم اختطفوا الكثير من الأسلحة العلوية الدينية وصعدوا صلة القرابة تلك ليجعلوا منها الأساس الشرعي المتين لأسرتهم وحققها في الرئاسة الأولى للمسلمين . والمحور الذي داروا حوله في هذا المجال هو إخراج العلويين من الحق في إرث الرسول وبالمقابل تأكيد شرعية الحق العباسي دينياً والدفاع عنه .

وإذا لم يكن صعباً على العباسيين بعد أن وصلوا الى الخلافة وقتلوا مروان بن محمد ومزقوا الكتلة الأموية في الشام سحقاً وقتلاً وهرباً أن يؤكدوا شرعية حكمهم ضد أنصار الأسرة الأموية بالقوة والواقع الفعلي وباتهام بني أمية «بالظلم» «والباطل» واتباع الشيطان والاستئثار بالقيء . . . الخ . فقد كان من الصعب جداً عليهم أن يفصلوا أنفسهم عن العلويين ويثبتوا أفضليتهم على هؤلاء وجدارتهم بحق الخلافة

(١) الطبري ج ٨ ص ١٧٣ (٥٢٩/٣)

(٢) المصدر نفسه ص ١٧٧ (٥٢٤/٣) .

(٣) ابن طيفور تاريخ بغداد ص ٣٠ .

دونهم لا لاشتراك هؤلاء معهم في القرابة مع صاحب الرسالة فقط ولكن أيضاً لسابقة هؤلاء في الجهاد ضد الأمويين لإثبات الحق العلوي وغياب بني العباس عن هذا الجهاد .

وبقدر ما كان مفاجئاً للناس أن يظهر «أبو العباس» كخليفة دون غيره من آل محمد كان صعباً على هذا الخليفة وأنصاره إبعاد الفرع الآخر من آل البيت عن المقام الأول في الدولة بشكل مقنع يرضى به الناس ويقطع في الوقت نفسه دعوى العلويين . وتكشف الخطبة الأولى لأبي العباس يوم خلافته وخطبة داوود بن علي معه أن العباسيين لم يفرقوا بينهم وبين أولاد عمهم العلويين بل ادعوا أنهم إنما ثاروا لهم : «إنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم (الأمويين) حقنا والغضب لبني عمنا...» (١) .

وإذا لم ينازع العلويون أبا العباس في خلافته فلأنه لم يطل به العهد سوى أربع سنوات ولأن تشيع العباسية كان موصولاً بتشيع العلوية لم ينفصلاً بعد حتى تصور الكثيرون أن الذي جاء إنما هو الحكم «الهاشي» وأخيراً لأن أبا العباس ظل على تألف قلوب العلويين وصلة الرحم فيهم بالصلوات ولم يكن يستريب إلا بمحمد ذي النفس الزكية وأخيه إبراهيم ولكنه كان يضبط أمرهما عن طريق أبيهما عبد الله

(١) هذا هو نص الطبري (٨ ص ٤٢٥ - ٣/٤٢٨ - ٢٩ إلى ٣٣) لكن رواية البلاذري في انساب الأشراف تخالف النص في شيء هام بالنسبة للعلاقة العباسية العلوية الأولى هو قوله : «... وخصنا بعم رسول الله... ثم جعلنا ورثته وعصبته» . والنص لدى الطبري يقول : «... وخصنا برحم رسول الله» ولا يرد فيه أنه جعلنا ورثته وعصبته . انظر مخطوط انساب الأشراف (مخطوط الرباط رقم ٦٨ ج ٣ ورقة ٣٩ ظهر) .

المحض وقد فعل ذلك أكثر من مرة حتى أخذ عليه العهد ألا يرى منهما شيئاً يكرهه ما كانا في الدنيا^(١) ...

وقد عبر الشاعر السيد الحميري وهو علوي الهوى عن هذا الموقف الذي اختلط فيه الأمر العباسي بالعلوي قال :

دونكوها يا بني هاشم فجددوا من عهدهما الدارسا
قد ساسها من قبلكم ساسة لم يتركوا رطباً ولا يابساً

وقال :

جزعت أمة من ولاية هاشم وبكت • ومنهم قد بكى الاسلام!

فلما جاء المنصور وانتصر على عمه وغيره أيقن العلويون أنه لا أمل لهم في الخلافة مع استئثار أبناء عمهم فيها وإذا كان أبو جعفر ينصح أخاه أبا العباس بالتشدد مع آل أبي طالب فيأبى ذلك فقد كان طبيعياً أن ينفذ رأيه هذا والحكم في يده ، لذلك سجل المؤرخون «أن المنصور أول هاشمي أوقع الفرقة بين بني هاشم ... حتى قيل عباسي وطالبي ...»^(٢) ولعل السبب هو أن المنصور التمس شرعية الحكم من طريق الفقه الاسلامي فأعلن أن الخلافة إنما جاءت العباسيين لأنها حقهم الشرعي عن طريق العباس عم النبي ووارثه الوحيد حسب النصوص القرآنية مع ابنته فاطمة • وأصدق الشهود على هذا الموقف السياسي الجديد تلك المكاتبات التي دارت بين المنصور ومحمد ذي النفس الزكية

(١) الاصفهاني - مقاتل الطالبين ص ١٧٧ .

(٢) انظر اليعقوبي - مشاكلة الناس لزمانهم ص ٢٢ - ٢٣ والسيوطي

- تاريخ الخلفاء ص ٢٧٠ .

عند ثورته فكلها تأكيد على حق العباس بالخلافة •

وحين قال الثائر العلوي : «إن ابانا علياً كان الوصي وكان الامام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء» ؟ وإنا بنو أم رسول الله في الجاهلية وبنو بنته في الاسلام ... فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ومن السلف أولهم اسلاماً ...» أجابه المنصور « إنما جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الحفاة والفوعة ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ولا كالعصبة والأولياء ...» : وأما قولك أنكم بنو رسول الله فإن الله تعالى يقول : ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكنكم بنو ابنته وانها لقرابة قريبة ولكنها لاتحوز الميراث ولا ترث الولاية ولا تجوز لها الامامة فكيف تورث بها ؟» (١) •

ويقول المنصور في كتاب آخر : «... ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليه وسلم غيره (أبي العباس) فكان وارثه من عمومته ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم فلم ينله إلا ولده • فالسقاية سقايته • وميراث النبي له والخلافة في ولده فلم يبق شرف ولا فضل ولا إسلام في دنيا ولا آخرة إلا والعباس وارثه وموروثه • فكيف تفخر علينا وقد علناكم في الكفر وفديناكم من الأسر وحزنا عليكم مكارم الآباء وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وطلبنا بئاركم فأدركننا من ما عجزتم عنه ولم تدركوا لأنفسكم ...» •

وما من شك في أن هذه المكاتبات لم تتردد بين الطرفين ولم تكتب

(١) البلاذري - انساب الأشراف ج ٣ الورقة ١١ وجه وظهر ..
وانظر الطبري ج ٨ ص ٥٦٦ - ٥٧١ (٢٠٨/٣ - ٢١٦) •

لإقناع الخصم وإنما كتبت ونشرت في الناس بغرض دعائي يثبت به كل من الطرفين دعواه وبشكل شرعي ديني في الخلافة على أن أهم ما أورده المنصور إنما هو الحجة الفقهية التي تكشف أن العباس (العم) هو دون علي (ابن العم) الوارث الوحيد للرسول وللإمامة في المسلمين عند وفاة صاحب الرسالة .

وقد استعر الجدل النظري الفقهي على ما يظهر في تلك الفترة حول هذا الأمر بالذات «... حتى كان زمان المهدي فردهم المهدي إلى إثبات الإمامة للعباس بن عبد المطلب وقال لهم : إن الإمامة كانت للعباس عم النبي فإنه كان أولى الناس به وأقربهم إليه ثم من بعده عبد الله بن العباس ثم بعده علي بن عبد الله ثم من بعده محمد بن علي ثم من بعده إبراهيم بن محمد ثم أبو العباس ثم أبو جعفر ثم المهدي ثم مدها في ولد المهدي...» (١) .

وهذا يعني أن العباسيين زمن أبي جعفر كانوا يقولون بإرث الكيسانية أي بالإمامة للعلويين حتى محمد بن الحنفية ثم بانتقال الإمامة لمحمد بن علي ثم أولاده . «بهذا كان يقول علي بن عبد الله وولده إلى أيام المهدي» ولكن المهدي أوجد خطأ جديداً في الدفاع العباسي إتباعاً لرأي أبيه إذ ألغى الإرث الكيساني كله ورد الإمامة مباشرة بعد الرسول وعن طريق الشريعة الفقهية إلى العباس نفسه . وحول هذه النقطة بالذات قامت المشادة التي استمرت قروناً بعد ذلك بين البيتين العباسي والعلوي وكانت من أهم نقاط الاختلاف بين الفقه

(١) اخبار الدولة العباسية - مؤلف مجهول (نشر الدوري والمطليبي) .
ص ١٦٥ (في المخطوطة الاصلية ورقة ٧٤ وجه) .

السني والشيعة وإنا لنجد أصداء هذه المشادة بعد نصف قرن من ظهورها لدى الخليفة المأمون نفسه يذكر ابن قتيبة الدينوري أن المأمون قال يوماً لعلي بن موسى الرضى (الذي صار ولي عهده فترة من الوقت) بهم تدعون هذا الأمر؟ قال: بقرابة على من النبي صلى الله عليه وسلم وبقرابة فاطمة رضي الله عنهما فقال المأمون: إن لم يكن هاهنا شيء إلا القرابة ففي خلف رسول الله... من أهل بيته من هو أقرب إليه من على ومن هو في القرابة مثله وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله فإن الحق بعد فاطمة للحسن والحسين وليس لعلي في هذا الأمر حق وهما حيان. وإذا كان الأمر على ذلك فإن علياً قد ابتزهما جميعاً وهما حيان صحيحان واستولى علي على ما لا يجب له. فما أثار علي بن موسى نطقاً...»^(١)

ومع ذلك يذكر المؤرخون تحول المأمون إلى الهوى العلوي، منطقياً وعن طريق الفكر الجدلي لا عن ميل قلبي صادق مرتين الأولى حين أعطى ولاية العهد لعلي الرضا ولكنه سرعان ما تخلص منه سنة ٢٠٢ والثانية سنة ٢١١ حين أظهر القول بخلق القرآن وتفضيل علي^(٢) ويحفظ لنا ابن عبد ربه محضراً كاملاً لمجلس جدل عقده المأمون مع أربعين فقيهاً وملاء بالدفاع المنطقي عن فضل علي. وطريقة إيراد ذلك الجدل تكشف أنه موضوع ومن عمل فكر ساهر جدلي. على أنه لم يكن لهذا كله من أثر عملي في تغيير السياسة العباسية^(٣) زمن المأمون عما كانت عليه قبله.

(١) الدينوري - عيون الأخبار ج ٢ ص ١٤٠ - ١٤١ ويروي ابن عبد ربه في العقد الفريد (ج ٥ ص ١٠٢) الحادثة ذاتها.

(٢) الأزدي - تاريخ الموصل ص ٣٧٣.

(٣) في العقد الفريد (ج ٥ ص ١٩٥-١٠٢) فصل من عدة صفحات بعنوان: «احتجاج المأمون على الفقهاء في فضل علي» يورد فيه جدلاً منطقياً تزعمه المأمون ضد الفقهاء الذين جمعهم وأثبت لهم بالنطق فضل علي ثم

وبالرغم من أن أصداء هذا الجدل الفقهي والنظري السياسي قد امتدت في الناس وانعكست في الفقه وعلم الكلام وكتب الادب والنسب وفي ولاء الناس فانا نكتفي بأن نذكر ملامحها في الشعر . صحافة تلك الأيام ، ووسيلة الاذاعة المتاحة للحزبين المتنافسين : وفي هذا المجال نقرأ لشعراء العباسيين الكثير مما كتب عن قناعة بهم أو زلفى إليهم أو بتأثير المال والجاه ومن ذلك : شعر مروان ابن ابي حفصة السياسي (بعد العهد الاموي ومروان بن محمد وكان مختصاً في الأصل به) يقول :

يا ابن الذي ورث النبي محمداً	دون الأقارب من ذوي الأرحام
الوحي بين بني البنات وبينكم	قطع الخصام فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضة	نزلت بذلك سورة الأنعام
أنى يكون وليس ذاك بكائن	لبنى العموم وراثته الأعمام ؟

ويقول :

هل تطمسون من السماء نجومها	بأكفكم أو تسترون هلالها ؟
أو تجحدون مقالة من ربكم	جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الأنفال آخر آية	بترائهم فأردتم إبطالها !

ثم جاءت بعد ذلك جوقة واسعة من الشعراء كلها ضربت على الوتر نفسه وكررت على أشكال وأنغام شتى . قال أبان بن عبد الحميد اللاحقي :

نشدت بحق الله من كان مسلماً	أعم بما قد قلته العجم والعرب °
أعم رسول الله أقرب زلفة	إليه أم ابن العم في رتبة النسب ؟
وأيهما أولى به وبعهده	ومن ذال له حق التراث بماوجب ؟

أورد ابن عبد ربه بعد ذلك خبر اعطاء ولاية العهد من قبل المأمون لعلي الرضى . ولعل هذه المناقشة - إن صحت - إنما كانت قبيل ولاية العهد هذه أو سنة ٢١١

فإن كان عباس أحق بتلكم فإبناء عباس هم يرثونه
وكان علي بعد ذلك على سبب
كما العم لابن العم بالارث قد حجب!

وقال منصور النيري :

يا ابن الأئمة من بعد النبي ويا ابن الأوصياء أقر الناس أو دفعوا
ان الخلافة كانت ارث والدكم
لولا عدى وتيم لم تكن وصلت
ومما لآل علي في إمارتكم
يا أيها الناس لا تغرب حلومكم
العم أولى من ابن العم فاستمعوا
من دون يتم وعند الله متسع
إلى أمية تمريها وترتضع
ومالهم أبداً في إرثكم طمع
ولا تقدمكم إلى اكنافها البدع
قول النصيحة إن الحق مستمع !

ويقول ابن سكرة :

إن الخلافة كانت ومذ بدأت
إذا انقضى عمر هذا قام ذا خلفاً
فقل لمن يرتجى غيرهم سفهاً
لوشئت روجت كرب الظن باليأس !
مرسومة بقي من آل عباس
فلاحت الشمس وامتدت على الناس

وقد ظل الجدل طويلاً في ذلك ونسمع أصداءه بعد ٧٥ سنة من عهد
المهدي في قصيدة تلقى أمام الخليفة المتوكل يقول أبو السمط
صاحبها فيها :

ملك الخليفة جعفر	للدين والدنيا سلامه
لكم تراث محمد	وبعدكم تنفى الظلامه
يرجو التراث بنو البنات ومالهم فيها قلامه	
والصهر ليس بوارث	والبنت لا ترث الإمامه
ما للذين تنحلوا	ميراثكم إلا الندامة
أخذ الوراثة أهلها	فعلام لومكم علامه ؟

قالوا فامر المتوكل بإعطائه ثلاثة آلاف دينار ثرت على رأسه (١) .
 وأمام المتوكل نفسه أنشد شاعره مروان بن يحيى معرضاً بالعلويين:
 وخطيموها وهي في غير أهلها وطالبتوها حين صارت إلى الأصل ؟
 وقد أجاب العلويون على شعر بشعر وعلى حجة فقهية بحجة فقهية .
 وقال شاعرهم رداً على شعر ابن أبي حفصة :

لم لا يكون وإن ذلك كائن لبني العموم وراثته الأعمام
 للبنت نصف كامل من ماله والعلم متروك بغير سهام
 ما للطلق (العباس) وللثراث وإنما صلي الطليق مخافة الصصام (٢)
 وإذا كانت قصائد الدفاع عن الحق العباسي وتأكيده شرعيته تأخذ
 شكل الاماديح المعتادة للحكام فإن قصائد الإشادة بالعلويين ورجالهم
 وجهادهم كانت تشكل غنائيات رثائية حارة عاطفة وتستثير الدموع
 ومن ذلك مثلاً أشعار السيد الحميري ودعبل الخزاعي التي امتلأت
 تنديداً بخلفاء العباسيين وما فعلوا بأولاد رسول الله من البغي وقد
 يلخص ذلك قول منصور النيميري (بعد تحوله عن بني العباس) :

آل النبي ومن يحبهم يتكلمون مخافة القتل
 أمن النصاري واليهود وهم من أمة التوحيد في أزل
 وقول دعبل :

أضر بهم ارث النبي فأصبحوا تساهم فيهم خيفة ومنون
 دعهم ذئاب من أمة واقتحت عليهم دراكاً أزمة وسنون
 وعاثت بنو العباس في الدين عيثة تحكم فيها ظلم وخؤون
 وقول التنوخي :

وقطعتم بالبغي قوم محمد ترائب أرحام له وقرائب . . .

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٣٠ (٢/١٤٦٥ - ١٤٦٦)

(٢) يعطي العباس لقب الطليق لأنه حارب في بدر مع المشركين وأسر

فافتدى نفسه .

وفي الوقت نفسه بينما كان أمل العلويين يتضاءل في التغلب على القوة العباسية كانت اتهاماتهم للعباسيين تتركز في أنهم غاصبون للحق من جهة وطغاة منحرفون جبابرة من جهة أخرى يقول محمد ذو النفس الزكية : «أما بعد أيها الناس فإنه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبي جعفر ما لم يخف عليكم من بناءه القبة الخضراء التي بناها معاندا لله في ملكه وتصغيراً للكعبة الحرام • وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى • وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين...»^(١) ويرى المعلي بن محمد البصري أن العباسيين بدلوا حكم الله ونبدوا كتابه وحرفوا فرائضه ويضيف : اللهم العن جبابرة زماننا واشياعهم واتباعهم وأحزابهم...» •

وقد قابل الخلفاء العباسيون (منذ المنصور حتى الواثق) إصرار العلويين على مناهضتهم بالاضطهاد القاسي الرهيب دوماً وبالتسامح أحياناً قليلة (كما في عهد المهدي وبعض عهد المأمون) ولكن ذلك الاضطهاد الذي ذهب بعدد من كبار آل البيت سجنًا وقتلا في فجائع معروفة كانت له تيجتان هامتان : ازدياد التطرف الشيعي والعلو من جهة وازدياد التكتم والباطنية والحركات السرية في هذا المذهب من جهة أخرى وقد دفع العباسيون خاصة والمسلمون عامة ثمن هذه السياسة الدينية العباسية غالياً وأحياناً غالياً جداً • لأن كثرة البطش دفعت العلويين في نوع من الدفاع الذاتي الى المغالاة في المذهب والى أن تصبح الثقة إحدى الأسس فيه وأن يتبع في انتشاره أسلوب الدعوة في السر وأن يتخذ طريقه الى النفوس سرّاً...»

(١) الطبري ج ٧ ص ٥٥٨ (٣/١٩٧) •

٢ - القيام بأمر الدين :

حاول العباسيون تصعيد تلك القربى التي يمتنون بها الى الرسول وتدعيمها وتبرير دعواهم في «الارث» النبوي وتأكيد صحة تلك الدعوى وذلك في عدد من المنطلقات والأعمال :

الأول : اعتبار الخلافة مؤسسة دينية لا رئاسة دنيوية • وإمامة روحية لا دست حكم فحسب وقد كان هذا يعني : أن الله هو الذي يختار الخليفة كما يعني أن سلطة الخليفة مستمدة بدورها من الله • وإذا كان الاختيار الإلهي إنما عبر عن نفسه بتمكين العباسيين من الوصول الى الحكم ومن طرد الأمويين عنه فإن السلطة الخلافية علوية تنزل من السماء ولا علاقة لها بالأرض وأهل الأرض • يقول شاعرهم :

وما الناس اجتوك بها ولكن حباك بنورها الملك الجليل
تراث محمد لكم وكنتم أصول الحق اذ نفى الأصول

«وتقدیس» المنصب الخلافي ليس من فعل العباسيين أنفسهم • وإذا تركنا جانباً ، وفي خلفيات الفكرة ذلك التيار القديم في الشرق الذي كان يعطي الأحكام الصبغة الإلهية أو الحق الملكي المقدس سواء لدى الفراعنة أو البابليين أو الرومان أو الفرس أو الساسانيين الاخيرين ، ويجعلهم ، بحكم التراث مقبولي القدسية في الناس ، فإن «تقدیس» الخلافة نفسها قد تعاون عليها قبل بني العباس كل من الأمويين والعلويين على السواء :

— فالأمويون منذ عهد عبد الملك لم يعد الخليفة عندهم خليفة رسول الله ولكن «خليفة الله» وظل الله في الأرض ، قام عبد الملك في

الكوفة حين أراد الشخصوص إلى الشام بعد مقتل مصعب بن الزبير
«فخطب الناس» فعظم عليهم حق السلطان وقال لهم هو ظل الله في الأرض
وحثهم على الطاعة والجماعة وذكر ابن الزبير وخلافه وخروجه ...
وحكم الله له (لعبد الملك) عليه ...»^(١) وكتب الوليد بن يزيد سنة
١٢٥ إلى واليه يوسف بن عمر الثقفي في العراق والي نصر بن سيار يقول:
«... ثم استخلف (الله) خلفاءه على منهاج نبوته حين قبض نبيه ...
فتتابع خلفاء الله علي ما أورثهم الله عليه من أمر أنبيائه واستخلفهم عليه
منه لا يتعرض لحقهم أحد إلا صرعه الله ولا يفارق جماعتهم أحد إلا
أمكنهم الله منه ... فبالخلافة أبقى الله من أبقى في الأرض من عباده
وإليها صيره وبطاعة من ولاه إياها سعد من ألهما ونصرها ... ولاصلاح
إلا بالطاعة ... فمن أخذ بحظه منها كان لله ولياً ولأمره مطيعاً ومن
تركها ... عصى ربه وخسر ديناه وآخرته ... فيما يحل الابهم في
الدنيا من الذلة والنقمة ...»^(٢) ثم إن أمير المؤمنين لم يكن منذ استخلفه
الله ...» .

— وأما العلويون فقد كانوا منذ عبد الله بن سبأ وغيره قد أدخلوا
على الزعامة العلوية فكرتين من التقديس : الإمامة ووجود شيء من
السر أو النور الإلهي في الإمام يرثه عنه الامام التالي له . وضمن
هذا الإطار كان ما يسمى في تاريخ الدعوة العباسية بإرث الكيسانية ،
وبالصحيفة الصفراء أو صحيفة العلم الباطن كما كانت تسمية بمحمد بن
علي ثم ابنه ابراهيم «بالإمام» قبل خلافة أولاده .
وحين جاء العباسيون لم يفعلوا من جديد سوى أنهم دفعوا هذه

(١) البلاذري - انساب الاشراف ج ٥ ص ٣٥٤
(٢) الطبري ج ٧ ص ٢٢٠ - ٢٢١ (١٧٥٨/٣ - ١٧٥٩)

الفكرة الى نهايتها وجعلوها من المسلمات السياسية المرتبطة بعرضهم
كما وطردوا الإيمان بها بين الناس فلم تعد مجرد رأي لبعض الخلفاء ولا
عقيدة لأحدى الفرق ولكن ركيزة نظام قائم . وقد بدأوا ذلك منذ
لحظاتهم الأولى : يخطب أبو العباس يوم استخلافه فيقول :

« ... الحمد لله الذي اصطفى الاسلام ... وحضنا برحم رسول
الله وقرابته ووضعنا من الاسلام واهله بالموضع الرفيع فقال عز من
قائل إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ... الخ » ثم وقف
داود بن علي يقول : « ... رجع الحق الى نصابه في أهل بيت نبيكم » ..
ثم دفع ابو جعفر الفكرة الى اقصاها فصار يخطب : « ... إنما أنا سلطان
الله في أرضه أسوسكم بتوقيقه وتسديده وخازنه على فيئه أقسمه
بإرادته وأعطيه بإذنه وقد جعلني الله عليه قفلا ... فارغبوا إلى الله
وسلوه أن يوفقني للرشاد وأن يلهمني الرأفة بكم والاحسان إليكم
ويفتحني لإعطائكم ... »^(١) . فكانما يريد أن يقول إن الخليفة آلة
إلهية للحكم وواسطة تنفيذ بيد الله في الناس ...

ومنذ تلك الفترات الأولى أضحى الأمويون : « انصار الباطل »
حسب وصف أبي جعفر و « حزب الشيطان » وأضحى مروان بن محمد
« خليفة الشيطان » كما قال عبد الله بن علي « وعدو الرحمن » . بينما
أضحى العباسيون هم « أنصار الدين وأضحى خليفتهم خليفة الله » « وأن
هذا الأمر (الخلافة) فينا وليس بخارج عنا الى يوم القيامة » وأن الدوحة
العباسية هي « الشجرة المباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء ... » ،
وقد استخدمت فكرة الاختيار الإلهي للخليفة وقدسية مقام الدولة

(١) الطبري ج ٨ ص ٨٩ (٤٢٦/٣)

العباسية حتى ضد العلويين أنفسهم وضد ثوراتهم • وأكثر ما استخدمت
ضدهم في الثورات الآية الكريمة : « انما جزاء الذين يحاربون الله
ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم
وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » كتب المنصور بذلك الى
محمد ذي النفس الزكية كما أوصى بذلك ابنه المهدي وذكره بأن
«... السلطان جبل الله المتين وعروته الوثقى ودين الله القيم...» •
وخطب المنصور أثناء ثورة ذي النفس الزكية فقال إنه : «... لما استقرت
الأمور فينا على قرارها من فضل الله وحكمه العدل وثبوا علينا حسداً
منهم لنا وبغياً علينا بما فضلنا الله به عليهم واکرمنا من خلافته ميراثنا
من نبيه... » !

وقد استخدم المنصور في خطبة له بمكة بعد بناء بغداد وهزيمة ذي
النفس الزكية الآية الكريمة «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن
الأرض يرثها عبادي الصالحون» ثم قال :

أمر مبرم • وقول عدل • وقضاء فصل • والحد لله الذي أثلج
حجته • وبعداً للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة عرضاً والقيء إرثاً...
ولقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون...»^(١) وقد عبر عن هذه
الفكرة نفسها الشاعر أبو الخير الناصبي بقوله :

أبى الله إلا ما ترون فما لكم غضاباً على الأقدار يا آل طالب ؟
فلما كانت أيام المهدي صار وصف «خليفة الله» هو الوصف
الشائع على ألسنة الشعراء للعباسيين وإنك لتستطيع في الاماديح خاصة
وفي الأهاجي المعاصرة أن تجد عشرات الدلائل على ذلك :

(١) الطبري ج ٨ ص ٩١ (٣/٤٢٩) •

يقول بشار في معرض هجاء المهدي نفسه :
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتسوا خليفة الله بين الزق والعود !
ويقول ابن المولى في المهدي :
خليفة الله • عبد الله والده
وأمة حرة تنمى لأمجاد ...
ويقول مروان بن أبي حفصة :
فإن طليق الله من أنت مطلق
وإن قتيل الله من أنت قاتله !
ويقول عبد الملك بن صالح في الرشيد :
الله قلد هاروناً سياستنا
لما اصطفاه فأحيا الدين والسننا
ويقول سلم الخاسر فيه :
بايع هارون إمام الهدى
لذي الحجى والخلق الفاضل !
ويقول الحسين بن الضحاك في المأمون :
فأنت خليفة الرحمن حقاً
جمعت سماحة وجمعت ديناً
ويقول ابن أبي السمط فيه أيضاً :
أضحى إمام الهدى المأمون مشغلاً
بالدين والناس بالدنيا مشاغلاً^(١)
وقد تصاعد هذا التقديس للخلافة العباسية مع الأيام حتى صار

(١) انظر الطبري ج ٨ ص ٦٦٢ - ٣ (١١٥٨/٣)

من الاعتقاد الشائع ربط نظام الكون بها وحتى لقد أخاف الناس بذلك
هولاكو المغول وخافوا غياب الشمس ودمار الأرض •

الثاني : اصطناع واتخاذ المظاهر الدعائية الدينية :

أ - فقد اتخذ العباسيون مع «ميراثهم» في الخلافة مع النبي
بعض ما كان للنبي من لوازم مادية وهي : البردة والقضيب : هما الرداء
الملكي وصولجان العرش • وكانت البردة هدية أبي سلمة للخلفاء
العباسيين اشتراها فقدمها إليهم فكان الخليفة العباسي لا يخرج في
موكبته الرسمي إلا بالبردة والقضيب • ولا سيما إن كان هذا الخروج
للمظالم أو الصلاة أو الجهاد أو الأعياد وقد بلغ من إكبارها الديني أن
كانت «هي الخلافة»^(١) •

ب - وقد اتخذ العباسيون منذ الأيام الأولى لظهورهم ألقاباً
دينية بجانب اسمائهم • بل اتخذوها قبل الخلافة أيضاً • فإن محمد
ابن علي ثم ابنه إبراهيم كانا يدعيان من قبل انصارهما «بالامام» فلما
جاء أبو العباس أعطى لقب «المهدي» من قبل بعض جماعته يقول سديف
ابن ميمون مولى أبي العباس :

أنت مهدي هاشم وهداها كم أناس رجوك بعد إياس

ولعل أبا العباس لم يتخذ اللقب رسمياً فلم يشع اللقب ولعل
أبا جعفر تردد في اتخاذ لقب لنفسه حتى إذا اقتصر على محمد ذي النفس
الزكية اتخذ لنفسه لقب «المنصور» محياً بذلك ومستجلباً لنفسه
به كل ما كان يحمل ذلك اللقب القديم من تهاويل دينية وأفكار تنبؤية
وأسطورية وملاحمية منذ منصور اليمن إلى المختار الثقفي إلى منصور

(١) الطبري ج ٨ ٤٨٢ (٣/٩١٧) •

خراسان الحارث بن سريج ... ولم ينس في الوقت نفسه سلب أعدائه المبادرة إذ أخذ أيضاً لقب «المهدي» الذي سوف «يملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً» فأعطاه هو نفسه لابنه وولي عهده ... وقد كان محمد ذو النفس الزكية قد أخذ لنفسه هذا اللقب وجعله في مكاتباته مع المنصور^(١) ...

ولقد يذكر بعض الكتاب أن الأمويين اتخذوا لأنفسهم ألقاباً . روي المسعودي ذلك نقلاً عن «بعض المتأخرين ممن ينحرف عن الهاشمين الطالبين منهم والعباسيين ويتحيز إلى الأمويين ويقول بإمامتهم ...» ويضيف «أنه ذكر أنه كانت لمن ملك من بني أمية ألقاب كألقاب خلفاء العباسيين وذكر في ذلك روايتين : ...» وهكذا «يعطى معاوية لقب الناصر لحق الله ويزيد : المستنصر ... ومروان المؤمن بالله ... وسليمان ابن عبد الملك بالمهدي والداعي إلى الله ... وعمر بن عبد العزيز المعصوم بالله ... وهشام بن عبد الملك المنصور ومروان بن محمد بالقائم بحق الله^(٢) ... ولكن هذه الألقاب مزيفة دون شك وقد رفضها المسعودي نفسه قائلاً : «إن الكافة على خلافه . فلو كان الأمر على ما ذكر لظهر واشتهر ... وجاء في الأخبار المنقولة القاطعة للعذر ... فلما لم يذكره الجمهور من حملة الأخبار ونقله السير والآثار ولا دونه مصنفو الكتب في التاريخ .. علم أن ذلك لا أصل له ...» .

واتخاذ العباسيين للألقاب «الدينية» إنما كان رمزاً لسياستهم الدينية ولهذا لم يجد العباسيون الأوائل في ألقابهم عن معنى واحد بعد المنصور فالمهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون بل وألقاب ولي

(١) الطبري ج ٧ ص ٥٦٧ (٩٠٣/٣) .

(٢) المسعودي - التنبيه والإشراف ص ٢٨٩-٢٩١

العهد المؤتمن والناطق بالحق كلها أسرة واحدة من الألقاب تتبع من مؤدى واحد يعني الهداية الدينية وحفظها ثم اضاف العباسيون الى اللقب لفظ الجلالة رمزاً لهذا الانصراف الديني في معنى الخلافة : وهكذا بدأ المعتصم بالله سلسلة الألقاب المقرنة بكلمة الله ... وهي السلسلة التي لم تنته حتى المستعصم بالله بل عادت فالتصق بها خلفاء العباسيين في القاهرة حتى الفتح العثماني . وهذه الصفة الدينية كانت حين ضعف هؤلاء الخلفاء هي الشيء الوحيد الباقي لهم منذ اواخر القرن الثالث يقول البيروني : (في مطالع القرن الرابع) : «...» والذي بقي في أيدي العباسية إنما هو أمر ديني اعتقادي لا ملكي دنيوي كمثل مالرأس الجالوت عند اليهود من أمر الرئاسة الدينية من غير ملك ولا دولة فالقائم من ولد العباس الآن إنما هو رئيس الاسلام عند أصحاب النجوم لا ملك...» (١) .

ح - ادعاء حيازة «العلم السري» ، علم الغيب : «ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة» . وهذا العلم إنما كان في الأصل - على ما يبدو - نوعاً من التنبؤات الملحمية والرجم بالفلك والغيب وقد رأى المنصور أن الشيعة يدعون امتلاك ائمتهم «للعلم» المتوارث عن صاحب الرسالة فأراد أن يعدل ذلك بادعاء موازله فادعى أن العباسيين ورثوا العلم السري مكتوباً في دفاتر عن طريق أبي هاشم ، الذي أعطى ذلك العلم لمحمد بن علي بن عبد الله العباسي فانتقل منه الى أولاده . وكان المنصور يحفظ تلك الدفاتر في سبط عليه قفل عهد به الى مولاه حماد التركي واحتفظ بمفتاحه فإن احتاج الى شيء منه استدعى ذلك المولى بالسبط ثم أخرج المفتاح من كم قميصه . وحين ارتحل إلى مكة في الحجة التي

(١) البيروني - الآثار الباقية (طبعة سخاو) ص ١٣٣

مات فيها ذكروا أنه استدعى ابنه المهدي فقال له : انظر هذا السفظ
فاحتفظ به فإن فيه علم آبائك ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة فإن
احزنك أمر فانظر في الدفتر الأكبر فإن اصبت فيه ما تريد وإلا فالثاني
والثالث حتى بلغ سبعة فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة فإنك واجد
فيها ما تريد وما أظنك تفعل...»^(١) .

ولسنا ندري بعد ذلك ما الذي كان من أمر هذه الدفاتر التي يبدو
أن الخلفاء أهملوها لعدم الحاجة إليها . ولعلها هي نفسها الكتاب الذي
يُرد ذكره في عهد المهدي وهو في طريقه الى الروم سنة ١٦٣ ويسميه
بعض رجال الحاشية (بكتاب الدولة) ويزعمون أنهم وجدوا فيه أن
سنوات خلافة المهدي عشر فزيفوا ورقة أخرى مكان الأولى وكتبوا فيها
اربعين بدلا من عشرة^(٢) لكن هذا الكتاب أضحى بعد استقرار
الدولة العباسية غير ذي موضوع فلسنا نعرف له أثراً .

د - العناية بأهل الحجاز وبالحرمين :

وبالرغم من أن هذه العناية بالحجازيين لها وجهها الإداري
السياسي لما في مدينتي الحجاز من آل البيت القابليين للتمرد ومن الأنصار
ومن أولاد الصحابة ومن الفقهاء المشهورين فإن لها في الوقت نفسه
جانبها الديني الدعائي السياسي أيضاً باعتبار مكة والمدينة ، بلدي
الرسول ومطلع نور الاسلام . وقد اضطهد الحجاز أحيانا كثيرة أثناء
العهد الأموي بسبب معارضته التي انتهت غالباً بالفواجع (واقعة الحرة .
وهزيمة ابن الزبير . وقصة أبي حمزة الخارجي) على أن ما خسره
الحجازيون في السياسة كسبوه في العلم والدين فكانت المدينة حاضرة

(١) الطبري ج ٨ ص ١٠٣ (٤٤٣/٣-٤٤٤) .

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٤٦ (٤٩٦/٣-٤٩٧) .

«أهل الحديث» ومنبع علوم الاسلام على يد عبد الله بن عباس وتلاميذه .
وقد تمثل علمها في مظالم العصر العباسي في جمهرة واسعة من العلماء
يأتي في طلبهم مالك بن أنس صاحب المذهب . كما لجأ أهل البيت عامة
الى المدينة فأقاموا فيها مما حرمهم في الواقع المشاركة المباشرة في تقرير
مصير العالم الاسلامي يوم بدأ هذا المصير معلقاً غامضاً بعد وصول
الثورة العباسية الى الكوفة وقبل مبايعة أبي العباس وهزيمة الزاب (وهنا
كانت محاولة ابي سلمة الخلال) ...

وتلقى الحجازيون نجاح أبي العباس في نوع من الانتظار لما
سيكون . وكان جعفر الصادق وعبد الله المحض خاصة هما وجها الحجاز
عند أبي العباس ثم أبي جعفر بينما كان محمد بن عبد الله (النفس الزكية)
هو الروح السياسية التي تنتظر في المدينة . ولم يكن هذا الموقف بالذي
يخفى على المنصور الذي وصف أهل الحجاز بأنهم «أسرع الناس الى
الفتن وأضعفهم عنها» ولقد بايع الحجازيون لأبي العباس ثم للمنصور
«مكرهين» بشهادة مالك بن أنس فقيه المدينة ولم يكن بإمكان
العباسيين - ومواسم الحج سنوية يجتمع إليها العالم الاسلامي في الحجاز
- أن ييطشوا بقسوة بأهل الحرمين دون أن يظهر ذلك متناقضاً أشد
التناقض مع ما يحرصون عليه من السمعة الدينية وما يعلنونه من العمل
بالاسلام وبالكتاب والسنة وما ينشدونه من الإبقاء على حرمة آل محمد
(عباسيهم وعلويهم) لدى الناس لذلك كانوا مضطرين الى اصطناع
سياسة خاصة من السخاء والتودد في هذا الاقليم الاسلامي دون باقي
الاقاليم .

أبو جعفر هو الذي بدأ سياسة التودد وإظهار التعظيم للحرمين
ثم درج عليها المهدي والرشيدي خاصة : ولعله كان في خاطره أن يظهر

احترام البيت المالك الجديد للحرمين وأهلها مقابل الاهمال بل والعدوان الأموي أحياناً عليهما . وأبرز ما تجلى ذلك في توسعة الحرمين والبر الزائد لأهلها . فأما توسعة الحرمين فقد كانت ضرورية بسبب تزايد اعداد الداخلين في الاسلام من الشعوب المغلوبة حتى صار البيت الحرام أضيق من أن يتسع للاعداد المتكاثرة من الحجاج «...» وشكا الناس ضيقه» كما قال اليعقوبي فانتهزها المنصور «...» وكتب الى زياد بن عبيد الله الحارثي (والي الحجاز) أن يشتري المنازل التي تلي المسجد حتى يزيد فيه ضعفه فامتنع الناس من البيع» فاستشار الخليفة جعفر الصادق ابن محمد فقال : سلهم . أهم نزلوا على البيت أم البيت نزل عليهم ؟ فلما قالوا : نزلنا عليه . قال : فإن للبيت فناء . فكتب أبو جعفر بهدم المنازل التي تليه ... وأدخلت عامة دار الندوة فيه (وهذا يعني أن هذه الندوة الجاهلية كانت ما تزال قائمة) حتى زاد فيه ضعفه وكانت الزيادة مما يلي دار الندوة وباب بني جمح ولم يكن مما يلي الصفا والوادي فكان البيت في جانبه وكان ابتداء الأمر به في سنة ١٣٨ و فرغ سنة ١٨٠ . وبني (كذلك) مسجد الخيف بمنى وصيره على ما هو عليه من السعة ولم يكن بها قبل ذلك . وحج أبو جعفر سنة ١٤٠ لينظر ما زيد في المسجد الحرام «...»^(١) وليراقب ما بلغه من بدء التحرك العلوي ! ...

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٦٩ وانظر الطبري ج ٧ ص ٥٠٠ (١٢٥/٣) ويروي المقدسي البشاري في احسن التقاسيم (ص ٧٥) رواية أخرى عن سبب توسيع الكعبة وأن الذي وجد الطريقة لشراء الدور هو أبو حنيفة النعمان يقول : « وسمعت من بعض مشايخ المقيروان أن المنصور حج ف رأى صغر المسجد الحرام وشعثة وقلة معرفتهم بحرمته ورأى الأعرابي يطوف بالبيت على بعيره ويجاويه فسأه ذلك وعزم ... » وأن أصحاب الدور حين رفضوا البيع غمه ذلك واحتج ثلاثاً أيام وقد فتش عنه أبو

وتابع المهدي السياسة نفسها فقد حج سنة ١٦٠ فذكر له حجة الكعبة خوفهم من سقوطها لما عليها من الكسوة الكثيرة فأمر أن يكشف ما عليها من كسى الخلفاء القديمة (وكانت كلها من متاع اليمن إلا كسوة هشام بن عبد الملك فكانت من الدياج الثخين الجيد) فكشفت حتى جردت الكعبة فطلّى جدرانها كلها بالخلوق من المسك والعنبر ثم كساها القباطي والدياج والخز . ثم أمر المهدي بالعملية الثانية من التوسعة أي توسعة مسجد الرسول في المدينة فزاد فيه مثل ما كان عليه وصار ٣٠٠ ذراع في مائتين وحمل إليه عمد الرخام والفسيفساء والذهب ورفع سقفه والبس خارج القبر «الرخام» . «وأمر بنزع المقصورة التي في المسجد» . وأراد أن ينقص منبر الرسول فيعيده الى ما كان عليه ويلقي عنه ما زاده معاوية فيه ولكنه توقف عن ذلك بسبب نصيحة مالك بن أنس خوفاً من أن يتكسر المنبر القديم لنزع المسامير منه^(١) .

وأخيراً كتب اسمه عليه بدلا من اسم الوليد بن عبد الملك الباني الأول ولم يرح المسجد حتى جرى التبديل امامه .

حنيفة «وهو حاج ليس له بعد ذكر ولا ظهر للناس فقهه» فتبرع له بايجاد الطريق الشرعي لاجبار أصحاب الدور على بيعها وهكذا اشتهر ! وقد اخذنا برواية اليعقوبي وهو بغدادى واهملنا هذه الرواية لأنها من رواية بعض اهل القيروان البعيدين ولأن الخطأ فيها واضح : فلم يحج المنصور قبل سنة ١٤٠ وكانت التوسعة قد بدأت سنة ١٣٨ وتمت ثم إن أبا حنيفة لم يكن يومذاك خامل الذكر ولكنه كان اكبر الفقهاء وقد توفي سنة ١٥٠ بعد ١٢ سنة فقط من الفتوى . وقد تابعنا رواية اليعقوبي الذي يجعل جعفر بن محمد (وليس غير الامام الصادق) صاحب الحيلة الشرعية .

(١) انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٣٩٥-٣٩٦ والطبري ج ٨ ص ١٢٣ وص ١٧٨ - ١٧٩ (٣/ ١٨٣ و ٥٣٥) والبلاذري - فتوح البلدان ص ٦

ويبدو أن الزيادة التي أحدثها المنصور في الكعبة جعلتها في جانب الفناء لا وسطه كما أنها لم تكف مع ذلك تكاثر المسلمين والحجاج المتزايد في تلك الفترة فاضطر المهدي لمعاودة الزيادة من جديد بعد ربع قرن من الأولى ويقولون إن المهدي «رأى الكعبة في شق من المسجد فكره ذلك وأحب أن تكون في وسط المسجد ودعا المهندسين وسألهم عن ذلك فعظموا فيه المؤونة فأبى إلا ذلك فشرعوا في عمله...»^(١) «اشترى من الناس دورهم وأحضر الصناع والمهندسين من كل بلد وكتب إلى واضح مولاه وعامله على مصر في حمل الأموال إلى مكة واتخاذ الآلات وما يحتاج إليه من الذهب والفضة وسلاسل القناديل...» فعلى الفسيفساء هناك في الأروقة أسماء صناعة من الشام ومصر . وحملت الأساطين العظام من الاسكندرية في البحر إلى جدة وهي ٤٨٤ أسطوانة طول كل منها عشرة أذرع ... ووسع المسجد على الشكل الذي بقي عليه قروناً بعد ذلك في مساحة تعدل ١٢٠ ألف ذراع مربعة ... وجعل له ٢٣ باباً ... فكان المهدي آخر من زاد في المسجد الحرام»^(٢) كما بني المسعى بين الصفا والمروة . ويبدو أن هذا العمل بدأ سنة ١٦٤ فلم يتم حتى سنة ١٧٠ في آخر خلافة الهادي .

(١) العيون والحدائق للمؤلف المجهول ص ٢٧٩

(٢) انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٣٩٦ خاصة والطبري ج ٨ ص ١٦٥ وهو يذكر أن البناء بدأ سنة ١٦٧ ولكننا فضلنا متابعة اليعقوبي نفسه في كتابه الآخر البلدان من أن البناء بدأ سنة ١٦٤ . (انظر البلدان - طبعة دي غوية الملحق بالاعلان النفيسة ص ٣١٥) وانظر كذلك المقدسي البشاري احسن التقاسيم ص ٧٣ و ص ٧٥ .

وبقي للرشيـد بعد ذلك أيضاً شيء يصنعه في الحرم المكي : حفر
بئر زمزم وتوسعتها وسقيا الناس . فقد ذكروا أن الناس نالهم في الحج
سنة ١٩٠ عطش شديد وغارت زمزم حتى لم يوجد فيها من الماء الا القليل
فحفرت عدة أذرع فزاد الماء يسيراً ، فكان أول ما حفر في زمزم . . . (١)
وكانت زبيدة زوج الرشيد في ذلك الموسم فأمرت بمد قنوات من الرصاص
طولها ١٢ ميلاً أجرت فيها المياه من ينبع وبساتين اسمها المشاش الى
ثلاث برك في مكة فما زال يشرب منها الناس والحجاج قروناً بعد ذلك (٢)
ويعرفونها باسم قناة زبيدة .

ويقول اليعقوبي في مكان آخر : «وكانت تريد أن تتقدم الرشيد
في كل شيء من جد وهزل فأما الجد فالآثار الجميلة التي ليس في الاسلام
مثلاً فإنها حفرت عين المشاش . . . وأنفقت عليها ألف ألف وسبع مائة
ألف دينار ثم اتخذت المصانع والسقايات والمتوضئات حول المسجد الحرام
وبنت دور السبيل ومصانع بمنى وفي عرفات سقايات . وحفرت آباراً في
منى على طريق مكة ووقفت على ذلك ضياعاً غلتها ثلاثون ألف دينار في
السنة . . .» (٣) .

أما المأمون فكانت آخر زيارة عرف فيها الحرمين هي سنة ١٨٦ يوم

(١) اليعقوبي - ج ٢ ص ٤٢٩ .

(٢) اليعقوبي - البلدان ص ٣١٦ والمقدسي - احسن التقاسيم

ص ٧٤ .

(٣) اليعقوبي - مشاكلة الناس لزمانهم ص ٢٦

علق عهده مع عهد أخيه في اسطوانة من الفضة في الكعبة ولم يزرها بعد ذلك ولكنه عبر عن تقديسه لها حين قدم عليه ملك التبت وأهداه صنماً له من ذهب على سرير من ذهب مرصع بالجوهر فأرسله المأمون الى الكعبة يعرف الناس هداية الله للملك التبت»^(١) وقد ضرب هذا الصنم دنانير فيما بعد من قبل والي المأمون •

وقد غني الخلفاء العباسيون بجانب ذلك بالطريق الموصلة بين العراق والحرمين • وهي طريق المشرق كله الى الحج • ولعل هذه العناية إنما كانت أيضاً لأسباب عسكرية وسياسية كي تصبح الطريق متصلة مترابطة ما بين مقر حكمهم في العراق ومنبع قدسيتهم في الأرض المقدسة القلقة الولاء • فإننا نرى أبا العباس أول من يعني بذلك ويبنى القصور على الطريق من القادسية الى زباله ثم جاء أبو جعفر فأقام المنازل على الطريق • فلما استخلف المهدي أمر سنة ١٦١ ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي كان بناها أبو العباس وأمر بالزيادة في قصور أبي العباس وترك منازل أبي جعفر على حالها • وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل وبتجديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع • وقد تولى له ذلك يقطين بن موسى ثم أخوه أبو موسى واستمر العمل فيه حتى سنة ١٧١ وكان المهدي قد توفي قبل سنتين^(٢) بعد أن أضاف الى ذلك إقامة البريد من اليمن ومن مكة ومن المدينة الى الحضرة (بغداد) بغالا وإبلا قال الذهبي وهو أول من عمل البريد من الحجاز

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٥٢ • وانظر بعد ذلك ص ٤٤٨ •

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٣٦ (٤٨٦/٣)

الى العراق (١) •

وأما رعاية أهل الحرمين فقد كانت سياسة مقررة ترمي الى فك ارتباطهم بآل علي وضمان ولائهم لبني العباس ... والى الاشتغال في كل موسم حج بالبر والعطاء للأرض المقدسة بدأها المنصور سنة ١٤٠ بالحج ومنح عطاء كامل لأهل المدينة (٢) ولكن هذه السياسة سرعان ما مرت هي في مطلع أمرها بأزمة عنيفة قاسية يوم ثورة محمد ذي النفس الزكية سنة ١٤٥ التي انتهت بفاجعة اعادت الى اذهان الناس وقائع الأمويين معهم وبعملية إذلال للمدينة واضحة ثار لها حتى عبيد البلد ومواليه كما نجم عنها قطع الميرة السنوية عن الحجاز من مصر وقطع العطاء السنوي من الدولة ... ولهذا كانت علاقات المنصور مع الحجاز متسمة بالرعاية الحذرة يتقرب من فقهاء المدينة (مالك بن أنس وجعفر الصادق وأمثالهما) وكرر الحج • وأخذ في صحابته (حاشيته) بعض شخصيات الحجاز القبلية وتزوج من تلك القبائل وحين شكا إليه الناس سنة ١٥٣ قرصنة بعض بحارة (الكرك) وتهديدهم جدة أسرع بإرسال حملة بحرية تقمع عدوانهم (٣) فوراً من البصرة •

ثم جاء المهدي فدخل سياسة التسامح والبر على النطاق الأوسع في أهل الحجاز حين حج سنة ١٦٠ • ولعل أهم ما فعله أنه :

-
- (١) السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٢٧٣ •
 - (٢) العيون والحدائق لمؤلف مجهول ص ٢٢٧ •
 - (٣) الطبري ج ٨ ص ٣٣ و ٤٢ (٣/٣٥٩ و ٣٧٠) •

أ - أعاد العطاء الى أهل المدينة وأهل مكة وجلس بنفسه يعطيه بعد توقفه خمس عشرة سنة . واعاد تنظيم قوائمه ومبالغه . وبالرغم من أنه جعل أعلى العطاء لبني هاشم ثم لقريش ثم الأنصار ثم الموالي إلا أن نصيب كل رجل بعد ذلك كان مختلفاً . وقد أصاب القرشي عامة ٣٠٠ دينار و ٧ أثواب . أما فريضة الهذيلي فهي ١٥ ديناراً . وقد بلغ عدد من شملهم العطاء حوالي ٨٠ ألفاً وزع عليهم من المال على ما ذكر الطبري في مكة والمدينة ما بلغ ثلاثين ألف ألف درهم حملت مع المهدي و ٣٠٠ ألف دينار جاءت من مصر و ٢٠٠ ألف جاءت من اليمن^(١) . وفرق من الثياب ١٥٠ ألف ثوب^(١) .

ب - أعاد العادة القديمة بتموين الحجاز بالحبوب من مصر والشام بعد قطعها .

ح - اختار « ٥٠٠ رجل من الأنصار ليكونوا معه حرساً له بالعراق وأنصاراً وأجرى عليهم سوى اعطياتهم أرزاقاً وأقطعهم عند قدومهم معه ببغداد قطيعة تعرف بهم » ولو لم يكن غريباً بعد هذا أن :

د - وافاه الحسن بن ابراهيم بن عبدالله المحض في مكة مستأمناً فأحسن المهدي صلته وجأزته وأقطعه مالا من الصوافي بالحجاز^(٢) .

هـ - تزوج من رقية بنت عمرو العثمانية ، تقرباً من أهل الحجاز .

(١) الطبري ج ٨ ص ١٣٣ (٤٨٣/٣) .
(٢) المصدر نفسه .

و - رد على أهل بيته وغيرهم قطائعهم التي كانت مقبوضة عليهم وذلك سنة ١٦٠ ثم رد ديوانه وديوان أهل بيته الى المدينة ونقله من دمشق إليها سنة ١٦٨^(١) .

وقد عادت الأيام السود إلى الحجاز فترة قصيرة بوصول الهادي إلى الخلافة سنة ١٦٩ وبثورة الحسين بن علي في الحجاز تلك السنة . فقد تشدد الهادي من ناحية على العلويين وقسا أشد القسوة كما ثار هؤلاء من جهتهم فاتتهوا الى فاجعة فخ والي النكال سنة ١٧٠ . لكن الرشيد الذي كان قد تسلم الخلافة تلك السنة أراد فيما يظهر إزالة تلك الآثار بسرعة والعودة لسياسة المهدي . وبعد أن أمر أحد أبناء عمه بإقامة الحج في السنة ذاتها «بداله فخرج هو بنفسه ولحقه في الطريق وأقام الحج وأعطى أهل مكة والمدينة عطايا كثيرة وفرق فيهم أموالا ثم انصرف ...»^(٢) ولا شك أنه كان يرمي بهذه الحركة الى فصل أهل الحجاز عن العلويين .

ثم حجت «الخيزران سنة ١٧٢ فقسمت بالمدينة أموالا واجازت بجوائز عظيمة خصت بها نفراً من قریش والأنصار ووجوه أهلها وزوجت أيتاماً وقسمت في النساء آنية من ذهب وفضة مملوءة من أنواع الطيب وكست كسوة كثيرة ووضعت لكل قبيلة مالا يعطون ...»^(٣) . ثم كرر الرشيد حجه مرات ولا شك أن حاجاته كانت مواسم للهبات والاعطيات .

ويذكرون مثلاً أنه حج سنة ١٧٤ فبدأ بالمدينة فقسم في أهلها مالا

(١) الطبري ج ٨ ص ١٣٤ و ١٦٧ (٣/٤٨٤ و ٥٢٢) .

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٠٧ .

(٣) العيون والحدائق لمؤلف مجهول ص ٢٩١ .

عظيماً • ولم يستطع دخول مكة تلك السنة لتفشي الوباء بها^(١) •
أما السنة التي كانت أعياداً في الحجاز فهي تلك التي سموها سنة
الأعطيات الثلاث سنة ١٨٦ حين جاء الرشيد لتعليق عهد أولاده في
الكعبة • وصل المدينة فكان الناس يقدمون عليه ، فيعطهم عطاء ثم
يدخلون إلى محمد (الأمين) فيعطهم عطاء ثانياً ثم إلى
المأمون فيعطهم عطاء ثالثاً • وشملت الأعطية النساء والرجال
ثم صار إلى مكة فأعطى أهلها فكانت الثلاثة أعطية ألف ألف دينار
 وخمسين ألف دينار • وفرض في تلك السنة لخمس مائة من وجوه موالي
المدينة ففرض لبعضهم في الشرف منهم يحيى بن مسكين وابن عثمان
ومخراق مولى بني تميم وكان يقرء القرآن بالمدينة ...»^(٢) •

وأعطى الرشيد في آخر حجة حجها سنة ١٨٨ لأهل المدينة نصف
العطاء فكان ذلك كان إيذاناً بخواتيم تلك السياسة لأن الخلفاء العباسيين
انقطعوا بعد ذلك عن الحج وإن لم ينقطعوا عن العناية بأرض الحرمين من
بعيد ... ولعلنا نشير إلى أن السياسة الدينية كانت قد استنفدت أغراضها
حوالي أواخر القرن فلم يعد ثمة مبرر للاستمرار فيها على الشكل الذي
بدأت فيه •

د - **المظاهر الأخرى** : وثمة مظاهر أخرى اتخذتها السياسة الدينية
العباسية وليس يعني ذلك أنها كانت تابعة من غرض سياسي فلقد يكون
بعضها عن تقى وتدين ولكنه كان يخدم المركز السياسي للخلفاء ومن
ذلك مثلاً :

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٣٩ (٦١٠/٣) •
(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ٢٧٥ و ٣٦٣ - ٣٦٤ (٦٥٢/٣) - ٦٥٢
و (٧٦٤) واليعقوبي ج ٢ ص ٤١٥ والعيون والحدائق ص ٢٩١ •

— خطب أبو العباس واقفاً وكان بنو أمية يخطبون قعوداً فناده الناس يا ابن عم رسول الله أحيت سنة رسول الله^(١) .

— قيل للمنصور هل بقي من لذات الدنيا شيء لم تنله قال بقيت خصلة . أن أقعد في مصطبة وحولي أصحاب الحديث الدنسة ثيابهم . المشققة أرجلهم الطويلة شعورهم . برد الآفاق ونقله الحديث»^(٢) .

— امر المهدي «بإخراج المقاصير من مساجد الجماعات وبتقصير المنابر وتصييرها على قدر منبر رسول الله^(٣)» .

— توسيع المهدي جامع البصرة فزيد في مقدمه وعين يمينه . . بسبب نمو هذه المدينة التجاري وتكاثر سكانها .

— إيهام الناس أن الحكم العباسي قدر مقدور مقرر من الله . وقد ظهر ذلك في أكثر من حلم ومن نبوة ملحمية أشاعها العباسيون من ذلك أن المنصور ما إن سمع راهباً يقول إنه قرأ أن إنساناً اسمه مقلصاً يمني مدينة في موقع بغداد حتى بادر فقال : انا والله مقلص^(٤) . بهذا كنت اسمي وأنا صغير ، وذكر لأصحابه مرة أخرى حلماً نسوه كان حدثهم به أيام الأمويين بأن له الخلافة . وذكر المهدي حلماً رآه بأنه سيمحو اسم الوليد عن مسجد الرسول رجل من بني هاشم يسمى محمد بن عبد الله ابن محمد . . . الخ وأن الرشيد رأى الرسول في المنام يقول له : ان هذا الأمر صائر إليك . . . فاغز وحج ووسع على أهل الحرمين^(٥) .

(١) اليعقوبي — مشاكلة الناس لزمانهم ص ٢٢ .

(٢) السيوطي — تاريخ الخلفاء ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

(٣) العيون والحدائق ص ٢٧٣ . الطبري ج ٨ ص ١٣٦ (٤٨٦/٣) .

(٤) الطبري ج ٨ ص ٤٤ (٣٧٢/٣) .

(٥) السيوطي — تاريخ الخلفاء ص ٢٩٢ .

— منع شتم العمرين (أبي بكر وعمر) والعقوبة على ذلك بالجلد •
والتشهير • وقد تراجع المأمون عن ذلك لهواه العلوي فلما أمضى قاضية
في بغداد بشر بن الوليد الكندي هذه العقوبة على رجل قرف
بذلك ناقشه المأمون وأبان له أنه أخطأ من خمسة
عشر وجهاً ••• وعددها له^(١) ثم حبسه في داره حتى مات •

— تبادل الرسائل مع الثوار من المسلمين قبل مقاتلتهم لتحل شرعاً
دماؤهم • وهذا ما كان يسمح في الوقت للعباسيين بنشر وجهة نظرهم
بشكل دعائي على الناس ونجد نماذج كثيرة من هذه الرسائل لدى
الطبري وخليفة بن خياط • وهي رسائل تبادلها الخلفاء تارة مع العلويين
(كما في ثورة النفس الزكية) أو مع الخوارج (كما في ثورة الإشكري
والسجستاني) •

— أمر الرشيد بكتابة الصلاة على النبي في أعلى كتبه فكان أول
من صنع ذلك كما أمر المأمون بتتويجها في الأعلى بسم الله الرحمن
الرحيم «فكان أول من أثبتها على عنوانات كتب الخلفاء ••»^(٢) •

— كان الرشيد يتصدق من حرمله كل يوم بالف درهم بعد زكاته
كما كان يصلي مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا •••^(٣) وقد أقام شعائر
الحج في بعض السنين ماشياً من مكة إلى منى إلى عرفات ••• كما حج
في آخر حجاته ماشياً من الرقة إلى مكة •••

— كان الرشيد أول من كتب على الاعلام السود بالبياض : لا إله
إلا الله محمد رسول الله^(٤) •

(١) انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٤٦٨ •

(٢) المصدر نفسه وانظر اليعقوبي - مشاكلة الناس لزمانهم
ص ٢٦ و ص ٣١ •

(٣) الطبري ج ٨ ص ٣٤٧ (٣/٧٤٠ - ٧٤١) و ص ٢٦١ (٣/٦٣٨) •

(٤) اليعقوبي مشاكلة الناس ص ٢٥ •

— «بنى الرشيد الثغور مثل طرسوس وبنى دوراً للمرابطين فتشبه أهله وعماله وأصحابه وكتابه به فلم يبق أحد إلا بنى بمكة داراً وبالمدينة داراً وبطرسوس داراً تشبهاً به وعمالاً بمثل عمله وكان أكثرهم لذلك فعلاً زوجته أم جعفر (زبيدة) بنت جعفر بن المنصور . . . » التي « . . . بنت في الثغور دور السبيل وعملت البيمارستانات وحبست ضياعاً على الثغور وعلى الفقراء والمساكين ما غلته لمائة ألف دينار . . . »^(١) .

— كان للوائح خوان من ذهب من أربع قطع يحمل كل قطعة عشرون رجلاً وكل ما على الخوان من صحف وغضارة من ذهب فسأله ابن أبي دؤاد ألا يأكل عليه للنهي عنه فأمر أن يكسر ذلك ويضرب ويحمل إلى بيت المال^(٢) .

— جاؤوا إلى المتوكل بحربة كانت للنبي تسمى العنزة كان يمشي بها بين يديه في العيدين فأمر المتوكل بأن يحملها صاحب الشرطة بين يديه ومن ورائها حربة الخليفة^(٣) .

— أعاد المأمون إلى أحفاد فاطمة ابنة النبي منطقة فذك . . . ويمكن أن نعدد إلى هذا وذاك الكثير من التصرفات الدينية التي كانت تدخل دوماً في الرصيد السياسي للعباسيين من مثل تفقد أحوال الرعية ليلاً والبكاء للنصائح من الوعاظ . . . وغير ذلك .

الثالث : تأكيد الواجبات الدينية للمنصب الخلافي والقيام بها :

لما كانت الخلافة مؤسسة دينية ، وكان الله هو الذي يختار صاحبها فقد كان هذا الاختيار يوجب عليه بصورة طبيعية واجبات دينية محددة .

(١) اليعقوبي مشاكلة الناس ص ٢٦ .

(٢) السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٣٤٣ .

(٣) الطبري ج ٩ ص ٢١٠ - ٢١١ (١٤٣٧/٣) .

وإننا لنلاحظ بسهولة أن الكثير من أعمال المهدي خاصة وأعمال الرشيد والمأمون والمعتصم إنما كانت مستوحاة من الموقف الديني السياسي للمنصب الخلافي . ويكفي أن نشير في هذا المجال إلى ثلاثة أمور :

أ - نشر الدين الاسلامي : وبخاصة في مصر وايران وبين الترك وفي السند . وإنما دخلت هذه المناطق في الاسلام في العصر العباسي الأول وفي العصر الثاني . وقد تم هذا الانقلاب الديني بالتدريج ولكن بتصميم وبإصرار هادى أيضاً . وقد ذكر المؤرخ ساويرس ابن المقفع أن الخليفة العباسي الأول أصدر قراراً «بأن كل من يصير على دينه ويصلي كصلاته يكون بغير جزية فمن عظم الخراج والكلف عليهم انكر كثير من الاغنياء والفقراء دين المسيح ...»^(١) وقد تم ذلك في مصر وايران على السواء، وتسجل الكتب التاريخية باستمرار اسلام شخصيات سريانية أو ايرانية أو تركية من الخاصة أو من الأسر الكبرى كما تسجل انتقال جسوع من الديلم مثلاً أو من أهل طبرستان أو بعض أشرف بلخ الى الدين الاسلامي أو ورود جماعة للاسلام على يد الرشيد أو مجيء ملك أشروسنة أو ملك التبت للاسلام على يد المأمون ...

ولعل من الهام أن نذكر هنا أن كتلة السكان في الدولة الأموية كانت - فيما عدا العرب - مكونة في معظمها من أهل الذمة . وقد بدأ العصر العباسي وهؤلاء يشكلون الأكثرية الديمغرافية للسكان وانتهى وقد خسروا أكثريتهم وبدأوا يصبحون بالعكس هم الأقلية . ولعل فترة التوازن العددي الديني إنما مرت بلحظاتها الانقلابية الحرجة فيما بين عهدي الرشيد والمتوكل . فإن دخول الذميين في الاسلام بشكل متزايد في تلك الفترات قلب ميزان القوى وجعل الأكثرية العددية تنتهي

(١) ساويرس سير الاء البطاركة ص ١٨٩ - ١٩٠ .

لمصلحة المسلمين ولا سيما في مصر والشام والمغرب بينما تأخر ذلك قرناً
أو أكثر في إيران والجزيرة •

ب - الحج : وقد جعل له الخلفاء العباسيون مواعيد سنوية منظمة
تخرج من بغداد وصار يرأسه الخلفاء أحياناً كثيرة حتى لقد حضر الخلفاء
الأوائل في السنوات الستين الأولى من العهد العباسي قرابة ثلث مواسم
الحج (حج المنصور ست مرات • والمهدي مرتين والرشيد تسع مرات)
فإن لم يقيم الخليفة بالحج عهد به إلى ولي عهده أو إلى أحد أمراء البيت
العباسي • وإنما لنجد في الجوليات التاريخية قوائم كاملة (ظل المؤرخون
يتابعون تسجيلها قروناً بعد ذلك) بأمراء الحج هؤلاء كل سنة ولا تكاد
نجد منهم من خارج البيت العباسي إلا النادر • وكان الرشيد إذا حج
أخذ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج أحج ثلاث مائة رجل
بالنفقة السايغة والكسوة الباهرة^(١) • وكان اضطراب هذه الشعيرة
الدينية لسبب أو لآخر ، يزعج بغداد ويورث الخلفاء والناس بعض القلق •
فكانها أضحت من لوازم عمل الإمام الأساسية ولئن كان الرشيد آخر
من حج من الخلفاء فإن استقرار الأمر للمأمون بعد اضطراب دام أكثر
من عشر سنوات جعله يستغني فيما يظهر واستغنى الخلفاء من بعده عن
الاستعانة بهذه الشعيرة الدينية في دعم العرش •

ج - الجهاد : وقد نظم العباسيون الأوائل بدورهم التنظيم
الدوري ، ولا سيما ضد الروم ، وبأشروه أحياناً كثيرة بأنفسهم حتى
صار الجهاد من تقاليد العمل الخلافي : دفاعاً عن الجماعة الإسلامية مثله
كمثل إقامة القضاء ونشر الدين والحج •••

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٤٧ نفسها •

• العناية بأمر المظالم والقضاء : وقد افتتح المهدي هذا التقليد بأن يجلس الخليفة بنفسه في مجلس خاص لسماع المظالم بحضور القضاة وقال : ادخلوا على القضاة فلو لم يكن ردي للمظالم إلا حياء منهم لكفى ! وبدهي أن هذا الجلوس كان رمزياً لا يستطيع أن يقوم به الخليفة في كل الأقاليم ولا في كافة الأوقات ولكن المهدي أحيا به سنة الرسول حين كان يجلس للنظر في أمور الجماعة الإسلامية بنفسه وقد ذكر عن الهادي وعن الرشيد جلوسهم بدورهم للمظالم على الطريقة نفسها كما ذكرت قصص عن عدالة الحكم فيها عدالة تناولت أحياناً الخلفاء أنفسهم • كالذي كان من إعادة المهدي قرية اغتصبها وكيله الى صاحبها وإعادة قرى كانت لآل الزبير لم يقض لهم حتى عمر بن عبد العزيز بها •

ويذكر ابن أبي طاهر أن المأمون كان يقعد للمظالم في كل جمعة مرتين لا يمتنع منه أحد •

وأخيراً • لعلنا نقف وقفة قصيرة عند سؤال يرد في هذا المجال هو : الى اي مدى كانت سياسة العباسيين الاوائل هؤلاء ذات المظهر الديني مطابقة لواقعهم العملي ؟ • او بشكل آخر من القول : الى أي مدى نجحوا في اقناع الناس أنهم صادقون فيها ؟

إن هذا السؤال وإن كان مجال بحثه إنما هو في السياسة الادارية باعتبار ماينجم عنه من استياء أو رضى في مسيرة الجماعة الإسلامية الا ان هذا لا يمنع من أن نعرض هنا لجانبه السياسي – الديني فقط : فالواقع أن الخلفاء العباسيين وإن اخذوا حظهم الكامل من الدنيا فإنهم استطاعوا ان يتركوا في التاريخ ما يحفظ عليهم إطار التقى والدين • معظم

الكتاب الذي سجلوا التاريخ العباسي كانوا من صنائع أولئك الخلفاء أو من المؤمنين بحقهم في الخلافة وقدسية مكاتبتهم ولذلك فإننا بالرغم مما حفظت عنهم الكتب الكثيرة من أمثال الأغاني والديارات ، ونشوار المحاضرة من قصص الخمرة والجواري واللهو الفاسق ، وما كشفت عنه الثورات من المظالم والبؤس وقسوة الخراج ، وما تطفح به الاخبار تارة بعد أخرى من انباء القتل والصلب والرؤوس المقطوعة وآلاف الجثث نجد أن العمل الدعائي العباسي قد استطاع لحد كبير أن يغطي على كل أولئك بالاعمال الأخرى ذات الطابع الديني •

على ان العملية الدعائية وإن لم تهتم بها كثيرا الجماهير الكادحة التي كان مقياس الحكم الاسلامي لديها هو « العدل » والقسط في الخراج • ولا اهتمت بها جماهير أهل الذمة التي كانت تعتبر الحكم الاسلامي حكماً مفروضاً عليها بواقع القوة القائمة إلا ان الجماعات السياسية الاسلامية هي التي كانت تهتم بمناقشة السياسة الدينية للعباسيين وهي التي كانت تكشف الجانب السلبي القائم فيها • وهذه الجماعات هي ثلاث :

١ - العلويون : وطبيعي أن يكون موقفهم العداء لأن كثافة السياسة العباسية كانت موجهة ضدهم وضد حقهم في الحكم • ولهذا فإنهم لم يرفضوا تلك السياسة فقط ولكنهم ثاروا عليها باستمرار وثار عليها منهم خاصة الفرع الحسيني ووصفوا الخلفاء العباسيين أوصافاً يلخصها قول محمد النفس الزكية : « هذا الطاغية عدو الله أبي جعفر ... » بنى القبة الخضراء معانداً لله في ملكه وتصغيراً للكعبة الحرام وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والانصار المواسين •

اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرموا حلالك وآمنوا من أخفت وأخافوا
من آمنت ...» (١)

٢ - الخوارج وقد حاربوا بدورهم وفي كل مكان السياسة العباسية
الدينية وثاروا عليها أعنف الثورات . وقد تمثل رأيهم خاصة - عدا
ثورات افريقيا - في ثورتين قامتتا معاً سنة ١٦٠ ضد المهدي إحداهما
في خراسان (ثورة يوسف البرم) التي دعت للأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر ، وأنكرت على المهدي « الحال التي هو بها والسيرة التي يسير
عليها » (٢) والثانية في الجزيرة (ثورة الإشكري) الذي حفظ لنا خليفة
ابن خياط المؤرخ نص كتابه للمهدي قائلاً فيه : « ... تركت الأمة تائهة
مائهة . لا حدودها أقمت ولا حقوقها أدت . وشغلت يامائك وتنوقت
في بنائك مع إدمانك الصيد إذ تغدو ومعك البزاة والفهود والجنائب
والكتائب فإذا انشيت من صيدك ودخلت بهوك ... فتغذيت وغنيت
فيمين الله ما أفحش هذا ممن يدعى خلافة الله . قد كانت أعاجم تنقم مما
دون هذا ... وانت إذا خطبت كذبت وإذا عاهدت نكثت ... وقد
زادني غيظاً أنك تسميت المهدي وأبعد من سماك ... ففي أي كتاب
إذ تعدو وظيفة أو تنقص مساحة أو تصطفى بستاناً أو تبذخ في مركب أو
ترمي في نزهة أو تفاوض عن جند أو تحبس عطاء أو تنسى من غزا أو
تعاقب بالسوط سافكاً الدم ؟ » (٣) .

٣ - جماعة الفقهاء ورجال الدين : هؤلاء كانوا عن تقى ديني أو عن
ميل علوي ينددون أحياناً كثيرة بالخلفاء العباسيين وإذا كان رجل مثل

(١) انظر الطبري ج ٩ ص ١٣٥ - ١٣٩ (٣/١٣٤٣ - ١٣٥٠) .

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٩٧ والطبري ج ٨ ص ١٢٤ (٣/٤٧٠) .

(٣) الطبري ج ٧ ص ٥٥٨ (٣/١٩٧) .

شفيان الثوري قد وصل درجة الدخول الى المهدي وعدم السلام عليه بالخلافة في نوع من عدم الاعتراف بخلافته فإن كثيرين غيره كانوا يقسون على الخلفاء ويأخذون عليهم تصرفاتهم المخالفة للدين ويقولون لهم مقالة عمرو بن عبيد للمنصور : « إنه ما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله وسنة نبيه ... إن وراء بابك نيراناً تأجج من الجور... وبيابك ألف مظلمة أردد منها شيئاً نعلم أنك صادق ... » وكان بعض الفقهاء يدفعون الخلفاء بمواعظهم الى البكاء . وقد ذكرت القصص بذلك اكثر من مرة عن الرشيد والمهدي والمأمون وغيرهم . وكان البكاء في الواقع اعترافاً بالتباين الواقع ما بين السياسة المعلنة (أي السواجب الديني) والواقع العملي .

على ان الجماعة السنية في بغداد سجلت مرتين على الاقل في حركتين ثوريتين رأيتها في سياسة العباسيين ومباينتها للدين . وكان طبعياً أن تشتبك الحركتان في المرتين مع التناقضات الطبقية بين الجماعات الميسورة أي الطبقات العليا من المجتمع المتحالفة عادة مع الحكام رغبة أو رهبة وبين الفقراء والطبقات المحرومة التي كانت تأخذ حركاتها شكل التمرد الطبقي أحياناً لا بسبب الطبقات الدنيا التي تنتمي جموعها اليها (طبقات باعة الباقلاء والفعلة وأهل الحمامات وحمالي الأسواق وابناء الأرباض... ممن كانوا يسمون بالطرارين يومذاك وبالشطار وبالعيارين والرعا والأيوباش والعراة^(١) ولكن بسبب الدوافع المادية والاقتصادية التي كانت تدفع هؤلاء للثورة ثم كان يأتي التدين ليعطي الحركات لباسها الشرعي من المبادئ السامية والدوافع العليا .

كانت الحركة الأولى سنة ٢٠١ في أعقاب مقتل الأمين وسقوط

(١) انظر الطبري ج ٨ ص ٤٤٨ (٣/٨٧٢) وقد كان هؤلاء قوام الدفاع عن بغداد في فتنة الأمين وحصار المأمون لها .

بغداد بيد جيش المأمون فقد نجم عن تلك الفوضى أن شعرت الجماعات الفقيرة بقوتها كما شعر المسؤولون أنفسهم بهذه القوة فاصطفوها ... وهكذا اجتذب هذه القوى اليه منصور بن المهدي الحاكم باسم المأمون . وانتشر من سموهم بالفساق والشطار في بغداد والكرخ « وكان السلطان يعتز بهم وكانوا بطاته فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يركبونه » واذوا الناس أذى شديدا : « وكانوا يجيئون المارة في الطرق وفي السفن وعلى الظهر ويخفرون البساتين ويقطعون الطرق علانية ولا أحد يعدو عليهم .. وكان الناس منهم في بلاء عظيم ثم كان آخر أمرهم أنهم خرجوا الى قطربل فانتهبوها علانية وأخذوا المتاع والذهب والفضة والغنم والبقر والحمر ... وأدخلوها بغداد وجعلوا يبيعونها علانية وجاء أهلها فاستعدوا السلطان عليهم فلم يمكن أعداءهم عليهم ولم يرد عليهم شيئا ... »

وعند ذلك « تجرد جماعة من المطوعة للنكير على الفساق ... » وتزعم ذلك اثنان : خالد الدريويش الذي قاتلهم فضر بهم وجسهم ثم رفعهم الى السلطان ، وأبو حاتم سهل بن سلامة الانصاري من أهل خراسان الذي أعلن شعار الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وأعلن أنه سيقا تل من خالف الكتاب والسنة كائناً من كان سلطاناً أو غير سلطان .. واضطر منصور بن المهدي ، الحاكم العباسي وعيسى بن محمد بن أبي خالد قائد الجيش الى القبول بهذا الرجل ومبايعته على ما يريد بالرغم من أن « عظم أصحابها الشطار » مما كسرهما وحطم قواهما ... ولكن حركة الأمرين بالمعروف استمرت قائمة حتى وصل المأمون بغداد سنة ٢٠٤ .

وإذا كانت هذه الحركة مشتبكة العناصر بسبب ما رافقها من جو سياسي مملوء بالفوضى إلا إنها كانت واضحة التمرد على أهمال السلطان للواجب الديني في الدفاع عن الجماعة الاسلامية .

أما الحركة الثانية سنة ٢٣١ فكانت أكثر وضوحاً وعنفاً وهي تلك التي قام بها أحمد بن نصر الخزاعي حفيد مالك بن الهيثم أحد نقباء الدعوة العباسية • وكان الرجل اعتماداً منه على تدينه العميق وعلى مكانة أبيه وجده في الدولة «يظهر المباينة لمن يقول بخلق القرآن» العقيدة الرسمية للدولة • «وكان ييسط لسانه فيمن يقول ذلك مع غلظة الواثق على من لا يقول بالخلق • وقد سمعه الناس ينعت الواثق بالخنزير أو الكافر ، وفشا ذلك من أمره فكان أهل الحديث والفقه يطيّفون به ويحرضونه ••• فإذا عرفنا إلى هذا أن ابن نصر كان أحد البارزين في الحركة الأولى ببغداد ، حركة الأمر بالمعروف سنة ٢٠١ - سنة ٢٠٤ وعرفنا أنه كان ثمة تيار خلفي من أهل الدين وحماته كانوا يقفون للخلفاء العباسيين بالمرصاد وينددون بأعمالهم المخالفة للدين وإن لم يسجل المؤرخون ذلك التيار بوضوح • وقد أخذت حركة ابن نصر شكل التآمر ضد الدولة وانتهت بصاحبها إلى الصلب^(١) كما سوف نرى وبأصحابه وفيهم الكثير جداً من العامة إلى السجون والتشتيت •

٣ - تمثيل الجماعة الإسلامية في الحكم :

فكرة «الجماعة» الإسلامية وضرورة اتباعها واعتبار ذلك من «السنة» التي وصفها الصحابة واتباعها المسلمون الأولون ليست بدورها فكرة عباسية • الأمويون هم أصحاب هذه الفلسفة السياسية • كتب مرة هشام بن عبد الملك سنة ١٢١ إلى يوسف بن عمر الثقفي عامله على الكوفة في أمر زيد بن علي بن الحسين يقول : «••• والجماعة حبل الله

(١) خليفة بن خياط - التاريخ ج ٢

المتين ودين الله القويم وعروته الوثقي . واعلم أنك قائم على باب إلفة ، وداع إلى طاعة ، وحاض على جماعة ، ومشمر لدين الله فلا تستوحش لكثرتهم واجعل معقلك الذي تأوي إليه الغضب لدينك والمحاماة عن الجماعة ومناصبه من أراد كسر هذا الباب الذي أمرهم الله بالدخول فيه !» (١)

وكلمة «السنة والجماعة» لم تكن ، في تلك الفترة من أوائل القرن الثاني ، واضحة المفهوم الحزبي أو الفكري ولكنها كانت تضم مجموعة من الاتجاهات السياسية والدينية منها أولا أنصار البيت الأموي من العرب والموالي ومنها العثمانية أهل الكف ، ومنها المرجئة أهل الاعتزال الأول ومنها بين هذا وذاك أهل الحديث ، وجمهور الفقهاء في الدين وأهل الورع ومن وراء هؤلاء وأولئك جماهير الناس الذين كانوا يوالون الحكام رهبة أو رغبة أو محبة أو فراراً من المذاهب والانحياز . . والصفة التي تجمع هؤلاء جميعاً بعضهم السى بعض هي الوقوف بجانب الخلفاء الأمويين سياسياً في الأزمات أو المهادنة لهم والاحتفاظ بالرأي الديني في حيز الفكر وعدم نقله الى العمل الثوري . ومن تاريخ هذه الجماعة الواسعة صيغ في الواقع التاريخ الاسلامي العام لأنهم ألفوا القاعدة العريضة للحكم الأموي في الشام أو الاندلس وللحكم العباسي من بعده سواء في بغداد أو في القاهرة .

ولعل الدافع الأعظم وراء تجمع «أهل السنة والجماعة» هو الحفاظ على وحدة الأمة الاسلامية ومبدأ الوحدة إنما كان ينطلق لديهم

(١) الطبري ج ٧ ص ١٧٠ (٢/ ١٦٨٣ - ١٦٨٤) .

من ارتباط هذه الأمة بكتاب واحد هو كتاب الله وبسنة واحدة هي سنة نبيه التي صرف أهل الحديث ، في تلك الفترة (أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني) همهم لتوطيدها بجمع أحاديث الرسول وترتيبها واستنباط الأحكام المشتركة منها ومن الارتباط أخيراً بتشريع اسلامي موحد نظمه الفقهاء وسرعان ما اعتبر أهل الفقه والحديث والسنة أن مبدأ الاجماع ركن اساسي من أركانه وهذا المبدأ في الفقه هو الذي يقابل فكرة الجماعة في السياسة •

وإذا دخل العباسيون ميدان الحكم والسياسة معلنين العمل «بكتاب الله وسنة نبيه» فقد كانوا يحتاجون في الواقع ، وبسرعة الى تحويل ولاء «الجماعة» أي القاعدة الواسعة من الناس التي كانت تساند الامويين الى مساندة بيتهم الجديد • مشكلة تحويل «الولاء» كانت أولى مشاكلهم المباشرة • صحيح أنه كانت لهم قاعدتهم الشعبية في خراسان لكن هذا الاقليم ليس كل العالم الاسلامي ثم إن العلويين كانوا يشاركونهم تلك القاعدة هناك • فلما انفصلت الشيعة العباسية عن العلوية أيام المنصور خاصة وكان العباسيون قبل ذلك قد غادروا خراسان إلى العراق والى غير رجعة ، فانفصلوا بذلك أيضاً عن قواعدهم الأولى ثم زاد انفصالهم بمقتل أبي مسلم الخراساني ، كان واضحاً أنهم لا يستطيعون إقامة « خلافة » واسعة على قاعدة شعبية ضيقة جداً من أهل كوفة العراق وإن كانوا يملكون القوة العسكرية الضاربة ولما كانت قوى التحالف أمامهم معروفة محدودة • ولما لم يكن باستطاعتهم تبني الفكر العلوي أو الاعتماد على أنصاره لانهم في ذلك الخاسرون ولا تبني الفكر الخارجي أو مDAHنة رجاله لأنه يرفضهم ويشور عليهم ولا قبول المذاهب المارقة أو المتطرفة في ايران والسيطرة بها فكراً ورجالا على باقي العالم

الاسلامي لأن ذلك يلغي شرعية البيت العباسي من أساسها لهذا كله وجد العباسيون أنفسهم بصورة طبيعية أمام حل وحيد لا اختيار فيه هو التحالف مع أهل السنة والجماعة ! وبخاصة مع الجماعات القيادية في هؤلاء أي رجال الحديث والفقهاء وجماعة العثمانية والإرجاء وأهل الورع البارزين ... كان هؤلاء هم السند المتاح والقوى والوحيد .

وإذا كان العباسيون في طور الدعوة السرية قد تحالفوا مع مختلف الاتجاهات المناوئة للأمويين حتى مع الجماعات الملحدة (الخدائية والرواندية) فإنهم بعد نجاح الثورة لم يخوضوا أي تجربة تحالف مع أي جماعة أخرى وركبوا على الفور تيار «السنة والجماعة» ليصبح هذا التيار بسرعة هو المذهب الرسمي للدولة العباسية . وقد كان الأمويون في أواخر سنواتهم قد تبناوا في الواقع ، سياسة اسلامية شاملة ، وبدأوا ربط جماعات أهل الحديث والفقه بهم كما بدأوا سياسة العقوبة على الالحاد . فلما غابوا وجد أهل السنة والجماعة بدورهم ، أنهم لم يصبحوا أيتاما لأن اليد العباسية ممتدة إليهم فلم يتأخروا كثيراً في التحالف التلقائي معها .

ولقد نلاحظ أن المنصور ، واضع الأساس الأول للسياسة العباسية بمختلف نواحيها ظل فترة قصيرة مرناً مع الجماعة الخراسانية حتى لقد تقبل «الراوندية» التي تعبدته ولم يرفضها إلا حين وجد نفسه مهدداً منها بالقتل ولقد نجد أيضاً أنه ظل على علاقات طيبة مع رواد حركة الاعتزال الأوائل : عمرو بن عبيد ، رفيق دراسته القديم ، وواصل بن عطاء أبي المذهب . وهذه الحركة كانت في ذلك الوقت قد أخذت تنفصل بوضوح عن الجماعة والسنة لتشكل تياراً فكرياً خاصاً ضمن الفكر الاسلامي ولكننا قد نستطيع أن نعتبر هزيمة محمد ذي النفس الزكية وأخيه

ابراهيم هي الحد الفاصل لتردد المنصور • فإنه بعدها اتخذ اللقبين له
ولابنه ومضى نهائياً على ما يبدو مع سياسته « السنة والجماعة » •

وهذه السياسة كانت تعبر عن نفسها بعدد من الوجوه والأشكال
أهمها :

التحالف مع الفقهاء وأهل الحديث والدين وتقريبهم والتقرب
إليهم •

يقول المستشرق جب «إن الخلفاء العباسيين -على خلاف الأمويين
- أدركوا بوضوح أهمية الدور الذي كان الفقهاء قد لعبوه في مصائر
الدولة فجعلوا التعاون بين دولتهم الجديدة وبين الفقهاء ركناً رئيساً في
سياستهم ...»

ويقول أيضاً «إن العباسيين» أخذوا ... يرعون الفقهاء رعاية
يكفلون بها حماية رسمية لمذهب سني • ولم يقتصرُوا على ذلك كله بل
أخذوا يضعون المؤسسة الدينية تحت إشراف الدولة على أسس تذكرنا
بتنظيم الزرادشتية في ظل الساسانيين» (١) •

والواقع أن المنصور استغل صلته السابقة بأهل الحديث والفقهاء
والخبر ليجمعهم من حول العرش العباسي • ولم يكن هؤلاء ، في
الواقع ، بعيدين في مواقعهم الفكرية عن هذا العرش سوى أنهم في
معظمهم كانوا يعانون مما يمكن أن يسمى أزمة ضمير ، كلما قامت ثورة
علوية و انتهت بالمصير المحزن المعتاد • لأنهم كانوا لا يقدرُونَ التقدير

(١) جب - دراسات في حضارة الاسلام (الترجمة العربية) ص ١٣

العباسي نفسه ، الأسباب المتصلة بالحكم وبأمن الدولة والتي تدعو لمثل هذه الفجائع . وهذا ما يفسر ، في الواقع ، أن الكثيرين من الفقهاء خاصة كانوا يوصفون بالتشيع المعتدل ولكنهم في الوقت نفسه يتعاونون مع الحكم العباسي .

ويمكن أن نلاحظ في سيرة المنصور والمهدي والرشيد والمأمون خاصة كثرة اتصالهم برجال الدين والعلم وكثرة الأخبار التي تروي ما قاله الخلفاء لهؤلاء وما قال هؤلاء للخلفاء وما كظم الأولون من الغيظ أو منحوا من الجوائز أو نثروا من الدمع وما بذل الآخرون من النصيح أو الوعظ أو أعلنوا من الرفض والقطيعة ... إن حساب ذلك ، يدخل كله في الحصيلة السياسية للعباسيين ، تقديراً من الناس وإجلالاً !

وكان الفقهاء بدورهم يمكن أن يقسموا ، بحسب مواقفهم السياسية الى ثلاث مجموعات :

— مجموعة معارضة تتراوح بين المعارضة العنيفة التي يمثلها فقهاء التيارات العلوية خاصة أو الخارجية (أمثال جابر الجعفي و زرارة بن أعين وعباد بن العوام الذي قاتل بجانب ابراهيم بن عبد الله المحض في البصرة) . وبين المعارضة الخفيفة التي توصف أحياناً بالميل العلوية المعتدلة كسفيان الثوري والأعمش وأبي حنيفة ومحمد بن هرمز ومحمد ابن غيلان ومطر الوراق وبشير الرحال الذين أيدوا ثورة محمد ذي النفس الزكية ومالك بن أنس الذي أيد ذا النفس الزكية ويحيى ولدي عبدالله وأمثال الحسن بن صالح الفقيه و ابراهيم الخض ومسلمة بن كحيل وغيرهم ... ومن المعارضين كذلك فقهاء ظلوا على الميول الأموية كأبي عمر الزاهد الذي جمع الأحاديث في فضائل معاوية . والوليد بن مسلم الأموي وعوانة بن الحكم الكلبي . وسعيد بن يحيى الأموي ...

— مجموعة محايدة هي على عدم التدخل وعلى الانصراف للشأن الديني المحض لا تهمل شؤون السياسة في كثير أو قليل من أمثال : ابن أبي ذئب فقيه الحجاز والليث بن سعيد فقيه مصر والأوزاعي فقيه الشام وعبد الرحمن بن زياد وعسرو بن عبيد المعتزلي ... ولا تأبه هذه المجموعة أن تصفع برأيها الحكام وكثيراً ما كانت تخرجهم أو تبكيهم وبعضهم كان يدعي مع الإلحاح لولاية الإمارة (كالليث في مصر) أو القضاء (كأبي حنيفة وعسرو بن عبيد) والأوزاعي فيرفض ويصر على الرفض .

— ومجموعة ثالثة موالية كان أصحابها يتحولون بسرعة إلى موظفين رسميين ويلبسون القضاء خاصة ويأتي في رأس هذه الجماعة أبو يوسف قاضي الرشيد والثيباني، وأبو البخري ثم يحيى بن أكثم قاضي المأمون وكثيراً ما كان أفراد هذه المجموعة يوالون السلطة فيؤخذ عليهم صجة السلطان أو يقدمون لها الفتاوى التي تريد (كما فعل أبو البخري القاضي في نقض أمان الرشيد ليحيى بن عبد الله العلوي) إلا إن قصصاً عديدة تروي بالمقابل عن عناد رجال القضاء واصرارهم على رفض تعليقات الخلفاء وقبول هؤلاء لهذا العناد والإجازة عليه ! ...

وقد تعامل العباسيون واتصلوا برجال هذه المجموعات كافة على اختلاف مواقعهم منهم ما عدا المتطرفين في العلوية والخارجية ونستطيع أن نرى صورة من السياسة الدينية العباسية في بعض القصص المروية :

— يروي السيوطي قصة عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي، وكان يطلب العلم مع أبي جعفر قبل الخلافة قال : «... فلما وليها وفدت

عليه . فقال : كيف سلطاني من سلطان بني أمية ؟ قلت : ما رأيت في سلطانهم من الجور شيئاً إلا رأيته في سلطانك . فقال إنا لا نجد الأعوان . قلت : قال عمر بن عبد العزيز : إن السلطان بمنزلة السوق يجلب إليها ما ينفق فيها فإن كان براً أتوه ببرهم وإن كان فاجراً أتوه بفجورهم فأطرق ...»^(١) .

— ويروي قصة أخرى عن بعض الجمالين الذين أقاموا الدعوى على المنصور وهو بمكة عند قاضيها محمد بن عمران الطلحي فأمر كاتبه أن يكتب للخليفة يستدعيه فاستغفى . فأبى القاضي إلا أن يكتب الكتاب وإلا أن يحمله بنفسه . وقام المنصور يوم ذاك بحركة دعائية لها مغزاها الديني السياسي : إذ أعلن عن طريق حاجبه «إني دعيت الى مجلس الحكم فلا يقومون معي أحد» . ثم جاء فلم يقيم له القاضي الذي دعا بالخصوم واستمع وقضى على الخليفة فلما فرغ قال المنصور جزاك الله عن دينك أحسن الجزاء قد أمرت لك بعشرة آلاف دينار ! !

— ويروي ثالثة أن المنصور أمر قاضيه في البصرة سوار بن عبد الله أن يحكم ضد البينة التي ثبتت للقاضي فرفض فأرسل يقسم عليه أن يفعل فأصر على الرفض فلما جاءه الكتاب قال : ملأها والله عدلاً وصار قضاتي تردني إلى الحق ! ..

(١) انظر السيوطي — تاريخ الخلفاء (المطبعة السلفية) ص ٢٦٨ وص ٢٦٦ ويروي ابن قتيبة (عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٣٧) قصة مماثلة قال فيها عمرو بن عبيد للمنصور : ما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه فقال أبو جعفر ما اصنع ؟ قد قلت لك خاتمي في يدك فتعال وأصحابك فاكفني فقال عمرو : ادعني بعدلك ، تسخ أنفسنا بعونك ببابك ألف مظلمة اردد منها شيئاً نعلم أنك صادق ...» .

— وقد عفا المنصور عن أهل البصرة لأن شفيعهم في العفو كان
المبارك بن فضالة ... ويروون قصصاً مشابهة عن المهدي :

— يروي ابن كثير أن رجلاً «دخل عليه يوماً ومعه نعل فقال :
هذه نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أهديتها إليك . فقال هاتها .
فناولها إياها فقبلها ووضعها على عينيه وأمر له بعشرة آلاف درهم فلما
انصرف الرجل قال المهدي : والله اني لأعلم أن رسول الله لم ير هذه
النعل فضلاً عن أن يلبسها ولكني لو رددته لذهب يقول للناس : اهديت
إليه نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فردها علي . فتصدقه الناس
لأن العامة تميل الى أمثالها . ومن شأنهم نصر الضعيف على القوي وإن
كان ظالماً فاشترينا لسانه بعشرة آلاف درهم ورأينا هذا أرجح
وأصلح»^(١) .

— ويروي ابن كثير أيضاً والطبري أن المهدي كان يحب الحمام
فدخل عليه يوماً جماعة من المحدثين فيهم عتاب بن ابراهيم فحدثيه
بحديث عن الرسول يقول : (لأسبق إلا في خوف أو نعل أو حافر) وزاد
في ختام الحديث (أو جناح) فأمر له بعشرة آلاف درهم ولما خرج
قال : الله إن قفاك لقفا كذاب على رسول الله ..

(١) انظر مثلاً بعض أخبار المهدي والرشيد والمأمون عند ذكر
وفاتهم لدى الطبري والسيوطي . وانظر فصل «مقامات الزهاد عند
الخلفاء والملوك» في عيون الأخبار (ج ٢ ص ٣٣٣ - ٣٤٣) ونجد مثل ذلك
في سير الخلفاء في البداية والنهاية لابن كثير وفي كتاب حلية الأولياء وفي
العقد الفريد لابن عبد ربه . فصل مقامات العباد عند الخلفاء (ج ٣
ص ١٥٨ - ١٦٨) .

— ويروي أن المهدي جلس للمظالم فجاءته رقعة تهمه باغتصاب ضيعة وقبل الجلوس أمام القاضي والاحتكام إليه وحكم القاضي بإطلاقها إلى صاحبها وصدع الخليفة بالأمر^(١) على الطريقة التي سبق أن رويت عن المنصور ...

— ويروي مثل ذلك كثير عن الرشيد خاصة وعن المأمون في قصص تفوت الحصر منها • مثلاً ما ذكره السيوطي نقلاً عن القاضي الفاضل من أنه لا يعلم للملك رحلة قط في طلب العلم إلا للرشيد فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع (الموطأ) من الإمام مالك وأضاف كانت أصول الموطأ بسماع الرشيد بخزانة المصريين (الفاطمين)^(٢) ...

ومنها أن الرشيد «أرسل إلى مالك بن أنس في السنة التي حج فيها سنة ١٧٩ (والتي مات فيها مالك) ليأتيه لسمع منه الحديث فقال مالك: إن العلم يؤتى • فسار الرشيد إلى منزل مالك فاستند معه إلى الجدار فقال مالك يا أمير المؤمنين : من أجل الله تعالى أجل العلم فقام الرشيد وجلس بين يدي مالك وكلمه وسمع منه عدة أحاديث عن رسول الله ... » وأرسل إلى سفيان بن عيينة فأتاه وقعد بين يدي الرشيد وحدثه فقال الرشيد بعد ذلك يا مالك تواضعنا لعلمك فاتفعنا به ... »^(٣) .

وقد ذكر ابن طيفور في تاريخ بغداد أن المأمون قال لقاضيه يحيى ابن اكشم :

(١) انظر الفقه لدى الأزدي - تاريخ الموصل ص ٢٥٦ .

(٢) السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٢٩٤ .

(٣) العيون والحدائق لمؤلف مجهول ص ٢٩٨ .

«إن الرجل ليأتينا بالقطعة من العود أو بالخشبة أو بالشيء الذي لعل قيمته لا تكون درهماً أو نحوه فيقول : إن هذا كان للنبي (ص) أو قد وضع يده عليه أو شرب فيه أو مسه وما هو بعندي بثقة ولا دليل على صدق الرجل إلا اني بفرط النية والمحبة أقبل ذلك فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر ثم أضعه على وجهي وعيني وأتبرك بالنظر إليه وبمسه فأستشفي به عند المرض يصيبني أو يصيب من اهتم به فأصونه كصياستي نفسي وإنما هو عود لم يفعل هوشياً ولا فضيلة تستوجب به المحبة إلا ما ذكر من مس رسول الله (ص) له ...»

ولعل هذا النص يكشف الكثير من خط السياسة الدينية المتمد منذ زمن المهدي حتى المأمون ولعله يكفينا مؤونة الاستطراد في ذكر القصص الكثيرة مما يروي عن الرشيد أو عن المأمون وعن خشوعهما للنصيحة وتقبلهما ...»

— تروي من خشوعهما للنصيحة وتقبلهما الزهاد وأمرهما بالمعروف وإكرامهما لأهل الصلاح والتقوى وإقامتهما العدالة والمظالم ... فتلك القصص أضحت المنجم الذي غرفت منه كتب الأدب وكتب الوعظ وكتب الفقه والتاريخ والحكايات فملأت بصحيحه وبالمخترع منه ألوف الصفحات . ولقد أضحى اسم الرشيد خاصة كالمغناطيس الذي يجتذب الكثير من هذه القصص المتصلة بإرهاب الشعور الديني فهو المحور الذي يدور حوله منها الكثير . ونقرأ ذلك في سير هؤلاء الخلفاء لدى الطبري كما نقرأه في بعض كتب الوعظ لابن الجوزي . ونجده في صفحات طويلة من عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري^(١) كما نجده في

(١) ابن طيفور تاريخ بغداد (بغداد في عصر الخلافة) ص ٤٠ .

العقد الفريد لابن عبد ربه وفي البيان والتبيين للجاحظ ونشوار
المحاضرة للتونخي •

وتعقد الفصول الخاصة أحياناً في بعض هذه الكتب لذكر أخبار
الخلفاء مع رجال الدين والزهد • وسواء كانت تلك القصص صحيحة
أم مخترعة فإنها تعبر عن واقع تاريخي عرفه الناس وتكشف عن طبيعة
العلاقة التي كانت قائمة بين خلفاء بني العباس هؤلاء وبين طبقة الفقهاء
على أننا لا بد أن نلاحظ أن هذه الجساعة الحاملة للعلم والدين لم
تكن سهلة القيادة أو على الأقل لم يكن كسب العباسيين لحبها ومعاونتها
سهلاً وإذا كان بعضها على قبول الانضواء تحت الجناح العباسي فقد
كان بعضها الآخر يفخر بشسوسه وتأنيبه على الدخول في مخططاتهم لكن
كانت أجوبتهم الراضية تدخل بدورها في حساب السباحة الدينية التي
يتعمد الخلفاء أن يشتهروا بها • ونرى نموذج هذه الفئة في مثل سفيان
الثوري الذي لقيه أبو جعفر في الطواف وسفيان لا يعرفه فضرب
بيده على عاتقه وقال : أتعرفني ؟ قال : لا ولكنك قبضت علي قبضة
جبار • فلما تعارفا ومضى الحديث قال أبو جعفر : « ما ينفعك أن
تأثينا ؟ قال : إن الله نهى عنكم فقال تعالى (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا
فتنسكم النار) فمسح أبو جعفر يده به ثم التفت إلى أصحابه فقال :
ألقينا الحب إلى العلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا
فراراً...» (١) •

والحقيقة أن الكثير من الفقهاء أبوا التقاط الحب الذي نشره لهم

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد (طبعة دار الكتب) ج ٢ ص ١٦٥ •

الخلفاء العباسيون وسجلت لهم المواقف السلبية والنقد الجريء والقاسي. أحياناً ضدهم . وكان الخلفاء يتقبلون ذلك من باب الاشتهار بقبول النصيحة ولأنهم يعرفون أنها لا تنتهي الى موقف ثوري عملي : كالذي كان من احتمال المنصور اتهام ابن أبي ذؤيب له بأنه « ظالم جائر » لأنه يعين معن بن زائدة الشيباني اليمن فيقتل ويأخذ الأموال فلا يغيره^(١) والذي كان من عبد الله بن طاووس ومن عمرو بن عبيد مع المنصور أيضاً والذي كان من ابن السماك ومن أبي معاوية الضرير مع الرشيد^(٢) ومن الأوزاعي أمام عبد الله بن علي حين أعلن له رأيه في الحكم العباسي الجديد ورفض أن يفتي له باباحة دماء بني أمية^(٣)

وإذا كان مشهوراً ضيق اصحاب السلطة بالنصائح القاسية فقد تعتمد الخلفاء العباسيون أن يشتهروا بعكس ذلك . وكان بعض الوعاظ أو ذوي الجراءة يعرضون لهم في المواسم أو بعض المناسبات فيغلظون القول فيرفضون عقوبتهم . يذكر ابن قتيبة أن المنصور خطب فذكر الله فوثب رجل من أقصى المسجد فقال : أذكرك من تذكر . فقال المنصور : أنت والله ما أردت بها الله ولكن حاولت أن يقال : قام فعوقب فصبر . وأهون بقائلها لو هممت . فاهتبلها إذ عفوت وإياكم معشر الناس وأختها . فإن الموعظة علينا نزلت»^(٤) ويذكرون مواقف كثيرة مماثلة

(١) الأزدي - تاريخ الموصل ص ١٧٦ - ١٧٧

(٢) انظر ذلك في المصدر السابق ج ٣ ص ١٦٤ وابن كثير البداية

ج ١٠ ص ٢١٥ و ٢١٧

(٣) ابن كثير - البداية والنهاية ج ١٠ ص ١١٨ .

(٤) ابن قتيبة - عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٣٦ - ٧ وذكر ذلك ابن

كثير - البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٢٣ والطبري ج ٨ ص ٩٠ (٤٣٧/٣) . كما ذكر الطبري في الصفحة ذاتها قصتين أخريين مشابهتين لها مع أبي توبة ومع رجل في بغداد .

مع المهدي لسفيان الثوري إذ أتى به بأمر الخليفة فلم يسلم عليه بالخلافة والريبع قائم على رأسه بالسيف فأقبل عليه المهدي وقال : تفر منا ... وقد قدرنا عليك فما تخشى أن نحكم فيك ؟ قال سفيان إن تحكم الآن في يحكم فيك مالك قدير يفرق بين الحق والباطل فقال الريبع ... أفأضرب عنقه ؟ فقال (المهدي) اسكته ويلك وهل يريد مثل هذا إلا أن أقتله . اكتبوا عهده على قضاء الكوفة ... فهرب ^(١) سفيان ، وما زال متوارياً حتى مات سنة ١٦١ كما يذكرون موقف المهدي من نبطي . قال له : اتق الله . فلما قال المهدي نبطي وتدعو أمير المؤمنين لتقوى الله قال الرجل : ذلك أؤكد للحجة عليك أن يكون نبطي يدعوك لتقوى الله . وأطلق الرجل مع ذلك . وثمة مواقف من مثلها كثيرة متداولة للرشييد والمأمون في ^(٢) الكتب والقصص .

على أنهم كانوا دوماً يخشون تمادي الناس في هذا السبيل . فقد خطب أبو جعفر مرة يحذر الفقهاء قائلاً : «أما بعد يا معشر الفقهاء فقد بلغ أمير المؤمنين عنكم ما أخشن صدره وضاق به ذرعه وكنتم أحق الناس بالكف عن ألسنتكم وأولى بلزوم الطاعة والمناصحة في اليسر والعلائية لما استخلفه الله عليكم ...» .

ويتصل بمواقف النصيح القاسي هذه مواقف رفض التعاون . والسلبية . فكثيراً ما كان بعض الفقهاء المعروفين يرفضون ولاية

(١) الأزدي - تاريخ الموصل ص ٢٤١ .

(٢) انظر مثلاً ابن عبد ربه ج ٣ ص ١٦٥ وص ١٧٠ وانظر الطبري

ج ٨ ص ١٨٠ ، والطبري (ج ٨ ص ٣٥٤ - ٥) قصة الرشيد مع عبد الله العمري (ج ٨ ص ٣٥٧) قصته مع رجل من النساك في الرقة .

القضاء - وهي عمل ديني اداري - للعباسيين فقد رفض القضاء الإمام الأوزاعي . وقال لعبد الله بن علي : إن اسلافك لم يكونوا يشقون على في ذلك وإنني أحب أن تتم ما ابتدأوني به من الاحسان ورفضه مالك ابن أنس كما رفضه أبو حنيفة من المتصور كذلك خالفاً أنه لا يصلح للقضاء ومضيفاً إي إن كنت صادقاً فلا يصح لك توليتي القضاء وإن كنت كاذباً فكيف تولي كاذباً القضاء ؟ ورفضه سفيان الثوري من المهدي وتواري حتى مات ورفضه كذلك المنذر بن عبد الله كما رفض الليث بن سعد إمارة مصر كلها .

على أننا نلاحظ بصورة عامة أن مواقف الرفض هذه إنما كانت كثيرة ولسبب سياسي أحياناً في الفترة الأولى من العهد العباسي فلما استقر لبني العباس الأمر في عهد الرشيد وما بعده ظهر التعاون واضحاً بينهم وبين هذه الطبقة فلم يبق على الرفض إلا من كان يمنعه ورعه الديني من ولاية القضاء أو لزوم باب السلطان . أو كان على هوى سياسي علوي ... وهكذا بدأت نرى مواكب الرشيد الى الحج تحوي مجموعة ممن يسمون «بالفقهاء» بجانب الأمراء والقواد ورجال الدولة^(١) وقد شهدوا بهذه الصفة حفل تعليق بيعة الأمين والمأمون في الكعبة ! كما كانوا يشهدون مجالس الخليفة في بغداد .

وإذا كان بلاط الرشيد قد برز فيه عدد من الفقهاء المعروفين كالشيباني وأبي يوسف وكان مجلس الرشيد يتقبل بدون انقطاع

(١) انظر مثلاً خبر تعليق البيعة بولاية العهد في الكعبة لدى الطبري (ج٨) إذ يقول : « ... وحج هارون ومعه ... وقواده ووزرائه وقضائه » .

زيارات أهل العلم والدين فإن مجلس المأمون قد أضحى من تقاليده أن يضم هذه الجماعة العلمية شهوداً على أعماله اليومية أو أن يجمعها للجدل ويكون الخليفة بين المشاركين في المناقشة الدينية وكثيراً ما كان يطلبها بنفسه ويستقدم من أجلها الفقهاء والمحدثين ورجال العلم والفلسفة للجدل بين يديه^(١) وقد ذكر ابن أبي طاهر أنه اختير من الفقهاء لمجالسة المأمون مائة رجل فما زال يختارهم طبقة طبقة حتى حصل منهم عشرة^(٢) .

وإذا سجل العصر العباسي الأول من اضطهاد لبعض رجال الفقه والدين فإنما كان ذلك - فيما عدا محنة ابن حنبل والسنة في عهد المأمون - بسبب آرائهم السياسية لا موقفهم الديني . وهكذا أصاب النفي والتعذيب والسجن أمثال أبي حنيفة الذي توفي في السجن سنة ١٥٠ وسفيان الثوري الذي توارى سنوات عن الأنظار . والأعمش وغيرهم . أما مالك بن أنس فبالرغم من أنه لم يقتل للفتوى التي أفتاها لأهل المدينة عند ثورة ذي النفس الزكية من «أنهم بايعوا (المنصور) مكرهين وليس على مكره يمين» وقد حماه مقامه الفقهي الديني الكبير . فإن هذا لم يمنع والي المدينة حين عرف أنه لا يرى (ثبات) أيمان البيعة للعباسيين من تجريده وضربه بالسياط ومد يده حتى انخلع كتفه وارتكب منه أمراً عظيماً فلم يزل مالك بعد ذلك الضرب في علو وارتفاع»^(٣) .

-
- (١) انظر مثلاً اليعقوبي ج ٢ ص ٦٨ في قصة بشر بن الوليد وقصة فذك وانظر العقد الفريد ج ٥ ص ١٩٥ - ١٠٢ . . . الخ .
(٢) ابن أبي طاهر - تاريخ بغداد ص ٣٠ .
(٣) انظر العيون والحدائق لمؤلف مجهول ص ٢٩٨ .

وخلاصة الامر في علاقة العباسيين بالفقهاء أن هؤلاء كانوا الأدوات التي لا محيد للعباسيين عن التعامل معها لتطبيق سياستهم الدينية • وقد تكون القصص التي تروى عن طبيعة هذه العلاقة حقيقية أو مزخرفة أو مخترعة من أساسها ولكنها إنما كانت تجري وتنشر عن عمد لاستخدامها في العمل الدعائي العباسي • وجانب كبير منها إنما قصد منه العباسيون ذلك لأن الفقهاء وهم أبواق الدعاية الموزعون في انحاء العالم الاسلامي وفي كل مسجد وعند كل سارية استطاعوا تدمير جانب كبير من السمعة الأموية فيجب أن يكون باستطاعتهم بالمقابل بناء جانب كبير من سمعة العباسيين وقد استخدمهم بنو العباس في ذلك أوسع الاستخدام •

أما مدى نجاحهم فلا شك أن العباسيين نجحوا في إذابة الجليد بينهم وبين طبقة الفقهاء • أولاً ثم في نقل تلك الطبقة من معسكر العلويين المعارضين أو الأمويين بل من المراكز المحايدة إلى مراكز التأييد والاستخدام • وذلك اللون «الزيدي» الذي كان يلون الكثير من الفقهاء — غير العلويين — في أوائل عهد المنصور غاب تماماً ليحل محله اللون العباسي الخالص في عهد الرشيد ومن بعده •

ومجموعات الفقهاء وأهل العلم والحديث التي كانت تحضر يومياً مجالس الخليفة أو تذهب معه بالمئات الى الحج أو الجهاد أو تتولى له القضاء في مختلف الأمصار (ولدينا قوائم طويلة بأسمائها) كلها دلائل على ذلك النجاح العباسي في ايجاد طبقة رسمية من الفقهاء تعمل تحت جناح الدولة ولحسابها •

وتذخر كتب التاريخ والطبقات والتراجم^(١) بأخبار هذه الطبقة وإذا كان منهم من استلم القضاء مثل محمد بن أبي ليلى وسوار بن عبد الله العنبري زمن المنصور وأبي يوسف والشياني وأبي البخري زمن الرشيد وابن أبي دؤاد زمن المأمون فإن منهم من استعمل في بعض أمور الخراج كاسماعيل بن عياش وعبد الرحمن بن أبي الزند أو قام ببعض الإدارة كعبد الله بن شبرمة . أو في ديوان الجند (كعبد الرحمن ابن سالم في مصر) . أو في بيت المال (مثل هشام بن ألفاز الجرشي الدمشقي) . وربما كان من آثار هذا التعاون ما وضعه بعض هؤلاء الفقهاء من الأحاديث على لسان الرسول بتعظيم بني العباس ونجد منها مجموعة في كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي بعنوان : الأحاديث المبشرة بخلافة بني العباس . ولعل أهم نجاح حققه الخلفاء العباسيون بنتيجة هذا التعاون مع الفقهاء والعلماء هو النقطة التالية :

٤ - توطيد المذهب السني وصيرورته المذهب الرسمي :

كان هذا التوطيد ، في الواقع نتيجة عمليات معقدة متعددة الوجوه تفاعلت منذ العصر الأموي واستمرت خلال العصر العباسي الأول كله قبل أن يصبح ذلك واقعاً تاريخياً واضحاً . وبينما كان العباسيون كسلطة حاكمة يعدون المذاهب الإسلامية الأخرى عن مراكز القوة والنجاح لتلهو على الأطراف بإنشاء بعض الدول الصغيرة أو يضربونها الضربة بعد الضربة بالقوة العسكرية في المناطق المركزية ،

(١) انظر في تاريخ اليعقوبي قوائم القضاة والفقهاء في عهود الخلفاء العباسيين الأوائل . ونجد قوائم أخرى لدى خليفة بن خياط (كتاب التاريخ لا الطبقات) ولدى وكيع القاضي في كتابه أخبار القضاة خاصة .

كان جيش آخر من الفقهاء ورجال العلم يعمل بدوره بتشجيع من الخلفاء وتحت جناحهم على منح المذهب السني مداه الجغرافي في الانتشار وصورته التشريعية في (الفقه) وأساسه الفكري من الفلسفة والمنطق في (علم الكلام) . وقد أنجزت المهمات الثلاث معا خلال القرن الأول من الحكم العباسي فكان ذلك أهم إنجاز بقي للمسلمين من تلك الحقبة كافة . وإذا كان المبرر الوحيد لوصول العباسيين الى السلطة هو البحث عن لون من ألوان الحكم يكون أقرب الى ما يقضي به الاسلام مما سار عليه بنو أمية فإن الصورة العملية للنظام الاسلامي الذي نعرف سياسياً واجتماعياً إنما صيغت في العهد العباسي . وما نعرفه اليوم من المذاهب الاسلامية في التراث الفقهي فإنما هو نتيجة التفسير الذي أعطاه الفكر العباسي للإسلام الأول . لقد عكسوا فيه مدى فهمهم في عصرهم لذلك الاسلام . وقد تجلّى ذلك خاصة في أمرين : الفقه وعلم الكلام . وليس يهمننا في الأمرين هنا مسائلهما والمشاكل ولكن يهمننا تكون الفكر الفقهي والكلامي خلال تلك الحقبة العباسية الأولى :

أ - تبلور الفقه : الاسلام يرفض مبدئياً المفهوم الروماني - اليوناني بترك التشريع للدولة ويعتبره موضوعاً إلهية . قد بين الله أسسها وحدودها في كتابه العزيز وعلى البشر استنباط الاحكام التطبيقية منه ومن السنة التي لا يمكن أن تتناقض معه . عملية الاستنباط هذه هي الفقه . والخليفة لا يشرع ولكن يطبق الشرع ولما كان الخلفاء العباسيون قد جعلوا سياستهم اسلامية فقد كان لا بد لهم في قيادة الجماعة الاسلامية ، من التوفيق ما بين مقتضيات السياسة والادارة العملية المتطورة وبين مقتضيات الشرع وبين حمل الأولى على

التطابق مع الثانية • ومن هنا قامت تلك العلاقة الواشحة بين خلفاء بني العباس والفقهاء ، ومن هنا كان خوف الخلفاء من هذا القطاع السياسي الديني الحر الذي يفقه علوم الدين •

وإعداد الفقه الاسلامي لم يكن من عمل العباسيين • كان هذا الفقه منذ العصر الأموي يتكون • وإنما دفعه بنو العباس خطوات واسعة الى التبلور وإلى أخذ الصيغة المكتوبة • بالاستناد الى ثلاثة أسس : كانت بدورها قد بدأت التوطد بجانب احكام الكتاب هي : الحديث والقياس والرأي أو ما يدعى بالاجتهاد • وإذا كان استنباط الاحكام بالرأي يفتح الباب واسعاً للاختلاف فإن هذا الاجتهاد قد أنجم من جهة أخرى بما سبي بالاجماع أي إجماع أو شبه إجماع الأحياء من المجتهدين في ما يمكن أن نطلق عليه اسم «السنة الحية» وهكذا انصرف الفقهاء في العصر العباسي الأول خاصة الى وضع تصانيف منهجية عامة في شؤون الفقه تستند بجانب الكتاب والسنة الى القياس والاجتهاد •

وقد شعر علماء الحديث والسنة بهذا التوطد الذي تم للمذهب زمن العباسيين يقول الذهبي : «...» في سنة ثلاث واربعين شرع علماء الاسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير فصنف ابن جريج بسكة ومالك الموطأ في المدينة والأوزاعي بالشام وابن أبي عروبة وحماد بن سلسة وغيرهما بالبصرة ومعر باليمن وسفيان الثوري بالكوفة وصنف ابن اسحاق المغازي وصنف أبو حنيفة رحمه الله الفقه والرأي • ثم بعد يسير ضعف هشيم والليث وابن لهيعة ثم ابن المبارك وابو يوسف وابن وهب وكثر تدوين العلم وتبويبه ودونت كتب العربية

واللغة والتاريخ وأيام الناس «...» (١) .

وتوزع الجماعات الاسلامية في مختلف الاقاليم مع صعوبات الاتصال أدت الى بروز العديد من الفقهاء المحليين في تلك الأقاليم والى ظهور مدارس فقهية عديدة بنتيجة ذلك لكل منها مذهبها الخاص المستند إلى مقدار ونوعية ما ورد لها من الحديث النبوي ومدى قوة المنطق القياسي وعمق النظر الاجتهادي .

وهكذا ظهر في الحجاز مالك بن أنس وفي الشام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي وفي العراق أبو حنيفة النعمان بن ثابت وفي مصر الليث ابن سعد ثم محمد بن ادريس الشافعي بعد ذلك . وبجانب هذه الاسماء المعروفة كان ثمة رعييل كبير لا يقل عنها قيمة وأثراً منه : ابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وعمرو بن عبيد المغزلي في البصرة ، ومحمد ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى وسفيان بن سعيد الثوري في الكوفة . ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ذؤيب (أو ذئب) في الحجاز وعبد الملك ابن جريج في مكة . وعبد الله بن لهيعة في مصر . وأبو البخري وهب ابن وهب وأبو يوسف يعقوب بن ابراهيم قاضي الرشيد في بغداد ومعمر بن راشد الأزدي في اليمن والبوليد بن مسلم في الشام .

قادت هذه الجماعة وأمثالها الفكر الاسلامي الفقهي . وقد وضع بعض هؤلاء العلماء أسس مذاهبهم الفقهية : كتبوها أو كتبها عنهم تلاميذهم لكن الخلفاء العباسيين طلبوا من بعضهم وضع هذه الكتب فقد طلب المنصور مثلاً من مالك بن أنس وضع كتاب تسير عليه الدولة

(١) انظر السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٢٦١ .

فكان ذلك أساس كتاب الموطأ وطلب الرشيد من أبي يوسف وضع كتاب الخراج ...

وإذا كان مذهب الأوزاعي الشامي لم يعرف الانتشار إلا في الشام ولفترة محدودة فما من شك في أن موقف العباسيين السياسي من هذه البلاد قد أثر في عدم انتشار المذهب ثم في اندثاره . ولم يكن وضع مالك بن أنس ولا الحجاز بالذي يشبه الأوزاعي والشام فقد كان يمثل تراث المدينة الاسلامي ويمثل فقهاء المدينة السبعة الذين ظهوروا في العهد الأموي ووضعو أسس الفقه . وقد توفي مالك سنة ١٧٩ عن أربع وثمانين سنة بعد أن انتشر ما أملاه على تلاميذه من كتاب (الموطأ) . ومع ذلك فلم يتح لمذهب مالك أن ينتشر فيما وراء الحجاز فلما حمل إلى مصر لم يستقر بها طويلاً وتلاحق على حمله من مصر إلى الاندلس خلال ذلك فقهاء عديدون لجأ المذهب معهم إلى أقصى المغرب الاسلامي بينما فقد أرضه في المشرق . ولم يتح في الوقت نفسه لمذهب الليث بن سعد أن ينتشر إلا بعض الانتشار في مصر ثم ما لبث أن تضاءل واندثر كما اندثر أيضاً مذهب سفيان الثوري الذي ظهر في الكوفة فلم يبق له أثر بعد القرن الرابع ...

أما المذهب الذي اتصل أوثق الاتصال بالعباسيين فهو مذهب أبي حنيفة الذي يعرف بأنه المذهب العراقي وصاحبه هو الوحيد بين أصحاب المذاهب المشهورة الذي لم يكن عربي الأصل ولكن من موالى الكوفة ومع أن الرجل استغنى عن مناصب العباسيين وعاش متقشفاً يحتفظ بهواه ضد الحكام حتى مات في السجن سنة ١٥٠ في بغداد عن سبعين سنة ، ومع أن المنصور استدعاه لمناظرة جعفر الصادق إلا إنه لم يكن يميل في هواه ضد العلويين إن لم يكن معهم .

وإذا كان من مذهب مالك يعتمد بصورة أساسية على الحديث ،
لأنه وارث مدرسة الحديث في المدينة . وكان مذهب سفيان الثوري
يعتمد خاصة على الرأي والقياس معبراً بذلك عن قلق أهل الكوفة
ونظرتهم السياسي فإن أبا حنيفة كان يمزج ما بين الطريقتين حتى ذمه
أهل الحديث . ولكن مذهبه كان المذهب الملائم للتطور الاجتماعي
الذي وصله المجتمع الاسلامي في القرن الثاني في العراق وايران .
وقد كان تلامبذ أبي حنيفة على صلة وثقى بخلفاء بني العباس
وتولوا لهم مختلف المناصب وخاصة القضاء في مختلف الأمصار ولهذا
فقد تبنى العباسيون الفقهاء القائلين به . وقد برز هذا الدعم واضحاً
بصورة خاصة في عهد الرشيد حين عين يعقوب بن ابراهيم المعروف بابي
يوسف قاضياً للقضاة وجعل له أن يضع الكتاب الذي ينظم علاقات
الدولة بالناس : كتاب الخراج . كما جعل لتلاميذه وامثاله ان يتسلموا
المناصب المختلفة . وأبو يوسف هو التلميذ البارز لأبي حنيفة وقد
تولي القضاء للمهدي والهادي والرشيد ولهذا فقد تألفت من حوله
مدرسة فقهية كان من رجالها محمد بن الحسن الشيباني وأبو البخري
وابن اكثم وزفر بن الهذيل » وقد تميزت خلال فترة طويلة من الزمن
باهتمامها البالغ بالحياة العملية وعنايتها بحاجات الدولة مع السعي إلى
إيجاد التسويات اللازمة لتجنب كل تناقض مع الشرع الاسلامي»
ولعل من أهم الانجازات التي تمت في عهد الرشيد ووطدت المذهب
الحنفي كمذهب عباسي أن كلا من قاضي القضاة أبي يوسف (توفي سنة
١٨٢) وتلميذه وزميله قاضي القضاة محمد بن الحسن الشيباني (توفي
سنة ١٨٩) كتباً للدولة الكتابين اللذين ينظمان على أساس متين من الفقه
الاسلامي سياستها الداخلية والخارجية . فإذا كان كتاب الخراج ينظم
السياسة الداخلية فقد كتب الشيباني (كتاب السير الكبير) وهذا

الاصطلاح كان يعني في ذلك الوقت احكام الجهاد والحرب وما يجوز فيها ولا يجوز وأحكام الصلح والمواذعة والأمان والغنائم والأسرى • فكأنما وضعت الدولة العباسية بالكتابين ضوابط العمل والحكم الداخلي على أساس المذهب الذي اختارته •

وهكذا نشأ تحت رعاية العباسيين مذهب اسلامي «رسمي» على الأساس السني يطمح ، بدعم العباسيين أنفسهم ، إلى أن يكون مذهب الجماعة الاسلامية كلها • وقد انتشر بالفعل في العراق وما وراءه من ايران وخراسان ولكن هذا الدعم لم يكن يستطيع أن ينع رسماً أيضاً المذاهب الاخرى من الانتشار لان الخلفاء منفذون للشرع وليسوا بشرعين •

ولم يرض العلويون والخوارج بالطبع عن هذا المذهب «الرسمي» ولذلك فقد عارضوه بمذاهب خاصة بهم وإذا تطور المذهب الإباضي الخارجي في البصرة خاصة إلا إنه كان يصدر آراءه مع فقهاءه وأمواله الى افريقية والمغرب حيث قامت الدول الخارجية • أما العلويون فقد كان لا بد أن يظهر من آل البيت نفسه إمام يضع الأسس الفكرية والعملية للفقهاء العلوي • وإذا كانت المحاولة الأولى : الزيدية (أتباع زيد بن علي زين العابدين المتوفي) سنة ١٢٢/٧٤٠ محاولة مبكرة لاتفترق بوضوح عن المذهب السني ويمكن أن تكون وسطاً بين الفقه الحنفي والمالكي فقد عاصر أبا حنيفة ومالك عقل فقهي مستاز من الأئمة هو جعفر الصادق المتوفي سنة ١٤٧ عن ٦٦ عاماً استطاع خلال ثلاثين سنة من الإمامة أن يعطي أفكاره إلى أكثر من أربعة آلاف رجل من أتباعه • وقد جمعها بعض هؤلاء في أكثر من اربع مائة كتاب تعرف لدى الشيعة بالأسول • وكان جعفر الصادق من غزارة العلم بحيث قال فيه المنصور يوم توفي : إنه من قال الله فيهم : «ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من

عبادنا ...» وابتعاده عن المطمح السياسي هو الذي قربته من بني العباس . وأهم ما تميز به مذهبه هو التسوية ما بين الحديث النبوي وأحاديث الأئمة من بعده في التشريع بسبب عصمة الأئمة ، ورفض القياس كوسيلة فقهية . وقد تكون بهذا الشكل المذهب الإمامي أو الجعفري في الفقه الاسلامي ولكن انتشاره ظل مرتبطاً بالمجموعة العلوية المناهضة للعباسيين أي ظل نوعاً من المعارضة السياسية التي يؤيدها الاختلاف الديني .

ومن جهة أخرى فإن انتشار المذهب الخنفي لم يرض كل طموح أصحاب الحديث وأهل السنة المتشددين . وبالرغم من أن تطور المجتمع العباسي وخضوعه لمؤثرات ثقافية واجتماعية شتى كان من الممكن أن ينتهي به الى النتيجة المنطقية وهي الانطلاق مع «الرأي» والتفكير العقلي إلى النهاية إلا إن الذي حدث كان بالعكس من ذلك . فقد ارتد رجال الحديث خاصة في نوع من الدفاع الذاتي عن الدين الى التمسك المتزايد بنصوص الأحاديث والسنن والى الارتياح الشديد بعلوم الأوائل ورجالها^(١) وهكذا نشأ في الجيل التالي لأبي حنيفة ومالك مذهبان آخران في الفقه السني انطلق من حيث الأسس على خطوات مالك الحجازي لا أبي حنيفة العراقي ولو أن أحدهما فقط نشأ في الحجاز مقر مالك بينما الثاني في بغداد نفسها واستطاع صاحب المذهبين

(١) بلغ هذا الاتجاه اقصاه في القرن الثالث خاصة الذي وضعت فيه كتب الحديث الستة المشهورة كلها أي : وضع الصحيحان : صحيح البخاري (المتوفي سنة ٢٥٦) ومسلم القشيري (سنة ٢٦١) والسنن الأربعة : سنن أبي داود (سنة ٢٧٥) والترمذي (سنة ٢٧٨) وابن ماجه (سنة ٢٧٥) والنسائي (سنة ٣٠٣) . وهي التي أضحت مصادر التشريع السني .

رغم تأخرهما الزمني أن يأخذا لهما مكاناً في زحمة الأمانة وصراع الأفكار :

أولهما : محمد بن ادريس الشافعي (١٥٠ - ٢٠٤/٧٦٧ - ٨٢٠) الذي ولد سنة وفاة أبي حنيفة في فلسطين وجاء الحجاز وهو فطيم فتفقه على مالك في المدينة وعلى غيره وتورط في علاقاته بيحيى بن عبد الله العلوي (صاحب الثورة بالديلم) فبقي طول حياته بعيداً عن الحكم العباسي ورجاله وقد ناظر الشيباني أمام هارون الرشيد سنة ١٨٤ كما ناظر غيره في مناسبات أخرى ثم انصرف إلى نشر مذهبه الفقهي في الشام ثم في مصر حين استقر ومات . وتلاميذه هم الذين حملوا مذهبه فغزوا به المشرق الاسلامي ، وناقسوا هناك المذهب الحنفي منافسة جدية في أواخر القرن الثالث الهجري حتى أزاحوه عن كثير من مراكزه مستندين في إزاحته على اعتناق السلطات له وعلى التيار الفكري الذي أسسه أبو الحسن الأشعري للوقوف في وجه المعتزلة والذي يستند إلى ظاهر النصوص القرآنية ومنطوق الحديث النبوي . ومذهب الشافعي في الواقع ، يتصل بهذه النقطة لأنه عرض في كتابه (الكتاب الأم) العرض المنهجي الرائع مذهباً فقهياً يستبعد الرأي ويعتمد الاعتماد الكلي على الحديث الذي يفسره بطريقة القياس والاستنتاج المنطقي وبنسب محدود من الاجتهاد في هذا النطاق نفسه . ولعل هذا كان من الأسباب الأساسية في القضاء على الاجتهاد المتطور وفي اتجاه الفقه الاسلامي بعد ذلك ضمن الدائرة المغلقة التي أقامها كبار الفقهاء الذين ظهرت في العصر العباسي الأول أنفسهم .

الثاني : أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١/٧٨٠ - ٨٥٥) وهو بدوره عربي الأصل وقبيلته في مرو على الولاء لبني العباس . أخذ عن أبي

يوسف والشافعي ورحل حتى الى اليمن والشام والجزيرة بعد بغداد .
وكانت عنايته الأساسية بالحديث وجمعه وحفظه ولهذا ظل يكره أن
يعرف بالفقه وظل يفضل أن يحتفظ بصفة «المحدث» . وكان ذلك
أساس كتابه (المسند) فقد رتبته على أساس السند لا الأبواب الفقهية
وجمع فيه أربعين ألف حديث .

ويعلن ابن حنبل أن مصادر التشريع عنده بعد الكتاب والسنة
فتاوي الصحابة ثم الاستصلاح ثم القياس . ويرفض كل
رأي قاطع لا يتحدر بصورة ثابتة عن النصوص المقدسة
كما يرفض كل تفسير للحديث يتعد عن معناه الحرفي . وقد
يسر كل التيسير في المعاملات المالية والعقود والشروط - وهي ما كان
يحتاجه المجتمع العباسي في مطلع القرن الثالث - لأن الاصل فيها
الاباحة وهذا يعني أنه فيما عدا ما وردت فيه النصوص لا تشدد ولا
تعصب لدى ابن حنبل وإن عرف عن تلاميذه من بعده ذلك الاتهام .

غير أن المعركة الكبرى التي تزعمها ابن حنبل إنما كانت معركته
ضد الاعتزال حين أضحى هذا المذهب بأمر المأمون وعسله المذهب
الرسمي العباسي ولقد اضطهد ابن حنبل اشد الاضطهاد في ذلك فعذب،
وضرب وأفتى المعتزلة بقتله وانتهى في السجن ولكن المذهب السني
انتهى بالانتصار .

ب - علم الكلام : ذلك الجهد السني والشييعي على السواء في
اقامة الفقه أي القانون الوضعي الديني للجماعة الإسلامية بالاستناد
الى الكتاب والسنة خاصة ، لم يكن يسير في الواقع بدون قاعدة نظرية
فكرية أي بدون تأمل فكري في الدين والايمان . وهذا التفكير

النظري إنما بدأ بدوره منذ العهد الأموي^(١) وكأن وراء ظهوره أسباب عديدة منها ما هو ناجم عن الأحداث السياسية ومنها ما يعود الى التأمل الفلسفي الخالص في الدين ومنها ما نقله المسلمون الجدد من مسائلهم الفكرية والدينية الأولى الى الاسلام ومنها ما كان جواباً على الاسئلة والريب والمشاكل التي يلقيها غير المسلمين - عن فضول أو مساحكة - على أصحاب الدين الجديد والمؤمنين به .

وبالرغم من أن اسم «علم الكلام» قد يحوي معنى خاصاً يأتيه من أن القرآن هو بدوره كلام الله ومن أن «كلمة الله» Logos ترد في مطلع الكتاب المقدس بقوله : «في البدء كان الكلمة» . ومن أن «الكلمة» تختلط في الفلسفة القديسة والمسيحية مع كلمة العقل وتتضمن أحياناً معنى العقل والحياة معاً . وبالرغم من كل ذلك فإننا متى قرأنا في رسالة الحسن البصري الى الحجاج قوله : «إن الله لم يخلقهم (العباد) لأمر ثم حال بينهم وبينه ولم يكن أحد في السلف يذكر ذلك ولا يجادل فيه... وإنما أحدثنا الكلام فيه لما أحدث الناس النكرة له...»^(٢) ومتى قرأنا عن جدل جرى أمام عمر بن عبد العزيز بين إياس بن معاوية وغيلان الدمشقي يقول فيه الأول عن الثاني : «إن غيلان صاحب كلام وأنا صاحب اختصار»^(٣) استطعنا أن نستنتج بسهولة أن علم الكلام

-
- (١) لنذكر مثلاً على ذلك معبد الجهني المتوفي سنة ٨٠ والذي كان أول من تكلم بالقدر في الاسلام . ومسائله ثم تلميذه غيلان الدمشقي الذي هم عمر بن عبد العزيز لولا أنه تاب فلما اسرف في الدعوة لفكرته أيام هشام بن عبد الملك انتهى مصلوباً على باب دمشق (٤٣/٢) انظر الشهرستان في الملل والنحل (طبع كيلاني) ج ١ ص ٣٠ .
- (٢) انظر الرسالة لدى ابن المرتضي - طبقات المعتزلة ص ١٩ .
- (٣) انظر ابن عساكر - تهذيب تاريخ دمشق (بدران) ج ٣ ص ١٧٨

الاسلامي لم يأخذ تلك المعاني الأول كلها لدى أهله ولا سيما في مطلع ظهوره ولكنه أخذ اسمه ومحتواه من الجدل والمنطق الدفاعي ومن الاهتمام بمطابقة الايمان للعقل وتفسير العقيدة على أساس المنطق الفكري والتأويل العقلي ولم يحصل هذا العلم في مطلعها اسماً خاصاً به وكان يدخل في الفقه في الدين «ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين فست أيام المأمون فخلطت مناهجها بسناهج علم الكلام وافردتها فناً من فنون العلم وسستها باسم الكلام»^(١) واصحاب علم الكلام ينطلقون من العقيدة إلى العقل بينما ينطلق الفلاسفة الاسلاميون عامة بالعكس من العقل الى العقيدة . وغرضهم ليس تقصي الحقيقة فالحقيقة قد تم وضعها وتثبيتها بالوحي ولكن الغرض هو فهم هذا الوحي وحدوده بالعقل .

وهدف أهل الكلام إذن دفاعي تفسيري يرمي الى إيجاد الحلول فالحقيقة قد تم وضعها وتثبيتها بالوحي ولكن الغرض هو فهم هذا والحديث ليسا في الأصل يبحثان منهجين في العقيدة وليس من طبيعتهما إعطاء الجواب الحاسم على كل الاسئلة التي يثيرها الفكر المنطقي والموقف العقلي للمؤمنين .

وإذا كنا نستطيع أن نتابع بسهولة المسار التاريخي للفقه الاسلامي ونشأة مذاهبه فإن العرض التاريخي لنشأة علم الكلام ومسائله أشد صعوبة . بسبب ضياع المساجلات والمناقشات الأولى التي قامت في العصر الأموي وسببت نشأته وكان من أقطابها الحسن البصري (توفي سنة ١١٠ هـ) .

وقد تابع المتكلمون جهودهم الفكرية في «فلسفة» مسائل الايمان في العصر العباسي . وفي اعطاء الغطاء الفكري لكافة الاختلافات في

(١) انظر الشهرستاني - الملل والنحل (طبعة الكيلاني) ج ١ ص ٣٠

مذهب «الجماعة» • كانوا يخدمون — دون أن يقصدوا — أهداف السياسة العباسية الدينية • وبالرغم من أن أهل «الحديث» قد شددوا النكير على علم الكلام واعتبروه بدعة ، واعتبروا التسليم بمعطيات الكتاب والسنة أساس الايمان إلا إن ذلك لم يمنع «الكلام» من أن ينتشر ومن أن يضع أصحابه ما يمكن أن يسمى ، مع بعض التجوز ، أسس اللاهوت الاسلامي •

وقد برز علم الكلام اكثر ما برز في البصرة التي كانت في العهد الأموي مركز غليان فكري واسع ، سواء في علوم الدين أو في الأدب فلما ظهرت بغداد انتقلت الديناميكية الفكرية إليها مع تكاثر الترجمة للفلسفة والمنطق وعلوم الأوائل الي العربية • وتعددت المناقشات النظرية في الدين وكثرت مسائلها كما كثرت بالتالي الآراء والحلول • وظهر من هذا وذاك مدرستان إحداهما في البصرة والأخرى في بغداد •

غير أن هذه المغامرة الفكرية المتزايدة التعقيد والمشاكل بدأت بدورها ، ومنذ العصر الأموي أيضاً وأيضاً ، في الاختلاف وفي التوزع بين الآراء • وذلك طبيعي • وكان قد بدأ جماعة منها في الانفراد بأفكار اعتزلوا بها باقي أهل الكلام كما فعل واصل بن عطاء مع الحسن البصري • فظهر منهم من يسمون بالمعتزلة^(١) • وقد سمحت الحرية الفكرية التي ناقش فيها هؤلاء بعض مسائل العقيدة بأن يشكلوا تياراً خاصاً مشتقاً

(١) كان لأحمد أمين في الطبعة الأولى من كتابه فجر الإسلام رأي في تسمية المعتزلة تراجع عنده في الطبعات التالية يقول : (انظر فجر الإسلام ط ١ ص ٢٨٩) : إن بعض من اسلم من اليهود هو الذي أطلق اسم المعتزلة على هؤلاء الذين فارقوا جماعة المسلمين قياساً على ما عرفوه في تاريخهم الديني من اعتزال فريق من اليهود عن الجماعة وتسميتهم «بالفيروشييم» وتعني المعتزلة •

من علم الكلام يمشي بجوارحه ولكنه يتميز بالإكثار من استخدام المنطق والعقل والقبول بالنتائج المنطقية الناجمة عن كل اولئك • وليس يعني ذلك القول بحرية الفكر فالحقيقة المطلقة لم تكن رائدهم وإنما إعطاء العقيدة قفزة نوعية جديدة تربط ما بينها وبين العقل كما أنهم حين أتيح لهم أن يصبحوا الفكر الرسمي للدولة العباسية أصبحوا من أشد المتعصبين اضطهاداً للأفكار الأخرى • وقد استطاع المعتزلة بجهود رجال من أفذاذ الفكر الاسلامي من أمثال : ابي الهذيل العلاف (١٣٥ هـ - ٢٢٦ هـ) والنظام تلميذه (المتوفي سنة ٢٣١ هـ) • والجعد بن درهم والجهم بن صفوان وبشر بن المعتز (سنة ٢٢٦ هـ) وثمامة بن أشرس صاحب المأمون (المتوفي سنة ٢١٣ هـ) من أن يملأوا الفراغ الفلسفي في العقيدة الاسلامية الأولى بكافة الأفكار العقلية والمنطقية اللازمة لجعل تلك العقيدة ايمانية - عقلية في وقت معاً ••• ولكنهم ظلوا على أي حال في نطاق الفكر السني العام ، فكر أهل السنة والجماعة وإن رفض زعماء هذا الفكر نفسه قبولهم أو التسليم بالنتائج والحلول العقلية التي توصلوا إليها • كما رفضهم الفلاسفة بدورهم لاختلافهم عنهم في الهدف وإن اتفقوا معهم في الوسيلة •

ويبدو أن المعتزلة كانوا يطمحون منذ ظهوروا إلى أن يجعلوا من أفكارهم الدينية أفكار العالم الاسلامي كله أو أن تكون على الأقل مذهب علماء المسلمين عامة • والمؤرخون يذكرون أنهم بدأوا ذلك منذ العهد الأموي فقد كانت لهم صلتهم بيزيد (الثالث) بن الوليد (١٢٦ هـ - ١٢٧ هـ) • وكان قد ثار مع سابقة من المعتزلة وغيرهم من أهل داريا والمزة من غوطة دمشق ••• وكان يذهب الى قولهم ضد الخليفة الوليد وكان مروان بن محمد معتزلي الرأي أيضاً • والمعتزلة يفضلون يزيد

في الدين - فيما يذكر المسعودي - على عمر بن عبد العزيز^(١) وتكشف خطبته التي ألقاها عقب بيعته وأنه إنما خرج «داعياً لكتاب الله وسنة نبيه لما هدمت معالم الهدى وظهر الجبار العنيد (يقصد الوليد بن يزيد)» وأن برنامجه كان برنامج الامام العادل الذي يطلبه أهل الاعتزال كما أن واصلاً بن عطاء أقام تنظيمًا دينيًا معتزلياً إذ أطلق من حلقاته في البصرة دعاة ذهبوا إلى أقاليم متعددة من العالم الاسلامي يدافعون عن الاسلام ضد الدهرية والمانوية وما إليها : بعث عبد الله بن حارث الى المغرب فأجابه خلق كثير • وبعث الى خراسان حفص بن سالم فدخل ترمذ وناظر جهم بن صفوان حتى قطعه ••• وبعث القاسم بن السعدي إلى اليمن وبعث أيوب إلى الجزيرة وبعث الحسن بن ذكوان إلى الكوفة وعثمان الطويل إلى أرمينية •••»^(٢) •

وقد ترك لنا صفوان الانصاري الشاعر المعتزلي قصيدة هامة تذكر دعاة واصل بن عطاء وتقول في وصف هذه الموجة من الدعاة :
هيئة وأسفاراً ودعوة :

له خلف شعب الصين من كل شفرة
إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيهم
تهكم جبار ولا كيد ماكر

(١) انظر المسعودي مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٤ و ص ٢٣٩

(٢) انظر كتاب ابن المرتضي المهدي اليمني - طبقات المعتزلة (هو جزء من كتابه المنية والامل في شرح الملل والنحل) ط . بيروت سنة ١٩٦١ ص ٣٢ •

إذا قال مروا في الشقاء تطاوعوا
وإن كان صيفاً لم يخف شهر ناخر !
وأوتاد أرض الله في كل بلدة
وموضع فتياها وعلم التشاجر !
وأمر بمعروف • وإنكار منكر
وتحصين دين الله من كل كافر
تراهم كان الطير فوق رؤوسهم
على عمة معروفة في المعاصر !
وسيماهم معروفة في وجوههم
وفي المشي حجاجاً وفوق الأباغر !^(١)

وبالرغم من أن واصل بن عطاء كان على صلة مع شخصيات علوية
كثيرة (عبد الله المحض وابنه محمد ، زيد بن علي زين العابدين ، ومحمد
الباقر ،) ورغم تلمذته السابقة لأبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية
إلا إنه لم تعرف عنه الميول السياسية ...

فأين كان المعتزلة إذن من الدعوة العباسية وأين كان العباسيون
الأوائل منها ؟

يفترض المستشرق نيرك أن المعتزلة كانوا دعاة العباسيين ولكن
هذه الفرصة لا تستند الى أكثر من بعض القرائن التي لا تقطع بأمر
ولعلنا بالعكس نستطيع بقرائن أقوى منها أن نجد علائق قوية ما بين
المعتزلة الأوائل والزعماء العلويين بل إنا لنجد أن بعض هؤلاء المعتزلة

(١) الجاحظ - البيان والتبيين ج ١ ص ٢٥ - ٢٩ وقد نقل
القصيدة أحمد أمين في ضحى الاسلام (ط/٧/ج ٣ ص ٩٠ - ٩١) .

قد ارتبطوا بالحركة الزيدية في أيام المنصور كما أن بعضهم وقف في جانب ابراهيم بن عبد الله المحض يوم ثورته في البصرة وكان يتقصى له الأخبار ويرشده الى الاعداء . ومى ذلك فمن المجازفة أن نعزو الى المعتزلة رأياً سياسياً محدداً ولعلمهم بالعكس كانوا على السلبية والحياد في هذه الناحية لانصرافهم الى العلم والعبادة والفكر . ولعل رأيهم بالمنزلة بين المنزلتين ليس شيئاً آخر عند التطبيق السياسي عن القول بالحياد بين المتخاصمين بل إن توزع رأيهم في الحكم على «الأحداث الأولى في الاسلام» دليل على أنهم لا يصدر عن رأي سياسي محدد وأن السياسة لم تكن تهمهم وانما يهتمهم الدين .

وهذا الحياد التقى هو الذي جعل المنصور - وهو من هو في عدم التهاون بأي أمر يمس الشأن السياسي للدولة - يحتفظ بالصدقة المتصلة الحميمة مع عمرو بن عبيد ، زعيم المعتزلة في عهده وجعله يتقبل منه أقسى النقد دون أن يحمل ذلك على أكثر من محمل النصيحة الدينية ! لقد كان المتكلمون ، والمعتزلة على رأسهم - هم الجناح الديناميكي الفعال بين جماهير أهل الحديث وحملة علوم الدين . ولقد نظر المنصور والمهدي من بعده الى أهل الكلام والاعتزال بعين الرضى لأن هؤلاء إنما كانوا يدورون في إطار منطلقات ثلاثة تخدم كلها السياسة الدينية لبني العباس وتتفق مع وجهات نظر البيت الحاكم :

أ - الاسلام كما يفهمه أهل السنة والجماعة عامة لأن أهل الكلام والاعتزال هم في جملتهم وأساسهم من حملة الحديث وعلوم الدين .

ب - عدم الاهتمام بالأمر السياسية وبالتالي اهمال مشكلة

الإمامة^(١) وهي المحور في الفكر العلوي فإن بحثوها وقفوا في معظمهم موقف الرفض من بعض المبادئ الشيعية فيها كالنص على إمامة علي وحصر الإمامة في بيت محدد أو يقول بعصمة الائمة •

ح - التصدي للأفكار والريب المعادية للإسلام التي تحملها أو تثيرها الجماعات الأخرى غير المسلمة • ضد الإسلام • وكان الخلفاء يحتفظون بصداقة هؤلاء المتكلمين ضمن إطار سياستهم في التقرب من الفقهاء ومنعاً لهم من أن يميلوا بالاهمال المتطادي الى الجانب العلوي •

وعلى هذا الاساس نرى ان المهدي ، حين تفشت الزندقة وأراد حربها «أمر المتكلمين أن يضعوا الكتب على أهل الالحاد»^(٢) وكان «أول خليفة يأمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين وأقاموا البراهن على المعاندين وأوضحوا الحق للشاكرين»^(٣) وقد ذكروا عن المهدي وأيضاً احترامه كأبيه لذكرى عسرو بن عبيد • فكان إذا حضر المحدث شبيب بن شيبه عنده قال : يا ابا معن ! حدثنا ، وزين مجلسنا بحديث عسرو بن عبيد» ولعله لهذه الاسباب اتهم بعض المؤرخين المهدي بالقدرية (وهو اسم آخر للاعتزال)

(١) قال النظام من المعتزلة بالنص في الإمامة ومال الى التشيع ووقع في كبار الصحابة (انظر الشهرستاني - الملل والنحل ص ٥٧) وقال عمرو ابن عبيد والنظام وثمame بقبول خلافة ابي بكر . وبعضهم رأى ان الإمامة غير واجبة وبعضهم رأى انها في قریش . وهذا يعني ان هذه المسألة لم تكن اساسية في المذهب وتخضع للرأي •

(٢) اليعقوبي - مشاكلة الناس ص ٢٤ والمسعودي - مروج

(٣) ابن المرتضى الزيدي - طبقات المعتزلة ص ١٢٢ •

وقد نفي التهمة عنه الخطيب البغدادي^(١) . . . وجاء الرشيد فكان الأمر في عهده مختلفاً : « كان يحيى بن خالد البرمكي يحب الحكمة والكلام والنظر ففي أيامه كثر المتكلمون وجادلوا وناظروا وصنفوا الكتب منهم هشام بن الحكم وضرار بن عمرو ومعمرو بن عمر . . . »^(٢)

ويروي المسعودي أنه كان ليحيى البرمكي « مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الاسلام وغيرهم من أهل الآراء والنحل . . . » وقد اجتمع في مجلسه مرة العلاف والنظام من المعتزلة والحكم وابن الهيثم من متكلمي الشيعة وأبو مالك الحضرمي من متكلمي الخوارج^(٣) ويذكرون بالمقابل أن موقف الرشيد من أهل الكلام لم يكن هذا الموقف نفسه . يروي الجهمشياري أن كلثوم بن عسرو العتاسي « كان يقول بالاعتزال فاتصل ذلك بالرشيد وكثر عليه في أمره فأمر فيه بأمر عظيم فهرب الى اليمن فكان مقيماً بها . . . » حتى احتال يحيى بن خالد فشفع له عند الرشيد وعاد^(٤) . ويقول ابن المرتضى : إن الرشيد منع من الجدل في الدين وحبس أهل علم الكلام^(٥) تحت تأثير قوم لم يعرفوا الكلام والمرء عدو ما جهل . . . » ونسج في العهد نفسه عن سجن بشر ابن المعتز صاحب المعتزلة في البصرة بأمر الرشيد . وعن قطع يد عيسى الطبري الزاهد من قبل محمد بن سليمان العباسي والي البصرة^(٦) .

(١) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ج ٢ ص ٣٠١ .

(٢) اليعقوبي - مشاكلة الناس ص ٢٥ .

(٣) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ٣٨٠ - ٣٨٣ .

(٤) الجهمشياري - الوزراء والكتاب ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٥) ابن المرتضى - طبقات المعتزلة ص ٥٤ و ص ٥٦ .

(٦) المصدر نفسه صفحات ٥٢ : ٥٤ : ٥٦ .

ويبدو أننا يجب أن نفرق في سياسة الرشيد الدينية ما بين الفترة البرمكية والفترة التالية لها فقد كان في الفترة الاولى يسمع الجدل ويقبل أهل الكلام في مجلسه^(١) كما يجب أن نفرق ما بين المتكلمين والمعتزلة ذوي الميول العباسية أو الحيدانية وبين ذوي الأهواء العلوية . فإذا كان الرشيد يكره عامة الاعتزال والمعتزلة فقد كان يكره منهم خاصة ويضطهد أصحاب الآراء السياسية المناهضة ويظهر أن أهل الكلام عامة وقفوا موقف الإنكار من نكبة البرامكة لسابق صلتهم معهم فأمر الرشيد عندئذ بمنع الجدل في الدين لمنع الجدل في السياسة خاصة وحبس أهل علم الكلام . ويبدو من فرضه بعض الاوضاع الخاصة على أهل الذمة أن تشدده في السياسة الدينية السنية قد بلغ أوجه في ختام حياته . ويقال إنه تراخى في سياسته ضد أهل الكلام حين فشل رجل محدث أرسله الى الهند للمناظرة في الدين أمام ملكها ثم نجح في المناظرة بعض علماء الكلام^(٢) .

ح - الاعتزال والمحنة على أن العاصفة السياسية التي أصابت الدولة العباسية زمن الأمين والمأمون وامتدت أكثر من عشر سنوات (١٩٤ - ٢٠٤) أتت في أعقابها بانقلاب كبير في السياسة الدينية لهذه الأسرة . على يد المأمون تمثل في ثلاث نقاط : لعن الامويين . واعتبار علي أفضل الناس بعد رسول الله وعلان الاعتزال المذهب الرسمي للدولة ... أعلن المأمون هذا الانقلاب ٢١٢ وقد عرفت الفترة التي دامها

(١) انظر مثلاً ابن المرتضى - طبقات المعتزلة الصفحات ٤٢ : ٥٦ ،

(٢) يروى ابن المرتضى لذلك قصتين متقاربتين في المؤدى العام

(انظر طبقات المعتزلة ص ٥٥ - ٥٦ وص ٥٨ - ٥٩ .

الانقلاب لدى أهل السنة بالحنة لما رافقها من اضطهاد وهزة دينية عنيفة :

أ - أما لعن الأمويين فلقد لا يكون فيه من خروج على الموقف الرسمي للبيت العباسي منذ انتصر هذا البيت . ولكن يقظة الهجوم العباسي على بني أمية وعلى معاوية بعد هجعة دامت أكثر من نصف قرن دليل على أن فريقاً من الناس قد جعلوا يقارنون بين البيتين ويفضلون بني أمية . ظهر ذلك لدى العامة حتى لقد كانوا يشغبوا وأثاروا القلاقل للمأمون والمعتضد والمطيع^(١) كما ظهر لدى بعض العلماء . فقد جمع أبو عمر الزاهد أحاديث في فضائل معاوية كما وجد منهم من يدافع عن حق الأمويين في الخلافة كعلي بن أحمد الاندلسي^(٢) . وقصة اللعن جاءت متأخرة في عهد المأمون كما مرت عابرة أيضاً إذ يذكرون أن المأمون سنة ٢١١ (أو سنة ٢١٢) بعث فنادى : برئت الذمة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير أو قدمه علي أحد من أصحاب رسول الله^(٣)

ولقد عجب الناس من مبادرة المأمون هذه حتى حاروا في سببها وتنازعوا ويذكر المسعودي من بين الأسباب أن المأمون سجع حديثاً عن معاوية أنه رفض صلة رحم بني هاشم وطلب دفن ذكرهم فبعثه ذلك على أن أمر بالنداء . . . وعلى أي حال فيبدو أن المأمون تردد قبل ذلك

(١) انظر ابن أبي الحديد . شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ٤٤٢ وما بعدها .

(٢) انظر ياقوت . معجم الادباء ج ٥ ص ٨٦ و ج ٧ ص ٢٩ .

(٣) المسعودي - مروج الذهب ج ٤ ص ٤٠ . السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٣٠٨ .

كثيراً في الأمر ذكر ابن أبي طاهر «أن المأمون كان هم بلعن معاوية وأن يكتب بذلك كتاباً يقرأ يوم الدار وجفل الناس فشناء عن ذلك يحيى بن اكثم وقال : يا أمير المؤمنين إن العامة لا تحتل هذا وسيما أهل خراسان ولا تأمن أن تكون لهم نفرة • وإن كانت لم تدر ما عاقبتها • والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه ولا تظهر لهم أنك تسيل السى فرقة من الفرق فإن ذلك أصلح في السياسة •••» ثم ذكر المأمون اقتناعه بهذا لشامة بن أشرس ، صديقه المعتزلي . فهون عليه أمر العامة وأنه لو وجه إنساناً على عاتقه سواد ومعه عصا لساق إليه عشرين ألفاً منهم^(١) .

ويبدو أن المأمون أقدم على النداء في النتيجة «وأنشئت الكتب إلى الآفاق بلعن معاوية على المنابر ••• فأعظم الناس ذلك وأكبروه •••»^(٢) .

ب - وأما تفضيل الإمام علي بن أبي طالب فقضية تتناقض مع وجود البيت العباسي نفسه • ولعلها قضية فكرية سياسية معاً دخلت على المأمون عن طريق ميوله الكلامية وتأثير صديقه المعتزلي شامة بن أشرس من جهة كما كانت نتيجة موقف البيت العباسي المناوئ له من جهة أخرى • فالمأمون انعزل ما بين سنة ١٨٦ وسنة ٢٠٤ في خراسان وقد وقف البيت العباسي في بغداد ضده أولاً مع الأمين سنة ١٩٥ ثم وقف ضده ثانية مع ابراهيم المهدي وجعله الخليفة سنة ٢٠٢ ثم وقف

(١) ابن أبي طاهر - تاريخ بغداد (بغداد في تاريخ الخلافة العباسية)

- (طبع بغداد سنة ١٩٦٨) ص ٥٠

(٢) المسعودي - مروج الذهب ج ٤ ص ٤١

ثالثة مع ابن عائشة سنة ٢١٠ بينما كان المأمون نفسه يتجه فكراً وجهة أخرى إذ كان في أول خلافته «...» يذهب مذاهب ملوك الفرس ويشتهي قراءة الكتب القديمة»^(١) . ويبدو أنه كان يناقش في خراسان الموقف العلوي ويتأثر برأي ثمامة بن اشرس المعتزلي وكان أول نتائج تلك المناقشات والتأثير أنه استدعى إليه من مكة الامام علياً الرضى وجعله ولياً للعهد سنة ٢٠١ .

غير أن المأمون لم يستطع فيما يظهر أن يحتل النتائج السياسية التي نجحت عن ذلك القرار فتحرك الى بغداد وتخلص على الطريق من الامام الرضى . كما طرح بعد أشهر من وصوله شعار الخصرة العلوي وعاد الى السواد العباسي ولكنه مع ذلك ، ورغم استقراره في الخلافة، لم يقبل القبول الحسن في بغداد . وقد قيل الكثير من الشعر في هجاء المأمون كقول ابن أبي نعيم :
ما أجسب الجور ينقضي وعلى الأمة وال من آل عباس !

ويذكرون أنه كان يجد الرقاع بشتيه وتهديده في الطريق للدرجة التي أمر بسنح رفعها إليه كما كان يلعن أحياناً في مجالس الفقهاء حتى اضطر لمعاقبة بشر المريسي في ذلك^(٢) أو يشتم ويسع الشتم فيتجاهله من الخدم والعامه^(٣) . ولعل السبب يعود الى احتفاظه بميله العلوي

(١) اليعقوبي - مشاكلة الناس لزمانهم ص ٢٧ - ٢٨ ،

(٢) ابن أبي طاهر - تاريخ بغداد ص ٣٧ وص ٥٣ .

(٣) انظر السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٢٢٠ وانظر المسعودي

ج ٤ ص ٢٢ .

والجهر به في بغداد . ذكروا أن السندي بن شاهك (صاحب شرطة الرشيد في السابق) خرج من عنده مرة يصيح في الحاشية :

— خبر عجيب ! قالوا ما هو . قال سمعته اليوم قدم علي بن أبي طالب على العباس وما ظننت أني أعيش حتى أسمع عباسياً يقول هذا ؟ فقال الفضل بن الربيع تعجب من هذا ؟ هذا والله كان قول أبيه قبله ! (١) .

وذكروا خبراً آخر أنه بعد أن دخل بغداد أمر قاضيه يحيى بن أكثم أن يجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم في بغداد فاختر منهم أربعين رجلاً وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم فلما انقضى المجلس قال المأمون ليحيى كره ذلك المجلس طوائف من الناس : فطائفة عابوا علينا ما نقول في تفضيل علي بن أبي طالب . . . وظنوا أنه لا يجوز تفضيل علي إلا بانتقاص غيره من السلف . والله ما استحل . . . أن انتقص الحجاج فكيف السلف الطيب . . .» (٢) وذكروا كذلك أن آل البيت العباسي عاتبوه في بره الشديد لآل علي وأنه ولاهم واعطاهم فقال . لم يول أبو بكر ولا عمر ولا عثمان أحداً من بني هاشم فلما جاء علي ما ترك أحداً حتى ولاه شيئاً فكانت هذه منة في اعناقنا حتى كافأته في ولده بما فعلت . . .» (٣) ونجد المأمون بالمقابل يأتي بالقاضي بشر بن الوليد الكندي قاضي بغداد أمام الفقهاء ، فيناقشه في حكم أصدره ضد رجل اتهم بشتيم أبي بكر وعمر فحكم بضربه وإطافته على جمل وقال المأمون : لقد أخطأت بهذا

(١) ابن طيفور — تاريخ بغداد ص ٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٠ .

(٣) السيوطي — تاريخ الخلفاء ص ٣٠٨ .

خمس عشرة خطيئة وبعد أن عددها له أمر به فحبس بداره حتى مات... (١) .

ويحفظ لنا ابن عبد ربه محضر جلسة جادل فيها المأمون أربعين فقيهاً في فضل علي ويستغرق حديث المأمون فيها سبع صفحات^(٢) تشبه أن تكون من وضع بعض المتكلمين المترسين . وكل هذا يعني أن المشكلة كانت قائمة في نفس المأمون وقد انتهى سنة ٢١٢ بإعلانها على الناس مع لعن معاوية ، يقول السيوطي إنه أمر أن ينادي برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير وأن أفضل الخلق بعد النبي عليه السلام علي بن أبي طالب على أنه من الهام أن نسجل هنا أن هذا التفضيل العلوي بقي لدى المأمون في الحدود النظرية دون أن يتحول إلى التطبيق السياسي بل كان المأمون يرفض نتائج السياسة : ومن أدلة ذلك أنه لم يتهاون مع العلويين في الأمر السياسي أبداً . وقد بلغه عن عبد الله بن طاهر أنه «يسيل إلى ولد أبي طالب وكذا كان أبوه وجده... فدفع المأمون ذلك وأنكره...» فلما أكدوه له «دس رجلا إلى ابن طاهر في هيئة النساك يظهر أنه يدعو للقاسم بن ابراهيم بن طباطبا العلوي ، ويتقرب إلى بطانة ابن طاهر ليعرف حقيقته... فلما تبين له أنه على الولاء العباسي «عاد إلى المأمون فأخبره الخبر فاستبشر وقال : ذاك غرس يدي...»^(٣) وعلى أي حال فإن المأمون مات وشيكا بعد ذلك ولم يعهد بالخلافة لعلوي ولكن عهد بها إلى أخيه المعتصم .

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٦٨ - ٤٦٩ .

(٢) ابن طيفور تاريخ بغداد ص ٧٩ - ٨٠ .

(٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٥ ص ١٩٥ - ١٠٢ .

ح - وأما القول بخلق القرآن فكانت هي المحنة الحقيقية . وقد
نضجت فكرتها لدى المأمون بالتدريج أيضاً ولعلها ظلت رأيه الخاص
عشر سنوات أو أكثر قبل أن يعلنه للناس ثم انتظر بعد ذلك ست
سنوات أخرى قبل أن يفرضه فرضاً على الدولة كمذهب رسمي .

يقول اليعقوبي : إن المأمون كان يشتهي كملوك الفرس قراءة
الكتب القديمة فلما قدم العراق اطرح ذلك وأظهر القول بالعدل
والتوحيد وجالس المتكلمين والفقهاء والأدباء وأقدمهم من البلدان
وأجري لهم الأرزاق فكثرت المتكلمون في أيامه ووضع كل امرئ كتاباً
ينصر قوله ويرد على من خالفه»^(١) .

والواقع أن المأمون استطاع أن يشغل الناس في بغداد بالجدل
الديني عن السياسة فتحوّلت العاصمة الى مركز غليان فكري زاد من
نشاطه كثرة ما ترجم في تلك الفترة نفسها وبأمر الخليفة وبدعسه وماله
من كتب الفلسفة وعلوم الأوائل على أيدي الترجمة من السريان كما
سهل سبيل الوصول إلى الكتب وهي غالية الاقتناء بسا وسع وأغنى به
بيت الحكمة من الكتب الموضوعة والمترجمة للمطالعة والنظر»^(٢) .

وأضاف المأمون الى ذلك كله أنه نظم مجالس اسبوعية يجلس
فيها يوم الثلاثاء للفقهاء^(٣) ويطرح عليهم المسائل ويشترك في مناقشتها،

(١) اليعقوبي - مشاكلة الناس ص ٢٨ .

(٢) من المعروف أن مؤسس بيت الحكمة أو خزانة الحكمة هو
الرشد في الغالب كما يظهر من نصوص ابن النديم والقفطي .

(٣) المسعودي - مروج الذهب ج ٤ ص ١٩ ، السيوطي تاريخ
الخلفاء ص ٣٢٧ .

أو يغري بعضهم ببعض ويجمع الأضداد في الفكر ليسمع الجدل... فتارة بين إمامي وزيدي ، وتارة بين معتزلي وآخر وقد اختاروا له منذ دخل بغداد مائة فقيه لمجلسته^(١) .

كان هذا يجري في الوقت الذي كانت فيه بعض الطوائف الأخرى غير الإسلامية ناشطة كل النشاط للوقوف فكرياً في وجه الاسلام وفي وجه تحول أتباعها الطوعي إليه لا عن طريق تجهيزهم بكافة المبادئ والاسلحة لمقاومته فقط ولكن عن طريق الهجوم أيضاً . كانت المانوية خاصة والنسطورية واليعقوبية تصارع بقوة لتحفظ بأتباعها عن طريق الهجوم على الدعوة الاسلامية وكان دعايتها يشرون التبشير النشيط بأفكارها مما جعل الموقف الاسلامي مضطراً بالضرورة لاستخدام «العقل» و «المنطق» والحجج الفلسفية في المعركة . وقد نستطيع لحد كبير أن نقول إنه لولا «الزندقة» وحركتها المعقدة الهجومية النشيطة لما كان الاعتزال أو على الأقل لما أخذ شكله العقلي المتطرف ولما حاول أن يصبح مذهب الدولة المفروض . لقد كان هو «جواب» الاسلام على حركات الزندقة أي على محاولات التشكيك والزيغ التي تعرض لها .

ويبدو أن المأمون كان خلال ذلك كله يفتش عن الموقف السياسي الديني العقلي الذي يحسم الأمر خاصة مع العقائد الأخرى ليفرضه مذهباً رسمياً على الناس . كما أنه من الناحية السياسية لم يكن

(١) انظر ابن طيفور - تاريخ بغداد الصفحات ١٥ - ١٦ ، ص ٣٠ ، ص ٣٥ ، ص ٤٠ و ص ٤٢ .

بالراضي عن البيت العباسي الذي كان أهل السنة والحديث والجماعة قد التفوا حوله ولا يريد تسليم الأمور للبيت العلوي الذي التف الشيعة بمذاهبهم الفكرية إليه . فاختط الطريق الفكري السياسي بين الطرفين . ويذكر المسعودي^(١) ، في هذا الصدد خبراً هاماً إذ يروي أن المأمون كان في مجلسه للمناظرة يوم الثلاثاء إذ استأذن في الدخول عليه رجل في ثياب بيض غلاظ مشمرة لينظره . ودخل الرجل ونعله في يده وقال للمأمون : أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت فيه . جلسته بإجماع الأمة أم بالمغالبة والقهر ؟ قال المأمون : لا بهذا ولا بهذا بل كان يتولى أمر المسلمين سلطان قبلي أحمداه المسلمين إما على رضى وإما على كره فعقد لي ولأخي معي . . . فلما صار الأمر إلي علمت أنني احتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها على الرضى . ثم نظرت فرأيت أنني متى تخلت عن المسلمين اضطرب جبل الإسلام وانتقصت أطرافه وغلب الهرج والفتنة . . . فتعطلت أحكام الله وانقطع الحج والجهاد ولم يكن لهم سلطان يجمعهم ويسوسهم وانقطعت السبل ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم فقامت بهذا الأمر حياطة للمسلمين . . . إلى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم على الرضى به فأسلم الأمر إليه وأكون كرجل من المسلمين^(٢) . . . فقال الرجل منصرفاً السلام عليكم ورحمة الله ! . . .

وقد انتهى جدل المأمون كله ، من الناحية العملية إلى أن يعلن سنة

(١) المسعودي - مروج الذهب ج ٤ ص ١٩ - ٢١ ، وقد نقله السيوطي مختصراً في تاريخ الخلفاء ص ٣٢٧ .

(٢) يلاحظ أن النص يوضح واجبات الخليفة في نظر العصر وهي ست : إنفاذ أحكام الله . الحج . الجهاد . سياسة الجماعة . أمن السبل ودفع المظالم .

٢٨٢ القول بخلق القرآن وأن يأخذ الناس بذلك بمعنى أن يصبح
الاعتزال المذهب الرسمي للدولة .

وليست مشكلة خلق القرآن جديدة من ابتكار عهد المأمون فقد
قال بها منذ أواخر العهد الأموي بدمشق الجعد بن درهم معلم مروان
ابن محمد ثم طلب فهرب وقتله عليها في الكوفة خالد بن عبد الله القسري .
وقال بها جهم بن صفوان الترمذي فقتله سالم بن أحوز في مرو سنة
١٢٨ وقال بها بشر المريسي أيام الرشيد وظل يدعو إليها أربعين سنة
ويؤلف الكتب فلا يأبه أحد للأمر وقد تهدده الرشيد عليها بالقتل
فتواري مدة خلافته كما قال بها كذلك المرداد أبو موسى كبير المعتزلة
في بغداد في عهد الرشيد وأثارها من بعده بشكل عنيف لفت إليها
الأنظار حتى أضحت من أهم المسائل في مدرسة بغداد الاعتزالية
وليست مشكلة خلق القرآن من جهة أخرى إيمانية ولا سياسية
ولكنها بنت المنطق البحث ، وبنت المنطق الصوري ايضا . فإذا كان
لا قديم إلا الله وكل ما عداه محدث وإذا كان القرآن محدثاً (لأنه لو
كان قديماً لشارك الله تعالى في قدمه وهذا مرفوض) وإذا كان كل محدث
مخلوقاً فالقرآن إذن مخلوق . ولكن هذه المسألة تحولت ، بأمر الخليفة
المأمون وأخيه من بعده (والمعتصم) وابن أخيه (الواثق) لتصبح رمز
الايان بسبب ارتباطها بالتوحيد وعدم تعدد صفات الله . وتحولت الى
موقف سياسي - ديني مزق الجماعة التي تطيف بالخلافة العباسية مدّة
تزيد على ١٦ سنة هي التي عرفت بالمحنة .

على أن هذه المحنة لم تبدأ بالاعلان المثلث الأطراف الذي تم سنة
٢١٢ بلعن معاوية وتفضيل علي على الصحابة كافة والقول بالاعتزال
وخلق القرآن فقد نجمت عن ذلك الاعلان هزة دينية عنيفة صدمت

أهل السنة والجماعة والحديث والعامّة ، في الوقت الذي كان أثر فقهاء السنة والشيعة الكبار قد بلغ الأوج وتأيد بظهور المذاهب الفقهية الكبرى تباعاً وكان بعض أصحابها المشهورين ما يزالون أحياء واسعي النفوذ مثل أحمد بن حنبل . . . وقد سجل المسعودي والسيوطي تلك الهزة بقولهما : « . . فاعظم الناس ذلك وأكبروه . واضطربت العامة . . » « . . فاشمأزت النفوس منه وكاد البلد يفتتن »^(١) وقد شعر المأمون بذلك فيما يظهر « وأشير عليه بترك ذلك فأعرض عما كان هم به » أو « لم يلتئم له من ذلك ما أراد فكف عنه . . . الى سنة ثمان عشرة » ولعل أشد ما أثار الفقهاء والمحدثين أن المأمون قد انتصر للمذهب العقلي على المذهب النقلي الذي كان التقى وكان مرور الزمن قد فعلا فعلهما في استقراره بالنفوس ويبدو أن عدداً من الظروف شغل المأمون عن متابعة الأمر بالتنفيذ الفعلي ولكن إثارته شحذت ذلك العداء الذي كان يزداد باستمرار بين أصحاب المنحى النقلي من المحدثين وبين أصحاب المنحى العقلي من المتكلمين والمعتزلة خاصة ولم يبلغ المأمون الأمر وإن كان لم يتابع الإلحاح بتنفيذه . وبداله سنة ٢١٥ أن يقوم بواجبات الإمامة في الجهاد فخرج منها في الجيش فلم يعد لها بعد ذلك لأنه شغل بحروب الروم وإخماد ثورة مصر وتدير أمر الشام عن العودة . ثم نجده فجأة وهو في دمشق سنة ٢١٨ . يعود فيعلن أخذ الناس جميعاً بخلق القرآن . . . وكان بينه وبين الموت يومذاك أشهر معدودة أربعة .

ويبدو أن فرض الاعتزال كمذهب رسمي عباسي على الناس كان

(١) المسعودي - مروج الذهب ج ٤ ص ٤٠ والسيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٣٠٨ .

يعتزل في صدر المأمون منذ زمن طويل وكان في حاشيته تياران :

أحدهما يمثله يحيى بن اكثم قاضي القضاة ويزيد بن هارون
الواسطي لا يقول بفرض رأي على الناس وقد روي عن المأمون قوله :
لولا مكان يزيد لأظهرت القول بخلق القرآن

والآخر يمثله ثمامة بن الأشرس وأحمد بن أبي دؤاد وكانا من
المتشددين في رأيهما الاعتزالي لا يريان الايمان إلا من خلاله ولا
يأبهان للعامة ومعارضتهم لأنهم أقل من أن يفهموا الدواعي الدينية
والسياسية الداعية لإدخال العقل الجدلي على الايمان ..

وقد توفي يزيد بن هارون سنة ٢٠٦ ثم توفي ابن اكثم سنة ٢١٧
وتولى قضاء القضاة مكانه ابن أبي دؤاد فحمل المأمون على امتحان
الناس بهذه المسألة رمزاً للايمان بالدين وللولاء للدولة .

وبالرغم من أن المأمون توفي بعد أربعة أشهر من اعلان الاعتزال
إلا إن بقاء ابن أبي دؤاد في منصبه ست عشرة سنة بعد المأمون مدة أيام
المعتصم والوائق ، جعل المحنة تدوم تلك المدة جميعاً معه

بدأت المحنة بأن أرسل المأمون وهو في دمشق الى والي بغداد
اسحق بن ابراهيم بكتاب طويل حفظ الطبري وابن طيفور نصه وفيه
أن على خليفة المسلمين حفظ الدين وأن الجمهور الأعظم من الرعية جاهل
قاصر العقل ولهذا يخطيء في فهم التوحيد . ولا يفرق بين الله وبين ما
خلق ثم جاء بالآيات القرآنية التي يفهم منها خلق القرآن : «إنا جعلناه
قرآناً عربياً .» «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» ..
ثم بين أن أناساً جادلوا بالباطل رفضوا ذلك ونسبوا أنفسهم الى السنة

وأنهم أهل الحق والدين والجماعة • فاستطالوا بذلك على الناس ومال قوم من أهل السميت إلى سيء آرائهم واولئك رؤوس الضلالة المنقوصون من التوحيد • • • • • وانهى بأن طلب الى الوالي أن يجمع من لديه من القضاة ويقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ويمتحنهم فيما يقولون • فمن لم يقل بخلق القرآن تلغى شهادته • وكتب المأمون بمثل هذا الكتاب الى مصر والكوفة •

ثم تلاحقت كتب المأمون : اختار أولاً سبعة من كبار المحدثين في بغداد منهم ابن سعد (صاحب الطبقات الكبرى) فطلب إشخاصهم الى دمشق ولعله قدر أنهم قد يكونون رأس الفتنة وامتحانهم بنفسه فأقروا أمامه بما يرى • ثم عاد المأمون فألحق بذلك كتاباً ثالثاً للتوسع في فرض الامتحان على جماهير المحدثين والقضاة والفقهاء • • • • • وهنا بدأت المعارضة تظهر من الكثيرين الذين رفضوا أن يقولوا بقول المعتزلة • فأتى كتاب المأمون الرابع تفضح أحوالهم وما يرتكب بعضهم من المخازي ومنها الربا والإثراء الحرام والسرقه ويأمر بعرضهم على القتل فمن أبى حمل الى الخليفة فلحق به الى طرسوس ، فحمل إليه اثنان • • ولكن الموت أدرك المأمون قبل أن يصل • ثم أدرك الموت أحد الاثنيين وهو عائد الى بغداد فتركزت رئاسة المعارضة في الثاني وهو أحمد ابن حنبل • • • • •

قصة المحنة بعد ذلك هي قصة اضطهاد ابن حنبل وأمثاله من قبل المعتصم ثم الواثق تحت تأثير القاضي ابن أبي دؤاد • فقد أوصى المأمون أخاه حين عهد إليه بالخلافة من بعده أن « يأخذ بسيرته في القرآن » وأن يطيع رأى القاضي ولم يكن المعتصم بذى علم • حتى إنه

«كان يكتب كتابة صفيقة» كما قال الصولي فحمل أمر أخيه على العمياء .
«وأمر أن يعلموا حتى الصبيان ذلك» . . .

وحبس ابن خنبل منذ وفاة المأمون ثم عقد له مجلس للمناظرة مع ابن أبي دؤاد سنة ٢٢٠ وقد دام المجلس ثلاثة أيام وهو مصر على الرفض فأمر المعتصم بضربه بالسياط حتى تعددت جراحاته وأعيد إلى السجن . وكان ما جرى عليه نموذجاً لما جرى على أمثاله . . . وإذا لم يقتل لزهده وضجيج الناس من أجله فقد قتل كثير من العلماء غيره .
«وأباد والي مصر فقهاءها وعلماءها إلى أن أجاب غالبهم بخلق القرآن»^(١)
وبعضهم هرب أو سجن .

ولم يستطع الواثق الذي ولي الخلافة سنة ٢٢٧ أن يغير من رأي ابن خنبل وقد واجه معارضاً آخر أشد خطراً وإن لم يكن أكثر علماً وعزيمة من ابن خنبل هو :

أحمد بن نصر الخزازي : حفيد أحد نقباء بني العباس . وكان للرجل رصيد واسع لدى العامة والناس منذ عمل في حركة الأمر بالمعروف في بغداد سنة ٢٠١ - ٢٠٤ كما كان له من دينه العميق ودالته ودالة أبيه وجدده على الدولة ما سمح له بالجراءة على الواثق في قضية خلق القرآن جرأة بلغت حد الفتية بالخنزير أو الكافر . وقد التفت حوله بسبب جرأته أهل الحديث خاصة وأعداد كبيرة من المتدينين حتى أضحت حلقاته مركزاً من مراكز المقاومة الدينية الواضحة في بغداد . وسرعان

(١) ابن تفردي بردى - النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢١٨ .

ما تحول هذا المركز الى المقاومة السياسية لأن الرجل كان يقول بالثورة على السلطان الجائر منذ أيامه الأولى . وقد تحرك في بغداد ضد المأمون ثم استتر سنوات طويلة زمن المعتصم فلما عاود الرفض للعقيدة الرسمية واعتبرها كفراً طالبه أصحابه بالعمل ضدها سلاحاً لا قولاً . ولم يجد بداً من الاجابة لا سيما بعد أن قصد القاضي أبا دؤاد في بعض الأمر فرده فانصرف ذاماً له وجعل ييسط عليه لسانه ويشهد عليه (كالوائق) بالكفر»^(١) .

وأخذت حركة ابن نصر شكل المؤامرة على سلامة الدولة . والثورة لخلع الواثق نفسه : هيئت لها البنود والأعلام . ونظمت عناصر الثورة وحددت لها مراكز التجمع عند ضرب الطبل ساعة الصفر وجمعت لها مخازن الأسلحة . تولى ذلك أثنان من اتباع ابن نصر . ولكن اختلاف موعد البدء بالثورة كشف بعض التأثيرين الذين انحازوا إلى ناحية صحراوية في خارج بغداد فأخذوا وأقروا على الحركة كلها (شعبان سنة ٢٣١) وقبض على أحمد بن نصر فقيده مع الزعماء الآخرين وسبق إلى سامراء مع أعلامه التي كانت خضراء فيها حمرة . وجلس الواثق للرجل مجلساً عاماً يحاكمه فيه ابن أبي دؤاد . «ولم يناظره الواثق - كما يقول الطبري - في الشغب ولا فيما رفع إليه من ارادته الخروج عليه» ولكن سأله في خلق القرآن فأبى الإقرار به «وحضر قوم فشهدوا عليه بشهادات» ويقال إنه أغلظ القول للواثق أو اجترأ في الجواب له فشتمه الواثق ثم قام بنفسه فقتله . ونصب رأسه في بغداد وفي أذنه رقعة كتب فيها «هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر ... أقر بالتشبية وتكلم بالكفر فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٢ .

ولعنه ...»^(١) وأما أصحابه الكبار فأثقلت لهم القيود «في حيوس الظلمة ومنعوا من أخذ الصدقات التي يعطيها أهل السجون ومنعوا من الزوار وهم نيف وعشرون رجلاً» .

كانت هذه الحركة ، في الواقع ، قمة المقاومة العامة لمذهب خلق القرآن وقد تركت أثرها السيء العميق جداً في نفوس الناس لدرجة أن المتوكل فيما بعد حين هم بانزال رأسه شعر أن حركة عامية واسعة ستقوم للاحتفال به وبدفنه فأمر رغم سياسته السنية المخالفة لخلق القرآن بإبقائه في مكانه^(٢) حتى أنزل سنة ٢٣٧ ... ومع ذلك فقد أخذ العامة يتمسحون بجنازته . وبالرغم من ذلك فإن الوثائق استمر في سياسته المعتزلية وبالنح بها حتى لقد أخذ بها العامة وأخذ بها الأسرى فمن أقربها فودى به ومن لم يقر بخلق القرآن ترك في الأسر ...

ولم تنته المحنة إلا بعد سنتين من خلافة المتوكل الذي لم يكن يحمل حساسة سابقه ولا يؤمن بالاعتزال كله . فلما كانت سنة ٢٣٤ «نهى فيها عن القول بخلق القرآن وكتب بذلك إلى الآفاق» وتنفس أهل السنة والحديث الصعداء بعد طول كبت وشدة . وبالرغم من ظلمه وعسفه فإن بعض الناس جعل الخلفاء ثلاثة : أبا بكر وعمر بن عبد العزيز والمتوكل في إحياء السنة ... وما من شك في أن رفض الناس للاعتزال كان السبب الأساسي في عودة المتوكل والخلفاء من بعده عنه .

(١) انظر لدى الطبري ج ٩ ص ١٣٥ - ١٣٩ تفاصيل ذلك (٣/١٣٤٣ - ١٣٥٠) وانظر السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٣٤١ واليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٢ .
(٢) انظر تفصيل ذلك لدى الطبري ج ٩ ص ١٩٠ (٣/١٤١٢) - ١٤١٣ .

لقد اضطروا كي لا ينفصلوا عن الناس أن ينفصلوا عن المذهب .
ويعودوا إلى السنة التي سبق لأسلافهم دعمها في الجماعة وإذا كانت
محنة «الاعتزال» محاولة من العباسيين لزيادة تحكمهم في الدولة والقفز
بالجماعة السنية الإسلامية خطوة أخرى نحو «عقلنة» الإسلام السني
مخنياً من جهة ونحو «دولنة» الإسلام السني سياسياً من جهة أخرى
وجعله من أعمال الدولة وفي إطار آرائها وتوجيهها فقد فشلت الخطوة
في التاحيتين وخرج المذهب السني من المحنة أشد قوة وتغلغلا في الناس
من ذي قبل وثبت أكثر فأكثر كمذهب رسمي عباسي ولكن بعد أن ترك
الجدل المنطقي العقلي الكثير من آثاره فيه ولعل أهم تلك الآثار أن
الناس ازدادوا تعصباً للتقليد وتمسكاً بالحديث واعتماداً في الفقه عليه .
كما أثبتت المحنة أن المذهب السني أضحى من عمق الجذور والقوة
بحيث لم يعد للمذاهب الأخرى وخاصة العلوية مجال النشاط ضده في
المشرق فلجأت بعد ذلك إما إلى السر والحركات السرية والباطنية وإما
إلى المغرب الإسلامي هرباً .

وأثبتت كتلة الفقهاء والمحدثين أخيراً أنها وإن كانت ربيبة الحكم
العباسي وتدين له بالدعم والقوة إلا أنها سرعان ما أضحت هي القوة
المؤثرة في الجماعات الإسلامية دون الخلفاء الذين عزلهم «الاعتزال»
وأبعدتهم أيام المحنة عن الناس فمشى النظام الديني الإسلامي بعد ذلك
مستقلاً لا يمثل الخليفة فيه أكثر من الرمز الديني دون أي سلطة فيه
ولو نجحت عملية الاعتزال لتحولت الخلافة إلى نظام يلعب في العقيدة
الدينية ما يشبه الدور الذي لعبه أباطرة بيزنطة في قيادة العقيدة
المسيحية .

الفصل الثاني

السياسة مع الذمة

موقف العباسيين الأوائل من أهل الذمة يكاد يكون في جانب من جوانبه الجزء المتمم لسياستهم الدينية ولكنه من ناحية أخرى صورة لعلاقتهم بإدارة وسياسة وعمل مع جزء كبير من سكان الدولة الإسلامية يكاد يكون نصف السكان . ومن هذا وذاك تأتي ضرورة بحث هذا الموقف في إطاره التاريخي كجزء من تاريخ بني العباس .

الموقف من أهل الذمة (النصارى واليهود والمجوس) (١)

كان من تمام العمل الديني للخلفاء العباسيين الأوائل ان ينفقوا الموقف الاسلامي اللازم من أصحاب الديانات والعقائد الأخرى المقبولة

(١) كتبت الابحاث الكثيرة في كتب التراث في تحديد علاقات النظام الاسلامي بالرعايا غير المسلمين ونجد تلك المباحث في كتب الخراج كما نجدها في كتب الفتوح وفي كتب الفقه والسير . وقد كتب أبو بكر الخلال كتاباً في «أحكام أهل الملل» ضاع أثره وكتب ابن قيم الجوزية كتاباً في «أحكام أهل الذمة» طبع سنة ١٩٦١ في مجلدين (بتحقيق صبحي الصالح) ولكنها جميعاً مباحث فقهية نظرية وقد نجد لدى ابن القيم شيئاً من التطبيق التاريخي في بعض الفصول مثل فصله في المنع من استعمال اليهود والنصارى في شيء من ولايات المسلمين (ص ٢٠٨ - ٢٣٦ من الجزء الاول) وقد كتب المستشرق ا.س. تريتون بالانكليزية كتاباً بعنوان أهل الفقة في الاسلام ترجمه حسن حبشي الى العربية وطبع في القاهرة سنة ١٩٤٧ ثم طبع ثانية سنة ١٩٦٧ ويبحث أحوال الذمة في مختلف العهود الإسلامية بشكل عام .

أو غير المقبولة من الاسلام . ذلكم هو الوجه الآخر السلبي للسياسة الدينية . وإذا كان تمييز أهل الذمة ، في بعض الأحيان والأزمات ، وكان رفض الزندقة ومحاربة المانوية نوعاً آخر من إثبات القيام بالواجبات الدينية للإمامة في نظر بني العباس فقد كان في الوقت نفسه صورة أخرى من صور الصراع في العصر العباسي الأول . وهو في هذه المرة ، ما بين الاسلام والعرب من جهة وما بين باقي العقائد والأقوام من جهة أخرى .

أ - أهل الذمة : اصطلاح أهل الذمة لم يكن مقصور المعنى على الكتابيين من النصارى واليهود فقط ولكنه كان يشمل أيضاً بإجماع الفقهاء وفي نظر النظام الاسلامي اتباع المجوسية الزرادشتية دون تفريق بينها وبين فروعها (من مزدكية ومانوية) . وقد دخل هؤلاء في حكم الذمة منذ عهد عمر بن الخطاب لما روى عن الرسول من قوله : « سنوا فيهم سنة أهل الكتاب »^(١) ومن أخذه الجزية من مجوس البحرين . وقد قبل المأمون في الذمة أيضاً فرقة الصابئة الحرائية عبدة النجوم ولكن كلمة الذمي كانت إنسا في ذلك للنصراني واليهودي بصورة خاصة .

وأهمية الموقف السياسي العباسي من الذمة تأخذ أبعادها من الأعداد الواسعة جداً من أبناء هذه الملل المختلفة التي كانت تعيش في ظل النظام الاسلامي مع المسلمين ولعلنا لانعدو الوقع إن قلنا إنهم كانوا يشكلون في العصر العباسي الأول عامة أكثر من نصف السكان في الدولة ويشكلون أكثرية واضحة في ايران والجزيرة وفي مصر وإذا كان الجناح الغربي من الدولة يدين سكانه الأصليون بالنصرانية وكان الجناح الشرقي على

(١) انظر ابن قيم الجوزية - أحكام أهل الذمة ج ١ ص ٦-٧ .

الزارداشتية • فقد كانت المذاهب هنا وهناك تنقسم الناس • فلاقباط (١)
مصر مذهبهم اليعقوبي الخاص كما كان المذهب الملكاني موجوداً لديهم
ولكنه كان هو الغالب في الشام ويليهِ الماروني بينما كانت المزدكية
مسيطرة في شمال غرب ايران والمأنوية تختلط مع الزارداشتية في
خراسان وما وراء النهر • وكان اليهود موزعين في مختلف المدن الاسلامية
من المشرق في خراسان الى اقصى المغرب •

اما العراق ، الذي اختاره العباسيون مقراً لهم والذي كان جغرافياً
في وسط الدولة فقد كان في الوقت نفسه نقطة التقاء وناذج هذه المذاهب
كلها • وكان يتميز باحتوائه ما بين السواد حتى مناطق الجزيرة العليا على
خليط ديني معقد تتعايش فيه مع الاسلام والنصرانية واليهودية رواسب
العقائد الوثنية كالصابئة بنوعها البطائحي (القريب من النصرانية)
والحراني (المتصل بالنجوم) وتزاحم فيه المأنوية الديانة الزارداشتية
المجوسية كما تظهر على أرضه تلك الطوائف الخليفة بين النصرانية
والمجوسية كالديسانية والمرقيونية ويستقر فيه تلك الجماعات النصرانية
الشرقية المنشقة من نساطرة ويعاقبه (٢) سريان وهي مذاهب لا هي بالراضية
عن كنيسة بيزنطة أو روما ولا تلك الكنائس بالراضية عنها •

(١) اقباط مصر هم بدورهم يعاقبة وقد أخذوا اسمهم من اسم
مؤسس المذهب يعقوب البرادعي (السروجي) وأصل الكلمة ياقوبيط
باللاتينية أي يعقوبي وهم يقولون بالطبيعة الواحدة الإلهية للسيد المسيح
(مونوفيتية) . أما المذهب الملكاني فهو المذهب البزنطي الرسمي الذي
يقول منذ عهد هرقل بالمشيئة الواحدة . ويسمى أيضاً بالمذهب الخلقيدوني
(نسبة الى خلقيدونيا مكان اجتماع المجمع الذي قرر ذلك) وهم اليوم
طائفة الروم الارثوذكس •

(٢) الكنيسة النسطورية تدعى خطأ بهذا الاسم وانما هي الكنيسة
السريانية الشرقية أو كنيسة الشرق ويعود وجودها الى ما قبل الراهب

وبالرغم من ان الموقف الفقهي الاسلامي هو الاساس في الموقف العباسي والموقف الاموي قبله من الذمة فلا شأن لنا ببحثه هنا من الناحية النظرية وبيان أحكام الدين في رعاية أهل الكتاب وجباية الجزية منهم ومنحهم حرية العبادة وحسن المعاملة وحفظهم في معابدهم وأموالهم ورهبانهم لقد حدد ابو يوسف في كتاب الخراج هذا الموقف الفقهي للعباسيين اذ قال للرشييد : « ... ينبغي أن تتقدم بالرفق بأهل الذمة والتفقد لهم حتى لا يظلموا أو لا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم ... »^(١) . وإنما يهمنا من هذه المبادئ التطبيق العملي ...

التطبيق العملي وكيف ترجم العباسيون تلك الأحكام والأوامر الدينية من خلال الواقع الحياتي والظروف المتطورة إلى أعمال ومواقف تاريخية ساسوا فيها الناس . يهمنا اذن ما كان وليس ما يجب أن يكون .

ب - الأسس العامة للموقف العباسي والذمي : وفي هذا المجال نجد مبدئياً أنه لولا الصبغة الاسلامية المتزايدة التي اتخذتها الخلافة العباسية خلال عصرها الأول لما كان بالامكان التمييز ما بين موقف بني العباس وموقف بني أمية السابقين من الذمة . ولقد يكون الأمويون بذلوا اهتماماً أوسع للمناطق الغربية الممتلئة بالمسيحيين بينما اهتم بنو العباس

نسطوروس الذي تنسب اليه بأكثر من قرنين ونصف القرن ولكننا جارينا التسمية الدارجة . أما اليعاقبة فهم أصحاب الكنيسة السريانية الغربية . ويرفضون التسمية باليعاقبة (نسبة ليعقوب الرهاوي السروجي) نفسه ولكننا ايضا اخذنا بالمصطلح الدارج في تسميتهم وهم يدعون حالياً بالسريان الارثوذكس .

(١) أبو يوسف ، كتاب الخراج ص ٧١ .

بالمشرق الإيراني المجوسي الاصل ولقد تكون عملية التجول الى الاسلام ازدادت في العصر العباسي عنها في العصر الأموي بسبب عوامل كثيرة منها تشجيع الخلفاء العباسيين ، ولقد يكون هؤلاء الخلفاء اخيرا اكثر اهتماماً بالمظهر الاسلامي لسياستهم من الامويين ، ولكن هذه الفروق رغم أهميتها لم تكن هي التي تصوغ وجدها الموقف العباسي من اهل الذمة .

والعوامل الأساسية التي كانت تصوغ ذلك الموقف إنما كانت حصيلة عناصر ثلاثة :

الأول : أن أعداد المسلمين — عدا العرب — وإن كانت تتكاثر باستمرار إلا إنها لم تكن كثيرة طاغية ، وكانت تتركز في المدن بصورة خاصة بينما كان الريف سواء في ايران أو العراق أو الجزائر أو الشام أو مصر يحوي كتلة السكان المحافظة على دينها السابق . وكان السبق الحضاري لهذه المناطق يعطى أبناءها الأولين أن تكون لهم الصناعات والحرف وبأيديهم الأعمال الحياتية وأن تكون فيهم العلوم الأولى ، وكانت الحاجة إلى الحرف والزراعة والى الإسيس الحضارية في اقامة الدولة تفرض على المسلمين الفاتحين — بالإضافة إلى أوامر الدين الإسلامي برعاية الذميين — أن يقيموا بينهم وبين أهل الذمة التعايش السلمي المتعاون . وهذا بالضبط ماكان في كل مكان وما استقرت عليه السياسة الإسلامية منذ العهد الأموي واستمر عليه بنو العباس مبن بعد . وكانوا يشاركون في حياة المدن الاقتصادية عامة والاجتماعية والأدبية والعلمية وفي المهن المختلفة دون أي تمييز وكان منهم التجار والصراف والبراز والمهندس والنحاس والعطار وصاحب الاقطاع والجوهري بل احتكروا غالباً بعض الأعمال كالطب والتنجيم ودخلوا وظائف الدولة وبرزت منهم كفايات إدارية في سلك الكتاب وعمال

الخراج واستقبلوا بالاحترام في بلاط الخلفاء كما اعترف لهم بقانونهم الديني ورؤسائهم الروحيين وإن كان هذا كله لم يمنع اجتماعياً من تعرضهم لبعض التحديات الناجمة من اعتزاز المسلمين بقوة الدولة وشعورهم بالتفوق السياسي والاجتماعي . على ان هذا الخط العام الثابت من التعايش الاخوي كان يضرب أحيانا بفعل العاملين الآخرين التاليين :

الثاني : ضغط الاحداث على جبهة الروم : فإن بقاء الدولة البيزنطية واتصالها الجغرافي والديني بمناطق المسيحيين في الجزيرة والشام ومصر وصلتها الروحية بهم جعل هؤلاء الذميين موضع الريبة من قبل النظام الاسلامي . وقد برهنت الأحداث التي استخدم فيها الروم هؤلاء النصارى كرأس جسر ومنطلق إلى الأراضي الاسلامية على صدق تلك الريبة . ولم يكن كذلك الموقف من المجوس الذين فقدوا منذ عهد الفتوح دولتهم نهائياً . وهكذا كان ضغط الاحداث على جبهة الروم ، وهي القرية من العراق ، ينعكس أحياناً على موقف العباسيين من الذميين عامة ويتجلى في عدد من المضايقات التي لا تمس ، في أي حال ، دينهم أو أموالهم أو معابدهم أو نظامهم الكنسي وإنما تنصب خاصة على تمييزهم الطائفي عن المسلمين في اللباس والمعاملة ومنعهم من الجهر بالعبادة أو إظهار الشعائر . أو بناء المزيد من المعابد . ومثال ذلك ما جرى في عهد الرشيد والمتوكل . ولما كان هذا العامل عارضا فإن تحول الأحداث الحربية مع الروم كان كفيلا دوماً بالغاء هذه المضايقات بسرعة أو تناسي تطبيقها والعودة الى خط التعايش الثابت الاول .

الثالث : ضغط رجال الدين وردود فعلهم ضد طغيان بعض الموظفين الذميين : فإن رعاية الخلفاء العباسيين للفقهاء والعلماء واضطرارهم السياسي والديني لسماع مواعظهم وتوجيهاتهم — سواء عن تدين أو مخافة تحرك العامة — كان من أسس السياسة العباسية . وكثيرا ما كانت

هذه المواعظ والتوجيهات تمس قضية الذمة واستخدامهم خاصة في الدولة وكانت الاستجابة لها غالباً ما تنصب على طرد الذميين من الوظائف أو مصادرة بعضهم بما أساءوا استغلاله من المنصب • وهكذا نجد وراء كل تصرف من هذا النوع جرى في عهد المنصور والمهدي والمأمون والمتوكل ، موعظة من فقيه عالم أو شكوى محقة لامست موضع الإثارة الدينية من الخليفة • ولكن هذا التأثير كان بدوره عارضاً فما إن تهدأ الأمور بعد عاصفة التسريح والصرف من الأعمال حتى تعود عملية التعاون والتعايش المعتادة الدائمة الى سابق عهدها •••

ولعل من الهام أن نسجل قبل الانصراف الى سياسة العباسيين الذمية هذه الملاحظات الأربع :

الأولى : أن جميع الاجراءات التي كانت تتخذ ضد الذميين كانت تنصب على النصارى واليهود فقط دون المجوس ، وتصيبهم في بغداد والعراق خاصة دون باقي انحاء الدولة ونذر أن كان يتفق تعميمها كما جرى في عهد المتوكل • أما المجوس فكان يأتي الاضطهاد لبعضهم من الاتهام بالزندقة • وكان يشمل أصحاب الوظائف منهم تحت هذا الشعار لا بسبب الريّة أو عدم الولاء أو التسلط والتعسف على المسلمين • وعلى أي حال فلم تبلغ الاضطهادات في أقصى أدوارها العنف الذي بلغته الحملة على الزنادقة والملحدين وأصحاب المجون بالرغم من أن التحدي النصراني، حسب رأي الجاحظ لم يكن ، من ناحية الخطر على العقيدة الاسلامية ، بأقل من التحدي المانوي •

وإذا اضطهد بعض المسيحيين اضطهاداً قاسياً فلم يكن ذلك نصرانيتهم ولكن لاتهامهم بالزندقة وهذا ما يفهم من إشارات المؤرخ دنييسوس التلمحري عن اضطهادات النصارى والمانوية من عبده الرقوس

في الجزيرة وما يفهم أيضاً من أقوال المؤرخ الآخر ميخائيل الكبير
(السوري) البطريق الذي يجعل اضطهاد النصارى جزءاً من حركة
اضطهاد الزندقة المانوية^(١) .

الثانية : أن تلك الأزمات وأيام التوتر التي كانت تصيب النصارى
واليهود من الذمة في العصر العباسي الأول لم تكن لا في نظر الخلفاء ولا
في نظر رجال الدين عمليات هجومية انتقامية وإنما كانت في أساسها
الأعمق عمليات دفاعية . وإذا كان الخلفاء والفقهاء يقومون بها فانما
كانوا - من وجهة نظرهم - يقومون بجزء من واجبهم « الإمامي »
والديني في الدفاع عن الاسلام وأرضه وأهله ومصالحه . وليس من
قبيل الاعتذار عن تلك الأزمات أن نذكر هنا بالشهداء المسيحيين على
أيدي الرومان الوثنيين . ولا بما قاساه الوثنيون على أيدي المسيحيين
بعد ذلك حين تسلمت المسيحية الحكم في العالم الروماني ولا بما لقي
المانويون والمزديكيون من الاضطهاد باسم الزندقة من قبل المذهب
الزارادشتي الرسمي في العهد الساساني . تلك الاضطهادات التي لم
يبلغها على أي حال ، ولا في جزء منها ، موقف الاسلام العباسي من الذمة ،
كانت هي أساس التعامل بين الجماعات الدينية المتباينة في تلك العصور .

(١) كتب راهب سرياني من القرن الثامن الميلادي تاريخاً سريانياً من
أربعة أقسام شرح في نهاية قسمه الرابع المصائب التي حلت بالسريان
فيما بين سنتي ٧٦٧-٧٧٥ فيما بين النهرين وقد نسب الكتاب خطأ الى
البطريق دنيس التلمحري من القرن التاسع ونشره الاب شابو في باريس
سنة ١٨٩٥ كما نشر هو نفسه أيضاً ، بعد ذلك تاريخ ميشيل السوري
(من القرن الثاني عشر) بالسريانية والفرنسية سنة ١٨٩٩ و سنة ١٩١٠
وفيه بعض الاخبار التاريخية عن نصاري الجزيرة اليعاقبة مع تاريخ
الكنيسة .

الثالثة : أن الذميين لم يكونوا بدورهم سلبين لاتجاه السياسة العباسية ولاتجاه الاسلام والمجتمع الاسلامي فأما مع نظام الحكم فقد امتدت مواقفهم ما بين التعاون المطلق غالباً وبين العصيان المسلح أحياناً في بعض المناطق . وقد كان من العادي أن يرى بين رجال البلاط أكثر من موظف كبير (طبيب أو منجم أو كاتب) من أهل الذمة وأن يحضر بعضهم مجالس الخلفاء للعمل أو المناظرة العلمية (أمام المهدي والرشيدي والمأمون) وأن يزور الجائليق والبطريق قصر الخلافة بين آونة وأخرى . وأن يزيتوا بعض البلدان وينصبوا الأقواس وينثروا الريحان ويقدموا الولائم والهدايا لمزور الخليفة^(١) . كما كانت شفاعاتهم تقبل في الكثير من الأمور لأبناء نحلته . وقد يتولون للدولة الخراج عمالاً عليه أو يكون منهم الكتاب في الدواوين المختلفة ولا سيما في إيران والجزيرة والسواد ومصر .

وكانوا في فترات الأزمات والتوتر ينحنون للعاصفة الى أن تمر : يلبسون الغيار أو يضمون الزرار والشارات المميزة فترة قصيرة ثم ما يلبثون أن يصلوا إلى إلغاء القرار الاضطهادي . وقد جرى ذلك أكثر من مرة فإن لم يبلغ رسمياً أهل في التطبيق تدريجياً حتى يصبح حبراً على ورق ثم نسياً منسياً . ولو أن تلك القراوات المتكررة بطرد الذمة أو إلزامهم بالتمييز عن المسلمين أو غير ذلك بقيت مرفعة التطبيق دائماً منذ صدرت أول مرة لما سمعنا بتكررها مرة بعد مرة على توالي عهود الخلفاء .

(١) كما جرى للمأمون في مصر بقرية (طاء النمل) مع مارية القبطية وللمتوكل مع مطران نصيبين حين اجتازها إلى الشام .

وما من شك في أن تلك المضايقات كانت تحز في نفوس الذميين وتهدد الكثير منهم في وضعهم الاجتماعي أو مواردهم المالية أو مركزهم المعنوي ولكننا ندر جداً أن سمعنا تمرداً عليها أو تحدياً لها . أما ما سجل من العصيان المسلح سواء في بعض أحداث إيران أو الجزيرة أو بخاصة في مصر من قبل القبط فقد كانت أسبابه مالية خراجية دوماً تتعلق بالتعسف في الجباية أو التزيد فيها ، لا بأوامر التمييز والتضييق الاجتماعي أو الديني . وقد سجل القبط خلال القرن الذي يمتد ما بين سنة ١٠٧ و سنة ٢١٦ ثمانى حركات من التمرد والثورة توالى :
(أ) ثلاث منها في العهد الأموي سنة ١٠٧ في الدلتا ، سنة ١٢١ في الوجه القبلي ، سنة ١٣٢ في سمنود .

ب - وخمسة منها في العهد العباسي سنة ١٣٥ في سمنود و سنة ١٥٠ في سخا و سنة ١٥٢ في بلهيب ، و سنة ٢١١ في الوجه القبلي وسنة ٢١٦ في الدلتا خاصة .

وهذه الثورات كافة إنما كان الباعث عليها العسف المالي . وهذا العسف كثيراً ما كان القائمون عليه من الموظفين الذمة أنفسهم .
وأما مع الاسلام والمجتمع الاسلامي فقد كان للنسطورية واليعقوية - بجانب ما كان للمانوية والمزدكية - أجهزتها التبشيرية الناشطة . ونقرأ بوضوح في تاريخ بطارقة الكرسي النسطوري واليعقوبي جهود هؤلاء البطارقة ووفودهم التبشيرية المرسله إلى أطراف الدولة العباسية^(١) :

(١) انظر عمرو بن متى ، اخبار بطارقة كرسي المشرق (طبع روما سنة ١٨٩٦) ص ٧٣ وص ٧٤ . وانظر كذلك ماري بن سليمان ، اخبار بطارقة كرسي المشرق (طبع روما سنة ١٨٩٩) ص ٧٣ وص ٧٤ وقد كشف راهب نسطوري كتب سنة ٨٤٠ م (أي سنة ٢٢٨ هـ) تاريخ الكنيسة عن بعوث تبشيرية كانت ترسل الى جنوب الجزيرة العربية والى خراسان وما وراء

إلى شواطئ بحر الخزر ، وجنوب جزيرة العرب والى بلاد الترك والى الصين^(١) في الدعوة لعقائدهم وذلك في عهد المنصور والمهدي والرشد وبديهي أنه قوة الدولة الاسلامية في المركز كانت تدفع المبشرين الى الاطراف ولكن هذا لايعني أنهم كانوا لا يعملون على التبشير في كل مكان يستطيعونه من أراضي الدولة وفي كل فرصة أيضاً بل تعد هذه من أخصب وألمع الفترات في تاريخ الكنيسة النسطورية .

وإذا كان المسلمون يجادلون ويؤلفون في الرد على النصارى وعلى المانوية وغيرها فقد وضع النساطرة واليعاقبة بدورهم ، ردودهم على الاسلام أيضاً رسائل وكتباً كثيرة بالسريانية لأتباعهم . وما يزال بعض هذا الذي كتب محفوظاً في تراث هذه الفرق . وثمة رسالة يذكر البطريرق طيماتاوس النسطوري (الذي بقي على كرسي الجاثليق ثلاثاً وأربعين سنة ما بين عهدي المهدي والمأمون) أنه بين فيها محاسن المسيحية للمهدي في مناقشة طويلة معه . وقد اعتمدها السريان وترجموها الى العربية فبقيت منها نسخ مخطوطة كثيرة^(٢) .

النهر والى الصين (طبع الكتاب بعنوان History of the Superiors بعناية W. Budge في لندن سنة ١٨٩٣) انظر الادب السرياني - بالفرنسية - تأليف شابو ص ١١١ .

(١) يظهر اسم البطريرق النسطوري حنان يشوع الثاني (البطريرق ما بين سنتي ٧٧٤-٧٧٩ في عهد المنصور) على النصب التذكاري السرياني الصيني الذي اقيم سنة ٧٨١ في سين غان فو . وهو يسجل إدخال المسيحية الى الصين . (انظر الادب السرياني ص ١٠٦-١٠٧) . وعليه بالصينية والسريانية اسماء ٧٦ مرسلاً من المبشرين والنصب ما يزال قائماً الى اليوم .

(٢) طبعت هذه الرسالة مع رسائل أخرى في باريس سنة ١٩١٤ من قبل الاب Braum بالسريانية واللاتينية وهي موجودة بالعربية .

وهذه المناقشات إذا كانت تجري مع الخلفاء أنفسهم فلا شك أنها كانت تجري على نطاق أوسع في طبقات العلماء والشعب على مستويات مختلفة وهي إن دلت على شيء فعلى أن أهل الذمة اتخذوا جانب الهجوم الدفاعي في كثير من الأحيان . ومحاولاتهم الجدلية إن لم يكن هدفها كسب المسلمين فهدفها على الأقل عدم خسارة الاتباع .

الرابعة : هي أن حصيلة كل من السياسة العباسية تجاه الذمة والموقف الذمي تجاه النظام الاسلامي كانت في جانب الاسلام وتكاثر عدد المؤمنين به^(١) وبالرغم من أنه لم تسجل حوادث أرغم فيها الناس على التحول الى الدين الاسلامي . لكن مختلف العوامل من جدل أو اجراءات تمييز أو رغبة بالخلاص من الخراج والجزية أو طمع الحكاة بالدولة أو اقتناع بالدين انتهت كلها بأن تثقل كثير من الجماعات الذمية الى الاسلام . ولعل مما كان يزيد في تقمة الذميين وكنائسهم وغماتهم ويزيد في شعورهم بالغبن أنهم كانوا يخسرون باستمرار الاكثريّة العددية لمصلحة الجانب الاسلامي . كما كانت عملية التحول تستتبع أحياناً كثيرة نوعاً من المظلم للمالي الشديد في المناطق التي كان الخراج وكانت الجزية فيها ضريبة جماعية محددة على القرية أو المنطقة . فكان على الباقين في الدين القديم أن يدفعوا مع ضريبتهم ضرائب من أسلم منهم . أو من هرب من قريته وحقله أيضاً . وكان ذلك كثيراً ما يحدث في مصر وفي

(١) لنلاحظ ان حركة التعمير أي شيوع اللغة العربية لحقت انتشار الاسلام : وحلت اللغة العربية محل اللغات المحلية من قبطية وسريانية وبهلوية لكنها نجحت في ذلك في العصر العباسي الثاني لا الاول كما انها نجحت بكل مكان في إلغاء اللغات الاخرى ما عدا ايراني فبعد ان تعادلت معها لم تستطع الغاءها فعادت

الجزيرة وخراسان . وهكذا فإن الذميين كانوا في مطالع العصر العباسي هم الاكثرية الواضحة في ايران كلها وفي الجزيرة ومصر ولحد ما في الشام تحولوا في نهاية العصر إلى أن أصبحوا هم العدد الأقل المتناقص باستمرار بينما حافظت أرقام الجباية في الخراج والجزية وغيرها على أرقامها وكثيراً ما ارتفعت عن ذي قبل فكان ضيق الذميين ينبع اذن في وقت واحد من منبعين : نفسي - ديني ناجم عن خسارة الجماعة الدينية ونقصها . ومالي - اقتصادي ناجم عن زيادة نسبة الضرائب حتى الارهاق .

ج - الذمة في عصر المنصور : يمكن القول إن الذميين من النصارى واليهود لم يأبھوا بانتقال الحكم من آل أمية إلى بني العباس ومن الشام إلى العراق . لقد يكون الذمة المجوس قد بنوا العديد من الآمال على هذا الانقلاب واعتبروا أنفسهم حلفاء للعهد الجديد فترة قصيرة من الوقت ثم مالبثوا ، حين تبينوا واقعه العربي الاسلامي أن ثاروا عليه ثورات مسلحة عديدة لكن طوائف النصارى لم تشترك فيه أبداً وبالتالي لم تنتظر منه شيئاً ولهذا فإن أبا العباس ماكان بالنسبة إليهم أكثر من خليفة جديد كغيره ويذكرون أنه لما ظهر في الكوفة عمد النجرانية (نصارى نجران الذين أجلاهم عمر بن الخطاب إلى العراق) إلى طريق أبي العباس فثروا فيه الرياحين وهو منصرف إلى منزله من المسجد فأعجبه ذلك من فعلهم ولم يكن ذلك حباً في بني العباس ولكن كيداً بالوالي الأموي الذي أعاد عليهم الجزية القديمة بعد أن خفضها عمر بن عبد العزيز الى عشرها^(١) وعرضوا الأمر على أبي العباس فجعل جزيتهم مائتي حلة فقط .

(١) كانت على عهد الرسول الفي حلة فخفضها عمر بن عبد العزيز الى مائتين فقط قيمتها ثمانية الاف درهم فأعادها يوسف بن عمر أيام الوليد بن يزيد الى ما كانت من قبل . (انظر الموضوع كله لدى البلاذري - فتوح البلدان ص ٨٠-٨١) .

ويذكرون كذلك أن خلافاً جرى بين النساطرة في اختيار الجائليق سنة ١٣٣ واستنصر أحدهم وهو المطران سورين بأمير المدائن المسمى أباناً • « حتى وكل بالناس يوم خميس الفصح وألزمهم بسيامته قهراً بالسلاح ••• واستغاث الآباء الى السفاح وعرفوه الحال ف ضرب أباناً وردهم الى اختيارهم (الحر) •••»^(١) • فأقالوا سورين واختاروا يعقوب الجنديسابوري بطريقاً آخر بدلاً منه بعد أقل من شهرين من تنصيبه !

هذان المثالان قد يكفيان لبيان الموقف العباسي المبدئي من الذمة • وقد جاء المنصور بسرعة بعد أبي العباس فأعطى هذا الموقف أبعاداً أخرى :

استخدم أبو جعفر أهل الذمة ويبدو أنه استخدمهم بشكل واسع : فكان منهم طبيبه النصراني : الخصيب^(٢) الذي توفي على يديه ابن السفاح وغيره فمات في السجن ، ثم استقدم المنصور من بعده جرجيس ابن بختيشوع من جنديسابور^(٣) حين أدركه ضعف في معدته بعد سنة ١٤٨ • وزاد مرضه بـمعالجة الأطباء فشفى على يد جرجيس وأراد أبو جعفر مكافأته فأهداه بعض الجوارى فأعادهن ثم بلغ من تكريمه أن أمر بإحضار الخمر له من قطر بل « واكمه كما يكرم أخص الأهل » • ثم مرض جرجيس سنة ١٥٢ فسمح له أبو جعفر أن يعود مع أكبر الرعاية الى بلده^(٤) بعد أن ترك عند أبي جعفر تلميذه عيسى بن شهلاثا •••

(١) انظر ماري بن سليمان - اخبار البطارقة ص ٩٦ •

(٢) الطبري ج ٨ ص ٨٦ (٤٢٣/٣) وانظر كذلك الاغانى ج ١٣ ص ٩٥ •

(٣) ابن انعبري ص ١٢٤-١٢٥ وانظر كذلك ماري بن سليمان -

اخبار بطارقة كرسي المشرق ص ٦٨-٦٩ والقفطي - تاريخ الحكماء ص ١٥٨-١٦٠ •

(٤) انظر ماري بن سليمان اخبار بطارقة كرسي المشرق ص ٦٧ •

وقد تدخل عيسى في مشاكل الطائفة النسطورية حتى صار أمرها بين يديه وجبى منها الأموال وتقاضى آباء الطائفة الخضوع له . ويبدو أنه هدد مرة مطران نصيين إن امتنع عن دفع مارتبه عليه من المال وما طلبه من أدوات البيعة الثمينة عنده وكتب له : الست تعلم أن أمر الخليفة في يدي إن أردت أمرضته وإن أردت شفيته فاحتال المطران حتى أوصل الكتاب الى الربيع بن يونس الذي قرأ ما فيه على أبي جعفر فأمر بصادرة جميع ما يملكه عيسى ونفاه مع زوجته الى الهند . . . وكان حول بلاط المنصور أيضاً مطران نصيين المدعو قوفريانوس الذي قربه الخليفة وابراهيم الطبيب الذي خلف عيسى والمطران اسحق اليعقوبي الذي ادعى معرفة الكيمياء له وسر الذهب^(١) ونوبخت المنجم الفارسي المجوسي الذي كان يرافق الخليفة فلما ضعف أتى بولده بدلاً عنه واستطال ابو جعفر اسم الولد بالفارسية فكناه بأبي سهل^(٢) . . . أما خارج القصر فيبدو أن الذميين كانوا كثيرين بين عمال الخراج وكان موسى اليهودي^(٣) أحد اثنين من هؤلاء العمال الذين عينهم المنصور في السواد . كما أوكل إلى الكثيرين منهم بأن يقبضوا ما يجدونه لبني أمية ومنحهم حرية التحري والعسف في ذلك وفي غيره . ويبدو ان الصلة الطيبة بين مطران نصيين والخليفة أعانتته في أن يقيم سنة ١٤١ مذبح وهيكل الكنيسة الكبرى في البلد دون تخرج^(٤) .

(١) انظر ماري بن سليمان - أخبار ص ٦٩ وكتاب ترتون - أهل الذمة في الاسلام (الطبعة العربية ترجمة حبشي) ص ٨٧ .

(٢) ابن العبري ص ١٥ .

(٣) المبرد - الكامل ١ ص ٧٩ .

(٤) انظر المجلد السابع من Corp. Serip. Chris. Or. المسمى
Chronographié d'Elie de Nisibe , Lrris , 1884 , P. 128 .

ويبدو أن هذا التسامح الواسع من المنصور لم يكن ليجد أي اعتراض من الفقهاء ورجال الدين المسلمين والناس لولا أن بعض هؤلاء العمال الذميين أساءوا استغلال وظائفهم » فظلموا وعسفوا وأخذوا الضياع وغصبوا الأموال وجاروا على المسلمين واتخذوا (تسامح الخليفة) سلماً لشهواتهم ... » كما يقول شبيب بن شيبه الذي اجتمع إليه جماعة من المسلمين والمنصور في الحج فطلبوا إليه مخاطبة المنصور في أن يرفع عنهم المظالم ولا يمكن النصارى من ظلمهم وعسفهم في ضياعهم ويمنعهم من انتهاك حرمتهم وتحريمهم لكونه أمرهم أن يقبضوا ما وجدوه لبني أمية . ويضيف شبيب أنه طاف مع أبي جعفر فشبك أصابعه على أصابعه واستأذن أن يكلمه بما في نفسه وقال له : يا أمير المؤمنين إنها وصية الله . اليكم جاءت ... وإليكم تؤدي . إن دون أبوابك نيراناً تأجج من الظلم والجور لا يعمل فيها بكتاب الله ولا سنة نبيه . يا أمير المؤمنين سلطت الذمة على المسلمين . ظلموهم . وعسفوهم ... ولن يقضوا عنك من الله شيئاً يوم القيامة . فقال المنصور : خذ خاتمي فابعث به إلى من تعرفه من المسلمين . وقال ياربيع (الربيع بن يونس) اكتب إلى الأعمال فاصرف من بها من الذمة . ومن أتاك به شيب فأعلمنا بمكانه لنوقع استخدامه . فقال شبيب يا أمير المؤمنين . إن المسلمين لا يأتونك وهؤلاء الكفرة في خدمتك ... ولكن .. كلما وليت رجلاً عزلت آخر (١) .

ولعل هذا الأمر إنما كان في حج أبي جعفر سنة ١٤٠ أو سنة ١٤٤ والجهشياري يضيف إليه أن المنصور قلد حماداً التركي تعديل السواد وأمره أن ينزل الأنبار ولا يدع أحداً من أهل الذمة يكتب لأحد من العمال

(١) ابن قيم الجوزية - أحكام أهل الذمة ج ١ ص ٢١٤-٢١٥ .

المسلمين إلا قطع يده • فأخذ حماد ماهويه الواسطي (وهو مجوسي فيما يبدو كما أنه جد سليمان بن وهب) فقطع يده! • (١) والخبران يدلان على توسع الدولة وعمالها في استخدام الذميين كما أن الأمر بإخراجهم من الأعمال كان مجرد تدبير عارض لأننا سوف نفاجأ بهم وقد كثروا « وقويت شوكتهم » في عهد المهدي من بعد !

ومن جهة أخرى فقد تدخل المنصور فيما كان قد امتنع عنه أخوه أبو المعباس من أمر اختيار رؤساء الكنيسة : وكان الأمويون يفعلون ذلك في مصر خاصة والجزيرة وإنما كان يدفع أبا جعفر ويحرضه على ذلك من كان في حاشيته من النصارى • فقد تدخل في رئاسة الكنيسة اليعقوبية : عمل على تنصيب اسحق الرهاوي مطران حران بطريقاً سنة ١٣٨ أو سنة ١٣٩ وأرغم المطارنة والاساقفة على انتخابه لأنه كان قد أصبح أثيراً عند أبي جعفر بادعائه معرفة الكيمياء وتحويل المعادن إلى الذهب (٢) • وأصدر الخليفة منشوراً الى البلدان بإقرار اسحق في منصبه وخلع عليه من أثواب الخزانة الخليفة الا إن أمره انكشف فقتل ورميت جثته في الفرات • وطلب المنصور من الاساقفة اختيار اثناسيوس (الثالث) الصيدلاني بطريقاً وأعانه بالجند اللازم لتأييده في منصبه فلما مات بعد عامين انشقت الكنيسة واستطاع أسقف بلدة دارا أن يشي بالمرشح الأقوى جورجios عند الخليفة من أنه يفخر أن اسم النبي محمد لم ولن يمر قط على لسانه • ومن أنه لا يأبه بطلب مرسوم التعيين من أبي جعفر في نوع من عدم الاعتراف بالحكم الاسلامي •

(١) الجهشيارى ص ١٣٤ •

(٢) يعزو المؤرخ القبطي ساويرس (سير البطارقة ص ٢٠٥) ذلك الى ان الاسقف اسحق كان دعا للمنصور ان يرزق بغلام فما تولى الخلافة حتى جعله بطريق انطاكية وسائر المشرق •

وحين اختاره جمهرة من الاساقفة سنة ١٤١ لم يطلب بالفعل منشور
التعيين ووقفت السلطة العباسية في جانب اختيار خصمه حنا للبطركة
فلما مات صار داوود أسقف دارا سنة ١٤٦ بطريقاً . . . بتأييد السلطة .
وصار للسريان بطريقان في وقت معاً . ويذكر أحد المؤرخين السريان
أن احدى الكنائس كانت عند زيارته تفص بالجند والفرسان لا بالقسس
ورجال الدين . وظل أعداؤه في السجن حتى عهد المهدي^(١) وكان بين
هؤلاء جيورجوس البطريق .

وتكرر الامر نفسه بالنسبة لجاثليق النساطرة . فقد كان عيسى
ابن شهلاثا طبيب المنصور شماساً في تلك الكنيسة . وكان من أنصار
سورين البطريق المطرود في عهد أبي العباس . فما زال عيسى وسورين
وسرجيس طبيب صاحب الجيش في الحملة على البطريق يعقوب
والتحريض على مطالبته بالأموال حتى سجن مرة وتشتت أمره وطالبه
المنصور بزيادة الخراج ورد مايتعلق برؤساء البيع والكنائس الى عيسى
ابن شهلاثا الذي عاملهم بالاستهانة . وحضر البطريق مع ٣٦ أسقفاً إليه
فلم يأبه لهم « وكان يعطيهم يده ليقبلوها » . . . فاشتكى هؤلاء الأمر
إلى ابن الطباخ الكشكري صاحب بيت المال (وهو بدوره نسطوري من
كشكر) فأنهاه إلى الخليفة وأخبره قصة الخلاف على كرسي البطركة
فأمر المنصور بحبس يعقوب البطريق وسورين معاً . . . وحبس الأول
سنة ١٤٩ فبقي في السجن تسع سنوات ولم يستطع عيسى تهريب الثاني
الذي قبض في المدائن فلم يزل سجيناً حتى مات .

(١) انظر الجزء الرابع من Corp. Serip. Chris. Or.

Chroniea Minsra

ويجمع ١٤ قطعة من تواريخ سريانية قديمة (فيها النص مع الترجمة
الفرنسية) ص ٢٣٦ ، ٢٤٣-٢٤٧ . وانظر كذلك تريتون - أهل الذمة
ص ٨٧ .

وفي هذه الفترة - فيما يظهر - « انبسطت أيدي العمال على
النصارى • وتحول بعضهم إلى الاسلام • » •

وقسا عامل الحديث (حول الموصل) على الذمة بالظلم المالي
فلما قرر المطران شليسون الشكوى للخليفة قبض عليه وضربه بالسياط
وحلق رأسه ولحيته ولكنه عاد فصالحه وأرضاه وأزال أسباب الظلم
المالي عن البلد • ثم سعى قوم من النصارى هذا المطران نفسه لدى
عيسى الطبيب بأنه أخذ حملين من أموال مروان بن محمد يوم معركة
الزاب فاستقدمه الخليفة ووقع من ذلك في محنة أخرى • ثم اجتاز
المنصور بمنطقه الموصل وأعجب بأهل الذمة وحسن صبرهم وإضافتهم
المجتازين من المسلمين فرفع الخراج عنهم وأمر بمعوتتهم لضعفهم • وقد
جرأهم ذلك على ما يبدو فجاء الاساقفة ومنهم شليسون مع بطارقة
اليعقوبية والملكية يطالبون بالافراج عن البطريق النسطوري يعقوب
ويبدو أن شليسون تطاول في الحديث حتى أغاظ المنصور فأمر باعتقال
الجميع ! ••• ولم يفرج عنهم إلا بشفاعة ابراهيم الطبيب فيما بعد
فأعيدوا إلى كراسيهم ••• كما أفرج عن يعقوب بطريق النساطرة بعد
أن انكشف للمنصور - في آخر أيامه - أمر عيسى الطبيب وتسلطه
وسعيه بالبطريق الذي كان قد قضى في السجن إذ ذاك تسع سنوات^(١) ••

أما معاملة المنصور لعامة أهل الذمة فلم يكن فيها كما نلاحظ أي
أثر للتعصب أو العنف وكانت تتسم بالعكس بأمائر الرفق • ومقابل
ما يذكره بعض مؤرخي السريان من أن المنصور أخذ لبيت المال الباب
الذهبي لكنيسة القيامة في القدس^(٢) نجد أنه لم يسمح لبعض المسلمين

(١) انظر تفاصيل هذا كله لدى ماري بن سليمان - أخبار البطارقة

ص ٦٧-٦٩ •

(٢) انظر ماري بن سليمان - أخبار البطارقة ص ٧٠ •

باحتلال دير قديم نزلوه حول بغداد فلما طالب به النصارى وتمنع ساكنوه نقلوا عنه كرها بأمر المنصور^(١) بل إنه لم يسمح لنفسه قبل ذلك باغتصاب ما وقع من أرض مدينة بغداد لبعض الأديرة فاشترى الموقع شراء من القسس ! ... على أن سياسة الولاة كانت تختلف من بقعة الى أخرى . وإذا تركنا جانبا منطقة ايران وقد مرت بنا ثوراتها المحلية وجدنا ان بعض عمال المنصور في منطقة الجزيرة المتاخمة للروم ، تأثروا — على ما يبدو — بجو الحرب الانتقامية المتبادلة بين الدولتين واعتبروا الذميين أكثر قابلية للتواطؤ مع البيزنطيين بسبب وحدة الدين وقد يكونون لهذا السبب قد أنحوا ببعض تدابير الضغط والقسوة والتمييز على الذميين هناك . ونجد صدى ذلك في تلك الصفحات التي حفظها الكتاب المنسوب الى ديونيسيوس التلمحري عن المصائب والنكبات التي قاساها اليعاقبة ما بين سنتي سنة ٧٦٧ و سنة ٧٧٥ (١٤٩ — ١٥٧) . والتفاصيل الكثيرة التي لا تنتهي هناك قد تتضمن الكثير من المبالغة ومن التحامل الديني^(٢) . لكن لا شك في أنها كانت في خطوطها الأولى صحيحة وتصور دمار المنطقة الاقتصادية في تلك الفترة . مع أسباب ذلك الدمار . وكاتبها الراهب المجهول كان يحذر أبناء جلدته وينصحهم بالصمود والتماسك لدرء النكبات .

ولم يكن الولاة المسلمون هم السبب في معظم تلك المصائب المدمرة

(١) عمرو بن متى — اخبار البطارقة ص ٦٩ — ٧٠ .

(٢) انظر الصفحات المتصلة بذلك (٣ حتى ٧٠) في الجزء الثاني من كتاب Corp. Serip. Christ. Or. الذي نشر فيه القسم الاخير الرابع من التاريخ المنسوب الى ديوليسيوس التلمحري . وهو ينتهي بسنة ٧٧٥ . وانظر كذلك تاريخ ميشيل السوري (بالفرنسية) ج ٣ ص ١٠٣ فما بعد (ترجمة شابو عن السريانية) .

ولكنه تعقيد المنطقة الديني والعنصري والسياسي واضطرابها في تلك الفترة • فقد عانت الجزيرة كلها الكثير من الآلام بسبب الثورات المحلية وبخاصة حركات الخوارج كما عانت أيضاً من فقد الأمن وتكاثر اللصوص وقطاع الطرق سواء من البدو أو من بعض المجموعات الكردية • بالإضافة الى الغارات التي كان يقوم بها الاقطاعيون المسيحيون المحليون بعضهم ضد بعض ولكل منهم عصابته المسلحة وقراه الجبلية المحصنة • وقد شكوا الرشيد مما في المنطقة من المارقة والمتلصصة ومخيفي السبيل وقرر المناخ بها في أواخر حياته ليقطع دابرهم^(١) لكن الأمر استمر من بعده حتى جاء المعتصم فأزال ما كان استمر على بلاد الموصل وباجرمي من اللصوص وكبس القرى^(٢) • وإذا تعرض السكان للقتل والظلم الشديد وتعرضت القرى كما تعرضت التجارات وطرقها للتدمير والنهب فقد كان لا بد أن يصيب رشاش ذلك الأديرة والكنائس وما فيها من ذخائر وما تحمل أرضها من الثروة الزراعية • ثم كان ثقل الضرائب والارهاق في الجباية من الاسباب في ان يطفح الكيل ويهرب الكثير من الفلاحين إلى المدن • وكان يزيد في استيائهم أن الولاة أمروا بأن يقبض عليهم فيعادوا من حيث أتوا مرغمين وتدمغ ، منذ العهد الأموي ، أسماء قراهم على الرقاب والصدر والظهر والأيدي ... ويميزوا في اللباس كتدبير وقائي وقد هرب بعضهم إلى الروم عبر الحدود • واحتمل الآخرون آلامهم صابرين ناقلين بينما أجبر الولاة والخلفاء سكان المناطق الاستراتيجية على الحدود على الترحل الى داخل البلاد وأنزلوا محلهم تبعاً لمقتضيات الدفاع جماعات عربية وعسكرية مقاتلة •

(١) الطبري ج ٨ ص ٣١٧ (٧٠٦/٣) •

(٢) انظر ماري بن سليمان - اخبار البطارقة ص ٧٧ •

ويذكر المؤرخ تيوفانوس أن المنصور عسّد إلى هذا التدبير عقب عودته من تحصين الحدود الشمالية في سمالو وفرض على الذمة هناك قيوداً دفعتهم إلى الهرب لبلاد الروم . ويقول بعض ذلك البلاذري أيضاً^(١) .

وكان وضع الذميين في الشام أحسن حالا منه في الجزيرة . وقد كان لبطريق انطاكية مكاتته الهامة كما أن أكثر من واحد من مطارنة دمشق اليعاقبة والنساطرة صاروا بطارقة في المدائن وبغداد في هذه الفترة . غير أن الرية في علاقات الذميين بالروم كانت تبقي النظام الاسلامي على الحذر منهم ولا سيما في لبنان . وقد جاءت حادثة بندار في لبنان سنة ١٤٢/٧٥٩ لتؤكد عدم الولاء للدولة الاسلامية . فقد كانت ثورته مؤامرة ذات شقين : شطرها الرومي تمثل في نزول اسطول بيزنطي على طرابلس بينما كان شطرها الآخر الداخلي يتشل في قيام بندار بالهجوم على بعلبك وقرى البقاع . بعد أن تسمى بالملك وأعلن العصيان . فلما انهزم وهرب مع الاسطول الرومي نزلت العقوبة بسكان الجبل الذي والوه وعاصدوه . فقتل صالح بن علي العباسي مقاتلتهم وأقر من بقي منهم على دينهم وردهم إلى قراهم .

وإذا كان السبب في الثورة إنما يعود إلى الشكوى من عامل الخراج في بعلبك ومن قسوته فقد رافق قمعها تدبير آخر هو : إجلاء الجماعات المشبوهة عن المنطقة لئلا تكون مادة تمرد أو رأس جسر للروم وتوزيعها في بلاد الشام . وعملية الاجلاء هذه لم تتم على وجهها .

(١) يقول البلاذري (فتوح ص ١٩٦) «... ثم نقل (المنصور) أهل الخصوص وهم فرس وصقالبة وأنباط...» .

لأن الأمام الأوزاعي احتج عليها فكتب الى والي دمشق يحرمها في الشرع في رسالة طويلة أعطى فيها البوالي درساً في سياسة الذمة في الاسلام قال فيه : «... حكم الله أن لاتزر وازرة وزر أخرى وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قال : من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه ... في كلام طويل»^(١) .

أما في مصر فنجد الصورة واضحة - رغم ما يشوبها من تحامل - لدى المؤرخ القبطي ساويرس ابن المقفع^(٢) وهو يعتمد فيها على ما وقع له من وثائق الكنيسة القبطية في الكنائس والأديرة وتظهر أهمية أخباره إذا عرفنا أنها كانت تتصل في الواقع بالأكثرية العظمى من سكان مصر إذ ذاك فنحن إذا استثنينا الطبقة الحاكمة العربية والجند معها وبعض المسلمين في الأمصار - وجدنا كتلة السكان الأساسية في مطالع العصر العباسي من الأقباط الذمة . يقول المقرئزي : «... ولم ينتشر الاسلام في قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبيد بن الجحباب، مولى سلول ، قيساً بالحرف الشرقي : (من الدلتا) . فلما كان بالمائة الثانية من سني الهجرة كثر انتشار الاسلام بقرى مصر ونواحيها ...»^(٣) . ونستطيع أن نرى بوضوح لدى ابن المقفع أن الحكم العربي الأموي ساعد القبط على إحياء اللغة القبطية وطرده اللغة اليونانية كما

(١) انظر البلاذري - فتوح ص ١٩٢ وانظر ابو عبيد بن سلام - كتاب الاموال ص ١٧٠-١٧١ وابن عساكر - تاريخ دمشق (تهذيب بدران) ج ٥ ص ٣٤١ .

(٢) كان ساويرس Severus أسقف بلدة الاشمونين في الربع الأخير من القرن العاشر الميلادي وكتابه التاريخي بعنوان سير الآباء البطارقة طبع أكثر من مرة . وهو يتحدث عن الكنيسة القبطية وبطاركتها خاصة .

(٣) المقرئزي - الخطط ج ٢ ص ٢٦١ .

ساعد الكنيسة القبطية ضد الكنيسة الملكية (البيزنطية) فامتلكت بيعها . ولم يحرم القبط من حريتهم الدينية ومن بناء المعابد بل أعطاهم بالعكس المجال الواسع في حكم مصر وإدارة مرافقها كما جعل النظام المالي كله بأيديهم ورغم التدابير التي أمر بها عمر بن عبد العزيز فقد ظل الأقباط يسيطرون على الجهاز الحكومي حتى العهد العباسي . ولعل مما ضايقهم أن يعترف هشام بن عبد الملك سنة ١٠٧ للملكانيين بحق انتخاب بطريق لهم بعد أن أقاموا بلا بطريق منذ الفتح العربي (أي منذ ٧٧ سنة) . وأن يأمر يزيد بن عبد الملك قبل ذلك بكسر الصلبان والتماثيل ومحو الصور في الكنائس^(١) وأن يتحول ٢٤ ألف قبطي إلى الاسلام حوالي سنة ١٢٧ - ١٢٨ بسبب ترغيبهم باسقاط الجزية والخراج عنهم^(٢) .

فلما كانت الثورة العباسية وهرب مروان بن محمد إلى مصر بعد معركة الزاب قام جنده بالكثير من العبث في مصر وقتلوا جماعة من الأقباط وسبوا النساء وأحرقوا بعض الأديرة وهدموا بعض الكنائس وسجن البطريق القبطي والبطريق الملكي حتى يدفع ما فرض عليهما من المال وقد عجز الأول فبقي في السجن^(٣) . . . ويذكر ابن المقفع أن والي مصر كان يكره النصارى وقد صادر أملاك الكنيسة وما فيها من آنية الذهب والفضة والواقع أنه كان يريد أن يستعين بذلك على تسويل المقاومة لبني العباس . ويبدو أن بعض الكنائس تمتعت عن تسليم ذخائرها فأتى مروان بن محمد على كافة كنائس طما بالهدم لم يستثن

(١) جرى الأمر نفسه في بيزنطية بعد إعلانه في الدولة الإسلامية بأربع سنوات (أي سنة ١٠٨ هـ / ٧٢٦) وهي الحركة المعروفة باللائقونية .
(٢) انظر ساويرس - سير الآباء البطارقة ص ١١٦ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٧٥ و ص ١٨٤ .

منها سوى واحدة (هي بيعة أبي مينا الشهيد) مقابل ثلاثة آلاف دينار .
ولما عجز الاثرياء عن أن يجمعوا أكثر من ألفين حول ثلث الكنيسة
الى مسجد . وتوسل إليه بعض التجار أن يرد إلى الملكانيين كنيسة
(لومينا) في مريوط فردها وثار القبط نتيجة لذلك في قصر الوالي نفسه^(١)
ووثب الأقباط على الطريق الملكاني قسطنطين وجروه الى خارج القصر
وكادوا يفتكون به لولا أن ألقى الأساقفة عليه برانسهم ٥٥٥٠ وقد قامت
في تلك السنة ثورة في رشيد هزمها ابن أبي نسعة قائد مروان وثورة في
سمنود قادها قبطي يدعى «يحنس» فسحقت الثورة وقتل قائدها مع
كثير من أصحابه^(٢) ولعل هذه الأمور كلها كانت السبب في سهولة
استيلاء العباسيين على مصر وفي كشف الأقباط للجيش العباسي مخبأ
مروان بن محمد في بعض كنائس بوصير^(٣) .

وقد استبشر الأقباط بالحكم الجديد وتعاون معه البطريق
القبطي ميخائيل أول الأمر لا سيما حين أعفى العباسيون بعض الأقباط
من الضرائب وخففوه عن بعضهم الآخر وقد دام ذلك حتى مطلع عهد
المنصور إلا أن آمالهم سرعان ما خابت حين سار الولاة العباسيون سيرة
السابقين من الأمويين فزادوا - مع ازدياد حاجة المنصور إلى المال - في
إرهاق الأقباط بالضرائب الثقيلة في الوقت الذي أعلنوا فيه سنة ١٣٣

(١) انظر ساويرس - سير الآباء البطارقة ص ١٨١ ، و ص ١٨٥ ،
و ص ١٦٧-١٦٤ وانظر كذلك تريتون - اهل الذمة (بالعربية) ص ٤٧ و ص ١٦٤
(٢) الكندي - كتاب الولاة والقضاة (طبعة بيروت ١٩٠٨) ص ٩٤
و ص ٩٦ .

(٣) هناك بلدة باسم بوصير في وسط الدلتا قرب سمنود ويرجح
الباحثون أن المقصود هو بلدة بوصير الأخرى الموجودة الآن في مديرية بني
سويف في الصعيد .

إسقاط الجزية والخراج والكلف عن من يتحول إلى الاسلام فاندفع الكثير من الأغنياء والفقراء يسلمون^(١) .

وإذا كان الاعفاء من الضرائب سبباً في التحول إلى الاسلام فقد كان ثقلها بالمقابل من أسباب الثورة لدى القبط . سجلوا في هذا المجال ثورات تزيد على العشرة خلال قرن ونيف .

ولقد كانت ثوراتهم منذ الثورة الأولى سنة ١٠٧ حتى الأخيرة سنة ٢١٦ متصلة الاسباب بالعسف الضريبي والإرهاق المالي من جهة وبشعورهم بالكثرة العددية والقوة في الريف المصري كله من جهة أخرى .

وقد تكررت مثلاً الثورة في سمنود (في قلب الدلتا على فرع دمياط) سنة ١٣٦/٧٥٤ وخرج هناك أبو مينا القبطي فبعث إليه الوالي أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي بعبد الرحمن بن عتبة فقتله^(٢) وأنهى الثائرين . ولكن أبا عون نفسه عاد إثر خروج الأقباط مع المسلمين للصلاة كي يزيد النيل وزيادته بالفعل «فأحسن السيرة في النصارى وعطف على كنائسهم وخفف عنهم الخراج»^(٣) ولكن سرعان ما عادت الضرائب بعده إلى عهداها الأسبق وتقاضاها المنصور ممن كان يهرب منها إلى الرهينة . وأمر بتحول مركز الوالي من العسكر إلى الفسطاط وأن يجعل الدواوين في كنائس القصر سنة ١٤٦ .

ويبدو أن الوالي يزيد بن حاتم ألح في الخراج والعسف فتشكلت

(١) انظر ساويرس ص ١٨٩ .

(٢) الكندي - الولاة والقضاة ص ١٠٢ وقد ولى أبو عون ولاية مصر مرتين الأولى في عهد أبي العباس بين سنة ١٣٣ - سنة ١٣٥ ثم صرف عنها ليقود جيوش المغرب ثم أعيد إليها في عهد المنصور سنة ١٣٧ فبقي حتى سنة ١٤١ .

(٣) ساويرس - سير الابهاء ص ٢٠٠ .

في الدلتا جباعات مسابحة من القبط ما لبثت أن قامت بثورة عنيفة سنة ١٥٠ في بلدة سخا (في الدلتا جنوب كفر الشيخ) وطردت عمال الخراج وكان أمير هؤلاء العمال عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي . وصار الثائرون إلى شبراسنباط فقاتلوا هذا الأمير وانضم إليهم أهل بعض المناطق الأخرى (البشروء ، الأوسية ، البجوم) فعقد يزيد بن حاتم حين وصله الخبر لنصر بن حبيب المهلبى على أهل الديوان (ديوان الجيش) ووجوه أهل مصر (العرب) فخرجوا إليهم ولكن هذه الحملة منيت بالهزيمة إذ «يتهم القبط» في كمين فقتلوا عبد الجبار وخرج المهلبى بطعنتين وسقط قائد آخر في الجراح وانصرف الجيش إلى القسطنطينية ولكن بعد أن «ألقى توبة الخولاني أحد القواد» النار في عسكر القبط^(١) ويبدو أن هذا الحريق أتى على قرى المنطقة فشتت الثورة

لكنها عادت فانفجرت في مكان آخر هو بلهيب سنة ١٥٦ فقد خرج فيها القبط أيضاً والوالي موسى بن علي بن رياح اللخمي فعقد لعبد الله ابن المهاجر الذي خرج في الجند وهزم القبط الثائرين^(٢) وهذه الاضطرابات المحلية المتعددة المواضع سوف تتكرر فيما بعد .

د - الذمة في عصر الرشيد : الصورة التي شهدناها في عصر المنصور تستمر قائمة بعده ، دون تغيير يذكر فيما بين عهد المهدي آخر أيام المعتصم والواثق . لا جديد فيها سوى ازدياد الرعاية لأهل الذمة مع ازدياد الطابع الاسلامي للدولة وعدم تدخل الخلفاء في شؤون الكنائس

(١) الكندي - الولاة ص ١١٦-١١٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ١١٩ .

إلا عند الخلاف • ضمن الطائفة وتوسع مجالات الجدل الديني بين الذمة والمسلمين •

أولاً : استخدام الذميين في الدولة : يتكرر ذكر إخراج أهل الذمة من وظائف الدولة في عهد المهدي والرشيد والمأمون والواثق وهذا يعني على الأقل أن الباب كان مفتوحاً لهؤلاء باستمرار في الاعمال الحكومية وأن موجات إخراجهم إنما كانت ، في كل مرة عاصفة عابرة يدفع إليها في الغالب الطابع الاسلامي المتزايد الذي حاول الخلفاء أخذه منذ عهد المهدي خاصة والواقع أنا نشهد الذميين دون انقطاع في الأعمال المختلفة وخاصة في طبابة الخلفاء والتنجيم لهم وفي الخراج والكتابة : فقد كان تيوفيل بن توما النصراني المنجم الرهاوي رئيس منجمي المهدي^(١) ثم صار قهرمان الرشيد بعد ذلك^(٢) واشتهر في بلاط المهدي أبو قريش عيسى الصيدلاني الذي يروون في سبب صلته مع البلاط قصة جعلته أثيراً ، دون علم كبير بالطب والصيدلة ، لدى الخيزران والمهدي إذ تنبأ والخيزران حامل أنها ستلد ملكاً فلما ولدت الهادي أغدقت على عيسى النعم والهبات ثم صار مقدماً على اكبر أطباء المهدي جيورجيس بن جبريل • وكان جورجيس هذا ثم ابنه من بعده أتباع أبي الأطباء : بختيشوع بن جورجيس الجند يسابوري الذي اتصل بالبلاط سنة ١٧١

(١) ابن العبري ص ١٢٧ وتيوخيل المذكور ماروني المذهب . وقد ترجم الالياذة والأوديسة من اليونانية الى السريانية .
(٢) انظر ماري بن سليمان - أخبار البطارقة ص ٧٥ .
(٣) انظر القصة لدى ابن العبري (ص ١٢٧-١٢٨) ولدى عمرو بن متى - أخبار البطارقة ص ٧٠ ولدى ابن أبي أصيبعة في طبقات الاطباء (طبعة بيروت ١٩٦٥) ص ٢١٥-٢١٦ .

ثم اتصل ابنه جبرائيل مع البرامكة منذ سنة ١٧٥ بتوصية منه . وقد نجح جبريل مرة في معالجة جارية أصابها شلل موقت في ذراعها فنال من الرشيد نصف مليون درهم^(١) . وإذا كان بختيشوع نسطورياً فقد كان هناك أيضاً طبيب سرياني في قصر الخلافة هو يوحنا بن ماسويه النصراني السرياني الذي ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة وخدم الرشيد ومن بعده الى أيام المتوكل وكان معظماً في بغداد جليل القدر»^(٢) وإن كان ضيق الصدر وبينه وبين بختيشوع مداعبات كثيرة . وقد استقدم الرشيد الى قصره أيضاً صالح بن بهلة الطبيب الهندي . وبرصوما الزامر ومنكا الطبيب الهندي الآخر وكان من الذمة حول المأمون : عبد الله بن سهل بن نوبخت المجوسي . وما شاء الله اليهودي من المنجمين وسهل بن سابور الطبيب الاهوازي الكوسج الذي لم يكن يجيد حتى لفظ العربية . وجبريل الكحال ، وعيسى بن الحكم بالإضافة إلى جرجيس بن بختيشوع ويوحنا بن ماسويه . هذا إذا لم نذكر من اتخذهم الرشيد ثم المأمون في دار الحكمة للترجمة من علماء وتراجمة السريان والنساطرة من امثال : يوحنا بن ماسرجس (أو ماسرجويه) وأبي زيد حنين بن إسحاق العبادي وابنه اسحق وابن أخته حبيش الأعمس الدمشقي ولم يكن ينقص هذه الجماعة الذمية في بغداد لا المال ولا الجاه ولا التكريم والنفوذ في الدولة .

كان بختيشوع يتناول شهرياً اثني عشر ألف درهم وكان ماسويه يأخذ ألف درهم مع صلة سنوية تبلغ عشرين ألفاً وكان راتب جبرائيل

(١) انظر ابن العبري ص ١٣٠-١٣١ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٣١ .

ابن بختيشوع الشهري عشرة آلاف درهم غير الهبات الدائمة
والاقتاعات ٠٠٠٠

وكان بجانب هؤلاء جماعة أخرى من مثلها لم تشتهر أسماؤها في
الكتب وإن كانت مشهورة لدى الناس في ذلك الوقت لانهم من عمال
الخراج وكتاب الدواوين . وفي أيديهم أعناق الناس وعلاقاتهم المالية
مع الدولة . وقد روى ابن قيم الجوزية أن «أهل الذمة قويت شوكتهم
في زمن المهدي» . حتى «اجتمع الناس الى بابه منتظمين من ظلم الذمة»
وأنه «كان للمهدي في بعض ضياعه بالبصرة كاتب نصراني ظلم الناس
حتى تظلموا منه الى سوار بن عبد الله القاضي وشهد الناس على النصراني
فمضي الى المهدي فأخذ كتاباً منه يطلب الى القاضي التثبت من أمره»
ولكن الرجل دخل على القاضي المسجد ومعه كتابه وجماعته وتجدى
الخدم وسبهم ودفع كتاب القاضي حتى جلس على يمينه مما دعا هذا
القاضي إلى أن يأمر بجره من رجله الى خارج المسجد ويحلف ألا يرح
حتى يؤدي للمسلمين حقوقهم . وقد خشي كاتب القاضي عاقبة ذلك
من المهدي فقال له القاضي : أعز أمر الله يعزك الله !^(١) وكان عامل
الخراج في أعمال الأهواز وكور دجلة وفارس وعامله في السواد حتى
الأنبار من أهل الذمة في بعض الفترات . وقد كتب للمهدي يونس ابن
أبي فروة وكان زنديقاً فطلب فاخفى حتى هلك واستكتب الرشيد
ازداناذاً على ديوان الخراج وكان ثنوياً^(٢) و«كانت زبيدة ، (زوجة
الرشيد) تسيل الى النصارى وتستخدمهم»^(٣) .

(١) ابن قيم الجوزية - أحكام أهل الذمة ج ١ ص ٢١٥-٢١٦ و ٢١٧ .

(٢) الجاحظ - رسائل (ط . هارون) ج ٢ ص ٢٠٢-٢٠٣ .

(٣) انظر ماري بن سليمان - أخبار البطارقة ص ٧٣ .

ثم نعود في زمن المأمون لنرى أن كاتبه اسماعيل بن داود كان شعوبياً وكان يتهم بالثنوية^(١) وكان يعقوب الكاتب ووهب الكاتب كافا من النساطرة كما كان من الطائفة نفسها ابراهيم صاحب بيت المال^(٢) وقد بلغت أعداد الذميين في دواوين المأمون على الجيش والخراج أعداداً وفيرة تزيد في بغداد والسواد فقط على ٢٨٠٠ موظف عدا جباة أخرى من العمال اليهود كانت تتولى بعض الجهات . كما نجد المسلمين يتظلمون الى المأمون في مصر من العمال الأقباط^(٣) . ومن الأخبار ذات المعنى أن قبطياً ثرياً في زمن المأمون يدعى بكام كان له حكم بورة فكان يقيم الشعائر للمسلمين فإذا كان يوم الجمعة لبس السواد وتقلد السيف وامتنطى حصانه ومضى الى الجامع وبين يديه رجاله حتى إذا بلغ باب المسجد وقف وأنفذ رجلاً مسلماً من قبله للصلاة بالناس ولا يجد مؤرخ هذا الخبر أي غرابة فيه^(٤) .

ثم نعود كرة ثالثة لنجد حسب رواية ابن قيم الجوزية : « أن المباشرين للأعمال من أهل الذمة قد كثروا في زمان المتوكل وزادوا على الحد وغلبوا على المسلمين لخدمة أمه وأهله وأقاربه وذلك في سنة ٢٣٥ فكانت الأعمال الكبائر كلها أو عامتها إليهم في جميع النواحي . . . وكانوا قد أوقعوا في نفس المتوكل من مباشرة المسلمين ايضاً وأنهم بين مفرط وخائن . وعملوا عملاً بأسماء المسلمين وأسماء بعض الذمة لينفوا التهمة وأوجبوا باسم كل واحد منهم مالا كثيراً . وعرض على المتوكل

(١) رسائل الجاحظ ج ٢ ص ٢٠٤ .

(٢) ماري بن سليمان - أخبار البطارقة ص ٧٥ و ٧٧ .

(٣) ابن قيم الجوزية أحكام ج ١ ص ٢١٩ و ٢١٨ .

(٤) ترتون - أهل الذمة ص ١٣١ .

فأغرى بهم وظن ما أوجبوا ذلك حقاً • وأن المال في جهاتهم كما أوجبوه ودخل سلمة بن سعيد النصراني على المتوكل وكان يأنس به ويحضره فقال : يا أمير المؤمنين أنت في الصحاري والصيد وخلفك من يشرب في آنية الذهب والفضة ويملؤها ذهباً عوضاً عن الفاكهة ...» وذكر له جماعة من الموظفين المسلمين الأغنياء وأن أحدهم صاغ صوالجة وأكر (من أجل لعبه) من ثلاثين ألف دينار وأمير المؤمنين يضرب بكرة من جلود وصولجان من خشب • فأحضر المتوكل أولئك الكتاب والموظفين وصادهم ... وكانت تلك سعاية من سلمة بن سعيد لتخلو أركان الدولة من الكتاب المسلمين ويتمكن هو ورهطه منها • وقد وصلت الشكوى من عامل خراج دمشق : سعيد بن عون النصراني الى باب المتوكل في سر من رأى^(١) •

هذا الخط المتصل من تعاون الدولة العباسية مع الذمة أصيب بعدد من الأزمات الناجمة تارة عن تعسف الذميين وضغط الفقهاء ورجال الدين ضدهم وتارة عن حوادث الحدود البيزنطية :

فقد « اجتمع المسلمون إلى بعض الصالحين (زمن المهدي) وسألوه أن يعرفه قوة شوكة الذميين فامتنع الرجل عن عادته في حضور مجلس الخليفة ولما دعاه أبى فجاء المهدي إلى منزله فقص عليه : اجتماع الناس ببابه متظلمين من أهل الذمة وقال : لقد سلمت الأمانة التي خصك بها الله الى أهل الذمة دون المسلمين ... وهي أموال المسلمين وأماناتهم وأسرارهم وهذه النصيحة حجة عليك ثم أنشده فيما يقولون :

(١) ابن قيم الجوزية - أحكام ج ١ ص ٢١٩-٢٢١ •

بأبي وأمي ضاعت الاحلام أم ضاعت الأذهان والأفهام
من صد عن دين النبي محمد أله بأمر المسلمين قيام ؟
إلا تكن أسيافهم مشهورة فينا قتلك سيوفهم أقلام

فبادر المهدي فعين عمارة بن حمزة على أعمال الأهواز وقلد حماداً
مولاه أعمال السواد وأمر أن لا يترك أحداً من الذمة يكتب لأحد من
العمال وإن علم أن أحداً من المسلمين استكتب أحداً من النصارى قطعت
يده ... فقطعت يد شاهويه وجماعة من الكتاب (١) ..

وتكررت الأزمة نفسها زمن الرشيد ولعلها كانت في أواخر حياته
بعد سنة ١٩١ إذ « صرف الذمة عن أعمالهم واستعمل المسلمين عوضاً
عنهم ... » (٢) وذلك إثر هجمات الروم التدميرية على أرض الاسلام .
وقد أفتاه العلاء في تلك التدابير وغيرها .

ثم تكررت الأزمة مرة ثالثة في عهد المأمون إذ ثار القبط في مصر،
وضغط الروم على الجبهة « واتفق للذمة مجاهرة في بغداد بالبغي والفساد
على الكسائي ، معلم المأمون فقرأ المأمون أمامه مرة : يا أيها الذين
آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض . ومن
يتولهم منكم فهو منهم » فقال الكسائي : يا أمير المؤمنين : أتقرأ كتاب الله
ولا تعمل به . فأمر المأمون بإحضار الذمة (وصرفهم) فكان عدد من
صرف وسجن ألفين وثمان مائة . وبقي جماعة من اليهود منحازين إلى
حماية بعض جهاته فخرج توقيعه بسا نسخته : « أخبت الأمم اليهود .
وأخبت اليهود السامرة وأخبت السامرة بنو فلان فليقطع ما بأسائهم
من ديوان الجيش والخراج إن شاء الله » (٣) .

(١) المصدر نفسه ص ٢١٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٧ .

(٣) ابن الجوزية ج ١ ص ٢١٩ .

على أن الأزمة الكبرى إنما كانت زمن المتوكل حين كثروا في الأعمال
كبيرة وصغيرة واستطاع بعضهم أن يوقع بالكثير من الكتاب المسلمين
كما تعسف بعضهم بكل مكان حتى وصل مرة شيخ كبير من دمشق
يتظلم من ابن عوف النصراني الذي غصبه داره فاشتد غضب المتوكل
لدرجة التي كتب بخطه تحت الرسالة التي حملها الشيخ : إلى ابن
عوف : «نفيت من العباس لئن خالفت فيما أمرت لأوجهن من يجيئني
برأسك ...» . وكثر تظلم الناس من كتاب أهل الذمة وتتابعت
الإغاثات وحج المتوكل فشوهه رجل يطوف بالبيت ويدعو عليه فأخذه
الحرس فلما سأله المتوكل السبب قال : قد اكتنفت دولتك بكتاب من
أهل الذمة احسنوا الاختيار لأنفسهم وأسأؤوا الاختيار للمسلمين وأنت
مسؤول عما اجترحوا ... «فبكى المتوكل إلى أن غشى عليه» . وخرج
أمره سنة ٢٣٥ وفيه : «... قد انتهى إلى أمير المؤمنين أن أناسا لا رأي
لهم ... يستعينون بأهل الذمة في أفعالهم ... ويسلطونهم على الرعية
فينسفونهم ... فأعظم ذلك وتبرأ الى الله منه ورأى أن يكتب إلى
عماله على الكور والأمصار وولاة الثغور والأجناد في ترك استعمالهم
للذمة في شيء من أعمالهم وأمورهم والأشراك لهم في أماناتهم وما قلدهم
أمير المؤمنين ... وجعل في المؤمنين الثقة في الدين والأمانة على إخوانهم
المؤمنين ... ما أغنى عن الاستعانة بالمشركين بالله ... والله يعين أمير
المؤمنين على نيته في تعزيز الاسلام ... فليعلم هذا من رأي أمير المؤمنين
ولا يستعانن بأحد من المشركين وانزال أهل الذمة منازلهم التي انزلهم
الله تعالى . فاقرا كتاب أمير المؤمنين على أهل أعمالك وأشعه فيهم ولا
يعلس أمير المؤمنين أنك استعنت ولا أحد من عمالك وأعوانك بأحد من
أهل الذمة في عمل والسلام» (١) ...

(١) انظر النص الكامل للكتاب لدى ابن قيم الجوزية - احكام ج ١

ص ١٢٢ - ٢٢٤ .

ويبدو أن هذا الكتاب الذي وزع في كافة الأمصار قد نفذ أكثر من الأوامر السابقة من مثله بسبب تكاثر المسلمين في القرن الثالث عنهم في القرن الثاني وتوفر الأكفيا من لهم للأعمال • ولعل هؤلاء أنفسهم كانوا وراء إصدار مثل هذا القرار أيام المتوكل ليتولوا الأعمال التي توارث شغلها الذميون بشكل تقليدي منذ العهد الأموي •

ثانيا : العلاقة مع المؤسسات الكنسية : بدأ المهدي عهده بداية طيبة مع بطاركة العراق إذ أخرج جيورجوس بطريق اليعاقبة من السجن واعاده الى منصبه • ويبدو أن أسقف دارا (الذي أسقطه مؤرخو السريان من قائمة البطاركة) كان قد مات في عهد المنصور فخلت البطريركية لجيورجيس حتى مات في عهد الرشيد سنة ١٧٤/٧٩٠ • وخلا المنصب البطريركي النسطوري أيضاً بسوت صاحبه يعقوب سنة ١٥٧/٧٧٤ فسأل بعض النساطرة المهدي إجلاس جاثليق للطائفة واجتمع الأساقفة فاختلفوا بين راهب يدعى جورجوس • كثير العلم وبين أسقف يدعى حنا ينشوع • فأحضر المهدي الاثنين عنده ودعاهما الى الاسلام • فأمسك الأول وتعلل الثاني بأنه لا يعرف العربية ... وبعد فترة من المناقشة أمر المهدي باختيار حنا ينشوع الثاني والتنكيل بسن يخالفه^(١) • ولكن هذا البطريق مات مسوماً بعد أربع سنوات فعزل أبو قرش عيسى الطبيب : وأبو نوح الكاتب على اختيار البطريق طيساثوس الذي أغرى بعض الأساقفة بالمال أيضاً • خداعاً منه^(٢) ، وقد

(١) انظر ماري بن سليدان - اخبار البطاركة ص ٧١ - ٧٢ • وانظر كذلك عمرو بن منى ص ٦٣ - ٦٤ •

(٢) المصدران نفسيهما ص ٧٢ وكذلك ص ٦٤ •

خالفه بعضهم ومنهم اسقف مرو وأسقف جند يسابور ونصبوا بطريقاً آخر ووقعت الخصومات بين الناس والضرب والحبس فلما حرم البطريق المخالفين له جاء أسقف مرو الى المهدي فأسلم على يديه وقلده المهدي بعض اعمال البصرة • وأقام مدة ثم خرج الى بلد الروم^(١) • أما طيماتاوس فقد استمر على البطركة ثلاثاً وأربعين سنة مدة عهد المهدي والهادي والرشيد والأمين ثم مات في عهد المأمون أواخر سنة ٢٠٦/٨٢٣ وكانت علاقاته مع هؤلاء جميعاً كالحسن ما تكون العلاقة : يتردد على البلاط ويناقش الخلفاء في الدين • ويذكرون أنه كان يحظى بتكريم خاص من زبيدة وأن السبب في ذلك أنه استطاع إيجاد مخرج فقهي للرشيد في يمين بالطلاق حلفها عليها «وبهذا حظى عندها وعاونته على سائر أموره وما يحتاج إليها فيه وأعطته آلات الذهب والفضة والديباج وغيره •»^(٢) ولم يتدخل الخلفاء لمنع من أن يرسل بعوث التبشير إلى جنوب الجزيرة العربية وبلاد الخزر وبلوك الترك والصين حتى قال مؤرخو النساطرة إنه لم يبق ملك إلا وكاتبه وجذبه الى الايمان وتلمذه •» «ووردت عليه كتبهم •»^(٣) ومنهم خاقان الترك • الذي تذكر إحدى رسائل البطريق أنه اعتنق المسيحية مع شعبه كله تقريباً حوالي سنة ٧٨٢ • ٧٨٣ •

ولم يكن البطريق اليعقوبي الذي اختير في عهد الرشيد سنة ١٧٧ ٧٩٣ وهو قيرياقوس التكريتي على مثل علاقة زميله مع الخلافة وإن

(١) ماري بن سليمان - اخبار البطركة ص ٧٢ .
(٢) أنظر المصدر السابق ص ٧٣ وص ٧٥ والمخرج الذي وجدته فيما قيل أنها تنصير فيحل قتلها ثم تسلم فتحل للرشيد .
(٣) المصدر السابق ص ٧٣ وص ٧٤ .

حفظ له الخلفاء مكاتته الدينية وذلك أنه كان فيما يبدو مشغولاً بانقسامات طائفته وقد قضى مدته حتى موته سنة ٢٠٢/٨١٧ في نضال متصل مع الاساقفة والرهبان الذين عارضوا رغبته في الاتفاق مع بعض الطوائف الأرمنية ثم تلاه ديونيسيوس التلمحري ما بين سنتي سنة ٢٠٢ - ٢٣٠/٨١٨ - ٨٤٥ فقضى الكثير من وقته في محاولة الاستقرار في كرسيه وقد ظهر له خصوم استعانوا بالسلطة ضده كما استعان هو ضدهم بها وكان أمر منطقة العراق ثم أمر الجناح الغربي من العالم الاسلامي موكلاً من قبل المأمون الى عبد الله بن طاهر فكان عليه أن يحل المشكلة . وقد اتفق أن كان مرة في كالينيكوس من أعمال انطاكية فاجتمعت على يابه آلاف النصارى من أنصار ديونيسيوس وأنصار خصمه الاسقف افرام وأدخل عبد الله البطريق أولاً ورجاله قبل الخصم الشاكي ورجاله وشال البطريق عن الخبر فقال : إنهم يشاغبون عليه كما شاغبوا على أسلافه لاثارة الاضطراب في البلاد ثم أدخل عليهم افرام فسأله عن شأنه فقال : إنه هو البطريق الشرعي . فأرسل عبد الله الى قائد الجند أن يسأل المصروع الواقعة يابه عن بطريقها الشرعي فصاحوا : لا بطريق سوى ديونيسيوس . فجرد عبد الله الأسقف افرام من لباس البطرقة وحرمه لبس شعارها أو حمل عصا الرعوية ، أو السفر في البلاد وأعاد ديونيسيوس الى كرسيه مع التبجيل

ولم يسكت افرام عن ذلك واستطاع أخوه سيمون أن يتذرع بوثيقة قديمة من الامام علي بن أبي طالب في بعض الأديرة وبنفوذ بعض المسؤولين في بغداد وبيعض الشكايات من النصارى ضد ديونيسيوس وظلمه وأن يستصدر مرسوماً من قبل الخليفة المأمون بقبول افرام بطريقاً . وعاد سيمون بالرسوم وجمع حشداً كثيفاً من

الرهبان وعلى رأسهم اخوه افرام بلباسه الرسمي • وذهب إلى عبد الله ابن طاهر الذي استدعى ديونيسيوس •• ولكنه حين قرأ مرسوم المأمون سحب يده من الأمر واضطر ديونيسيوس أن يصرف الكثير من الجهود في بغداد ومن الرشاوي والوسائط لكي يحتفظ بالمنصب^(١) •

ومن الملاحظ أن هذا النوع من التمزق الطائفي والقلق والصراع البطريقي شمل منذ مطلع القرن الثالث الهجري كلا من الطائفتين النسطورية واليعقوبية على السواء ووقعتا في الخلاف الشديد والضعف ولعل السبب إنما يرجع إلى شعورهما بالتناقض العددي لحساب الجانب الاسلامي ورغبتها في القوة والدفاع عن العقيدة •

ويلاحظ الانشقاق نفسه في الطائفة اليهودية في تلك الفترة ذاتها فقد « اختلف اليهود وكان بينهم شقاق على الرئاسة (زمن المأمون) فإن يهود طبرية رأسوا عليهم رجلا اسمه داوود ويهود بابل رأسوا عليهم دانيال من العنايةين وهم شيعة منهم استبدلوا بالسبت الأربعاء • ورفعوا دعواهم إلى المأمون فأبرز أمراً فحواه انه إذا اتفق عشرة رجال من أي مذهب كانوا ، على إقامة رئيس ساغ لهم ذلك سواء كانوا نصارى أو يهوداً أو مجوساً»^(٢) •

وقد طبق المأمون هذه القاعدة ، في الواقع ، مع النصارى أيضاً

(١) تريتون - أهل الذمة

(٢) الياس الدبس - تاريخ سورية (بيروت سنة ١٩٠٠) الجزء ٣ ق

المجلد الخامس ص ٣٤٧ •

قلم يتدخل في شؤون الكنيستين النسطورية واليعقوبية بشكل مباشر ولكن كبار الدمين من رجال البلاط هم الذين كانوا يمارسون نفوذهم عليهما لإمضاء آرائهم . ونرى أسماء : جبريل بن بختيشوع وميخائيل الطبيين ، ويعقوب ووهب الكاتين تتردد في أخبار اختيار البطارقة النسطورين الثلاثة الذين تعاقبوا في عهد المأمون والمعتصم على منصب الجاثليق . وربما أثر المأمون في اختيار سبر يشوع للمنصب سنة ٢١٧ لأن الخليفة وأصحابه ومن كان في حاشيته من النصارى لقوا منه حين زاروا دمشق سنة ٢١٦ « أحسن الخدمة ، واعتقدوا فيه الجميل » بما قدم لهم من المعونة حين أصابهم فيضان نهر بردى^(١) . لكن أسماء سلمويه الطبيب وأخيه ابراهيم صاحب بيت المال هي التي تظهر في اختيار البطريق التالي له : ابراهيم . فقد تدخل لدى المعتصم حتى أمر ببرد المرشح المخالف في الطريق وتنصيبه^(٢) . وجرى الأمر على النحو نفسه بالنسبة للبطريق التالي تاذاسيس الذي سأل بختيشوع الطبيب وعدد من وجوه الدمين معه الخليفة المتوكل في أمره « فأمر بتقليده سنة ٢٣٨ وسر النصارى بانعطاف المتوكل (بينما) اجتهد ابراهيم بن نوح (أحد كبار موظفي القصر الدمة) في إزالة المتوكل عن ذلك ولم يمكن » ثم ما لبث ابن نوح أن أقنع المتوكل بتغييره فلم يكن إلا شهر بعد تنصيبه حين تغير الخليفة على بختيشوع فاعتقله وصادره وعلى البطريق فبعث إلى بغداد بسجنه وحمله الى سامراء . . . ولم يكن ذلك عن اضطهاد ديني بحث ولكن أحد الاطباء المعروفين وهو سرجيس تحول عن المذهب النسطوري

(١) المصدر السابق ص ٧٦ إذ يقول : « . . . لما حصل (المأمون)

بدمشق في وقت الفرق » .

(٢) المصدر السابق ص ٧٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٧٩ - ٨٠ .

وأبلغ الخليفة أن الجاثليق «يكاتب ملك الروم ويدعو له ويرفع أخبار المملكة • وسأل المتوكل الجاثليق عن الحال فأنكرها وسامه اليمين فأبى ••• وأشار من في الخدمة من الرؤساء بأن يحلف فلم يفعل» وهكذا بقي في السجن ثلاث سنوات وستة أشهر •••

كانت الأزمة ضد النصارى قد بدأت إذ ذاك • وبلغ تضيق المتوكل عليهم أوجه وتخلل ذلك إيقاع من النصارى بعضهم في بعض •• حتى إذا هدأت العاصفة بعد سنوات وخرج المتوكل من العراق يقصد الشام قوبل من مطران نصيبين «بالرياحين وعقد القباب» فلما اجتاز تحتها استحسناها وحمل إليه المطران «جميع ما يحتاج إليه من الخيرات والفاكهة والشراب ••• فاستقبله المتوكل في معسكره وأطلق له عشرة آلاف درهم وخف ما في قلبه على النصارى •••» • وفرق المطران المال على الحواشي فعظم ذلك عند المتوكل وأوصى الأمير والقاضي في نصيبين بقضاء حوائجه وسأل الفتح ابن خاقان كيف تكافئه فقال : إذا مات الجاثليق نجلسه لأنه «لايجوز في سنة النصارى إزاحته» • «فوصاه إذا مات تاذاسيس أن يبلغه ذلك ••• وتعطف المتوكل على النصارى • وعمل على إطلاق تاذاسيس • واتفق موت يوحنا ابن ماسويه الطيب وكان عزيزاً عليه فأمر بتبجيله وإكرامه في تجنيزه • فلما قالوا : إن القسس والرهبان مطردون من سامراء أمر بردهم وإطلاق الجاثليق ولا يسامون من بعد الخروج من المدينة •••» : واستأذن الكتاب والمتطببون في انحدار الجاثليق إلى بغداد ••• فوق (المتوكل) إلى أمير بغداد بإدخاله بغداد مكرماً • وخرج من سر من رأى أحسن خروج وادخل بغداد أحسن دخول بالاكرام العظيم والتبجيل •••»^(١)

(١) المصدر السابق ص ٧٩ - ٨٠ .

ولما مات بعد سنة وعدة أشهر نصب سرجيس مطران نصيين بدلا منه
... على الوعد الذي وعده المتوكل كما انتقل هو بكرسيه إلى
سامراء ليكون اقرب الى دار الخلافة ...

وإذا نظرنا من جهة أخرى إلى رعاية المعابد الكنسية وجدنا كما
قال تريتون أنه من «الحقائق» الثابتة «أن الكنائس كانت تبنى بحرية
وبموافقة السلطة وأحيانا بمساعدتها ... والمراجع النصرانية تخلو
خلوا تاماً من الإشارة إلى منع أو هدم المعابد مما ينهض دليلاً على عدم
وقوع ذلك . وإذا خيلنا الإشارة الوحيدة (إلى أمر عمر بن عبد العزيز
وهو أمر مشكوك فيه) فليس هناك أي إشارة حتى سنة ١٥٠ أو سنة ١٧٠ هـ
إلى صدور أمر بمنع استحداث الكنائس بل ان المتوكل كان أول من
حرم إقامة بيعة جديدة بمقتضى مرسوم سنة ٢٣٥ ...» (١) .

والواقع أن أول أمر يتصل بهذا الموضوع إنما كان على ما يبدو
سنة ١٦٢ والأمر الانتقامي الذي أصدره المهدي إثر الهجمات التدميرية
التي قادها امبراطور بيزنطة ليو الرابع (لاون) في الأراضي الإسلامية
منذ سنة ١٥٩ . يقول مؤرخ نسطوري إن «لاون أخرج (إلى المهدي)
بطريقين (أي قائدين) من الوجوه وكسروا عسكره وسبواهم فأغازه ذلك
فهدم البيع وسلبوا النواحي وأمر أن لا يقتني النصارى عبيداً» كما
أمر بتهجير أعداد من اليعاقبة إلى بلاد الروم ولا شك أن دوافع هذا
الأمر كانت دفاعية أو كانت على الأقل وقائية تتصل باتهام نصارى
الحدود لدى المهدي بمسالة الروم ومعتهم . ولكن الأمر لم يطل فما

(١) تريتون - أهل الذمة في الاسلام (الترجمة العربية) ص ٥١ - ٥٢ .

إن انتصرت جيوشه سنة ١٦٣ حتى «عاد فأزال ما النصارى فيه»^(١) ومن الواضح أن تدابير الهدم لم تتجاوز منطقة الحدود والثغور لأن لم تسمع عن تنفيذها في أي مكان آخر . ونسمع عن خبر آخر زمن الرشيد إذ أخبره حمدون بن علي أحد رجال البلاط «أن النصارى يعبدون عظام الموتى وهي في بيعهم فأمر بهدم البيع فهدم بيع البصرة والأبلة وغيرها (أي في منطقة السواد فقط) واجتمع النصارى الذين في خدمة الرشيد وعرفوه . . .» أنه تكريم لأجساد الأشهاد والصالحين وليس بعبادة . . . «فتحقق ما قالوه وأمر بإعادة بناء البيع»^(٢) .

ولعلنا نلاحظ أن النصارى واليهود حين بنيت بغداد ثم بنيت سامراء بعدها قصدوا العاصمتين وسكنوهما وأنشأوا فيهما الكنائس والمعابد المختلفة العديدة . بل انتقل إليهما مقر الرؤساء الدينيين أحياناً . فصار للبطاركة مراكزهم فيهما ولرؤساء الجالوت اليهود مقراتهم مما يعني بوضوح عدم وجود أي خطر في هذا السبيل .

ولا ندري بالضبط متى كان انتقال مقر الرؤساء الدينيين المختلفين إلى بغداد ولا شك أنه كان في وقت مبكر . ولئن ظل للمجوس والناطقة مقراتهم التقليدية في المدائن لليهود مقرهم العتيق في بابل فإن النساطرة واليهود على الأقل قد أقاموا مقرات جديدة في بغداد لرؤسائهم الروحيين وربما قام النساطرة خاصة بذلك في عهد المهدي نفسه وبتأثير أبي قريش الطيب فنال بطريقتهم المسمى بالجالليق^(٣) حق السكنى في بغداد وجعلها

(١) ماري بن سليمان - اخبار البطاركة ص ٧٤ .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٧٥ .

(٣) الجالليق هي تعريب كلمة كاثوليكيوس ويستعملها الأرمن والناطرة .

مقرأ الكرسيه فقام من حوله حي للنصارى عرف بدار الروم وإن بقيت
السيامة الدينية وحفلات التنصيب التقليدية بالمداين • وإذا لم ينل بطريق
اليعاقبة السريان هذا الحق وإن حاولوه مراراً فلذلك أسباب عديدة منها
أن اكثرية نصارى العراق كانت من النساطرة فكان للجاثليق فيها سلطة
روحية على سبع أبرشيات (مطرايات) فيها البصرة والموصل ونصيبين
وتكريت • ومنها أن نفوذ النساطرة كان أقوى في البلاط العباسي وفي
الحكومة فكانوا يدسون على اليعاقبة ويعملون على منعهم من حق إقامة
مقر بطريرقي لهم ببغداد فبقي مقر بطريرقيهم في انطاكية وليس له في العراق
اكثر من أبرشية في تكريت وبعض الأديرة في بغداد • ومنها أخيراً أن
اليعاقبة كانوا متهمين بممالة بيزنطة والميل مع الروم أحياناً • وكان هذا
من أهم الأسباب في منعهم من إقامة مثل مستقر في العاصمة العباسية •

وكان الولاة بدورهم يتصرفون في أمر بناء الكنائس حسب
اجتهادهم فإننا نرى والي مصر زمن الهادي وهو علي بن سليمان العباسي
وكان قدرياً ، معتزلي الهوى يصر في ولايته التي استمرت حتى السنة
الثانية من عهد الرشيد على «... هدم الكنائس المحدثه بمصر (بعد
الفتح) فهدم كنيسة مريم ... وهدم كنائس مجرس قسطنطين • وبذل
له (القبط) خمسون ألف دينار في تركها فامتنع ...»^(١) •

على أن مجرد تسجيل هذه الحوادث دليل على أنها كانت تدابير
محلية وعابرة ويظهر من أقوال مختلف المؤرخين النصارى بالعكس أن

(١) الكندي الولاة والقضاة ص ١٣١ والمقريري (المخطوط ج ٢ ص
٤٩٣) يجعل هدم هذه الكنائس إثر ثورة سخا سنة ١٥٦ في زمن
النصور •

عملية بناء وتجديد البيع كانت عامة مباحة مستمرة • ونسمع في زمن المهدي نفسه أو بعده بقليل عن بناء دير للروم الشرقيين في بغداد ، وعن بناء دير سمالة بالقرب منها أيضاً^(١) وقد جدد البطريق طيماتاوس في تلك الفترة نفسها دير كليشوع واتخذة مقراً له في المدائن^(٢) • « وأخرجت زبيدة (اكراًماً لطيماتاوس) توقيع الرشيد باعادة المستهدم من الدير وتوسيعه وعملت أعلام الشعانين وصلبان من ذهب وفضة وعاونت سرجيس مطران البصرة على بناء البيع بها • وعضدت جبريل الطبيب في خطابه (ل الرشيد) في ذلك »^(٣) •

وبالمقابل جاء موسى بن عيسى والياً على مصر من قبل الرشيد سنة ١٧٢ فأذن للنصارى في ببناء الكنائس التي هدمها علي بن سليمان فبنيت كلها إثر الفتوى التي أفتاها اكبر فقهاء مصر في ذلك الوقت :الليث ابن سعد وعبد الله بن لهيعة بأن عامة كنائس مصر بنيت زمن الصحابة والتابعين فلم يعترضوا على بنائها^(٤) • وقد جاء بطريق الملكانية في مصر الى بغداد يعالج بعض جوارى الرشيد ونجح في العلاج فطلب من الخليفة استرداد بعض الكنائس التي كان القبط استولوا عليها من طائفته فأمر له بذلك^(٥) •

(١) انظر ياقوت الحموي - معجم البلدان ج ٢ ص ٦٦٢ وص ٦٧٠ •

(٢) ماري بن سليمان - اخبار البطارقة ص ٧٤ •

(٣) المصدر نفسه ص ٧٣ •

(٤) الكندي الولاة والقضاة ص ١٣٢ والمقريري - الخطط ج ٢

ص ٤٩٣ •

(٥) المقريري - الخطط ج ٢ ص ٤٩٣ •

ولا شك أن سياسة الرشيد بقيت على هذه الأسس نفسها حتى وفاته .

وإن كانت أحداث جبهة الروم في أواخر حياته قد دفعته الى أن يأمر سنة ١٩١ «بهدم الكنائس في الثغور»^(١) والى أن ينسي مدينة الحدث من انقراض اثنتين منها ولعله اتخذ هذا التدبير عقوبة لما رأى من تعاون نصارى الحدود مع الروم .

وقد تابع الأمين سياسة أبيه في هذه الناحية ويروي أنه رأى حلماً يتبين فيه ظلم حمدون بن علي في المنع من بناء البيع فأصدر منشوراً يسمح بها . وحدث سنة ١٩٨ ، بعد مقتل الأمين أن رأى ابراهيم القرشي والي حران بعض العماثر المستحدثة حول قصره فلما تبين أنها بيع حديثة البناء أمر ألا تغرب شمس يومه حتى تكون قد سويت جميعاً بالأرض . وسرعان ما قدم الفعلة وهدموا مذبح الكنيسة الكاثوليكية ومذبح كنيسة تيوتوكوس وجزءاً من بيعة مارجرجس وكنائس أهل خلقدونية (الملكانية) والساطرة وكنيس اليهود . ولما أقبل الصباح الثاني ثاب الى رشده وأذن بإعادة تشييد ما هدمه بالتدريج وسرعان ما جددت البيع والكنائس «...»^(٢) .

وقد خربت أثناء فتنة الامين والمأمون ديارات كثيرة في وادي هبيب (النطرون) في مصر ثم أعيد ترميمها بعد سنوات قلائل . وترد

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٢٤ (٧١٣/٣) .

(٢) ترتون - اهل الذمة (بالعربية) ص ٤٩ نقلا عن ابن العبري

(بالسريانية - الترجمة الفرنسية ص ١٢٩) .

عدة أخبار تتصل ببناء عدد من الكنائس في مصر زمن المأمون : فقد قام بعض حجابيه ببناء كنيسة العذراء بناحية القنطرة وحصل أثنان من الفراشين على إذن ببناء كنيسة على جبل المقطم لأن كنائس القلعة شديدة البعد وبنى أحد الأثرياء عدة كنائس رائعة الجمال في بلدته بورة^(١) . . . الخ كما بنى الطبيب بختيشوع بن جبرائيل الدير الذي دفن فيه أبوه وهو دير مارجرجس في المدائن وجمع له رهباناً وأجرى عليه الجرايات والنفقات^(٢) .

وحين تولى عبد الله بن طاهر الجانب الغربي من الخلافة للمأمون: قدم عليه وفد من العرب من حران والرها وسيساط يسألونه هدم الكنائس التي استحدثت في السنوات العشر الأخيرة (أثناء فتنة الأمين والمأمون وبعدها) فرفض سؤالهم قائلاً إن هؤلاء النصارى المساكين لم يستحدثوا عشر الكنائس التي هدمت أو خربت . . . ويذكرون أنه مر في بيت المقدس عائداً إلى بغداد فشكا إليه المسلمون زيادة النصارى في قبة كنيسة القيامة حتى جاوزت قبة الصخرة وأمر ابن طاهر بسجن توماس البطريق حتى تنجلي الحقيقة ولكنه أطلق من السجن بحيلة منطقية قيل إن بعض المسلمين جاء إلى سجنه فعلمه إياها^(٣) .

وفي عهد المعتصم جدد بعض البطارقة عدداً من البيع : كتجديد (سبريشوع) أبنية مارفثيون الدير القديم بجانب بغداد وبناء بيت الأَشهاد والأروقة وبعض الأديرة القديمة الأخرى . أما الخليفة نفسه

(١) المصدر السابق ص ٤٩ .

(٢) القفطي - أخبار الحكماء ص ١٤٢ .

(٣) ترتون - أهل الذمة ص ٥٠ - ٥١ .

«فابتاع من السكان النصارى في سر من رأى ذلك الموضع والخرابات المتصلة بالمطيرة»^(١) وبنى عليها العاصمة الجديدة للخلافة .

ولما جاءت العاصفة مع المتوكل «٠٠٠ أمر (سنة ٢٣٩) بهدم كل البيع المحدث في الاسلام»^(٢) ويذكرون نتيجة لذلك أنه «٠٠٠ جد في هدم البيع والدير بسر من رأى . وهدم دير بدورقنة (المقر البطريقي) وأقطعه لمحمد بن جميل ، صاحب الشرطة ، لبينيه منزلاً ٠٠٠ وهدم عدة بيع وأعمار منها دير مارقرياقوس بالأنبار وفيه يعمل الشعانين ٠٠ وهيكـل ماريونان ٠٠٠»^(٣) ولا شك أن هذا الأمر الذي كان الأول من نوعه في الاسلام لم يستمر طويلاً كما لم ينفذ التنفيذ الدقيق وما هي إلا سنوات حتى عاد الخليفة نفسه فأهمل تطبيقه .

أما المجوس في ايران وخراسان فلم يكن التدخل في شؤونهم الدينية ولا في معابدهم وبنائها موضوع بحث أو تفكير لدى العباسيين، وكانوا ، رغم خسارتهم المستمرة في الاتباع ، يتابعون حياتهم الدينية المعتادة وتنظيماتهم الكهنوتية على الرسم الذي اعتادوه دوماً . ولهم رؤساؤهم والكهان وبيوت النار التي يتعهدون . وإذا أصدر عمر بن عبد العزيز مرة كتابه الى عماله بأن لا يهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه ولا تحدثن كنيسة ولا بيت نار ٠٠٠»^(٤) فإن الخلفاء العباسيين لم يكونوا بحاجة الى إصدار هذا الأمر بالنسبة لبيوت النار

(١) ماري بن سليمان - اخبار البطارقة ص ٧٧ .

(٢) الطبري ج ٩ ص ١٩٦ (١٤١٩/٣) .

(٣) ماري بن سليمان - اخبار البطارقة ص ٧٩ .

(٤) الطبري ج ٦ ص ٥٧٢ (١٣٧١/٢) .

على الأقل لأنهم تركوها لحرية الناس المطلقة . يحدثون من هذه البيوت ويجددون ما يشاؤون . حتى إننا لنجدها في القرن الرابع الهجري ما تزال تملأ البلاد والقرى في الجناح الشرقي من الخلافة الإسلامية : وتقرأ لدى ابن حوقل : « أن بيوت نيران (فارس) كثيرة . ويعجز علمها من سوى الديوان إذ ليس من بلد ولا ناحية ولا رستاق إلا وبها عدد كثير من بيوت النيران . غير أن المشاهير التي يفضلونها على غيرها في التعظيم منها بيت نار الكاريان وبيت نار بجرة وبه تحلف المجوس في المبالغة بأيمانهم . وبيت نار عند بركة جور حدثني من قرأ عليه بالفهلوية أنه أتفق عليه ثلاثون ألف ألف درهم وبيت نار في قرية السوكان يرى من شيراز وبيت . وبيت » (١) . وكانت الموارد المالية لهذه البيوت من الضخامة بحيث أن بيت نار المدائن ، جنوب بغداد « كانت النفقة عليه تضعف على خراج فارس » (٢) . وخارج فارس في تلك الفترة كان حسب ما ذكر قدامة بن جعفر حوالي : أربعة وعشرين ألف ألف درهم (٣) .

ثالثا : العلاقة مع عامة الذمة : بالرغم من الصور القائمة التي تعطى أحيانا كثيرة سواء في التواريخ المسيحية القديمة أو الدراسات الاستشراقية لأوضاع الذمة تحت الحكم الإسلامي عامة . فإن التدقيق في أوضاعهم ، في العصر العباسي الأول خاصة يكشف عن صورة مغايرة تماما . فيها من التعايش والرعاية أكثر بكثير مما فيها من عواصف

(١) انظر ابن حوقل - صورة الأرض ص ٢٤٢ .

(٢) انظر ابن رسته العلاقات النفيسة ص ١٨٦ .

(٣) انظر قدامة بن جعفر (القطعة المنشورة مع كتاب المسالك

والممالك لابن خردادبه) ص ٢٤٩ .

التضييق الطارىء • أما الاضطهاد فلم يعرفه الذميون أبداً من العباسيين . وإذا كان من الطبيعي في المجتمعات القائمة على أساس الدين - كما هو الحال في الحكم العباسي الاسلامي - ان تكون القيمة هي القيمة الدينية فلا ينظر أهل الدين الحاكم الى أصحاب الأديان المخالفة إلا من خلال نظرة الاستعلاء فإن هذه النظرة كانت ، في العصر العباسي الأول ، في أبسط وأهون صورها • وإذا كانت كتلة كبيرة من السكان بصورة عامة هي من أهل الذمة فإن هذه الكتلة كانت في الواقع تتابع حياتها العادية المألوفة في ظل العباسيين الكبار بدون أي عائق جدي : تصلى • وتبني المعابد وتتبع الرؤساء الروحيين وتدفع لهم الأموال وتخرج مواكبها في الأعياد سواء في العراق أو الجزيرة أو مصر وتحمل شعاراتها الدينية أمام كافة المسلمين دون مانع • وربما كان المجتمع الإيراني المجوسي في هذه الناحية أكثر حرية واستقراراً وأقل تعرضاً للعواصف المضادة لأنه كان الى حد ما مجتمعاً متجانساً ، ومعظمه إيراني وعلى المجوسية فالعرب المسلمون فيه والمسيحيون على السواء أقلية لا تفرض نفسها والتغلغل الاسلامي كان يجري على هون وبطء فيه بدون إثارة أو تحد لأحد •

أما المجتمع العباسي في العراق والجزيرة والشام ومصر فكان الصراع بين العقائد والأجناس فيه أكثر حدة ووضوحاً • ومع ذلك فلم يكن المسلمون يرون في الشعائر الدينية التي يقوم بها الذميون أممهم نوعاً من التحدي للإسلام ولا يتعالون عليهم إلا في بعض أحوال التنافس والخصومة • بل كان النصارى من الذمة خاصة يحتكرون المناصب والمهن الهامة ويتمتعون بكافة آلاء الحياة بل يحظون بنوع من التعظيم في قلوب

العوام ، بشهادة الجاحظ الذي كتب يفسر ذلك قائلاً : (١) «...ومما عظمهم في قلوب العوام وحبهم إلى الطعام أن منهم كتاب السلاطين وفراشي الملوك وأطباء الأشراف ، والعطارين والسيارة . ولا تجد اليهودي إلا صباغاً أو دباغاً أو حجاماً أو قصاباً أو شعاباً (يصلح الشعب أي الصدع) ...» ونحن لم نخالف العوام في كثرة أموال النصارى وأن فيهم ملكاً قائماً وأن دماءهم أنظف وأن صناعتهم أحسن ... فأما الملك والصناعة والهيئة فقد علمنا أنهم اتخذوا البراذين الشهرية والخيال العتاق واتخذوا الجوقات وضربوا بالصوالجة وتحققوا المديني ولبسوا اللحم والمطبعة (من الملابس الفاخرة) واتخذوا الشاكرية (الحرس) وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي . واكتنوا بذلك أجمع ولم يبق إلا أن يتسموا بمحمد ويكتنوا بأبي القاسم فرغب إليهم المسلمون وترك كثير منهم عقد الزناير وعقدها آخرون دون ثيابهم وامتنع كثير من كبرائهم من إعطاء الجزية وأنقوا مع اقتدارهم من دفعها وسبوا من سبهم وضربوا من ضربهم ومالهم لا يفعلون ذلك وأكثر منه وقضائنا أو عامتهم يرون أن دم الجائليق والمطران والأسقف وفاء بدم جعفر وعلى والعباس وحمزة ...» وهذه الصورة الحياتية الحية التي يقدمها الجاحظ لم تكن مقصورة على الكبراء بل شملت في تسامحها حتى الجوّاري وقد كانت بعضهن تحمل صليبيها في بلاط الخلفاء فلا تمنع . يروي الطبري «أن المهدي دخل بعض دورهِ يوماً فإذا جارية له نصرانية وإذا صليب من ذهب معلق في (صدرها) فاستحسنه فمد يده فأخذه فولدت على الصليب فقال المهدي في ذلك :

(١) الجاحظ - ثلاث رسائل (نشر يوشع فنكل - القاهرة سنة

يوم نازعتها الصليب فقالت ويح نفسي : أما تحل الصليباً^(١) ويذكرون عن الهادي أنه أمر مرة بكسر تابوت بعض الأشرار المسيحيين ورميه في الماء ثم عاد عن ذلك تكريماً له . أما في عهد الرشيد فقد كان من المعتاد أن يخرج النصارى في موكب كبير وبين أيديهم الصليب في أعياد الفصح على الأقل ، ولكن دون رايات^(٢) وكانت زبيدة «تسيل إلى النصارى وتستخدمهم وعملت اعلام الشعانين وصلبان من ذهب وفضة ...»^(٣) وبالإضافة إلى هذا فقد كان بعض المسلمين يحتفظون ، وربما كان ذلك بحكم التقاليد والايان بالغييات بكثير من التكريم لبعض البطارقة ورجال الدين الذميين . ويذكر بعض مؤرخي السريان أن مارقرياقوس البطريق كان مسافراً سنة ١٨٦ بالسفينة على نهر دجلة نحو الشمال فطلب بعض النصارى من أهل الموصل إلى صاحب السفينة التوقف . وأعطوه مبلغاً من المال وأقبلت حشودهم وحشود المسلمين معهم تتلمى من طلعتة وبركتة^(٤) . كما صدق الناس أن صلاة الأسقف مسيس كانت السبب في زيادة النيل حوالي سنة ١٤٠ مما دفع الوالي أبا عون إلى احسان السيرة في الأقباط^(٥) وكانت النذور أحياناً تأتي بعض البيع والأديرة من بعض المسلمين . بل نجد بعد قليل من

(١) الطبري ج ٨ ص ١٨٥ (٥٤٢/٣) .

(٢) انظر ترتون - أهل الذمة (الترجمة) ص ١١٦ وكتاب التاريخ المنسوب إلى ديونيسيوس التلمحري الجزء ٢ ص ٣ .

(٣) ماري بن سليمان - أخبار البطارقة ص ٧٣ .

Aosonymus Syriac Chronicle t. II, P. 3

(٤) ترتون - أهل الذمة (الترجمة) ص ١٧٤ نقلاً عن المؤرخ السرياني توماس مارغا .

(٥) ساويرس - سير البطارقة ص ٢٠٠ وقد خفف عنهم الوالي أبو عون الخراج أيضاً لذلك .

أواخر هذا العصر الذي ندرسه أن ابن طولون في مرضه الأخير يطلب الى الناس الدعاء له فيأتي المسلمون ويأتي اليهود والنصارى ، معتزلين عن المسلمين ، عند مسجد محمود بجبل المقطم ، ثم يحضرون في اليوم الثالث مع النساء والصبيان يدعون له^(١) . . . ولم يذكر المؤرخون مرة أن أحد الذمة اضطهد أو هضم حقه أو منع العدالة أو أبيع ماله أو منع من ممارسة شعائره الدينية لمجرد اعتقاده بغير الاسلام . وإذا كانت المناقشة الفقهية قد تناولت مثلاً جواز الأكل عند الذمي أو تعظيمه لمكانه العلمي أو حضور احتفالاته الدينية أو ضرورة محاكمته طبقاً لقواعد دينه فلدينا من الأمثلة على ذلك الكثير :

آ - يروي أبو زكريا الأزدي في تاريخ الموصل أن قوماً من بني مالك في نواحي الموصل قطعوا على قوم من النصارى هناك الطريق ونهبوا مالهم فخرج إليهم السيد بن أنس الأزدي والي الموصل بالجيش وقد قبلوا « رد البر بأعداله والمال بخواتيمه » فرفض إلا تسليمه مع من أخذه . فأتوه بالجميع وكانوا مائة ف ضرب أعناقهم جميعاً وصلبهم مكانهم وهدد لئن زال من الخشب (خشب الصلب) واحدة ليعودن إليهم^(٢) . . .

ب - يذكر المقرئزي قصة مارية القبطية العجوز صاحبة قرية طاء النمل التي جاوزها المأمون بموكبه فلم يقف بها استهانة بشأنها فخرجت إليه مارية تصيح متظلمة فوقف وكان لا يمشي أبداً إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس فذكروا له أن القبطية تتظلم أنه لم يقف بقريتها وأن القبط سوف يعيرونها بذلك وبكت فقبل المأمون دعوتها . وجاء ولدها

(١) الكندي - الولاة والقضاة ص ٢٣١ .

(٢) أبو زكريا الأزدي - تاريخ الموصل ص ٣٦٧ .

بما يحتاج مطبخ الخليفة من الغنم والدجاج والفراخ والسماك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة .. وكان مع المأمون أخوه المعتصم والقضاة يحيى بن أكثم وابن أبي داؤود فأحضرت لكل واحد منهم من الاكرام ما استعظمه فلما أصبحوا للرحيل جاءتهم بعشر وصائف يحملن الأطباق . وحسب المأمون أنها « هدية الريف الكامخ » فإذا في كل طبق كيس من الذهب^(١) . وقريب من هذا الخبر ما ذكروا من دعوة الطبيب بختيشوع للمتوكل بطلب من الخليفة نفسه^(٢) .

ج - ودخل يعقوب الكندي مرة - وهو يهودي - الى حضرة المأمون وجلس مجلساً فوق مجلس أحد كبار المسلمين فلما قال له هذا : لماذا تجلس وأنت اليهودي فوق ما يجلس علماء الملة ؟ أجاب : لأنني أعرف ما تعرف ولكنك لا تعرف ما أعرف^(٣) .. ولم ينكر أحد على الكندي الفيلسوف الطبيب ذلك .

د - ولما مرض الطبيب سلمويه « .. عاده المعتصم وبكى عنده .. ولما مات قال المعتصم سألحق به لأنه كان يمسك حياتي ويدبر جسمي وامتنع عن الأكل في ذلك اليوم وأمر باحضار جنازته الى الدار (دار الخلافة) وأن يصلى عليها بالشمع والبخور على رأي النصارى ففعل ذلك وهو يراهم .. »^(٤) .

-
- (١) المقرئزي - الخطط ج ١ ص ٨١ (ج ١ ص ١٤٦ من طبعة بيروت)
(٢) انظر خبر ذلك لدى ابن العبري ص ١٤٤ .
(٣) انظر المقرئ - نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٢ .
(٤) ابن العبري ص ١٤٠ .

هـ - « .. وكان الطيفوري النصراني الكاتب (لدى المتوكل) يحسد حيناً (ابن اسحق) ويعاديه . واجتمعاً يوماً في دار بعض النصارى ببغداد وهناك صورة المسيح والتلاميذ وقنديل يشتعل بين يدي الصورة فقال حين لصاحب البيت : لم تضيع الزيت فليس هذا المسيح ولا هؤلاء التلاميذ وإنما هي صور . فقال الطيفوري : إن لم يستحقوا الاكرام فابصق عليهم فبصق فأشهد عليه الطيفور ورفعته الى المتوكل فسأله إباجة الحكم عليه لديانة النصرانية (وبحسب العقيدة) فبعث الى الجاثليق والأساقفة وسئلوا عن ذلك فأوجبوا حرم حين فحرم وقطع زناره وانصرف الى داره .. ومات من ليلته فجأة وقيل إنه سقى نفسه سمًا .. »^(١)

وإذا شئنا أن نعرف الشروط الاقتصادية التي عاشها الذميون في ذلك العصر فلعل من الممكن أن نرى حدودها الدنيا والعليا من خلال صورتين :

الأولى : ذكرها مؤرخ سرياني فقال : إنه في أيام عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية والي مصر سنة ١٥٢ كان سكان تنيس - كما شاهدتهم المؤرخ - يعيشون في فقر مدقع وسألهم فقالوا إن سبب هذه المتربة البالغة هي أن المياه تحيط بنا من كل ناحية ولا زراعة لنا . ولا مواشي . وأما الماء الذي نشرب فوارد من مكان ناء وقلما نستطيع شربه إلا بدفع درهم لكل أربع جرار .. وهم يتاجرون بالكتان يغزله نساؤهم وينسجونه ويؤجرهم أصحاب المال نصف درهم كل يوم .

(١) ابن العبري ص ١٤٥ .

ولا يفي ذلك بطعام العائلة • وعليهم خمسة دنانير من الضريبة على كل دار • يدفعونها مرغمين وتحت طائلة السجن • ويرهنون أولادهم من أجلها وبناتهم وغالباً ما يستمر هذا الرهن لأنهم يطالبون بدفع خراج السنة التالية قبل أن يستطيعوا تحرير أولئك الأولاد والزوجات^(١) • • وهكذا يبقى هؤلاء رهائن دائمين •

أما الثانية : فنقرأها لدى القفطي في تاريخ الحكماء عن جبرائيل ابن بختيشوع • ونرى في الثبت الذي سجل فيه جبرائيل بيده أرزاقه ورسومه وصلاته أنه وصله خلال خدمته للرشيد والبرامكة - فيما عدا الصلات وريع الاقطاعات والهدايا وغيرها تسعة وثمانون مليون درهم تقريباً • وقد جعل المأمون نفسه وصياً في وصيته التي بلغت ٧٠٠ ألف دينار^(٢) •

وكان ابنه بختيشوع ، في زمن المتوكل ، في الغاية من الرفاه فلما نكب وجدوا لديه أربعة آلاف سروال من الحرير الديبقي وحملوا الى دار الخلافة الكثير من أرزاقه وباعوا الكثير وبقي بعد ذلك حطب وفحم ونيذ فاشترأ أحدهم ستة آلاف دينار ثم باع منه باثنتي عشر ألفاً فلما حسده بعض الناس لدى الخليفة بذل فيما بقي في يده ستة آلاف دينار أخرى ثم باعه بضعف ذلك المبلغ^(٣) • ونسرع الى القول إن هاتين

(١) التاريخ المنسوب الى ديونيسيوس التلمخري - (الترجمة الانكليزية) ج ٢ ص ١٧ •

(٢) القفطي - تاريخ الحكماء ص ١٤٢-١٤٣ وهناك تفصيلات هذه الارزاق الضخمة •

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٣-١٠٤ •

الصورتين لم تكونا خاصتين بالذميين ولكنهما صورة للطبقية التي كانت سائدة في ذلك العصر . وقد كان بين المسلمين من هم أشد فقراً من جماعة تنيس كما كان بين رجال الدولة الكبار من هم في مثل ثراء آل بختيشوع ورفاههم ولكن الصورتين تثبتان على الأقل مشاركة الذميين في التكون الطبقي للمجتمع العباسي وفي الفقر والغنى على السواء ، ومشاركتهم للمسلمين في كافة المستويات .

ولقد كانت الضرائب المفروضة عليهم أكثر أحياناً من الضرائب المفروضة على العرب المسلمين ولكنها في الواقع لم تكن أكثر مما كان مفروضاً عليهم في العهد البيزنطي أو الساساني ، بالإضافة الى أن تملك المسلمين بعد القرن الأول للأرض الخراجية لم يكن يحولها الى أرض عشرية ولكن يبقى عليها خراجها الأول ويستوي في شدته وفي خفضه عند ذلك المسلم والذمي . كما أن الطرق العنيفة في الجباية لم تكن من ابتكار الحكم العربي الاسلامي ولكنها هي نفسها الطرق الموروثة من قبل وكثيراً ما كانت أحكام الاسلام وأوامره تتدخل لتخفف من قسوة تلك الطرق . ولدينا بالإضافة الى ما نعرف من تلك الأحكام في هذا الصدد نص ثمين وجد على بعض أوراق البردي^(١) وهو أمر صدر باللغة اليونانية ، في مطلع القرن الثاني الهجري ، الى عمال الخراج في مصر يقول :

« .. خوفاً من الله وحفظاً للعدالة والحق في توزيع المبلغ المفروض عليهم .. ورتب ناظراً يعاونه أربعة من البارزين في كورتك لمساعدتهم

(١) ورقة البردي هذه فسد قسم منها وهي موجودة مع مجموعة أوراق البردي اليونانية في المتحف البريطاني وقد نشر محتواها في :
Greek Papyrus in the Br. Mus. Vol IV, No 1345

في جمع الضريبة .. (وأبلغنا تفاصيل الجباية) .. ولا تجعلنا نعرف أنك حايت أو ظلمت أحداً في جمعها . فإذا وجدت (أن بعض العمال) عاملوا أحداً باللين الزائد بسبب المحاباة أو أثقل عليه غاية الاتصال لكراهيتهم له فإننا سنقتص منهم في أشخاصهم وأملاكهم تنفيذاً للشرع .. وتجب معاملة الجميع بالعدل وأخذ المفروض من كل منهم بقدر طاقته .. » (١) .

على أن إساءة استغلال السلطة كانت من سمات الكثير من العمال وكان يتعرض لها المسلمون والذميون على السواء بدليل أن ثورات مصر سنة ١٦٨ وسنة ١٧٨ وسنة ١٨٦ وسنة ١٩١ إنما قام بها عرب مسلمون نتيجة التذمر من جباية الخراج !

وأخيراً لم يكن الذميون يعيشون في انفصال عن المجتمع الاسلامي بل كانوا مندمجين فيه كل الاندماج وإذا لم نذكر قصص الأديرة وحياة اللهو ، وقصص مجالس العلماء وحياة الجد ، وروابط الحياة اليومية فيكفي أن نذكر شهادة الجاحظ المعاصر للمأمون والمتوكل إذ يقول في رسالة يمكن أن تعتبر وثيقة من وثائق العصر يقول فيها : إن في النصارى : « .. متكلمين وأطباء ومنجمين وعندهم عقلاء وفلاسفة وحكماء .. » وأن منهم كتاب السلاطين وفراشي الملوك وأطباء الأشراف والعطارين والصيافة وأنهم اتخذوا البراذين والخيول واتخذوا الشاكرية (البغال يركبها الخدم) وتسموا بالحسن والحسين وعلي واكتنوا . وترك كثير منهم عقد الزناير وامتنع كثير من كبرائهم من عطاء الجزية ... » (٢) .

(١) انظر تروتون - أهل الذمة ص ١٦٣-١٦٤ .

(٢) الجاحظ - ثلاث رسائل (رسالة الرد على النصارى) .

وهذا كله إنما يعني أن التعصب الديني لم يكن هو الأساس في العلاقة ما بين النظام العباسي ، في ذلك الوقت ، وبين أهل الذمة ، وإنما كان التعايش والرعاية هما الأساس ولعل خير ما يشهد على ذلك رسالة معاصرة ماتزال محفوظة بين رسائل البطريق النسطوري طيماتاوس وزعها بالسريانية على أتباعه في العراق وإيران يشيد فيها برعاية السلطات الإسلامية للدين المسيحي ولرجال الدين ومساعدتهم الكنائس والبيع^(١) .

وننتقل إلى مناقشة الصورة الأخرى صورة الاضطهاد والقيود وهي صورة قد يساء فهمها إذا لم تقرأ بأسبابها . وهي أسباب سياسية أو إدارية أو دفاعية لم يكن للتعصب الديني من مكان فيها أو كان أحياناً آخر تلك الأسباب أو لحق بها فيما بعد . ولعل استعراض تلك الأحداث التي سجلت التمييز والاضطهاد يكشف أبعادها ويعطي النماذج الواقعية للسياسة الدينية العباسية مع الذمة أكثر مما تكشفه الأحكام العامة ولدينا في هذا الصعيد خمس قضايا :

هناك أولاً قضية الصابئة - الحرائية : يقول مؤرخ نسطوري :
« .. وتناول الحرائيون (الصابئة) رجلاً ، على رسمهم (أي طريقتهم) ليجعلونه قرباناً ويقطعون رأسه فأقلت . وخبر الرشيد بحالهم فأمر بقتلهم واستيصالهم وتفرقوا في البلاد .. »^(٢) ولا نعرف كم قتل من

(٢) لهذا البطريق حوالي مائتي رسالة بقي منها حوالي الستين وقد طبع منها براون Braun الجزء الاول بالسريانية والفرنسية في باريس سنة ١٩١٤ . ومعظمها موجه الى سرجيوس اسقف عيلا .
(٣) ماري بن سليمان - أخبار البطارقة ص ٧٥ وفي النص غلطت إعراب تركناها على حالهما حفاظاً على النص .

هؤلاء الحرائين وكم شرد والأرجح أنهم عادوا الى بلدهم بعد ذلك لأن المأمون مر بحران سنة ٢١٥ في طريقه الى جبهة الروم فوجدهم هناك . يقول ابن النديم : تلقاه الناس يدعون له فوجد بينهم جساعة بأقبية وشعور طويلة ووفرات مسترسلة . فسألهم : من أنتم من الذمة ؟ نصارى أم يهود أم مجوس ، قالوا : لا ، قال : أفلكم كتاب أم نبي ، فجمعوا في القول ، قال : أنتم إذن الزنادقة عبدة الأوثان وأصحاب الرأس في أيام الرشيد والدي . وأنتم حلال دمكم ولا ذمة لكم ! قالوا نحن نؤدي الجزية ، قال : لستم من أهلها ، فاختاروا أحد أمرين : إما الاسلام أو ديناً من الأديان التي ذكرها الله في كتابه . وقد أنظرتكم حتى أرجع من سفرتي هذه . وإلا أمرت بقتلكم » وتسامح المأمون ها هنا واضح حين لم يجبرهم على الاسلام فقط ولكن قبل منهم اعتناق أي دين آخر من أديان الذمة « ورحل يريد بلد الروم فغيروا زيهم وحلقوا شعورهم وتنصر كثير منهم . وأسلم منهم طائفة . وبقي منهم شذمة بحالهم وجعلوا يحتالون ويضطربون حتى جاءهم شيخ فقيه حراني فحملوا إليه مالا عظيماً من بيت مالهم أحدثوه منذ أيام الرشيد لهذه الغاية أعدوه للنواب . فقال لهم : قولوا إنكم الصابئة ! فهذا اسم دين مذكور في القرآن . فاتتحلوه فلما توفي المأمون في بلد الروم ارتد كثير ممن تنصر . أما من أسلم فلم يستطع ولكن كثيراً منهم ظلوا يتزوجون من الحرائيات ويجعلون بناتهم على المذهب لحفظه .. وظلوا على ذلك قرناً^(١) .

وهناك ثانياً قضية النصارى العرب وهي تتعلق بثلاث مجموعات عربية مسيحية :

(١) انظر ابن النديم الفهرست ص ٣٢٠-٣٢١ وانظر هناك أيضاً حكاية الرأس عندهم .

مجموعة النجرانية : أهل نجران الذين استقر قسم كبير منهم في الكوفة وبعضهم بالشام وكانوا ملزمين بخراج قدره مائتا حلة (ثوب) فكان صاحب النجرانية يبعث رسله فيجبي منهم كل سنة المال لذلك . وقد تضاءل عددهم بالاسلام فلما مر الرشيد بالكوفة يريد الحج رفعوا إليه في أمرهم وشكوا تعنت العمال إياهم فكتب لهم كتاباً بالمائتي حلة .. وأمر أن يعفوا من معاملة العمال (أي الزيادات التي تدفع أجوراً للعبادة) وأن يكون مؤداهم بيت المال بالحضرة (أي يدفعون مباشرة ببغداد) .

مجموعة تنوخ : وهي تلك الأخطا من العرب التي كانت تنزل منذ ما قبل الاسلام في حاضر قنسرين - أي الريف البدوي في منطقة حلب - وقد أقام بعضهم على النصرانية حتى العصر العباسي . ويذكر المؤرخ السرياني ميخائيل الكبير ، البطريق ، أن المهدي هاله حين مر بحلب كثرة من بها من النصاري من تنوخ الذين نيفوا على اثني عشر ألفاً فخيرهم بين الموت والاسلام فأسلم بعضهم وأما الآخرون الذين تمسكوا بدينهم وكانوا سبعة آلاف فقد قتلهم عن آخرهم^(١) .. وهذا الخبر الذي لم يذكره مؤرخ آخر على هذا الشكل يخلط فيما يبدو بين عدد من الأخبار : فقد بعث المهدي حين نزل حلب سنة ١٦٣ بعد الجبار المحتسب فجمع له الزنادقة فقتل جماعة منهم . كما كان في حلب

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٨٠-٨١ .

(٣) انظر تاريخ ميشيل السوري (الترجمة الفرنسية) :

Michel le Syrien, Chroniques

(Trad. Lamglois, venise, 1865, P. 262) ; (Trad. Chabot, paris vol II, P. 478 - 480) .

وحران منذ عهد المنصور جماعة من الراوندية^(١) . ولعل بعض المسيحيين من تنوخ ومن هؤلاء الراوندية قتلوا في تلك الحملة على الزنادقة . ولعل المهدي نقم على التتوخين بجانب أن منهم بعض الزنادقة أنهم قبل سنة من ذلك قد آووا ثائراً خارجياً (هو عبد السلام ابن هاشم) دوح جيوش المهدي في الجزيرة ثم هرب الى قنسرين فقتل فيها سنة ١٦٢^(٢) ولعل المهدي الى هذا وذاك خشي من الزنادقة اضطراب ولائهم للدولة وميلهم الى الروم وهم في منطقة الثغور والعواصم فحاول تطبيق السنة العمرية عليهم بأن يخيرهم بين الاسلام أو القتل لأنهم من العرب . وهكذا » . . أسلم – كما يقول البلاذري – على يده جماعة من أهل ذلك الحاضر . . فكتب على أيديهم بالخضرة قنسرين . .^(٣) لكن أحداً من المؤرخين لم يذكر أنه رافق ذلك الاسلام قتل . ومن الصعب أن تجري مثل هذه المذبحة ولم يجر مثلها في الاسلام منذ حروب الردة ثم أن تمر في صمت فلا يذكرها أحد . ولا شك أن أولئك النصارى اعتصموا من المهدي بالعهد الذي أخذوه من أبي عبيدة . وهكذا فالذين قتلوا إذن – وهم من الزنادقة ، وقد قتلوا على أي حال بعد مغادرة المهدي لحلب ووصوله دابق – لا علاقة لهم بالذين أسلموا من حاضر قنسرين وحلب ولكن المؤرخ السرياني ربط بين القتل والاسلام وجعل العملية الأولى سبباً للثانية .

مجموعة تغلب : وهي قبائل العرب في الجزيرة . كانت هناك

(١) انظر الطبري ج ٨ ص ١٤٨ (٤٩٩/٣) وابن العديم زبدة الحلب ج ١ ص ٥٩-٦٠ والازدي – تاريخ الموصل .

(٢) ابن العديم – زبدة الحلب ج ١ ص ٦٠ والطبري ج ٨ ص ١٤٢ (٤٩٢/٣) .

(٣) البلاذري – فتوح ص ١٧٢ .

وعلى النصرانية قبل الاسلام ثم أنفت عند الفتح من دفع الجزية أو ترك دينها فقبل منها عمر بن الخطاب دفع الصدقات مضاعفة .. وكان وضعهم الخاص مشكلة واجهها الإمام علي كما واجهها عمر بن عبد العزيز ولكنهم مع ذلك ظلوا دوماً يتمتعون بذلك الامتياز واستمروا على ذلك حتى عهد الرشيد الذي ضاق بكثرة معوتهم للخوارج في الجزيرة ، كما اتهمهم بممالأة الروم فأراد نقض العهد القديم وفي نفسه كما قيل أن يقتل رجالهم ويسبي ذراريهم^(١) . كان ذلك حوالي سنة ١٨٨ فيما يبدو وقاضي قضاته هو الشيباني فاستشاره في الطريقة لنقض العهد فقال : لا سبيل الى ذلك . قال الرشيد : لقد صالحهم عمر على ألا يغمسوا أولادهم في المعمودية وقد فعلوا فخرجوا بذلك على العهد ونقضوه . وقال الشيباني لقد علم ذلك الصحابة والتابعون فلم يمنعوهم منه ولم يجدوا أن ينقضوا العهد معهم لأجله » قد كشفت لك العلم ورأيك أعلى » ! ولم يستطع الرشيد أن يفعل شيئاً^(٢) .

وهناك ثالثاً : قضية أقباط مصر : وقد كانوا قد انتقضوا أكثر من مرة حتى أواخر عهد المنصور ثم تقضت فترة نصف قرن لم تسمع لهم فيها حركة . حل محلهم في الثورات ضد الظروف المالية السيئة وضد قسوة الخراج أثناء ذلك ، العرب المسلمون الذين توطنوا في الدلتا (بمنطقة الحوف) :

(١) قتل بنو تغلب عامل صدقات الرشيد روح بن صالح سنة ١٧٠ فنكل بها أخوه حاتم بن صالح في السنة التالية . فخرجت تغلب من طاعة الخلافة بعد ذلك سنة ١٧٧ مع الوليد بن طريف الشاري الخارجي الذي تحققت ثورته سنة ١٧٩ .

(٢) راجع ترجمة الشيباني محمد بن الحسن في تاريخ بغداد وغيره . وانظر مقدمة السير الكبير (طبع جامعة القاهرة سنة ١٩٥٨) لأبي زهرة .

— تشدد الوالي موسى بن صعب في استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما تقبل به سنة ١٦٨ فثاروا ضده .

— وزاد اسحق بن سليمان على المزارعين زيادة أجحف بها فخرج عليه أهل الحوف سنة ١٧٨ .

— وبعث الليث بن الفضل بمساح بمسحون الأراضي سنة ١٨٦ فانتقصوا من القصبه أصابع ولم يسمع الوالي تظلم الناس فخرج عليه أهل الحوف وامتنعوا من الخراج^(١) .

— وخرجوا كذلك في ولاية الحسين بن جميل سنة ١٩١ ثم سنة ١٩٨ ثم اتصلت الحروب بين المتنفذين في الدلتا وفي الصعيد : الجردى والسري . بشكل دمر اقتصاد البلد وأنهكه قلقاً واضطراباً ولم يمه موتها سنة ٢٠٥ الأمر لأن الفترة الداخلية والحروب استمرت حتى وصل مصر عبد الله بن طاهر والياً من قبل المأمون سنة ٢١١ فلما تركها زاد صالح بن شيرزاد في الخراج فانتقض أسفل الأرض (أي الدلتا) من جديد سنة ٢١٤ .

ثم في سنة ٢١٦ « انتقضت أسفل الأرض كلها عربها وقبطها . . وأخرجوا العمال (عمال الخراج) وخالفوا الطاعة وكان ذلك لسوء سيرة العمال فيهم . . » ولما عجز قواد المأمون ومنهم الأفشين عن إخماد الثورة ترك الخليفة جبهة الروم وجاء مصر سنة ٢١٦ وأدرك فوراً سبب الثورة فعزل واليه عيسى بن منصور وحل لواءه وقال : لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك . حملتم الناس ما لا يطيقون وكستموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد . . » .
ولكن هذا لم يمنع المأمون من البطش الشديد فما ظفر قائده .

(١) انظر من هذه الثورات : الكندي - كتاب الولاة والقضاة الصفحات بالترتيب ١٢٥ - ١٢٦ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٥٣ ، ١٨٥ .

الأقشين بالقبط في منطقة البشرد الثائرة حتى : « .. حكم يقتل الرجال ويبيع النساء والأطفال فيبيعوا وسبى أكثرهم » ولم تكن عقوبة العرب أقل قسوة فقد قتل زعيمهم القهري في سخا « وتتبع (المأمون) كل من يومي إليه بخلاف فقتله . فقتل ناساً كثيراً .. »^(١) .

على أن هذه الضربة للقبط كانت من القسوة بحيث كانت لها ثلاث نتائج أشار إليها المقريري بوضوح إذ قال :

— « .. ومن حينئذ أذل الله القبط في جميع أرض مصر وخذل شوكتهم فلم يعد أحد منهم يقدر على الخروج ولا القيام على السلطان » أي انتهت ثورات القبط .

— « وغلب المسلمون على القري » أي انقلب الميزان الجدي للمسلمين ذلك أن موجات التحول إلى الاسلام التي كانت تأتي في أعقاب الثورات حولت الميزان لمصلحة المسلمين .

— « .. فعاد القبط من بعد ذلك الى كيد الاسلام وأهله بإعمال الحيلة واستعمال المكر وتمكنوا من النكاية بوضع أيديهم في كتاب الخراج »^(٢) .

وهناك رابعاً : قضية نصاري الجزيرة العربية والحدود الرومية : وآلام الجزيرة في تلك الفترة كانت كثيرة : فقد تناهبا سوء الأوضاع السياسية ، بسبب الثورات الخارجية العديدة وخاصة زمن الرشيد ،

(١) انظر المصدر السابق ص ١٩٠ و ص ١٩٢ .

(٢) المقريري - الخطط ج ١ ص ٧٩ ، وج ٢ ص ٤٩٤ .

والثورات الأرمنية ، والتهديد الرومي المستمر على الأطراف ، مع سوء الأحوال الاقتصادية والمالية بسبب تعطل الإنتاج باضطراب الأمن والانقطاع المتكرر لطرق التجارة ، وهرب الفلاحين من الريف وقسوة الخراج وعمال الخراج • وليس ثمة ما يؤكد أن الشدائد التي عرفتھا منطقة الجزيرة في أيام المنصور لم تستمر على حالھا في عهد خلفائه • وكان ثمة سبب يحول دون العناية العباسية بهذه المنطقة هو فقد الثقة بينهم وبينھا • فإذا كان سكانھا وهم في الجملة مسيحيون يعاقبة وأرمن ونساطرة وملكانية على استعداد مسبق لمعاداة الدولة الإسلامية وعدم الوقوف بجانبھا بسبب التباين الديني فقد كانت الدولة من جهتها لھا أسبابھا في الريبة بهؤلاء السكان المتهمين لديها بعدم الولاء وبالاتصال مع الروم وحدث أن كان الرشيد مرة في الرھا ، فجاءه وفد من المسلمين يتهم النصارى بأنهم ضالعون مع الروم •• وأن امبراطور بيزنطة يأتي كل سنة للصلاة في كنائس الرھا • وسألوا الخليفة أن يرسم بهدم الكنيسة الكبرى ويمنع الضرب بالناقوس غير أن يحيى (البرمكي) نصح مولاه بعدم الاستجابة لذلك فلم يفعل (١) •

ولعل الأوضاع السيئة مع التمزق الطائفي والتنوع العرقي في المنطقة هو الذي أطلع فيها ، في هذه الفترة ، عدداً من المتبئين منهم : آ - انطونيوس الشهيد الذي كانت تزعم الأقاويل الشعبية أنه هو نفسه أبو روح ابن عم هارون الرشيد وأنه تنصر بعد الاسلام فصلبه هارون وله عندهم قصة « طويلة عجيبة ما سمعناھا - كما يقول البيروني - ولا قرأناھا أو مثلھا في الأخبار والتواريخ •• على أن

(١) انظر ترتون - اهل الذمة ص ١١٦ وانظر التاريخ السرياني المنسوب للتمحري ج ٢ ص ٣٥ •

النصارى قوم سماعون مصدقون لمثل ذلك وخاصة ما يتعلق بديانتهم غير ناظرين من جميع الجهات في تصحيح الأخبار ..»^(١) ولا شك أن انطونيوس أراد تقوية الشعور الديني أمام تحول الكثيرين الى الاسلام ، كما لا شك أن الخرافة الشعبية أرادت الانتقام لهذا نفسه بجعل انطونيوس ابن عم الرشيد وجعله يتنصر .. حتى درجة الاستشهاد .

ب - جنا بربري وقد كانت حركته شعبية فلاحية تبعه فيها الكثيرون من أهل القرى مما هدد الاقطاعيات الواسعة التي يملكها الاقطاعيون المسيحيون والكنيسة على السواء . وهذا ما دعا هؤلاء الى الاتفاق مع السلطات العباسية للقضاء عليه .

ج - مارمارته الذي جعل ييشر ، في عهد المأمون ، بالخلاص وادعى القدرة على شفاء المرضى وقد عادت الكنيسة بالتحالف مع المتنفذين ومع السلطة العباسية فحاربتهم حتى القتل .

هذه الحركات كانت ، في واقعها تعبيراً عن الرفض للواقع الأليم لكن تدخل السلطات العباسية إنما كان محدوداً بالتعاون مع الكنيسة من جهة ، ومع المتنفذين المسيحيين من جهة أخرى . المرة الوحيدة التي سجل فيها ما يمكن أن يسمى بالتضييق إنما كان في عهد الرشيد ، عند أواخره ، حين أمر الخليفة - وهو يحارب الروم - بمنع ضرب الناقوس في ملطية (من الثغور) ومنع سير الجنازات بالمواكب وعدم الطلبان إلا في الكنائس . وأسباب ذلك واضحة في ارتفاع حمى الحرب في الجبهة وفي ضرورات الدفاع وضمان سلامة العمليات العسكرية .

(١) انظر البيروني - الآثار الباقية (ط. سخاو سنة ١٩٢٣) ص ٢٩٢

خامساً : قضية قرارات التضييق على الذمة . يذكر المؤرخ السرياني ميخائيل الكبير بطريق اليعاقبة أن اضطهاد أهل الذمة إنما بدأ مع بداية عهد المهدي وأن عدداً من البيع قد هدم وأن رقيق النصارى قد صودر أو بيع ومنعوا من اقتناء الرقيق^(١) . . . وقد كان ذلك فيما رأينا في السنوات الأولى من حكمه حين دمر الروم حصون ومدن الثغور وسبوا ونهبوا فيها ما يشاءون فلما كانت السنة السادسة من حكمه وردهم على أعقابهم أمر فألغي ذلك القرار . ومنتظر بعد قرار المهدي أكثر من ثلاثين سنة لنسمع عن قرار آخر هو الذي أصدره الرشيد والحرب مع الروم في أوجها وتدميرهم يتناول كل شيء في الثغور وإذ ذاك « كتب (الخليفة) الى : السندي بن شاهك (صاحب شرطة بغداد) يأمره بأخذ أهل الذمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم . . . »^(٢) .

وقد ترجم هذا الأمر عملياً بأن يلبسوا العمائم بلون عسلي وأن تكون القلانس مضرية مخططة وأن يعقدوا في أوساطهم الزنارات مثل الخيط الغليظ وأن يتخذوا في سروجهم في موضع القرايس كرتين من الخشب مثل الرمانة وأن يجعلوا شرك نعالهم متينة وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل . . . »^(٣) . ويبدو أن بعض هذه المظاهر كانت من عادات

(١) انظر الجزء ١١ من C.S. Ch. O.

بعنوان Chroniques de Michel le Syrien

(وهو الجزء الثالث من الترجمة الفرنسية التي نشرها Chabot لهذا التاريخ) ص ٤٧٨-٤٨٠ .

(٢) الطبري ج ٨ ص ٣٢٤ (٣/٧١٣) .

(٣) أبو يوسف - الخراج ص ٧٢ . ولنلاحظ أن أبا يوسف توفي

السكان القديمة وقد أراد الحكام المسلمون إبقاءهم عليها فلا يتشبهوا
بملابس العرب ليميزوا بها عن هؤلاء . ويبدو أن هذا الأمر لم ينفذ إلا
وقتاً قصيراً إذ يروي مؤرخ نسطوري قصة إلغائه فيقول إن : « جبريل
ابن بختيشوع الطبيب دخل بطيلسان مصبوغ على الرشيد فأفكر ذلك
عليه فقال : أنا أحد الذمة ولا يجوز أن أخالف زيمهم فاستحسن ذلك
من قوله ووقع ذلك عن النصارى » (١) .

وتتم بعد ذلك خمس وأربعون سنة أخرى تقريباً لنرى أمراً
جديداً يصدر من المتوكل فيه ألقى ما عرّفه الذميون حتى ذلك الوقت
من التضييق . كتب إلى عماله في الآفاق كتاباً جاء فيه : « .. قد رأي
أمير المؤمنين أن يحمل أهل الذمة جميعاً بحضرة (في بغداد) أو في
نواحي أعماله أقربها وأبعدها ، وأنخصهم وأخصهم على تصيير طيالسيتهم
التي يلبسونها ، من لبسها من تجارهم وكتابهم وكبيرهم وصغيرهم على
ألوان الثياب العسلية .. ومن يقعد به حاله عن لبس الطيالة منهم
أخذ بتركيب خرقتين صبغهما ذلك الصبغ .. شبراً تماماً تلقاء صدره
ومن وراء ظهره . وأن يؤخذ الجميع منهم من قلانسهم بتركيب أزرة
عليها تخالف ألوانها ألوان القلانس (وظاهرة غير مخفية) وكذلك في

قبل صدور أمر الرشيد بتسع سنوات . وقول أبي يوسف « أن يؤخذوا
بلبس .. » قد يعني أن يبقوا على ملابسهم القديمة فلا يتشبهوا بالملابس
العربية التي أضحت سمة المسلمين . ويبدو أن لبس الكساء العسلي كان
من ملابس الناس المتداولة في المنطقة العربية (العراق ، الشام ، مصر)
قبل الاسلام واستمر موجوداً فيهم . وقد وقف مرة أحد ولاة مصر
(وهو مسروق الذي وليها للرشيد بين سنة ١٧٧ وسنة ١٨٤ ينادى الذمة :
أين أصحاب الأكسية العسلية) .

(١) ماري بن سليمان - أخبار البطارقة ص ٧٣ .

سروجهم باتخاذ ركب خشب لها ونصب أكر على قرايسها تكون ناتئة عنها (بارزة) .. وأن تؤخذ عبيدهم وإماؤهم ومن يلبس المناطق من تلك الطبقة بشد الزناير والكسايح مكان المناطق .. وأن توزع الى عمالك فيما أمر به أمير المؤمنين .. وتحذرهم ادهاناً وميلاً وتتقدم إليهم في إنزال العقوبة بمن خالف ذلك من جميع أهل الذمة عن سبيل عناد أو تهوين الى غيره ليقصر الجميع منهم على طبقاتهم وأصنافهم ..^(١) . ويقول ابن قيم الجوزية^(٢) إضافة لذلك أن المتوكل أفرد للذمة من يحتسب عليهم . وأمر ألا يستخدموا مسلماً في حوائجهم وتفرد لهم حمامات خاصة خدمها ذمة وتطبق عليهم الجزية .. وقد زاد على هذا الأمر بعد ذلك - فيما يبدو - فأخذوا « بهدم بيعهم التي أحدثت (بعد الاسلام) وبأخذ العشر من منازلهم . وإن كان الموضع واسعاً صير مسجداً . وأمر (المتوكل) أن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة تفريقاً بين منازلهم ومنازل المسلمين . ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي يجري أحكامهم فيها على المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين .. ونهى أن يظهروا في شعائهم صلياً وأن يشمعلوا في الطريق ، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض لئلا تشبه قبور المسلمين ..^(٣) ويبدو أن اليهود أخذوا في ذلك الوقت بلبس الغيار (أي اللباس المغاير) بلون أسود كما

(١) نجد نص هذا الكتاب لدى الطبري ج ٩ ص ١٧٢-١٧٤ (١٣٩٠-١٣٩٤) .

(٢) ابن قيم الجوزية احكام اهل الذمة ج ١ ص ٢٢٢ - ونجد لديه حتى ص ٢٢٤ نص رسالة المتوكل .

(٣) انظر الطبري ج ٩ ص ١٧٢ (١٣٨٩/٣-١٣٩٠) . وانظر ما تذكره المصادر المسيحية عن هذه التدابير نفسها لدى ماري بن سليمان - اخبار البطارقة ص ٧٩ ولدى عمرو بن متى - اخبار البطارقة ص ٧١ .

أن المتوكل عاد بعد أربع سنوات « فأمر (في مطالع سنة ٢٣٩) بأخذ أهل الذمة بلبس دراعتين عسلتين على الأقبية والدراريع ثم أمر أيضاً بالاعتصار في مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبرادين » (١) .

وليست هذه التدابير بتدابير اضطهاد ولكنها تدابير تمييز وتضييق لم تتناول أبداً حرية المعتقد وكان القصد منها تحويل أهل الذمة ضمن الدولة الإسلامية الى رعايا من الدرجة الثانية وهذه الحركة قد تكون جاءت في الفترة التي أضحى فيها عدد المسلمين يزيد في الكثرة على عدد الذميين من الرعايا بعد قرنين من الدخول البطيء في الاسلام . ولكنها على أي حال ليست بحركة تعصب ديني وإنما هي عمليات دفاعية لحد كبير . يتبين ذلك عند البحث في أسبابها . وقد سجل أمر المتوكل نفسه هذه الأسباب ، فيما يشبه حيثيات القرارات المعاصرة وأسبابها الموجبة ، فأورد في المقدمة أربعة أسباب مجملة نجد أسبابها الموضحة فيما ذكره المؤرخون من الأخبار . قال :

— إن الله لم يجعل للمسلمين « .. في دينهم التقاطع والتدابير . ولا الحمية ولا التكبر . ولا الخيانة ولا الغدر . ولا التباضي ولا التظالم » .. وترجمة هذه الأمور من خلال الواقع التاريخي أن المتوكل نقم على الذميين :

آ — التقاطع والتدابير أو الدس على زملائهم الموظفين المسلمين وقد ذكر المؤرخون أنهم « كانوا قد أوقعوا في نفس المتوكل من مباشري

(١) الطبري ج ٩ ص ١٩٦ (٢/١٤١٩) .

المسلمين شيئاً وأنهم بين مفرط وخائن وعملوا عملاً (أي وشاية) بأسماء المسلمين - وأسماء بعض الذمة لينفوا التهمة - وأوجبوا باسم كل واحد منهم مالا كثيراً وعرض على المتوكل فأغري بهم وظن ما أوجبوا من ذلك حقاً وأن المال في جهتهم كما أوجبوه • ودخل مسلمة بن سعيد النصراني على المتوكل وكان يأنس به ويحضره فقال : يا أمير المؤمنين أنت في الصحاري والصيد وخلفك معادن الذهب والفضة ومن يشرب في آنية الذهب والفضة يملؤها ذهباً بدل الفاكهة •• فقال عند من ؟ فقال عند الحسين بن مخلد • وأحمد بن إسرائيل • وموسى بن عبد الملك • وميمون بن هارون • ومحمد بن موسى - وكل واحد من هؤلاء اسمه ثابت في العمل (الوشاية) المقدم ذكره المرفوع للمتوكل - فقال المتوكل : ما تقول في عبيد الله بن يحيى ؟ فسكت فقال : بحياتي عليك قل ما عندك • قال : لقد صاغ صوالجة وأكر من ٣٠ ألف دينار وأمير المؤمنين يضرب بكرة من جلود وصولجان من خشب •• « قالتفت للمتوكل الى الفتح بن خاقان وقال : « ابعث فأحضر هؤلاء وضيق عليهم •• » فلما عرف باقي الكتاب المسلمين بالأمر وعاتبوا مسلمة بن سعيد • قال : قلت ما قلت على سكر ولم أقصد وأخذوا خطه بذلك ثم قدموه للمتوكل وقالوا : « هذا قصده أن يخلو أركان دولة أمير المؤمنين من الكتاب المسلمين ويتمكن هو ورهطه منها •• »^(١) •

ب - فأما الحمية والتكبر : فقد ذكر المؤرخون أيضاً « أن المباشرين للأعمال (من أهل الذمة) كثروا في زمان المتوكل وزادوا على الحد وغلبوا على المسلمين لخدمة أمه وأهله وأقاربه وذلك سنة ٢٣٥ فكانت الأعمال الكبائر كلها أو عامتها إليهم في جميع النواحي •• »^(٢) ويبدو

(١) ابن قيم الجوزية - أحكام أهل الذمة ج ١ ص ٢١٩-٢٢١ •

(٢) ابن قيم الجوزية - أحكام أهل الذمة ج ١ ص ٢٢٢ •

أنهم لهذا تكبروا وأخذتهم الحمية والتعصب • وطلب المتوكل من طبيبه بختيشوع - وربما كان ذلك عن قصد معين - أن يدعو فرأى عنده من البذخ والترف ما لم يره عند غيره « فحقد عليه ونكبه بعد أيام يسيرة ... »^(١) ويذكر مؤرخ مسيحي آخر أن المتوكل « تغير على بختيشوع لأجل ما كان يستعمله من مكائده وقبض عليه واعتقله ... »^(٢) •

ج - وأما الخيانة والغدر فيبدو أن المتوكل اقتنع باتصال أهل الذمة بالنصارى بالروم • يقول المؤرخ النسطوري ابن سليمان : « ... وكان يسر من رأى طبيب اسمه سرجيس لخصومة جرت بينه وبين بعض المتطبين خرج عن النسطورية واعتقد مذهب آريوس وقصد الجائليق وكذب بأنه يكتب ملك الروم ويدعوه ويرفع أخبار المملكة (الاسلامية) فأحضره المتوكل وسأله عن الحال فأنكرها وأساسه اليميني فأبى خوفاً لئلا يخالف كتاب الشريعة ... وأشار من في الخدمة من الرؤساء عليه بأن يخلف فلم يفعل وضبر على الحبس مدة ثلاث سنين وستة أشهر ... وبلغ كل شرير من النصارى ما يريد ... »^(٣) •

ويبدو بوضوح أن تحسس المتوكل بالمشكلة مع الروم كان خادماً واضحاً في تلك الفترة من خلافته فإن أحداث تلك الجبهة معهم كانت تؤرقه • وكان الروم قد اتبعوا منذ ثورة بابك طريقة جديدة مع المسلمين هي التوسع في التجسس والتسلل بواسطة الأعوان إلى داخل الأراضي العباسية وإثارة القلاقل فيها أو الضرب في بعض النقاط غير المنتظرة ومن ذلك تحريضهم الأزمن على الثورة سنة ٢٣٧ وقد كلفت المتوكل الكثير

(١) ابن العبري ص ١٤٤ •

(٢) ماري بن سليمان - أخبار البطارقة ص ٧٩ •

(٣) المصدر نفسه •

من الجهد والمال حتى استطاع إخمادها والقبض على بطريق الأرمن:
بقراط بن آشوط والمجبيء به إلى سر من رأى . ثم هجم الروم في
السنة التالية سنة ٢٣٨ بثلاث مائة مركب دمرت دمياط ، في مصر ونهبت
وأحرقت وسبت ما يزيد على ٦٠٠ امرأة . . (١)

ويتبين تأثير هذه الأحداث على المتوكل من قصته مع حنين بن
إسحق الرأس عيني اليعقوبي . وهو من كبار التراجمة وقد اشتهر
حتى استدعاه المتوكل وأقطعه الاقطا السني وقرر له جارياً (راتباً)
جيداً . ولكن حذره الشديد من أن يكون أحد جواسيس الروم المرسلين
لسمه جعله يمتحنه امتحاناً هدد فيه بالقتل إن لم يصف للمتوكل سماً
يقتل به بعض اعدائه . فلما امتنع حبسه سنة ثم عاوده فامتنع أيضاً رغم
إحضار السيف والنطع . . وعند ذلك « اطمأن المتوكل ثم تبسم له وقال :
إنما أردنا امتحانك والطمأنينة إليك . . . وأمر بالخلع فأفيضت عليه »
وأعطاه المال الجزيل . . . (٢)

د - وأما التباني والتظالم : فيبدو أن العمال الذمين زادوا في
التسلط وفي اضطهاد الناس وظلمهم زيادة وصلت أسماع المتوكل .
وأنهت إليه منها الكثير من الشكاوى . فتارة رجل شيخ يأتيه من
الشام يتظلم العامل النصراني الذي اغتصب بيته . وتارة يقبض على
رجل في مكة يدعو على المتوكل فلما سأله عن السبب قال : سلطت اهل
الذمة على المسلمين فظلموهم مما جعل المتوكل يرتجف أحياناً غضباً
ويكي أحياناً أخرى أحر البكاء (٣) .

(١) ابن العبري ص ١٤٢ و ١٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٣) انظر ابن قيم الجوزية - احكام اهل الذمة ج ١ ص ٢٢١ .

ولا بد بالطبع من أن نضيف إلى هذه الأسباب بالمقابل أسباباً أخرى منها :

هـ - الحلف الذي عاد فقام بقوة بين السلطة العباسية وأهل الدين من السنيين بعد انحسار موجة المعتزلة وإلغاء القول بخلق القرآن . فإن انتصار المذهب السني التقليدي ومعاودته السيطرة على الخلافة العباسية وإبعاد المعتزلة عن مراكز النفوذ أعطى الفقهاء والمحدثين مدداً كبيراً من القوة أبعدها معه علم الكلام وأهل الجدل عن الدولة واستتبع ذلك بالتالي إبعاد الطرف الآخر من المجادلة وهم أصحاب العقائد الأخرى الذين كان جدلهم وما يبعثونه من الأسئلة والأفكار والريب هو السبب في نشوء علم الكلام . وبمعنى آخر : غير الفقهاء السنيون بعد الانتصار على المعتزلة ، طريقة المعاملة التي كانت متبعة حتى مطلع عهد المتوكل مع الذمة وهي طريقة الحوار والجدل والتي هي أحسن . وقد كان المسلمون قد بلغوا من الكثرة وكان الفقهاء والمحدثون قد بلغوا من القوة المبلغ الذي فرضوا معه الطريقة الأخرى . طريقة التضييق والتمييز أي إعادة غير المسلمين الى الدرجة الثانية في سلم الرعايا ليكون ذلك نوعاً من الضغط عليهم ، وشكلاً من أشكال الاعتزاز بالدين الاسلامي والفخر به والارتفاع به عن أن يكون موضع جدل وأخذ وعطاء . . . إن نص كتاب المتوكل يقول ذلك : « . . . فالمسلمون بما اختصهم الله من كرامة وجعل لهم من الفضيلة بدينهم الذي اختاره لهم بائون على الأديان بشرائعهم الزاكية وأحكامهم المرضية الطاهرة وبراهينهم المنيرة وبتطهير الله دينهم بما أحل وحرم فيه لهم وعليهم . . . قضاء من الله عز وجل في اعزاز دينه حتماً ، ومشيتته منه في إظهار حقه ماضية . . . » ومبعث هذا كله : « أن الله اصطفى الاسلام فرضيه لنفسه . . . وحاطه بالنصر وأظهره على

الأديان مبرءاً من الشبهات مخصوصاً من الشرائع في طهرها وأفضلها ومن
الاحكام بأعدلها واقنعها » ..

ثم أضاف الكتاب « قوله عز وجل : اليوم يئس الذين كفروا من
دينكم فلا تخشوهم واخشون • اليوم اكملت لكم دينكم » ^(١) إنهاذن
محاولة من السلطة العباسية لمنع جدل الذمة مع المسلمين بعد أن أوقفت
جدل المسلمين معهم لإسكات أهل الكلام بإقصاء المعتزلة • هي نوع
من الهدنة بفصل أصحاب الأديان الأخرى عن أهل الاسلام •

ولا بد ان نضيف هنا أن نصر الفقهاء ، وأهل الحديث السنيين
وسيطرتهم على البلاط العباسي لم يصب علماء المعتزلة وأهل الذمة
وحدهم بالإبعاد والأذى ولكن أصاب أيضاً الشيعة • ويكفي أن نذكر
عبوراً هنا أن المتوكل أمر بهدم قبر الحسين في كربلاء سنة ٢٣٦ وان
يئذر ويسقى موضعه وأن يمنع الناس من إتيانه بمعنى أن ردة
الفعل السنية لم تصب الذميين فقط ولكنها أصابت حتى بعض فرق
المسلمين •

ولعل من أهم الأسلحة التي استخدمتها المجموعة المحيطة بالمتوكل من
الفقهاء ورجال الدين وأهل الحديث ضد أهل الذمة أنهم ربطوا أيضاً ما بينهم
وبين الزندقة • يكشف تلك الخطة كلسات الجاحظ في رسالته المعروفة
بالرد على النصارى إذ يقول : « فلولا متكلمو النصارى وأطبائهم
ومنجموهم ما صار إلى أغنيائنا وظرفائنا ومجاننا شيء من كتب الثنوية
والديسانية والمرقونية والعليائية ولما عرفوا غير كتاب الله وسنة
نبيه » ويقول أيضاً « ودينهم يضاهي الزندقة ويناسب في
بعض وجوهه قول الدهرية إنا لم نر أهل ملة قط أكثر زندقة من

(١) الطبري ج ٨ ص ١٧٢-١٧٣ (١٣٩٠/٥-١٣٩١) •

النصارى • ألا ترى أكثر من قتل في الزندقة ممن كان ينتحل الاسلام ويظهره هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى ؟...» • وهذا لا يعني أن المسلمين شغلوا بأن المسيحية أضحت تشكل تحدياً أو خطراً على الدين الاسلامي ولكن يعنى أنهم أرادوا استخدام كافة الأسلحة ضدها ، لا سيما وهي في عصر المتوكل أضعف بكثير مما كانت عليه في عهد المنصور بانقضاء الاعداد الكثيرة من الناس عنها •

و - وأخيراً لا شك في ان التحاسد بين جماعات الكتاب من الذمة والمسلمين في زحامهم على النفوذ في الدولة قد لعب دوره في هذه العملية كلها • وكما استطاع بعض الذميين منهم إيفار صدر المتوكل مرة على بعض كتابة المسلمين عمل الآخرون بدورهم ، مستعينين بالعاطفة الدينية على تغيير المتوكل بدوره على الذميين : دفاعاً وتقارض ضربات • وعلى أي حال فمن الضروري أن نسجل هنا عدداً من الملاحظات حول أوامر المتوكل في الذمة : •

١ - فهي لم تكن قرارات اضطهاد ولكنها قرارات تمييز وتضييق • إنها لم تمنع الذميين من حرية العبادة أبداً ولم يضطهدوا أي نوع من الاضطهاد ولم يرغموا على غير دينهم ولم تهدم إلا بعض بيعتهم المستحدثة ولم يخرجوا من كافة الأعمال ولكن من تلك التي يتحكمون فيها بالمسلمين • ولم يلحقوا بأي إهانة ولكن فرض عليهم التمييز باللباس والمركوب ليعرفوا ضمن المجتمع الاسلامي وليقف جدلهم اليومي الدائم مع المسلمين •

٢ - أن هذه القرارات لم تكن صارمة التطبيق إلا في بغداد والعراق ، وكانت حداثتها تخف كلما ابتعدت عن المركز • كما ان السلطات العباسية والولاية في الأقاليم لم يتشددوا فيها إلا في الأيام الأولى من

صدورها ثم كانت حداثتها تخف مع الأيام وتطبيقها يلغى في الواقع العملي .

٢ - وبعد هذا وذاك كله فقد تراجع المتوكل نفسه عن تدابيرہ بعد أقل من أربع سنوات من صدورها : استقبل بالزهور والرياحين والقباب المعقودة من قبل مطران نصيبين أثناء مروره بها الى الشام « فخف ما في قلبه على النصارى » كما يقول مؤرخ نصراني م « تعطف على النصارى (بعد عودته الى سرمن رأى) ورجع لهم وعمل على اطلاق (بطريقهم السجين) تاذاسيس واتفق موت يوحنا ابن ماسويه (الطبيب) وكان عزيزاً عليه وعلى أصحابه فأمر بتبجيله وإكرامه في تجنيزه .. وأمر بإطلاق الجاثليق » ورده الى سرمن رأى مع القسس ثم سمح بانحداره الى بغداد فدخلها أحسن دخول بالاكرام العظيم والتبجيل ..»^(١) ولعل هذا كان حوالي سنة ٢٤٠ هـ . فلم تدم الأزمة إذن أكثر من أربع الى خمس سنوات . ويذكر البلاذري أن المتوكل خفض الجزية سنة ٢٤٦ هـ عن السامريين اليهود في بيت ماما قرب نابلس حين شكوا إليه ضعفهم وعجزهم عن أدائه فجعل الجزية ثلاثة دنانير بدلا من خمسة^(٢) .

رابعا : الجدل الديني مع أهل انذمة في عصر الرشيد :

يقول المستشرق آلارد : « رغم هذه الصعوبات التي كانت تصل أحيانا درجة الكره والاضطهاد فإننا نستطيع القول إن المسيحيين في بغداد كانوا يتمتعون تحت الحكم العباسي بأوضاع أكثر ارتياحاً واطمئناناً بكثير من أوضاع بعض الفرق الاسلامية وخاصة من الشيعة .. وأحد

(١) ماري بن سليمان - أخبار البطارقة ص ٨٠ .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ١٨٧ .

الأدلة على هذا الجو المسالم نسبياً تلك الوفرة في أدب الجدل (الذي قام بينهم وبين الاسلام) : إنك لا تتناقش مع عدو متحفز لتدميرك»^(١)

ولعل من نواذر أحداث التاريخ في سعة الصدر الدينية ، تلك المناقشات الجدلية التي كان يوسع لها الخلفاء من وقتهم ويفسحون لها في بلاطهم . يذكر المؤرخون النصارى عن المهدي أنه في مطالع عهده استقدم المرشحين لكرسي البطركية وناقشهما في الدين وسألهما : عن عصا موسى من أي خشب صنعت ؟ وعن عصا هارون . ثم عرض عليهما الاسلام . ولم يتأثر لرفضهما دعوته بل اختار أحدهما بطريقاً^(٢) وفي التراث الأدبي السرياني الذي تركه طيماثاوس بطريق النساطرة في تلك الفترة رسالة مطولة نشرها بالسريانية على رجال كنيسة في العراق وخراسان وما وراء النهر يروي فيها المناقشة التي دارت بينه وبين الخليفة المهدي في المسيحية والجدل فيها . وقد صارت هذه الرسالة فيما بعد مادة تعليم وتوجيه للنساطرة واليعاقبة على السواء . وترجمت الى العربية ومنها نسخ عديدة مخطوطة وهي مديح في الديانة المسيحية مطول ومعلل في شكل مناقشة^(٣) وقد كتب مؤرخ نسطوري يقول : «...وكان (طيماثاوس) مكرماً عند الخلفاء والملوك لكثرة علمه ... وحسن أجوبته

(١) عرض المستشرق آلارد M. Allard الى بحث هذه النقطة في مقال كتبه بمناسبة مرور الف ومائتي عام على انشاء بغداد . ونشر في مجلة Arabica, Tome lx, Oct . 1962, Volume specil, p.p. 375 - 388. وقد درس البحث قبل ذلك مواقع الاديرة والبيع في طبغرافية بغداد . وكلمته المذكورة هنا من الصفحة ٣٨٢ .

(٢) ماري بن سليمان - أخبار البطارقة ص ٧٠-٧١ .

(٣) انظر الرسالة في الجزء الأول من رسائل طيماثاوس التي نشرها بالفرنسية Braun في باريس سنة ١٩١٤ .

عن المسائل التي كانوا يرمون عليه ويصادرونه بها في الدين والاعتقاد وغير ذلك . وكان الخليفة الهادي في أكثر الأيام يستدعي به إليه ويحاوره في الدين ويبحث معه وينظره في أشياء كثيرة وي طرح عليه كثيراً من المسائل المشكلات . . وكان يجيب عن جميعها بأجوبة قاطعة ومسكتة . . وكذلك كان يتأتى له مع هارون الرشيد لما تولى الخلافة . ومن جملة ما جرى له معه ذات يوم عند انقضاء المجلس قال له يا أبا النصارى : أجبني باختصار : أي الأديان عند الله الحق ؟ فقال : الدين الذي شرائعه ووصاياه تشاكل أفعال الله في خلقه . فأمسك عنه . فلما انقضى المجلس قال الرشيد . . لو قال النصرانية لأسأت إليه ولو قال الاسلام لطالبتة في الانتقال إليه ولكنه أجاب جواباً كلياً لا دفع فيه وأضر في نفسه دينه . . (١)

ويروي الخطيب البغدادي قصة تصور أحسن التصوير ذلك الجو الديني المفتوح الحر الذي كان يجري فيه الجدل بين المسلمين وغيرهم من أهل الذمة وهي قصة ذكرها أبو الهذيل العلاف عن يهودي قطع عامة المتكلمين في البصرة فلم ينتصر عليه أحد ثم جاءه العلاف ، وهو بعد فتى ، فجادله اليهودي فلم يتمكن منه وانقطع اليهودي فقام فأسر في أذنه شتيمة له ولمن علمه . فلم يثر أبو الهذيل ولكنه وقف بين الحاضرين فقال : أليس قد وققتم على مسألة إياي وعلى جوابي إياه ؟ أليس عليه أن يرد جوابي ؟ قالوا نعم قال : فإنه لما سارني شتمني بالشتم الذي يوجب الحد وشتم من علمني وإنما قدر (وطن) أني أثب به فيدعي أنا واثبتناه وشغبنا عليه وقد عرفتم شأنه بعد انقطاعه . . فأخذته الأيدي بالنعال

(١) عمرو بن متى - أخبار البطارقة ص ٦٥ .

فخرج هارباً من البصرة وقد كان له بها دين كثير فتركه وخرج هارباً لما لحقه من الانقطاع ..»^(١) .

وإذا كان معروفاً أن الجدل الكلامي بلغ أوجه في عهد المأمون فإن أهل الذمة كان لهم منه النصيب الأوفى . ونشهد « حبيب بن بهريز مطران الموصل يفسر للمأمون عدة كتب » كما يقوم بمثل ذلك الحجاج ابن مطر^(٢) وأيوب بن القاسم الرومي ويوحنا بن البطريق ، وكثيرون آخرون . ويستقدم المأمون يزدان بحت ، رئيس المانوية من الرأي بعد أن أمنه ليجادله فيقطعه المتكلمون فيقول له المأمون أسلم يا يزدان بخت فلولا ما أعطيناك من الأمان لكان لنا ولك شأن فيقول : نصيحتك مقبولة ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم .. ويقبل المأمون منه ذلك بل يوكل به حفظه خوفاً عليه من الغوغاء^(٣) . ولعلنا لا نحتاج الى التذكير بالمجالس العلمية المختلفة التي كان يعقدها للجدل ويكفي أن نذكر أنه قد بلغ من اهتمام المأمون بالجدل مع المانوية والنصرانية أنه لما وضع كتاباً في الرد على الأولى وضع كتاباً في « الرد على النصارى »^(٤) .

وإذا كان الناس على دين ملوكهم – كما يقولون – فقد شارك الكثير من علماء المسلمين في الجدل مع الذميين على مختلف المستويات ونستطيع القول إن معظم ما كتب علماء الكلام والمعتزلة من الآراء وما أثاروه من المسائل والجدل فإنما هو أجوبة على المسائل أكثر مما هو مبادأة فكرية في ركوب مسائل اللاهوت وإنما هو ردود على ما يثيره

(١) الخطيب البغدادي – تاريخ بغداد ج ٣ ص ٣٦٧-٣٦٨ .

(٢) ابن النديم – الفهرست ص ٢٤٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٣٨ .

(٤) ابن المرتضى – طبقات المعتزلة ص ١٢٣ .

الخصوم من الذميين أكثر مما هو تطوع للجدل . وقد كتبوا في ذلك ومن هؤلاء أبو عيسى الدراق (المتوفى سنة ٨٦١) الذي كتب كتاباً في الرد على الثلاثة فرق من النصارى ، والجاحظ (سنة ٨٦٨) الذي كتب : كتاب حجج النصارى على المسلمين ثم اتبعه بكتاب الرد على النصارى ، وأبو جعفر الاسكافي (المتوفى سنة ٢٤٠/٨٥٥) ألف كتاباً في الرد على النصارى بقيت لنا منه بعض المقتطفات في الموضوع نفسه أبو عمرو حفص الفرد . كما كتب الفيلسوف الكندي كتاباً أيضاً ضد التثليث .

ولم يكن الجدل والرد بالطبع من جانب واحد فإن الذميين بدورهم كانوا يكتبون ويهاجمون ويجادلون . وقد كانوا بدأوا الكتابة منذ العهد الأموي . فإن يوحنا الدمشقي المعروف بيوحنا فم الذهب والذي كان من أكبر مفكري المسيحية وتوفي في مطلع العصر العباسي ترك بين مؤلفاته : محاوراة في رد مزاعم المناوئين في شكل محاوراة بين مسيحي ومانوي كما ترك مناقشة على الأسلوب نفسه ما بين مسلم ومسيحي^(١) وقد كتب بعض الناس الى الجاحظ في أيام المعتصم ، يستنجدون بمعرفته وبيانه على المسائل التي يثيرها النصارى فكتب رسالته في الرد على النصارى قائلاً في أولها : « أما بعد فقد قرأت كتابكم وفهمت ما ذكرتم فيه من مسائل النصارى قبلكم وما دخل في قلوب أحدائكم وضعفائكم من اللبس والذي خفتموه على جواباتكم من العجز وما سألتكم من إقرارهم بالمسائل ومن حسن معوتهم بالجواب ١٠٠ »^(٢) . ويبدو أن النصارى

(١) انظر الياس الدبس - تاريخ سورية ج ٣ من المجلد الخامس

ص ٢٧٠ .

(١) انظر الجاحظ - ثلاث رسائل (نشر يوشع فنكل - المطبعة

السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٤) ص ١٠ ومابعد (رسالة الرد على النصارى)

كانوا أكثر جدلاً للمسلمين من اليهود والمجوس إذ أن الجاحظ يضيف قوله : « .. على أن هذه الأمة لم تبتل باليهود ولا المجوس ولا الصابئين كما ابتليت بالنصارى وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا والضعيف بالأسناد من روايتنا والمتشابه من آي كتابنا ثم يخلون بضعفائنا ويسألون عنها عوامنا مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين .. ومن البلاء أن كل انسان من المسلمين يرى أنه متكلم وأنه ليس أحد أحق بحاجة الملحدين من أحد .. » (١) .

ثم يضيف الجاحظ أيضاً : « وبعد فلولا متكلمو النصارى وأطبائهم ومنجموهم ما صار الى أغنيائنا وظرفائنا ومجائنا وأخذائنا شيء من كتب المثانية والديصانية والمرقونية والفلانية .. فكل سخنة عين رأيها في أحداثنا وأغبيائنا فمن قبلهم كان أولها .. » . وقد اشتهر في هذه الفترة العباسية خاصة ثلاثة أسماء من الفرق النصرانية الثلاثة : طيماتاوس البطريق النسطوري المتوفي سنة ٢٠٢/٨٢٣ وثيرودوروس أبو قره أسقف حران الملكاني المتوفى سنة ٢٠٩/٨٣٠ وأبو راعطة أسقف تكريت السقوي المتوفى سنة ٢٢٠/٨٤٠ وكل واحد من هؤلاء كتب عدداً من الكتب الدينية بالعربية . كما أن كتبهم التي كتبوها بالسريانية أو اليونانية ترجمت على ما يظهر في عهد مبكر الى العربية بدورها ، وأبو قره كان ذا نشاط واسع وقد ناقش المسلمين واليهود على السواء ، والنساطرة واليعاقبة أيضاً . وزار كاثوليك الأرمن وبطريق الاسكندرية في ذلك ونجد بين كتبه كتاب التثليث ووحدة الإله ، وكتاب في الرد على من يزعمون بأن كلام الله مخلوق . وبين كتب أبي راعطة ثمة عناوين

(١) المصدر السابق ص ١٩-٢٠ .

عديدة تكشف بعض المواضيع الجدلية مثل كتاب رسالة في التثليث ،
كتاب في التجسد . الخ . أما رسائل طيماتاوس فتزيد على المائتين .
والستون الباقية منها كلها في الدفاع عن المسيحية والمذهب النسطوري
خاصة . وقد قام بالعمل نفسه في الشام أسقف صيدا في أواخر القرن
الثامن (الثاني الهجري) . فقد كتب دفاعاً عن الدين المسيحي اقترحه عليه
أحد أصدقائه المسلمين . وماتزال مكتبة الفاتيكان تحتفظ بمخطوطة
من هذه الرسالة (١) .

ونستطيع القول إن الأعمال الفكرية الأساسية لأهل الذمة إنما
كانت موجهة في العصر العباسي الأول بجانب الطب والترجمة الى
التأليف الديني .

ويتحصل من هذا البحث كله أن صورة «الاضطهاد» التي تعزى
في العادة الى العصر العباسي الأول هو صورة زائفة . وإذا كان تكاثر
المسلمين العددي ووجود الحكم في أيدي الخلفاء المسلمين قد جعل
معاملة المسلمين لأهل الذمة تقسو في بعض الأحيان دون أن تصل في أي
وقت من الأوقات درجة الاضطهاد وحجز الحرية الدينية فإن فرط
الحساسية الذمية بالمقابل جعل مؤرخي الذمة والمستشرقين يبالغون في
تقدير القيود الاجتماعية ، والمظالم المالية التي كان يتعرض لها الذميون .
وكان الخلفاء بين إلحاح الحاجة الى كفايات أهل الذمة من جهة وإلحاح
الفقهاء والمحدثين والمتدينين برفضهم من المجتمع الاسلامي يوجهون

(١). انظر الدبس - تاريخ سورية ج ٣ ص ٢٧٠ .

الأولى دوماً على الثانية وإذا سايروا في بعض الأحيان داعي المتدينين ؛
الداعي السياسي في مكافحة الروم فإن الذميين بدورهم لم يدخروا
وسعاً في استخدام أقصى الحرية الدينية الممنوحة لهم للجدل مع المسلمين
والتأليف ضدهم وللاتصال أحياناً مع الروم وللإستفادة من كل الامتيازات
المتاحة ضمن الجماعة الإسلامية •

الفصل الثالث

المشاكل والحركات الدينية

عرف العصر العباسي الأول ولا سيما في فترة استقراره عدداً من المشاكل والحركات الدينية وكان بعض هذه الحركات نتيجة للتطور الاجتماعي والفكري والسياسي في الدولة الإسلامية كالزندقة ، كما كان بعضها بقية من الحركات الإيرانية التي قامت نتيجة الدعوة المسلمية (كالمقنية) أو يقظة الأديان الأولى (كالبابكية) .

١ - مشكلة الزندقة :

لعله من الضروري أن تنبه الى ما اتخذته هذه الظاهرة - بجانب معناها الديني - من طابع سياسي في هذه الفترة . فالذي يظهر من دراسة هذه الحركة أنها كانت ، في نظر أصحاب الخلافة أيضاً ، حركة خطيرة على الحكم العباسي وليس فقط على الدين الإسلامي . وقد كان الموقف الصلب الوحيد الذي اتخذته العباسيون الأوائل من العقائد الأخرى هو موقفهم منها بسبب ما عرفوه من معاربتها للدين الإسلامي من جهة ومن ارتباطها من جهة أخرى بحركة أشمل وذات معنى سياسي بعيد يهدد الحكم العربي الإسلامي هي الشيوعية . وإذا كانت مكافحة العباسيين للثورات الدينية جزءاً من مشاكلهم السياسية الداخلية فإن مكافحتهم للزندقة كانت بدورها

جزءاً من صميم سياستهم الدينية ويمكن اعتباره الى حد كبير متسماً لها . ويشكل الجانب السلبي الدفاعي منها كما كان في الوقت نفسه عملاً سياسياً لا يختلف عن مكافحة الثورات المهددة للدولة .

١ - الشعوبية : بالرغم من أن الزندقة أخذت شكل حركة قائمة بذاتها في العصر العباسي الأول فإنها كانت على علاقات واشجة مشتركة - حتى يمكن أن تعد أحد الفروع الظاهرة - لحركة أوسع منها وأبعد في الجذور وأكثر تعدداً في الوجوه عرفها المؤرخون والكتاب العرب في ذلك العهد باسم الشعوبية . وهذه الحركة تشكل الإطار العام الذي تحركت ضمنه أعمال الزنادقة حتى تكاد لا تفهم بدونه .

فقد حكم العرب وانساح معهم الاسلام على مجموعات قومية متعددة وطوائف دينية قديمة التكوين والأفكار . وإذا استطاعت الدولة العربية الاسلامية أن تقوم وتستمر بقوة العرب والعقيدة الاسلامية فإن تلك المجموعات والطوائف المحكومة كانت أبعد ما تكون عن موقف الرضى المستسلم للعرب كحكام مسيطرين وللإسلام كدين يهدم ما توارثته تلك الطوائف وأقامته حالاً على حال من النحل والعقائد . بل كانت بالعكس - ولو أرضاها العدل الاسلامي أحياناً كثيرة - تشكل تحت جناح الجماعة الاسلامية المتكاثرة بالمسلمين الجدد ، طبقة واسعة نشيطة من الجماعات والأفكار المناهضة لتلك الجماعة دينياً خاصة واجتماعياً وسياسياً أيضاً . وبالرغم من أن تلك المجموعات والطوائف كانت تخسر باستمرار من أتباعها جماعات تدخل الاسلام وتصبح موالي للدين والدولة الجديدين إلا انها لأسباب عدة ، منها هذه الخسارة نفسها ، كانت تزداد نفمة على النظام العربي والعقيدة الاسلامية . كما كانت في الوقت نفسه تطلق في نوع من الدفاع عن

النفس أفكارها المناوئة والهجومية ، حتى عن طريق هؤلاء الموالي أنفسهم ، في الجو الاسلامي العربي • كان ثمة صراع واضح طبيعي بين الطرفين فيه التصفية وتنازع البقاء • وإذا كانت بعض تلك الأفكار هي مما حمله المسلمون الجدد معهم من عقائدهم الأولى الى الاسلام من المشكلات والجدل الفكري وأمجاد التاريخ ورواسب الماضي بأنواعها فإن بعضها الآخر إنما كان يطلق لإرباك المسلم وبث الريسة عنده في عقيدته بشكل أو بآخر ، أو للاتقاص من الدين الاسلامي كله ومن العرب الذين حملوه للناس •

هذ الموقف الممتد ما بين الحسد الى النعمة والحقء الى العداء الصامت أو الناشط الفعال هو الذي أفرز لدى الشعوب غير العربية ما سماه المؤرخون والكتاب القدماء بالشعوبية • وإذا كان الاسم يعود في الغالب الى الآية الكريمة : «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» وإذا كان قد صيغ واستعمل على الأغلب في العصر العباسي الأول فإن العرب كانوا يفهمون منه أنه حركة الشعوب الأخرى ضدهم وضد سلطانهم القائم المستند الى الاسلام وإذا كان بعض الشعوبيين لا يطلبون إما عن يأس أو عن تقى وتدين إلا المساواة بالعرب ما دام الاسلام قد سوى بينهم • وهم «أهل التسوية» فإن بعضهم الآخر ، كان يدس على العرب والدين الاسلامي ويفضل الشعوب والديانات الأخرى عليهما ويظهر مفاخرها ومحاسنها ... ويدخل في هؤلاء بالطبع الجماعات غير المسلمة التي كانت تظاهر أو تحرض ، أو تغذي مختلف الأفكار المناوئة كما تسجل وتشر مختلف الدسائس والمثالب ...

وما من شك في أن عوامل معقدة عديدة قد كونت تلك الحركة الشعوبية • ومن التبسيط اعطاؤها اسم حركة أو نسبتها الى شعب

بذاته او دين محدد أو جماعة معينة ولكنها تيار جسع تحت هذا الاسم الحركات والجهود التي قامت بها عدة شعوب وعدة طوائف دينية وعدة فوازع اجتماعية ومادية لأسباب بعضها ديني ولكن بعضها الآخر اقتصادي أو سياسي . بهدف إلغاء التناقض أو التسلط أو البغى الاجتماعي والاقتصادي والديني والسياسي التي تشعر به تلك الشعوب والطوائف تجاه العرب الحاكمين والدين الاسلامي الذي يحملون . وقد تركزت تلك الحركات والجهود في إثبات وجود الأديان والثقافات والمفاخر القديمة لهذه الشعوب كتابة وكلاماً وعملاً والانتقاص بالمقابل من العرب وإرباك الاسلام بوضعه أمام المشاكل الدينية القديمة والجدلية . وهكذا ظهرت الشعوية في إطار اجتماعي ضد القيم التي حملها العرب الصحراويون والمسلمون كما ظهرت في شكل أدبي فأقامت الصراع ضمن هذا الجو ، في فترة كانت فيها علوم العربية من اللغة والنحو والأدب والشعر العربي وعلوم الدين من الحديث والفقه تدون وتنظم وأخذت الشكل الديني في مجموعة من التحديات للعقيدة الاسلامية بعضها تشمل المظاهر ولكن بعضها كان يمس جوهر العقيدة وأركانها الكبرى في التوحيد والنبوة كما لم تعدم الشعوية أخيراً الوسيلة للظهور أيضاً بشكل سياسي في حركات ايران وخراسان وفي أعمال الكتاب وعمال الخراج في الدولة نفسها .

وإذا كان العامل الديني في الشعوية مفهوم الدوافع بسبب صراع الاسلام للأديان الأخرى ، وكان العامل السياسي بدوره مفهوماً بسبب فقد الايرانيين وغيرهم للملك والدولة فلعله من الضروري أن نكشف العامل الاقتصادي – الاجتماعي فيها .

ولأن التميز العربي عرقياً وسياسياً وعسكرياً ودينياً كان يرتبط

بمصالح اقتصادية وامتيازات ومنافع احتكرها في الدولة في أول الأمر على الأقل العرب فقد كان للشعوبية بدورها جذورها ومواقفها الاقتصادية • إنها لم تنبع فقط من مجرد المنافسة القومية وحب المجد والفخر بالماضي وهي دوافع غنائية ورومانسية تالية ولكن من المزاومة على المكاسب المادية وعلى «العطاء» وغنيمة الحكم واستغلال الطبقات الدنيا في المجتمع • كانت الشعوبية صدى فكرياً - قومياً لمزاومة اقتصادية مادية عنيفة •

وإذا نحن مشينا خطوة أخرى في هذا المجال وجدنا أن العامل الاقتصادي الاجتماعي في شعوبية الجماعات غير العربية الموجودة في العراق وإيران والجزيرة إنما يرجع بصورة خاصة إلى ذلك التناقض العنيف الذي حدث في السواد خاصة إثر استقرار القبائل العربية فيه وتحول شيوخها إلى طبقة أرستقراطية إقطاعية تملك الأرضين المختلفة وتستغل الطبقة الزراعية المؤلفة من (النبط) السكان الأصليين بدياناتهم الأولى وتقاليدهم • وإذا جعل الكثير من هؤلاء يهربون من الأرض ويتجمعون في المدن (واسط • البصرة • الكوفة) كما جعلوا يهربون من ريف الجزيرة إلى المدن (كالرها) تخلصاً من الاستغلال والضرائب^(١) ويفعلون مثل ذلك في مصر وفي خراسان ويسلمون في كل الأحوال ويصبحون من الموالي أو لا يسلمون ، وإذا حاول الولاة العرب كالحجاج منعهم من تلك الهجرة المدمرة للإنتاج بشتى الوسائل ومنها أن ينقش على يد كل رجل اسم قريته ويعاد إليها^(٢) فقد كان هذا كله

(١) انظر ديونيسيوس التلمحري ج ١ ص ١٠ (بالفرنسية)

Chronique de Denys de Tell - Mahré (éd. J. B. Chabot) Vol. I, p 10 .

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ١

سبباً في ايجاد نقمة لا بد أن تعبر عن نفسها سواء بالتحاق اعداد من هؤلاء الموالي بالثورات وكثيراً ما جرى ذلك ، أو بتبني كل فكرة مناوئة للحكم العربي وللدین الذي يحمله ... أي الشعوية •

وإذا تركزت الشعوية جغرافياً في العراق خاصة فلأن تنوع الشعوب واللغات كان فيه كثيراً وتعدد النحل الدينية كان اكثر ولأن عقدة الطرق التجارية العالمية (من بحرية وبرية) إنما كانت تمتد على محور البصرة - الكوفة بغداد ، ولأن التراث القديم هناك عريق جداً ولأن مركز الدولة انتقل مع العباسيين إلى العراق فانتقل إليه بانتقال هذا المركز ، معظم العلماء واجتمع إليه نشاط الحركة الثقافية والدينية سواء العربية الاسلامية منها أو علوم الأوائل من الاغريق والفرس والهند ، كما تكاثر فيه السكان اخيراً كثرة كبيرة وهكذا كانت المنطقة الممتدة ما بين بغداد إلى الكوفة إلى البصرة هي المكان الجغرافي المختار للصراع بين عناصر القوة العربية الاسلامية والقوى الأخرى •

وإذا عبرت الشعوية عن موقفها المعادي للعرب والاسلام بطرق وأشكال شتى منها الثقافي ومنها الاجتماعي - الاقتصادي ومنها الديني والسياسي كما وقف لها الحكام العرب والمسلمون بالمقابل يجيبونها على موقف بموقف وعلى هجوم بهجوم فالذي يهنا منها هنا هو الشكل الديني • وهو الجانب الأخطر من الحركة الشعوية الذي عرف بالزندقة • وقد تميز هذا الجانب حتى كان يشكل لوحده حركة قائمة بذاتها تعمل على هدم الدين الاسلامي من الداخل بالتشكيك في أركانه وقيمه الفكرية والخلقية وتفسيرها بالتحلل والانحراف والمجون ، بينما اختصت الحركات الشعوية الباقية بالتحرك في الميدان الثقافي والاجتماعي والسياسي أي بتهديم الاسلام من الخارج حتى كادت تعتبر في نظر

الكثيرين حركة ثقافية اجتماعية سياسية • وليس السبب اختلاف الحركتين في التكوين الهدف فهما تنبعان من جذور واحدة مشتركة وترميان لهدف واحد مشترك أيضا ولكن الاختلاف بينهما انما هو في ميدان العمل فقط وفي نوعه ولعل أهم ما يكشف ارتباطهما العميق أن العرب والاسلام كانا في تلك الفترة صورتين لحقيقة واحدة • فالزندقة التي تعمل على تهديد وتهديم الدين الاسلامي ، إنما كان عملها يؤدي في الوقت نفسه إلى ضرب الأسس التي يقوم عليها الحكم العربي والدولة الاسلامية وهو هدف الشعوية وبالمقابل فإن العمل الشعوبي الثقافي والاجتماعي والسياسي ضد العرب أو ضدهم تميزهم إنما كان يسعى في نهاية المطاف إلى سلب الدين الاسلامي عماده السياسي مما يجعله بدوره متمسكاً لعمل الزنادقة • وإنا لنلاحظ بسهولة أن كثيرا من الشعوبيين كانوا في الوقت نفسه من الزنادقة الذين يزرعون الشكوك في الدين وبالمقابل فإن جمهرة الزنادقة الواسعة كانت بدورها من الجماعة الشعوية •

ب - حركة الزندقة : يبدو من الدراسات العديدة التي تمت^(١) أن كلمة زنديق فارسية الأصل ، جاءت من كلمة زنده أو زنديك وتعني من يعمل بالتأويل (والزند هو تأويل كتاب آفستا المقدس لزارادشت) • وقد انتشر استعمال الكلمة تحت ظل الساسانيين قبل الاسلام للدلالة على المانويين الذين طوردوا وقتلوا مع صاحبهم ماني وحرّم مذهبهم من

(١) انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة زندقة . ويبدو انه يجب التخلي عن رأي بيفان القائل بأن أصل الكلمة سرياني من «زديق» أو صديق أو ان اصلها اغريقي ... وقد ضربنا صفحا عن استعراض تفاسير اللغويين العرب للكلمة .

كسرى ابو شروان لأنهم حرفوا الزند وأتوا بتأويل جديد يخالف المذهب الزارادشتي الرسمي . وبقيت الكلمة المستعملة ، في المعنى نفسه بين حمراء الموالي في الحيرة والكوفة في العهد الاسلامي بدليل أنها فسرت على الشكل نفسه - فيما يروي الطبري - من قبل الخليفة المهدي حين قال لابنه ، عقب قتل بعض الزنادقة : «يا بني إذا صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة - يعني اصحاب ماني - فانها فرقة تدعو الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل بالآخرة ثم تخرجها الى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تخرجها وتحوبا ثم تخرجها من هذه الى عبادة اثنين : احدهما النور والآخر الظلمة . ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة الى بداية النور»^(١) .»

على أن الكلمة لم تحتفظ على الاستعمال بهذا المعنى وحده فقد انضافت اليها معان أخرى بالتدريج زادت في تنوع استعمالها ايضا وفي تشتت معناها الدقيق في ذلك العصر حتى اصبحت الزندقة مرادفة أحيانا للتطرف كما اضحت في الوقت نفسه تهمة ادارية سياسية جزاؤها القتل . . و لذا يعني أنها عرفت تطورا واسعا ما بين أواخر العصر الاموي حتى أواخر العصر العباسي الأول .

والواقع أن الكلمة إستعيرت منذ مطلع القرن الثاني من الاستعمال

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٢٠ (٥٨٨/٣) ويلاحظ أن ابن النديم يطلق اسم الزندقة أيضاً على المانوية كما أن الخياط في الانتصار يعطيها المعنى نفسه وكذلك ابن قتيبة في المعارف .

الماناوي واطلقت على أعمال التحلل من الواجبات الدثية الاسلامية
أو على الأسباب التي تفلسف العقيدة . فقد رمى الوليد بن يزيد سنة
١١٩ بالزندقة بسبب المجون والشرب واللذات كما رمى بها في الوقت
نفسه الجعد بن درهم الذي قتل سنة ١٢٥/٧٤٢ في الكوفة بتهمة
الزندقة وهي ليست هنا القول بالمانوية ولكن بأراء غريبة في القدر
وخلق القرآن وحرية الارادة ومنذ هذا الوقت توافق بشكل واضح في
الكلمة معينان : المانوي والإلحادي ، واختلط استعمالها لبقايا المانويين
في العراق وغيره مع استعمالها للخارجين على الآراء الاسلامية السائدة
على النساء^(١) . ولما كان هذا الخروج متعدد الألوان والصور فقد
وصفت بالزندقة ألوان من الاعمال والآراء تمتد ما بين الاستخفاف
بالدين حتى الكفر المطلق والتعطيل ويدخل في ذلك نقد بعض الصحابة
أو تأويل بعض الآيات تأويلا مخالفا أو إنكار النبوات ...

وإذا كان الاستخفاف بالدين قد ينجم عن المجون والتطرف لا عن
قلة الدين فإن التأويل نفسه قد يأتي عن فرط التفكير العقلي في الدين
كما أن بإمكان السلطة أن تدخل من تشاء من المعارضين والمناهضين
للنظام العام في نطاق الزنادقة عن طريق اتهامهم بحمل آراء دينية خطيرة
على ذلك النظام وأسنه . وهذا بالضبط ما آل إليه معنى الكلمة في نهاية
القرن الثاني الهجري إذا أضحت على كثرة الاستعمال ، تشمل كل هذه

(١) تعمدا هنا أن لا نتابع معاني الكلمة واستعمالها وراء العصر
العباسي الأول لأنه ليس من بحثنا فقد أصبحت فيما بعد تطلق على
المزكية أيضاً وعلى الدهرية المنكرين لوجود الله ، وللنبوات . وأحيانا
على غلاة الشيعة أو على أصحاب البدع ، أي صارت بمعنى الملحد المنكر
للاعتماد الديني السائد .

الأنواع من التمرد معاً سواء على الأمور الدينية العادية أو على الدين كله أو على سياسة الامام ، المسؤول عن حفظ الدين وحمايته والذي تختلط لديه حمايته الدين مع مصلحة الدولة . وبعد أن كانت الزندقة في الأصل اسم فرقة ثم اصطلاحاً للدلالة على الجدل الكلامي النظري المنحرف أضحت في النهاية مصطلحاً إدارياً سياسياً ثم مصطلحاً دينياً .

وكانت المانوية وأصحابها الزنادقة^(١) موجودة في العراق وخراسان وبلاد الترك خلال العهد الأموي والعصر العباسي الأول كما كان يرافقها في الوجود الديني فرق أخرى مشتقة منها كالديسانية ومذاهب أخرى مسيحية للسريان كالنسطورية واليعقوبية في العراق والجزيرة ومذاهب من نوع ثالث تمزج ما بين المانوية والمسيحية كالمرقيونية والماهانية . بينما كانت المزدكية تنتشر خاصة في المناطق الجبلية من شمال غربي إيران ويحمل أصحابها هناك اسم الخرمية والمحمرة أما الزارادشتية ، دين الساسانيين الرسمي ، فقد ظل العقيدة السائدة في مختلف أنحاء إيران وله معابده وكهانه وكان من أسباب تعايشه وتعايش أصحابه مع الاسلام أن الحكم العربي اعتبر اتباع زارادشت ، من ناحية المعاملة المالية ، من أهل الكتاب ...

ومع أن الاسلام كان يعزو هذه الفرق ويحول اتباعها الى جماهير من الموالي ولا سيما في العراق إلا إن أصحاب هذه المذاهب ظلوا

(١) انظر تفصيل ذلك لدى ابن النديم الفهرست ص ٣٣٤ والاقدمون كانوا يسمون هذا المذهب باسم المانية . ولعلنا نلاحظ هنا أن الزندقة فقدت المعنى المانوي فيما بعد العصر العباسي الأول واضحت تستعمل للمزدكية (في محاكمة بابك) وتستعمل بمعنى الكفر والالحاد ورفض الاسلام وبهذا المعنى استعملت في كتب الفقهاء وفي محاكمات بعض الصوفية (كالحلج) .

متناسكين • وكان للمانوية خاصة تنظيمهم الديني ولهم البيع ولهم رؤسائهم الذين يتعاقبون على الرئاسة ومركزهم الأقدس في بابل • ومن هؤلاء الرؤساء مهر الذي عاصر الوليد بن عبد الملك ووالي العراق خالد بن عبد الله القسري وفي عهده انقسمت المانوية الى فرقتين أيضاً ••••

وقد ظل تنظيمهم قائماً في العهد العباسي فكان من رؤسائهم أبو هلال الديحوري زمن المنصور ، ثم جاء أبو سعيد رجا بعد ذلك • وتسلم الرئاسة زمن المأمون في فرقة منهم ، أبو علي رجا يزدان بخت الذي ناظره المتكلمون في مجلس الخليفة ، وأبو علي سعيد الذي خلفه كاتبه نصر بن هرمزد السمرقندي أيام المعتصم ••

ولم تكن المانوية واضحة برؤسائها ولكنها كانت كذلك في تكوينها فقد كانت ذات منهج فكري متماسك وكتب متداولة وقضايا دينية وسياسية واجتماعية وفكرية ودعاة مبشرين لهم نشاط فكري بدليل تلك الانقسامات التي عرفتھا المانوية أيام الأمويين ثم في عهد المنصور والرشيد^(١) كما كان بعض اتباعها يعملون في أجهزة الدولة الاسلامية ولكنهم يذلون مالهم وديانهم العريضة للعقيدة التي كان من مبادئها الزهد والورع كما كان منها أيضاً انتقاص الانبياء ورميهم بالكذب والزعم بأن الشياطين هي التي تكلمت بألسنتهم • ولعل أخطر ما في المانوية أنهم كانوا يأخذون من المسلمين المظهر الاسلامي تماماً كما

(١) ظهر منها بعد عهد عبد الملك وبعد قصة المهريّة والمقلّاصية منشق آخر زمن المنصور هو بزرمهر ألف فرقة خاصة به كما ظهر في عهد المأمون انشقاق آخر تزعمه يزدان بخت ... الخ .

كانوا قد أخذوا من قبل في المسيحيين المظاهر المسيحية^(١) . وقد كتبوا الكثير من كتبهم بالسريانية كما كتبوا بعد ذلك باللغة العربية .

ولعله من الهام جداً أن نلاحظ أن تهمة الزندقة ومكافحة الزندقة لم تتجه أبداً إلى المجوسية أي الزرادشتية المنتشرة في إيران وإنما إلى المانوية المشتقة منها ، بصورة خاصة وإن شملت أحيانا المزدكية ، وهي الفرع الآخر من الزرادشتية . وإذا توضح المزدكيون حين أخذت تمرذاتهم الشكل السياسي (في حركة سباز ثم بآبك) بل كوفخ الزرادشتيون أنفسهم أيضاً في حركاتهم السياسية (أيام بهافريد وأشناس والمقنع واسحق الترك) فإن المانوية قد كوفحت لذاتها باسم الزندقة وبدون أن تقوم بأي حركة سياسية . وربما اعتبر الحكم العربي الاسلامي كلا من المجوسية خاصة والمزدكية ديانات محلية أو قومية ، لا خطر منها لأنها لا تدعو لمذاهبها ولأن أتباعها يتركون صفوفها بالتدريج إلى الاسلام أما المانوية فيبدو أنها كانت تعتبر نفسها ديانة عالمية من جهة وتبشيرية من جهة أخرى ، كما تدعو من جهة ثالثة إلى مبادئ في الزهد مقبولة في أجواء الناس إذ ذاك ومن هنا فهي تشكل بؤرة منافسة ومزاخمة للاسلام لا سيما وهي تبيح لأتباعها الجهر بأي دين من الأديان (الاسلامية أو المسيحية أو المجوسية خاصة) وإبطان العقيدة الأصلية في

(١) كان قد تفرغ قبل الاسلام من المانوية فرع جمع بينها وبين النصرانية في مذهب عرف بالبولسية وقد انتشر هذا المذهب في نصارى العراق والجزيرة والشام في العهد الاموي كما أن دعائه وصلوا عبر البلقان إلى جنوب فرنسا ونشروا دعوتهم هناك وكانت لهم حركتهم المعروفة بالكاتارية أو الالبيجسية . وقد قضى عليهم بالحزب والقتل في مطلع القرن الثالث عشر للميلاد .

السرائر • وقد كانت هذه البقية هي التي تصدم وجدان السواد الأعظم من المسلمين المؤمنين بوحداية الله •

ولم تكن الطوائف المسيحية بدورها في العراق والجزيرة والشام ومصر أقل تنظيماً ونشاطاً فكرياً من الزندقة المانوية وإن كانت أقل اشتراكاً في الحركة الشعوية الواسعة وبالتالي في حركة الزندقة نفسها • ولكن الفلسفة المسيحية ، والجدل اللاهوتي بين مختلف فرق النصرانية لم يمتنع عن التسرب عن طرق شتى الى المناقشات الجدلية الاسلامية • ولعل أوائل المتهمين بالزندقة في العهد الأموي كانوا أكثر تأثراً بالجدليات المسيحية منهم بالأفكار الدينية الإيرانية •

ولا علاقة للثورة العباسية الأولى بالعملية الشعوية ومقاومتها ولا بالزندقة ومكافحتها إلا في الظلال البعيدة المتصلة بمن لحق بتلك الثورة يوم كانت بعد دعوة سرية في خراسان من أصحاب العقائد المختلفة • وقد كانت دعوة العباسيين سياسية بصورة أساسية لا تهتم في كثير أو قليل بالجدل الديني ولا بالكلام في القدر والتوحيد ولا بغيره • ويروي البلاذري أن أبا جعفر (المنصور) أيام الدعوة عاد من بعض رحلاته في البصرة الى دار والده في الحميصة وأخذ يتكلم في القدر ومسائل الكلام مما سمع في تلك المدينة في مجالس المتكلمين وكان يغشاها ويتصل بأصحابها • فلما سمعه أبوه محمد بن علي العباسي ، وهو عقل الدعوة المنظم ، منعه من ذلك ولم تحمل دعوته ، تحت تأثيره أي لون ديني واضح •

ومن جهة أخرى فإن الحركة الشعوية ومعها الزندقة إنما بدأت طلائعها في العهد الأموي وإذا كانت الدعوة الشعوية ، في ذلك العهد ، قد حملت شعار «التسوية» بين العرب وغيرهم لأنها لا تجرؤ على أن

تطلب أكثر من ذلك فإن حركة التفلسف الديني التي دخلت الزندقة عن طريقها إلى الإسلام كانت على المستوى المحدود نفسه • ومعبد الجهنني المتوفي سنة ٨٠ كان أبرز تطلعات الفكر الإسلامي للجدل الديني متأثراً فيما يقولون - بنصراني من أساورة العراق اسمه أبو يونس سنسويه الأسواري ثم كان مقتل غيلان الدمشقي لكلامه في القدر بعد ذلك ، يأمر هشام بن عبد الملك ، رمزاً آخر لعدم الرضى الذي قابل به المسلمون في تلك الفترات ، هذا الجدل •

لكن الإسلام ، كنظام حكم ، وكنشافة ، وكمجتمع كان إذ ذاك يتبلور ويأخذ ملامحه الخاصة المميزة عبر مراحل كثيرة من الصراع لم تخل أحياناً كثيرة من الدماء أيضاً فكان طبيعياً أن يعيش الإسلام كعقيدة ، الصراع نفسه • لا سيما أن الفكر الديني الإسلامي كان مضطراً مع تعقد الحياة ، للإجابة على كافة الحاجات الفكرية والمسائل الجدلية التي قد تشور سواء من أعدائه أو من المؤمنين به •

والواقع أنه بالرغم من التراث المأثور عن الصحابة بمنع الجدل فإن المناقشة الدينية قد ظهرت وتوسعت منذ أواخر القرن الأول الهجري بل يعدون عمر بن عبد العزيز أول المتكلمين من السنة^(١) • وقد حفظ عنه كثير من وقائع الجدل مع مختلف الفرق • والجدل الديني متى مس بعض العقائد المستقرة أو نقل بعض العضلات من الطوائف والمذاهب غير الإسلامية أو أظهر صاحبه التهاون في رعاية بعض الحرمات كان جديراً أن يتعرض للاتهام بنقص الدين • وهذا ما استعار له الناس في تلك

(١) انظر البغدادي - الفرق بين الفرق (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - مطبعة المدني بالقاهرة) ص ٣٦٣ وهو يذكر أيضاً أن له رسالة بليغة في الرد على القدرية •

للسنوات الثلاثين من مطالع القرن الهجري الثاني اسم : الزندقة • ولو استعرضنا من وصف بها إذ ذاك لوجدنا مصداق ذلك واضحاً في حالات :

— غيلان الدمشقي الذي قال له خالد بن اللحلاح : ويحك يا غيلان ... صرت قدرياً زنديقاً! ^(١) وانتهى الأمر بغيلان أن صلب على باب دمشق بعد قطع يديه ورجليه بأمر هشام بن عبد الملك • لقوله بالقدر وحرية الإرادة • وقد أفتى بقتله الأوزاعي كما اعتبر رجاء بن حياة قتله خيراً من قتل ألفين من الروم ... مع أنه كان من الائمة المفتين وله رسائل في ألفي ورقة ^(٢) ...

— الجعد بن درهم الذي قال بالجبر وبخلق القرآن ... وقد شهد عليه بالكفر جماعة عند الخليفة هشام فأخرجه من الشام الى العراق وسجنه عند واليه خالد القسري (المتهم بدوره بالزندقة) ثم طلب اليه قتله • قالوا فضحى به خالد يوم عيد الأضحى ... وابن النديم يعد ابن درهم من اتباع ماني ^(٣) كما اتهم أنه أخذ عن الصائبة في حران وعن بعض اليهود ولكن ذلك لم يكن فيما يبدو إلا لتبرير قتله •

— الخليفة الوليد بن يزيد : وقد اتهم بالزندقة وهو ولي للعهد بسبب اتخاذ الشراب والمجون • قال له الخليفة هشام : ويحك يا وليد والله ما أدري أعلى الاسلام أنت أم لا • ما تدع شيئاً من المنكر إلا أتيت

(١) الذهبي - تاريخ الاسلام ج ٣ ص ١٤٧ •

(٢) ابن حجر - لسان الميزان ج ٤ ص ٤٢٤ وانظر كذلك تاريخ

الذهبي ج ٤ ص ٢٩٠ وابن النديم - الفهرس ص ١٧١ •

(٣) انظر ابن النديم - الفهرس ص ٣٣٨ وانظر ابن حجر لسان

الميزان ج ٢ ص ١٠٥ ولنذكر أن الجعد هو مولى مروان بن محمد وإليه صار

ينسب في زمن العباسيين لتشويه سمعته فيقال : مروان الجعدي •

غير متحاش ولا معتز به » وقد عرض به شاعر من موالي المدينة جين حج مسلمة بن هشام بن عبيد الملك سنة ١١٩ وكان يكنى أبا شاعر فقال الشاعر :

يا أيها السائل عن ديننا نحن على دين أبي شاعر
الواهب الجرد بأرسانها ليس بزنديق ولا كافر

— أبو وهب عبد الصمد بن عبد الأعلى الشيباني وهو مربى الوليد ابن يزيد اتهم بالزندقة للسبب نفسه حتى قال الوليد :

لقد قذفوا أبا وهب بأمر كبير بل يزيد على الكبير

— أبو حمزة الصوفي • وكان حلولياً « فنسبوه الى الزندقة وقالوا حلولي زنديق ويبيع فرسه بالمناداة على باب الجامع : هذا فرس الزنديق » (١) •

— خالد بن عبد الله القسري والي العراق وقد اتهم بالزندقة لا لأن أمه نصرانية فقط بل لأنه كان يعني — كما قال ابن النديم — بالمانوية (٢) « وزعموا أنه حمل (مهرًا) رئيس المانوية على بغلة وختمه بخاتم فضة وخلع عليه ثياب وشي » • وربما كان ذلك لأسباب إدارية •

— مروان بن محمد فقد ذكر ابن النديم أنه كان زنديقا وقد يكون هذا الاتهام عباسياً وغير ذي موضوع (٣) •

(١) ابن الجوزي — تكليس ابليس (نشر باسم نقد العلم والعلماء او ... من قبل الخانجي — القاهرة سنة ١٣٤٠) ص ١٨٠ .
(٢) ابن النديم — الفهرس ص ٣٣٤ وص ٣٣٧ — ٣٣٨ .
(٣) المصدر نفسه .

وهكذا كان القدرية والجبرية علي السواء والمجان واصحاب الفكر الحلولي يتهمون بالزندقة في أواخر العهد الأموي لكنهم لم يكونوا يكافحون كجماعة ولكن كأفراد ولم يكن النظام الأموي ينظر إليهم كحركة منظمة خطيرة علي النظام وإن كان قد قتل بعضهم بسبب سياسي وإن كان خلفاء بني أمية المتأخرون قد وجدوا من واجبهم استئصال الناشزين عن العقيدة العامة فإنهم لم يعتبروا ذلك سياسة دائمة أو واجباً لا محيد عنه من واجبات الامام واتهام اثنين من الخلفاء بالزندقة واثنين علي الأقل من مربي الخلفاء بها أيضاً دليل علي عدم الاهتمام الرسمي باتخاذ موقف سياسي محدد من هذا التيار .

وقد ورث العباسيون ، فيما ورثوا عن بني أمية ، تيار الشعوية والزندقة وإذا كانت الانظار متجهة زمن الأمويين الي الشيام وزنادقته فإن هذه الانظار اتجهت في ظل العباسيين الي العراق الذي اجتمعت إليه مختلف ألوان النشاط في الدولة . وليس مفاجئاً أن نجد هناك أن من عرفوا بالزندقة في مطالع العصر العباسي كانوا كلهم من المخضرمين الذين بدأوا نشاطهم الفكري المزدق منذ العهد الأموي . فإن ابن المقفع ويشار ابن برد وحماد عجرد ومطيع بن إياس ووالية بن الجباب وحماد الراوية وحماد بن الزيرقان وعبد الله بن معاوية ويونس بن أبي فروة وصالح بن عبد القدوس ولندر ان الجعد هو مربي مروان وعبد الكريم ابن أبي العوجاء ويحيى بن زياد وغيرهم ممن ألصقت الكتب بهم صفة الزندقة وروى أخبارهم عرفوا جميعاً أواخر الحكم الأموي وقتلوا أو ماتوا قبل أن يأتي عهد الرشيد أو في مطالعه . علي أن المفاجيء في الأمر ان تأخذ الزندقة في تلك الفترة بالذات شكل الموجة الواسعة وأن يكثر عدد الزنادقة أو المتهمين بهذا الميل كثرة واضحة . مما دعا الخلافة لاتخاذ موقف الجلال .

والواقع أنا يجب أن نفتش عن تفسير ذلك في أمور ثلاثة :

الأول : هو نفسه السبب الذي أطلق ثورات إيران المختلفة في عهد المنصور ونعني : خيبة الآمال التي كانت الثورة العباسية قد أطلقتها في نفوس الإيرانيين • وبينما كان الجواب على هذه الخيبة مسلحاً في بعض نواحي إيران ، كان الجواب عليها هجمة دينية من الزندقة في العراق حيث لا مجال مع قوة الخلافة العسكرية للثورة المسلحة لا سيما وأن التنظيمات الدينية المانوية خاصة كانت قائمة ناشطة متصلة الأسباب ما بين مركزها في بابل وبين اتباعها ومعابدهم في خراسان وما وراء النهر ومثلها المزدكية •

الثاني : جهود العباسيين لنشر الاسلام في إيران فقد اثارت هذه الجهود رجال الأديان الأخرى والأجهزة الدينية التي يتبعونها وخاصة منها المانوية القوية في العراق والتي كانت ترى البساط يسحب من تحتها والموارد تقل على معابدها وهذا ما دفع رئاستها في بابل الى مقابلة الهجوم الاسلامي الديني بهجوم ديناميكي من مثله • إنها إذن عملية مقاومة منظمة من جماعة دينية معينة • وضمن هذا الاطار الدفاعي الهجومي ترجمت كتب المانوية من الفهلوية الى العربية ونشرت بين الناس • وبدأنا نسمع عن جدل تبشيري يقوم به الدعاة الزنادقة لمذهبهم يقول بشار بن برد لصاحبه حماد عجرد :

يا ابن بهني رأس علي ثقيل واحتمال الرأسين أمر جليل
فادع غيري الى عبادة ربين فإنني بواحد مشغول !

ونسلم عن محاورات ومناظرات يجريها الزنادقة مع المسلمين • وهي ليست معركة كلامية جدلية مجردة فقط ولكنها تبشيرية من الطرفين ولهذا فإنها تستمر ما يزيد على القرن وتملأ العصر العباسي الأول كله

جدلاً دينياً وتكون أحد الأسباب الأساسية في مسائل علم الكلام • وفي تعميق البحث التوحيدي الاسلامي وفي اعطاء المذهب السني الكثير من ملامحه المقررة اليوم •

ولم تغفل كما لم ترض الخلافة العباسية بالطبع عن هذا النشاط الذي يستفيد من الحرية الدينية في ظل الاسلام للهجوم عليه • وكره الأتقياء من رجال السنة والحديث والفقه خاصة أن يستطيع الزنادقة بالجدل وضع المانوية وغيرها من الأفكار الدينية المشتركة على قدم المساواة مع الاسلام • وهذا ما يفسر الموقف الهجومى المكافح الذي اتخذته الخلافة الاسلامية زمن المهدي ضد هذا التيار •

الثالث — أن التكاثر السكانى من جهة وانصباب الأموال من مختلف انحاء الدولة على العراق من جهة أخرى وما نجم عن ذلك من تباين طبقي شديد فيه الرفاهية الاقتصادية والترف الواسع وفيه الفقر المدقع والجوع • وازدياد النشاط التجارى والرحلة والاطلاع لدى أهل المنطقة واجتماع الافكار المتباينة إليهم تحت جاذبية البلاط العباسي والمال كل ذلك كان يشكل التربة الخصبة لنمو أفكار الريب والزندقة والمجون والتحلل في القيم والعقائد • وقد أفادت المانوية كل الفائدة من تلك الفرصة •

ولعلنا نضيف هنا الى عناصر المعركة أموراً أخرى :

١ — أن نشاط المانوية والمزدكية كان يهدد بدوره أيضاً المذهب الزارادشتي في ايران وخراسان وهو المذهب الرسمي الساساني القديم وهذا ما جعل انصار هذا المذهب ومعظمهم من الدهاقين والمرازبة (أصحاب الاقطاعيات الزراعية والدينية) ينضمون الى جانب السلطة العباسية في

كفاح المانوية والمزدكية حفاظاً على مصالحهم • ولنلاحظ أن الأسرة
البرمكية وأنصارها الذين جندوا لها نصف مليون في خراسان كانوا من
هذه الطبقات • ومثلها أسرة بني سهل • • • واتهام البرامكة بالزندقة
بعد سقوطهم وقول القائل :

إذا ذكر الشرك في مجلس أضاعت وجوه بني برمك
وإن تليت عندهم آية أتوا بالاحاديث عن مزدك

لا يعني أكثر من صلتهم المصلحية القديمة مع الإسلام باعتبارهم
كانوا سدنة بيت النار !

٢ - أن الزندقة ابتدعت أسلوباً ذكياً للوقوف في وجه الإسلام
هو أسلوب الظرف والمجون والاستهتار بالقيم والسخر من التزم
والتقليد ومن بعض حدود الإيمان • وإذا نبغ هذا الأسلوب في الأصل
من التقية ومن خوف المجابهة المباشرة مع السلطة الإسلامية فإنه بالمقابل
قد نجح في اجتذاب الناس لا سيما وقد توافقت ذلك مع تكاثر الأموال
في العراق واستقرار دولة بني العباس وميل طبقات واسعة من المجتمع
إلى حياة اللهو والشراب والمتعة بالحياة • وهكذا غالباً ما تقترن في هذا
العصر كلمة الزندقة مع المجون • كما أضحى الاستهتار بالدين وإظهار
الزندقة نوعاً من التظرف الاجتماعي المحبب يقول شاعر :

تزدق معلناً ليقول قوم إذا ذكروه : زنديق ظريف !!
ويقول آخر :

يا ابن زياد أبا جعفر أظهرت ديناً غير ما تخفى
مزدق الظاهر باللفظ في باطن اسلام فتى عف
لست بزنديق ولكني أردت أن توسم بالظرف !!

واختلط الأمر فدخل في زمرة الزنادقة جماعات الظرفاء والمجان ••

بجانب الزنادقة الأصليين وانضم الي هؤلاء وأولئك فئات من أبناء العقائد الأخرى كما وجد في الوقت نفسه زنادقة يطنون الكفر ويظهرون الاسلام في اسلوب آخر من اساليب الدس والدعوة المانوية المستترة بالتقوى .

وهكذا جمعت مجموعة الزنادقة أربع طبقات^(١) طبقة المجان الذين يصلون في الاستهتار درجة المساس بالدين ولكنهم مسلمون . وطبقة تتبع أديان المجوسية وخاصة المانوية ولكنها تظهر الاسلام تقية أو رغبة وطبقة مثلها ولكنها لا تتظاهر بالاسلام . وطبقة أخيرة من اتباع بعض الطوائف المسيحية أو بعض المذاهب الفلسفية الدهرية على أن المجموعة كلها كانت تلتقي في هدف واحد هو: الوقوف في وجه الاسلام أو على الأقل نزع الهالة القدسية التي نسجها المؤمنون حوله .

٣ - كانت كتلة الزنادقة عموماً سواء في رؤوسها أو في الجموع التابعة لتلك الرؤوس من الإيرانيين وذلك طبيعي . على أننا نجد في أطراف الكتلة من الجانبين خاصة : جانب الاستهتار وجانب الإلحاد المطلق أفراداً مغدودين من العرب أو من السريان المسيحيين . اتهم بالزندقة مثلاً بعض الهاشميين (الحسين بن عبد الله القباسي ، عبد الله ابن معاوية الطالبي ، يعقوب بن الفضل المطلبي . .) وبعض العرب الآخرين مثل ابن أبي العوجاء وآدم حفيد عمر بن عبد العزيز وكان شاعراً يفرط في الشراب ويقول إذا منه السكر ما يمن الدين ولكن زندقته كانت ظرفاً ومجنوناً وقد عبر عن ذلك آدم نفسه حين أخذه المهدي فضربه

(١) لاحظ أحمد أمين (ضحى الاسلام ج ١ ص ١٥٤) هذه الطبقات ولكنه اعتبرها مغاني لكلمة زندقة لاجتماعات فيها .

ثلاث مائة سوط على أن يقر بالزندقة فقال : والله ما أشركت بالله طرفة عين ومتى رأيت قرشياً تزندق ؟ ولكنه طرب غلبي • أنا فتى من فتیان قریش أشرب النبيذ وأقول ما قلت على سبيل المجون^(١) •••

ونجد على الطرف الآخر الإلحادي جماعة من مثقفي النصارى الذين تأثروا بالتيار العام أو تأثروا خاصة بالمناوية وكتبها • وقد أشار الجاحظ إلى أن الزنادقة أثروا في قوم من الصوفية والنصارى فكانوا يرفضون الذبائح ويغضون إراقة الدم ويزهدون في أكل اللحوم ••• كما يشير هو نفسه إلى أن « الزندقة فشّت في النصارى »^(٢) • وإلى الزنادقة « الذين يسمون الدهرية لا يقولون بنبوة ولا كتاب » ولقاء الزندقة المناوية بالنصرانية إنما كان في المذهب البولسي المعروف وأما الدهرية فزندقتها إنما جاءت متأخرة على ما يظهر بعد انتشار ترجمات الكتب الفلسفية اليونانية •

وقد سهل على المناوية أن تكون مركز الحركة في الزندقة أنها كانت مرنة الأفكار وتحوي الكثير من المبادئ التي تلتقي تارة مع الاسلام وأخرى مع النصرانية وثالثة مع الدهرية كما يجد فيها الزارادشتيون والمزديكيون أنفسهم يقول ابن النديم : « وكانوا يرخصون لأهل المذهب والداخلين فيه أشياء محظورة في الدين ••• » •

٤ - لم تستكشف المناوية - وذلك من البراعة في العدا - عن التعاون مع الدولة العباسية • عداؤها الديني لم يصل درجة المقاطعة لنظام الحكم الاسلامي • وإذا استثنينا فترة عهدي المهدي والهادي التي لم تدم أكثر من عشر سنوات فإننا نجد التعاون دائماً قائماً بين اتباع

(١) الاغانى ج ١٤ ص ٦٠ - ٦١ •

(٢) انظر الجاحظ الحيوان ج ٤ ص ١٣٦ - ١٣٧ وثلاث رسائل

ص ١٧ •

المانوية والحكام المسلمين منذ العهد الأموي ونجد بين رجال المنصور :
مطيع بن اياس ويحيى بن زياد والكاتب يزيد بن الفيض وقد ألقى القبض
عليه زمن المهدي لمانويته • وبين رجال عيسى بن علي العباسي ابن المقفع
الذي قتله المنصور (بحجة الزندقة ولكن لسبب سياسي) وخصيب
النصراني طبيب المنصور كان زنديقاً^(١) ويزدان بن باذان الكاتب
وأحد كبار الرجال في البلاط عند الهادي كان زنديقاً وقتل • وحماة مجرد
كان مربى الامين •••

كما نجد بالمقابل كما قال ابن النديم ان رؤساء المانوية « كانوا
يخالطون السلاطين ويؤاكلونهم » ويدعون إلى المناظرة في مجالسهم
فيلبسون ويتقبلون الصلات والهدايا منهم •

ولعل من الأمثلة الواضحة جداً في التعاون والعلاقة الطيبة بين رجال
الدولة الاسلامية والمانويين - اذا لم نذكر المجوس وغيرهم - مثال
ابن المقفع الذي عمل للأمويين وللعباسيين وكان على علاقة أخوية مع عبد
الحميد الكاتب حتى لقد حاول أن يفديه بنفسه كما كان يرفد إخوانه
الكتاب وهم مسلمون بالمال عند الحاجة ويتوسع عليهم^(٢) ونعرف من
كلام الجاحظ أن الرشيد والمأمون استكتبا الكتاب المجوس في ديوان
الخارج وغيره^(٣) •

وقد تتج من هذا وذاك أن الزنادقة المانوية وهم جزء من طبقة
الموظفين الايرانيين حملوا معهم وربما حملوا أكثر منهم تيار الشعوية

(١) الطبري ج ٨ ص ٨٦ . (٣) /

(٢) انظر الجهشيارى الوزراء والكتاب ص ١١٧ ومحاضرة الادباء

ج ١ ص ٢٩ •

(٣) الجاحظ - رسائل (نشر هارون) ج ٢ ص ٢٠٢ - ٢٠٣ •

ضمن الجهاز الحكومي العباسي : وكان منهم الكثير من صغار الكتاب .
وهي الطبقة التي رآذ نفوذها زيادة بالغة وسريعة في ظل العباسيين لأن
الخلفاء اكثروا من استخدامهم من جهة ولأن الوزراء رؤساء الجهاز
الحكومي كانوا من الفرس .

ونستطيع أن نعرف الوضع الفكري والسياسي لهذه الطبقة من
خلال رسالة مشهورة للجاحظ في ذم أخلاق الكتاب : وقد كتب عنهم
أيضاً : «... إن الناشيء منهم متى روى لبزرجمهر أمثاله ولأزدشير عهد
وضير كتاب مزدك معدن علمه ودفتر كليله ودمنة كثر حكمته... توهم
أنه صار الفاروق الأكبر في التدبير... وأنه وأنه... فيكون أول
بدوه الطعن على القرآن في تأليفه والقضاء عليه بتناقضه ثم يظهر فيه
ظرفه بتكذيب الأخبار وتهجين من تقل الآثار... ثم يقطع ذلك من
مجلسه بسياسة ازدشير بآبكان وتذير أنوشروان... فإن حذر العيون
رجع... بمحكم القرآن الى المنسوخ ونفى ما لا يدرك بالعيان...
لا يرتضى من الكتب إلا المنطق... هذا هو المشهور من أفعالهم
والموصوف من أخلاقهم...» (١) .

وهؤلاء الكتاب - وهم بين الشعوية والزندقة - كانوا يشكلون
طبقة واسعة تبذل جهودها - دون أن تصطدم الاصطدام المباشر بالنظام
الديني - لسيطرة تقاليد البلاط الفارسي في الدولة العباسية ولبعث
البناء الاجتماعي الفارسي القديم بكل ما يحويه من مراتب طبقية متميزة
ولكي تحل روح الثقافة الفارسية محل ما خلقتة التقاليد العربية (٢) .
والاسلام في النظام العام .

(١) الجاحظ - الحيوان ج ١ ص ٢٨ وانظر كذلك رسائل الجاحظ
(نشر هارون - القاهرة ١٩٦٤) ج ٢ ص ١٩١ - ١٩٤ .
(٢) جب - دراسات اسلامية (ترجمة عباس وإخوانه) ص ١٦ .

هـ - استخدمت الزندقة في الدعوة والنشر أساليب شتى من بينها مثلاً أنها:

م - استخدمت الشعر والأدب العربي وهي خير الوسائل المتاحة في ذلك الزمن لإداعة الأفكار وهذا يعني أن المانوية بدأت مبكرة في اتقان العربية والشعر العربي في سبيل الدعوة والجدل والنشر . وكان من أسباب نجاحها أن ظهر في جانبها جماعة من أبرز شعراء وكتاب العصر ، فأبو نواس ملأ الدنيا غزلاً بالخمير وسخراً ممن يخوف بالنار أو بيوم الحشر والحساب في مثل قوله :

يا ناظراً في الدين ما الأمر لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندي من جميع الذي تذكر إلا الموت والقيـر !
وقوله ...

ورأيت اتيانى اللذاذة والهوى وتعجلا من طيب هذي الدار
أحرى وأحزم من تنظر آجل علمي به رجم من الأخبار
ما جاءنا أحد يخبر أنه في جنة من مات أو في النار !
وقوله ...

وقائل هل تريد الحج ؟ قلت له
نعم إذا فئت لذات بغذاذ
وقوله ...

يا من يلوم على حمراء صافية
صر في الجنان ودعني اسكن النار !
ومثل أبي نواس كان من قبله بشار بن برد القائل :
الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة منذ كانت النار
والقائل :

ابليس افضل من ايكم آدم فتيينوا يا معشر الاشرار
ابليس من نار وادم طينة والطين لا يسمو سمو النار ...

ومثل هذا وذلك كان قول . . . مطيع بن إياس وصالح بن عبد القدوس وإبراهيم بن سيابة وآدم حفيد عمر بن عبد العزيز فكان شعرهم هو الصحف السيارة أو ما يشبهها .

ب - واستخدم الزنادقة الرواية الأدبية والدينية والأسلوب الأدبي الرفيع في الكتابة والترجمة . يذكر البيروني أن ابن المقفع دس في باب برزوريه من كلیلة ودمنة أفكار المانوية . وقد ساعده أسلوبه الأدبي الرفيع كل المساعدة في نشر ما يريد من الفكر . كما ساعدت الرواية حماداً الراوية بل إن بعضاً ممن اتهم بالزندقة كان معروفاً برواية الحديث فزيف الأحاديث على النبي . وحين قدم عبدالكريم بن أبي العوجاء للقتل عند والي البصرة أيام المنصور قال - فيما يروون - لئن قتلتهموني لقد والله وضعت أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال واحلل الحرام . والله لقد فطرتكم في يوم صومكم وصومتكم في يوم فطركم فضربت عنقه^(١) وصلب جسده .

ح - وكان من أساليب النشر أيضاً أن يؤلف الزنادقة الكتب في المذهب ، بالعربية ، ومن ذلك - حسب قول اليعقوبي - « . . . ما كان ابن المقفع ترجمه من كتب ماني الثنوي وكتب ابن ديسان الثنوي وغيرهما وما وضعه ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع ابن إياس وملأوا به الأرض من كتب الملحدين وكثرت الزنادقة وفشت كتبهم في الناس^(٢) . . . » . وينسب المسعودي إلى حماد عجرد رسائل كثيرة في المانوية كما يروي أبو نواس أن حماداً كان إماماً من أئمتهم وله شعر مزاج بيتين بيتين (رباعيات) يقرؤون به في صلاتهم^(٣) ويذكر ابن

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٨ (٣/٣٧٦) .

(٢) اليعقوبي - مشاكلة الناس ص ٢٤ .

(٣) الاغانى ج ١٣ ص ٧٤ .

النديم : عدة رجال يتهمون بالمانوية مثل : ابن أبي العوجاء ، صالح بن عبد القدوس ، ابن الاعدي الحريري ، ابن طالوت ... ثم يضيف قائلاً : «ولهؤلاء كتب مصنفة في نصره الاثني (المذهب الثنوي) ومذاهب أهلها وقد نقضوا كتباً كثيرة صنفها المتكلمون في ذلك»^(١) ويروون عن المهدي أنه قال : ما وجدت كتاب زندقه قط إلا وأصله ابن المقفع ...»^(٢) وهو متهم بمعارضة القرآن ومثله كذلك ابن أبي العوجاء وقد كتب أبان اللاحق كتاب مزدك وصالح بن عبد القدوس كتاب الشكوك ... الخ هذا إذا لم نذكر كتب ابن الراوندي التي جاءت فيما بعد بعد العصر العباسي الأول ، بقليل ، وفي عناوينها ما يكفي دليلاً على عنفها : كتاب التاج في الرد على الموحدين وكتاب بعث الحكمة في تقوية القول بالاثني وكتاب الدافع في الرد على القرآن وكتاب الفريد في الرد على الأنبياء وكتاب فضائح المعتزلة ...

وكان المانوية فيما يبدو يتألقون في كتبهم : ورقاً وكتابة وزينة ليكون ذلك من أسباب جاذبيتها يقول الجاحظ انها كانت «... اجود ماتكون ورقاً يكتب عليه بالحبر الأسود البراق ويستجاد له الخط»^(٣) ليكون ذلك من أسباب الاحتفاظ بها . مع أنها لا أدب ولا فلسفة ولا خبر « وجل ما فيها ذكر النور والظلمة وتسافد العفاريت والتهويل بعمود الصبح ... » ويبدو من بعض الأخبار التي سنها أيام المهدي أن الزنادقة استطاعوا في الواقع أن يجتذبوا بعض المسلمين الى مذاهبهم ونجحوا

(١) ابن النديم ص ٣٣٨ .

(٢) امالي المرتضى ج ١ ص ١٣٤ وابن خلكان ج ٢ ص ١٥١ (طبعة احسان عباس) .

(٣) الجاحظ - الحيوان ج ١ ص ٢٩ .

في التسرب لدرجة أنه كان من بين هؤلاء المفتونين بعض العرب وبعض أبناء كبار الدولة وبعض الهاشمين أيضاً وايضاً .

ح - قصة المكافحة : أخذت مكافحة الزندقة في العصر العباسي الأول شكلين :

الأول : الشكل الثقافي الفكري : حجة بحجة . فقد وقف رجال الدين والفقهاء وأهل الحديث والإتقياء من الزندقة موقف الكره والتنديد والوعظ والتحريض للسلطات . ولكن هذا الموقف لم يكن له كبير جدوى عملية في قمع الزندقة والوقوف أمام السيل الواسع من الريب والمسائل الدينية التي كان الزنادقة يثيرونها ، من خلال تراثهم الفكري وفلسفاتهم السابقة . ولهذا فقد وقف أهل الكلام لهذا التيار بوسائلهم الأولى أولاً ثم بالمنطق المترجم والفلسفات المقتبسة . وكثير من مسائل المتكلمين إنما هي في الأصل أجوبة أو ردود على ريب الزنادقة وجدلهم . وقد كون المتكلمون نوعاً من الجند المتطوعة للدفاع عن الدين بالفكر والمنطق والعقل وكنا نجدهم في حلقات المساجد على الجدل العنيف كما يستدعون الى مجالس الخلفاء للمناظرة أو يرسلون في ذلك الى الآفاق . ولم يكتفوا بهذا كله بل ألفوا الكتب في الرد على الزندقة وأصحابها متطوعين لذلك أو بدعوة من الخلفاء . فقد كتب واصل بن عطاء كتاب الألف وفيه ألف مسألة من الرد على المانوية^(١) ويقع في أكثر من اثني عشر جزءاً . ولأبي الهذيل العلاف ستون كتاباً في الرد على المخالفين في دقيق الكلام وجليله^(٢) . . . وكان النظام قد طالع كثيراً من كتب الفلاسفة وخط كلامهم بكلام المعتزلة . . .^(٣) ونقل عنه تلاميذه

(١) ابن المرتضى - طبقات المعتزلة ص ٣٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٤ .

(٣) الشهرستاني الملل والنحل ج ١ ص ٥٣ - ٥٤ .

ردوده كما كتب زميل له كان يناظره أشد المناظرة هو أبو عبد الله الحسين ابن النجار كتاب الرد على الملحدين^(١) وكتب محمد بن شجاع الثلجي وهو الذي وطد فقه أبي حنيفة واحتج له بالعلل والحديث كتاب الرد على المشبهة ... وكتب أبو الربيع محمد بن الليث كاتب يحيى البرمكي كتاب الرد على الزنادقة .

وكتب أبو محمد هشام بن الحكم زمن الرشيد كتاب الرد على الزنادقة والرد على أصحاب الاثنين ثم اشترك الخليفة المأمون نفسه في المعركة بكتاب على المانوية^(٢) كما كتب أيضاً أحمد بن حنبل ، في أيام المأمون كتاب الرد على الزنادقة والجهمية . وكتب القاسم بن إبراهيم الحسني في أيام المتوكل كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع ... بعد قرن من غياب ابن المقفع . ولا نمتد الى ما بعد العصر العباسي الأول لنجد أن المعركة الجدلية ستظل قائمة ومقابل ابن الراوندي نجد كتب أبي بكر الرازي في الرد على المانوية والمبادئ الثنوية وأبي محمد النوبختي وأبي علي محمد الجبائي في الرد على أصحاب التناسخ والخرمية ...

على أن حدة الصدام بين الطرفين اذا تصاعدت خلال النصف الاول من العصر العباسي وبلغت أوجها حين استعانت السلطة رسمياً بالسنة وأدمغة المتكلمين أيام المهدي عادت فهدأت وأخذت شكل الجدل الطويل الأمد والتعائش بين الأفكار ولهذا لم يكن من الغريب حين وصل رجال الكلام الأساسيون : المعتزلة الى السيطرة على الخلفاء أن يكون همهم

(١) ابن النديم - الفهرست ص ١٧٩ .

(٢) أنظر ابن المرتضي - طبقات المعتزلة ص ١٢٣ .

الأول ابناء دينهم من أهل السنة والجماعة والحديث لا الزنادقة والملحدون الذين كان قد مضى زمن اضطهادهم منذ عهد طويل كما كان المتكلمون في الوقت نفسه قد يئسوا من إمكان إزالة نحلهم وأفكارهم المرعبة بالجدل والمنطق ...

الثاني هو الشكل الحكومي الرسمي : وهو ما يهمنا هنا بحثه . وفي هذا المجال يمكن أن تتبين في سياسة العباسيين مع الزنادقة مراحل ثلاثاً :

الأولى امتدت ما بين مطلع الدولة مع ابي العباس واستغرقت عهد المنصور كله وجانباً من أيام المهدي أيضاً امتد حتى سنة ١٦٦ أو سنة ١٦٧ .

الثانية : فترة لم تدم أكثر من سبع سنوات (١٦٣ - ١٧٠) صارت فيها مكافحة الزنادقة سياسة يومية وشغلاً رئيساً للدولة .

الثالثة : تمتد ما بين مطلع عهد الرشيد سنة ١٧٠ حتى نهاية عهد الواثق بعد نصف قرن ونيف . وفيها عادت السياسة العباسية الى عهدا الأول ولكن معنى الزندقة والمكافحة دخل في نهاية هذه الفترة منزلقاً ضيقاً ، أيام المحنة والاعتزال ، حين حاول المأمون في أشهره الأخيرة ثم المعتصم والواثق من بعده أن يجعلوا تهمة الكفر شاملة كافة الناس إلا المعتزلة ..

في المرحلة الأولى لم يختلف موقف العباسيين الأولين من الزنادقة عن موقف الأمويين . وإذا لم يكن لأبي العباس من سياسة معروفة في هذه الناحية فإن صاحب تلك الفترة وهو المنصور كان في الواقع استمراراً لعهد هشام بن عبد الملك ولقد نستطيع أن نعطيه ميولاً كلامية^(١) ، أو تتبين في سياسته الرغبة في التلبس بلبوس الدين ولكن

(١) ابن المرتضى (في طبقات المعتزلة ص ١٢٢) يعد المنصور من المعتزلة كما يعد ابنه المهدي .

دوافعه في هذا كله إنما كانت سياسية ولذلك فإن الأحداث التي سجلت
 بينه وبين الزنادقة كانت كلها ذات طابع سياسي واضح .
 وإذا كان الموقف النموذجي للدعوة العباسية من الفرق المغايرة
 للإسلام إنما ظهر في طريقة تصرفها مع حركة خدّاش ثم مع حركة بهافرید
 فإن الموقف المماثل والذي يمثل أبا جعفر المنصور في هذا المجال هو :
 موقفه من الراوندية : فقد وصل بها الأمر درجة تأليه أبي جعفر وقبل
 منها ذلك قائلاً : يدخلهم الله النار في طاعتنا أحب السى من ان يدخلهم
 الجنة بمعصيتنا ! ... (١) . فالميزان ما هو الدين اذن ولكنه الطاعة !
 وهكذا فقد استخدم المنصور زنادقة المانوية في دولته كتاباً وعمالاً
 للخراج وأطباء في البلاد . يذكرون أن خصياً النصراني طبيبه الخاص
 كان « يظهر النصرانية وهو زنديق معطل لا يبالي من قتل ... » (٢) وأن
 يزيد بن الفيض كاتبه كان مانوياً . وقد أقر بذلك - فيما ذكر - حين
 قبض عليه المهدي فيما بعد سنة ١٦٧ فهرب من السجن (٣) . ولم يعف
 عنه الرشيد فيما بعد وكان من مقربي البلاط عند المنصور صالح بن عبد
 القدوس ومطيع بن إياس وهما من كبار المتهمين . ولم يكن المنصور
 يأبه للزندقة والمجون أن يكثرا بل أهمه مرة أن يستخدم سمعتهم السيئة
 في تحطيم سمعة ابن أخيه أبي العباس لئلا يطالب بالخلافة . ذكر الطبري
 أن أبا جعفر وجه مع محمد بن أبي العباس بالزندقة والمجان فكان فيهم
 حماد عجرد فأقاموا معه بالبصرة يظهر منهم المجون وإنما أراد بذلك أن
 ييغضه للناس ... » (٤) .

-
- (١) الطبري ج ٧ ص ٥٠٧ (١٣٢/٣) .
 (٢) الطبري ج ٨ ص ٨٦ (٤٢٣/٣) .
 (٣) الطبري ج ٨ ص ١٦٥ (٥٢٠/٣) .
 (٤) الطبري ج ٨ ص ٨٦ (٤٢٢/٣) .

وقد قتل والي البصرة عبد الكريم بن أبي العوجاء على الزندقة فلم يكن هم المنصور لماذا قتل ؟ ولكن كيف يقتل وهو لا يدري ؟ قال : « يقدم على رجل يقتله من غير أن يطلع على رأيي فيه ولا ينتظر أمري ... » فلما قال له أحد أقربائه إنما قتل الرجل على الزندقة ولئن عزلت (الوالي) ليذهبن بالثناء والذكر وترجعن القالة من العامة عليك ! خاف ذلك وعاد عن عزله (١) .

وجيء الى المنصور برجل من الشام هو محمد بن سعيد الشامي المصلوب قالوا : « إنه من الزنادقة ... الذين وضعوا أحاديث وحدثوا بها ليوقعوا بذلك الشك في قلوب الناس ... وكان يدعو للالحاد والزندقة ... » وكل ما أهم أبا جعفر منه أنه من عرب الأردن والشام الذين لا بد من تأديبهم فقتله على الزندقة (٢) مصلوباً سنة ١٥٠ .

هذا في الوقت الذي كان فيه أهل السنة والجماعة عامة يرفضون حتى الكلام في القدر وقد كان الفقيه المعروف ثور بن يزيد الكلاعي يحدث بذلك في حمص بالشام فثار عليه سكان المدينة وأخرجوه منفياً من مدينتهم وأحرقوا داره سنة ١٥٠ (٣) .

والمشكلة الكبيرة الوحيدة التي سجل فيها وقوف المنصور ضد

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٨ (٣/٣٧٦ - ٣٧٧) .

(٢) انظر تفسير القرطبي ج ١ ص ٧٦ وابن حجر ، تهذيب ج ٩ ص ١٨٦ وانظر الصلاح الصفدي الوافي ج ٣ ص ٩٥ وقد عرفه المؤرخون بالمصلوب وجعلوه تارة الدمشقي وتارة القرشي وثالثة الطبري وذلك حسب قول الصفدي كي لا يعرف ! ...

(٣) ابن عساكر . تاريخ دمشق (التهذيب) ج ٣ ص ٣٨٤ .

الزندقة هي قصة ابن المقفع ولكن ما من أحد من المؤرخين صدق أن مقتل هذا الرجل كان غضباً للدين وحده . ومن المعروف أن ابن المقفع عمل واشتهر وأصبح من الكتاب البارزين في أواخر العهد الأموي ثم في أوائل العصر العباسي وهو ما يزال على دينه الأول لم يتركه حتى في الليلة التي أزمع فيها على الاسلام لأنه - على حد قوله - «كره أن يبيت على غير دين» . وهذا الدين هو المانوية في الغالب ، أو على الأقل هو المجوسية الزرادشتية . وحين غير دينه بدل اسمه من روزبه بن داؤويه الى عبدالله وأعطي ابنه اسم محمد أيضاً .

وثقافة ابن المقفع لا تكشف عنها بلاغته الممتازة فقط ولكن الكتب التي ألفها أو ترجمها أيضاً والتي دخلت التراث العربي فهي جزء منه الى اليوم مثل كيلة ودمنة والأدب الكبير والأدب الصغير كما تكشف (رسالة الصحابة) التي كتبها عن بصر سياسي اداري نافذ وعن اطلاع واسع على أمور الدولة يجعل من تلك الرسالة وثيقة من وثائق عهد المنصور .

وقد عمل ابن المقفع أولاً لدى يزيد بن هيرة والي العراق في آخر العهد الأموي ثم لدى أخيه داود ثم اتصل بعيسى بن علي بن عبد الله العباسي ، عم أبي العباس والمنصور ، فصار كاتباً عنده وأسلم على يديه وقد طلب منه عيسى أن يكتب أماناً لأخيه عبد الله بن علي بعد فشل ثورته يوقعه الخليفة المنصور فلا يجد فيه منفذاً لنقض ولا حيلة لقتل عبد الله . وأفرط ابن المقفع في التحوط لهذا الأمان للدرجة التي أحفظت المنصور . . . فأوعز بقتله . فقتله والي البصرة سنة ١٤٢ أو سنة ١٤٣ أو سنة ١٤٥ وهو بعد في حوالي الأربعين . . . والجاحظ يكشف سبباً آخر لمصرعه هو إن ابن المقفع أغرى عبد الله بن علي بالمنصور ففطن له . . .

فقتل^(١) والنتيجة واحدة هي أن سبب القتل لا علاقة له بالزندقة ولكنه في الأصل سياسي وإنما استخدم المنصور تهمة الزندقة ستاراً للقتل .

ويبدو أن مصرع ابن المقفع كان ذا أصداء بعيدة في العصر كله ، لفارسيته وبلاغته وأخلاقه الكريمة ولأنه من طبقة الكتاب التي تمسك الدولة في تلك الفترة ولأنه أخيراً قتل مظلوماً !

وهذا هو السبب . في التأكيد المتصل ، على زندقته مع تمادي مرور السنوات الطويلة على مقتله ولقد كان الرجل مجوسياً أو مانوياً لا يخفي عقيدته ولقد يكون قد ساهم - أيام مجوسيته أو مانويته - في النشاط الديني لجماعته وساهم بقلمه وماله وليس في ذلك عليه من مأخذ ولم يكن ذلك محرماً في عصره عليه أو على غيره ومع ذلك نجد أنه يتهم مع الأيام بأنه «رأس الزندقة» ونجد أنه يظهر بعد قرن من مقتله من يؤلف كتاباً في «الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع»^(٢) .

وإذا صدقنا ما في الكتاب كان ابن المقفع مانوياً ولكن ثمة الكثير من الشك^(٣) حول النصوص التي أوردها صاحبه على لسان ابن المقفع

(١) الجاحظ - ثلاث رسائل ص ٤٧

(٢) نشرت هذا الكتاب مؤسسة كايثاني سنة ١٩٢٧ بتحقيق المستشرق ميكائيل غويدي بعنوان : « كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع عليه لعنة الله للقاسم بن ابراهيم عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم » . وصاحب الكتاب علوي النسب ويعرف باسم قاسم الرسي توفي سنة ٢٤٦ من نسل اسماعيل الديباج الحسني .

(٣) يقبل المستشرق غابرييلي الكتاب ويستنتج منه زندقة ابن المقفع

كما أن التهمة التي تلتصق بابن المقفع من أنه عارض القرآن يبدو أنها تستند الى كتاب الدرة اليتيمة وهو قسمان وضع ابن المقفع في الأول حكماً منقولة عن حكماء كل أمة مذكورة وفي الثاني شيئاً من الديانات « وقد تهوس فيه »^(١) ... ولا شيء غير ذلك .

ويبدو أن لجوء الكثير من الزنادقة ، بعد ابن المقفع ، الى بلاغته وكتبه وحفظ الكتاب الفرس لأدبه ، وما في ذلك الأدب من آراء عقلية قريبة من الفكر المانوي الزارادشتي ثم اتصال المعركة ضد الزندقة من قبل رجال السنة والشيعة وأهل الدين وأهل الكلام سنوات طويلة جداً ، كل ذلك جعل من ابن المقفع زعيماً من زعماء الصراع ولو بعد موته . وأعطي المنصور دون أن يدري أو يريد التغطية اللازمة لمقتله . وهي التغطية التي خشي أن يفقدها عند العامة يوم قتل ابن أبي العوجاء .

في المرحلة الثانية : يذكرون ان المنصور أوصى ابنه المهدي بين ما أوصاه في وصيته الأخيرة قال :

« ... ودين الله القيم فاحفظه وحطه وصنه و... وأوقع بالملحدين فيه واقمع المارقين منه واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم والمثلات بهم ... »^(٢) .

وإن لم يعتبرها السبب في قتله بينما يرفض أحمد أمين نسبة الكتاب نفسه الى قاسم الرسي ونسبة ما فيه من الكلام الى ابن المقفع (انظر ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٢٣ فما بعد) .

(١) انظر الباقلائي - اعجاز القرآن (على هامش الاتقان للسيوطي)

ج ١ ص ٤٩-٥٠ (طبعة القاهرة سنة ١٣١٨) .

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٠٥ (٤٤٧/٣)

ويبدو - بصرف النظر عن صحة الوصية - أن المهدي لم يكن بحاجة إليها كي يتخذ موقفه الصارم القاسي من الزندقة ، وهو الموقف الذي طبع العصر العباسي الأول بصفة خاصة لم تفارقه بعد ذلك ولقد كان من أسباب تلك الحرب التي أعلنها المهدي على الزندقة :

أ - ما اقتنع المهدي نفسه به وحاول إقناع الناس أيضا به من أنه «مهدي» الله وأنه الذي جاء يملؤها عدلا كما ملئت جوراً • ولم يظهر الطابع الاسلامي في واجبات الخليفة في عهد أحد من الخلفاء بعد العهد الراشد وباستثناء عهد عمر بن عبد العزيز ، كما ظهرت في عهد المهدي الذي اعتبر نفسه مسؤولا عن الاسلام ونشره ودعمه بالحج والجهاد والدعوة ومسؤولا أكثر من ذلك عن حمايته فمكافحة الزندقة إذن جزء من سياسته الكلية ينسجم كل الانسجام معها ، وامتص لها • وقد رمز المهدي نفسه الى مهمته الدينية هذه حين قال لابنه : «... اني رأيت جدك العباس في المنام قلدني سيفه وأمرني بقتل أصحاب الاثني»^(١) •

ب - تزايد النقرة العامة على انتشار المجون والزندقة • العلنية وضيق أهل الدين من مختلف الفرق الدينية بذلك • واحتدام المقاومة الدينية والاجتماعية والثقافية لهذا التيار المهدد • يقول المسعودي : ان المهدي أمعن في قتل الملحدين لظهورهم في أيامه واعلانهم باعتقادهم في خلافته «...» •

ج - نشاط المانوية خاصة ، دفاعاً عن نفسها ، لكافة الغزو

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٢٠ (٣/٥٨٨)

الاسلامي الفتي ينسل منها أتباعها ويحولهم الى الاسلام . إن ردود الفعل كانت على ما يبدو - واسعة خطرة حتى على الدولة نفسها . وإذا كان تقلص أنصار الزندقة عامة بالاسلام يضعف من قوة نظامها الديني فإنه كان يحرم جماعة هذا النظام من موارد خطيرة يمكن أن تعرف فكرة عنها . إذا عرفنا أن بيوت النار كانت حتى في نهاية القرن الثالث الهجري (أي بعد قرن ونصف من الفترة التي تكلم عنها) «كثيرة جداً ويعجز علمها من سوى الديوان إذ ليس من بلد ولا ناحية ولا رستاق إلا وبها عدد كثير من بيوت النيران» وبعضها بلغت تكاليف بنائه كما هو منقوش على بابه ثلاثين مليون درهم^(١) وكادت نفقة بيت النار في المدائن بالعراق «ضعف خراج فارس» أي كورة فارس كلها مرتين^(٢) وإذا لم تكن هذه البيوت كلها للمانوية وكان الكثير منها للمجوسية والمزدكية فلا شك على أي حال في أنها تشكل نسبة واضحة منها .

فلم يكن غريباً إذن أن يجد انتشار الاسلام مقاومة فعالة نشيطة من قبل مؤسسات الزندقة وكهاتها وأن تكون هذه المقاومة من القوة بحيث يحتاج الرد عليها الى دعم حكومي وإلى قوة السلطة لحرمانها على الأقل من حرية الحركة ومن الهجوم العلني لا سيما بعد أن «كثرت الزنادقة - على قول اليعقوبي - وفشت كتبهم في الناس . . . وملاؤا الأرض من كتب الملحدين . . .»^(٣) وبعد « . . . ما انتشر على ما روي المسعودي - من كتب ماني وابن ديسان ومريقيون مما ثقله عبد الله بن

(١) انظر ابن حوقل - صورة الارض ص ٢٤٢

(٢) انظر ابن رسته - الاعلاق النفيسة ص ١٨٦

(٣) اليعقوبي - مشاكلة الناس ص ٢٤

المقنع وترجمه من الفارسية والفهلوية الى العربية وما صنف في ذلك ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المانوية والديسانية والمرقيونية فكثرت بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس...»^(١) .

وعلى أي حال فقد اجتمعت أسباب عدة لتجعل من المهدي ، في تلك الفترة ، صاحب المعركة مع الزنادقة . وهو لم يبدأها منذ أول عهده وأول أخبارها تطل علينا منذ سنة ١٦٣ في قتل المهدي لابن وزيره أبي عبيد الله بن معاوية وفي قتله الزنادقة بمنطقة حلب^(٢) وهذا يعني أن المهدي ما انتهى الى قراره إلا بعد سنوات على الأقل من حكمه قد تكون خمساً . ويبدو أيضاً أنه في الفترة الأولى ما بين سنة ١٦٣ - ١٦٧ اكتفى بالملاحقة العادية التي يقوم بها المحتسبون في المدن المختلفة ومنهم عبد الجبار المحتسب الذي رافق المهدي الى حلب . لكن هذه الملاحقة لم تكن من الاصرار بحيث تجعل عهده يختلف في كثير أو قليل عن عهد أبيه المنصور في ذلك ، وأهم ما نعرفه من مطاردة الزنادقة في هذه الفترة الأولى هي ما يروون من أن المهدي لما نزل حلب سنة ١٦٣ بعث عبد الجبار المحتسب لجلب من بتلك الناحية من الزنادقة .. فأتاه بهم وهو بدابق فقتل جماعة منهم وصلبهم وأتى بكتب من كتبهم . فقطعت بالسكاكين...»^(٣) .

فهل هؤلاء الزنادقة هم بقية تلك الشيعة الراوندية التي كانت

(١) المسعودي ج ٢ ص ٤٠١

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٤٨ (٣/٤٩٩)

(٣) الطبري - المصدر نفسه .

تحاول أن تظهر سنة ١٤١ وأتى على ذكرها بعض المؤرخين^(١) أم هم جماعة الصابئة الذين سوف يلتقي بهم المأمون بعد فترة من الوقت في حران؟ أم هم جماعات أخرى؟

وتغير الأمر منذ سنة ١٦٧ إذ بلغت حرب الزنادقة أوجها واستمرت بعد ذلك أربع سنوات استغرقت ما بقي من عهد المهدي مع أيام ابنه الهادي . وفي هذه الفترة تغير موقف المهدي نفسه من هذه الحرب وإن كنا لا ندري بالضبط السبب الذي دعا إلى ذلك التغير ، «وجد المهدي في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم»^(٢) .

أولاً : انشأ المهدي دائرة تعنى بالبحث عن الزنادقة والقبض عليهم بكل مكان ومحاكمتهم أي تحول الأمر الإداري الذي كان أصدره إلى نوع من الإضافة على النظام الإداري للدولة إذ أوجد «ديواناً» خاصاً مركزياً لحرب الزنادقة جعله أحد أجهزة الدولة الأساسية بمعنى أنه اعتبر هذا العمل جزءاً أساسياً من مهام النظام الإسلامي وأعمال الخليفة : كالامن والمظالم والقضاء .

وأقام على رأس الديوان موظفاً سمي بصاحب الزنادقة أو عريف الزنادقة وقد توالى على الرئاسة فيه خلال ثلاث سنوات رؤساء - فيما وصلنا - على الأقل هم : عمر الكلواذي^(٣) أول من تولى هذا العمل

(١) انظر ابن العديم - زبدة الحلب ج ١ ص ٥٩ وأبو زكريا الأزدي - تاريخ الموصل ص ١٧٣

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٦٥ (٣/٥٢٠)

(٣) الطبري ج ٨ ص ١٥٦ (٣/٥٢٠)

عقب إحدائه سنة ١٦٧ فلما مات في السنة التالية • خلفه فيه حمدويه محمد بن عيسى الميساني الذي وجه همه - على ما يظهر - لاستئصال زنادقة بغداد بالذات • ثم نزل مع المهدي الى البصرة فضرب هناك بشار ابن برد ضرب التلف^(١) وجاء بعد ذلك صاحب ثالث للزنادقة اسمه عبد الجبار يأتي ذكره مع بشار أيضا^(٢) وعلى أي حال فقد كان عمل هذا الديوان يجري تحت الاشراف المباشر من الخليفة الذي كان كثيرا ما يتولى المكافحة بنفسه ، في أي مكان حل فيه : سواء في العاصمة بغداد أو في البصرة أو مكة أو حلب • وكان من المفترض على ما يبدو أن يكون المحتسبون ، حيثما وجدوا ، ممثلين لصاحب الزنادقة في مدتهم ورجال الشرط معهم بينما يعمل صاحب الخبر (وهو المكلف بمراقبة الاحوال العامة من قبل الخليفة) على كشف الزنادقة وأعمالهم وحركاتهم •• ويخضع من يقبض عليه بالتهمة الى نوع من المحاكمة حتى إذا أقر أو ثبتت عليه الزنادقة بالامتحان أو بالشهادة عرضت عليه التوبة فإن أبي كان القتل هو الجزاء •••

ثانياً : وأنشأ المهدي بالمقابل هيئة علمية لمناظرة الزنادقة وتأليف الكتب في الرد عليهم وكشف مراميهم • ويذكر المؤرخون أن المهدي أمر بكتابة اسماء الفرق الزائفة عن الدين من «أصحاب الأهواء» ليعرفوا في الناس ويتصيدهم القصاص من كل جهة^(٣) كما جاء بالمتكلمين فأمرهم أن يضعوا الكتب على أهل الإلحاد وكان أول خليفة أمر بذلك^(٤)

(١) الطبري ج ٨ ص ١٦٧ (٣/٥٢٢)

(٢) الأغاني ج ٣ ص ٧٣

(٣) الكشي - الرجال ص ٢٢٧

(٤) اليعقوبي - مشاكلة الناس ص ٢٤ والمسعودي - مروج الذهب

ج ٢ ص ٤٠١ •

لازالة الشبهات التي روج لها المانوية والشكاك .

كان من حصاد هذه المعركة خلال أيام المهدي أن قتل الكثيرون . وأن عادت الزندقة دون شك إلى مواقعها . وانحسرت موجة الدعوة لها والجدل مع أصحابها أو على الأقل التظاهر بأمرها . في اقليم العراق خاصة . وإذا كنا واثقين من أن المهدي كتب الى الولاية في الأمصار بمطاردة ما يطارده هو من الزندقة . وإذا ترشحت لنا أخبار عن زنادقة قبضوا بمكة أو بالشام والجزيرة بجانب زنادقة بغداد والكوفة والبصرة فمن المشكوك به جداً أن يكون المهدي قد طبق أوامره في ايران بالشدة التي نفذها فيها بالعراق ولعلها لم تطبق هناك أصلاً . فإننا لم نسمع عن عقوبة على الزندقة جرت هناك والاسباب في ذلك واضحة هي أن الزارادشتية لم تكن موضوع الاضطهاد كما أنها كانت تنظر بعين الرضى الى مكافحة المانوية . وأصحابها هم زنادقة في نظرها أيضاً . عدا أن المانوية لا تشكل خطراً على الاسلام في ايران .

ولا بد هنا من تسجيل أمر هام آخر هو أن المكافحة للزندقة شملت «الأشخاص» ولم تشمل المؤسسة الدينية نفسها بكهانها ومعابدها فلم نسمع عن قتل رئيس المانوية أو اضطهاد كهانها أو هدم معابدها مع أنهم في متناول أيدي السلطة العباسية سواء في بابل بجانب بغداد أو في محددین لهم صفة محددة دعت الى أن يتناولهم العقاب والمطاردة الى مجزرة دموية واسعة دون شك ولكنها كانت محصورة في أشخاص محددین لهم صفة محددة دعت الى أن يتناولهم العقاب والمطاردة والصلب هم على التحديد : من يظهرون الاسلام ويطنون الزندقة ويعملون على نشرها ونصرتها . على حساب العقيدة الاسلامية .

وما من شك ، من جهة ثالثة في أن بعض من قبض وعوقب لم تظلمه
التهمة ولكننا نجد أن ثمة جماعة أخرى إنما لفقت عليها • فقتلت لأسباب
لا علاقة لها بالدين وحمائته • وقد عملت على الايقاع بها عوامل فيها
العداء الشخصي وفيها الميول العلوية •

وهكذا فيما بين صدق التهمة والكذب فيها كان من قتلى الزندقة
أيام المهدي مثلاً :

— عبد الله ابن وزير المهدي معاوية بن عبيد الله ، ويقولون : إن
الربيع بن يونس نقم على الوزير إبعاده عن الخليفة ولما لم يجد من مطعن
عليه أوغر صدر المهدي على ابنه المعروف بالزندقة واتهمه ببعض حرم
المهدي فصرف الخليفة وزيره سنة ١٦٣ وجعله على ديوان الرسائل وهرب
الابن فما زال مطارداً حتى سعى به رجل يعرف بابن شبابة سنة ١٦٦
فقبض عليه وسيق الى المهدي • وجيء بأبيه فسأله المهدي : ألسنت قلت
إنك علمته القرآن ؟ فإذا به لا يحسن قراءة الآيات وتقول رواية
الجهشياري إنه قرأ بدلاً من ذلك : «تباركت وعالموك بعظم الخلق !»
«فلما سئل أزنديق أنت قال نعم ومن يعتقد الزندقة قوم يرون ... أن
التقية غير جائزة وقد دل هذا على أنه منهم» فقال المهدي لأبيه : قم
فتقرب الى الله بدمه ... وعجز الشيخ بالطبع • وقتل الابن رغم طلبه
التوبة ... ثم مازال الربيع بن يونس يعمل حتى أبعد الأب سنة ١٦٨ عن

(١) انظر تفصيل القصة لدى الجهشياري — الوزراء والكتاب
ص ١٥١-١٥٤ ولدى الطبري ج ٨ ص ١٣٨-١٣٩ (٤٨٩/٣-٩٤٠) وهو
يسميه تارة عبد الله وتارة بمحمد (انظر ج ٨ ص ١٦٣ من الطبري) . وانظر
كذلك القصة في الاغانى واليعقوبي (ج ٢ ص ٤٠٠) يسمى الابن باسم صالح .

ديوان الرسائل بأن فاجأه بعرض بعض الأوراق على المهدي فقال : يا أمير المؤمنين إني لا آمنه عليك وقد قتلت ابنه !! والعنصر الشخصي في القضية واضح سواء من ناحية المهدي أو من ناحية الريع ولكنها في الوقت نفسه تكشف مدى تأثير بعض أبناء الدولة بأفكار الزندقة .

— وكان منهم صالح بن عبد القدوس الشاعر العصري . وقد جرى به الى المهدي بالتهمة وحاكمه بأن شعره ظاهره فيه الحكمة والفضيلة وباطنه فيه الثنوية والزندقة وقد طلب صالح التوبة . فقبل منه التوبة ولكنه قبل أن يخرج سأله : ألسنت أنت القائل :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه ؟

قال : بلى ! قال فكذلك أنت لا تدع أخلاقك حتى تموت وأمر بقتله^(١)

— وأما مطيع بن إلياس فقد اتهم بالزندقة منذ عهد المنصور «رفع صاحب الخبر الى المنصور أنه زنديق وأنه يعاشر جعفرأ ابن الخليفة ويوشك أن يفسد دينه . . . » وتدخل المهدي في الأمر قال : أما الزندقة فليس من أهلها ولكنه خبيث الدين فاسق مستحل للمحارم . وبعث إليه فهدده فقط ليرجع عن إباحيته وولاه عملا في البصرة . ذلك أن المهدي كما ذكر صاحب الاغاني كان «يشكر له قيامه في الخطباء ووضعه

(١) السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٣٧٤-٢٧٥ ، وانظر كذلك الاغاني ج ٣ ص ٤٦ فما بعد والجاحظ - البيان والتبين ج ١ ص ٢٠٦ والخطيب البغدادي تاريخ بغداد ج ٩ ص ٣٠٣ .

الحديث لأبيه (المنصور) في أنه المهدي» !! ولم يقربه المهدي بعد ذلك بالمطاردة ثم يتبين في زمن الرشيد بعد ذلك وباعتراف بنت مطيع نفسه أنه كان يؤلف كتب الزندقة ويدرسها لابنته وقالت : هذا دين علمنيه أبي ! ... وقد ثبت عنه !»^(١)

— وأما بشار بن برد فقد ضج منه المحدثون ورجال الدين في البصرة ومن شعره الاباحي فلم يزد المهدي على أن منعه من الغزل . ثم جاء الخليفة البصرة فقبض عليه وسلمه الى صاحب الزنادقة فما زال يضربه ضرب التلف حتى قضى ... والسبب لم يكن الزندقة التي اشتهر بها الشاعر ولكن بيتين من الهجاء المقذع في الخليفة أوصلهما يعقوب بن داوود إليه ! ...

وهذه الأمثلة تكفي لبيان الاسلوب الذي طبقت فيه مكافحة الزنادقة على بعض الأسماء البارزة وقد نضيف إليها مثال :

— علي بن صالح بن حي الذي تعتبره بعض الروايات رأساً في الزندقة وكان ذنبه أنه علوي الهوى .

ولن نعرض للأمثلة أخرى من مثل يزيد بن الفيض ، كاتب المنصور، الذي أقر بالزندقة سنة ١٦٧ ثم فر من السجن ولأبي عيسى الوراق الذي اتهم بسبب علويته ولمجموعة داوود بن روح ابن حاتم واسماعيل بن سليمان ومحمد بن أبي أيوب المكي ومحمد بن طيفور الذين أقروا بالزندقة فاستتابهم المهدي وخلي سبيلهم وبعث بداوود بن روح الى أبيه

(١) الأغاني - ج ١٢ ص ٨٥ وص ٩٦

والي البصرة كي يؤدبه^(١) . . . ولا نعرض كذلك لزندقة آدم حفيد عمر
ابن عبد العزيز و ابراهيم بن سيابة الشاعرين اللذين كانت زندقتهما خلاعة
ومجونا وتطرفاً دون جذور . وإنما نقف عند مثال خاص غريب هو :

— زندقة بعض الهاشميين : فقد قبض المهدي على أحد أبناء داوود.
ابن علي العباس كما قبض على يعقوب بن الفضل أحد أحفاد الحارث.
ابن عبد المطلب . وأقر كل منهما بالزندقة فلم يتمالك المهدي أن يقول
لكل منهما : لو كشفت السماوات وكان الامر كما تقول كنت حقيقاً أن.
تغضب لمحمد . ولولا محمد صلى الله عليه وسلم من كنت ؟ هل كنت
إلا إنساناً من الناس ؟ أما والله لولا أني جعلت الله عهداً إذا ولاني هذا
الامر ألا أقتل هاشمياً لما ناظرتك ولقتلتك ! . . . وسجن المهدي الاثنين .
بعد أن أقسم على ابنه الهادي إن هو ولي الامر من بعده ألا ينتظر
منهما ساعة واحدة وقد توفي العباسي في السجن . أما يعقوب المطلبى فما
إن وصل الهادي من جرجان ، بعد وفاة أبيه حتى أرسل من ألقى عليه
لحافاً وأقعد عليه الرجال حتى خنقه . . . وبقية الحكاية غريب إذ أن
زوجة يعقوب وابنته حملتا أيضاً الى المهدي فجاءتا بالخضاب والكحل
والسرور وأقرتا بالزندقة كما أقرت الابنة أنها حامل من أبيها فلما
اشتدت عليها ربطة بنت أبي العباس بالتنديد قالت إنها كانت مكرهة . .
وقد ماتت الاثنتان من الرعب^(٢) وقد يدل هذا على مدى ما استطاعت
المانوية — التي تحل الزواج بالبنات — النفوذ إليه من طبقات الناس
إذ ذاك ومدى نشاطها في الدعوة !

(١) الطبري ج ٨ ص ١٦٠ (٣/٥١٧)

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٩٠-١٩١ (٣/٥٣٩-٥٥١)

ولم تنته أيام الشدة على الزنادقة بوفاة المهدي فإن الهادي تابعها كانت السنة التي حكمها استمراراً لعهد أبيه الذي كان أوصاه : «يا بني ، صار إليك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة فإنها فرقة تدعو الناس إلى هر حسن كاجتناب الفواحش والزهد ...» ثم تخرجها إلى عبادة ين ...» فارتفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرّب بأمرها إلى الله شريك له فإني رأيت جدك العباس في المنام قلدني سيفين وأمرني بقتل سحاب الاثنين» وقد «اشتد الهادي في طلب الزنادقة فقتل منهم جماعة كان ممن قتل : يزدان بن بادان» كاتب أحد رجال البلاط علي بن طين . سمعوه يقول وقد نظر إلى الناس في الحج يهرولون : كأنهم ر تدوس في البيدر فبعث أحد الشعراء إلى الخليفة يقول :

أيا أمين الله في خلقه	ووارث الكعبة والمنبر
ماذا ترى في رجل كافر	يشبه الكعبة بالبيدر
ويجعل الناس إذا ماسعوا	حسراً تدوس البر والدوسر؟

فقتله الهادي وصلبه في الحجيج بسكة^(١) ...

وقال الهادي بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر : أما والله لئن ست لأقتلن هذه الفرق كلها حتى لا أترك منها عيناً تطرف . ويقال إنه ر ان يهياً له ألف جذع (خشبة صلب) فقال : هذا في شهر كذا ... مات بعد شهرين !^(٢) .

وأما المرحلة الثالثة بعد ذلك : فقد بدأت مع بدء عهد الرشيد الذي

(١) الطبري ج ٨ ص ١٩٠ (٣/٥٤٩)

(٢) الطبري ج ٨ ص ٢٢٠ (٣/٥٨٨)

سلم الأمور كلها ، حين استخلف ، ليحيى بن خالد البرمكي • ولم تكن ملاحقة الزنادقة من هموم يحيى ولا من خطته السياسية • فتراخت القبضة الشديدة التي كانت تمسك بهذه القضية وإن ظل أثر السنوات الأربع السابقة (١٦٦ — ١٧٠) واضحاً في أذهان الناس زمناً طويلاً بعد ذلك وظلت تهمة الزندقة إحدى التهم التي تؤدي إلى القتل لا سيما إن كان السبب في الاتهام بها سياسياً •••

لم يكن باستطاعة الرشيد أن يعود فجأة عن ملاحقة الزنادقة فقد أصبح ذلك مطلباً شعبياً إسلامياً يقوم من ورائه رجال الدين بالتأييد والتشجيع ولهذا جاء الأمان الذي أعلنه الرشيد سنة ١٧٠ بمناسبة خلافته لمن كان هارباً أو مستخفياً من أعداء الدولة وهو يستثنى نفرأ من الزنادقة منهم يونس بن أبي فروة الذي اختفى في الكوفة حتى هلك ويزيد بن الفيض^(١) • وإذا كان يزيد قد هرب من السجن فإن ابن أبي فروة كتب فيما يذكرون رسالة في مثالب العرب وعيوب الإسلام وأرسلها إلى امبراطور الروم •••

ثم تقضت السنوات بعد ذلك وضعفت الملاحقة ولم نعد نسمع عن «قتل» على الزندقة وإن كنا نسمع عن سجن أحياناً عليها كالذي من أمر حماد عجرد وسجنه وأمر أبي نواس وسجنه معه، وأمر القبض على ابنه مطيع بن إلياس واتهام ابان بن عبد الحميد اللاحقي الشاعر بالثنوية وقد ترجم كتاب مزدك إلى العربية وسيرة ازدشير وسيرة أنوشروان • وكتاب الصيام والاعتكاف ••• ولكنه لم يقتل •

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٣٤ (٦٠٤/٣) وانظر رسائل الجاحظ (نشر هارون) ج ٢ ص ٢٠٢

وبالرغم من أن هذه الاتهامات كانت في مجموعها كيدية ، وكانت بين الشعراء خاصة فإنها هي الظواهر الوحيدة لمكافحة الزندقة خلال فترة الرشيد وقد انتهى في أسوأ الأحوال بالسجن ... ثم العفو . ويلفت النظر منها فقط حادثان :

الأول : اتهام البرامكة - بعد النكبة - بالزندقة لتفسير الغموض الذي أحاط بأسباب النكبة ومن الواضح أنه اتهام سياسي . وبرمك كان في الأصل من أرستقراطية المجوس الزارادشتيين ، وهي الجماعة التي لم تدخل في مفهوم الزندقة ولا اشتركت بها إن لم تفرح بها . وقد جرت القافية الأصمعي فاتهمهم بالمزدكية أيضاً إذ قال :

إذا ذكر الشرك في مجلس أضاءت وجوه بني برمك
وإن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك !

وما من شك في أن البرامكة إيرانيون ولكنهم كانوا ، في الواقع قد أسلموا أحسن الإسلام حتى لم يجد أخصامهم مما يكشف زندقتههم سوى ادخال مجامر البخور الى الكعبة لتشبه في ذلك بيوت النار (١) . ولو كانوا على المجوسية لما استطاعوا الاحتفاظ بسرهم جيلين ولا نكشفت منه أشياء أخرى . وقد شملت تهمة الزندقة كذلك بعض أنصار البرامكة فدفعوا ثمن علاقتهم الودية بهؤلاء لا ثمن زندقتههم ومن هؤلاء أنس بن أبي شيخ الذي أتى به الرشيد صباح قتل جعفر البرمكي فدار بينه وبينه كلام فأخرج الرشيد سيفاً من تحت فراشه وأمر أن تضرب به عنقه . وقالوا إن صاحب الخبر قد أبلغ الرشيد أن ابن أبي شيخ على الزندقة فقتله لذلك (٢) ...

(١) الجهشيارى - الوزراء والكتاب ص ٢٥٤ .

(٢) الطبري ج ٨ ص ٢٩٧ (٣/٦٨١) .

الثاني : مصرع عمرو بن محمد العمركي : فقد خرجت المحمرة
بجرجان فكتب علي بن عيسى بن ماهان أن الذي هيج ذلك هو
العمركي . وأنه زنديق فأمر الرشيد بقتله فقتل بمرور سنة ١٨٠ .

ولم يكن تراخي المكافحة تعني التنازل عن المبدأ الذي أصبح منذ
ذلك الوقت صفة سياسية ملازمة للحكم العباسي . فإن الرشيد اعتبر
كفاح الزندقة بدوره جزءاً من مهام الامام وقد سجل في الكتاب الذي
أذاعه على الناس بمناسبة تعليق البيعة لأولياء العهد في الكعبة سنة ١٨٦
قال إن من جملة ما أخذ عليه العهد فيه : «... الجهاد لعدو المسلمين من
كانوا وحيث كانوا... وقطع طمع... كل منافق ومارق وأهل الأهواء
الضالة المضلة... وما يلتمس أعداء الله وأعداء النعيم وأعداء دينه من
الضرب بين الأمة والسعي بالفساد في الأرض والدعاء الى البدع
والضلالة...»^(١) وبالرغم من ذلك فإن ظهور أمثال أبي نواس والحسين
الخليع وسلم الخاسر وابن منذر ، شعراء المجون والإباحية والدهرية
وملازمة بعضهم للبلاط دليل على أن مكافحة الزنادقة قد توقفت عملياً
وإن بقيت كمبدأ نظري في السياسة العباسية .

ولعل عهد المأمون أن يكون الدليل الآخر على هذا التوقف فقد
تحول الموقف العباسي الرسمي على يديه من القتل الى المجاورة مع
الزنادقة ومن الاستئصال الى الجدل بالتي هي أحسن على طريقته
الكلامية . يروون أنه استقدم للمناظرة رئيس المذهب المانوي « يزدان
بخت من الري بعد أن أمنه ، وكان فصيحاً لسنا فقطعه المتكلمون فقال
له المأمون : أسلم يا يزدان بخت فلولا ما أعطيناك إياها من الأمان لكان

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٨٤ - ٢٨٥ (٢/٦٦٤ - ٦٦٥) .

لنا ولك شأن فقال له يزدانبحث : نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم فقال المأمون : اجل . وكان أنزله بناحية المحرم (من بغداد) ووكل به حفظة خوفا عليه من الغوغاء !

وهذه المعاملة التي تصل درجة الحفظ من الغوغاء تختلف بوضوح عن موقف المهدي . إنها على الأقل تعتبر المانوية عقيدة جديرة بالجدل على قدم المساواة مع العقائد ، الأخرى . وقد حرص المأمون أن يؤلف هو نفسه كتاباً في الرد عليها . على أن هذا لم يكن يعني مع ذلك أن السلطة كانت تغضي إن وقع لها بعض الزنادقة ممن يظهر الاسلام ويخفي المانوية فإن هذا النوع من الازدواج الديني الذي كان القصد منه خدعة المسلمين وفتنتهم عن الدين ظل محارباً مرفوضاً . وقد ابتكر المأمون طريقة عملية للامتحان في هذه الناحية فقد بلغه وجود بؤرة من الزندقة قوامها «عشرة من أهل البصرة يذهبون الى قول ماني ويقولون بالنور والظلمة فأمر بحملهم إليه بعد أن سموا واحداً واحداً فكان يدعوهم رجلاً رجلاً ويسألهم عن دينهم فيخبرونه بالاسلام فيمتحنهم بأن يظهر لهم صورة ماني ويأمرهم أن يتفلوا عليها ويتبرأوا منها . ويأمرهم بذبح طائر ماء وهو الدرج وقد أبوا ذلك . فقتلهم» (١) .

على أن المأمون كان قد شغل عن ملاحظة الزنادقة بملاحقة أمل آخر هو جمع كافة المسلمين على مذهب . وحين قرر حملهم جميعاً بالقوة عليه وأضحى من لا يقول به مشركاً في نظره وبدأ الاضطهاد توفي .

ثم جاءت بعد ذلك ، في عهد المعتصم ، المحاكمة الكبرى في تاريخ الزندقة : محاكمة الأفشين ، قائد جيوش المعتصم فقد كرس تلك المحاكمة

(١) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٩ .

استخدام الزندقة كتهمة سياسية ومصطلح اداري سياسي • كما
سحبت المصطلح فأطلقتته على المجوسية « الدين الأبيض » الذي كان
يعتقه الأفشين من قبل • وكشفت أخيراً أن كثيراً من المظاهر والشكليات
الدينية الزرادشتية أو غيرها كان ينتقل مع أصحابه إلى الاسلام أو يظل
معمولاً به بعد التحول إليه •

وأهم من هذا أن المحاكمة كرسست استخدام تهمة الزندقة كمصطلح
إداري سياسي للفصل في الخصومات الدينية والأدينية والسياسية •
وللخلاص من الخصوم • وإذا كان مفهوماً أن يتهم بعض أصحاب الميول
العلوية بالزندقة من امثال ابي عيسى الوراق وابن أبي العوجاء وسلم
الخاسر فإننا نجد أن حميداً بن سعيد كان وجهاً من وجوه المعتزلة فخالف
احمد بن أبي دؤاد في بعض مذهبه فأغرى المعتصم بأنه شعوبي زنديق^(١) ••

وكانت حصيلة المكافحة للزندقة في النهاية أمرين زيادة توطيد
واستقرار المذهب السني وسلطة رجال الدين والحديث في الجماعة
الاسلامية البواسعة من خلال إرهاب الزنادقة وغيرهم • ثم تحول المذاهب
الاسلامية المختلفة والعقائد المناوئة للإسلام جميعاً إلى العمل السري
وترك العلنية ولم ترجع الزندقة بعد ذلك إلى الجهر بل غلغلت في بعض
الحركات الشيعية • أما في التراث الفكري فقد تركت المعركة عدداً
واسعاً من الكبت في الرد على المخالفين للعقيدة الرسمية كما تركت ضمن
كتب الكلام والفقه والأدب وداوين الشعراء والتاريخ بقايا الكثير من
مسائلها وأفكارها ومنشوراتها الأدبية والشعرية وأخبارها •••

(١) الاغانى ج ١ ص ١٧ •

٢ - الحركات الدينية الايرانية :

لعل الزندقة إنما أخذت تلك الأبعاد والشأن التاريخي في العصر العباسي الأول لأنها اصطنعت اسلوب النشاط الخفي والتسرب السري والجدل والدعوة ونشر المجون واستهدفت بإصرار تأليب المسلمين أنفسهم على دينهم أو على الأقل تشكيكهم فيه . على أن ثمة حركات أخرى لم تكن أقل شأنًا من الناحية التاريخية وقد اصطنعت أسلوباً آخر هو الثورة والسلاح واستهدفت الخلاص من الدين الاسلامي والاحتفاظ بأديانها الأولى لنفسها في مناطقها . والفارق بين الزندقة وهذه الحركات أن الأولى ذات طبيعة هجومية وتستهدف المسلمين بأسلوب التسلل أما الثانية فدفاعية وتستهدف حفظ عقائدها باستخدام القوة المسلحة .

وإذا كان أسلوب التسلل الزندقي قد بدأ منذ أواخر العهد الأموي واستمر الى ما بعد العصر العباسي الأول فقد جرب الايرانيون (الزادشتيون منهم والمانويون والمزدكيون) أسلوب الثورة المسلحة ايضاً حتى قبل طلوع العصر العباسي وجربوه خلال عهد المنصور خاصة وفشلت حركاتهم بمختلف الاسماء التي تسمت بها ومختلف التجديدات العقائدية التي أدخلت عليها وكان آخرها بعد حركتي سنباذ واستاذ سيز سنة ١٥٠ حركة المقنع . وهذه التجديدات إنما كان السبب فيها نوع من اليقظة الدينية السياسية أصاب العقائد الايرانية والايرانيين إثر اهتزاز الحكم الأموي ثم سقوطه ونجاح الثورة العباسية بعد ان انطلقت من أرض ايرانية وأعان عليها جهود بعض الايرانيين .

وقد كان من حق حركة المقنع التي قامت بين سنة ١٥٩ - ١٦٣ أن تأخذ مكانها في عهد المهدي لأنها تقع من الناحية الزمنية في إطاره ولكنها

ألحقناها بعصر المنصور لأنها كانت ختاماً مؤقتاً لتلك السلسلة من الحركات « الملحدة » أو من حركات العقائد الايرانية التي دمغت مطالع العصر العباسي وقد جاءت من بعدها فترة من الهدنة الثورية ظهرت فيها بعض الحركات الصغرى • أما الكبرى فلم تظهر إلا بعد نصف قرن تقريباً • أما الحركات الصغرى فهي التي عرفت باسم الخرمية وأما الحركة الكبرى فهي التي حملت اسم بابك الخزمي •

١ - الخرمية (المحمرة) :

كانت كلمة « الخرمية » هي التسمية التي عرف بها أتباع مزدك ولكن الناس كانوا قد اصطالحوا على تسميتهم « بالمحمرة » كما كانوا يعرفونهم أيضاً باللقطة^(١) • وإذا كان اسم خرم آتياً من معنى الكلمة بالفارسية وهو اللذة ، لأنهم مأمورون باتباع اللذات والشهوات والمشاركة في المال والحرم والأهل فإن اسم المحمرة قد يكون في الأصل من استعمال ملابس الحمرة •

وكان غرب ايران وغربها الشمالي (على سفوح جبال زاغروس وجبال البورز) هي أعشاش الخرمية في مثلث جرجان الأهواز تبريز كانوا يملأون «نواحي الجبال فيما بين اذربيجان وارمينية وبلاد الديلم الى همذان ودينور ... وفيما بين اصفهان وبلاد الأهواز»^(٢) كما كانت لهم مناطق جرجان • وقد تابعوا بدورهم سلسلة حركاتهم بعدد من الثورات التي امتدت ما بين عهد المهدي حتى عهد المعتصم •

— ثار المحمرة سنة ١٦٢ في جرجان • شجعتهم دون شك ثورة المقتنع وإن كانت في أواخرها آنذاك كما شجعتهم ثورة يوسف البرم في

(١) و(٢) انظر ابن النديم - الفهرست ص ٣٤٣ •

سجستان • تزعم الثورة رجل يحمل اسماً مسلماً هو عبد القهار وقد لا يكون الاسم دليلاً على اسلامه ولكن على التأثير الثقافي العربي في المنطقة أو على رجل ارتد لدين آبائه • واستطاع عبد القهار أن يسيطر على الاقليم كله مما يكشف مدى الاستعداد الكامن في الاقليم للثورة • وهو استعداد ديني من جهة ولكنه دون شك اقتصادي من جهة أخرى وقد يكون استهدف الخلاص من الخراج والجزية • وانهزم والي جرجان المهلهل بن صفوان أمام الثائرين الذين قتلوا بشراً كثيراً من المسلمين وسيطروا على المنطقة ••• ولعل من أدلة تشبع هذه المنطقة بالتدمر أن جماعة خرمية أخرى كانت قد ثارت بدورها بعد أن التفت حول زعيم ادعى انه ابن أبي مسلم ويسميه أتباعه أبا غرة • وكانوا بقية الجماعة الخرمية المسلمية بعد سحق حركاتها الأولى فالتقت الثورتان وتحالفتا وسارت المقاتلة منهما إلى الري •

وأمر المهدي واليه على طبرستان عمر بن العلاء أن يتحرك لإيقافهم واستطاع الجيش العباسي هزيمة الثائرين وقتل عبد القهار وأصحابه سنة ١٦٣^(١) وبقي ابن العلاء والياً على جرجان سنة ريثما أقر النظام فيها وتبع جذور الثورة بالمطاردة ثم أعيد إلى طبرستان^(٢) • التي كانت طلائع الثورة قد بدأت فيها بدورها سنة ١٦٤ •

— وانتقلت الحركة الثورية بعد ذلك إلى أصفهان سنة ١٦٧ والتحق بالثورة أعداد من الفقراء والمعدمين مما يدل على الطابع الاشتراكي الذي اتخذته في هذه المنطقة والآمال التي وعدت بها المحرومين ولكن القوى

(١) انظر الطبري ج ٨ ص ١٤٣ (٤٩٣/٣) •

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٤٨ (٥٠٠/٣) •

العباسية استطاعت ان تقضي بسهولة عليهم لافتقارهم الى السلاح والقيادة والقوت •

— وعادت الثورة كرة أخرى الى جرجان بعد همود عشرين سنة فثارت المحمرة^(١) هناك سنة ١٨٠ « وكتب علي بن عيسى بن ماهان — وكان جديد الوصول الى ولاية خراسان — إن الذي هيج ذلك عليه هو عمرو بن محمد العمركي • واسم الرجل يدل على إسلامه • وإذا لم تكن تهمته سياسية بغية التخلص منه فإنه يكشف عن ظاهرة عرفت لدى بعض الايرانيين في تلك الفترة وهي الارتداد عن الاسلام الى دين الآباء • وعلى أي حال فقد «أمر الرشيد بقتله فقتل بمر» على أن وقوعه في أيدي الوالي العباسي لا يعني أن الجيش قد انتصر نصراً حاسماً على الثورة أو استطاع إخمادها بقتل من اتهم بزعامتها فقد عمت في السنة التالية البلاد سنة ١٨٢ و«غلبت المحمرة على جرجان»^(٢) كما يقول الطبري ... ولعل لهذه الثورة العارمة علاقة بقضية الفضل البرمكي الذي كان والي خراسان كلها قبل ذلك وبالركائز التي أقامها لنفسه ولأسرته هناك وبالجيش الذي نظمه في حوالي نصف مليون رجل ثم جاء ابن ماهان — بالاتفاق مع الرشيد — يدمر كل ذلك ويفرقه • ويبدو أن الوالي الجديد استطاع في النهاية أن يسيطر على الموقف في جرجان كما في غيرها • وينهي الثورة النهاية التي عرفت ثورتها السابقة سنة ١٦٠ — ١٦٢ •

ويظهر أن اندحار هذه الثورات المتتالية وهزيمة ثورات طبرستان معها قد دعا المحمرة إلى إعادة النظر في وضعهم والعمل الجدي في اتجاهين :

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٦٦ (٣/٦٤٥) •

(٢) الطبري ج ٨ ص ٢٦٨ (٣/٦٤٦) •

الأول : تجديد الفكر المزدكي بالعودة الى منابعه وإحياء مبادئه الأولى وكان الرمز الدال على ذلك أن الناس - والمؤرخين معهم - لن يستعملوا لهذه الجماعة اسم المحمرة بعد الآن ولكنهم سيستعملون لهم الاسم القديم التقليدي : الخرمية •

* الثاني : بذل جهد دعائي منظم - وربما وضع له جماعته وتنظيمه في السر - ليس للوقوف فقط في وجه التسرب الاسلامي الى الخرمية وكسبه أتباعها ولكن لإعادة من أسلم من هؤلاء الى دين آبائه الأولين • عملية الصراع كانت قد بدت واضحة عنيفة •

- وظهرت أولى نتائج هذه الاتجاهات الجديدة في اذربيجان • هناك «تحرك الخرمية» سنة ١٩٢ مستغلين ثورة رافع بن الليث العارمة في خراسان ويبدو أن الحركة كانت من الخطر بحيث «وجه إليهم الرشيد (مع القائد) عبد الله بن مالك بعشرة آلاف فارس» استطاع الرجل أن يأسر ويسبي وأن يوافي الرشيد في بلدة قرماسين فأمر بقتل الأساري وبيع السبي^(١) •

لكن نصر الرشيد في هذه المرة كان نصراً مؤقتاً عابراً لأن خمائر الثورة الجديدة وأبعادها كانت أوسع بكثير من أن يمحوها قتل الأسرى وبيع السبي • فقد تسلم الحركة بعد عشر سنوات بآبك الخرمي

ب - البابكية (٢٠١ - ٢٢٢) :

«تضمن تقرب بني العباس للاستقرائية الإيرانية ، ابقاء الوضع الطبقي في إيران كما كان عليه • فلم يعمل العباسيون شيئاً يذكر لتخفيف الضغط الاقتصادي والاجتماعي على جماهير الإيرانيين» وقد قويت

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٣٩ (٣/٧٣٢) •

واستعادت الخرمية ديناميكيته ونشاطها بسبب الطابع الشعبي الذي اتخذته والآمال بالعيش الرخي المشترك التي تبعثها في الناس ولهذا بينما كانت الطبقات الارستقراطية الايرانية - والمجوسية الزرادشتية خاصة منها - تتحالف مع الحكم العباسي وتتعاون معه عاد الايرانيون الى المبادئ الخرمية ينشرونها بينهم حتى صارت رمز وعي الامة الايرانية للتخلص من الحكم العباسي وبالرغم من ان العباسيين استهدفوا خلق جو من التفاهم والتعاون بين العرب والموالي - ولا سيما الفرس - لاعتقادهم (بنتيجة درس الامويين) ان الاستقرار لا يتم الا بتعاون مختلف عناصر الدولة الا انهم لم ينجحوا في خلق ذلك الجو على مدى أبعد من التعاون مع الطبقات العليا ، ولعل فشلهم السياسي جاء نتيجة الخطأ في تقدير حقيقة الاوضاع الدينية السياسية في ايران كما نتج عن اضطراب سياستهم هناك وقسوة سياستهم المالية الخراجية وعن التيارات التي اثاروها وعن طموح الايرانيين انفسهم بنتيجة عمل الجماعات الدينية ورجال المعابد خاصة وهذا مايفسر لنا استمرار الحركات الدينية - السياسية في المناطق الايرانية مدة العصر العباسي الاول ، حتى اذا تشكلت الامارات الايرانية الاولى خمدت تلك الحركات وانتهى امرها .

ولعل الحركة البابكية كانت اخطر تلك الحركات^(١) ، الدينية في الظاهر ، السياسية في الواقع ، التي عرفتها ايران منذ قيام الدولة العباسية . فهي ، وان اشبهت الحركات السابقة ، في أسسها الفكرية الدينية ، الا انها تتميز عنها باتساعها ، وطول امرها ، وتنظيم دعايتها ،

(١) في دائرة المعارف الاسلامية مقالتان هامتان حول بابك والخرمية في المادتين .

وخططها ، وبراعة القيادة فيها واتصالها السياسي بغير الفرس اتصالاً واسعاً إذ اشترك فيها عدد كبير من الشعوب المجاورة لمنطقة الجبال : كالكرد والأرمن والروم وغيرهم من الشعوب الصغيرة في ما وراء القفقاس وكان اشتراكهم الفعلي دليلاً على الاتفاق المبيت والشعور القوي بالمصلحة المشتركة . وأهم من كل أولئك أنها استهدفت إقامة نظام خرمي ديني سياسي اقتصادي بالاستناد إلى المبادئ المزدكية وبدأت تنفيذ ذلك النظام .

تنسب البابكية إلى (بابك) وصاحبها هذا غامض النسب . والدينوري يشير إلى ذلك ويضيف قوله : «... الذي صح عندنا وثبت أنه كان من ولد مطهر بن فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني هذه التي ينتسب إليها الفاطمية من الخرمية^(١)» وإن كان ابن النديم يجعله ابن بائع دهن من أهل المدائن سكن في أذربيجان وهوى أم بابك وفضح معها ثم تزوجها فلما قتل نشأ ابنه نشأة فقيرة وكان يرعى البقر ويسوس الدواب ويضرب الطنبور حتى بلغ الثامنة عشرة .

وحركة بابك حركة خرمية . ومعظم المؤرخين (كالطبري وابن النديم وابن الجوزي والبغدادى وغيرهم ..) متفقون في ذلك وفي أنها تجديد للحركة الخرمية السابقة وابن النديم مع بعض المؤلفين يقول إن الخرمية صنفان : الخرمية الأولين ويسمون المحمرة (جماعة سنباذ والمقنع) ... والخرمية البابكية^(٢) . ولكن بابك ليس بالمؤسس لها ،

(١) الدينوري - الأخبار الطوال ص ٤٠٢ واسم بابك يلفظ في الأصل : بابان .

(٢) ابن النديم - الفهرست ص ٣٤٢ .

فقد كان للخرمية في منطقة الجبال منظمات وزعماء قبله — على ما يظهر — ونسمع من ابن النديم والمسعودي بزعمين للخرمية هناك قبل بابك هما جاويدان بن سهل ، استاذ بابك ومريه في شبابه وابو عمران • وأنها كانتا في حرب مستمرة «ليتوحد أحدهما بالرياسة» وقد اصيب الاول مرة فمات من جراحه ، بينما قتل الثاني في المعركة • واعلنت زوجة جاويدان — وكانت تتعشق بابك — ان زوجها قال لها قبل وفاته :اموت هذه الليلة وان روحي تخرج من بدني وتدخل في بدن بابك وتشترك مع روحه» فصدق الاتباع قولها ورضوا بابك زعيماً لهم ^(١) • وهكذا فان بابك الذي تزوج أيضاً امرأة جاويدان ، لم يوجد في الحركة شيئاً ولكنه وجدها قائمة فمنحها عبقريته في الحرب والتنظيم والدهاء السياسي • وقد عرف انصاره باسمه كما عرفوا (بالمحمرة) لانهم «صبغوا الثياب بالحمرة في ايامه وكانت شعارهم» ولكنهم في افكارهم ، بالطبع ، من الخرمية (المزدكية) •

ولم تحفظ لنا المصادر نصوصاً أصلية عن برنامج بابك السياسي أو مبادئه الفكرية — وكل ما نعرفه عنه فإنما هو من خلال ما أخذه الناس عليه وانتقدوه عنده من الأفكار والأعمال • على أن التنف والإشارات النقدية الجدلية الباقية تكشف عدداً من النقاط في مبادئ تلك الجماعة وتؤكد أن بابك كان يستند في ثورته الى برنامج متكامل ديني واجتماعي — اقتصادي وسياسي ولعلنا نستطيع تلخيصه في نقاط ثلاث بما يلي :

١ — الايمان بالخلول والتناسخ حتى ادعى بابك الالهية •

(١) المصدر نفسه ص ٣٤٣ — ٣٤٤ ويصف ابن النديم هنا حفل تنصيب بابك في الزعامة وزواجه من ارملة شيخه جاويدان •

٢ - المشاعية المزدكية في المال والحرم لئلا تبقى بين الناس أسباب للخلاف والتنازع . وقد تجلّى الجانب التطبيقي لذلك في تحرير الأرض . مصدر الثروة وتحرير المرأة . وإذا كان تحرير المرأة قد أدى منطقياً الى نوع من الاباحية يقول المقدسي انه شهدها منهم بنفسه^(١) فإن تحرير الأرض استهدف هدم النظام القائم على الطبقة (من ملاكين كبار ورؤساء دين وجيوش مرتزقة) ليبدل به نظام آخر لا طبقي يلغى فيه الامتلاك والاستبداد وتباح المشاركة .

ولما كان اغلب البابكية من الفلاحين فقد حاولوا حل مشكلة الاراضي بانتزاعها من الاقطاعيين الكبار وتوزيعها عليهم (كحركة الفلاحين ايام لوثر في المانيا) والطبري يذكر عن المازيار (صاحب بابك) انه «أمر أكرّة الضياع بالوثوب بأرباب الضياع واتّهاب اموالهم»^(٢) ويذكر عن قائد آخر للمازيار اسمه (سرخاستان) أنه قبض حين حوضر على ٢٦٠ شاباً من أولاد القواد أصحاب الأراضى وبعث الى الأكرّة المختارين من الدهاقين فقتلوهم و... قال لهم : إني قد أبحتكم منازل أرباب الضياع وحرمتهم... صيروا الى الجس فاقتلوا أرباب الضياع قبل ذلك ثم حوزوا ما وهبت لكم من المنازل والحرم... فجبن القوم وخافوا وحذروا...»^(٣) .

(١) ذكر البلعمي وهو المؤرخ الذي ترجم الطبري الى الفارسية ولخصه ان بابك نسخ او الغى الزواج الشرعي وملكية الأرض وكان يقول: إن خالق المسكونة قسم الاشياء بين الناس بالعدل والقسط ولم يعط احداً أكثر من غيره فلا بد من نظام يتساوى فيه عدد النساء ومساحة الأرض التي يملكها كل شخص... انظر بندلي جوزي - الحركات الفكرية ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ٨٦ - ٨٧ (١٢٧٨/٣) .

(٣) الطبري ج ٩ ص ٨١ (١٢٦٩/٣) .

٣ - على ان بابك استهدف من وراء هذه الثورة غاية سياسية هي التخلص من السلطان العربي والدين الاسلامي وإقامة دولة خرمية ونظام سياسي مزدكي إيراني يتبين ذلك من كلام جاويدان عنه في وصيته : «... سيبغ بنفسه وبكم (أي بالخرمية) أمراً لم يبلغه أحد ولا يبلغه بعده أحد وأنه يملك الارض ويرد المزدكية ويعز به ذليلكم .. ويرتفع وضيعكم»^(١) وقد أجمع ابن الجوزي والمقرئ والمسعودي والذهبي على تبيان هذه الغاية السياسية عند بابك .

ويروي الطبري أن ابنه أرسل إليه كتاباً مع رسولين ينصحه بالاستسلام فلم يفض بابك الكتاب ولكنه قتل أحد الرسولين بعد أن علق في عنقه الكتاب المختوم وقال للرسول الآخر : إذهب وقل لذلك (يعني ابنه) لو أنك لحقت . واتبعت دعوتك حتى يجيئك الأمر يوماً كنت ابني . قد كنت باسم هذه الرياسة وحيثا كنت أو ذكرت كنت ملكاً . ولكنك من جنس لا خير فيه . تعيش يوماً واحداً وأنت رئيس خير ، أو تعيش أربعين سنة وأنت عبد ذليل ..؟^(٢) .

ولعل مما يؤكد مخطط بابك السياسي ضد العرب ودولتهم وضد المسلمين ما ذكره الطبري أيضاً من أنه وجد لدى بابك ، حين هزم وأسر ، حوالي ٨ آلاف من العرب والدهاقين ونسائهم وأولادهم^(٣) ومن أنه حين دخلوا به أسيراً على الأفشين أمر ألا يتركوا عربياً يدخل بين الصفيين .

(١) ابن النديم - الفهرست .

(٢) انظر الطبري ج ٩ ص ٥٠ (١٢٢٧/٣) حيث يقول : وكان قد صار إلى الأفشين نساء كثير وصبيان ذكروا أن بابك كان أسرهم وأنهم أحرار من العرب والدهاقين ...» وانظر الطبري أيضاً (ج ٩ ص ٥٥) حيث يقول : «... واستنقذ ممن كان في يده من المسلمات وأولادهم سبعة آلاف وستة مائة انسان ...» .

الذين يمر بينهما من الجنود فرقاً أن يقتله إنسان ممن قتل اولياءه ..
ويمكن ان نضيف الى ذلك ان الخرمية كانت تتسامح مع الاديان الاخرى
كل التسامح وتكره الدماء فاذا هي حاربت سلطة الاسلام والمسلمين
فلأن بابك - كما قال - كما قال ابن النديم - هو الذي (جدد فيها)
وأحدث في مذاهب الخرمية القتل والغصب والحروب والمثلة ...» وإنما
كان ذلك لغرض سياسي اكثر مما هو ديني . أما قول (بندلي جوزي)
من ان «غرض البابكية لم يكن مقاومة الاسلام وذويه ولا مقاومة
العرب كأمة فاتحة مغتصبة (كما كانت الحال في أكثر الثورات السابقة في
في بلاد العجم) بل محاربة ذلك النظام الاجتماعي الذي كانت تثن تحته
الطبقات السفلى في جميع الامم التي كانت تؤلف يومئذ دولة بني العباس
حتى الامة العربية» .. ، فقول يشير الى جانب من المشكلة ، قد يكون
الجانب الهام العميق منها ، ولكنه لا يفسر كل شيء فيها . وهو لا يفسر
بصورة خاصة اشتراك عدد كبير من الارستقراطيين بها أو اشتراك
الشعوب المسيحية المجاورة كالأرمن والروم أو اشتراك الأكراد .

كان مركز بابك الذي بدأ منه الثورة سنة ٢٠١ في (البذ) أو (البدن)
وهي بلد في اذربيجان غربي نهر الرس بين (ياقوت) انها كانت مهد
المزدكية ، منذ محنة مزدك . اذ لجأ اليها بعض اصحابه ، ودعوا فيها
لرأيه . ولكن بابك تجاوز بالدعوة اذربيجان جنوباً الى همدان واصبهان
وما سبذان وبلاد الاكراد ، ويظهر أن ذلك كان في أواخر عهد المأمون ،
وفي سنة ٢١٨ بالذات ، وتجاوزت الحركة هذه المناطق شرقاً أيضاً الى
طبرستان وجرجان وبلاد الديلم ، وحتى الى خراسان .

(١) بندي جوزي - من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام (طبعة
الروائع - بيروت) ص ٩٠ - ٩١ .

ويبدو من بعض الأدلة ان التهيئة للثورة قد بدأ قبل اعلانها بزمان بعيد وربما أعلنت باتفاق مسبق مع الروم أيضاً لكن التهيئة الحقيقية كانت في إعداد الجماهير في اذربيجان لها وجمهرة اتباع بابك كانوا من الاكره . لكننا نجد لأول مرة في هذه الحركة اشتراك بعض الارستقراطية الايرانية فيها مع العامة ، كالمازيار (اصهبذ طبرستان) ومنكجور الفرغاني (خليفة الافشين على اذربيجان) والافشين ايضاً القائد العباسي ، ويمكن ان نأخذ فكرة عن اتباع بابك وعددهم من ان عدد فرسانه كان عشرين الفا - على ما يذكرون - وابو منصور البغدادي يذكر اجتماع (٣٠٠) الف شخص معه ويقدرهم المسعودي بمائتي الف ولا شك ان بعض المتلصصة قد انضم اليه .

وقد سعى بابك ، الى هذا ، في استمالة الاقليات العنصرية التي حوله ، فدخل (عصمة) الكردي صاحب مرند ، وأمراء بعض الاكراد في همدان وكرمنشاه ، في طاعته دون إكراه أو مساومة^(١) . ولم ينجح في استمالة الارمن الا فئة منهم (من مقاطعة سيونيا) وثق روابطه معها ، بالزواج من ابنة اميرها . أما باقي الآرمن فقد آثروا الحياذ والاستفادة من ضعف النفوذ العباسي عندهم في بناء إماراتهم الداخلية . مع الروم مما أعطى ثورته الطابع الدولي .

أما العلاقة الخارجية الهامة التي عقدها الثائر الخرمي فإنما كانت ويظهر ان بابك اتصل بالبيزنطيين قبل الثورة . فالمصادر الرومية تشير الى مفاوضات سرية بينه وبين الروم^(٢) بدأت منذ عهد ميخائيل

(١) اليعقوبي - ج ٢ ص ٤٧٣ وقد احتال القواد العباسيين على صاحب مرند فأسره وحمله الى المعتصم .

(٢) انظر بندي جوزي - من تاريخ الحركات الفكرية ص ٨٠ وهو يستند في ذلك الى المؤرخ البيزنطي تيوفانوس (ج ٣ ص ١١٢) والى ميخائيل السرياني (ج ٣ ص ٥٢) والى كتاب العرب والروم لغازيليف ص ٣٣ .

الثاني (٨٢٠ - ٨٢٩) مؤسس الأسرة العمورية ثم خلفه تيوفيل (٨٢٩ - ٨٤٢) ولا شك أنه كان يهتم هذين الامبراطورين دعم مكاتهما ومكانة اسرتهما الجديدة بتدمير الخلافة العباسية عن طريق لا يكلفهما الكثير على أن دعم الروم للثورة الخرمية في مراحلها الأخيرة أمر مؤكد فإن بعض اصحاب بابك حارب سنة ٢١٦ هـ مع الجيوش البيزنطية تحت قيادة الايراني الهارب الى بزنطة (تيوفوب)^(١) . وقد هرب بعض اتباع بابك من العباسيين الى بلاد الروم . فحاربوا معهم المسلمين وكان ملك الروم قد فرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة^(٢) . ولما ضيق المسلمون على بابك حاول تحريض بزنطة للهجوم على الحدود الاسلامية ذاكراً ان ملك العرب قد وجه عساكره كلها ضده حتى وجه خياطه وطباخه . .^(٣) كما انه حين مزقت جيوشه ، قبض عليه بعض أمراء الأرمن وهو في الطريق الى بلاد الروم حيث التجأ الناجون من اصحابه وجنده .

ولعل هذا كله يفسر لنا طول عهد الثورة البابكية التي بدأت سنة ٢٠١ وهزمت حتى سنة ٢١٨ أربع حملات كبرى للمأمون^(٤) . حتى دخل في نفوس القواد والناس شيء من استفحال امر بابك ، واضطر المعتصم ان يطوف برأسه على مدن خراسان لازالة ذلك الاثر المزيج من الاعجاب والبطولة والرغبة ، فيما بعد . لهذا قبولي نبأ أسره بالتهليل والتكبير لدى الناس في بغداد وعمهم الفرح ويضيف المسعودي : قائلا «...» ثم

(١) بندلي جوزى - الحركات الفكرية ص ٨٢ .

(٢) الطبري ج ٩ ص ٥٦ (١٢٣٥/٣) .

(٣) انظر تفصيلاتها لدى الطبري واليعقوبي .

(٤) الطبري ج ٩ ص ٥٦ (١٢٣٤ - ١٢٣٥) .

حمل الرأس (رأس بابك) الى خراسان يطاف به كل مدينة من مدنها وكورها لما كان من استفحال أمره وعظم شأنه وكثرة جنوده وإشرافه على إزالة ملك وقلب ملة وتبديلها ...» (١) .

ولا شك ان ظروف المأمون الداخلية (من ثورات الشام ومصر والعراق واليمن ..) والخارجية (من حروب مع البيزنطيين) اعانت بابك على النجاح العسكري في وجه المأمون الذي لم يتفرغ لحربه إلا بعد أربع سنوات من ثورته سنة ٢٠٤ . يضاف الى هذا عدم ولاء بعض الولاة في اذربيجان (كحاتم بن هرثمة العربي الذي «كاتب بابك والخرمية - حين سمع بمقتل ابيه هرثمة بن أعين - وهون عندهم أمر المسلمين» (٢) وعدم اخلاص بعض قواد المأمون إن صح ما يفهم من اليعقوبي مثل محمد ابن البعيث الذي انحاز الى بابك وعلي هشام الذي كشف المأمون خيافته فقتله سنة ٢١٦ .

واخيراً فان بابك واصحابه كانوا قد انتشروا في مناطق جبلية صعبة هم ادرى بها واعرف بالخطط فيها . وكانوا يحاصرون العباسيين في المضائق منها . وكان بابك ماهراً في قطع خطوط التموين على اعدائه فأقحط سنة ٢٢٠ عسكر الافشين حين هب قافلتين من قوافل الميرة (٣) . كما خرب حصون اذربيجان فأضعف بذلك مراكز الدفاع العباسي .

وتظهر شدة فتك بابك من الاعداد الضخمة التي يذكرها المؤرخون لضحاياه واسراه فالطبري يقدر عدد قتلاه في عشرين سنة بمائتي الف

(١) المسعودي - مروج الذهب ج ٤ ص ٥٦ .

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٦٢ .

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٦ (١١٧٨/٣) .

وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة^(١) انسان وعدد الاسيرات من المسلمات اللواتي استنقذن منه (٧٦٠٠) اسيرة • ويزيد المسعودي احصاء القتلى الى (٥٠٠) الف ويضيف «وقيل اكثر من ذلك وان الاحصاء لا يحيط به كثرة»^(٢) ولعل التقدير الاقل اقرب للصحة • على أن ضخامة الارقام وإن لعبت بها المبالغة — تدل على قوة بابك وعلى مدى رهبة الناس لتلك القوة وما دحل على وهمهم فيها ، وعلى مقدار ما كلف الدولة العباسية من جهد ودماء •

وقد بدأ انهيار بابك منذ وصل المعتصم الى الخلافة سنة ٢١٨ ويظهر من سلسلة التدابير التي اتخذها الخليفة مقدار خطر الخرمية وقوتهم اذ ذلك :

اولا — تمكن والي الجبال اسحق بن ابراهيم من تمزيق الخرمية في منطقة همدان سنة ٢١٨ هـ فانحصر أمرهم في اذريجان •

ذلك أن الدعوة الخرمية كانت قد بلغت من القوة حد الدعوة العلنية للمذهب • ويسجل الطبري في أخبار سنة ٢١٨ خبر «دخول جماعة كثيرة من أهل الجبال من همدان واصبهان وماسبذان ومهراجا تغدق في دين الخرمية» ولسنا ندري هل كانوا قد أسلموا ثم ارتدوا والأرجح أنهم من المجوس الزرادشتية الذين انتقلوا الى الخرمية البابكية ••• «••• وتجمعوا فحسبوا في عمل همدان» أي ان تحولهم الديني رافقه تحول ثوري يرفد ثورة بابك في الشمال بثورة مماثلة في الجنوب ليس

(١) الطبري ج ٩ ص ٥٥ — ٥٦ (١٢٣٣/٣) .
(٢) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٣٠٥ .

بينها وبين بغداد كبير أمر وبلغ خطرهم أقصاه حين قطعوا الطريق بين بغداد والمشرق وعرضوا لحجاج خراسان فقتلوا جماعة منهم وهزموهم وأخافوا السبيل وعند ذلك اضطر المعتصم أمام هذا الخطر القريب أن يوجه إليهم العساكر بعد العساكر الى ان عقد لاسحق بن ابراهيم على الجبال فما هو إلا شهر حتى استطاع تشتيت المتمردين الذين تركوا في عمل همدان ستين (أو مائة) ألف قتيل وهرب باقيهم الى بلاد الروم^(١) . ولا شك ان هؤلاء إنما هزموا لأن جمهرتهم في هذه الثورة كانت كجمهرتهم في الثورة السابقة سنة ١٦٧ قبل خمسين سنة من الطبقات الفقيرة والمحرومة التي أثارها الآمال في مبادئ وثورة بابك ولكن انهزامهم أسهم لا في تضيق رقعة الثورة البابكية جغرافياً ولكن في التأثير المعنوي على أصحابها بضرب آمالهم في التوسع على مناطق ايران وما وراءها . وكان ذلك هو خطوة النصر الأولى التي سجلها المعتصم . ولم يكن السبب في قسوتها الدموية الشديدة قربها الجغرافي من بغداد بقدر ما كان حقد هذه العاصمة ورعبها من الثورة البابكية الاصلية .

ثانياً — اهتم المعتصم (أو الافشين) ببناء الحصون التي خربها بابك بين زنجان واردبيل وبذلك صار للعباسيين جبهة يتحصنون بها امام الخرمية .

ثالثاً — عين المعتصم لحربهم اعظم قواده : الافشين (حيدر بن كاوس) سنة ٢٢٠ هـ وكان الخليفة — على ما يظهر من مراقبة الاخبار — يشاركه في وضع الخطط بما عرف عن المعتصم من خبرة في الحرب لا

(١) الطبري ج ٨ ص ٦٦٧ (١١٦٥/٣) و ٩ ص ٨ (١١٦٦/٣) وهو يذكر أن الاسرى وردت على المعتصم في السنة الثالثة وان القتلى كانوا نحو مائة ألف عدا النساء والصبيان .

سيما في المناطق الجبلية • وسجل الافشين أول انتصار على بابك في معركة محدودة في تلك السنة نفسها سنة ٢٢٠ •

رابعاً - وجه الخليفة كل جهده وماله للحرب : قيل انه بعث للافشين سنة ٢٢٢ هـ بثلاثين مليون درهم عطاء للجند والنفقات ، وكان يجزيه كل يوم يركب فيه عشرة الاف درهم ، وفي كل يوم لا يركب فيه خمسة الاف ، عدا الارزاق والانزال والمعاون^(١) •

خامساً - نظمت مواصلات الجيش : فكانت الميرة تصل آمنة الى الافشين في شعاب الجبال بانتظام • ورتب البريد اليه في خيل مضمة ومحطات ، فكانت الرسائل تذهب فيما بين اذريجان وسامراء في اربعة ايام • كما استعمل الحمام الزاجل لأول مرة ، في هذه الحرب^(٢) •

سادساً - احكمت خطة القتال التي يفصلها الطبري في صفحات طويلة مشيرة^(٣) : فقد أمر المعتصم بجعل الجيش فرقاً متناوية : يعسكر بعضهم ويبقى الآخرون على ظهور الخيل ، مخافة اليات ويقام الخفراء على رؤوس الجبال ويلوحون بالاعلام السود إن شعروا بأمر مريب • ونظم التجسس على بابك فكان من نتائجه اغتيال طرخان أحد كبار القواد عند بابك في القرية التي يشتو فيها عند بلدة المراغة^(٤) وإن لم يكن بابك أقل تنظيماً لجواسيسه واستخدماً لهم • وكان يرسلهم أحياناً

(١) الطبري ج ٩ ص ٥٤ (٣/١٢٣٢ - ٣) وص ٢٩ (٣/١١٩٥) •

(٢) الطبري ج ٣ ص ٥٢ (٣/١٢٢٩) وانظر المسعودي - مروج الذهب

ج ٤ ص ٥٦ •

(٣) انظر الطبري ج ٩ ص ٢٣ وص ٢٩ - ٥١ (٣/١١٨٧ - ١٢٢٨) •

(٤) الطبري ج ٩ ص ٢٨ (١/١١٩٣ - ١١٩٤) •

للمرور بجيش الافشين حتى ليراهم المحاربون او يرسلهم ببعض الهدايا
الى الافشين نفسه لينظروا أمر معسكره وخنادقه ورجاله (١) .

ثم أن الافشين كان لا يمشي لخصمه الا في حذر وبطء (فبعد
معركة «ارتق» سنة ٢٢٠ هـ مشى الى بابك في «البذ» واقام على حصاره
سنتين حتى ضج الناس) وكان الى هذا يحتقر الخنادق حول معسكره ،
اذا عسكر ، ويبنى الاسوار ويضع الكمائن ، وأخيرا زحف الافشين على
عاصمة بابك بعد أن أسر ابنه ورفض أماناً بعثه اليه المعتصم فأخذها
الافشين في ١١ يوماً (٩-٢٠ رمضان ٢٢٢ هـ ٢٦ آب ٨٣٧) ودمرت مع
قصور بابك الأربعة فيها ولكن بابك نفسه تمكن من الهرب الى ارمينية
فكتب الافشين الى بطارقتها بسد الطرق عليه . وقد سلمه احدهم (سهل
ابن سباط) للافشين (في ١٠ شوال سنة ٢٢٢ - ١٦ ايلول سنة ٨٣٧)
وكوفيء بمليون درهم ، ومنطقة ذهب مرصعة بالجواهر ، وبتاج البطرقة
وياسقاط الخراج عنه (٢) .

ولما حمل بابك الى سامراء (في ٣ صفر سنة ٢٢٣ - ٤ كانون الثاني
سنة ٨٣٨) لم يضبر المعتصم عن معرفته ليلة وصل ، فزاره وزيره أحمد
ابن أبي داؤد متكرراً ووصفه له ، فما اكتفى حتى جاءه بدوره (٣) . وقتل
بابك في اليوم الثاني وصلب ونجد لدى الطبري والمسعودي تفصيلاً

(١) الطبري ج ٩ الصفحات ١٣ ، ١٤ ، ٣١ ، ٣٣ (٣/ الصفحات

١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٩٨ - ١٢٠٠ - ١٢٠١) .

(٢) الطبري ج ٩ ص ٥٤ (٣/ ١٢٣٢) وانظر المسعودي - مروج الذهب

ج ٤ ص ٥٦ ويقول أبو زكريا الأزدی (تاريخ الموصل ص ٤٢٥) إنه كوفي يلقب
بطريق إنطاكية . وترك له خراج عشرين سنة واعطي مليون درهم ..

(٣) الطبري ج ٩ ص ٥٢ (٣/ ١٢٢٩)

لخبر أسره مع الوصف المسهب لحفل إدخاله على المعتصم ثم قتله وقتل أخيه في الوقت نفسه^(١) .

وقد يكون من كمال صورة الثورة البابكية أن نضيف إليها في النهاية بعض الملاحظات :

١ - فقد خسر بابك فرصتين كان من الممكن أن تمنعا ثورته من الانهيار الأولى داخلية هي تلك الثورة الجنوبية التي قامت في أصبهان وهمذان سنة ٢١٨ وليس يبدو أن بابك اهتم باغتنام تلك الفرصة التي عرضت له فيدعمها بالتأييد والتنسيق . ولعل انهيارها السريع منعه من ذلك . وأما الفرصة الثانية فخارجية ذلك أن بابك استنجد ، حين ضاق عليه الحصار ، بالروم «وكتب الى توفيل بن مخائيل يعلمه أن ملك العرب قد وجه عساكره ومقاتلته عليه حتى وجه خياطه وطباخه - يعني القائد ايتاخ - ولم يبق على بابه أحد» وهكذا جاء الروم في مائة الف باتجاه ارمينية ودخلوا باتجاه أطرافها الغربية وفتحوا بلدة زبطرة فقتلوا رجالها وسبوا الذراري والنساء وأحرقوا البلد ثم مضى الامبراطور من فوره إلى ملطية فأغار عليها وعلى حصون المسلمين وسبا ألف امرأة ومثل بمن وقع في يده سملا وجوعاً وصلماً .. ولكن هذه النجدة الضاغطة جاءت متأخرة عن موعدها لأن ثائر البد كان قد انهار وأسر فلم يفده ذلك شيئاً بل حرض المعتصم على التحرك لفتح عمورية المشهور .

٢ - لم يلجأ بابك في ثورته الى الاعمال الانتقامية من المسلمين ، أسر وسجن الكثيرين بالآلاف وقتل بعض الزعماء ولكنه اصطنع مبادئه

(١) انظر الطبري ج ٩ ص ٥٢-٥٤ (١٢٢٩-١٢٣٢) والمسعودي مروج الذهب ج ٤ ص ٥٤-٥٦

الدينية في التسامح والرفق • ويذكر الطبري ان أسرى بابك من النساء والصبيان لهم حظيرة كبيرة واسكنوا فيها حين انهزم ... فلما جيء به أسيراً إلى الأفشين ونظر الأسرى إليه «لطموا وجوههم وصاحوا وبكوا حتى ارتفعت اصواتهم فقال لهم الأفشين : انتم بالأمس تقولون أسرنا وانتم الآن تبكون عليه • عليكم لعنة الله • قالوا : كان يحسن إلينا •»^(١)

٣ - ومن الطريف الذي يستوقف النظر أن بابك كان يسمي المسلمين «يهوداً» ويتحدث عنهم على هذا الأساس^(٢) اشترك في الحرب ضد بابك جماعة من المطوعة لعبوا دورهم الهام في المعركة الأخيرة ضد حصن البد بزعامه صاحبهم جعفر بن دينار المعروف بالخياط • ويلفت النظر في هؤلاء المطوعة أنهم كانوا من مطوعة البصرة لا غيرها • وقد وجههم المعتصم مدداً للأفشين فكانوا اكثر الجند حماسة للحرب واندفاعاً في طليعة الصفوف الى سور البد وأبولها • وإذا تذكرنا أن ثورة الزط في البطائح والخرمية في أذربيجان وارمينية في وقت واحد وامتدادهما السنين الطويلة من مطالع القرن الثالث (منذ سنة ٢٠١ حتى سنة ٢١٨) قد يكون عطل المصالح التجارية للبصرة خاصة ، ادركنا أن نقمة هذه المدينة قد تكون اكثر من غيرها على هؤلاء التأثيرين فلما انهارت حركة الزط سنة ٢١٩ ولم يبق سوى الخرمية كان أهل البصرة أخرى الناس بالنقمة الشديدة عليها وكان شكلها الإلحادي أحسن مبرر يدفع كل تقي للقيام بالجهاد ضدها •

٤ - كان تعاون بابك مع الروم تعاوناً غير متكافئ • فأقصي

(١) الطبري ج ٩ ص ٥٠ (١٢٢٧/٣-١٢٢٨)

(٢) الطبري ج ٩ الصفحات ٢٩ و ٥٠ (١٢٢٦ و ١١٩٥/٣) وتلك التسمية لم يكن المقصود منها الاهانة ولكنها نتيجة النظر الى الدين الاسلامي عنده كامتداد لليهودية •

ما قدمه الروم إليه هو الضغط العسكري السياسي على الجبهة العربية الإسلامية بينما كانت الخرمية تدخل ضمن القوى العسكرية البيزنطية . وجموع كثيرة من هؤلاء كانت تهرب من المناطق التي يحتلها الجيش العباسي لتلتحق بالروم وتدخل في قواهم العسكرية ويبدو أن الذي لعب دوره الواسع في هذا التقارب الواسع هو قائد رومي من أصل فارسي نشأ وتربى في القسطنطينية واشتهر باسمه اليوناني (تيوفوبوس) وقد جعله الامبراطور قائد هذه الجماعات اللاجئة لما يجمعه بها من رابطة الأصل واللغة . وقد كان قد أصهر الى الأسرة الامبراطورية وحظى عندها بمكانة أهله لأن يأخذ لقب البطريق ، وهي من أرفع رتب الجيش البيزنطي . وقد شعر الخرمية الهاربون بقوتهم الذاتية إذ أصبح عددهم على رأي بعض الروايات التاريخية ١٥ ألفاً فحاولوا تنصيب تيوفوب امبراطوراً فلم يستجب لهم وترتب على هذه المحاولة توزيعهم على ثغور الامبراطورية فرقاً متفرقة تعد كل واحدة منها الفين من المقاتلة . وقد كانوا بجانب الامبراطور في حملته على زبطرة ربيع سنة ٨٣٠ وكان لهم أثرهم في تدميرها (١) .

٥ - عاصرت حركة بابك حركة مماثلة لها في عدد من الوجوه قام بها أتباع بولس السيمساطي في الاناضول . ولسنا نستطيع إثبات وجود صلة بين الحركتين إلا إن توافقهما الزمني قد تسمح بافتراض تقارب ممكن - كما يقول كاهن - منها في الظروف الاجتماعية والبيئة الفكرية مما يستحق البحث والاستقصاء (٢) .

(١) انظر تفاصيل ذلك لدى

(٢) انظر كلود كاهن - تاريخ العرب والشعوب الإسلامية (بالفرنسية) المجلد الأول (الترجمة العربية - بدر الدين القاسم ص ١١٦)

٦ - وأخيرا فإن حركة بابل قد هزت دون شك من قوى الدولة العباسية وأضعفتها. وإذا كانت هزيمتها ترجع الى أخذها الطابع الإيراني المحدود وحصرها في الجبال وتوجيه كل القوى العباسية من عسكرية ومالية ضدها وتخلي الأرمن والكرد والعرب الناقمين ، عنها في النهاية فإن هذه الهزيمة لم تستأصل الحركة . ولكنها أبقتها في حالة الكمون والانكماش بعد عملية التوسع الديناميكي البابكي . وقد بقي لها الكثير من الاتباع الذين عرفهم الجغرافيون والمؤرخون في القرن الرابع ثم في القرن الخامس . وأشاروا الى مواضعهم ومذاهبهم في الفكر والحياة وسموهم بالمحجرة . كما تناقلت القصص الشعبية الإيرانية الكثيرة مآثر بابل عبر القرون .

ح - قضية طبرستان :

طبرستان هي تلك المنطقة الجبلية الممتدة جنوب قزوین ما بين جرجان واذريجان وكانت - كما قال اليعقوبي - « بلداً منفرداً له مملكة جليلة ولم يزل ملكه يسمى الاصبهذ . . . وهو بلد كثير الحصون منيع بالأودية كثير البرد سقيع نقيع . . . وأهله أشرف العجم . أبناء ملوكهم وهم احسن قوم وجوهاً . . . » وكان مقر امرائها بلدة سارية . . والبلد « كثير المياه والثمار والأشجار الجليلة العظيمة . والغالب عليها الغياض وكثرة الأشجار واكثر ابنيتها الخشب والقصب . . . وسطوحهم مسنمة بالقراميد » . وفي البلد « يعمل الفرش الطبري والأكسية الطبرية » « وليس بجميع الأرض أكسية تبلغ قيمة أكسيته ومطارفهم ولديهم أصناف من الثياب الابريسم والأكسية الصوف العجيبة . . » « وخارج البلد أربعة آلاف ألف درهم . . » (١) .

(١) النصوص مزيج مأخوذ عن اليعقوبي - البلدان ص ٢٧٦ - ٢٧٧ وعن ابن حوقل - صورة الأرض ص ٣٢٣-٣٢٤

وقضية طبرستان هي نموذج المشاكل المختلطة بين الصبغة الدينية والشكل السياسي فجذورها مشتركة بين الطرفين ووجهها الديني لا ينفصل عن وجهها السياسي والاقليمي وقد ورث المهدي هذه المشكلة عن عهد أبيه ولكنه كان هو نفسه بدوره أحد صانعيها والعاملين عليها أثناء ولايته للعهد وإقامته بالري (١٤٠ - ١٥١) • وإذا كانت سياسة المهدي القائمة على تأكيد «مهدويته» والاسراع في إسلام المناطق غير المسلمة من دولته مع تعصب أهل طبرستان لدينهم السابق والولاء لملوكهم المقهورين قد أدى كله إلى تهيئة الثورة ، إلا إن السبب المباشر فيها إنما كان تلك السياسة المالية العباسية التي أخذ بها الناس والي طبرستان عبد الحميد مضروب وجبى بها الضرائب اجتمعت على إقامة الثورة كل القوى المحلية في طبرستان : الأمراء والدهاقين والشعب على السواء • وقبل الأمير «وندا هرمز» أن يتزعم الحركة بعد أن عاهده الأمراء المحليون الآخرون ومنهم الاصبهذ شيروين والمصحفان واش على التعاون معه فيها •••

وانفجرت الثورة سنة ١٦٤ - ٧٨٠ في مذبحة كان من ضحاياها الوالي عبد الحميد نفسه كما كان منهم كذلك النساء الايرانيات اللاتي تزوجن من العرب المسلمين مما يكشف مدى الحقد المحلي في الحركة التي استمرت سنتين على الأقل وكلفت الخلافة غالباً من الدماء والنفقات، والهزائم وقتل القواد (مثل سلم الفرعاني ، وفراشة مولى المهدي) قبل أن تهدأ بعض الهدوء تحت ضغط القوى العسكرية الاسلامية الكثيفة التي وصلت •

ثم عادت الثورة كرة أخرى أشد وأقوى سنة ١٦٧ - ٧٨٣ في جرجان وطبرستان فاضطر المهدي لأن يوجه جيشاً كثيفاً من الجند في جهاز لم يجهز - فيما ذكر أحد بمثله على حد قول الطبري وعهد به الى

ابنه ، وولي عهده الهادي وأرسل معه أقوى قواده: يزيد بن يزيد الشيباني .
كما نظم له صاحب رسائله وديوان جنده وحجابه وحرسه وشرطه وجعل
على كل وظيفة رجلا من ابرز رجال البلاط العباسي^(١) واتبع الهادي
طريقة تألف قلوب بعض الامراء المحليين من جهة والضرب العسكري
العباسي من جهة أخرى وهكذا : استطاع مثلا أن يجمع حوله بعض
الامراء ويدخلهم في الاسلام مثل بهرام بن فيروز ولو كان اسلام هؤلاء
هو الاسلام الظاهري الذي استهدف فيه الامراء حفظ نفوذهم السياسي
في مقاطعاتهم مع عدم التفريط بالدين الأبيض ، دين النار والنور للدين
الذي كانوا يدعونه بالأسود بسبب لون الملابس العباسية السوداء وفي
الوقت نفسه قاد يزيد الشيباني معارك عنيفة ضد هرمز اتهمت بحصاره
وهزيمته في معركة حامية جرح فيها هو نفسه واشترط قبل أن يستسلم
أن تبقى عليه مملكته في طبرستان ويتعهد بانهاء الثورة وحفظ الحاميات
العباسية . ويؤدي الجزية السنوية . . . كان ذلك في أواخر سنة ١٦٨
على ما يظهر في الوقت الذي علم فيه الهادي تجول ابيه عنه ورغبته في
اعطاء ولاية العهد للرشيد فتلكأ في المسير الى بغداد أو في إرسال هرمز
إليها فلما جاءه في مطلع السنة التالية موت ابيه واستخلافه كان (ونداد)
ضمن موكبه الذي دخل به بغداد . . .

ولكن حادثاً جرى في طبرستان أثار الهادي كل الإثارة هو مقتل
بهرام فيروز الأمير الذي أسلم على يده وكان قاتله هو الأمير وندا
سفران شقيق هرمز وكاد الهادي يقتل به هرمز لولا أن أقنعه هذا بأن
غرض سفران من تلك الجريمة هو دفع الهادي الى قتله ليخلص له الملك .

(١) انظر اسماءهم لدى الطبري ج ٨ ص ١٦٤ (٥١٩/٣) .

ويبدو أن ما في نفس الهادي ضد أخيه الرشيد في ذلك الوقت جعله يقبل مثل هذا التعليل بل جعله أكثر من ذلك يقبل اقتراح هرمز بأن يرسله الهادي الى طبرستان فيأتيه برأس أخيه القاتل ...

وسار هرمز بالفعل ولكنه لم يعد ... ولا أرسل رأس أخيه إذ ما كاد يصل بلاده حتى أوعز الى أخيه سفران بالاختفاء ، وتوفي الهادي وشيكاً فاتتحت المشكلة التي لم يهتم بها الرشيد كثيراً لا سيما وقد تسلم أمور طبرستان وجبايتها ولالة أقوياء مع الحاميات في المدن والسفوح الجبلية لم يعد ملوك المنطقة المحليون يشكلون عليهم خطراً كبيراً فأقروا في ممالكهم • وتسلم وندا هرمز عرشه ولما مات خلفه ابنه قارن •

وقد راض هؤلاء الملوك انفسهم على الاتقياد لأي سلطة عباسية قائمة بدليل أنهم في فترة النزاع بين الأمين والمأمون قبلوا بأوامر الأمين أولاً مع أنهم أقرب للمأمون وقد مشى علي بن عيسى بن ماهان بجيش الأمين الى الري » .. فأنفذ الكتب الى ملوك الديلم وجبال طبرستان وما والاها من الملوك يعدهم الصلات والجوائز وأهدى إليهم التيجان والأسورة والسيوف المحلاة بالذهب وأمرهم أن يقطعوا طريق خراسان ويمنعوا من أراد الوصول الى طاهر (بن الحسين والمأمون) من المدد فأجابوه الى ذلك ...»^(١) ولعلمهم استغلوا الحرب الأخوية وما تلاها من اضطراب في انحاء الخلافة العباسية كلها فانقطوا عن الخضوع للمأمون ولعله لهذا السبب ولي المأمون على طبرستان عبد الله بن خرداذبه • ويبدو أنه كان من تعليماته إخضاع هذه الممالك المحلية فإنه افتتح سنة ٢٠١ والمأمون ما يزال في خراسان ، إمارة اللاز والشيرز من بلاد الديلم وأنزل شهريار بن شروين أسيراً من جبال طبرستان وأسر أبا ليلي ملك

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٠٨ (٣/ ٨٢٠) •

الديلم بغير عهد كما أسر المازيار بن قارن بن وندا هرمز واشخصه إلى المأمون ... وأقر في المنطقة كلها على ما يبدو الحكم العباسي من جديد وقد تفاعل الناس بذلك الفتح ايما تفاؤل وقال الشاعر سلام الخاسر :

إنا لنأمل فتح الروم والصين بمن أدال لنا من ملك شيرين !!

على أن بعض هؤلاء الملوك أعيدوا إلى بلادهم بعد أن استوثق الخليفة منهم على ما يظهر ونراهم في سنة ٢١٠ في طبرستان : فأما شهریار ابن شروین فموت تلك السنة وأما المازيار بن قارن فينازع سابور بن شهریار ملكه ثم يأسره ويقتله^(١) . ويصبح المازيار الاصبهذي الأوحدي في الجبال كلها ... حتى يثور سنة ٢٢٤ ويحارب الخاميات العباسية في السفوح والأمصار الطبرية .

(١) يروي اليعقوبي (ج ٢ ص ٤٧٦) كيف قدم المازيار على المأمون فملكه على مدينتين من طبرستان فلما خرج لاستلامهما خرج عمه كأنه يتلقاه مع أنه كان مفتاضاً كل الغيظ منه وكان مع المازيار مولى من مواليه قال له إن عمك لم يخرج في هذه الهيئة إلا ليفتك به وأعطاه حربة يضعها ب صدره حين ينفرد به فقتل عمه واستلم البلاد وكتب للمأمون أن عمه كان مخالفاً ..

الفصل الرابع

العلاقات الخارجية

١- مع الشرق ومع الروم

وطدت الدولة العباسية في هذه الفترة (١٥٨ - ٢١٨) أوليتها العالمية بين دول الأرض سواء بوضعها الجغرافي الاستراتيجي الذي جعلها في المركز من هذه الدول جميعاً وعلى صلة مباشرة بها كلها عن طريق البر أو البحر ، أم بقوتها العسكرية التي لم تكن تعدلها قوة عالمية أخرى ، أم بسعتها التي لم تكن تقاربها سوى امبراطورية الصين المعزولة في الطرف الأقصى من الشرق . ويمكن أن نلاحظ بوضوح في السياسة العباسية الخارجية ملاحظات خمساً :

أ - ممارسة العباسيين سياسة الدولة الأقوى دوماً . ومحاولاتهم سواء مع الدول الكبرى كالروم أو الصغيرة كبعض دول الترك فرض النفوذ بالقوة العسكرية . لا يلجأون الى غيرها إلا عند تعذر نجاحها على أنهم كانوا في الأحوال كلها يستخدمون الوسائل الدبلوماسية من سفراء ومكاتبات وفود بجانب استخدام الجيوش .

ب - جمعت في العهد العباسي الأول ونظمت وسجلت ، لأول مرة في التاريخ ، قواعد القانون الدولي على الأساس الاسلامي . كان المسلمون منذ الفتح ينظمون ذلك حسب أوامر الدين ونصوص العهود والهدنة مع البلاد المفتوحة وكانت تلك القواعد تدخل في كتب الفقه

الاسلامي ولكن الحاجة السياسية على ما يظهر جعلت الفقهاء يفردون لها كتباً خاصة سميت «بكتب السير» أي أحكام الجهاد والحرب والصلح والموادعة والأمان ومعاملة الأسرى ... وقد كتب في ذلك الامام الأوزاعي (المتوفي سنة ١٥٧) (كتاب السير) على أساس مذهبه الفقهي فرد عليه أبو يوسف قاضي قضاة الرشيد بكتاب (الرد على سير الأوزاعي) على أساس المذهب الحنفي ثم كتب محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي يوسف كتاب السير الصغير ثم أتبعه بكتاب السير الكبير الذي أضحي منهاج الدولة العباسية ، من الناحية النظرية الفقهية على الأقل في أحكام الجهاد والحرب والعلاقات الدولية المختلفة . كما كتب الامام زفر كتاباً ثالثاً في السير وضمن الامام الشافعي كتابه الأم دراسة السير أيضاً فكانت كلها أول توطيد منظم عرفه العالم للقانون الدولي .

وقد أشار فازيليف إشارة عامة إلى هذا حين كتب انه « وجدت في حوادث الشرق الحربية في القرن التاسع وقائع وعادات تعد مكونة لما نسميه اليوم القانون الدولي ... » (١) .

ح - استطاعت الدولة العباسية أن تسترد بسرعة وبجهود المنصور مركزها العالمي الذي سبق أن احتلته الدولة العربية الأموية وأن تفرض من جديد ما كان فرضه الأمويون زمن عبد الملك والوليد من «السلام» المرتبط بهم وعلى طريقتهم بين دار الاسلام ودار الحرب والذي يمكن أن نسميه ، بالسلام الاسلامي Pax Islamicus مقابل ما يسميه المؤرخون قديماً بالسلام الروماني . وقد تحقق هذا السلام العالمي على يد الدولة الاسلامية ككرة أخرى في عهد المهدي - الرشيد خاصة فكان خلفاء بني العباس هم أسياده وضامنوه ومنظموه في العالم . وإذا كانت نتائجه

(١) فازيليف - العرب والروم (الترجمة العربية) ص ١٨

السياسية قد ذهبت فإن نتائجها الثقافية والاقتصادية كانت هي الأبقى إذ لم يكن مجرد سيطرة سياسية ونفوذ عسكري تفرضهما القوة العباسية ولكنه ساعد لحد كبير على استقرار الدين الاسلامي وتوطد الثقافة العربية وآلاء الحضارة الاسلامية في آفاق جديدة كثيرة : في الهند خاصة وفي تركستان وما وراء النهر وارمينية وفي كريت وصقلية بل وفي الصين أيضاً . وفي ظل هذا السلم الاسلامي نفسه ارتبط العالم كله ولأول مرة بخطوط التبادل التجاري العالمية التي أمسك العرب المسلمون بزمامها ما بين أقصى المشرق وأقصى الغرب سواء عن طريق البحار الدافئة من جنوب شرقي آسيا أو طريق الجبال والصحاري العالية البرية عبر ممر زنجاريا مما جعل التاجر رمز الحضارة العربية وجعل بغداد سرّة الدنيا .

ء - لم يكن العصر العباسي الأول عصر تجميد الفتوح أو توقيفها والمحافظة على المواقع . إن هذه الملاحظة التي قد يوحي بها الموقف العباسي على جبهة الروم لا تصح عند التعميم والواقع أن العباسيين الذين قد يكونون ثبتوا جبهة الأناضول عند مواقع معينة لم يفعلوا ذلك في المواقع الأخرى في الهند وفي تركستان خاصة . وكان انصرافهم الى الشرق والى قلب آسيا ناجحاً وهاماً وإن كان في الوقت نفسه سبباً في إهمالهم مناطق البحر المتوسط والمغرب وخسارتهم فيها .

هـ - امتزاج أمور العلاقات الخارجية في كثير من الأحيان وفي كثير من أقاليم الأطراف مع الثورات وحركات التمرد على الحدود سواء في الهند أو آسيا الوسطى أو أرمينية أو الأناضول أو افريقية . كانت هذه الثورات غالباً ما تتصل مع القوى الخارجية وراءها أو كانت مناسبات نشوبها غالباً ما تستغل من قبل تلك القوى .

و - لم ينجم عن العمليات العسكرية أو الدبلوماسية العباسية رغم كثرتها وقوتها في هذا العصر العباسي الذهبي أي توسع أرضي في مساحة الدولة بالقياس الى العهد الاموي • وما كسبه العباسيون من الأرض في آسيا الوسطى وبلاد الترك تركوا مقابله في افريقيا والمغرب • و انتهت فترة الاستقرار والتألق العباسي ، والدولة في الواقع أصغر رقعة مما كانت في عهد أبي العباس والمنصور •

في ضوء هذه الملاحظات العامة يمكن أن نقسم علاقات العباسيين الخارجية حسب الجهات الجغرافية الى قطاع الشرق وتشمل المشرق كله بما في ذلك الروم وقطاع الغرب وتشمل البحر الأبيض المتوسط وما وراءه حتى بلاد الاندلس والفرنجة •

ونقسم قطاع الشرق إلى جبهتين جبهة المشرق والشمال ثم جبهة الروم •

١ - العلاقات مع الشرق والشمال (قطاع الهند،الصين، تركستان الخزر) :

تبدو المصادر شحيحة كل الشح في ذكر العلاقات العباسية الخارجية عامة مع هذه الأمم ولا سيما مع الهند والصين • وأوضح ما هو معروف منها :

أولا : فيما يتعلق بالهند مثلا : أن المهدي تابع سياسته أبيه المنصور في منطقة السند وقد تحركت جماعات الزط هناك تؤيدهم دون شك الممالك الهندية ورائهم فهاجموا الحاميات الاسلامية في مواقعها المتقدمة على حوض نهر السند الأدنى حيث تقوم المنصورية على دلتا النهر وبدل

المهدي اكثر من ثمانية ولاية على تلك المنطقة^(١) وكانت عنايته موجهة خاصة الى نشر الاسلام . وبينما صادفت هذه العناية الكثير من التوفيق كان السلطان العباسي على الحدود يضعف لأن القوى العباسية على الحدود وقعت ضحية النزاع القبلي القيسي اليماني الذي أخذ يظهر بشكله الشرس هناك بين المتوطنين العرب . وكان انشغال الولاية بالقضاء على هذه الفتن سبباً في تحرك الأمراء الهنادكة على الحدود واستعادتهم الأراضي والبلاد التي خسروها وضمها إلى إماراتهم وانحسار التوسع الأقليمي الذي حققه هشام التغلبي كما كان سبباً في تحرك الجماعات الهندية بتحريض من تلك الامارات دون شك ، للثورة على المسلمين . يدل على ذلك أن تلك الجموع السندية من قبائل الميد والزط (الجات) التي هاجر الكثير من أعدادها الى منطقة الأهواز والبصرة منذ ما قبل الاسلام والتي انضم بعضها للجيش الاسلامي في فتوحه حوالي سنة ٩٠هـ — ٧٠٨ م بسبب ماكانوا يعانونه من سوء معاملة الحكومات البرهمية باعتبارهم منبوذين محرم عليهم ركوب الدواب أو ارتداء غالي الثياب أو أن يمتنعوا من الحرف إلا أحقرها ، هؤلاء أنفسهم تحركوا ضد الوالي

(١) استعمل المهدي على السند : روح بن حاتم المهلبى فقدمها والزط قد تحركوا بها . فلم يقم إلا يسيراً . وولى نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعي . ثم ضمت السند الى محمد بن سليمان بن علي الهاشمي ثم استعمل عليها عبد الملك بن شهاب المسمعي (اقل من عشرين يوماً) وردت السند الى نصر بن محمد الخزاعي ثم استعمل المهدي عليها الزبير بن العباس ولم يبلغ البلد فاستعمل فصيح بن عمرو التغلبي وكانت العصبية بالسند أول ما وقعت فاستعمل الليث بن طريف مولاه فقدم المنصورة فأقام بها شهراً والزط قد كثروا فجرد عليهم السيف وأفناهم .. (اليقوبي ج ٢ ص ٣٩٨) .

الاسلامي مما دعا المهدي الى تهيئة حملة بحرية تأديبية الى تلك الحدود .
ويبدو أن هؤلاء الزط مع بعض القوى الهندية الأخرى كانوا يشكلون
قوات للقرصنة كان تهدد خطوط التجارة العربية أيضاً . بعد ان كانوا
في عهد المنصور يهددون البصرة نفسها ويهاجمونها . وهكذا ارسل
المهدي الى البصرة برجل من رجاله هو محرز بن ابراهيم ليشرف هناك
على إعداد اسطول بحري يقمع التجاوز الهندي على الأطراف الاسلامية
وعلى البحر العربي المحيط . ويبدو أن ثورة ذلك التجاوز وتلك القرصنة
كانت بلدة ناربند لأن الحملة التي أعدت في البصرة اتجهت رأساً إليها .
وكانت الحملة من القوة وكثرة المقاتلين بحيث توحى بأهمية ما عهد به
إليها من المهام . اجتمع للحملة عشرة آلاف مقاتل . وجههم المهدي في
البحر بقيادة عبد الملك بن شهاب المسمى . وقد فرض فيها لألفين من
أهل البصرة من الأجناد جعل على قيادتهم غسان بن عبد الملك نفسه
وأرسل ألفاً آخرين من مطوعة أهل البصرة بأموالهم يقودهم المنذر بن
محمد الجارودي ووجود هذه الجماعة البصرية الواسعة ولا سيما من
المطوعة بأموالهم في الحملة حتى أضحوا يشكلون ثلثها يكشف في الواقع
الدوافع الاقتصادية - التجارية الكامنة وراءها . وقد أشخص المهدي
معهم ١٥٠٠ من المطوعة الذين كانوا يلزمون المراتبات وعليهم عبدالواحد
ابن عبد الملك . و ٧٠٠ من مقاتلة أهل الشام (وهو أمر جديد في السياسة
العباسية كان بدأه المنصور باستخدام مجاهدة الشام في الحرب ضد
الروم) يقودهم يزيد بن الحباب المذحجي وأضاف الى كل أولئك أربعة
آلاف من الاسواريين والسيابجة وهم من الجماعات الهندية التي تجمعت
قبل العهد الاسلامي وأثناءه في جنوب العراق (ومنهم الزط) .

ونزلت الحملة سنة ١٦٠ مدينة ناربند فضربت عليها الحصار في

اليوم الثاني لنزولها • ونصبت عليها المجانيق وجميع الآلة • وكانت
الهجمة مفاجئة لدرجة أن المدينة سقطت عنوة في يومين ودخلت خيل
المسلمين عليها من كل ناحية والتجأ أهلها الى معبدتهم البد • فأشعلت فيه
النيران والنفط حتى احترق بمن فيه وأييدت المقاومة تماماً • وكانت
خسائر المسلمين بضعة وعشرين رجلاً • ولكن خاتمة هذه الحملة لم تكن
كأولها في النجاح إذ أصاب أفرادها بعض الوباء في الأفواه فمات نحو من
ألف رجل منها • وهاج البحر - بسبب الرياح الموسمية دون شك -
فأقامت الحملة حتى هدأ ثم أبحرت الى بعض سواحل فارس (بحر
حمران) فعادت الأنواء فعصفت بالمراكب ليلاً فكسرتها وغرق من غرق
ونجا الباقيون حتى قدموا والي البصرة ببعض الغنائم والسبي • ومن هذا
السبي بنت ملك ناربد^(١) • • • ولم تبق الحملة في الهند سوى عشرين
يوماً •

أما حركة الزط نفسها فكان يكفي أن يذهب الليث بن طريف مولى
المهدي الى المنصورة في السند ليقتضي على جموعهم في شهر واحد •
ولما تكررت حركتهم سنة ١٦٥ بعث المهدي بجيش من البصرة الى الليث
أنهى تلك الحركة • ويبدو أن هذا الوالي ظل في السند سنين طويلة
استطاع فيها بالشدة والقوة أن يقضي على تعصبات القبائل العربية من
جهة وعلى اطماع الإمارات المجاورة من جهة أخرى • غير أن هذه الولاية
أضحت عبئاً على الدولة اعتباراً من سنة ١٧٠ بدلاً من أن تكون درع

(١) انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٣٩٨ والطبري ج ٨ ص ١١٦-١١٧ ثم
ص ١٢٨ (٣/٤٦٠-١ ثم ص ٤٧٦) •

الحدود فقد توالى عليها عشرة ولاة على الأقل^(١) قبل أن تؤول السى داوود بن يزيد بن حاتم المهلبى سنة ١٨٤ الذي أوفد لحكمها أخاه المغيرة ابن يزيد نائباً عنه على العادة التى بدأت تنفشى فى تلك الفترة لدى كبار رجال الدولة - وإذا بالقبائل العربية فى السند تطالب المغيرة بقسمة البلاد بين أحيائها الثلاثة لأن العصبية النزارية اليمنية كانت قد مزقت العرب هناك بين قريش وربيعة وقيس . ولم يستطع المغيرة السيطرة على الموقف إلا بعد أن وصلت النجدات وجاء داوود نفسه من بغداد فحاصر المنصورة عشرين يوماً استسلم بعدها الثائرون . . . ثم لم يزل يحارب بقية المواقع الثائرة عدة شهور ويفتحها فى سائر مدن السند ويخرب ويقتل حتى استقامت له البلاد ، على مضض وإنهاك . . .

ولم تحاول الإمارات الهندية - فيما يظهر - أو لم تستطع استغلال هذه الفرصة لأنها كانت منذ زمن بعيد قد تألفت مع الواقع القائم ورضيت التعايش مع الحكم الاسلامى فى السند ، الذى كان يتحول الى نوع من الولاية الوراثية مكرراً فى المشرق القصة نفسها التى كانت تتم

(١) يعطينا اليعقوبى قائمة طويلة باسماء الولاة الذين تعاقبوا على السند أيام الرشيد : (كان عليها منذ عهد المهدي الليث مولى المنصور ثم استعمل الرشيد سالماً اليونسي مكانه ، ثم اسحق بن سليمان الهاشمي ثم طيفور بن عبد الله بن منصور الحميري وفي عهده بدأت العصبية اليمنية النزارية . ثم جابر بن الاشعث الطائي . ثم سعيد بن سلم بن قتيبة الذى وجه اخاه كثير بن سلم فأساء السيرة . ثم عيسى بن جعفر ابن المنصور فبعث إليها محمداً بن عدي الثعلبي الذى ضرب القبائل ببعضها وخرج من المنصورة يريد الملتان فلقيه أهلها فقاتلوه وهزموه ونهبوا مامعه من السلاح . وفر مهزوماً حتى صار الى المنصورة . فولى الرشيد عبد الرحمن . . ثم ولى ايوب بن جعفر بن سليمان ثم ولى داوود بن يزيد المهلبى سنة ١٨٤ . .) (انظر اليعقوبى ج ٢ ص ٤٠٩) .

في الوقت نفسه في افريقيا والمغرب وعلى أيدي رجال من بني المهلب ثم من غيرهم (كالأغالبة) .

فقد ولي داوود بن يزيد السند عشرين سنة ثم ورثها عنه ابنه بشر في خلافة المأمون ولم ينزع عنها إلا لأنه «عصى وخالف»^(١) فوجه إليه المأمون غسان بن عباد من أهل سواد الكوفة فجاء به بالامان الى بغداد وأخذ الولاية بعد ذلك موسى بن يحيى البرمكي حتى مات سنة ٢٢١ فورثها من بعده ابنه عمران ...

ولا تسجل هذه الفترة منذ أيام المهدي حتى أيام المعتصم من عمل عدائي على الحدود الهندية سوى ماكان من أمر الملك المدعو باله والذي بصفة البلاذري بأنه « ملك الشرقي » ويبدو أن أمراء الامارات الهندية كانوا قد اعتادوا الحضور بعسكرهم لتقديم الولاء والمعونة العسكرية للولاة المسلمين . يقول البلاذري «... وكان باله هذا (قد) التوى على غسان (بن عباد) وكتب إليه في حضور عسكره فيمن حضره من الملوك فأبى ذلك» فلما ولي الأمر موسى البرمكي قبض على هذا الملك وقتله بعد أن بذل له خمس مائة ألف درهم على أن يستبقيه فأبى^(٢) ...

وثمة عمل آخر قام به مولى من موالي أسرة عربية في الهند اسمه الفضل بن ماهان مولي بني سامة فقد استطاع افتتاح منطقة هندية ساحلية اسمها سندان وغلب عليها أيام المأمون وبعث إليه بفيل ، وكاتبه وبذل الولاء ودعا له في مسجد جامع بناه في تلك المنطقة التي قد يكون جعل منها مرفأً تجارياً للتجارة الاسلامية . ثم مات الفضل بن ماهان فورثه

(١) البلاذري - فتوح ص ٥٤٤

(٢) المصدر ذاته .

على الامارة ابن له اسمه محمد استطاع ان يقوم مقام ابيه وقد أقام
لنفسه اسطولا في البحر من سبعين بارجة ومشى به إلى «ميد» الهند
فقتل منهم خلقاً كثيراً وافتتح مدينة اسمها فالي ... ولعل السبب في
هذه الاعمال التأديبية هو المنافسة التجارية والقرصنة^(١) .. ولكنه حين
عاد الى سندان وجد أخاه ماهان بن الفضل قد غلب على البلد وقد كاتب
ال خليفة المعتصم . وأهدى إليه ساجاً لم ير مثله عظماً وطولاً الهند (وهم
الشعب والجيش دون شك) في أمر أخيه المتغلب فمالوا على (الفضل)
فقتلوه وصلبوه ...

لكن قصة هذه الإمارة انتهت بسرعة بعد ذلك اذ استردها الأمراء
الهنود وغلبوا على سندان^(٢) ولكنهم لم يمسوا المسجد والجالية
الاسلامية ... تركوه للمسلمين يجتمعون فيه ويدعون للخليفة ، الذي
كانت سمعته دون شك هي التي حمتهم ...

وعلى أي حال فإن علاقات أخرى من الود والتسامح والتعاون في
المصالح كانت تسود شيئاً فشيئاً منذ عهد الرشيد بين المسلمين والهند .
وإذا لم يظهر هذا بشكل واضح مع الإمارات الشمالية إلا متأخراً مع
توقف التوسع الاقليمي العربي فإنه على ما يبدو قد ظهر مبكراً مع مملكة
الدكن وساحل الملبار ومملكة سرنديب حيث تسود العلاقات المصالح
التجارية المتبادلة والتعاون السلمي .

(٣) يذكر المسعودي (مروج) « ولهم (أي للميد بوارج
في البحر تقطع على مراكب المسلمين المجتازة الى أرض الهند والصين
وجدة والقلزم وغيرها كالشواني في بحر الروم .. » .
البلاذري - فتوح ص ٥٤٥

والباحثون يذكرون أن ساحل الملبار ومملكة الدكن في ظل أسرة راشتراكوتا في القرن الثامن الميلادي (الثاني - الثالث الهجري) قامت بينها وبين العرب علاقات اقتصادية قوية وكان تجارهم يقدون إلى بلاد الدكن فيقابلون بالخفاوة والترحيب^(١) . وكانوا يأخذون منها خشب الساج لبناء السفن كما يتمتعون فيها بالحرية الدينية وينشئون الجليلات المقيمة ولا سيما في ميناء «كولم تلي» .

ونسمع الأصدقاء المقابلة لهذه العلاقات لدى المسلمين في بعض القصص العربي أو الأخبار ذات الطابع الأدبي . ويروي ابن عبد ربه في العقد الفريد^(٢) خبر قدوم وفد على الرشيد يحمل إليه الهدايا من أخذ ملوك الهند وأن الخليفة لم تعجبه منه إلا الكلاب السيورية أما بقية الهدايا فكانت عادية في نظره . وقد أمر بحسن وفادة السفراء وحنن جائزتهم . ولقد يضعف من الرواية أن نرى فيها الرشيد يأمر الأتراك في حرسه فيصطفوا صفيين لاستقبال الوفد ولم يكن اصطناع الاتراك شائعاً في عصره .

وعلى أن العلاقة القوية الواضحة تماماً هي العلاقة الحضارية فبالإضافة إلى وجود عدد من أهل السند والهند بين كبار رجال الدولة العباسية مثل: السندي بن شاهك مولى المنصور وصاحب شرطة الرشيد (وهو الذي قتل جعفر البرمكي) ثم ابنه إبراهيم وكان من كبار القضاة ، والسندي ابن يحيى الحرشي حاكم اليمامة والبحرين وعمان وغيرهم فإن الرشيد بعد المنصور استدعى الأطباء من الهند بعد أن شفاه الطبيب الهندي منكه

(١) انظر كتاب

Ishwari Prasada , History of Medieval India (Allahabad 1925) PP 30, 31

(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٢ ص ٢٠٣

من مرضه^(١) وقد أورد ابن أبي أصيبعة ثبوتاً بأسماء الأطباء والسيادة الهنود الذي نزحوا الى بغداد بعلومهم وكتبهم ... ونقلت عن الهند في هذا العصر العباسي نفسه بعض كتب الفلك (السند هند) والحساب وبعض الفلسفة والأدب .

وقد سجل ابن المرتضى اليمني خبراً رواه في صورتين مؤداهما واحد وهو أن ملك الهند أرسل يطلب من الرشيد عالماً مسلماً لمناظرة علمائه في الدين وكان الرشيد قد منع الكلام وحبس أهله فأرسل إليه محدثاً فخر المناظرة وكتب ملك الهند بذلك الى بغداد فغضب الرشيد وقال : أما لهذا الدين من يدافع عنه وأتوه بعلماء الكلام واستطاع صبي منهم أن يجيب على المسألة التي فاتت المحدث فوجهه أو وجه عالماً آخر الى الهند ... لكن الفيلسوف الهندي حين علم أن القادم من المتكلمين دس إليه من سمه ...

والقصة لو أنها تروى لدعم موقف المتكلمين إلا إنها من ناحية أخرى قد تكشف وجود العلاقة الكلامية الجدلية بين فلاسفة الهند ومتكلمي الاسلام في تلك الفترة وأنهم كانوا يتناقشون وأن بعض المسلمين كانوا يستدعون من العراق بعض الرجال خاصة للمناظرة والدعوة للاسلام^(٢) !

ومن الهام أن نسجل أن هذا التأثير الحضاري لم يكن وحيد الطرف ، ومن جانب واحد فمقابل ما أخذه العرب عن الهند من المعطيات الحضارية تأثرت الهند نفسها في ديارها خاصة بالاسلام لا عن طريق

(١) انظر خبر هذا الطبيب وقدمه في الطبري ج ٨ ص ٣٥٢
(٢/٣) (٧٤٧-٧٤٨)

(٢) انظر ابن المرتضى طبقات المعتزلة ص ٥٤-٥٥ وص ٥٨-٥٩

دخول الكثيرين من حوض السند في الدين ولكن أيضاً في إصلاح الديانة الهندوكية فتحت تأثير الاسلام والفتوح الاسلامية والتجارب الفكرية والصوفية الاسلامية ظهر لهذه الديانة مصلحون ومجددون أدخلوا بعض أفكار الاسلام إليها ومن أبرز هؤلاء سانكارا Sancara (٧٨٨ - ٨٢٠) الذي أعاد تصميم الديانة الهندوكية على ضوء التصوف الاسلامي الناشئ إذ ذاك وسميت حركته ألفيداتية ، ومثلها حركة البهاكتية الدرافيدية التي تأثرت بالتوحيد الاسلامي •

ثانياً : وعلاقات العباسيين بالصين لم تتحرك في الناحية السياسية على الأقل خطوات هامة خلال عصر الرشيد • أباطرة الصين استمروا على سياستهم الانكماشية فيما يظهر فترة طويلة ، أفادت الدولة العباسية والمسلمين في توطيد النفوذ العباسي والتبشير بالاسلام في مناطق تركستان وإثبات الحضارة العربية هناك وأما عن الطريق البحرية الممتدة من البصرة الى الصين فإن المقاطعة الاقتصادية التي فرضها الصينيون بعد نهب كاتون وتدميرها على الأجانب استمرت فترة تزيد على ثلث قرن ولم تفتح للتجارة من جديد إلا سنة ٧٩٢ (سنة ١٧٥) في ظل عهد الرشيد •

وليس من شك في أن الحركة البحرية التجارية لم تنقطع عبر المحيط الهندي مع الصين خلال فترة المقاطعة ولكنها كانت تجري بالواسطة ، وبشكل غير مباشر وكانت مراكب الصين تأتي بالبضائع للمبادلة حتى مضيق سنغافورة حيث توافيها المراكب الاسلامية وغيرها . ويظهر من بعض الأخبار الصينية أن عدة محاولات قد بذلت لإعادة فتح

ميناء كاتون المغلق للأجانب من التجار • وتحدث تلك الأخبار عن وفود وسفارات ترددت ما بين أباطرة تانغ وبني العباس • ولا حشير المصادر العربية أبداً الى شيء من تلك الوفود ولكن المصادر الصينية هي التي تذكر ثلاثة وفود على الأقل - أرسلها (هان - مي - مو - مينى) أي أمير المؤمنين (ألون) أي هارون الرشيد الى الصين • وقد وصل سنة ٧٩٨ - ١٨٣ (١) •

ولقد يكون بعض هذه الوفود وفود تجار ليس لهم المعنى السياسي وهم يحملون الهدايا الى بلاط الامبراطور ابن السماء لعله يفتح لهم أبواب التجارة المغلقة أو يفتح لهم موانئ جديدة أخرى ، ولعلمهم يوطدون بتلك الصلات ، وباسم الدولة الاسلامية الكبرى ، مراكرهم التجارية ويؤمنون على أموالهم وأرواحهم هناك لكن من المحتمل أيضاً أن يكون بعضها وفوداً سياسية أو سفارات رسمية قامت بتلك المهمة لمصلحة التجارة المتبادلة وقضايا الحدود التركية •

وعلى أي حال فما كاد ميناء كاتون يفتح من جديد للتجار المسلمين حتى تكاثرت أعدادهم هناك تكاثراً واضحاً سريعاً • ولا شك أن الامبراطور الصيني قد أخذ بعين الاعتبار كثرتها من جهة والدولة العربية العظمى التي تنتمي إليها حين أفرد لها مكاناً خاصاً من المدينة وأمر فعين لها قاضياً مسلماً وإماماً للصلاة كما سمح لها ببناء المساجد • • • وهي امتيازات تكشف ، بجانب الأهمية التجارية ، المكانة السياسية التي أخذتها

(١) درست هذه العلاقات من قبل بعض الباحثين ومنهم الألماني برتشنايدر في كتابه بحوث في العصور الوسطى ج ١ ص ٢٦٤ فمابعد (انظر الدوري - العصر العباسي الاول) •

الجماعات التجارية الإسلامية هناك في تلك الفترة^(١) . وقد بلغ من اعتياد هذه الجماعات بنفسها وبمكائنها حد الزعم بأن سعد بن أبي وقاص مدفون لديها هناك ! . . . وقد يكشف عن كثرة علم هذه الجالية وعن كثافة العلاقات التجارية التي كانت تقوم بين الصين والبلاد الإسلامية أن كارثة الهجوم الثوري على مدينة خانقو (كاتبون) سنة ٢٦٤ - ٨٧٨ ذبح فيها من الأجانب المسلمين والنصارى واليهود والمجوس وحدهم ما يزيد على ١٢٠ ألف نسمة !

ثالثاً : أما علاقات العباسيين مع الترك فقد ورث المهدي الجبهة التركية والمنطقة الخراسانية المقابلة لها هادئتين . كانت آخر الحركات في خراسان قد تلاشت منذ سنة ١٥١ . فقد ثار فيها سنة ١٥٠ أستاذسيز وشملت ثورته جميع أنحاء حتى منطقة سجستان وهراة ثم سحقت الثورة في السنة التالية . واستغل الخوارج تلك المناسبة فتحركوا في سجستان ويبدو أن المنطقة الشرقية منها كانت تتمتع باستقلال ذاتي وعليها أمير منها يدعى رتبيل فأعاتتهم أيضاً فأرسل المنصور سنة ١٥١ إليهم قائده معن بن زائدة الشيباني فاستطاع إعادة النظام إلى الاقليم كله في

(١) يرجع أول مسجد شيد في الصين (مسجد سنغ غنفر) إذا صدقنا نقشاً حجرياً فيه إلى السنة الأولى من حكم الامبراطور تعين باو أي إلى سنة ٧٤٢ (وهي السنة الأخيرة من عهد هشام بن عبد الملك) قبل قيام الدولة العباسية بشماني سنوات ولعل النقش كتب في وقت متأخر ولعل بناء المسجد يرجع إلى ما بعد ذلك بقرن أو بعض القرن . (راجع دائرة المعارف الإسلامية - مادة الصين) وأول صيني - تركي شهدته عاصمة الخلافة الإسلامية كان ييفو الذي وصل دمشق سنة ٧١٠/٩١ وبقي فيها حتى مات الوليد بن عبد الملك . والطبري يدعو جيفويه (الطبري ج ٦ ص ٤٥٩/٢ - ١٢٢٤) .

أشهر معدودة ولكن بالطغيان الإداري والظلم المالي وأعاد إلى الولاء
الإرغامي ملك سجستان الشرقية : رتبيل ثم دفع حياته ثمناً لتلك التهدة
الإرهابية إذ اغتيل في ظروف غامضة • على أن المنطقة عرفت على أي
حال بعض السنوات الهادئة حتى جاء عهد المهدي •

وسرعان ما تفجرت المنطقة كلها من جديد : ثار المقنع سنة ١٥٩
وارثاً ثورة استاذسيز المسحوقة في خراسان وثار يوسف البرم وارثاً
ثورة الخوارج في سجستان • ويبدو أن ملوك الشرق التركي قد استغلوا
المناسبة لمعونة الثوار ولعل بعضهم أسرف في ذلك فتحرك للثورة أيضاً
مثل بلاد السغد وفرغانة وفي الوقت الذي كان المهدي يحارب فيه البرم
في سجستان والمقنع في خراسان أرسل قائده أحمد بن أسد إلى فرغانة
حتى دخل كاشان ، المدينة التي ينزلها الملك^(١) فأقر النفوذ العباسي فيها
فلما سحقت في وقت متقارب ثورة سجستان سنة ١٦٢ وثورته المقنع سنة
١٦٢ أو سنة ١٦٣ عاد ملوك المناطق التركية المجاورة إلى تقديم الولاء
مرغبين لدولة المهدي • وقد عبر اليعقوبي عن ذلك الموقف حين لخص
في نص مقتضب علاقات المهدي بملوك الشرق كافة وخضوعهم له • وهو
شروع انقياد ربما كان من أسبابه انتصاراته القوية على الروم وقوة
وجوده العسكري في مناطق ما وراء النهر • يقول : «إن المهدي أرسل
رسولا إلى الملوك يدعوهم إلى طاعته فأجاب أكثرهم إلى الدعوة» •
ومن جملتهم :

— ملك كابل شاه ويقال له حنجل (وكابل هي عاصمة أفغانستان
الحالية) •

(١) الطبري ج ٧ ص ٤٦٣-٤٦٤ (٣/٧٩-٨٠) •

- وملك طبرستان الاصبهيد وهو وندا (أو بنداد أو ونداد) هرمز
- وملك الصغد الأخشيدي (وهو لقب والصغد مجموعة تركية) •
- وملك طخارستان شروين^(١) (وهو اسم الملك) •
- وملك باميان الشير (وباميان منطقة في غرب كابول) •
- وملك فرغانة فرنزان (وفرغانة منطقة تركية على الحوض الأعلى من نهر سيحون) •
- وملك اسروشنة الأفشين (واسروشنة منطقة تركية على الحوض الأوسط من سيحون) •
- وملك الخزلخية جيفويه (والخزلخية أو القارلوق حلوا محل التركش على الحوض الأدنى من سيحون • وأما جيفونه فهي تحريف في الكتب العربية للقب ينفو ويعني الملك عندهم) •
- وملك سجستان : رتبيل (في أقصى شرقي إيران) •
- وملك الترك : طرخان (وهو لقب) •
- وملك التبت : جهورن •
- وملك السند : الراي •
- وملك الصين : بغبور (وهو لقب ويعني ابن السماء تعين تزو) •
- وملك الهند : وابراج ، وهوفور •

(١) اليعقوبي ج ٢ ص

(٢) قد يكون المقصود لدى اليعقوبي هو شروين الملك الذي عرفناه في هذه الفترة في طبرستان وفي هذه الحالة فقد يكون اسم طخارستان مصحفاً عن سرخاستان أما إذا كان المقصود منطقة طخارستان وهي جزء من الافغان الحالية فيكون شروين هذا ملكاً آخر غير الذي مر معنا في طبرستان .

ب. وملك التفرغز : خاقان^(١) (والتفرغز) هي قبيلة السلاجقة فيما بعد) . وواضح أن هؤلاء الملوك إن كان بعضهم من الحكام المحليين قد قدم الطاعة للمهدي فإن الآخرين كملك الصين والسند والهند لم يعتبروا الرسول أكثر من ساع لإقامة العلاقات الطيبة . ولكن إرساله من قبل المهدي يعبر عن رغبته في إتمام الهالة « المهدوية » التي اصطنعها له أبوه من قبل ليجعل منه مهدي العالم .

وجاء الهادي فولى في خراسان خاله : الخطيرف بن عطاء^(٢) . « . . . وكانت هادئة الأمور ساكنة والملوك في الطاعة فظهر منه أمور قبيحة وضعف شديد فاضطربت البلاد وتحريك جماعة من الطالبين وصاروا إلى ملوك النواحي (الأتراك والايوانيون) فقبلوهم ووعدهم بالنصر والمغونة . . . »^(٣) على أن هذا الحلف الطالبى - التركي الإيراني لم ينجح لمطاردة الهادي للعلويين بشدة ولأنه توفي بسرعة .

ولم يتحرك ملوك الترك في السنوات الأولى من عهد الرشيد لكننا نجد تحرك التفرغز في الطالقان (على الحوض الأسفل من نهر سيخون) حوالي سنة ١٧٧ فأرسل الرشيد إلى خراسان بالفضل بن يحيى البرمكي وقد زحف صاحب الترك في خلق عظيم ولقي عسكر الفضل

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٩٧

(٢) كان الخطيرف وهو أخو الخيزران « غلاماً لرجل من أهل جرش (في الأردن) فاعتقه وكان يؤجر نفسه بنظر الكروم فبعث (المهدي) إلى عامله على جرش في حملته فوجده في كرم وعليه جبة صوف فكساه وخياه وحمله إلى المهدي فرفع منزلته » ثم ولاه على اليمن ثم على خراسان (انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٣٩٩) .

(٣) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٠٤

والتخمت بينهما الحرب...» ويبدو أن الفضل سجل النصر على الترك في معركتين إذ أن أحد الشعراء يقول في ذلك :

للفضل يوم الطالقان وقبله

يوم أناخ به على خاقان .

ما مثل يوميه اللذين تواليا

في غزوتين توالتا يومين !

ويبدو أن خاقان الترك «ضرب في وجهه» في المعركة الثانية . « فاستنام واستباح الفضل عسكره وغنم أمواله »^(١) وعقب ذلك على ما يظهر حضر سنة ١٧٨ عند الفضل بن يحيى صاحب أشروسنة يقدم الولاء وكان ممتنعاً قبل ذلك^(٢) .

على أن أخطر ما تعرضت له الحدود العباسية - التركية هو ذلك الخلف التركي - الخراساني الذي ظهر يوم ثورة رافع بن الليث في خراسان . فقد استطاع رافع سنة ١٩٣ أن «يستميل أهل الشاش وفرغاة وأهل خجندة وأشروسنة والصغانيان وبخارى وخوارزم وختل وغيرها من كوربلخ وطخارستان والسغد»^(٣) وما وراء النهر والترك والخرلخي والتغزغز وجنود التبت وغيرهم واستضربهم على قتال السلطان وقتل المسلمين وصار إلى سمرقند وتحصن بها «...»^(٤) حيث حاصره هرثمة

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٠٧

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ١٤٥

(٣) يسجل الطبري أن صاحب الشاش بالاتفاق مع رافع بعث فقتل

له عيسى بن علي سنة ١٩١ (ج ٨ ص ٣٢٣)

(٤) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٣٥-٤٣٦ وانظر الطبري ج ٨ ص ٣٧٣

ابن أعين ، بعد أن خرق السور الأول للمدينة ولا شك أن هذا الحلف إنما قام على أساس الكره المشترك للتسلط العباسي . وهو الكره الكامن الذي كان ينتظر دوماً مثل هذه المناسبات الاضطرابية ليظهر . وقد لعب جيفويه الخرخي دور الرياء والنفاق ضد العباسيين بجانب رافع رغم أنه كان قد أسلم على يد المهدي ... ثم كشف عن تحالفه الكامل مع رافع ... ولكن انهيار ثورة رافع فكك هذا الحلف كله . وأعاد ملوك الترك إلى الطاعة ...

ولم يتصل نفوذ الأمين بجهة الترك لأنها كانت من حصة أخية المأمون الذي تركز في خراسان واتباع هناك أو في بغداد بعد ذلك سياسة اسلام الترك . يقول البلاذري : « كان يكتب الى عماله في خراسان بغزو من لم يسلم من الأتراك واجزال العطاء لمن أسلم وإذا ورد ملوك الترك بابه بالغ في تشريفهم وأدر عليهم الأرزاق » (١) ...

ويقول اليعقوبي إن خراسان استقامت للمأمون « ولم تبق ناحية من نواحي خراسان يخاف خلافتها » « ... وأعطى ملوكها جميعاً الطاعة » بل أسلم بعضهم مثل ملك التبت الذي « ... قدم على المأمون بصنم له من ذهب على سرير من ذهب مرصع بالجواهر . فأرسله المأمون الى الكعبة يعرف الناس هداية الله لملك التبت ... » (٢) .

ومن هؤلاء الذين وردوا عليه مسلمين : «كاوس التركي ملك أشروسنة» . جاء مدينة السلام وأظهر الاسلام وملكه المأمون على بلاده ثم ملك ابنه حيدر بن كاوس الملقب بالأفشين ! ... ويحدثنا البلاذري

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٥٢٧-٥٢٩

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٥٢

غن المؤامرات الداخلية التركية التي انتهت بحيدر ثم من بعده بأبيه الى المأمون والاسلام والجيش الذي قاده أحمد بن أبي خالد الأحول فأناخ به على بلد أشروسنة ودخلها قبل أن تصل نجدات الترك الى كاوس الذي لم يجد بداً من الاستسلام والقدوم الى دار السلام والاسلام... ويضيف البلاذري قائلاً : «...» ثم استخلف المعتصم بالله فكان على مثل (سيرة المأمون) حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السغد والفراغة والأشروسنة وأهل الشاش وغيرهم وحضر ملوكهم ببابه وغلب الاسلام على من هناك وصار أهل تلك البلاد يغزون من وراءهم من الترك . وأغزي عبد الله بن طاهر ابنه طاهر بلاد الغوزية (الغز أو التفرغز) ففتح مواضع لم يصل إليها أحد قبله...» على أن سياسة المعتصم الظافرة على هذه الجهة كانت لها أسبابها كما كانت لها نتائجها المعاكسة في قلب بغداد وعلى منصب الخلافة نفسه .

وتبقى في النهاية : قضية سجستان إمارة الحدود المستقلة ما بين خراسان والهند . ويلخص لنا البلاذري علاقاتها في عصر الرشيد مع الخلفاء العباسيين تلخيصاً لا ينقصه إلا أن نذكر بأن الجماعات العربية التي توطنت بها كانت في غالبها على المذهب الخارجي وقد ثارت بها أكثر من مرة ثورات خطيرة قادها مرة يوسف البرم سنة ١٦٠ ومرة الحصين الثعلبي سنة ١٧٥ وكان آخرها بزعامة حمزة بن أترك سنة ١٧٩ الذي استمر في تحريك الجماعات العربية والجماعات التي أسلمت من السكان مع السكان الزارادشتيين أنفسهم والمناطق المجاورة لهم حتى ما بعد سنة ١٩٤ . أما السكان الأصليون وأميرهم المحلي الذي يحمل لقب رتبيل فيقول البلاذري : «...» ولم يزل عمال المهدي والرشيد يقبضون الإتاوة من رتبيل سجستان على قدر قوتهم وضعفهم ويولون عمالهم النواحي

التي قد غلب عليها الاسلام . ولما كان المأمون بخراسان أدبت إليه الإتاوة مضغفة . وفتح كابل وأظهر ملكها الاسلام والطاعة وأدخلها عاملة واتصل إليها البريد فبعث إليه منها باهليلج غض . ثم استقامت بعد ذلك حيناً . . .» (١)

رابعاً : أما الخزر في الشمال فظلت علاقاتهم مع العباسيين على الهدوء الحذر منذ هجومهم الواسع سنة ١٤٥ - ١٤٧ أيام المنصور ثم انسحابهم الى مواقعهم وراء القفقاس . وانصرف ولاية ارمنية منطقة الحدود المجاورة لهم ، الى سياسة تشبه سياسة العمال العباسيين في مناطق ما وراء النهر . غير ان مهمة هؤلاء الولاة كانت أصعب لا من ناحية الأعمال الحربية ولكن من حيث تعذر كسب السكان في الإمارات «الحاجزة» ومن الشعوب الصغيرة على الحدود للدين الاسلامي . فهؤلاء كانوا في جمهرتهم على المسيحية وبعض منهم على اليهودية مما جعل انتشار الاسلام فيهم محدوداً وجعل ولاءهم باستمرار قلقاً والريبة في علاقاتهم مع بيزنطة ومع الخزر قائمة على الدوام .

ولما كانت علاقة ارمنية بالخزر شبيهة بعلاقة خراسان مع ما وراء النهر وأرض الترك ، فقد اتبعت في تلك السياسة نفسها التي اتبعت في هذه . وهكذا فإنه حين ثارت بعض هذه الإمارات الأرمنية عقب وفاة المهدي ، اضطرت الولاة العباسيون الذين عينهم الرشيد لأن يوجدوا لانفسهم أولاً ركائز مطمئنة في المنطقة بالعودة الى سياسة التوطين العربي : بجانب سياسة العصا الغليظة مع امراء الحدود ومع الثائرين في البلاد (وكان بين هؤلاء جموع من السكان المحليين وجموع من الخوارج) .

(١) البلاذري - فتوح ص ٤٩٥

أ - بدأت سياسة التوطين منذ مطلع عهد الرشيد : نقل الوالي يوسف بن راشد السلمى جماعة من النزارية وكان الغالب على ارمينية اليمانية فتكررت النزارية أيام يوسف . ثم ولي يزيد بن مزيد الشيباني فنقل إليها ربيعة من كل ناحية حتى أصبحوا فيها هم الكثرة الغالبة . وقد ذكر اليعقوبي أنهم كانوا كذلك في عهده (أواخر القرن الثالث) . وتولى عليها عبد الكبير من ولد زيد بن الخطاب وكان منزله حران فصار إليها في جماعة من أهل ديار مضر . .

ب - واتبع الولاة سياسة القمع والشدة وهكذا :

أحمد خزيمه بن خازم ثورات ارمينية في أول عهد الرشيد حتى هدأت فلما كان بعد سنوات ولي البلاد الفضل بن يحيى البرمكي ، بسبب تحرك هجومي أو تعطيل للقوافل التجارية قام به أهل حمز بن فزار الفضل بنفسه إليهم وتوجه إلى ناحية الباب والابواب ولكنه فشل أمام قلعة حمز بن فانصرف لا يلوي على شيء حتى أتى العراق . . .

وانتفض أهل أرمينية بعد ذلك ولا سيما في الموقع الذي يسمى قلعة الكلاب بسبب الخراج ، كما ثار أهل البيلقان ثم انتفضوا وثاروا كرة أخرى فوضع فيهم السيف ، في الحالين ، يحيى الحرشي وأهل خراسان^(١) . ثم كانت الانتفاضة الثالثة فقام التحالف بين الشوار في المنطقة وبين الخزر .

ويبدو أن الخلافة في بغداد كانت ترقب في حذر شديد هذه التحركات . وقد حاول جعفر البرمكي أن يحصل على مسالمة الخزر أو هدثهم أو على التحالف معهم بالزواج السياسي على الطريقة الساسانية

(١) انظر تفصيل ذلك لدى اليعقوبي ج ٢ ص ٤٢٦-٤٢٧

القديمة وطريقة المنصور • وقد بعث بالفعل فطلب ابنة ملك الخزر للزواج وقبل الملك ذلك • ولكن المشروع فشل كرة أخرى كما فشل مشروع المنصور قبله بالموت السريع • إذ ماتت العروس في الطريق (ببلدة بردعة) فرجع من كان معها من الطراخنة الى أبيها فأخبروه أن ابنته قتلت غيلة فحنق لذلك • والطبري يجعل من هذا الأمر سبباً في الهجوم الواسع العنيف الذي خرج به الخزر كما قال – من باب الأبواب فأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة وسبوا – فيما ذكر – أكثر من مائة ألف • واتهموا أمراً عظيماً لم يسمع في الاسلام بمثله^(١) ...

ويقدم اليعقوبي^(٢) سبباً آخر للهجوم هو أن سعيد بن مسلم بن قتيبة الباهلي والي الرشيد «تعبث بالبطارقة فخالف عليه أهل الباب والأبواب ووثبوا بعامله النجم بن هاشم فقتله سعيد (ضرب عنقه بفأس)، فوثب ابنه حيون بن النجم فقتل عامل سعيد (الجديد) على الباب والأبواب وكشف رأسه للمعصية وكتب إلى خاقان ملك الخزر فزحف ... في خلق عظيم فأغار على المسلمين فقتل وسبى خلقاً عظيماً وسار حتى أتى جسر الكر وسبى خلقاً من المسلمين وقتل عالماً وحرق البلاد وقتل النساء والصبيان ...» •

وقول اليعقوبي يكشف أن سبب الهجوم الخزري هو «تعبث» الوالي بالبطارقة وثورة أهل الباب والأبواب وهي الممر الأساسي للتجارة مع الشمال الخزري • وقد يكون السبب في ذلك هو العدوان على

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٦٩-٢٧٠ (٣/٦٤٧-٦٤٨)
(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٢٧-٤٢٨ ولا ينسى الطبري هذا السبب ولكن النسخة المطبوعة تجعل اسم النجم : المنجم •

العملاء التجاريين للخزر (البطارقة) وفرض الضرائب الباهظة عليهم أو محاولة احتكار بعض التجارات • وقتل الوالي لعامله النجم قد يعني أن النجم لم يكن موافقاً على التدابير المالية - التجارية ولا على قمع المحتجين عليها • وابنه الذي كشف رأسه للمعصية واستعدى الخزر على المسلمين إنما جاءهم من ناحية مصالحهم التجارية المهددة التي ذهب أبوه ضحية الدفاع عنها فخرجوا لحمايتها ... وإذا صح ما ذكره المسعودي من تهور الخزر في عهد الرشيد فقد يكون لهذا التهور المستجد والانتقال الديني في الخزر علاقته الممكنة مع هذا الهجوم المفاجيء ، ومع سعته وغنفه خاصة •

وقد استمرت العملية الهجومية التخريبية سبعين يوماً حتى وصلت النجدات العباسية • ولم يكن هدوء الحالة بالسرعة التي ذكرها الطبري أي بوصول الجيوش بقيادة خزيمة بن خازم ويزيد بن مزيد • « فأخرجنا الخزر وسدت الثلمة » ! فإن خبر اليعقوبي يكشف تفاصيل أخرى تبين أن الرشيد غير عددًا من الولاة قبل أن ينجح في « سد الثلمة » المذكورة وهذا يعني أن فترة من الوقت قد تبلغ عدة سنوات انقضت قبل النجاح في إعادة الأمور إلى نصابها في ولاية الحدود هذه ولقد كانت الحالة العامة لأرمينية في هذه الفترة قابلة للانفجار لأسباب عديدة • وقد لخص البلاذري أحسن التلخيص موقف الأرمن خلال عهد المهدي والرشيد حتى المتوكل بقوله : بعد أن عدد الولاة الذي تعاقبوا على أرمينية : « ... ولم يزل بطارقة أرمينية مقيمين في بلادهم يحمي كل واحد منهم ناحية • فإذا قدم الثغر عامل من عماله داروه • فإن رأوا منه عفة

وحرامة • وكان في قوة وعدة أدوا إليه الخراج وأذعنوا له بالطاعة وإلا اغتمزوا فيه واستخفوا بأمره •••» (١) •

والواقع أن معركة (بغرقاند) سنة ٧٧٢ - ١٥٥ في أواخر عهد المنصور على قسوتها لم تحطم الارستقراطية المحلية المتحالفة والمتعاونة مع الكهنوت • وبالرغم من أن الكثير من الأرمن تخلوا عن أسرة ماميكونيان حتى إن أمير (فاسبوراكان) قتل ولدي موشائيل اللذين هربا إليه لتخلص من عواقب لجوئهما وادعى أن أباهما كان سبب الكارثة التي حلت بالأمن بينما تزوجت ابنة موشائيل من أمير مانيزكرد المسلم أسحق بن أسماعيل ابن شعيب (٢) الذي طمع في الوصول إلى حكم المنطقة من خلال الزواج إلا إن امراء الاسرة الأخرى : بغرتوني Bagratouni ظلوا أقوياء • وقد استطاع اثنان منهما أن يحققا بعض السمعة والثروة عن طريق مهاجمة الجند الاسلامي ومن هؤلاء آشوط خفيد آشوط الأعمى القديم (٣) •

وظلت المنطقة باستمرار بين جذب المقاومة المحلية وشد العمال العباسيين الذين ربما اضافوا في عهد المهدي والهادي الى القسوة في جمع الضرائب محاولة نشر الاسلام • وتذكر بعض الأخبار الأرمنية ان خازم

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٢٤٧

(٢) تذكره المصادر الأرمنية باسم شهاب فقط Jehap وهو مولى بني أمية •

(٣) انظر فارطان - التاريخ العام (المقتطفات الفرنسية) ص ١١٠ وآشوط هذا هو : ابن آرت - نرسه ابن فاساك بن آشوط الذي سجل سنة ٧٥٠ من قبل أمير أسرة ماميكونيان المسمى غريفواز • وقد جاء اسم آشوط في البلاذري (طبعة المنجد ص ٢٤٨) على أنه بن حبرة بن جاجقي بطريق البسفرجان •

(وهو خزيمة بن خازم) والي أرمينية حوالي سنة ٧٨٥ (أي في عهد الهادي) حاول إرغام بعض أمراء أرمينية وجورجيا على الاسلام وقتل ثلاثة منهم في ذلك ويبدو أن السبب في القتل لم يكن الدين ولكن لأن «خزيمة كان أشد (الولاة) ولاية - كما يقول البلاذري وهو الذي سن المساحة بديل والنشوى ولم يكن قبل ذلك ...» ولقد يكون هؤلاء الأمراء إنما قاوموا - بسبب أملاكهم الواسعة - في فرض الخراج على أساس المساحة ثم أنهم ثاروا بالفعل مدة أيام الهادي فكان عقابهم القتل ثم عزت الأخبار الأرمينية ذلك الى الدين لأن عملية التحول الديني كانت في ذلك الوقت قائمة ... وهكذا كانت المنطقة مستعدة للتمرد عند أي بادرة من بوادر الضعف في الحكم العربي ولقد حاول الرشيد بعد الهجمة الخزرية أن يتلافى مضاعفاتها وما قد يكون لها من العواقب المشابهة لعواقب الهجمة السابقة زمن المنصور . فأرسل النجيدات والعمال للتهدة الداخلية لا سيما وقد أثار الغزو الخزري الثورة بالفعل في منطقة شروان . الممتدة بين باكو (النفاطة) وباب الأبواب على شواطئ بحر الخزر .

أرسل الرشيد أولا عاملين (نصر بن حبيب المهلبى وعلي بن عيسى ابن ماهان) قبل أن يستقر أمره على إرسال يزيد بن مزيد الشيباني فكانت مهمة هذا القائد ، في المرحلة الأولى من التهدة والدفاع ، على ثلاث خطوات نراها لدى اليعقوبي :

«أن يلائم الناس ويصلح البلد» وأن يوحد الصف العربي «فساوى بين النزارية واليمانية» وأن يطمئن السكان المحليين «فكتب الى أبناء الملوك والبطارقة ييسط آمالهم»^(١) ... فاستوى البلد .

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٧٢

لكن هذه السياسة المهادنة لم تدم طويلا بسبب موت ابن مزيد ، في بردعة مقر الولاية سنة ١٨٥-٨٠١ فجاء خازم بن خزيمة^(١) من بعده بسياسة جديدة معاكسة : «... فأخذ البطارقة وأبناء الملوك فضرب أعناقهم وسار فيهم أسوأ سيرة • فعادت الثورة من جديد إذ انتقضت جورجيا والصنارية»^(٢) وسحقوا الجيش الأول الذي أرسل ضدهم ثم استطاع الجيش الثاني أن ينتصر وأن يجبرهم على الجلاء من مواطنهم إلى أواسط المنطقة في تفليس • وهو تدبير اداري يقصد الى حرمان الارستقراطية الاقطاعية من أملاكها ومن الاتصال بالروم أو بالخزر • وكان هذا التدبير من السياسة المألوفة في ذلك العصر •

على أن الأرمن الصنارية ما لبثوا على ما يبدو أن استفادوا من ضعف الوالي الجديد الذي أعقب خزيمة فثاروا كرة أخرى ليعود العمال العرب إلى قتالهم ! ••

وإذا كان الخطر الخزري قد توقف الآن فإن المنطقة نفسها أضحت خطرة المصير وكان قائد الحركات المتكررة من التمرد هو آشوط الذي تذكر له المصادر الأرمنية عدداً من أعمال المقاومة وتذكر أنه استطاع احتلال بعض البقاع الأرمنية وفرض سلطانه فيها وزيادة ثروته بسبب كثرة الغنائم وبناء بلدة كاماكس (آني) واتخاذها مقراً لحكمه وأسرته^(٣)

(١) ولي خزيمة بن خازم أرمينية مرتين الاولى في مطالع عهد الرشيد سنة ١٧٠ وبقي سنة ونيفاً والثانية في اواخر عهده (انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٤٢٦ و ص ٤٢٨) •

(٢) يذكر اليعقوبي (٢٤٧/٢) انها جرجان وهو خطأ بالطبع من النسخ لان جرجان في الشرق الجنوبي من بحر الخزر ولا علاقة لها بأرمينية • وقد اتبع عمال المهدي ثم الهادي سياسة العنف في ارمينية •

(٣) انظر فارتان - التاريخ العام (المقتطفات الفرنسية) ص ١١١ - ١١٢ وآني (كاماكس) هذه ليست هي آني الموجودة في أعالي الفرات •

وقد استفاد آشوط والبطارقة الآخرون من أيام الفتنة بين الأمين والمأمون «فعاشت أرمينية في سلام — كما يقول المؤرخ الأرمني — وبدأ أمراؤنا يصبحون أقوياء كل واحد منهم في موضعه ٠٠٠»^(١) بل أدى ذلك إلى إيجاد دولة حاضرة تقوم بين الخزر وبين الدولة الإسلامية إذ «منح الخليفة لآشوط حكم منطقة جورجيا فاستسلمها وأرسل إليه امبراطور بيزنطة لقب تشریف»^(٢) ويبدو أن ذلك كان زمن الأمين وامتد حتى آخر عهد المأمون لأن حكم آشوط هذا دام ما بين سنة ٨٠٩ الى سنة ٨٣٣ (١٩٣ هـ — ٢١٧ هـ) .

وقد ظهر التعاون واضحاً في هذه الفترة ما بين جورجيا وبيزنطة لا سيما في عهد الامبراطور ليو الخامس الأرمني (٨١٣ — ٨٢٠) بينما تضاءلت بالعكس سيطرة الخلافة العباسية على أرمينية . يقول البلاذري: « ٠٠٠ ووليهم خالد بن يزيد بن مزيد في خلافة المأمون فقبل هداياهم وغلطهم بنفسه فأفسدهم ذلك من فعله وجراهم على من بعده من عمال المأمون ثم ولي المعتصم بالله الحسن بن علي الباذ عيسى المعروف بالمأموني ، الثغر ، فأهمل بطارقه وأحراره ولان لهم حتى ازدادوا فساداً على السلطان وكلباً على من يليهم من الرعية ٠٠٠) (ووثبوا في كل ناحية) ثم ولي ارمينية عمال كانوا يقبلون من أهلها العفو ويرضون من خراجها بالميسور ٠٠٠»^(٣) .

وهكذا أصبحت منطقة أرمينية لمن غلب : ثار فيها ابن شعيب وغلب

(٢) المصدر السابق ص ١١٣

(٣) المصدر السابق نفسه ولقب التشریف المذكور وهو Curopalate

كان يحمله جده آشوط الأعمى .

(٤) البلاذري — فتوح البلدان ص ٢١٨

مع ابنه عبد الله على ما تحت يده من منطقة دوين ومازكرد وثارالقيسية بالاتفاق مع الأرمن الصنارية وثاروالى تفليس العربي . وتعقدت الأمور في أرمينية حين ثار فيما حولها بابك الخرمي بينما كانت إمارة أشوط تمتد ما بين البحر الأسود وسفوح القفقاس وتفليس . ثم استطاع أمراء من أسرة ماميكونيان أن يدمروا إمارة ابن شعيب وجيشه ويأخذوا منه بلدة دوين^(١) كما لجأ أحد أمراء هذه الأسرة نفسها هارباً من امبراطور بيزنطة الى المأمون الذي اكرمه غاية الاكرام ومنحه راتباً يومياً قدره ١٣٠٦ دراهم وأهداه الهدايا الكثيرة المستمرة^(٢) . . . قبل أن يعود فيهرب إلى بلاد الروم . .

ومقابل هذا الذي تفصله المصادر الأرمينية يعطينا اليعقوبي تفاصيل الصورة الأخرى من الناحية الاسلامية^(٣) . ونرى فيها اسما وأعمال الولاة الذين توالوا على المنطقة زمن المأمون وصدام بعضهم ببعض أو ثورة بعضهم على السلطة المركزية كما نجد تعقد الأمر بسبب مجاورة المنطقة لثورة بابك وانعكاساتها فيها والاصطدامات بسبب العصبية أو المعتقد الديني والاتفاق مع الصنارية الأرمن ضد الدولة . وهكذا كانت قصة أرمينية والحدود مع الخزر هي قصة الانتفاضات

(١) انظر تفاصيل ذلك لدى فارطان ص ١١٤-١١٥ .

(٢) فارطان ص ١١٤ ويشير اليعقوبي (ج ٢ ص ٤٦٤) الى القائد علي ابن يحيى الارمني من قبل خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني اثناء المعارك التي قادها بعض القيسية بالاتفاق مع الارمن الصنارية ضد الدولة واسر مع علي جماعة أخرى ووجه بهم خالد الى المأمون «فصيرهم في ناحية اخيه ابي اسحق المعتصم وضمهم اليه وفرض لهم . . .» .

(٣) انظر التفاصيل التي يقدمها اليعقوبي لحالة أرمينية في عهد المأمون في التاريخ ج ٢ ص ٤٦١-٤٦٤ .

من الارستقراطية الأقطاعية الأرمنية والعربية وإخمادها وممالة السكان الأرمن لمختلف التأثيرين وقيام الدول المحلية الحاجزة • وتلك هي تماماً القصة على جبهة خراسان التركية • بمعنى أن الهجوم الاسلامي على الخزر للانتقام أو للفتح لم يرد في مخططات الرشيد كما لم يخطر في بال الخلفاء من بعده ولم يكن ممكناً أن يخطر • وبالمقابل فإن الهجمات الخزرية انتهت بعد ذلك فلم تتكرر ولعل السبب في توقفها النهائي هو اعتماد الجيش الخزري على الخوارزميين المسلمين الذين اشترطوا على «البك» قائد الجيش أن لا يدخلوا في أي حرب تقع مع المسلمين ، ثم ظهور الإمارة السلافية الروسية في موسكو وتهديدها للدولة الخزرية واخيراً انقسام الحلف الخزري – البيزنطي بسقوط الاسرة الايسورية في بيزنطة خلال عهد الرشيد نفسه سنة ٨٠٢ (١٨٦ هـ) •

٢ – العلاقات مع الشمال الغربي (جبهة الروم)

لعل أهم وأقصى أشكال العلاقات الخارجية التي عاشها العباسيون الاوائل إنما كانت علاقاتهم مع الروم • وكانت جبهة الروم هي الجبهة التي أخذت من وقت وجهد ومال ودماء الدولة العباسية اكثر بكثير مما أخذت أي جبهة أخرى • ولهذا ولأنها ظلت كذلك عدة قرون فإننا نجد من الضروري الوقوف عندها بعض الوقوف • وندرس منها : الجانب البيزنطي من جهة ونظام الدفاع العربي من الجهة الأخرى • كما ندرس العمليات الحربية التي تست على أيدي الخلفاء العباسيين ثم معنى هذه العمليات وتائجها وأخيراً العلاقات الحضارية بين الطرفين •

البيزنطيون : تنابع على عرش القسطنطينية في فترة الاستقرار العباسي بقية الاسرة الايسورية : ليو الرابع الخزري (٧٧٥ م ٧٨٠ م) وقسطنطين السادس (٧٨٠-٧٩٧) وقد كانت أمه ايريني وصية عليه ثم

سملت عينيه واستأثرت بالتاج خمس سنوات (٧٩٧ - ٨٠٢) واضطرب عهد الایسوريين بعدها : غضبها العرش اولا نقفور (٨٠٢ - ٨١١) ثم جاء ستوراكيوس فيمخائيل الاول رانغاب (٨١١ - ٨١٣) ثم ليو الخامس الارمني (٨١٣ - ٨٢٠) ووصلت الى السدة الامبراطورية بعد ذلك الاسرة العمورية (الفريجية) فكان منها ميخائيل الثاني الاعجمي (٨٢٠ - ٨٢٩) ثم تيوفيلوس (٨٢٩ - ٨٤٢) وفي عهده انتقل العرش العباسي الى المعتصم ..

وقد تأثرت علاقات الدولة العباسية والبيزنطية بتعاقب الخلفاء والاباطرة المختلفين على عرشي الدولتين . ولكنه تأثر محدود . والوصف الاساسي الذي يمكن أن يعطى لتلك العلاقات انها كانت علاقات عدائية دوماً واستعراضها لا يزيد عن أن يكون سجلاً رائعاً ، وإن يكن متشابهاً تشابهاً يصل درجة الملل لحملات حرية سنوية تحرث حرثاً عواناً متمادياً منطقة الحدود التي يتراوح عرضها بين ٢٠٠ و ٥٠٠ كم والتي تمتد الى الغرب من خط يصل منابع الفرات بخليج الاسكندرونة . وقد كانت هذه الحدود ملوثة لدى الجانبين العربي والرومي بالمدن - الحصون .

فأما على الجانب الرومي فقد كان البيزنطيون قد نظموا دفاعهم تنظيماً يعود في أسسه الى عهد حروبهم مع الساسانيين وهو تقسيم الجبهة من جهتهم الى مجموعة مقاطعات عسكرية الادارة تدعى تيمات (أو بالاصطلاح العربي : بند أو عمل) وقد تطور هذا النظام منذ عهد جستنيان وهرقل ، ومن خلال تجارب الحروب الأليمة مع العرب الأمويين حتى بلغ درجة الإحكام في عهد الاباطرة الایسوريين في القرن الثامن . ويقوم نظام البنود على توطين فرق الجند للدفاع في مراكز محصنة وجعل القائد العسكري هو رأس السلطة المدنية . وهكذا كانت جبهة الروم

مقسمة لديهم الى أربعة بنود أو أعمال - حسب اصطلاح ابن خرداذبه -
بند أرمينية (ويقابل الثغور الجزرية) وبند الأناضول (ويقابل الثغور
الشامية) وبند الأوبسيكيون وهو يمتد حول بحر مرمرة لحماية العاصمة
القسطنطينية وبند بحري أطلق عليه اسم (القبرصي - كيرايتوت) وكان
يشمل الشاطئ الجنوبي من آسيا الصغرى والجزر القريبة منه . وقد
جعل الايسوريون لكل بند أقساماً فرعية خشية من طموح القواد ،
وزيادة في إحكام الدفاع ضد الهجمات العربية فلما جاء أباطرة الاسرة
العمورية اقتطعوا مما بين بندي ارمينية والأناضول منطقة الممرات
الجبلية وجعلوها ولاية حدود^(١) وكان قائد البند البزنطي يحمل
لقب استراتيج .

نظام الدفاع العربي : أما على الجانب العربي فقد كانت الحصون
التي تقابل العدو مقابلة مباشرة تدعى بالثغور . وهي تقسم في ذلك
العصر ، ومنذ العهد الأموي ، الى مجموعتين :

أ - الثغور الشامية (مقابل عمل الأناضول لحد كبير) وتشمل ما بين
طرطوس الى الهارونية من المدن الحصون بما في ذلك أذنة . المصيصة .
عين زرية . سيس . أي الحصون القائمة في حوض نهري سيحان وجيحان
مقابل جبال طوروس من جهة الشرق .

ب - الثغور الجزرية (مقابل عمل أرمينية) وهي حصون تمتد على

(١) كتب ابن خرداذبه كتابه المسالك والممالك في اواسط القرن
التاسع الميلادي (سنة ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م) اي في عهد الواثق والمتوكل وهو
يقسم الجهة الرومية مع العرب الى تسعة أعمال هي: القبادق . سلوقية .
خلدية . الارميناق . البقار . خريسون . الناطلوس . ترقيسيس .
الابسيق .

منطقة أوسع بكثير من الأولى وتتوزع في أحواض منابع الفرات منذ
مرعش ودابق من جهة الغرب الى حاني وشميشاط حتى منازل كرد من جهة
الشرق • ويدخل فيها حصون : الحدث • زبطيرة • سميساط • حصن
الروم • ملاطية • حصن زياد • خرتبرت • وربما فصلت ثغور شميشاط
وحاني وما بعدها في مجموعة ثلاثة لوحدها ودعيت بالثغور البكرية (نسبة
الى ديار بكر) كما يطلق اسم الثغور البحرية على سواحل الشام كلها
وسواحل مصر •

وكانت منطقة شمال الشام ، من حول مدينة حلب ، تدعى
بالعواصم •• وتمتد من انطاكية وبلدة باياس على خليج الاسكندرونة
حتى بلاد عين طاب ، ومنبج وبالس والرافقة من جهة الفرات ، وهي منطقة
جبال اللكام وما وراءها حتى الفرات • وقد سميت بالعواصم - كما يقول
قدامة بن جعفر - «لأنها تعصم الثغر وتمده في أوقات النفير»^(١) ومركز
العواصم منبج في الداخل وانطاكية في الساحل وربما اختصت الأولى
بثغور الجزيرة والثانية بثغور الشام أو اشتركتا في ذلك •

والبلد الذي يمكن ان يعتبر جغرافياً مركز توزيع الثغور والعواصم

(١) قدامة بن جعفر نبد من كتاب الخراج (ملحق بابن خرداذبة)
ص ٢٥٣ : ٥ ويلاحظ أن قدامة يجعل الثغور أنواعاً ثلاثة : برية تقابل
العدو من جهة البر وبحرية تلقاه وتواجهه من جهة البحر • ومنها ما يجتمع
فيه الأمران وتقع المغازي من أهله في البر والبحر ويضيف قوله : «والثغور
البحرية على الإطلاق سواحل الشام ومصر كلها والمجتمع فيه الأمران غزو
البر والبحر : الثغور المعروفة بالشامية .. »

هو منطقة دلوک فمنیها والی الشرق والشمال ثغور الجزيرة ومنها الی الغرب ثغور الشام ومنها والی الجنوب العواصم •

ولعله یجب أن نضیف الی ذلك بعض الملامح الأخری فی الجبهة فقد کان ثمة أيضاً :

أ - الأربطة (جمع رباط) وهي المواقع المحصنة ، كأنها الأديرة ، یرابط فیها المجاهدون وتشحن بالذخيرة وتشبه مراكز المراقبة ومخافر الحدود • وقد یقوم بعضها فی المناطق البریة بین الثغور ولكن معظمها إنما نشأ وتطور علی السواحل الشامیة ما بین طرسوس حتی أقصى جنوب فلسطين وکان الروم یعتبرون هذه السواحل ، بسبب قوتهم البحریة ، مواقع للغزو والهجوم فأقیم نظام الأربطة علیها منذ العهد الأموی • وکان المرابطون فیها من المتطوعین للجهاد وتقطعهم الدولة الأرض من حولها یحرثونها ویستثمرونها مقابل الحراسة والرقابة للغارات المفاجئة • وقد کان یلتحق ببعض هذه الأربطة أحياناً بعض الشیوخ المتدینین طلباً للجهاد كما یلتحق بها أحياناً بعض من تطردهم الظروف السیاسیة من میدان الحكم (ومنهم بعض أمراء البیت العباسی) ثم تحولت هذه الأربطة بالتدریج الی مراكز لبعض المتصوفة ونمت فیها بعض فرقهم من بعد •

وقد تصبح هذه الأربطة مراكز فداء وتبادل أسرى • وقد ترك لنا المقدسی البشاری صورة من صور هذا الفداء وطریقته رآها فی الساحل الجنوبي من فلسطين ووصف اتصال الأربطة بعضها ببعض یقول : «... فیقع بها النفر وتقلع إلیها شلندیات الروم وشوانیهم معهم أسارى المسلمین للبیع ، كل ثلاثة بمائة دینار وفی كل رباط قوم یعرفون لسانهم ویذهبون إلیهم فی الرسالات ویحمل إلیهم أصناف الأطعمة وقد ضج بالنفیر لما ترایت مراکبهم • فإن کان لیل أوفدت منارة ذلك الرباط وإن

كان نهار دخنوا • ومن كل رباط الى القصبة عدة مناير شاهقة قد رتب فيها أقوام • فتوقد المنارة التي للرباط ثم التي تليها ثم الأخرى فلا يكون ساعة إلا وقد أنفر بالقصبة وضرب الطبل على المنارة ونودي الى ذلك الرباط • وخرج الناس بالسلاح والقوة واجتمع أحداث الرساتيق • ثم يكون الفداء : فرجل يشتري رجلا وآخر يطرح درهماً أو خاتماً حتى يشتري ما معهم • ورباطات هذه الكورة التي يقع بهن الفداء : غزة • ميماس • عسقلان • حوز • يافا ، أرسوف •••»^(١) •

ب - المنارة والمناظر : وإذا كان النص الذي أورده المقدسي قد كشف معنى المنارة ودورها وعملها في الشواطئ فقد كان ثمة معها أيضاً في مناطق الجبال ما يسمى بالمناظر (جمع منظر) أو بالمرقب وهي المواقع في رؤوس الجبال يوضع فيه الرقباء لمراقبة العدو والاشراف على الطرق والدروب •

ح - الضواحي وهي مناطق الحدود التي يتركها الطرفان المتحاربان خالية وينقلون السكان منها •

ء - المسالحي وهي المواقع المحصنة التي يوضع فيها السلاح خاصة والرجال احتياطاً للطوارئ •

هـ - المطامير (ج • مطمورة) وهي كهوف أرضية في جنوب الاناضول ووسطه تحت الحصون أو قربها كان يلجأ إليها الناس من ويلات الحرب وقد اشتهر أمرها في العصر العباسي حتى سمي الاقليم بالمطامير أو ذات المطامير • وما تزال هذه الصفة واضحة في المنطقة إلى اليوم هذه الثغور والعواصم والأربطة والمناير والمناظر والضواحي

(١) المقدسي - احسن التقاسيم ص ١٧٧ •

والمسالح كانت مناظر النظام الدفاعي العباسي وأدواته وتشكل فيما بينها نظاماً دفاعياً - هجوماً متكاملًا تجري في إطاره عمليات الغزو والجهاد والدفاع .

العمليات الحربية : كانت جبهة الروم تسخن أو تبرد وتهدد تبعاً للظروف المتغيرة في كل من العاصمتين : بغداد من جهة والقسطنطينية من الجهة الأخرى . ونستطيع أن نأخذ فكرة عن حركة المد والجزر الحربي المتبادلة عليها من خلال الغزوات والعمليات الحربية التي حققها الخلفاء واحداً بعد الآخر . على أننا يجب أن نقرر أن الجهاد العباسي ضد الروم قد بلغ ذروته في هذه الفترة من العهد العباسي ما بين خلافة المهدي وخلافة المعتصم . وإذا كانت فترة توطيد الدولة في عهد المنصور لم تشهد أعمالاً حربية واسعة على الجبهة الرومية فإن ديب الوهن قد دب في القوى العباسية في عهد كل من الواثق والمتوكل . وكانت آخر التآلقات الجهادية على تلك الجبهة ، أعمال المعتصم .

آ - غزوات المهدي : يسكن لحد كبير القول إن المهدي هو الذي وضع لجبهة الروم ذلك التقليد في الغزو السنوي وفي الحملات الدورية الوقائية وإذا كان استقرار الدولة قد سمح له أن يتابع سنة أبيه في أيامه الأخيرة في الهجوم الوقائي على الروم فإنه هو أول من اتبع خطة التوفيق والتوازن ما بين تصعيد الحرب معهم إلى الدرجة القصوى والمحافظة في الوقت نفسه على المواقع والحدود فلا يترتب على الغزوات احتلال لمواقع جديدة أو عمليات تؤدي لتطويق العاصمة أو إلغاء الوجود البيزنطي . وإذا كانت خطة المنصور في النصف الثاني من خلافته هي خطة الترقب والحذر والإجابة على الضربات الرومية بالدفاع والتحصين وبالهجوم في بعض الأحيان ولا سيما في السنوات الأخيرة ، فإن المهدي جعل من الغزو السنوي عملية جهاد تقليدية تدعم «مهدويته» وتؤكد

فقط تمسكه بركن من أركان الدين لا بد لإمام المسلمين وراعيهم من القيام به . وهكذا بينما تتكرر في حوليات المؤرخين أيام المنصور قولهم: «لم يكن للمسلمين صائفة هذا العام» أو «لم يدربوا (أي يدخلوا الدروب في جبال الروم)» أو «لم يكن غزو» نجد أنهم في زمن المهدي يكررون في السنوات العشر كلها (عدا سنتي الهدنة) كلمة غزا أو أغزي . ومع ذلك لم يترتب على هذا الغزو المتكرر أكثر مما ترتب على تربص المنصور المتكرر من نتائج . ولقد غزا المهدي كثيراً وقام بحملات حربية هامة جداً على الجبهة الرومية ولكنه في الوقت نفسه بنى وأحكم بناء معظم حصون الحدود والثغور مما يوحي بوضوح أنها كانت في نظره ، هي النهاية لا البداية .

وأوجد المهدي تقليداً جديداً آخر في الحرب مع الروم هي الخروج بنفسه إلى تلك الحرب . والبقاء على مقربة من الجبهة في أثناءها . لم يكن ذلك من التقاليد الأموية وإذا كان الروم يتبعونه باستمرار ويباشرون حروب العرب وغيرهم بأنفسهم فلأن معظمهم كانوا من القواد العسكريين . أما العباسيون الجدد في الدولة فلم يقد الحروب منهم أبو العباس ولئن قادها أبو جعفر وهو ولي للعهد فإنه لم يقدها مباشرة وهو خليفة ولم يخرج خاصة لحرب الروم . والمهدي هو أول من فعل ذلك واتبعه من بعده ابنه الرشيد وحفيده المأمون والمعتصم ثم الواثق . . . ثم أغلق الخلفاء العباسيون على أنفسهم أبواب القصور في بغداد وسامراء . . . إلى أن دخل عليهم هولاء تلك القصور (١) .

(١) باشر بعض الخلفاء في القرن السادس والسابع الهجريين بعض الحروب ولكن ضد خصومهم ولحفظ سلطانهم السياسي المحلي وليس ضد الروم ولا ضد الصليبيين .

وظهر في عهد المهدي تقليد ثالث هي إنفاذ «موالي» الخلفاء على قيادة الجيوش ضد الروم . وإذا استعمل المنصور أول من استعمل مواليه ، في الحرب والإدارة ، فقد كان لجهة الروم مكانها الخاص — على ما يظهر — عنده فظل قوادها من العرب ، وأحياناً كثيرة من العباسيين وأما المهدي فأدخل عليها قيادات «الموالي» من مواليه أمثال الحسن الوصيف والربيع بن يونس الحاجب .

مهد المهدي لأعماله العسكرية على جبهة الروم بعملية من التهديد ذكرها بعض مؤرخي الأرمن إذ أرسل الى الامبراطور البيزنطي مكوكين من حب الخردل الأسود مع كتاب يقول فيه إنه سيرسل جيشاً بعدد هذا الحب الذي يراه^(١) .

ثم كانت أولى غزوات المهدي — فيما يبدو — عملية انتقامية لهجوم رومي أجاب عليه بهجومين اثنين . فقد أرسل جيشه سنة ١٥٩ — ٧٧٦ بقيادة صغير مولاه جواباً على حملة الامبراطور ليو الرابع الخزري ضد سميساط التي سبي فيها خلقاً كثيراً . فاستنقذ صغير المسلمين وأرسل المهدي في الوقت نفسه صائفة أوغلت مقدمتها بقيادة مولاه الحسن الوصيف ومعه جماعة من قواد أهل خراسان ، حتى بلغت أنقرة أما كتلة الجيش فسارت مع العباس بن محمد ففتحت مدينة الروم (في إقليم المطامير) ومطمورة أخرى وانصرفوا سالمين . وأما المهدي نفسه فقد كان معسكراً خلال ذلك في مكان يعرف بالبردان^(١) بظاهر بغداد .

وقامت في سنوات ١٦٠ — ١٦١ الغزوات التقليدية ومشاريع

(١) انظر كتاب التاريخ العام لفاردان الأرمني (الترجمة الفرنسية بعنوان الحكم العربي في أرمينية — نشر مويلدزمانز ، باريس ١٩٢٧) ص ١١٠ .

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٠٢ والطبري ج ٨ ص ١١٦ (٣/٤٥٩) .

الغزوات التي لم تنفذ تولاهها خاصة ثمامة بن الوليد العبسي • والذي غزا سنة ١٦٠ ثم خسر الصائفة في السنة التالية بسبب إهماله أمام هجمة من ٨٠ ألف مقاتل • فقد نزل دابق «وجاشت الروم وهو مغتر فأتت طلائعه وعيونه بذلك فلم يحفل بما جاؤوا به وخرج إلى الروم وعليها ميخائيل (الامبراطور) بسرعان الناس فأصيب من المسلمين عدة •• وكان عيسى بن علي مرابطا بحصن مرعش يومئذ^(١) • فحاصره الروم ويبدو أنهم خربوا منطقته ! وانسحب الروم حين وصلت النجدات الاسلامية ولكن هذه النجدات دحرت حين تعقبته فلم تستطع استخلاص السبي الذي أخذوه وفي جملة الكثير من اليعاقبة النصاري الذين جرى تهجيرهم عن الحدود إلى الأراضي البزنطية • كما يبدو في الوقت نفسه أن تحرك الأسطول العربي ، من الشام لاتمام غزو الروم • في السنتين المتواليين سنة ١٦٠ و ١٦١ بقيادة الغمر بن العباس الخثعمي كما فعل المنصور من قبل في الغزوة البحرية سنة ١٥٧ لم تفد المسلمين شيئا كثيرا فقد قام الروم في سنة ١٦٢ بتخريب «الحدث» وسورها في غارة جديدة •

ومن هنا تأتي أهمية الغزوات الانتقامية التي تمت سنة ١٦٢ - ٧٧٩ فقد تحركت على محورين : محور ارمينية الشمالي مشته عليه حملة يقودها يزيد بن أسيد السلمي إلى باب قالقلا (تيودوسبوليس) فغنم وفتح ثلاثة حصون وأصاب سبياً كثيراً وأسرى •••

ومحور الحدث - أدرولية اتجه عليه الحسن بن قحطبة في ثلاثين ألف مرتزق من أهل خراسان والموصل والشام وأمداد اليسن عدا المطوعة

(١) انظر الطبري ج ٨ صفحات ١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤٢ وانظر اليعقوبي ايضا ج ٢ ص ٤٠٢ والبلاذري - فتوح البلدان ص ٢٠٠

من العراق والحجاز فأكثر التخريب والتحريق في بلاد الروم من غير أن يفتح حصناً أو يلقى جماعة • حتى بلغ العين المعدنية الحارة (الحمّة) في أدرولية واستحّم بها (ويقال إنه وصل الحمّة لوضح كان به) ثم قفل بالناس سالمين وقد ثقلت وطأة هذه الحملة على الروم لما قجم عنها من الدمار حتى أعطوا الحسن لقب «التنين» وحتى — كما قال الطبري — صوروهُ في كنائسهم ليعرفه الناس ••• أما أهم ما جرى بالنسبة للجبهة الإسلامية فهو أن الحسن اقترح على المهدي ضرورة بناء ثغري الحدث وطرسوس • وقد بنى الثغر الأول سنة ١٧٥ وتأخر بناء الثاني الى سنة ١٧١ — ٧٨٥ في عهد الرشيد على يد فرج بن سليم الخادم •

وتهيأ المهدي للغزو في السنة التالية سنة ١٦٣ — ٧٨٠ • لم يخرج له ابنه الفتى هارون فقط ولكن خرج هو بنفسه أيضاً إليه مع عدد من أهل بيته عن طريق الموصل ، «وقطع (أي فرض) البعث على جميع الأجناد من أهل خراسان وغيرهم» • وعسكر المهدي بالبردان نحو شهرين ثم أرسل ابنه ، هارون في الجيش ومعه يحيى البرمكي والربيع ابن يونس بعد أن شيعه مسافة بعيدة حتى قطع الدروب الى الروم وارتاد موقع (الحدث) التي سوف تبني باسم المهدية أو الحمديّة وأتم جيش هارون الطريق الى بلدة البستان (آرابيسوس) ثم إلى قلعة «سمالو» التي سقطت بعد حصار ثمان وثلاثين ليلة وضرب بالمجانيق وعطش وجوع أصاب من فيها وقتل وجراحات كانت في المسلمين • واشترط أهلها عند التسليم ألا يقتلوا ولا يرحلوا ولا يفرق بينهم فأعطوا ذلك • ووفى لهم هارون بما عاهد إلا الترحيل فقد رحلوا الى بغداد نفسها وأنزلوا هناك في حي خاص بهم على باب الشماسية ! وبيع من فضل البقاء في المدينة مع الأسرى •••

وقد حاول الروم الإجابة على غزوة هارون بالنفوذ الى الثغور عند موقع طرسوس ثم اضطروا للتراجع في انتظار غزوة أخرى قادها في اتجاه المحدث سنة ١٦٤ ميخائيل البطريق - فيما ذكر - في نحو من تسعين ألفاً . فيهم طازاذ الأرمني البطريق . . . وكانت الحدث في تلك الأثناء قيد البناء والتحول الى ثغر حربي ولم يجرؤ قائد الصائفة تلك السنة وهو عبد الكبير بن عبد الحميد (من ولد زيد بن الخطاب) ان يأمر بالقتال أمام ضخامة الجيش الرومي وتذكر المصادر البزنطية أنه هزم بسرعة فبلغ الغضب من المهدي الدرجة التي كاد يأمر معها بقتله ثم اكتفى بحبسه في المطبق^(١) وتأهب لحملة كبرى انتقامية سنة ١٦٥-٧٨٢ كانت أهم الحملات التي تمت في عهده .

وبينما كانت اعمال بناء (الحدث) تتم وتسمى بالمهدية ويعظم كما قال اليعقوبي ارتفاع أهل الثغور بها وبمن نزلها من الجند ، جمع المهدي لهذه الحملة قرابة مائة ألف جندي وحمل لها من المال حوالي المائتي ألف دينار ومن الورق (أي الفضة) ٢٢ مليوناً تقريباً . وحشد لها من كبار القواد عدداً على رأسهم يزيد بن يزيد الشيباني ، وضم إليه الربيع بن يونس^(٢) . . . ومشت الحملة في أواخر جمادى الآخرة سنة ١٦٥ (أو آخر شباط سنة ٧٨٢) فأوغلت في بلاد الروم على شكل سهم من مناطق البستان وقيسارية الى مناطق انقره ثم إلى نيقوميديا ، الولاية المشرفة على البوسفور وبحر مرمرة ، فوقفت عند بلدة خرسوبوليس (اسكدار) والطريق الى القسطنطينية مفتوح . . .

(١) الطبري ج ٨ ص ١٤٤-١٤٦ (٣/٤٩٤-٤٩٦) .

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٥٢-١٥٣ (٣/٥٠٣-٥٠٥) .

افتتح الجيش الاسلامي على الطريق حصناً هو حصن ماجدة ولقيته فرق الفرسان البيزنطية بقيادة (نقيطا - نيكتاس) قومس القوامسة فسقط مشخناً بالجراح أمام يزيد الشيباني ، ثم هزم الدمستق ، صاحب المسالحي في الولاية المتصلة بالعاصمة فلم يكن أمام الروم سوى الصلح كان على العرش الامبراطوري يومذاك الامبراطورة ايرين (أوغسطة امرأة اليون) وصية على ابنها قسطنطين السادس (٧٨٠ - ٧٩٧) وهذه أول مرة منذ خمسين سنة^(١) يصل فيها الجيش الاسلامي مشارف القسطنطينية ويهددها فجرت بينها وبين هارون الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية . فعرض الجيش الاسلامي شروطه :

- تسعون أو سبعون ألف دينار من الجزية السنوية « تؤدي في نيسان الأول وحزيران من كل سنة » .
- تسليم مالدي الروم من أسرى المسلمين جميعاً .
- تمتد الهدنة ثلاث سنوات .
- تقيم بيزنطة الاسواق على طريق عودة الجيش الاسلامي وتقدم له الأدلاء « وذلك أنه دخل مدخلا صعباً مخوفاً على المسلمين » .

ويتلمس المؤرخون الغربيون الأعذار لبيزنطة في هذا الصلح المذل فيذكرون تارة أنها كانت مشغولة في تلك السنة بثورة في جزيرة صقلية وتارة أن بعض قواد الروم (تاتزيت) قد انحاز للمسلمين كيداً بالامبراطورة وحزبها وتارة ثالثة أن النزاع العقائدي بين أنصار الأيقونات وأخصامهم كان قد مزق بيزنطة . . . على أنه ما كان لمثل هذه الأمور التي كانت دوماً موجودة في بيزنطة أن تفعل شيئاً لولا قوة الجيش الاسلامي نفسه وقادته

(١) كان آخر هجوم اسلامي وصل هذه المنطقة في عهد سليمان بن عبد الملك (سنة ٩٦-٩٩/٧١٥-٧١٧) .

وكان حصاد تلك الموقعة بالنسبة إليهم حسب قائمة الطبري : ٥٦٤٣
أسيراً قتل منهم ألفان ونيفاً و ٢٠ ألف دابة بأدواتها وذبح ١٠ آلاف رأس
من البقر والغنم .. أما الغنائم فقد بلغت من الكثرة أن يسع البرذون
بدرهم والبغل بأقل من عشرة دراهم والدرع بدرهم و ٢٠ سيفاً بدرهم !!
مع أن عدد المرتزقة سوى المطوعة وأهل الأسواق مائة ألف^(١) .

ولم يكن بإمكان الجيش العباسي أن يتقدم لحصار القسطنطينية
وفتحها بعد ذلك لأنه لم يكن يملك القوة البحرية التي لابد منها لحصار
تلك المدينة ولأن الجند العباسي كان ، في هذه الغارة البعيدة الخطوط
قد أنهك كما كان مهدداً كل التهديد بأن تقطع عليه طرق العودة وأن
تنصب فيها الكمائن والهجمات الجانبية أثناء الانسحاب .

ولقد يكون الصراع الحزبي في البلاط ما بين جماعة الرشيد وجماعة
الهادي ولدي الخليفة ، قد لعب بعض الدور في المبالغة بهذا النصر
وتضخيم أثره وغنائمه ولكن التواريخ البيزنطية بدورها لم تستطع أن
تنقص من ذلك الأثر أو تنكر بعض الوقائع الأساسية فيه ومنها — وهو
أهمها — وصول الجيش الى كريسو بوليس — على أنه ما من شك
بالمقابل في أن حزب الرشيد قد استغل أحسن الاستغلال هذا النصر أو
لعله تعمد أن يكون النصر على هذا النحو من العمل الحربي الاستعراضي
الملئ بالمغامرة لكي يستغله فيما بعد في معركة الحصول على ولاية العهد
لهارون . وقد نجح في ذلك وإذا نال المحاربون غنائمهم ونالت الدولة
العباسية المجد والجزية التي وصلت مع المحاربين ورسل الروم في مطلع

(١) راجع تفاصيل الحملة لدى الطبري ج ٨ ص ١٥٢-١٥٣ ثم ص ١٥٤

(٣/٥٠٤-٥٠٦) .

سنة ١٦٦ فلن هارون قد قل من تلك الحملة ولاية العهد الثانية ولقب الرشيد سنة ١٦٦ . وتبارى الشعراء في المديح والاشادة والغناء .

ولم تهدأ الجبهة ثلاث سنوات^(١) لأن الروم نقضوا الهدنة قبل أربعة أشهر من انقضائها سنة ١٦٨ ولعلها إنما كانت مناوشة على الحدود أجاب عليها والي الجزيرة علي بن سليمان بإرسال بعض قواده : يزيد بن بدو البطال في سرية الى الروم فغنموا وظفروا . . .

ولم يطل عهد الهادي لكي يشهد أكثر من حملة واحدة سنة ١٦٩ إذ «أقبلت الروم مع بطريقها الى الحدث فهرب الوالي والجند وأهل الأسواق فدخلها العدو . . .» ناهباً مدمراً . وقد أجاب معيوف بن يحيى الحجوري قائد الثغور على ذلك بدخول أرض الروم حتى مدينة أشنة والسبي والنهب فيها . . .

ب - غزوات الرشيد : بالرغم من أن «جهاد» الرشيد على جبهة الروم يعتبر أحد الدعائم التي تعطي سمعته الألق وتمنح عصره البهاء ، فإن هذا «الجهاد» لم يظهر بصورة واضحة إلا في السنوات الست الأخيرة من حكمه ، بعد النكبة البرمكية بحيث يمكن أن نقسم علاقاته مع الروم إلى فترتين :

١ - فترة الهدوء النسبي الذي امتد ما بين (١٧٠ - ١٨٠ هـ) -

(١) بذكر اليعقوبي (ج ٢ ص ٤٠٢) غزوات قام بها تمامة بن الوليد سنة ١٦٦ والفضل بن صالح سنة ١٦٧ ومحمد بن ابراهيم سنة ١٦٨ ولعلمهم إنما سموا للقيادات في الثغور في تلك السنين احتياطاً للطوارئ وخوفاً من نقض الهدنة ولكنهم لم يباشروا الحرب .

(٧٨٦ - ٨٠٣م) ولم تحدث فيه سوى غزوتين هامتين .

٢ - فترة الصدام الحربي الذي استمر منذ (١٨٧هـ - ٨٠٣م) حتى ما بعد عهد الرشيد وليس معنى هذا التقسيم أن الحرب انقطعت في السنوات السبع عشرة الاولى من عهد الرشيد . انها كانت مستمرة ولكنها كانت محلية الأثر والحدود ، تعتمد على المناوشة لا الفتح ، والسمعة التي نالها الرشيد في أواخر عهده انسحبت على جميع أيامه ، والمؤرخون يرددون أنه كان يغزو سنة ويحج سنة . وبصرف النظر عن هذه الكلمة التي أريد بها الدعاية لتقاه ولقيامه بالفرائض الدينية ، فإن تتبع أعمال الرشيد ، حتى في أيام حربه ولحظات انتصاره ، لا تبين أنه أضاف خطأ جديداً الى سياسة أبيه وجده من قبل ، تجاه الروم وهي سياسة الدفاع عن الحدود ، وتحصينها والانتقام لكل عدوان عليها ! والقيام بالغزوات الوقائية بين فترة وأخرى . وهكذا فإننا لانكاد نعثر على هدف لتلك الحروب سوى تأكيد قوة الدولة الاسلامية .

وبالرغم من أن الغزو لم ينقطع فلم يكن «الفتح» واستصفاء مملكة الروم ضمن الخطة العباسية ، ولم ينبج من الغزوات أي تغيير يذكر في الحدود أو في موقف الطرفين . كما لم تعد على الرشيد بأي ربح مادي لأنها كانت تكبد الدولة الاسلامية ، كما تكبد البيزنطيين ، الكثير من الخسائر في الجند والمال . ولعل مما يثبت هدفها الوقائي أن القيادة العباسية لم تفكر في استغلال الظروف الحرجة التي مرت بها دولة بيزنطة ، في تلك الفترة ، وحين كان الجيش العباسي ينتصر بل ويدق أبواب القسطنطينية كان يكتفي بأخذ الجزية ، ثم كان يعود ليني بأمر الرشيد «الثغور» ويحصن «العواصم» ، أي يثبت بأيديه الحدود القديمة .

أ - وفي الفترة الهادئة الاولى من أيام الرشيد عني الخليفة :

أولا : بتنظيم الحدود مع الروم وتحصينها • فمنذ تولى الخلافة سنة ١٧٠ فصل الثغور الشامية عن الثغور الجزرية الى منطقتين عسكريتين مميزتين وسمى الشامية منها بالعواصم • وجعل عاصمتها منبج • وبذل الجهد في تعزيز العواصم وإعمارها وخاصة منها (طرسوس) التي ظلت منذ عهد المنصور ميدان الحرب والتي يمر منها أحد الطريقين المؤديين من الأناضول الى سورية • ووضح من هذا أن الرشيد كان يقصد الى ايجاد وحدة عسكرية قوية تضمن الدفاع عن الحدود فلا تكلفه عناء التفكير الدائم بالجبهة الرومية او باتخاذ تدابير الغزو والإرغام عليها •

ثانيا : بايجاد قوة بحرية • فالبلادري^(١) يذكر أن هارون «•• اقام من الصناعة ما لم يقم قبله وقسم الأموال في الثغور والسواحل» ويظهر من الأعمال البحرية التي ظهرت في خلافته ، ومن تفكيره بفتح قناة السويس التي ثناه عنها جعفر البرمكي قائلا له : « أتريد أن يتخطف الروم الحجاج عن عرفات» يظهر أن الرشيد بذل ، دون غيره من خلفاء بني العباس جهداً بحرياً محدوداً للاستفادة من إشراف الدولة العباسية على البحرين التجاريين الوحيدين إذ ذاك المتوسط والهندي ولكن لم يستطع الرشيد أن يصل في أسطوله البحري إلى الدرجة التي تجعله يتوازي مع قواته البرية • فظل الجيش العباسي قوة برية فقط • ولعل الرشيد كان

(١) البلادري - فتوح البلدان ص ١٩٣ (طبعة المنجد) .

من جانبه أيضاً لا يؤمن بنجاح هذه المحاولة في تحويل الدولة العباسية الى دولة بحرية ، فكانت كلمة واحدة من جعفر كافية لاثارة مخاوفه على حجاج عرفات من قراصنة الروم !

ثالثاً : بالمحافظة على «استمرارية» الحملات الدورية على جبهة الروم سنة بعد سنة ولكن دون تغير في المواقع • وإنا لنرى من القواد في الثغور عدداً قاموا بالغزوات الصائفة الدورية بين سنتي ١٧٠ – ٧٨٦/١٨٦ – ٨٠٢ • ولقد تختلف قائمة أسمائهم لدى الطبري وابن الأثير عنها لدى اليعقوبي^(١) • ومنهم سليمان بن عبد الله البكائي ، واسحق بن سليمان بن علي ، ومحمد بن ابراهيم ، وعبد الملك بن صالح العباسي وابناه عبد الرحمن والفضل ، وعبد الرزاق بن عبد الحميد التغلبي ، ومعاوية بن زفر بن عاصم ••• ومنهم من ورث القيادة عنه ابنه ومنهم من قد وصل في بعض الغزاة الى انقرة أو أفسوس كعبد الملك ابن صالح سنة ١٨١ و ١٨٢ أو فتح بعض الحصون وكان آخر القواد في هذه الفترة القاسم بن الرشيد الذي أعطاه أبوه ولاية العهد الثالثة ولقبه بالموتمن وولاه الجزيرة والثغور والعواصم وأشخصه الى منبج فأنزله إليها بما انضم إليه من القواد والجند وأغراه الصائفة في العام التالي سنة ١٨٧ و«وهبه – على قول الطبري – لله وجعله قرباناً له ووسيلة» وكان ذلك بعد أشهر فقط من نكبة البرامكة •

رابعاً : بالتفوق العسكري العربي في البر وبدفع الروم للجزية السنوية • ويعزو الباحثون الضعف البنظري إذ ذاك الى الصراع الداخلي

(١) انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٣٤١ والطبري وابن الأثير في خواتيم السنوات المذكورة .

حول الحركة اللاأيقونية وينسون العامل الايجابي المتعلق باستقرار وقوة الجيش العباسي . وقد «اضطر حكام القسطنطينية - حكامها جميعا بلا استثناء تقريبا - أن يؤدوا في تلك المدة (ومنذ أيام المهدي) قتراً كبيراً من الذهب جزية لخلفاء بغداد فمثلا نرى قسطنطين الخامس من أقدر حكام البيت الايسوري مضطراً عام ٧٧٢ الى دفع مبلغ ضخّم تأميناً لحدوده الشرقية وكان اشتغاله باللاأيقونية والبلغار والفرنجة بايطاليا حائلاً دون التفرغ لتركيز قوته في الشرق ثم تجددت هذه الجزيات زمن ايرين سنة ٧٨١ حين تحرك الجيش الاسلامي عبر الأناضول إلى البوسفور وشاهد عام سنة ٧٩٨ تدفق الذهب من جديد نحو بغداد بعد أن بلغت جيوش المسلمين مدينة أفسوس كذلك أجبر تقفور خليفة ايرين على دفع الجزية بعد عام ٨٠٦ حين بلغت جيوش هارون الرشيد الكبيرة العدد مدينة هرقله الواقعة قبالة القسطنطينية .»^(١) .

ولعل أبرز أعمال الرشيد الحربية في هذه الفترة الهائلة الأولى هي :

انتقامه سنة ١٧٤ هـ سنة ٧٩٠ م من الروم الذين أسروا بعض الجند العباسي المسافرين في البحر من مصر إلى سورية فتحرك أسطول عربي من مصر إلى قبرص ومنها إلى سواحل آسيا الصغرى الجنوبية والتقى في خليج (آضاليا) مع اسطول الروم فهزمه وأسر أمير البحر البيزنطي .

ويلفت النظر خبر غزوة شاتية قام بها سليمان بن راشد سنة ١٧٨

(١) ارشيبالد لويس - القوى البحرية ص ١٧١-١٧٢ على ان هرقله واقعة في اقليم المطامير من قبادوكيا وليس قبالة القسطنطينية .

ولكان يرافقه البيد بطريق صقلية^(١) مما يوحي بأن ثورة الصقليين على
بيزنطة قد أدت الى وصول بطريقهم الى بغداد والى اشتراكه في بعض
الحملات ضد الروم .

وبالرغم من أن فداء للأسرى بين (العرب والروم) قد تم سنة ١٨١هـ
٧٩٧م بجانب البحر على نهر اللامس قرب طرسوس وقد تولاه القاسم
ابن الرشيد فاقتدى من المسلمين ٣٧٠٠ أسير^(٢) في مهرجان كبير ففي
هذه السنة نفسها غزا الرشيد بيزنطة بنفسه . فسار الامبراطور قسطنطين
السادس إلى لقاءه ولكن أم الامبراطور (ايريني) التي كانت تطمح
بالعرش ، خافت أن ينتصر ابنها على المسلمين فيقوى مركزه . فتآمرت
عليه مع قائدها (استوراكيوس) الذي أشاع ان العباسيين قد تراجعوا
فعاد قسطنطين الى العاصمة . وبينما كانت أمه تخلعه وتسلم عينيه
وتتوج نفسها بدلا منه ، كان الرشيد يوغل في الأناضول ويفتح حصن
الصفصاف عنوة سنة ١٨١^(٣) ، ويصل قائده عبد الملك بن صالح حتى
أنقرة ويفتح (مطمورة)^(٤) ويرفض طلب (ايرين) للصلح فتستمر الحرب
سنتين حتى إذا هاجم الخزر أرمينيا سنة ١٨٤ قبلت الجزية من ايريني
مقابل المهادنة !

ب ـ الفترة الساخنة : على أن الانقلاب الذي قام به القائد نقفور

(١) الطبري ج ٨ ص ٢٦٠ (٢٣٧/٣) والبيد هذا هو إبيديوس الذي
ثار على بيزنطة ثم فر من صقلية الى العرب حيث لقي من الترحيب ما لا
يلقاه امبراطور روماني .

(٢) ابن الأثير ٦ ص ١٥٩ .

(٣) وقد قال شاعر الرشيد مروان بن أبي حفصة في ذلك (الطبري

ج ٨ ص ٢٦٨) :

أن أمير المؤمنين المصطفى قد ترك الصفصاف قاعا صفصفا

(٤) الطبري ج ٨ ص ٢٦٨ (٢٤٦/٣) .

في القسطنطينية ضد ايريني سنة ١٨٧ هـ ٨٠٣ م ، جر الى انقلاب في العلاقات الهادئة مع العباسيين وبوصوله الى العرش بدأت الفترة الساخنة على الحدود العربية . وأصاب العمليات الحربية تصعيد خطير مهدد للطرفين . فنقفور كان محارباً عنيداً وبعض المصادر الرومية تروي أنه عربي الأصل من آل جفنة الفساسنة ، كما وصف من قبل بعض مؤرخي الروم بأنه ذو عقلية عربية .

وقد اتفق أن رافق هذا التطور على الجانب البيزنطي تطور آخر يقابله على الجانب العربي ، وهو تطور كان يسر الرشيد نفسه وسمعته ونظامه . ذلك أنه نكب البرامكة في تلك السنة سنة ١٨٧ . وقد نجم عن تلك النكبة نوع من الهزة في الجهاز الاداري للدولة وفي صدور الناس . وكان الجهاد ضد الروم احد السبل التي بدا للرشيد أنه يستطيع أن يثبت فيها اختلافه في السياسة والادارة وفي القيام بواجب الدين والمسلمين عن البرامكة وهكذا كان التصعيد الحربي على الجبهة العربية الرومية انعكاساً للأحداث الداخلية التي جرت في كل من العاصمتين في وقت واحد تقريباً .

وكما أن الانقلاب الرومي كان أسبق في الزمن من نكبة البرامكة التي جاءت بعده بشهرين تقريباً (تشرين الثاني سنة ٨٠٢ الى كانون الثاني سنة ٨٠٣) فإن الروم هم الذين بدأوا بدورهم النقض والتصعيد .

بدأت الأحداث حين نقض نقفور ما كانت الامبراطورة المخلوعة قد اعتادت دفعه من الجزية السنوية للعباسيين ، وذلك بغية كسب الصيت والسمعة لانقلابه . ولكن الثورة الداخلية التي قامت ضده (ثورة باردانس) منعتة من أن يقف للفرقة العباسية التي تحركت لإرغامه والتي

عين لقيادتها تلك السنة القاسم بن الرشيد ، كأمير للمواصم ، فحاصر الجيش العباسي حصن قره (كوروم) وبعض الحصون الأخرى واتجه من قلقيلة إلى هرقله لكن قلعة الزاد والمؤونة جعلته يرضى بالتراجع مقابل إطلاق سراح ٣٢٠ أسيراً مسلماً والتعهد من الروم بدفع الجزية السنوية المعتادة .

على أن نقفور ، تخلص من الثورة بسرعة ، وأبلغ الرشيد ، قطع الجزية في رسالة يذكر المؤرخون أنها جاءت بهذا النص^(١) :

«من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب
«أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ واقامت نفسها مقام البيدق فجعلت اليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها لكنه ضعف النساء وحمقهن . فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وافقد نفسك بما يقع به المصادرة لك . وإلا فالسيف بيننا وبينك» .

ويقال إن الرشيد حين تلا الكتاب غضب أشد الغضب ودعا بدواة فكتب على ظهر الرسالة :

«بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام» .

ونص الكتابين لا يرد في المصادر الرومية . وأولهما خليق أن يكون من إنشاء بعض كتاب العباسيين بما فيه من قوة السبك كما أن من

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٠٧-٣٠٨ (٣/٦٦٥-٦٦٩) .

المستبعد أن يتنزل الرشيد إلى درك الشتيمة ، حتى في أوج الغضب ، لا سيما وهو يخاطب امبراطوراً لدولة مجاورة . وليس بعيد أن يكون الكتاب والجواب قد سجلا بمعانيهما لا بنصوصهما الأصلية وعلى أي حال فهذه الحادثة كانت نقطة انقلاب الرشيد من دور المهادنة للروم إلى دور الصدام الحربي الذي استمر منذ سنة ١٨٧ هـ حتى نهاية عهده . وكان المحرض الرئيسي فيه وجود نقفور على عرش بيزنطة ونقضه مرة بعد مرة حدود الصلح مع العباسيين .

وقد تقدم الرشيد في ربيع الثاني سنة ١٨٨ (نيسان ٨٠٤م) إلى هرقله واحتلت بعض فرقه عدة حصون كما أخذت مقدمته أنقرة . وهزم نقفور حين حاول أن يصدده وجرح ثلاث جراحات في المعارك وانهزم تاركاً في الميادين أكثر من أربعين ألف قتيل . وكان بين ما غنمه المحاربون المسلمون أربعة آلاف دابة^(١) . . .

ويظهر أن الرشيد تأخر في الغزو طول الصيف فقبل مهادنة نقفور على الجزية وألا يبنى الروم الحصون المهدومة . ومقدار الجزية دينار عن كل ذي حلم من الروم سوى نقفور وابنه .

على أن الرشيد ماكاد يرجع حتى استغل نقفور فترة الشتاء فنقض الهدنة أول نقض له واضطر الخليفة لأن يعود فيقمعه . ويتفق معه في هذه المرة ، على تبادل الأسرى « فلم يسبق بأرض الروم — على قول الطبري — مسلم إلا فودي به^(١) » ولعل ذلك كان أواخر سنة ١٨٨ . وفي سنة ١٨٩ هـ (سنة ٨٠٥ م) لم يجرؤ أحد من حاشية الرشيد

(١) الطبري ج ٨ ص ٣١٣ (٧٠١/٣) .

ان يبلغه أن تقفور استغل ما على أيدي الخليفة من شؤون ايران
ومشاكلها لينقض الصلح وشروطه ، مرة ثانية • حتى وقف شاعر ينشد
الرشيـد :

نقض الذي عاهدته تقفور

وعليه دائرة البوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فإنه

نصر أتك به الإله كبير !

وعرف أمير المؤمنين أن تقفور يبني الحصون في أنقرة والصفصاف
ودبسة وأنه أرسل جيشاً هاجم طرطوس ، وخرّب (عين زربة) وكنيسة
السوداء وأسر الكثير ولكن حامية المصيصة هاجمت الجيش البيزنطي
واستردت معظم الأسرى والأسلاب •

وثارت حفيظة الرشيد فسار في رجب سنة ١٩٠ هـ (حزيران ٨٠٦م)
بجيش ضخم يقدره الطبري «بمائة وخمسة وثلاثين ألف مرتزق سوى
الأتباع وسوى المتطوعة وسوى من لاديوان له ٠٠٠» وقد اشتركت في
الجيش فرق من مختلف انحاء الامبراطورية العباسية • ويمكن أن نعتبر
هذه الحملة أوسع حملات الرشيد ضد بيزنطة وان لم تكن أعظمها فتحاً
وذكراً • ولعل الرشيد قصد الى العمل الدعائي حين اتخذ لنفسه ، في
تلك الحملة قلنسوة كان يلبسها وقد كتب عليها : غاز حاج !

عبر الجيش الحدود في ١١ حزيران سنة ٨٠٦ فاحتل بعد شهر من
الحصار حصن هرقله وسباها وأخربها وانتشر في منطقة (المطامير)
الأناضولية يفتح حصون (الصقالبة ، دبسة ، الصفصاف ، مقلوية ،

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٢٠ (٧٠٩/٣) •

سنان ، صملة ، ذي الكلاع)، وبينما كان داوود بن عيسى يطوف سائحاً في أرض الروم للتخريب مع سبعين ألفاً كان شراحيل بن معن بن زائدة ويزيد بن مخلد يفتحان الحصون بعضها وراء بعض وكان الغزو البحري في الوقت نفسه يقوم بدوره . ولم يستطع نقفور أن يصنع شيئاً لرد غزوة الرشيد لأن البلغار كانوا يهددون على الطرف الآخر من بيزنطة العاصمة نفسها . فأرسل يطلب الصلح . وقبل الخليفة أن يرجع عنه مقابل ثلاثمائة ألف دينار . وأن يدفع جزية شخصية عنه قدرها أربعة دنانير سنوياً وعن ابنه ديناران كما يدفع أهل الذمة في المملكة الإسلامية . يريد الرشيد بذلك أن يأخذ عليه الاعتراف بأنه داخل في ذمة الخليفة . واشترط الرشيد الى ذلك أن لا يبني حصناً على الحدود وأن يبني بعض الحصون (صملة ، سنان ذي الكلاع) ليسلمها سالمة إلى جند الخلافة^(١).

لم يكن الرشيد خلال ذلك بغافل عن خطر الروم في البحر وعن أثر الضغط البحري عليهم ولهذا فانه في الوقت الذي أرسل فيه سنة ١٨٩ منشوراً إلى ثابت بن نصر الخزاعي أمير الثغور الشامية وباقى عمال الشام باطلاق التنبيه في البلاد بالرحيل الى لبنان وبلاد الساحل لتشتد قوة أمرائه نراه ولى (حميد بن معيوف) سواحل البحر المتوسط، أي سواحل الشام ومصر . فغزا بالاسطول الذي جمعه بثغورها جزيرة قبرص سنة ٨٠٦ غزوة مدمرة سبى بها ستة عشر ألفاً بينهم أسقف الجزيرة وقدم بهم (الرافقة) على الفرات ولكنهم أعيدوا إلى ديارهم

(١) يروي الطبري أن نقفور أرسل عقب الصلح يطلب افتداء خطيبة ابنه التي أسرت في هرقله . ويورد نص كتابه . واستجابة هارون لطلبه وتسيير الفتاة مع هدايا الطيب والديباغ . . . (الطبري ج ٨ ص ٣٢١) .

(٢) محمد كرد علي - خطط الشام ج ١ ص ٦٨

في صلح سنة ٨٠٧ وطلب الرشيد إلى اتباعه الاغلبة في تونس أن يقودوا حملة بحرية تخريبية وصلت الى جزر البلوبونيز (اليونان) وخربت عددا من الموانئ والشواطئ... .

ولم تقف المعركة بعد ذلك فقد غزا حميد في السنة التالية جزيرة رودوس كما غزا قبرص التي نقضت العهد . بينما تجددت الحرب على الحدود البرية بنقض جديد من تقفور لم يستطع الرشيد قمعه بالشدة الأولى لما كان على يديه من ثورة خراسان فبقيت حالة الحرب قائمة ولكنها مقصورة على المناوشات الموضعية دون كبير جدوى أو نجاح . وقد حاول الرشيد في هذه الفترة تنظيمها بشكل دفاعي .

وبعد أن غزا يزيد مغلد الهبيري أرض الروم سنة ١٩١ من عشرة آلاف فأخذت الروم عليه المضيق (في كمين) فقتلوه على مرحلتين من طرسوس في خمسين رجلا وسلم الباكون . مضى الرشيد بنفسه الى درب الحدث وعهد الى هرثمة بن آلمين بغزو الصائفة تلك السنة وضم اليه ثلاثين ألفا من جند خراسان ومعه سرور الخادم للنفقات ولجميع الأمور خلا القيادة ، وعين قائدا للحدث (عبدالله بن مالك) وآخر لمرعش (سعيد بن سلم بن قتيبة الباهلي) وثالثا لطرسوس (محمد بن يزيد بن مزيد الشيباني) . لكنه قبل أن يعود الى الرقة عرف أن الروم أغاروا على مرعش وأصابوا من المسلمين !

ويبدو أن هذه الأحداث الحربية مع البيزنطيين هي التي دفعت الرشيد إلى أن يأمر في تلك الأيام بهدم الكنائس في الثغور وبأن يكتب الى السندي بن شاهن صاحب شرطته في مدينة السلام يأمره بأخذ أهل الذمة فيها بمخالفة هيئة المسلمين في اللباس والركوب .. . وتخدم الجبهة سنة ١٩٢ إلا من غزوة فتحت فيها بعض المطامير

ومن جسر الفداء الذي جرى في البدندون . ثم يغيب شبح كل من الرشيد ونقفور معاً في وقتين متقاربين سنة ١٩٣ - سنة ١٩٥ يموت الاول في طوس في طريقه إلى خراسان لحرب رافع بن الليث الثائر عليه ، بينما يقتل نقفور على الجبهة الاخرى العربية مع البلغار مع ابنه ويشرب ملكهم الخمر في قحف جمجمته دون أن يستطيع الاستفادة طويلاً من هدوء الجبهة العربية - الرومية ولم يكن ذلك بسبب القتال الاخوي بين الامين والمأمون فقط ولا بسبب الثورات التي قامت في مناطق المواجهة العربية البيزنطية وغيرها ولكن أيضاً بسبب الاضطراب الداخلي الذي غرقت فيه بيزنطة نفسها أيضاً والثورات في أرضها المتاخمة للعرب وتقلب الباطرة السريع عليها مدة تزيد على عشر سنوات حتى استقر بعد سنة ٨٢٠ (٢٠٥ هـ) على العرش الامبراطور ميخائيل الثاني الأمي (٨٢٠ - ٨٢٧) مؤسس الأسرة العمودية .

ج - غزوات المأمون : قضى هذا الخليفة معظم سني حكمه دون اتصال دام مع البيزنطيين . فقد كان بينه وبينهم دوماً (عازل) من الثوار : نصر بن شبث ثم القائد عمرو ، (الذي يسميه الروم - فيما يرجح فازيليف - تيوفوب) في الجبهة الشامية . وبابك الخرمي في جبهة أرمنية . هذا إلى أن الخليفة كان أول الأمر بعيداً عن بغداد ، في خراسان أي بعيداً عن الخطر البيزنطي المباشر . وأن الروم كانوا ، في تلك الفترة ، مشغولين بما عليهم من البلغار في البلقان ومن المسلمين الأغالبة في صقلية .

بدأ اهتمام المأمون بجبهة الروم والأناضول - فيما يبدو - حوالي سنة ٢٠٥ أو قبلها بقليل حين برز على تلك الجبهة قائد بيزنطي طموح هو توماس الصقلي . فان هذا القائد ثار على ميخائيل الثاني الذي تسلم العرش الامبراطوري تلك السنة ويبدو أنه أراد أن يحمي ظهره

من هجوم عربي عليه إذا هو مشى الى القسطنطينية فاستعرض عضلاته في هجوم قوي عنيف على ثغور الشام لم تعبر مثله قوة رومية جبال طوروس منذ أضحي الشام أقلية عربية - على حد قول المؤرخ ييوري- وقد حقق هذا الهجوم أغراضه اذ أرسل المأمون وفدا من قبله التقى بتوماس وخرج من اللقاء باتفاق يعتقد المؤرخون البزنطيون والباحثون أنه وقع بين المأمون وبين توماس جوابا على تفاهم الروم مع بابك الخزمي وان كانت المصادر العربية لاتذكر شيئا من ذلك .. وهدأت الجبهة سنوات حتى انهارت ثورة توماس سنة ٨٢٢ ثم قتل في السنة التالية ثم بدأ الهجوم الرومي سنة ٨٢٥ (٢١٠ هـ) بتدمير زبطرة وقبل ان تتحرك الجيوش الاسلامية للرد جاء وفد ملك الروم يطلب الصلح فلم يجد المأمون وبينما كان البناءون يعيدون بناء زبطرة كان عمال الثغور يسوحوون بأمر من المأمون في بلاد الروم ويكثرون فيها القتل والتخريب والظفر ولو أن قائدا من قوادهم (يقظان بن عبد الأعلى بن أحمد السلمي) أصيب . كان الروم يريدون من الصلح إعادة بناء ما خربته ثورة توماس من الأناضول ولهذا لم تلجأ قواتهم الى الغارات الانتقامية ولكن الى السكوت لاسيما وأنها كانت منصرفة الى مدافعة البلغار من جهة شمال البلقان والى الحرب في صقلية من جهة اخرى ...

ثم افتتحت الغزوات المأمونية فجأة في المحرم من سنة ٢١٥ هـ (آذار سنة ٨٣٠) ويبدو أن ذلك كان نتيجة الهجوم التدميري الذي شنه الروم على انطاكية سنة ٢١٣ هـ (سنة ٨٢٨ م)^(١) انتقاما منها لموقفها

(١) لم تذكر هذا الهجوم المصادر العربية ولكن ذكره البطريق ميخائيل السرياني (الكبير) في تاريخه . انظر الترجمة الفرنسية التي قام بها الأب شابو

Chronique de Michel le Syrien, (éd. Chabot) Vol III, p.101

المعادي لبيزنطة دينيا وسياسيا والذي عبرت عنه حين توج بطريقها
البطريق ايوب الثائر توماس الصقلي امبراطورا * وهو تتويج لم يكن
رأى المأمون في الغالب غائبا عنه ولا يمكن أن يكون تم بدون علمه
وإشارته (١) *

وأعد المأمون لحرب الروم عدة كبيرة وخرج لتلك الحرب بنفسه
وجيوشه وقواده وقد ظهر إذ ذاك كأن المأمون يريد أن يعطي شيئا من همه
وجهدده إلى الجناح الغربي من المملكة ، وقد كان منتقضا عليه في مصر
والشام وعلى الحدود البيزنطية وربما شجعه احتلال أهل الربرض
الأندلسيون لجزيرة كريت سنة ٢١٣ أيضا فخرج من بغداد ثم لم يعد ،
ليستقر فيها ، أبدا !

اتخذ طريقه أولا الى الجزيرة ، ويتصل وصوله الى حران بأول
ذكر للصائبة في الاسلام إذ اكتشفهم المأمون فيها ، وكانوا بقية من
الديانة البابلية القديمة المترجة بالفلسفة الهلنستية ، فاختاروا لأنفسهم
اسم (الصائبة) لوجوده في القرآن الكريم وأصبحوا من أهل الذمة (٢) *

(١) انظر بيوري ، واوستروغوروسكي

Bury. A His. of the Eas. Rom. Emp. p 88

Ostrogorwoski, His. of the Byz. State (Trans. Hussey)

p. 182

(٢) هؤلاء الصائبة كانوا بقايا فرقة وثنية تعبد النجوم وتقول
بالثنوية الإلهية وهم غير الصائبة (المندين) الذين هم طائفة يهودية نصرانية
كانت تسكن الأغوار حول البصرة ولا تزال لهم في العراق الى اليوم بقية
تعرف باسم (الصبة) وتعمل جمهرتها في صياغة الفضة .

وغزا المأمون الصائفة بنفسه سنة ٢١٥ ، وفتح عدة حصون ، كان إهمال الحدود وقيام الثورات عليها ، قد أوقعها في أيدي البيزنطيين (مثل حصن صملة أو شمال وسندس وقره ، وماجدة وسانان) ، وبلغ الغزو قلب الأناضول ومنطقة المطامير .

وقد تابع المأمون بعد ذلك طريقه إلى دمشق ثم إلى مصر يريد أن يتعرف عن قرب إلى السر في اضطرابها الدائم . غير أن غارة انتقامية بزنطية أعادته من جديد إلى الأناضول . فقد قاد الامبراطور تيوفيل بن مخائيل جيشا كبيرا نفذ به إلى طرطوس ثم إلى المصيصة في قلب «العواصم» العربية . وأثنى فيها القتل — على قول المؤرخين — وأسر ٢٥ ألفا من المسلمين ودخل القسطنطينية بعد ذلك في استقبال باذخ وموكب لم تشهده العاصمة البزنطية منذ عهد بعيد وقد أسهب مؤرخو الروم^(١) في وصفه !

ويظهر أن المأمون كان لا يزال يذكر ما قاسى أبوه في أواخر عهده من تقفور ، وما يقاسى هو ، من تأمر البيزنطيين عليه مع بابلك ومع كل ثائر عليه في الحدود ونقضهم الصلح معه ، فتبلورت في رأسه لأول مرة خطة « فتح » منظم ، مالبثت أن توضحت شيئا فشيئا .

عاد المأمون في جمادى الأولى سنة ٢١٦ إلى جبهة الروم ففتح هرقله وأتبعها بفتح اثني عشر حصنا^(٢) أو ثلاثين حصنا — على قول الطبري — عدا المطامير المحصنة فلما أرسل تيوفيل يسأل المأمون « أن

(١) يراجع في ذلك كتاب العرب والروم لغازيليف .

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٦٥ والطبري ج ٨ ص ٦٢٥ (١١٠٤/٣) .

يقبل منه مائة ألف دينار والأسرى الذين عنده وهم سبعة آلاف أسير (المصادر الرومية تجعلهم ٢٥ ألفاً) وأن يدع لهم ما افتتحه من مدائن الروم وحصونهم ويكف عن الحرب خمس سنين ٠٠ « رفض المأمون استلام الكتاب أول الأمر بحجة أن ملك الروم بدأ فيه باسمه ، وقال المأمون : لا أقرأ له كتاباً يبدأ فيه باسمه ، فلما أعاد الرومي الكتاب بادئاً باسم عبد الله (المأمون) ملك العرب رفض المأمون المصادرة كلها ولو أنه لم يسيء لقاء السفير الذي حملها إليه وهو (جان) أو يوحنا النحوي ، أحد علماء بيزنطة الذين يعرفهم المأمون حق المعرفة .

وانصرف المأمون في الشتاء إلى مصر لتهدة الثورة التي قام بها الفلاحون في أدنى الأرض (الدلتا) من عرب وقبط . وعاد من جديد سنة ٢١٧ (٨٣٢) ومعه أخوه أبو إسحق (الذي سنعرفه باسم المعتصم) وابنه العباس ، فافتتح حصن لؤلؤة وأمر ببناء بلدة (الطوانة) وتبينت خطته بأنها خطة فتح لا خطة غزو حين عزم على فتح عمورية (مسقط رأس البيت المالك) وفتح القسطنطينية وتوطين العرب البدو في منطقة الأناضول بلداً بلداً مع سير الفتوح ٠٠ « وقال أوجه إلى العرب فاتى بهم من البوادي ثم أنزلهم كل مدينة أفتحها حتى أضرب القسطنطينية^(١) ٠٠٠ » .

وأرسل امبراطور الروم إليه يحدد طلب الصلح وقال في كتابه : « وقد كنت كتبت إليك داعياً الى المسالمة راجباً في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا ونكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة . فإن آيت فإني لخائض إليك غمارها إيا ٠٠٠ » . ولم يكن جنوح تيوفيل الرومي

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٩٦ والطبري ٨ ص ٦٢٥

الى الصلح نتيجة رغبة في السلام ولكنه كان يريد أن يوجه موارده وقواه لاسترداد صقلية من المسلمين الذين بدأوا احتلالها . وكان هذا الاحتلال يغلّق باب المتوسط الغربي على بيزنطة ويلغي وجودها هناك .

وكان لابد أن يرفض المأمون مثل هذا الصلح المشوب بالتهديد ، لا سيما وأن نجاح الأعوام الثلاثة الماضية قد شجعه على العزوف عن انتهاء القتال الرابع فأجابه بتهديد أشد منه وختم كتابه بقوله : « .. غير أنني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدة والشرعية الحنفية فإن أبيت ففدية توجب ذمة .. وإن تركت ففي تعيين المعاينة لنعوتنا ما يغني عن الإبلاغ^(١) .. » .

وواضح من هذا الكتاب ، ومن السور الذي بناه المأمون على مدينة الطوانة وجعله ثلاثة فراسخ ، ومن استقدمه القوات الى العواصم من العراق والشام ومصر ، أن المأمون كان على عزم تنفيذ خطة واسعة للخلاص من الدولة البيزنطية جميعاً .. غير أن الأجل أعجله قبل أن يتحول بخبطه إلى التنفيذ فمات بالحمى سنة ٢١٨ (٨٣٣م) قلى نهر البدندون بجوار طرطوس ودفن فيها . وجمع أخوه (أبو إسحق) الجند الذي بايع له حسب وصية المأمون وقفل عائداً إلى بغداد .

معنى الحروب مع الروم وميزاتها ونتائجها : يمكن ان نجمل

(١) انظر الكتابين لدى الطبري ج ٨ ص ٦٢٩ - ٦٣٠ (١١٠٩/٣ - ١١١١) . ولعلنا نشير الى ما يؤكد الكتابان من اتصال المصالح الاقتصادية بين الطرفين ومن حركة المتاجر وامن الطرق واتصال المرافق . وهو ما يكشف الجذور الاقتصادية لتلك الحروب .

علاقات العرب الحربية مع الروم في الفترة العباسية التي ندرسها ،
في مجموعة من الملاحظات العامة :

أولاً : إن الحروب كانت مستديمة إلا في الأحوال التي تضطرب فيها الأحوال الداخلية في إحدى الدولتين . وكانت المبادأة فيها تأتي من الطرفين على السواء . وهذا يعني أن حالة العداء كانت هي الأساس في العلاقة بين الطرفين ومن قبل كل من الطرفين . فلم يكن موقف أباطرة الروم بأكثر مسالمة من موقف العباسيين . وإذا كان في هذا العداء بعض العنصر الديني فإنه لم يكن دينياً كله ، ومن الجانبين . ولكنه كان اقتصادياً أيضاً في أعماقه ويرتبط بالتنافس على خطوط التجارة العالمية عبر الأناضول وبحاجة منطقة العراق المرتبطة بالخليج العربي والمحيط الهندي الى ذلك الامتداد البري الذي تسير عليه الطرق المتوجهة الى أوروبا والى ضمان سيطرتها عليه . كما كان العداء سياسياً أيضاً يرتبط بدفع الخطر عن العاصمتين المتقابلتين لكل من الطرفين بغداد والقسطنطينية وبضمان الأمن كما يرتبط بطلب النفوذ والسيادة الدولية لهما .

ثانياً : أدى استمرار الحرب الى وضع نظام دائم لهما فكانت الغارات تجري في الربيع وفي الصيف وفي الشتاء أما غزو الربيع فيبدأ في وسط مايس حين تقوى الخيل وتضمن من مراعي الربيع . ويدوم الغزو ثلاثين يوماً (حتى أواسط حزيران) . وفي هذه الأثناء تجد الخيل من مراعي الروم ربيعاً ثانياً لها . ثم يستريح العرب وتستريح خيولهم شهراً حتى أواسط تموز وتبدأ حين ذلك حملة الصيف وتدوم ستين يوماً . أما حملة الشتاء فلا تكون إلا في حالات الضرورة القصوى ولم يكونوا على أي حال يمعنون فيها في التوغل ، بأرض العدو . وكانوا يحرسون على ألا تدوم أكثر من عشرين يوماً، يحمل فيها الجند على خيولهم المؤونة

الضرورة لهذه الأسابيع الثلاثة • ويكون الغزو عادة في آخر شباط
والنصف الأول من آذار •

ثالثاً : لم يتغير خط الحدود العربي - الرومي بنتيجة تلك الحروب
كلها • وقد كان خلال العصر العباسي كله عبارة عن سلسلة من المواقع
المحصنة تبدأ من طرطوس على البحر المتوسط ثم تذهب شرقاً إلى أذنة
على نهر سيحان (وهي ساروس قديماً) والمصيصة (مبسوسة) على
ضفتي جيحان (برماموس قديماً) ثم إلى الشمال الشرقي حتى مرعش
(غير بعيد من جرمانكا القديمة) بعد أن يمر في غرب اللكام الشمالي
بحصن الهارونية الذي بناه هارون الرشيد • ثم تمتد سلسلة الحصون
في شمال شرقي مرعش غير بعيد منها حتى (الحدث) التي يختلف
الجغرافيون في تحديد موقعها المضبوط • وفي شمال شرقي هذا البلد
تقع ملاطية أهم الحصون في شمال الجبهة ، وعلى نهر الفرات الأعلى •
وعندها تنحرف الحدود فيسير خط الحصون شرقاً إلى حصن زياد
وخرتبرت وحاني حتى بحيرة وان • ويتبع هذه الثغور من ورائها :
العواصم • ما بين انطاكية على الساحل الشامي حتى البلدة الصغيرة
على سيف الصحراء عند ضفة الفرات اليمنى بالس (بارباليسوس
القديمة) وحتى مدينة أبعد قليلاً نحو الشمال في منطقة زراعية هامة
هي منبج ، ثم حتى مدينة أبعد شمالاً هي سميساط •

وتجاه هذا الخط الاسلامي من الحصون كان يقوم في الأرض
البيزنطية : اعتباراً من الجنوب الغربي إقليم أو عمل كيليكيا • ثم عمل
قبادوقيا (القبادق) وفيها إقليم المطامير أو ذات المطامير (حسب التسمية
العربية) ثم عمل خلدة والارميناق وخرسيون (مقابل ملاطية) وعمل
الناطلوس (وفيه عمورية) ومن الشمال عمل أرمينية تجاه الحصون
الجزيرية •

ولم يكن ميدان الحروب هو هذه الحصون فقط وما بينها ولكنه كان يتناول المنطقة كلها وراء هذه الحصون وخاصة من ناحية الأناضول ويتجه الميدان عمقاً نحو الغرب حتى يصل أحياناً مشارف القسطنطينية . ولعله ما من منطقة في الدنيا - بما في ذلك حوض الرين والمارن - عرفت من المعارك الساحقة وسقيت من الدماء البشرية واحتملت من سوابك الخيل وتبودلت بين أطراف النزاع وذاتت من مآسي الحرب وويلاتها ومن القتل والنهب والتهك والهدم والاستعباد قروناً طويلة تزيد على العشرة ، كهذه المنطقة من الأرض .

رابعاً : اتبع الخلفاء العباسيون ، في هذه الفترة كافة ، السنة التي اتبعها المنصور في العناية بتحسين مناطق الحدود وبناء المدن المسبورة والقلاع الحصينة فيها . كان ذلك أساس النظام الدفاعي . وقد عنى به المهدي والرشيد والمأمون ثم المعتصم على السواء وإذا كان هذا العمل الذي أضحي سياسة مستمرة ، يحمل على الجزم (مع بعض الدلائل الأخرى) بأن العباسيين كانوا يعتبرون خط الحدود نهاية لا ابتداء ومكان استقرار وحماية ، لا نقطة انطلاق وهجوم فإن هذه السياسة نفسها قد استغرقت الكثير من الجهد والمال وأنشأت لا مدناً عسكرية البناء والطابع فقط ولكن مجتمعات عسكرية أيضاً سوف يكون لها مع الأيام طابعها الخاص المميز . وكان يزيد من الجهود ومن النفقات قسوة الظروف الطبيعية من ثلوج الشتاء وسيوله الجبلية وأمطاره الكاسحة من جهة حتى ليزكروا أن البرد قطع أيدي الناس وأرجلهم في حملة سنة ١٧٥ وأنهم بنوا سور الحدث سنة ١٦٢ من اللبن فلما جاء الشتاء انصدع وتشعث ولم يحتمل الأمطار والثلوج فأعادوا بناءه كرة أخرى . كما كان يزيد من الجهود والنفقات أن الزلازل كانت تضرب المنطقة من آن لآخر كما حدث للمصيصة سنة ١٨٧ حين زلزلت فانهدم بعض سورها

ونُصِبَ مأوئهم ساعة من الليل ويزيد من الجهود والنفقات أخيراً أن كلاً من الطرفين كان يهدم بانتظام حصون الطرف الآخر كلما ظفر بها . .

وهكذا بنيت طرسوس من ثغور الشام إذ غزا الحسن بن قحطبة الطائي بلد الروم سنة ١٦٢ فأخبر المهدي بمكان طرسوس الاستراتيجي وأنها الآن خراب فأمر ببنائها ، لكن البناء لم يتم إلا على يد خادم الرشيد سليمان الذي بناها بسورين^(١) وخندق وخمسة أبواب و ٨٧ برجاً ما بين سنتي ١٧٠-١٧٢ وشحنها الرشيد أول الأمر بثمانية آلاف من المقاتلة على رواية المسعودي وزاد في إعطائهم فاستقروا وبعضهم من أهل خراسان وبعض من المصيصة وانطاكية ، وقد نمت طرسوس حتى أضحت من أكبر المراكز لا العسكرية فقط ولكن العلمية أيضاً في القرن الثالث والرابع .

وبنيت أذنة في عهد المنصور سنة ١٤١ أو سنة ١٤٢/ ٧٦٠ ثم أعيد بناء قصرها وحصنها وشحنت بالمقاتلة من أهل خراسان وغيرهم على زيادة في العطاء بأمر الأمين .

وبنيت المصيصة ، منذ أيام المنصور أيضاً سنة ١٣٩ . عمرها جبريل ابن يحيى البجلي الخراساني بعد أن كانت الزلازل شعثت سورها فبنى السور والجامع وأسكن الناس وسماها المعمورة وفرض لأهلها الاعطيات والقطائع وزاد المهدي في عدد المقاتلة فيها ألفين كما زاد في عطاء بعض الجند . ونمت فيها صناعة الفرو ، وعيدان السروج والحديد المحزوز لكراسي الحديد واللجم والمهاميز ، على قول ابن العديم^(٢) .

(١) اليعقوبي - ج ٢ ص ٤١٠ .

(٢) ابن العديم - بنية الطلب (مخطوط آيا صوفيا) ورقة ١٣٨ ظهر .

وبُنيَت كُفَريَا : في زمن المهدي ثم غير الرشيد في بنائها وحصنها
بخندق ثم عمل المأمون على تنظيمها وأبطل ضريبة من الغلال على منازلها
وأمر فجعل لها سور ورفع فلم يتم وأتمه من بعده المعتصم •

وبُنيَت الهارونة كذلك : بدىء في بنائها زمن المهدي أو أمر الرشيد
ببنائها سنة ١٨٣/٧٩٩ وجعل لها سورين وأبواباً من الحديد وشحنت
بالمقاتلة والمطوعة وحملت اسم هارون الرشيد •

وبُنيَت عين زربة سنة ١٨٠ وحصنت وندب إليها جيش من أهل
خراسان أقطعوا فيها المنازل •

وأما ثغور الجزيرة ، فقد كان الروم قد خربوها في زمن مروان بن
محمد • خربوا مرعش والحدث وزبطرة وجاء العباسيون وكان عليهم
إعادة بناء هذه المنطقة من الثغور والحصون وهكذا :

بنى المنصور مرعش المخربة • بناها له صالح بن علي العباسي
وندب الناس إليها على زيادة العطاء فتكاثروا ثم زاد المهدي في شحنتها
وفي قوى أهلها •

وبُنيَت الحدث التي كانت بدورها مخربة ، وقد نبه الحسن بن
قحطبة الطائي قائد المهدي الى موقعها الاستراتيجي الهام سنة ١٦١ والى
موقع طرسوس وطلب بناءهما فأمر المهدي بتقديم بناء الحدث •• وقد
قام بالبناء سليمان بن علي العباسي الذي توفي سنة انتهى من بنائها سنة
١٦٩ وسميت باسم المحمدية والمهدية • وفرضت لها الحامية اللازمة
(حوالي ٤ آلاف) من أهل الشام والجزيرة وخراسان في أربعين ديناراً
من العطاء لكل مجاهد ، وأقطعوا المساكن وأعطى كل امرئ ٣٠٠ درهم •

وقد تشعث سور المدينة بالثلوج وكثرة المطر ونزل بها الروم سنة ١٦٩ فأمّر الهادي بإرسال بعث إليها وقد مات قبل إرساله فأنفذه الرشيد وأعاد بناء المدينة وتحصينها وشحنها بالمقاتلة ومنح الاقطاع .

وبنيت زبطرة المخربة أيضاً . بناها المنصور أولاً فخر بها الروم ككرة أخرى فبناها الرشيد على يد محمد بن ابراهيم وشحنها بالمقاتلين ، فلما كانت خلافة المأمون عاد الروم فشعثوا السور والبلد فأمّر الخليفة بترميمه وتحصينه فعاد الروم أيضاً زمن المعتصم فقتلوا الرجال فيها وسبوا النساء وأخربوا البلد مما كان سبباً في معركة عمورية المعروفة .

وبنيت ملاطية : خربها الروم سنة ١٣٣ فلما كانت سنة ١٣٩ كتب المنصور إلى ابن عمه صالح بن علي يأمره ببنائها وتحصينها ثم أرسل في السنة التالية عبد الوهاب ابن أخيه ابراهيم الإمام والياً على الجزيرة وثغورها ومعه الحسن بن قحطبة في جنود خراسان البالغين سبعين ألفاً وأقيمت المدينة في ستة أشهر بسورها ومسجدها ومنازلها جميعاً . وبني لها مسلحة على ثلاثين ميلاً منها ومسلحة أخرى على بعض روافد الفرات . وأسكن المنصور فيها أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة على زيادة عشرة دنانير في عطاء كل رجل ومعونة مائة دينار لكل منهم . ووضع فيها شحنتها من السلاح وأقطع الجند المزارع وبني حصناً قريباً من البلد (حصن قلوذية) . . . وهذه العناية الواسعة إنما كان سببها أن ملاطية هي الثغر الأول والأهم في المنطقة كلها وهي نقطة التقاء وتقاطع الطرق التجارية والعسكرية بين الجزيرة والعراق من جهة وآسيا الصغرى والقسطنطينية من الجهة الأخرى وقد ظلت كذلك عدة قرون .

وبني حصن منصور . . ولم يكن المنصور هو الذي بناه ولكنه

ينسب إلى منصور بن جعونة العامري القائد الذي تولى حكمه وبناءه وترميمه زمن مروان بن محمد . وكان على البلد سور وخندق وثلاثة أبواب . وقد جدد الرشيد بناء الحصن وأحكمه وشحنه بالرجال في أيام أبيه المهدي . .

وبنى المأمون كذلك حصن الطوانة . أمر ابنه العباس ببنائها سنة ٢١٨/٨٣٣ وبدأ ببنائها ميلا في ميل وجعل سورها على ٣ فراسخ بأربعة أبواب وبنى على كل باب حصنا . وفرض لها من أجناد الشام أربعة آلاف رجل جعل للفارس منهم مائة درهم وللراجل أربعين . .

واستعراض هذه الأبنية المتعددة يعني أن ثغور الشام وثغور الجزيرة تجاه الروم كانت قد بدىء ببنائها زمن المنصور وكانت قد بنيت كلها وحصنت تمام التحصين حتى أواسط عهد الرشيد لتكون حصون الحدود النهائية مع الروم . أما شحن هذه الحصون بالمقاتلة فكان يجري بوسائل كثيرة من الاغراء المادي منها زيادة العطاء ومنح المعونة وبناء البيوت ومنح الاقطاع الزراعي هذا عدا من كان يرددها من المتطوعين للجهاد احتسابا وقربى لله .

خامساً - كان ارتفاع خراج جند الحدود (أي منطقة الحدود) تافهاً إذا قورن بنفقات الدفاع عنه . فقد كان بالغ خراج الثغور الشمالية، بما فيها طرطوس وأدنة والمصيصة وعين زربة والهارونية وبلاد أخرى يبلغ حسب الوثائق العربية الرسمية مائة ألف دينار . تنفق على المشاريع العامة وأجور الجواسيس والبريد ومسالك الدروب في الجبال ومخاضات الأنهر والحصون الخ . . . بينما كانت نفقات الشواتي والصوائف براً وبحراً تبلغ مائتي ألف وثلاثمائة ألف دينار أحياناً . وكان خراج ثغور

الجزيرة وتشمل مرعش والحدث وملاطية وبلاداً أخرى (٧٠) ألف دينار وينفق عليها (٤٠) ألفاً وتخصص الثلاثون ألفاً الباقية لعطاء الجند . ويزاد عليها كل سنة بين ١٢٠ إلى ١٧٠ ألف دينار هذا عدا النفقات الطارئة للحملات المفاجئة وهي تتناسب مع شأن الحملة . وربما كانت هذه النفقات الدفاعية تافهة اذا قيست بجملة وارادات الخراج في عهد الرشيد أو المأمون وقد بلغت - حسب ابحاث كريم ودي سنان وغيرهما - قرابة (٣٥) مليون دينار .

سادساً - لم تكن قيمة منطقة الثغور والعواصم لدى الخلفاء العباسيين الأوائل ، في هذه الفترة ، قيمة اقتصادية كبيرة ولكنها كانت أيضاً قيمة سياسية ودينية معاً تتصل بأمر الجهاد والرغبة في الاشتهار به . وقد بلغ من قيمتها من الناحيتين أن كان الخلفاء يباشرون الحرب على هذه الجبهة بأنفسهم ويخرجون إلى المنطقة على رأس الجيوش المحاربة . قام بذلك المهدي ثم الرشيد - وليا للعهد وخليفة - إذ « كان يغزو سنة ويحج أخرى » كما قام به المأمون حتى لقد توفي في بعض غزوه في طرسوس . ثم قام من بعد ذلك المعتصم والواثق .

وكثيراً ما كان ولاية العهد أو أمراء البيت العباسي هم الذين يتولون إمارة الجزيرة والثغور والعواصم وقلما يعهد بأمرها لغيرهم : تولاها أولاً المنصور وهو ولي للعهد ثم تولاها عبد الله بن علي (أكبر أمراء العباسيين والطامع في الخلافة) ثم جعلت لصالح بن علي ، أخيه زمن المنصور فلما غضب عليه جعلها لعبد الوهاب بن ابراهيم الامام سنة ١٤٠ ثم للعباس بن محمد ، أخيه سنة ١٤٢ حتى عزله وغرمه مالا سنة ١٦٣ وقد عزل الرشيد في مطلع خلافته الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها منطقة ادارية عسكرية واحدة وسماها بالعواصم

سنة ١٧١ كما ولى الرشيد عليها عبد الملك بن صالح العباسي وكان مقره منبج . وقد زاره هناك فلما عزله فترة عاد فأعاده أيضا إليها حتى سجنه بعد ذلك سنة ١٨٧ وكان الرشيد في سنة ١٨٦ قد بايع لابنه القاسم بولاية العهد الثالثة وسماه المؤتمن وولاه الجزيرة والثغور والعواصم وأشخصه الى منبج فأنزله إياها بما انضم إليه من القواد والجند . وأغزاه الصائفة في العام التالي و « . . . وهبه الله وجعله قرباناً ووسيلة » . وفي عهد المأمون ولى الخليفة ابنه العباس الجزيرة والثغور والعواصم سنة ٢١٣ في حين ولى أخاه اسحق (المعتصم) بلاد الشام ومصر . . .

سابعاً - في هذه الفترة من أوج الحكم العباسي تنظمت أو على الأقل كثرت عمليات الفداء وتبادل الأسرى بالاتفاق ما بين العرب والروم ويعرف هذا لدى المؤرخين المسلمين بالأفدية ولعل أول فداء من نوعه بين الطرفين إنما كان سنة ١٣٩ في عهد المنصور لكن تلك البادرة الأولى ظلت مدة طويلة مجرد حادث عابر فريد حتى جاء أول فداء بعدها زمن المهدي على يد القائد المعروف بالنقاش الانطاكي فلما جاء عهد الرشيد كان أول فداء فيه سنة ١٨١ على يد عياض بن سنان أمير الثغور الشامية ثم كان الفداء المشهور على يد القاسم بن الرشيد سنة ١٨٩ وكان امبراطور الروم هو نقفور وجرى الفداء باللامس ، على جانب البحر بينه وبين طرسوس ١٢ فرسخا وحضره ثلاثون ألفاً من المرتزقة مع القائد أبي سليمان فرج الخادم متولي طرسوس وخلق كثير من أهل الثغور وغيرهم من العلماء والأعيان . وكان عدد الأسرى ٣٧٠٠ وقيل أكثر . . .^(١) ويسمى

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ١٥٩ وانظر أيضاً المسعودي التنبيه والاشراف ص ١٦٠ - ١٦٦ (وأبو سليم عند المسعودي وهو فرج نفسه) ويبدو أن ابن الأثير يخلط ما بين فدائي سنة ١٨١ وسنة ١٨٩ ويجعلهما واحداً . والمسعودي أقرب للعهد وأصح تاريخاً لأن ابن الأثير يحدد وجود نقفور على امبراطورية الروم وإنما اغتصب نقفور الحكم سنة ٨٠٢ أي سنة ١٨٧

المسعودي هذا الفداء فداء أبي سليم ، ويقول إنه فودي فيه لكل أسير كان بأرض الروم من ذكر أو أنثى فيما ظهر ، وقد دامت عملية الفداء اثني عشر يوماً . وكان حفلاً مشهوداً « حضره - على قول المسعودي - من أهل الثغور وأهل العواصم وغيرهم من أهل الأمصار نحو من خمسمائة ألف قد أخذوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء » . وكانت قوى المسلمين ومراكب الروم على السواء في أحسن وأكمل الزي والعدة . . . وقد استمرت هذه العادة واستقرت في العهود التالية بعد ذلك فجرى فداء ثالث زمن الرشيد ، بعد السابق ، سنة ١٩٢ (اقتدى فيه ٢٥٠٠ أسير في سبعة أيام) وفداء آخر زمن الأمين سنة ١٩٤ على يد القائد ثابت بن نصر ثم فداء آخر زمن المأمون سنة ٢٠١ على يد ثابت أيضاً . وفداء كان في زمن الواثق سنة ٢٣١ ومثله في زمن المتوكل سنة ٢٤٧ . . . وقد عد المسعودي من الأفدية المعروفة المشهورة حتى عهده سنة ٣٣٥ ثمانية عشر فداء . ويبدو أنه قد أضحى لعملية الأفدية مع الأيام نظام مقرر يقف فيه الطرفان على ضفتي نهر ويعبر الأسير الجسر فيلاقيه عليه الأسير من الطرف الآخر وينادي المنادون بالأسماء أو يجري الفداء في الأربطة على السواحل بالشراء والتبادل السلمي والاتفاق المسبق .

ثامناً - لم يكن لحروب العرب مع الروم من خطة منظمة أو هدف واضح معين ، يظهر ذلك في استقراؤها ومن أنها كانت تنتهي دوماً دون أن تغير موقف الطرفين . وغالباً ما كان الخليفة يكتفي منها بالجزية . وكل ما يمكن أن يظهر منها ، أنها أثبتت تفوق العرب الحربي من جهة وقصر نظر قوادهم في عدم متابعة الضغط على بيزنطة وعدم استغلال ظروفها الحرجة من جهة أخرى . ويعني هذا بصورة خاصة أن حروب العباسيين للروم حتى في فترات أوجههم لم تكن حروباً تقصد الى التوسع

والفتوح ولكنها كانت غزوات متبادلة من الطرفين لتثبيت المراكز . ولم تكن ذات طبيعة دفاعية بقدر ما كانت حملات إرهاب وإثبات قوة . وحروباً وقائية ولم تكن نتائجها على أي حال كسب الأراضي والحصون التي كان يتبادل الطرفان على الجانبين احتلالها وتخريبها ثم بناءها بشكل دوري - ولكن السلب وتدمير القوى المعادية . ولقد يذكرون أن مشروعاً لفتح القسطنطينية مر في خاطر البرامكة^(١) ، كما يذكرون أن المأمون - حسب رواية اليعقوبي - استعد سنة ٢١٨ ، سنة موته لحصار عمورية وقال : أوجه الى العرب فأتي بهم من البوادي ثم أنزلهم كل مدينة أفتحها حتى أخرج القسطنطينية . . « فأناه رسول ملك الروم يدعوه إلى الصلح والمهادنة ودفع الأسرى الذين قبله فلم يقبل . . . »^(٢) ولقد يذكرون - فيما بعد - في أيام الواصل أن أسطولا عربياً كبيراً بني في عدة سنين واتجه سنة ٨٤٢ لحصار القسطنطينية ففشل . . . وكان المعتصم قبل ذلك قد فكر في غزوها إثر انتصاره في عمورية^(٣) . . . لقد يذكر بعض المؤرخين هذا كله ولكنها كانت وظلت مشاريع سياسية ومجرد آمال لم تتحول الى التحقيق لأن السياسة العامة للدولة العباسية لم تكن تقتضي تحقيقها .

تاسعاً - كانت الجزى تدفع في الغالب من الروم للعرب . والمؤلفون الغربيون لا يريدون الاعتراف بهذا ، فإن رانسيما يقول : « . . . وربما كان الخليفة يعتبر هذا المبلغ (مبلغ الجزية السنوية) جزية اذا أراد ،

(١) ذكر ذلك غودفروا ديمومبين في مقال نشره في مجلة بيزانسيوم (العدد ٢٤ ص ٢٧١ - ٢) .
(٢) اليعقوبي ج ٣ ص ١٩٢ (٢ ص ٤٩٦ طبعة بيروت) .
(٣) المسعودي ج ٢ ص ٣٥٤

ولكنه لم يكن في الواقع إلا استثماراً حكيماً للمال !.. » وقد اتفق أن دفع العرب للروم بعض المال . والعرب ، بدورهم ، يعدون ذلك من باب الزكاة (وهو سهم المؤلفة قلوبهم) .

عاشراً - كان كل من الطرفين يسعى لإضعاف خصمه بتقوية الثورات الناشئة في أرضه : فإن الروم استغلوا ثورة نصر بن شبيب العقيلي وصاحبه عمرو (نيوفوب حسب ما يسمونه) فكاتبوا نصرا أو كان هو الذي كاتبهم فبعثوا إليه الرسول في كيسوم . واقتخر هو بقدمهم ، على ماتروي المصادر الرومية . ولكن أنصاره نصحوه بعدم الاتفاق مع « الكفار » فقتل الرسل . ويظهر من عطف تلك المصادر على نصر وخاصة من رواية ميشيل السوري ، عن معاملته الحسنة للنصارى ، أن علاقته بالروم - وهو على حدودهم - كانت أمرا واقعا ولكننا لا نعرف مداها .

واستغل الروم كذلك ثورة بابك فكانت بينهم وبينه مفاوضات سرية وتعاون حربي . وكان الهاربون من أصحاب الخرمي يلجؤون إلى أرض بيزنطة دوماً .

وبالمقابل فإن العباسيين أعانوا ثورة من أهم الثورات على القسطنطينية هي ثورة توماس (سنة ٨٢٠ - ٨٢٣) التي كانت ذات نتائج سياسية واجتماعية ودينية عميقة في الامبراطورية البيزنطية . عاش توماس هارباً في بلاد المسلمين خمساً وعشرين سنة . وميشيل السوري يقول : إنه كان يدعي فيها أنه ابن قسطنطين الخامس . وإن هارون كان يكرمه كأنه ابن الامبراطور . ثم عاد الى الأناضول يقود الثورة في زمن المأمون . وقد لاحظ (فازيليف) انه جرى بين توماس الثائر والعرب « حلف حقيقي » (أضحي بعد تتويج توماس امبراطوراً من قبل بطريق أنطاكية

أيوب) حلفاً شرعياً • فكان في جيش توماس فرق عربية تحارب معه • وقد أسر بعضها عند هزيمته • كما كانت هي نفسها من أسباب انقراض قلوب الروم عنه • وهكذا على قول فازيلييف « انهزم الخليفة في شخص توماس » وانصرف بعد ذلك لمشاكله الداخلية • لكن الثورة كانت قد أضعفت الامبراطورية بشكل تسنى معه للعرب ، من جهة أخرى ، أن يقتطعوا منها كريت وصقلية •

احد عشر - وجد لدى الطرفين أناس من الطرف الآخر يدلونهم على ثغرات الدفاع ومواطن ضعفه • فقد ذكر المؤرخون أنه التحق بالعرب قائد أو دليل يدعى (منويل) كما ذكر بارتولد وجود (معلم) عربي لتدريب الجند كان يدل الروم على مواطن الضعف في الجيش العربي ، ثم ترك الروم حين أساءوا إليه والتحق بالبلغار يدلهم على البيزنطيين •

ثاني عشر - أسبغت الحروب الرومية بهاء خاصاً على عصر الرشيد خاصة • والصلح الذي أقره مع بيزنطة سنة ١٨١ وأضحت الامبراطورة ايريني تدفع بموجبه ، مبلغاً من المال تؤديه في شهري نيسان ومايس من كل سنة ، ودام ذلك حتى سنة ١٨٧ ، هذا الصلح فسر من قبل (بكلر) على ان هارون الرشيد أضحى « سيد الامبراطورية الرومانية » ولكن فازيلييف الذي يعتبر ذلك فكرة خاطئة نسي ، على ما يظهر ، ان تقفور دفع ، بعد ايريني ، الجزية الشخصية للرشيد عنه ، وعن ابنه •

العلاقات الحضارية مع الروم : ونعود بعد هذا كله فنذكر ان إذا قرأنا مؤرخي العرب والروم ووصفهم المعارك على وتيرة جافة : عدد القتلى وعدد الاسرى وما هلك من سكان وأبيد من محاصيل وخرب من حصون .. فانا قد لا نرى لأول وهلة إلا الجانب القاتم والسلبى من

علاقات بيزنطة بالدولة الإسلامية • والواقع أنه يوجد شيء غير ذلك ، هو ما كان يتبع الممارك من علاقات غير مقصودة ، بين الشعبين وما تتركه تلك العلاقات من أثر في تطورهما الداخلي ، سواء في تبادل الافكار والعادات والاخلاق أو في التبادل الاقتصادي :

فمن الشيق أن نلاحظ ان علاقة العرب والروم — فيما عدا الحرب — لم تتميز قط بصفة الخصومة والحقد ، بل كانت أقرب الى الحياد على المستوى العلمي والتجاري والحضاري بصورة عامة • كانت الصلات — فيما عدا فترات الحرب — قائمة دائمة وذلك « ينسجم انسجاماً مطلقاً مع عقلية القرون الوسطى » وقد نستطيع أن نرى الجانب الآخر ، السلمي والودي ، للعلاقات من خلال عدد من نواحي الصلات بين الطرفين :

أولاً : التبادل العلمي والثقافي : فإن المسلمين لم ينسوا أثناء غاراتهم على الروم وخاصة زمن الرشيد والمأمون أن يحاولوا الحصول على كتب العلوم المختلفة من أنقرة وعسورية وغيرها • يذكر القفطي في أخبار الحكماء أن الرشيد « ولى (يوحنا بن ماسويه) ترجمة الكتب الطبية القديمة لما وجدها بأنقرة وعسورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون وسبوا سبجها ووضعها أمينا على الترجمة ورتب له كتاباً حذاقاً يكتبون بين يديه ... » (١) •

وروى ابن النديم في الفهرست أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات • وقد استظهر عليه المأمون فكتب الى ملك الروم يسأله

(١) القفطي — أخبار الحكماء ص ٣٨٠

الأذن في إتخاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم
فأجاب إلى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم : الحجاج
ابن مطر وابن البطريق وسلمنا صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما
وجدوا ما اختاروا فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل . وقد قيل إن يوحنا
ابن ماسويه ممن نفذ إلى بلد الروم .» (١) .

ويذكر ابن نباتة في سرح العيون عند الكلام عن سهل بن هارون : أن
المأمون « . . . جعله كاتباً على خزائن الحكمة . وهي كتب الفلاسفة التي
نقلت للمأمون من جزيرة قبرص . وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه
الجزيرة أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان وكانت مجموعة عندهم
في بيت لا يظهر عليها أحد . فأرسلها إليه واغتنب بها المأمون . وجعل
سهل بن هارون خازناً لها » . ويروى كذلك أن المأمون أرسل إلى صقلية
في طلب الكتب اليونانية . . .

ويبدو أن الخلفاء لم يكتفوا باستحضار الكتب ولكنهم استحضروا
العلماء . وإذا كانوا يذكرون عن أبي جعفر المنصور أنه استحضر بعض
علماء الطب من الهند لأنه كان مبعوداً فإن المأمون كان يطلب العلم من
معدنه وللعلم وحده . وقد ذكروا عنه أنه أرسل رسالة شخصية إلى
تيوفيل امبراطور الروم يطلب فيه السماح للعالم الرياضي (ليو) بزيارة
بغداد ولو لوقت محدود وقال إنه يعتبر ذلك عملاً ودياً ويعرض في مقابل
ذلك الصلح الدائم وألفي قطعة ذهبية . إلا إن الامبراطور رفض العرض
ومنح ليو وظيفة في إحدى الكنائس ومرتباً دائماً . . . ومقابل ذلك
يروى صاحب الأغاني أن رسول ملك الروم قدم إلى الرشيد فسأل عن

(١) ابن النديم - الفهرست ص ٢٤٣

أبي العتاهية الشاعر وأنشد شيئا من شعره وكان الرسول يجيد العربية فلما مضى الرسول الى القسطنطينية ذكر هذا الشاعر للامبراطور ويبدو أنه شاقه منه شعر الزهد الذي اشتهر به والذي يرفد الفكر الرهباني والديري فرد الامبراطور رسوله يسأل الرشيد أن يوجه بأبي العتاهية ويأخذ فيه رهائن من أراد . وألح في ذلك وكلم الرشيد الشاعر في ذلك فاستغفى منه وأباه . . . » (١) .

ويظهر أن هذا النوع من الصلات والوفود الثقافية لم ينقطع وإنما لتجد ، في الفترة التالية لعصر الرشيد ، أن الواثق قد بعث بعثة علمية الى بلاد الروم برئاسة محمد بن موسى المنجم لزيارة الكهف قرب بلدة أفسوس الذي يقال إنه لا يزال يحتفظ بأجساد الشباب السبعة أهل الكهف ، الذين استشهدوا أيام ديوقليسيان وذلك باذن خاص من الامبراطور ميخائيل الثالث ، وهناك البعثة الاخرى التي قامت بأمر الواثق أيضا (المأمون الصغير) تطوف في آسيا الصغرى برئاسة المترجم سلام الذي كان يعرف عدة لغات لاكتشاف السور الذي أقامه الاسكندر دون قوم يأجوج ومأجوج . . . وقد غابت البعثة في رحلتها ٢٨ شهرا قدم سلام على أثرها الى الخليفة تقريرا وافيا عنها كما يروي ابن خردادبه والمقدسي وياقوت . ونال على ذلك مع أفراد بعثته الجزيل من العطايا (٢) .

ثانيا : إن عرض العلاقات العباسية - البيزنطية قد لا يكون كاملا إن لم ترافقه صورة ، مهما تكن مختصرة ، عن تقنية هذه العلاقات

(١) الاغانى ج ٤ ص ١٠٥

(٢) ابن خردادبه - المسالك والممالك ص ١٠٦-١٠٧ ، ١١٠-١١١

المقدسي : احسن التقاسيم ص ١٥٢

وطرائق اتصال الدول بعضها ببعض : بالرسائل والسفراء وتنظيم السلم والحرب والأفدية والمعاهدات وهو ما يسمى عادة بالعلاقات الدبلوماسية ونجد بالفعل كما قال أحد المؤرخين أن في حوادث الشرق الحربية في القرن التاسع وقائع وعادات تعتبر مؤسسة لما نسميه اليوم بالقانون الدولي وما كتب عنه في تلك الفترة لدى العرب من الكتب مثل كتاب السير الكبير للشيخاني يمكن أن يعد من الكتب الأولى الباحثة في هذا النوع من الحقوق الدولية والعلاقات الدولية في تلك الفترة إنما كانت تتم بالواسطة وبشكل غير مباشر * لم يكن من المؤلفين الدولة الإسلامية والدول المعاصرة لها أن تجري الاتصالات عن طريق اجتماع الخلفاء بالملوك المجاورين * هذه الطريقة التي كانت معروفة في أوروبا ، في تلك القرون ، لم يتبعها ملوك الشرق عامة ، ولا الخلفاء المسلمون وأقصى درجات الاتصال المباشر التي وصلوا إليها هي :

١ - إرسال السفراء والوفود أو استقبالها في مهمات محددة : حربية أو سياسية أو عسكرية * وقد عرف العرب هذه الطريقة منذ العهد الجاهلي واتبعوها في العهد الأموي * ولم يعدل عنها العباسيون بل استقبلوا ومنذ سنواتهم الأولى سفراء الروم والفرنجة وغيرهم * يذكر الطبري وابن الفراء (في كتابه رسل الملوك) قصة قدوم بطريق من الروم إلى المنصور في بغداد فأمر الخليفة أن يطاف به فيها - وهي العاصمة الجديدة - ليرى فخامة عمراتها^(١) * ومثل ذلك استقبال المنصور والرشيد من بعد لوفود ملك الفرنجة *

(١) الطبري ج ٨ والسفراء - رسل الملوك ص ٣٩ ويذكر أن المنصور اتبع نصيحة هذا البطريق فأخرج الاسواق وأصحابها من بغداد .

ومن السفارات المشهورة سفارة يوحنا النجوي الذي وفد الى بغداد يعلنها بارتقاء تيوفيل العرش الامبراطوري حاملا معه الهدايا الثمينة وقد رووا أنه ينثر الذهب كالرمال ويهب كل زائر له في مقر ضيافته الهبات السخية . ويذكرون أن رسولا من ملك الروم وصل المعتصم إثر إيقاع الروم بزبطة فلم يقبل الخليفة لقاءه وأخره في موقع قريب من عمورية حتى افتتحها .

وقد كانت السفارات تجري في تدبير أمور الفداء . يذكر الطبري في أخبار سنة ٢٣١/٨٤٦ أن رسول ميخائيل بن تيوفيل ملك الروم وصل الواثق بالله يسأله أن يفادي بمن في يده من أسارى المسلمين ، كما يذكر سنة ٢٤١ « أن تذوره صاحبة الروم أم ميخائيل وجهت رجلا يقال له جورجس بن فرناقس يطلب الفدى لمن في أرض الروم من المسلمين وكان المسلمون قد قاربوا عشرين ألفا . . . » وقد أوفد المتوكل سنة ٢٤٦/٨٦٠ نصرا بن الأزهر الشيعي إلى ملك الروم في أمر الفداء فاستقبله وبين يديه ثلاثة من التراجمة . . . وكان السفراء عامة من الطرفين يحرصون على أن يظهروا في أبهى وأضخم مظهر كما كانوا يختارون من اكبر شخصيات الدولة الدينية أو السياسية .

وكانت تؤمن لهم وسائل النقل اللازمة كما تضمن لهم وسائل الأمن والسلامة وقد يحملون رسائل رسمية ولكنهم كانوا يعتمدون على علمهم وبراعتهم في انجاح المهمات التي يسفرون فيها وكانت السفارات تجري أحيانا في أعقاب الحروب وتعمل على توقيع الهدنات . ومن ذلك ما يذكرون من أن هارون بلغ في عهد أبيه المهدي مشارف القسطنطينية سنة ١٦٥/٧٨١ فجرت بينه وبين أغسطس - وهي رينى (ايرين) امرأة اليون . . . - الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية . فقبل ذلك

منها هارون • وشرط عليها الوفاء بما أعطت له وأن تقيم الأدلاء والاسواق في طريقه وذلك أنه دخل مدخلا صعبا مخوفا على المسلمين فأجابته الى ما سأل «•• وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين وسلمت الاسرى ••» أما السفارات إلى العواصم فقد كان بقاءها فيها قد يطول أشهراً في الضيافة وكانت بيزنطة تحتفظ في مراسمها بمكان الصدارة دوماً للسفراء • ونجد في نظام المراسم الذي وضعه قسطنطين البورفيري صيغا ودية لحد كبير معدة لاستقبال سفراء بغداد والقاهرة ومن المراسيم التي وضعها أن يجلس « الاصدقاء العرب » في مرتبة أعلى من الاصدقاء الاfrican •

٢ - المراسلات الكتابية : وكانت هذه هي الوسيلة الأسهل والأكثر شيوعاً في ضبط العلاقات وقد حفظ لنا الطبري خاصة وكتب التاريخ الاخرى الكثير من صور هذه المراسلات التي نقلت نصوصها دون شك عن الوثائق الرسمية لديوان الرسائل في قصر الخلافة • وكان بعض هذه الرسائل يتحول إلى صكوك معاهدات بما يحمل من شروط وعهود •

ومن نماذج تلك الرسائل ما تبادلته الرشيد ونقفور من المكاتبات عند نقض الروم العهد سنة ١٨٧/٨٠٣ واللهجة الملتهبة التي صيغت بها تلك الرسائل لم تكن اللهجة المألوفة في الخطابات الدبلوماسية الاخرى التي نجد فيها ألواناً من اللين والشدّة يمتزج بعضها ببعض • ومن ذلك ما تبادلته المأمون مع تيوفيل بن ميشيل من الرسائل سنة ٢١٦/٨٣١ ويذكرون أن العادة كانت أن يبدأ كتاب ملك الروم باسم الخليفة فبدأ الامبراطور تيوفيل بنفسه فلما ورد الكتاب إلى المأمون لم يقرأه وسار الى الحرب فجاء كتاب تيوفيل مرة أخرى سنة ٢١٧ على القاعدة • ويروى الطبري نصه ومنه : أما بعد فان اجتماع المختلفين على حفظهما أولى بهما

في الرأي ما عاد بالضر عليهما .. وقد كنت كتبت إليك داعيا الى المسالمة
راغبا في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا ونكون كل واحد لكل
واحد وليا وحزبا ... فان أبيت ... فاني لخائض إليك غمارها آخذ
عليك أسداده ... وإن أفعل فبعد أن قدمت المذرة ... » .

وقد أجابه المأمون : « .. أما بعد فقد بلغني كتابك فيما سألت من
الهدنة ودعوت إليه من المواءعة وخلطت فيه من اللين والشدة مما استعظفت
به من شرح المتاجر واتصال المرافق وفك الاسرى ورفع القتل والقتال .
فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالخطر في قلب الفكرة ..
لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل رجالا من أهل البأس و ... هم أظما
الى موار المنايا منكم إلى موارد السلامة .. غير أنني رأيت أن أتقدم
إليك بالوعظة ... » ثم خيره بين الاسلام والجزية .

ثالثا : تبادل الطرفان التأثير الحضاري على نطاق واسع . وقد
لاحظ فازيليف ان ثمة شبةا في أوجه النشاط في أكثر من جهة ، بين
المأمون وبين تيوفيل (سنة ٨٢٩ - ٨٤٢) ، الذي ظل معاصرا له أربع
سنوات : فالاثان اهتمتا بالمسائل الدينية وأثاروا المعارضة بالتجديد
في الدين (واهتم المأمون خاصة بفرض مذهب ديني رسمي للدولة
كالأباطرة) ، وكلاهما اهتم بالشعر وازدهرت في عهده العلوم والبناء ،
وجعل لنفسه حلقة من العلماء الذين كان منهم ليو الرياضي ويوحنا
النحوي . ولم يكن القصر الصيفي الذي بناه الامبراطور الرومي سوى
محاكاة لقصر من قصور الخليفة بسبب تعلقه بالثقافة والفن العربيين .

على أن تيوفيل إنما كان يقلد ، في الواقع هارون الرشيد . كان
يعتبره مثله الأعلى في الحكم وكان يطوف مثله أحياء العاصمة متصلا
بالفقراء مستمعا إلى شكاوى الضعفاء متفقدا أحوال الرعية . فلم يصبح

محبياً الى قلوبها فقط ولكن نسجت من حوله الاساطير والحكايات بدوره
كالرشيد • ويعتبر عهد تيوفيل العهد الذي بلغ فيه التأثير الاسلامي على
العالم البيزنطي ذروة قوته ووضوحه^(١) •

رابعاً : أثرت الحروب العربية - البيزنطية في الأدب الشعبي في
كلا البلدين • فقد خلقت نموذجاً لبطل قومي أسطوري له قوة خارقة
وأعمال عجيبة • من ذلك : محارب عربي اسمه عبد الله البطل قد يكون
استشهد في معركة اكرونيون بآسيا الصغرى سنة ٧٤٠ • ولكنه أصبح
فيما بعد ، النموذج الحي التاريخي للبطل القومي التركي (سيد بطال
غازي) ولا يزال قبره في إحدى القرى جنوبي اسكي شهر (دوريل
يوم قديماً) • وظهرت بالمقابل ملحمة للبطولة البيزنطية تصور أعمال
البطل القومي اليوناني ، وقد نسجت حول شخصية : (ديجينيس
اكريتاس) وهو شخص حقيقي قتل في إحدى المعارك مع العرب سنة
٧٨٨ على ما يظهر ، وكان قبره غير بعيد من سميساط • وهذه الملحمة
هي ما يسمى بالاغنيات الشعبية الأكريتاسية وتصور خاصة حروب القرن
التاسع بين بيزنطة والعرب ، لاسيما معركة عمورية (زمن المعتصم سنة
٨٣٨ م ٢٢٣ هـ) وهي مصدر غني للعلاقات الثقافية بين بيزنطة والعرب
عدا أنها تصور الحروب بينهما • وقد تمخضت الابحاث التي تمت
حولها ، عن مسألة غاية في الأهمية هي الارتباط الوثيق بين ألف ليلة
وليلة وبين شعر البطولة اليوناني ، وملحمة سيد بطال التركية (وأصلها
عربي وانما دخلت دائرة الشعر التركي بعد نقلها للتركية) •

(١) انظر :

Ostrogorowski, G: Hist. of the Byz. State (trans) p.
183 , 184
Bury, A Hist. of the Eastern Rom. Emp. , p.p. 121-122

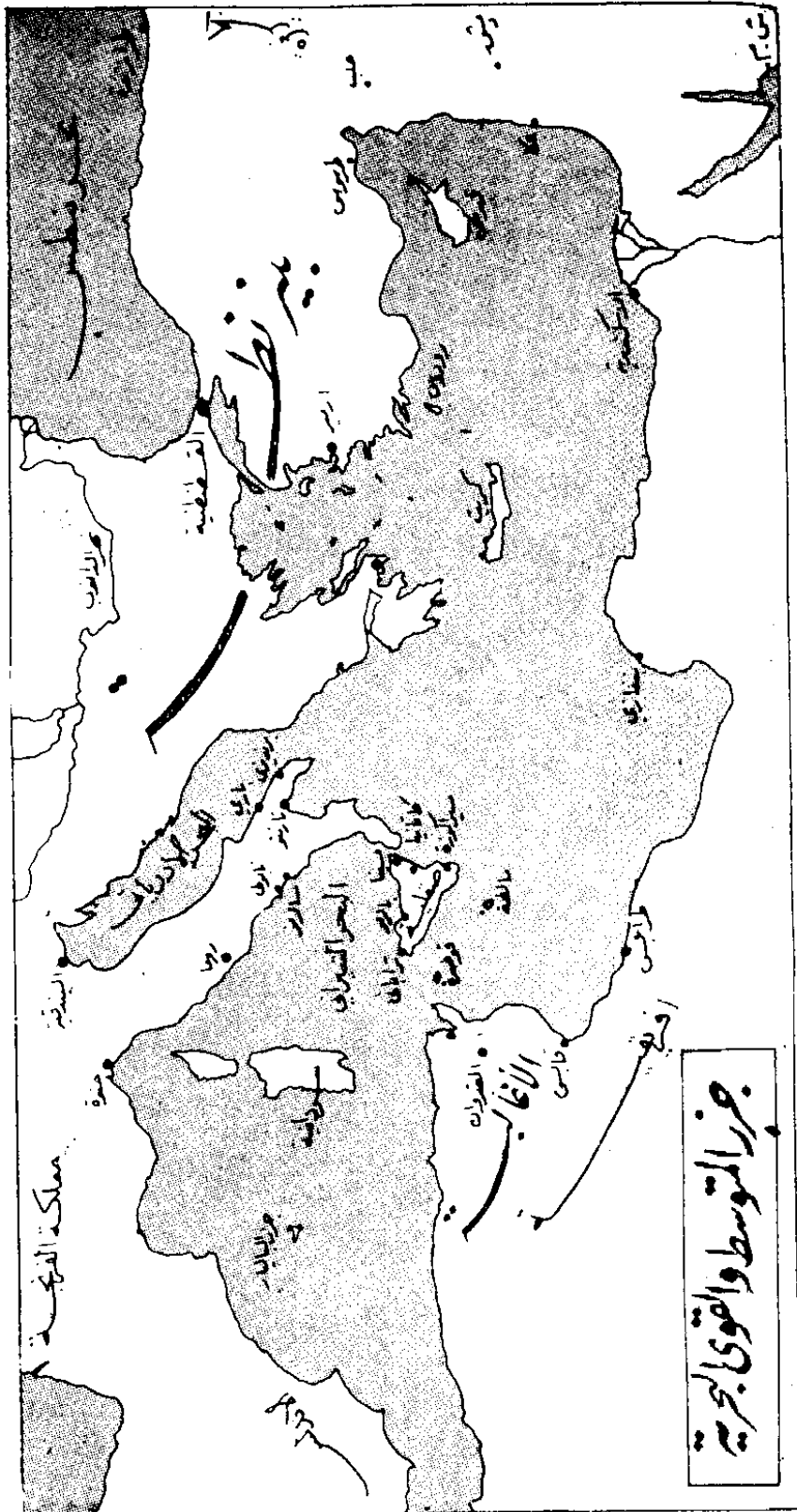
الفصل الخامس

العلاقات الخارجية

٢- في البحر المتوسط والغرب

١ - القوى البحرية العباسية في المتوسط

١ - العباسيون والبحر المتوسط : نظرت الخلافة العباسية الى البحر المتوسط على أنه الحدود التي تقف عندها لا مجال للنشاط التجاري والعسكري والسياسي الذي يجب أن تغزوه • ابتلعتها آسيا والشؤون القارية فاهتمت بالسيادة على البر تاركة السيادة على البحر للروم • وصارت شواطئ الشام ومصر بالنسبة الى بغداد نهايات وحدوداً ينبغي حمايتها لا ثغوراً وأبواباً للانطلاق منها الى ما وراء البحر والسيادة على مائه وتسخيرها للتجارة والسياسة الاسلامية وقد كان عصر الأمويين عصر التعرف الى البحر والتعامل معه ولكن ظهور العباسيين أوقف هذا التطور البحري فجأة فلم تستطع الدولة الاسلامية أن تفعل ما فعلته الامبراطورية الرومانية في السيطرة على الشواطئ الغربية خاصة والشمالية وفرض نفوذها عليها •



والعناية البحرية الكبرى إنما صرفتها الدولة العباسية لخليج
البصرة وعمان وللمحيط الهندي • وكان نشاطها هناك نشاطاً تجارياً
واسعاً وقلما رافقه نشاط عسكري أو ارتبط به عمل سياسي إلا في بعض
الظروف المتصلة إما بعمان أو بحر القلزم أحياناً أو بحوض نهر السند
الاسلامي •

كالذي كان من توجه خازم بن خزيمة في خليج البصرة لقمع خوارج
عمان أيام أبي العباس سنة ١٣٤ والحملة البحرية التي أرسلها المنصور
لرد حملات القرصان الكرك عن جدة والحملة البحرية الأخرى التي
قادها عمرو بن جمل في البوارج الى (نارند) في الهند بأمر المنصور
والحملة البحرية الثانية التي سيرها المهدي بقيادة عبد الملك بن شهاب
المسمعي الى هذه المدينة نفسها وانتصرت ثم نكبتها الأوبئة والعواصف
في العودة • وكان منطلق هذه الحملات العسكرية هو نفسه الميناء
التجاري الأول للعراق في تلك الفترة : ميناء البصرة • ولم يكن في المحيط
الهندي على أي حال - فيما عدا القرصان - من دولة أو قوة بحرية
أخرى تقف في وجه النفوذ البحري العربي فكان المحيط الهندي ، في
الواقع ، بحراً عربياً خالصاً للمراكب الاسلامية وتسبح في ظلها المراكب
الهندية وغيرها •

ويبدو أن متابعة بيزنطة لسياسة الرقابة التجارية على البحر
المتوسط ، بعد قيام العباسيين كما تابعتها أيام الأمويين وإغلاقها غربي
البحر المتوسط في وجه التاجر المسلم وحصرها مرور التجارة الشرقية
اللازمة لبيزنطة خاصة ولبلاط الغرب عامة عبر ثغر طرابزون على البحر
الأسود^(١) ، وهي التجارة المستوردة بواسطة التجار العرب في بلاد فارس

(١) ارشيبالد لويس - القوى البحرية (الترجمة العربية) ص ١٧٥

والعراق كل ذلك بجانب حقد العباسيين على الشام الأموي قد جعل بني العباس يواصلون إجراءات الدولة الأموية الخاصة بالرقابة التجارية وتقييد حركة التنقل وحصر مرور التجارة تحت أعينهم بالعراق • وثمة خبر يذكر أن المنصور طمر القناة التي كانت تصل بين النيل والبحر الأحمر (القلزم) سنة ١٤٥ / ٧٦٣^(١) • وهذا الاجراء وإن كان السبب فيه إيقاف وصول الميرة من مصر الى الحجاز الثائر مع محمد ذي النفس الزكية وحصاره الاقتصادي إلا إنه كان من نتائجه أيضاً - أو من دوافعه - حصر وتحويل تجارة المحيط الهندي من طريق بحر القلزم نهائياً إلى طريق العراق •

أما في البحر المتوسط فلم يكن بالإمكان أن يبذل العباسيون أي نشاط فيه دون أن تكون له مضاعفات أو مقدمات وذيول سياسية وعسكرية بجانب النتائج الاقتصادية المترتبة على ذلك ، لا مع بيزنطة فحسب ولكن مع كثرة الدول الناشطة على أطرافه • وإذا كان حوضه الشرقي بيد العباسيين في الشرق والجنوب ، وبأيدي الروم في الشمال ، فإن حوضه الغربي كان مشتركاً بين : الروم أنفسهم في إيطاليا وصقلية ، وبين الفرنجة في الشواطئ الشمالية وبين عرب الاندلس الأمويين في شواطئ إيبيريا ، أما في المغرب وافريقيا فقد كان الشاطئ للعباسيين بالاسم وسرعان ما تظهر فيه ومنذ عهد الرشيد نفسه قواه المحلية المنفصلة لتمارس سياساتها الخاصة (ثار المغرب واستقل على يد الإدارة سنة

ورانسيمان - الحضارة البيزنطية (الترجمة العربية - جاويد - القاهرة ١٩٦١) ص ١٩٨

(١) المصدر نفسه ص ٢٠٣ التعليق رقم ٦٨ نقلا عن ويل •

٧٨٨ وتلقى الأغلبية الاعتراف الفعلي من بغداد بحكمهم لأفريقية سنة
١٨٤/٨٠٠) •

وبالرغم من أن الطابع العام لعلاقة العباسيين بالبحر المتوسط
كان الإهمال والانصراف عن تنمية القوى البحرية إلا إن هذا لا يعني أنه
لم يكن في المتوسط ، في سواحل الشام ومصر أسطول عباسي كما لا
يعني أنه لم تقم عمليات حربية هامة في العصر العباسي الأول بين هذا
الأسطول والروم • لكن الملاحظتين الأساسيتين في هذا الصدد هما :

أ - أن اهتمام الروم بأسطولهم وباستغلاله التجاري والعسكري
في المتوسط كان في تلك الفترة - وهي فترة الأوج في الحكم العباسي -
أكثر وأقوى بكثير من اهتمام العباسيين أنفسهم وهذا ما ترك السيطرة
على الحوض الشرقي خاصة منه بأيدي الروم فترة لا تقل عن ثلاثة أرباع
القرن أي ما بين سنة ٧٥٢ حتى سنة ٨٢٧ •

ولم تكن عظمة العباسيين في القوى البرية تتناسب مع قواهم
وأعمالهم البحرية المحدودة ، وظل للروم السيطرة على صقلية وكريت
وقبرص وسردينية وجزر الباليار كما تحكوا في المضائق ذات القيسة
الحرية الهامة على طرق التجارة العالمية •

ب - أن العمليات البحرية البرية لم تكن تتوافق وتترافق مع
العمليات البحرية • ولم يسجل العباسيون إلا محاولات محدودة للتنسيق
والتعاون بين جيوشهم البرية في الثغور وأسطولهم البحري على الشواطئ
والجزر •

ج - خسرت الدولة البيزنطية حوالي نهاية هذه الفترة^(١) جزيرتين من الجزر الثلاث الأكبر والأهم في المتوسط . خسرت صقلية وكريت وقد أخذهما المسلمون في هذه الفترة ، ولكن لم يكن ذلك بجهد العباسيين ولا بأسطولهم وإنما بقوى إفريقية وأندلسية . وقد نستطيع حسابان هذه القوى الإفريقية والأندلسية لمصلحة العباسيين ولكنها ليست بتخطيط وتمويل بغداد ولم تكن تعمل لحسابها وإذا كان من نتيجة خسارة بيزنطة للجزيرتين زوال سيطرتها البحرية عن المتوسط فإن خلفاء بغداد لم يكونوا المستفيدين من ذلك ، ولكن القوى الجديدة التي نشأت في مصر (ابن طولون) وإفريقيا (الأغالبة) والمغرب (الأدارسة) . والأدلة على إهمال العباسيين للبحر كثيرة ومن أهمها مثلاً :

أنه انتشرت في تلك الفترة إقامة «الأربطة» لا على سواحل الشام فقط ولكن على سواحل إفريقيا إبقاء للغارات البيزنطية ، وقد بلغ من قوة الروم البحرية أن بعضهم اقترح على الرشيد فتح قناة السويس لوصول البحر المتوسط بالأحمر فمنعه من ذلك نصيحة جعفر البرمكي الذي قال له : كان يتخطف الروم الناس من المسجد الحرام وتصل مراكبهم الى الحجاز^(٢) . وكان أسطول الروم يقوم بدورات تفتيشية على السواحل الإسلامية وقد يتصيدون مراكب وتجارات المسلمين . يقول ابن الأثير : « وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة (صقلية) وتذب

(١) نزل المسلمون كريت وصقلية في سنة واحدة هي سنة ٢١٢/ ٨٢٧ وكان ذلك مؤذناً بانتهاء السيطرة البحرية البيزنطية على البحر المتوسط وهي السيطرة التي نالتها عقب هزيمة الاسطول الأموي في شمال قبرص سنة ٧٤٧/١٢٩

(٢) المسعودي - مروج الذهب وقد نقله السيوطي في تاريخ الخلفاء

عنها وربما طارقوا تجاراً من المسلمين فيأخذونهم...»^(١) ! ويعزو بعض المؤرخين استمرار وجود العواصم العربية : القسطنطينية ، القيروان ، فاس ، قرطبة في الداخل إلى قوة الروم البحرية^(٢) .

ب - الغزوات العباسية في البحر المتوسط : وعلى أي حال فإن العباسيين قاموا بعدة عمليات عسكرية بحرية وهي وإن لم يكن لها تألق وانتصارات الجيوش البرية إلا إنها كانت نوعاً من إثبات الوجود في البحر المتوسط وكان الذي يقوم بها هو في الغالب أسطول الشاطيء الشامي وربما أعانه الأسطول المرباط في سواحل مصر . ولعل أول ما سجل من الاتباه العباسي للبحر أمران دفع إليهما الاضطراب والحاجة الملحة :

فقد أمر أبو العباس سنة ١٣٦ بتجهيز حملة بحرية - برية لغزو إفريقية وعهد بتنظيم الحملة البحرية إلى المثنى بن زياد الخثعمي الذي وصل الاسكندرية في شوال من تلك السنة لتجهيز المراكب - ويقال إن مروان ابن محمد حين انهزم أمر بإحراق الاسطول المصري - لكن وفاة أبي العباس السريعة أوقفت المشروع كله . ولم يهتم أبو جعفر به لما كان على يديه من المشاغل الداخلية والثورات في المشرق ومع ذلك فإنهم يذكرون أن المنصور سمع وهو في الحج سنة ١٥٣ أن الكرك (وهم من مناطق السند) كانوا يغيرون في نوع من القرصنة على جدة ويهددون شواطئها وأنهم أغاروا عليها سنة ١٥١ ، فجهز فور عودته من الحج جيشاً في البحر ، أطلقه وراءهم من البصرة قبل أن يغادرها إلى بغداد^(٣) .

(١) انظر ابن الأثير ج ٥ ص ٤٥٦ (حوادث سنة ١٣٥) .

(٢) انظر ارشيبالد لويس - القوى البحرية ص ١٦٢

(٣) الطبري ج ٨ ص ٤٢٣ و ٣٥٩/٣ و ٣٧٠

أما أول حملة بحرية حقيقية سجلت للعباسيين فهي :

١ - حملة سنة ١٥٧/٧٧٣ على شواطئ آسيا الجنوبية وكانت جزءاً من العمليات الحربية التي قادها المنصور في أواخر عهده ضد الروم . كانت الحملة برية - بحرية وقد قادها ثمامة بن وقاص وتسميه المراجع البيزنطية (باناكيس) الذي توغل شمالاً في إقليم القبادق ، وقد أمر الامبراطور قسطنطين الخامس فاستطاعت الجيوش البرية مع الأسطول الرومي أن تقطع خط الرجعة على ثمامة إذ احتلت مدينة سيس وحاصرت قواته البرية وحرمته الاتصال بالأسطول العربي . ولئن استطاع الافلات من التطويق إلا إن الحملة البرية فشلت بينما يسجل البيزنطيون خبر نجاح الأسطول العربي في الهجوم على قبرص وأسر حاكمها البيزنطي^(١) .

٢ - ثم كانت حملتان أخريان سنة ١٦٠ و سنة ١٦١ قادهما في بحر الشام الغمر بن العباس الخشعي . ولكن الخليفة المهدي اعتمد في نزال الروم على الجيوش البرية ولهذا كان البحر هادئاً بقدر ما كانت العمليات الحربية البرية حامية في الثغور وفي قلب آسيا الصغرى . ويجب أن نتنظر عهد الرشيد لنرى بعض التحول في هذا الهدوء .

٣ - ولم تكن المبادرة بالهجوم في عهد الرشيد من العرب ولكن الروم الذين كانت تقوم خططهم في ذلك الوقت على فرض الرقابة على الشواطئ العربية والإغارة المفاجئة عليها ، استطاعوا أن يأسروا سنة ١٧٤/٧٩٠ بعض السفن الاسلامية وهي في طريقها من مصر الى الشام ،

(١) ارشيبالد لويس - ص ١٦٠

فأغار الأسطول الاسلامي على كريت وقبرص في تلك السنة نفسها مما يحمل على الظن بأن الروم كانوا يراقبون مشروع حملة بحرية اسلامية عليهم وقد حاولوا اجهاض المشروع بالهجوم على قسم من السفن المعدة له . ونزلت القوات العربية في الجزيرة ولم ينفع القبرصيين وصول قسم من الأسطول البيزنطي بأمر الامبراطورة ايرين لنجدتهم فقد هزم هذا الاسطول ، قرب خليج أضالية ، وأسر المسلمون قائده فجاء أمر بغداد بقتله . ويبدو أن والي الثغور يومذاك وهو عبد الملك بن صالح العباسي أراد نقض الصلح والعهد القديم المعطى لأهل قبرص . وكانت قبرص منذ عهد معاوية تدفع الجزية السنوية للعرب والروم معاً ، وقد زاد هشام بن عبد الملك في جزيتها ألف دينار فألغاهما أبو جعفر المنصور^(١) قائلاً : نحن أحق من أنصفهم ولم تنكسر بظلمهم ! وقد قرر عبد الملك فيما يظهر إجلاء أهل قبرص عنها . وإحلال المسلمين محلهم ولكنه أراد في نوع من الموقف الأخلاقي - الديني النادر المثال ، أن يأخذ من فقهاء عصره الفتوى في ذلك بحجة أنه « ما وفى لنا أهل قبرص قط » و « لم يزالوا يغشون أهل الاسلام ويناصحون أعداء الله الروم .. » . وهكذا كتب إلى الامام الأوزاعي ، والليث بن سعد ، ومالك ابن أنس ، وسفيان بن عيينة ، واسماعيل بن عياش ، ويحيى بن حمزة وإلى اسحق الفزاري ، ومخلد بن الحسين كتباً حفظ لنا البلاذري أجوبتهم عليها كمشكلة فقهية سياسية .. لكن مشروع الإجلاء لم يتم .

٤ - ويبدو أن ضعف العباسيين البحري ظل يغري بيزنطة باستخدام قبرص في الهجوم على السواحل الشامية ولهذا فقد تنبه الرشيد إلى

(١) كان عبد الملك بن مروان قد زادها ألف دينار من قبل وألغى ذلك عمر بن عبد العزيز (البلاذري - فتوح البلدان ج ١ ص ١٨٣) .

خطرها يوم حملته الكبرى على الروم سنة ١٩٠ فعهد إلى حميد بن معيوف الهمداني حسب رواية الطبري بأن يلي « سواحل بحر الشام إلى مصر » فجهز حملة بحرية - برية قوية ونزل قبرص سنة ٨٠٦/١٩٠ بينما كان الرشيد يهاجم الأناضول بأضخم حملة عباسية يومذاك « فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً فأقدمهم الراققة فتولى بيعهم أبو البختری القاضي، فبلغ أسقف قبرص ألفي دينار ٠٠»^(١) ويكمل البلاذري خبر الطبري بقوله عن أهل قبرص : « ٠٠ ثم إنهم استقاموا للمسلمين فأمر الرشيد برد من أسر منهم فردوا ٠٠»^(٢) .

٦ - ويمكن أن نعد في إطار الحملات العباسية غزوة أسطول الأغالبة لسواحل اليونان (البلوبونيز) سنة ٨٠٦ ولا شك انها إنما كانت بإيعاز من الرشيد لاحكام الطوق على بيزنطة .

٧ - وفي السنة التالية سنة ٨٠٧/١٩١ قامت حملة على جزيرة رودوس بأمر الرشيد وعادت محملة بالأسرى والغنائم ٠٠

٨ - كما غزا اقريطش (كريت) قائد الرشيد : حميد بن معيوف ففتح بعضها .

وتنقطع أخبار العباسيين البحرية بعد هذا فترة طويلة كما كانت منقطعة من قبل فترة طويلة فلا نجد أي خبر عن عملية عباسية بحرية . والخبر التالي الذي جرى في زمن المأمون وكان من نتائجه كسب

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٢٠ (٧٠٩/٣) وص ٣٢٢ (٧١١/٣)

(٢) البلاذري - فتوح ج ١ ص ١٨٣ .

جزيرتي اقريطش وصقلية للمسلمين إنما قام به الأندلسيون والأغالبة .
وكان هو الكسب الحقيقي من الأملاك البيزنطية .

والواقع أن هذه الأعمال العسكرية البحرية التي اقتضت على
الهجوم على قبرص وعلى المنطقة المجاورة للشغور كانت أعمالاً محدودة
المدى والنتائج . وبالرغم من أن الجبهة البرية في الأناضول كانت هي
الجبهة الرئيسية والأهم فإن حصيلة العمليات العسكرية عليها بدورها
لم تكن شيئاً مذكوراً أمام النتائج الخطيرة التي نجمت عن العمليات التي
قامت بها القوى الإسلامية الأخرى في بقية نواحي البحر المتوسط .

٢ - القوى البحرية الإسلامية في المتوسط

(١) - الصراع البحري : لئن سمح نصر بيزنطة البحري على
الأمويين سنة ٧٤٧ . ثم الانصراف القاري العباسي من بعده ، بأن
يصبح البيزنطيون هم أسياد الأسطول الأول والأقوى في البحر المتوسط
وبأن يطبقوا نظام الرقابة الشديدة على تجارته ، فإن هذه السيادة لم تكن
خالصة تماماً في الواقع . لأن القوى الإسلامية في هذا البحر تمزقت
فقط ولكنها لم تمحق . وبينما اتخذت مصر والشام من جهة وإفريقية
والمغرب من جهة أخرى ، والأندلس من جهة ثالثة ، كل منها طريقها
الخاص في العمل البحري التجاري والعسكري فإن مجموعات أخرى ،
إسلامية ، حرة الارتباط ، صغيرة الأعداد ، خفيفة الحركة قد أخذت
تظهر وتقوى وتعمل في طول هذا البحر وعرضه . وكانت تعمل خاصة
ضد الشواطئ البيزنطية والفرنجية الممتدة من الأناضول حتى صقلية
وايطاليا وجنوب فرنسا وضد مئات الجزر عند تلك الشواطئ .

لا نتحدث المصادر العربية عن هذه القوى التي تصنفها المصادر

البيزنطية واللاتينية « بالقرصنة » والتي يجب أن تفهم مواقفها ودوافعها ،
فقد كانت عناصرها مكونة من مصدرين :

أ - من المتطوعين المجاهدين الذين كانوا يتطوعون للغزو بدافع ديني •

ب - من البحارة المسلمين الذين حرمتهم الأساطيل البيزنطية ورقابتها القاسية في البحر ، فرص العمل التجاري ، فتحولوا الى الهجوم الانتقامي وإلى القرصنة^(١) وإلى عمليات التهريب الناشطة •

وكانت مكامن هذه الجماعات ، التي تعمل لحسابها الخاص ، متعددة وتمتد على كافة شواطئ المتوسط الجنوبية خاصة • وقد كان يقابلها أيضاً من الجانب البيزنطي والأوروبي جماعات من القراصنة النصاري الذين يعملون بدورهم ضد الشواطئ الإسلامية المختلفة وقد نسبت بعض أعمالهم للمسلمين أيضاً •

وإذا اكتفت الأساطيل المختلفة الأندلسية ، والأغلبية العباسية والفرنجية بأن تعمل كل منها محلياً وفي مناطقها من حوض المتوسط الشرقي والغربي فإن الأسطول البيزنطي كان يمثل الأسطول الأقوى في هذا البحر ويعمل على شواطئ واسعة لا تعكر سيادته سوى أعمال الجماعات البحرية الحرة التي بلغ من كثرتها وقوتها أن هددت أمن البحر

(١) سبب هذا الاحتكار البيزنطي أيضاً هجرة كثير من المسيحيين من سورية وفلسطين الى قبرص والآناسول سنة ٨١٣ (انظر ارشيبالدلويس - القوى البحرية ص ١٧٩) •

المتوسط وعظمت في النصف الثاني من القرن الثامن خاصة وفي مطالع القرن التاسع الكثير من تجارته ومواصلاته .

وجاءت ثورة توماس الصقلي سنة ٨٢٠ - ٨٢٣ فأصابت القوة البحرية البيزنطية بضربة قاسية إذ خرجت هذه القوة منها عرجاء تماماً وقد أتت الحرب الأهلية على أساطيلها في الولايات وشتت شملها^(١) . فكان يكفي لقوة منظمة ناشطة أن تكشف الانهيار البيزنطي البحري وتكسب المكاسب الهامة على حسابه . وهذا بالضبط ما تم سنة ٨٢٧ في أهم موقعين من مواقع المتوسط الجزرية : كريت وصقلية ، انتقم فيهما النفوذ الاسلامي البحري لهزيمة قبرص سنة ٧٤٧ وتناجها إذ كسر عملياً نظام الرقابة التجاري - العسكري الذي فرضته بيزنطة مدة تزيد على ثلاثة أرباع القرن تحكمت خلالها بتوجيه طرق التجارة الدولية عبر الموانئ والبحار والممرات التي تخضع لها كما غيرت خلالها الوسيطاء التجاريين في المتوسط ، فأبعدت أهل الشام ومصر وأفريقية ، وجعلت التجارة احتكاراً لرعايا بيزنطة بصورة خاصة والبلاد الخاضعة لها في إيطاليا وعلى البحر الأسود .

على أن الانتصار الاسلامي في كريت وصقلية لم ينجم عنه تحول التجارة البحرية تجولاً كاملاً في الثغور والطرق والوسطاء إلى المسلمين ولكن تقاسم النفوذ التجاري بينهم وبين تجار المدن الإيطالية (البندقية ، أمالفي ، باري) في المناطق التي انحسر عنها النفوذ التجاري - السياسي البيزنطي ، وكثر الوسيطاء خاصة وأصحاب السفن من هذه المدن بجانب

(١) ارشيبالد لويس - القوى البحرية ص ١٦٩ .

اليونان البيزنطيين والعرب المسلمين • وبينما بدأت بيزنطة تتحول إلى نوع من السلبية الاقتصادية والركود التجاري ، ظهر النشاط التجاري والسياسي في موانئ مصر خاصة وفي افريقيا مما نجم عنه ظهور الدول المنقطعة في الاقليمين (الطولونية والأغلبية والأدرسية) •

ب - فتح كريت : لعل فتح هذه الجزيرة من قبل المسلمين كان أكثر المغامرات طرافة وشأناً بين مغامرات الأساطيل الحرة في المتوسط في ذلك الحين • فقد قام بهذا الفتح جماعة أندلسية مطرودة من قبل الحكام المسلمين في غرب المتوسط ثم من شرقه على السواء • وقد بدأت قصتها بالثورة المعروفة في الأندلس باسم ثورة أهل الربض إذ ثارت في قرطبة سنة ٨٠٥ ثم في طليطلة سنة ٨٠٧ هذه الجماعة من سكان الأرباض فلما قمع الحكم الأول الأموي تلك الفتن بأساليب البطش الشديد انبعثت الثورة من جديد سنة ٨١٣ في قرطبة فلما تمكن الحكم منهم قرر أن يدمر الحي التائر • واعطى سكانه مهلة ثلاثة أيام للنجاة بأنفسهم والخروج من الأندلس كله أو يصلب ! ونزل أهل الربض في المراكب فبعض استقر في فاس من المغرب ومنهم من واصل السير في البحر حتى إذا وصلوا الاسكندرية نزلوا في جوارها سنة ١٩٩/٨١٤ ولم يكن مسموحاً لأهل الأندلس النزول في الأرض العباسية ولكنهم كانوا ١٥ ألفاً من اللاجئين عدا النساء والأطفال وكان الحكم العباسي مهتزاً في مصر قد غلب على شرق الدلتا (أسفل الأرض) منها عبد العزيز بن الجروي وغلب على ماوراء ذلك حتى الصعيد عبيد الله بن السرى واختصم الاثنان فلم يلق الأندلسيون معارضة في نزولهم ثم استطاعوا بعد قليل سنة ٢٠٤/٨١٨ دخول الاسكندرية والاستيلاء عليها بزعامة أبي حفص عمر ابن شعيب (أو عيسى) البلوطي لأنها مع أعمالها حتى بحيرة مريوط كانت خاضعة لسيطرة قبلية بدوية من قبيلتي لخم وجذام •

ولما قرر المأمون إنهاء الاضطراب في الأجزاء الغربية من الخلافة سنة ٨٢٥/٢١٠ وأرسل عليها عبد الله بن طاهر بن الحسين واستطاع هذا القائد أن يلغي الاستقلال الذي أعلنه ابن السرى في مصر ويعيدها الى التبعية العباسية مال على هؤلاء الاندلسيين فهزمهم ثم خيرهم بين القتل أو الرحيل « فسألوه الأمان على أن يرحلوا الى بعض أطراف الروم التي ليست من بلاد الاسلام » . ولا شك أنهم كانوا قد شكلوا إذ ذاك قوة بحرية تجارية واستخدموا اسطول المراكب الذي قدموا فيه ، في التعرف الى الحوض الشرقي للمتوسط . واختار هؤلاء الإندلسيون جزيرة كريت لا لموقعها الاستراتيجي التجاري الهام فقط على مدخل بحر ايجة وسعتها وخيراتها ولكن لأن الاسطول البزنطي كان في ذلك الوقت أضعف من ان يحمي أي شاطئ للروم أيضاً . وقد أرسلوا سنة ٨٢٦ حملة من عشرين سفينة إلى كريت فعادت إليهم بكثير من الغنائم والأسرى وتعرفت إلى دخائل الجزيرة ومواقعها

تحرك الاندلسيون في أسطول من أربعين سفينة ونزلوا فجأة خليج سودا في كريت سنة ٨٢٧ وأذن لهم أبو حفص في أن يعملوا أيديهم في النهب والبطش على الفور اثني عشر يوماً وفتحوا حصناً من حصونها جعلوه رأس جسر للفتح ولما لم يكن لهم من مؤئل يعودون إليه فقد بدأ أبو حفص في بناء حاضرة لاستقرار هذه الجموع معه في موضع بلد قديم على الشاطيء الشمالي للجزيرة عرفت باسم كنديا أو تشانداكس Chandia, Chandax (وهي تحريف كلمة خندق بسبب الخندق العميق الذي حفر حول المدينة) كما بدأ في الوقت نفسه سلسلة غارات عنيفة على انحاء الجزيرة أخضع خلالها ٢٩ بلداً من بلادها وخرب حصونها

ويستظهر فازبلييف من بعض الأخبار أنه لم يكن في الجزيرة من حامية
حرية قوية • وقد ازداد هؤلاء الاندلسيون قوة حين لحق بهم بعض
الاندلسيين الآخرين وحين زادوا في بناء المراكب وغزوا الجزيرة المجاورة
حتى أربوها ونشأت بذلك دولة أبى حفص الذي عرفه التاريخ البيزنطي
باسم Apocapso !

ويعزو مؤرخو البيزنطيات هذا الفتح إلى ضعف بيزنطة وإلى ما
كان يكتفه سكان كريت للنظام البيزنطي من كراهية بسبب الظلم الضرائب
والاداري وبسبب الهرطقة المتعلقة باللايقونية وما من شك في أنه يجب
أن يضاف إلى ذلك شجاعة هذه الجماعة التي كررت في كريت ما كان
فعله طارق بن زياد من مغامرة الفتح لأنها وإن لم يكن مؤكداً أنها أحرقت
السفن وراءها فإن طريق العودة كان على أي حال مسدودا في الواقع
عليها في الشرق العباسي أو الغرب الأموي على السواء ويقولون إن أبا
حفص استطاع عند احراق السفن تهدئة قومه الخائفين بامتداح الأرض
وغناها وجمال نسائها •

وتروي المصادر الرومية القصص الخيالية حول ذلك الفتح الذي
استرق به العرب المسلمون سكان تسع وعشرين بلداً وغزوا فيه الجزر
حول كريت عشرات الغزوات •

ولم يخف على اباطرة بيزنطة وقوادها مدى الخسارة والخطر
السياسي والعسكري والتجاري في سقوط كريت بيد المسلمين ولكن
الحملات البحرية التي أرسلها الامبراطور ميخائيل الثاني بقيادة فوتينوس
بعد أشهر من وصول العرب ثم بقيادة دميانوس مع أمداد جديدة بعد
ذلك ثم بقيادة كراتيروس مع سبعين سفينة فشلت كلها وأجلاها العرب

بـالقتـال العـنيف الـى البـحـر • وبيـنـما هـرب الـأول جـرح الـثاني وقـتل
الـثالث^(١) ...

ولجأ الفاتحون إلى الهجوم المعاكس فقاموا عقب وفاة الامبراطور
ميخائيل مباشرة بحملة بحرية خربت ونهبت شواطئ ايونيا وكاريا وجبل
لاتروس ويبدو أن هذه الحملات أضحت تقليداً لدى الحكام الاسلاميين
في كريت الذي اتخذوها مركز انطلاق الى البر اليوناني حيث يبدو من
بعض النقوش الكوفية التي وجدت في أثينة أن العرب استوطنوا حيناً
من الوقت تلك الجهات^(٢) وكانوا في أواسط القرن العاشر يهددون
سواحل بحر ايجه كلها بما قادوه من هجمات واسعة تناولت جزر الأرخبيل
اليوناني حتى خلت من سكانها خلواً يكاد يكون تاماً وقد ظلت جزيرة
كريت في الحكم العربي نحو قرن ونصف من الزمان حتى استردها نقفور
فوقاس سنة ٩٦١ م •

ج - فتح صقلية : وقد كان فتحها متواقناً مع فتح كريت • وإذا
كانت المقدمات الاولى لاحتلالها لم تنجح ، منذ محاولة معاوية فتحها
سنة ٦٥٢ ثم محاولته الاخرى سنة ٦٦٩ ثم المحاولات التي كانت بعده
وخاصة سنة ٧٠٠ وسنة ٧٥٢ اذا كانت كلها لم تنجح فإن وصول الأغلبة
الى الحكم في المغرب الأدنى وتوطد دولتهم في تونس (منذ عهد الرشيد)

(١) انظر قصة الفتح لدى فازيليف - العرب والروم ص ٥٣ وما
بعد ، ابراهيم العدوي - الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ١٠٧
Bury. A Hist. of the Eastern Roman Empire (London
1912) pp. 287-291 .

(٢) فيليب حتى - العرب (الترجمة العربية) ج ٢ ص ٥٤٢-٥٤٣
(الطبعة الرابعة بيروت ١٩٦٥) .

تجاه صقلية ، جعل هذه الجزيرة مطمع توسعهم البحري •

وتتميز افريقية والمغرب عن غيرهما مما دخل في حوزة الاسلام من أقطار البحر المتوسط بأن النشاط البحري جزء لا يتجزأ من حياتهما وكيانهما الاقتصادي والاجتماعي • وسكان هذا الشريط الساحلي العامر لا يستغنون عن البحر وتجارته ولهذا كانوا من أنشط الشعوب البحرية منذ العهد الفينيقي ثم أيام الرومان والبرنطين • وقد غلبت طبيعة البلاد البحرية على المسلمين • فأنشأوا ميناء تونس بعد اختطاطهم القيروان في الداخل • وما كاد المغرب يبدأ التخلص من قبضة المشرق بعض الشيء بقيام الأغلبة حتى عاد أهله إلى نشاطهم البحري بين الجوضين الشرقي والغربي للبحر المتوسط • وهكذا لم يكن فتح صقلية مصادفة او استمراراً لسياسة الفتوح الاسلامية بقدر ما كان محاولة من المغرب لاستعادة مركزه في البحر المتوسط في نطاق اسلامي •• وبعد أن كان هذا الشاطئ العامر خاضعاً قبل الاسلام للشواطئ الأوروبية المقابلة له على هذا البحر نراه الآن يتجه الى السيادة عليها بعد الاسلام^(١) •

كان من دلائل هذا الاتجاه التوسعي نحو الشمال تكاثر الغزوات البحرية الأغلبية على صقلية وجنوب ايطاليا في مطالع القرن التاسع (أواخر الثاني الهجري) • وهي غزوات تقوم في أساسها ودوافعها المنافسة التجارية •

وكان الأغلبة في افريقية (تونس) قد زادوا من قوة اسطولهم

(١) حسين مؤنس - المسلمون في البحر المتوسط (بحث في المجلة التاريخية المصرية - العدد الأول من المجلد الرابع - مايو سنة ١٩٥١) .

البحرية للدرجة التي استطاعوا معها منذ سنة ٨٠٥ (في عهد الرشيد ،
و حين قام بحملته المشهورة على الاناضول) ان يقوموا بغارة بحرية على
جزر البيلوبونيز غرضها معونة الرشيد على الأرجح . ولعل هذا كان
السبب في أن يعقد بطريق صقلية (البيزنطي) مع ابراهيم بن الأغلب في
السنة نفسها سنة ٨٠٥ ثم أن يعقد ابنه صلحاً عسكرياً تجارياً لمدة عشر
سنوات جدد سنة ١٩٨ / ٨١٣ لعشر سنوات أخرى على يد أبي العباس عبد
الله بن ابراهيم .

ويبدو أن تلك الاتفاقية لم تكن قوية الأثر فيما وراء المصالح
المتبادلة المتعلقة بصقلية نفسها ذلك أنها « لم تمنع عرب شمالي افريقيا
(الأغلبة) من القيام^(١) بغارات - ولو فاشلة - على سردينية سنة ٨١٢
و سنة ٨١٣ » وقد كانت الغارة الأخيرة هي السبب في تجديد اتفاق
الصلح بطلب من الأغلبة هذه المرة لأنهم خسروا فيها مائة سفينة أغرقها
لهم العواصف قرب سردينية

وما إن ولى الحكم زيادة الله بن الأغلب حتى عادت الغارات إلى
شكلها الدوري المعتاد على صقلية منذ سنة ٨٢٠ فغنموا منها تلك السنة
الغنائم العظيمة بقيادة محمد بن عبد الله الأغلب (ابن عم الأمير) ثم كانت
سردينية هي الهدف في العام التالي ولم يكن في عزم الأغلبة تحويل
الغزوات إلى فتح لولا أن تطور الأحداث الداخلية في الجزيرة أعطاهم
الفرصة المناسبة سنة ٨٢٧ .

فقد ثار زعيم الاسطول اوفيموس Euphemios على بطريق الجزيرة

(١) ارشيبالد لويس - القوى البحرية ص ١٦٥ .

والامبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني سنة ٨٢٦ لأسباب قد يكون من بينها طموحه . فلما انهزم فر إلى القيروان يعرض على زيادة الله الأغلبى مشروع فتح الجزيرة على ان يكون تابعاً له بعد الفتح يحكمها ويؤدي الجزية . وعرض الامير المشروع على (الجماعة) ، وهم مجلس شورا فلم يرضوه ويبدو أن الاتفاقية التجارية العسكرية كانت قد جددت مرة ثالثة فلم يرض معظمهم بنقضها . لاسيما والجزيرة معروفة المناعة ولكن المصاعب الداخلية التي كان يعاني منها الحكم الأغلبى ومشورة القاضي المسوع الكلمة ابي عبد الله أسد بن الفرات بن سنان (وهو في الأصل من الجند الخراسانية ومن مواليد حران شمال سورية) دفعت الأمير الأغلبى الى قبول المشروع لا سيما بعد أن عرف ان ثورة توماس الصقلي قد اهلكت بيزنطة ودمرت اسطولها ، وبعد أن تواترت الأنباء بظفر أهل الربض الأندلسيين في النزول بجزيرة كريت . . . وقد قدم اوفيموس (ويدعوه العرب فيه) نفسه دليلاً في الجزيرة كما أعلن أن رجاله في مرفأ (مزارا) ينتظرون ! . . .

وهكذا تقرر الفتح . واجتمع له من الجند الاسلامي ٧٠٠ فارس و ١٠ آلاف راجل على مائة سفينة وأعطيت القيادة لأسد بن الفرات نفسه . وسار أسطوله بجانب أسطول ايفيموس (في ١٤ حزيران سنة ٨٢٧ / ١٥ ربيع الاول سنة ٢١٢) ونزلت الحملة بعد ثلاثة أيام من ثغر مزاردة على الساحل الغربي . وقد خشي أسد بن الفرات الغدر من صاحبه فرأى أن يعمل منفرداً . وطلب من ايفيموس أن يميز جنده عن جند بيزنطة بعلامة فارقة وبدأ التهيؤ لمقابلة القوات الرومية التي هزعت لحربه . من بالرمو فلقوها على الطريق إليه .

وقد انتصر أسد في موقعة (بلاطة^(١)) رغم تفوق الجيش البيزنطي في العدد والعدة ثم ألقى الحصار على (سرقوسة) عشرة أشهر ولم يأبه للمجاعة التي حلت بجنده ، ولا للثورة التي قامت فيهم تريد العودة ، فأخمدوها . ولا لمكائد الروم وتواطؤ اوفيمبوس في النهاية معهم ، ولكنه توفي بالطاعون مع عدد من جنده ، واختار الجيش لقيادته (محمد بن ابي الجواري) ولكنه كان مهدداً بالامداد العدو التي وصلت من القسطنطينية والبندقية للجزيرة . وبالرغم من ان ايفيمبوس الذي كان رائدهم في العمل ، قد هلك بمؤامرة بيزنطية^(٢) . (ويعتبره المؤرخ الايطالي جابوتو بطلا قومياً) فإن الغزاة العرب على قلتهم بقوا يدافعون ويهاجمون عند الشاطئ الجنوبي من الجزيرة وحول مرفأ مزاراة بالذات مدة سنتين . وقد منعهم من العودة ان القوات البيزنطية لم تكن أقوى منهم وأن الاسطول البيزنطي كان قد أغرق السفن الاسلامية وقطع طريق العودة . وظل الامر على ذلك ، حتى اتفق أن اجتمع سنة ٨٣٠

(١) على اسم السهل الذي جرت به . والمؤرخون يعزون اسم السهل الى اسم القائد البيزنطي في هذه المعركة . ويراجع في هذا البحث كله كتاب (العرب والروم) لفازيلييف . وكتاب غزوات العرب لشكيب ارسلان . واول الكتابين واسع المصادر عميق البحث ترجم الى العربية قسم منه . كما يراجع كتاب المسلمون في صقلية من تأليف مارتينو مورينو .

(٢) بعض المؤرخين الايطاليين مثل جابوتو يعتبره بطلا صقلياً قومياً وبعضهم يعتبره خائناً . وقد قتل في مؤامرة إذ استدعاه بعض سكان بلدة (ياني) وهي محاصرة ليسلموه البلد فذهب إليهم في حرس قليل وتلقاه في المقابلة اثنان اخوان كانا من اصدقائه وبينما كان أحدهما يعانقه بقوة طعنه الثاني بخنجره في ظهره . . وحمل رأسه المقطوع في موكب ظفر الى داخل المدينة التي اشتدت معنوياتها فلم تستسلم للمحاصرين حتى وصل جيش بيزنطي انقذها .

اسطول أندلسي يقوده الاصبع بن وكيل (الملقب بالفرغلوس) مع اسطول اغلبي قادم في ٣٠٠ سفينة حربية مشحونة لنجدة الغزاة ، فاتفقا على العمل المشترك ونجح المسلمون اثر ذلك في فتح بالرمو سنة ٨٣١ (٢١٦هـ) في الزاوية الشمالية الغربية من الجزيرة بالرغم من أن الوباء عاد فانتشر في الجند الاسلامي ومن أن بعض الجند الاندلسي عاد الى بلاده . وكان فتح بالرمو سنة ٨٣١ أمراً هاماً أعطى العرب قاعدة بحرية قوية - كما قال فازيليف - يمكن الاعتماد عليها في فتح سائر الجزيرة . ولعل هذا النصر كان من أسباب إقدام الامبراطور تيوفيل رغم انتصاره في طرسوس والمصيصة على مصالح المأمون تلك السنة .

وهكذا انتهت المرحلة الأولى من الفتح بعد كوارث مختلفة لم يستطع أن يستغلها امبراطور بيزنطة لانشغاله بحملات المأمون في الشرق وحملات المعتصم من بعده وثبتت اقدام العرب في صقلية بصعوبة خلال حرب عنيفة سجال دامت أربع سنين (٨٢٧ - ٨٣١) مشوا فيها بسرعة من الغرب الى الشرق ثم استقروا في بالرمو . ليبدأوا بعد ذلك المرحلة الثانية من الفتح لشرق وجنوب الجزيرة وقلبها . وهي المرحلة الأطول والأصعب فقد استولوا في السنين العشرة التالية على اقليم غني في غرب صقلية ، وأسسوا هناك أولى مستعمراتهم (وادي مزارة) . التي استولت مع بالرمو على التجارة وطرقها في الحوض الأوسط للمتوسط وهيأت انهيار النفوذ السياسي والتجاري البيزنطي فيه .

ثم استطاع العرب بعد ذلك أخذ (مسينا) في الشرق سنة ٨٤٢ (سنة ٢٢٩) ثم فتحوا حصن البيزنطيين الحصين ياني سنة ٨٥٩ (٢٤٥هـ) ثم سقطت بأيديهم أخيراً سرقوسة بعد نضال عنيف (مايس سنة ٨٧٨) دمر المدينة كلها في عهد باسيل المقدوني (٨٦٧ - ٨٨٦) وانتهى بذلك

فتح الجزيرة ... بعد أن دام ٥٨ سنة ! لكن كان العرب قد جاوزوها ، قبل ذلك بزمان ، فأغاروا على كالابريا وغيرها من البر الايطالي وضموها مع صقلية الى الأملاك الافريقية ثم لم تبق في أيديهم بعد ذلك إلا ثلاثاً وسبعين سنة !

٣ - العلاقات مع الجنوب (جنوب مصر وحوض النيل)

لعلنا قبل الانتقال الى الحوض الغربي من البحر المتوسط والى الغرب نتجه بالنظر الى قطاع مجهول مهمل هذه منطقة النوبة وما يجاورها في جنوب مصر . وإذا كان جنوب الدولة الاسلامية في الشرق ينتهي بالبحار (الهندي والعربي والأحمر) وجنوبها في الغرب تضرب الصحراء الكبرى سداً عريضاً بينه وبين ماوراءه من أرض السودان في غرب افريقيا ووسطها فإن المنطقة الممتدة ما بين البحر الاحمر الى حوض النيل اعتباراً من منطقة أسوان والشلال الاول كانت القطاع الجنوبي الوحيد الذي تتجاوز فيه قوى الاسلام فتصطدم او تتهاذن مع قوى أخرى غير مسلمة .

وهذا القطاع يمتد ما بين ساحل البحر الاحمر الغربي المقابل لمكة والمدينة وعسير حتى حوض النيل . وقد نستطيع تحديده الجغرافي بحصره فيما بين عيذاب ومصوع على البحريين أسوان وعلوة (جنوب الخرطوم) على النيل . وعلاقة هذه المنطقة بالعرب واسعة وسابقة للاسلام ، ولعلنا نذكر بهجرة المسلمين الأولى الى الحبشة . ولم تستمر العلاقة قائمة فقط بعد الفتح الاسلامي ولكنها ازدوجت أيضاً إذ أصبح اتصال الحكم العربي بالمنطقة ثنائي الجهة : يأتي عبر البحر الأحمر كما يأتي عن طريق وادي النيل من مصر . ويمكن ان نقسم هذه البقاع إلى منطقتين :

. الأولى : فيما بين الوادي والبحر الاحمر وسكانها من قبائل البجة (الأبشا)^(١) ولكن عددا من البطون العربية (وبعضها من ربيعة) انتقل إلى مناطق البجة في العهد الاسلامي وتوطن بساحل الزنج أي المناطق الساحلية كما توغل أحيانا في داخل المنطقة بسبب ما فيها من الموارد ذات القيمة الاقتصادية . فالمناطق الواسعة التي تسكنها البجة عرفها التاريخ الاسلامي باسم أرض المعدن وكانت فيها مناجم الذهب (التبر) والزمرد . كما كانت الطرق الموصلة بين موانئ البحر الأحمر ووادي النيل وخاصة ما بين عيذاب وقوص قطعة من طرق التجارة العالمية الموصلة ما بين المحيط الهندي والبحر المتوسط يسلكها تجار الهند واليمن والحشة^(٢) كما كانت طريق الحجاج ولم يعقد العرب المسلمون أي اتفاق مع قبائل البجة واعتبروها قبائل وثنية غير جديرة بأي تحالف سياسي .

لكن يبدو أن الأمويين اهتموا بمنطقة المعدن اهتماما واضحا لا بسبب ذهبها فقط ولكن لأن مجموعات عربية من المناوئين للأمويين هربت ، بعد الثورات الزيرية والعلوية والخارجية ، من الحجاز أو من مناطق عمان والعراق إلى ساحل الزنج^(٣) . وجعلت تقوم مع التجارة ببعض القرصنة وقد أرسل عبد الملك بن مروان قوة عسكرية إلى هذا

(١) كلمة بجة أصلها من اللغة المصرية القديمة (إبشا) وتعني البدو سكان الصحراء وهم بضم الباء وفتح الجيم .

(٢) انظر المقرئزي - الخطط ج ١ ص ٣٥٦ (طبعة بيروت) .

(٣) يعود إلى هذا العهد وصول أسرة ومجموعة الفنج أقرباء الأمويين إلى بر الزنج من عمان وهي الأسرة التي سوف يكون لها دورها في تاريخ السودان وأرتيريا حتى مطلع العصر الحديث .

الساحل تضمن ولائه وأمنه سنة ٧٥ هـ . عرفت باسم «شام» أي أهل الشام وتولى الحكم فيه أمراء أمويون أقاموا المدن واشتغل عدد من الشاميين منها بتجارة التوابل والريش والمعادن والعاج كما قاموا بالإدارة الحكومية وتحصيل الضرائب من السكان ومن التجار ٠٠٠ وهذا بالطبع^(١) ما يفسر هرب بعض الأمويين ، الى ما سمته المصادر بالحبشة يوم طاردهم العباسيون ٠٠٠

وقد أسلم البجة بعد أن فتح عبد الله بن أبي سرح سنة ٣١ هـ أعالي الصعيد ولكنه كان «إسلام تكليف ضبطوا فيه بعض شرائط الاسلام»^(٢) واحتفظوا بالكثير من وثنتهم الأولى كما احتفظوا بزعاماتهم التقليدية التي يسميها الجغرافيون العرب «الممالك» ومنها البجة في الشمال ثم جارين وتفلين ثم قطعة ودجن وبازين ٠٠٠

ويبدو أن تكاثر العرب في دخول أرض البجة وغلبتهم على أرزاقهم دفع هؤلاء الى مهاجمة مصر العليا في مطالع القرن الثاني للهجرة (عهد هشام بن عبد الملك) حتى عقد عبيد الله بن الحبحاب والي خراج مصر معهم معاهدة نظمت علاقتهم بالأرض الاسلامية لأول مرة وقد وافقوا فيها على تقديم ٣٠٠ من الجمال إتاوة سنوية وأن لا يقبلوا الآبقين من الرقيق في بلادهم ويمنحوا المسلمين حق العبور والأمان لديهم .

وقد حافظ البجة على هذه العلاقة السلمية مع الإتاوة حين قام العهد العباسي واحتفظ العباسيون ، بعد الأمويين لهذه الممالك باستقلالها

(١) انظر الشاطر بصيلي عبد الجليل - تاريخ وحضارات السودان (القاهرة ١٩٧٢) ص ٢٢٠ وقد استخلص هذه المعلومات من مخطوطات نشرها بعض المستشرقين مثل كتاب الزوج (نشره تشيرولى) ومخطوط (ورنر) ومخطوط قاضي فسمايو .

(٢) ابن حوقل - صورة الأرض ص ٥٥

وزعاماتها . بعد أن وصلت قوات عباسية قامت في المنطقة بالدور الذي قامت به من قبل القوات الشامية . ويبدو أن ذلك كان في عهد المنصور وفي حوالي سنة ١٥٣ لآنا نسمع عن حملة بحرية أرسلها من البصرة لمقاومة القرصنة على السواحل الغربية للبحر الأحمر تلك السنة^(١) لمقاومة عمليات القرصنة التي تعرضت لها جدة قبل ذلك .

ولا نسمع بعد ذلك عن حركة في أرض البجة . حتى إذا كانت فتنة الأمين والمأمون واضطراب الأمر في مصر خاصة وغلب عليها المتغلبون بدا لأهل المنطقة أن يقطعوا علاقتهم الاسمية بوالي مصر وبالدولة الاسلامية فانتهزوا فرصة مرور حاكم ققط ابراهيم بأرضهم الى الحج سنة ٢٠٤ فقتلوه ولا شك أن وراء القتل محاولة للسيطرة على الطرق التجارية حاولها ذلك الحاكم فلقى فيها مصرعه لأن ابن حوقل يقول إن البجة عللت قتله بقولها : «...» لمعرفته بديارنا ومقارنا ومظان مياهانا ولسنا نأمنه» ! ويضيف أن (محا) ملك البجة غلب على رأيه أمام أولئك الذين دبروا المؤامرة على ابراهيم القفطي واتفقوا على إتهامه (في الأراضي الصحراوية) فمات عطشا ومن كان معه على أن ابنه الذي هرب به بعض البجة الى ادفو بالحيلة أبلغ أهله في ققط بالواقعة . ولما جاء (محا) يمتار على عادته الدائمة من ققط . أنزلوه مع ثلاثين رجلاً في بعض بيعهم وأتوا عليهم أجمعين . . . واتصل ذلك بالبجة فساروا إليهم . . . فهرب بعض أهل ققط مغربين بينما فتح المهاجمون البلد وسبوا منه سبع مائة نسمة وقتلوا خلقاً واسعاً . وكان بققط رجل من آل الحسن له مكاتته فقصده البجة فرد بعض السبي . . . »

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٢ (٣/٢٧٠) .

(٢) انظر ابن حوقل - صورة الأرض ص ٥٦ - ٥٧ .

« وانحدر أهل قفط إلى مصر والسلطان ببعض شأنه مشغول^(١) »
فأقاموا يرمعون بمصر سبع سنين ٠٠ » وأخيراً قصدوا رجلاً في الحوف
ذا يسار وخير وجهاد يعرف بحكم النابغي فاستجاروا به واشترط أن
يأتوه بكتاب من قاضي وشيوخ البلد ففعلوا وسار معهم ٢١٢ حتى ورد
قفط في ألف رجل من قومه نصفهم من الفرسان واتخذ مقامه في موقع
متقدم من بلاد البجة وبقي يغزوهم ثلاث سنوات حتى استرد سبي قفط
عن آخره وأعيدت أسوار قفط وأسوان وقوص كما كانت من قبل^(١) .
وجاء المأمون مصر سنة ٢١٦ ويبدو أنه أراد تهدئة الحدود الجنوبية
أيضاً فأرسل مولاة عبد الله بن الجهم والياً على أسوان فكانت له معهم
وقائع ثم طلبوا الهدنة فعقد مع كنون بن عبد العزيز عظيم البجة عقد أمان
سنة ٢١٦/٨٣١ جدد فيه المعاهدة الأولى التي كانت عقدتها الدولة
الاسلامية معهم قبل قرن كامل ، أيام عبد الله بن الحبحاب ، وإذا اعترف
العقد الجديد للبجة بأن حدهم الشمالي يبدأ من منتهى حد أسوان
والجنوبي ما بين جزر دهلك وميناء باضع الا انه جعل المنطقة كلها من
أملاك امير المؤمنين باعترافهم ويبقى ملكها عليها كما نص العقد على
اعتراف آخر يقول : « ٠٠٠ وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين »
وهذا لا يعني التبعية السياسية فقط ولكن يعني أن العقد قد أملى إملاء
على البجة ومن مركز القوة واشترط العقد ألا يهدم البجة شيئاً من

(١) هي خصومة السري بن الحكم الذي ملك الصعيد مع عبد العزيز
ابن الجروي الذي ملك الوجه البحري . وقد قتل عبد العزيز ثم مات
السري سنة ٢٠٥ ومات أبو نصر بن السري سنة ٢٠٦ وظلت الخصومة
والحروب بين علي بن الجروي وعبيد الله بن السري قائمة في الدلتا حتى
وصلت جيوش المأمون سنة ٢١١ .

(٢) انظر ابن حوقل - صورة الارض ص ٥٧ .

المساجد التي بناها المسلمون في هجر وغيرها من مدن المنطقة « طولاً »
وعرضاً فإن فعلتم شيئاً من ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة » كما اشترط
للحجاج حق المرور الآمن الى الحجاز ولعمال الصدقات (الزكاة) حق
الدخول الى ارض البجة لجمعها من المسلمين ومقابل ذلك خفضت الاتاوة
السوية المفروضة على البجة فصارت ، رمزية الى حد ما : مائة جمل أو
ثلاثمائة دينار^(١) (ويقال أربع مائة مثقال تبر قبل أن يطبخ ويصفى)
أيهما اختار المسلمون . ولعل تساهل المأمون في هذا الاتاوة كان الغرض
منه منع البجة من التحالف مع ملوك النوبة في وادي النيل ضد الدولة
الاسلامية .

غير أن هذه الاتفاقية لم تعش طويلاً فما جاء عهد المتوكل سنة ٢٣٢
حتى نقضت . . .

المنطقة الثانية : ممالك النوبة^(٢) وهي على وادي النيل . حدها
الشمالي يبدأ عند بيعة قرب جزيرة فيلة هي « آخر حد الاسلام وأول
حد النوبة »^(٣) وكان الوادي قد دخل المسيحية على المذهب يعقوبي منذ

(١) انظر نص الأمان لدى المقريري - الخطط (ط . بولاق) ج ١
ص ١٧٣ وما بعدها (ج ١ ص ٣٤٤ من طبعة بيروت) ويذكر النص أن العقد
ترجم حرفاً حرفاً من قبل زكريا بن صالح الخزومي من سكان جدة وعبد
الله بن اسماعيل القرشي وهذا يعني أن ملك البجة لم يكن يعرف العربية
وأن بعض العرب المقيمين في المنطقة كانوا بالعكس يجيدون لغة البجة .
(٢) النوبة كلمة مأخوذة في الغالب من اسم مدينة نوب - تا عاصمة
الكوشيين التي يرد اسمها في النقوش الفرعونية المتأخرة حوالي القرن
الثامن ق.م (وتسمى حالياً بلدة كريمة في مديرية دنقلة شمال السودان)
أما النوبيون فأخذوا هذا الاسم في آخر القرن الثالث الميلادي حين هاجروا
أيام الامبراطور ديوقليسيان من الواحات الغربية الى تلك المناطق من وادي
النيل .

(٣) ابن حوقل - صورة الأرض ص ٥٦ .

القرن السادس الميلادي كما قامت فيه ممالك عدة أما ثروته فلا تقوم على الزراعة فقط ولكن على التجارة وقد كان ممراً تجارياً هاماً لاستيراد الرقيق وبعض البضائع النادرة كالعاج وريش النعام وغير ذلك . وقد عقد المسلمون بعد فتح مصر هدنة سياسية وتجارية مع ملك النوبة سنة ٦٥٢/٣١ عرفت بالبط (١) وقبل سنتين من ذلك كانت مملكتا النوبة والمقرة (التي في جنوبها) قد توحدتا في مملكة واحدة تضم عدداً من الزعامات المحلية . فلما جاء العهد العباسي سنة ٧٥٠ كان قرياقس الملك في دنقلة يسيطر على حوالي ١٣ زعيماً محلياً حتى مملكة الأبواب في الجنوب (٢) ويبدو أن ملوك النوبة كانوا يمنعون أي اتصال بين بلادهم وبين الدولة الإسلامية وهذا لم يجعل أخبارهم نادرة فقط ولكن سمح لهم بالمحافظة على نصرانيتهم قرونًا طويلة وكانت المراكب الإسلامية لا تتجاوز الشلال الأول (الجندل) ولا يسمح لأحد أن ينزل منها إلى باذن والي البلد النوبي الذي كان « لا يطلق لأحد الصعود (في النيل) إلى مولاة (الملك بدنقلة) لا لمسلم ولا لغيره (٣) » .

ومع ذلك فإن هذا لم يمنع قيام صلات اقتصادية واشجة بين السكان المتجاورين في أرض الإسلام وأرض النوبة « وكان لبعض أهل أسوان أراض وضياح في أرض النوبة » اشتروها من فلاحيتها وأراد ملك النوبة منعهم من استثمارها وملكها فادعى أنها من أملاكه وأن فلاحيتها ليسوا أكثر من عبيد له فيها وشكا مندوبه ذلك إلى المأمون حين جاء مصر وجاءه

(١) ربما كانت الكلمة آتية من الكلمة اللاتينية P actum ومعناها عقد

أو اتفاق .

(٢) انظر الشاطر بصيلي - تاريخ وحضارات السودان ص ٨٧ .

(٣) انظر المقريري - الخطط ج ١ ص ٣٣٦ .

الوفد النوبي الى القسطنطينية فرد الأمر الى حاكم أسوان . وخشي الملاكون أن يفقدوا إملاكهم فعلموا أولئك الفلاحين أن ينكروا أنهم عبيد وأن يذكروا أن علاقتهم بالملك كعلاقة الرعايا المسلمين بالخليفة وهكذا بالطبع ردت الدعوى (١) .

وهذه القصة نفسها تكشف أمراً آخر هو تأثير النوبة المجاورين لبلد الاسلام بالحكم الاسلامي ونوع نظامه وديمقراطيته والمساواة الانسانية فيه . فإن انكار أولئك النوبيين أنهم عبيد للملك وتحولهم إلى رعايا أدى كما يشهد المقريري إلى أن ينقسم النوبة منذ ذلك الوقت قسمين : احرارهم الذين يجاورون المسلمين وعبيد في أرض النوبة . على أن الدولة النوبية وملوكها حافظوا بالمقابل على هديتهم التي هادنوا عليها المسلمين ولم تتبدل

ولم تتبدل العلاقات السلمية التي قامت في العهد الاموي مع النوبة بمجيء العباسيين فلما كانت خلافة المهدي بدا له على ما يظهر أن يمارس نوعاً من الضغط عليهم لسبب قد يكون ناشئاً عن الحماسة الدينية في عهده « فأمر بالزام النوبة في كل سنة ثلاث مائة رأس (من الرقيق) وستين رأساً وزرافة على أن يعطوا قمحاً وخل خمر وثياباً وفرشاً أو قيمته . . . » (٢) .

ويذكر البلاذري أنه قد « وجد في الديوان بمصر - أن النوبة اعترضوا على هذه المطالبة » وادعوا أنه ليس يجب عليهم البقط لكل سنة . ورفعوا أن هذا البقط هو مما يأخذون من رقيق أعدائهم فإذا لم يجدوا منه شيئاً عادوا على اولادهم فأعطوهم منهم فيه بهذه العدة . فأمر

(١) انظر المقريري - الخطط ج ١ ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(٢) البلاذري - فتوح ص ٢٨١ .

(المهدي) أن يحملوا في ذلك على أن يؤخذ منهم لكل ثلاث سنين
بقط سنة ...» (١) .

وظل هذا العهد الجديد هو العهد المرعي حتى عهد المتوكل . وقد
سأل عنه الناس والعارفين فيما يروى المقرئزي - عبد الله بن طاهر قائد
المأمون سنة ٢١١ واستخرجه من محفوظات الديوان بالفسطاط ولم يكن
موجوداً - على ما يظهر - في محفوظات « ديوان الحضرة »
ببغداد (٢) .

الواحات : ولعل مما يتم الصورة أن نضيف أخيراً فقرة أخرى
حول منطقة ثالثة مجاورة هي منطقة الواحات في مصر : (الخارجية
والداخلة والفرافرة) .

وقد كانت تعرف في تلك الفترات باسم مملكة مورتانيا . وكان
مركزها الجغرافي ذا شأن استراتيجي هام في المواصلات لأنها تسيطر على
الطرق الصحراوية التي يسلكها التجار ورجال الدين ما بين الاسكندرية
وبلاد النوبة . وقد كان الحكم فيها ، منذ الفتح العربي ، حوالي سنة
٦٤٠ - فيما يروون - قد آل إلى أسرة مسلمة عرفت بآل عبدون (والاسم
يوحى بأنه اسم متأخر العهد قليلاً عن ذلك) (٣) وإن كان معظم السكان
من القبط النصارى . وكانت موارد هذه المملكة الخراج والجزية .

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٢٨١ .

(٢) المقرئزي - الخطط (ط . بيروت) ج ١ ص ٣٥٤ وانظر

البلاذري - فتوح ص ٢٨١ .

(٣) ضيفة فعلون ندر أن وجدت في المشرق العربي . وقد وجد منها
اسم حمدون في القرن الثالث وهو جد الحمدانيين أما في المغرب فوجدت
واستعملت كثيراً مثل زيدون وخلدون وعبدون . ولعل الواو والنون في
النهاية مقتبسة عن لغة الاندلس إذ تعني هذه الزيادة في الكلمة الكبر
والعظم .

« ولا يمد آل عبدون وخدمهم أيديهم في شيء من الجباية سوى الخراج
والجزية من النصارى وليس بجميع الواحات يهودي واحد... »^(١) .
وسيرة آل عبدون كانت أحسن السير مع التجار والعابرين أيضاً
كما كانت لهم القصور والضياع الواسعة هناك . ويخيم الغموض على
نوع العلاقة بينهم وبين الولاة في مصر ولعلمهم كانوا يؤدون لهم بعض
الدخل السنوي . وقد ورد خبر جاء عرضاً لدى أحد المؤرخين أثناء
الحديث عن ثورة دحية بن مصعب الأموي ويتبين منه أن أهل الواحات
كانوا « من المسالمة والبربر » ، وأنهم كانوا من الخوارج وعلى مذهب
الشرأة وأنهم حين استجار بهم دحية اشترطوا لمعوقته أن يكون على
مذهبهم وحاربوا بجانبه على هذا الأساس ثم تركوه حين تبين لهم تفضيله
العرب على الموالي والبربر مع أن الاسلام سوى بين الجميع .
وفي هذا ما يوحي أن الواحات كانت بؤرة خارجية مستقلة في
الصحراء قليلة التعامل مع ولاة مصر والنظام العباسي فيها أو لعلها كانت
أقرب إلى المقاطعة منها إلى التعامل .

ولكن علاقتهم مع النوبة كانت علاقة حروب وغارات متصلة سببها
دون شك العلاقات الاقتصادية التجارية وقد استمرت على العداء إلى أن
عقد الطرفان هدنة ربما كان موعدها في أواخر العصر العباسي الأول .
على أن رعاية آل عبدون للقبط لم تمنع من عملهم على نشر الاسلام في
الواحات بشكل بطيء تدريجي حتى أضحت فيها في أواسط القرن الثالث
الهجري خمس بلدان إسلامية فيها ١٥ منبراً . ويبدو أن ابن طولون ،
في تلك الفترة ، اختصم مع حكام الواحات أو أن هؤلاء جاروا على
التجار أو أن مخاطر الرمال السافيات أضرت كثيراً بالقوافل التجارية

(١) انظر في تفصيل أمر الواحات . ابن حوقل صورة الأرض
ص ١٤٤ - ١٤٦ .

فأمر ابن طولون بالآ يسلك تلك الطرق الصحراوية أحد .. وهكذا
تضاءلت قيمتها بعد ذلك حتى عادت واحات معزولة .

٤ - العلاقات مع المغرب :

في أقصى الحوض الغربي للبحر المتوسط كانت هناك دويلات
الخوارج في المغرب العربي ، وإمارة الأندلس الأموية ، ومملكة الفرنجة
الكارولنجية .

١ - فأما **المغرب العربي** فلم تكن اموره ، منذ أواخر العهد
الأموي ، بالتسيير السير الهاديء أو المرتبط بعاصمة الدولة . وقد
جاء الانقلاب العباسي ليعطي تلك البقاع فرصتها في تأكيد التمزق
السياسي بها والاستقلالية المحلية لاسيما وأن الاسلام فيها كان يصطبغ
أكثر فأكثر بالصبغة الخارجية الشائنة . وعلى المذهبين الإباضي أو
الصفري المطاردين في المشرق . بينما كان العباسيون أنفسهم مشغولين
بما على أيديهم من مشاكل هذا المشرق وثوراته فلا طاقة لهم بارسال
قواهم او مد نفوذهم إلى أقصى المغرب . وهذا ماسمح لهذا المغرب أن
يشهد تطورات خطيرة ، في عهد العباسيين الأوائل جعلته غريباً تمام الغربية
عن بغداد . وبينما كانت خوارج منطقة طرابلس وافريقية يشكلون جبهة
الصدام مع العباسيين وكان صقر قرش يقطع الاندلس وراء البحر كان
عدد من الدول الاسلامية الصغيرة يكون حاجزاً فيما بين النفوذ العباسي
والأموي يزيد في صعوبة الاتصال العباسي بالاندلس . كما يزيد في
إثبات العجز العباسي أمام المغرب . وإذا كان إهمال البحر المتوسط
ووقوف النفوذ العباسي دون حوضه الغربي خاصة هو ما يميز سياسة
بغداد البحرية فقد كان يقابل ذلك في المغرب الأقصى إهمال ذلك البر
كله من جبال الأطلس (ما بين أواسط الجزائر الحالية حتى المحيط) :

ومن الهام أن نلاحظ أن تلك الدول الناشئة هناك كانت تمثل آمال كافة المذاهب السياسية الأساسية والجماعات المضطهدة في المشرق من أموية وعلويين وخوارج • وهذه الدول هي :

دولة برغواطة : فمنذ أواخر العهد الأموي سنة ١٢٢ كان ميسرة الخارجي الصفري قد ثار فيما بين طنجة والسنوس وتسمى بالخلافة ولكنه هزم ثم قتله اتباعه ونزلوا بزعامة أحدهم (طريف بن ملوك) في الأرض الممتدة ما بين الرباط والدار البيضاء حتى مصب وادي أم الربيع، على ساحل المحيط • واستطاع طريف أن يستميل الناس بزهد وبالجهد والسحر حتى قدموه عليهم وأصبحت شالاه (وهي في ضواحي الرباط اليوم) عاصمة هذه الدولة التي عرفت بدولة برغواطة (ولعله تحريف لكلمة برباطي لأن طريفاً كان من وادي برباط بالاندلس) •

وقد ظلت هذه الدولة في أولاد طريف واحفاده حتى قضى عليها المرابطون في القرن الخامس • لكنها خلال صراعها مع الأدارسة أخرجت دعوة دينية زعمت أنها قد أوحى بها إلى صالح بن طريف « صالح المؤمنين » وأنه المهدي^(١) وسوف يعود ويقتل الدجال • وفي الدعوة بعض التحريف للإسلام : من ابتكار آيات قرآنية وتغيير للأحكام المتصلة بالمحارم والمحرمات وتعدد الزوجات ولهذا عرفت بزندقة برغواطة وكانوا يقرؤون القرآن بالبربرية •

الدولة الصالحية : وقد عاصرت بدورها الدولة السابقة ومؤسسها

(١) انظر في ذلك : البكري - المسالك والممالك ص ١٣٨ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٠٧ - ٢٠٩ وابن عذارى - البيان المغرب ج ١ ص ٢٢٣ - ٢٢٤ والاستبصار لمؤلف مجهول ص ١٩٧ • (وهو يجعل طريفاً يهودي الأصل) •

صالح بن منصور الحميري إنما أقامها منذ أيام الوليد بن عبد الملك في جزء من منطقة الريف المغربي الحالية بين قبائل غماره وصنهاجة التي دخلت الاسلام على يديه . وقد أسس سعيد بن ادريس حفيد صالح عاصمة لهذه الدولة في مدينة (نكور) على بعد قليل من الشاطيء وجعل ميناءها مقابلا لمرفأ مالقة الاندلسي . . وقد بقيت هذه الدولة في أحفاد الحميري حتى سنة ٤١٠ أيضا .

الدولة المدينية : وقد أقامها الخوارج الصفرية في البلدة التي أنشأوها سنة ١٤٠/٣٤٧ وسموها سجلماسة (تافيلالت الحالية) على سيف الصحراء بالمغرب وكان اختيار الموقع موقفاً لا لتوفر الماء فيه فقط ولكن لقيامه على مطلع الطريق إلى بلاد السودان الغربي ومنطقة غانة . وحين استقر حكم البلد في يد ابي القاسم سمغون بن واسول المكناسي ، البربري الأصل ، الاندلسي المولد والذي كان حدادا في بعض ارباض قرطبة ويلقب بالمدرار ، أعطى الحكم لأولاده وأحفاده واستطاع هؤلاء بسياساتهم الاقتصادية المفتوحة لقوافل التجار ورعايتهم لها أن يجعلوا بلدهم مركز التبادل التجاري بين سائر بلاد الاندلس والمغرب من جهة وبلاد غانة من جهة اخرى . في الملح والقطن خاصة والذهب ويجعلوا موارده أي مبلغ ضرائبه ٤٠٠ ألف دينار أي مايعادل نصف ارتفاع المغرب كله (١) . .

وقد تبعت هذه الدولة الفاطميين في أواخر أمرها فلما طرد محمد ابن الفتح أحد أصحاب المذهب المالكي أسرتها وأقام فيها خلافة لنفسه وتلقب بالشاكر لله سنة ٣٤٢ قضى الفاطميون على الدولة كلها سنة ٣٤٧/٩٥٨ (٢) .

(١) ابن حوقل - صورة الأرض ص ٩٧ .

(٢) البكري - المسالك والممالك ص ١٥١ .

النحلة الرستمية : وهي خارجية بدورها • أقامها عبد الرحمن ابن رستم بن بهرام ، في المغرب الأوسط • ويروون أن بهرام هذا كان مولى لعثمان بن عفان ويصوغ له الكتاب نسباً يصله بملوك بني ساسان^(١) وقد أضحى من فقهاء وزعماء الخوارج الإباضية في إفريقية وشارك في النضال ضد العباسيين أثناء ثورة أبي الخطاب في طرابلس وصار والياً على القيروان فلما قدم ابن الأشعث مع الجيش العباسي سنة ١٤٤/٧٦١ انهزم عبد الرحمن فاراً الى المغرب الأوسط • ولما فشلت محاولاته في العودة إلى إفريقية بعد سنة ١٥١ استقر في منطقة تاهرت فبويغ بالخلافة سنة ١٦٠ ثم اختط المدينة سنة ١٦١/٧٧٧^(٢) في بقعة جبلية مليئة بالأحراج ، وفي موقع دفاعي زراعي معاً تسكنه قبائل العتر الإباضية وسرعان ما تكاثر البناء في المدينة والازدهار مع تجمع الخوارج الإباضية إليها وذيوع اسم عبد الرحمن بالعدل والحسن • ويبدو من بعض الأخبار أنه كان على اتصال مع إباضية المشرق وكان يسعى نظرياً على الأقل إلى تحريرهم من الحكم العباسي واجتذابهم إلى دولته المستقلة في المغرب فانا نسمع خبراً عن إرسال إباضية البصرة ثلاثة لأحمال من المال إليه^(٣) فلما توفي سنة ١٦٨ (في آخر أيام المهدي) استفاد ابنه عبد الوهاب من سمعته فاختره مجلس الشورى للخلافة • وإذا انقسم الإباضية بسبب هذا الاختيار الوراثي ما بين (نكارية)

(١) انظر مثلاً البكري - المصدر السابق ص ٦٧ ، وابن عذارى - البيان المغرب ج ١ ص ١٩٦ وابن خلدون ج ٦ ص ١٢١ .
(٢) يجعل ابن خلدون بناء تاهرت سنة ١٤٤ (ج ٦ ص ١٢٣) ويظهر ان ابن عذارى أصح خبراً وقد اتبعناه .
(٣) الشماطي - كتاب السير (سير علماء ومشايخ جبل نفوسة) - طبع حجر - القاهرة (ص ١٤٠ .

ينكرون الوراثة ووهية يقبلونها وهرب النكارية فاعتصموا بجبل نفوسة في طرابلس • واضطر عبد الوهاب لأن يستقر في هذا الجبل سبع سنوات وأن يحارب الأغالبة العباسية ليقرروا نفوذه في الصحراء الداخلية الواسعة • وقد خلف عبد الوهاب حين مات سنة ١٨٨ (زمن الرشيد) سنة ٨٠٤ ابنه أفلح • وتكرر مرة أخرى انفصال جماعة ترفض هذه الوراثة كما تكرر الهرب إلى جبل نفوسة وتكررت الهزيمة للمنشقين ولكن ••• في سنة ٢٢١/٨٣٦ ••• وتوالي أحفاد عبد الرحمن الرستمي بعد موت أفلح سنة ٢٣٨/٨٥٢ حتى قضى الفاطميون على هذه الإمارة الخارجية سنة ٢٩٦/٩٠٨ بعد أن كانت قد استقطبت الخوارج من الصفرية والإباضية على السواء في إفريقية كما انضوى إليها بعض المعتزلة الهاريين من المشرق وكانوا يعرفون بالواصلية (نسبة لواصل بن عطاء) بسبب ما بين مذهبهم والمذهب الإباضي من بعض التقارب الفكري^(١) •

وقد كان الرستميون على علاقة وطيدة قوية مع الدولة المديارية (الخارجية الصفرية) وهي علاقة تجارية سياسية مذهبية زاد فيها المصاهرة التي ربطت ما بين الأسرتين وقد كانت سيطرة الرستمين على الجزء الأكبر من الطرق الصحراوية التجارية في إفريقية والمغرب سبباً في ممارستهم نوعاً من السيادة على المدياريين الذين بدوا وكأنهم الأتباع للرستمين •

الدولة الإدريسية : وهي أهم هذه الدول المغربية وآخرها ظهوراً • إذ بدأت سنة ١٧٢/٧٨٨ كما أنها احتلت جغرافياً مركزاً متوسطاً بينها جميعاً في فاس • وتميزت عن غيرها بأنها كانت الدولة العلوية الأولى

(١) انظر عبد الرحمن بدوي - التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية

والوحيدة وكان تأسيسها نتيجة أحداث شرقية في الدرجة الاولى لا مغربية .
وبقيامها كملت للمغرب الاسلامي معرفة ألوان النظم السياسية التي تقول
بها الفرق الاسلامية الاساسية كلها فقد صار فيه دول تمثل المذهب السني
للجماعتين الاموية والعباسية (الأموي في الأندلس والعباسي للأغلبة في
إفريقية) وأخرى تمثل المذهب الخارجي بفرعيه الإباضي والصفري (في
سجلماسة وتاهرت) ودولة للمذهب العلوي (هي للأدارسة) بل ودولة
تمثل المذاهب المنحرفة عن الاسلام (في برغواطة) . وقد بنت كل دولة
لنفسها ، في المغرب عاصمة فزرع المغرب عواصم : بني الأغلبة بلدة
(العباسية) لهم بجانب القيروان سنة ١٨٥ وبنوا ميناء سوسة معها
ثم بنوا بلدة رقادة عاصمة أخيرة لهم منذ سنة ٢٦٣ وبنى الرستميون
تاهرت والمدرايون سجلماسة والصالحيون (نكور) وجماعة برغواطة
بلدة شالة ...

وتأسيس الدولة الادريسية يعود في جذوره الأولى إلى هزيمة
محمد ذي النفس الزكية أمام المنصور في مكة سنة ١٤٥ ثم هزيمة أخيه
ابراهيم بعد شهرين أو أقل في باخري . فقد عمل الاخوة الباقون لمحمد
مع اولاده على التوزع في العالم الاسلامي ثم قام اثنان من الاخوة هما
ادريس ويحيى فأعانا ابن أخيهما الحسين بن علي بن الحسن في ثورته
التي قام بها سنة ١٦٩ فلم تدم سوى ١١ يوماً وانتهت بفاجعة جديدة
في (فخ) ليست أقل من كربلاء وباخري نكالا وألماً .

وفر يحيى وفر ادريس . هرب الأول إلى طبرستان والديلم أما
الثاني فركب الى مصر في الستر يرعاه مولى عاقل شجاع اسمه راشد .
ويبدو أن صاحب البريد هناك وهو واضح مولى صالح بن المنصور رق
لهما ، أو كان على الهوى الشيعي فساعدهما على الفرار إلى المغرب .

يقال أنه حملهما على البريد^(١) حتى نزلا في القيروان . وزاد الهاربان في التستر بأن جعل ادريس من نفسه خادماً عند راشد ، وغرب الاثنان حتى نزلا بلدة ويليى قرب موقع فاس ، عند زعيم قبائل أوربة هناك . واستطاع ادريس أن يستميل هناك مع هذه القبائل ، جموعاً أخرى من زناتة (لواتة . نفزة . مكناسة . زواوة . الخ) فبايعوه بالإمامة فإذا هو على رأس جيش يستطيع أن يغزو مناطق المغرب الوسطى حتى المحيط الاطلسي (مناطق تامسنا حتى تادلا) في سنة ١٧٢ ثم المناطق الشرقية سنة ١٧٣ حتى دخل تلمسان فأضحت معظم القبائل البربرية الأساسية مع كتلة بلاد المغرب الأقصى في يده

وإذا مات ادريس سريعاً بمؤامرة عباسية سنة ١٧٥ فإن راشداً مولاه استطاع أن يبقى البيت العلوي الادريسي قائماً إذ جمعه حول طفل ولد لادريس من إحدى جواريه بعد شهر من وفاة الأب وحمل الطفل أيضاً اسم ادريس . . . وأدار راشد الإمارة بينما كان الطفل يكبر وبالرغم من أن راشداً قتل بدوره في مؤامرة عباسية أخرى سنة ١٨٦ فإن إدريس الصغير وجد من يكفله ويحفظ ملكه في شخص أبي خالد بن يزيد العيدي^(٢) وجدد له البيعة سنة ١٨٧ من قبائل البربر كافة ! ووفدت على الإمارة الجموع من افريقية والاندلس فرساناً للحرب وجماعات للإقامة . والملاحظة الهامة في قيام هذه الدولة وتكوينها أنها كانت دولة حضرية مدنية زراعية وقد تمثل طابعها الحضري في عاصمتها فاس التي

(١) البكري - المسالك والممالك ص ١١٩ ويروي مثل ذلك ابن الاثير وابن خلدون . وقد جوزي واضح على تلك المعونة بالقتل من قبل الهادي .

(٢) البكري - المصدر السابق ص ١٢٢ .

ما تزال إلى اليوم بين أعظم مدن المغرب تراثاً وحضارة وذلك على خلاف الدولتين الخارجيتين في تاهرت وسجلماسة فهما بدويتان صحراويتان تجاريتان وقد اندثرت منذ القرن الخامس خاصة عواصم هاتين الدولتين وضاع أثرهما في التاريخ •

ثم إن دولة الإدارة وإن كانت علوية إلا أنها في الواقع ، لم تكن شيعية بالمعنى الكامل للكلمة • وقد نستطيع أن ندعوها زيدية أي أنها ابنة أقرب المذاهب إلى المذهب السني •

وقد فتحها طابعها هذا للهاربين من عباسية المشرق وأموية الاندلس على السواء وجل هؤلاء من العرب مما مهد الى تطعيم الطابع البربري للدولة بطابع عربي أيضاً • وقد تمثل الطابعان في فاس نفسها التي كانت، في الواقع ، وما تزال من المدن التوائم إذ تتألف من قسمين : مدينة شرقية^(١) هي فاس الأولى وقد أسسها إدريس الأب سنة ١٧٢ بالقرب من مقره في (ويلي) وقد بقيت قرية ذات طابع بربري ولم تنشط وتكبر خاصة وتأخذ اسم عدوة الأندلسيين إلا منذ نزلها قسم من جماعة الرض الثائرة الذين طردهم الحكم الثاني من ارباض قرطبة، (وفتح القسم الآخر منهم كريت) سنة ٢٠٢ •

مدينة غربية بناها إدريس الثاني منذ سنة ١٩٢ وسميت بالعالية أو

(١) بحث ليفي بروفنسال مشكلة تاريخ بناء فاس وبين أنها بنيت أولا في الشرق سنة ١٧٢ على يد إدريس الأول ثم بنى قسمها الثاني سنة ١٩٢ واتى على ذلك بالأدلة التاريخية الكافية . وكان المؤرخون من قبل يعتبرون سنة ١٩٢ موعد بنائها (انظر البحث في كتاب الاسلام في المغرب والاندلس - ترجمة عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي - القاهرة ١٩٥٨ ص ١ - ٥٠) •

بعدوة القرويين وأنزل فيها الجماعات العربية التي التحقت به وإمارته •
وأطلق على المدينتين معاً اللتين يفصل بينهما نهر (وادي بوخرب) اسم
فاس ولو أن لكل من المدينتين سورها وأبوابها وسكانها • وتأسس هذه
الحاضرة إنما كان يعني استقرار الحكم الإدريسي في المغرب •

ونلفت النظر أن الاقليم الذي استطاعت الإمارة الإدريسية العلوية
أن تنجح فيه إنما كان في الأصل قاعدة للخوارج ومهداً للحركة الخارجية •
وبين الحركتين عداً وتباين قديمان أما كيف انقلب خوارج المغرب الأقصى
من مناصرة (ميسرة) الصفري وجماعته إلى مناصرة إدريس العلوي فذلك
أسباب تتراوح ما بين السياسة والدين^(١) تنطلق من اشتراك الطرفين في العدا
للخلافة المركزية سواء كانت أموية أو عباسية ومن أن الخوارج أنفسهم
لم يتمسكوا بمبادئهم الجمهوري حين سنحت لهم فرصة تطبيقه في الحكم
فحولت إماماتهم إلى الوراثة المغلفة بالبيعة بالإضافة إلى أن تناصر
الخوارج فيما بينهم سمح لرجل مثل إدريس الأول بعيد الهمة بأن
يستفيد من نسيب النبوي ومن النكبات التي أصابت آل البيت في اجتذاب
العطف وإقامة نظام مألوف حين فرض الأمن أن اجتذب القوى الأخرى
التي ملت الفوضى والتناحر •

وقد استكمل إدريس الثاني أسباب ملكه بسك النقود وفرض النفوذ
السياسي على دول الخوارج المجاورة وفتح بلاد البربر المصامدة (بينه
وبين طنجة) واخضاع قبائل نفزة بتلمسان فلما مات سنة ٢١٣ كانت دولة
الأدارسة قد استقرت تماماً بجهوده •

وخلفه ابنه محمد فوزع حكم البلاد على إخوته البالغين الثمانية

(١) سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب العربي ص ٤٠٧ •

وقبل أن يتوفى سنة ٢٢١ كان أخوه عمر قد توسع في بلاد الريف على
املاك إخوته واستقر فيها فكان جد الأسرة التي سوف تظهر في جنوب
الأندلس إثر انهيار الخلافة فيها باسم بني حمود .

وتعاقب على إمارة فاس بعد محمد اثنان من أبنائه واستمرت الدولة
الادريسية قائمة حتى قضى عليها سنة ٣٧٥/٩٨٥ .

وقد كانت هذه الدول المغربية كافة على علاقات طيبة بالأمويين في
الأندلس بالرغم من أنها تدين جميعاً بمذاهب تخالف المذهب السني هناك
ومن توفر فرص الصدام والتناحر ، ولم يكن ذلك بسبب التقائها جميعاً
في العداء للعباسيين وفي التساند لضمان الانفصال عنهم ولكن أيضاً
بسبب المصالح التجارية الواحدة التي كانت تربط المغرب بالأندلس وإذا كانت
علاقة الادارسة خاصة كدولة كبيرة بالأمويين الأندلسيين علاقة جوار ومسالمة
وتبادل مصالح فإن علاقات الدول الصغرى الأخرى كانت أوثق وأكثر
اقترباً .

وبعض هذه الدول ، كالدولة الصالحية مثلاً ودولة برغواطة ، كانت
أشد صلة مع الأمويين من غيرها لخوفها من الادارسة من جهة ولأن
أصحاب الأندلس بدورهم كانوا يخشون وقوعها في أيدي أصحاب فاس .
وقد بلغ من تعاون الصالحين مع الأندلس أن عبر أحد ملوكهم البحر
لمعونة الثائرين على الأمير الأموي فقتل مع أصحابه كافة في هذه
النجدة .

وأما دولة برغواطة فقد كان من تقاليدها التي يوصى بها الأمير
السابق خلفه أن يوالي الأمويين ولم يكن هؤلاء بدورهم يجدون غضاضة
في قبول هذه التبعية من برغواطة رغم « زندقته » لأن ذلك يمنع بشكل
أو بآخر التوسع الادريسي .

وأما الدولة الرستمية فكانت لا تقل قرباً عن الدولة الصالحية مع الأمويين • لأنها وجدت فيهم السند الذي يدعمها وهي جغرافياً بين دولتين قويتين : الأغلبية والادريسية • وقد تجلى التقارب بصورة واضحة عند تولي عبد الرحمن الثاني عرش الإمارة في قرطبة إذ أرسل الرستمي أولاده للتهنئة • واستمرت علاقات الصداقة وتبادل الهدايا والوفود والتهاني والود الشبيه بالولاء قائمة بين الطرفين بعد ذلك للدرجة التي دعت ابن عذارى الى أن يكتب : « أن صاحب تاهرت لا يقدم ولا يؤخر في أموره ومعضلاته الا عن رأيه (رأي امير الأندلس) وأمره »^(١) وقد هاجر بعض امراء تاهرت إلى قرطبة فتلقاهم امراءها احسن اللقاء وأعطوهم المناصب الرفيعة في الدولة •

ولم يكن هذا الود سياسياً فحسب ولكنه كان يقوم على أساس اقتصادي متين إذ أن الرستميين كانوا يبعثون بالمنتجات الزراعية وعروض التجارة إلى قرطبة كما يزودون الجيش الأموي بحاجته من مرتزقة الجند البربر •••

والسؤال الرئيسي الأخير الآن : ماذا كان نوع العلاقة ما بين هذا المغرب بدوله وبين الخلافة العباسية ؟

لقد وصل العباسيون إلى الحكم والمغرب كله مربوط بعاصمة واحدة موجودة في طرفه الشرقي ، في افريقية ، هي القيروان واتهمى القرن الثاني للهجرة والمغرب ، في الواقع ، اربع قيروانات هي مع القيروان نفسها : تاهرت وفاس وسجلماسة وتعمل كل منها في منطقتها على تحقيق أهداف القيروان الأولى : أي على نشر الاسلام في افريقية والمغرب وعلى تعريبها الثقافي وعلى إقامة النظام السياسي فيها • وقد اختصت الاولى

(١) ابن عذارى - البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٨ •

بأفريقية بينما عملت الثانية في شرقي الصحراء الكبرى وفي المغرب الأوسط وعملت فاس على ذلك في المغرب الأقصى كما عملت سجلماسة على الأهداف نفسها في المنطقة الغربية من الصحراء الكبرى وفيما وراءها . وقد ساد نوع من التعايش السلمي بين هذه الأنظمة الإسلامية المتباينة التي ظهرت في تلك الأقاليم برغم الولاءات السياسية والمذهبية المتعددة التي كانت ترتبط بها . وهي ولاءات ومذاهب مستوردة كلها من المشرق . ولعل آخرها وروداً وانتشاراً في الأندلس والمغرب هو المذهب المالكي السني الذي لقي نجاحاً واسعاً هناك منذ أواخر القرن الثاني بينما كان مذهب أبو حنيفة يلقى في الوقت نفسه نجاحاً مشابهاً في أفريقية بعد أن قدم مع الجند الخراساني إلى القيروان .

وبالرغم من أن ظاهر العلاقة بين المشرق والمغرب عامة ، وهو الظاهر السياسي ، كان يوحى بالانفصال والانقسام السياسي وظهور ما يسمى بالحركات الاستقلالية فإن العوامل الحضارية (من إسلام وثقافة عربية وتمازج سكاني مع العرب وتقاليده ونظم مشرقية) كانت في تلك الفترة ذاتها تعمل بالعكس على نسج وحدة أعسق وأكثر توطداً ما بين المشرق والمغرب . وإذا فشلت خلافة بغداد في حفظ وحدة العالم الإسلامي مع تلك المناطق وفي مد نفوذها السياسي إلى ما وراء القيروان فإن الإسلام واللغة العربية والحضارة الإسلامية عامة كانت في الواقع تنجح بالمقابل وبشكل منقطع النظير في مد نفوذها النهائي الباقي وإعطاء المغرب ميزته العربية الإسلامية إلى اليوم .

ولعل الفضل في هذا النجاح انما يرجع الى ذلك التعايش السلمي الذي قام في أفريقية والمغرب بين مختلف الأنظمة ، في تلك الفترة وهو تعايش قد يرجع في أساسه إلى أربعة أمور :

الأول – توازن القوى بين الأنظمة الثلاثة الأساسية : الأغالبة •
الرستمي • الادريسي •

الثاني – انقطاع أمل العباسيين في إمكان استعادة المغرب بعد
انقطاع أملهم قبل ذلك في الأندلس •

الثالث – السياسة المتزنة التي سار عليها الأغالبة ، الذين أضحوا
يمثلون الخلافة العباسية في القيروان • وتعاملهم بصورة عامة على أساس
المصالح المتبادلة وعدم الطمع مع الأنظمة الأخرى • وهذا ماترك للتيار
الحضاري أن يأخذ مداه في التأثير •

الرابع – قيام تلك الأنظمة جغرافياً ما بين دولتين إسلاميتين طامعتين
هما على الجانبين : خلافة بني العباس من جهة ودولة امراء الاندلس
الامويين من جهة أخرى •

على أن هذا لا يعني أن العباسيين سلموا بسهولة بالأمر الواقع أو
أن الأغالبة وهم أعوانهم لم يحاولوا بعض المحاولات العدوانية ضد
الدول المغربية ولكننا يجب أن نسجل أن هذه المحاولات لم تتجاوز في
أقصى أشكالها حد التآمر الاغتيالي ، ولم تصل درجة حشد القوى
العسكرية والقتال الأخوي •

فأما العباسيون فإنهم منذ عهد الرشيد ، وبالضبط منذ سنة ١٨٤
فضلوا القبول بقيام نوع من الدولة التابعة على باب المغرب تهتم محلياً
بكافة شؤونه مقابل أمرين : حفظ مظاهر الولاء للخلافة بالخطبة والسكة
وما إليها ودفع مبلغ معين من الخراج السنوي لخزانة الخلفاء في بغداد •
على هذا الأساس قام ابراهيم بن الأغلب وأسرته من بعده • وإذا كانت
سياسته وسياسة أسرته مع المغرب يمكن أن تحسب ضمن حساب السياسة
العباسية فإن الأغالبة قاموا (أو يقال إنهم قاموا) بعدد من الأعمال التي

كانت تلتقي فيها مصلحتهم مع مصلحة العباسيين وقد توجهت خاصة ضد
الإدارة في عهدهم الأول التأسيسي :

أولها : اغتيال إدريس بن عبد الله مؤسس الدولة الإدريسية • إذ
يذكر المؤرخون أن نجاح إدريس السريع في جمع الانتصار وفتح الأرضين
بالمغرب قد أثار الذعر والقلق في نفس الرشيد الذي خشى على مصير
المغرب كله ومصر وبعضهم يذكر أن إدريس عزم على ذلك^(١) واستشار
الرشيد يحيى البرمكي بعد أن سمع أن إدريس « فتح تلمسان وهي
باب إفريقية ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار وقد عزم أن أبعث
جيشاً عظيماً لقتاله » ويقولون إن البرمكي نصح بإيفاد رجل داهية
يقتاله واختاروا لهذا الأمر سليمان بن جرير المعروف بالشماخ • وقد
وصل المغرب ومازال يتقرب إلى إدريس حتى صار من خاصته ثم نهز
غرة فأعطاه سماً « شمه أو وضعه في ضره » ثم لاذ بالفرار ولحقوه
فأدركوه وجرحوه ولكنه استطاع الوصول إلى القيروان ومنها إلى
بغداد ••

ومن المحتمل ألا تكون قصة التآمر والسم صحيحة تمام الصحة
بالشكل الذي رويت به أو على الأقل قد لا يكون نسيجها الأولي قد تم
في بغداد • ولعلها من النوع الدعائي الذي يريد تمجيد الرشيد وبيان
يده الطولى التي تصيب من المشرق أقصى المغرب • وأيا كان الأمر فإن
إدريس قتل في الواقع وكان المستفيد الأول من قتله هم العباسيون • وقد
لا تكون مؤامرة اغتياله قد تجاوزت القيروان (وثمة أخبار قد يفهم منها
ذلك) ولكن قتله على يد العباسيين يكمل لدى الناس وفي أذهانهم سلسلة
مقاتل الطالبين عامة وإخوته خاصة على يد خلفاء بغداد •

(١) ذكر ذلك صاحب روض القرطاس (انظر مانشره ليفي بروفنسال

من هذا الكتاب في : Extraits des Historiens Arabes P. 18

الثانية : مقتل راشد مولى ادريس : ويذكر المؤرخون أن إبراهيم ابن الأغلب ما إن تسلم افرقية للعباسيين سنة ١٨٤ حتى كان أول همه الخلاص من الادارسة وكان ادريس الصغير لا يصل إلى العاشرة ومدبر الأمر هو راشد مولى أبيه فلم يزل الأغلب يدرس إلى البربر ويبحث إليهم بالأموال ويستميلهم حتى قتلوا راشداً وأرسلوا إليه برأسه سنة ١٨٦ وفي ذلك يقول إبراهيم مخاطباً الرشيد^(١) .

ألم ترني أهلك بالكيد راشداً واني لأخرى لابن ادريس راصد؟ وبالرغم من أن الأخبار تورد هذه المؤامرة التي قد تكون صحيحة إن إنه من المحتمل أيضاً أن يكون راشد قد قتل في تنافس داخلي بين أنصار إدريس الطفل . ولعلمهم نافسوه على مكانه أو خشوا من طغيانه واستلامه الأمر دون ادريس وقد يدل على ذلك تجديد هؤلاء الاتباع البيعة للطفل بعد عشرين يوماً من مقتل راشد .

الثالثة : ان ابن الأغلب حين عظمت قوة ادريس الثاني وخشي زحفه نحو الشرق استمال اليه كبير زعماء قبائل أوربة : أبا ليلي اسحق ابن محمود الأوربي وهو الذي احتضن وساعد ادريس الأول فما تبين ادريس الثاني ميول اسحق لابن الأغلب حتى قتله (أواخر سنة ١٩٢) .

الرابعة : ان ابن الأغلب أيضاً وأيضاً فجع في استمالة واحد من أكبر أعوان ادريس الثاني هو بهلول بن عبد الواحد الزناتي زعيم مطهرة فخرج على الامام مما اضطر الادريسي إلى أن يستعطف الأغلب ويسأله الكف

(١) ادعى تدبير المؤامرة ايضاً محمد بن مقاتل العكي وقد كذبه الأغلب بقوله :
وتاه أخو « عك » بمهلك راشد وقد كنت فيه ساهرا وهو راقدا!

عن التآمر عليه وعقد المصالحة معه^(١) . وبالرغم من أن التآمر غير مستبعد إلا إنه قد يكون الزعيم الزناتي إنما اتصل بالأغلبية بعد الثورة لتأييده . وعلى أي حال فإن الأغلبية مع تمادي انقطاعهم عن التأثير العباسي، لاسيما بعد انتهاء عهد الرشيد واضطراب خلافة بغداد بين الأمين والمأمون سنين طويلة . أخذوا يميلون إلى توطيد علاقات حسن الجوار مع الأدارسة . يقول ابن خلدون أن الأغلبية عجزوا عن مدافعة الأدارسة « ودافعوا خلفاء بني العباس بالمعاذير بالغض من إدريس والقدح في نسبه إلى أبيه إدريس بما هو أوهن من خيوط العنكبوت ... »

ولعل هذا كله يعني أن خلافة بغداد كانت تنتهي عملياً عند برقة وأن السياسة الخارجية العباسية فيما وراء ذلك كانت منوطة عملياً بأغلبية القيروان .

ب - مع إمارة الأندلس :

إذا كانت علاقات بني العباس بالمغرب قد انحصرت بالتآمر فقط فإن علاقاتهم مع إمارة الأندلس انحصرت في تبادل رسائل الشتيمة فمنذ انقطع أمل المنصور في إدخال الأندلس ضمن إطار الدولة العباسية انقطع ما بين تلك الأرض وبين بغداد من علائق مباشرة . وكانت نظرة بغداد إليها تمر عبر بلاد الفرنجة تارة وعبر ولاية إفريقية والمغرب تارة أخرى .

(١) انظر ابن الأثير حوادث سنة ١٨١ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤ وج ٦ ص ١١٩ وينسبون إلى إدريس قوله لبهلول :

أضلك إبراهيم من بعد داره فأصبحت منقادا بغير قياد
كانك لم تسمع بمكر ابن أغلب عدا غزا بالسيف كل بلاد
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤ .

وقد ذكر ابن الأثير خبراً لا ندري مدى صحته يقول : « إن عبد الرحمن (الداخل) صاحب الاندلس أظهر سنة ١٦٣ التجهز للخروج إلى الشام بزعمه لمحو الدولة العباسية وأخذ ثأره منها • فعصى عليه سليمان ابن يقظان والحسين بن يحيى الانصاري بسرقة واشتد امرهما فترك ما كان عزم عليه •• » (١)

ويبدو أن هذا المشروع نفسه أو مشروع آخر مقابل له نجعل كنهه وأحداثه حاول فيه المهدي النفوذ إلى الاندلس ثم كشفه عبد الرحمن ، كان السبب في أن يرسل عبد الرحمن الداخل (وقد توفي سنة ١٧٢ في عهد الرشيد) كتاباً إلى المهدي العباسي نفسه يندد بالعباسيين ويفضح مثالبهم أو لعله يهدد بنشرها • يقول الطبري : إن هشاماً الكلبي (وهو مؤرخ نسابه معروف) كان على الفقر ثم رآه بعض أصحابه يوماً وهو على بغلة شقراء من بغال الخلافة وعليه آيات النعمة فسأله : أنى لك هذا فروى له أن المهدي استدعاه يوماً وليس عنده أحد فأدناه ثم أعطاه كتاباً وقال : لا يمنعك مافيه مما تستفظعه أن تقرأه • وقرأ هشام بعض الكتاب فاستفظعه وألقاه من يده ولعن كاتبه • فقال الخليفة : قد كنت قلت لك إن استفظعته فلا تلفه • اقرأه بحقي عليك حتى تأتي على آخره • ويقول هشام : « فقرأته فإذا كتاب قد ثلثه فيه كاتبه ثلثاً عجيباً لم يبق له فيه شيئاً • فقلت يا أمير المؤمنين : من هذا الملعون الكذاب ؟ قال : هذا صاحب الأندلس • قلت : فالثلب والله يا أمير المؤمنين فيه وفي آباءه وأمهاته • ثم اندرأت اذكر مثالبهم فسر بذلك وقال أقسمت عليك لما أملت مثالبهم كلها على كاتب ••• ودعا بكاتب من كتاب السر فأمر فجلس ناحية وأمرني فصرت إليه فصدر الكاتب من المهدي جواباً وأملت عليه مثالبهم فأكثر

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٦٢ •

فلم أبق شيئاً حتى فرغت من الكتاب ثم عرضته عليه فأظهر السرور . ثم لم أبرح حتى أمر بالكتاب فختم وجعل في خريطة ودفع إلى صاحب البريد وأمر بتعجيله إلى الأندلس . . . »^(١) ونال هشام على ذلك البغلة وعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب .

ولم يكن صاحب الأندلس ليبادر إلى ثلب العباسيين ومكاتبة المهدي لولا أن أثاره أمر : قد يكون من نوع التآمر عليه أو يكون نتيجة لعلاقة المنصور بالفرنجة وهجومهم على أطراف الأندلس الشمالية وقد أجاب المهدي على ثلب كتابي بثلب من مثله وعلى التهديد بالفضائح بتهديد آخر من نوعه وكان هشام أقدر من يعرف ذلك أو يخترعه وعلى أي حال فقد كان هذا النوع من الرسائل الهجائية هو العلاقة الوحيدة التي نعرف بين بغداد وقرطبة في تلك الفترة . . .

ج - الغرب (العلاقات مع الفرنجة) :

كان اتجاه الامبراطورية العباسية إلى الشرق واموره مضعفاً لها في الغرب (كالذي كان في افريقية والمغرب) صارفاً لها عن مناوأة اصحاب الأندلس او اقامة العلاقات مع اوروبا الاقطاعية بصورة عامة . غير أن الباحثين الفرنسيين خاصة يذكرون خبر صلات (واسعة او ضيقة) بين الرشيد وشارلمان تجعلها فرنسا حجة ودليلاً على قدم وعمق نفوذها في الشرق ولعله لهذا السبب ولأنها مشكلة تاريخية غامضة فإننا يجب أن نبحثها بالتفصيل ، محاولين الاجابة على سؤالين : هل حدثت تلك العلاقات أولاً ؟ واذا حدثت فما مداها وما معناها ؟

آ - مصادر الموضوع قسمان :

(٢) الطبري ج ٨ ص ١٧٢ - ١٧٣ (٥٢٨/٣ - ٥٢٩) .

(١) القديمة : ليس في المصادر الاسلامية ولا البيزنطية أي ذكر
 لفصلة بين الرشيد وشارلمان وتنفرد المصادر اللاتينية وهي مصدران :
 ايجينهارد : (حياة شارلمان) Eginhard : Vita Caroli
 سان غال : (الحوليات الملكية الفرنجية)
 St. Gall : Annales Regni Francorum
 والاول صديق لشارلمان ومولى له • اما الثاني فراهب كتب كتابه
 بعد نصف قرن من عصر الامبراطور الفرنجي •
 (٢) الحديثة : بحث المسألة كثيرون اهمهم :
 بكلر^(١) وهو يقبل وجود العلاقات ويبنى بحثه لا على الأدلة المادية
 التاريخية ولكن على الاستنتاج الفكري •
 برييه Brehier وهو يؤيدها ويستنتج منها نتائج مبنية على
 التخمين لا على التدقيق العلمي •
 جورانسون^(٢) وهو ينقدها نقداً علمياً ويقبل وجودها ولكن
 يتحفظ في تحديد نتائجها كثيراً •
 رانسيمان^(٣) ويقبل وجود العلاقات ولكنه يعتبر نظرية حماية
 شارلمان لفلسطين اسطورة •
 شميدت^(٤) وهو يبحث تلك العلائق ومداهما في مجلة « الاسلام »
 الألمانية •

Buckler : Harun al-Rashid and Charles the Great. P.P. 170-8 (١)

Joranson : the Alleged Frankish Protectorate in Palestine P.P. 241-6 (٢)

S. Runciman : Charlemagne and the Palestine (E.H.R. Oct. 1935) P.P. 606 (٣)

F.F.Schmidt . Karl der grosse und Harun al - Rashid Der Islam, Vol III P.P. 409-11 (٤)

بارتولد Barthold وهو ينفي هذه العلاقات بدليل سكوت المصادر المختلفة عنها .

كلانيكلوس وبحثه في مجلة (سيربا) يحمل عنوان (خرافة علاقة الافرنج بالعرب) .

مجيد خدوري^(١) وعبد العزيز الدوري^(٢) وهما يبحثانها بروح علمية عميقة تميل لنفيها .

ب - العلاقات (حسب رواية المصدرين اللاتينيين) تقسم إلى ثلاثة أقسام .

١ - العلاقات مع الرشيد : ارسل شارلمان وفدين الى الرشيد (سنة ٧٩٧م - و ٨٠٢م) فأجاب الخليفة بإرسال وفدين (سنة ٨٠١ و ٨٠٧م) ، ففي سنة ٧٩٧ بدأ شارلمان العلاقات بإرسال وفد من اثنين (لاتتفريد وسيغسموند) يصحبهما يهودي اسمه اسحق للترجمة . وقضى الوفد في مهمته ثلاث سنوات . توفي أثناءها الممثلان الاساسيان ، ورجع اسحق وحده مع فيل سنة ٨٠٢ م .

وفي سنة ٨٠١ (اي قبل عودة اسحق) وصل وفد اسلامي عن طريق بيزا إلى بلاط شارلمان ، كان يتألف من اثنين : احدهما فارسي ، يمثل الخليفة - فيما قيل - ، وثانيهما من المغرب ، عن ابراهيم الأغلب ، وأخبرا شارلمان برجوع اسحق ، مع فيل وهدايا . وفي سنة ٨٠٢ أرسل شارلمان وفده الثاني . ولا يذكر (ساغال)

(١) مجيد خدوري : العلاقات الدبلوماسية بين الرشيد وشارلمان ص ٢٣ وما بعدها .
(٢) الدوري : العصر العباسي الاول ص ١٤٩ وما بعدها وقد اعتمدنا كثيرا هذه الدراسة .

مهمة الوفد ، ولكن إيجينهارد يذكر سفره بهبات لكنيسة القيامة ، وذهابه الى الرشيد » وحين عرض السفراء رغبات سيدهم على الرشيد اجابها وفضلاً عن ذلك اوكل (أي الخليفة) اليه (لشارلمان) أمر الأماكن المقدسة » ورجع الوفد سنة ٨٠٦ . وفي اوائل السنة التالية وصل بلاط الفرنجة رسول عن الخليفة ، يدعى عبد الله ، ومعه هدايا نفيسة : (صيوان ملون بديع واقمشة حريرية وعطور وبلسم وساعة مائة عجيبة واوان نحاسية) .

٢ - العلاقات مع بطريق القدس : أرسل شارلمان سنة ٧٩٩ م رسلا الى بطريق القدس . فأجاب البطارقة بأربع سفارات على الأقل (سنة ٧٩٩ و ٨٠٠ و ٨٠٧) .

ففي سنة ٧٩٧ بدأ بطريق القدس فبعث بهدايا رمزية مع أحد الرهبان . فلما عاد الراهب بعث معه شارلمان قسيساً (يدعى زكريا) ، يحمل هبات الى الاراضي المقدسة . وعاد هذا القسيس في نهاية سنة ٨٠٠م يصحبه راهبان عن بطريق القدس يحملان لشارلمان مفاتيح كنيسة القيامة ، ومفاتيح مدينة القدس ورايته .

ووصل سنة ٨٠٣ م من بطريق القدس جرجيس راهبان ، ظلت مهمتهما غير معروفة ، ولسنا نجد ذكراً لرد شارلمان على رسالتهما . وفي سنة ٨٠٧ وصل راهبان آخران .

٣ - العلاقات مع المأمون : ويذكر بكسر أن تلك السفارات التي بدأت بسفارة بيان القصير الى المنصور سنة ٧٦٥ (سنة ١٤٧) « انتهت بسفارة أخيرة أرسلها الخليفة المأمون إلى لويس التقى سنة ٨٣١ (سنة ٢١٦) » ختاماً لعلاقات دامت سبعين سنة . ويأخذ بكسر خبر هذه السفارة الأخيرة عن الأخبار الملكية لسان غال .

ج - اسباب العلاقات ونتائجها :

ظاهر أمر هذه العلاقات لا يدل على أكثر من فتح صلات ودية بين شارلمان من جهة وبين الرشيد والمشرفين على الأماكن المقدسة من جهة أخرى . على أن بعض المؤرخين الذين تناولوها ، وجدوا لها أسباباً ومعاني سياسية ودينية واسعة :

١ - رغبة شارلمان في فتح الأندلس وضمان التأييد المعنوي للخليفة ضدهم ، وهم أعداؤه .

٢ - عداا شارلمان لبيزنطة (عدوة الخليفة) ونزاعه معها ، حول وراثة تاج الامبراطورية الرومانية .

٣ - رغبة البابا (حليف شارلمان) في تقوية صلاته مع بطارقة الاسكندرونة وانطاكية والقدس ، ليقفوا بجانبه ، في نزاعه مع بيزنطة .

٤ - رغبة شارلمان في تسهيل أمر الحج الى الأماكن المقدسة ، وفي تكوين نفوذ معنوي له فيها .

٥ - رغبة الخليفة في القضاء على النفوذ المعنوي لبيزنطة بين مسيحيي الشرق ، بتقوية صلاتهم بالغرب .

ويرى بكلر ان الوفد الاول للخليفة هو الوفد الهام . وبالرغم من أنه يعترف بأن تعاليم السفراء غير معلومة . فهو يرى أن نجاح المهمة يوحى بأنها كانت لواحدة او لأكثر من هذه الغايات الثلاث : أما تحديد وضع شارلمان كحام للمصالح العباسية في الأندلس . وفي غرب المتوسط او عقد حلف مع الرشيد ، للتعاون المتبادل ، ضد الأندلس وبيزنطة ، او فتح الطريق للحجاج اللاتين ، لزيارة الأماكن المقدسة وحمايتهم من ظلم الارثوذكس .

ويمضي بكلر في تخمينه ، فيعترف بأن حالة المسيحيين لم تكن سيئة،

ولكنه يقول : ان سوء العلاقة بين الرشيد وتقفور استوجبت وضع تقييدات على المسيحيين ، ولذلك توسط شارلمان في الموضوع . وينتهي من بحثه بأن يرى أن نتيجة المفاوضات كانت تعيين شارلمان والياً على القدس ، ضمن سيادة الخليفة العباسي ، بدليل ما أرسله بطريق القدس من مفاتيح المدينة والراية ! ... وهذا المنصب لا يتطلب (في زعم بكلر) حضور شارلمان الى القدس ، بل يقوم الرشيد بذلك كوكيل له . وكذلك عين شارلمان « امير استيلاء » على الأندلس (ويستند بكلر في هذا التعيين الى تفسير الماوردي لهذا النوع من الامارة) .

على ان بعض الباحثين لا يبالغون في التخمين هذه المبالغة : (فبهرهيه) يرى ان اجابة مطالب شارلمان (حسب طلب الوفد الأول) وإرسال مفاتيح الكنيسة والراية ، معناه الحماية الفرنجية للأماكن المقدسة . كما أن فازيليف يقول : « صار لشارلمان ، بإذن الخليفة ، حق حماية المسيحيين والحجاج (في الاراضي المقدسة) ، وحق انشاء كنائس وخانات في فلسطين » .

د - ونصل اخيرا الى مناقشة الأمر كله مصادره وموضوعه :

اولاً - نقد المصادر :

١ - يقول هالفن محقق كتاب ايجنهارد (ويؤيده جورانسون) إنه لا يمكن الوثوق بمعلومات ذلك المؤرخ الذي كان همه تفخيم اسم سيده عدا ما في كتابه من اخطاء كثيرة وخلط بين السفارات من الخليفة ومن البطريق (وقد بين ذلك جورانسون) .

٢ - يشهد كل من رانسيومان وجورانسون ، ان الراهب (سافتغال) من كتاب الأساطير . هذا الى أنه مقتضب ، لا يساعد على تعيين الصلات بوضوح ، ويرى رانسيومان ان نظرية حماية شارلمان لفلسطين اسطورة

اخترعها هذا المؤرخ الاسطوري ، بعد وفاة شارلمان بخمسين سنة ، إذ جمع المعلومات عن الهدايا التي أرسلها الخليفة والبطريق ، مع معلومات إيجنهارد المضطربة ، ليكون قصة مضمونها أن الرشيد تنازل لشارلمان عن سيادة فلسطين ، وارسل اليه وارداتها •

٣ - يعتبر بارتولد تخريف (سانت غال) مع سكوت المصادر الشرقية (العربية والبيزنطية) دليلاً كافياً لنفي وجود العلاقات بين الطرفين •

ثانياً - نقد الموضوع :

لم نكن في حاجة لمناقشة تلك العلاقات ، لو لم يحملها الكتاب المعنى السياسي • ولهذا نتوجه الى نقد هذا المعنى فيها :

١ - قد تكون ظروف شارلمان قد اضطرت له لانشاء تلك الصلات ولكن هل كان وضع الرشيد يقتضي اقامة صلات من هذا النوع السياسي ؟

الذي نعرفه عن الرشيد أنه كان منتصباً على بيزنطة ، في تلك الفترة ، وقد أجبر الامبراطورة ايريني سنة ٧٩٨ م على دفع الجزية له ، سنة بعد أخرى • ثم لا دليل على أن مسيحيي الشام كانوا مضطهدين • أو كانوا خطراً على الدولة في عهده ، ليحميهم شارلمان • وإذا كان ثمة من حماية مزعومة لامبراطور الفرنجة ، فقد ينفيها أن الرشيد إنما «اضطهد» النصارى - إن كان ثمة اضطهاد - في أخريات عهده ، أي بعد تلك الوفود والصلات الفرنجية المزعومة ، لا قبلها • وأخيراً كيف يفكر الرشيد في استرجاع الاندلس وهو يتخلى عن تونس ؟ وكيف يتآمر مع ملك مسيحي ضدها ، وهو المتدين الكثير الحج والصلاة والصدقات ؟ وكيف يعين شارلمان على فتحها ، وهو يعلم أن حكمها سيؤول لذلك الامبراطور الفرنجي وليس له ؟

٢ - نرى من الجهة الاولى أن شارلمان كان على صلوات حسنة (في هذه الفترة بالذات) مع بيزنطة • ففي سنة ٧٩٨ م أرسلت ايريني الى شارلمان وفداً للمفاوضة في عقد حلف ، واقترحت عليه الزواج • ولعلها سلمت له - كما يقول بكلر - بلقب الامبراطور •• بل كان سفراء شارلمان سنة ٨٠٢ موجودين في القسطنطينية ويفاوضون في أمر الزواج ، حين جرى الانقلاب الذي أقصى الامبراطورة التقية الرهيبة عن العرش ، فما معنى وفوده إذن عند الرشيد ؟

٣ - يرى بارتولد - فيما يتعلق بأخبار الصلات - أنه ليس من المعقول أن يكون الرشيد أرسل الهدية (الفيل) مع إسحق اليهودي ، بينما أرسل سفراءه مقدماً بأيدي فارغة •• ويرى أن إسحق قد لا يكون أكثر من واحد من التجار اليهود ، المتاجرين بين الشرق والغرب • ثالثاً - نقد النتائج :

يلاحظ أن قضية (حماية الاماكن المقدسة) وما يتعلق بهذا الأمر من نتائج إنما هو ابن التخمينات والظنون التي بدأت من (ايجينهارد) القديم ، ولعلها لن تنتهي عند (بكلر) :

١ - يرى بارتولد ان المصدرين اللاتينيين القديمين يصرحان : ان غاية الوفد الاول كانت الحصول على (فيل) • وليس هناك ما يدل على وصول ذلك الوفد للرشيد ، أو مفاوضته ، بأي شأن سياسي • أو اتصاله بشارلمان نفسه منذ غادر بلاده •

٢ - ليس لدينا أي خبر يدل على أنه حدثت مفاوضات، أيا كانت، بين وفد الرشيد وبين شارلمان • حتى أنه ليس ثمة تاريخ يذكر عودته •

٣ - ليس ثمة مصدر يذكر مهمة الوفد الثاني الفرنجي • ويرى جورانسون ان (ايجينهارد) إنما أضاف من عنده خبر الهبات لكنيسة القيامة ، وقبول الرشيد لمطالب شارلمان •• الخ وهو مؤرخ لا يوثق به • كما انه يخلط بين هذه السفارة وبين إرسال زكريا بالهبات لكنيسة القيامة

سنة ٧٩٩ م ثم إنه لا يعرف طلبات الوفد ، بينما كان أمر (الحماية) تخميناً من عنده ، ولا قيمة له .

٤ - يعتمد بكثر على المنطق ويقول ان هذه المفاوضات يجب أن ترى بمنظار الدبلوماسية الاسلامية ويعين - من عنده - شارلمان امير استيلاء على الاندلس ، ووالياً على القدس ، يتوكل عنه الخليفة نفسه ! . وذلك تخريف . ويعتمد على (الماوردي) في تفسير امارة الاستيلاء . وينسى ان هذا الكاتب (الذي توفي سنة ٤٥٠ / ١٠٥٨) يفسرها بأنها « تعقد عن اضطرار . . . » وان صاحبها يتقلد « احكام الدين » ولم يكن الرشيد مضطراً ، وليس شارلمان بالذي يعهد اليه تصريف أمور المسلمين عدا أن هذا التفريق بين نوعي الإمارة إنما ظهر لاحقاً في القرن الثالث الهجري وما بعده ولم يعرفه عهد الرشيد أبداً .

٥ - أرسل شارلمان صدقات وهبات إلى فلسطين ، فاستعملت في تعمير بعض الكنائس . وأنشأ منزلاً للحجاج باسمه ، كما أنشأ مكتبة . وهذا أمر بديهي من امبراطور يدعي السلطة على العالم المسيحي . ولكن جورانسون يتساءل فيما إذا كان ذلك يكفي للبرهنة على وجود (حماية) خاصة له في البلاد ، أو أنه يمكن أن يفسر على هذا النحو ؟ خاصة وان ايجنهارد يذكر أن شارلمان « خطب ود الملوك وراء البحار ، لأنه أراد ، بالدرجة الأولى ، تحسين أحوال المسيحيين الذين يعيشون في ممالكهم » وهذا لا يقتصر على الرشيد !

٦ - أما تقديم المفاتيح والراية ، من قبل بطريق القدس ، فلا يمكن أن يعطي معنى سياسياً معيناً . لا سيما ورواة الخبر لا يعلقون عليه أهمية سياسية ، بل يتفقون على أنه كان من باب الدعاء والتبريك (Benedictionis causa) « فاعطاؤه المعنى السياسي تحميل للمصادر ما ليس فيها » .

٧ - أما خبر سفارة الخليفة المأمون إلى لويس التقى سنة ٢١٦/٨٣١ . . . فإذا كان خبر هذه السفارة صحيحا بدوره فقد يعني تحريض الدولة الفرنجية ضد بيزنطة في إيطاليا في الوقت الذي بدأ فيه المأمون حربها في الأناضول . على أن مما يضعف التعليل والخبر نفسه أنه كان ثمة قوة شبه عباسية هي الأغالبة وتعمل ضد بيزنطة في قطاعها العربي ولم يستجد بها المأمون أو يحركها محرضا أو منسقا للقوى وقد كان بإمكانها القيام بدور أكبر خطرا بكثير من الفرنج !

ويظهر لنا ، بعد كل هذا ، أن وجود الصلات بين شارلمان والرشيد أمر قليل الاحتمال . ولكنها إن حوت - في حال وجودها - شيئا من المعنى السياسي ، فليس أكثر من التعاطف البعيد ، وقد لا تحمله مطلقاً . وقد لا تكون أكثر من مجرد صلات تجارية ، قوامها أولئك التجار العالميون ، من اليهود الذين كانوا صلة الوصل بين الغرب والشرق ، في تلك الفترة . ولعلمهم من اليهود (الرادانية) الذين كتب ابن خرداذبة^(١) أنهم كانوا يحسنون عدداً من اللغات ، ويتاجرون بين فرنسا والأقطار الإسلامية والصين . وقد يكونون كلفوا (أو لم يكلفوا) من شارلمان بحمل فيل ، وبعض البضائع الشرقية إليه . أو ربما كان الوافدون عليه تجاراً ادعوا أنهم سفراء ، لتسهيل مصالحهم في بلاده ، كعادة بعض تجار تلك الأوقات (في الصين مثلاً) .

وربما كان الاحتمال الأقرب الذي يفسر هذه الصلات والسفارات جميعاً أنها لم تكن مع الرشيد والمأمون ولكنها إن وجدت قط فبين أغالبة إفريقية ولالة الرشيد وبين شارلمان وخلفائه .

(١) انظر ابن خرداذبة - المسالك والممالك (ط . دي غوية - بريل

١٨٨٦) ص ١٥٣ - ١٥٤

والواقع ان الأغالبة كانوا بسبب تجارتهم مع إمارات إيطاليا وجنوب فرنسا والحوض العربي للمتوسط ، وأطماعهم ثم هجومهم على صقلية في حاجة الى مثل تلك العلاقات مع دولة مسيحية كبيرة تناهض مثلهم بيزنطة المحتكرة للبحر المتوسط وللتجارة فيه والسيطرة على جزره ومعابره وبصورة خاصة على صقلية وجنوب إيطاليا . وقد كان شارلمان في زحام شديد قوي مع البيزنطيين في إيطاليا بالذات وقد بنى أسطولا في البحر المتوسط ومد نفوذه إلى جزر الباليار وسردينية وجنوب إيطاليا وحاول السيطرة على البندقية وإيستريا ودالماسيا كجزء من خطته للسيطرة على مصادر الثروة التجارية التي حرمت منها بلاده بسبب بيزنطة حتى ظفر منها سنة ٨١٢ بجانب الاعتراف بتاجه الامبراطوري بحرية التجار الفرنجة في داخل الامبراطورية البيزنطية أيضا ولكن هذا البند من الاتفاق لم ينفذ أبدا وظلت المشكلة الاقتصادية قائمة في وجه خلفاء شارلمان .

ويتبين من هذا أن شارلمان وخلفاءه كانوا في حاجة الى حليف قوي ذي صلة مباشرة بالمناطق والموانئ والأراضي التي يزاحمون عليها بيزنطة . وكان هذا الحليف في الواقع هو الأغالبة . وثمة خبر أورده إيجينهارد نفسه يذكر أن وفدا من أمير تونس الأغلبي سافر الى بلاط شارلمان عن طريق بيزا سنة ٨٠١^(١) . كما بعث الفرنجة فأخذوا بعد سنوات رفاة بعض القديسين من افريقية . وهذا يعني أن الصلات بين الطرفين ليست مجرد افتراض نظري ولكنها كانت قائمة فعلا . . . فإذا تذكرنا الى هذا أن الأغالبة ، ولالة عباسيون على أي حال ، يحكمون باسم خليفة بغداد وقد كانوا ، ولا سيما في ذلك الوقت من أيام شارلمان

(١) انظر ارشيبالد لويس - القوى البحرية ص ٢٠٤ (تعليق ٨١ نقلا

عن (Eginhard in M T H Script I, 190)

والرشيد ، حديثي عهد بالولاية وبالتسمية من قبل الرشيد فهم لهذا شديدو الحرص على أن يبرز اسمه بجانب اسمائهم وعلى أن يتكلموا باسمه في كل مجال ولا سيما في مجال ملكي واسع لدى الفرنجة .

ثم إذا تذكرنا الى هذا وذاك شيئا آخر هو أن الطريق الذي ذكر أن الوفد الناقل للفييل اتبعه هو : طريق البر من مصر الى افريقية ومن هناك وضع في سفينة أبحرت به الى ثغر لوني ، حيث أنزل ليتم طريقه الى بلاط شارلمان ، أي أنه أبحر من أرض الأغالبة . كما أنه عاد في العودة عن طريق تونس . والسفارة التي غادرت عاصمة شارلمان (اكس لاشايل) سنة ٨٠٢ أفلتت كما يقال من الوقوع في أسر بعض الاساطيل البيزنطية وهي عائدة سنة ٨٠٦ مما جعلها تسرع للوصول الى ميناء تريفيزو الايطالي . وهذا مما يشير بدوره الى أن عودة الوفد كانت أيضا عن طريق افريقية (تونس) .

وإذا تذكرنا الى هذا وذاك أيضا أن وصول سفير من الرشيد أو الى الرشيد أو وفد يحمل الهدايا الضخمة (كالفييل وغيره) لا يمكن أن يمر في صمت أثناء عبوره بلاد الأغالبة ولا بد أن يحتفوا به بشكل من الأشكال ... إذا تذكرنا كل أولئك بات من الأرجح أن تلك الوفود والسفارات إن وصل بعضها بلاط شارلمان رسميا وتكلم باسم الرشيد فإنما صاحبه هم الأغالبة ... مع بقاء الاحتمال الدائم في أن لا تكون هذه الوفود والسفارات أكثر من جماعة من التجار يزودهم بلاط شارلمان أو الأغالبة بتوصيات أو بهدايا أو احتياجات ينقلونها بينهم بعد أن يأتوا بها من الشرق أو من بغداد وعلى أي حال فإن السفارات والوفود بين شارلمان والأغالبة كانت ، في الأرجح ، أوثق صلة مما تذكره المصادر كما

كانت أكثر احتمالا للمعنى السياسي وقبولا لموضوع تبادل الهدايا مما
يمكن أن يعزى منها لبلاط بغداد والرشييد .

ويبقى بعد هذا أمر المصادر اللاتينية وقد كان طبيعيا من خلال
رغبتها في تفخيم سيدها شارلمان أن تنقل السفارات والهدايا من اسم
الأغلبى الى اسم مولاه ، سيد العصر في وقته : الرشييد .



الفصل السادس

عصر المعتصم

٢١٨ - ٢٤٧ هـ - ٨٣٣ - ٨٦١ م

فترة القلق

اعتاد المؤرخون أن ينهوا العصر العباسي الاول ، بموت الخليفة الواثق سنة ٢٣٢ هـ ولعله من الاصح ان ينتهي بمقتل الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧ هـ فان عهد هذا الخليفة كان تنمة في نواحية السياسية خاصة ، وفي النواحي الفكرية والاجتماعية ، للعصر الذهبي الاول . واذا كانت فترة القلق ، في دولة بني العباس ، قد بدأت في زمن المعتصم ، فإنها لم تتضح ، بمثل القوة التي وضحت فيها في عهد المتوكل . فقد كان عهده «عهد حسن ونضارة» وعهد نضال وقلق معاً . وقد حاول المتوكل ان يقاوم عبثاً عوامل الضعف في الدولة ، واتهى الأمر بمقتله . على يد الأتراك . وهو حادث يصح أن يعتبر بدءاً لعهد جديد ، امتدت فيه أيدي خدم الدولة ، الى أكبر رأس فيها . فبدأ بها ما يسمى عادة بعهد النفوذ التركي . هذا الى ان تجزؤ الدولة الى ولايات مستقلة انما بدأ بعد مصرع المتوكل بسنوات معدودة فعنده اذن ، يجب أن يختم عهد القوة ، لا أن يعتبر مطلع عهد الضعف (الثاني) .

ويمكن أن نلمح القلق في هذه الفترة من التاريخ العباسي (٢١٨ - ٢٤٧) في مملك الخلفاء السياسي . فبعد أن استندت دولة المنصور

والرشيد الى ركنين من العرب والفرس ، عاد المعتصم وخلفاؤه يجربون
عصبية جديدة . ويضطرب احدهم (المتوكل) بين العرب والترك مدة
حكمه . وبعد ان قام المنصور والرشيد ببغداد ، عاد المعتصم يبن عاصمة
جديدة ، وغدا المتوكل يفتش عن عاصمة أخرى ، حتى استقر في
المتوكلية . وبعد أن اعلنت الدولة الاعتزال مذهباً رسمياً لها ، عن غير
فهم سوى تقليد المأمون رجع المتوكل الى المذهب السني ، وعاقب المعتزلة
بالجلد . وبكلمة واحدة ظهر بوضوح ان دولة بني العباس تزحزحت عن
موطن القمة في الاستقرار السياسي . وبدأ عهد الاضطراب تمهيداً
للضعف والتجزؤ .

على أنه لا بد أن نذكر ان قمة الخط البياني للقوة السياسية ،
لا تتفق في التاريخ ، عادة ، مع قمة التقدم الحضاري . وان هذا التقدم
يتأخر في العادة ، ويبلغ اوجه في العهود التي يأخذ فيها السلطان
السياسي ، في الاضمحلال . وهكذا نجد ان فترة القلق التي ندرسها
(والقرن الذي تلاها والذي نسميه بالعصر التركي) كانت في الناحية
الحضارية فترة النضج والقوة . ففيها في الحياة الفكرية برز الجاحظ
(في الكتابة) وابن ماسويه (في الطب) وابو معشر البلخي (في النجوم)
وابن خردادبة (في الجغرافيا) وابن قتيبة والطبري (في التاريخ) وابو
تمام والبحري (في الشعر) وابن حنبل والترمذي والبخاري والسجستاني
(في الحديث والفقه) وخلف البزاز (القاريء) وفيها ظهر اول فيلسوف
عربي : يعقوب الكندي .

ونجد في الحياة الاجتماعية لأول مرة خمود العصبية القومية
والدينية ، وظهر ما نستطيع أن نسميه : المجتمع الاسلامي (لا لأنه
منقسم على أساس ديني ، ولكن لأن رابطة هي رابطة الدين) وانقسام

هذا المجتمع على اساس المال الى طبقتين : خاصة مسيطرة وعامة مستغلة كادحة .

وتتضح ، منذ هذه الفترة ، ميزة هذا المجتمع الاقتصادية في أنه مجتمع تجاري (لا سيما في العراق) حتى يمكن - على حد قول متر - أن نعد «التاجر رمز الحضارة العباسية» .

وأخيراً فأهم الآثار العمرانية التي بقيت لنا من العصر العباسي ، كانت آثار هذه الفترة . وهي تلك القصور والبرك والجداول والشوارع التي تمتد على مسافة ٣٤ كيلو مترا حول دجلة والتي ندعوها سامراء .

١ - الخلفاء :

توالى في هذه الفترة خلفاء ثلاثة : المعتصم ثم ابنه الواثق ثم ابنه الثاني المتوكل .

المعتصم بالله

١٧ رجب سنة ٢١٨ - ١٩ ربيع الاول سنة ٢٢٧ هـ
٨ آب سنة ٨٣٣ - ٦ كانون الثاني سنة ٨٤٢ م

ابو اسحق محمد بن هارون الرشيد

نشأته وصفاته : هو ابن الرشيد من جارية له تركية من الصغد ومن مولدات الكوفة اسمها (ماردة) (أو مارية على رواية المسعودي) ولد سنة ١٧٨^(١) وليس لدينا شيء عنه في صغره . ويظهر انه كان مهمل التربية .

(١) يذكر المسعودي (ج ٤ ص ٤٦ و ٦٤) أن المعتصم ولد في الشهر الثامن من سنة ثمانية ومائة وهو ثامن الخلفاء العباسيين والثامن من ولد العباس . وكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر وتوفي وعمره ثمان

وما قدر له ابوه (وله من الاولاد مثله اثنا عشر) أن يلي في يوم من الأيام عرش بني العباس . فنشأ محمد امياً لا يكتب - على قول بعض المؤرخين - أو كان «ضعيف الكتابة» - على قول ابن خلكان وابن كثير^(١) - ولكن المصادر تجمع بالمقابل على وصفه بجمال الهيئة ، وبالقوة التي لم تعرف لغيره . «كان يصارع الاسود . ويحمل ألف رطل ويمشي به خطوات» وكان يلوي العمود الحديد حتى يصير طوقاً . ويشد على الدينار بأصبعه السبابة والوسطى فيمحو كتابته^(٢)» ويمتدحه المؤرخون على أنه رجل حرب «قليل انه لم يكن في بني العباس قبله أشجع منه ولا أتم تيقظاً في الحرب ولا أشد قوة^(٣)» . وتتضح هذه الصفة فيه متى ذكرنا بعد قليل أعماله الحربية . على أننا لا نعلم أين تمرس بالحروب ؟ ولا الذي كان من شأنه يوم الفتنة بين أخويه ؟ ونعثر على اسمه في اخماد ثورة حرورية سنة ٢٠٢ هـ ثم يبرز اسمه فجأة في أواخر عهد المأمون ، أخيه ، حين يعينه لولاية الشام ومصر سنة ٢١٣ هـ ثم يأخذه للغزو على الجبهة البيزنطية .

بيعته : وتذكر المأمون وقدة الحمى في طرطوس ، ولم يكن قد عقد لأحد بعد ولاية عهده . فيستدعي أخاه أبا اسحق ، ويعهد اليه بالخلافة من بعده ، دون ابنه العباس ، الذي كان موجوداً معه في الغزو ، والذي كان محبوباً من الجند ، ولا سيما من العرب ، على ما يفهم من الطبري وغيره .

وثلاثون سنة وقد ولي الخلافة سنة ثمان عشرة وفتح ثمانية فتوح وبرجه العقرب وهو الثامن وله ثماني بنين وثمان بنات ولهذا اسماء بعض المؤرخين المثلث (انظر السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٣٣٤) .

(١) انظر ابن كثير - البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٩٥ .

(٢) الأربلي خلاصة الذهب المسبوك (طبعة المثني - بغداد دون تاريخ

ص ٢٢٢) .

وتسائل عن السبب الذي حدا بالمأمون لترك ابنه والعهد لأخيه .
ولعله وجد الخلافة العباسية مهددة من يابك الخرمي ، ومن ثورات مصر
ومن الرط ، وهجمات يزنطة ، فاختار للموقف أخاه المتمرس بالحروب .
وربما كانت وصيته له تلقي ضوءاً على هذه النقطة . فهو يقول له :
«... وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساكتهم ، فلا تغفل عنهم في كل
وقت ، والخرمية فاغزهم ذا حزيمة وصرامة ، واكنفة بالأموال
والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة . فإن طالت مدتهم فتجرد لهم
يمن معك من أنصارك وأولياك . واعمل في ذلك مقدم النية ، راجياً ثواب
الله عليه » .

وأما العباس فقد أسرع - حسب بعض الروايات - لمبايعة عمه ولما
شغب الجند أسكتهم « وكلمهم بكلام استحقوقه وشتبوه وبايعوا
لأبي اسحق^(١) » .

وبعض الأخبار تذكر ان العباس تردد ، ويظهر ان حزم المعتصم هو
الذي حسم ذلك التردد ، وقمع شغب الجند . ولعل هذا أصح إذا عرفنا
ان العباس بن المأمون دبر مؤامرة ، فيما بعد مع القائد العربي عجيف بن
عنبسة ، للاستيلاء على العرش ، بعد وقعة عمورية . ولكن المؤامرة
افتضحت ، فمنع المعتصم الماء عن العباس حتى مات . ولحق به
عجيف^(٢) .

وعلى أي حال ، ما كادت تتم البيعة في الجبهة للمعتصم بالله ، حتى
أسرع الى بغداد - حسب وصية أخيه - ليشرف على قاعدة ملكه
بنفسه .

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٧١ .

(٢) الطبري ج ١٩ ص ٧١ - ٧٩ .

سياسته : يمكن ان نلاحظ في سياسة المعتصم انعكاس ظروفه الخاصة لحد كبير :

آ - فقد كان تركي الام ، عسكري الهوى ، وهذا ما جعله يعتمد على اخواله في الجيش ، ويغالي في جمعهم اليه وشرائعهم من ايدي مواليهم . فأوجد لنفسه عصبية جديدة تحكمت - كما سنرى - بمصير الدولة العباسية . يروي المسعودي أنه «... اجتمع له منهم أربعة آلاف فألبسهم أنواع الدباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزي عن سائر جنوده» ولم يكن همه منهم إلا الجهد العسكري على ما يظهر بدليل أنه «كان قد اصطنع (قبلهم أيضا) قوما من خوف مصر وهم عرب (على طريفي الدلتا) خوف اليمن (في الغرب) وخوف قيس (في الشرق) فسماهم : المغاربة (لأن مصر في غرب العراق) ..» غير أنه كان اكثر اعتمادا على الترك خاصة وقد «استعد رجال خراسان من الفراغنة وغيرهم من الاشروسنية فكثرت جيشه ...» (١) .

ويظهر ان المعتصم شعر بخطئه في استعمال الترك ، ورأى إخفاقه في تسيير أمور الدولة ، فشكا ذلك لأحد خلصائه ، ذات يوم ، قال له : - فيما يروي الطبري «في قلبي أمر ، أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة ... نظرت الى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا . واصطنعت أنا أربعة لم يفلح احد منهم» فأجابه جليسه بعد أن استأمن «نظر أخوك الى الاصول فاستعملها

(١) المسعودي - مروج الذهب ج ٤ ص ٥٣ ولا شك أن رقم الآلاف الاربعة رقم متواضع وقد يكون خاطئا ان فهمنا منه تمديد الأتراك في الجيش كله . ولعل المسعودي إنما يقصد عددهم في حرس الخليفة وحده بدليل ما يذكر من لباسهم ..

فأنجبت • واستعمل أمير المؤمنين فروعا فلم تنجب ••• (١)» •
 ب — كان سريع الانفعال والعاطفة • وهذا ما يفسر قسوته في التعصب لما يريد «كان اذا غضب لا يبالي من قتل او ما فعل» — على ما قال الطبري (٢) — ويفسر أيضا ما يصفه به وزيره احمد بن ابي داود من «لين الجانب وجميل العشرة» ومن هذا المنبع أتى اضطهاد القاسي لمن لا يقول بخلق القرآن واهتزازه لعمل المروءة ، لا فرق في ذلك بين استجابته لصيحة «وامعتصماه» التي أطلقتها امرأة عربية في جبهة بيزنطة فدفعته إلى ما بعد عمورية او معوقته بنفسه ، مرة في يوم مطير لشيخ ضعيف ، غرق حماره في الوحل ، وعليه حمل من الشوك والشيخ (٣) ! والاكثر من الصدقة • وقد ذكر عنه قاضية ابن أبي دؤاد أنه تصدق عن طريقه وييده وبسببه بقيمة مائة مليون درهم (٤) •

ج — تبع وصية اخيه المأمون بحرفيتها ، وقلد أعماله • ولما كان قليل البضاعة من العلم (٥) فقد كان أقل تسامحا من اخيه سواء مع العلويين او مع غير المعتزلة • ولقد سمح لنفسه ان يضرب الامام احمد بن حنبل بالسياط (٦) ويسجنه لأنه امتنع عن القول بخلق القرآن • وانما كان المعتصم يفعل ذلك تقليدا لا عن قناعة •

د — تميز المعتصم بحبه للعمران وللعمارة واحياء الموات وكان

(١) الطبري ج ٩ ص ١٢٢ (٣/١٣٢٧) •

(٢) الطبري ج ١١ ص ٧ •

(٣) المسعودي — مروج الذهب ج ٢ ص ٥١ •

(٤) الطبري ج ٩ ص ١٢٣ (٣/١٣٢٩) •

(٥) يروي ابن خلكان ان المعتصم قال مرة عن نفسه وعن وزيره

(وزيره الثاني احمد بن عمار) «خليفة امي ووزير عامي» • انظر الفخري

ص ١٩٠ والقلقشندي مآثر الإنافة ج ١ ص ٢١٨-٢١٩ •

(٦) المسعودي — مروج الذهب ج ٢ ص ٥٢ •

يقول : « ان فيها اموراً محمودة من عمران الأرض التي يحيا بها العالم ، وعليها يزكو الخراج وتكثر الاموال وتعيش البهائم وترخص الاسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش » ويقول لوزيره محمد بن عبد الملك « اذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة احد عشر درهماً فلا تؤامرني فيه^(١) » واعطى أهل الشاش الفتي درهم لكري نهر لهم اندفن في صدر الاسلام^(٢) . على أنه « لم يكن بالنفقة على شيء أسمح منه بالنفقة على الحرب » .

هـ - كان المعتصم قائداً ممتازاً في الحرب ، قمع الفتن التي قضى أخوه عهده كله دون أن يتمكن من إخمادها ، وأرهب جبهة الروم ، غير أنه كان قصير النظر في السياسة ، قصرأ شاركه فيه أولاده بعده . والاعمال والسنن التي حسبها سبيل قوة الدولة كانت هي نفسها عوامل تدميرها . فقد بنى عاصمة جديدة ليخلص من عصبيات وضغط العاصمة الاولى ، فوقع كالسجين في مدينته الجديدة ، لأن معظم سكانها كانوا من الجند ! . . . وكذلك وقع خلفاؤه ، صرعى لهم . واصطنع عصبية جديدة من الترك يقوى بها ونسي - وأنى له مع أميته أن يعلم - أنه لا ثقافة لهؤلاء ولا ولاء . وان همهم الكسب . ثم إنه باصطناعهم ، يوهن ما توطد من علائق بين دولة بني العباس وبين جناحيها في إيران وفي جزيرة العرب ، وهنا خطيراً ويتركها دون سند ، إلا من خليط من الأجناد لا جذور لهم في أرض أو كيان . وإذا لم تظهر خطيئات سياسية له ، فلأن حزبه كان يعصه . واذا كان خلفاؤه هم الذين يحملون الوزر بسوء تصرفهم بعده وعدم تنبهم للمصير ، فقد دفعوا ودفعت الدولة معهم ، الثمن ، ولم يكن مضى على وفاة المعتصم سنة ٢٢٧ غير عشرين سنة !

(١) المسعودي - مروج الذهب ج ٤ ص ٤٧ .

(٢) الطبري ج ٩ ص ١٢١ (١٣٢٦/٣) .

الواثق بالله

(١٩ ربيع الأول سنة ٢٢٧-٢٤ ذي الحجة سنة ٢٣٢ هـ)
(٦ كانون الثاني سنة ٨٤٢ - ١١ آب سنة ٨٤٧ م)

نشأته وصفاته :

نشأته وصفاته : هو ابن المعتصم من ام ولد رومية تدعى قراطيس .
ولد سنة ١٩٦ ويظهر أنه نشأ في قصور الخلافة في بغداد (او خارجها ؟)
فشارك في العلم والأدب ، أو أنه عني به حين آلت الخلافة الى أبيه .
فقد رووا عنه أنه كان لا يبارى في الثقافة حتى سمي «المأمون الاصغر»
كما يقول السيوطي . ولكن علمه كان في علوم العرب وفي رواية الشعر
لا يخلط بها شيئاً بينما كان المأمون قد مزج بذلك علوم الأوائل^(١) على
أن الواثق كان يطلب التأليف في بعض المواضيع (ألف له جنين بن اسحق
كتاب المسائل الطبيعية) ويعقد مجالس المناظرة في قصره ويسأل عن اقوال
الحكماء (حسب رواية المسعودي)^(٢) ويقول الشعر ويجزل العطاء
للشعراء ويحب الموسيقى حتى إنه صنع مائة صوت . كما يحب المجون .
ولاه أبوه العهد ، فبايعه الناس في سامراء ليلة وفاة المعتصم .

(١) السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٣٤٣ .

(٢) انظر المسعودي - مروج الذهب ج ٤ ص ٧٧ حتى ٨٤ فليده

تفاصيل بعض المجالس .

سياسته :

آ - الـ واثق «نكرة من نكرات السياسة» والادارة^(١) كان حكمه فترة ركود واهمال سياسي ، سمحت لتلك العناصر التركية الغريبة ، التي جمعها ابوه في الجيش ، أن تشعر بشأنها وتتدخل في سياسة الدولة . واذ كان المعتصم قد قصر فعالية الترك على النواحي العسكرية ، فان الـ واثق لم يقيم بفعالية عسكرية تذكر . ولم يحاول أن يوقف عناصر الجيش الغريبة عند حدها الحربي . بل نراه يفتح لها الطريق الى جهاز الحكم ، بتعيين كبار قواد الترك في الادارة . يقول السيوطي «اظن انه اول خليفة استخلف سلطاناً» فقد اعطى ، منذ ولي الخلافة : اشناس التركي ، غرب الدولة «من بابه إلى آخر عمل المغرب» على قول اليعقوبي^(٢) . «واعطى قائده ايتاخ كور دجلة (وفارس) والسند» اي أنه قسم الدولة بين اثنين من الترك . لأحدهما المشرق ، وللآخر المغرب . فولى كل منهما الولاية من قبله ، وبقياً في سامراء .

ويظهر ضعف الـ واثق أيضاً من إثباته آل طاهر ودولتهم في خراسان . ومن تغلب القاضي أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي ، ومحمد بن عبد الملك الزيـات الوزير عليه ، حتى «قلدهما الأمر وفوض إليهما ملكه» كما يرى

(١) الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ١٣ ويتفق معه في ذلك بعض المستشرقين كميور ، و(زترشتين) في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٧٩ وثمة من المؤرخين من يذكر انه منح اشناس أو جعله سلطاناً ، انظر السيوطي (تاريخ الخلفاء ص ٣٤٠) وليس بالثابت استعمال لقب السلطان لاشناس الذي لم يسبقه في الواقع أحد في تولي هذا المنصب حتى من اولاد الخلفاء .

المسعودي»^(١) . فكان لا يصدر إلا عن رأيهما ولا يعقب عليهما فيما رأياه» .

وقد أضاف الوثائق إلّم خطيئاته أنه أكثر من مصادرة كبار الموظفين لديه فترك ذلك آثاراً سيئة جداً في الجهاز الإداري وفي الاستقرار المالي ، للدولة ، إذ صارت المصادرة سنة لمن خلفه ، ومورداً من موارد الخزينة والخلافة ، كلما دعت إلى ذلك حاجة أو طمع ، وفتحت الباب للدسائس ، وللإثراء غير المشروع من الشعب ، ولعدم إخلاص كبار الموظفين ، للخليفة وللعمل ، على السواء .

يروى الطبري^(٢) أنه في سنة ٢٢٩ «حبس (الوثائق) الكتاب وألزمهم أموالاً عظيمة ، وأخذ من أحمد بن إسرائيل ثمانين ألف دينار بعد أن ضربه ومن سليمان بن وهب كاتب إيتاخ ٤٠٠ ألف دينار ومن الحسن بن وهب ١٤ ألف دينار ومن إبراهيم بن رياح وكاتبه ١٠٠ ألف دينار ومن أحمد ابن الخصيب وكاتبه ألف دينار ومن نجاح ٦٠ ألف دينار ومن أبي الوزير ٤٠ ألف دينار» .

وإذا كانت كثرة الأموال المصادرة تدل على شيء ، فعلى مقدار الإهمال الإداري الذي سبقها ، والذي سمح لجباة الكتاب أن يكونوا من الثراء الغريب بحيث يملك بعضهم مليون دينار للمصادرة !

ولعل ضعف الوثائق ، وقلة إدراكه السياسي ، مسؤولان عن خيطة خطيرة في الدولة ، هي أنه امتنع عن تعيين ولي عهد له . فقال حين توفي «لا أتقلد أموركم حياً وميتاً» وفتح بذلك للترك ، باب التدخل في أعلى مراحل السلطة : وهي اختيار الخليفة . وسرعان ما استغلوا ذلك . فكانت

(١) المسعودي ج ٤ ص ٦٦ .

(٢) الطبري ج ١٩ ص ١٢٥ و ١٢٨ (٣/١٣٣١ و ١٣٣٥) .

لهم يد كبرى في اىصال المتوكل للخلافة . . . وتلك سابقة دفعت ثمنها
الخلافة غالباً جداً .

ب - تعصب الواثق مثل أبيه وعمه للاعتزال . و اراد ان يجعله عن
قناعة وتصميم المذهب الرسمي للدولة . فلم يكتف بإقراره في عاصمة
ملكه ، ولكنه كتب إلى الآفاق بامتحان القضاة والناس فيه . ولا تقبل
شهادة من لا يقول بالتوحيد . وأمر - على ما يذكر الطبري^(١) واليعقوبي
- بألا يقبل فداء اسير مسلم لدى الروم سنة ٢٣١ قبل أن يقر بخلق
القرآن ، وبأن الله لا يرى في الآخرة . وقد أثار ذلك كله خواطر المتدينين
والناس حتى قامت ضد الواثق مؤامرة في بغداد لخلعه ، وهي المؤامرة
التي يبتها أصحاب الحديث ومن ينكر القول بخلق القرآن . وقد قادها
أحمد بن نصر الخزاعي^(٢) في السر . ولكنها اكتشفت قبل أن تتحول
إلى التنفيذ سنة ٢٣١ هـ . فقبض على زعيمها وبعض أنصاره وحملوا
إلى سامراء . وعقد الواثق مجلساً عاماً للمحاكمة ، حضره قاضي قضاته
أحمد بن أبي دؤاد وحكم على أحمد بن نصر بالكفر فقتله الواثق بيده ثم
صلب وتبع أصحابه بالمطاردة والسجن الشديد .

على أن هذه المؤامرة وطريقة الحكم على زعيمها ، تدل على أن
الاعتزال لم يكن مقبولاً من الشعب العباسي رغم عمل ثلاثة خلفاء
متعاقبين ، مدة ثلاث عشرة سنة ، على نشره ودعمه ، واخذ الناس به .
ولعل هذا ما يفسر السهولة التي لقيها المتوكل في ضرب هذا المذهب ،
فيما بعد . ويفسر نظرة جمهرة الناس إلى فترة الاعتزال على أنها ، فترة
« محنة » .

(١) الطبري ج ١٩ ص ١٤٢ واليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٢ .

(٢) الطبري ج ٩ ص ١٣٥ فما بعد (٣/١٣٤٣ فما بعد) وابن الاثير

ج ٧ ص ١٤ (حوادث سنة ٢٣١) .

ج - واخيراً فقد كان الواثق عطوفاً • اكرم الامويين ورد على بعضهم اموالهم • كما احسن إلى العلويين إحساناً لم يدانه فيه احد من بني العباس • فإن الخطيب البغدادي والسيوطي يذكر ان قول يحيى بن اكرم انه «ما أحسن احد الي آل أبي طالب ما أحسن إليهم الواثق»^(١) «ما مات وفيهم فقير» و اكرم أهل بيته • و «فرق في أهل الحرمين اموالا لا تحصى حتى إنه لم يوجد بالحرمين في أيامه سائل»^(٢) • وحتى خرجوا يندبونه ويكفون حين مات • بل إنه أعطى فقراء الكرخ مليون درهم معونة لإصلاح منازلهم التي احترقت في أيامه • وأعطى المال لأهل فرغانة لسد بثق وحفر نهر هناك • وفرق على قوم من التجار اموالا جمة لتشجيعهم «وأسقط ما كان يؤخذ ممن يرد في بحر الصيني من العشر»^(٣) «وكان مالا عظيما» •

وقد توفي الواثق في مرض عضال لم يتركه على العرش اكثر من خمس سنين وتسعة اشهر (آخر ذي الحجة سنة ٢٣٢) •

المتوكل على الله

(٢٤) ذي الحجة سنة ٢٣٢ - ٣ شوال سنة ٢٤٧ هـ)

(١١) آب سنة ٨٤٧ - ١٠ كانون الأول سنة ٨٦١ م)

نشأته : هو جعفر بن المعتصم من ام ولد يقال لها شجاع (تركية او خوارزمية او رومية) ولد سنة ٢٠٦ هـ وقد تربت امه منذ حداثتها ، في

(١) السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٣٤٢ •

(٢) ابن الاثير ج ٧ ص ٣١ •

(٣) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٣ والطبري ج ٩ ص ١٥٠ (١٣٦٣/٣) وانظر

ابن الاثير ج ٧ ص ٣١ •

بيت المعتصم (خارج بغداد؟) وربته بنفسها •• واول ما يظهر اسم جعفر سنة ٢٢٧ هـ اذ ولاه اخوه اماراة الحج • ولكنه انحرف بعد ذلك عنه ، اثر حلم سمع الواثق ان جعفر رآه ، وفسره له بعض خاصته ، بأنه الخلافة^(١) • ويظهر ان جعفر قد اظهر شيئاً من الطمع بها ، لصغر سن ابن اخيه محمد، فحبسه أخوه : وضيق عليه ، حتى يئس منها ، لاسيما وقد مالأ رجال الدولة أخاه ضده ، وانحرفوا عنه •

بيعتة : على أن شغور سدة الخلافة ، دون ولي عهد شرعي مسمى، سمح — على ما يظهر — للأتراك بالتدخل • فاليقويبي يذكر ان أول من بايع (المتوكل) هو (سيما) التركي ، المعروف بالدمشقي • و(وصيف) التركي (•••) وركب الى دار العامة من ساعته • وأمر بإعطاء الجند عطاءهم لثمانية أشهر • «واتقى له أحمد بن أبي دؤاد لقبه (المتوكل على الله) في اليوم التالي • وقد كاد يلقب بالمنتصر بالله • ولنا هنا أن نخمن ائتمار الترك فيما بينهم ، واتفاقهم على اختيار جعفر للخلافة • وتأيدهم له ، حتى جاءه — كما يقول اليقويبي — فسلم عليه بالخلافة اولاد سبعة خلفاء مجتمعين •

سياسته : يطالعنا في المتوكل شخصية قوية حازمة ولكن في لين وإحسان ، تذكرنا بالمنصور تارة وبالرشيد تارة أخرى • ولكنه رغم محاولاته السياسية البارة لم يستطع ان يتغلب على عوامل الضعف في الدولة • فسقط في النهاية ضحية لها • وأبرز ما تميز به عهده :

آ — للمتوكل سياسة دينية خالف فيها اباه وعمه : وبالرغم من أنه لم يكن شديد التدين ، إلا أنه كان بادي التعصب لإسلاميته ، وللمذهب

(١) الطبري ج ٩ ص ١٥٥ (٣/١٣٧٠) •

(٢) اليقويبي ج ٢ ص ٤٨٤ •

السني خاصة^(١) . بدأ عهده بأن أمر بترك الجدل ، والاعتزال ، والرجوع إلى «التسليم والتقليد»^(٢) - كما قال المسعودي - وأمر الشيوخ المحدثين بالتحدث وإظهار السنة والجماعة «وأطلق من كان ألقى في السجون لعدم قولهم بخلق القرآن» وقد حمد الناس له هذه الخطوة ، وبالغوا في الثناء عليه حتى عدوه ثالث خلفاء ثلاثة في هذا الباب : ابي بكر يوم الردة ، وعمر بن عبد العزيز في رده للمظالم ، والمتوكل في إحياء السنة^(٣) .

غير أن تعصبه السني أدى به الى اضطهاد العلويين . ضرب بالسياط رجلا شتم ابا بكر وعمر وعائشة وحفصة حتى الموت^(٤) . وأمر سنة ٢٣٦ هـ بهدم قبر الحسين بن علي ، وما حوله من الدور ، وان يحرق ويذر ، ويسقى موضع قبره ، ويمنع الناس من اتيانه^(٥) . . . وكان ذلك . وقرب بالمقابل جماعة اشتهروا ببغض آل علي ، فكانوا - على رأي ابن الأثير -^(٦) يخوفونه من العلويين ، ويشيرون بإبعادهم . . . فجلبت عليه هذه السياسة سخط الكثير من الناس و «غطت هذه السيئة جميع حسناته » وقد بلغ في هذه الناحية الحد الذي جعله ينثر الدنانير

(١) يذكر السيوطي (تاريخ الخلفاء ص ٣٤٦) أنه كان شافعي المذهب وأنه اول من تمذهب من الخلفاء .

(٢) المسعودي ٤ ص ٨٦ .

(٣) السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٣٤٦ .

(٤) هجاه من اجل ذلك الشعراء وكتب شتمه على جدران بغداد وقال

(٥) الطبري ج ٩ ص ٢٠٠ - ٢٠١ (١٤٢٤ - ١٤٢٦) .

شاعر :

اسفوا على أن لا يكونوا شاركوا في قتله فتتبعوه رميماً

(٦) ابن الاثير ج ٧ ص ٥٥ و ٥٦ وانظر الطبري ٩ ص ١٨٥ (٣/١٤٠٧)

ويعطي ولاية البحرين واليمامة لشاعر (هو ابن أبي السمت) أنشده قصيدة في مدافعة حق العلويين بالخلافة^(١) .

ويبدو أن المتوكل أراد أن ينتهي مرة واحدة من مشكلة العلويين ومراقبتهم فقرر أن يجعلهم في مركز تجمع لهم يراقبهم فيه على ألا يكون فيهم هناك زعيم مرموق . ويبدو أيضا أنه اختار أولا تجميعهم في العراق تحت عيون وعند آذان أصحاب بريده الأقربين . وكتب بذلك إلى الآفاق وإلى مصر . يقول الكندي إن أمرا ورد منه سنة ٢٣٥ بإخراج الطالبين من مصر إلى العراق وفرض فيهم الأموال ليتحملوا بها فأعطى كل واحد منهم ثلاثين دينارا والمرأة خمسة عشر دينارا وفرقت فيهم الثياب ثم خرجوا (رجب سنة ٢٣٦) فقدموا العراق ٠٠٠» ولكن المتوكل كان قد بدل رأيه وخشي أن يكون العراق مجال اتصال أوسع لهم بكافة من يرد إليه من أنحاء الأرض فاختار تحويلهم إلى موطن مقدس منعزل: المدينة . فأمرؤا فوراً بالخروج إليها (شوال سنة ٢٣٦) على أنه في الوقت نفسه ماكاد يسمع أن علي بن محمد (الامام الهادي) هو البارز هناك وأنهم ينادونه بالامام حتى استقدمه إلى سامراء لإقامة إجبارية فيها منذ سنة ٢٣٣ وحتى موته ! ٠٠

وقد تناول المتوكل بتعصبه الديني اهل الذمة فأمرهم سنة ٢٣٥ هـ بلبس الطيالة العسيلة ، ومخالفة ألبسة المسلمين ، على رؤوسهم واوساطهم ، وبركوبهم البغال والحمير بسروج خشبية ، دون الخيل والبرازين . وان يسمروا على ابواب دورهم خشباً فيها صورة الشياطين .

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٣٠ - ٢٣١ (٣/١٤٦٥ - ١٤٦٦) .

(٢) الطبري ج ٩ ص ١٧١ فما بعد . وابن الاثير ج ٧ ص ٥٢ (حوادث) .

سنة ٢٣٥) .

ونهي ان يستعان بهم في الدواوين ، واعمال السلطات^(١) ، التي تجري احكامهم فيها على المسلمين . ثم امر ان تهدم الكنائس والبيع المحدثه للنصارى ، وان يمنعوا من العمارة !

ب - قاوم نفوذ الوزراء في الدولة وحاول القضاء على مساوىء الكتاب ومظالمهم بالمصادرة والنكبات وليس أكثر من الأمثلة على ذلك^(٢): كنسبة ابن الزيات التي بدأ بها عهده ، وابي داود ، ومحمد بن الفضل ، وابن الوزير ، ومحمد ابن اسحق ، والحسين بن اسماعيل ، ونجاح بن سلمة الكاتب وغيرهم . حتى لقد أضحت المصادرة نوعاً من الضريبة على كبار الموظفين . وقد كان يدفع المتوكل إليها كثرة نفقاته مع قلة الموارد . وقد وجد عنده^(٣) حين قتل أربعة ملايين دينار وسبعة ملايين درهم عدا ٤ آلاف جارية وما لم يحص من الثياب والسلاح والقصور والآلة ..

ج - كان المتوكل كثير الولع بالعمران . أنفق على بناء القصور في سامراء والمتوكلية ما يمكن أن ينسب معه إلى التبذير الشديد . وكان اذا عرض له مشروع فيه بعض العمران أو إحياء الموات أو صلاح أمر الناس قبله . فقد حاول شق فرع من دجلة إلى المناطق العالية من سامراء هو (الجعفري) ولكن كان مأساة هندسية فاشلة . وقد جعل سنة ٢٤١ كورة سميطة عشرية وكانت خراجية ليوسع على المحاربين هناك . وحاول تأخير الموعد لجباية الخراج إلى ما بعد نضج الزرع وهي مشكلة

(١) الكندي - الولاة والقضاة .

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٥ - ٤٨٦ و ٤٨٨ و ٤٨٩ والطبري ج ٩

ص ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٨٩ ، ١٩٨ ، ٢١٤ - ٢١٧ وابن الاثير ج ٧ ص ٣٩ وما بعد .

(٣) المسعودي - مروج الذهب ج ٤ ص ١٢٢ .

قائمة منذ العهد الأموي ولكن مقتله حال دون تنفيذ ذلك الاصلاح .
د - حاول التقرب من العامة بالبذل الشديد ، حتى أتفق ما في بيت المال في الصلات والعمارة ، وباللين والأنس حتى كان يعاون الخطاب في الطريق . يذكر السيوطي أنه قال ليزيد المهلبى : «إن الخلفاء كانت تتصعب على الرعية لتطيعها وأنا ألين لهم ليجوزي ويطيعوني ...»^(١) ويقول المسعودي : «لا يعلم أحد متقدم في جد ولا هزل إلا وقد حظي في دولة (المتوكل) ووصل إليه نصيب وافر من ماله» وكان هو نفسه منهمكا في الملذات والشراب» وله أربعة آلاف سرية ... وقيل «إنه لم تكن النفقات في عصر من الأعصار ولا وقت من الاوقات مثلها أيام المتوكل»^(٢) . وبالرغم من ان الناس حمدوا سياسته السخية العطوف حتى كتب المسعودي وغيره عن إيامه أنها كانت «في حسننها ونضارتها ورفاهة العيش فيها ورخص أسعارها وحمد الخاص والعام لها ، أيام سراء» مع «استقامة الملك وشمول الناس بالأمن والعدل» فكأنها كما قال بعضهم «اماني الحب وأيام الشباب » برغم هذا فان عمل المتوكل لم يكن اكثر من تديرير موقت فاشل ، لايقاف تدهور الدولة السياسي .

هـ - ولعل اهم ما حاوله المتوكل هو القضاء على نفوذ الترك . فقد ورثهم مع العرش . وهم يسيطرون على الجيش والادارة معا . فقتل بعضهم (كإيتاخ القائد) ثم تقرب من العامة ليتخلص منهم . كما تقرب من العرب ليتعصبوا له . وسعى لتفريق صفوف الترك . وحاول نقل عاصمة ملكه من سامراء الى دمشق ثم عاد الى سامراء ، فبنى بجوارها بلدة له ، سميت المتوكلية ... ولكن مساعيه اخفقت كلها لان الاتراك

(١) السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٣٥٢ .

(٢) المسعودي - مروج الذهب ج ٤ ص ١٢٣ وص ١٢٢ .

رغم اختلافهم كانوا يشعرون بمصلحتهم المشتركة وكانت هذه المصلحة تجمعهم . وقد ساعدتهم الخليفة في امر ولاية العهد ، وانقسام العائلة المالكة على نفسها ، فاتهى الأمر بائتمام ابنه معهم على قتله .

مصرعه : ائتمر الأتراك لقتل المتوكل اول مرة سنة ٢٤٣ وهو في دمشق . ولكنه نجا بيقظة قائده بغا الكبير ، والفتح بن خاقان^(١) ثم دبروا المؤامرة الثانية ، مع ابنه المنتصر ، الذي كان يخشى أن يحول أبوه ولاية العهد إلى أخيه المعتز فاتفق مع بعض قواد الترك مثل بغا الصغير وباغر على التخلص من أبيه . ونجحت المؤامرة . وقتل مع المتوكل فيها صاحبه الفتح بن خاقان (٤ شوال سنة ٢٤٧ - ١١ كانون الأول سنة ٨٦١) وكاد يذهب معهما الشاعر البحتري . وبدأ بذلك اليوم عهد الفوضى التركية .



- (١) انظر المسعودي ج ٤ ص ١٢٢ وانظر ج ٤ ص ٨٦ .
(٢) يفصل المسعودي (ج ٤ ص ١١٧ ثم ص ١١٨ - ١٢٢) قصة الاغتيال الفاشل ثم قصة الاغتيال الذي تم بعد ذلك .

الفصل التاسع عشر

الترك وسامراء

ابرز ما يلاحظ داخليا في فترة القلق (٢١٨ - ٢٤٧) التي ندرسها اضطراب الدولة بعنصر جديد : هو الترك ، أقيمت من أجله ، عاصمة جديدة • ثم انحطاط الجهاز الاداري في الدولة انحطاطاً عاماً • وأخيرا ظهور بعض الحركات الثورية التي كانت أشبه بتصفية للثورات الدينية والسياسية السابقة ، في العهدين الماضيين وإذا كانت المشاكل الادارية والثورات استمرارا وتطورا طبيعيا للعصر السابق فإن الجديد الذي طرأ على الدولة العباسية هو ظهور عصبية جديدة فيها أخرجتها عن خط سيرها الأول • وقد عبر هذا الانحراف الجديد عن نفسه بخروج الخلفاء عن عاصمتهم التقليدية إلى مركز ملك جديد •

١ - الاتراك عنصر جديد :

١ - قبل المعتصم : لعل تلك المنطقة البدوية ، المحصورة بين هضبة بامير ، وبحر الخزر ، وبين اطراف آرال ، وخراسان ، والتي ندعوها اليوم تركستان • وكان المسلمون يدعون بعضها باسم (ما وراء النهر) لعلها من المناطق القليلة في العالم ، التي كان أثرها في التاريخ واضحا كل الوضوح • (وأهم منها في ذلك جزيرة العرب ، ومثلها بوادي منغوليا وأطراف البحر البلطي) • وأول ما اتصل المسلمون بتلك المنطقة ايام فتوح الوليد بن عبد الملك ، وقائده قتيبة بن مسلم الباهلي • على ان

انتشار الاسلام في تركستان لا يدل إلا على قليل من النشاط في الدعوة .
وقد قاومه الامويون احياناً على ما يظهر في اواخر عهدهم (عدا عمر بن
عبد العزيز) كما قاومه السكان الترك انفسهم ، واتسمت مقاومتهم بكثير
من ضروب العنف والعناد - كما يقول آرنولد^(١) - حتى انه لم يجرأ
المسلمون على الظهور أعواماً طويلاً في المساجد . والاماكن العامة دون
سلاح . وحتى حرم على غيرهم حمله . ولم يكن بد من ان تقام العيون
على حديثي العهد بالاسلام . كما حاول المسلمون احياناً تألف قلوب
الترك ، بالمال ، ليحضروا صلاة الجمعة في المساجد . وسمحوا لهم حسب
ما يروي النرشخي في اخبار بخاري بقراءة القرآن باللغة الفارسية بدلاً
من العربية ليستطيعوا فهمه في سهولة ويسر^(٢) . يقول النرشخي : إن
قتيبة «... كان يأمر بمناد كل يوم جمعة يقول بأن كل من يأتي لصلاة
الجمعة اعطيه درهمين . وكان أهل بخاري في أول الاسلام يقرؤون
القرآن في الصلاة بالفارسية ولم يكونوا يستطيعون تعلم العربية...» .
على ان جمهور الناس (رغم جهود ابن عبد العزيز وهشام) لم
يدخلوا في الاسلام باعداد وفيرة حتى عهد المعتصم ، حين ظهرت العلاقات
الوثيقة بين بغداد وما وراء النهر . فهاجر الترك افواجاً لينضموا الى جند
الخلافة . وليس يعني هذا ان المعتصم كان اول من استجلبهم او استعملهم
فاننا نجد اشارات الى وجود اترك في الجيش العباسي قبل المعتصم
بكثير . وإن لنجد ذكر بعض الأتراك حتى في الجند الاسلامي ، منذ

(١) النرشخي - تاريخ بخاري ص ٧٤ وقد نقله آرنولد : الدعوة إلى
الاسلام ص ٢٤٣ .

(٢) انظر ياقوت - معجم البلدان ج ٣ ص ٢٥٦ والبلاذري - فتوح
ص ٥٠٧ والطبري ج ٥ ص ٢٩٨ (١٧٠/٢) .

العصر الأموي : فإن عبيد الله بن زياد أتى من بخاري بألفين كلهم جيد الرمي بالنشاب وأسكنهم سكة بالبصرة وفرض لهم العطاء وقد سميت السكة باسم سكة النجارية^(١) وقد دخل الاتراك كذلك في حرس الخلافة ونجد ذكرهم منذ عهد عبد الملك بن مروان حين أرسلهم لإخماد فتنة الحارث بن عبد الرحمن الدمشقي الذي ادعى النبوة بالقدس^(٢) ومن المعروف ان قتيبة بن مسلم ألزم أهل بخارى أن يمدوه بقوة تتراوح بين ألف وألفي رجل • كما أن نصر بن سيار سار في ما وراء النهر سنة ١٢١ بجيش كثيف من عشرين ألف من أهل بخارى وسمرقند وكش ونسف • وقد يكون بعض هؤلاء من الترك ••

أما في العهد العباسي فثمة نص أورده الثعالبي^(٣) يقول : إن أول من اتخذ الاتراك من الخلفاء المنصور : اتخذ حماداً ثم اتخذ المهدي مباركاً ثم اقتدى بهما الخلفاء وسائر الناس «•••» • وحماد التركي لدى المنصور كان المؤتمن الوحيد على السفط الذي وضع فيه الخليفة علمه ودفاته واسرار دولته فكان مفتاحه مع حماد • ثم يروي الطبري في حوادث سنة ١٧٠ ان طرسوس عمرت على يد ابي مسلم فرج الخادم التركي • ولكن لا شك ان عدد الاتراك لم يكن وفيراً • كما ان استخدامهم كان عن طريق الصدفة ، لا طبق سياسة مرسومة • ويبدو أنهم كانوا في عهد الأمين يكونون مجموعة واضحة في الجيش يدافعون معه عن بغداد إذ يقول الشاعر الخريمي (إسحاق بن حسان) :

(١) انظر ابن كثير - البداية والنهاية ٩ ص ٢٧ •

(٢) الثعالبي - لطائف المعارف ص ٢٠ •

بل هل رأيت السيوف مصلثة أشهرها في الاسواق شاهرها
والخيل تستن في أزقتها بالترك مسنونة خناجرها^(١)
وكانوا أيضا كذلك في جند المأمون ويروي الجاحظ أنه رأى في
بعض غزوات المأمون سماطي جند في جنبتي الطريق بقرب المنزل مائة
فارس من الأتراك في الجانب الأيمن ومائة من سائر الناس في الجانب
الأيسر وإذا هم قد اصطفوا ينتظرون مجيء المأمون وقد اتصف النهار
واشتد الحر . فورد عليهم . . . وجميع تلك الأخطا من الجند قد رموا
بنفوسهم الى الأرض . . .»^(٢) ولعلنا نضيف أن طولون الذي أسس
ابنه الدولة الطولونية كان حوالي سنة ٢٠٠ بين المماليك الذين أرسلهم ابن اسد
الصمامي احد عمال المأمون في خراسان فألحقه المأمون بحاشيته حتى صار
رئيس الحرس ولقبه أمير الستر وبقي في منصبه حتى عهد المعتصم
. . . وقد كان ذلك فيما يبدو نتيجة اهتمام المأمون باسلام ما وراء
النهر . فقد روى البلاذري أنه « كان يكتب إلى عماله على خراسان في
غزو من لم يكن على الطاعة والاسلام من أهل ما وراء النهر . ويوجه
رسله فيفرضون (أي يجندون وينجبون الفريضة والراتب) لمن رغب في
الديوان وأراد الفريضة من أهل تلك النواحي وأبناء ملوكهم ويستميلهم
بالرغبة فإذا وردوا بابه شرفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم»^(٣) وأشرك
فرسانهم في الحرس الخلفي . . .

ب - أيام المعتصم : على أن الجديد الذي أدخله المعتصم في

-
- (١) انظر القصيدة الطويلة التي تقع في ١٣٥ بيتاً حول حصار بغداد
لدى الطبري (ج ٨ ص ٤٤٨ - ٤٥٤/٣ - ٨٧٣ حتى ٨٨٠ .
(٢) الجاحظ - رسائل الجاحظ (فضائل الأتراك) ج ١ ص ٦١ .
(٣) البلاذري - فتوح البلدان ص ٥٢٨ - ٥٢٩ .

موضوع تجنيد الاتراك هو أنه — في الذي يرويهِ المسعودي^(١) — هو الذي «آثر من استحدث من غلمان الاتراك على المتقدمين من اوليائه ونصحائه وغالى في جمعهم حوله» أي جعل تقريبتهم وتجنيدهم سياسة له كما اقتصر في الاعتماد عليهم وحدهم دون غيرهم من الجند .

ويظهر من بعض أخبار اليعقوبي والطبري ان المعتصم استخدم الاتراك قبل الخلافة . فالطبري يذكر في اخبار سنة ٢٠٢ خروج مهدي ابن حلوان الحروري وتوجه ابو اسحق بن الرشيد لاختماد ثورته «... ومع أبي اسحق غلمان له اتراك» ويقدر اليعقوبي عدد غلمانه الاتراك زمن أخيه المأمون بزهاء ثلاثة آلاف غلام^(٢) . ويذكر الكندي (في الولاة والقضاة) انه لما ذهب إلى مصر كان معه أربعة آلاف غلام تركي «...» وربما كان لأمه التركية «آثر في تعرفه على هذه الجماعة الجديدة ، كما كان لحسن هيئات هؤلاء الغلمان وجمال صورههم وقاماتهم وشجاعتهم الساذجة أثر في تحبيهم الى قلب المعتصم .

فلما أفضت الخلافة إليه ألح في طلبهم واشترى من كان في بغداد من رقيق الناس ، وكان عبد الله بن طاهر يرسل إليه سنويا ألفي غلام تركي كجزء من خراج خراسان . كما أنه كان يشجع الاتراك ، في آسيا الوسطى ، على الانخراط في جيشه . فترك قسم منهم بلاده (كما يذكر بارتولد) وانضموا إليه . وكان إلى هذا كله يبعث إلى فرغانه وسمرقند والنواحي في شرائهم ويبدل فيهم الأموال ... ويظهر ان عامتهم كانوا من فرغانه وأشروسنة والصغد والشاش . وقد تجمع منهم لدى المعتصم ،

(١) المسعودي : التنبيه والإشراف ص ٢٠٧ .

(٢) اليعقوبي : كتاب البلدان (طبعة دي غويه — لندن سنة ١٨٩٢ :)

ص ٢٥٦ .

في رواية (غبيون) المؤرخ خمسون ألفا . وربما كانوا اكثر من ذلك^(١)
إذا صدقنا قول علي بن الجهم في مدح المعتصم :
أمامي منهم سبعون ألفا من الأتراك مسرعة السهام

وقد جعل المعتصم كل هؤلاء الأتراك في جيشه وفرسانه . وألبسهم
أنواع الدياج والمناطق الذهبية والحلية . وأبانهم بالزي عن باقي جنوده
وأفرد لهم بعد هذا ، قطائع خاصة في عاصمته الجديدة : سامراء . وذهب
في تمييزهم لدرجة ان «اشترى لهم الجواري فأزوجهم منهم - كما يقول
اليقوبي - ومنعهم من أن يتزوجوا أو يصهروا إلى احد من المولدين ،
إلى ان ينشأ لهم الولد ، فيتزوج بعضهم من بعض ، وأجرى لجواري
الأتراك أرزاقاً قائمة . وأثبت أسماءهن في الدواوين . فلم يكن احد
منهم يقدر ان يطلق امرأته ولا يفارقها»^(٢) .

ولفهم السبب في هذه السياسة المعتصمية ، نرجع بالعهد إلى
المأمون ، فنجد ان هذا الخليفة خيب أمل الخراسانيين بنكبته لبني سهل ،
وتركه مرو ، وقضى على آخر إمكانيات التعاون بين العباسيين والفرس .
هذا إلى ان العرب ، وهم أنصار الأمين ، ظلوا على الهامش في عهده ،
فلما صارت الخلافة للمعتصم ،التف قسم من العرب حول العباس بن
المأمون ، فوجد المعتصم ان يلجأ إلى ذلك العنصر الجديد ، الذي يحبه ،
كحل وحيد ، فيجعل منه الركن العسكري للدولة . لا سيما والدولة

(١) ناقشنا خطأ المسعودي حين يقدرهم قبل مسير المعتصم الى
سامراء بأربعة آلاف .

(انظر المسعودي ج ٤ ص ٥٣) .

(٢) اليقوبي البلدان ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

مهدة بثورة بابك ، وبخطر البيزنطيين على الحدود ، وبتدمير أهل الشام ومصر ، واضطرابات الزط في السواد . وكان بروز هذا العنصر الجديد ضربة سياسية عنيفة للعرب وقوادهم ظهر استيائهم منها في تلك المؤامرة الفاشلة التي ذهب ضحيتها العباس بن المأمون وعجيف بن عنبسة معا .

ولتقدير هذا الاتجاه الجديد في الدولة نذكر ان الترك كانوا إذ ذاك شعباً بدوياً ، ميزته الوحيدة شجاعته العسكرية . فهو لا يفهم الأسس المعنوية للدولة العباسية ، ولا خبرة له بالإدارة ، وليس له أي ثقافة . ويجب ان نلاحظ الفرق بين هؤلاء الاتراك ، وبين الفرس الذين اشتركوا في الحكم العباسي . فقد كان الايرانيون أمة متحضرة ، ذات أنظمة وتقاليد وأدب وتراث قديم ، ساعد العباسيين في الحكم . أما الاتراك فكانوا ، كما سماهم الجاحظ^(١) «بدو العجم» وقد بين أنهم «لا يميلون إلى صناعة أو زراعة أو ثقافة» والحق ان تأثير الاتراك كان «دوماً بربرياً لحد ما — كما ذكر براون^(٢) — ونادر أن شجع البحث الفكري الحر أو الثقافة الحرة» فتسلطهم على الخلافة العباسية كان تهديداً مباشراً لمؤسساتها ونظمها وثقافتها .

على ان الاخطار البعيدة التي نجمت عن تقريب الترك ، لم تظهر بوضوح زمن المعتصم ، ولو انه شعر الخيبة في مشروعة . وسبب ذلك أنه إنما استعمل الترك في الجيش فقط . وكان لهم من اعماله العسكرية الواسعة ، ومن قوته ، ما شغلهم عن مد الايدي إلى سياسة الدولة . فلم تلمع اسماءهم في غير الجيش . يقول شاعر الزط (يوم ثورة الزط) :

(١) براون تاريخ الادب الفارسي ج ١ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢) الجاحظ : مناقب الترك ص ٤٣ .

فاستتصروا العبد من أبناء دولتكم
من (يازمان) ومن (بلج) ومن (نوز)
ومن (شناس) و (افشين) ومن (فرج)
المعلمين بديساج وإبريسز

غير ان الخطيئة الحقيقية كانت خطيئة الواثق ، الذي فوض إليهم
إدارة الدولة ، وجمع لهم مابين القوتين الإدارية والسياسية ، وأرسلهم
إلى قلب الجزيرة العربية ، لضرب الثوار العرب •

ح : صراع المتوكل مع الاتراك : فلما جاء المتوكل بدأ النضال
معه • وكانت خلافته نوعاً من الصراع الصامت ، الخفي حيناً ، والصريح
أحياناً ، ضد الترك • وبالرغم من انهم اختاروه للخلافة ، إلا انا نلاحظ
ان اشتراك كبار رجال الإدارة معهم ، في ذلك — كما يذكر الطبري —
(كابن أبي داؤد وابن الزيات وعمر بن فرج الكاتب الخ...) قلل من
خطر التجربة ، ولكنه سجل لهم بادرة خطيرة • ولم يمنع من اصطدام
خليفة قوي ، كالمتوكل بنفوذهم المتعاضم : كجماعة مسلحة •

وقد مشى المتوكل في مقاومته للترك بخطى بطيئة : بدأ بإيتاخ •
وكان اليه الجيش والمغاربة والاتراك والموالي والبريد والحجابة ودار
الخلافة ، أي إليه تصريف الدولة ، وكان لا يتردد عن إظهار غروره بذلك •
فدبر له الخليفة من حسن له الحجج^(١) • وحول المتوكل ، في غيابه ،
الحجابة إلى وصيف التركي • ثم دبر له مؤامرة ، والي بغداد ، فسجنه
عند رجوعه • ومات في السجن بعد أشهر • وكانت بغداد أنسب مكان

(١) يذكر اليعقوبي أن إيتاخ كان دبر مؤامرة على المتوكل ففشلت
فطلب الاذن له بالحج (ج ٣ ص ٤٨٥) • وقارن مع الطبري ج ٩ ص ١٦٦ —
١٦٧ (١٣٨٣/٣) •

للمؤامرة عليه لبغض أهلها للترك ، ولبعد إيتاخ فيها عن أنصاره «ولو لم يؤخذ ببغداد - بشهادة الطبري - ما قدروا على أخذه ولو دخل سامراء فأراد بأصحابه قتل جميع من خالفه أمكنه ذلك»^(١) .

ثم حاول المتوكل تغيير عاصمته ، إلى دمشق ، ففشل - كما سنرى - فعاد إلى سامراء . وأمر ببناء مدينة خاصة له ، شمال سامراء . واستمر يدبر ضد الترك . قال المسعودي : «وجفا الموالي من الأتراك واطرحهم وخط مراتبهم وعمل على الاستبداد بهم والاستظهار عليهم»^(٢) . وقد خطا خطوة عملية في ذلك بأن أدخل فرقة عربية في الجيش ، إذ ضم إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان «نحواً من اثني عشر ألفاً من العرب ، ومن الصعاليك ، وغيرهم برسم المعتز . وكان في حجره» و«أخذ يجيل الآراء في استئصالهم (الترك)» وحاول تشتيت زعمائهم فقبض أملاك (وصيف) وأقطعها للفتح بن خاقان . وعزم على الفتك بوصيف وبغا . وحسب أنه قد نجا منهم في البلد الذي ابتناه ، وانتقل إليه . ولكن الترك استغلوا خلافه مع ابنه المنتصر فعاجلوه وقتلوه . وسجلوا بذلك أول نصر حادي رسمي لهم على كرسي الخلافة العباسي .

ومنذ مقتل المتوكل ، أخذ الترك يلعبون في الدولة العباسية ، ذلك الدور لعبه الحرس البريتوري في روما من قبل ، والانكشارية في السلطنة العثمانية من بعد . ولهذا يمكن أن نعتبر تفاقم نفوذ الأتراك مبدأ انحلال الدولة إذ أنه بالرغم مما أخذ من نزاع العرب والفرس ، والعلويين

(٢) الطبري ج ٩ ص ١٦٩ (٣/١٣٨٥) .

(١) المسعودي التنبيه والإشراف ص ٣١٢ .

والعباسيين ، فإنه أضعف سلطة المركز في الدولة ، وذهب بهية الخلافة ،
في امبراطوريتها الواسعة : فظهرت الدول الصغيرة في الولايات •

ولعل من أهم النتائج المباشرة التي تترتب على عمل المعتصم ،
بادخال الاتراك في الدولة ، مشكلة البحث عن عاصمة جديدة سواء في
زمن المعتصم ، أو في زمن المتوكل •

٢ - عاصمة جديدة (سامراء) :

قصة سامراء من أغرب وأمتع قصص المدن في التاريخ : هي قصة
أرض قفر تضحي في سنوات معدودة اكبر مدينة في العالم وعاصمة لأكبر
امبراطورية : تنمو نموا لم يعرفه التاريخ إلا في بعض مدن العالم الجديد
(تحت ضغط بعض الظروف الصناعية في القرن الماضي) ثم تنطفيء فجأة
بعد نصف قرن فيعود الهدوء والعنكب الى المكان ويقفر كأنما حلست
البيد حلماً هناك ... وانقضى الحلم •

١ - سبب البناء : ولم يكن قد انقضى على بناء بغداد قرن واحد ،
حين برزت لخطر المعتصم فكرة بناء مدينة جديدة ، لا عن حاجة في بني
العباس الى عاصمة ، ولكن لأن اتجاهاً جديداً (تركياً) كان يبرعم في
الدولة : فالحل الذي وجده المعتصم لجهاز الحكم ، في اصطناع الاتراك ،
أدى به إلى حل آخر هو الانفراد بهم في مكان خاص جديد • ولعلنا نذكر
أن المعتصم لم يكن أول خلفاء العباسيين تفكيراً في الخروج من بغداد
فبعد أن كانت للمهدي عاصمته (الرصافة) منذ أيام المنصور حاول الرشيد

(١) الفخري ص ٢١٠ •

أكثر من مرة الخلاص من بغداد... أما أسباب المعتصم فكانت مختلفة:
آ - فقد ضاقت بغداد بالجنود الجدد . يقول ابن قتيبة صاحب
عيون الأخبار : «ان المساكن والطرق ضاقت على الناس ببغداد لكثرة
العساكر التي تجمعت على المعتصم» ويروي مثل ذلك الفخري^(١) .

ب - وزاد في الوقت نفسه ادلال الترك بمكاتتهم وسوء معاملتهم
للناس . ويروي الطبري^(٢) انهم كانوا « عجماً جفاة يركبون الدواب
فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأء ويطؤون
الصبي... حتى ضج منهم الناس . فكان يشب عليهم الغوغاء ، فيقتلون
بعضاً ، ويضربون بعضاً . وتذهب دماؤهم هدرأ... » وقد شكوا
البغداديون مر الشكوى من ذلك . حتى كانوا يلقون المعتصم بها في
الطريق .

ج - وسخط الناس الى هذا ، على المعتصم لتقريبه الترك . فعدا
الخليفة يخشى أهل بغداد . قال مرة لآحمد بن أبي خالد : اني اتخوف
ان يصيح بي هؤلاء الحريسة (سكان الحي الشمالي الغربي من بغداد)
فيقتلوا غلمان^(٣) .

د - وسخط جند بغداد على منافسيهم الجدد . فاستراب المعتصم
منهم . وقال ، في الذي يرويه الفخري «... اطلبوا لي موضعاً أخرج
إليه . واجني فيه مدينة واعسكر به . فإن رابني من عسكر بغداد حادث،
كنت بنجوة . وكنت قادراً على أن آتيهم في البر وفي الماء» .

(١) الطبري ج ٩ ص ١٨ (٢/٣ - ١١٨١) واليعقوبي - البلدان
ص ٢٥٦ .

(٢) وانظر الطبري ج ٩ ص ١٧ (٣/١١٧٩) وتقرأ أحياناً كلمة الحزيمة
(وهو خطأ) بدلا من الحربية .

(٣) الفخري - ص ٢١٠ .

ب - مكان المدينة : وهكذا تقرر التفتيش عن مقر خلافي جديد:
فأراد المعتصم أولاً البناء بالشماسية • (شمالي رصافة بغداد) ثم تركها
لضيق المكان ، وقربه من بغداد • واقتراح الفضل بن مروان البناء
بالبردان • فلم يستحسنه المعتصم ، ثم قدر مكاناً آخر عند باحشا •
ثم عزم على ان يقيم عاصمته على نهر القاطول ، ويكون البناء عليه حتى
نهر دجلة • وبدأت بالفعل أعمال البناء • «وكان هناك قرية يسكنها
خلق من الجرامقة وناس من النبط على النهر ... فبنى (المعتصم) هناك
قصرأ وبنى الناس وانتقلوا من مدينة السلام»^(١) واختطت الأسواق •
وارتفعت الجدران • ولكن الخليفة أمر بالتوقف عن العمل لصعوبة
الأرض وضيقها ... وخرج يتقري موضعاً جديداً إلى الشمال ، فوجد
الموضع المنشود في سامراء على بعد ١٣٠ كم رأساً من شمال بغداد ،
و ١٧٥ كم من دجلة • على الضفة الشرقية منه •

وقد اثبتت حفريات الاثري هرزفيلد ، في بعض أطراف سامراء ،
ان هذا المكان مأهول منذ العصر الحجري الحديث • فقد وجد فيه
فخاريات تعود إلى «عصر حلفا» (٥٠٠٠ - ٤٥٠٠ ق م) ويظهر أنه استمر
مأهولاً بعد ذلك • وكان له شأنه أحياناً • فاسم الموضع يمر في العصر
الروماني ، كما يمر في مطلع العصر الاسلامي • وحين وصله المعتصم لم
يكن به سوى دير لبعض الرهبان^(٢) فلما استحسنه وعزم على البناء فيه

(١) المسعودي - مروج الذهب ج ٤ ص ٥٣ وقد أزرى بعض العيارين
على المعتصم انتقاله هذا فقال :

أيا ساكن القاطول بين الجرامقة تركت ببغداد الكباش البطارقة
(٢) يروى انهم حادثوه وتنبأوا له ببناء في ذلك الموضع (مروج ٤ ص ٥٣)

اشترى الدير بأربعة آلاف دينار وبنى في مكانه نفسه على ما يظهر من قول اليعقوبي (دار العامة) أي قصر الخلافة ومن حوله تلك المدينة •

واسم سامراء قديم دون شك • وليست الجملة التي تذكرها بعض الكتب ، كاسم لمدينة المعتصم (سرور من رأى) او (سر من رأى) او (ساء من رأى) فيما بعد • • ليست هذه الجملة بالأصل الذي نحت عنه اسم سامراء • ولكنها جملة اشتقها الناس إذ ذاك ، من اسم الموضع • ولم تجر عادة العرب ولا غيرهم بتسمية المدن بجملة • والمسعودي يذكر ان سبب التسمية يرجع الى سام بن نوح الذي بنى البلدة فنسبت إليه وسميت (سام راه) بالفارسية • • وقد لا نستفيد من هذه القصة الاسطورية سوى ان الموضع قديم السكنى وقديم الاسم أيضاً • والمستشرق (وايل) أشار إلى ورود اسم حصن فارسي : قلعة سومري في موضع سامراء بمناسبة تفهقر جيوش الرومان أثر مقتل جوليان سنة ٣٦٣ م • ويؤيد هذا نص ذكره حمد الله المستوفي (٧٤٠ هـ - ١٣٤٠ م) وقال فيه ان سابور ذا الاكتاف (+ ١٧٩ م) هو منشيء مدينة سامراء •

وقدم البناء في الموضع ، ووجود حصن قديم فيه ، يعلل لنا سبب اختيار المعتصم له : فالواقع ان المكان المختار مرتفع عن دجلة • فهو آمن من الفيضان • وارتفاعه هذا ، مع احاطة الماء به ، يجعله مكاناً حصيناً من الوجهة الحربية^(١) • عدا أنه ممكن الري والسقيا بالجداول التي تتفرع عن دجلة ، قبيل وصوله إليه • ويضاف إلى هذا قربة من بغداد • وعدم خروج مركز الخلافة من العراق •

(١) هو نفسه النهروان الذي كان تحصن به سنة ٣٨ الخوارج اول ظهورهم في عهد علي بن ابي طالب •

ج - تخطيط سامراء : شرع المعتصم بتخطيط عاصمته سنة ٢٢١ هـ فكتب «في إشخاص الفعلة والبنائين وأهل المهن ، من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات» كما يقول اليعقوبي^(١) . فوضع أساس قصره . ووزع القطاعات على جنده . وعين أماكن الأسواق والبساتين الخ ويلاحظ في البناء :

أولاً - ان المعتصم لم يؤكد على بناء الأسوار للمدينة ولا الحصون . وذلك لاطمئنانه ، وثبوت أركان الدولة العباسية . وانما توجهه بكل همه ، إلى العمارة ، وتعيين قطائع الجند والأسواق .

ثانياً - اهتم المعتصم بفصل الجيش وداوين الدولة عن السكان . كما اهتم بفصل فرق الجيش بعضها عن بعض ويتوسط كل فرقة قائدها . فجعل للاتراك قطائع خاصة . وقطائع أخرى لغلمانهم من خراسان (الاشروسنية ؟) . وقطائع لأهل الحوف العرب وهم من عرفوا في جيش المعتصم باسم المغاربة . ويضيف المسعودي^(٢) انه «جاور الاتراك بالفراغة والاشروسنية وغيرهم من مدن خراسان (لعله يقصد مما وراء النهر) كل على قدر قربهم منهم في بلادهم . ولكن يظهر ان هذا غير واقع . فقد ظهر في الآثار^(٣) والاخبار على السواء ، أن المعتصم أقطع اشناس وأصحابه في آخر البناء من الشمال ، في الموضع المعروف بالكرخ (كرخ سامراء) وأقطع آخرين فوق ذلك وسماه الدور . بينما أقطع

(١) اليعقوبي البلدان ص ٢٥٨ .

(٢) المسعودي ج ٤ ص ٥٤ .

(٣) لا يزال (سور اشناس) قائماً هناك من اللبن بعلو خمسة

أمتار .

الافشين الاشروسي في آخر البناء جنوباً • وسمي الموضع المطيرة • وأقطع أصحابه الاشروسية والمضمومين إليه مواضع خولة • وقد آلت الدار بعد مصرع الافشين إلى وصيف التركي • وصيرت قطائع الاتراك جميعاً والفراغنة والعجم بعيدة من الاسواق والزحام، في شوارع واسعة، ودروب طوال ، ليس معهم في قطائعهم ودورهم أحد من الناس ، يختلط بهم ، من تاجر ولا غيره^(١) •

أما معسكرات الجيش الكبرى وثكناته واصطبلاته ، فقد جعلها إلى جنوب المدينة • وعلى الضفة الغربية من دجلة • ولعله اختار المكان لاتساعه ، ولوقوعه على طريق بغداد • وكان نهر الاسحاق يغمر المنطقة بالماء ، فيتوفر المرعى الاصطناعي للخيول • وقد كانت الثكنات تتسع لربع مليون جندي • وأما الاصطبلات فتقدر خيولها بحوالي ١٦٠ ألف حصان •

ثالثاً — عناية المعتصم بعمران البلد الاقتصادي :

فأما في الزراعة : فقد اهتم بزراعة القسم الغربي من دجلة • تجاه المدينة • فحفر الترعة فيه وشق هناك نهر الاسحاق • (الذي كان يروي في الوقت نفسه منطقة الاصطبلات) وحمل إليه الغروس من كافة البلدان • وشجع قواده ورجاله على المساهمة في الزرع • فأعطى كل قائد عمارة ناحية • وعمل على استقدام المهرة ، في الزرع والنخيل والغرس زهندسة المياه ووزنه واستتباطه والعلم بمواضعه من الارض • وزكت الأثمار والزرع لاستراحة الارض الوف السنين ، فبلغت غلة عمارات نهر

(١) اليعقوبي البلدان ص ٢٥٨ — ٢٦٣ •

الاسحاقي ، وما عليه من قرى ... اربعمائة الف دينار في السنة^(١) » .

وأما في الصناعة : فقد حرص على أن تكون عاصمته مجعاً للصناعات المعروفة . فاستقدم - حسب رواية اليعقوبي - من كل بلد ، من يعمل عملاً من الأعمال ، او يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع ... وفي حملة الرخام وفرشه ، فأقيمت في اللاذقية وغيرها دور صناعة الرخام . وحمل من مصر من يعمل القراطيس وغيرها . وحمل من البصرة من يعمل الزجاج والخزف والحصر . وحمل من الكوفة من يعمل الأدهان . ومن سائر البلدان من أهل كل مهنة وصناعة^(٢) . » .

وأما في التجارة : « فوسع صفوف الاسواق . وجعل كل تجارة منفردة . وكل قوم على حديثهم ، على مثل ما رسمت عليه اسواق بغداد . وعمل شارعاً على دجلة (شارع الخليج) جعله رصيفاً ومرسى لسفن التجارة ، التي ترد من بغداد وواسط ... وسائر السواد والبصرة والابلة والاهواز وما يتصل بذلك . ومن الموصل وبعربايا وديار ريعة وما اتصل بذلك^(٣) . »

د - عني الخليفة بتخطيط المدينة وتقسيمها تقسيماً عسكرياً - اجتماعياً معاً (يتناسب مع كونها معسكراً أولاً ومركزاً حضرياً ثانياً . فجاء مخططها امتداً على ضفة دجلة الغربية زهاء أربعة فراسخ (١٩ كم) ، ويدل التخطيط على براعة فائقة في الهندسة ، وعلى كثير من الابتكار ،

(١) اليعقوبي البلدان ص ٢٦٣ ص ٢٦٤ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٥٨ ، ٢٦٠ و ٢٦٣ وص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

يتجلى في شق عدة شوارع متوازية ، على طول النهر ، يتصل بعضها ببعض بدروب عدة عن يمين ويسار ، وفي توزيع الابنية العامة والأسواق والمتاجر والمساجد والمساكن والأرصعة وغيرها • وأهم شوارع المدينة بعد شارع الخليج ، الذي على دجلة ، ذلك الشارع الآخر الموازي له ، والذي عرف أولا بشارع السريعة ، ثم سمي الشارع الأعظم • وكان يمتد في عهد المعتصم (١٩) كم من الجنوب إلى الشمال بعرض (٢٠٠) ذراع • ويوازيه شارع آخر اسمه شارع أبي أحمد ، في شرقه • ثم شارعان آخران في الشرق أيضا : شارع الحير وشارع برغامش التركي • وقد سمي لنا ياقوت في معجمه سبعة عشر قصرا بناها المعتصم والمتوكل في سامراء • ويقول بارتولد : ان هذه القصور كانت نموذجا للقصور ، التي بنيت فيما بعد ، في البلاد الواقعة بين بخارى شرقا ، وقرطبة غربا • ومن أهم تلك القصور (دار العامة) وهو بيت الخلافة • وقصر الجوسق على دجلة • وقصر لؤلؤة (وهو السجن السياسي) بجانبه • ثم قصر الهاروني الذي بناه الواثق • هذا إلى ما أقيم في سامراء من حائر الحير (السور) • ومن المسجد الجامع ، ومن حلبات السباق الثلاث •

د - مراحل البناء : وقد تطورت سامراء تطورا كبيرا بعد عهد المعتصم ، في زمن المتوكل خاصة • مما يحملنا على تقسيم بنائها إلى مرحلتين :

آ - مرحلة المعتصم وقد وضعت فيها كل أسس المدينة وأبنيتها الأولى • ويظهر أن الناس لم يكونوا واثقين من المدينة ، أول الأمر • فيذكر اليعقوبي انهم كانوا يسمونها (العسكر) فلما كان عهد الواثق جدد الناس البناء ، وأحكموه وأتقنوه ، لما علموا انها قد صارت مدينة عامرة •

ب - مرحلة المتوكل وهي مرحلة العمران الحقيقية • يقول ياقوت في معجمه : « ولم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى ، من الابنية الجلييلة • مثل ما بناه المتوكل • فمن ذلك : القصر المعروف بالعروس ، أنفق عليه ثلاثين ألف درهم • والقصر المختار (٥ ملايين) والوحيد (مليونين) والجعفري المحدث (١٠ ملايين) والغريب (١٠) والشيدان (١٠) والبرج (١٠) والصبيح (٥) والمليح (٥) وقصر بستان الإيتاخية (١٠) والتل علوه وسفله (٥) والجوسق (١/٢) والمسجد الجامع^(١) (١٥) وبركوان للمعتر (٢٠) والقلائد (١٢٥) وجعل فيها أبنية بمائة ألف دينار (٢٥٠) والفرد على دجلة الخ • • • هذا عدا حير الوحوش العظيم ، وعدا البركة الكبرى (بركة البحري) أمامه • على ان كل هذا الإتفاق والعمران ، كان على ما يظهر ، في السنوات العشر الأولى من حكمه ، قبل أن تختمر في ذهنه فكرة الهرب من سامراء إلى بلد آخر • • • وهكذا كانت دمشق هي الحل الموقت قبل أن يقرر بناء بلد جديد لم يعمر أكثر من سنة واحدة • وهو :

ه - عاصمة المتوكل (التوكلية) :

١ - البحث عن عاصمة ثالثة (دمشق) : عاد المتوكل بسبب بغض الترك والريبة منهم ، يفتش عن ملجأ ومهرب منهم ، أي عادت (١) لكي تكون فكرة عن ضخامة هذا المسجد نشير الى انه يبلغ ٢٤٠ م x ١٥٨ م ويستغرق صحنه الداخلي مساحة ٤٤ الف م^٢ (بينما ساحة كنيسة القديس بطرس بروما لاتزيد عن ١٥ الف م^٢ وصحن ايا صوفيا في استامبول عن ٢٦٩٠٠ م^٢) وفي هذا دلالة كافية ليس فقط على عظمة المسجد ولكن على كثرة سكان سامراء في ذلك الوقت • وأهم ظاهرة بنائية فيه مئذنته الملوية المشهورة وقد رفعها لترى عن بعد فراسخ ولسماع الأذان منها • ويرى المستشرقون انها بنيت على طراز «الزقرات» البابلية القديمة •

مشكلة البحث عن عاصمة جديدة إلى الوجود • ولقد كان للمعتصم عصبية تركية فبنى لها بؤرة • أما المتوكل فكان في سبيل البحث عن عصبية ، وعن عاصمته معاً • أما مقامه في سامراء ، التي بنيت للترك ، فيجعله في قلق دائم ، إن لم يجعله تحت النفوذ التركي • ولذلك اختار العرب عصبية له ، مبدئياً • ولعل بروز النفوذ الفارسي في بغداد ، حوّلته عن التفكير بالعودة إليها • فاختار ترك العراق كله ، إلى الشام ، واتخاذ دمشق عاصمة له كانت هي الحل عنده • واليعقوبي^(١) يعلل ذلك بحسن جوها وبأنه « ... وصف له برد هوائها وكان محرورا ... » ولكن التعليل الحقيقي يمكن أن يستمد من سياسته المناوئة للترك والفرس ، وللعلويين ، وللاعتزال : فدمشق عربية ، بعيدة عن التأثيرين الفارسي والتركي • وهي إلى هذا تتعصب ، كالمتوكل ، للسنّة ، وتبغض مثله في ذلك الوقت ، العلويين •

وكتب المتوكل « إلى محمد بن أحمد بن مدبر ، يأمره باتخاذ القصور واعداد المنازل وكتب في إصلاح الطريق وإقامة المنازل والمرافد ... » وسار من سر من رأى أواخر سنة ٢٤٣ فوصل دمشق أوائل سنة ٢٤٤ (قضى في الطريق ثلاثة أشهر) وأقام في القصور الدمشقية ، وفي داريا خاصة • ثمانية وثلاثين يوما ، أنشده فيها البحري أبياتا فيها معنى ، ومنها :

قد رحلنا عن العراق	وعن قطبها النكد
حبذا العيش في دمشق	ق إذا ليها برد
سفر جدت لنا اللهو	أسبابه الجدد
عزم الله للخليفة فيه	على الرشد ...

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٩١

ولكن سرعان ما تبين للمتوكل خطأ هذا الحل السلبي في الهرب :
إذ ترك العراق شاغرة لشغب الجند التركي ، عدا ان الاتراك ائتمروا به
في الشام أيضا ، أي أنه لم يتخلص منهم ، فادعى انه « استوبأ البلد »
وذلك « ان الهواء فيها بارد وندي • والماء ثقيل والريح تهب فيها مع
العصر فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل • وهي كثيرة البراغيث »^(١)
وغلت فيها الاسعار « وحال الثلج بين السابلة والميرة »^(٢) وهذه
مبررات وذرائع التمسست دون شك ، لتخفي السبب الحقيقي • فواقع
الحال ان المتوكل لم ينزل بدمشق نفسها ولكن بينها وبين داريا في
جنوبها « على ساعة من المدينة في أعلى »^(٣) الارض » كما يقول المسعودي
(وقد ذكر ذلك البحري في شعره) يشرف على المدينة والغوطة ويذكرون
برودة الهواء واكتناف الثلج للبلد ، مع ان المتوكل نزل بين صفر وربيع
الثاني (مايس وتموز) أي في وسط الصيف !

والسبب الحقيقي هو أن دمشق ، التي كانت لا تزال تحمل الطابع
والذكريات الاموية ، كانت بعيدة عن أولئك الذين كانت تشور ربيهم
منها ، من العباسيين ، والذين كانوا يتركزون في بغداد ، وقد يتآمرون
فيها • كما أن دمشق عاجزة عن أن تراقب تلك القوى التركية المشاغبة
في سامراء • ولعل المتوكل لم يجد ، في مدينة الأمويين ، الترحاب الذي
يجعله يأمل بتكوين عصبية له فيها ، تسانده وتدفع عنه : وتكون من
القوة بحيث تقف معه للمتنافسين في العراق ، من فرس وترك خاصة •
إن ما « استوبأه » المتوكل في البلد لم يكن « الجو الطبيعي » ولكن
« الجو السياسي » •

(١) الطبري ج ٩ ص ٢١٠ (١٤٣٦/٣) •

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ٨٥ (حوادث سنة ٢٤٤) •

(٣) المسعودي ج ٤ ص ١١٥

ب - بناء المتوكلية : وعلى أي حال فقد تحمل المتوكل من جديد الى سامراء • ولكنه حين وصلها ، لجأ إلى حل آخر مشتق من الأول • فأمر سنة ٣٤٥ بيناء (الجعفرية) شمالي سامراء ••• وعرف الناس انه يهرب من الترك ، بل انهم أشاعوا أنه اعتزم الفتك بهم • اما المتوكل فأعلن انه يريد - على حد قول اليعقوبي - « بناء مدينة تنسب إليه ، ويكون له بها الذكر »^(١) وقال حين تم البناء « الآن علمت انني ملك • إذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها » • ومن الواضح ان المتوكل إنما يعني بهذا استقلاله وخلاصه من ضغط الترك !

أمر المتوكل « محمد بن موسى المنجم ومن يحضر بابه من المهندسين باختيار موضع لمدينته ، فوق اختيارهم على موضع يقال الماحوزة » على ثلاثة فراسخ (١٥ كم) من شمالي سامراء يمد إليه الماء ، من نهر يشق إليه من دجلة • وقدرت نفقات البناء بما في ذلك حفر النهر^(٢) بألف ألف وخمسمائة ألف دينار • فطاب المتوكل نفساً ورضي به • وهكذا أقيمت « المتوكلية » أو « الخاصة المتوكلية » (يرد الاسم في قصائد البحري وفي الطبري على هذا النحو • واليعقوبي يذكر أن المتوكل سماها الجعفرية) « وجمع القراء (في المكان) فقرأوا وحضر أصحاب الملاهي

(١) اليعقوبي - البلدان ص ٢٦٦

(٢) يفهم من الطبري ان تكاليف بناء المتوكلية كانت فيما قيل أكثر من مليوني دينار • أما ياقوت فيجعل هذا الرقم لحفر النهر وحده : وقد أخذنا بما يفهم من اليعقوبي لانه معاصر ، ولانه يذكر في موضع ثان من كتابه البلدان ان تكاليف حفر النهر بلغت « شبيهاً بالف الف دينار » • بينما يجعل الطبري تقدير نفقات النهر مائتي الف دينار وقد تولاه ابن يعقوب النصراني كاتب بغا التركي •

(٣) الطبري ج ٩ ص ٢١٢ (١٤٣٨/٣ - ١٤٣٩) •

فوهب لهم ألفي درهم ٠٠٠ « استمر البناء سنة وبعض السنة ،
كان المتوكل خلالها يشرف بنفسه على البناء • وتم بذلك بناء قصور
الجعفري الفخمة ، وقصر لؤلؤة الذي لم ير أعلى منه ، وعدة قصور
أخرى ابتكر فيها المتوكل مخططا خاصا في البناء (على هيئة الحرب)
عرف باسم الحيري • واتبعه الناس من بعده • كما بنى المسجد الجامع
المعروف بجامع أبي دلف ، مع ملوئته •

ولتسهيل المواصلات بين المتوكلية وسامراء شق بينهما شارع
أعظم يتصل بالشارع الأعظم من سامراء بطول ثلاثة فراسخ (١٥ كم)
« وجعلت الأسواق في موضع معتزل • وجعل في كل مربعة وناحية
سوقا » واتصل البناء من المتوكلية الى الكرخ بشمالي سامراء ، على
طرفي الشارع الأعظم « ليس بين شيء من ذلك فضاء ولا فرج ولا موضع
لا عمارة فيه • فكان مقدار ذلك سبعة فراسخ (٣٤ كم) ، وانتقل المتوكل
الى بلده الجديد في مطلع سنة ٢٤٧ هـ ونقل اليها الدواوين ، ديوان
الخراج والضيايع والزمّام والجند والشاكرية وديوان الموالي والعلمان
وديوان البريد وجميع الدواوين ٠٠٠ » (١) •

إلا أن النهر (الجعفري) لم يتم أمره • وكان « مأساة هندسية
قاشلة » كما يقول الدكتور الدوري اذ كان خفره صعبا جدا اشتغل به
اثنا عشر الف عامل (٢) وانفق عليه مليون دينار ، ولكن « لم يجر الماء
فيه إلا جريا ضعيفا » (٣) ولعل فشل هذا المشروع كان من أسباب
هجر البلدة وشيكا •

(١) اليعقوبي البلدان ص ٢٦٧

(٢) الطبري ج ٩ ص ٢١٢ (١٤٣٩/٣) •

(٣) اليعقوبي - البلدان ص ٢٦٧

اتفق المتوكل على أعماله العمرانية ، التي كان مولعاً بها • مبالغ باهظة (الجعفري ٥٠ مليون درهم والبهو ٢٥ مليون واللؤلؤة خمسة ملايين) وقد فصل ياقوت ما أنفقه المتوكل فبلغ مجموع ذلك مائتين وتسعين مليون درهم أي ١٢ مليون دينار تقريباً (كان الدينار في عهد المتوكل بخمسة وعشرين درهماً) ويقول المسعودي : « قيل أنه لم تكن النفقات في عصر من العصور مثلها في أيام المتوكل » •

ولنلاحظ ان هذه النفقات الباهظة تدل على مقدار ثروة الدولة إذ ذاك • كما ان اتفاقها كان من العوامل التي أضعفت مركز الخلفاء المقبلين وجعلتهم آلات بيد الاتراك •

ولم يهناً المتوكل أكثر من تسعة أشهر وثلاثة أيام في مدينته ، ثم قتل • وجاء ابنه المنتصر وأمر الناس جميعاً بالانتقال عن « الماحوزة » وان يهدموا المنازل ، ويحملوا النقض الى سر من رأى • فانتقل الناس... وخربت قصور الجعفري ومساكنه وأسواقه في أسرع مدة^(١)... •

وعاد الروثق إلى سامراء من جديد التي بلغ اتساعها (٣٤ كم في الطول وما بين ٣ - ٤ كم في العرض) حوالي ١٦٧ كم^٢ • وإذا أضفنا اليها المعسكرات (٥ كم^٢) دون البساتين والقصور في غربي دجلة ، بلغ ذلك مرة ونصف المرة من مساحة القاهرة الحالية مع مصر الجديدة ، وقاربة اربع مرات من مساحة بغداد الحالية او دمشق • ولم يكن بالغريب بعد ، ومع هذه السعة وذلك العمران حق ان يقول ياقوت عنها انها « صارت أعظم بلاد الله » وأن يحكم القزويني وياقوت معاً بأنه « ولم يكن من الأرض أحسن ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملكاً منها » •

(١) اليعقوبي - البندان ص ٢٦٧

الفصل الثامن

مشاكل الحكم

تبدأ هذه المشاكل في البلاط نفسه ، وتظهر بعده في مختلف نواحي الادارة والحكم . ومعظمها لم يكن بدءاً . ولا جديداً على الدولة . وقد جرى مثله في مختلف عهود الخلفاء العباسيين السابقين ، ولكن فتوة الدولة إذ ذاك قضت عليه وعلى مضاعفاته ، بينما مهدت الظروف الآن - بالمقابل - لتلك المشاكل كي تهدم الدولة .

ويجب ان نلاحظ أن معظم المشاكل والمساوىء - في الفترة التي ندرسها - ظلت في حدود القصور الخلفية ومن أمور السياسة العليا . بمعنى أنها لم تنزل ، وتفتضح لدى الناس جميعاً ، وفي الحياة العامة . فعهد المعتصم والواثق يعدان من العصر العباسي الذهبي ، وأيام المتوكل - كما وصفها المسعودي - كانت أحسن أيام وأنضرها ، من استقامة الملك وشمول الناس بالعدل ، على أن عصر المتوكل نفسه هذا يجب أن يعتبر فترة الانتقال بين العهود الذهبية ودور الاضمحلال والتجزؤ . ومقتله يجب أن يعتبر خاتمة عصر وبدء عصر .

١ - ولاية العهد :

بقيت هذه المشكلة قائمة دون نظام رسمي يحددها حتى ولا في العرف وإذا كان من الملاحظ أنه غالباً ما توالى الأخوة على العرش العباسي . فلم يكن الأمر على ذلك دوماً فقد تولاها مرة وبشكل آلي ابن الخليفة المتوفى وهو الواثق .

• بدأت الفترة هذه بعهد من المأمون - في مرضه الأخير - لأخيه أبي اسحق المعتصم • وقد تأخر المأمون كثيراً جداً في اتخاذ قرار بشأن هذه المشكلة التي لا شك أنه كان يعاني من عقدها : منذ كان ولياً للعهد مع إخوته ثم بعد خلافته في قضية علي الرضا • • ولهذا صمت عنها حتى ما قبل صمته الأخير • وبالرغم من أنه كان ذا ولد هو العباس ، وكان هذا الولد شاباً ، ويقا تل معه في حربه مع الروم بجهة طرسوس فانه لم يعينه لولاية العهد بعده وهو دليل - بعد أدلة أخرى - على أن فكرة الوراثة العمودية لم تكن قد استقرت بعد في تقاليد الاسرة العباسية أو أن المأمون على الاقل لم يكن يؤمن بها إن لم يكن يشك أيضاً في أحقية البيت العباسي كله في الحكم • وقد عدل المأمون عن ابنه لأخيه وربما وجد فيه المحارب المناسب الذي يستطيع في تلك الظروف التي مات فيها المأمون أن ينقذ الدولة من ثورات بابك والزط المدينتين وأن يسحق الهجوم الرومي •

على أن تصور الناس لوراثة العرش كان على أساس الوراثة النبوية المباشرة • يدل على ذلك أنه لما بويع أبو اسحق المعتصم في معسكرات الجند عند طرسوس ، ذكر الطبري « أن الناس كانوا قد اشفقوا من منازعة العباس بن المأمون له في الخلافة • » وذكر « أن الجند شغبوا • • فطلبوا العباس ونادوه باسم الخلافة • فأرسل أبو اسحق الى العباس فأحضره ، فبايعه ثم خرج (العباس) الى الجند فقال : ما هذا الحب البارد ؟ قد بايعت عمي وسلمت الخلافة اليه • فسكن الجند • • » « وسلم الناس من الاشفاق » (١) •

(١) الطبري ج ٨ ص ٦٦٨ (٣/١١٦٤)

غير أن هذا الزاهد بالخلافة الآن سيعود لطلبها بالتآمر بعد خمس سنوات .

كان المعتصم سنة ٢٢٣ على حرب الروم في غزوة عمورية المعروفة وقد آلم قواده العرب ما كان من ميله الى جنده الترك واعتماده عليهم وإطلاقه أيديهم في النفقات بينما هو يقتر على قواده العرب . واجتمع في الجبهة عجيف بن عنيسة ، العربي ، بالعباس بن عبد الله المأمون فشكا عجيف عدم إطلاق يده في النفقات كما تطلق يد الأفشين . واستخفاف المعتصم بأمره وأفعاله ولام العباس على ما كان من بيعته لعمه « وتفريطه وشجعه على أن يتلافى ما كان .. فقبل العباس ذلك » . ودبر الاثنان أول محاولة انقلاب عسكري في التاريخ العباسي . لم يدبرا ثورة متمردة تزحف كعبد الله بن علي أو أعواناً يبايعون بالخلافة كالذي كان من ابراهيم بن المهدي ، أو أقلباً يشورون به ويزحفون بجنده فعل المأمون بخراسان ولكنها دبرا انقلاباً عسكرياً ، في الجبهة ، يقتل فيه المعتصم ويقتل معه الأفشين وأشناس والترك الآخرون ويتولى قياداتهم من اتفقوا معه على ذلك من خاصة هؤلاء أنفسهم . أرسل العباس في مهمة الاتفاق مع القواد المقبلين رجلاً ذا عقل ومدارة من خاصته يعرف بالحارث السمرقندي فاستطاع أخذ البيعة من بعض خاصة المعتصم ضد المعتصم ومن بعض خاصة الأفشين ضده ومن خاصة أشناس وغيره وضمنوا ذلك جميعاً ..

وأبى العباس تنفيذ المؤامرة قبل المسير الى عمورية قائلاً : لا أفسد هذه الغزاة ثم أبى ذلك عقب الفتح منتظراً عودة المعتصم لاغتياله في بعض الدروب الجبلية من الثغور . ولكن عجيفاً تعجل في بعض التصرفات فانكشف الأمر للمعتصم ، وجيء بالحارث إليه فاعترف .. وكان القادة الذين اعترف عليهم من الكثرة بحيث لم يصدق المعتصم الخبر ، ولكنه

أخذ العباس بالملاينة والملاطفة فاعترف بدوره .. فبادر المعتصم فاعتقل
الرؤوس الكبرى • ودفع بالعباس إلى الأفشين ودفع عجيلاً إلى
إيتاخ وجعل مع كل قائد من قواده واحداً من المتأمرين .. إلا واحداً
قتله هو الشاه بن سهل • ولم يصل أي واحد من هؤلاء المعتقلين إلى
مشارف العراق • ماتوا كلهم على الطريق : بعضهم عطشاً وبعضهم طرح
في بئر فطمت عليه وبعض أتى عليه الارهاق وبعض انتحر ..

أما العباس نفسه فجوعوه ثم أطعموه الكثير ثم منعوا عنه المساء
وأدرجوه في مسجحات بسنج وأطلق عليه المعتصم اسم «اللعين» رسمياً وقد
تسبب العباس في حبس إخوته الآخرين من أولاد المأمون وهم المعروفون
باسم أمهم سندس • دفعهم المعتصم إلى إيتاخ فحبسهم في سرداب داره
وماتوا بعد ذلك^(١) .. وانتهت بهذا قصة الثورة العريية الأخيرة ضد
التغلغل التركي وضد سرقة الأتراك للحكم العباسي من أهله •

ويوم توفي المعتصم آلت الخلافة بشكل آلي عادي إلى ابنه
هارون الواثق • لا نعرف أن أباه عهد إليه بالأمر ولقد يكون عهد في
اللحظة الأخيرة • ولا نعرف موقف إخوته منه وكانوا ستة • هو أكبرهم •
فإن أي خبر لم يرو عنهم • وكل ما نعرف أنه يبيع دون ولاية عهد رسمية
سابقة فلم يثر على بيعته أي اعتراض كأنما اعتبر الناس من البديهي أن
يولي الابن أباه • وذهب من سامراء موفد خاص في الليلة نفسها إلى
بغداد فأخذ له البيعة من القادة والوجوه والناس هناك •

وإذا لم تقم مشكلة لاستخلاف الواثق ولكن هذا الخليفة مات
تاركاً مشكلة • إذ رفض أن يعهد بالأمر لأحد ، وقيل له في البيعة لابنه

(١) انظر تفاصيل ذلك لدى الطبري ج ٩ ص ٧١-٧٩ (٣/١٢٥٦-

١٢٦٧) • وانظر اليعقوبي ص ٤٧٦

فقال : « لا يراني الله أتقلدها حياً وميتاً .. »^(١) . فاجتمع في دار الخليفة شبه مؤتمر يضم كبار الدولة قوامه قاضي القضاة ابن أبي داؤود ، والوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، وأحمد بن أبي خالد ، وعمر بن فرج من رؤساء الكتاب ، ووصيف وإيتاخ (وسيم الدمشقي دون شك) من قواد الترك ، وأرادوا البيعة لابن الواثق محمد . ولكنهم عدلوا عنه لصغر سنه .. « ألبسوه بالفعل دراعة وقلنسوة .. فإذا هو قصير » تفتححه العين فقال وصيف : أما تتقون الله ؟ تولون مثل هذا ، الخلافة وهو لا يجوز معه الصلاة؟^(٢) فعدلوا عنه إلى المتوكل . وألبسه قاضي القضاة الملابس وسلم عليه بالخلافة^(٣) !

وكان الأتراك سيما ووصيف أول المبايعين . وحيرة أعضاء هذا المؤتمر تدل على الأقل على أن قضية ولاية العهد كانت ، في عرف الناس على الأقل ، في هذه المرة ، من حق الأصلح لا من حق الرحم والابن البكر . لعب الهوى التركي في تحويلها الى هذا الاتجاه محطماً بذلك كافة الجهود التي بذلها أمثال المنصور والرشيد لتدعيم قواعد الارث النبوي .

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٣

(٢) الطبري ج ٩ ص ١٥٤ (٣/١٣٦٨)

(٣) ذكر ابن خلكان (وفيات الأعيان - النسخة المخطوطة في إياصوفيا الجزء الاول ورقة ٩١ وجهه) أن المتوكل كان قادماً إلى قصر الواثق يعود في مرضه فلما سمع النواح وهو في الدهليز عرف موته ولكنه سمع ابن الزيات والقائد إيتاخ يأتمران به يقول الأول نقله في التنوير ويقول الثاني بل ندعه في الماء البارد حتى يموت ولا يظهر عليه اثر القتل . فبينما هم كذلك إذ جاءهم ابن أبي داؤاد فمنعه الخدم من الدخول فدافعهم ودخل

واستخلف المتوكل فعاد الى دعم هذه القواعد من جديد . لكن هذه المشكلة ذاتها كانت بين الأسباب التي أودت به ومن قبل ابنه نفسه . ودراسة تلك الاسباب تلقي ضوءاً على السياسة العامة ، ودسائس البلاط في تلك الآونة : فقد أمر المتوكل سنة ٢٣٤ « ان يسلم الناس على ابنه محمد بالأمره ويدعى له على المنابر » وفي سنة ٢٣٥ (٨٥٠م) نظم ولاية العهد — على سنة الرشيد — لأولاده الثلاثة : محمد وسماه بالمنتصر وأبي عبد الله (واسمه محمد أو الزبير أو طلحة) ولقبه المعتز وابراهيم ولقبه المؤيد . وعقد لكل واحد منهم لواءين : أحدهما أسود : وهو لواء العهد ، والآخر أبيض وهو لواء العمل^(١) أي الولاية . وقسم الامبراطورية بينهم أعمالاً ثلاثة : فكان للمنتصر من عرش مصر الى حيث يبلغ سلطان العباسيين من المغرب ، مع الجزيرة العربية والثغور الشامية والعواصم والسواد والأهواز والسند ومستغلات سامراء ومنطقة الجبال وصدقات العرب بالبصرة . وكان للمعتز كور خراسان وفارس . وللمؤيد أربعة من أجناد الشام فقط (ومشق وحمص والاردن وفلسطين) . (ويضيف اليعقوبي^(٢) أرمينيا وأذربيجان بينما يجعلها الطبري في حصة المعتز) . كل هذا وأولياء العهود صغار : أكبرهم المنتصر في الثالثة عشرة ، والمؤيد حدث ، والمعتز طفل . ولذلك عين المتوكل لكل

وتكلم معهما في حديث يقول المتوكل إنني لم أعقله لشدة اشتغال فكري بمصيري ثم خرج الى بعض الخدم ينادونني فما شككت اني داخل لمبايعة ولد الواثق وينفذ في ما قد قرر فلقيني ابن أبي دؤاد فقبل يدي ثم أجلسني وسلم علي بالخلافة وجاء ابن الزيات وإيتاخ ففعلا مثله . . وكانا هما المنظوران عند الناس لاختيار الخليفة . وبقي في نفسي ما قرراه علي فقتلتها بما اعترما به علي قتلي .

(١) المصدر نفسه ص ١٧٦ (١٣٩٥/٣) فمابعدا .

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٧

منهم كاتباً يشرف على ولاياته • « وكتب كتاب العهد من أربع نسخ احتفظ بواحدة منها وأعطى لكل ولد واحدة ، وأحضر وجوه الناس من كل بلد إلى سامراء فأعطاهم على البيعة الجوائز وأعطى الجند لعشرة أشهر ووجه الخطباء ليخطبوا بذلك .. » (١) •

ويظهر أن المتوكل ، بسبب من حبه لجاريته قبيحة ، أم المعتز ، أخذ يؤثر هذا الفتى فضم إليه سنة ٢٤٠ هـ خزن بيوت الأموال في جميع الآفاق ، ودور الضرب وأمر بضرب اسمه على الدراهم • مع أن ابنه محمداً كان عنده (قبل ذلك) في أفضل منزلة وقد زاد مرة في أعماله زيادة واسعة وخلع عليه سبعة أيام في كل يوم سبع خلع وعقد له ألوية كثيرة .. » (٢) •

وما كاد المنتصر يبلغ مبلغ الرجال حتى ظهر بينه وبين أبيه اختلاف في الميول واستغله رجال البلاط استغلالاً بشعاً فقد وجد على أبيه :

آ - أنه يسخر في مجلس طربه من علي بن أبي طالب ويسب العلويين فكان هذا من الأسباب التي استحل بها المنتصر قتل المتوكل (٣) •

ب - انه يؤثر أخاه المعتز عليه « وزاد في اغرائه » ان دسائس الحاشية (من أمثال الفتح بن خاقان والوزير بن عبيد الله بن يحيى)

(١) انظر الطبري ج ٩ ص ١٨٠ (١٤٠٢/٣) واليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٧

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٧

(٣) ابن الأثير ج ٧ ص ٥٥ (حوادث سنة ٢٣٦)

استطاعت أن تبعده مرتين عن الصلاة بالناس ، في أيام مشهودة ،
وتقدم عليه المعتز^(١) .

ج - ان المتوكل كان - فيما يذكرون - يشتم ابنه ويحتقره .
وربما بلغ كره الأب لابنه ، وخوفه من دسائسه ، أن فكر بالفتك به .
ويرجع ذلك دون شك الى اشتراك المنتصر في دسائس البلاط ، واعلانه
الخلاف لأبيه وتشنيعه عليه . يقول صاحب الفخري : «... وكان كل
منهما يكره الآخر ويؤذيه» ، وبلغ الأمر بالمتوكل ، قبل مقتله بيوم ، أن
جعل «يشتم ابنه المنتصر مرة ، ومرة يسقيه فوق طاقته ومرة يأمر بصفعه
ومرة يتهدده بالقتل...»^(٢) .

د - وأخيرا أعلن المتوكل خلع ابنه ، في مجلس من مجالس شربه ،
في الأيام الأخيرة من حياته . ذكر الطبري أن المتوكل ، في ذلك المجلس
حلف على الفتح بن خاقان أن يلطم المنتصر ثم قال المتوكل لمن حضر :
اشهدوا جميعاً أنني خلعت «المستعجل» . ثم التفت إليه فقال : سميتك
المنتصر فسمك الناس لحمقك : المنتظر . ثم صرت الآن المستعجل .
فقال المنتصر : يا أمير المؤمنين لو أمرت بضرب عنقي كان أسهل عندي
مما تفعله بي فقال : اسقوه...»^(٣) واللقب الذي خلعه المتوكل على ابنه :
استهزاء به يكشف أنه كان يعلم رغبة ابنه في التخلص منه فسبقه
بالخلع... .

وفي هذه الفترة نفسها كانت علاقات المتوكل مع الأتراك تسير من
سيء لأسوأ ، والطبري يذكر ان (وصيفاً) حقد لما علم بمصادرة ضياعه
واقطاعها للفتح بن خاقان «واستقر عنده الذي أمر به في أمره...»^(٤)

(١) انظر تفصيل ذلك لدى الطبري ج ٩ ص ٢٢٢-٢٢٤ (٣/١٤٥٢ - ١٤٥٥) .

(٢) الطبري ج ٩ ص ٢٢٥ (٣/١٤٥٧) .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) الطبري ج ٩ ص ٢٢٢ (٣/١٤٥٢) .

وان » (بغا) الصغير توحش من المتوكل .. وان (اوتامش) غلام الوراق كان مع المنتصر فكان المتوكل يفضيه لذلك»^(١) ويذكر الطبري نقلاً عن بعض الرواة : ان المتوكل عزم على أن يقتل وصيفاً وبغا وغيرهما من قواد الأتراك مع ابنه المنتصر .. وحدد لذلك يوماً كان مواعده ، بعد مقتله بيومين^(٢) .

وهكذا اتفقت نقمة الأتراك مع نقمة ولي العهد على المتوكل . وتوافق وقت خلع الابن مع الوقت الذي تقرر فيه الفسك . فالتقى الطرفان ليكون منهما حلف ومؤامرة . إذ بينما كان الأتراك يتداولون في الخلاص من المتوكل ، كان المنتصر يقوي مركزه بينهم . « فكان — كما يقول المسعودي — يجتذب قلوبهم .. وكان اوتامش يساعده في ذلك فكان لايبعد المتوكل أحداً من الأتراك إلا اجتذبه إلى (المنتصر) . فاستمال قلوب الأتراك وكثيراً من الفراعنة والأشروسنية ..»^(٣) .

ويبدو أن مؤامرة المنتصر على أبيه كانت تنظم قبل قصة الخلع والتحجير التي تعزى للمتوكل في حق ابنه بكثير ولقد نستطيع القول إن ما ذكر من صفع المنتصر وشتمه في حضرة أبيه إنما كان شائعة أشيعت وتبريراً أمام الناس للمؤامرة التي لم تغب أخبارها حتى عن المتوكل وعن حاشيته . وإذا سمى المتوكل ابنه لذلك «بالمستعجل» فان الطبري يذكر «إن المنتصر كان شاور في قتل أبيه جماعة من الفقهاء وأعلمهم بمذاهبه وحكى عنه أموراً قبيحة — يقول الطبري — كرهت ذكرها في الكتاب

(١) المسعودي — مروج الذهب ج ٤ ص ١٢١

(٢) الطبري ج ٩ ص ٢٢٥ (١٤٥٦/٣)

(٣) المسعودي ج ٤ ص ١٢١

فأشاروا عليه بقتله ..»^(١) ويذكر كذلك أن امرأة من نساء الأتراك ألقت رقعة تخبر ما عزم عليه القوم فوصلت الرقعة الى الفتح بن خاقان كما وصله خبر آخر بالمعنى نفسه من كاتبه فاتفق رأي الحاشية « على كتمان الأمر على المتوكل لئلا ينغصوا عليه يومه وهان عليهم أمر القوم ووثقوا بأن ذلك لا يجسر عليه أحد ولا يقدر ..»^(٢) . لكن المنتصر جسر عليه . وقد اعترف أحد أعوانه ، وشهود ليلة القتل ، بأن المنتصر « كان قد واعد الأتراك على قتل المتوكل قبل انصرافه إذا ثمل من النيذ ..»^(٣) .

ويبدو بالمقابل أن مؤامرة أخرى قد تكون حقيقية أو وهمية ، كان المتوكل يدبرها لقتل ابنه . ومصدر الخبر هو أعوان المنتصر وهذا ما يشكك فيه ويجعله من جملة دعايات التبرير لمقتل المتوكل . ولعله شائعة أو خبر مدسوس أوصله الأتراك الى المنتصر ليزيدوا من حقه على أبيه ويدفعوه للاقدام النهائي على قتله . ويقول صاحب الخبر « .. وكان اتصل بنا الخبر أن عبيد الله بن يحيى (كبير رجال البلاط لدى المتوكل) قد أعد للمنتصر قوماً في طريقه ليغتالوه عند انصرافه ..» فلما قامت الضجة « وقع في نفسي .. أنهم على اغتيال المنتصر » .. وهكذا كان التآمر سجالات بين الطرفين وكانت نتيجة الصراع التآمر رهينة بمن يسبق الى الضربة الاولى . وسبقت الضربة من الأتراك وولي العهد وقتل المتوكل . وكانت هذه المرة الاولى في تاريخ الخلافة الاسلامية التي يتآمر فيها ولي العهد الابن ، على أبيه ، والخدم في الدولة ، على سيدهم .

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٢٨ (٣/١٤٦٢)

(٢) الطبري ج ٩ ص ٢٥٢ (٣/١٣٦٢)

(٣) المصدر ذاته ص ١٣٥ (٣/١٤٧٢)

وقد قتل مع المتوكل كبير رجاله الفتح بن خاقان فأذاع المنتصر أن
الفتح قتل أباه فقتله به !

٢ - الوزارة :

يظهر من تتبع أمر الوزارة في العهد العباسي أنها ما استقرت مرة •
وأنها لم تكن مؤسسة رسمية ، وجزءاً محترماً المكانة من نظام الحكم ،
بقدر ما كانت عملاً شخصياً سواء بالنسبة للخليفة ، أو بالنسبة لمن
يتولاها • ولهذا ظل تصادم السلطات بين الوزير والخليفة ، واستمرت
النكبات • لكننا نلاحظ في هذه الفترة الأخيرة من العصر العباسي الأول
بعض التدهور في تقاليد الوزارة ، حتى وليها أناس لا معرفة لهم ولا
ثقافة ولا إدارة • وقد نستطيع ان نلاحظ إلى هذا ، أن سلطة الوزارة
في نهاية هذه الفترة قد تحددت ، وضعفت ، نتيجة لتعاظم النفوذ
التركي ، ولكنها على أي حال لم تحد عن التقليد الذي وضعه منذ البدء
كل من أبي سلمة الخلال وأبي العباس السفاح في تسلط الوزير على كل
شيء من جهة وفي نكبته على تسلطه البواسع من الجهة الأخرى •

وزر للمعتصم أولاً كاتب كان له قبل الخلافة ، هو الفضل بن
مروان • أخذ البيعة في بغداد للمعتصم و «غلب عليه كثيراً» فرد أموره
كلها إليه وكان قد «حل من قلبه المحل الذي لم يكن أحد يطمع في
ملاحظته فضلاً عن منازعته ، ولا في الاعتراض في أمره ونهيه وإرادته
وحكمه» حسب الكلمات التي يذكرها الطبري^(١) •• ولكن المعتصم

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٠-٢١ (١١٨٤/٣-١١٨٥)

لم يكن يعتبره مع ذلك أكثر من منفذ لأوامره وبينما « استقل (الفضل) بالأمور » وحملته الدالة ، وحركته الحرمة على خلافه (أي خلاف المعتصم) في بعض ما كان يأمر به ، ومنعه ما كان يحتاج إليه من الأموال في مهم أموره « كان المعتصم من جهته ، يتغير عليه ويسمع كلام الوشاة فيه وتكرر في الفضل المأساة الوزارية المعروفة من نكبة وسجن ونفي له ولأصحابه وأهل بيته ، ومن مصادرة أموال هائلة جمعها يقول عنها المعتصم : « ما كنت أعلم أن في الدنيا من له هذا المال »^(١) ولم يكن الفضل بالذي يستحق الوزارة التي بقي فيها سنتين تقريباً (رجب سنة ٢١٨ - رجب أو صفر سنة ٢٢٠ هـ) فقد كان «عامياً لا علم عنده ولا معرفة»^(٢) أو على الأصح ، كما قال ابن النديم وابن خلكان^(٣) « قليل المعرفة بالعلم ، حسن المعرفة بخدمة الخلفاء » ولكن تصرفاته ، مع الناس ، كانت سيئة ، وجهله بالأمور كان واضحاً حتى قال فيه بعض الشعراء :

تفرغت يا فضل بن مروان فاعتبر
فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أملاك مضوا لسيلهم
أبادهم التقييد والأسر والقتل ! ..

(١) مسكويه - تجارب الأمم ج ٦ ص ٤٧٩ ، والعيون والحدائق ج ٣ ص ٣٨٤ وتبلغ هذه الأموال عشرة ملايين دينار .

(٢) الفخري ص ٢١٢ .

(٣) ابن خلكان ج ٤ ص ٤٥ (طبعة عباس) وابن النديم - الفهرست ص ١٢٧

أما الوزير الثاني للمعتصم أحمد بن عمار فكان طحاناً في الأصل ،
من أهل المذار . ثم انتقل إلى البصرة ، ثم إلى بغداد ، وكانت
ميزته الوحيدة ثراؤه إذ كان يخرج في الصدقة مائة دينار كل يوم !!
وكان جاهلاً بآداب الوزارة ، حتى قال فيه شاعر :

سبحان ربي الخالق الباري	صرت وزيراً يا ابن عمار ؟
وكنت طحاناً على بغلة	بغير دكان ولا دار ..
كفرت بالمقدار ان لم تكن	قد جزت في ذا كل مقدار

وكانت قلة ثقافته سبباً في صرفه من الخدمة . وتلاه محمد بن عبد
الملك الزيات وتطنب المصادر في امتداح ثقافته وعقله . يقول الجهشيارى :
« .. برع في كل شيء حتى صار نادرة وقته عقلاً وفهماً وذكاءً وكتابةً
وشعراً وأدباً وخبرة بآداب الرياسة وقواعد الملوك .. فنهض بأعباء
الوزارة نهوضاً لم يكن لمن تقدمه من اضرابه .. »^(١) ولعل ما يفسر
لنا بقاءه في الوزارة بقية أيام المعتصم ، ومدة عهد الواثق ، حتى مطلع
خلافة المتوكل . ولا شك أن استبقاء الواثق له ، رغم سخطه عليه وهو
أمير ، وقسمه بالحج والعنق والصدقة . إن ولي الخلافة ، ليقتلنه شر قتلة
بل وانسياقه معه ومع أحمد بن أبي داود المعتزلي حتى « كان لا يصدر
إلا عن رأيهما وقلدهما الأمر وفوض إليهما ملكه » يدل على مقدرة ابن
الزيات وعلى اتزان الواثق في وقت معاً . ولقد قال له الخليفة : « والله
ما أبقيتك إلا خوفاً من خلو الدولة من مثلك . وسأكفر عن يميني فاني أجد

(١) الجهشيارى - نصوص ضائعة (جمع كوركيس عواد) ص ٦٤ ،

وقد نقل ذلك الفخري ص ٢١٢

عن المال عوضاً ، ولا أجد عن مثلك عوضاً» (١) .

ويروون عن الواثق أنه قال : « إن السلطان الى محمد بن عبد الملك أحوج من محمد الى السلطان .. » (٢) .

وورث المتوكل ، مع الخلافة والأثر ، وزارة الزيات . ولكنه كان يحقد عليه لسوء معاملته له ، في حياة أخيه . وكان ابن الزيات «جباراً ، متكبراً ، فظاً ، غليظ القلب ..» كما يقول عنه صاحب الفخري و «شديد القسوة قليل الرحمة جباها للناس ، كثير الاستخفاف بهم لا يعرف له احسان إلى أحد ..» كما يقول اليعقوبي (٣) . فلم يبقه المتوكل غير أربعين يوماً . ثم نكبه وصادر أمواله . وعذبه في تنور من حديد ، مساميره إلى الداخل ، كان ابن الزيات صنعه لتعذيب غيره « فلم ير إلا شامت به فرح بنكبته» (٤) .

ولا شك أنا نستطيع أن نعد ابن الزيات خاتمة تلك السلسلة الذهبية من الوزراء ، الذين توالوا في العصر العباسي الاول . وندر أن أطلعت العصور التالية أمثالهم .

واستكتب المتوكل ، بعد ابن الزيات ، أحمد بن خالد المعروف بأبي الوزير ، دون تسميته بالوزارة . ثم نكبه ، وأخذ منه مائتي ألف

(١) الفخري ص ٢١٤

(٢) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٨ ص ١٥

(٣) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٤ ، الفخري ص ١٩٠

(٤) ينفرد ابن النديم بخبر يقول إن ابن الزيات كان زنديقاً (انظر

الفهرست ص ٣٣٨) .

دينار • ثم الجرجرائي : أبا جعفر محمد بن الفضل ، وهو شيخ يمتاز
بظرفه وغنائه • فلم تلبث السعايات أن أبعده • وقال المتوكل : قد
ضجرت من المشايخ ، أريد حدثاً أستبوزره • فأشير عليه بعبيد الله بن يحيى
ابن خاقان « وكان حسن الخط له معرفة بالحساب والاستيفاء إلا أنه كان
مخطئاً وكان مجدوداً وكانت سمعته وكرمه أيضاً يستران كثيراً من
عيوبه »^(١) وبقي على وزارة المتوكل حتى مقتل هذا الخليفة • ولكن
منصب الوزارة كان فقد رونقه وسلطاته بتسلط الأتراك عليه وتسييره
حسب أهوائهم ونوازعهم •

يقول التنوخي في نشوار المحاضرة : « جعل المتوكل الكتب
باسم وصيف التركي وانتصب منصب الوزارة وإن كان لم يسم بها
فاختار من الكتاب عبيد الله بن يحيى بن خاقان • وصار أمره يقوى ،
فكان يعرض الأعمال عليه كما كان الوزراء يعرضونها وليس هو يعد
قديراً لها • وأثبت المتوكل اسمه • ثم أمر له الخليفة بعد زمن بالوزارة
ثم خوطب بها وكان وزيراً أميراً »^(٢) •

وقد لعب هذا الوزير عبيد الله بن خاقان ، مع النديم : الفتح بن
خاقان دورهما الخطر في مقتل المتوكل حين وسعا شقة الخلاف بينه وبين
المنتصر وشجعه على إبعاده وتقريب المعتز • فكان ذلك السبب في مصرعه
ثم مصرع الفتح بن خاقان نفسه من بعده •

٣ - الكتاب والمصادر :

وظهرت في هذه الفترة (٢١٨-٢٤٧هـ) ظاهرة في السياسة المالية

(١) الفخري ص ٢٠٦-٢٠٧

(٢) التنوخي - نشوار المحاضرة ج ٨ ص ١١-١٣

لها معناها في الجهاز الاداري . فقد سن الواثق ، لمن بعده ، مصادرة الكتاب (وهم رؤساء الدواوين) بغية الحصول على المال ، حتى أصبحت المصادرة مورداً من موارد بيت المال . وهذا يدل على تفشي الرشوة والظلم والاختلاس ، في الجهاز الاداري للدولة ، ووصوله للدرجة التي لا يصح السكوت عنها ، والتي لا تعالج إلا بنكبة الكاتب . وفي تكرار المصادرات فيما بعد ، اعتراف وإقرار بأعمال الكتاب السيئة . وفي صيرورة المصادرة مورداً للخزينة ومصدراً يرجع إليه عند الحاجة إقرار بأنها أصبحت شبه ضريبة على الكتاب .

يقول الطبري وينقل عنه ابن الأثير « .. فمن ذلك ما كان من حبس الواثق بالله الكتاب والزمامهم أموالاً عظيمة ، أخذ من اسحق بن يحيى بن معاذ (٨٠) ألف دينار ، ومن احمد بن اسرائيل (٨٠) ألف دينار ومن سليمان بن وهب كاتب ايتاخ (٤٠٠) ألف دينار ومن الحسن ابن وهب (١٤) ألف دينار ومن احمد بن الخصيب وكتابه ألف ألف ومن ابراهيم بن رياح وكتابه (١٠٠) ألف ومن نجاح (٦٠) ألفاً ومن أبي الوزير صلحاً (١٦٠) ألف دينار ، وذلك سوى ما أخذه من العمال بسبب عمالاتهم » مما يبلغ مجموعه ألف دينار^(١) هذا إلى مليون ونصف المليون من الدراهم صادرها الوزير ابن الزيات من ابراهيم بن العباس العامل على الأهواز .. وغيرها كثير !

وزادت المصادرات زمن المتوكل حتى لنستطيع أن نعد منها (١٤) مصادرة كبرى فيما ذكر اليعقوبي والطبري : من ذلك مصادرة ابن

(١) انظر الطبري ج ٩ ص ١٢٥ (٣/١٣٣١)

الزيات (٩٠ ألف دينار) وعمر بن فرج الرخحي الكاتب ، وأخيه محمد صاحب مصر ، والفصل بن مروان ، وعلي بن عيسى ، وأبي الوزير ، وإيتاخ ، ونجاح بن سلمة .. والسلسلة طويلة بعد ذلك .. وسنخط مرة على كتابه ، جملة ، فصادرهم . كما كانت المصادرة تلحق أحياناً عمال المصادرات . فقد أخذ «أحمد بن محمد بن مدبر عمال (علي عيسى) على طسايح السواد ، فصالحهم على أموال عظيمة» .

وخير مثل لدوافع المتوكل في بعض هذه المصادرات ، إن لم يكن في كلها ، ما يذكره الطبري^(١) قائلاً «.. لما عزم المتوكل على بناء الجعفري ، قال له نجاح ، وكان في الندماء : يا أمير المؤمنين ! أسمى لك قوماً ، تدفعهم إلي ، حتى استخرج لك منهم أموالاً تبني بها مدينتك . فانه يلزمك من الأموال ما يعظم قدره . قال : سمهم . فرفع رقعة يذكر فيها : موسى بن عبد الملك (صاحب ديوان الخراج) والحسن بن مخلد (صاحب ديوان الضياع) وجعفر المعلقوف (مستخرج ديوان الخراج) وغيرهم نحواً من عشرين رجلاً فوق ذلك من المتوكل موقفاً أعجبه» ولم ينج هؤلاء من النكبة إلا بسبب عداوة الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، لنجاح . فانه أحضر موسى بن عبد الملك والحسن بن مخلد ، وأخبرهما الخبر ، ودفعهما إلى أن يكتبا لأمر المؤمنين رقعة يقبلان فيها على أنفسهما بألفي ألف دينار! .. وكان ذلك . واستطاعا بهذا الشكل أن يأخذا الإذن بمصادرة أموال نجاح جزاء وفاقاً فاستخرجا منه ، للمتوكل دوماً مائة وأربعين ألف دينار ومن كاتبه اسحق خمسين ولم ينجه ذلك من التعذيب حتى الموت سنة ٢٤٥ هـ .

(١) انظر الطبري ج ٩ ص ١٦٠ ، ١٦٢ ، وص ٢١٤-٢١٥

(٢) الطبري ج ١٩ ص ٢١٤-٢١٧ (٣/١٤٤-١٧٤)

ويمكن أن نعرف ضخامة قيمة المصادرات من تلك الأرقام التي ذكرت فيها . ومن أمثلة أخرى : فابراهيم بن الجنيد دفع سنة ٢٣٣ هـ مبلغ (٧٠) ألف دينار وأبو الوزير ستين ألف دينار ، وحمل بدر ودراهم وحلي . وأخذ له ، من متاع مصر ، اثنين وستين سقفاً ، واثنين وثلاثين غلاماً ، وصولج سعدون بن علي على ٤٠ ألف دينار . وصولج ابنا أخيه على نيف وثلاثين ألف دينار . واسحق بن سعد على ٥٠ ألف دينار . وأخذ المتوكل من أحمد بن أبي داؤد لما غضب على ابنه (١٢٠) ألف دينار وجواهر بقيمة ٤٠ ألف دينار . وصولج بعد ذلك على ١٦ ألف ألف درهم ، ويبيع كل ضيعة لهم . وصودر عمر بن فرج على عشرة آلاف ألف درهم .

وإذا كان لإتفاق المتوكل أثره في هذه المصادرات ، فلا شك أن لسوء استغلال الكتاب بالمقابل ، أثره أيضاً . ولعل الخلفاء اعتبروا المصادرة وسيلة لاسترداد ما استلبه الموظفون من أموال الدولة والناس ، بطرق غير مشروعة على نهج عمر بن الخطاب الذي شرع المقاسمة في مثل هذه الحال^(١) .



(١) في المسعودي (ج٤ ص٦٦) قصة جديرة بالقراءة ، يتحدث فيه أحد الأعراب إلى الشاعر أبي تمام عن رجال دولة الوراق واحداً واحداً . ولعلها تعطينا صدى عن رأي العامة في أصحاب الحكومة إذ ذاك .

الفصل التاسع

مشاكل الرعيّة

شهدت هذه الفترة (٢١٨-٢٤٧) نهاية عهد الثورات العقديّة تقريباً وبداية انتفاض الأقاليم في ثورات محلية أقليمية لا تدل على أكثر من ضعف الدولة المركزيّة . وكانت خلافة المعتصم فترة تصفية الثورات التي تميز بها العصر العباسي الأول والعصر الأموي قبله أيضاً من خارجيّة وعلويّة وثورات دينيّة إيرانيّة كما اتضحت بالمقابل في زمن الواصل صفة الفتن المحليّة التي ستمهد لانفصال أقاليم الدولة ولتحولها الى الحكم الذاتي .

١ - ثورات العقائد :

ونقصد بها ثورات إيران الدينيّة - السياسيّة ، وثورات العلويين ، والخوارج . وقد أخذت كلها الطابع الشخصي . قادها أفراد تمثلت بهم بعض الأفكار ، وانتهت بانتهائهم .

أولاً : الثورات الإيرانية :

إن ثورة بابك التي ورثها المعتصم عن أخيه المأمون ، وحشد لها سنوات عدة كل قوته حتى أخمدتها لم تنته بنهاية بابك على خشبة الصلب وقد كان لها ذيل ثوري عرف باسم :

أ - ثورة المازيار : لأنها ابنة ثورة بابك فقد كان لها أسسها نفسها : قادها المازيار (أو ماه يزديار على قول البلاذري^(١)) وهو ابن (قارن) ابن (ونداهرز) من نسل الأمراء القارين الذي كان لهم حكم طبرستان في الزمن الإسلامي ، والساساني قبله . وقد نشب بينه وبين أمير آخر في المنطقة ، اسمه شهریار بن شیرویه ، نزاع التجأ على أثره ، المازيار إلى المأمون . وأسلم على يديه . فلما مات شهریار سنة ٢١٠ هـ رجع المازيار ، واسترد الجبل وحكمه . وقد ولاه إياه المأمون بعد أن سماه محمداً ، وضم إليه بعض البقاع حوله ، وجعل له - كما يقول البلاذري^(٢) - مرتبة : الأصهبذ . وهو اللقب القديم لأمراء طبرستان . واستمر الأصهبذ هاديء الحال والأطماع أربع عشرة سنة . . حتى سنة ٢٢٤ .

وفهم من الطبري أن طبرستان كانت تابعة لأقليم خراسان . بمعنى أن المازيار كان تابعاً لبني طاهر . ولكنه كان يكرههم . فكان لا

(١) البلاذري ص ٤١٦

(٢) انظر البلاذري - فتوح البلدان ص ٤١٦ . وقد ذكر مينورسكي في دائرة المعارف الإسلامية (مادة «مازيار» ج ٣ ص ٤٣٥-٣٤٦) أن المأمون سمح له باتخاذ لقب الأمراء القديم ويروي الطبري (ج ٩ ص ١٠٠) أن المأمون كان يكتب للمازيار بلقب : «أصبهذ أصبهذان» . . «مولى أمير المؤمنين» .

يحمل إليهم الخراج رغم كتابة المعتصم له بذلك • كان يرسل إلى بغداد ثم سامراء حتى إذا وافى همدان جاء عمال ابن طاهر فأخذوه • • استمر ذلك سنين طويلة حتى تفاقم الأمر • والمؤرخون يجعلون من هذه النقطة ، سبب ثورته : فيذكرون أن الأفشين كان يطمع بخراسان • وكان يسمع من المعتصم أحياناً كلاماً يدل على عزمه بعزل آل طاهر عنها • فكاتب المازيار سراً • وشجعه على الخلاف ، أملاً في ألا يستطيع الطاهريون اخماد ثورته • فيندب الأفشين لذلك فتكون خراسان له ويقضي بالمناسبة على آل طاهر^(١) • وهكذا قطع المازيار حتى الخراج وأعلن العصيان في جباله المنيع • وأخذ الرهائن من الناس فحبسهم في برج الأصهبذ ليضمن تأييدهم • • وجمع أموال الخراج بشكل عاجل ليضمن بيده الأموال •

ولكن أمر المازيار والأفشين كان ، على ما يظهر ، أعمق من هذه الظواهر البسيطة : فالمازيار كان سطحي الاسلام • وهو في الواقع خرمي ، من ذلك المذهب الذي أضحى يمثل ثورة الوعي الايراني - الديني ضد السلطان العباسي ، وضد المجتمع الاسلامي الذي أقامه الخلفاء • ويتفق المسعودي^(٢) والبلاذري^(٣) والبغدادى^(٤) على اتهامه بالخرمية « وأنه كفر وغدر » • وينقل مينورسكي عن ابن اسفنديار أنه « كان يمجّد مزدك وبابك والمجوس الآخرين الذين أرادوا محو الاسلام » •

وأما علاقته بالأفشين فقد أقر المازيار على نفسه وعلى صاحبه بأن

(١) الطبري ج ٩ ص ٦٠-٨١ وص ١٠٥ (٣/١٢٦٨-١٢٦٩) و (٣/١٣٠٥)

(٢) المسعودي ج ٤ ص ٦١

(٣) البلاذري ص ٤١٦

(٤) الفرق بين الفرق ص ٢٥٢

الأفشين كاتبه يعرض عليه النصرة و « أنه بعثه على الخروج والعصيان
لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية
والمجوس » كما يقول المسعودي^(١) .

وتدل أعمال المازيار ، بعد الثورة ، على نزعة المشاعية المزدكية :
« أمر آكرة الضياع بالوثوب بأرباب الضياع واتتهاب أموالهم .. »
وقال لأصحابه « إني قد أبحتكم منازل أرباب الضياع وحرمتهم ..
فاقتلوا أرباب الضياع جميعهم ، قبل ذلك . ثم حوزوا ما وهبت لكم من
المنازل والحرم »^(٢) وكان لهذا العمل ، بجانب معناه الديني والاقتصادي ،
معنى سياسي أيضاً . فقسم كبير من الملاكين كانوا من العرب ، أو
مواليهم ، كما يقول مينورسكي وتشهد نصوص الطبري « وهواهم مع
العرب والمسودة »^(٣) ولذلك جمع عامله على (سارية) مرة وكان من أهم
أعوانه ، مائتين وستين من أبناء القواد ، وسلمهم للفلاحين على أنهم
خطرون . وأشار عليهم بقتلهم فقتلوا . وأمر أصحاب المسالح (أي
النقاط العسكرية) بإحضار أهل الخنادق من « الأبناء والعرب » ووجوه
العرب في المناطق المختلفة فكلبهم بالحديد وجبهم ووكل بهم الرجال
في جبهم^(٤) . ويظهر أن أكثرهم كان من أهل المدن لأن الريف بقي
لفلاحيه وإلغى تملكه الاقطاعيون . كما يظهر أن عددهم زاد على «عشرين

(١) المسعودي ج ٤ ص ٦١

(٢) الطبري ج ٩ ص ٩١ (١٣٦٩/٣) و ص ٨٦-٨٧ (١٢٧٨/٣)

(٣) الطبري ج ٩ ص ٨٦ (١٢٧٨/٣)

(٤) المصدر نفسه ص ٨٤ (١٢٧٣/٣) - ١٢٧٥

(٥) انظر المصدر نفسه ص ٨٥ و ص ٨٦ و ص ٩٠ (١٢٧٦/٣) ١٢٧٨٠

(١٢٨٤)

ألفاء» وهو الرقم الذي ذكره المازيار نفسه وفيهم الملاكون كما أن فيهم
«التجار والصناع» •

فالثورة سياسية دينية معاً • أو هي سياسية ، واتخذت الخيرية
مبدأ لتضم إليها الطبقة العاملة الفقيرة ، من الإيرانيين ، وقد تعاون المعتصم ،
مع عبد الله بن طاهر على إخمادها ، بالتطويق من كل جانب • فهاجم حسن
ابن الحسين (عم عبد الله) وقائد آخر طبرستان من الشرق • وأرسل
المعتصم قوات أخرى ، عليها محمد بن ابراهيم ، من الغرب • كما بعث
بمنصور بن حسن من الري في الجنوب • وبجيش آخر في جانبه • •
وأدرك المازيار أنه مطوق وأنه قد «أحذقت به الخيل من كل جانب» •
وكان على ما يبدو ينتظر أن يفاوضه المعتصم أو يساومه فلما لم يفعل •
بعث المازيار الى «أصحاب المدن» المعتقلين عنده يقول إنما حبستكم
ليبعث الي هذا الرجل (يعني المعتصم) فيكم فلم يفعل وقد بلغني أن
الحجاج غضب على صاحب السند في امرأة أسرت من المسلمين فغزا
السند حتى استنقذها وهذا الرجل لا يكثر بعشرين ألفاً ولا يبعث إلي
يسأل فيكم فأدوا إلي خراج سنتين وأخلي سبيلكم • وكان المازيار يرجو
من هذا العرض - كما قال الطبري - « أن يلقي الشر بين أصحاب
الخراج ومن لا خراج عليه من التجار والصناع»^(١) ولكنهم كانوا من
الإملاق بحيث لم يستطيعوا دفع أي مبلغ • • وقتل العديد من الرهائن
في أمكنة متفرقة قبل أن يمل المازيار حبسهم فيطلقهم حين رأى تفرق
أصحابه عنه • •^(٢) •

(١) الطبري ج ٩ ص ٨٥-٨٦ (١٢٧٦/٣-١٢٧٨)

(٢) الطبري ج ٩ ص ٩٠ (١٢٨٣/٣-١٢٨٤)

والواقع أنه بينما كانت الجيوش العباسية تزحف • بدأت الخيانات في صفوف المازيار • اتفق حرس السور في بلدة سارية مع أصحاب الحسن بن الحسين الطاهري فأدخلوهم من ثغرة فيه فسقطت المدينة وأسر صاحبها من قبل بعض أعوانه أنفسهم فقتل • وكاتب الحسن الطاهري قارن بن شهريار وهو من قواد المازيار وابن أخيه ووعد أنه يملكه على جبال أبيه وجده فاحتال قارن على شقيق المازيار عبد الله حتى قيده مع قواده وجاء به إلى الحسن عربون وفاء واستنجاز للوعد • وأما قوهيار الشقيق الآخر للمازيار فأطلق عامل طبرستان القديم من السجن ليطلب له الأمان من القائد العباسي مقابل أن يسلمه المازيار نفسه ويجعل له جبال أبيه وجده • وتمت المؤامرة على المازيار : قاده أخوه إلى غياض منقطعة وأوقعه بيد الحسن أسيراً وهو يحسب أنه ذاهب للمفاوضة بالأمان^(١) بينما كان ابن عمه أيضاً يكتب بدخائل أمره وقواته للحسن • وأخذت الأموال التي يحملها الرجل وكان فيها حق من الجوهر كبير ثمنه ١٨ مليون درهم ومائة ألف دينار تقريباً وحوالي ٣٥ قطعة زمرد وياقوت أحمر وتاج وسيف من الذهب عدا ألوان الثياب^(٢) • أرسل إلى سامراء ، حيث توفي ، تحت السياط الأربعمئة والخمسين التي ذاقها ، وصلب بجانب بابك سنة ٢٢٥ هـ •

أما قوهيار فلم ينعم بالملك لأن بعض غلمان أخيه قتلوه وقد حرضهم على ذلك ابن عمه : شهريار بن المضمغان الذي كان يطمع بالملك ولكن

(١) انظر في المصدر نفسه تفاصيل هذه المؤامرات ج ٩ ص ٧٨-٩٠ (١٢٨٩/٣-١٢٨٤)

وانظر كذلك البلاذري - فتوح البلدان ص ٤١٦-٤١٧

(٢) انظر الطبري ج ٩ ص ٩٨ (١٢٩٦/٣) وص ٩٦ (١٢٩٢/٣-٩٣)

طيرستان كانت قد فتحت كلها «سهلها وجبلها فتولاها عبد الله بن طاهر
ثم ابنه طاهر من بعده» (١) .

ب - قضية الأفشين :

كانت إحدى القضايا الكبرى في زمن المعتصم . ولقد تكون في
حقيقتها قضية سياسية ، سببها اصطدام نفوذ الأفشين المتعاضم بدسائس
البلاط ، ولكنها ألبت الثوب الديني . وفي تفاصيلها اضطراب وروايات
على ألوان .. وأوسع أخبارها ما يرويه الطبري (٢) ونستخلص منه : ان
التهم التي وجهت للأفشين كانت عديدة . وأنها لم تكن بنت أيام محدودة،
ولكنها شكوك تراكت حتى أقنعت المعتصم بخيانة قائده الأعظم .

والأفشين لقب كان يلقب به أمراء أشروسنة قبل الاسلام . وكان
الأفشين قائد المعتصم آخر هؤلاء الأمراء . ويبدو من أخباره أنه كان
واسع الثقافة ، جيد الاطلاع على الدين الاسلامي واللغة العربية حسن
الاستفادة من الفلسفة والمنطق ولا تنقصه المعلومات الطبية فكان يحفظ
دفاتر للأدوية عنده باللغة الأشروسنية (٣) هذا بالإضافة الى الثقافة
العسكرية ، وقد دخل هو بعد أبيه في خدمة المأمون ثم في خدمة المعتصم (٤)
وبرز اسمه بقوة بعد هزيمته لبابك ، وبعد واقعة عمورية ، فأضحى
القائد الأول في الدولة . ويظهر أن ذلك أثار فيه الأعجمية . ولم

(١) البلاذري - فتوح ص ٤١٧

(٢) الطبري ج ٩

(٣) انظر ابن العبري - مختصر تاريخ الدول ص ١٤٠-١٤١

(٤) انظر تفصيل قصة إسلامه وإسلام أبيه وفتح أشروسنة لدى

البلاذري - فتوح ص ٥٢٨ - ٥٢٩ وقد المنا بها .

يكن في ميوله وفي نشأته التركية - الإيرانية أقل ارتباطا بدينه الأول (البوذي أو الشاماني) ولا عطفاً على أهل بلده من الرجلين اللذين صحباه - كما قال براون Browne في نهايته المحزنة : المازيار وبابك وأخبار محاكمة تكشف أن الرجل كان واعياً كل الوعي محاولة التوفيق التي يعيشها ويقوم بها ما بين وضعه السابق كأمر مؤله في شعب معين ووضعه الجديد كمسلم وقائد حربي في دولة غريبة عنه وعن بلاده وقومه وحججه وإجاباته المنطقية لم تكشف عدم ولائه للدولة وعدم إيمانه بالاسلام فقط ولكن كشفت بالمقابل خصومه والأساس السياسي الذي تقوم عليه تهمته وإن لم يعلن ذلك الأساس ابداً .

وأول ما انكشف من أمر الافشين ، ما أخبر به عبد الله بن طاهر ، من أنه في الايام الاخيرة من حربه لبابك ، كان لا تأتي الافشين هدية ولا تجتمع عنده كمية من الدنانير ، إلا أرسلها إلى موطنه ، في أشروسنة . فأمر المعتصم ابن طاهر بتقصي الامر دوماً (١) .

ثم انكشفت صلة الافشين بالمازيار الثائر . وقبض ابن طاهر على بعض رسائله إليه واعترف الاثنان أمام المعتصم أن شقيق بابك كان ي كاتب شقيق المازيار ويحرضه باسم بابك على الثورة لإعادة الدين الأبيض إلى ما كان عليه في عهد العجم (٢) . . وابن العبري يعزو السبب في القبض على

(١) الطبري ج ٩ ص ١٠٤ - ١٠٥ (٣/١٣٠٤)

(٢) هناك فيما يتعلق بدين الافشين السابق مشكلة . فأهل أشروسنة ، وهم من الترك الذين دخلوا الثقافة الإيرانية كانوا في كثير منهم على الشامانية أو البوذية . وتدل الأصنام ذات الجواهر التي وجدت لدى الافشين على أنه كان مثل قومه . وأما هذا النوع من الرسائل فيشير إن

الافشين إلى هذه المراسلات^(١) ثم ثار منكجور الفرغاني سنة ٢٢٥ هـ خال ولد الافشين ، ووالي اذربيجان . وذلك ان المعتصم طالبه بأموال عظيمة ، كتب صاحب البريد انه وجدها من ثروة بابك واحتجزها لنفسه ، في بلدة بابك (البذ) فلم يعترف بها . فعزله الخليفة فثار . وطلب المعتصم من الافشين ، إحضار هذا العامل التائر فبعث بجيش إليه . ولكن المعتصم عرف ان منكجور انما خلع (الطاعة) بأمر الافشين . وإنما وجه الجيش الآخر مددا له . ويرى اليعقوبي أن هذا هو أول سبب للقبض عليه^(٢) .

ويبدو أن المعتصم اتخذ ، قبل انكشاف الافشين واعتقاله خطوة أطاع فيها نصيحة قاضية ابن ابي دؤاد في الحد من نفوذ الافشين والاحتياط من تزايد قوته العسكرية وذلك بقسمة الجيش شطرين : نصف مع الافشين ونصف مع القائد أشناس^(٣) . وبالرغم من از الدينوري نصف مع الافشين ونصف مع القائد أشناس^(٣) . وبالرغم من أن الدينوري فإنها كانت نصيحة ذهبية وفي مصلحة الدولة وقد عمل بها المعتصم فوجد الافشين منه وطال حزنه واشتد حقه « فإذا لم يكن ذلك لأنه قلل من إمكانيته وقوته في الانتفاض على الدولة فلائه على الأقل أزاحه عن المركز العسكري الأول والقيادة العليا فيها وجعل أشناس عديلا في

صح إلى انه من اهل الدين الأبيض أي الخرمية المحمرة أو على الأقل من الزرادشتين . وبالرغم من أن هذا غير بعيد بسبب التأثير الإيراني فيما وراء النهر إلا إنه لا ينسجم مع الأدلة التي قدمت لدى المعتصم لادانة الافشين بعدم الولاء للإسلام ولو كان مزدكياً لأعلنت التهمة ضده خلال محاكمته .

(١) ابن العبري . تاريخ مختصر الدول ص ١٤٠٥ .

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٧٧ .

(٣) الدينوري - الاخبار الطوال ص ٤٠٥ .

ذلك ... ولما اقتضحت بعض الأمور أحس الافشين تغيير المعتصم عليه ، فهم بالهرب ، عن طريق أرمينية ، فلم يتمكن . وفكر بعمل وليمة للمعتصم وقواده ، يسممهم بها ، ثم يهرب إلى أشروسنة عن طريق أرمينية والخزر ، ويستميل الخزر على أهل الاسلام ... فاستغرق تدبير ذلك زمنا^(١) كانت دسائس البلاط خلاله تقوم بدورها وتترك أثرها في ذلك كله . ولئن انفرد الدينوري^(٢) برد نكبة الافشين إلى وشايات أحمد ابن أبي داؤد فحسب (ولم يذكر موضوعها) وإلى تحريضه المعتصم عليه فقد يعني ذلك أن هذه الأمور ساهمت في نكبته ، ولكنها لم تكن السبب الرئيسي حتى إذا جاء بعض قواد الافشين الى المعتصم فكشف له عن تدابير الهرب ومشاريعه للمستقبل بعث إليه من فوره فما جاء القصر حتى أخذ وسجن في حبس مرتفع فيه (ذي القعدة سنة ٢٢٥) وبعث المعتصم في الاحتيال للقبض على ابنه الحسن في خراسان واستطاع ابن طاهر أن يأخذه بعد أن أوهمه بتعيينه لبعض الاعمال^(٣) .

ويظهر ان المعتصم كان يتخوف أمر الافشين ومقتله . ويخشى أن

(١) انظر الطبري ج ٩ ص ١٠٥ - ١٠٦ (٣/١٣٠٦ - ٧) وقد تكون هذه الامور من التقولات ، التي شاعت فيما بعد . فان ذكرها لا يرد عند محاكمة الافشين ، تمهيدا لقتله . ولعلها لا تعطينا اكثر من صورة من الجو السيء الذي بدأت تعرف به الحاشية اذ ذاك .

(٢) الدينوري : الاخبار الطوال ص ٤٠٥ - ٤٠٦ وهو يذكر أن ابن أبي دؤاد قال للمعتصم ، إن المنصور استشار أنصح الناس عنده في أمر أبي مسلم فأجابه بالآية الكريمة «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» فقال المنصور لناصحه حسبك ... وعلق المعتصم على الحكاية قائلا : وانت أيضاً حسبك !

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٠٦ - ١٠٧ (٣/١٣٠٧ - ١٣٠٨) .

يتسرب الشك إلى نفوس القواد الآخرين • لهذا فهو يعقد محكمة
لمناظرته ، يرأسها الوزير محمد بن عبد الملك الزيات • وعضواها أحمد
ابن داؤد القاضي واسحق بن ابراهيم صاحب الشرطة : وقصة جلسة
المحاكمة لا يفهم منها سوى انها مجموعة من التهم ، تجمعت لدى
المعتصم ، ودلته على ان الافشين غير صحيح الاسلام • وانه كان يسعى
للقضاء على سلطان العرب والمسلمين • وتتلخص هذه التهم في :

أ - ان الافشين جلد ألف جلد إماما ومؤذنا بنيا مسجدا في
أشروسنة •

ب - وجد عنده كتاب محلى بالذهب والجوهر والديباج فيه كفر
بالله ووجدت بعض الاصنام المزينة بالجوهر •

ج - انه يأكل المخنوقة • لأنها أرطب لحما ، في رأيه من المذبوحة •
ويقطع شاة سوداء كل اربعاء بالسيف ، ويمشي بين نصفها • ويأكل
لحمها •

د - لم يختتن •

هـ - يكتب إليه أهل أشروسنة «إلى إله الآلهة من عبده فلان» •
و - اعترف الافشين لاحد الموابذة قائلا «اني دخلت لهؤلاء القوم
(يعني العرب والمسلمين) في كل شيء أكرهه ، حتى أكلت لهم الزيت ،
وركبت الجمل ، ولبست النعل • غير اني إلى هذه الغاية» •

ز - كتب أخو الافشين (خاش) إلى أخي المازيار (قوهيار) انه
لم يكن ينصر هذا «الدين الابيض» غيري وغيرك ، وغير بابك ، فأما
بابك فإنه بحمقه قتل نفسه • ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فأبقى
حمقه إلا أن دلاه فيه فإن خالفت ، لم يكن للقوم من يرمونك به
غيري ومعني الفرسان وأهل النجدة والبأس فإن وجهت إليك لم يبق أحد
يحاربنا إلا ثلاثة العرب ، والمغاربة ، والأتراك • والعربي بمنزلة الكلب

أطرح له كسرة واضرب رأسه بالدبوس وهؤلاء الذباب (المغاربة) إنسا
هم أكلة رأس وأولاد الشياطين (الأتراك) فإنما هي ساعة حتى تنفذ
سامهم وتجول الخيل عليهم جولة فتأتي على آخرين .. ويعود الدين إلى
ما لم يزل عليه أيام العجم^(١) ...

وقد رد الافشين هذه التهم عن نفسه بقوة . وهاجم الشهود الذين
شهدوا عليه بعضها :

آ - اعترف الافشين بالتهمة الاولى وعللها بأن المؤذن والإمام
حولاً دار أصنام إلى مسجد خلافاً للاتفاق الجاري مع ملوك الصغد .
ب - اعترف بالكتاب والأصنام . ولكنه قال إنه مما ورثه عن
أبي ، وليس بي حاجة لجواهره فأبيعها . وفي الكتاب آداب الملوك ، التي
أصبحت فيما بعد كفرة . وكنت أستمتع بالأدب وأدع الكفر .
ج - ينفي التهمة ويهاجم الموبذ الذي شهد عليه . ويقول : إنه
غير مسلم لتصح شهادته على مسلم . ويلتفت إليه ، فيوبخه على قلة
وفائه . وينفي أن يكون باستطاعته الاطلاع على أعمال الافشين ، في
بيته :

د - لا ينفي ذلك ولكنه يعلله بأنه خاف على نفسه الاختتان .
وأنه لم يعلم أن في تركه خروجاً على الإسلام .
هـ - لا ينفي هذه التهمة التي شهد عليه بها المرزبان بن تركش

(١) انظر تفاصيل هذه التهم والمحاكمة لدى الطبري ج ٩ ص ١٠٧
- ١١٠ (٣/١٣٠٨ - ١٣١٣) . ولنلاحظ أن هذا الكتاب لا يهاجم الأجnas
من عرب ومغاربة وترك (والافشين تركي) ولكنه يهاجم فرق الجيش التي
كان يتألف منها الجيش العباسي اذ ذاك .

(احد ملوك الصفد) • ولكنه قال : كانت هذه عادة القوم لأبي ، وجدي ولي ، قبل أن أدخل الاسلام • فكرهت أن أضع نفسي دونهم ، فتفسد طاعتهم •

و ، ز - ينفي التهمة (و) ، ويقول في الاخيرة : ان المازيار يعترف ، على أخيه وأخي ، بتهمة لا تلزمني •

ويتضح من مجموع المحاكمة أن إسلام الأفشين كان سطحيا • وأن كره العرب وحكمهم ، كان أساس التفكير السياسي لديه ، ويذكر ابن خلكان أنه «كان يحسد أبا دلف العجلي (ولعله أشد الحسد) على العربية والشجاعة» حتى دبر له مكيدة كاد يقتله فيها لولا إصرار ابن أبي دؤاد في إنقاذه^(١) ولعله لهذا فكر في التحالف مع الجماعات الايرانية الثائرة وأصحاب الدين الخرمي منها المتمردين • وهذا هو التفسير الوحيد للكتاب الذي يذكر في المحاكمة أنه أرسل من أخي الأفشين إلى أخي المازيار • ونص الكتاب على الشكل ورد فيه متهافت لا يثبت للنقد • فلم يكن الأفشين بالايرواني ليهاجم الاتراك • وما كان ليهاجمهم وهو تركي الأصل منهم •

ثم إنه لم يكن على الدين الايض والخرمية لينصرها مع أولئك ويعيدها • ولا كان من الحق أخيرا بحيث يستهين تلك الاستهانة بجيوش الدولة العباسية وهو يعرفها حق المعرفة •

ولعل قضية الأفشين تستبين على وجهها إن نحن نقلناها من المستوى

(١) ابن خلكان - وفيات الاعيان ج ١ ص ٨٢ (طبعة عباس) انظر تفاصيل القصة هناك •

الديني الذي وضعت فيه الى المستوى السياسي الذي نبعت في الأصل منه ، فالأفشين أمير تركي ، إمارته المتوارثة موجودة قائمة • ولم يكن في الأصل خرمي الدين بدليل ما وجد لديه من الأصنام المذهبة المحلاة بالجوهر وليس في ديانات إيران من اصنام وتمائيل وأما الكتب المزوقة التي وجدت عنده فذكروا أن فيها الكفر ولم يذكروا أنها من كتب المجوس أو مزدك المعروفة جيدا للناس يومذاك • وبين «الأشياء الكثيرة من الكتب» التي حملوها من منزله وجدوا كتابا واحدا فقط من كتب المجوس سماه الطبري باسمه زراوه^(١) ••

إذن فللرجل إمارته وأهله ودينه التي لا علاقة لها بالإيرانيين ومن هنا فقد كان يعمل لنفسه : كانت قيادته لجيوش المسلمين مغامرة كبرى كسب فيها الكثير • فلما اصطلع عليه غروره من جهة ووشايات الحاسدين من جهة أخرى واحس تغير المعتصم أخذ يجمع أمواله في بلاده ويهيء نفسه للهرب إليها • وكان مشروعه واضحا كل الوضوح في ذهنه ، يعمل على تقوية الثورات الإيرانية الخرمية لتكون مع أصحابها سدا وحاجزا سياسيا عسكريا منيعا بين جيوش العباسيين وبين بلاده ويستقل بتلك البلاد • ولعل الكتب التي ترددت بينه وبين المازيار بشكل غير مباشر إنما كان هذا موضوعها : التحالف لتقوم الخرمية في أرض العجم فترتاح اشروسنة وما وراء النهر من السيطرة العربية والتغلغل الاسلامي فيها وينسحب العرب والاسلام من هناك فيخلو الميدان كي يقيم الأفشين هناك نظامه الخاص • وقد كانت خطته في هذه الناحية من الوضوح بحيث كان فيها مكان للخزر أيضا يمر ببلادهم وهو هارب فيتحالف معهم ويستميلهم

(١) الطبري ج ٩ ص ١١٤ (١٣١٨/٣) •

على أهل الاسلام لتكون الجبهة مثلثة تستد مما وراء النهر الى طبرستان
والجبال الى الخزر فلا يستطيع آل طاهر في خراسان دفع هذا الطوق
الخائق عنهم كما لا يستطيع خلفاء بغداد أمام خطر الخزر والدولة
الطبرستانية المتحالفة معهم أن ينجدوا جماعة خراسان . ولعل جانبا من
مخطط الأفشين قد انهار بانهايار ثورة المازيار فأراد التعويض عنها بثورة
منكجور ، شقيق زوجته والتسكين له هناك .

ومن الأرجح أن المعتصم وأصحابه قد أدركوا هذا المخطط الواسع
ولعلمهم قدروا أنه ليس من مصلحة الدولة إقامة محاكمة للأفشين على
أساسه ما دام إمكان الاتهام الديني موجودا وذلك لئلا تتشجع الكثير
من الرؤوس الخراسانية أو التركية وهي تملأ الجيش والولايات على
التفكير بمثله ولا يقوم به خاصة لا أبناء طاهر في خراسان ولا قواد
الجيش الكبار كأشناس وسيسا وإيتاخ وامثالهم في سامراء .

على أي حال ، فقد رد الأفشين إلى سجن بني خصيصة له بعد
المحاكمة ، في قصر الجوسق ، مرتفعا شبيها بالمنارذ . جعل له في وسطها ،
قدر مجلسه ، والحراس عليه . وقدأماته المعتصم جوعا ، إذ أمر بسنع
الطعام عنه إلا القليل ، فكان يدفع اليه ، في كل يوم ، رغيف خبز^(١) ،
حتى مات (شعبان سنة ٢٢٦ هـ شباط سنة ٨٥١) فهل خشي المعتصم
قتله ؟ أم تورع عن ذلك ؟ لنلاحظ أنه أعطى المصير نفسه للعباس بن
المأمون وللقواد الذين تأمروا معه ضده . على أن جثة الأفشين أخرجت
بعد ذلك فصلبت ليراها الناس و«أحضرت أصنام زعموا كما قال

(١) المصدر نفسه .

المسعودي — أنها كانت حملت إليه فألقيت عليه وأضرمت النار فأنت على الجميع .»^(١) ثم طرح الرماد في دجله ! .

ثانياً : ثورات العلويين :

لم تعرف هذه الفترة (٢١٨ — ٢٤٧ هـ) من ثورات العلويين ، سوى ثورة واحدة ، جرت في أوائلها ، وكانت تحمل صفات الثورات العلوية الأولى . بينما كانت الدعوة العلوية تأخذ مجاري سرية أخرى سيتمخض عنها ، في العصر العباسي الثاني ، حركات انقلابية خطيرة : ففي سنة ٢١٩ هـ ثار بعض الزيدية الجارودية^(٢) وهم « الذين يرون ان الإمامة شوري ، في ولد الحسن والحسين . فمن خرج منهم شاهراً سيفه ، يدعو إلى سبيل ربه ، وكان عالماً عارفاً ، فهو الإمام »^(٣) والامام الذي ثار بهم هذه المرة هو : محمد بن القاسم (ابن علي بن عمر بن علي ابن الحسن بن علي بن أبي طالب) وكان زاهداً يسكن الكوفة ، ويظهر انه كان متأثراً ببعض رأي المعتزلة ، في القول بالعدل والتوحيد^(٤) . وقد هرب خوف بطش المعتصم ، إلى خراسان .

وتنقل في كورها ، كمرو ، وسرخس ، وایبورد ، والطالقان ، داعيا

(١) المسعودي مروج الذهب ج ٤ ص ٦٢ وانظر الطبري في الصفحة السابقة .

(٢) الزيدية ينسبون الى قولهم بامامة زيد بن علي وهم فرق عديدة منها الجارودية المنسوبة الى زياد بن المنذر من غلاة الشيعة وكان يعرف بابي الجارود ويدعى الانتساب الى زيد . وقد توفي سنة ١٠٥ .

(٣) الاشعري : مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٦٧ .

(٤) انظر الاصبهاني مقاتل الطالبين ص ٥٧٨

إلى الرضا من آل محمد • فتبعه خلق كثير • ولكنه لم يكن أهلا لتنظيم الدعوة ، فلم تكن حركته خطرة • واستطاع عبد الله بن طاهر بعد وقعات عديدة معه أن يهزمه مع أصحابه • وكان هاربا ليلتجئ عند بعض انصاره حين كشف أمره فاستطاع أن يقبض عليه ، في الطالقان ، ويبعث به إلى السجن بسامراء ••• وكان ذلك آخر العهد به •• قالوا إنه هرب وجعل لمن يدل عليه مائة ألف درهم فلم يعرف له خبر • وقالوا إنه سم • أما أصحابه فظلوا يؤمنون بحياته ، وعودته المقبلة ، وانتظاره • وقد عرف المسعودي المؤرخ خلقا كثيرا من هؤلاء الزيدية المنتظرين لظهور محمد ابن القاسم في أواسط القرن الرابع الهجري المؤمنين أنه المهدي المنتظر وأكثرهم بناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم وكثير من كور خراسان^(١) •• ويعلق المسعودي على ذلك قائلا: «وقول هؤلاء في محمد ابن القاسم نحو من قول رافضة الكيسانية في محمد بن الحنفية ونحو من قول الواقفية في موسى بن موسى بن جعفر وهم الممطورة • بهذا تعرف هذه الطائفة من بين فرق الشيعة •••»

وهدأت الحركة الزيدية بعد ابن القاسم فمضى عهد المعتصم والواثق بعد ذلك دون حركة علوية • فلما جاء المتوكل بمعاملته السيئة للعلويين قامت عليه عدة ثورات صغرى قاد معظمها الزيدية فمنهم من سجن ومنهم من قتل^(٢) وقد ذكر الطبري من هؤلاء الثائرين يحيى بن عمر^(٣) ••

(١) انظر المسعودي - مروج الذهب ج ٤ ص ٢٥٢ - ٥٣ وانظر الطبري ٩ ص ٧-٨ (٣/١١٦٥ - ٢٦٦

(٢) الاصبهاني - مقاتل الطالبين ص ٦٠٠ وما بعدها .

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٨٢ (١٤٠٤) على أن الطبري يعود بعد ذلك

(ج ٩ ص ٢٦٦) فيناقض الخبر عنه بجمع الجموع ويشير الى ان سجن

أما الجماعة الإمامية فظلت على عهدهما المسالم أيضا . وقد استراب المتوكل بعلي بن محمد (الإمام الهادي) فجاء من المدينة الى سامراء فأنزله فيها تحت رقابته خوفا منه ومن اولئك الذين يقولون إنه الامام . ويقولون إنه استراب به كرة أخرى في سامراء إذ قيل له إن في منزله سلاحا وكتبا من شيعة فلما فاجأه الجند وجدوه يصلي ولا شيء عنده ! فأكرمه المتوكل رغم بغضه للعلويين وأمره بهدم قبر الحسين وأن يحرق ويذرق ويسقى ويمنع الناس من إتيانه

وليس يعني هذا السكوت أن الحركة العلوية انتهت ولكنه كان يعني ما هو أخطر بكثير : أنها أخذت سبيلها في السر سربا . وبدأت تيارات وأفكار ومطامح شتى تدخل إلى فرق الشيعة المختلفة وتلبس اللبوس العلوي وإذا تمخضت هذه الفترة الهادئة عن ثورة زيدية قادها سنة ٢٥٠ الحسن بن زيد العلوي (حفيد الإمام زيد) فقامت على أثرها الدولة العلوية في طبرستان فإن الفرق الشيعية الأخرى قد تمخضت عن حركات أعمق سرا وفلسفة وأطول بكثير عمرا . ففي تلك الفترة ، أيام علي الهادي ظهر محمد بن نصير النميري الذي أسس المذهب النصيري القائل بالغلو وتآليه الائمة فما تزال شيعة قائمة الى اليوم وفيها أيضا تكونت النواة الأولى للمذهب الفاطمي الباطني (السبيعي) والمذهب القرمطي التي لعبت اخطر الأدوار في التاريخ الاسلامي .

ثالثا : ثورات الخوارج :

إذا تركنا جانبا دولتي الخوارج اللتين ظهرتتا منذ عهد المنصور

يحيى كان لخلاف مع المسؤولين عن الطالبين ، وقد خرج يحيى هنا بالفعل بعد ذلك سنة ٢٥٠ في الكوفة ثائرا أو قتل .

والرشيد في افريقية وفي عمان ، فإننا لا نكاد نجد لهم حركة هامة بعد عهد
المأمون ...

فأما مباءتهم الكبيرة التقليدية في الجزيرة فقد سجلت ثورة ضعيفة
أخيرة : يقول اليعقوبي «خرج محمد بن عمرو الشيباني بديار ربيعة ،
وابو سعيد محمد بن يوسف بها . فخرج إليه مع الجند ، ومحمد بن عمرو
في ثلاث مائة أو أربع مائة من الخوارج . فصار إلى سنجار . ثم انهزم
إلى ناحية الموصل ، فتبعه ابو سعيد فأسره . وأدخله نصيبين على بقرة .
وحمله إلى الواصل . فكتب إليه : ما ينبغي أن يقتل . فإنه لن يخرج
خارجي ما دام حيا . فلم يزل محبوسا أيام الواصل (١) .

وأما في سجستان ونواحي هراة فقد كان الخوارج يفقدون
بالتدريج سيطرتهم على بقاعها المختلفة ويتحولون الى ما يشبه الجزر
السياسية المحاصرة في بعض البلاد أو الحصون وذلك تحت ضغط المطوعة
من جهة والولاة العباسيين من جهة ثانية والقوة الثالثة النامية مع أولاد
الصفار من جهة ثالثة . وقد قضى على الجزر الخارجية واحدة واحدة .
وبقي منها الى حوالي سنة ٢٦٠ نظام خارجي يقوده قائد يدعى عبد
الرحمن ظل يتسمى بالإمامة ثلاثين سنة في هراة حتى قتله يعقوب الصفار
وأرسل رأسه على سنان رمح الى الخليفة الموفق في سامراء رجاء أن
يشفع له هذا العمل بقبول الخليفة فتحه لخراسان وإزالة بني طاهر
منها (٢) .

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٣ .

(٢) انظر الطبري ٩ ص ٥٠٧ (٣/ ١٨٨١ - ١٨٨٢) والعيون والحدائق

(ج ١/٤) ص ٧١ - ٧٢ .

وإذا لم ينجح الخوارج في إقامة دولة لهم بسجستان فقد نجح آل الصفار في ذلك وحققوا بالفعل استقلالاً محلياً ذاتياً تتهماً أسبابه قبل ذلك بأكثر من نصف قرن في تلك المنطقة لا سيما وقد سبقهم إلى ذلك آل طاهر بالاستقلال الذاتي في خراسان ...

٢ - ثورات الاقليم :

وهي ثورات أقليمية محدودة . دفع إليها الظلم أحياناً ، وشجع عليها ضعف المركز ، أو الحقن على العصبية التركية . وقد كانت تمهيداً للحركات الانفصالية القرية . ويمكن أن تحصر أماكن هذه الثورات تقريباً فيما بين أرمينية إلى الشام ، إلى الحجاز ونجد ، وامتد بعضها لشمال إفريقيا . وقد كان معظمها في عهد الولاة .

أولاً - ثورات أرمينية :

يظهر أن وعورة تلك المنطقة الجبلية التي تمتد ما بين الموصل إلى أطراف قزوین من جهة ، والبحر الأسود من جهة أخرى ، كان يسمح بكثير من الاضطراب لأخلاق السكان التي كانت تملؤها : فهناك عناصر فارسية هزمت يوم هزم بابك ، وعناصر كردية وأرمينية ، ضعيفة الولاء للدولة ، وبعضها (كالأرمن) كان قسم منهم يسكن أرض بيزنطة ، كما سكنت المنطقة عناصر عربية من بني ربيعة ، وتغلب ، وشيخان خاصة ، وكان معظمهم خارجياً . وهذا ما يفسر لحد ما تكرار الحركات الثورية هناك وتعقدها .

ونستطيع أن نفهم أحداث المنطقة إذا تذكرنا أنه كان ثمة فيها ، كما

في معظم مناطق التخوم في الدولة العباسية سلطتان قائمتان دوماً : سلطة الوالي العباسي وسلطة الأمراء (البطارقة) المحليين . وإذا كان الولاة العباسيون قائمة طويلة تتبدل الاسماء فيها حسب الظروف باستمرار فإن الأمراء المحليين كانوا يشكلون أسرا حاكمة تتوارث الحكم . وإذا كان للوالي الاسلامي عماله الذين يهتمون بجمع الخراج كما يهتم هو بإقرار الأمن وطرق التجارة وحماية المسلمين والحرية الدينية فإن الآخرين كانوا نوعاً من السلطات الاقطاعية التي تملك مع الكنيسة الأرمنية التي يرأسها الكاثوليكوس (الباثليق) معظم الأراضي . وقد دخل مع هؤلاء الاقطاعيين القدماء نزلاء جدد من العرب أقطعت لهم الأراضي بدورهم وأصبحوا في معظمهم اقطاعية زراعية جديدة وإن اشتغل بعضهم بالتجارة وقد استطاع بعض هؤلاء النزلاء العرب أن يتوطنوا في البلاد للدرجة التي تزوجوا منها وبرز منهم كذلك أسر حاكمة «وراثية» في بعض المناطق ، تحت ظل الوالي الاسلامي أحياناً أو على الكره منه أحياناً أخرى .

وأبرز الأسر الأرمنية المحلية كانت أسرة بغرتوني Bagratouni (أو البقارطة) وكان لها فرعان واحد يحكم في منطقة جورجيا وله بعض الاستقلال والآخر في منطقة أرمينية وهو أكثر اتصالاً من الناحية الجغرافية (الأرض) والسياسية (الحكم) مع العباسيين وأما الأسرة الأخرى التي كانت تزاخمها أشد المزاحمة حتى مطالع العهد العباسي وهي أسرة الماميقون (أو أسرة ماميكونيان) فإننا سوف نرى أفولها في هذه الفترة الأخيرة من العصر العباسي الأول وغياب آخر ممثل لها عن أرمينية . وليس ثمة عدا هذا سوى أسر صغيرة محدودة الاقطاع والجاه مثل أسرة أرزروني بطارقة منطقة فاسبوراكان (ويسمىها العرب البسفرجان) ثم أمراء

سيسكان (ويسمىها العرب السيسجان) وأما من الأمراء العرب المحليين فكان هناك خاصة : اسرة شعيب (مولى الأمويين) في منطقة جرزان •

وإذا شهدت الفترة الماضية ، في عصر المنصور ، سحق القوى الاقطاعية الأرمنية في معظمها في معركة بغريفاند سنة ٧٧٢ التي تحالفت فيها الاسرتان الكبيران : الماميكوني والبقارطة وقتل كبيراهما فيها فإن الفترة الأخيرة من العصر العباسي الأول سوف تشهد بجانب غياب الماميكونيين صعود نجم البقارطة وتحولهم تحولا متقطع ولكنه مستمر الى أسرة مالكة ، رغم العداء الدائم بينهم وبين العباسيين وربما بسبب هذا العداء نفسه وقد كادت هذه الأسرة تسحق أكثر من مرة سواء بحسد الامراء الآخرين أو تحت السنايك العباسية ولكنها خرجت من أزماتها ، أكثر قوة وعرفت لاسيما بعد عهد أميرها آشوط المعروف بالجزار عهدا من التألق والسمعة جعل الخليفة العباسي يمنح زعيمها أولا لقب امير الأمراء ثم لقب ملك • وقد دعم مركزها السياسي والعسكري وقوف الكنيسة الأرمنية دينيا بجانبها وكان مقر الكنيسة في أملاك هذه الأسرة في بلدة دوين (دليل) ••

وقصة العلاقات العباسية الارمنية في هذه الفترة هي لحد كبير قصة ظهور مملكة أرمنية على الحدود الاسلامية المتصلة بالخزر من جهة وبالروم من جهة أخرى بزعامة الفرع الارمني من البقارطة ، ولكنها تؤدي الإتاوة السنوية لخلفاء سامراء وبغداد ••• ولعله مما يفيد أن نبدأ القصة من الجانب العربي ومن عهد المأمون • فقد كانت ثورة بابك في الجبال واذريجان فرصة لعدد من العرب كي يثوروا ولأمراء ارمنية كي يوطدوا مراكزهم •

ثار فيها أولا على المأمون رافضا بيعته عبد الملك بن الجحاف

المسلمي وحاصر واليه حتى حل المشكلة وال جديد أعطى عبد الملك الأمان . ثم تمرد حاتم بن هرثمة وكان واليا للمأمون فلما سمع قتله لأبيه هرثمة بن أعين خلع وكاتب البطارقة ووجوه ارمينية وكاتب بابك والخرمية وهون أمر المسلمين عندهم . . وهزم أكثر من جيش أرسله المأمون ضده ، ثم عصى سواده بن عبد الحميد الحجاقي (من أسرة شعيب) . . . وعصى غيره . . . وكاد الأمر يستتب مرة لمحمد بن حميد الطوسي لولا أن بابك ظفر به في بعض المضائق فقتله وعادت أرمينية الى الفوضى سنة ٢١٤ . . . حتى عين المأمون خالد بن يزيد بن يزيد الشيباني وكاد الرجل مرة أخرى يضبط الأمور بالرغم من أن عددا من الثائرين كانوا قد تحالفوا مع الأرمن (الصنارية) لولا أنه خلطهم بنفسه فأفسدهم^(١) . وجراهم . . .

وفشل والي المأمون ثم المعتصم من بعده وهو الحسن بن علي الباذغيسي (ويعرف بالمأموني) في إقرار السلام في المنطقة لأنه أهمل البطارقة ووجوه العرب ولأن لهم فازدادوا كلبا على من يليهم من الرعية وفسادا . . وجعل المعتصم ولاية أرمينية من حصاة الأفشين ولكن الولاة الذين أنابهم عنه فيها (محمد بن سليمان) الأزدي السمرقندي ، ثم محمد ابن خالد نجار خذاه ثم علي بن الحسين بن سباع القيسي) فشلوا جميعا في تهدئتها . . فوثب الأرمن ببعضهم واستضعف الناس بعضهم الآخر للدرجة التي سموا بها القيسي : اليتيم . ثم إنهم اتفقوا عليه وتجمعوا من حصونهم فحاصروه في مركز الولاية : بردعة^(٢) .

(١) انظر في تفاصيل هذا كله اليعقوبي ج ٢ ص ٤٦١ - ٤٦٤ والبلاذري

فتوح ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٢) انظر فارطان - تاريخ الحكم العربي في ارمينية (بالفرنسية) ص

١١٨ وقد اعتمدنا عليه وعلى غيره في تنظيم شجرة اسرة البقارطة .

من أسرة بقرطوني (البقارطة) Bagrakouni

سمباط أمير قاسبور اكان (المتوفى سنة ٧٠٥)

واساك

أشوط (الأعمى) سمله أمير الماميكون) حكم أرمينية بين سنة

٧٣٢ - سنة ٧٤٨ توفي سنة ٧٥٠

سمیاط (جد ملوک آرمینیہ قتل فی معركة بغریفاند سنة ۷۷۲)

شایبوح (سنة ۸۶۴)

آشوط (الحزار ، توف. سنة ٨٢٦) (١)

بقرط (سجن في سامراء سنة
٨٥١) وقتل سنة ٢٣٩ (٣)

(سباراييه) سمپاٹ المؤمن
اصہبذ مات فی (۲) سجن سامراء
سنة ۸۵۵

آشوط الكبير التقى أخذ لقب
 أمير الامراء من التوكل سنة
 ٨٦١ ولقب ملك سنة
 ٨٨٠ وتوفي سنة ٨٩٠

داود
 (سجنا مع أبيهما ثم أطلقا سنة
 ٨٧٧ عند هجوم باسيل الاول
 البيزنطي على طبروس)

3

آثر فارسيه (حتى سنه ۹۲۳)

داوود (حتی س۶۸۱)

(۸۳۳-)

حمل لقب (کوریولات) آشوط
(حکم جورجیا بن سنه ۸۰۹)

اقرفانیسیہ

واساك (جد ملوك جورجيا)

لكن هؤلاء المتغلبين والأمراء لم يكونوا يحاربون السلطة العباسية فقط ولكن كانوا يقتتلون فيما بينهم أيضا : عربا مع عرب أحيانا وعربا ضد أرمن أحيانا أخرى . ومن أبرز الاصطدامات تلك التي وقعت ما بين سوادة الجحافي وبين الأخوين الأرمنيين آشوط الجزار وشابوح زمن المأمون حوالي سنة ٨٢٣-٨٢٤ وقتل فيها الأخير^(١) .

ثم انتفضت أرمنية كرة ثالثة ، زمن الوراق : تحرك بها - على قول

(١) انظر التفاصيل لدى اليعقوبي ج ٢ ص ٤٧٥ ويذكر البلاذري (فتوح ص ٢٤٨) أن سهل بن سباط البطريق وثب بعامل الأفشين على أرمنية فنجابحشاشة نفسه وقتل كاتبه . وقد سمعنا قبل ذلك في ثورة يابك باسم سهل بن سباط هذا وأنه هو الذي قبض على يابك في أرمنية سنة ٨٣٧ وسلمه إلى الأفشين وكوفىء على ذلك بتاج البطارقة ومليون درهم . لم يرد في التواريخ الأرمنية اسم هذا وإلى أي عائلة ينتسب بين البطارقة . واقرب الاسماء إلى هذا الاسم هو شابوح فهل هو ياترى الأمير شابوح شقيق سمباط الكبير ؟

→ (١) تذكر المصادر الأرمنية أن العرب هم الذين لقبوا آشوط بن سمباط هذا باسم مساك Msaker وقالوا إنها تعني السفاح أو الذباح لكثرة ما قتل من العرب ولم نجد كلمة عربية قريبة منها في اللفظ وتحمل هذا المعنى فاخترنا ترجمتها بكلمة الجزار .
(٢) هذا اللقب الذي حمله سمباط وهو لقب سبارابه هو في الأصل اللقب الفارسي الطبرستاني اصبهذ . وتحرفة المصادر الأرمنية على هذا الشكل .

(٣) يبدو أنه قتل في سامراء سنة ٢٣٩ فهو صاحب الصنارية الذي ذكر الطبري (ج ٩ ص ١٩٦) أنه قتل هذه السنة ولعل السبب هو محاولة الضغط على الثورة التي عادت فبرزت ، أرمنية بعد الضربات الساحقة التي وجهها إليها بغا .

اليقوي^(١) - قوم من العرب والبطارقة (الارمن) والمتغلبين «وتغلب ملوك الجبال والباب والابواب ، على ما يليهم . وضعف أمر السلطان . . .» وقد وجه الواثق خالد بن يزيد بن مزيد اليهم فاستطاعت هيئته أن ترد إلى الطاعة معظم المنطقة . إلا أن وفاته عادت بالبلد «إلى أقبح أحواله» فتولى الأمر ابنه محمد . واستطاع ان يضرب ويحبس ، ويحرق الدور في نصيين ، التي كانت على ما يظهر من أهم مراكز الثورة . وهزم صاحبها اسحق بن اسماعيل الأموي ، ففر إلى تفليس . فلحقه ولحق الأرمن الصنارية بالقتال حتى هدأت البلاد . . .

غير أن الاضطراب عاد على أشده ، في عهد المتوكل . وتزعّم الارمن بقراط بن آشوط الجزار الذي «كان يقال له بطريق البطارقة» وعزم على الانفصال . فأرسل إليه المتوكل سنة ٢٣٤ يوسف بن محمد المروزي فكتب البطارقة . فأجابه بعضهم . وخرج إليه بقراط نفسه بالامان . فحمله ، مع ابنه داوود وآشوط ، إلى المتوكل ويظهر أن القائد العباسي خالف بهذا شرط الامان كما أخطأ بعض عماله فنهب ديرا تعظمه الأرمن يعرف بدير الاقداح فكان ذلك سبب ثورة شاملة إذ اجتمع البطارقة مع سمباط شقيق بقراط ، وهاجموا ذلك القائد في الشتاء الثقيل والثلوج وقد فرق اصحابه في القرى فقتلوه واحتوا على ما كان في عسكره^(٢) . وأما من معه فقد أمروهم أن ينجوا إذا شأؤوا عراة حفاة . فمات اكثرهم من البرد وسقطت أصابع قوم منهم . . .

(١) اليقوي ج ٢ ص ٤٨١ .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٢٤٨ واليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٩ وانظر

الطبري ج ٩ - ١٨٧ (٢/١٤٠٨ - ١٠) .

وقد كانت هذه الثورة من أعظم وأخطر الثورات التي عرفتها
أرمينية ضد الحكم العباسي بسبب شمولها للمنطقة كلها واتفاق كلمة
الأمراء الأرمن كافة عليها ، واجتماع بعض القوى العربية أيضا معهم ،
وهذا ما يوحي بأن الثورة لا تحمل الطابع الديني أو العنصري وأن
جذورها في الواقع اقتصادية مادية قد مست بضرائها كافة السكان .
ويبدو أن تبذير المتوكل في النفقات جعله يلح في طلب الأموال والخراج
من الولاة مما أثار في أرمينية حفيظة الناس ودعا الى تمرد بقراط بن
آشوط فلما أرسل إلى سامراء أفلتت سلسلة التدمير والاستياء لدى
الجميع . . . وقد وافق الأمراء الأرمن على الثورة موسى بن زرارة وهو
صهر بقراط . وأنذر سواده الجحافي يوسف والي المتوكل بما يدبر له
فلم يأبه فقتل في الثلوج وقتل أمراء الأرمن كافة من لديهم من أصحابه
في يوم واحد . . .

وعند هذا الحد اضطر المتوكل أن يعقد لأعظم قواده : بغا الكبير
على أرمينية سنة ٢٣٧ - ٨٥١ فصار بالجند العباسي الكثيف إليها .
فأتاه بالأمان أولا بعض الثائرين . . . كموسى بن زرارة (صاحب بدليس)
وآشوط بن حمزة^(١) (صاحب الباق) فحملا إلى المتوكل ، وقتلا . بينما
فتح بغا معقل البطارقة من آل بقرطوني وقتل منهم ثلاثين الفا . وسبى
منهم خلقا كبيرا باعهم في أرمينية ثم أسر بالحيلة سمباط^(٢) شقيق بقراط

(١) هكذا يسمى في المصادر العربية وأصل الاسم آشوط بن حمزاسب
وهو أمير أسرة أرزروني .

(٢) هو المعروف باسم سمباط المعترف أو المؤمن وكان يحمل لقب
سبارابيه أي الاصبهذ وقد مات في سجن سامراء سنة ٨٥٥ وابنه هو
الذي ولي الإمارة بعده وعرف باسم آشوط الكبير لأنه أول من حمل لقب
الملكية من هذه الأسرة .

فألحقه بالسجناء... أما إسحق بن اسماعيل في تفليس ، فرفض المجيء ، بالأمان ، فحاصره بغا ، ورماه بالمجانيق والحريق ، حتى مات من أصحابه حوالي خمسين وقتله ، وبعث برأسه ، إلى سامراء . كانت مسيرة بغا في أرمينية مجزرة واسعة إذا انتهت قوافل أسراها في أسواق النحاسة فقد سبق أمراؤها في القيود حتى سامراء . ولم يستدع المتوكل جيشه من أرمينية بعد ذلك إلا حين اضطره الى ذلك هجوم بيزنطي جاء على الثغور وفتنة واسعة دبرها الروم هناك . ولهذا يظهر المتوكل في التواريخ الأرمينية في صورة نيرون الفترة العربية^(١) .

على أن الهاريين من زعماء المنطقة حاولوا تحويل المشكلة الى قضية دولية ، ولعلمهم أعطوها شكل الصراع الديني من أجل ذلك فقد كتبوا الى صاحب الروم ، والى صاحب الخزر والى صاحب الصقالبة (روسيا) . ويبدو أن نوعا من العون قد تلقوه بنتيجة هذه المكاتبات وإن كنا لا نعلم بالضبط ماذا كانت مواقف هذه القوى المختلفة منها . على أننا نجد الثائرين قد استعادوا حركتهم رغم ذلك « واجتمعوا في خلق عظيم » لاشك أن بغا الكبير أخذته الخشية منه حتى كتب يطلب النجدة من المتوكل . ولعلمهم اضطرروه الى بعض التراجع قبل أن تصل النجدة بقيادة محمد بن خالد بن يزيد الشيباني الذي جعل كفة الجند العباسي هي الراجحة فسكن المتحركون ولم يلقيهم الشيباني بالقمع ولكن حدد لهم الأمان^(٢) .

(١) يقدمه خاصة توماس أرزروني المؤرخ الأرمني من القرن العاشر في أشد الألوان ظلمة وقسوة ويستلهم في تصويره صورة يزجرد الثاني ملك الفرس كما صورها المؤرخ البيزنطي إليزه في القرن الخامس . (انظر فارطان - تاريخ الحكم العربي ص ١٢٢ بالفرنسية) .
(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٩٠ .

فهدأت المنطقة وبنى فيها بغا مدينة كانت مخربة اسمها شمكور فأسكنها
قوما خرجوا إليه من الخزر مستأمنين راغبين في الاسلام ونقل إليها التجار
من بلدة براعة وسماها المتوكلية^(١) ..

ثم انسحب بغا سنة ٢٤١ - ٨٥٥ وأضحى محمد بن خالد هو
الوالي فيها فاستطاع قيادتها في هدوء حتى إذا وليها من بعده علي بن
يحيى خطا خطوة هامة في طريق التسوية مع البطارقة زعماء الأرمن إذ
اتفق مع الخليفة المتوكل فأطلق بعض الأمراء الأسرى ومنح الأمير
آشوط بن سباط سنة ٢٤٧-٨٦١ لقب أمير الأمراء في أرمينية !
واستطاع هذا الأمير الذي حمل لدى مؤرخي بلاده لقب الكبير والتقوى
أن يجتذب رعاياه والأمراء المحليين الآخرين فيخضعوا له وأن يحسن
علاقته مع الخلافة ب مداومة الاتاة وحسن العمل حتى لبي الخليفة المعتمد
طلب هؤلاء الأمراء أنفسهم فمنحه سنة ٢٧٣ - ٨٨٥ لقب ملك ونال مثل
هذا التكريم من امبراطور الروم وعقد معه حلفا^(٢) .. وقامت بهذا
الشكل مملكة ارمينيا التي توالى عليها أولاده بعد موته سنة ٢٧٨ - ٨٩٠

وقد ساعد هذه المملكة الأرمنية على النمو الواسع وعلى أن تبلغ
درجة كبيرة من الثراء والرخاء أنها قامت بدور العازل بين دولتين كبيرتين
(العباسية والبيزنطية) وكانت طريق التجارة العالمية القادمة من العراق
وفارس وممرها الوحيد الى الميناء البيزنطي : طرابزون ميناء التبادل
الوحيد مع بيزنطة الذي كان يحتكر وحده وبأمر القسطنطينية تجارة
المشرق مع بيزنطة والغرب .

(١) البلاذري - فتوح ص ٢٤٠ .

(٢) انظر الموسوعة الاسلامية مادة ارمينية ج ١ ص ٦٤٥ - ٦٤٦ -

من الترجمة العربية .

ثانياً - في اذربيجان

يبدو أن كثرة ظهور الثوار في المنطقة الشرقية من الدولة ما بين سجستان وخراسان الى أرمينية شجعت بعض المغامرين على أن يجربوا حظوظهم أيضا • ولذلك نجد أن السلسلة تتصل أحيانا ببعض الحلقات الغربية التي ما جاء بها الى المجال السياسي سوى المغامرة ومن هذا النوع ثورة من يسمى بمحمد بن البعيث في اذربيجان وإنما نذكرها كنسودج لأمثالها من حركات المغامرة •

والرجل في الأصل أديب شاعر بالفارسية له أخبار واحاديث - فيما يذكر الطبري - لكنه لا يسلك من الخلفية السياسية سوى الشجاعة والمغامرة وكان أبوه صعلوكا من صعاليك رجل يدعى الوجناء بن الرواد يملك قلعة حصينة بأذربيجان تدعى شاهى ويتبعها تبريز فأخذها ابن البعيث من صاحبها وامتنع بها فلما قامت ثورة بابك صالحه وصار يستضيف رجاله إن مروا به حتى إذا أنسواله قبض مرة على زعيم منهم فأرسله الى المعتصم^(١) يرجو عنده الزلفى • وتوسعت دائرة سلطانه فصارت بلدة مرند وحصنها مركزا له •

وقد شهد ابن البعيث انهيار بابك بجواره ثم شهد انهيار ثورة في اذربيجان نفسها سنة ٢٢٤ قام بها منكجور شقيق زوجة الأفشين بدعم خفي من الافشين نفسه وكان في المنطقة من الصعاليك ما يكفي في العدد لدعم منكجور - ولكن أصحابه أسلموه للقائد العباسي الذي جاء له • ولهذا لم يكن ابن البعيث ليفكر في التمرد بعد أن رأى الى الرؤوس الكبيرة تطير • ولكنه اصطدم مع عامل اذربيجان : حمدويه بن علي ثم اقتتلا فقبض عليه وحمله الى باب المتوكل سنة ٢٣٤ وقد استطاع ابن البعيث عند الخليفة أن يتهم العامل بسرقة الأموال وأن يتسبب بضربه

(١) انظر الطبري ج ٩ ص ١٢ (١١٧٢/٣) •

وأخذه بالأموال وإلقائه في السجن بدلا منه . . . لكنه هو نفسه وضع في نوع من الإقامة الجبرية بسامراء . واختفى بعد شهور وإذا به يظهر في بلدة مرند . . . » « وجمع إليه من كان بناحيته من الصعاليك وبعضهم من ربيعة وغيرها حتى بقوا نحووا من الفين ومائتي رجل . . وأظهر المعصية والخلاف . فأطلق الخليفة حمدويه من السجن لقتاله . ولكنه قتل وهو يحاصره ثم وجه إليه المتوكل جيشا آخر ، فلم يفز ، حتى حاربه بغا الصغير المعروف بالشرابي ، فاستنزل أصحابه أولا بما حمل لهم من الأمان حتى دلوا أنفسهم بالحبال من الحصن ثم استطاع أسره ، وحمله إلى سامراء . . . وطافوا به هناك على الجمال . وقد أنقذه من النطع ، عند المتوكل شعره وأدبه ويقال إن المعتز ابن المتوكل شفع فيه ولكنه مات في السجن في السنة نفسها سنة ٢٣٥ بينما أدخل أولاده في فرق الشاكرية وجعلت لهم الانزال . .

ثالثاً - ثورات الشام :

استمرت الشام مهملّة من بني العباس ، متروكة لعصبياتها الذابحة ، ولأملها بالسفياقي المنتظر . فكثرت ثوراتها ، لا سيما في حمص ودمشق وقنسرين واشتركت بها على نطاق واسع المجموعات البدوية غير أنا نلاحظ أنه بجانب ثورة بعض المجموعات المسيحية في لبنان التي قد يكون لها اتصال ببيزنطة ، فإن بعض المسيحيين في الداخل وبحمص خاصة يشاركون السكان الآخرين ثورتهم . ويتابعون العمل معهم ، رغم ما يلقيهم من أذى شديد . وهذا يدل على أن بعض الثورات في الشام ، كانت نتيجة سوء السياسة العباسية ، وظلم الولاة . ويظهر من ارسال المتوكل ، صاحب ديوان الخراج سنة ٢٤٠ هـ (أي سنة الثورات الكبيرة) إلى

(٢) انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٦ وانظر الطبري ج ٩ ص ١٦٤ - ١٦٦

ثم ص ١٧٠ - ١٧١ (٣/١٣٧٩-١٣٨٢ ثم ٣/١٣٨٧-١٣٨٩) .

الشام ، «لتعديل ارض دمشق والاردن ، وتحميل كل ارض ما تستحقه»^(١) ، ان سوء توزيع الضريبة والخراج كان يساهم في إضرار النعمة على بني العباس . «وأن البلد كان يحتاج أن يعدل» كما قالوا في عاصمة الخلافة .

على أن كلمة «الأموية» هي العقدة التي يمكن أن تلخص موقف الشام والتي كانت تجتمع فيها وتلتقي من حولها كالنواة كافة المشاكل المالية الخراجية والاقتصادية والسياسية . وقد كانت هذه الأموية ماتزال حية عنيفة الحقد ، بعيدة الأمل في وقت معا رغم مرور قرن وأكثر على سقوط الأمويين . وقد ترك لنا ابن العديم صورة معبرة عن موقف الشام في قصة فتى شاعر أموي أو من مولى الأمويين كان يدعى الفرخ . قال : «لما أراد المتوكل الخروج من الشام الى العراق (في العودة) أحب أن يجعل طريقه على البرية لينظر الى آثار بني أمية ومصانعهم (قصورهم الصحراوية) وكان في طريقة دير يعرف بدير حنينا (بين بالس والرصافة قرب حلب) . فلما أزمع على ذلك اتصل خبره ببعض موالي بني أمية فقال : والله لأنقصن عليه نزهته بأبيات أجيئها . ثم تقدمه إلى الدير فجعل لصاحب الدير جعلاً على أن يدعه يكتب في صدر الهيكل أبياتا فأذن له فكتب :

أيا منزلاً بالدير أصبح ثاويًا	تلاعب فيه شمل ودبور
كأنك لم تقطنك بيض نواعم	ولم تتبختر في فنائك حور !
وأبناء أملاك عباسم سادة	صغيرهم عند الأنام كبير ..

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٩٤٠ وصاحب الديوان هذا هو أحمد بن محمد وكان كتاب الديوان يخافون منه فاحتالوا لإرساله بأن قالوا إنه لا يقوم بالتعديل إلا من ولي ديوان الخراج ..

إذا نزعوا تيجانهم فضرأغم وإن لبسوا تيجانهم فبدور
ليالي هشام بالرصافة قاطنا وفيك ابنه يا دير وهو أمير
رويدك إن اليوم يعقبه غد وإن حروف الدائرات تدور
لعل زمانا جار يوما عليهم لهم بالذي تهوى النفوس يحور
فيفرج مرتاد • ويأمن خائف ويطلق من ذل الوثاق أسير ••

فلما قرأ المتوكل بكى بكاء شديدا وقال : والله ما كتب هذا إلا
رجل من بني أمية يريد أن ينقص علي ما أنا فيه • فمن أتاني به فله ديتة •
فطلب فأتى به فإذا هو رجل من بني أمية من أهل دمشق يعرف بالفرخ
فأمر المتوكل بقتله •• وبهدم الموضع فهدم الحايط ••^(١) وفي البيتين
الأخيرين إشارة الى آمال الأمويين من جهة وما لا يزال يرهقهم بالخوف
والسجن من العباسيين من جهة أخرى •

ولهذا لم يكن غريبا لا أن تتعدد الثورات ولا أن تجد بسرعة من
يلبي نداءها • وأهم الحركات :

- **ثورات دمشق وجنوب الشام :** وعناصر الثورة والنقمة كانت
تقليدية ما تزال على حالها ، لا العوامل المثيرة فيها تغيرت ولا الناس ملوا
الثورة • ولم تترك زيارة المأمون لدمشق مرتين أي أثر في الناس مع أنه
أول خليفة عباسي يطرقها وقد حاول قدر طاقته أن يزيل عاملا أساسيا من
عوامل تدميرها وهو تفاوت الخراج وظلمه • فما مضت عشر سنوات على
خروج المأمون منها (وكان قد توفي) حتى وجدت الشام نفسها أمام ثورتين
لا واحدة من ثوراتها التقليدية • سرعان ما ارتبطت إحداهما بالأخرى :

(١) ابن العديم - بغية الطلب ج ٨ (مخطوط أحمد الثالث) الورقة ٢٥٥
وجه حتى ٢٥٦ وجه وقد اختصرنا بعض الأبيات والحكاية .

— ثورة في دمشق على أميرها الجديد • أبي المغيث موسى بن إبراهيم الرافعي الذي عينه المتوكل عليها سنة ٢٢٦ «فخرجت عليه قيس لكونه صلب منهم خمسة عشر رجلا • وأخذوا خيل الدولة من المرج • فوجه إليهم أبو المغيث جيشا فهزموه ثم استفحل شرهم وعظم جمعهم وزحفوا على دمشق فحاصروا الأمير فيها»^(١) وكان الثائرون على قول ابن عساكر هم من أهل الغوطة والمرج : كفر بطنا وجسرين وسقبا وقرى جرش • وأما الذي تزعم الحركة فالزعيم القيسي : ابن يهس •

وأما الثورة الأخرى ففي الجنوب : قامت في الأردن والغور حتى الرملة في قلب فلسطين • والمنطقة سهول زراعية وقرى وحراثون والغالب على سكانها — بما فيهم دمشق — أهل اليمن وبها — كما في الغوطة بدمشق — قوم من قيس في حوران والجولان مركزهم بصرى ومنهم جماعة فيما بين عمان وأريحا والغور • وبعض المواقع مثل بيسان والرملة وسهول طبرية أخلاط من الناس عرب وعجم — على ما يقول اليعقوبي — ويقصد بهم السكان الأصليين الذين كانوا يسمون بالنبط • وخراج جند الأردن إذ ذاك يبلغ سوى الضياع مائة ألف دينار بينما يبلغ خراج دمشق ثلاث مائة ألف وخراج فلسطين مثله^(٢) •

ويلفت النظر في هذه المنطقة التي كانت ذات يوم مكنن الامام في الدعوة العباسية أن فيها مدينة أخذت في العصر العباسي الأول وما بعده طابعا ثقافيا واضحا هي طبرية • وقد كان الأشعريون يومذاك هم الغالبون

(١) الذهبي — العبر ج ١ ص ٢٩٧ — ٢٩٨ وانظر ابن الاثير ج ٦ ص ٥٢٨ • وأبو المغيث يذكر باسم الرافعي في بعض المصادر •
(٢) اليعقوبي — البلدان ص ٣٢٥ — ٣٢٧ •

عليها • وقد مر بها المسعودي بعد قرن من هذا الزمان فوجد فيها كتباً
تقل عنها وجماعة ناقشها في الإمامة والفقه والعلم

في هذه المنطقة إذن ثار قبيل موت المعتصم بسنة سنة ٢٢٦ - ٨٤١
ثائر من أخطر ما عرفت الشام من ثوار عرف بأبي حرب تميم اللخمي •
والرجل يمانى من أهل الغور قيل إنه خلع الطاعة لسبب شخصي إذ
ضرب بعض الجند زوجته في غيابه فغضب وقتل الجندي ثم هرب ثائراً •
لكن تصرفه بعد ذلك يوحي بأن الرجل كان يصدر عن عقيدة معينة نذر
لها نفسه وأراد أن يكون جنديها المجهول فجعل على وجهه برقعاً لئلا
يعرف حتى عرف بالمبرقع (هل هو تقليد المقنع؟) وما من شك في أن
الرجل اتصل بذلك المركز العلمي عنده في طبرية أو أخذ بعض الأفكار
فيه قبل أن يثور لأنه كان قد لجأ الى جبل من جبال الاردن • وطلبه
السلطان فلم يعرف له خبر فكان يظهر بالنهار فيقعد على الجبل الذي
أوى إليه متبرقعا فيراه الرائي فيأتيه ، فيذكره ويحرضه « على الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر » ويذكر السلطان وما يأتي الى
الناس « فيعييه » وتوجه بدعوته الى الفلاحين والفقراء

ويظهر أن ظلم العباسيين وإهمالهم للمنطقة سمحا لدعوة أبي حرب
بالتوسع منذ سنة ٦٢٩ على أنه توسع كان يحمل طابعا «فلاحيا» خاصا
إذ «استجاب له قوم من الحرايين وأهل القرى» وكان يزعم أنه أموي
فقالوا : «هذا هو السفيناني» ! ولما كثر جمعه من هذه الطبقة من الناس
دعا أهل البيوتات فاستجاب له جماعة من رؤساء اليمانية •

وهنا التقت ثورة أبي حرب بالثورة الأخرى التي كانت قائمة في
دمشق فقد استجاب لأبي حرب اثنان من زعماء اليمانية من أهلها ثم

استجاب له وتحالف معه كذلك ابن يهس زعيم القيسية الذي يبدو أنه «كان مطاعاً في أهل اليمن» أيضاً^(١) .

« واتصل الخبر بالمعتصم وهو عليل علته التي مات فيها . وقد مات ما بين المحرم وربيع الأول سنة ٢٢٧ - تشرين الثاني كانون الأول سنة ٨٤١ » وخشي امتداد الثورة أيضاً الى الشمال فبعث بالقائد رجاء بن أيوب الحضاري ولديه أوامر محددة للقيام بحملة تأديبية تبدأ بدمشق ثم الأردن لتنتهي في برقة^(٢) فقد كانت لها هناك ثورتها أيضاً . ووصل رجاء يدرس الوضع ومعه زهاء ألف من الجند . وكان طبيعياً أن يختار ضرب دمشق أولاً ولكنه فيما يظهر تردد طويلاً قبل أن يتخذ قراره ولعله كان يخشى تدخل المبرقع ضده فقد استخبر عنه «فوجده في عالم من الناس . . . كان في زهاء مائة ألف» !

واتفق في هذه الفترة أن مات المعتصم بعد علة دامت شهرين ونصف الشهر بينما كان رجاء الحضاري ينزل بدير مران (على سفح قاسيون)^(٣) وكان ابن يهس وأصحابه من أهل الغوطة معسكرين في مرج راهط .

(١) يذكر الطبري أن ابن يهس كان من رؤساء اليمانية وكان مطاعاً فيهم وهو سهو في الإملاء لأن الرجل زعيم القيسية وبني كلاب . (انظر الطبري ج ٩ ص ١١٦) .

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٠ .

(٣) في المصادر بعض الخطأ وقد حاولنا في السرد الذي قدمنا إصلاحه واعطاءه الترتيب المنطقي : يذكر الطبري (١٧٧/٩) أن المعتصم أرسل ، وهو عليل علة الموت ، رجاء الحضاري لإخماد الثورة . وأنه انتصر على الثورتين وعاد اليه ويذكر اليعقوبي وابن الأثير أن ثورة ابن يهس القيسية إنما كانت بعد موت المعتصم . وقد حاولنا تنظيم الأمر استناداً الى التوقيت من خلال الوقائع . ولعل خبر الطبري يستقيم إذا جعلنا عودة الحضاري الى الواقع بدل المعتصم .

ودعاهم رجاء الى الطاعة فأبوا الا أن يعزل أبو المغيث فلجأ الى الحيلة :
واعدهم يوما معيناً للحرب عند دومة (وربما في مرج عذراء شمال شرق
دمشق) ثم مضى قبل يوم من ذلك الموعد فباغتهم عند (كفر بطنا) في
الغبوطة وقد تفرقت جموعهم وسار بعضهم إلى دومة وبعضهم في حوائجه
فهمزهم ثم صنع السيف في كفر بطنا وسقبا وجسرين وقتل منها نحو
ألف وخمس مائة مقابل ثلاث مائة قتيل من جنده .. ويبدو
أن اليمانيين اشتركوا في هذه الحرب مع القيسيين فإن
الطبري يذكر مقتل الرئيسين الدمشقيين اليمانيين منهم .
كما يبدو أن ابن يهيس تمكن أولا من الهرب كما ذكر ابن الاثير ثم وقع
في الأسر^(١) .. (حوالي جمادى الأولى أو الثانية حتى رجب سنة ٢٢٧) .

وانصرف رجاء بعد ذلك الى المبرقع في الاردن وكان الرجل في
جبال الأردن قد صار في زهاء مائة ألف . فكره رجاء مواقعه وعسكر
بحذائه وطاوله» . وامضى الصيف ينتظر^(٢) . وجاءه رسول من الواثق
يستحثه فما كان منه إلا أن حبسه عنده لا يعود ... «حتى كان أول

(١) انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٠ والطبري ج ٩ ص ١١٨ (١٣٢٢/٣)
وابن الاثير ج ٦ ص ٥٢٢ - ٥٢٣ ورواية ابن الاثير مأخوذة عن ابن عساكر
باختصار شديد وأما الطبري فيذكر أن خسائر الثائرين بدمشق كانت
خمسة آلاف .

(٢) عبارة الطبري «أول عمارة الناس الأرضين وحراثتهم» تعني دون شك
مطلع الخريف وعند ذلك يكون قمع الثورة في مطلع سنة ٢٢٨ لا في سنة
٢٢٧ أما أن شئنا أن نفهم من النص أنه أول انصراف الفلاحين للعمل
وهي أيام الحصاد فتكون الواقعة بين مطلع الصيف أي في مايس حزيان
سنة ٨٤١ أو في شعبان من سنة ٢٢٧ .

عمارة الناس الأرضين وحراثتهم» (مطالع تشرين الأول سنة ٨٤١ - محرم سنة ٢٢٨) «وانصرف من كان من الحراثين مع ابي حرب الى الحراثة وأرباب الارضين الى أرضيهم وبقي أبو حرب في نسر زهاء ألف أو ألفين .» .

عند ذلك وجد رجاء فرصة القتال الرابع . فناجزه الحرب فلما التقى العسكران قال رجاء : ما أرى في عسكره رجلا له فروسية غيره وسيظهر لأصحابه ما عنده من الرحلة فلا تعجلوا عليه وهجم أبو حرب على عسكر رجاء فأفسحوا له حتى خرق الصفوف الى ما وراءها ثم عاد وكرر ذلك مرة أخرى فلما كانت الثالثة اطبقوا عليه فأخذوه عن دابته . . ثم هاجموا أصحابه وقتلوا منهم الكثير . . يقول الطبري «قتل نحو عشرين ألفا» وهي مبالغة جسيمة إن لم تكن تضمن من قتل من قبل ومن بعد في الحملات الانتقامية التي وقعت دون شك على القرى بعد ذلك .

وتقول رواية الطبري إن رجاء قدم على الخليفة بالأسيرين : ابن يهس المبرقع فألقيا معا في حبس المطبق بسامراء وتقول الرواية إن الخليفة لام قائده على تأخره وحبس رسوله فقال «وجهني في ألف إلى مائة ألف فكرهت أن أعاجله فأهلك ويهلك من معي فتمهلت حتى خف من معه ووجدت فرصة . . فجئتك بالرجل أسيرا ! ومضى رجاء الحضاري بعد ذلك الى برقة يكمل المهمة التأديبية . . ولكن كوامن الثورة ظلت باقية كالجذور الملونة بأرض الشام لم تمضى عشر سنوات ونيف حتى أثبتت نياتا جديدا .

ففي سنة ٢٤٠ ، عاد أهل دمشق فوثبوا بأمر المتوكل عليها : وهو سالم بن حامد فقتلوه على باب قصر الخضراء مقر الحكم في يوم جمعة والسبب أنه «سيء السيرة . كثير التعدي والظلم والجور والغش»

والعتو والأذية» - حسب الفاظ ابن عساكر - . وكان المتوكل قد ولى سالما ، وهو من العرب «فخرج من العراق في أربعة آلاف فارس وراجل من قومه وغيرهم حتى إذا صار بدمشق وملكها أذل قوما بها كان بين (قومه) وبينهم طائفة ودماء (ثارات) في أول أيام بني العباس وآخر أيام بني أمية وكان لبني بيهس ، ولجماعة من قريش دمشق ، وسائر العرب (من اليمن) قوة وعدة ونجدة وكلمة مقبولة «فلم يطيقوا ما أخذهم به من العدوان فقتلوه «وقتلوا من قدروا عليه من أصحابه . وسلطوا الموالي على رجالهم وأموالهم فنهبوها . وبلغ ذلك المتوكل فغضب وقال: من للشام وليكن في صولة الحجاج ؟ ف قيل له أفريدون التركي «وهو غلام من الأتراك الذي كانوا في حرس المتوكل . . . شجاع ، سفاك الدماء» فدعا به وعقد له علم دمشق وولاه عليها . فسار إليها في سبعة آلاف فارس وثلاث آلاف راجل . وأطلق له المتوكل القتل بدمشق يوما إلى ارتفاع النهار وإباحة النهب ثلاثة أيام . ونزل أفريدون في بيت لها ، (على مدخل دمشق الشرقي) وهي قرية يمانية . . ولكنه لم يدخل البلد لأن بغلته رفضته صباح دخولها فقتل «وصار حديثا ومثلا» في الشام «وانصرف العسكر راجعا إلى العراق»^(١) .

ولسنا ندري ما الذي تم بعد ذلك . سوى أن نجد المتوكل نفسه يترحل ثلاث سنوات إلى دمشق برجاله وحاشيته لعلها أن تكون العاصمة وكان هذا الاختيار من المفارقات الغريبة التي لا يمكن أن تستمر . وبالرغم من أن المتوكل نزل قصر المأمون بين داريا ودمشق وبنى قصرا لنفسه إلا إنه ترحل فجأة كما جاء فجأة . . وكأن المشروع كان نزهة عابرة

(١) ابن عساكر - تاريخ دمشق (التهذيب) ج ٦ ص ٤٧ - ٤٨ .

فكان ثاني وآخر خليفة عباسي رآته دمشق التي عادت بعده الى ديدنها القديم وسوف تثور كما تثور مثلها الأردن بعد سنوات ..

ثورات حمص على عمالها : سنة ٢٤٠ ثم سنة ٢٤٢ وسنة ٢٥٠ والسنين التالية حتى حملت اسم الكوفة الصغرى لكثرة بوائقها وخروجها في رفض الظلم ولقي أهل حمص مر العذاب من صلب وهدم وقتل وجلد وتشريد في ذلك حتى لنستطيع أن نعد هذه السنوات في تاريخ حمص سنوات النضال والمأساة السوداء .

«ومدينة حمص - في ذلك الوقت - من أوسع مدن الشام ... وأهل حمص جميعا - يمن من طي وكندة وحمير وكلب وهمدان وغيرهم . وهي «كثيرة الزرع والضرع ولها مياه وأشجار» .. وجميع طرق حمص من اسواقها وسككها مفروشة بالحجارة مبلطة .. وبها بيعة بعضها مسجد الجامع وشطرها للنصارى فيه هيكلمهم ومذبحهم ويعتهم من أعظم بيع الشام ..» «وخراج حمص القانون القائم يبلغ سوى الضياع مائتي ألف وعشرين ألف دينار ..»^(١) وقد ترتفع الى ٣٤٠ ألف دينار .

وتاريخ حمص في الثورة على العباسيين طويل . وقد سبق أن عرفت منهم القتل والصلب في عهد المنصور والرشيد والأمين فثوراتها في عهد المتوكل هي تنمة السلسلة التي سوف تستمر حلقاتها أيضا في عهد الخلفاء القادمين بعده .

والحادث الذي أثار حمص كان ممكنا أن يمضي دون أثر لولا

(١) النصوص مزيج من ابن حوقل - صورة الارض ١٦٢-١٦٣ ، ومن اليعقوبي - البلدان ص ٣٢٤ وابن خرداذبه - المسالك ص ٧٦ .

أن التدمير فيها كان على حواشي الانفجار : فقد قتل عامل المعونة^(١) أبو المغيث موسى بن ابراهيم الرافعي بعض رؤساء البلد فوثب أهل حمص به (جمادى الآخرة سنة ٢٤٠ تشرين الثاني سنة ٨٥٤) وقتلوا جماعة من أصحابه ثم أخرجوه وأخرجوا عامل الخراج من مدينتهم . وهذا يعني أن القضية كانت تتعلق بالخلاف والقسوة في الضرائب .

وقد وجه المتوكل إليهم رسالة حملها بعض رجاله تقول : إن أمير المؤمنين قد أبدلكم رجلاً مكان رجل فإن سمعوا فول عليهم محمد بن عبدويه كرادس الانباري . وإن أبوا فأقم مكانك لأرسل اليك الخيل لحربهم . . فلما رضي الحمصيون بالوالي الجديد وأطاعوا «فعل فيهم الأعاجيب»^(٢) على قول الطبري .

وكان هذا سبباً في وثوبهم في السنة التالية (في موعد الثورة السابقة) على ابن عبدويه ويظهر أنه شمل بظلمه وقسوته كافة عناصر السكان في البلد مما أقام بين أهلها في هذه المرة حلفاً على الثورة فلما تحرك السكان العرب «اعانهم على ذلك قوم من نصارى حمص فكتب بذلك الى المتوكل» الذي أمره بالمقاومة وأمدّه بجند من رتبة دمشق مع عاملها ومن جند الرملة . . . وكانت عقوبة المدينة قاسية انصبت على رؤساء المدينة وعلى النصارى : جاء الأمر بالقبض على ثلاثة من الرؤساء يضربون بالسياط ضرب التلف ثم يصلبون على أبوابهم ويأخذ عشرين

(٢) يطلق اسم عامل المعونة أحياناً على من يوزع الأموال على المقاتلين عند انتدابهم للحرب كما يطلق أحياناً أخرى على من يجمع الضرائب (المعاون) التي تفرض لعون السلطان على الحرب . وكان السجن من أعمال هذا العامل الذي قد يشبه في ذلك قائد الشرطة . انظر : DOZY , Sup. aux Dictionnaires Arabes Vol II, P. 192

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٩٧ (١٤٢١/٣) .

آخرين بعد ضربهم ثلاث مائة سوط ، فيساقون بالحديد الى سامراء •
كما جاء الأمر بتخريب ما في حمص من البيع والكنائس وإدخال البيعة
الكبرى في المسجد الجامع وإجلاء النصارى عن المدينة خلال ثلاثة
أيام... •••

وتفدت الأوامر الخليفة ولكن لم يصل سامراء من الرؤساء سوى
سبعة مع رأس رجل ثامن مات في الطريق • فضربوا حتى الموت ثم صلبوا
بينما كان على باب حمص مصلوبون آخرون منهم أحد رؤوس الثورة :
عبد الملك بن اسحق بن عمارة الذي صلبت جثته على حصن تل
العباس ! (١) •••

اما ابن عبدويه والجند والوالي الجديد فقد أخذوا على هذه
الأفاعيل منح المتوكل بعشرات ألوف الدراهم كما منحوا الخلع •••

على أن هذه التدابير الساحقة لم تمنع ولعلها بالعكس زادت في
النقمة فما مضت سبع سنوات عليها حتى تحركت المدينة تناضل من جديد •
كان عليها عامل اسمه كيدر بن عبيد الله فأخرجه أهلها سنة ٢٤٨ فوجه
إليهم الخليفة المستعين وهو في أول أيام خلافته أحد امراء منطقة
طبرستان : الفضل بن قارن شقيق المازيار وجاء بالجيش فمكر بأهل
حمص حتى أخذ البلد والناس ثم قتل منهم الخلق الكثير وحمل مائة من
أعيانهم الى سامراء (٢) ••• ليلاقوا دون شك مصير أصحابهم الذين
سبقوا قبل سنوات ••• بينما كان سور المدينة يهدم وحجارة طرقاتها
تقلع •••

(١) الطبري ج ٩ ص ١٩٩ - ٢٠٠ (١٤٢٢/٣ - ١٤٢٤) •

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ١١٩ (حوادث سنة ٢٤٨) والطبري ج ٩

ص ٢٥٩ (١٥٠٨/٣) •

واتتقمت حمص بسرعة من الأمير الطبري التي نتجت بأحياء كلب
وأقامت حلفاً مع زعيمها عطيف بن نعمة ووثقوا بدين فآرن «فتحصن منهم
بقصر خالد بن يزيد بن معاوية وقد كان جديده فحاصروه • وغاله من كان
معه وأسلمه فأخذوه وذبحوه وصلبوه على باب الرستن» «ونهبوا ماله
ونساءه» وأعادوا رصف الطرق ••• ولكنهم «خافوا عامل دمشق فزحفوا
إليه وهو نوشرى بن طاجيل التركي • فوجه إليهم بعسكر من البابكية
وغيرهم فهزموهم وانصرفوا الى حمص» ظافرين ••

غير أن المستعين أرسل عليهم بالقائد «موسى بن بغا الكبير في
سنة آلاف من الموالى» ولم يكن بالمدينة سور يحميها فخرج أهل حمص
والبدو معهم لمنازلته قبل وصوله في السهل الممتد بينها وبين الرستن
«وفيهم خلق من نصارى المدينة ويهودها» متضامنين معهم وتزعم
الحملة «رجل يقال له دابر العفار في خلق عظيم من كلب •• ولكنهم
هزموا في المعركة •• فلحقهم موسى وكانت المدينة بعد ذلك هي الضحية
الكبرى •• دخلها «عنوة وأباحها ثلاثة أيام فأنتهبت وطرحت النار في
منازلها وأنتهبت أموال التجار» وقتل من الناس مقتلة عظيمة وأسر
جماعة من رؤساء أهلها بينما لحق عطيف بن نعمة بالبدو والبادية •••

هل ماتت الثورة بهذه الضربة الساحقة ؟ ماتت في الواقع الى حين
لأننا سوف نشهد حمص بعد سنوات قليلة سنة ٢٦٦ تقتل من جديد
عاملها موسى الكرخي ، قبل ان ينقطع ارتباطها بالعراق ويتصل بمصر
وتصبح جزءاً من دولة ابن طولون • أما بادية حمص فلم تهدأ واتصلت

(٣) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٩٦ .
(٤) انظر الطبري ج ٩ ص ٢٧٦ (١٥٣٣/٣ - ٤) والبلاذري - فتوح
ص ١٥٩ ، واليعقوبي ج ٢ ص ٤٩٦ - ٤٩٧ .

ثورتها بمنطقة أخرى في شمال الشام تحركت إثر همود الثورة بحمص وما كانت من قبل من التمرد من قليل أو كثير هي:

المرة : ولم تكن في ذلك الوقت أكثر من « مدينة قديمة خراب ، - على قول اليعقوبي - » وسوف تكون بعد فترة قريبة « مدينة كثيرة الخير والسعة من التين والفسق وما شاكل ذلك من الكروم والأزربة^(١) » وأهلها من تنوخ نزلوها قبل الاسلام كما يقول البلاذري وقد اضطربت هذه القبائل بسبب نجهله حوالي الوقت الذي ثارت حمص سنة ٢٥٠ « ووثب بالمرة ٠٠٠ يوسف بن ابراهيم التنوخي المعروف بالقصيصة . فجمع جموعاً من تنوخ وصار الى مدينة قنسرين فتحصن بها فلم يزل بها حتى قدم محمد المولد ، مولى الخليفة المستعين ويكشف نص تاريخي نقله ابن العديم المؤرخ الحلبي ان لهذه الثورة علاقة برفض المنطقة الشمالية من الشام تحت تأثير من فيها من العباسيين وهم بنو صالح بن عبد الله ، بيعة المعتز وميلهم الى الخليفة المستعين وكان الاثنان في فتنة هي نسخة مصغرة عن فتنة الامين والمأمون كما يكشف أنه كان ثمة ثائر رئيسي هو محمد بن خالد أطلقت عليه سامراء قائد من قوادها فانتهبوا أمواله وضياعه ، وأحدهما هو محمد (أو أحمد المولد) الذي مضى بعد حلب الى قنسرين ثم الى حمص وقتل في طريقه خلقاً كثيراً ٠٠٠

وانهزم مأمم المولد زعماً ءحمص وبدوها وهما المؤمل وعطيف الكلبي ثم استسلما بالامان وبايعا المعتز لكن استطاع المولد بعد إقامة أيام بحمص أن يقبض على عطيف فيضرب عنقه صبراً ويوجه رأسه الى

(١) انظر اليعقوبي - البلدان ص ٣٢٤ ثم ابن حوقل - صورة الارض

سامراء... ثم يعود الى الشمال فيحارب المدن مدينة مدينة ويأخذ منها البيعة للمعتز وكانت حلب ومنبج وانطاكية آخر المدن استسلاما للبيعة^(١).. أما القصيص الثائر بالمعرة فقد استطاع الهرب وصار الى الجبل الأسود فلما اجتمعت قبائل كلب على المولد وهزمته وقتلت خلقا عظيما من أصحابه وانصرف بهزيمته الى حلب عاد القصيص الى قنسرين..

وجاءت أوامر الخليفة بعزل المولد وتعيين ابي الساج الاشروسي ولم يكن بإمكانه أن يحكم منطقة تنوخ وهي على العداء له ولنظامه فكتب الى القصيص يعطيه الأمان ثم صير إليه الطريق والبذرة (أي حراسة قوافل المسافرين والتجار وأمن الطريق) ثم ولاه اللاذقية ونحوها^(٢).. وصار الرجل من سيوف السلطان !

— ولم تكن مناطق الشام الأخرى ، في هذه الفترة أقل نقمة وثورة وإن تكن الاسباب الخلفية لثوراتها مختلفة بعض الاختلاف .

فقد تحرك المردة هناك في جبل لبنان تحركا يذكّر باضطراباتهم السابقة قبل حوالي القرن ولعلها كانت للأسباب نفسها ، أو لعلها كانت بتحريض من الروم الذين كانوا في تلك الفترة بالذات يلحون على السواحل الشامية بالضرب ، وقد ضربوا قبل سنوات انطاكية مرات عديدة حتى بنى المعتصم حصنا لمينائها وسوف يضربون بعد سنوات أيضا دمياط ضربة فاجعة . فليس غريبا إذن تكون للروم يد في حركة الجبل

(١) انظر النص لدى ابن العديم — بغية الطلب (مخطوطات احمد الثالث) ج ٢ الورقة ١٦٤ ظهر الورقة ١٦٥ وجه وهو يسمى القائد باسم احمد وليس محمد وينقل عن تاريخ ضائع للمؤرخ ابي جعفر ابن الازهر أن احمد المولد جاء الى

(٢) انظر اليعقوبي ج ٢ ص ٤٩٧ وانظر للاضافة — ابن العديم بغية الطلب ج ١ ص ٧٣ .

إن لم تكن اليد الأولى هي يد الخراج الظالم والجزية ، والولاية الأظلم . وهكذا نجد سنة ٢٣١ وحولها عددا من الحروب تقوم ما بين الأمير هانيء ، ولعله عامل بعلبك ، وبين المردة ينتصر فيها عليهم ويمنحه الناس لقب الغضنفر ابي الالهوال^(١) . وقد بلغ خبره الى خاقان التركي ، خادم الرشيد وكان في الأصل من ناشئة الشجر كما كان قد انسحب من الحياة العامة ، مع خدمه ومواليه ، إلى ثغر طرسوس للجهاد منذ زمن وحضر هذه السنة نفسها إلى الواثق في نفر من وجوه أهل طرسوس لشكوى صاحب المظالم عندهم . . . ويبدو أن خاقان كان معجبا بفعل هانيء فكتب كتابا يشكره على جهاده ويخبره أنه أبلغ حسن عمله الى مسامع الخليفة . . .

ونكاد نرى أن سيرة الشام في هذه الفترة الثالثة من العصر العباسي الأول كانت نسخة من سيرتها في السابق الماضي من أيام ونكاد نقول إنها نسخة مكرورة لولا حرمة الثورة والاحترام الذي ينبغي لحقوق وعواطف المظلومين والمضطهدين . .

رابعاً - ثورات الاعراب في البادية العربية (في الحجاز واليمامة) :

وهذه بادرة جديدة في الدولة تدل على ضعف هبة الحكم في النفوس دلالتها على إهماله الناس . كما انها تسجل بدء ذلك الدور الهام الذي لعبه البدو في شؤون الدولة العباسية وافريقية الشمالية منذ هذه الفترة حتى سقوط العباسيين . ولعل السبب العميق وراء هذه الظاهرة من التحرك البدوي هو التكاثر الديموغرافي وزيادة عدد أبناء البادية مما . . . كان لا بد معه من تحرك مجموعاتهم الى الفتن الناهبة أو

(١) محمد كرد علي - خطط لشام ج ١ ص ١٩٣ .

الهجرة • والواقع أن الجزيرة العربية بعد هجرة المجموعات العربية التي رافقت الفتح العربي وما بعده حتى نهاية القرن الأول الهجري سوف تشهد منذ أوائل القرن الثالث تحرك مجموعات بدوية جديدة سوف تتجه اتجاهات شتى أول الأمر نحو العراق والجزيرة ثم تتجه كتلتها الكبرى نحو الغرب فيما يعرفه التاريخ باسم : تغريبة بني هلال • منذ هذه الفترة حتى سقوطها : فقبل خلافة الواثق بفترة طويلة كانت بطون قيس وبنو سليم خاصة ، يفرضون نفوذهم على ما حول المدينة ، يأخذون من الأسواق ما يريدون بالسعر الذي أحبوا • ثم اعتدوا على بني كنانة وباهلة • ومزقوا حملة بعثها عليهم عامل المدينة • وشعروا بقوتهم ، فطعموا طريق الحج بين الحرمين • وبايعوا بالخلافة رجلا منهم يدعى عزيزة بن قطاب الخفافي • • فارسل الواثق سنة ٢٣٠ بغا الكبير إليهم في الشاكرية^(١) والأتراك والمغاربة • فهزمهم وصلبهم على الشجر • ثم دعاهم للأمان فأجابوه • وأبقى لديه منهم زهاء ألف من الرهائن في الأغلال ، عرفوا بالشر والفساد فسجنهم ، وكان بنو هلال قد أعانوا بني سليم ، فدعاهم بغا إلى الهدوء فأجابوه ، وأخذ منهم زهاء (٣٠٠) رجلا سجنهم في المدينة مع السجناء الآخرين في دار معروفة ليزيد بن معاوية • ولما نقبوا

(١) الشاكري الاجير والمستخدم والحارس معرب جاك الفارسية ولعله أطلق على فرق الحرس الخاصة في العصر العباسي وثمة خبر يورده ابن العديم عن برمك جد البرامكة انه قدم دمشق على هشام بن عبد الملك في ٤٠٠ من الشاكرية وقد يدل الخبر على أن هذا النوع من الحرس الخاص وجد منذ العصر الأموي ولكن بشكل غير رسمي وإنما صار فرقة من الجيش الرسمي وأخذ تسميته في العصر العباسي • ويبدو أن هذا الحرس كان يركب البراذين وقد أعطى اسمه إلى أحسن أنواعها فصارت تدعى بالشاكرية أيضا •

وحاولوا الهرب ، فتك بهم أهل المدينة^(١) وقتلوهم أجمعين ومن بينهم عزيزة نفسه . ومن الطريف أن عبيد المدينة وسودانها اشتركوا سواء في المعارك الأولى مع بني سليم أو في هذه الفتكة الأخيرة بجانب أسيادهم . وفي سنة ٢٣١ تغلبت فزارة وبنو مروة على فدك . فبعث إليهم يغا بحملة . فزعوا منها الى الشام . ثم جاءته جموع من بطون غطفان وفزارة واشجع وثلعة ، فاستحلفهم الا يتخلفوا عنه متى دعاهم . ثم اخمد حركة بني كلاب وحبس منهم في المدينة نحو من الف وثلاثمائة رجل . فلما دعا الذين استحلفهم لم يجد منهم احدا لأنهم تفرقوا مهاجرين ولم يلحق منهم بأحد !

وفي تلك السنة نفسها ، شكا الشاعر عمارة . حفيد جرير الخطفي ، للخليفة الواثق من بني نمير وفسادهم في البادية ، واغارتهم على اليمامة ، وما جاورها . فسير الواثق اليهم يغا نفسه من المدينة فانتصر عليهم سنة ٢٣٢ بعد معارك عنيفة هزم في بعضها وكاد يقضي فيها . ولما قدم بعضهم بالامان ، قيدهم و ضربهم بالسياط بين ٤٠٠ و ٥٠٠ جلدة . وأقام حين وصلته النجدات بتتبعهم في البوادي حتى جاءه بعض ساداتهم يطلبون الأمان فبسطهم وآنسهم ولكنه أبقى منهم حوالي (٨٠٠) رجل ، ساقهم من مساجين المدينة ، مثقلين بالحديد الى سامراء^(٢) .

خامساً - ثورات برقة :

كانت حدود الدولة العباسية قد تقلصت منذ عهد الرشيد في

(١) انظر تفاصيل ذلك لدى الطبري ج ٩ ص ١٢٩ - ١٣٥ (١٣٣٦) -
(١٣٤٣) ولدى اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٠ .
(٢) انظر تفاصيل الحملة لدى الطبري ج ٩ ص ١٤٦ - ١٥٠ .
٨ (١٣٥٨ / ٣ - ١٣٦٣) .

افريقية فلم يعد نفوذ بغداد وحكمها المركزي يجاوز منطقة برقة بالرغم من بقاء اسم الخليفة يصدح على منابر افريقية • كان الأغالبة قد أقاموا ، برضى الرشيد وبمنشور منه الدولة الحاجزة بين الأراضي العباسية وأرض الخوارج والأدارسة والأمويين في المغرب والاندلس •

وكانت برقة فيما يبدو «عملا» (أو ولاية) صغيرة مستقلة^(١) عن ولاية مصر في الشرق استقلالها عن طرابلس التي كانت تتبع أصحاب القيروان في الغرب غير أن مركزها الجغرافي جعلها همزة الوصل ما بين المشرق ، بعد مصر ، وبين المغرب فهي ممر التجارات الاسلامية كما أنها معبر الجيوش ، وهي طريق الحجاج كما هي طريق العلماء والتيارات الثقافية الاسلامية ولهذا كان «فيها - على قول ابن حوقل - من التجار وكثرة الغرباء في كل وقت مالا ينقطع طلابا لما فيها من التجارة وعابرين عليها مشرقين ومغربين وذلك أنها تنفرد بالتجارة بالقطران (الذي لا مثيل له) والجلود .. والتمور • ولها أسواق حادة حارة من بيوع الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت وضروب المتاجر الصادرة من المشرق والواردة من المغرب .. وأسعارها في اكثر الأوقات فائضة بالرخص في جميع الأغذية ..» • كما أن «وجوه أموالها جمة»^(٢) •

وأما سكانها فكانوا من بعض قبائل البربر لأنها «أول منازل البربر» ومعهم اقوام من العرب من الأزد ولخم وجذام (اليمن) ومن غسان وتجب

(١) كان يزيد بن حاتم والي مصر سنة ١٤٨ أيام المنصور أول من ضم برقة الى عمل مصر في تلك السنة (انظر الكندي - الولاة والقضاة ص ١١٦) ولكنها عادت فانفصلت بعد ذلك وربما كان انفصالها أيام فتنة الامين والمأمون •

(٢) ابن حوقل - صورة الارض ص ٦٩ •

موزعين جميعا على جبليةا الشرقي والغربي — على حد قول اليعقوبي —
وفي أقاليمها • كما كان فيها حول المدن أرباض يسكنها أخلاط من
الناس وأكثرهم جند قدم قد صار لهم الأولاد والاعقاب وفيها في بعض
المرافىء قوم من أبناء الروم القدم أيضا^(١) ويعرف أهل برقة في فسطاط
مصر من بين أهل المغرب ، بحمرة ثيابهم • فأرضها حمراء خلوقية
التربة ثياب أهلها أبدا محمرة»^(٢) •

«ومدينة برقة في مرج واسع وتربة حمراء شديدة الحمرة» • وهي
مدينة وسط ليست بالكبيرة الفخمة ولا بالصغيرة الزرية» • • • • ولم يكن
عليها فيما يظهر سور حتى نهاية العصر العباسي الأول إذ أمر المتوكل ببناء
السور وله أبواب حديد وخندق • وأبرز آلاء الخلفاء والأمراء الذين
تولوا عليها أنهم بنوا البرك العظام على طريق الأودية ليشرب أهل المدينة
من مياه الأمطار المتجمعة فيها^(٣) والمدينة «برية بحرية جبلية» • وفي
المنطقة عدة بلدان أخرى برقيق وهي على الساحل «ولها ميناء عجيب في
الاتقان والجودة تحوز فيه المراكب» ومدينة اجداية «على صحصاح من
حجر • بناؤها بالطين والأجر وبعضها بالحجارة • • • • ويطيف بها من أحياء
البربر خلق كثير • ولها زرع بالبخس • • • • وواليها القائم بما عليها من
وجوه الأموال وصدقات بربرها وخراج زروعهم وتعشير خضرهم
وبساتينهم هو أميرها وصاحب صلاتها وله من وراء ما يقبضه للسلطان
لوازم على القوافل الصادرة والواردة من بلاد السودان • • • • وهي

(١) اليعقوبي — البلدان ص ٣٣٤ وقد أثرنا نقل وصفها عن الجغرافيين
القدامى لأنه وصف شهود •

(٢) ابن حوقل ص ٦٩ •

(٣) انظر اليعقوبي وابن حوقل معاً في المصدرين المذكورين •

أيضا قرية من البحر المغربي وشقة الصوف ٠٠» وهناك أوجلة ، في الصحراء ولها «غلات من التمر جسيمة» وهناك سرت «ولها سور صالح كالمنيع ٠٠ ومزارع ٠٠ ولها من وجوه الأموال والغلات والصدقات في سائمة الابل والغنم ما يزيد على حال أجداية ٠٠٠» وهي المركز الجمركي العباسي الأكبر وإليها جميع مجاري الأمر ٠٠ «فيما ورد وصدر في استيفاء ضرائبه ولوازمه واعتبار السجلات والمناشير بموجب ما على الأمتعة وتصفحها خوف الحيلة الواقعة دون الأداء عنه بأفريقية ودخلها أوفر من دخل أجداية لما ذكرت ٠٠٠»^(١) .

أما خراج برقة للدولة فهو «قانون قائم كان الرشيد وجه بمولى له يقال له بشار فوزع خراج الأرض بأربعة وعشرين ألف دينار على كل ضيعة شيء معلوم سوى الأعشار والصدقات والجوالي ومبلغها ٠٠ خمسة عشر ألف دينار ربما زاد وربما نقص . والأعشار للمواضع التي لا زيتون بها ولا شجر ولا قرى مقراة ٠٠٠»^(٢) وقد ذكر الجهشيارى في قائمة عن موارد الدولة أيام الرشيد أن خراج برقة مليون درهم وهو رقم يقارب رقم اليعقوبي وإن كان بينهما بعض الفرق باعتبار أن ثمن الدينار هو في ذلك الوقت ٢٢ درهما . ولعل رقم اليعقوبي هو الأصح

(١) هذه النصوص من ابن حوقل - صورة الارض ص ٧٠ - ٧١ ومن الهام أن نلاحظ ما ورد فيها متعلقاً بموارد الحكومة : الصدقات (الزكاة) . خراج الزرع . عشر الخضار . لوازم (ضرائب) على القوافل . وبرد في النص كذلك وجود «سجلات» و «مناشير» أي بيانات جمركية رسمية تنتقل مع البضاعة وتسجل وتجرى مراقبتها

(٢) اليعقوبي - البلدان ص ٣٤٤ - ٣٤٥ ولنذكر للمقارنة أن خراج مصر كان قرابة مليوني دينار .

لأن التعامل في غرب الدولة الاسلامية كان بالدينار ولعل رقم الجهمشاري كان تقريبا فقد أشار اليعقوبي الى أن الرقم ربما زاد وربما نقص •

أما من الناحية السياسية فقد قضت برقة ، بعد الفتح الاسلامي ، دهرا طويلا من الهدوء السياسي استمر حتى مطلع القرن الثالث الهجري وعهد المأمون على الأقل • يقول البلاذري «كان اهل برقة يعيشون بخراجهم الى والي مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث • فكانوا أخصب قوم بالمغرب • ولم يدخلها فتنة» ثم روي عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أنه قال «لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة فما أعلم منزلا أسلم ولا أعزل منها ...» (١) •

غير أن هذا المنزل «المسلم» «المعزول» الهاديء ما لبث ، في أعقاب فتنة الأمين والمأمون ، وما قام في دلتا مصر ما بين أواخر القرن الثاني ومطلع القرن الثالث من الفتن والحركات ، أن أصابته العدوى بدوره • وقامت فيه الفتنة والعصيان على المأمون حوالي سنة ٢١٤ • ولسنا ندري السبب في ذلك هل كان سياسيا يتعلق بحركة عريضة ، أو خارجية أو استقلالية أم كان اقتصاديا ماليا يتعلق بالخراج وأمواله — وهو الأرجح — • وكل ما نعلمه أن «أهل برقة» «خالفوا» وتزعم الثورة مسلم بن نصر بن الأعور فأمر المأمون أخاه أبا اسحق (المعتصم) وكانت البلاد في ولايته أن يرسل عليهم قائده الأفشين ووصل الرجل بجيشه عبر الدلتا المصرية التي لم تكن قد هدأت بعد ففتح البلد — على حد قول اليعقوبي — وأسر صاحب الثورة وانصرف عائدا الى مصر سنة ٢١٦ (٢) • بعد

(١) البلاذري — فتوح ص ٢٦٤ •
(٢) اليعقوبي — التاريخ ج ٢ ص ٤٦٥ •

أن ولي على البلد والي مصر السابق نفسه ، عبدويه بن جبلة وكان قد اصطحبه معه إليها^(١) .

ولكن البلد لم يعد ، من بعد ، الى هدوئه التقليدي فقد عادت إليه الثورة مرة أخرى بعد عشر سنوات ونيف يوم اتفقت كلمة بعض البربر ، في برقة ، مع قوم من قريش ، من بني أسيد بن أبي العيص^(٢) فوثبوا بعاملهم محمد بن عبدويه بن جبلة . . . وإذا كانت هذه الثورة بنت الثورة الأولى أو تتمة لها أو تتصل بها ببعض السبب فلقد يدل اتفاق كلمة البربر والعرب والوثوب بالعامل — وهو على الخراج — على أن الأسباب متصلة بهذا الخراج .

وقد عهد الواثق الى قائده رجاء بن أيوب الحضاري ، يوم أرسله في حملة تأديبية الى الشام وفلسطين ، أن ينهي حملته هذه في ليبيا فصار بعد ان انتهى من الشام الى مصر ونزل الجيزة سنة ٢٢٨ ولكنه ما كاد يتوجه الى برقة حتى هرب من كان فيها من الثائرين . وظفر بجماعة منهم فعاد بهم الى سجون المتوكل . . .

لكن برقة فيما بين هذا وذاك فقدت استقلالها الاداري فما كادت دولة ابن طولون تظهر في مصر منذ سنة ٢٥٤ حتى كانت برقة بعض امتداداتها .

(١) انظر الكندي — الولاة والقضاة ص ١٩٠ .

(٢) اليعقوبي — ج ٢ ص ٤٨٠ .

الفصل العاشر

العلاقات الخارجية

ظلت العلاقات الخارجية في أواخر العصر العباسي الأول - على عهدها السابق وعلى إطارها الذي كانت عليه في عصر الرشيد - غير أن تطور الأحوال الداخلية نحو القلق وضعف المركز جعل معظم مناطق الحدود أميل إلى الهدوء كما جعل الحروب عليها دفاعية في الغالب وأقام في النهاية عليها أو مهد لأن يقوم عليها مجموعة من الدول الحاضرة ذات الاستقلال الذاتي تشكل مناطق انتقال بين أراضي النفوذ العباسي الخاصة وبين ما وراءها من «دار الحرب»

ولما كانت العلاقات والأحداث الأساسية إنما جرت في هذه الفترة مع الروم فقد نستطيع لذلك أن نقسم الموضوع قسمين نرى فيهما أولاً العلاقات مع كافة الأمم على مختلف الحدود وما طرأ عليها من تطورات ثم نقف بصورة خاصة عند العلاقات مع الروم .

١ - العلاقات مع الأمم المختلفة :

وتتضمن النظر في قطاع الهند والشرق الصيني والمحيط الهندي ، ثم في مسالك الترك والخزر ثم جبهة البجة والنوبة في جنوب مصر ثم صراع القوى البحرية في البحر المتوسط وأخيراً العلاقة مع دول الحوض الغربي لهذا البحر .

١ - قطاع الهند والمحيط الهندي والشرق الصيني :

قصة الحدود مع الهند في هذه الفترة هي قصة تحول ولاية السند الإسلامية إلى إمارات وراثية مستقلة لبعض المتنفذين في ذلك الثغر . صحيح أنها كانت قد تحولت منذ عهد الرشيد الى نوع من الولاية الوراثية . وبعد أن توارثها أثنان من بيت المهلب ورثها أثنان من الأسرة البرمكية وقد تولى أولهما موسى بن يحيى في عهد المعتصم سنة ٢٢١ فاستخلف ابنه عمران على الثغر وكتب إليه المعتصم بالولاية ... لكن ضعف السلطة المركزية أنهى السيرة الأولى التي سارها ولاية العباسيين جميعا خلال القرن العباسي الأول لتبدأ بدلا منها سيرة جديدة يظهر فيها، في السند ، نوع من «الراجات» والمهرجات العرب المسلمين الذين يقيمون ولاياتهم على الأسس التي تقوم عليها الامارات الهندية الاخرى المتنوعة والكثيرة من حولهم .

آخر الأمراء على الطريقة القوية التي بدأت في الغياب هو عمران بن موسى البرمكي فقد «أ - خرج الى القيقان - وهم زط - فقاتلهم وغلبهم وبنى مدينة سماها البيضاء وأسكنها الجند» .

ب - «ثم أتى المنصورة وصار منها الى قنديل وهي مدينة على جبل وفيها متغلب يقال له محمد بن الخليل فقاتله وفتحها وحمل رؤساءها الى مقعدار» .

ج - «ثم غزا الميد (وهم شعب آخر من منبوذي الهند) وقتل منهم ثلاثة آلاف وسكر سكرًا يعرف بسكر الميد ..» .

د - «وعسكر عمران على نهر الرور ثم نادى بالزط الذين بحضرته فأتوه فختم أيديهم وأخذ الجزية منهم وأمرهم بأن يكون مع كل رجل منهم إذا اعترض عليه كلب فبلغ الكلب خمسين درهما ..» .

هـ - «ثم غزا الميد ومعه وجوه الزط • فحفر من البحر نهرا أجراه في بطيحتهم حتى ملح مأواها وشن الغارات عليهم» (١) •
ولا شك أن هذه الأعمال إنما كانت أعمالا تأديبية تقصد الى عقوبتهم على أعمال القرصنة البحرية ضد التجار العرب • في خليج البصرة والمحيط الهندي •

على أن العصبيات القبلية التي ثارت بين النزارية واليمانية ذهبت بعمران ضحية لها • إذ مال الرجل إلى اليمانية فزحف إليه عمر بن عبد العزيز الهباري فقتله وهو غار سنة ٢٤٠ وكتب الى الخليفة المتوكل معلنا ولاءه • فكافأه باعطائه ولاية السند ••

ومنذ ذلك الوقت بدأ تاريخ آخر للمنطقة التي توزعت ما بين ثلاثة إمارات إسلامية مستقلة من حولها كذلك امارات صفرى •••

فإن أولاد عمر الهباري لم يحالفهم التوفيق في تأمين أحوال البلاد وما لبثوا أن دب الخلاف بينهم وبين رجالهم من قریش حتى اقتصر سلطانهم على ولاية المنصورة نفسها وكانت أرضها محصورة ما بين منطقة الرور وشاطئ البحر في حين حكم اقليم الملتان منذ سنة ٢٧٩ أسرة قرشية أخرى من بني معنه (أو بني سامة) بقيت حتى انتزع الحكم منها الاسماعيليون الشيعة في القرن الرابع •

وإذا لم تستطع القوة العباسية أن تكسب شيئا على الجبهة الهندية في هذه الفترة وانتهت بالعكس من الضعف الى تكوين إمارات صفرى متناحرة فإن الدين الاسلامي كدين كسب مقاطعة هندية هي العسيفان بين كشمير والملتان وكابل • وقصة إسلام ملكها تشبه القصص التي تروى

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٥٤٤ •

منذ عهد إبراهيم الخليل عن الأصنام التي لا تستطيع أن تفعل شيئاً فيكفر بها الوثني • وملك العسيفان حين رأى ابنه يموت بدلاً من أن يشفى بعد أن دعا كهانه الأصنام ، هدم المعبد والأصنام وقتل السدنة وأسلم •• يقول البلاذري «وكان ذلك في زمن المعتصم»^(١) ••

ونأتي الى الطريق البحري نحو الهند وهو ما كان يدعى بحر البصرة ثم الخليج الأخضر والبحر الهندي^(٢) فنجد أن هذه البحار قد عرفت فترة أمن وهدوء من القراصنة على ما يبدو بعد تلك الهجمة الواسعة التي عرفت في عهد المنصور ما بين سنتي ١٤١ وسنة ١٥٣ • وأن لا تقدم الحوليات أي خبر في هذا المجال قد يعني أن الاساطيل التجارية كانت بصورة عامة تنطلق آمنة مطمئنة • على أن أخبار القرصنة تعود للظهور كرة أخرى ، أيام المعتصم والواثق ••• ولقد نجد تفسير ذلك إذا تذكرنا أن فتنة الأيمن والمأمون التي شلت بغداد والسلطة المركزية فيها بالحصار والحروب في منطقة السواد خمس سنوات قد تركت دون شك آثارها السيئة على تجارة البصرة ثم أعقب ذلك مباشرة ثورة الزط التي هددت ممرات التجارة في البر والنهر نحو بغداد عشرين سنة ولم يكن ثمة من يمنع الثغر ، أو يحمي التجارة بشكل جدي ولهذا بدأت التجارة التي هددت أكثر من ربع قرن في التحول بالتدريج إلى مرفأ آخر أكثر أمناً هو سيراف على الساحل الإيراني جنوب شیراز •

(١) البلاذري - فتوح ص ٥٤٥ •

(٢) يستعمل المؤرخ خليفة بن خياط الاسم الأول لتسميته للخليج العربي ويستعمل ابن رسته الاسمين الثاني والثالث لتسميته المحيط الهندي . (انظر تاريخ خليفة ص ٥١٧ ، ٥٢٠ وغيرها ، وانظر ابن رسته - الاعلاق النفيسة ص ٨٤ وص ٨٦ وص ٨٧) •

وكان هذا المرفأ أكثر عمقا وقابلية لاستقبال السفن الكبيرة الواردة. من الصين ، وهذا ما أضاف إليه ميزة أخرى إذ لم تكن تلك المراكب تستطيع وصول البصرة من قبل فكانت تفرغ حمولتها في الأبله ... وهكذا صارت سيراف بسرعة المرفأ الأول في بحر البصرة . ويحدثنا تاجر معاصر اسمه سليمان أن البضائع كانت تشحن عامة في السفن الصغيرة من البصرة وغيرها إلى سيراف ليجري نقلها هناك في المراكب الكبيرة^(١) والمنسوجات الغالية من التيل والقطن والصوف والسجاجيد الصغيرة والمصنوعات المعدنية وخام الحديد وسبائك الذهب والفضة... ونمت سيراف فيما بعد نسوا انعكس في تلك الأوصاف التي وصفها الجغرافيون العرب لدورها المترفة ذات الطوابق من خشب الساج ومراكبها وبضائعها المكدسة ...

على أن ضعف الحركة التجارية سمح لجماعات القرصنة باصطياد المراكب الصغيرة على ما يظهر ومعظمها من مراكب البصرة وجراهم على التوسع في اعمالهم ويبدو أنه المراكب كانت في العادة - وهي تجارية - تحمل معها بعض الجند المدربين على رمي النار الاغريقية يقول المقدسي : «ولا بد في كل مركب من مقاتلة ونقاطة»^(٢) ولعل هذه العادة إنما اتخذت منذ هدد القراصنة توسع التجارة زمن المنصور ولكن هذه الحراسة

(١) هو مؤلف مجهول ترك لنا كتاب « أخبار الصين والهند » وقد نشر مرتين آخرهما بالعربية والفرنسية (باريس سنة ١٩٤٨) (ترجمة سوفاجيه) ، انظر الاقسام ١١ و ١٣ حتى ١٦ منه :

Relation de la Chine et de l'Inde

وانظر كذلك - حوراني - العرب والملاحه ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٢) المقدسي البشاري - أحسن التقاسيم ص ١٢ (طبعة دي غويه

١٩٠٦) .

الذاتية ضعفت دون شك مع ضعف الحركة التجارية بالإضافة الى ما قد يكون لدى الشعوب العاملة بالقرصنة وهي الميّد والكيرك والزط من تكاثر عددي وفقّر يلجئانهم الى اللصوصية في البحر والى الجراة فيها... كل ذلك قد أسهم دون شك في اضعاف البصرة بحريا لحساب سيراف من جهة وفي السماح بعودة القراصنة الى تهديد طرق البحر من جهة أخرى في مطالع القرن الثالث الهجري ، والى أن يهاجموا بيوارجهم مراكب البصرة اكثر مما يهاجموا مراكب سيراف الكبيرة ...

ونسمع منذ سنة ٢١٠/٨٢٥ في عهد المأمون بدء سلسلة الحملات البحرية ضد القرصنة : نسمع أن قوة بحرية كبيرة أرسلت تلك السنة من البصرة لتأديب قراصنة جزيرة البحرين الذين كانوا يغيرون على السفن القادمة من الهند والصين^(١) .

ونسمع في سنة ٢١٣ أيضا « بعزل محمد بن عباد بن عباد عن البحر وجعله إلى غسان بن عباد .. »^(٢) مما قد يعني بدء العناية ببحر البصرة والاتجاه لدعمه ثم يأتي بعد سنوات سنة ٢٢٥ خبر مماثل عن عزل أحمد ابن عبيد الله العنبري^(٣) عن بحر البصرة أيضا في عهد المعتصم وربما أعيد تعيينه مرة أخرى لأننا نراه يغزو ذلك البحر في السنة التالية سنة ٢٢٦^(٤) وهذا الغزو معروف الاتجاه : فإما الى الجزر التي يلجأ إليها القراصنة في خليج البصرة وإما الى مساكنهم الأولى في غرب نهر السند .. ويبدو أنه كان في الهدفين معا وأما نتائجه فقد أورد المسعودي

(١) حوراني - العرب والملاحه ص ٢٠١

(٢) خليفة بن خياط - التاريخ ج ٢ ص ٥١٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ٥١٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٥١٨ .

نتيجة حملات المعتصم في البحر بقوله إنه «أسر البوارج وهي مراكب الهند وكان فيها منهم عسكر عظيم قد غلبوا على ساحل فارس وعمان وناحية البصرة...»^(١) وهي صورة تبين الى أي مدى بلغت قوة هؤلاء القراصنة وعلى أي المناطق كانوا يسطون حتى كانوا يسطون على البصرة نفسها أيضا... ثم تتكرر الأخبار كثيرا في عهد الواثق على البوتيرة نفسها ويقوم قائد بحري اسمه ابراهيم بن هاشم بغزو بحر البصرة بأمر من واليها أحمد بن رباح ثلاث مرات في ثلاث سنوات متوالية : ما بين سنة ٢٢٨ و سنة ٢٣٠ ويبلغ في الغزوة الأخيرة أدانى بلاد سرشت (غرب حوض السند) فيحرق بعض قراها ويصيب سببا...^(٢) .

ولا شك أن حصى القرصنة وتوسعها هما اللذان كانا السبب في هذه الحملات المتتالية المتوسعة يدل على ذلك أن الناس في البصرة بلغ من حماسهم لتأمين الطريق أن كان يخرج منهم المتطوعة مع المقاتلين . ولدينا خبر عن كسر مراكب هؤلاء المطوعة سنة ٢٣١ في بحر البصرة بين جنابة وسينز وقد أصيب في هذا الحادث ناس منهم^(٣) وهذه الاحداث كانت دون شك وراء القرار الذي أصدره الواثق في تلك السنة سنة ٢٣١ ، حسب رواية الطبري واليعقوبي بترك جباية أعشار السفن الواردة في بحر الصين^(٤) لقد كان الخليفة يريد الاسهام في التخفيف من أزمة البصرة وتجارها بفتح أبواب التشجيع لهم والتعويض عن خسائرهم المحتملة بالقرصنة...

(١) السعودي - التنبيه والاشراف ص ٣٠٧ . وخليفة بن خياط

ج ٢ ص ٥١٨ و ٥١٩ .

(٢) خليفة بن خياط - التاريخ ج ١ ص ٥٢٠ .

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٥٠ (١٣٦٣/٣) واليعقوبي ج ٢ ص ٤٣٨ .

ولا شك أنه كان لهذا التبرير أثره في دعم البصرة وتجارها لكننا لا ندري متى توقفت الاعمال التأديبية في البحر ولا مدى نجاحها في إيقاف عدوان القراصنة ... فالمؤرخ ابن الخياط البصري الذي حفظ لنا هذه الأخبار ينهي تاريخه سنة ٣٣٢ ٠٠ على أن ما رواه التاجر سليمان المعاصر له والذي ترك لنا كتاب أخبار الصين والهند يكشف أن القرصنة ظلت قائمة وإن كانت قد أصبحت «أمور البحر مستقيمة مع كثرة اختلاف التجار الى الهند والصين» على حد قول التاجر الآخر ابي زيد السيرافي^(١) سنة ٨٥١/٣٣٦ ٠٠ وهذا يعني أنه كان على السفن الهابطة في بحر البصرة والخليج الأخضر محاذرة القرصنة الذي كانوا يأوون إلى الشعاب المختلفة على السواحل سواء في هذه المناطق أو بعدها في خليجي كتش وكاثيوار ثم سواحل المالابار وحتى جزيرة سرنديد (سيلان) وأن يحرضوا بين الآونة والأخرى سلطان المناطق الاسلامية وغيرها لمكافحتها ...

وأما العلاقة مع الصين فإن ما تركه الجغرافيون المعاصرون كابن خرداذبة والتجار كسليمان وغيرهما من وصف مفصل للطريق البحري يدل على أن الطريق أضحى مطروقا معروفا ولكننا نجهل إن كان قد عبرته علاقات سياسية بين الخلفاء وانباء السماء . لقد كان العرب المسلمون قد وصلوا منذ زمن طويل ميناء خانفو (كانتون) وكانت منهم هناك جالية واسعة ويبدو أنهم تخطوه وعرفوا المناطق في شماله وابن خرداذبة يذكر الموانئ التي وراءه نحو الشمال مما قد يعني وصول التجار المسلمين إليها حتى كوريا . على أن مركزهم الأكبر بقي في خانفو حيث كان لهم المسجد والقاضي والرعاية . ويصف سليمان التاجر في أخبار الصين والهند تنظيم

(١) حوراني - العرب والملاحه ص ٢٢٤ .

التجارة الدقيق لدى الصينيين فيقول : «... وإذا دخل البحريون من البحر قبض الصينيون متاعهم وصيروه في البيوت (مستودعات الجسر) وضمنوا الدرك الى ستة أشهر الى أن يدخل آخر البحريين ثم يؤخذ من كل عشرة ثلاثة ويسلم الباقي الى التجار وما احتاج إليه السلطان أخذه بأعلى الثمن وعجله ولم يظلم فيه ...»^(١) وكان ثمة مفتش صيني للتجارة البحرية يسجل التجار اسماءهم عنده ويفحص لاستيفاء الضرائب ما يقدمون من بيانات عن بضائعهم النادرة ... ورحلة التجارة إلى الصين كانت تقتضي من صاحبها عاما ونصف العام على الأقل تبدأ في العادة من البصرة أو سيرا في خريف السنة لتعود في ربيع السنة الثالثة بعدها^(٢) لأن الطريق كان يقتضي ستة أشهر في الذهاب ومثلها في الاياب ...

ومع هذا البعد الشاسع فقد أمكن أن يتجمع في كانتون ، في وقت واحد ، سنة ٨٧٨/٢٦٤ أكثر بكثير من ١٢٠ ألف رجل من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس (الفرس) . والتاجر أبو زيد السيرافي هو الذي أورد هذا الرقم وذكر أنه معروف على وجه الدقة لأن الصينيين كانوا يحصون الأجانب لجباية الضريبة منهم . وقد انتهى وجود هذه الجماعة تلك السنة نهاية عنيفة في مجزرة دموية حين حاصر الثائر الصيني هوانغ تشاو - Hueng Ch'Ao مدينة كانتون وأعمل فيها النهب والسلب وقتل فضلا عن الصينيين ذلك العدد الضخم من الأجانب وبقي من هؤلاء بعد ذلك بقية ظلمها بالمصادرة والتعدي على الاموال والمتاع ...

(١) انظر اخبار الصين والهند - القسمين ١٢ و ٣٤ وانظر حوراني -

العرب والملاحه ص ٢١٧ .

(٣) حوراني - العرب والملاحه ص ٢٢١ .

في الوقت الذي كان فيه الوباء يأخذ على الطرف الآخر ، العربي ، من الطريق أي في سيراف وعمان ، جماعة واسعة من الربانة والأدلاء^(١) . . . وإذا كانت هذه المصائب قد ألحقت بالخط التجاري البحري أفدح الخسائر وتكشفت الأرقام الواسعة للعاملين عليه وبالتالي مدى النشاط الحيوي للتجارة العباسية وسعة العلاقات التي أقامتها مع أقصى الأرض، إلا إنه لا يبدو في الوقت نفسه أن تلك المجزرة في الصين قد أثارت أي ردود فعل لدى السلطات العباسية التي كانت في تلك الفترة مشغولة كل الشغل بمجزرة أخرى هي ثورة الزنج في البصرة ، الرأس الثاني للطريق . . .

ب - العلاقات مع الترك والخزر :

ساهمت عوامل عدة في جعل العلاقات مع الجبهة العريضة التي يحتلها الأتراك في أقصى الشرق الشمالي الدولة الإسلامية مختلفة عن أي علاقات أخرى مع شعوب الحدود الإسلامية . وبدلاً من ذلك العداء العنيف الذي كان يميز العلاقات معهم قبل قرن (في عهد نصر بن سيار حتى المنصور) حلت منذ مطلع القرن الثالث علاقات الصداقة والود والترابط المتزايد التي دفعت بخط العداء بعيداً جداً إلى الشرق ليقع لا بين الأتراك الغربيين وبلد الإسلام كما كان من قبل ولكن بين الأتراك الشرقيين والغربيين . . . بالرغم من أن الغربيين لم يكونوا قد اعتنقوا نهائياً وفي كثرتهم الكاثرة الإسلام .

ولعل أهم العوامل التي أدت إلى ذلك هي :

أولاً انسحاب الصين النهائي من تلك المناطق وتغلغل التاجر المسلم

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

والعالم المسلم والمطوعة للجهاد بدلا منها فيما مما نجم عنه انتشار الاسلام
بين الترك الانتشار السلمي الحثيث •

ثانيا : عناية العباسيين بخراسان وارتكاز المأمون خاصة ، في
انطلاقته الى الخلافة ، على هذه المنطقة وحاجته الى استقرارها مما دعا
بصورة طبيعية الى العناية بالممالك التركية الخطرة المجاورة لها وقد برزت
هذه العناية خاصة في ولاية آل طاهر •

ثالثا : وربما كان أهم من كل أولئك عملية التجنيد • وتحويل
القوى التركية المضادة الى قوى مرتزقة في خدمة الدولة الاسلامية • وقد
توسع المأمون في هذه السياسة وإن لم يكن هو الذي ابتدأها فكان
«يوجه رسله فيفرضون - كما قال البلاذري - لمن رغب في الديوان
وأراد الفريضة من أهل تلك النواحي وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة
فإذا وردوا بابه شرفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم» (١)

رابعا : انتهاء الثورات الخارجية أو الدينية الايرانية أو ثورات
المغامرين في خراسان وما وراء النهر وبدء الاستقرار وإذا كان قد نجم عن
هذه العوامل ان أصبح عدد من أمراء الترك الكبار يرون في البلاط
العباسي في خدمة الخلفاء كالأفشين وماوند السجستاني وأن أصبح عدد
من غلمان الترك أسياد القوة العسكرية العباسية مثل إيتاخ وأشناس وبغا
واستطاعوا بصفقتهم العسكرية أن يسيطروا على منصب الخلافة نفسه حتى
قتلوا المتوكل وحتى كان المؤتمر الثلاثي الذي عين الخليفة المستعين سنة
٢٤٨ مؤلفاً من ثلاثة من الأتراك هم : بغا الكبير وبغا الصغير وأوتامش ••
إذا كان ذلك وما أعقبه من النتائج هو حصيلة تلك السياسة بالنسبة

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٥٢٨-٥٢٩

للدولة العباسية فإن حصيلته بالنسبة للاتراك كانت أمرا آخر مختلفاً جداً:

— تراخت العنجهيات والعصبيات الملكية لدى أمراء الترك فكانوا يتركون بلادهم ليردوا باب الخليفة العباسي . وإذا كان هذا قد بدأ على نحو محدود زمن المأمون فقد توسع جدا أيام المعتصم حتى قال الصولي: «إنه لم يجتمع الملوك بباب أحد قط اجتماعها بباب المعتصم . ولا ظفر ملك قط كظفره . أسر ملك أذربيجان وملك طبرستان وملك استيسان وملك الشياص وملك فرغانة وملك طخارستان وملك كابل . .» (١) وهذا يعني التسليم بالتبعية السياسية نهائيا للخليفة الاسلامي .

— سحبت من بلاد الترك القوى التي يسكن أن تحارب المسلمين وجندت لتحارب بالعكس معهم وقد توسع المعتصم في ذلك « . . حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السغد والفرغانة والاشروسنة وأهل الشاش وغيرهم ، وحقر ملوكهم بابه . .» (٢) .

— «غلب الاسلام على من هناك (بتركستان) وصار أهل تلك البلاد (في حماسهم للدين الجديد) يغزون من وراءهم من الترك . وأغزى عبد الله بن طاهر (والي خراسان) ابنه طاهر بلاد الغوزية (أي الغز) ففتح مواضع لم يصل إليها أحد قبله . .» (٣) والهام من هذا الأمر أن قوام قوى الغزو لم تكن الجيوش الرسمية أي جيوش الدولة ولكن المرابطين والمطوعة الذين كانوا يقدون للغزو وجهاد الاتراك الشرقيين احتسابا لوجه الله . . . وهكذا صار الترك في هذه الفترة بالذات ، وبسرعة ، أحد العناصر

(١) السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٣٣٧

(٢) البلاذري - فتوح ص ٥٢٩

(٣) البلاذري - فتوح ص ٥٢٩

الاساسية في مجموعة الشعوب الاسلامية • غزاهم الاسلام دينا وغزوه جندا وسياسة في دورة من التأثير العميق المتبادل • ولعل ما أوصل هذا الخط إلى نهايته وساعد على نجاحه الكامل :

— تمكن الجماعات التركية التي دخلت أرض الاسلام من أن تصل بسرعة وسهولة الى قمة المجتمع الاسلامي •

— استقرار خراسان وما وراء النهر في تلك الفترة والسياسة التي اتبعها آل طاهر ، ولادة المنطقة المتتالون فيها : فقد انتهت الثورات الدينية الايرانية • أو الخارجية ، أو ثورات الاستياء والتذمر فيها ، وصرف آل طاهر همهم إلى زيادة الانتاج الزراعي وانفقوا الأموال الطائلة بالملايين في تنظيم الري ووضع القوانين الفقهية له • وكسبوا ولاء الطبقات الفقيرة بالرعاية ونشر الثقافة العربية الاسلامية مما أوجد في البلاد نوعا من النهضة الثقافية الاسلامية الواسعة تركزت خاصة في ثلوث : نيسابور بخارى سمرقند • وكان من النتائج المباشرة لهذه النهضة أن شهد العالم الاسلامي ، في نهاية القرن الثالث ، طبقة كاملة هامة من ألمع علماء الاسلام ترد عليه مما وراء النهر : فيها البخاري ، والترمذي ، والفرغاني والبلخي والسمرقندي ، معلمة للدين لا متعلمة ! وكتب التراجم تغص من أسمائهم بالملئات كما تغص المكتبة العربية بمؤلفاتهم •

ونستطيع القول إن هذه الفترة من العصر العباسي كانت الفترة الانقلاية الكبرى في تاريخ علاقات الترك لا بالعباسيين فحسب ولكن بالاسلام أيضا •

أما الخزر فقد انتهت عملياتهم العدوانية ضد المسلمين منذ عصر الرشيد • ولكن يبدو أنهم ظلوا يحتفظون ، على أي حال ، بموقف العداء السلبي ، أو على الأقل لم يحاولوا كسر الجليد الحقدي بينهم وبين المنطقة الاسازمية ولهذا ورد اسم الخزر مرتين في مشاريع ضد الدولة العباسية :

ورد مرة في خاطر الأفشين أن يمر ببلادهم وهو هارب فيتحالف معهم لغزو بلاد الاسلام كما ورد مرة أخرى في مخطط الأرمن الثائرين ضد الدولة حين سحقت مقاومتهم على يد بغا الكبير فكاتبوا الخزر كما كاتبوا الصقالبة والروم . ولكن لم يقيض لأي من المشروعين أن يتحول السو عمل عدواني راهن ونجد بالعكس أن بعض الغلمان الخزر يبرزون في جيوش العباسيين وأن بعض الخزر الذين انفتحوا للإسلام يقدمون سنة ٢٤٠ على بغا وهو في أرمينية يرجون الاستقرار في الأرض الاسلامية فيبني له مدينة ، يسكنونها مع بعض الجماعات الأخرى باسم المتوكلية . ولم يمض على ذلك سوى سنوات حتى نشأت دولة أرمينية محلية لتكون نوعا من الحاجز الصدامي بين الدولة الاسلامية والخزر .

ج - العلاقات مع البجة والنوبة (جنوب مصر)

كان المأمون قد أنهى ، قبل موته ، مشاكل الحدود مع البجة باتفاقية هدنة وأمان تحدد علاقات تلك المنطقة وملكها مع الدولة الاسلامية . غير أن هذه الاتفاقية لم تعش طويلا . فما جاء عهد المتوكل سنة ٢٣٢ حتى نقضت ذلك أن تطورات كثيرة في المنطقة دفعت البجة الى التمرد . فامتنتعت عن أداء الإتاوة السنوية سنين متوالية . بل خرجت من بلادها فقتلت في مناطق التخوم حيث توجد مصانع سبك الذهب «عددا من المسلمين العاملين في تلك المصانع وسبوا عدة من ذراريهم ونسائهم وذكروا أن المعدن لهم في بلادهم وأنهم لا يأذنون للمسلمين في دخولها» «وأوحش ذلك جميع من يعمل في المعادن من المسلمين فانصرفوا عنها خوفا على أنفسهم وذراريهم فانقطع بذلك ما كان يؤخذ للسلطان بحق الخمس من الذهب والفضة والجوهر الذي يستخرج من المعادن .»^(١) وفتحوا

(١) انظر ابن خلدون - العبر ج ٢ ص ٢٢٧

سنة ٢٣٢ نفسها بلدة انبوا (كوم امبو) وسبوا مافياها وقتلوا ماشاء لهم القتل (١) .

وكتب عامل بريد مصر بذلك الى المتوكل فاشتد انكاره وشاور في الأمر فأفهمه العارفون أن البلاد مفاوز وصحاري بعيدة وأرض قفر وجبال وعرة ولا بد في حربها من الميرة الكثيرة فإن طالت المدة على الجند فيها هلكوا . فأمسك الخليفة بينما كان أمر البجة يتزايد وجرأتهم على المسلمين تشتد حتى خاف أهل الصعيد كله منهم

أما السبب في انتفاض البجة فلا شك أنه سبب اقتصادي كشفه ابن حوقل : إذ «اتفق في تلك الفترة أن آلافا كثيرة من العرب تركت أرض اليمامة هاربة من جور الأخيضر محمد بن يوسف الحسني الذي تغلب هناك فنزلت أرض المعدن» وغلبت على من كان بها في شمالها خاصة «وتكامل بالعلاقي (وهو وادي تصفية الذهب) قبائل ربيعة ومضروهم جميع أهل اليمامة في سنة ٢٣٨^(٢)» مع بطون أخرى من اليمن أيضا . وفي الوقت نفسه كان والي أسوان عبيد (أو عبد الله) بن الجهم مولى المأمون قد أراد الانتقام لتدمير انبوا فركب النيل إلى ما وراء أسوان سنة ٢٣٢ نفسها ثم دخل أرض البجة واثخن فيهم قتلا وسبيا واسترد ما سبوا ولكن جنده الذين «عاينوا آثار بعض المناجم أو بعض المسابك التي كانت في المنطقة للروم» طمعوا في ذهبها فعادوا في تلك السنة نفسها إليها . ولا شك أن الضغط السكاني العربي القادم من الشرق والشمال يزاحم البجة على أرزاق منطقتهم قد أثارهم ودفعهم إلى العدوان . ولا شك أن خصومات كثيرة قامت بينهم وبين العرب الوافدين دفعتهم إلى التكاثر عليهم وطردهم ..

(١) ابن حوقل - صورة الارض ص ٥٧

(٢) المصدر نفسه ص ٥٨

ولم يكن بإمكان الخليفة المتوكل أن يقف مكتوف الأيدي بعد انقطاع الخمس عنه وطرده العرب المسلمين من رعاياه وتهديد جنوب مصر كلها من قبل هذه القبائل ويروي ابن حوقل أن بعض العرب كتب له أن رجلاً من البجة شتم الرسول... ولعلها كانت نوعاً من الإثارة فقد كان لدى المتوكل من الأسباب ما يدفعه للتحرك فاختار رجلاً من القواد يعرف بمحمد بن عبد الله القمي من ولد أبي موسى الأشعري^(١) • وولاه سنة ٢٣٨ القلزم ومعاون تلك الكور ما بين قفط حتى شمال أرض المعدن وطريق الحجاج إلى الحجاز •

وجاء محمد القمي في ألف رجل نصفهم من الفرسان وأطلق له في مصر عشرة آلاف دينار «فوجه إلى القلزم فحمل في البحر سبعة مراكب موفرة بالدقيق والزيت والتمر والسويق والشعير وأمر قوماً من أصحابه أن يلجوا بها في البحر حتى يوافوه في ساحل • أرض البجة (عند عيذاب)»^(٢) •

وانضم إلى القمي حين وصل العلاقي «ثلاثة آلاف من ربيعة ومضر واليمن من كل بطن ألف» بعد أن كان انضم إليه في مصر بأمر المتوكل بعض الجند والشاكرية وبعض المطوعة فصار جيشه في حوالي سبعة آلاف^(٣) بين فارس وراجل • دخل بهم أرض البجة من وادي العلاقي

(١) انظر البلاذري - فتوح البلدان ص ٢٨٢ • وابن حوقل (ص ٥٨) يذكر أن القمي كان في السجن مطالباً ببعض الدماء فأطلقه المتوكل لهذا الجهاد •

(٢) يذكر الطبري تفاصيل تلك الحملة ج ٩ ص ٢٠٣-٢٠٦ (٢/١٤٢٨) (١٤٣٣) كما يذكره ابن حوقل (ص ٥٧-٥٩) •

(٣) يذكر ابن خلدون (ج ٢ ص ٢٢٨) أن جيشه بلغ عشرين ألفاً وقد فضلنا الرواية الأقل بسبب صعوبة تموين الآلاف العشرين في تلك المناطق الجرداء وصعوبة حركتها •

وأوغل إيغالا كبيرا حتى جاوز المعادن التي يعمل فيها الذهب وصار الى حصونهم وقلاعهم» والى «قلعة ملك البجة»^(١) وعاصمته : هجر في أقاصي الوادي البعيدة •

ويذكر ابن حوقل أن ملك البجة كان يدعى علي بابا وأنه كان في مائتي ألف معهم ثمانون ألف نجيب • ولا شك أن الرقم مبالغ فيه وأنه يعكس الخوف الذي أصاب جنود القمي أكثر مما يصور الواقع لأنه حين «عاب ذلك المسلمون هالهم وعظم عليهم» ويبدو أن علي بابا أقام خطته على أساس مطاولة الجند الاسلامي وتركه دون قتال مدة طويلة كي تنفذ مؤنه • فجعل يحاوره من مختلف الجهات ويناوشه دون قتال • وعسكر القمي يشجع أصحابه ورمي حول عسكره حسكا من الحديد^(٢) جعله سورا لجنده • «ولما توهم عظيم البجة أن أزواده نفذت وجمع جيشه للحرب وصلت القمي ميرة المراكب فتقوى بها وأصحابه • فلما بدأ القتال • احتال حيلة بارعة إذ رفع على الأسنة في الصباح المبكر كتبا في طوامير كتان بالذهب وجعلها بخط جليل ونادى : هذه كتب أمير المؤمنين • فلما رأت البجة ذلك وهم صافون للحرب استطرفته وتحللت من المصاف وقصدته وكان القمي قد حمل البنود على الفوالج والطبول فلما التفت البجة بالطوامير ضربت الطبول الزنجية فاضطربت صفوفهم فحمل عليهم وقد التفت جمالهم وشردت فهلك بتلك الغرة عامتهم ووطئتهم الجمال فقتل وأسرو سبي •••» ويروي البلاذري وابن خلدون ان الحيلة كانت بتعليق الأجراس على الخيل فلما سمعت إبل البجة أصواتها تقطعت

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٢٩ والبلاذري - فتوح البلدان ص ٢٨٢

(٢) ذكر ابن حوقل أن بقية ذلك الحسك موجود في أسوان ، في عهده

مع خزانة القمي ولعله نقل هناك للذكرى • انظر ص ٥٨

بالبجويين في الأودية والجبال» وكانت النتيجة هزيمة البجة فأما ملكها علي بابا فيروي البلاذري أنه قتل وقام بالملك من بعده ابن أخته «علي قاعدتهم في توارث العرش فطلب الهدنة وأبى المتوكل ذلك عليه إلا أن يطاء بساطه في سامراء .. وأما ابن حوقل فيذكر أن علي بابا استقر على ربوة وحلف ألا يزول أو تنقلع الربوة فأخذ أسيرا (أو استسلم بالأمان) وقدم به القمي الى أسوان مع الغنائم التي غنم فباع ذلك وكان مبلغه خمسين ألف أوقية تبرأ ..»^(١) وكان ذلك سنة ٢٤١ وكان في الغنائم تاج الملك ومتاعه وخراج السنوات الأربع التي امتنع فيها عن دفع الاتاوة ..

ويبدو أن ملك البجة كان قد تحالف مع ملك النوبة ، علي وادي النيل ، ضد المسلمين لأن القمي بعث إلى هذا الملك واسمه يركي فأتاه طائعا الى أسوان فانهدر بالملكين الى العراق فوصل سامراء أواخر سنة ٢٤١ ويروي ابن حوقل أن المتوكل أمر فنسودي على الملكين للبيع في السوق . فاقوما عند باب العامة مع قوم من البجة نحو من سبعين غلاما على الإبل بالرجال ومعهم الحراب وعليها رؤوس قتلاهم ، فبلغ ملك البجة سبعة دنانير وملك النوبة تسعة فأجرى المتوكل لكل منهما راتبا يوميا بمقدار ثمنه وخلع عليهما وصولح الاثنان على أداء الإتاوة (من البجة) والبقط (وهو مثل الجزية) من النوبة بمعنى أن معاهدة المأمون مع البجة جدد العمل بها من جديد كما جدد العمل بالبقط . وعهد المتوكل بولاية

(١) انظر البلاذري - فتوح ص ٢٨٢ وابن حوقل (ص ٥٨) وهو يجعل المعركة وانهدار الملكين الى العراق في سنة ٢٣٨ . وقد آثرنا مع المنطق التاريخي رواية ابن خلدون (ج ٢ ص ٢٢٨-٢٢٩) وهو يروي أيضاً أن علي بابا استخلف على البجة أثناء زيارته للعراق ابنه لعيس .

المنطقة الى سعد الايتاخي فولى عليها القمى نفسه فارتد إليها والمكان معه .

غير أن هذا الوالي قتل سنة ٢٤٥ من قبل بعض أصحابه «فزال منذ ذلك أمر السلطان العباسي في العلاقى وهلك المتوكل (سنة ٢٤٧) فعادت البجة»... فضبطت أطرافها (بلادها وحدودها) والاسلام في بعضها مريض... ولم يعد التجار يجاوزون في التوغل في تلك الأرض المناطق الشمالية يحملون إليها الصوف والقطن والحيوان من الرقيق والابل حتى استطاع بعض العرب المسلمين إقامة ممالك لهم في داخلها من بعد .

أما العلاقات مع النوبة فقد كان ينظمها منذ عهد المهدي البقط القديم الذي تم تجديده على يده وقد كشف عنه عبد الله بن طاهر . حين جاء مصر واليا سنة ٢١٠ من قبل المأمون ، ليحكم بموجه معهم ووجد نسخته في الديوان بالفسطاط^(١) . على أنه يبدو من الأخبار أن الإتاوة كانت تعتبر رمز خضوع وولاء سياسي وأن تأخر النوبة في تقديم الإتاوة السنوية كان يؤدي الى شن الغارة عليهم ومنع إخراج المؤن إليهم . ويذكر المقرئ ان ابن ملك النوبة أيام المعتصم أنكر على أبيه بذله الطاعة للدولة الاسلامية واستعجزه فيما يدفع من الخراج السنوي فأرسله يزور تلك الدولة قبل أن يقرر الطاعة أو العصيان ويقول الخبر إن هذا الابن المسمى قيرقي بن الملك زكريا بن بحنس زار الخليفة المعتصم رسولا من قبل أبيه فكانت البلاد تزين له وبهره ما لقي من عظمة الخلافة ومالها وما أهدها الخليفة له وخيره المعتصم أن يطلب ما يشاء فطلب إطلاق المساجين فكبر في عين الخليفة ووهبه الدار التي نزلها بالعراق وأمر ببناء دار له في كل منزل على طريقه تصبح دارا لرسل النوبة وأجرى له في ديوان مصر

(١) المقرئ - الخطط (ط بيروت) ج ١ ص ٣٥٤

سبعمائة دينار وخلعا ومركوبا • وجعل دفع البقط كل ثلاث سنوات
وكتب لهم كتابا بذلك • وأمضى له طلبات عديدة أخرى^(١) •

ويظهر أن هذا الوفد النوبي كان مهمته الأساسية أو الظاهرة
حل الخلاف حول دفع البقط كل ثلاث سنوات أو كل سنة فقد أشار
البلاذري المؤرخ الذي كان يعاصر المعتصم والمتوكل الى ذلك بقوله :
«... وقد ادعوا به حديثا أنه ليس يجب عليهم البقط لكل سنة وأنهم
كانوا طولبوا بذلك في خلافة المهدي فرفعوا إليه (الاعتراض) فأمر أن
يؤخذ منهم كل ثلاث سنوات بقط سنة... ولم يوجد لهذه الدعوى ثبت
في ديوان الحضرة (في سامراء) ووجد في الديوان بمصر...»^(٢) •

على أنه يبدو من جهة أخرى أن النوبة لم يكونوا خالصي الولاء
للدولة الإسلامية وإن سادت علاقاتهم طابع الهدوء والسلام معها • ويبدو
أنهم حاولوا الاتفاق أكثر من مرة مع البجة ضدها أو حاول هؤلاء
الاتفاق معهم فكان النوبة يتخذون من البجة كبش صدام لكنهم لا يجهرون
لإسلام بالعداء ولعل أول محاولة نعرفها من هذا النوع كانت أيام تحرك
البجة في عهد المأمون سنة ٢١٢ - سنة ٢١٦ ثم كانت المحاولة الثانية في
عهد المتوكل بين سنة ٢٣٢ - سنة ٢٤١ ولهذا ما إن انتصر محمد القمي
على البجة وأسر ملكهم حتى بعث إلى ملك النوبة يستقدمه إليه • ولم
يجد هذا الملك محيصا من المسير الى أسوان • ومن تلبية طلب المتوكل
بالمسير الى سامراء • وتتضح مؤامراته مع البجة لا من تصرف القمي معه
ولكن من تصرف المتوكل الذي عرضه للبيع عند باب العامة مع صاحبه
البجوي فبلغ ثمنه تسعة دنانير • ولم يكن هذا التصرف من الخليفة سوى

(١) المصدر نفسه .

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٢٨١

محاولة أخيرة في إذلال الرجل وإرهابه لأن المتوكل عاد فخلع عليه الخلع وأجرى له الجراية اليومية مدة مقامه • وجدد الرجل الاعتراف بالبقط قبل أن يعود إلى قاعدة ملكه ..

د - صراع القوى البحرية في المتوسط

كان عهد جديد قد بدأ في تاريخ البحر المتوسط منذ أوائل القرن الثالث بنزول الأغالبة في صقلية وسقوط كريت بين المسلمين سنة ٢١٢ وإذا كان من أولى نتائج تلك الأحداث كسر رقابة بيزنطة على تجارة هذا البحر وإلغاء السيطرة المطلقة للبيزنطيين عليه فقد كان من تلك النتائج أيضا إجبارهم على توجيه قواهم البحرية إلى بحر اليونان وبحار صقلية بدلا من استخدامها ضد العباسيين في الشرق • ومقابل ذلك فإن بني العباس تنبهوا بسبب عوامل عديدة إلى ضرورة العناية بالقوى البحرية في حوض المتوسط الشرقي أي في سواحل الشام ومصر لا نتيجة ما أعطاهم النجاح الاسلامي الكريتي - الصقلي من تشجيع ولكن نتيجة عدد من الضربات التأديبية التي وجهها البيزنطيون الى اثنين على الأقل من أهم المدن الساحلية الاسلامية في الشام ومصر وهما : انطاكية ودمياط ... ولكن هذه العناية العباسية مع ذلك ظلت محدودة نسبيا لأن الطابع القاري الآسيوي لخلافة بغداد كان قد غلب عليها تماما منذ تغلب المأمون على العرش • وبالرغم من المشاريع التي خطرت في بال هذا الخليفة آخر حياته، وفي بال المعتصم ثم المتوكل بضرب القسطنطينية فانهم جميعا كانوا يفكرون بريا وليس في مخططاتهم مكان للبحر ، عدا المكان المحدود الذي خصصه له المعتصم • كما انهم جميعا لم يحاولوا الاستفادة من تينك الاستطاليتين البحريتين الهامتين اللتين كانتا على أي حال تابعتين لهم من الناحية الاسمية وهما كريت وصقلية الأغالبة كان يخطب لهم على

منابرهما ، وهما رأس جسر متقدم جدا لتطويق الامبراطورية البيزنطية بحرا ومن الجنوب والغرب ، وتحاربان بيزنطة ولكن بمبادرتهما الذاتية لا بأوامر ولا بتدخل من خلافة بغداد التي كانت - إلا فيما ندر - تقف موقف المتفرج البعيد . بل لقد كتبت قوى أخرى اسلامية من ايطاليا لبني العباس فلم يجد هؤلاء الوقت للرد عليها !

وعلى أي حال فإن صراع القوى البحرية خلال معظم القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي كان ، رغم خبرة بيزنطة وسعة أسطولها وقوته صراعا بين قوتين متكافئتين تتنازعان السيطرة على طرق التجارة ومواقع النفوذ في هذا البحر . البيزنطية والاسلامية ، وإذا تركنا جانباً القوى البحرية الايطالية والقوى الفرنجية والاندلسية وهي بعيدة عن ميدان الصراع الذي يهمننا وهو الحوض الشرقي للمتوسط . فإن ذلك التكافؤ الذي استمر أقل قليلا من قرن لم يتحول في مرة من المرات لمصلحة القوى البحرية الاسلامية لا بسبب العجز في القوى ولكن نتيجة عدم التنسيق . كانت القوى البحرية العباسية تمتد من الناحية النظرية من صقلية إلى كريت والشام ومصر . ولكنها من الناحية العملية كانت مكونة من ثلاث قوى منفصل بعضها عن بعض وقلما تعاونت أو اتفقت مشاريعها في العمل وضرباتها في الزمن وفي المواقع الاستراتيجية الأساسية . ولم يفكر العباسيون لحظة في أخذ المبادرة لجمعها ولتنسيقها لأن البحر المتوسط لم يكن ضمن الدولة بالنسبة إليهم كما كان لدى الأمويين ولكن على نهاية حدودها ...

وقد كانت القوى البحرية العباسية في الشام ومصر ، أضعف القوى الثلاث وربما زاد في ضعفها أن الحصار الاقتصادي البيزنطي حرم تجار الشام ومصر من الحركة البحرية في جوض المتوسط الشرقي ومن الوصول

الى الحوض الغربي • وقد أصدر ليو الخامس امبراطور بيزنطة (بين سنتي ٨١٣ - ٨٢٠) قرارا «يحذر رعاياه ولا سيما البنادقة من الاتجار مع الشام ومصر •• ويحتمل وجود محاولات مشابهة لوقف التعامل التجاري المحظور بين جزر بحر ايجه وشواطئ آسيا الصغرى وبين مصر وسورية»^(١) •

ومن المحتمل أن يكون السبب في هذا الأمر ، بجانب معناه الاقتصادي هو رغبة ليو الخامس في معاقبة انصار توماس الصقلي الثائر الأيقوني الذي يبدو أنه هياً ثورته وجمع رجاله من العرب والفرس والأرمن والكرج اثناء وجوده في الشام ما بين سنتي ٨٠٣ - ٨١٣ كما اتفق ، بعد الثورة مع السلطات الاسلامية (أو على حد قول بيوري مع المأمون) وأقام معها معاهدة تحالف كان من تيجتها أن أمدته بالعون وتم تنويجه امبراطورا لبيزنطة على يد البطريق أيوب بطريق انطاكية برضى الخليفة نفسه^(٢) ولا شك أن البطريق وهو يتوجه كان يرمي الى رفض الهرطقة اللاأيقونية التي تسير عليها سياسة ليو الخامس وسياسة من خلفه من بعده وهو ميخائيل الثاني العموري •

وبالرغم من أن المصادر العربية لا تتحدث عن معونة المسلمين لتوماس الصقلي فيبدو أن ولاية الشام ومصر وجهوا قواهم البحرية لمعوته معونة سلبية أو استغلال شغل الدولة به وتمرد أساطيلها عليها • ووقوفها بجانبه «للقيام بإجراءات انتقامية» ضد الحصار الاقتصادي الذي فرضه • وقد تسبب عن هذا الحصار «هجرة كثير من المسيحيين من

(١) ارشيبالد لويس - القوى البحرية ص ١٧٩ (الترجمة العربية) •

(٢) انظر

Bury, A. His. of the east. Rom. Emp. p, 88

الشام وفلسطين الى قبرص والأناضول في سنة ٨١٣ « وما بعدها (١) لا سيما بعد أن تحولت ثورة توماس إلى ثورة «بروليتارية» فلاحية - تماما كثورة بابك المعاصرة لها - وأعلن الرجل نفسه مدافعا عن الفقراء والمظلومين حتى «رفع العبد يده في وجه سيده وخرج الجندي على طاعة قائده» ...

وقد ألح البيزنطيون في الهجمات على انطاكية بين سنتي ٢١٣ - ٨٢٨/٢٢٦ ونهبوا هذه المدينة (٢) ودمروا سكانها لموقعها المعادي دينيا (في الأيقونية) وسياسيا (في تنويع توماس) ضد بيزنطة حتى لقد أمر المعتصم إثر الهجوم ونهب التجار في الميناء وأسر الناس ببناء حصن بمنطقة الميناء المسماة سلوقية (٣) ويبدو أن هذه الهجمات ، أقنعت خليفة سامراء بضرورة وجود قوة بحرية تحمي الشواطئ الشامية والمصرية وتعاون في الوقت نفسه إن لم يكن مباشرة فبشكل غير مباشر مع اسطولي كريت وصقلية الناجحين في غزو القسطنطينية ... وهكذا أمر المعتصم اثر عودته من فتح عمورية سنة ٨٣٨/٢٢٣ ببناء السفن في الشام . ويبدو أن مراكز بناء هذه السفن كانت ثلاثا : دمياط ، وصور وطرسوس . وإذا كانت دمياط قديمة في الصناعة فإن هشام بن عبد الملك هو الذي نقلها في الشام من عكا الى صور «واتخذ بها فندقا ومستغلا . ثم توسع الاهتمام يوم أمر المتوكل بعد ذلك بترتيب المراكب بعكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة (٤) سنة ٨٦٢/٢٤٧ وأما طرسوس فنعرف

(١) ارشيبالد لويس - القوى البحرية ص ١٧٩

(٢) انظر تاريخ ميخائيل السرياني (الكبير) بالفرنسية (ترجمة

شابو) ج ٣ ص ١٠١

(٣) المرجع السابق نفسه وقد ذكر البلاذري - فتوح ص ١٩٨

(٤) البلاذري - فتوح ص ١٤٠ و ص ١٩٣

بناء السفن بها مما سيكون لأساطيلها من شأن حربي عما قريب .
وكانت أولى نتائج هذه العملية بعد أربع سنوات من العمل تحرك
أسطول اسلامي سنة ٢٢٧/٨٤٢ مكون من ٤٠٠ سفينة الى بحر ايجه
يقوده قائد عربي يعرف بأبي دينار^(١) . على أن الخليفة المعتصم
والامبراطور البيزنطي تيوفيل كلاهما توفيا معا في شهر واحد من تلك
السنة بينما كانت القسطنطينية تأخذ أهبتها لمواجهة العاصفة المنتظرة
ودفعها وهي لم تعرف مثلها منذ قرن وعشر سنوات كان الاسطول
الاسلامي نفسه يصطدم بالعواصف فتشتت شمله عند رأس كيربوت
(خلدونية) فلم يعد منه الى الشام سوى سبع سفن^(٢) .

ولم يأبه الواصل بعد هذه المأساة البحرية بمعاودة البناء والعمل
لأنه لم يكن يحمل مشاريع أخرى غير مشاريع ابيه وبعيدة عن الحرب
في الأناضول أو البحر . حتى إذا جاء المتوكل بعده جاءت ضربة فاحشة
لتفتح عينيه من جديد على البحر وكانت أقسى وأعنف ما شهدت الموانئ
الشامية المصرية منذ العهد الأموي من ضربات وهي : تدمير دمياط
سنة ٢٣٨/٨٥٣ : وكان هذا البلد هو دار الصناعة للأسطول الذي
يشكل قوة كريت البحرية . والذي بث الرعب في بحر ايجه وهدد
المواصلات التجارية والعسكرية لبزنطة . كما كانت كريت تعتمد في المؤن
اللازمة وفي السلاح على دمياط والاسكندرية . فأراد البيزنطيون قطع

(١) يحيط الغموض باسم أبي دينار هذا وقد ظن بعض الباحثين
انه قد يكون جعفر بن دينار الخياط والي طرسوس ولكن جعفر قد جاء
طرسوس والصائفة في وقت لاحق متأخر سنة ٢٤٧ كما كان واليا على
اليمن أيام الواصل .

Bury, A. Hist. of the East R. E. P 274 Vasilier, Byzancel
et les Arabes, I, 192-193 .

(٢) انظر

كرت عن منابع قوتها البحرية وتموينها ولعل الخطة البيزنطية كانت تتضمن خطوة تالية هي الهجوم على كريت بعد عزلها وقطع اتصالها مع مصر.

على أن هجوم دمياط كان يعكس بما رافقه من قسوة همجية وتدمير مدى الحقد الذي ملأ قلب البيزنطيين على كريت . فقد جمعوا للحملة ثلاث مائة سفينة تشكل ثلاثة اساطيل ، وهي قوة نذر أن جمعتهما بيزنطة لهجمة واحدة منذ الفتح العربي . وقد كلف اثنان منهما على ما يبدو بمراقبة سواحل الشام وبيعض الاعمال الحربية في بحر ايجيه حول كريت ونزل الثالث في ٨٥ سفينة تحمل كل منها خمسة آلاف محارب^(١) على دمياط . قاد الهجوم قائد دعتة المصادر العربية ابن قطونا^(٢) وتسميه المصادر البيزنطية نقيتاتوس^(٣) ودخل الروم البلد (في ٢٢ مايس سنة ٨٥٣) فلم يجد بها أحدا من الجند المدافعين لأن صاحب المعونة بالفسطاط كان قد استدعاهم لحفل عيد الأضحى . . .

وبالرغم من أن السكان قاوموا ببطولة قبل أن يهجروا المدينة هارين إلا ان الجند البيزنطي انزل الدمار والحريق بالمدينة وفيها الكثير من الأخصاص القصبية » واحتبلوا سلاحا كان فيها . لأبي حفص صاحب

(١) يذكر الطبري (٩ ص ١٩٣-١٤١٧/٣) أن قواد الاساطيل الثلاثة هم : « عرفا وابن قطونا وأمردناقه وهم كانوا الرؤساء في البحر مع كل واحد منهم مائة مركب . . » ويقول اليعقوبي ان قائد الهجوم يدعى قطوباريس .
(٢) هذه رواية اليعقوبي واحدى روايات الطبري الا انه يذكر رواية أخرى تجعل عدد المراكب ١٠٠ في كل منها ما بين ٥٠-١٠٠ محارب . انظر الطبري ج ٩ ص ٩١٤ (٣/١٤١٦) وانظر اليعقوبي ج ٢ ص ٤٨٨
(٣) انظر فازيلييف - العرب والروم ص ١٨٩ (تعليق ١) وانظر اسد رستم - الروم ج ١ ص ٣٣٥

اقريطش نحو من ألف قناة وآلتها ٠٠٠ وأخذوا من الأمتعة والقند
والكتان ما كان عبء ليحمل الى العراق ٠٠٠ وقتلوا من أمكن قتله من
الرجال وسبوا من المسلمات والقبطيات واليهوديات نحو من ٦٠٠ امرأة
(منهن ١٢٥ مسلمة)^(١) وأحرقوا خزانة القلوع (أشعة السفن) ومسجد
الجامع وأحرقوا كنائس» ٠٠٠ وقد «غرق في بحيرة دمياط من النساء
والصبيان أكثر مما سباه الروم ٠٠٠ ثم رحل الروم» بعد يومين من
التدمير وقد أوقروا «السلنديات» بالمتاع والأموال والنساء .

وانتقلت الحملة إثر ذلك الى تنيس فلم يستطيعوا الاقتراب منها
لكثرة كثبان الرمل وضحالة الماء حولها فهاجموا مرساها أشتوم (على
أربعة فراسخ منها) وكان له سور وبابان من الحديد كان المعتصم أمر
بعملها له فخر بوه وأحرقوا ما فيه من المجانيق والعرادات وأخذوا بآية
الحديد ٠٠٠ ثم توجهوا لبلادهم لم يعرض لهم أحد ٠٠٠»^(٢) .

ويبدو أنهم كرروا الهجوم كرة أخرى في السنة التالية سنة ٢٣٩
/٨٥٤ على ما يروي المقرئزي : « جاؤوا في نحو مائتي مركب فأقاموا
يعبثون في السواحل شهرا وهم يقتلون ويأسرون » فلم يحصلوا على^(٣)
نجاح آخر كالأول ٠٠ ثم انتظروا خمس سنوات أخرى ليعاودوا الهجوم

(٤) انما ذكرنا الرقم للدلالة على نسبة المسلمين والقبط بين السكان
واليعقوبي يذكر انهن ١٨٢٠ مسلمة وألف من القبط ومائة يهودية والمبالغة
في أرقامه واضحة لان سفن الاسطول لا تحمل فوق الجند والبضائع
المنهوبة هذا العدد .

(٥) تفصيل الهجوم كله لدى الطبري ج ٩ ص ١٩٢-١٩٥ (٣/١٤١٧)

— (١٤١٩) .

(١) المقرئزي - الخطط ص ٢٧٧

ولكن على الفرما^(١) (بلوزيوم) في هذه المرة ٠٠٠ ولم يكن الاسطول بالقوة الأولى فكانت هجمة عابرة ٠٠٠ ويرى المؤرخ فازيليف أن كان لهذه الهجمات الرومية أثرها البعيد في نمو البحرية العربية إذ دفعت إلى التفكير الجدي في إنشاء اسطول بمصر^(٢) وهو يتابع في ذلك رأي المقريري الذي يذكر أنه « أنشئ من حينئذ الاسطول بمصر »^(٣) ويضيف فازيليف أنه « أصبح أمر البحر اكبر الأمور شأنًا إذ بنوا السفن الحربية وجعلوا للبحارة مثل عطاء الجند وأنزلوا الأمراء الرماة في الاسطول ٠٠ حتى اضحى الانخراط فيه من دواعي الاحترام ٠ وهذا هو نفسه الأسطول الذي سيكون له اكبر الشأن في النصف الثاني من القرن الرابع - العاشر، أيام الفواطم خاصة » ويظهر أن في هذا الرأي بعض المبالغة فإن العباسيين حين احتاجوا بعد حوالي عشرين سنة (سنة ٨٧٧) الى حملة بحرية أمروا ببناء السفن في مصر والشام مما يدل على عدم وجودها وبذلك أنشئ الاسطول الطولوني وقد احترقت مراكز هذه الصناعة في ثورة سنة ٣٢٣ وهرب الثوار بعد ذلك بالاسطول الى برقة ٠٠٠ وأما الفاطميون فإنهم أعادوا انشاء الاسطول من جديد ٠٠ وعلى أي حال فقد كانت النتيجة المباشرة لمأساة دمياط تحصين سواحل مصر وغيرها والأمر ببناء اسطول قالوا : « أمر المتوكل بترتيب المراكب بعكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة » وإذا كان البلاذري يذكر أن ذلك كان سنة ٢٤٧ / ٨٦٢ فيظهر أن الأمر كان قبل ذلك بسنوات لأننا نجد الأسطول الشامي أو الطرسوسي

(١) الكندي - الولاة والقضاة ص ٢٠٣

(٢) فازيليف - العرب والروم (بالفرنسية) ج ١ ص ٣١٧ والترجمة

العربية ص ١٩٢

(٣) المقريري - الخطط ج ١ ص ٣٧٨

يشترك القوي البرية المحاربة سنة ٢٤٦ في الهجوم على الروم إذ يقوم
عشرون مركبا يقودها الفضل بن قارن (شقيق المازيار اصبهذ طبرستان
وهو الذي قتل بجمص بعد أربع سنوات) فيهاجم القاعدة البحرية البزنطية
الأناضولية في أضالية (حصن انطاكية)^(١)

ويبدو أن العناية بالأسطول العباسي تركزت بعد ذلك في سواحل
الشام وفي ثغر طرسوس لأن مصر استقلت بنفسها مع ابن طولون الذي
أصبح له سياسته وأسطوله . أما الأسطول الشامى الطرسوسى فسوف
يغير على جزيرة ايوبيا في بحر ايجيه سنة ٢٥٩/ ٨٧٣ وربما كانت معه في
هذا الهجوم سفن كريتية وذلك قبل أن يقع الشام وتقع طرسوس نفسها
في يد ابن طولون ويصبح الأسطول فيها جميعا بيد مصر والطولونيين .
وإذا انتقلنا بعد هذا إلى كريت وجدناها أكثر اعداء بيزنطة خطرا
وتصميما في تلك الفترة ولعل سقوط كريت هو الذي جعل بيزنطة تخسر
حقلية بعدها . وقد حاولت بيزنطة عبثا إما استرداد الجزيرة أو على
الأقل كف عاديته وهجماتها فلم تفلح لا في هذه ولا في تلك .

أرسلت عليها كراتيراس حاكم اقليم كبير هايوت العسكرى على
رأس ٧٠ سفينة ففشل وأجاب مسلمو كريت على هذه الهجمة بغارات
عديدة على مختلف الجزر والسواحل حتى أصابوا سنة ٢٢٤/ ٨٣٩
نصرا باهرا دمروا فيه الاسطول البزنطى قرب جزيرة تاسوس . واستطاعوا
بمؤامراتهم الناجحة أن يشلوا مسيرة اسطول ضخّم جمعته بيزنطة في
العاصمة وعينت له القائد تيوكسيثوس . فلم يبحر الاسطول من
موائيه

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢١٩ (٢/ ١٤٤٩)

واستمرت كريت في غاراتها في أنحاء بحر ايجه كما اشتركت في الاعمال البحرية في ايطاليا والبحر الأدرياتي دون أن تستطيع بيزنطة إيقاف فعاليتها القوية إلى أن قررت بيزنطة ضرب كريت في دمياط ٠٠٠ لكن حتى هذه الضربة لم تؤثر على كريت في شيء ٠٠٠ على أن هذا النشاط الواسع الناجح كان في الواقع ضائعا لأنه اقتصر على الهجوم الدفاعي ولم يكن لها لا اتساع الأرض ولا كثرة الرجال والموارد والصناعات التي تسمح لها بالمقاومة الطويلة يضاف إلى ذلك أنها لم تنسق أعمالها مع القوى الإسلامية الأخرى • ولم تقبل في حرصها على استقلالها الذاتي أن تكون على أي علاقة سوى الشكل الظاهري في الخطبة مع بني العباس الذين كانوا بدورهم على أي حال مشغولين بمشاكلهم الداخلية عن التفكير بمصير البحر المتوسط •

ولعل صقلية وقوى الأغلبة فيها كانت أبعد أثرا في انهك القوى البيزنطية وزعزعتها بحريا في هذه الفترة • فإن نزول بني الأغلب في تلك الجزيرة جعلهم ، مرغمين جزءا من تلك القوى المتعددة التي تلعب بمصير ايطاليا في الوقت الذي أجبر فيه بيزنطة على تحويل اسطولها الشرقي الى الغرب •

واستطاع الأغلبة تحقيق انتصارين أحدهما استراتيجي باحتلال جزيرة قوصره وهي منتصف الطريق البحري إلى صقلية والثاني سياسي بكسب صداقة نابولي والتحالف معها حتى استطاعوا بمعونة اسطولها احتلال مسينا سنة ٢٢٨/٨٤٣ السيطرة على المضيق بين ايطاليا وصقلية (١) •

(١) ارشيبالد لويس - القوى البحرية ص ٢١٣

وتدعم مركز الأغلبة ، معنويا على الأكل ، اثناء ذلك ، بانتصارات اسلامية تحققت على الأرض الايطالية بشكل متتابع سريع أوقعت البحر الادرياتي كله تحت رحمة الاساطيل الاسلامية :

— حقق الانتصار الأول مسلمو كريت حين استطاعوا الاستيلاء على مدينة تارانت بجنوب ايطاليا سنة ٨٣٤/٢١٩ •

— ثم قاموا هم أنفسهم مع بعض القوى الافريقية بفتح مدينة برنديزي سنة ٨٣٨/٢٢٣ وبتحطيم أسطول البندقية الذي جاء لنجدها مع أنه كان يضم ستين قطعة بحرية •

— ثم وقعت مدينة باري ، في يد بعض الجنود المسلمين الذين كانوا يعملون في خدمة بعض الدوقات فاستولوا عليها سنة ٨٤١/٢٢٩ مع الأراضي المجاورة لها وسرعان ما أصبحت ماالتقت هذه البلدان بعضها مع بعض تحت زعامة قائد أغليبي يدعى مفرج بن سليمان فأضاف إليها فتح مدن أوترنت وكالياري وغيرها حتى أضحت جنوب ايطاليا (شبه جزيرة كالابريا) كله في يده فأعلن استقلاله ... وتأسست بذلك دولة اسلامية قادها مفرج حتى قتل ثم تسلمها قائد آخر من بعده يدعى سودان ... وقد دامت هذه الدولة اكثر من ثلاثين عاما ... والمهم في الأمر أنها اعتبرت نفسها ولاية عباسية • وبعثت الى سامراء تطلب الاعتراف بها •

وقد ذكر البلاذري هذه الدولة • وقرأ لديه من خبرها ما يقول فيه : « وبالمغرب أرض تعرف بالأرض الكبيرة (ايطاليا) وبينها وبين برقة مسيرة خمسة عشر يوما (في البحر) أو أقل من ذلك قليلا واكثر قليلا • وبها مدينة على شاطئ البحر تدعى باره (باري) وكان أهلها نصارى وليسوا بروم (يقصد كاثوليك) • غزاها جيلة مولى الأغلب فلم يقدر عليها •

ثم غزاها حلفون البزبري ويقال إنه مؤلى لربيعة ففتحها في أول خلافة المتوكل على الله (الواقع أن ذلك تم في آخر خلافة المعتصم) . وقام بعده رجل يقال له المفرج بن سلام ففتح أربعة وعشرين حصنا واستولى عليها وكتب الى صاحب البريد بمصر يعلمه خبره وأنه لا يرى لنفسه ومن معه من المسلمين صلاة إلا بأن يعقد له الإمام على ناحية ويوليه إياها ليخرج من حدا المتغلبين وبني مسجدا جامعا . ثم إن أصحابه شغبوا عليه فقتلوه . وقام بعده سودان فوجه رسوله الى امير المؤمنين المتوكل على الله يسأله عقدا وكتاب ولاية . فتوفي (المتوكل) قبل أن ينصرف رسوله إليه وتوفي المنتصر بالله وكانت خلافته ستة أشهر وقام المستعين بالله أحمد ابن محمد بن المعتصم بالله فأمر عامله على المغرب وهو أوتامش مؤلى أمير المؤمنين بأن يعقد له على ناحية . فلم يشخص رسوله من سر من رأى حتى قتل أوتامش وولى الناحية وصيف مؤلى أمير المؤمنين فعقد له وأنفذه . . . »^(١) وبهذا الشكل ولدت ولاية عباسية جديدة في الساحل الايطالي الشرقي على مدخل البحر الادرياتي هي ولاية باري ! . . .

على أن ملاحظة المواقع المتعددة التي اخذت تتوضع فيها رؤوس الجسور الاسلامية عبر البحر ، في ايطاليا تكشف طابعها الاقتصادي التجاري وأنها مراكز ومنافذ تجارية غايتها كسر طوق الحصار البحري البرنطي المفروض على البحر المتوسط الشرقي . . ورؤوس الجسور الاسلامية هذه كانت تتوزع مع وجود المسلمين في صقلية ، على البحر الأدرياتي والإيوني والثيراني على السواء إلا إنها كانت أكثر سيطرة على

(١) البلاذري - فتوح البلدان ص ٢٧٧

مدخل البحر الأدرياتي مما مكن باري وبرنديزي والأساطيل الاسلامية الأخرى من توجيه الغارات على موانئ هذا البحر ومن احراز عدد من الانتصارات على اساطيل البندقية خاصة • ولم ينج البحر التيراني (الشاطيء الغربي الايطالي) من السيطرة البحرية الاسلامية التي حاولت تهديد نابولي ونزلت أرض البابا في روما •

غير أن هذا النشاط البحري المتنامي أصابه بعض الركود نتيجة الخلاف بين مسلمي كريت والقوى الأغلبية وهذا ما شجع - على ما يظهر - بيزنطة على قيادة حملة واسعة سنة ٢٤٥/٨٥٩ قوامها ٣٠٠ سفينة (شلمندية) تسترد بها المواقع الصقلية المفقودة ولكن الاسطول العربي دمر مائة من هذه السفن على الساحل وألجأ البقية للفرار في هزيمة ما عرفت بيزنطة منذ زمن طويل أشنع منها^(١) • وبينما استطاع الأغلبة استكمال فتح صقلية تدريجيا استمرت القوى البحرية الاسلامية والبيزنطية في توازن مستمر وصدام مستمر معا حتى أواخر القرن الثالث

هـ - العلاقة مع دول الحوض الغربي للبحر المتوسط

كان ذلك الحوض غير موجود بالنسبة لخلفاء سامراء • ولولا أن عليه الأغلبة من جهة والأمويين من جهة أخرى لما وجدنا لدولة من دوله ذكرا في البلاط العباسي •

وإذا كان الرشيد قد سلم افريقية لبني الأغلب مقابل خراج معلوم واسم يذكر في الخطبة والسكة رمزا للولاء فنحن واثقون من أن هذا الخراج انقطع وشيكا ولعله انقطع منذ فتنة الأمين والمأمون فإن الرقم المتعلق به لا يظهر في قوائم الخراج التي حفظها لنا قدامة بن جعفر في

(١) انظر بعض التفاصيل لدى ابن الاثير ج ٧ ص ٦٣ (حوادث سنة ٢٣٧)

كتاب الخراج ولا ابن خرداذبة في المسالك والممالك • وقد سجل الأول قائمة تعود إلى عهد المأمون والمعتصم وكتب الثاني كتابه حوالي سنة ٢٣٢ بين عهدي الواثق والمتوكل • وما ندري إن كان انقطاع الخراج قد لحقه قطع الخطبة أم لم يلحقه والأرجح أن الأغلبة أبقوا عليها رمزا لموقفهم السني من جهة واعتزازا بالشرعية من جهة أخرى مقابل دولتي الخوارج والأدارة المجاورتين •

ولعل الخبر الذي يكشف نوع العلاقة التي كانت بينهم وبين الخلافة العباسية أن التقليد بالإمارة وصل الى زيادة الله بن الأغلب من قبل المأمون إثر وفاة أبيه ابراهيم سنة ٢٠١ ويبدو أن ابراهيم بن المهدي حين استخلف في بغداد بعث إليه يطلب ولاءه فأبى • فلما دخل المأمون بغداد وخلصت له الخلافة شكر له ذلك^(١) ثم قلد المأمون ولاية الشام ومصر والمغرب لقائده عبد الله بن ظاهر فكتب الى زيادة الله بالدعاء لابن ظاهر على منابر افريقية فغضب زيادة الله غضبا شديدا وبعث مع رسول الخليفة إليه كيسا به ألف دينار مضروبة بأسماء بني إدريس^(٢) • واكتفى المأمون بهذا التهديد فأمسك • وهكذا كانت علاقة افريقية بشامراء مجرد كلمة شكلية تسبك على الدرهم أو تقال على المنبر ولا شيء وراء ذلك • • ويبدو أن العلاقات فترت بينهم وبين سامراء في عهد المعتصم ولعل السبب فيها انقطاع الخراج أو تلكؤ الخلفاء في إرسال مناشير التعيين •

وطبيعي أن الاندلس لم تعد منذ زمن طويل من هموم بني العباس ومع ذلك فقد كانت بالنسبة إليهم جرحا ناغرا على ما يظهر يدل على ذلك

(١) ابن الخطيب - أعمال الاعلام (القسم الثالث) ص ١٦

(٢) ابن خلدون - العبر ج ٤ ص ٤٢٢ - وابن الخطيب المصدر السابق

أن مشروعا لغز الاندلس قد خطر في بال المعتصم لمجرد أن فكر في اولئك
الأميرين هناك يروي الصولي فيما نقل السيوطي^(١) عنه قوله : «... وكان
المعتصم قبل موته قد عزم على المسير الى أقصى المغرب ليملك البلاد التي
لم تدخل في ملك بني العباس لاستيلاء الأموي عليها . فروي الصولي
قال : قال لي المعتصم : إن بني أمية ملكوا وما لأحد منا ملك . وملكنا
نحن ولهم بالاندلس هذا الأموي . فقدر ما نحتاج إليه لمحاربته . وشرع
في ذلك . فاشتدت عليه علته ومات ... » ومات معه آخر مشروع مر في
خاطر عباسي للوصول إلى الاندلس ...

ويبدو أن الروم كانوا يدركون مدى الحقد العباسي على أمويي
الاندلس وقد حاولوا في عهد المعتصم بالذات اللعب بهذه الورقة ...
لا سيما حين توالى عليهم الهزائم قبل عمورية وبعدها . ففي تلك الفترة
كانوا قد هزموا أمام مسلمي كريت مرات في بحر ايجيه وفي الأراضي
الايطالية حيث استطاع المسلمون احتلال عدد من المدن منذ سنة ٢١٩
وهزموا مرات أمام القوى البحرية والبرية الأغلبية في صقلية وجنوب
إيطاليا وبخاصة بعد أن تسلم ولاية تلك البقاع ابراهيم بن عبد الله الأغلب
سنة ٢٢١/٨٣٤ واستسلم له عدد من الحصون الصقلية بينما رد
الاسطول الرومي إلى القسطنطينية مهزوما هزيمة شنيعة ووصف ابن
الأثير ذلك بأنه « كان فتحا عظيما »^(٢) وفرض نفوذ أسطوله في ذلك البحر
كله مهددا بذلك الطرق الحيوية للتجارة البيزنطية التقليدية مع أوروبا .
ويبدو أن تراكم الهزائم على الامبراطور البيزنطي جعله يكتب
ويرسل السفارات المتعددة في وقت واحد الى لويس التقى ملك الفرنجة

(١) السيوطي - تاريخ الخلفاء ص ٣٣٧
(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ٤٩٤ (حوادث سنة ٢٢٣)

والى البندقية والى عبد الرحمن الثاني في قرطبة سنة ٢٢٥/٨٣٩ ومع الوفود الهدايا الامبراطورية . وبعض المصادر تفسر هذه الوفود على أنها استنجد بهؤلاء الملوك بعد هزيمة عمورية التي أصيب امبراطور الروم على أثرها بالحمى الشديد حسب رواية المصادر الرومية^(١) ويبدو أن هذا الهزيمة وإن كانت بين الأسباب فإنها لم تكن السبب الأساسي فهذا السبب هو في الأرجح محاولة إقامة تحالف من دول غرب المتوسط البحرية ضد التوسع الاسلامي الكريتي - الأغلب في قلب البحر المتوسط . صحيح أن هدف هذا التحالف هو مقاومة «العباسيين» ولكن ليس عباسي الشرق وليس خلافة سامراء التي قد يكون من المبالغة أن تتصور إمكان وصول «جيوش» الفرنجة والبندقية والاندلس لحربها ولكن هذه الاستطالة البحرية العباسية التي ظهرت في أهم جزيرتين استراتيجيتين في وسط البحر المتوسط وهددت النظام التجاري الوطيد الذي تعبت بيزنطة قرونا في إقامته بينها وبين أوروبا وبين الشرق . ولا تنسى أن كريت والأغالبة أصحاب صقلية ودولة باري الثالثة التي نشأت قبل هذا الاستنجد بسنوات معدودة إنما ترتبط برابطة الولاء والتبعية مع خلفاء بني العباس .

ولا شك أن الوفود الثلاثة والرسائل الثلاثة معا لم تتحدث بحديث واحد مع دوق البندقية ولويس فرنسا وأموي الأندلس . فإذا كان الحديث مع البندقية تجاريا ومن عل وقد دفعت ثمنه فيما بعد هزيمة بحرية منكرة ذهب لها فيها ستون سفينة^(٢) وكان الحديث مع لويس التقى تجاريا - سياسيا - مسيحيا معا وقد طلب فيه تيو فيل الروم

(١) انظر فازيلييف - العرب والروم ص ١٥٧

(٢) انظر خبر هذه الهزيمة لدى فازيلييف - العرب والروم ص ١٦١

«الهجوم على أملاك العرب في افريقية لشغل انتباه المعتصم وتفريق جموعه...»^(١) «وعقد سلم وحلف أبدين» ضد المسلمين فإن الحديث مع عبد الرحمن الثاني كان على وجه آخر مختلف بالطبع . يشير حساسية ذلك الأموي ضد العباسيين وعملاتهم الاغالبية وهي حساسية بلغ من إرهافها أن الأمير الأغلب محمد بن الأغلب ويلقب بأبي العباس بنى مدينة بالقرب من تاهرت ، في لب المغرب ، سماها العباسية سنة ٨٤٢/٢٧ . فقام الامام الرستمي أفلح بن عبد الوهاب (إمام الاباضية) باحراقها بتدميرها فكافأه عبد الرحمن بمائة ألف درهم^(٢) ...

ونستطيع أن نعرف مضمون الرسالة البيزنطية من خلال الجواب الذي بعث به عبد الرحمن الى تيوفيل مع موفده الخاص يحيى بن الحكم الغزال ، الشاعر العالم الذي حمل مع الجواب الهدايا . ورسالة تيوفيل تؤكد الصداقة القديمة بين أباطرة بيزنطة والأمويين . واتفاق المصالح الحالية باعتبار أن العباسيين واتباعهم هم العدو المشترك وتعرض التحالف ضدهم وتحرض الأمير الأموي على استرداد عرشه ممن قتلوا آباءه وظلموا الناس لا سيما وان دولتهم توشك أن تنقض . ويعد الأمير بالعون الصادق إن هو حاول ذلك . ويذكر بأن الربضيين (أصحاب كريت) المطرودين من الأندلس لفتنتهم قد أصبحوا رعايا الخليفة العباسي . كما

(١) أورد ذلك فازيليف (ص ١٦٣) نقلا عن مصادر بيزنطية وعلى أي حال فان لويس رغم وعوده بالمعونة لم يقم بها لأنه توفي سنة ٨٤٠ .
(٢) انظر ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٩ وابن الأثير ج ٦ ص ٥١٩ وهو يجعل بناءها سنة ٢٣٩ .

(٣) نشر هذه الجواب ليفي بروفنسال في مقالة ترجمت مع غيرها من المقالات الى العربية في كتاب بعنوان : الاسلام في المغرب والاندلس - ترجمة محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي - القاهرة (١٩٥٦) .

يحرص الأمير الأندلسي على مكافحة الأغلبة ويهون من شأنهم ويشير إلى وجود الشقاق بينهم وبين العباسيين . . .

وكان رد الأمير الأموي أنه قبل الصداقة ولكنه رفض في حذر ودبلوماسية واضحة قضية التحالف ضد مسلمين آخرين . وكشف في الرد عن عدم انقطاع رغبته في استرداد عرش أجداده في المشرق ويطلب من الله العون لأن النعمة سوف تنزل بالعباسيين من المغرب وعلى يد الأمويين أنفسهم ويصف أهل كريت بأنهم ليسوا جميعا من الربض ولكنهم السفلة والسواد والفساق والأباق . وفي الوقت الذي يعتذر فيه عن تأديبهم لا يجد غرابة في ارتباطهم بالعباسيين ولكن يبدي استغرابه أن لا يستطيع الامبراطور البيزنطي إخراجهم من بلده ويرجو أن يقدم العون على إخراجهم إذا استطاع استرداد ملك أجداده . . . غير أن الرسالة لا تذكر شيئا عن الوعد الذي تذكر بعض المصادر أن الأموي وعده بإرسال الاسطول الأموي عند الانتهاء من المشاغل الداخلية . . . وهذا الوعد ، -ولو صح قولاً - فإنه على أي حال لم ينفذ . . . وبقي الأمويون والحوض الغربي للمتوسط في معزل عن العباسيين وعن أحداث المشرق !

٢ - العلاقات مع الروم

كانت العلاقات الخارجية الأساسية والأهم في هذه الفترة التي تلت عصر الرشيد والمأمون مقصورة على الروم . ولم يكن فيها جديد . فهي فصول أخرى من قضية الحدود ، التي ستمتد قرنين آخرين دون طائل . وبالرغم من أن الرشيد قضى سنواته الأخيرة على جبهة الروم وكذلك فعل المأمون حتى مات في تلك الجبهة وبالرغم من أن المعتصم بعدهما قاد

(١) الطبري ج ١١ ص ٥٢ .

جيوشه حتى عمورية في قلب الأناضول فإنه لم يكن لكافة تلك الأعمال من غد ولا نتائج جديدة وبقيت الجبهة على حالها الذي استقرت عليه منذ العصر الأموي قبل قرن ونيف .

عاصر هذه الفترة من أباطرة بيزنطة الامبراطور تيوفيل (٨٢٩ م - ٨٤١ م) وخلفه من بعده ابنه ميخائيل الثالث (السكرير) وكان عمره ست سنين فقامت بالوصاية عليه امه تيودورا حتى سنة ٨٥٦ م ثم تسلط علي الامبراطور منذ سنة ٨٦٢ م عمه بارداس الذي حمل لقب قيصر ووكيل للامبراطور وولي العهد حتى قتل سنة ٨٦٩ م .

١ - في عهد المعتصم :

بدأت سنوات المعتصم الاولى (منذ سنة ٨٣٣ م الى سنة ٨٣٧ م) بهدوء على الجبهة البيزنطية ، دون صلح رسمي . فانابا اسحق - كما نعلم - بويج بالخلافة في تلك الجبهة نفسها . وعاد مسرعا الى بغداد ، بعد أن امر بجمع الجيش والعودة ، وطي الخطة الحكيمة ، التي كان وضعها أخوه المأمون ، لدرء الروم . اذ أمر بهدم ما بديء بينائه من الحصون ، وصرف من كان المأمون أسكنه هناك ، إلى بلادهم .

وسبب الهدوء يرجع الى انشغال الطرفين بما لديهما من مشاكل : فالمعتصم كان عليه التخلص من بابك ومن الزط ، أولا عن شماله وجنوبه وتيوفيل كان مشغولا بحرب صقلية الفاشلة . ولهذا ما كاد امبراطور بيزنطة ينتصر مؤقتا انتصاره الهام سنة ٨٣٧/٢٢٢ م تحت اسوار قصر يانة في صقلية ، على عبد السلام بن عبد الوهاب قائد بني الاغلب ، ويأسره ، حتى التفت للجبهة الشرقية . فاتصل بيايك ، أو أن بابك هو الذي اتصل به ، لما اشتد عليه الحصار . فكتب يحرضه على غزو العرب ، ليخف الحصار عليه ، قائلا انه لم يبق على باب الخليفة أحد ، ولا قوة ، لأنه

وجه بكل جيوشه ضد الخرمية ، حتى انه اشرك فيها طاهيه ، وحائك
ملابسه^(١) . (ويستغل بابك هنا لقبى القائدين جعفر الطباخ وابتاخ
الخياط) وتظاهر بابك - في قول فازيليف - بانه مسيحي ووعد باعتناق
المسيحية^(٢) من قبل اتباعه من بعد .

مشى تيوفيل في نيف وسعين الفا من الجند وثلاثين ألفا من الاتباع ،
بينهم البرغر (البلغار) والصقالبة ، وغيرهم ، وبينهم فرقة من اصحاب
بابك الفرس والاكراد ، الذين هربوا من مواجهة اسحق بن ابراهيم (في
منطقة همذان) ويسمى العرب رئيسهم (برسيس)^(٣) ولعله في الاصل
نرسيس ويسمى في بعض المصادر (نصرا) أيضا . وربما كان هو نفسه
تيوفوب - في رأي فازيليف - ... اتجه امبراطور الروم بجيشه الى
أعالي الفرات ليفتح الطريق - فيما يظهر بينه وبين بابك للاتصال به ولم
ينس أن يرسل الى أمراء ارمينية يطلبهم بالإتاوة . ثم هاجم الروم حصن
زبطرة^(٤) الحصين . وهو من ثغور الجزيرة الهامة . « وتميز أكراد
نصر بفظائهم في البلدة ، ووحشيتهم . فاحرقت المدينة ، وقتل الذكور
من أهلها (أو أتى عليهم بالسمل والجذع والصلم) . وأسر النساء
والاطفال . وشمل القتل المسيحيين أيضا . ثم تركت سميساط رمادا .

(١) الطبري ج ٩ ص ٥٦ (١٢٣٤/٣) .

(٢) فازيليف - العرب والروم ص ١٢٤ وانظر كذلك

Bury, A. Hist. of the East. Rom. Emp. P 259.

(٣) انظر الطبري ج ٩ ص ٥٦ (١٢٣٥/٣) وانظر فازيليف - العرب

والروم (بالعربية) ص ١١٤ .

(٤) «اختلف العلماء طويلا في تعيين مكانها . ولكنه تحدد اليوم تحديدا

جازما في موقع بلدة (فيران شهر) الحالية على نهر سلطان صو - جنوب

غرب ملاطية» فازيليف - العرب والروم ص ١٢٥ .

(ونهب بعض أراضي ارمينية أيضا) ولم تلاق ملاطية نفس المصير ، لأنها فتحت أبوابها ، واطلقت اسرى الروم فيها»^(١) . ولا شك أن هذه العملية الانتقامية الرهيبة إنما كانت السبب فيها فشل الحملة الضخمة في تأدية مهمتها . فقد وصلت أعلى الجزيرة متأخرة ... كان بابك إذ ذاك قد انهزم وهرب ثم أسر فانصب الانتقام على أهل الثغور الجزرية التي وقعت تحت يد الجيش الضخم ليرجع على الأقل بالظفر والغنائم لا صفر اليدين بينما كان بابك نفسه يقبع في الأسر . وفي الوقت الذي كان فيه الامبراطور يعود خوف هجوم عربي عليه ، ليستقبل في القسطنطينية استقبالا رائعا ويبنى قصرا وقناة لتخليد نصره ... كان الهاربون من زبطرة يصلون سامراء^(٢) بالانباء المروعة . فاهتز الخليفة ، واهتز الناس ، لأنبائهم . ودخل الخليفة المعزول ، ابراهيم بن المهدي على المعتصم ، فأشده بعض ما حرضه . ورويت له قصيدة استفزته . فأمر بعمامة الغزاة ، فاعتم بها ونادى لساعته ، «بالنفير» وبالاستعداد للحرب . على انه لم يكن يستطيعها قبل ان ينتهي لا من امر التعبية - كما قال الطبري -^(٣) ولكن من أمر الشتاء في الواقع فلم يكن ممكنا قيادة حملة ضخمة والشتاء على الابواب كما ان بابك نفسه لم يقع في الأسر بعد وإن كان قد هزم^(٤) . وهكذا لم يبعث المعتصم على الفور بغير نجدة

(١) فازيلييف - العرب والروم ص ١٢٧ .

(٢) الفخري ص ٢٠٩ يذكر القصة المشهورة : وامعتصماه ! التي

هزت المعتصم .

(٣) الطبري ج ٩ ص ٥٦ وهو يضع زبطرة في اخبار سنة ٢٢٣ وكذلك

يفعل اليعقوبي (ج ٢ ص ٤٧٥) .

(٤) ثمة مشكلة توقيت تتعلق بحملة زبطرة وحملة المعتصم الجوابية

على عمورية . فمعظم المصادر العربية تضع الحملتين إحداهما وراء الأخرى مباشرة وتجعل زبطرة في سنة ٢٢٣ للإيحاء بردة الفعل السريعة والمباشرة

لأهل زبطرة ، بقيادة عجيف بن عنبسة استطاعت ان ترد اليها الهارين . من اهلها ، وتطمئنهم وإن مزقها البزنطيون^(١) ، لقلتها . وقد قبض الأفشين في تلك الفترة على بابك فبقي لديه^(٢) في معسكره بالجبال قرابة أربعة أشهر انسحبت خلالها الجيوش العباسية وأعيدت تعبئتها ، للحملة الانتقامية التي توجهت الى عمورية في نيسان من السنة التالية سنة ٨٣٨ ،

لدى المعتصم والواقع كما يتبين من التوقيت ان بينهما ثمانية أشهر على الأقل وإن لم يكن اكثر لأن بينهما شتاء كاملا . وبالرغم من أن المصادر لم تذكر موعد هجوم زبطرة الا إن التوقيت يكشفها على الشكل التالي :

هزم بابك في البلد في ٢٦ آب سنة ٨٣٧ . ٢٠١ رمضان سنة ٢٢٢ . استلمه الأفشين اسيرا في ١٦ ايلول سنة ٨٣٧ (١٠ شوال) . وصل بابك سامراء في ٤ كانون الثاني سنة ٨٣٨ (٣ صفر سنة ٢٢٣) . خرج المعتصم لحرب عمورية في اول نيسان سنة ٨٣٨ (٦ جمادى الاولى سنة ٢٢٣) وبدأ الحرب في أواخر تموز سنة ٨٣٨ (شعبان سنة ٢٢٣) . ولما كانت الأشهر بين ايلول سنة ٨٣٧ ونيسان سنة ٨٣٨ هي أشهر الشتاء والثلج في تلك الجبال ولا تحتمل الحروب ولا سيما الحملات الضخمة فلا بد أن زبطرة كانت في ايلول سنة ٨٣٧ في ارجح التوقيت .

(١) تسهب المصادر العربية في ذكر فظائع حملة تيوفيل هذه : الطبري ج ٩ ص ٥٥ ، ٥٦ المسعودي ج ١٤ ابن العبري ص ٢٤٢ .

(٢) يرى فازيلييف ان خبر زبطرة وصل قبيل هزيمة بابك . ويرى مثل ذلك «بروك» في مجموعة كامبردج . وربما كان هذا غير صحيح إذ يفهم من الطبري قوله : « . . . واتفق من لطف الله تعالى أن المعتصم ظفر ببابك الخرمي عند ورود الخبر بخروج ملك الروم » ان سقوط بابك سابق لوقعة زبطرة حتما . ولعل خبرها وصل في الفترة ما بين هزيمة بابك ، وبين القبض عليه ، ووقوعه في الأسر أو وصل بعد أسره بقليل . ولكن قدوم الشتاء حال دون التحرك المباشر الفوري . ولنلاحظ أن الاخبار عن زبطرة لا تذكر أي شيء عن وجود شتاء وثلج في وقتها وهذا يعني أنها لا يمكن أن تكون وقعت بعد ايلول سنة ٨٣٧ حتى نيسان سنة ٨٣٨ .

بعد شتاء ثقيل من الانتظار أمضاه المعتصم - على ما يبدو - «معسكرا بموضع يعرف بالعيون غربي دجلة»^(١) وتتبين لهفة الخليفة وسرعته في المسير ، من خروجه المبكر في الحملة ولم تكن من عادة الحملات ، لاسيما الكبرى الخروج في نيسان ومن رفضه قبول توقيت المنجمين للخروج وكانوا يتنبأون بالفشل إن خرجت في هذا الموعد وينصحون بالانتظار حتى مطلع الخريف «ونضج التين والعنب»^(٢) . ويروي الطبري في سبب استهداف عمورية بالذات ، «ان المعتصم سأل : أي حصون الروم أمنع وأقوى ؟ ف قيل له عمورية ! فانه لم يقصدها مسلم ، منذ ظهور الاسلام . وهي عين المسيحية وابنائها . وهي عندهم أشرف من القسطنطينية!»^(٣) . وقد يفهم من الخبر ان المعتصم قرر قصد عمورية ، وهو في سامراء . وقد يكون هذا صحيحا لكن من المحتمل ان هذا القرار تم خلال الحملة ، كما يستنتج من الفخري . ويظهر ان اختيار عمورية كان لأنها مسقط رأس الأسرة المالكة البيزنطية . وهي إذ ذاك ، « في أزهر أيامها » . والراجح أن ميخائيل الثاني قد رفعها إلى أسقفية رئيسية مستقلة . ثم رفعت بعد المعركة إلى مطرانية تمجيذا لضحاياها » وكانت ذات «حصن قوي ، وسور عليه أربعة وأربعون برجاً»^(٤) والمصادر الرومية تزعم أن زبطرة مسقط رأس المعتصم أيضا لايجاد التقابل بين فتحي زبطرة وعمورية . وقد مشى المعتصم في جيش متجهز - كما يقول الطبري -^(٥)

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٧٥ .

(٢) هذا ما رده بيت ابي تمام المشهور في فتح عمورية :

عشرون الفا كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

(٣) الطبري ٩ ص ٥٧ (١٢٣٦/٣) .

(٤) فازيليف - العرب والروم ص ١٤٤ .

(٥) انظر الطبري ج ٩ ص ٥٧ (١٢٣٦/٣) .

«جهازا لم يتجهز مثله قبله خليفة قط من السلاح والعدد والآلة وحياض
الادم والبغال والروايا والقرب (والجواشن ، والزرديات) وآلة الحديد
والنفط ...» وأما عدد الجيش فكان ضخما فالكثير يقول خمسمائة
الف والمقل مائتي الف^(١) ويبدو أنه كان يحوي بجانب العرب والترك
والمغاربة (عرب مصر) فرقة من الأرمن يقودها إما بقراط بطريق البطارقة
أو أمير البسفرجان (الفاسبوراكان) حسب الروايات البيزنطية .

وكان قد أمر المعتصم أن يكتب على الألوية والتروس اسم
عمورية .

وعند سبسطية (سروج) قسم المعتصم جيشه إلى فرقتين : بعث
أولاهما بقيادة الأفشين ، عن طريق الحدث ، إلى أنقرة . وسار بالثانية
فبعث (٢٢ رجب - ٩ حزيران قسما آخر منها ، مع أشناس من الدرب ،
ثم تبعه الباقي بعد يومين ليلتقي الجميع عند أنقرة . وعلم المعتصم من
المخبرين والجواسيس - وكانوا يستخدمون استخداما واسعا لدى
الطرفين - أن الامبراطور بعد أن كمن له شهرا ذهب لمفاجأة الأفشين
وبالرغم من أن الخليفة فشل في ايصال الخبر لقائده . فقد اصطدم
الأفشين بامبراطور بيزنطة عند (دزمون) وهزمه (٢٥ شعبان - ٢٢ تموز)
في الضباب والمطر الكثيف وشاع أن الامبراطور فقد والواقع أنه هرب
إذ بلغه ائتمار الفرس والموجودين معه ، ومحاولتهم تنصيبهم تيوفوب

(١) انظر المصدر السابق والمسعودي ج ٤ ١٤ - ١٥ والمصادر السريانية
(سيخائيل السرياني - ج ٣ ص ٩٥) تجعل مع المعتصم خمسين الفا ومع
الأفشين ثلاثة وثلاثين الفا معهم التجار والباعة واتباع الجيش ومعهم
خمسون ألف بغل ...

امبراطورا • أو بلغه خبر مؤامرة في القسطنطينية إذ بلغها أنه مات (١) ، وهذه هي على الأقل الأعذار التي تقدمها المصادر البيزنطية والأجنبية لهزيمة الامبراطور الرومي وارتداده ، بدل متابعة الدفاع ، الى العاصمة أو إلى مدينة دوريليوم أو نيقية القريبة منها ، بعد أن ركز جيشه في عمورية ، بقيادة خاله ياطس حاكم اناتوليا وحشد معها جمهرة من كبار القادة •

وقد دمرت جيوش المعتصم انقرة التي كانت أخلت ، حين وردت أخبار معركة الأفشين • ثم جاء الأفشين نفسه وتوجهت القوى العباسية الى عمورية في ثلاثة أقسام ، تخرب وتحرق القرى في الطريق حتى إذا وافتها بعد عشرة أيام ضربت الحصار عليها •

ويذكر المؤرخون هنا أن هزيمة امبراطور الروم الأولى تركت في نفسه أبلغ الأثر «وانكسرت شجاعته ونسي حملته الطافرة في العام الماضي وبعث الى المعتصم رسلا أمرهم بالشرح وبذل الوعود المذلة ...» (٢) وادعى تيوفيل «أن الذين فعلوا ببطرة ما فعلوا تعدوا أمرى (وقد يكون هذا صحيحا لحد ما) وأنا أبنيها بحالي ورجائي وأردس أخذ من أمنها وأخلي جملة في بلد الروم من الأسارى وأبعث إليكم بالقوم الذين فعلوا ببطرة على رقاب الأباطرة ...» (٣) (ويقصد جماعة المحمرة والاكراة في جيشه بالطبع) • ولكن المعتصم «هزيء بهذا العرض واتهم الروم بالجبن»

(١) يفترض فازيليف من عنده أن الثورة التي أوشكت على الظهور في القسطنطينية هي ثورة الفرس جماعة تيوقوب (انظر العرب والروم ص ١٤٢) •

(٢) فازيليف - العرب والروم ص ١٤٣ •

(٣) اليعقوبي ج ٢

ثم لم يأذن لرسول الروم في العودة الى الامبراطور حتى تم فتح
عمورية^(١) .

بدأ حصار عمورية في أول آب سنة ٨٣٨ ومات الالاف من الناس
في الأيام الثلاثة الأولى من المعركة وكان ممكنا أن تستمر طويلا لولا أن
أسيرا عريبا كان قد تنصر لدى الروم دل المعتصم على جانب ضعيف في
السور فركز الهجوم عليه حتى انهار وانهارت معه قوى المدافعين . . .
فاستسلم قائد الحامية ياطس وأعوانه^(٢) وفتحت البلدة (١٦ رمضان سنة
٢٢٣ آب ٨٣٨) وفي الطبري والمسعودي تفاصيل الانتقام الرهيب فيها
لزيطرة^(٣) . وقد كانت الغنائم من الوفرة بحيث أمر المعتصم - حسب
رواية الطبري - لكثرة السبي والغنائم ، «ان لا ينادى على السبي إلا
ثلاثة اصوات ليتروج البيع . . . وكان ينادى على الرقيق خمسة خمسة
وعشرة عشرة والمتاع الكثير جملة واحدة» واحتجز المعتصم البارزين من
الأسرى بعد ذلك ثم أمر بقتل الباقين وهم حوالي ستة آلاف ثم هدمت
أسوار عمورية وأبوابها . . .

ويبدو أن امبراطور بيزنطة حاول انقاذ المدينة أو معونة جيشه

(١) انظر فازيلييف - العرب والروم ص ١٤٣ والطبري ج ٩ ص ٦٩
(٢/٣) (١٢٥٤) .

(٢) يذكر فازيلييف (ص ١٤٩) أن العرب اتبعوا في دخول المدينة خطة
القدر وأنه بينما كان القائد المدافع عن الموضع المنثل من السور يفاوض
المعتصم دخل الجنود العرب المغاربة والأتراك الى المدينة . وإنما كان ذلك
القائد يحاول إنقاذ ما يمكن انقاذه في قضية خاسرة سلفا : «ومكروا ومكر
ألفه . . .» .

(٣) انظر الطبري ج ٩ ص ٦٨ - ٧٠ (٣/١٢٥٢ - ١٢٥٥) ، المسعودي

بالأسطول الحربي ، فبعث بحملة بحرية إلى انطاكية - على ما يذكر ميخائيل السرياني - نزلت ميناء سلوقية ، ونهبت التجار ، وأسرت ركب الاسطول وفرت . ولكنها كانت ضربة جانبية لا قيمة كبيرة لها ولم تترك في المعركة أي أثر .

ولقد أشفق الامبراطور الرومي بالعكس أن يذهب المعتصم بأسراه الكبار والكثيرين ، وفيهم من هو من أصحاب الامبراطور أو من أقربائه أو من خاصته أو من كبار قواده فأراد قبل أن يبرح ميدان المعركة أن يصفي الأمر مع الخليفة لا بالحرب التي لم يعد يستطيعها ولكن بالمال . ويذكرون أنه أرسل الى المعسكر الاسلامي «بوفد عليه البطريق باسيل فعرض على المعتصم مائتي قنطار فداء لأسرى عمورية وخص منهم بعض أقربائه وخاصته . ولكن الخليفة رفض العرض ذاكرا أن نفقات الجند في الحملة بلغت ألف قنطار واشترط تسليم نصر الكردي الذي تنصرو ودخل في خدمة الروم هو ومنويل»^(١) وفشل مشروع الفداء الفوري .

وكان من النتائج المباشرة للفتح أن قرر المعتصم المسير الى القسطنطينية «والنزول على خليجها والحيطة في فتحها برا وبحرا» بمعنى أن المشروع الذي كان وضعه المأمون ، وانطوى بموته السريع قد استيقظ الآن في رأس المعتصم ، وأصبح مشروعه هو أيضا . ولكن لم يقض له أن يتحول إلى التنفيذ لأنه اكتشف مؤامرة في الجيش للتخلص منه ومن أتراكه وتولية العباس ابن أخيه المأمون وهذا هو على الأقل العذر الذي يقدمه المسعودي تبريرا لعدم متابعة المعتصم الطريق الذي كان مفتوحا أمامه حتى القسطنطينية . والواقع أنه كان في الأصل قد

صمم على إنهاء الحملة عند عمورية لأنه إنما اكتشف تلك المؤامرة وهو عائد بالفعل ونكل بأصحابها أبشع التنكيل على طريق العودة ذاتها . ولكنه أدرك بعد عمورية - وهو المحارب المجرب - أن جيشه البري لن ينفعه كثيرا في أخذ مدينة لا بد في أخذها من أسطول بحري لا يملكه في ظروفه القائمة وأن المشروع الذي نبت في خاطره إثر النصر قد يسبب له كارثة عسكرية هو في غنى عنها مع طول خطوط مواصلاته ونضوب التموين . فلا بد من تأجيل المشروع في تلك السنة على الأقل ليحكم الاستعداد له . وربما استطعنا على ضوء هذا الواقع فهم الأمر الذي أمره إذ ذاك ببناء الاسطول في الشام ومصر - وهو الاسطول الذي لم ينفعه شيئا لأنه حين انتهى بناؤه بعد أربع سنوات توفي المعتصم نفسه وصاحبه تيوفيل في شهر واحد معا بينما أكلت العواصف السفن الأربعمئة التي بنيت ، في أول مشروع حربي قامت به .

وما من شك بالمقابل في أن تيرفيل خشي أن يتابع المعتصم الطريق وإذا لم تأت عيونه بأخبار النوايا التي ينويها الخليفة فلقد كان ممكنا أن يقدر بنفسه ولنفسه الأخطار التي يمكن أن تتعرض لها إمبراطوريته لو جرى ذلك لا سيما وأن القوى الإمبراطورية المهزومة لم تكن من القوة في تلك الفترة بحيث تحمي العاصمة المهدمة . وثمة احتمال كبير في أن يستطيع المعتصم تجنيد أسطول كريت ، وهي عباسية بالاسم ، وأسطول الأغابة أيضا في جهة واحدة ضده ومن هنا فإن تيوفيل وضع الخطة المقابلة فما إن أدار المعتصم ظهره للعودة بعد أن مشى مرحلة في الطريق الإمبراطورية نحو القسطنطينية (وهي مسيرة كان الغرض منها التأكد من أن الروم لن يلحقوا بالجيش العائد فيضربوا مؤخرته وجوانبه) حتى قرر إثارة القوى البحرية الأخرى في المتوسط ضد القوى الاغلبية والكريتية . أما العباسية في المشرق فكان هو المتكفل بها . وعلى هذا الأساس أرسل

بوفوده الى دوق البندقية وملك الفرنج وأمير الاندلس ليقيم جبهة تحالف تجاري سياسي ، أو جبهة متوسطة بحرية تظل بيزنطة أول وأهم المستفيدين منها •

وإذا لم يتحول انتصار عمورية الى مشروع لإنهاء الدولة البيزنطية فإنه أيضا لم يتحول إلى فتح • أي أن المعتصم لم يفكر – وهنا نقطة التساؤل الأساسية – في الاحتفاظ بالمناطق التي دخلها • لقد يكون شعراء ومؤرخو تلك الفترة أعطوا ذلك النصر اسم الفتح ولكن ثمة فارقا أساسيا بين «فتوح» العهد الأموي وهذه الحملة التي لم يفكر المعتصم في استغلالها لتوسيع الدولة • لقد أعادها برأيه وعمله ورغم كل الدماء التي بذلت فيها والجهود والأموال التي انفقت من أجلها الى مجرد «عملية حدود» وهكذا تقلصت من الناحية الواقعية لتصبح هجوما دفاعيا محدود الغرض والأثر أو بكلمة أخرى حملة تأديبية كبيرة ! وما من شك في أن عملية عمورية تصبح لهذا واحدة من أندر المواقف الكاشفة لمدى الطموح العباسي في هذا المجال •

وكل ما نجم عن عمورية في الجانب العربي هو الأسرى^(١) والغنائم ومجموعة من قصائد الشعراء • وأما على الجانب البيزنطي فيذكرون أن الامبراطور بلغ من تأثير الكارثة فيه أن مرض واشتد مرضه وأصابته حمى شديدة أكثر من أجلها من شرب الماء البارد فأصابه زحار أدى فيما بعد الى موته ... هذا على الأقل ما كان يروى في القرن العاشر^(٢) بعد قرن من عمورية •

(١) قتل أسرى عمورية الباقون فيما بعد في ٨ آذار سنة ٨٤٥ وصاروا عند الروم يعرفون باسم «شهداء عمورية الاثني والاربعين» •
(٢) فازيلييف – العرب والروم ص ١٥٧ •

ومع ذلك فقد استبدت قصة عمورية بالخيال الشعبي ، لا في القرن التاسع وحده ، ولكن في القرون التالية . وبقي ذكرها فيما عرفه الروم باسم «الملحمة العربية» . كما حفظ البيزنطيون قصص المدافعين باسم «اخبار شهداء عمورية ال ٤٢» وسجلت اسماء الذين اسلموها بعنوان «الخونة الذين سلموا عمورية» أما أصدقاء النصر بالمقابل لدى العرب فكانت قوية لدرجة أصبح معها اسم المعتصم نموذجا دائما للمرأة والدفاع المشرف عبر القرون . على أن الغزوات بين العرب وبيزنطة عادت فورا الى سابق عهدها ، بعد عمورية ، من هجمات محلية محدودة وعمليات حدود .

— شهدت سنة ٢٢٤/٨٣٩ هجوم أبي سعيد محمد بن يوسف أمير الشام والجزيرة مع بشير أمير المصيصة مرة بعد مرة على أرض الروم . وقد أتيح لهما في إحدى هذه الغزوات أن يتما انتصار عمورية بالظفر بصاحب قصة زبطرة . . . وهو تيوفوب أو نصر . كان على الثغور وتعقب بشيرا في بعض حملته ففاجأه أبو سعيد وهزمه وذبح الخرمية الذي كانوا منه عن آخرهم وقتل نصر نفسه فوضيع الملح في رأسه وأرسله الى المعتصم مع رؤوس أصابعه (١) وقد تسربت قصة هذا الرجل الى ملحمة سيد بطل الشعبية والتي ترى فيها اسماء بشير وبابك . .

— غير أن الروم عادوا في السنة التالية سنة ٢٢٥/٨٤٠ — ٨٤١ فتعقبوا أبا سعيد واستطاعوا هزيمة هزيمة احتلوا على أثرها عدة ثغور : السدث ومرعش وأرض ملطية . وأرسل الروم عقب ذلك وفدا يطلب

(١) ذكر ذلك ميخائيل السرياني — ج ٣ ص ٩٦ وانظر فازيلييف

المهادنة فتقبله المعتصم لما كان على يديه من الثورات الداخلية • وبعض المؤرخين المعاصرين يتصور أنه قد جرى اثناء هذه الزيارة بعض التبادل للأسرى ...

وهدأت الجبهة بعد ذلك واستمر هدوءها حتى عهد الواصل ...

ب - في عهد الواصل :

إذ نحن استثنينا الحملة البحرية الفاشلة التي قام بها أبو دينار في مطلع عهد الواصل والمأساة التي انتهت بها الاسطول ، ثم غزوة شتوية فاشلة بدورها قام بها في أواخر عهده أحمد بن سعيد حفيد قتيبة الباهلي فمات من البرد مائتا انسان وغرق مثلهم في النهر وأسر مثلهم بيد الروم ، فإننا نستطيع أن نعد فترة خلافة الواصل فترة هدنة طويلة استمرت سنتين قبله ثم استمرت خمس سنوات بعده • وقد توجت هذه الهدنة بعمل سلمي انساني له معناه الكبير بالنسبة للعلاقات العربية - الرومية في هذه الفترة وإن لم يكن بالجديد وهو فداء الأسرى • ولئن سبق أكثر من فداء قبله فهذا أول فداء كامل لكافة من لدى العرب والروم من الأسرى • ونحن نسميه على منهج المؤرخين القدامى فداء وهو في الواقع تبادل أسرى • وقد كان لدى كل من المسلمين والروم من الدواعي ما يدفعه لقبول مثل هذا العرض الذي لم يكن القصد منه الفداء نفسه بقدر ما كان القصد منه تهدئة الجبهة نفسها وإبداء حسن النية فيها فالروم كانوا في غمرة الانشغال والفشل المستمر أمام عرب صقلية وكرت معاً ، والواصل كان في تلك الفترة نفسها يواجه الأزمات الداخلية الخطيرة التي أثارها فساد الإدارة حوله وسوء سمعتها بالرشوة ، بجانب تسلط الجند الترك على الدولة واستئثارهم بحكمها في المشرق والمغرب ، عدا ما أثاره اصرار الواصل على قضية خلق القرآن من رد فعل سني عنيف فبدأ الواصل وكأن

الجهاد والروم هم آخر همومه • ولهذا ما إن جاءه العرض بفداء الأسرى من قبل الروم حتى قبله وأتخذت له من المظاهر والمراسم ما جعله حدثاً تاريخياً بارزاً على ألبهة الرومية^(١) •

وصل رسول ملك الروم الى سامراء بهذا العرض سنة ٢٣٠/٨٤٥ فأرسل الوثائق معه احمد بن أبي قحطبة رسولا من عنده الى البلاط البيزنطي ليعلم بالضبط عدد من بأيديهم من اسرى المسلمين ، وتبين أن العدد يبلغ أربعة آلاف وثلاث مائة واثنين وستين انسانا •••^(٢) وتقرر الفداء وحدد مكانه على نهر اللامس على مسيرة يوم من طرسوس وزمانه في عاشوراء سنة ٢٣١ منتصف ايلول سنة ٨٤٥ وبينما كلف بعض البطارقة والقادة من الجانب الرومي عهد الوثائق برئاسة العملية الى خاقان الخادم، خادم الرشيد الم رابط في الثغور • وجرى الفداء بحضور قوة عربية كبيرة بلغ عددها أربعة آلاف وعقدت هدنة أربعين يوما لاتمام الفداء في أمان •• ويبدو أن الأسرى العرب كانوا اكثر عددا من أسرى الروم لأن الوثائق وجه الى الأسواق يتنازع الرقيق الرومي وأخرج من قصره النساء الروميات العجائز حتى استوفى العدة المطلوبة • وكان بين الاسرى رجل من أكابر طرسوس أمضى في الأسر ثلاثين عاما وكان بين المفتدين أسرى زبطرة

(١) نجد تفاصيل هذا الفداء ودقائق الطريقة التي تم بها لدى الطبري ج ٩ ص ١٤٢ - ١٤٦ (٣/١٣٣٩ ، ١٣٥١ - ١٣٥٦) كما نجد قائمة كاملة بالافدية التي جرت في الاسلام حسب ما تحقق لدى المسعودي وذلك في كتابة : التنبيه والاشراف ص ١٦٠ - ١٦٦ •

(٢) الرقم الذي يذكره فازيلييف (ص ١٧٦) هو ٣٠٠٠ رجل و ٥٠٠ امرأة وولد اما اليعقوبي فيجعل العدد ٥٠٠ رجل و ٧٠٠ امرأة فقط (ص ٤٨٢) والرقم الذي ذكرناه مأخوذ عن الطبري والمسعودي يتفقان فيه • ويذكر الطبري أن عدد النساء والاولاد كانت ثمان مائة •

وعمورية من الجانبين وكانت مفاجأة الفداء التي فرضها الوثائق امتحان من يفتدي بخلق القرآن أمام لجنة من القضاة . فمن قال به افتدوه ومن رفض ردوه لأنه زائف عن الدين لا يجوز فداؤه . كأنما أضحت العقيدة المعتزلية لا عقيدة رسمية فحسب ولكن دليل الرعوية ورمز المواطنة في بلد الاسلام . وقد رفض بعض الأسرى بالفعل أن يقولوا بخلق القرآن فردوا الى الأسر والطريف في الأمر أن المسلمين افتدوا في الوقت نفسه أيضا مائة أو أكثر من أهل ذمة المسلمين^(١) . وهو أمر يدل على تغلب روح المواطنة في نظرة المسلمين الى هؤلاء على التعصب الديني وهو ما حرم منه أولئك الذين رفضوا الاعتزال . . .

ج - في خلافة التوكل : ولا يأتي عهد المتوكل في سنواته الأولى بجديد على الجبهة الرومية حتى سنة ٢٣٦/٨٥١ . ففي تلك السنة والسنتين التاليتين برز على الجبهة محارب استرعى الأنظار بجرأته وبالصوائف الثلاث التي قادها ضد الروم تلك السنوات هو : علي بن يحيى الارمني بينما كانت صقلية من جهة وكريت خاصة من جهة أخرى تكيل الضربات والهزائم للجيش الرومي وللأسطول . . . ولا يبدو أن الروم اهتموا بهزائمهم البرية أمام علي بن يحيى قدر اهتمامهم بهزائمهم البحرية أمام كريت كما لا يبدو أنهم أرادوا جواب سامراء بقدر ما أرادوا ضرب المعين الحيوي لكريت حين خططوا ونفذوا ضربتهم البحرية القاسية في دمياط سنة ٢٣٨/٨٥٣ . لقد ضربوا بدمياط دار صناعة كريت ومصدر تغذيتها بالسلاح ومركز تزويدها بالمؤن . ولكن الضربة في الواقع انعكست في معناها السياسي والعسكري على الوثائق وعلى

(٣) الطبري ج ٩ ص ١٤٣ (١٣٥٥/٣) .

العباسيين • ولقد آذت أصحاب كريت فعلا ولكن أذيتها المعنوية الكبيرة إنما أصابت سامراء وصاحبها المتوكل • ومن الغريب أن هذا الخليفة لم يجب على هذه الفتكة الهجومية بغير بعض التدابير الدفاعية وقد أورد المستشرق غروهمان نص وثيقة بردية يرجع تاريخها الى سنة ٢٤١ تعطي فكرة عن تهديد الروم لسواحل مصر في تلك الفترة وشدة اهتمام الولاة بدفعهم وما عاناه المصريون في ذلك •

ولقد عاد الروم سنة ٨٥٥/٢٤٠ فهاجموا فجأة مدينة عين زربة فأسروا قبائل الزط التي زرعها العرب هناك قبل خمس عشرة سنة • أخذوهم بنسائهم وأطفالهم ودوابهم عبر الأرض البيزنطية فوضعوهم على الطرف الثاني من التخوم في اقصى البلقان • وقد تتساءل عن السبب في هذا التصرف الذي حملت به بيزنطة على عاتقها مثل هذا العبء ويبدو أنا نجد التفسير إذا تذكرنا ما كان يقوم به هؤلاء الزط أنفسهم في السواد من نهب وسلب وعدوان • ولعلمهم مارسوا مثل ذلك ضد الأراضي والاقطاعات المعروفة للقواد الروم • أو لعل العرب استخدموهم في التجسس والتخريب في أرض العدو • فوجودهم في الحالين ضار كثير الأذى والطريقة المثلى استخدامهم لمصلحة بيزنطة ضد شعوب أخرى •• ويبدو أن هذه العملية السكانية المحدود قد تركت أثرها الاثنوغرافي في أوروبا فما يزال فيها إلى اليوم شعب من العجر يعتقدون أن اجدادهم هم هؤلاء الزط ••• المنقولون بالعصا من حدود لحدود •

ولم يكن لهذا الأمر أي شأن لدى العباسيين بدليل أنهم اتفقوا في تلك السنة نفسها سنة ٨٥٥/٢٤٠ على إقامة فداء جديد يكرس حدود الجبهة وهدؤها • وكانت مبادرة الفداء في هذه المرة أيضا من قبل امبراطورة الروم تيودورا • أرسلت رسلا الى الخليفة بالهدايا فأرسل المتوكل نصر بن الأزهر الشيعي الى بلاط القسطنطينية لينظر في عدد الأسرى

والشروط . وقد ترك لنا هذا السفير صورة كاملة جميلة لمراسم استقباله وتقريراً طريفاً عما جرى له في مقابلة الامبراطور بعد أن ذهب إليه ثلاث مرات في الأقدية الثلاثة المتتالية التي جرت في هذه الفترة^(١) . ويذكر ابن الأزهري أن عدد أسرى المسلمين لدى الروم كان عشرين ألفاً وهو لا شك رقم غريب مبالغ به لا سيما بعد فترة الهدوء الطويل التي سبقت مشروع الفداء الجديد وتظهر المبالغة فيه إذا قورن بأعداد الفداء التي اعتبرت زبطرة وعمورية والتي لم تتجاوز كثيراً أربعة آلاف كما تظهر إذا عرفنا أن عدد من فودي بهم فعلياً إنما كان فقط - ٧٨٥ - رجلاً و ١٢٥ امرأة حسب قول الطبري^(٢) . ويبدو أن الرقم الأصح هو ألفان لا عشرون وإنما ارتفع الرقم لتبرير الحكاية الأخرى التي قد يكون أساسها صحيحاً وقد يكون ذهب ضحيتها عدة مئات من الأسرى ولكنها بالرقم الكبير الذي تورده قد تكون لعبت بها المبالغة . والحكاية هي أن تيودورا - تحت تأثير الخصي المسيطر على العرش في عهدها ويسميه الطبري قنقلا (ويقصد تيوكتيست المعروف يومئذ بنفوذه الواسع) قد عرضت بعد خروج نصر من القسطنطينية على الأسارى لديها التنصر فمن رفض قتلته . وهكذا قتلت اثني عشر ألفاً^(٣) .

وعلى أي حال فقد جرى الفداء سنة ٢٤٠/٨٥٥ في المكان نفسه

(١) انظر الطبري ج ٩ ص ٢١٩ - ٢٢١ (٢/١٤٤٩ - ١٤٥١) .
(٢) الطبري ج ٩ ص ٢٠٣ (٣/١٤٢٨) والمسعودي يذكر رقمين آخرين هما ٢٢٠٠ رجل و ١٠٠ امرأة ولكن المقرئ الذي ينقل عنه يكتب ٢٠٠ رجل و ١٠٠ امرأة وهو الرقم الذي يظهر في بعض طبعات مروج الذهب للمسعودي .

(٣) انظر الطبري ج ٩ ص ٢٠٢ (٣/١٤٢٧) .

الذي جرى فيه الفداء السابق وبالمراسم نفسها ولكن ... دون امتحان
طبعاً بقضية خلق القرآن • وإجراءات احتياطية أقل صرامة وعقدت من
أجله هدنة استمرت وقتاً أطول امتد عدة أشهر (من تشرين الثاني سنة
٨٥٤ حتى آذار سنة ٨٥٦) • واستمرت عملية الفداء هذه المرة سبعة أيام
ذكر المسعودي أن فيها قد تم افتداء المائة ذمى ...

نمير أن الهجمات المتبادلة عادت بسرعة ، بعد الفداء • إلى الجبهة
لم يكن السبب فيها هذه المرة عسكرياً أو سياسياً ولكنه كان ناجماً عن
زُمة من التعصب الديني الداخلي في بيزنطة ، اجتاحتها ونجم عنها ، هرب
جماعة الببالقة (البوليسيين ، وهم فرقة مسيحية خاصة كانت تؤدي أجل
الخدمات للروم على الجبهة) من جانب الروم لجانب العرب، بسبب محاولة
الحكومة البيزنطية إعادتهم إلى الأرثوذكسية واضطهادهم ، وشنقهم
بالآلاف • قادى ذلك إلى «هدم الحدود الشرقية البيزنطية» بينما بنى
البوليسيون مدينتين في منطقة سيواس الجبلية (على حدود أرمينية)
وجعلوا بعد اليوم ، يساعدون المسلمين ضد الروم^(١) وقد كان ممكناً
أن يكونوا أكثر معونة للمسلمين وأشد خطراً لولا الخلافات الداخلية
العباسية •

وقد نجم عن هرب الببالقة إلى العرب أن قام الروم بهجوم عنيف
على الجبهة العربية ، على اثر الصائفة التقليدية التي قام بها علي بن يحيى
لأرمينية سنة ٨٥٦/٢٤١ فاخترقوها على شكل سهم وصل بهم عبر أرض
مسيطة حتى قرب آمد ثم اتجهوا شمالاً نحو الأرض التي نزلها الببالقة
فأحرقوا القرى وأسروا في الحملة عشرة آلاف أسير ثم قتلوا عائدين ...

(١) فازيليف - العرب والروم ص ٢٠١ - ٢٠٣ •

وكان قد برز على الجبهة اسم قائد آخر هو عمر بن عبد الله الأقطع فلحق بهم ولكنه لم يدركهم^(١) ...

وارتفعت حرارة الجبهة في شتاء تلك السنة وفي الصوائف التالية بالرغم من أن المتوكل كان مشغولا عمليا بمناورة الاتراك عنده ومحاولة الهرب من سيطرتهم : تارة الى دمشق وتارة الى عاصمة أخرى . وكان على الجبهة من جهة ابن يحيى وابن الاقطع والبيالقة ، ومن الجهة الأخرى امبراطور الروم الشاب وعمه المتسلط على العرش .

وبالرغم من أن أحداث صقلية وسقوط قصر يانة في تلك الفترة قد أثرت على الروم واضطرتهم للتفرغ لها ولتهيئة أسطول كبير أرسلوه فعلا لاستردادها فلا يبدو أن ذلك هو الذي دعاهم إلى طلب تبادل الفداء في تلك السنة . هذه الطريقة المستحدثة في طلب الهدنة بشكل غير مباشر عن طريق تبادل الأسرى فرغت بسرعة من معناها الودي السلمي وأصبحت فيما يظهر مجرد إجراء حربي عادي أو تقليدي للتخلص من عبث الأسرى . وهذا على الأقل ما يفسر تحرك الامبراطور نفسه مع عمه لقتال العرب في الوقت الذي كان فيه رسوله في سامراء يفاوض للفداء ويجيبه عليه المتوكل بإرسال رسوله المعروف نصر بن الأزهر . وقد يكون من الأسباب الدافعة للامبراطور في الهجوم رغبته في كسب نصر سريع على الجبهة العربية يسنده ويسند عمه في موقفهما الداخلي دينيا وسياسيا بعد أن بلغ الامبراطور رشده وسلم مقاليد الأمور لهذا العم وقد تحرك الاثنان في مطلع صيف سنة ٨٥٩ وقبل أن يصل رسول المتوكل إليهما في هجمة مفاجئة مع الجيش ، وصلا بها حتى منابع الفرات . ويبدو أن الروم قتلوا في هذه الهجمة الكثير وخربوا من القرى الكثير وعادوا بخمس مائة

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٠٧ (١٤٣٤/٣) .

أسير ... وسجل الامبراطور نصره في نقوش نقشها على أسوار أنقرة التي رممها فوراً خوفاً من هجمة انتقامية على منوال هجمة عمورية وثار في خيال الجند أن تلك الحملات إن هي إلا انتقام رائع لخزي عمورية^(١) فغنتها الأناشيد على قلة شأنها ، في الوقت الذي كان فيه الاسطول الرومي يعود كرة ثالثة الى مصر فيهاجم دمياط والفرما سنة ٢٤٥ (حزيران تموز سنة ٨٥٩) ...

وبالرغم من هذه الهالة التي أحيطت بها غزوة ميخائيل الشاب الأولى هذه فإن بعض المصادر الرومية تتحدث عن فشله أمام سميساط . ولئن كان هذا الخبر — كما يرى فازيلييف — من أعمال الدعاية ضده فإن قائد الجبهة العربي علي بن يحيى قد غزا الصائفة فعلا هذه السنة وقد استطاع شراذمة الحامية في حصن لؤلؤة وكانت متمردة على الامبراطور فاستلم منها الحصن وقائده الذي يسميه الطبري لغشيط (ولوغوتيت لقب عسكري) ويذكر أنه أرسل الى المتوكل الذي حوله الى الفتح بن خاقان فعرض عليه الاسلام وكتب ملك الروم يبذل مكانه ألف رجل من المسلمين^(٢) .

ويظهر أن مشكلة لؤلؤة هذه جعلت هذا الملك ، وإن استقبل رسول المتوكل عنده : نصرا بن الأزهر ، «يتغافل عنه نحواً من أربعة أشهر»^(٣) لكن شعوره بفشل حملته من جهة ورغبته في الخلاص من الاسرى عنده وفي تخليص هذا اللوغوتيت دعتة في نهاية الأشهر الأربعة الى استدعاء نصر إليه ومفاوضته في قضية الفداء .

(١) فازيلييف — العرب والروم ص ٢٠٧ وانظر كذلك التعليق في الصفحة نفسها .

(٢) الطبري ج ٩ ص ٢١٨ (١٤٤٨) .

(٣) الطبري ج ٩ ص ٢٢٠ (١٤٥٠/٣) .

«وكان الأسرى في أيدي الروم أكثر من ألفين منهم عشرون امرأة
معهن عشرة من الصبيان» فاتفق على الفداء . الذي تم في مكان الأفدية
ذاته سنة ٢٤٦/ ٨٦٠ وأطلق العرب للروم أكثر من ألف أسير . .

على أن هذا الفداء الذي لم يكن يحمل أي معنى سياسي لم يعقب
بالطبع أي هدنة وما كادت عملياته التقليدية تنتهي حتى تحرك الامبراطور
الشاب لقتال العرب على الطريقة السنوية المعهودة على أنه لم ينتبه ، إلى
الورطة التي أوقع نفسه بها في هذا الهجوم السريع خاصة إلا حين ورد
عليه خبر من القسطنطينية يبلغه أن الروس الصقالبة قد ظهوروا فجأة
ولأول مرة أمام أسوارها يحاصرونها . وإذا ارتد الامبراطور الى عاصمته
ليدافع عنها فإنه ترك جيشه لضربات الجيش الاسلامي . وقد انتهز
القادة المسلمون دون شك وجود الخطر الروسي على أبواب بيزنطة
فقادوا ضد الجبهة الرومية هجوما رباعيا إن يكن ينبىء عن تخطيط معين
فإنه لم ينبىء عن أي قوة تحركت ثلاثة جيوش اسلامية غازية في البر
على ثلاثة محاور يقودها ابن الأقطع وابن يحيى وبلكاجور التركي وتحرك
البيالقة أيضا بجيش رابع في الشمال بينما تحرك أسطول عربي صغير
بقيادة الفضل بن قارن^(١) (شقيق اصبهذ طبرستان) نحو الساحل الجنوبي
فلاناضول . ومن الغريب أن هذه الجيوش اكتفت بسبب قصر النظر
السياسي بالغنائم : عاد عمر بن الاقطع من صائفته بسبعة آلاف أسير
وابن يحيى بخمسة آلاف مع بعض البهائم ، وقرباص البيالقة بخمسة آلاف .
وكانت غزوة بلكاجور «موقعة» بينما ضرب ابن قارن ميناء أنطاكية
(أضالية)^(٢) . . . وكان ذلك كله في الصيف سنة ٢٤٦ تموز سنة ٨٦١ .

(١) الفضل هو نفسه الذي قتل فيما بعد في حمص سنة ٢٥٠ .

(٢) انظر الطبري ج ٩ ص ٢١٩ (١٤٤٩/٣) .

على أن هذا الهجوم بقي دون غد أيضا . . . ولم يتكرر حتى في السنة التالية سنة ٨٦١ التي قتل في نهايتها المتوكل . . . وبالرغم من أن ابنه المستنصر أراد أن يعطي على جريمة قتله لأبيه بالجهاد وأمر وصيفا قائده التركي بمباشرة القتال على الثغور أربع سنوات واعطاه جيشا من عشرة آلاف مع عدة الحرب إلا إنه لم يتمتع بالخلافة غير ستة أشهر . . . وتلا موته وقائع خطيرة في جبهة الروم هزت الناس هزا : استطاع ابن الاقطع أن ينفذ الى الشمال فيحتل ميناء (أميسوس) (سمسبون) على البحر الأسود ولكنه بعد هذا التألق وقع في كمين فقتل (٣ ايلول سنة ٨٦٣) ونهض علي بن يحيى حين سمع الخبر لقتال الروم مع أهل ميافارقين وجوارها فقتل بدوره بعد شهر (١٨ تشرين الأول سنة ٨٦٣) مع اربع مائة من أصحابه . . . واهتزت بغداد والناس جميعا أعنف الاهتزاز لهذه الفاجعة المزدوجة التي اختطفت في شهرين متتالين «نابين من أنياب المسلمين» كما قيل وأعظم قائدين مجاهدين على الجبهة . وأقبل العامة يشيرون واندفع المطوعة من كل ناحية في الجبال والأهواز والعراق والشام يتطوعون للجهاد ولكنها كانت ثورة فارغة وغشاء أجوى . . . وكان مصرع القائدين الرائعين في واقعه رمزا لوهن دولة بني العباس الوهن النهائي لا في الداخل فحسب ولكن على الجبهة الخارجية أيضا .



واخيرا

فهذه معالم من دولة بني العباس • ولئن كانت لهم بعدها «خلافة» استمرت أربعة قرون أخرى فإنه لم يكن لهم بعدها «دولة» حتى سحق الخلافة السيل المغولي سنة ٦٥٦/١٢٥٨ • وقد اقتضت هذه المعالم على المدى السياسي فأما في آفاق الحضارة الواسعة فلذلك قصة أخرى لا تتم المعالم بدونها ولعلها هي الأهم والأبقى •

وإذا أنشأ العرب المسلمون منذ أواسط القرن السابع الميلادي (الأول الهجري) دولة عظمى كانت دولة العالم الأولى والكبرى والوحيدة التي تنظم السلم والحرب وتسيطر على الفكر والفن والانتاج والتجارة والمال والمستوى المتقدم والمتطور من الحياة ما بين قلب آسيا الصغرى في التبت حتى أمواج المحيط الأطلسي وظلماته ، فقد تقاسم الأمويون والعباسيون حكم هذه الدولة : تولوها الأولون أقل قليلا من قرن وتولوها الآخرون أكثر قليلا من قرن وارثن بذلك أمجاد وآلام ومهمات الامبراطوريتين الرومانية (بما فيها البيزنطية) والفارسية (حتى آخر الساسانيين) في العالم المتمدن • ومتابعين قيادة الحضارة الانسانية خطوات جديدة في مسيرتها الطويلة • وإذا كان عهد الأولين أكثر ألقا وعظمة في الميدان السياسي فقد كان عهد الآخرين أكثر انتاجا في الميدان الحضاري • ثم انتهت قصة الدولة الكبرى في أواسط القرن الثالث الهجري (٩ م •) لتبدأ بدلا منها قصة الدول المتعددة التي تتابع السير بالحضارة والفكر قرونا أخرى ضمن الإطار الاسلامي الأوسع الذي طبع المنطقة كلها بطابعه الواضح العميق الخالد منذ ذلك الوقت الى اليوم •

ولو استعرضنا الوضع السياسي للدولة العباسية في نهاية عصرها الأول وقارنا ذلك الوضع بأيام مطلعها أو أواخر أيام بني أمية لوجدنا أن خلفاء بني العباس قد تسلموا من الناحية السياسية امبراطورية اسلامية واحدة تشمل المسلمين كافة ثم انتهى العصر العباسي الأول وهناك خلافة عباسية في بغداد ولكن هناك أيضا : إمارة أموية اندلسية ودولة علوية ادرسية في المغرب ودولة خارجية رستمية معها وثلاثتهم خارج النفوذ العباسي . وهناك على أطراف المنطقة التي يشملها نفوذ بني العباس : الدولة الأغلبية في افريقية ودولة بني عبدون في الواحات . وإذا تركنا مملكتي النوبة والبجة فإننا سنجد أن مصر سوف تستقل بعد سنوات (منذ سنة ٢٥٥ هـ) . وتقوم فيها دولها الخاصة مع الطولونيين وهناك إمارة علوية (زيدية في اليمن وأخرى خارجية في عمان وإمارات اسلامية شتى في السند ودولة بني الصفار في سجستان ودولة آل طاهر في خراسان إذا لم نذكر الدول التركية وراء خراسان ودولة علوية مستقلة في طبرستان (منذ سنة ٢٥٠) ودولة أرمنية للبقارطة في أرمنية) . . .

ولعل النص الطريف الذي أورده ابن العديم نقلا عن ابي الفوارس ابن الخازن ، المؤرخ المعاصر لنهاية دولة بني العباس في أواسط القرن الثالث يعطي صورة أكثر واقعية عن تفكك تلك الدولة حوالي سنة ٢٧٢ التي سموها في أيامها سنة الافتتاح : يقول : «قال (الخليفة) الموفق لصاعد يعني ابن مخلد ذي الرياستين (وهو المسيطر على الدولة) : هذه السنة يعني سنة اثنتين وسبعين ومائتين هي سنة الانغلاق لا سنة الافتتاح . مصر وسائر الشامات في يد خمارويه بن طولون . والجزيرة مع اسحق لافضل فيها عنه . وقنسرين والعواصم مع ابي الساج . وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد . وطخارستان وبلخ وسمرقند في يد

داوود بن هاشم بن كيجور • ونيسابور في يد رافع - وسجستان وكرمان
والسند وفارس واصفهان في يد عمرو بن الليث ... وذكر البلاد
بأسرها وأسمى من هي في يده وقال : ليس في الدنيا (لنا) غير سقي
الفرات !»^(١) •

ومع ذلك فإن الحكم على العصر العباسي من خلال السياسة وحدها
حكم ظالم لأن إنتاجه الحقيقي ومجده الحقيقي إنما هما في إنشاء ودعم
وتكوين وبلورة الحضارة الإسلامية والثقافة العربية الإسلامية التي
ما يزال العرب المسلمون - وغيرهم من الشعوب الإسلامية - يعيشون
حتى اليوم على آلائها •

وكما بقي في ذاكرة البشرية أسماء عدد من أسياذ الدنيا في فتراتها
المختلفة واسماء عدد من المدن العالمية وعدد من رواد الفكر الانساني
وبناة الحضارة فقد بقي من عهد الدولة العباسية كدولة عظمى أسماء
الرشيذ وبغداد وابن سينا والرازي والخوارزمي والكندي وابن الهيثم
والمتنبي وهم حصيلة ما قدم العرب - بعد الرسالة المحمدية - من خير
الى سوق الانسانية •

(١) ابن العديم - بغية الطلب مخطوط احمد الثالث ج ٥ ورقة ٣٠٣ -
ظهر ٣٠٤ وجه •

المصادر والمراجع العربية المختارة

١ - المصادر العربية الاولى

- ١ - ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي (١٢٦٠هـ/١٢٦٠) - الحلة السيرة (تحقيق الدكتور حسين مؤنس) القاهرة ١٩٦٣ (جزءان) .
- ٢ - الاتليدي محمد دياب المصري (فرغ من تأليفه سنة ١١٠٠هـ) - اعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس . مخطوط المتحف البريطاني رقم ٣١٤٥ Or وط . البابي الثانية القاهرة سنة ١٩٥١
- ٣ - ابن الأثير عز الدين علي بن أحمد بن محمد الجزري الشيباني (١٢٣٣هـ/٣٦٠) .
- ٣ - الكامل الأجزاء ٤ - ٧ (ط) . بيروت نقلا عن تورنبرغ ١٩٦٥ .
- ٤ - اللباب في معرفة الأنساب (القاهرة ١٣٥٧/١٣٦٩) .
- ٥ - اسد الغابة في معرفة الصحابة (القاهرة ١٢٨٠-١٢٨٦) .
- ٤ - الاربلي أبو محمد عبد الرحمن سنبط قنيتو (سنة ٧١٧هـ) .
- ٦ - خلاصة الذهب المسبوك (مطبعة الروم الارثوذكس - القدس ١٨٥ وط . بغداد - المثنى دون تاريخ) .
- ٥ - الاربلي أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح (٦٩٣/١٢٩٣) .
- ٧ - كشف الغمة في معرفة الأئمة - النجف ١٣٨٥
- ٦ - الأزدي أبو زكريا يزيد بن محمد بن أبياس (سنة ٣٣٤/٩٥٤) .
- ٨ - تاريخ الموصل (تحقيق علي حبيبة) القاهرة ١٩٦٧
- ٧ - ابن الأزرقي أحمد بن يوسف الفارقي (المتوفى بعد سنة ٥٧٦/١١٨٠) .
- ٩ - تاريخ ميا فارقين مخطوط المتحف البريطاني رقم ٥٨٠٣ OR
- ٨ - الاسفرايني أبو المظفر طاهر بن محمد (سنة ٤٧١/١٠٧٨) .
- ١٠ - التبصير في الدين وتمييز الفرق الناجية من فرق الهالكين (ط . الكوثري - القاهرة ١٩٥٥) .

- ٩ - الأشعري القمي سعد بن عبد الله بن أبي خلف (سنة ٣٠١ هـ)
 ١١ - المقالات والفرق (صححه محمد جواد مشكور - مطبعة
 حيدري ، طهران ١٩٣٦) .
- ١٠ - الأشعري أبو الحسن علي بن اسماعيل بن ابراهيم (سنة
 ٣٢٤ هـ) .
- ١٢ - مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين (استامبول ١٩٢٩)
 ١١ - الاصبهاني أبو الفرج (٩٦٧/٣٥٦)
 ١٣ - مقاتل الطالبين (تحقيق احمد صقر - دار احياء
 الكتب العربية ، القاهرة ١٩٤٩) .
- ١٤ - الأغاني (ط . دار الكتب - القاهرة ١٩٢٥ - ١٩٧١)
 اجزاء متفرقة .
- ١٢ - الاصطخري أبو القاسم ابراهيم (القرن الرابع)
 ١٥ - مسالك الممالك (المجلد الاول - ط . لندن ١٨٧٠ -
 ١٨٩٣) .
- ١٣ - ابن اصفنديار بهاء الدين محمد بن الحسن البوشنجي
 (سنة ٦٢٥/١٢٢٨) .
- ١٦ - تاريخ طبرستان (تحقيق عباس إقبال - طهران
 ١٩٤٢) جزءان والطبعة الانكليزية المختصرة - لندن ١٩٠٥
 ١٤ - الأصفهاني - حمزة بن الحسن (توفي قبل سنة ٣٦٠ هـ) .
 ١٧ - تاريخ سني ملوك الارض والانباء (ط . بيروت ١٩٦١) .
- ١٥ - ابن أبي أصيبعة موفق الدين أبو العباس احمد بن القاسم
 الخزرجي (٦٦٨/١٢٧٠) .
- ١٨ - كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء (القاهرة ١٢٩٩ -
 ١٣٠٠) و (ط . بيروت ١٩٦٥) .
- ١٦ - ابن اعثم الكوفي (سنة ٣١٤/٩٢٦) .
- ١٩ - كتاب الفتوح - الجزء الثاني فقط مخطوط احمد
 الثالث رقم ٢٩٥٦ (ترجمته الفارسية - طبع بومباي
 سنة ١٣٠٠) .
- ١٧ - الباقلاني أبو بكر محمد بن الطيب (سنة ٤٣٠ هـ) .
 ٢٠ - التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج
 والمعتزلة (ط . القاهرة ١٩٤٧) .
- ١٨ - البغدادي الخطيب أبو بكر أحمد بن علي (٤٦٣/١٠٧٠) .

- ٢١ - تاريخ بغداد (اجزاء متعددة من ١٤ جزءا) . ط .
القاهرة ١٩٣١/١٣٤٩
- ١٩ - البغدادي أبو منصور عبد القاهر بن طاهر الأشعري (سنة ٤٢٩)
٢٢ - الفرق بين الفرق (القاهرة ١٩٢٤) وهو اختصار
الرسفي .
- ٢٠ - ابن البطريق سعيد (افثيشيوس او يوتيا) (سنة
٩٢٩/٣١١) .
- ٣٢ - التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (بيروت
١٩٠٩) .
- ٢١ - البكري ابو عبيد الله بن عبد العزيز (١٠٩٧/٤٨٧) .
- ٢٤ - كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (ط .
دي سلان - باريس ١٩١١) .
- ٢٢ - البلاذري احمد بن يحيى بن جابر (٨٩٢/٢٧٩) .
- ٢٥ - فتوح البلدان (تحقيق صلاح الدين المنجد) القاهرة ١٩٥٦
- ٢٦ - انساب الأشراف مخطوط السليمانية (رئيس الكتاب)
استامبول رقم ٥٩٧ - ٥٩٨ مجلدان .
- ٢٧ - انساب الأشراف الجزء الاول (تحقيق محمد حميد الله -
القاهرة ١٩٥٩) .
- ٢٨ - انساب الأشراف الجزء الرابع (القسم الثاني) نشر
شلوسنجر القدس ١٩٣٨
- ٢٩ - انساب الأشراف الجزء الخامس (نشر غوتين) القدس
١٩٣٦
- ٢٣ - البلوي ابو محمد عبد الله (من القرن الرابع الهجري) .
- ٣٠ - سيرة احمد بن طولون (نشر محمد كرد علي -
دمشق ١٣٥٨) .
- ٢٤ - البياسي يوسف بن محمد بن ابراهيم الانصاري (١٢٥٦/٥٦٤)
- ٣١ - الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام مخطوط دار
الكتب - القاهرة رقم ٣٩٩ تاريخ .
- ٢٥ - البيروني ابو الريحان محمد بن احمد
- ٢٢ - الآثار الباقية عن القرون الخالية (ليزينغ ١٨٧٨ - ٩)
اعادت الطبع مكتبة المشنى - بغداد .
- ٣٣ - تحقيق ما للهند من مقولة (ليزينغ ١٨٨٧) .

- ٢٦ - ابن تفردي بردي جمال الدين يوسف الاتابكي (١٤٩٦/٨٧٤) .
- ٣٤ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (الجزء الثاني والثالث - طبعة دار الكتب) .
- ٢٧ - التنوخي ابو علي المحسن بن علي بن محمد (٩٩٤/٣٨٤) .
- ٣٥ - جامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة ج ١ (القاهرة ١٩٢١ - و غليوث) .
- ٣٦ - نشوار المحاضرة ج ٨ (دمشق ١٩٣٠ - المجمع العلمي العربي) .
- ٣٧ - نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة (٤ اجزاء) نشر عبود الشالجي بيروت ١٩٧١ - ١٩٧٢
- ٣٨ - المستجدات من فعلات الأجداد تحقيق كرد علي (دمشق ١٩٥٠) .
- ٢٨ - الثعالبي ابو منصور عبد الملك بن محمد (سنة ٤٢٩) .
- ٣٩ - لطائف المعارف (ط . ليدن ١٨٦٨) .
- ٢٩ - الجاحظ ابو عثمان عمرو بن بحر (٨٦٩/٢٥٥)
- ٤٠ - التاج في اخلاق الملوك (القاهرة ١٣٣٢/١٩١٤) و (ط . بيروت ١٩٦٨) .
- ٤١ - البيان والتبيين ٤ اجزاء (ط . بيروت ١٩٦٨ و ط . القاهرة سنة ١٣٢٣) .
- ٤٢ - آثار الجاحظ (رسائل جمعها عمر ابو النصر - بيروت ١٩٦٩) .
- ٤٣ - رسائل الجاحظ (دار النهضة - بيروت ١٩٧٢) .
- ٤٤ - كتاب التبصر بالتجارة (الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٣٥/١٣٥٤) .
- ٤٥ - المحاسن والأضداد (ط . ليدن ١٨٩٨) .
- ٣٠ - الجهشياري ابو عبد الله محمد بن عبدوس (٣٣١ هـ) .
- ٤٦ - الوزراء والكتاب (ط . القاهرة ١٩٣٨) .
- ٣١ - ابن الجوزي ابو الفرج عبد الرحمن (١٢٠١/٥٩٧) .
- ٤٧ - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (ج ٥ - ٧) ط . حيدرآباد ١٣٥٧ - ١٣٥٩ .
- ٤٨ - مناقب بغداد (ط . بغداد ١٣٢٤) .
- ٣٢ - ابن أبي الحديد عز الدين ابو حامد عبد الحميد (١٢٥٧/٦٥٥) .

- ٤٩ - شرح نهج البلاغة (ط . القاهرة ١٣٢٩ البابي الحلبي)
 { مجلدات .
- ٣٣ - ابن حزم ابو محمد علي بن احمد الظاهري (سنة ٤٥٦/١٠٦٣) .
 ٥٠ - كتاب الفصل في الملل والنحل (القاهرة ١٣١٧-١٣٢٠) .
- ٣٤ - الخطيب البغدادي ابو بكر احمد بن علي (٤٦٣/١٠٧٠) .
 ٥١ - تاريخ بغداد ١٤ مجلدا . الجزء الاول خاصة واجزاء متفرقة منه (القاهرة ١٩٣١) .
- ٣٥ - ابن الخطيب لسان الدين محمد الوزير (سنة ٧٧٦/١٣٧٤) .
 ٥٢ - كتاب أعمال الاعلام (طبعة بروكسسال-بيروت ١٩٥٦) .
 ٥٣ - كتاب أعمال الاعلام القسم الثالث (تحقيق العبادي والكتاني) الدار البيضاء ١٩٦٤ .
- ٣٦ - ابن حمدون ابو المعالي محمد بن الحسن (سنة ٥٦٢/١١٦٦) .
 ٥٤ - التذكرة - الجزء الثاني عشر فقط - مخطوط احمد الثالث - استامبول رقم ٢٩٤٨
- ٥٥ - تذكرة ابن حمدون (جزء منها) ط . القاهرة ١٩٢٧ .
- ٣٧ - ابن حوقل ابو القاسم محمد بن علي البغدادي الموصللي (القرن الرابع) .
 ٥٦ - صورة الأرض (نشر دار الحياة - بيروت) .
- ٣٨ - ابن خرداذبة ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله (القرن الرابع) .
 ٥٧ - المسالك والممالك (المجلد السادس من المكتبة الجغرافية - ليدن ١٨٨٩) .
- ٣٩ - الحسيني تاج الدين محمد بن حمزة بن زهرة (بعد سنة ٧٥٣) .
 ٥٨ - غاية الاختصار في أخبار البيوتات العلوية المحفوظة من الفبار (المطبعة الحيدرية ، النجف ١٩٦٣) .
- ٤٠ - الحنفي ابو محمد عثمان بن عبد الله العراقي (حوالي سنة ١١٠٧/٥٠٠) .
- ٥٩ - الفرق المفرقة بين اهل الزيغ والزندقة (تحقيق بشار قوتلواي - انقره ١٩٦١) .
- ٤١ - ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨/١٤٠٥) .
 ٦٠ - كتاب العبر وديوان المتبدأ والخبر - المجلد الثالث - بيروت ١٩٦٦
- ٦١ - المقدمة ط . بولاق سنة ١٣٢٠ وطبعات اخرى .
- ٤٢ - ابن خلكان شمس الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم .
 - ٥٨٩ -

- ٦٢ - وفيات الاعيان (ط احسان عباس - بيروت ١٩٦٦ -
١٩٧٢) ٨ اجزاء .
- ٤٣ - خليفة بن خياط أبو عمرو المعروف بشيخ العصفري (سنة
٢٤٠) .
- ٦٣ - كتاب الطبقات - تحقيق اكرم ضياء العمري - بغداد
١٩٦٧
- ٦٤ - تاريخ خليفة بن خياط - تحقيق العمري - بغداد ١٩٦٧
(جزءان) .
- ٤٤ - الخوانساري الميرزا محمد باقر الموسوي (القرن ١٢ هـ) .
- ٦٥ - روضات الجنات في احوال العلماء السادات (ط . طهران
على الحجر سنة ١٣٤٧) .
- ٤٥ - الدميري كمال الدين أبو البقاء محمد بن موسى (٨٠٨/١٤٠٥)
٦٦ - حياة الحيوان الكبرى (بولاق ١٣٢٤) .
- ٤٦ - الدينوري احمد بن داوود أبو حنيفة (٢٨٢/٨٩٥) .
- ٦٧ - الأخبار الطوال (ط . عامر - النيال - القاهرة ١٩٦٠)
- ٤٧ - الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد (سنة ٧٤٨/١٣٤٧) .
- ٦٨ - مختصر تاريخ دول الاسلام (حيدرآباد ١٣٣٨/١٩١٨) .
- ٦٩ - تاريخ الاسلام (الاجزاء الستة الاولى) - القاهرة
١٣٦٧ فما بعد .
- ٧٠ - سير اعلام النبلاء (٣ اجزاء مطبوعة) القاهرة ١٩٥٦ -
١٩٥٧ .
- ٤٨ - الرازي فخر الدين محمد بن عمر التميمي البكري (سنة ٦٠٦/
١٢٠٩) .
- ٧١ - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (القاهرة ١٩٣٨ -
تحقيق سامي النشار) .
- ٤٩ - ابن رسته أبو علي أحمد بن عمر (سنة ٣٦٠/٩٧١) .
- ٧٢ - الاعلاق النفيسة (لندن ١٨٩١ - اعادة طبع مكتبة
المنشي بغداد) .
- ٥٠ - الرسفي عبد الرزاق بن أبي بكر بن خلف (بعد سنة ٦٤٧) .
- ٧٣ - مختصر الفرق بين الفرق (ط . الهلال - القاهرة ١٩٢٤) .
- ٥١ - الروذراوري أبو شجاع محمد بن الحسين الوزير (سنة ٤٨٨) .
- ٧٤ - ذيل تجارب الأمم - ط . القاهرة ١٩١٦

- ٥٢ - الزبيرى - ابو عبد الله مصعب بن عبد الله (سنة ٢٣٦) .
٧٥ - كتاب نسب قريش - القاهرة ١٩٥٣
٥٣ - ابن السعائى (منسوب إليه) .
٧٦ - مختصر اخبار الخلفاء (المطبعة الاميرية - القاهرة ١٣٩٠)
٥٤ - سبط ابن الجوزي يوسف بن قز اوغلو (سنة ١٢٥٦/٦٥٤) .
٧٧ - تذكرة الخواص (المطبعة العلمية ، النجف ١٣٦٩) .
٥٥ - ابن سعد ابو عبد الله محمد كاتب الواقدي (سنة ٢٣٠/٨٤٥)
٧٨ - الطبقات الكبرى (ط . سخاو - ليدن ١٩٠٥ - ١٩٢١)
٥٦ - ابن سلام ابو عبيد القاسم بن سلام .
٧٩ - كتاب الاموال (القاهرة ١٣٥٣) .
٥٧ - ابن سليمان - ماري (نهاية القرن السابع هـ) .
٨٠ - اخبار بطارقة كرسي المشرق . (رومية ١٨٩٩) .
٥٨ - السيوطي عبد الرحمن بن ابي بكر جمال الدين (١٦٠٥/٩١١) .
٨١ - تاريخ الخلفاء (ط . القاهرة ١٣٥١) .
٥٩ - الشابشتي ابو الحسن علي بن محمد (سنة ٣٨٨/٩٩٨) .
٨٢ - كتاب الديارات . تحقيق كوركيس عواد (الطبعة الثانية بغداد سنة ١٩٦٦) .
٦٠ - ابن شاکر محمد الكتبي الداراني (سنة ٧٦٤) .
٨٣ - فوات الوفيات ٣ اجزاء القاهرة ١٩٤٧ .
٦١ - ابن شداد عز الدين ابو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم (سنة ٦٨٤) .
٨٤ - الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة (قسم الجزيرة) مخطوط البودليان (اكسفورد رقم ٣٣٣ مارش) .
٨٥ - الاعلاق الخطيرة نفسه (قسم حلب) (تحقيق سورديل) - دمشق ١٩٥٣
٨٦ - الاعلاق الخطيرة نفسه (قسم دمشق وقسم فلسطين - جزاءن) تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٩٥٦ و ١٩٦٣
٦٢ - ابن شهر آشوب ابو جعفر محمد بن علي المازندراني (٥٨٨ / ١١٩٢) .
٨٧ - مناقب آل ابي طالب المطبعة العلمية - قم (دون تاريخ) .
٨٨ - معالم العلماء (ط . عباس اقبال - طهران ١٣٥٣/١٣٩٤) و (ط . النجف ١٩٦١) .

- ٦٣ - الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (سنة ٥٤٨/١١٥٣)
- ٨٩ - كتاب الملل والنحل (ط . محمد سيد كيلاني - القاهرة ١٩٦١ وعلى هامش ابن حزم - القاهرة ١٣٤٧) .
- ٦٤ - الصابىء هلال بن ابراهيم بن هلال (سنة ٤٤٧/١٠٥٥) .
- ٩٠ - رسوم دار الخلافة (بغداد ١٩٦٤) .
- ٩١ - تحفة الامراء بتاريخ الوزراء - بيروت ١٩٠٤ (نشرة أمدرود) .
- ٦٥ - ابن الصباغ : علي بن محمد بن احمد المالكي (سنة ٨٥٥ هـ) .
- ٩٢ - كتاب الفصول المهمة في معرفة الائمة - مخطوط المكتبة الاهلية في باريس رقم ٥٨٣٢ .
- ٦٦ - الشيخ الصدوق أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (٩٩١/٣٨١) .
- ٩٣ - الأمالي (ط . طهران ١٣٨٠ هـ) .
- ٦٧ - الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك الدمشقي (سنة ٧٤٧) .
- ٩٤ - الوافي بالوفيات (٨ اجزاء مطبوعة حتى الآن . تحقيق ريتز وغيره - طبع استامبول ودمشق الطبعة الثانية ١٩٦١ - ١٩٧٠) .
- ٩٥ - الوافي بالوفيات مخطوط مصور للاجزاء المختلفة في مكتبة المجمع العلمي العربي بدمشق .
- ٦٨ - الصولي : أبو بكر محمد بن يحيى (٩٤٦/٣٣٥) .
- ٩٦ - أخبار الرازي والمتقي (من كتاب الاوراق) أو تاريخ الدولة العباسية (نشر هيوارثدن - القاهرة ١٩٣٦) .
- ٦٩ - ابن الصيرفي أبو القاسم علي بن منجب المصري (بعد سنة ٥٥٠ أو سنة ٥٤٢) .
- ٩٧ - الإشارة إلى من نال الوزارة (طبع القاهرة ١٩٢٤) .
- ٧٠ - ابن طاهر أبو الفضل أحمد بن طاهر المعروف بابن طيفور (سنة ٢٨٠ هـ) .
- ٩٨ - بغداد في تاريخ الخلافة العباسية (جزء من تاريخ ابن طاهر ، ط . بغداد ١٩٦٨) .
- ٧١ - الطبرسي أبو علي الفضل بن الحسن (سنة ٥٤٨/١١٥٣) .
- ٩٩ - اعلام الورى بأعلام الهدى (مطبعة حيدري - طهران ١٣٣٨) .
- ٧٢ - الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (٩٢٢/٣١٠) .
- ٥٩٢ -

- ١٠٠ - تاريخ الرسل والملوك ١٠ اجزاء (طبعة محمد ابو الفضل ابراهيم - القاهرة ١٩٦٧ وما بعد) وطبعة لندن .
- ٧٣ - ابن الطقطقي . محمد بن علي بن طباطبا (٧٠٥ هـ)
- ١٠١ - الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (القاهرة ١٩٢٧) .
- ٧٤ - ابن طولون شمس الدين محمد بن علي (١٠٤٦/٩٥٣) .
- ١٠٢ - الأئمة الاثنا عشر (تحقيق صلاح الدين المنجد - ط . صادر - بيروت ١٩٥٨) .
- ٧٥ - ابن ظافر أبو الحسن علي بن ابن منصور الخزرجي الاسدي (سنة ١٢١٧/٦١٣) .
- ١٠٣ - كتاب اخبار الدول المنقطعة - مخطوط المتحف البريطاني رقم ٣٦٨٥ .
- ٧٦ - ابن عبد الحكم أبو القاسم عبد الرحمن القرشي المصري (٢٧٦/٨٨٩) .
- ١٠٤ - فتوح مصر والمغرب القاهرة ١٩٦١ وطبعة ماسية - القاهرة ١٩١٤ في جزئين .
- ٧٧ - ابن عبد ربه شهاب الدين أحمد (سنة ٣٤٩/٩٤٠) .
- ١٠٥ - العقد الفريد ٧ اجزاء (ط . دار الكتب . القاهرة) .
- ٧٨ - ابن العبري أبو الفرج غريغوريوس بن هارون الملطي (سنة ١٢٨٥/٦٨٥) .
- ١٠٦ - تاريخ مختصر الدول . ط . بيروت ١٩٥٨
- ٧٩ - ابن العديم كمال الدين عمر من آل أبي جرادة (سنة ٦٦٠/١٢٦٤) .
- ١٠٧ - زبدة الحلب من تاريخ حلب ٣ اجزاء (نشر المعهد الفرنسي - تحقيق سامي الدهان - دمشق ١٩٥٤-١٩٥٦)
- ١٠٨ - بغية الطلب في تاريخ حلب ٨ اجزاء مخطوطة مكتبة أحمد الثالث استامبول رقم ٢٩٢٠
- ١٠٩ - بغية الطلب في تاريخ حلب ١ جزء آخر مخطوط مكتبة فيض الله رقم ١٤٠٤
- ١١٠ - بغية الطلب في تاريخ حلب ١ جزء آخر مخطوط مكتبة اياصوفيا رقم ٣٠٣٦

- ٨٠ - ابن عذارى أبو عبد الله محمد المراكشي (توفي أواخر القرن السابع) .
- ١١١ - البيان المغرب في حلي المغرب ط . دوزي (لندن ١٨٤٨)
- ١٨٥١ (وط . باريس سنة ١٩٣٠)
- ٨١ - عريب بن سعيد القرطبي (٦٧٦/٣٣٦)
- ١١٢ - صلة تاريخ الطبري ط . بيروت ١٨٩٠ وط . القاهرة ١٣٠٢
- ٨٢ - ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي (سنة ٥٧٢/١١٧٦) .
- ١١٣ - تاريخ مدينة دمشق مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٣٣٦٧ حتى رقم ٣٣٨٣ عام . ورقم ٣٤٥٠ (١٩ جزء)
- ١١٤ - تهذيب تاريخ دمشق (بدران - طبع دمشق ١٣٣٣ - ١٣٤٥) .
- ٨٣ - عمرو بن متى (القرن الثامن الهجري) .
- ١١٥ - اخبار بطارقة كرسي المشرق (من كتاب المجلد - رومية ١٨٩٦) .
- ٨٤ - ابن عنبه أبو الياس أحمد بن علي (سنة ٨٢٨) .
- ١١٦ - عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب (النجف - المطبعة الحيدرية ١٩٦١) .
- ٨٥ - غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء (سنة ١٠٨٧/٤٨٠) .
- ١١٧ - الهفوات النادرة (تحقيق الأشر - طبع المجمع العلمي بدمشق ١٩٦٧) .
- ٨٦ - أبو الفداء الملك اسماعيل بن عماد الدين علي صاحب حماة (٧٣٢/١٣٣١) .
- ١١٨ - المختصر في أخبار البشر ٤ أجزاء (القاهرة ١٣١٥) .
- ٨٧ - الفراء أبو يعلى الحنبلي (سنة ٤٥٦) .
- ١١٩ - الاحكام السلطانية (القاهرة ١٩٣٨) .
- ٨٨ - ابن الفراء .
- ١٢٠ - رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة (تحقيق صلاح الدين المنجد - القاهرة ١٩٤٧) .
- ٨٩ - ابن الفقيه الهمداني : أبو بكر أحمد بن محمد (القرن الرابع) .
- ١٢١ - البلدان (ط . لندن ١٨٨٥) .

- ٩٠ - ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (٢٧٦ / ٨٨٩) .
 ١٢٢ - الامامة والسياسة (القاهرة مطبعة النيل) .
 ١٢٣ - المعارف (القاهرة ١٣٥٣) .
 ١٢٤ - عيون الاخبار (القاهرة ١٣٤٣ - ١٣٤٨) ٤ اجزاء .
 ٩١ - قدامة بن جعفر أبو الفرج الكاتب البغدادي (٣٣٧ هـ) .
 ١٢٥ - كتاب الخراج وصناعة الكتابة (ليدن ١٨٨٩) (قسم من الكتاب) .
 ١٢٦ - كتاب الخراج نفسه بقيته الموجودة - النصف الثاني منه مخطوط المكتبة الاهلية في باريس رقم ٥٩٠٧ .
 ٩٢ - القزويني زكريا بن محمد بن محمود .
 ١٢٧ - آثار البلاد واخبار العباد بيروت ١٩٦٠ .
 ٩٣ - القلقشندي أبو العباس أحمد (٨٢١ / ١٤١٨) .
 ١٢٨ - صبح الأعشى في صناعة الانشاء (بعض الاجزاء منه) طبعة دار الكتب .
 ١٢٩ - مآثر الانافة في معالم الخلافة الكويت ١٩٦٤ ، ٣ اجزاء .
 ٩٤ - القفطي الوزير جمال الدين (سنة ٦٤٧ / ١٢٤٩) .
 ١٣٠ - اخبار العلماء باخبار الحكماء (مختصر الزوزني - ليزيغ ١٣٢٠) .
 ٩٥ - ابن القوطية أبو بكر محمد بن عبد العزيز (القرن الثالث) .
 ١٣١ - تاريخ افتتاح الاندلس (ط . مجريط ١٨٦٨ وبيروت ١٩٥٨) .
 ٩٦ - ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (سنة ٧٥١) .
 ١٣٢ - احكام اهل الذمة (تحقيق صبحي الصالح) دمشق ١٩٦١ مجلدان .
 ٩٧ - ابن كثير أبو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي (٧٧٤)
 ١٣٣ - البداية والنهاية ، الاجزاء ٧ - ١٢ (القاهرة ١٩٣٢) .
 ٩٨ - الكشي الطوسي أبو عمرو محمد بن عمر (من القرن الرابع) .
 ١٣٤ - معرفة اخبار الرجال (النجف ١٩٦٤) .
 ٩٩ - الكليني : محمد بن يعقوب (٣٢٩ / ٩٣٩) .
 ١٣٥ - اصول الكافي (الروضة من الكافي) ط . مكتبة الصدوق - طهران ١٣٨١ / ١٩٦١ - ٢

- ١٠٠ - الكندي أبو عمر محمد بن يوسف (٣٥٠ / ٩٦١) .
- ١٣٦ - كتاب الامراء والولاة وكتاب القضاة (ط . ليدن ١٩١٧)
- ١٠١ - الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب .
- ١٣٧ - الاحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٨) .
- ١٠٢ - المبرد محمد بن يزيد بن عبد الاكبر (سنة ٢٨٥ هـ) .
- ١٣٨ - الكامل (القاهرة ١٩٥٦) .
- ١٠٣ - مجهول (من القرن الثالث او الرابع) .
- ١٣٩ - اخبار العباس وولده (نشره عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطليبي بعنوان اخبار الدولة العباسية - بيروت ١٩٧١) .
- ١٠٤ - مجهول (من القرن الخامس) .
- ١٤٠ - تاريخ سستان (بالفارسية - ط . طهران ١٣١٤) .
- ١٠٥ - مجهول (من القرن السابع او الخامس) .
- ١٤١ - تاريخ الخلفاء (لعله مختصر اخبار العباس وولده مع زيادات) (نشر غرياز نيويج - موسكو ١٩٦٧) .
- ١٠٦ - مجهول (من القرن الثالث) .
- ١٤٢ - اخبار مجموعة في فتح الاندلس وامرائها (تحقيق الكنترا - مدريد ١٨٦٧) .
- ١٠٧ - مجهول (من القرن السابع) .
- ١٣٤ - كتاب العيون والحدائق في اخبار الحقائق الجزء الثالث (نشر دي غويه - ليدن ١٨٧١) .
- ١٤٤ - كتاب العيون والحدائق في اخبار الحقائق الجزء الرابع - ١ (تحقيق نبيلة عبد المنعم داوود - النجف ١٩٧٢) .
- ١٠٨ - ابن المرتضى المهدي لدين الله احمد بن يحيى (٣٢٥ / ٩٣٦) .
- ١٤٥ - طبقات المعتزلة (بيروت ١٩٦١) .
- ١٠٩ - المسعودي ابو الحسن علي بن الحسين بن علي (سنة ٣٤٦ / ٩٥٦) .
- ١٤٦ - مروج الذهب ومعادن الجوهر (ط . بلا - بيروت ١٩٦٦ - ١٩٧٣) ٤ اجزاء وطبعة القاهرة ١٩٣٨ .
- ١٤٧ - التنبيه والاشراف (القاهرة ١٩٣٨)
- ١٤٨ - كتاب اثبات الوصية (طبع المطبعة المرتضوية - النجف) .
- ١١٠ - مسكويه ابو علي احمد بن محمد (سنة ٤٢١) .

- ١٤٩ - تجارب الامم الجزء الاول والثاني (نشر آمدروز -
القاهرة ١٩١٤ - ١٩١٥) .
- تجارب الامم جزء ملحق بكتاب العيون والحدائق (نشر
دي غويه - ليدن ١٨٧١) .
- ١١١ - الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان العكبري (٤١٣/
١٠٢٢) .
- ١٥٠ - الفصول المختارة من العيون والمحاسن (جزاءن) ط .
- ١٥٨ - الارشاد (ط . اصبهان ١٣٦٤) .
- ١١٢ - المقدسي شمس الدين ابو عبد الله محمد البشاري (سنة
٩٩٧/٣٨٧) .
- ١٥٢ - احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ليدن ١٩٠٦) .
- ١١٣ - المقدسي المطهر بن طاهر (القرن الرابع) .
- ١٥٣ - البدء والتاريخ (ط . باريس ١٨٩٩ - ١٩٠٦) .
- وينسب الكتاب الى ابي زيد البلخي (٩٤٢/٣٢٢) .
- ١١٤ - المقرئ احمد بن محمد التلمساني (سنة ١٠٤١ هـ) .
- ١٥٤ - نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (القاهرة ١٩٤٩)
١٠ اجزاء .
- ١١٥ - المقرئ تقي الدين احمد بن علي (١٤٤١/٨٤٥) .
- ١٥٥ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (ط . بيروت
١٩٦٢ وط . القاهرة ١٣٢٦) .
- ١٥٦ - المقي مخطوط المكتبة الاهلية في باريس رقم ٢١٤٤
- ١٥٧ - المقي مخطوط المكتبة السليمية باستامبول رقم ٤٩٦
- ١٥٨ - المقي مخطوط ليدن رقم ١٣٦٦ .
- ١٥٩ - النزاع والتخاصم فيما بين بني امية وبني هاشم -
النجف ١٩٦٦ (ط . محمد بحر العلوم - الحيدرية) .
- ١٦٠ - شذور العقود في ذكر النقود (نشرة بعنوان النقود
الاسلامية محمد بحر العلوم - النجف ١٩٦٧) .
- ١٦١ - اتعاظ الحنفا في اخبار الائمة الفاطميين الحنفا (تحقيق
الشيال - القاهرة ١٩٦٧) .
- ١٦٢ - الكشف والاعراب عما بديار مصر من الاعراب - القاهرة
١١٦ - ابن المقفع ، ساويرس .
- ١٦٣ - سير الآباء البطارقة تحقيق Evettes طبع باريس ١٩٠٧

- ١١٧ - ابن المقفع عبد الله (سنة ١٤٢ او سنة ١٤٣ / ٧٦٠ او ٧٦١).
- ١٦٤ - رسالة الصحابة (ضمن كتاب رسائل البلغاء - نشر محمد كرد علي - القاهرة ١٩٤٦) .
- ١٥٦ - الأدب الكبير (نشر أحمد زكي باشا - القاهرة ١٩١٢) .
- ١٦٦ - الأدب الصغير (نشر أحمد زكي باشا القاهرة ١٩١١) .
- ١١٨ - النجاشي أحمد بن علي الأهوازي (سنة ٤٥٠) .
- ١٦٧ - كتاب الرجال (ط . بومبي ١٩١٧) .
- ١١٩ - ابن النديم محمد بن اسحق (سنة ٣٨٣ / ٩٩٣ - ولعه توفي بعد سنة ٤٠٠) .
- ١٦٨ - الفهرست (ط . فلوجل - هاله ١٨٧٢ - اعادة طبع خياط - بيروت) .
- ١٢٠ - الترشيحي أبو بكر محمد بن جعفر (القرن الرابع أو الخامس)
- ١٦٩ - تاريخ بخارى (معرب عن الفارسية بقلم أمين عبدالمجيد بدوي ونصر الله مبشر الطرازي - القاهرة ١٩٦٥) .
- ١٢١ - التوبختي أبو محمد الحسن بن موسى (سنة ٣٠٠) .
- ١٧٠ - كتاب فرق الشيعة (النجف ١٩٥٩) .
- ١٢٢ - النويري أحمد بن عبد الوهاب (سنة ٧٣٣) .
- ١٧١ - نهاية الأرب الجزء ٢٠ مخطوط أياصوفيا - استامبول رقم ٣٥٢٣
- ١٧٢ - نهاية الأرب الجزء ٢٢ مخطوط دار الكتب بالقاهرة رقم ١٨٦٦٨
- ١٧٣ - نهاية الأرب الجزء ٢٣ مخطوط دار الكتب أيضا رقم ٦٩٩ تاريخ تيمور .
- ١٢٣ - وكيع القاضي محمد بن خلف بن حيان (سنة ٣٠٦) .
- ١٧٤ - أخبار القضاة (القاهرة ١٩٧٤) ٣ أجزاء .
- ١٢٤ - الياقعي عبد الله بن أسعد (سنة ٧٦٨ هـ) .
- ١٧٥ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان (حيدرآباد ١٣٢٧-١٣٢٩)
- ١٢٥ - ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (سنة ٦٢٧ / ١٢٣٠) .
- ١٧٦ - معجم البلدان (ط . ليبزيغ ١٨٦٦ - ١٨٧٣ . وطبعة بيروت ١٩٦٢) .
- ١٧٧ - أرشاد الأريب (معجم الأدباء) (ط . ليدن ١٩٠٧ - ١٩٣١) وطبعة القاهرة - مرغليوث) .

- ١٢٦ - يحيى بن آدم القرشي (سنة ٢٠٣) .
 ١٧٨ - كتاب الخراج (ليدن ١٨٩٥ والقاهرة - المطبعة السلفية ١٣٤٧) .
 ١٢٧ - اليعقوبي احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن واضح (سنة ٨٩٥/٢٨٢) .
 ١٧٩ - تاريخ اليعقوبي (بيروت ١٩٦٠ - جزاء وطبعة النجف ١٩٣٩ - ٣ اجزاء) .
 ١٨٠ - كتاب البلدان (النجف ١٩٣٩ وطبعة القاهرة ١٩٣٧) .
 ١٨١ - مشاكلة الناس لزمانهم (تحقيق وليم ملورد - بيروت ١٩٦٢) .
 ١٢٨ - ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم قاضي الرشيد (سنة ١٩٢ / ٨٠٧) .
 ١٨٢ - كتاب الخراج (المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦) .

٢ - المراجع العربية الحديثة والمترجمة:

- ١ - احمد ، محمد حلمي
 ١ - الخلافة والدولة في العصر العباسي - القاهرة ١١٥٩
 ٢ - فجر الاسلام طبعة دار المعارف - القاهرة ١٩٣٦
 ٣ - ضحى الاسلام طبعة دار المعارف - القاهرة ١٩٣٦
 ٤ - ظهر الاسلام .
 ٥ - المهدية والمهدوية - القاهرة ١٩٥٣
 ٣ - احمد محمود حسن
 ٦ - الاسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى - القاهرة ١٩٦٨ ، وبلاشتراك مع احمد ابراهيم الشريف : العالم الاسلامي في العصر العباسي - القاهرة ١٩٦٦
 ٤ - ارسلان ، شكيب
 ٧ - تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا - بيروت ١٩٦٦
 ٥ - آرنولد ، توماس
 ٨ - الدعوة الى الاسلام (ترجمة حسن ابراهيم حسن) الطبعة الثانية ١٩٦٤
 ٩ - الخلافة ، ترجمة جميل معلى ، دمشق ١٩٤٨
 ١٠ - تراث الاسلام (مع جمهرة من المستشرقين) معرب - القاهرة ١٩٤٧

- ٦ - امير علي ، سيد
- ١١ - مختصر تاريخ العرب ، والتمدن الاسلامي ، ترجمة رياض رافعة ، ط . القاهرة .
- ٧ - بارتولد . ف
- ١٢ - تاريخ الحضارة الاسلامية ترجمة حمزة طاهر - القاهرة ١٩٥٢
- ١٣ - تاريخ الترك في آسيا الوسطى ترجمة احمد السعيد - القاهرة ١٩٥٨
- ٨ - الباروني ، ابو الربيع سليمان بن عبد الله
- ١٤ - مختصر تاريخ الإباضية - تونس ١٩٣٨
- ٩ - الباشا ، محمود حسن
- ١٥ - الالقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق - القاهرة ١٩٥٧
- ١٠ - برانق ، محمد احمد
- ١٦ - الوزراء العباسيون - القاهرة دون تاريخ .
- ١١ - بروكلمان كارل
- ١٧ - تاريخ الامم والشعوب الاسلامية (ترجمة منير البعلبكي بيروت ١٩٤٨) .
- ١٢ - ترتون
- ١٨ - اهل الدمة في الاسلام ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ١٩٤٩
- ١٣ - ثابت ، نعمان
- ١٩ - الجندية في الدولة العباسية - بغداد ١٩٥٦
- ١٤ - جوزي ، بندلي
- ٢٠ - من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام - القدس ١٩٢٨
- وبيروت دون تاريخ .
- ١٥ - الجومرد ، عبد الجبار .
- ٢١ - هارون الرشيد (جزءان) - بيروت ١٩٥٦
- ٢٢ - المنصور بيروت ١٩٦٣
- ١٦ - حتي ، فيليب
- ٢٣ - تاريخ العرب (مطول) ٢ اجزاء - الطبعة الرابعة - بيروت ١٩٦٥

- ١٧ - حسن ، ابراهيم
٢٤ - تاريخ الاسلام السياسي ٤ اجزاء الطبعة الخامسة -
القاهرة ١٩٦٧
حسن ابراهيم (وبلاشتراك مع علي ابراهيم حسن)
٢٥ - النظم الاسلامية القاهرة ١٩٣٨
١٨ - الحسيني ، علي الجزائري
٢٦ - تاريخ سورية الاقتصادي دمشق ١٣٤٢
١٩ - حوراني ، جورج فضل
٢٧ - العرب والملاحه في المحيط الهندي ، ترجمة يعقوب
بكر - القاهرة ١٩٥٨
٢٠ - حي الصيني ، بدر الدين
٢٨ - العلاقات بين العرب والصين ، القاهرة ١٩٥٠
٢١ - الحسيني ، محمد جابر عبد العال
٢٩ - حركات الشيعة المتطرفين (الطبعة الثانية) القاهرة
١٩٦٧
٢٢ - خدابخش ، صلاح الدين
٣٠ - حضارة الاسلام ترجمة علي حسن خربوطلي -
بيروت ١٩٧١
٢٣ - الدبس ، المطران يوسف
٣١ - تاريخ سورية ، ١٠ اجزاء بيروت ١٩٠٠
٢٤ - الدوري ، عبد العزيز
٣٢ - العصر العباسي الاول - بغداد ١٩٤٥
٣٣ - مقدمة في تاريخ صدر الاسلام - بغداد ١٩٤٩ -
بيروت ١٩٦٠
٣٤ - دراسات في العصور العباسية المتأخرة - بغداد
(مطبعة السريان) ١٩٤٥
٣٥ - مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي - بيروت ١٩٦٩
٣٦ - الجذور التاريخية للشعبوية - بيروت ١٩٦٠
٣٧ - تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري
- بغداد ١٩٤٨
٢٥ - دينيث ، دانيال
٣٨ - الجزية والاسلام ترجمة فوزي فهمي جاد الله ،
بيروت ١٩٦٠
- ٦٠١ -

- ٢٦ - رستم ، أسد
 ٣٩ - الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم
 وصلاتهم مع العرب (جزءان) بيروت ١٩٥٦
 ٢٧ - الرفاعي ، أحمد فريد
 ٤٠ - عصر المأمون ، (جزءان) القاهرة ١٩٢٧
 ٢٨ - رودنسون ، مكسيم
 ٤١ - الاسلام والرأسمالية - ترجمة نزيه الحكيم ،
 بيروت ١٩٦٨
 ٢٩ - الرئيس ، محمد ضياء الدين
 ٤٢ - الخراج في الدولة الاسلامية - القاهرة ١٩٥٧
 ٣٠ - زامببور
 ٤٣ - معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي
 - القاهرة ١٩٥١
 ٣١ - الزرو ، خليل داوود
 ٤٤ - الحياة العلمية في الشام - بيروت ١٩٧١
 ٣٢ - زيدان ، جرجي
 ٤٥ - تاريخ التمدن الاسلامي خمسة اجزاء - الطبعة
 السادسة ، القاهرة ١٩٥٩
 ٣٣ - سالم ، عبد العزيز
 ٤٦ - المغرب الكبير (العصر الاسلامي) ، القاهرة ١٩٦٦
 ٣٤ - سوسة أحمد
 ٤٧ - ري سامراء - بغداد ١٩٤٨
 ٣٥ - سيديو
 ٤٨ - تاريخ العرب العام (مترجم) - القاهرة
 ٣٦ - شلبي ، أحمد
 ٤٩ - التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية الجزء الثالث
 خاصة الطبعة الرابعة - القاهرة
 ٣٧ - الصالح ، صالح
 ٥٠ - النظم الاسلامية ، بيروت ١٩٦٨
 ٣٨ - طرخان ، ابراهيم علي
 ٥١ - المسلمون في اوربا في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٦

- ٣٩ - عباس ، احسان
٥٢ - العرب في صقلية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨
٤٠ - عبد الحميد ، سعد زغلول
٥٣ - تاريخ المغرب العربي - القاهرة ١٩٦٠
٤١ - عثمان ، فتحي
٥٤ - الحدود الاسلامية البيزنطية ٣ اجزاء القاهرة ١٩٦٦
٤٢ - العدوي ابراهيم احمد
٥٥ - المسلمون والجرمان - الاسلام في غرب المتوسط -
القاهرة ١٩٦٠
٥٦ - قوات البحرية العربية في مياه المتوسط - القاهرة
١٩٦٣
٥٧ - الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية - القاهرة
١٩٥٠
٥٨ - الامويون والبيزنطيون - القاهرة ١٩٥٣
٥٩ - السفارات الاسلامية الى اوربا في العصور الوسطى
القاهرة ١٩٦٠
٤٣ - العلي ، صالح احمد
٦٠ - التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية في البصرة ،
بغداد ١٩٥٣
٦١ - استيطان العرب في خراسان ، مجلة كلية الآداب
بجامعة بغداد ١٩٥٩
٦٢ - بغداد في عهد المنصور ، مؤتمر المدن الاسلامية ،
اكسفورد ١٩٦٥
٤٤ - عمر فوزي فاروق
٦٣ - طبعة الدعوة العباسية - بيروت ١٩٧٠
٦٤ - العباسيون الاوائل الجزء الاول - بيروت ١٩٧٠
٦٥ - العباسيون الاوائل الجزء الثاني بيروت ١٩٧٣
٤٥ - غرونباوم ج . ا .
٦٦ - حضارة الاسلام ترجمة عبد العزيز جاويد (الالف
كتاب) - القاهرة
٤٦ - فلزلييف
٦٧ - العرب والروم ترجمة عبد الهادي شعيرة - القاهرة
١٩٥٤

- ٤٧ - فامبري أرمينيوس
٦٨ - تاريخ بخارى (ترجمة التساداني - الخشاب)
القاهرة ١٩٥٦
- ٤٨ - فان فلوتن
٦٩ - السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات (ترجمة
حسن ابراهيم حسن) الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٦
- ٤٩ - فيصل ، شكري
٧٠ - المجتمعات الاسلامية في القرن الاول - بيروت ١٩٦٦
٧١ - حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول - بيروت ١٩٦٧
- ٥٠ - فيلهاوزن ، يوليوس
٧٢ - تاريخ الدولة العربية ترجمة محمد عبد الهادي ابو
ريدة (الطبعة الثانية - القاهرة سنة ١٩٦٨)
٧٣ - الخوارج والشيعة - ترجمة عبد الرحمن بدوي ،
القاهرة ١٩٦٨
- ٥١ - فيلبي ، جون
٧٤ - هارون الرشيد (مترجم)
٥٢ - كاشف ، سيدة اسماعيل
٧٥ - مصر في فجر الاسلام - القاهرة ١٩٤٧
- ٥٣ - كاهن ، كلود
٧٦ - تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ترجمة بدر الدين
القاسم المجلد الاول - بيروت ١٩٧٢
- ٥٤ - كتابجي ، زكريا
٧٧ - الترك في مؤلفات الجاحظ ، بيروت ١٩٧٢
- ٥٥ - كرد علي محمد
٧٨ - خطط الشام الاجزاء ١ ، ٢ ، دمشق ١٩٢٢
٧٩ - الادارة الاسلامية في عز العرب - القاهرة ١٩٣٤
٨٠ - رسائل البلغاء ط . القاهرة ١٩١٣ و ط . القاهرة
١٩٥٧
- ٨١ - امراء البيان - القاهرة ١٩٣٧
- ٥٦ - كريستنسن
٨٢ - ايران في عهد الساسانيين (ترجمة يحيى الخشاب ،
القاهرة ١٩٥٧)

- ٥٧ - كريمبر
٨٣ - الحضارة الاسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الاجنبية
ترجمة مصطفى بدر ، القاهرة
- ٥٨ - لسترانج ، غي
٨٤ - بلدان الخلافة الشرقية ترجمة بشير فرنسيس
وكوركيس عواد ، بغداد ١٩٥٤
- ٨٥ - بغداد في عهد الخلافة العباسية ترجمة بشير فرنسيس
بغداد ١٩٣٦
- ٥٩ - لويس ، ارشيبالد
٨٦ - القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ،
مترجم ، القاهرة ١٩٦٠
- ٦٠ - لين بول ، استانلي
٨٧ - طبقات سلاطين الاسلام (مترجم عن الفارسية)
بغداد ١٩٦٨
- ٦١ - مؤنس ، حسين
٨٨ - فتوح العرب للمغرب القاهرة ١٩٤٧
- ٦٢ - متر ، آدم
٩٨ - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (جزءان)
ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريده ، القاهرة ، ١٩٤٤
- ٦٣ - المدني ، احمد توفيق
٩٠ - المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا، الجزائر -
صقلية ١٩٦٩
- ٦٤ - مورينو ، مارتينو ماريو
٩١ - المسلمون في صقلية - بيروت ١٩٥٧
- ٦٥ - المنجد ، صلاح الدين
٩٢ - المنتقى من دراسات المستشرقين - القاهرة ١٩٥٥
- ٦٦ - النجار ، محمد الطيب
٩٣ - الموالي في العصر الاموي - القاهرة ١٩٤٩
- ٦٧ - هل ، يوسف
٩٤ - الحضارة العربية ترجمة ابراهيم احمد العدوي
(الالف كتاب) القاهرة ١٩٥٦

- ٦٨ - فلهاوزن ، يوليوس
٩٥ - تاريخ الدولة العربية (ترجمة ابو ريده ، مؤنس)
ط . الالف كتاب القاهرة ١٩٥٨
٦٩ - اليوزبكي ، توفيق سلطان
٩٦ - الوزارة ونشأتها وتطورها في الدولة العباسية -
بغداد ١٩٦٩
٧٠ - دائرة المعارف الاسلاميه
٩٧ - الترجمة العربية (١٤ مجلدا) مواد مختلفة منها .



٣ - مراجع باللغات الاجنبية

- 1 — **Bagdad** : Volume spécial publié a' l'occasion du mille deux centième anniversaire de la fondation, Leyden 1962 .
- 2 — **Barthold, W.**
 - 2 — Turkestan down to the Mongol invasion (2 = me ed, London 1928) .
- 3 — **Bouvat** .
 - 3 — Les Barmécides d'après les auteurs arabes et persans. Paris 1909, 1912.
- 4 — **Buchler,**
 - 4 — Harun al Rashid and Charles the great, Massachusetts, 1931.
- 5 — **Brooks, E. W.** . chabot et guidi.
 - 5 — Chronica Minora (Tome IV du Corp. Scrip. Chris. Or.) texte et traduction française, Paris 1907.
- 6 — **Cahen, Claude,**
 - 6 — Points de vue sur la Revolution Abbaside, R. H. 1963.
- 7 — **Chabot, J. B.**
 - 7 — Littérature Cyriaque, Paris 1934.
- 8 — **Dennett, D. C.**
 - 8 — Marwan Ibn Muhammad, Harvard University 1939.
- 9 — **Frye, R. N.**
 - 9 — The Role of Abu Muslim, Mus. world, 37, 1947.
 - 10 — The Abbaside Conspiracy, Imdo - Iranica, III, 1952-1953.
- 10 — **Ghévond.**
 - 11 — Histoire des Guerres et des conquêtes des Arabes en Arménie. (Tr. française d'après la russe) par Chahnazarian, Paris 1856.
- 11 — **Gibb, H. A. R.**
 - 12 — The Arab Conquests in Cental Asia, London 1923.
 - 13 — Studies on the Civilization of Islam, London 1962.
- 12 — **Gibb and Kramers,**
 - 14 — Shorter Encyc, of Islam, (Brill 1916) .

..

- 13 — Graber, O. ,**
 15 — Umayyad Palace and the Abbassi de Revolution.
 Stu. Isl. 1963.
- 14 — Heyd**
 16 — Histoire du Commerce du Levant (2 vols.) 2-me
 éd. - Paris 1936.
- 15 — Khuda Bukhsh, S.**
 17 — Contributions to the Study of islamic Civilization.
 (2 vols.) Calcutta, 1929-1930 .
- 16 — Lane - Pool, Stanley,**
 18 — Mohammadan Dynasties, London 1893 (rep. in
 Beyrouth).
- 17 — Loekkegaard, F.**
 19 — Islamic Taxation in the Classical période, Copenhagen
 1930.
- 18 — Mihel le Syrien**
 20 — Chronique de M. le S. (Trad Fran. en 3 vole. par.
 J. B. Chabot) Paris 1909-1910.
- 19 — Muyldermans, J.**
 21 — La Domination Arabe en Arménie, (extrait de l' His,
 Univ. de Vardan) Paris 1927.
- 20 — De Nisibe, Elie**
 22 — Chronographie d' Elie de Nisibe, (Texte et trad.
 fran.) Ire Partie par Brooks 2-me Partie Par Chabot,
 Paris 1900-1902 (Tome VII et VIII du Corp. Scrip.
 Chris. Or.)
- 21 — Sadighi, Gh. H. ,**
 23 — Les Mouvements Religieux Iraniens du II^e and III^{eme}
 siècle de l' Hégire, Paris 1938.
- 22 — Sha'ban, M. Abdelhay**
 24 — The Social and Political Background of the Abbasid
 Revolution Harvard, 1960.
- 23 — Sourdel, Dominique**
 25 — Le Vezirat Abbaside de 749 à 936 (132 à 324 de
 l' Hégire) Damas, 1959-1960 (2 vols).
- 24 — De Tell Mahré, Denys (attribué à)**
 26 — Chronicon Anonymum Pseudo-Dionysianum (Tome
 I et II du Corp. Scrip. Chris. Or.) Publié Par J. B.
 Chabot (Trad. latine) Paris, 1895.

استدراكات

طبع الجزء الأول خاصة من هذا الكتاب في دمشق خلال حرب تشرين ١٩٧٣ وما أعقبها ، وكان لا بد في هذه الظروف الاستثنائية من أن يتسرب بعض الاضطراب الى الرقابة الواجبة على طباعته ، وهكذا سقطت عند الطبع فقرات هامة ، في بعض المواضيع منه وجدنا أن لا مناص من استدراكها في هذه الصفحات التالية ، معتردين عن ذلك بجانب اعتذارنا عن الأخطاء المطبعية الكثيرة التي أفردناها للتصحيح في أوراق منفصلة .

الاستدراك الأول

يضاف الى الصفحة ٥١ فيما بين الفقرة الأولى منها والثانية الأسطر التالية :

ومن الضروري هنا أن نتناول بالتحليل السريع هذه « العvisية » التي تصور على أنها مجرد عاطفة قبلية عمياء وظاهرة بدوية تحيي عvisيات الجاهلية الأولى . والواقع أنها ، في الأعماق ، مشكلة اقتصادية معاشية نجمت عن نزول القبائل العربية واستيطانها للأراضي المفتوحة سواء في الشام أو في خراسان أو في مصر أو الأندلس وعن الزحام فيما بينها على المناطق الأشد خصباً واحتجازها لذوي قرباها . فقد كانت الجموع النازحة من الجزيرة نتيجة الفيض الديموغرافي (السكاني) والتطوع في الجيوش تفضل عند الاستيطان ، في أي مكان ، منازل القبائل العربية ذات القربى أو الجوار السابق معها فعرب الجنوب يجتذبون أمثالهم ليقوا بهم وعرب الشمال من قيس يفضلون بدورهم النزول قرب أصحابهم . ولا تستوى الأرضون في الخصب ولهذا يتزاحمون على

المنازل الأكثر خصباً ويتعصب بعضهم لبعض عند النزاع أثناء هذا الانتقال من الطور البدوي في الحياة الى الطور الزراعي . وكان ميل الخلفاء الى قبيل دون آخر يعني توفر الرزق الأوفى والأرض لذلك القبيل . وإنما أخذ هذا النزاع القبلي شكله الحاد في الشام لأن الزحام فيها لم يكن على الأرض وحدها ولكن على القيادات أيضاً والولاية ووظائف الدولة والبروز في البلاط مما كان يجعل الدولة باستمرار تعتمد على قسم من العرب لا على كل العرب .

فلما جاء مروان وحاول الخلاص من هذا الانقسام وعبر عن ذلك بالغاء الشكل القبلي للجيش شعر الطرفان بالخسارة وبضياع المصالح التي كانوا يؤمنونها عن طريق التعصب القبلي .

الاستدراك الثاني

ومكانه في الصفحة ١٧٥ فيما بين الفقرة ٢ و ٣ :

على أن البنى الاجتماعية قد تطورت تدريجياً خلال العصر العباسي الأول حتى إذا شارف نهايته وجدنا شيئاً كثيراً من التباين قد ظهر ما بين المجتمع الأموي الأخير والمجتمع العباسي في أواسط القرن الثالث . فالارستقراطية الاقطاعية الأحادية العنصر وشبه المغفلة التي كانت قوام الحكم الأموي أضحت متعددة العناصر منفتحة لكل متمول ومغامر بدخول مختلف الأقوام في الاسلام وأخذها مكانها ضمن نطاقه . والفروق الطبقة ازدادت وضوحاً مما نجم عنه ظهور طبقات من المعدمين واسعة العدد في المدن خاصة ، في الوقت الذي ازدادت فيه أعداد الأرقاء من جميع الأجناس من هذه المدن كما كان بعضهم يستخدم في الزراعة بأعداد واسعة في الريف . واتسعت بجانب الطبقة الاقطاعية - العسكرية طبقة البورجوازية التجارية وشكلت القمم العليا منها طبقة مالية غنية جداً

لم تكن أقل تأثيراً من الاقطاعية العسكرية في توجيه سياسة الدولة من جهة وفي تعميق الهوة الاجتماعية بين الطبقات العليا الموسرة والطبقات الدنيا المحرومة من جهة أخرى .

وقد عبرت هذه التناقضات عن نفسها في عدد من الثورات والانتفاضات والأفكار الاجتماعية الثورية والتنظيمات السرية . ولئن ارتدى بعضها الرداء الديني فإن بعضها الآخر لم يخف شكله الطبقي أو الطائفي أو العنصري والقومي .

الاستدراك الثالث

ومكانه في الصفحة ٢٧٠ بعد الفقرة الثانية التي تنتهي بكلمة : أو قليل منها .

الرابعة : أن استعراض أسماء القواد والزعماء في هذه الثورات يبين أنها أسماء إيرانية خالصة تقريباً (به آفريد ، سنباد ، أستاذسير ، بابك ... الخ) كما أن مراقبة الأخبار التي ذكرت عن أنصارها تكشف بالمقابل أنه لم يكن بينهم جماعات من الطبقة الأرستقراطية وأن الذي كان يستجيب للشوار هم الجماهير الدنيا والعامة . وهذا وذاك إنما يعينان على الأقل أن هذه الجماهير قد استشعرت في مواقف الطبقات الإيرانية العليا المتحالفة مع النظام الإسلامي والمتعاونة معه نوعاً من التخلي عنها فأطلعت من بينها الجماعات والحركات التي تعبر عن رفضها لذلك النظام الذي تعاديه ويعاديه دينياً والمتحكم سياسياً في شؤونها بالرغم منها والمرهق لها مالياً — بالاتفاق مع الموابذة والجهايزة والدهاقين والمرازبة — بالضرائب والذي ما ينفك يجتذب أنصارها الى جانبه باعتناق الاسلام . وهكذا فهي لحد كبير حركات طبقية أكثر بكثير منها حركات قومية .

الاستدراك الرابع

ومكانه في الصفحة ٢٧١ بعد الفقرة الثانية المنتهية بكلمة : اشتراكية النساء .

وإذا تذكرنا حركة خدش المبكرة سنة ١١٦ ثم حركة بهافريد سنة ١٢٩ وتستر الدعوة العباسية على الحركتين وقبولها لهما قبل أن يفتضح علناً أمر مخالفتهم لعمود الدين الاسلامي أمكننا أن نتصور أن الدعوة العباسيين استثاروا وجندوا لمصلحة الدعوة في خراسان تلك الأفكار الدينية بين الناس . وإذا حلت حركتهم اسم « الهاشمية » فإن فرعاً هاماً منها قد اندفع الى التطرف وحمل اسم « الراوندية » ويبدو أن بعض الدعاة من قرية راوند (ومنهم عبد الله الراوندي أحد الدعاة السبعين) هم الذين قالوا أو كانوا أول من قال ببعض الآراء المتطرفة ومنها رفع الإمام الى مقام النبوة أو الألوهية والاعتقاد بأنه عالم بكل أمر وله « العلم الإلهي » . وإذا لم يعرف عن العباسيين ادعاء النبوة أو ما هو أعلى منها فانا نعرف أن المنصور كان يدعي معرفة « العلم الإلهي » وأن لديه صحفه التي كانت تمثل « ارث الكيسانية » الحقيقي المادي .

ومن الصعب وضع الراوندية وحركتها في إطار واضح لا بسبب تعدد فرقها ولكن أيضاً بسبب تطور أفكارها ودعوتها وإضافة الكثير اليها مع مرور الأيام ومع تطور الأحداث في العصر العباسي الأول . على أننا نستطيع مع ذلك أن نسجل حولها الملاحظات التالية :

(١) هي في الأصل حركة شيعية عباسية ولكنها مغالية . وقد اشتقت من الشيعة الهاشمية ويسميه ابن النديم « أبناء الدولة العباسية » (١)

(٢) ابن النديم - الفهرست ص ٢٠٤ (ط . فلوجل) .

وقد مشت الحركة في دروب الغلو درجة بعد درجة مفترقة ، عند كل إضافة فكرية جديدة إليها ، الى فروع متعددة متناثرة .

(٢) احتفظت بالولاء العباسي بعد قيام العباسيين ولكن معظم فروعها إنما تعلقت بأبي مسلم وذكرى أبي مسلم . وتغيرت أفكارها وآراؤها من بعد نتيجة للظروف .

(٣) تساهل العباسيون أيام الدعوة ثم بعد قيام الدولة مع هذه الفرقة الداعية لهم . لم يتبرأوا منها إلا حين أضحى السكوت عنها اتهاماً للعباسيين بالكفر . وهكذا تبرأ محمد الامام من خدائش بعد هزيمته . وسحق أبو مسلم ثورة أبي اسحق الراوندي بعد سيطرته على خراسان وتوطد أمره فيها . ثم سحق الثورة الأخرى التي قام بها نائر آخر اسمه أبو خالد وألجأه الى الفرار الى ما وراء النهر بعد أن تقبل حركته في خراسان ورضي بها . وتسامح أبو جعفر مع الراوندية فلم يقتلهم الا حين هددده هجومهم على قصره بالقتل .

(٤) بلغت الراوندية أوج نشاطها وحركتها ما بين أواخر العهد الأموي حتى أواخر عهد المهدي ثم اضمحل شأنها بالتدريج بعد ذلك مع توطد الصنف الدينية للخلفاء العباسيين واستقرار الدولة في أيديهم . لم يعد للأفكار الراوندية من وظيفة تقوم بها فاندمج أنصارها — على ما يظهر — في الفرق الشيعية الغالية الأخرى واقتصر نشاط الباقين على الفكر الراوندي ، في مجال الفكر الفلسفي الشيعي والتأليف فيه .

(٥) ظل المركز الرئيسي للتحرك الراوندي في خراسان ، حيث قامت الدعوة العباسية الأولى وإذا لم يظهر لها من أثر أو من أثر واضح في العراق — فينا عدا بغداد — فيبدو أن ...

الاستدراك الخامس

ومكانه في الصفحة ٤٣٤ بعد الفقرة الثانية التي تنتهي بكلمة :
بدلاً منه .

ولا بد لنا من الإشارة أخيراً هاهنا الى أمر خطير هو صلة هذه
المشكلة العهدية مع المشكلة البرمكية . فالذي يبدو من التدقيق في
الكتاب الذي أصدره الرشيد ووزعه على الناس عقب البيعة في الكعبة
لولديه ، وقيل أسبوع واحد من مصارع البرامكة أن قضية العهد
والكعبة والايمان كلها إنما كانت « لحسم كيد أعداء النعم » البرامكة
الذين كانوا يتآمرون للايقاع بين الأخوين ولسلبهما - كما يقول الكتاب
نفسه - حقهما في الخلافة . وربما كان البرامكة يعملون لمصلحة عبد الملك
ابن صالح العباسي كما سوف نرى عند بحث المشكلة البرمكية .

الاستدراك السادس

ومكانه في الصفحة ٤٨٦ بعد المقطع الأول في منتصف الصفحة :
حادي عشر : ويلاحظ بجانب هذا كله أن الرشيد سبق نكته
للبرامكة بتنظيم قضية ولاية العهد لولديه الأمين والمأمون ، ونجد سواء
في نصوص الوثائق المتعلقة بذلك أو في توقيت الأحداث وتواليها نوعاً
من العلاقة الأكيدة بين الحادثين تكشف أبعاد النكبة وتلقي الضوء
الحقيقي عليها وعلى الطريقة التي كان المتآمرون من البرامكة مع عبد الملك
ابن صالح العباسي يدبرونها لسحب العرش من تحت الرشيد أو أولاده:
فقد كتب الرشيد الى العمال في الآفاق كتاباً بتوطيد ولاية العهد
للأخوين الأمين والمأمون وطلب الى العمال « قراءته على الناس وإفهامهم
إياه وإثباته في الديوان ولدى قواد أمير المؤمنين ... » . وفي الكتاب

المؤرخ لست ليال بقين من المحرم سنة ١٨٧ نص هام يقول : « ... ولم
يزل أمير المؤمنين منذ اجتمعت الأمة على عقد العهد لمحمد ... ولعبد الله
من بعده يعمل فكره ورأيه ونظره ورؤيته فيما فيه الصلاح لهما ولجميع
الرعية والجمع للكلمة واللم للشعث والدفع للشتات والفرقة والحسم
لكيد أعداء النعم من أهل الكفر والنفاق والغل والشقاق والقطع لآمالهم
من كل فرصة يرجون إدراكها وانتهازها بانتقاص حقهما • ويستخير الله
أمير المؤمنين في ذلك ويسأله العزيمة له على مافيه الخيرة لهما ولجميع
الأمة والقوة في أمر الله وحقه وائتلاف أهوائهما وصلاح ذات بينهما
وتحصينهما من كيد أعداء النعم ورد حسدهم ومكرهم وبغيهم وسعيهم
بالفساد بينهما • فعزم أمير المؤمنين على الشخوص بهما الى بيت الله وأخذ
البيعة منهما لأمر المؤمنين بالسمع والطاعة والانفاذ لأمره ... والأخذ
لكل واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين اجتماع إفتئهما
ومودتهما ومؤازرتهم ومكاتفتهما ... والجهاد لعدو المسلمين من كانوا
وحيث كانوا وقطع طمع كل عدو مظهر للعداوة ومسر لها • وكل منافق
ومارق وأهل الأهواء الضالة المضلة من تكيد بكيد توقعه بينهما ...
وما يلتبس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء دينه من الضرب بين الأمة
والسعي بالفساد في الأرض والدعاء الى البدع والضلالة ... نظراً من
أمير المؤمنين لدينه ورعيته ... وذبا عن سلطان الله الذي
قدره ... » (١) •

وهذه الوثيقة لا تكشف فقط عن مخاوف الرشيد القديمة
وتفكيره الدائم في صيانة العرش له ولأولاده ولكن تكشف أيضاً الأمر

(١) انظر النص الكامل لدى الطبري ج ٨ ص ٢٨٤ - ٢٨٥ (٣ / ٦٦٤)

- (٦٦٥) وانظر ص ٢٨٦ •

الأهم وهو وجود « جماعة » معينة وصفها الرشيد ثلاث مرات بأنها « أعداء النعم » كما وصفها بأنها من أهل الكفر والنفاق والغل والشقاق و « من أهل الأهواء الضالة المضلة » وأشار الى أن هؤلاء أعداء المسلمين وأن بعضهم يظهر العداوة وبعضهم يبطنها • كما ذكر أن هؤلاء كانوا يكيدون ويحسدون ويسكرون ويغفون ويسعون بالفساد بين الولدين • وأنه كان لهم « آمال » و « فرص » يرجون ادراكها وانتهازها من الولدين لا تقاوم حقهما • • •

وهذا كله يعني أن الرشيد كان مدركاً أن ثمة مؤامرة كاملة تدبر وأنها تستهدف ازاحة الآخرين مما للطلعة مرسح مكتوم لا شك أن الرشيد عرف من يكون •

وفي الوثيقة الى هذا وذاك ربط ما بين « كيد أعداء النعم » وبين الخطوات التي اتخذها الرشيد لمقاومتهم وهي الخطوات التي بدأت بمسير الرشيد بولديه الى الكمية والبيعة الموثقة لهما هناك في بيت الله المعظم وإشهاد تلك الجماعة الواسعة التي حاصها الرشيد منه عامداً الى الحج من أهل بيته ومن البرامكة ومن القضاة والقواد والناس وأخيراً إشهاد الرعية جميعاً في كل مكان وذلك بنية « قطع طمع كل عدو مظهر للعداوة أو مسر لها » وبنية إضفاء الطابع الديني والجماعي معاً لا على مراسم العهد وحدها فقط ولكن على ما سوف يتلوها من أعمال • • • لا شك أن منها الفتك بأعداء النعم هؤلاء • وقد ألمح الرشيد في الوثيقة نفسها الى أنه « كان يستخير الله ويسأله العزيمة في أمر الله وحقه • • • » لستخلص من هؤلاء الذين تكشف الوثيقة نفسها أنهم كانوا كابوس الرشيد وهاجسه المرعب •

ويستبين أمر هذه العزيمة من التوالي الزمني للأحداث : فقد علقت العهود في الكعبة في موسم الحج سنة ١٨٦ (حوالي عيد الأضحى العاشر

من ذي الحجة) ثم أرسلت الكتب الى العمال (بنص الوثيقة الذي ذكرنا
بعضه) في ٢٣ من المحرم سنة ١٨٧ أي بعد شهر ونصف من الحج هي
مسافة طريق العودة من الحج ما بين الحجاز والعراق . ثم قتل جعفر
البرمكي وبدأت النكبة بعد سبعة أيام من ذلك في أول ليلة من صفر
سنة ١٨٧ وهذا التوالي الزمني يرجح وجود العلاقة الأكيدة بين
الحادثين .

ولم يكن الشق الآخر من أصحاب المؤامرة المفترضة وهو عبد الملك
ابن صالح العباسي بالبعيد في ذلك الوقت نفسه لا عن ظنون الرشيد ولا
عن رقابته فان الطبري يورد في هذا الصدد خبرا نقله عن زيد بن علي بن
الحسين العلوي يقول ان عبد الله بن مالك صاحب شرطة الرشيد دخل
عليه لما حبس عبد الملك (اثر نكبة البرامكة) يقول له : لا ! والله العظيم
يا أمير المؤمنين ما علمت عبد الملك إلا فاصحاً فعلام حبسته ؟ قال : ويحك
بلغني عنه ما أوحشني ولم آمنه أن يضرب بين ابني هذين (يعني الأمين
والمأمون^(١)) ونستطيع أن نضيف الى هذا خبرين آخرين أوردهما
الطبري أيضاً :

الأول : أن الرشيد قبيل القبض على عبد الملك فاتحه فيما بلغه عنه
من قبل ابنه ومولاه ثم قال : أما أمرك فقد وضح ! ولكني لا أعجل
حتى أعلم الذي يرضي الله فيك . ثم دخل عبد الملك عليه في مجلس آخر
وسلم فلم يرد عليه السلام فلما طالبه يرد التحية (وهو فرض) قال
الرشيد : السلام عليك اقتداء بالسنة . ثم التفت نحو سليمان بن أبي
جعفر فقال وهو يخاطب بكلامه عبد الملك :

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٠٥ (٦٩٢/٢) .

أريد حياته ويريد قتلي... (البيت)^(١) .

الثاني : سؤال الرشيد ليحيى بن خالد البرمكي وهو في السجن
عن عبد الملك بن صالح الذي - كما قال - « أراد الخروج ومنازعتي في
الملك . وقد علمت ذلك . فأعلمني ما عندك ... » .

وإذا أضفنا الى هذا في النهاية أن الرشيد نفسه كان مريضاً
بالسرطان . وكان يداري علته ويخفيها ويحملها في جلده صابراً مكابراً ،
وضح التسلسل المنطقي كله للنكبة : فقد كان الرشيد يرى شبكة واسعة
من « أعداء النعم » البرامكة وعبد الملك العباسي . الأوائل « أهل الكفر
والنفاق والعداوة المستسرة والمكر والبغي والدعاء الى البدعة والضلالة
والأخير صاحب الغل والشقاق والحسد والمكر المنافق المارق وصاحب
الأهواء الضالة المضلة . وكان الطرفان يكيدان - بالاتفاق فيما بينهما
على الأرجح - ويسعيان بالفساد بين الأخوين ويعلان الآمال « بفرصة
يرجون إدراكها منهما باتتقاص حقهما » ولا شك أن هذه الفرصة المنتظرة
هي موت الرشيد الوشيك (بالمرض أو بالقتل) ثم ضرب الأخوين أحدهما
بالآخر لإزاحة الاثنين وتولية عبد الملك بدلاً منهما . وكان جواب الرشيد
على هذه المخططات التآمرية أنه نظم أولاً ولاية العهد للولدين وربطهما
بمقدسات المسلمين في الكعبة ثم بالشرعية العامة عن طريق البيعة أمام
القضاة والشهود والناس وفي الأمصار ولدى القواد . ثم ضرب ضربته
بعد ذلك بالشكل المفاجيء العنيف ليقطع الطريق على كل ردة فعل ويقطع
« طمع كل عدو » وأعطى هذه الضربة صورة الجهاد باعتبارها « ذباً عن
سلطان الله الذي قدره ... » .

(١) الطبري ج ٨ ص ٣٠٤ (٦٩٠/٣) والبيت معروف يقول :

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

ولعلل للمفاجأة وللعنف تفسيرهما أيضاً فإنه لم يكن ليغيب بكل تأكيد عن خاطر الرشيد ، على أي حال ، أن أخاه وأباه قد قتلوا في مؤامرات يلاطية كان هو نفسه مع والد البرامكة ضالعين فيها . ولم يكن ليغيب عنه سعة نفوذ البرامكة وكثرة أعوانهم المخلصين ومن حقه إذن أن يخشى الوقوع بدوره ضحية لمؤامرات من مثلها أو اغتيالات قد تدبر ضده . هذا الى أن مرضه المميت من شأنه أن يعطي تصرفاته صفة القسوة والانتقام الرهيب المتطرف . وهذا كله مما يفسر أنه ضرب ضربته وهو خارج بغداد ، في الأنبار ، ويفسر السرعة المفاجئة فيها ويفسر أخيراً هربه الدائم من بغداد الذي ذكره في البند التالي .

ثاني عشر : فتنة أمر هام



كشاف الأعلام

للجزء الاول

ابراهيم (النبي) ٧٩ ، ٢٨٩	آتيل ١٢
ابراهيم بن اسماعيل ٥٣٥	آثار البلاد (كتاب) ٢٨٩
ابراهيم بن الاغلب التميمي ٦٩٤	آدم ٢٨٩
٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨	آدم ميتز ١٧٨ ، ٣٨١ ، ٦٠٣
ابراهيم بن جبلة الكندي ٥٢٥	آارات (جبل) ٣٦٤
ابراهيم بن جعفر الحميري ٥١٩	آرال (بحيرة) ١٢ ، ١٣
ابراهيم بن الحسن الطائي ٣٦٣	الآرام (آرامية) ١٥ ، ١٦ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥
ابراهيم بن حميد الروزي ٢٣٢	آركولوف ٨٢
ابراهيم بن ذكوان الحراني ٤٢٢	آشوريين ١٥ ، ٣٢٥
٤٢٤ ، ٤٥٦ ، ٥٣٩	آشوط ٣٦١ ، ٣٦٢
ابراهيم بن صالح بن علي ٤٦٥	آمد ٣١٦ ، ٣٢٦ ، ٦٨١
٧٠١ ، ٧١٥ ، ٧١٦	آمل ١٢٢ ، ٢٤٨
ابراهيم بن العباس ٥٣٤	آن لوشان ٣٤٠ ، ٣٤٢
ابراهيم بن عبد الله الحسيني ٢٥٢	آهورامزدا (اله الخير الزراد شتي)
ابراهيم بن عبد الله المحض ٢١٥	٤٩٣
٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥	الاباضية ٣٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٨
٢٢٦ ، ٣٠٤ ، ٦٣١ ، ٦٦٣	٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٣٧٣
ابراهيم بن عبد الملك بن صالح العباسي	٦٩١
٤٦٠	ابان بن صدقة ٣١١ ، ٤١٩ ، ٤٢٤
ابراهيم بن محمد بن علي بن العباس	٥٣٧ ، ٥٥٩
(الامام) ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٣	ابان بن عطية الباهلي ٣١١
١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩	ابان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك
١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٩	١٩٩
١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٤	الابخاز ٣٣٣ ، ٣٥٦
١٦٢ ، ١٨٢ ، ٢٧١ ، ٤٤٢ ، ٤٥٨	

ابن عائشة (ابراهيم بن محمد بن
عبد الوهاب بن ابراهيم الامام) ٦٥١ ،

٦٥٢

ابراهيم المخزومي ٧٤

ابراهيم بن المهدي (ابن شكلة المرضي)

٣٨٥ ، ٤١٣ ، ٤٥٢ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ،

٥١٧ ، ٥١٨ ، ٦٠٤ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ،

٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٩٩ ، ٧٠٤ ، ٧١٢ ،

٧٢٤ ، ٧١٣

ابراهيم بن موسى بن جعفر ٥١٦

ابراهيم بن موسى الكاظم ٦٦٢

ابراهيم الموصلي ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٦ ،

ابراهيم بن الوليد ٧٦ ، ٧٧

ابراهيم بن يحيى البرمكي ٥٩٢

ابراهيم بن يسار النظام ٤٦

ابرويز بن الصمغان ٦٣٧

ابو بكر الازدي ٧٠ ، ٢٠٤ ، ٢١٤

الابناء (بنوي) ٦١٣ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ ،

٦٢١ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ،

الابواء ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦

ابيورد ١٢٢ ، ١٣٨ ، ٧٣٦

الابوردي ٢٠٦

ابن الاثير ٦٩ ، ١٤٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ،

٣٤٨ ، ٤٠٧ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٣٢ ،

٤٦٤ ، ٤٨٦ ، ٦٨٣ ، ٦٨٨ ، ٦٩٥

اجشم المروزي ٢٨٦

احسن التقاسيم (كتاب) ٢٠٤

احمد بن اسرائيل ٥٤٢

احمد بن حميد (ابن ابي العجائز)

٢٠٥

احمد بن حنبل ٣٨٥

احمد بن خابط ٤٦

احمد بن ابي خالد الاحول ٤٩٤ ،

٤٩٥ ، ٧٤٢

احمد بن الخصيب ٥٣٤ ، ٥٤٢

احمد بن رحيم اللخمي ٥١٧

احمد بن عبيد الله العنبري ٥٢٤

احمد بن عمر بن الخطاب الربيعي ٥١٦

احمد بن عيسى بن زيد الحسيني

٤٧٦ ، ٦٦١ ، ٦٧٠

احمد بن محمد العمري ٥١٩

احمد بن مزيد ٤٤٥ ، ٤٤٧ ،

احمد بن نهيك ٥٤١ ، ٥٤٢

احمد بن يوسف ٤٤٦

احمد بن يوسف بن القاسم (كاتب)

٤٩٥ ، ٥٣٥

البحر الاحمر ٨٢ ، ٣٤٦

الاحواز ١٥ ، ٤٠ ، ٦٨

الاحواض الواطئة ٢٣٢

اخبار بخاري (كتاب) ١٠٧

اخبار الدولة العباسية ٢٢ ، ١٠٠ ،

١٢٠ ، ١٢٨

اخبار القضاة (كتاب) ٥٧٠

الاختل ٢٨

الادارية ١٧٥ ، ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٦٠٧ ،

٦٦٨ ، ٦٩٥ ، ٦٩٩

ادب الكاتب ٥٣١

ادريس بن ادريس بن عبد الله المحض

٦٦٨

ادريس بن عبد الله المحض (العلوي)

٢١٧ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٩٨

٥٦٤ ، ٥٩٧ ، ٦٢٣ ، ٦٣٢ ، ٦٨١ ،
٦٨٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤
اروى بن منصور الحميري (أم موسى)
٣٨٧ ، ٣٠٤
أريحا ٧١٦
الازارقة ٣٧
أزدشير بابكان ٥٣١ ، ٥٣٢
الازدية ٩٦ ، ١٠٨ ، ١٣٧
الاسبان (اسبانية) ٣٧٧ ، ٣٨١
استاذ سيز ٢٦٣ ، ٢٦٩ ، ٢٨٦ ،
٢٨٧ ، ٣٠٠ ، ٣٨٧
استراخان (رأس طراخان) ٣٥٥ ،
٣٦٠
آستوريس ١٣
ابن اسحق ٣٨٧
اسحق البلخي ٤٥٧
اسحق بن ابراهيم بن صالح ٧١٦ ،
٧١٧
اسحق الترك ٢٨٠ ، ٢٨١
اسحق بن الفضل بن عبد الرحمن
٣٠٣ ، ٦٦٥
اسحق بن سليمان بن علي ٥٩١ ،
٤٦٣
اسحق بن علي بن عبد الله بن العباس
٧٠٧ ، ٧٢٥
اسحق بن مسلم العقيلي ١٩٨ ،
١٩٩ ، ٥٢٥
اسحق بن موسى بن المهدي (العباسي)
٦٥٠ ، ٦٧٥
اسحق الموصلي بن ابراهيم ٣٨٥ ،
٣٩٦ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣
بني أسد ٣٤

الادريسية (بنو ادريس) ٦٥٤ ،
٦٩٠ ، ٦٩٦ ، ٦٩٩
اذريجان ٣٨ ، ٦٩ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ،
٢١٠ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٥١ ،
٢٧٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٨ ،
٣٦٥ ، ٥١٦ ، ٥٥٠ ، ٥٥٤ ، ٥٥٦ ،
٥٥٩ ، ٥٦٣ ، ٥٩٧ ، ٦٣٢ ، ٦٨١ ،
٧٣٣ ، ٧٣٤
اذنة ٥١٧ ، ٦٢٣ ، ٦٤٠
بحر الروم (الابيض المتوسط) ١٢ ،
٢٤ ، ٥٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ،
٨٦ ، ٨٧ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ ،
٣٨١ ، ٧٠٠
آراجان ٧٣١
آران ٣٨٨
الاربلي ١٧٠ ، ٤٢٨ ، ٤٨٨
ارثوذكس ١٦
أرجيل ٣٦١ ، ٣٦٢
أردبيل ٢٢٨ ، ٢٧٥ ، ٢٩٥
الأردن ١١٥ ، ٣١٦ ، ٥١٧ ، ٥٩٧
أرزن ٦٨١
أرسطو ١٧٦
أرضروم ٣٦٨
أرمينية ١٢ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ،
٣٨ ، ٦٩ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ١٦٨ ، ١٩٨ ،
٢١٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٧٦ ، ٢٩٦ ،
٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣٢٤ ، ٣٣٣ ، ٣٥٥ ،
٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ،
٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧ ،
٤٥٩ ، ٥١٦ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ،
٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٩ ، ٥٦٣ ،

٢٤٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ،
 ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ،
 ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ،
 ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ،
 ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٩ ،
 ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ،
 ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ،
 ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ،
 ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ،
 ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،
 ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ،
 ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ،
 ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ،
 ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ،
 ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ ،
 ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ،
 ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤٢٨ ،
 ٤٤١ ، ٤٤٦ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ ، ٤٥٧ ،
 ٤٦٦ ، ٤٩٧ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٥ ،
 ٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥١١ ، ٥١٤ ، ٥٢٩ ،
 ٥٣٠ ، ٥٣٢ ، ٥٣٤ ، ٥٣٦ ، ٥٤٣ ،
 ٥٤٨ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٦٣ ،
 ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٧٠ ، ٥٧٣ ،
 ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ،
 ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٣ ،
 ٦٠٠ ، ٦١١ ، ٦١٤ ، ٦٢٠ ، ٦٢٨ ،
 ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٥ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ،
 ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ،
 ٦٦١ ، ٦٦٣ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٧٦ ،
 ٦٧٨ ، ٦٨٣ ، ٦٨٩ ، ٧٠٢ ، ٧٠٦ ،
 ٧١٠ ، ٧١٧ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٤ ،
 ٧٣٥ ، ٧٣٨ ، ٧٤١

اسد بن سامان ٧٣٩ ، ٧٤١
 اسد بن عبد الله القسري ٩٦ ، ١٠٩ ،
 ١٣٤
 اسد بن عبد الله بن هروان ١٠٧
 بني اسرائيل (اسرائيلية) (٢١) ،
 ١٥٢
 اسفنديار ٦٨٧
 الاسكندرونة (خليج) ١٢ ، ٣١٦ ،
 ٣٦٦
 الاسكندرية ١٥ ، ٨٢ ، ١٧٦ ، ٣٧٣ ،
 ٥١٧ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ،
 الاسلام ، الاسلامي ، اسلامية ،
 المسلمون ٥ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ،
 ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ،
 ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ،
 ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ،
 ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ،
 ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ،
 ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ،
 ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ ،
 ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٨ ،
 ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،
 ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،
 ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ،
 ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،
 ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ،
 ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،
 ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ،
 ١٨٥ ، ١٩١ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
 ٢٠٧ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨

الاصبع بن سفيان ٢٢٤
 الاصبهاني (ابو الفرج) ٢٠٦ ، ٢١٤ ،
 ٣٩٩ ، ٤٨٢ ، ٤٨٦ ، ٦٦٥ ، ٦٧١
 اصطخر ٣١٧
 الاصطخري ٢٧٦
 ابن اصفنديار ٢٩٦
 اصفهان ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٩٠ ، ٢٠٣ ،
 ٢٠٦ ، ٢٧٦ ، ٣١٧ ، ٥٩٧
 اصول الكافي (كتاب) ٢١
 الاصمعي ٣٨٥ ، ٤٠٤ ، ٥٣١
 الاطرافية ٦٨٩
 الاطلس ١٤ ، ١٧ ، ١٨
 الاطلسي (المحيط) ١٣
 الاعاجم (أعجمي) ٢٠ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ،
 ١٦٦ ، ١٦٨ ، ٢٣٦ ، ٢٥١ ، ٣٢٠ ،
 ٤٥٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٧٣ ،
 ٤٧٦ ، ٥٤٩ ، ٥٥٢ ، ٥٥٤ ، ٦٢٥ ،
 ٦٢٦ ، ٦٣٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨
 اعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع
 بني العباس (للاتليدي) ٤٦٨ ، ٤٦٤
 الاعمش ٤٥٢
 الاغالبية (الاغلبية) ١٧٨ ، ٣٣١ ،
 ٤٠٣ ، ٥٦٣ ، ٦٠٧ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ،
 ٦٩٥ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠
 الاغاني ١٤٠ ، ١٧٤ ، ٢٠٦ ، ٣٩٩
 الاغريقية ٥٣٣
 الاغلب بن سالم التميمي ٢٤١ ، ٣٧٦
 افريقيا (الافريقية) ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ،
 ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ،
 ٢٩ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٥٦ ، ٥٩ ،
 ٦٤ ، ٦٧ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٦

اسلم بن صبيح ١٢٢
 اسماعيل بن جعفر الصادق ٢٥٠ ،
 ٦٥٩ ، ٦٦٢
 اسماعيل بن ابي الخطاب الاسدي
 ٦٥٧
 اسماعيل بن صبيح ٤٢٢ ، ٤٦٤ ،
 ٥٣٧ ، ٥٣٩
 اسماعيل بن علي ٣١٣ ، ٣١٤
 اسماعيل بن علي الازدي ٥٢٧
 اسماعيل بن اليسع الكندي ٥٦٩
 الاسماعيلية (السبعة) ٦٦٢ ، ٦٦٣
 الاسماعيلية الصباحية ٦٦٣
 البحر الاسود ١٢ ، ١٣ ، ٨٣ ، ٨٤ ،
 ٣٤٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٥٥٤
 آسيا ١٣ ، ١٢٨ ، ٣٢٦ ، ٣٣١ ،
 ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٣٦٥ ،
 ٣٨٤ ، ٦٢٩ ، ٦٤١ ، ٧٣٣
 الاسياد ٦٧٨
 اسيوط ٧٠٢
 اشتراكية ٢٧١
 اشرس بن عبد الله السلامي ٥٩ ،
 ١٠٣ ، ١٠٦
 اشرو سنة ٣١٧ ، ٣٣٣ ، ٣٤٧ ،
 ٣٤٩ ، ٧٣٧
 ابن الاشعث عبد الرحمن ٢٢ ، ٥٨ ،
 ٩٢ ، ١١٦ ، ١٤٢
 ابن الاشعث (محمد بن الاشعث
 الخزاعي) ٢٣٢ ، ٢٤٠ ، ٢٥١ ،
 ٢٥٧ ، ٣٧٥ ، ٣٧٩ ، ٥٨٩ ، ٦٣١
 الاشعري ٣٠
 الاشمونيون ٥٩٧
 اشناس ٢٨٥ ، ٥٦١

٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ،
 ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ،
 ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ،
 ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ،
 ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٩ ،
 ٤٦١ ، ٤٧٣ ، ٤٨٠ ، ٤٨٣ ، ٤٨٦ ،
 ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥٤٧ ،
 ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٩٥ ، ٦٠٠ ، ٦٠٣ ،
 ٦٠٤ ، ٦١٩ ، ٦٢٥ ، ٦٣٠ ، ٦٤٥ ،
 ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٦٢ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ،
 ٦٨٩ ، ٦٩٨ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ،
 ٧٠٨ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٤ ،
 ٧٢٥ ، ٧٢٧ ، ٧٣٢ ، ٧٤١

امينة بنت علي ٢٦٢

الاموي ، الامويون الاموية ، بني امية
 ٩٠ ، ١٠٠ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١٧٠ ، ١٨٠ ، ١٩٠ ،
 ٢٢٠ ، ٢٣٠ ، ٢٥٠ ، ٢٦٠ ، ٢٧٠ ، ٢٨٠ ،
 ٢٩٠ ، ٣٠٠ ، ٣١٠ ، ٣٣٠ ، ٣٤٠ ، ٣٥٠ ،
 ٣٦٠ ، ٣٨٠ ، ٣٩٠ ، ٤٠٠ ، ٤١٠ ، ٤٢٠ ،
 ٤٣٠ ، ٤٤٠ ، ٤٧٠ ، ٤٨٠ ، ٤٩٠ ، ٥٠٠ ،
 ٥١٠ ، ٥٢٠ ، ٥٣٠ ، ٥٤٠ ، ٥٥٠ ، ٥٦٠ ،
 ٥٩٠ ، ٦١٠ ، ٦٢٠ ، ٦٣٠ ، ٦٤٠ ، ٦٥٠ ،
 ٦٦٠ ، ٦٧٠ ، ٦٨٠ ، ٦٩٠ ، ٧١٠ ، ٧٢٠ ، ٧٣٠ ، ٧٤٠ ،
 ٧٥٠ ، ٧٨٠ ، ٧٨٠ ، ٨٠٠ ، ٨١٠ ، ٨٣٠ ، ٨٥٠ ،
 ٨٦٠ ، ٨٧٠ ، ٨٨٠ ، ٨٩٠ ، ٩٠٠ ، ٩١٠ ،
 ٩٢٠ ، ٩٤٠ ، ٩٥٠ ، ٩٧٠ ، ٩٨٠ ، ٩٩٠ ،
 ١٠٠٠ ، ١٠٤٠ ، ١٠٥٠ ، ١٠٧٠ ، ١٠٨٠ ،
 ١٠٩٠ ، ١١١٠ ، ١١٣٠ ، ١١٥٠ ، ١١٦٠ ،
 ١١٧٠ ، ١١٩٠ ، ١٢٥٠ ، ١٢٦٠ ، ١٢٧٠ ،
 ١٣١٠ ، ١٣٣٠ ، ١٣٤٠ ، ١٣٨٠ ، ١٤٠٠ ،
 ١٤٣٠ ، ١٤٥٠ ، ١٤٧٠ ، ١٥٢٠ ، ١٥٣٠ ،
 ١٥٤٠ ، ١٥٥٠ ، ١٥٦٠ ، ١٥٧٠ ، ١٥٨٠

١٥٦ ، ١٧٥ ، ١٨١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٨ ،
 ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٦٩ ، ٣١٧ ،
 ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٤٣ ، ٣٧٠ ،
 ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ،
 ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٤٠٣ ، ٥٢٠ ، ٥٦٣ ،
 ٥٦٤ ، ٥٩٧ ، ٦٠٤ ، ٦٠٧ ، ٦٥٩ ،
 ٦٧٦ ، ٦٧٨ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ،
 ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٨ ،
 ٦٩٩ ، ٧٠٠

الافشين ٦٠٦ ، ٦١٣ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ،
 ٦٤٠ ، ٧٠٩ ، ٧١٠

افغانستان ٣١٧ ، ٦٨٦

افلح بن مالك الغزاري ٢٦٢

اقباتان ٣٢٦

ابن اعثم الكوفي ١٥٨

الاكاسرة ٤١٢ ، ٤٩٣ ، ٥١٣

الف ليلة وليلة ٣٨٦

المانيا ٣٨٤

الياس بن حبيب ٣٧٤ ، ٣٧٥

المقدم الياس ٢٠٠

امة العزيز ٤٢٦

الامامة والسياسة (كتاب) ٦٥ ،
 ٣١٣ ، ٤٢٠

الامامية (الاثني عشرية) ٦٥٤ ، ٦٥٦ ،
 ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ،
 ٦٦٣

امانويل (بطريق) ٧٣٠

نهر الامير (نهر الايسر) ٣٤٦

الامين (محمد بن هارون) ١٧٩ ،
 ٣٨٧ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ،
 ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١

٦٢٥ - دولة بني العباس ج ٢ - م ٤٠

الانبار ٢٦١ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٤٤٦ ،
٤٨٧ ، ٦٠٤

الاندلس الاندلسي ١٣ ، ١٤ ، ١٨ ،
٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٥١ ، ٦٧ ، ٨٢ ،
١٦٠ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ،
٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٣١ ،
٣٣٢ ، ٣٥٠ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ،
٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ،
٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ،
٥١٧ ، ٥٦٣ ، ٧٠٣ ، ٧٠٥

انساب آل ابي سفيان (كتاب) ٢٠٦ ،
الانصار ٢٢٠ ، ٢٩٢ ، ٥٢٢ ، ٦٢٤ ،
٦٥٨

انطاكية ١٥ ، ١٧٦ ، ٣١٦ ، ٦٤٠ ،
٧٣١

انطون اليسوعي ٤٦٥

انقرة ٦٢٦

انكلترا ٣٨٦

اوتامش ٦٣٦

اوراس ٣٨٣

اوربا (الاوربية) ١٣ ، ٨١ ، ٣٤٧ ،
٣٥٦ ، ٣٦٥ ، ٣٧٠ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤ ،
٥٥٧ ، ٦٤١ ، ٧٣٣

الاوردية ١٦

الاوزاع ٧١٧

الاوزاعي ٢٠٢ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٩ ،

اوغسطس ٣٨٦

اوق ٦٨٤ ، ٦٨٧

اومان ٦٤١

اويغوز (الغز الترك) ١٣ ، ٣٣٣ ،
٣٤٧ ، ٣٥١

الاهواز ٣٨ ، ١٩٠ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ،

١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ،

١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،

١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،

١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،

١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،

١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،

٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،

٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ ،

٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ ،

٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٦ ،

٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٩٣ ،

٢٩٥ ، ٣٠١ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١١ ،

٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ،

٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ،

٣٣٧ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ،

٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ،

٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ،

٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ،

٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٩١ ، ٣٩٦ ، ٤١٥ ،

٤٧٢ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ،

٥١٣ ، ٥٢٠ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ،

٥٣٦ ، ٥٣٩ ، ٥٤١ ، ٥٤٣ ، ٥٤٧ ،

٥٥٦ ، ٥٥٩ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٧٣ ،

٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٩ ، ٥٨١ ،

٥٨٥ ، ٥٨٧ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦٢٢ ،

٦٢٣ ، ٦٢٧ ، ٦٤٠ ، ٦٤٢ ، ٦٤٥ ،

٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٧٨ ، ٦٨٣ ، ٧٠١ ،

٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧٢٠ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ،

٧٢٤ ، ٧٢٦ ، ٧٢٨ ، ٧٣٥

اناضول ١٣ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٦ ،

انام ٣٣٩

إيطاليا ٨١ ، ٨٤ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤	٢٤٩ ، ٢٧٦ ، ٣١١ ، ٣٢٤ ، ٤٤٥
الايقونية ٢٧	٤٤٧ ، ٥٨٧ ، ٥٩٦ ، ٦١٠ ، ٦٧٣
اللايقونية ٢٧ ، ٣٦٧ ، ٤١٢	٦٧٦ ، ٧٢٦ ، ٧٣١
أيلة ٧.٨	أهن ٢٧٨
ايوان كسرى ٤٧٣	ايريا (ايرية) ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٧
ايوب ٧.٧	ايتاخ الخزري ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٦٠
ابو أيوب المورياني الخوزي ١٩٠ ،	٥٦١ ، ٦٣٦ ، ٦٤٠
٢١١ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ،	ايتيل ٣٥٥ ، ٣٥٦
٥٨٧	ايران ، ايرانية ، ايرانيون ١٣ ، ١٥
- ب -	١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤
الباب ٣٨٨	٣١ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٦١ ، ٩٣ ، ٩٥
بابك الخرمي ٢٦٩ ، ٥٤٦ ، ٦٣٤ ،	٩٦ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥
٦٤٠ ، ٦٣٧	١١٢ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣١
البابكية ١٨١ ، ٢٧٤	١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٧ ، ١٤٨
بابليين ١٥	١٥١ ، ١٥٣ ، ١٦٨ ، ١٨٠ ، ١٨١
باتيجور ٣٥٤	٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، ٢٤٥
باجة ٣٧٣ ، ٣٧٩	٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨
باخمي ١٧٤ ، ٢٢٦ ، ٣٩٦ ، ٦٦٧	٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦
نادية الشام ١٥ ، ٢٥٠ ، ٣٩٢	٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٩١
باذ غيس ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٦٨٤ ،	٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٣٠٠ ، ٣١٥ ، ٣١٧
٦٨٦	٣٢٠ ، ٣٣٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٦٥
بارتولد ١.١ ، ١٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٦٣ ،	٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٩
٢٨١ ، ٤٧٢ ، ٤٩٠	٤٥٠ ، ٤٧٢ ، ٤٩٠ ، ٥١٧ ، ٥٢٩
باركث ٢٤٨	٥٣٠ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٧ ، ٥٦٩
باطنية ٤٦٦ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٦٣	٥٨٤ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٤ ، ٦١٧
الباليار (جزر) ٨٥	٦١٩ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١
باميان ٣٤٧	٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٩٠ ، ٧٣٥ ، ٧٣٨
بامير (هضبة) ١٢ ، ٣٥٣	٧٤١ ، ٧٤٢
باهلة ٢٢٥ ، ٧٣٢	ايران تحت الحكم الساساني (كتاب)
	١٧٢
	الايسورية ٣٦٧

ماطوي من فضائلهم (كتاب) ٢٠٥

براون ٢٦٩

البربر ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ،

٦٠ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٢٧ ، ٢٣٨ ،

٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٣٣٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ،

٣٧٣ ، ٣٧٧ ، ٥٥١ ، ٦١١ ، ٦٣٠ ،

٦٤٢ ، ٦٩١ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٧٠٠ ،

٧٠٢

بردعة ٣٦٠

برصوما ٣٨٥ ، ٣٨٦

برقة ٣١٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٥ ، ٥١٧ ،

٥٩٧ ، ٦٠٦

بركليس ٣٨٦

البركوكية ٢٧٤

برمك ٢٧ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧

بروج ٣٣٥

بروكلمان ٢٦٣

البروليتارية ٦٣٨

بريكة الحروري ١٩٨

بريكة بن حميد الشيباني ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،

البرهمية (الهندية) ٣٢ ، ٣٣٨

البز ٣٥٨

بزر جهر ١٢٨ ، ٥٣١

البزيفية ٣١

الساسيري ٧٥

بسام بن ابراهيم العباسي ٢١٦ ،

٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،

بسام بن عبد الله الصوفي ٦٥٧

بست ٢٣٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨

البستان ٦٠٤

بسطام البيهسي ٣٩

باب واق ٣٦١

البشية ١٩٦

البجة ٥٥٥

بجلة ١٢٠

البحرين ٣٨ ، ٤٠ ، ١٨١ ، ٢٣١ ،

٣١٥ ، ٣٢٤ ، ٣٤٥ ، ٤٤٥ ، ٦٢٣ ،

بخارى ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٢٨ ،

١٧١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ،

٢٩٣ ، ٣١٧ ، ٣٥٤ ، ٣٨٩ ، ٥٥٧ ،

٦٨٣ ، ٧٣٧ ، ٧٣٩

بخار اخذات ٢٩١

ابو البختري (القاضي) ٥٦٧ ،

٥٦٩ ، ٦٦٩

بختيشوع ٣٠٦ ، ٣٨٥

البداة البدو ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨

براز ٢٨١

براق ٧١٧

البرامكة ٢٧ ، ٢٦٨ ، ٣١٠ ، ٤٠٠ ،

٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤١٢ ،

٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ،

٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ،

٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ،

٤٧٥ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ،

٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ،

٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ،

٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٥١٠ ، ٥٢٧ ، ٥٢٩ ،

٥٥١ ، ٥٦٠ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢ ، ٥٩٤ ،

٦١٩ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٨١ ، ٧١٩ ،

٧٣٧ ، ٧٣٩

البرانس (جبال) ١٣

البراهين في امامة الامويين ونشر

٢٢٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٨٧ ،
 ٢٨٨ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٣ ، ٣١٦ ،
 ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ،
 ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،
 ٣٣٣ ، ٣٣٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥٤ ، ٣٦٥ ،
 ٣٦٩ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ،
 ٣٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ،
 ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٧ ،
 ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٥ ، ٤٣٣ ،
 ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٢ ،
 ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ،
 ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ،
 ٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٧٧ ، ٤٨٠ ، ٤٨٤ ،
 ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩١ ،
 ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٦ ، ٥١٢ ، ٥١٢ ،
 ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥٣٦ ،
 ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٤١ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ،
 ٥٥٠ ، ٥٥٥ ، ٥٥٨ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ،
 ٥٦٤ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ،
 ٥٧٦ ، ٥٨١ ، ٥٨٤ ، ٥٨٦ ، ٥٩٢ ،
 ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٩ ، ٦٠١ ،
 ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ،
 ٦١٢ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ،
 ٦٢٣ ، ٦٢٥ ، ٦٣٠ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ،
 ٦٣٩ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ،
 ٦٥٢ ، ٦٥٤ ، ٦٦٠ ، ٦٦٥ ، ٦٦٨ ،
 ٦٦٩ ، ٦٧١ ، ٦٧٣ ، ٦٧٥ ، ٦٧٨ ،
 ٦٨٤ ، ٦٩١ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ،
 ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٨ ،
 ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ،
 ٧٢٠ ، ٧٢٢ ، ٧٢٤ ، ٧٢٦ ، ٧٢٩ ،
 ٧٣٠ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٨ ، ٧٤١ .

بسطام بن السلس الربعي ٥١٦
 بسطام بن عمرو ٣٣٦
 بشار بن برد ٢٠٤ ، ٣٩٤ ، ٤٥٥
 البشرد (قبط) ٧١٠
 بشير بن الليث ٧٣٩
 البشيرية ٣١
 بصرى ٧١٥ ، ٧١٨
 البصرة ١٨ ، ٢٦ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٣٨ ،
 ٤٠ ، ٤٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
 ٨٩ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٢٧ ، ١٥٣ ،
 ١٥٨ ، ١٧٧ ، ١٩٠ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ،
 ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ،
 ٣٠٤ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ،
 ٣٢٤ ، ٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ،
 ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٥ ، ٣٩٣ ،
 ٤٤٧ ، ٤٧٦ ، ٥٠٠ ، ٥١٢ ، ٥١٦ ،
 ٥٢٢ ، ٥٢٤ ، ٥٢٧ ، ٥٤٧ ، ٥٥١ ،
 ٥٧٠ ، ٥٩٣ ، ٥٩٧ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ،
 ٦٢١ ، ٦٣١ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ،
 ٦٦٣ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ،
 ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢
 البطائح ١٥ ، ٧٣٢
 ابن البطريق ٣٨٥
 البطيحة ٧٣٢
 بعلبك ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٥٨٢ ، ٧٢١
 البعوث ٦٣٥
 البعث بن حابس ٣٥٨
 بغا ٥٤٣ ، ٦٣٦
 بغداد (دار السلام المدورة الروحاء
 الزوراء) ٤ ، ٥ ، ١٠ ، ٨٦ ، ١٦٥ ،
 ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ،

بلخ ٩٦ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١٢٢ ،
 ١٣٤ ، ١٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،
 ٣٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩ ، ٥٥٧ ،
 ٦١٤
 البلدان (كتاب) ٥٥٠
 البلغار ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ،
 البلقاء ١٤٦ ، ٧١٧ ، ٧٢٠ ، ٧٢٣ ،
 البلقان ١٣ ، ١٩٦ ،
 بلكاش ١٣
 بلو جستان ٣٧١
 بلوشية ٢٦٣
 بندار ٢٠١ ، ٣٧٠ ،
 بتدلي جوزي ٥٦
 بنو بسنظام ٥١٧
 بها فريد (الفارسي) ١٢٦ ، ١٣٢ ،
 ١٥٢ ، ٢٤٦ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٨٢ ،
 ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٣٠٠ ،
 البها فريدي ٢٨٥
 ابن بهدل الشيباني ٦٩
 بهرامسيس ١٠١
 بهلول الخارجي ١٤٠
 البهلول بن راشد ٦٩٤
 بوج ٢٠٥
 بوذية ٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٨٣ ، ٣٣٩ ،
 ٣٤٧ ، ٤٥٧ ،
 بوران ٤٩٤ ، ٦٠٧ ،
 البوسفور ٣٩٨
 البوسية ٣٣٨
 بوشنج ١٣٨ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ،
 ٦٨٧
 بوصير ١٥٦
 بوقا ٧٣١

البغدادي (مؤلف الفرق بين الفرق)
 ٣٧٠ ، ٢٩٥ ، ٣٢٦ ، ٣٨٦ ،
 ٤٦٦ ، ٥٨٢
 بغراتوني ٣٦١ ، ٣٦٣ ،
 بغريفاند ٣٦٤
 بغيه الطلب ٤٥٨
 البقارطة ٥٥٥ ، ٥٦٤
 البقاع ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٧١٦ ،
 ٧٢٠ ، ٧٢١ ،
 البقط ٥٣٥
 بكار بن مسلم العضلي ١٩٨ ، ٢١٠ ،
 ٣٦٢ ،
 بكثوة ٢٠٥
 بكر ١٥ ، ٣٩ ، ٩٧ ، ١٣٦ ، ١٤٤ ،
 ٣١٦
 بكر بن حميد الشيباني ١٩٩
 ابو بكر الصديق ٦٧ ، ٦٧٠ ،
 بكر بن المعتز ٤١٠ ، ٤١١ ،
 ابو بكر الهذلي ٢٧٣ ، ٥٢٥ ،
 بكر بن ماهان ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،
 ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ،
 بيل ٥٧٥
 البلاذري ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٤ ، ٦٩ ،
 ٧٠ ، ١٠٦ ، ١٥٥ ، ٢٠٢ ، ٢١٠ ،
 ٢١٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٣٤٤ ،
 ٣٦٥ ، ٣٦٩ ، ٥٣٥ ، ٥٩٠ ، ٦٧٧ ،
 ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ،
 بلاس ٧١٧
 بلاط الشهداء ٣٨٠
 بلال الشاري ٦٨٢
 بلبيس ٧٠٨

البیما (قبط) ٧١٠
ابن بیهس الکلابي ٦٣٦ ، ٧٢٣ ،
٧٣٠
البیهسية ٣٧

ت

التاجیک ١٣٨
التاریخ وأخبار الامویین ومناقبهم
وذكر فضائلهم وماحدثوه من السير
في أيامهم ٢٠٥
تاریخ الرسل والأنبياء (كتاب) ٥٥٠
تاریخ الموصل ٧٠ ، ٥٨٤
تانغ (تنع) ١٣ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ،
٣٨٤ ، ٣٥٠ ، ٣٤١
تاهرت ٢٤٠
التبت ٣٣٣ ، ٣٤٧ ، ٧٣٨
التبر المسبوك ٤٨٨
تبریز ٣٥٨
تبوك ٣١٦
التر ١٦٣
تدمر ٦٨ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٤٩ ،
٣١٦ ، ٢٥٠
التركس (الترك الغربيون) ٣٥١
تركستان ١٢ ، ١٥ ، ٨٣ ، ٩٧ ،
١٠٥ ، ١١٢ ، ٢٦٣ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ،
٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ،
٣٧١
التركية ، الأتراك ، العز : ١٣ ، ١٥ ،
١٦ ، ٢٠ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٢ ،
١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ،
١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٩ ، ١٢٨ ،
١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٦٥ ، ١٦٨

بولان ٣٥٧
بولي (الارمني) ٣٦٧ ، ٣٦٨
البونية (حروب) ٢٩٤
بويط ٧٠٢
البويهی البويهون ١٦٥ ، ١٧٨ ،
٤١٣ ، ١٧٩
بیان بن سمعان ٣١
بیین ٣٨١ ، ٣٨٢
آل البيت : ١٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ،
٣٥ ، ٤٧ ، ٦٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ،
١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٦٩ ،
١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢٠٤ ، ٢٢١ ،
٢٦٦ ، ٣٠٥ ، ٤٠٢ ، ٥١٠ ، ٥١٦ ،
٥٥٠ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ،
٦٦٠ ، ٦٦٣ ، ٦٥٦
بیروت ٢٠٢
البيروني ٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٢٨٢ ،
٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٤٧٣
بیرین ٨٣
البيزنطية البيزنطيون بيزنطة ١٣ ،
٢١ ، ٢٦ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٦٨ ، ٨١ ،
٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ،
١٥١ ، ١٥٦ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،
١٧٨ ، ٢٠١ ، ٣٣٢ ، ٣٥٠ ، ٣٥٦ ،
٣٥٧ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ،
٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٩٨ ،
٤٠٢ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٥١٠ ، ٥٤٣ ،
٥٥٦ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٨٥ ، ٦٣٢ ،
٦٣٣ ، ٦٤٢ ، ٦٤٤ ، ٦٩٣
بیسان ٣١٦
بیكر ١٦٦ ، ٥٧٥
البیلقان ٢٢٨

تيلتز ٣٧٠
تيلير يغ ٣٧٠

ث

ثابت الخادم ٥٤٧ ، ٥٦٠
ثابت قطنة الازدي ٤٢ ، ١٠٧
ثابت بن نصر الخزاعي ٥١٧
ثابت بن نعيم الجذامي اليماني ٦٨
ابو عباد ثابت بن يحيى الرازي ٤٩٥
الثغر ٣٢٤
ثقيف (قبيلة) ٢٣٧ ، ٣٩٥ ، ٦٨٣
الثنوية ٢٨٣ ، ٥٣٠ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥
ثوابة بن سلامة اليماني ٣٧٦

ج

جابر بن الاشعث ٧٠٣
جابلق ١٤٧
باب الجابية ٧١٧
الجات ٧٣١
الجاحظ ٦٣ ، ٩٦ ، ١٦٦ ، ١٦٧
٣٢٨ ، ٣٨٥ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٤
٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٥٤ ، ٦١٣ ، ٦١٨
٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢٨ ، ٦٣٣ ، ٦٤١
الجاحظية ٤٦
ابن الجارود ٦٩
الجامع الأموي ٧٢٥
جب (المستشرق) ٤٨ ، ٢٦٣ ، ٥٢٣
الجبرية ٢٨ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠
جبريل بن يحيى البجلي : ٢٩٢ ، ٣٦٠
جبله بن سالم ١٧٦
الجبل ٥١٦ ، ٥٦٣ ، ٦٠٥ ، ٦٣٤

١٧٠ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ٢٣٥
٢٥١ ، ٢٦٣ ، ٢٨١ ، ٢٩١ ، ٢٩٢
٢٩٣ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠
٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥١
٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٤٠٦
٤٥٠ ، ٥٤٧ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١
٥٥٣ ، ٥٥٥ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٦٠٠
٦١٣ ، ٦١٩ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩
٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧
٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٦٧ ، ٧٠٩ ، ٧٣٧
٧٣٨ ، ٧٤٠

ترمد ١١٠

تغلب ١٥ ، ١٨٧

ابن تغري بردي ٤٩١

التغز غز ٣٤٧ ، ٧٣٨

تفليس ٢٣٠ ، ٣١٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤

تكرت ٢٣٠

تلفياتا (تلفيتا) ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧٢١

تلمسان ٢٣٩ ، ٢٤٠

تل منس ٥١٧

ابو تمام ١٦٧

تمام التميمي ٦٩٤ ، ٦٩٥

تمامة بن الوليد العبسي ٥٢٥

تميم ٩٧ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١٢٠ ، ٢٣٢

٢٠٦ ، ٢٣٢

التناسخ ٢٨٩ ، ٢٩٠

التنوخى ١٩٥

تنيس ٥١٧ ، ٥٩٧ ، ٧٠٥

تهامة ٦٧٦ ، ٧١١

التوابون ٣٤

تونس ٢٣٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٦٩٠ ، ٦٩٢

٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٧٠٠

٧٢٣ ، ٧٢٩ ، ٧٢٨ ، ٧٢٧
 جزيرة العرب (شبه جزيرة العرب)
 ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٧ ،
 ١٧٣ ، ٣١٦ ، ٤٠٣ ، ٥٠١
 الجزيرة العليا (في العراق) ١٥ ،
 ٦٩
 جستنيان الثاني ٨٤ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ،
 ٣٥٦ ، ٥٦٦
 الجعد بن درهم ٣١ ، ٤٦ ، ٧٩
 ابو جعفر عمر بن حفص العتكي المهلبى
 انظر عمر بن حفص
 آل جعفر ٦٥٣
 ام جعفر زوجة الرشيد ٣٨٦ ، ٤٢٨
 الجعفري ، الفرع الجعفري ، المذهب ،
 اتباع جعفر الصادق ٤٥٢ ، ٦٥٤
 جعفر بن حنظله البهراني ٥٢٥
 جعفر حفيد خالد البرمكي ٣١٨
 جعفر بن سليمان ٣١٤
 جعفر الصادق ٣٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،
 ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٥٠ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ،
 ٦٥٩ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣
 جعفر بن المنصور (الأصغر) ٣٠٤ ،
 ٤١٩
 جعفر بن الهادي ٤٢١ ، ٤٢٢ ،
 ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٣٥
 جعفر بن يحيى البرمكي ٣٩٨ ،
 ٤٠٥ ، ٤٢٩ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ،
 ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ،
 ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٤ ،
 ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ،
 ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ،
 ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٩٢

جبل لبنان ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،
 ٥٦٦
 جده ٣٤٦ ، ٤٨٢
 جديع بن علي الكرمانى (اليماني)
 الأزدي ٧ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٠ ،
 ١١١ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،
 ١٤٣ ، ١٤٥
 جذام ٢٠٧ ، ٧٠٣ ، ٧٠٦ ، ٧١٤
 الجرادبة ٦٣٠
 جرجان ١٠٤ ، ١٤٧ ، ٣١٧ ، ٣٩٦ ،
 ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٣٩ ، ٥٤٧ ،
 ٥٩٣ ، ٥٩٦ ، ٦٥٠
 جرجي زيدان ٤٦٤ ، ٤٦٥
 جرزان ٣٥٥
 جرش ٣٩٥
 جرير ٢٨
 جرير بن زيد البجلي ٢٦١
 الجزائر ٢٣٩
 الجزيرة ٢٠ ، ٢٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ،
 ٥١ ، ٥٢ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٧٣ ، ٧٤ ،
 ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ،
 ٩٢ ، ٩٩ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٨١ ،
 ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢١٣ ،
 ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٣١٤ ،
 ٣١٦ ، ٣٢٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ،
 ٣٦٦ ، ٤٠٥ ، ٤٣٢ ، ٤٣٨ ، ٤٤٨ ،
 ٤٤٩ ، ٤٩٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٤ ، ٥٣٨ ،
 ٥٥٠ ، ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٣ ،
 ٥٧٧ ، ٥٧٩ ، ٥٨٧ ، ٥٩٧ ، ٦٠٤ ،
 ٦٠٧ ، ٦١٠ ، ٦٢٣ ، ٦٢٥ ، ٦٣٥ ،
 ٦٤٠ ، ٦٤٧ ، ٦٧٤ ، ٦٧٨ ، ٦٨٠ ،
 ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٦

٦٤٦ ، ٦٩٥ ، ٧١٢ ، ٧١٩

جعونة بن الحارث بن قره ٢٠٢

جفار ٢٢٩

جلولاء ١٤٧

ابن ابي الجمل ٧٢٥ ، ٧٣٠

ابن جمهور ٢٥٧

الجناحية ٣١ ، ١٤٢

الجنيد بن خالد ٢٩٣

الجهشياري ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ١٤٦

١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٨٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨

٣١٠ ، ٣٢٥ ، ٣٩٧ ، ٤٢٠ ، ٤٣٤

٤٣٦ ، ٤٥١ ، ٤٥٥ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠

٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧

٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥

٤٧٨ ، ٤٨٠ ، ٤٨٩ ، ٤٩٣ ، ٥٤٠

٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٨١

٥٨٢ ، ٥٨٧ ، ٥٩٤ ، ٥٩٩ ، ٧٣٥

ابو الجهم بن عطيه الباهلي ١٥٠ ،

٢٥٧ ، ٢٦٤

الجهم بن صفوان ٤٦ ، ١١٠

الجهمية ٤٨ ، ١١٠

جهور العجلي بن امرار ٢٤٧ ، ٢٥٠

٢٥١ ، ٢٦٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١

جهينة (قبيلة) ٢٢٣

جورجيا ٥٤٧ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥

الجوزجان ١٠٨ ، ١٠٩ ، ٦٨٤

ابن الجوزي ٢٦٩ ، ٢٧٤

الجلولان ٧١٦

جوين ٦٨٧

جيبسي ٧٣٣

جيحون (حوض) ١٢ ، ١٠٥ ،

٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣١٧

جيفوية التركي الخر لخي ٧٤٠

جيلان ٢٩٩ ، ٥٩٧

ح

حاتم بن الحارث بن سريج ١٣٦

حاجب بن زرارة ٢٣٤

بني حارث ٢٦

الحارث بن سريج ٤٣ ، ٤٤ ، ٦٢ ،

٧٠ ، ٩٩ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،

١١١ ، ١١٢ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،

١٤٢

الحارث بن عبد الله الجمدي ٨٨

الحارث بن عبد المطلب ٣٠٣

الحارث بن مسكين ٧١٠

ابو حارثة الهندي ٥٨٣

الحاضر ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٦٦١

الحاكمية (الدرزية) ٦٦٢

الحامية الحامير ١٤ ، ١٥

الحباب بن رواحه الزهري ٣٧٧

ابن الحباب ٧٠٦

حبیب بن الجهم ٥١٦

الحبشة ١٦٠ ، ٣٨٤ ، ٦٣٠ ، ٦٥٨

أهل الحرية ٥١٧	حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب
حرجلة ٧٢١	الفهري ٢٣٩ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥
واقعة الحرة ٢١٨	آل حبيب الفهري الاسرة الفهرية ٢٣٨ ،
الحرم ، بيت الله ، المسجد الحرام	٢٣٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥
٦٦ ، ٣٩٣	حبيب بن مرة المري ١٩٦
أهل الحرمين ٥٩ ، ٢١٦	الحجاج ١٧ ، ٣٨ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ،
الحرورية ٩٧ ، ٩٩ ، ١٩٨ ، ٦٨٣	٦٠ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٨١ ، ٩٧ ،
الحريش (قراد) ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٧٣٦	١١٦ ، ١١٧ ، ١٧١ ، ١٧٧ ، ٢٣٢ ،
ابن حزم ٤٦ ، ١١٠ ، ٢٠٦	٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٣٢٨ ، ٧٣١
الحسام بن ضرار الكلبى أبو الخطار	الحجاج بن أرطاة النخعي ٣٢٧ ، ٥٢٥ ،
٣٧٢	الحجاز ٥٠ ، ٦٨ ، ١١٤ ، ١٥٣ ،
حسان بن مجاهد الوادعي ٢٣٠	١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٧ ، ١٩٧ ، ٢١٧ ،
حسان بن النعمان ٢٤٣	٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٧٨ ، ٣١٦ ، ٣٢٧ ،
الحسن ٣٣ ، ٥٩ ، ٦٥	٤٣٣ ، ٤٥١ ، ٤٩٦ ، ٥٠١ ، ٥١٢ ،
آل الحسن (السبط) ٢١٥ ، ٦٥٢ ،	٥١٦ ، ٥٢٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٧ ، ٥٦٩ ،
٦٥٤ ، ٦٥٦ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤	٥٩٧ ، ٦٢٤ ، ٦٣٥ ، ٦٦٤ ، ٦٦٩ ،
الحسن بن ابراهيم حفيد عبد الله	٦٧٠ ، ٦٧٦ ، ٧٠٨
المحض ٦٦٤	حجيرا ٧١٧
الحسن البصري ٤٥ ، ٦٦ ، ٥٣٢ ،	أهل الحديث ٤٨
٥٦٦	الحديث ٣٩٧
الحسن بن حبيب الكندي ٢٤١	حذيفة بن اليمان ٢٩٥
الحسن بن الحسن بن علي ١٧٤	حراق البهرائي ٥١٧
الحسن بن سعيد ٦٧٧	حران ٣٨ ، ٥١ ، ٧٧ ، ٨٥ ، ٩٠ ،
الحسن بن سهل ٤٥٢ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ،	١٣٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٦ ، ١٧٦ ،
٥١٦ ، ٥١٧ ، ٦٢٠ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ،	١٩٨ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢٧١ ،
٦٥٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٣ ، ٧١١ ، ٧٤١	ابن حرب ١٨٣
الحسن بن علي الباد عيسى (المأموني)	أبو حرب المبرقع اليماني ٢٠٣
٦٧٤	حرب بن عبد الله الراوندي البلخي
حسن بن أبي العمرطه ١٠٦	٣٦٠ ، ٦١٨
الحسن بن قحطبه الطائي ١٤٧ ،	حرب بن محمد بن علي الوصلي
١٥٧ ، ٢١٢ ، ٢٣٠ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،	الطائي ٦١٠

حلب ١٨ ، ١٩٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٧١ ، ٣١٦ ، ٣٦٨ ، ٣٩٤ ، ٥١٦ ، ٦٧٨ ، ٧٢٨ ،
 الحلبي بن مسعود الأزدي ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٦٧٦ ،
 الحلول ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،
 حلوان ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٣١٦ ، ٤٤٥ ، ٥٩٦ ، ٧٤٢ ،
 حماة ٥١٧ ،
 حماد البربري ٧١١ ،
 حماد التركي ٥٨١ ،
 حماد عجرد ٣٠٤ ، ٤٠٥ ،
 حمام عين ١٤٨ ، ٣١٠ ،
 حمدون السلمي ٧١٧ ،
 الخمراء ٢٥ ،
 الحمزية (مذهب) ٦٨٥ ،
 حمزة بن اترك (ادرك بن عبد الله بن الازرق) ٢٣٧ ، ٥١٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ،
 حمزة الاصفهاني ٢٨ ، ٢٩ ، ٦٤ ، ٥٥٠ ،
 ابو حمزة الخارجي المختار بن عوف الازدي السلمي ٤٠ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ١٤٠ ، ٢٣١ ،
 حمزة بن مالك الخزاعي ٦٨٠ ،
 حمص ٦٨ ، ٧٨ ، ١٥٦ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٣١٦ ، ٥١٧ ، ٥٨١ ، ٥٩٧ ، ٧١٧ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ،
 حمورابي ٣٢٥ ،
 حميد بن سعيد ٦٧٨ ،
 حميد بن عبد الحميد ٦٢٠ ،

٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٦٢٤ ، ٦٣٢ ،
 الحسن اللؤلؤي ٤٠٥ ،
 الحسن بن محمد (النفس الزكية) ٢١٧ ،
 الحسن الوصيف ٦٢٦ ،
 الحسين ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٩ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ٦٦٧ ،
 آل الحسين ٦٥٢ ، ٦٥٤ ، ٦٥٦ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ،
 الحسين بن جميل ٥٩٣ ، ٧٠٨ ،
 الحسين بن الحسن الافطس ٦٧٣ ، ٦٧٤ ،
 الحسين بن الضحاك ٤٠٩ ،
 الحسين بن علي بن الحسين بن الحسن ٣٩٦ ، ٤٢٣ ،
 الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب ٤٢٣ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ،
 الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٦٨٦ ،
 الحسين بن ابي المنصور ٦٦١ ،
 الحصين بن الرقاد ٢٣٧ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ،
 الحضارمة ٢٣٦ ،
 حضرموت ٤٠ ، ٦٨ ،
 حفص بن زياد ٧٠ ،
 ابو حفص الكناني ٧٠٤ ،
 حفصويه ٥٣٥ ،
 الحكم بن ضبعان ٢١٠ ،
 الحكم بن عبد الله ٢٢٤ ،
 الحكيم بن عبد الله ١٥٧ ،

خ

الخابطية (اصحاب احمد بن خابط)

٤٦

خارك ٣٤٥

خازم بن خزيمة التميمي الخراساني ٩٦

٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،

٢٥٢ ، ٢٨٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤ ، ٣١٤ ،

٣٨٧ ، ٦٢٤

خالد البرمكي ٢٥٨ ، ٢٩٦ ، ٣٠٩ ،

٣١٠ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٤٥٦ ،

٤٥٨ ، ٤٧٣ ، ٥٢٦ ، ٥٢٩ ، ٥٨٦ ،

خالد الذهلي (ابوداود) بن ابراهيم

الرقي ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ،

٢٨٠ ، ٣٥٣

خالد بن صفوان ٥٢٥

خالد بن عثمان ابو اسحق ١٢٢

خالد القسري بن عبد الله ٢٨ ، ٥٨ ،

٦١ ، ٦٩ ، ٧٥

خالد بن كثير ابو المغيرة ٢٥٤ ، ٢٥١ ،

خالد بن هشام الأموي (ابو عبد

الرحمن) ٢٠٥

خالد بن يزيد ١٧٦

خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ٥١٨

خالد بن يزيد بن معاذ ٢٠٦

خائقين ٤٤٥

الختل ٣٤٧ ، ٣٥٣ ، ٥٥٥ ، ٧٣٧

ختلان ١٣٨

خثعم ١٩٩

خدا بخش ٦٦ ، ١٧٧ ، ٤٦٥

عمار بن يزيد (خدش) ١٢٣ ، ١٢٤ ،

١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٨٢ ،

٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٨٨

حميد بن قحطبة الطائي الطوسي

١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٩٢ ،

٣٥٤ ، ٣٦٠ ، ٦١٨

حمير ١٤٢

السيد الحميري (الكيسان) اسماعيل

ابن محمد ٣٣٢ ، ٦٥٥

الحميمة ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ،

١٢٥ ، ١٤٦ ، ١٨٢ ، ١٩٠ ، ٣٨٧ ،

الحنابلة ٢٠٣ ، ٢٠٦

حنش بن السبل ٣٥٣

المذهب الحنفي ٥٦٨ ، ٥٦٩

بني حنيفة ١٢٠

ابو حنيفة النعمان (الامام) ٢٢٥ ،

٣٢٧ ، ٣٨٥ ، ٣٩٣ ، ٤٥٢ ، ٥٦٦ ،

٥٦٧ ، ٥٦٨

حنين بن اسحق ٣٨٥

الحواري بن حنطان التنوخي ٥١٧

الحواري بن مطرف ٦٧٨

حوران ١٩٦ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ،

٧٢٠ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤

اهل الحوف ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ،

٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩

الحوفيون ٥١٧

ابن حوقل ٥٥٨

الحيار ٥١٦

الحيرة ٣٩ ، ٦٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ،

٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٤٨١ ، ٤٨٦ ، ٥٦٥ ،

٥٧٦

الحيرية ١٨

نهر ابي الحيل ٦٠٢

حياة الحيوان الكبرى (كتاب) ٢٦

٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ،
 ٤٦٣ ، ٤٧٣ ، ٤٧٦ ، ٤٩٣ ، ٤٩٦ ،
 ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥١٢ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ،
 ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢٤ ، ٥٢٧ ، ٥٢٩ ،
 ٥٣٥ ، ٥٣٨ ، ٥٤٧ ، ٥٥٠ ، ٥٥٢ ،
 ٥٥٣ ، ٥٥٨ ، ٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ،
 ٥٧٠ ، ٥٧٧ ، ٥٨٢ ، ٥٨٦ ، ٥٩٠ ،
 ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٦٠٣ ،
 ٦٠٨ ، ٦١٢ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ،
 ٦٢٠ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٤٠ ، ٦٤٩ ،
 ٦٦٨ ، ٦٧٥ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٦ ،
 ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٧٢٦ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ،
 ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ،
 ٧٤٢

خراشه بن شيبان ٦٨١ ، ٦٨٢

خرس ٣٦

الخراخية (القلوق) ٣٤٧ ، ٣٥١ ،
 ٧٣٨

خرم ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٩٠ ،

خرمية ١٢٣ ، ١٥٢ ، ١٨١ ، ٢٦٣ ،
 ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ،
 ٢٧٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ،
 ٤٥٣ ، ٥٦٣

خرنباذ ٢٨٠

خزاعي ١٣٠

خزاعية ٩٦ ، ١٢٠ ، ١٣٨

الخزر (بحر ، مملكة) ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ،
 ٧٨ ، ٨٣ ، ١٥٣ ، ٢٩٥ ، ٣٣٣ ،
 ٣٣٤ ، ٣٤٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ،
 ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٨٤ ،
 ٦٠٠ ، ٦٣٤ ، ٦٥٩

الخزرجي ٢٣٦

الخداسية ٢٥٤ ، ٢٧٤

الخراج (كتاب) ٥٣١ ، ٥٨٤ ، ٦١٩ ،
 خراسان الخراسانية ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ،
 ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ،
 ٤٤ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٥٩ ،
 ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ،
 ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ،
 ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،
 ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٣ ،
 ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،
 ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،
 ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،
 ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤١ ،
 ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ،
 ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٤ ،
 ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ،
 ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،
 ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،
 ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ،
 ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ،
 ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ،
 ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،
 ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ،
 ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤ ، ٣٠٨ ،
 ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ،
 ٣٢٨ ، ٣٣٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥٥ ،
 ٣٥٨ ، ٣٦٣ ، ٣٧١ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ،
 ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ،
 ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤٣١ ،
 ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ،
 ٤٤٠ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٩

١٢٦ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٧١ ، ١٧٣ ،
 ١٨١ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،
 ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،
 ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،
 ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ،
 ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٦ ، ٢٦٧ ،
 ٢٦٨ ، ٣٦٢ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ،
 ٣٧٥ ، ٣٩٦ ، ٤٧٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ،
 ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٨٤ ، ٦٢٣ ، ٦٢٧ ،
 ٦٤٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ،
 ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٧ ،
 ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٥ ، ٦٩٨ ،
 ٦٩٩ ، ٧٠٢ ، ٧٢٩ ، ٧٣٣ ،
 خوارزم ١٢٢ ، ١٣٨ ، ٢٩٣ ، ٥٥٧ ،
 ٧٣٧

خوزستان ٣١٧

خير بن نعيم ٥٧٠

الخيزران بنت عطاء ٣٩١ ، ٣٩٥ ،
 ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤١٨ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ،
 ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦١ ،
 ٤٦٣ ، ٥٩٣

د

ابن داب ٣٩٦

دابق ١٩٨

دارا ١٩٨ ، ٢٢٨ ، ٦٨١

دار الحكمة ٤١٤

داريا ٧١٧ ، ٧٢٣

ابو داوود ٢٤٩

ابو داوود الشيباني ١٣٠

داوود بن علي ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٨٣ ،

١٨٤ ، ١٨٥ ، ٣١٣

داوود بن عيسى بن موسى ٤٤٧ ،

خزيمة بن خازم ٤٣٨ ، ٤٤٦

قصر الخضراء ٢٧٣ ، ٧١٤ ، ٧٢٠ ،
 ٧٢٢

ابو الخطاب الاسدي ٦٥٧ ، ٦٦٢

ابو الخطاب عبد الأعلى بن السمع

المعافري الاباضي ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٣٧٥

الخطاب بن وجه الفلس ٧٢٠

الخطابية ٣١

خطرية ١٢٧

ابو الخطيب مرزوق ٢٩٨ ، ٢٩٩ ،

٣١٤

خلاط ٦٨١

الخلجية ٢٩١

قصر الخلد (باب الذهب) ٤٢٦ ،

٤٧١ ، ٥١١ ، ٥١٢

ابن خلدون ٥١ ، ١٣٦ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ،

٤٦٧ ، ٤٧٤

خلف الخارجي ٦٨٦

الخلفاء الراشدون ٩ ، ١٤ ، ٤٩ ،

٦٦ ، ١٦٥ ، ٣١١ ، ٥٠٨ ، ٥١٠ ،

٥٧٦

ابن خلكان ٤٥ ، ١١٩ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،

١٢٩ ، ١٣١ ، ٢٨٩ ، ٤٥٧ ، ٤٧١ ،

٤٨٩

الخليج ٢٢٨

خليفة بن خياط ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ،

٣٤٦ ، ٥٥٠ ، ٥٧٠ ، ٦٧٩ ، ٦٨١ ،

الخليل بن احمد ٣٨٥

الخناقون ٣١

الخوارج ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،

٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٦٢ ، ٦٤ ،

٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٩٢ ،

٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ،
 ٧١٨ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ،
 ٧٢٤ ، ٧٣٠ ،
 دمياط ٥٩٧
 الدميري ٢٦ ، ٤٦٨ ،
 دنباوند ٢٩٧ ، ٥٥٤ ، ٥٩٧ ، ٦٣٧ ،
 دهلك ٧٥
 دهلي ٣٣٣
 الدوري ٢٧٢ ، ٣٢٦ ،
 دوساسي ١٤٠
 دومة ٧١٧
 الدون ٣٥٥ ، ٣٥٧ ،
 ديالي ١٥
 الديدبان ٧٢٢
 يوم الدير ٧٠٢
 دير الجاثليق ٢١٢
 دير مران ٧١٧
 دي غويا ٦٦
 ديلا فيدا ١٧٢
 الديلم ٢٦٧ ، ٢٧٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٧ ،
 ٦١٩ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٦ ،
 الديموطيقية ١٦
 دينار بن عبد الله ٦٧٥
 دينور ٢٧٦
 الدينوري ١١٥ ، ١١٩ ، ١٢٧ ، ١٣١ ،
 ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،
 ١٤٢ ، ١٥٧ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ،
 ٣٢١ ، ٤٦٥ ، ٦٣١ ، ٧٣٧ ،
 الدينبيبر ٣٥٥
 ديونيسيوس التلمحري ٥٥٨
 ذ
 ابن ابي ذئب ٥٦٧
 ذا بلستان ٢٣٥

٤٤٨ ، ٦٧٣
 داوود بن يزيد المهلبى ٦٠٧ ، ٦٩١
 داوود بن يزيد بن هبيرة ١٥٨
 دجلة ١٤٧ ، ٢١٢ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ،
 ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٨٨ ،
 ٤١١ ، ٤٤٦ ، ٥٥٧ ، ٥٦٠ ، ٥٩٦ ،
 ٦٠١ ، ٦٠٤
 دجيل ٣٨ ، ٦٠١
 دحية المرواني (دحية بن مصعب
 حفيد مروان بن الحكم الاموي) ٢٠٣ ،
 ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ،
 الدرافيديه ١٦
 دربند (الداغستان) ٣٥٦
 ابن درستويه ٥٣١
 درهم بن نصر ٦٩٠
 دعامة مولى اموي ٧٢٤
 دعبل الخزاعي (الشاعر) ٤١٤ ، ٦٥٥ ،
 دكن ٣٣٣
 ابو دلالة ١٢٨
 الدلائل ٥١٧ ، ٥٨٧ ، ٥٩٢ ، ٦٠٦ ،
 ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ،
 ٧٠٩
 ابو دلف العجلي ٥١٦
 دلوك ٢٠٩ ، ٣٦٨
 دليل بن يعقوب النصراني ٥٤٣
 دمشق ١٥ ، ١٨ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٤٥ ،
 ٥٠ ، ٥١ ، ٦٨ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ،
 ٧٧ ، ٨٢ ، ٩٨ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
 ١٣٥ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٧٤ ،
 ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
 ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٣٢١ ، ٣٩٢ ، ٥١٧ ،
 ٥٢٤ ، ٥٤١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٦ ، ٥٧٦ ،
 ٥٩٧ ، ٦٠٧ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦٢١ ،

رياح غلام يحيى البرمكي ٤٧٦
 ربيعة بنت ابي العباس ٣٨٨
 ربيعة بنت عبد الله الحارثية أم ابي
 العباس ١٨٢
 زيتو ٣٨٢

الري ١٤٧ ، ١٨٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٧ ،
 ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٧٥ ،
 ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٧ ، ٢٩٦ ،
 ٣٠٥ ، ٣١٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ ،
 ٤٠٩ ، ٤٤٤ ، ٤٥٨ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ،
 ٥٥٤ ، ٥٥٧ ، ٥٩٧ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ،
 ٦٣١ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٧٦

ز

الزاب ١٥ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٠ ،
 ٨٧ ، ١٥٥ ، ١٧٩ ، ١٩٩ ، ٢٠٥ ،
 ٢٦٠ ، ٦٨١

زابليستان ٦٨٧

الزارادشتية ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٤ ،
 ٢٧ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ٢٠٦ ، ٢٣٢ ،
 ٢٣٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،
 ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ،
 ٣٤٧ ، ٣٥٦ ، ٤٢٢ ، ٤٥٧ ، ٥٦٨ ،
 زبيد ٥١٩ ، ٧١١

زبيدة زوج الرشيد ٣٩٨ ، ٤٠٤ ،
 ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤٢٢ ، ٤٣٤ ،
 ٤٤٣ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٤٧٣ ، ٤٧٨ ،
 زبيدة بنت منير (مرضعة الرشيد)
 ٤٨٠

زرنج ٢٣٢ ، ٢٣٧ ، ٦٨٧ ،
 الزط (النور) ١٥ ، ٢٢٥ ، ٣٣٣ ،

الرقعة ١٩٨ ، ٣١٦ ، ٣٢٤ ، ٣٨٨ ،
 ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ،
 ٤٨٨ ، ٥١٨ ، ٥٥٨ ، ٥٧١ ، ٦٠٩ ،
 ٦١٠ ، ٧١٨ ، ٧٢٤ ، ٧٢٦ ، ٧٢٨ ،
 ٧٤١

ابن الرقيق ٦٩٨

رمقة ٢٢٤

الرملة ٣١٦

رها ١٩٨

الرواد بن المثنى ٣٥٨

الرواقيون ٤٠٤

الرويان ٤٧٧ ، ٥٩٧

روح بن حاتم ٦٩١

روسيه (الروس) ٧٨ ، ٣٣٣ ، ٣٥٦ ،
 ٦٣٠

الروم الرومان ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ،
 ١٦ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ٥٤ ، ٦٨ ، ٨٠ ،
 ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٧٥ ،
 ١٧٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٩ ، ٢٥١ ، ٣٢١ ،
 ٣٢٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ،
 ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ،
 ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٨٦ ، ٣٩٤ ،
 ٣٩٨ ، ٤١٤ ، ٤١٨ ، ٤٨٨ ، ٥٤٣ ،
 ٥٤٦ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٦٤ ، ٥٦٦ ،
 ٥٨٧ ، ٦٠٠ ، ٦٠٩ ، ٦١٩ ، ٦٢٣ ،
 ٦٢٤ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٣٢ ، ٦٣٤ ،
 ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٤٠ ، ٦٤٤ ، ٦٩٤ ،
 ٧٠٠ ، ٧٠٩ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ،
 ٧٣٣

رياح بن عثمان بن حيان المري ٢٠١ ،
 ٢١٨ ، ٢١٩

الزبدون (الزبدية) ٣١ ، ٢٢٥ ،
 ٣٣٥ ، ٣٩١ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٦٥٤ ،
 ٦٥٦ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ،
 زيد بن علي بن الحسين بن علي بن
 ابي طالب ٣١ ، ٣٤ ، ٦٣ ، ١٤٢ ،
 زيد بن موسى الكاظم بن جعفر
 الصادق زيد النار ٥١٦ ، ٦٦٢ ،
 ٦٧٤

زيرك التركي ٦٣٢ ، ٦٣٦ ،
 زير (سين) ٣٥٨ ، ٣٦٠ ،
 زين العابدين ٦٥٦

س

الساسانية الساسانيون ٢١ ، ٢٦ ،
 ٥٦ ، ٨٢ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ٢٦٠ ،
 ٢٩٥ ، ٣٠٩ ، ٣٣٢ ، ٣٤٧ ، ٣٥٥ ،
 ٣٦١ ، ٣٦٥ ، ٤١٢ ، ٤٧٣ ، ٤٩٣ ،
 ٥٣١ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٤٣ ، ٥٥٦ ،
 ٥٦٨ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٨٣ ، ٥٨٥ ،
 ٥٨٧ ، ٦٤٤ ، ٧٣١ ،
 ابن الساعي ٦٦٤ ،
 سالم بن جبلة ١٧٦ ،
 السامانيه ٤١٣ ، ٧٤١ ،
 سامراء ٨٦ ، ٣١٦ ، ٥١٤ ، ٥٤٢ ،
 ٥٥٨ ، ٥٦١ ، ٦٣٠ ، ٦٩٦ ، ٧٠٥ ،
 ساوة ١٤٥

ساويرس بن المقفع ٥٧٩ ، ٥٨٧ ،
 السبئية ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٢٧١ ،
 سبخة - تونس (شط الجريد) ٦٩٧ ،
 سجستان ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٢٢٧ ،
 ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،
 ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٥٢ ،

٧٢٨ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ،

زفر بن عاصم الهلبي ٢١٠ ،
 زلزل ٣٨٥ ، ٣٨٦ ،
 زملكا ٧١٧

زناتة ٢٤١

زنجاريا ٣٣٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ ،
 زنجبار ٦٧٨

الزنجية الزنج ١٥ ، ٢٢ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
 ١٦٨ ، ٢٢٥ ، ٦٢٩ ، ٦٣٤ ، ٧٣٢ ،
 الزندقة الزنادقة ٤٧ ، ١٧٥ ، ١٨١ ،
 ٢٥٥ ، ٣٠٤ ، ٣٨٥ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ،
 ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٥٣٠ ،

الزهري (فقيه) ٢٦

الزواويل ٧٢٤

زياد بن ابيه ٩٧

زياد بن أبي سفيان ٧١١

زياد بن الاصغر ٣٧ ، ٢٣٩ ،

زياد بن صالح الحارثي (الخزاعي)

١٥٧ ، ١٩٧ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،
 ٢٥٨ ، ٣٤٨ ، ٣٥٤ ،

زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية

ابو محمد السفياني ٩٠ ، ١٩٦ ،

١٩٧ ، ٢٤٩ ،

زياد بن عمرو ٦٩

زيادة بن عبد الله الحارثي ٢١٨

زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب ٦٩٩ ،
 ٧٠٠

زيادة الله الاخير (الاغلب) ٧٠٠

الزيادية (دولة) آل زياد ٧١١

زيد ٥١٦

سفيدنج ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٢
 سفيان الثوري ٢٢٥ ، ٤٥٢ ، ٥٦٧
 سفيان بن عبد الملك الخولاني ٦١٠
 سفيان بن معاوية المهلب الملهبي ١٥٨ ، ٢٢٥
 السفياني السفيانية ٢٩ ، ٩٤ ، ٧٢
 ٧٦ ، ٩٠ ، ١٩٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥
 ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٧١٩ ، ٧٢٧
 السفيح بن عمرو التغلبي ٣٣٦
 السكاسك ١٥٥
 السكون ٥٥
 السلافي ٣٥٦
 سلامة الابرش ٤٢٥
 سلامة البربرية ام المنصور ١٨٢ ، ١٨٩
 السلجوقي ١٦٥ ، ١٧٨
 سلس ٣٨١
 السلسلة ١٥٦
 سلم الخاسر ٣٩٦
 سلم بن قتيبة الباهلي ١٥٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٥٢٥
 سلمة بن خالد ١٨٧
 ابو سلمة الخلال (حفص بن سليمان)
 ١٢٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٨٦ ، ٢١٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٦ ، ٣١٠ ، ٣١٣ ، ٤٥٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٢
 سلمة بن سعيد النصراني ٥٤٣
 سلمية ٧٢٥
 سليط بن عبد الله بن العباسي ٢٦٢ ، ٢٧٤

٢٦٧ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٣٣٣
 ٣٤٧ ، ٤٩٧ ، ٥٥٠ ، ٥٥٥ ، ٥٥٨
 ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٩٦ ، ٦٢٣ ، ٦٣٧
 ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٧١٥
 سجماسة ٢٣٩ ، ٢٤٠
 سخا (قبط) ٧١٠
 سرت ٣٧٥
 ابن السرج ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٣٠
 سرخس ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٥
 ٢٤٩ ، ٤٩٤ ، ٦٥٠ ، ٧٣٦
 جزر سردينية ٨٥ ، ٨٦ ، ٣٧٣
 سرقسطه ٣٧٧
 سروج ٧٣٠
 السري بن الحكم ٥١٧ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤
 الأصفر (ابو السرايا) السري بن منصور الشيباني ٥١٦ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤
 السريان (السريانية) ١٥ ، ١٦ ، ١٧٦ ، ٣٢٥ ، ٧٢٧ ، ٧٢٩
 السير ٣٣٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦
 سزست (سرشت) ٣٤٤
 ابن سعد ٨٩
 سعيد بن مجدل الشيباني ٣٩
 سعيد الحرشي بن عمرو ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٥٤٧ ، ٥٨٦
 سعيد بن خالد السفياني ٢٠٣
 سعيد بن خالد العثماني ٧٢٣
 سعيد الخفقاني ٥٦٠
 سعيد بن عبد الله ٣٦٧
 سعيد بن المسيب ٨٩

٤٠ ، ١٢١ ، ١٦٨ ، ٢١٧ ، ٢٣١ ،
 ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٣١٧ ، ٣٣٣ ،
 ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥١ ،
 ٣٦١ ، ٣٨٤ ، ٥٥٠ ، ٥٥٥ ، ٥٦٠ ،
 ٥٦٣ ، ٥٩٦ ، ٦٠٧ ، ٦٣٠ ، ٧٣١ ،
 السندي (وصيف ابي جعفر المنصور)
 ٢٢٦

السندي بن شاهك ٤١٠ ، ٤٦٤ ،
 ٤٨٠ ، ٦٦٠

السنسكريتية ١٦

سنغافورة ٣٣٦

السني (النبوي ، السنة ، سنة

الرسول) ١٠ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٣ ،
 ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ١٠١ ، ١٠٨ ، ١٢١ ،
 ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥١ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،
 ١٨٣ ، ١٨٥ ، ٢٤٦ ، ٤٧٢ ، ٤٩٩ ،
 ٥٠١ ، ٥٢٤ ، ٥٣٢ ، ٥٥٤ ، ٥٦٥ ،
 ٥٦٩ ، ٦١٦ ، ٦٥٥ ، ٦٦٣ ، ٦٧٢ ،
 ٦٨٩ ، ٦٧٩

بنسي سهل ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٦٧ ،
 ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٥٢٩ ،
 ٦٧٠

سهل بن سلامة المطوعي ٤١٣

سهل بن هارون ٤٦٢

السواد ٣٢٤ ، ٥٤٠ ، ٥٧٧ ، ٥٧٩ ،
 ٥٨١ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ،
 ٥٨٨ ، ٥٩١ ، ٥٩٦ ، ٦٠١ ، ٦٠٥ ،
 ٦٥١ ، ٦٨١ ، ٧٣٠ ، ٧٤٠

سوتسونغ ٣٤٠

السودان ٢٢٤ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ،
 ٦٩٧

بنسليم ١٥٥

سليمان (جبال) ١٢

سليمان بن ابي جعفر المنصور ٧٢٠

سليمان الخزاعي ابن كثير ١٠١ ،

١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ،

١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٤٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ،

٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢

سليمان بن عبد الملك ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٩ ،

١١٤ ، ١١٧ ، ٢٩٥

سليمان بن علي ٢١٣ ، ٢١٣ ، ٣١٤ ،

سليمان بن هشام بن عبد الملك ٥١ ،

٦٨

سليمان بن وهب ٥٤٢ ، ٥٤٣ ،

سمياط بن آشوط ٣٦٢ ، ٣٦٤ ،

سمرقند ١٠١ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١٣٤ ،

٢٩٣ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ،

٣٥٩ ، ٤٧٨ ، ٥٥٧ ، ٦٥٩ ، ٦٨٨ ،

٧٣٨ ، ٧٤٠ ، ٧٤١

بنو السمط ٥١٧

السمطية ٦٦٢

سمعان ابن اخت المقدم الياس ٢٠١

سملق ٧٣٢

سمندر ٣٥٦

سميساط ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢١٠ ،

٢٦٩ ، ٧٢٨ ، ٧٣٠

سنان ٥١٦

سنياد سنيادة ٢٥٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٩ ،

٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،

٢٩٦ ، ٣٠٠

سنجرد ١٢٧

السند ١٢ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ،

٥٢ ، ٥٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ،
 ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ،
 ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ،
 ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٩ ،
 ١٠٩ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٤٠ ،
 ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،
 ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ،
 ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ،
 ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،
 ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ،
 ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،
 ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ،
 ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
 ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٥٠ ،
 ٢٥١ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ،
 ٢٦٦ ، ٢٧٢ ، ٢٨٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ،
 ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٣ ، ٤٤٨ ، ٤٦٠ ،
 ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٦ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ،
 ٥١٢ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢٤ ،
 ٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٣٨ ، ٥٤٧ ، ٥٤٩ ،
 ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٦ ، ٥٦٣ ،
 ٥٦٩ ، ٥٧٧ ، ٥٧٩ ، ٥٨١ ، ٥٨٤ ،
 ٥٩٨ ، ٦٠٤ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ،
 ٦١٠ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٣٢ ،
 ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٤٠ ، ٦٤٧ ، ٧١١ ،
 ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ،
 ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢٣ ،
 ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ،
 ٧٣٠ ،
 شاهك ٦٣٦
 شيعا ٧٢٢

سورية ٨٥ ، ٨٦ ، ١٧٣ ، ٢٦٥ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧١ ،
 سوسة ٦٩٣ ، ٧٠٠ ،
 سوق البقر ٢٢٥ ،
 سوياب ٢٤٨ ،
 سياسة نامه (كتاب) ٢٧٥ ،
 سيام (بسباب) ١٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ،
 سيحون (نهر) ١٢ ، ١٠٥ ،
 السيد بن انس ٥١٦ ،
 السير الكبير (كتاب) ٥٧٠ ،
 السيرة النبوية (كتاب) ٢٨٧ ،
 السيسانية ٢٨٧ ،
 سيف البحر ٦٥٩ ،
 سيف بن بكير ٦٨٢ ،
 سيف بن عمر ٢٢ ،
 سيناء ١٥٦ ،
 سي نقان فو ٣٤٠ ،
 السيوطي ١٨٧ ، ١٩٢ ، ٢٨٦ ،
 ٢٨٦ ، ٣١٤

شي

شارل مارتل ١٣ ، ٢٨٠ ،
 شارلمان ٢٨٤ ،
 الشاش ٣١٧ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٥٥٥ ،
 ٧٢٨ ، ٧٢٧ ،
 الشافعي ٢٨٥ ،
 اولاد شاكرا ٢٨٥ ،
 الشاكرية ٢٧ ، ٣٥٣ ، ٤٥٧ ، ٥٢٠ ،
 ٦٣٥ ،
 الشام ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ،
 ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ،
 ٢٩ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٥١ ،

الشعبي ٥٣٢ ، ٥٦٦ ، ٥٦٩ ،
 الشعوبية ٢٤ ، ٣٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ،
 ١٧٥ ، ١٨١ ، ٢٦٨ ، ٣٥٥ ، ٤٩٣ ،
 ٥٣٣ ، ٥٣٥ ،
 شكلة ٦٤٨ ،
 الشماسية ٣٢٥ ،
 شهر زور ٦٩ ، ١٤٨ ، ١٥٣ ، ٥٩٧ ،
 الشهرستاني ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٥ ،
 ٤٦ ، ٦٤ ، ٢٧٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ،
 ٢٩٠ ،
 الشيور (٢٠) ،
 شيبان (قبيلة) ٣٩ ، ١٢٠ ، ١٣٦ ،
 ١٤٧ ، ٢٣٥ ، ٦٢٣ ،
 الشيباني ٣٨٥ ، ٦٣٦ ،
 شيبان بن سلمة الصغير الحروري
 (الخارجي) ٤٠ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،
 ١٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ،
 شيبان بن عبد العزيز الشكري ٤٠ ،
 ٦٩ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
 الشيباني محمد بن الحسن ٥٦٧ ،
 ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ،
 الشيخان ابو بكر وعمر ٥١٣ ، ٥١٤ ،
 ٥٦٧ ،
 شيراز ٣١٧ ،
 الشيعة (التشيع) ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ،
 ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٨ ، ٦٤ ، ٦٥ ،
 ٦٦ ، ٦٧ ، ٧١ ، ١٠٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ،
 ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٢ ،
 ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٦ ، ١٧٣ ، ١٩٤ ،
 ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٦٣ ،
 ٢٦٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٩١ ،

شبل بن طهمان ١٠٤ ،
 شبيب بن واج المرو دروزي ٦٨٠ ،
 بني شجاع ٢٢٣ ،
 شبرات الذهب (كتاب) ٤٧٤ ،
 الشراة ٣١٦ ، ٦٧٧ ، ٧٠٢ ،
 الشرط والحياة (كتاب) ٤٩٢ ،
 الشرفي بن القطامي ٥٢٥ ،
 الشرق ، المشرق ، الشرق الاوسط /
 الاقصى ١٣ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٤٤ ، ٦٥ ،
 ٨٥ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ،
 ١٤٦ ، ١٥٢ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ،
 ١٨١ ، ٢٠٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٩ ، ٢٥٢ ،
 ٢٧٥ ، ٢٢١ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ،
 ٢٣٧ ، ٢٤٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ،
 ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ،
 ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٩٥ ، ٥٤٠ ، ٥٥٧ ،
 ٥٦٣ ، ٥٩٨ ، ٦١٠ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ،
 ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٦٥ ،
 ٦٦٨ ، ٦٨٣ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ،
 الشرك المشركون ٤٢ ، ١٠٣ ، ١١١ ،
 ٦٨٥ ،
 شروان (باكو) ٣٦٠ ، ٣٦٢ ،
 شروان بن سيف ٦٨٢ ،
 الشروطيون ٥٧٣ ،
 شريك ١٧١ ،
 شريك بن شيخ المهري ٢١٦ ، ٢٤٧ ،
 ٢٤٨ ، ٢٥٠ ،
 الشطارين ٦٤٩ ،
 شط العرب (دجلة البصرة) ٣٤٥ ،
 ٣٤٦ ،

٤٥١ ، ٤٧٢ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ ، ٦٥٣ ،
٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٦١ ، ٦٦٣ ، ٦٦٦ ،
٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٧١٠

ص

الصائبة ٣٢

صالح بن شيرازاد ٦٠٦ ، ٧٠٨ ،
صالح بن طريف ابو الصيداء ١٠٤ ،
١٠٦

صالح بن علي بن عبد الله بن العباس
١٥٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١١ ، ٢٠٢ ،
٣١٤ ، ٣٦٨ ، ٤٨٥ ، ٥٢٣ ، ٦٤٦ ،
٦٤٧ ، ٧١٢

الصحابه (الخاصة) ٥٢٠ ، ٥٢١ ،
٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ،
٥٢٦ ، ٥٢٧

الصحصح الخارجي ٦٨٠ ، ٦٨١ ،
صدفي ١٢٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ،
٢٨١ ، ٢٧٩

الصعيد ٥١٧ ، ٧٠١ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ،
٧٠٦

الصغانيان ١٣٨ ، ٧٣٧ ،
الصغد ٥٩ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٢٤٨ ،
٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٣١٧ ، ٣٢٣ ، ٣٤٧ ،
٣٥٤ ، ٥٥٥ ، ٦٨٧

ابن أبي الصقر ٧٢٥ ، ٧٣٠ ،
الصفرية الصفارية آل الصفار ٣٧ ،
٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ،
٣٧٣ ، ٤١٣ ، ٦٩٠

الصفر بن الليث العتبي ٣٥٨ ،
صفين ٣٦ ، ١٤١ ، ٤٤٤ ، ٧٢٠ ،
الصقالبة ٣٥٦ ، ٦٣٠ ، ٦٣٤ ،
حقله ٨٦ ، ٣٣١ ، ٣٧٣ ، ٦٩٣

٦٩٤ ، ٧٠٠

الصلة (نهر) ٦٠٢

الصميل بن حاتم (المولى الاموي)
٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨

الصنارية ٣٣٣ ، ٣٥٥ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ،
صنعاء ٤١ ، ٣١٦ ، ٧١١

صنعة الكتابة ٥٣١

صور ٣١٦

الصوفية ٦٣٥ ، ٧٠٤

صيدا ٣١٦ ، ٧٢٠

الصين ٤ ، ١٣ ، ٨٣ ، ١٠٥ ، ٢٨٢ ،
٣٢٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ،
٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ،
٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٩٤ ،
٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٨ ،
٣٦٥ ، ٣٨٤ ، ٤٥٧ ، ٥٣٠ ، ٦٤٤

ض

الضحالك بن قيس الشيباني ٣٩ -
٤٠ ، ٦٩ ، ٢٢٨

ط

الطائية ٩٦

الطائيون ٧٢٩

طاران ٣٥٤

طارق بن زياد ٦٧

طارق (جبل) ١٢

قلعة الطاق ٢٩٨ ، ٢٩٩

الطالقان ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٣٨ ، ٦٨٣

آل طاهر ٥٦٠ ، ٥٦٣ ، ٦٢١ ، ٧٤١

الطاهرية ٤١٣ ، ٦٩٠

طاهر بن الحسين ٤١١ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ -

٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٩١ ، ٤٩٢

٤٣٤ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٦ ، ٤٥١ ،
 ٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٧٣ ، ٤٧٩ ،
 ٤٨٢ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٥٠٣ ،
 ٥٢٠ ، ٥٢٥ ، ٥٢٧ ، ٥٤١ ، ٥٤٥ ،
 ٥٤٧ ، ٥٤٩ ، ٥٥٣ ، ٥٨٢ ، ٥٩٩ ،
 ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٦ ، ٦٣٠ ، ٦٣٢ ،
 ٦٤٠ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٥ ،
 ٦٨٣ ، ٧١٢ ، ٧١٩ ، ٧٣٧ ، ٧٤٠ ،
 ٧٤٢

طبرية ٢٠٥ ، ٢١٦

طبرستان ٣٨ ، ٢١٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ،
 ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠٠ ، ٣١٧ ، ٣٤٧ ، ٣٨٧ ، ٣٩٥ ،
 ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٧٧ ، ٥٥٠ ، ٥٥٥ ،
 ٥٦٤ ، ٥٩٦ ، ٦٢٧ ، ٦٤٨ ، ٦٧٦ ،
 طخارستان ١٠٥ ، ١١١ ، ١٢٨ ،
 ١٤٥ ، ٢٨٧ ، ٣٤٧ ، ٧٣٨

طرايرون (ميناء) ٨٤ ، ٨٥

طرابلس ٤١ ، ٢٠١ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ،
 ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣ ، ٦٩٣ ،
 ٦٩٩ ، ٦٩٨

نهر طراز ٣٢٨

طرسوس ٣٦٦ ، ٤١٤ ، ٦٢٧ ، ٦٤٠ ،
 طلحة بن طاهر ٧٤٢

طليطلة ٦٧

طنجة ٢٤٠

طوس طوسي ٩٦ ، ١٢٨ ، ٤٠٤ ،
 ٤٣٧ ، ٤٩٤ ، ٦١٤ ، ٦٣٦ ، ٦٥٠ ،
 ٧٣٦ ، ٧٣٩

الطواونيون ٣٣١ ، ٧٠٥

طي ١٢٠

ابن طيفور ٦٥١

٤٩٨ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ،
 ٥١٨ ، ٦٠٤ ، ٦٢٠ ، ٦٣٦ ، ٦٧١ ،
 ٦٨٣ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٧٢٨ ، ٧٤١ ،
 ٧٤٢

طاهر بن عيسى ٤٤٥ ، ٤٤٦

آل ابي طالب ، الطالبيون ، ١٤٩ ،
 ١٩٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،
 ٢١٨ ، ٣٩٦ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ،
 ٦٥٥ ، ٦٦٠ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٨ ،
 ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٦ ، ٧٢٨

الطالعة ٦٣٥

طبقات ابن سعد ٥٥

الطبقات الكبرى (كتاب) ٨٩

طنبة ٢٤٢

ابن طباطبا (ابن الطقطقي) مؤرخ ١٧٣ ،
 ٣٧٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٧١ ،
 ٤٩٢ ، ٥٩٣ ، ٦٠٧

ابن طباطبا العلوي محمد بن ابراهيم
 ابن اسماعيل (العلوي الحسني)
 ٦٧١ ، ٦٧٢

الطبري ٢٥ ، ٣٤ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٤ ،
 ٩٠ ، ٩٦ ، ١٠٦ ، ١١٩ ، ١٢١ ،
 ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ،
 ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٩٣ ، ٢٠٤ ،
 ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ،
 ٢٣٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ،
 ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٩٦ ،
 ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٤ ، ٣١٤ ، ٣٢٥ ،
 ٣٣٥ ، ٣٥٤ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ،
 ٣٩٤ ، ٤٠٢ ، ٤٠٦ ، ٤١٧ ، ٤٢٦ ،
 ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ،

ظ

ابن ظافر الازدي ٤١٢ ، ٤٥٧ ، ٥٤٦

ع

بني عامر ١٥٥

عامر بن اسماعيل الحارثي الجرجاني

٣٦٤ ، ٣٦٣

عامر الشيباني الخارجي ٢٣٧

عامر بن صنبارة ١٤٧

أبو الهيثم عامر بن عمارة بن خريم

المري ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨

عامر بن عمرو العبدي ٣٧٧

عامر المسلمي الموصلي ١٥٦

عاصم / أو ابن عاصم ٢٣٢

أبو عاصم (صاحب شرطة خراسان)

٢٦٥ ، ٢٦٤

عاصم بن عبد الله ٩٩ ، ١٠٩

ابن عباد ٤١٤

أبو عباد (كاتب) ٥٣٥

عباد بن محمد بن حيان ٧٠٣

عباس (ثائر في الجزيرة) ٧٢٧

العباس ٩ ، ١١٤ ، ١٨٤ ، ٢٧٤

العباس بن الاحتف ٣٨٥

العباس بن الحسن بن عبد الله ٦٦٨

العباس بن زفر الهلالي ٥١٦

العباس بن عيسى بن موسى ٤١٠

العباس بن المأمون ٤٥٣

عباس بن محمد حفيد معاوية السفياي

١٩٧ ، ١٩٨ ، ٣١٤ ، ٣٨٦

العباس بن محمد بن موسى الجعفري

٤١٩ ، ٥١٦ ، ٦٢٦

العباس بن المستعين ٥٤٣

العباس بن موسى بن عيسى ٤٤١

العباس بن موسى الهادي ٤٤٧ ، ٤٨١

عباس بن الوليد الشاعر ٨٧

ابن عباس ٥٣١

ابن أبي العباس الطوسي ٥٣٥

أبو العباس الأعمى ٢٠٤

أبو العباس السفاح عبد الله بن محمد

١٣١ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٣

١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩

١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧١

١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤

١٨٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٥

٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٤٦

٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١

٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧

٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤

٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٢ ، ٣٠١

٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣١٨

٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٥١ ، ٣٥٨

٣٥٨ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٨٩

٣٨٩ ، ٣٩٤ ، ٤١٥ ، ٤٥٨ ، ٥٠٩ ، ٥٢١

٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٩

٥٥٩ ، ٥٧٩ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦٢١ ، ٦٢٩

٦٢٩ ، ٦٣٩ ، ٦٦٤ ، ٦٧٧

أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم

٧٠٠

العباسة ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧

العباسة أخت الرشيد (قصة) ٤٦٥

العباسية (جيش) (الكرمينية)

٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٦١٨ ، ٦٢٦

العباسية (مدينة) ٦٩٧ ، ٧٠٠

عبد الأعلى بن موسى الحلبي ٥٢٧

عبد العزيز ١٧
عبد العزيز الجروي ابن الوزير ٥١٧
٧.٥ ، ٧.٤ ، ٧.٣
عبد العزيز بن مروان بن الحكم ٥٨
عبد القيس ٩٧
عبد الكبير بن عبد الحميد ٣٩٨
عبد الكريم بن عجرد ٦٨٥
عبد الله بن اباض المري ٣٧
عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب ٦٩٨
٦٩٩
عبد الله بن الجارود ٦٩٢ ، ٦٩٣
عبد الله بن جعفر الصادق الابطح ٦٦٢
عبد الله بن الحسن العلوي (الافطس)
٢٥٤
عبد الله بن الحسن العلوي (الافطس)
٤٨٠
عبد الله بن حليس الهلالي ٧.٩
عبد الله بن حميد بن قحطبة ٢٩٢ ،
٤٤٥
عبد الله بن حيان الخارجي ٢٤٠
عبد الله بن خازم ٤١٩
عبد الله بن خاقان ٤٦٥
عبد الله الراوندي ٢٧٢
عبد الله بن ربيع الحارثي ٢٢٣
عبد الله بن الربيع المداني ٥٢٥
عبد الله بن الزبير ٩٢
عبد الله بن زياد ٦٠
عبد الله بن سبأ ٣١ ، ٣٢
عبد الله بن السري ٧.٥
عبد الله بن سعيد الحارثي ٧٢٥
عبد الله بن شبرمة ٥٢٥
عبد الله بن شعبة ٢٨٥

عبد الجبار بن عبد الرحمن الازدي
٢١٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٧ ،
٢٨١ ، ٢٨٨ ، ٢٩٧ ، ٦١٨ ، ٧٣٥
عبد الجبار المحتسب ٣٩٤
عبد الحميد بن ربيعي الطائي ابو غانم
١٩٧
عبد الحميد الكاتب ٣١٠ ، ٥٣٠ ،
٥٣١
ابن عبد ربه ٢٦ ، ٣٣ ، ١١٩ ، ٤٦٨
عبد الرحمن بن احمد (ابن عبد الله
ابن محمد بن علي بن ابي طالب) ٦٧٥
عبد الرحمن بن حبيب الفهري ٢٣٨ ،
٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥
عبد الرحمن بن رستم الفارسي ٢٤٠ ،
٢٤١
عبد الرحمن بن ابي الزناد ٥٦٢
عبد الرحمن بن عبد الجبار الازدي
٣٨٧
عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح
العباسي ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٤٦
عبد الرحمن بن ابي مسلم العبدلي ٣٣٣
عبد الرحمن بن معاوية الداخل (صقر
قريش) ١٦٠ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٣٧٤ ،
٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١
عبد الرحمن النيسابوري ٦٨٨
عبد السلام بن ابي الماضي ٧.٩
عبد السلام البشكري بن هاشم ٥١٤ ،
٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨٣
بني عبد شمس ٢٩ ، ٨٩
عبد الصمد بن علي ١٩٢ ، ١٩٦ ،
٢١٣ ، ٥٥٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥

عبد الله بن يحيى (طالب الحق) ٤٤٠

٦٨٠ ٤١

ابو عبد الله الشيعي (مؤسس

الفاطمية) ٧٠٠

ابو عبد الله الصوفي ٥١٧

ابو عبد الله بن عمر العيلي ٢٠٥

ابو عبد الله محمد يزداد بن سويد

٤٩٥

عبد المطلب بن هاشم ٦٥٣

آل عبد الملك ٧٧

ابو العون الازدي عبد الملك ١٤٨

١٥٣ ٢٩٢ ٣١٣ ٥٧٠

عبد الملك بن الجحاف السلمي ٥١٦

عبد الملك بن حميد ٦٧٧

عبد الملك بن شهاب السمعاني ٣٤٦

عبد الملك بن صالح العباسي ٤١٩

٤٢٧ ٤٢٩ ٤٣٥ ٤٤٨ ٤٤٩

٤٦٠ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦

٥٥١ ٥٩٣ ٦٣٦ ٦٤٦ ٦٤٧

عبد الملك بن مروان ١٧ ٢٦ ٣٦

٣٨ ٤٢ ٤٥ ٤٩ ٥٣ ٥٤

٥٧ ٥٩ ٦٤ ٧٤ ٨١ ٨٣

٨٤ ١١٤ ١١٦ ١٧٤ ٢٠٤

٤٥٧ ٥٠٨ ٥٧٣ ٥٧٦ ٥٧٧

عبد الملك بن يزيد العتكي الجرجاني

٦١٨

عبد الواحد بن بشر النصري ٥٢٤

عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك

١٨٨

عبد الواحد بن عمر ٢٤٩

عبد الوهاب حفيد ابراهيم الامام

٥٥٢

عبد الله بن صفار التميمي ٣٧

عبد الله بن طاهر ٤٩٨ ٥٠٣ ٥١٨

٥٣٦ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٦٠ ٥٩٩

٧٠٥ ٧٠٨ ٧٢٣ ٧٢٦ ٧٢٩

٧٣٠ ٧٤٢

عبد الله بن العباس النسفي ٦٨٧

عبد الله العثماني ٢١٩

عبد الله بن علاثة ٤١٩

عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس

٥١ ٨٨ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٨ ١٥٩

١٦١ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩١

٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣

٢١٤ ٢٢١ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥٦

٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦٢ ٢٧٢ ٣٠٢

٣٠٣ ٣١٣ ٣٦٨ ٣٧٣ ٥٣٤

٥٥٢ ٥٦٩ ٦٣٦ ٦٤٦

عبد الله بن عمر ٦٩

عبد الله بن عمرو ٢٩٢

عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن

١٤٩ ١٥٠ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٧

٦٥٦ ٦٦٣

عبد الله بن محمد بن الحنفية (أبو

هاشم) ٣٣ ٣٤ ١١٤ ٢١٦

٢٧٢

عبد الله بن محمد النفس الزكية

(العلوي) ٢١٧ ٣٣٥ ٣٣٦

عبد الله بن مروان ١٤٨ ١٥٣

عبد الله بن معاوية حفيد جعفر بن

ابي طالب (٤٠ ٦٨ ١٤٢ ١٤٣

١٩٠ ٢٤٦

عبد الله بن الهيثم ٥٩١

١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ،
 ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،
 ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ،
 ٢١١ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،
 ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،
 ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٨١ ، ٢٩٦ ،
 ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ،
 ٣٢٧ ، ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٥١ ،
 ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٨٦ ، ٣٩٣ ،
 ٤٠١ ، ٤١٣ ، ٤٣٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ،
 ٤٤٩ ، ٤٥١ ، ٤٥٣ ، ٤٦٥ ، ٤٩٢ ،
 ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٠٠ ، ٥١٦ ، ٥١٨ ،
 ٥٢٠ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٣ ، ٥٣٥ ،
 ٥٣٩ ، ٥٤٩ ، ٥٥٧ ، ٥٦٠ ، ٥٦٥ ،
 ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٨٤ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ،
 ٥٩٣ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٦ ،
 ٦١٠ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ،
 ٦٢٤ ، ٦٣١ ، ٦٣٥ ، ٦٤٨ ، ٦٥٦ ،
 ٦٥٧ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ،
 ٦٧٥ ، ٦٧٧ ، ٧٠٩ ، ٧١٢ ، ٧٢٣ ،
 ٧٢٦ ، ٧٣١ ، ٧٤١ ،
 العربي العربية العرب ٩ ، ١٠ ، ١٢ ،
 ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ،
 ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ،
 ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ،
 ٣٢ ، ٣٦ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ،
 ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ،
 ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٨ ،
 ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ،
 ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ،
 ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ،

عبد الله زياد بن ابي ليلي ٤٢٤
 عبيد الله بن السري ٥١٨
 عبيد الله بن العلاء ٢٨٨
 ابو عبيدة السعدي ٣٤٥
 العبيد (السودان) ٢٢٣
 ابن العبري ٢٩٠
 عبي ٧٤ ، ٧٥
 ابو العنانية ٣٨٥ ، ٥٩٤
 عثمان بن الافكل ٥١٦
 عثمان بن تمامة العيسي ٥١٦
 عثمان بن جديع الكرمانى ١٤٥
 عثمان بن سراقه الأزدي ٢١٠
 عثمان بن عبد الأعلى الأزدي ١٩٧
 عثمان بن عفان (العثمانية) ٣٦ ، ٤٢٠ ،
 ٦٧ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٩٩ ، ٢٣١ ، ٣٣٧ ،
 ٧٠٢
 عثمان بن عمارة ٥٢٥ ، ٦٨٤
 ابو عثمان بن مروان بن محمد ١٥٧
 عثمان بن نهيك ٢٧٢
 المعجاردة ٦٨٥
 عجيف بن عنبسة ٧٣٢
 عدن ٢١٧ ، ٢٢٧ ، ٦٥٩
 ابو العديم ٢٧١ ، ٤٥٧ ، ٦٣٤ ، ٥٤١
 ابن عذارى ٢٠٦
 مرج عذراء (عذراء) ٧١٨
 العراق ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ،
 ٢٢ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ،
 ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ،
 ٦٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٧ ،
 ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٥ ، ٩٧ ،
 ١١٦ ، ١١٧ ، ١٣٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،
 ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،

٧٣٥ ، ٧٣١ ، ٧٢٩ ، ٧٢٨ ، ٧٢٧
 ٧٤١ ، ٧٣٨ ، ٧٣٧
 بحر العرب ٢٣٥
 عربستان ٣١٧
 الخليج العربي ١٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤
 ٣٤٥
 عربيل ٧١٧
 العرزمي ٨٩
 العريش ٧٠٥
 العزيز (خليفه فاطمي) ٦٣٥
 ابن عساكر ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٣٧٠ ، ٧١٤
 عسقلان ١٥ ، ٣٨٩
 عسير ٧١١
 ابو عصمة ٤٢٥
 ابو عطاء السندي ٢٠٤
 ابو العطاء الشاعر ١٧١
 العطاف بن سفيان الازدي ٧٣٣ ، ٧٣٤
 عطية بن يعثر التغلبي ٢٣٠
 ابن عطية السعدي ٤٠ ، ٤١
 عطية بن عبد الرحمن ٢٥٩
 ابو عقال بن ابراهيم بن الاغلب ٧٠٠
 العقبة (خليج العقبة) ١٢ ، ٧٨ ، ١٢١
 عقبة بن سلم الهنائي ٦٢٣ ، ٦٢٤
 عقبة بن مسلم الازدي اليماني ٢٣١
 عقبة بن نافع ٣٧٢
 القعد الفريد (كتاب) ٢٦ ، ٥٩ ، ٤٦٣
 آل عقيل ٦٥٣
 عكا ٣١٦
 العلاء بن سعيد ٦٩٣
 العلاء بن مغيث اليحصبي ٢٠٨ ،
 ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١

١١٢ ، ١١٠ ، ١٠٩ ، ١٠٨ ، ١٠٧
 ١٢٢ ، ١٢١ ، ١١٩ ، ١١٦ ، ١١٣
 ١٣١ ، ١٣٠ ، ١٢٧ ، ١٢٥ ، ١٢٤
 ١٤٦ ، ١٣٧ ، ١٣٦ ، ١٣٣ ، ١٣٢
 ١٦٥ ، ١٥٤ ، ١٥٢ ، ١٥١ ، ١٥٠
 ١٧٣ ، ١٧٢ ، ١٦٨ ، ١٦٧ ، ١٦٦
 ١٨١ ، ١٨٠ ، ١٧٦ ، ١٧٥ ، ١٧٤
 ٢٢٣ ، ٢٠٨ ، ٢٠٥ ، ١٩٠ ، ١٨٢
 ٢٢٧ ، ٢٣٦ ، ٢٣٤ ، ٢٣٢ ، ٢٢٧
 ٢٦٨ ، ٢٦٦ ، ٢٦٥ ، ٢٥٣ ، ٢٥١ ، ٢٢٨
 ٢٧٨ ، ٢٧٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٠ ، ٢٦٩
 ٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩١ ، ٢٨٠ ، ٢٧٩
 ٣١٤ ، ٣١٣ ، ٣٠٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٥
 ٣٣١ ، ٣٢٦ ، ٣٢٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٠
 ٣٤٠ ، ٣٣٩ ، ٣٣٨ ، ٣٣٧ ، ٣٣٦
 ٣٥٠ ، ٣٤٩ ، ٣٤٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤١
 ٣٦٣ ، ٣٦١ ، ٣٥٦ ، ٣٥٥ ، ٣٥٢
 ٣٨٥ ، ٣٨٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٠ ، ٣٦٨
 ٤٠٥ ، ٤٠٣ ، ٣٩٢ ، ٣٨٧ ، ٣٨٦
 ٤٤٤ ، ٤٣٤ ، ٤٣٣ ، ٤١٤ ، ٤١٣
 ٤٧٦ ، ٤٧٣ ، ٤٦٦ ، ٤٥٠ ، ٤٤٩
 ٥١١ ، ٥٠٨ ، ٤٩١ ، ٤٩٠ ، ٤٧٩
 ٥٣٠ ، ٥٢٥ ، ٥٢٤ ، ٥٢٢ ، ٥٢٠
 ٥٥٢ ، ٥٥١ ، ٥٥٠ ، ٥٣٤ ، ٥٣٣
 ٥٧٦ ، ٥٧٥ ، ٥٦١ ، ٥٦٠ ، ٥٥٤
 ٦٠٦ ، ٦٠٠ ، ٥٩٢ ، ٥٧٨ ، ٥٧٧
 ٦١٧ ، ٦١٤ ، ٦١٣ ، ٦١٢ ، ٦٠٨
 ٦٣٠ ، ٦٢٣ ، ٦٢٢ ، ٦٢١ ، ٦١٩
 ٦٣٨ ، ٦٣٧ ، ٦٣٦ ، ٦٣٤ ، ٦٣٣
 ٦٧٢ ، ٦٧١ ، ٦٧٠ ، ٦٤١ ، ٦٣٩
 ٧٠٢ ، ٧٠١ ، ٧٠٠ ، ٦٩٩ ، ٦٨٢
 ٧٢٦ ، ٧١٢ ، ٧٠٩ ، ٧٠٧ ، ٧٠٦

العلاج ٢٠

العلويين ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٧٦ ،
 ٨٠ ، ١٢٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،
 ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٧٣ ،
 ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، ١٩٤ ،
 ١٩٥ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ،
 ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٦٨ ، ٣٢٣ ،
 ٣٩١ ، ٣٩٦ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ،
 ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ ، ٤٧٢ ،
 ٤٧٦ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٥١١ ، ٥١٣ ،
 ٦٢٤ ، ٦٣٩ ، ٦٤٥ ، ٦٤٩ ، ٦٥٢ ،
 ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٩ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ،
 ٦٦٨ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ،
 ٦٩٥ ، ٦٩٩ ، ٧٤٢

العلوية العلوي ١١ ، ٤٧ ، ٩٢ ، ١١٣ ،
 ١١٦ ، ١٥٢ ، ١٧٨ ، ٢٠٦ ، ٢١٤ ،
 ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٣ ،
 ٢٦٧ ، ٣٣٦ ، ٤٥٢ ، ٤٧٢ ، ٤٨٧ ،
 ٦٦٨ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٦ ،
 ٧٢٠

آل علي ٣١ ، ٣٤ ، ٩٩ ، ١٤٩ ، ١٧٤ ،
 ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥ ،
 ٢٤٩ ، ٢٦٦ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٤٥١ ،
 ٤٩٣ ، ٦٥٢ ، ٦٧٤ ، ٧٢٨

علي بن اسماعيل بن الصادق ٦٥٨
 علي بن البهلول ٥١٦

علي بن جديع الكرمانى ١٠٠ ، ١٣٦ ،
 علي الرضا العلوي (الإمام) ٤١٢ ،
 ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٩٣ ،

٤٩٤

علي بن سليمان العباسي ٥٦٢
 علي بن ابي طالب ابو الحسن ٣٠ ،
 ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٧٦ ،
 ٩٩ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٦ ،
 ٢٧١ ، ٤٥٢ ، ٤٩٣ ، ٦٥٢ ، ٦٧٠ ،
 ٦٧٩ ، ٦٨٠

علي بن عبد العزيز الجروي ٥١٨ ،
 علي بن عبد العزيز الجروي ٥١٨ ،
 ٧٠٤ ، ٧٠٥

علي بن عبد الله العباسي ١١٤ ، ١١٥ ،
 ١٨٧

علي بن عيسى ٥٦٣ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ،
 علي بن عيسى بن ماهان ١٧١ ، ٤٠٣ ،
 ٤٠٩ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٢١ ،
 ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٧ ، ٤٦٣ ،
 ٤٧٣ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٦٠٣ ،
 ٦٢٩ ، ٦٣٦ ، ٦٨٦ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ،
 ٧٣٧ ، ٧٣٨

ابو علي الكوفي ٢٦

علي بن محمد النفس الزكية ٢١٧

علي بن مر الطائي ٥١٦

علي بن موسى ٤٧١

علي بن موسى الكاظم (الرضا من
 آل محمد) ابن جعفر الصادق ٦٤٩ ،
 ٦٥٠ ، ٦٦١ ، ٦٧٠ ، ٦٧٢ ، ٧٠٤

علي بن هشام ٥٦٣

علي بن يقطين ٥٣٩

ابن العماد ٤٧٤

عمار بن ياسر ٦٩٠

عمارة بن حمزة ٣١٤

عمرو بن عبيد ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٦٧

عمرو بن مسعدة ٥٢٨ ، ٥٣٥

عمرويه بن يزيد الأزدي ٦٨٦

عمورية ٦٣٢

العميرية ٣١

ابو العميطر علي بن عبد الله حفيد

خالد بن يزيد بن معاوية ٢٠٣ .

٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢

عنقود ٢٢٤

العواصم ٥٩٧

العوام بن عبد العزيز البجلي ٣٣٥

العيارون ٦٣٨ ، ٦٤٩

عيسى بن جعفر بن سليمان (ابن علي

ابن عبد الله بن العباس) ٦٧٧

عيسى بن جعفر بن سليمان (ابن علي

٦٦٠

عيسى بن زيد بن علي زين العابدين

٦٦٤

عيسى السراج ابو موسى بن ابراهيم

١٢٨ ، ١٢٩

عيسى العجلي بن معقل ١٢٨

عيسى بن العكي ٧١٩

عيسى بن علي ١٤٣ ، ٢٥٧

عيسى بن علي بن عيسى بن ماهان

٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٧٣٧

عيسى بن ماهان ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٦٤

عيسى بن محمد بن ابي خالد ٦٤٩ ،

٦٥٠

عيسى بن منصور الراقي ٦٠٦ ،

٧٠٩

عمان ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٩٧ ،

٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٨ ، ٣١٦ ، ٣٢٤ ،

٤٤٥ ، ٥٥٠ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨

العمانيون ٢٢٩

عمر بن الاحوص العجلي ابو الاحوص

٣٧٥

عمر الاشرف بن علي زين العابدين

ابن الحسين ١٤٩

عمر بن حبيب العدوي ٥٧١

عمر بن حفص بن ابي صفرة العتكي

المعروف بهزارمرد ٢١٧ ، ٢٤١ ،

٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ،

٣٧٦

عمر بن الخطاب الفاروق الاكبر ١٢ ،

٤٥ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٨٢ ، ١٧٢ ،

٣١٩ ، ٥٠٨ ، ٥١٩ ، ٥٣١ ، ٥٦٤ ،

٦٢٥

عمر بن العباس ٢٣٤

عمر بن عبد العزيز ٢٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ،

٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٧٦ ،

٨٩ ، ١٠٣ ، ١١٩ ، ١٧٦ ، ٢٠٤ ،

٥٧٤ ، ٥٧٧

عمر بن عبد العزيز العمري (حفيد

ابن الخطاب) ٦٦٦

عمر بن العلاء ٢٨٠ ، ٢٩٨

عمر بن فرح الرخجي ٥١٨ ، ٥٣٤

عمر الليثي ١١٦

عمران بن مجالد الربيعي ٦٩٧ ، ٦٩٨

عمر بن مهران ٥٨٨

عمر بن بزيع ٥٣٩

ابو النجم عمران بن اسماعيل ٢٣٤

عمرو بن جمل ٣٣٦

٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ،
 ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ،
 ٣٠٣ ، ٣١٠ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ،
 ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ،
 ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ،
 ٣٥٥ ، ٣٦٥ ، ٣٨٢ ، ٣٩٥ ، ٤٠٣ ،
 ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤١٣ ، ٤٣٤ ،
 ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٥٠ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ،
 ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ،
 ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٥٠٢ ، ٥٢٠ ، ٥٢٩ ،
 ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٤٠ ،
 ٥٥٠ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٧ ، ٥٦٠ ،
 ٥٨٦ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦١٤ ، ٦٧١ ،
 ٦٧٢ ، ٧٢٦ ، ٧٣١

فرعون ٥١٣

فرغانة ٣١٧ ، ٣٣٣ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ،
 ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٧٣٧

الفرق بين الفرق (كتاب) ٣٧

الفرما ٧٠٥

الفرنج ٥٢ ، ٢٠٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،
 ٣٧٠ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢

فرنسا ١٣ ، ٨٥ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ،
 ٣٨٤ ، ٣٨٦

فريشتكان ٢٧٦

القسطاط ١٨ ، ٣١٧ ، ٥١٧ ، ٥٧١ ،
 ٧٠١ ، ٧٠٣ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٨

٧٠٩

الفضل الخارجي ٦٨٠

الفضل بن دينار ٣٦٣

الفضل بن ربيع ٣٨٦ ، ٤١٠ ،
 ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٩ ، ٤٢٢ ، ٤٣٤ ،
 ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٦

فانذال ١٤

فان فلوتن ٣٣ ، ٣٩ ، ٥٢ ، ٥٥ ،
 ٦٤ ، ١٢٣ ، ١٤٠ ، ١٧٠ ، ٢٧١ ،
 ٢٧٤

الفتح بن الصلت ٧٠٢

واقعه فسخ ٣٩٦ ، ٤٢٣ ، ٦٦٧ ،
 ٦٦٨

الفخري ٢٧ ، ١٤٩ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ،

٢١٤ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٨٩ ، ٣٠١ ،

٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٩ ، ٣٢٤ ، ٣٨٦ ،

٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٤٣٤ ، ٤٥١ ، ٤٦٠ ،

٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٧٤٢

ابو الفداء (مؤرخ) ٤٦٢

فدك ٦٥٩ ، ٦٧٠

الفدين ٧٢٣

الفراء ٣٨٥

الفرات ١٢ ، ٦٩ ، ١٤٧ ، ١٩٨ ،

٢١٢ ، ٣٠٣ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٨٨ ،

٣٩١ ، ٤١٧ ، ٤٥٨ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ،

٥٩٧ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٦١ ، ٧٢٨

فراس بن جعدة المخزومي ٥٢٥

فرج البغوارى ٦٥١

ابو سليم فرج الخادم التركي ٦٢٧

الفرزدق ٢٨

الفرس فارس ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ،

٢٠ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٠ ،

٥٧ ، ٦١ ، ٦٨ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٨ ،

١٠٨ ، ١١٣ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ،

١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ،

١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ،

١٨١ ، ٢٠٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ،

٢٤١ ، ٢٥٧ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،

الفيض بن ابي صالح شيرويه ٤٥٦
فيكتوريا ٣٨٦
فيلكة ٣٤٥
فيليب حتي ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤

ق

القائم بأمر الله ١٧٠
القادسية ٣٩٤
قارون ٥٩٥
نهر قارون ٣٤٦
القاسم بن اسماعيل بن ابراهيم (ابن
الحسن بن الحسن بن علي) ٦٧٦
القاسم بن الرشيد (المؤمن) ٤٠٥ ،
٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ،
٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٥٣
القاسم بن صبيح ٤٣٩
القاسم بن ابي العميطر علي بن عبد
الله ٧٢١
قاسم بن مجاشع التميمي ١٢٢ ، ١٤٥
ابو القاسم بن سمعون بن واسول
المكانسي ٢٤٠
قاسيون (جبل) ٧١٧
القاطول ٤٨٧ ، ٦٠٢
القاهرة ٢٠٧
قب الياس ٢٠٠
قبة السيار ٧١٧
قبرص ١٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٣٦٧
القبط ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٦٦ ،
٦٨ ، ١٧٦ ، ٥٥٥ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ،

٤٧٠ ، ٤٧٩ ، ٤٨٣ ، ٤٨٦ ، ٤٦٠ ،
٤٦١ ، ٦٢٧ ، ٦٤٨ ، ٦٦٨
الفضل بن روح الهلبي ٦٩٢ ، ٦٩٤
الفضل بن سليمان التميمي الطوسي
٩٦ ، ٦١٨ ، ٧٣٥
الفضل بن سهل ٤١٣ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ،
٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ،
٤٤٦ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ،
٤٦٧ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ،
٥٤١ ، ٥٦٠ ، ٥٦٣ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ،
٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٤ ، ٧٤١ ، ٧٤٢
الفضل بن صالح العباسي بن علي
٢١٨ ، ٦٤٦ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٧ ،
الفضل بن مروان ٥٣٤ ، ٥٤٢
الفضل بن يحيى البرمكي ٣٩٨ ، ٤٠٥ ،
٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ،
٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٨٠ ، ٤٨٤ ، ٤٨٨ ،
٥٦٢ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢ ، ٦١٨ ، ٦٦٨ ،
٦٦٩ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦
الفضيل بن عياض ٥٩١
ام الفضل بن يحيى ٤٦٣
نهر ابي فطرس ١٦٠ ، ٢٠٥
ابن الفقيه ٤٥٧
فلسطين ٢٧ ، ٥١ ، ٦٨ ، ١٥٦ ،
٢١٠ ، ٣١٦ ، ٣٦١ ، ٣٦٩ ، ٥١٧ ،
٥٥٦ ، ٥٩٠ ، ٥٩٧ ، ٧٠٨
الفلوجة ١٤٧
فلهاوزن ١١٤ ، ١٢٥ ، ١٣٣ ، ١٦٦ ،
١٧٣ ، ٥٧٤
فتران بن افراكفون ٣٥٤
فون الفولغا كريم ٥٨

٧٩ ، ١.١ ، ١.٦ ، ١.٨ ،
١٢١ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥١ ، ١٧٠ ،
١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٤٦ ، ٢٧٦ ، ٤١٢ ،
٤٥٣ ، ٤٩٩ ، ٥.٦ ، ٥٣٢ ، ٦١٦ ،
٦٢٢ ، ٦٧٢ ، ٦٧٩ ، ٧٣٤

قرحتا ٧٢٢

ابو قرة المغيلي اليفرنى بن دوناس

٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١

القرخانيون ٣٤٧

قرطاجة ٢٩٤

قرطبة ٦٧ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٢

قرقيسية ١٩٨

قرماسين (عهد) ٤٣١

قرمطية ٦٥٤ ، ٦٦٣

حصن قرمونة ٣٧٩

وادي القرى ٤١

قريش ٣٦ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣

قزوين ١٣ ، ٢٨٠ ، ٢٩٧ ، ٣٤٧ ،

٣٥٥ ، ٣٨٤ ، ٥٩٠ ، ٦٧٦

القزويني ٢٨٩ ، ٤٥٧

آل القسري ٧٥

قسطنطين ٨٧ ، ١٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٧ ،

٣٦٨ ، ٣٨٢ ، ٦٤٢

قسطنطينية ١٣ ، ٢٧ ، ٨٤ ، ١٨٦ ،

٣٦٥ ، ٣٦٦

قشتالة ١٣

قصر الحجاج ٧١٧

قصر الذهب ٣٢٨

قضاة ٢.٧ ، ٧٢٧

القطائع ٣١٧ ، ٣٢١

قطرب النجوي ٤.٥

٥٧٨. ، ٦.٦ ، ٦٣. ، ٧.٦ ، ٧.٩ ،
٧١.

قبيصة بن روح بن حاتم ٦٩١

قبيصة بن ابي صفرة (هزا رمزد)
٢٤١

قتادة بن دعامة السدوسي ٤٥

قتيبة بن تفضادة ٢٤٨

قتيبة بن مسلم الباهلي ١.٥ ، ١١٢

ابن قتيبة ٦٥ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٧ ،

١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،

١٨٨. ، ٢.٤ ، ٢١. ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ،

٤٦٥ ، ٤٦٨ ، ٥٣١

القحطاني (بنو قحطان) ١٤٢ ، ٢.٦ ،

٧١٧

آل قحطبة ٥٥١

قحطبة بن الحسن الطائي ٣٦٣ ،

٤٤٤ - ٤٤٥ ، ٤٥٨ ، ٦٣٦ ، ٧٤١

قحطبة بن شبيب الطائي ٩٦ ، ١.٤ ،

١١٣ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،

١٤٧ - ١٤٨ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ٢٤٩ ،

٢٥٠.

قدامة بن جعفر ٥٣١ ، ٦.٥ ، ٦١٩

قدامة بن زياد النصراني ٥٤٣

القدريون ٤٨ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ١٧٦ ،

١٧٧

القدس ١٥ ، ١٨ ، ٣١٦ ، ٣٩٢ ،

٥٧٦

قديد (معركة) ٤٠

القرآن (كتاب الله) ٢٨ ، ٣١ ، ٣٨ ،

٤١ ، ٤٣ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٧٥ ،

٥٤٩ ، ٥٩٢ ، ٦٠٨ ، ٦٢٣ ، ٧٠٣ ،
٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٩ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ،
٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٩ ،
٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٦ ،
٧٢٧

قيس بن ثعلبة ٢٣٧ ، ٦٨٤
ابو قيس ٢٢٤
ابن قيس الرقيات ٢٠٥
قيسارية ٣١٦
قيشم ٣٤٤

ك

كابول كابل ٣٤٧ ، ٣٥٤ ، ٦٨٧
كاتوليکوس ٣٦١
الكارولنجيون ٣٣٠ ، ٣٨٠ ، ٣٨١
كازة (كاوة كيمردان) ٢٨٨
الكاسكية ٣٣٣ ، ٣٥٥
كامل بن المظفر ابو صالح ١٢٢
كاثتا بريك (جبال) ١٣
كانتون (خانقو الصيني) (ميناء)
٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣
كاهن (كلود كاهن) ٢٦٣ ، ٤٤٩
ابن كاوان ٢٢٨ ، ٢٢٩
كاو - هسين تشي ٣٤٨
كايتاني ٥٧٥
كتاب الكتاب ٥٣١
ابن كثير ٤٦٥
الكجرات ٣٣٥
كدا ٢٠٥
ابن ابي الكرام الجعفري ٥٢٥
الكرامية ٢٠٦

قطري بن الفجاءة ٣٨

القطيفة ٧١٧

القعدة ٣٧ ، ٣٨ ، ٦٨٥ ، ٦٨٧
بني القعقاع ٧٤

القفقاس (جبال) ١٢ ، ٧٨ ، ٣٥٥
٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٥

قم ٦٠٥ ، ٦٠٦
قمامة كاتب عبد الملك العباسي ٤٨٤
٦٤٧

قندهار ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٦٨٧
قنسرين ١٨ ، ٦٨ ، ٧٨ ، ١٩٦

١٩٧ ، ٢١٠ ، ٣٠٢ ، ٣١٤ ، ٣١٦
٥١٦ ، ٥٥٦ ، ٥٧١ ، ٥٩٧ ، ٦٨٠

قنوج (مملكة) ٣٣٣
قورس ٥١٦

قوط (الفيزقوط) ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ،
٢٠

ابن القوطية ٣٧٩
قومس ١٤٥ ، ٢٧٨ ، ٣١٧ ، ٥٥٤

٥٩٨ ، ٥٩٦
قوهستان ٦٨٧

القيروان ٢٠٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ،
٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٧٢

٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٨٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ،
٦٩٤ ، ٦٩٦ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠

قيسنية قيس ٣٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،
٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥

٧٨ ، ٧٩ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٣٠ ،
١٣٣ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٩٦ ، ٢٠٢

٢١٨ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ،
٢٤٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٥٢٤

قلع الكلاب ٢٢٨
 يوم الكلاب الاول ١٨٧
 كلب (قبيلة) ٧٥ - ٧٨ - ١٩٦
 ١٩٧ - ٢٤٩ - ٢٥٠ - ٤٣٩ - ٧١٦
 كلب الجنة ٦٥٢
 كلدان ١٥
 كليله ودمنة ٥٣١
 الكليني ٣١
 كمبوديا ٣٣٩
 كمخ ٣٦١
 الكميت ١٤١
 كندة ٧١٦
 الكندي ٥٤٩ - ٥٦٢ - ٥٧٠
 الكنيسة الشرقية الاغريقية ١٧٧
 كوانغ تونغ (كوانغ شوكانتون) ٣٣٨ -
 ٣٤١ - ٣٤٢
 كوثر (خادم الامين) ٤٠٦
 كورسيكا ٨٥
 كوش ٣٦٧
 كوفية كوفية ١٨ - ٢٥ - ٢٦ - ٣١
 ٣٢ - ٣٤ - ٣٦ - ٣٩ - ٦٣ - ٦٧
 ٦٨ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٩ - ١١٥ - ١١٦
 ١١٧ - ١١٩ - ١٢٠ - ١٢٤ - ١٢٧
 ١٢٨ - ١٤٢ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨
 ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥٣ - ١٥٦ - ١٨٣
 ١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧ - ١٩٠
 ٢١٧ - ٢٢٢ - ٢٢٥ - ٢٢٦ - ٢٥٠
 ٢٥٢ - ٢٥٩ - ٢٧٢ - ٣٠٦ - ٣٠٩
 ٣١٠ - ٣١٤ - ٣١٦ - ٣٢١ - ٣٢٢
 ٣٢٣ - ٣٢٤ - ٤١٧ - ٤١٨ - ٤٤٧
 ٤٨١ - ٤٨٧ - ٥٠٠ - ٥١٦ - ٥٢٧

كربلاء ٣٠ - ٣٤ - ١٧٤ - ٣٩٦ - ٦٦٧
 الكرج ٣٥٥ - ٣٥٩ - ٥٩٧
 الكرخ ٣٢٥ - ٣٢٧
 كرخايا ٦٠٢
 الكردية كردي الاكراد ١٥ - ١٢٨ -
 ١٢٩
 الكرك ٣٤٦
 كرمان (صحاري) ٣٨ - ٣٩ - ٦٨
 ٢١٧ - ٢٢٧ - ٢٣١ - ٢٦٧ - ٣١٧
 ٥٩٦ - ٦١٤ - ٦٨٥ - ٦٨٩ - ٧٣١
 كرمان ٩٦ - ٢٤٦
 كريت ٨٥ - ٣٣١ - ٧٠٦
 كريستنس ١٧٢
 كريم ١٤٠ - ١٧٦ - ١٧٧ - ٦١٠
 الكسائي ٣٨٥ - ٤٠٤
 كسرى انوشروان ٣٥٨ - ٤٩٣ - ٥٣٢
 كسروي ٤٥١ - ٤٩٣
 كسكر ٥٩٦ - ٧٣٢
 الكسوة ٧١٧
 كش ١٢٨ - ٢٩١ - ٣٢٥ - ٣٥٣ -
 ٣٥٤
 الكشاف ١٥٥
 كشغر ١٠٥ - ٣٥٤
 كشك ٣٣٣ - ٣٥٥
 كشمير ٣٣٣ - ٣٣٥ - ٣٣٦
 الكعبة (بيت الله) ٧٥ - ٢٥٩
 ٢٧٨ - ٢٧٩ - ٢٨٣ - ٣٩٣ - ٤٠٢
 ٤٠٣ - ٤٣٠ - ٤٣٤ - ٤٦٦ - ٤٧٠
 ٤٨٢ - ٤٨٣ - ٥١٣ - ٦٢٢ - ٦٧٤
 الكفية (اهل الكيف) ١٤٤ - ٢٢٤
 كفرتونا ٣٩ - ٤٠ - ٥١٦
 كفرسوسية ٧١٧

الليث بن طريف ٣٥٤
 ليزدن ٢٠٦
 ليفوند الارمني ٣٥٩
 ليلي بنت طريف الشاري ٦٨١
 ليو (٣ + ٤) الايسوري ٨٦ ، ٣٥٧ ،
 ٦٤٢ ، ٣٧٠
 ليون ٣٨١
 بيت لهيا ٧٢٣

م

ماجوج ٦٣٣
 المامون (عبد الله بن هارون) ١٦٧ ،
 ١٧١ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٩١ ،
 ٢٠٣ ، ٣٣٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٩٧ ،
 ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ،
 ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ،
 ٤١٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ،
 ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ،
 ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ،
 ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ،
 ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ،
 ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٦١ ،
 ٤٦٧ ، ٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ،
 ٤٨٣ ، ٤٨٦ ، ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ،
 ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٨ ، ٥١٥ ،
 ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٣٤ ، ٥٤١ ،
 ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٩ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ،
 ٥٥٩ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٧٠ ، ٥٧٢ ،
 ٥٧٤ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ،
 ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١٩

٥٣٨ ، ٥٥٠ ، ٥٦٥ ، ٥٦٧ ، ٥٩٧ ،
 ٦٠١ ، ٦٢١ ، ٦٣٤ ، ٦٥٠ ، ٦٦٦ ،
 ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٦ ،
 كيسان (المختار او غيره) ٣٢
 باب كيسان ٧٢٢
 الكيسانية ٣٢ ، ٣٣ ، ١١٣ ، ١١٥ ،
 ٢١٦ ، ٢٧١
 كيوم ٥١٦ ، ٥١٨ ، ٧٢٨ ، ٧٣٠ ،
 كيلكيا (جبال) ١٢

ل

اللابتين ٢٠٥
 اللاتينية ١٦
 اللاذقية ٣١٦ ، ٣٦٩ ، ٧٣١
 اللان ٣٣٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٥٤٧
 ابو جعفر لاهز بن قريظ التميمي
 ٢٥٣ ، ٢٥٤
 لحم ٢٠٧ ، ٥١٧ ، ٧٠٣ ، ٧٠٦ ،
 ٧١٤
 لبابة بنت علي المهدي ٤٠٩
 لبنان ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٣٧٠ ، ٥٦٦
 لواتيه ٥٦
 اللوار ٣٨١
 اللورين ٣٨١
 لو سترانج ٣٢٤ ، ٣٢٥
 لويس الرابع عشر ٣٨٦
 ليبينا ١٤ ، ٣٧١
 الليث بن سعد ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٩
 الليث بن الفضل البيوردي ٥٩١ ،
 ٧٠٨ ، ٧٠٧ ، ٧٠٣

ماني ٢٨٤	٦٢٠ - ٦٢٥ - ٦٢٧ - ٦٣٠ - ٦٣٥
المأوردى ٣١٩ - ٥٧٣ - ٥٨٤	٦٣٦ - ٦٤٠ - ٦٤٥ - ٦٤٧ - ٦٤٨
ماوند ٢٣٥ - ٦٣٧	٦٤٩ - ٦٥٠ - ٦٥١ - ٦٥٢ - ٦٥٥
المبرد ٣٧ - ١١٧ - ٣٨٥	٦٦١ - ٦٧٦ - ٦٧٧ - ٦٨٨ - ٦٨٩
المبيضة ٢٧٤ - ٢٨٠ - ٢٩٠ - ٢٩١	٦٩٨ - ٦٩٩ - ٧٠١ - ٧٠٢ - ٧٠٣
٢٩٢ - ٢٩٣	٧٠٤ - ٧٠٥ - ٧٠٦ - ٧٠٨ - ٧٠٩
المشقة ٧٢٤	٧١٠ - ٧١١ - ٧٢٣ - ٧٢٤ - ٧٢٥
المشقة لعل على الله ٤ - ١٧٠ - ١٧٩	٧٢٦ - ٧٢٧ - ٧٢٨ - ٧٢٩ - ٧٣٢
١٨٠ - ٤٦٥ - ٥١٩ - ٥٢٠ - ٥٤٣	٧٣٩ - ٧٤٠ - ٧٤١ - ٧٤٢
٥٦١ - ٦١٠ - ٦١٣ - ٦٣٢ - ٧١٣	مؤنس (أحد قواد طارق بن زياد)
المشغرون ٦٣٤ - ٦٣٥	٦٧
المثنى ٣٢٣	ماخوان ١٢٧ - ١٣٧ - ١٣٩ - ١٤٢
المجوس المجوسية ٣١ - ٢٦٩ - ١٠٠	ماردين ٦٩ - ١٩٨ - ٢٢٨
٢٧٨ - ٢٧٩ - ٢٨٠ - ٢٨١ - ٢٨٣	المارقة ٧٢٤
٢٨٤ - ٢٨٥ - ٢٨٧ - ٢٩٣ - ٤٥٧	ماركس ٥
٤٦٦ - ٤٦٧ - ٤٧٣ - ٤٩٢ - ٤٩٣	آل المازيار ٥٥٥ - ٦١٣
٦٤٨	ماسبدان ٢٧٦ - ٣٩٥ - ٤٢٠
محفوظ بن سليم ٥٩٢	ماسرجويه ١٧٦
محفوظ بن سليمان ٥٨٩ - ٧٠٨	ابن ماسويه ٣٨٥
آل محمد ٣٥ - ١٠٩ - ١١٤ - ١٢٦	مالقة ٣٧٨
١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٥٣ - ١٧٠	مالك بن انس (صاحب الموطأ)
١٧١ - ١٨١ - ١٨٦ - ١٩٤ - ١٩٥	(المالكية) ١٩٠ - ٢١٩ - ٣٨٥
٢١٠ - ٢١٤ - ٢٤٦ - ٢٤٧ - ٢٥٠	٤٥٢ - ٥٦٦ - ٥٦٧ - ٥٦٩ - ٦٩١
٢٥٥ - ٢٥٦ - ٢٦٧ - ٢٧١ - ٣٠٢	٧١٠
٣٠٩ - ٦٤٩ - ٦٥٣ - ٦٧٤	مالك الباهلي ٦٢٣
المحمدية ٣٦١ - ٦٨٩	مالك النفري ٦٥١
محمد بن ابراهيم الافريقي ٦٥١	مالك بن الهيثم أبو النصر ١٢٢ - ٢٣٣
محمد بن ابراهيم بن الحسن العلوي	ما ميكونيان ٣٦ - ٣٦٢ - ٣٦٣
٢١٩ - ٥١٦	جبل المانع ٧١٧
محمد بن ابراهيم الزيادي ٧١١	مانوية ١٦ - ٢٠ - ٣١ - ٢٦٥
	٢٨٤ - ٣٤٧ - ٣٥٦

محمد بن اسحق ١٩٠
 محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق
 ٦٥٩ ، ٦٦٢
 ابو الحسن محمد بن الامام الشافعي
 ٥٧١
 محمد الجواد بن الامام الكاظم ٦٦١
 محمد الباقر بن علي بن زين العابدين
 ابن الحسين ٣٤ ، ٦٥٦
 محمد بن جعفر ٥١٦
 محمد بن الحسن (السلق) ٥١٦
 محمد بن الحسن الطائي ٣٦٣
 محمد بن الحميد (ابو الرازي) ٥١٩
 محمد بن حميد الهمداني ٥١٦
 محمد بن الحنفية ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤
 محمد بن ابي خالد ٥١٧ ، ٦٢٠ ، ٦٤٦
 محمد بن خالد بن برمك ٤٦٣ ، ٤٦٦ ، ٤٨٨
 محمد بن خالد القسري ٢١٨
 محمد المخزومي ٧٤
 محمد الديباج بن جعفر الصادق
 ٦٦٢ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥
 محمد ذو النفس الزكية محمد بن
 عبد الله المحض بن الحسن بن علي
 الاشر ١٢٦ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ،
 ١٧٤ ، ١٩٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،
 ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ،
 ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٥٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،
 ٣٢٧ ، ٣٣٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨٨ ، ٣٩٢ ،
 ٥١٣ ، ٥٤٧ ، ٥٦٦ ، ٦٢٤ ، ٦٢٩ ،
 ٦٥٦ ، ٦٦٣ ، ٦٦٧
 محمد بن الرواد الازدي ٥١٦
 محمد بن زهرة ٥١٦
 محمد بن سعيد بن عبدالعزيز الاموي
 ١٩٩ ، ٢٢٨
 محمد بن سليمان ٤٦٥
 محمد بن سليمان بن علي ٥٩٣
 محمد بن سليمان بن كثير ٢٥٤
 محمد بن ابي سيرة (القاضي) ٢٢٤
 محمد بن صالح حفيد المنصور ٦٤٨
 محمد بن صالح بن بهس الكلابي
 ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣
 محمد بن صول ١٩٩ ، ٢١٢ ، ٢٢٨ ،
 ٣١٣
 محمد بن ابي العباس ٣٠٣ ، ٣٠٤
 محمد بن عبد الله بن طاهر ٥٥٨
 محمد بن عبد الله العباسي ٩٨
 محمد بن عبد الله العثماني ٢١٩
 محمد بن عتاب ٥١٦
 محمد بن عثمان ٧٣٢
 محمد بن عفان ٦٧٧
 محمد بن علي العباسي ٦٧ ، ٨٩ ،
 ٩٩ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،
 ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٤١ ،
 ١٥٤ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٩٠ ، ٢١٦ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٣٩١ ، ٤٥٨
 محمد ابن ابي عيينة بن للهب بن ابي
 صفرة ٣٤٤
 محمد بن قحطبة ٢٢٢
 محمد القسري ١٤٧
 محمد بن الليث ٤٧١
 محمد بن محمد حفيد زيد بن علي

المراقبة ٦٣٥
 مراجل جارية الرشيد ٤٠٤
 مرار بن انس الضبي ٢٥٦
 مراکش ٣١٧ • ٦٦٧
 المربد ١٧٥ • ٣٠٤
 المرج (شرقي دمشق) ٧٢٢
 مرج الاحزم ١٩٦
 مرج راهط ٧٨
 المرجئة ٤١ • ٤٢ • ٤٣ • ٤٤ • ٦٢ •
 ٦٤ • ١٠٤ • ١٠٨ • ١٠٩ • ١١٠ •
 ١٢٦ • ١٣٥ • ١٤٢ • ١٧٣ • ١٧٦ •
 المر بن علي الطائي ٣٥٨
 مرة بن ابي الرديني ٥١٦
 مرسيليا ١٣ • ٣٨١
 مرعش ٣٦٩
 مرو ١٨ • ٥١ • ٩٥ • ٩٦ • ٩٩ •
 ١٠٨ • ١٠٩ • ١١١ • ١١٢ • ١٢٠ •
 ١٢٢ • ١٢٣ • ١٢٤ • ١٢٧ • ١٣٤ •
 ١٣٥ • ١٣٦ • ١٣٧ • ١٣٨ • ١٤٣ •
 ١٤٤ • ١٤٥ • ٢٤٨ • ٢٨٦ • ٢٨٨ •
 ٢٩١ • ٢٩٢ • ٢٩٣ • ٣١٧ • ٣٥٤ •
 ٤٣٨ • ٤٤٢ • ٤٤٨ • ٤٥٠ • ٤٩٣ •
 ٤٩٤ • ٦٢٩ • ٦٥٠ • ٦٧١ • ٦٨٣ •
 ٧٠٤ • ٧٣٦ • ٧٤١ •
 بني مروان (دولة) ٦٣
 آل مروان ٦٦ • ٧٢ • ٧٤ • ٩٠ •
 ١٧١ • ١٨٣ • ١٩٢ • ٧٢٢ •
 مروان بن ابي حفصة ٢٠٤ • ٣٨٥ •
 ٣٨٦ • ٥٩٢ • ٦٥٥ •
 مروان بن الحكم ٤٩ • ٦٦ •
 مروان بن محمد الجعفي (الثاني)
 ٣٨ • ٣٩ • ٤٠ • ٤١ • ٥٠ • ٥١ •

(العلوي) ٦٧٢ • ٦٧٤
 محمد بن محمد بن زيد ٥١٦
 محمد بن مروان ٧٤ • ٧٧ • ٨٠ •
 محمد بن مقاتل العكي ٦٩٣ • ٦٩٤ •
 ٦٩٥ • ٦٩٦ •
 محمد المنتصر بن المتوكل ٥٢٠
 محمد بن ميمون العنبري ٥٢٧
 محمد بن هرمز ٤٥٢
 محمد بن الوليد ١١٤
 محمد بن يحيى البرمكي ٤٦١
 محمد بن يزيد الفارسي ٦٩٢ • ٦٩٣ •
 محمد بن يزيد المهلب ٤٤٥
 ابو محمد الزبيدي ٤٠٥ • ٤٧٩ •
 محمرة ٢٧٤ • ٣٠٠ •
 محمود بن عبد الكريم الكاتب ٦٢٠
 المختار بن ابي عبيد الثقفي ٢٥ • ٣٢ •
 ٣٤ • ٥٩ • ٩٢ • ١٤٢ •
 بني مخزوم ٧٥
 مخلص بن الحسن ٣٦٠
 المدائن ٢٦١ • ٢٧٥ •
 المدائن ٢١٠ • ٢٧١ • ٧١٤ •
 ابن المدير ٥٣٤
 بنو مدالج ٥١٧
 المدور ٤٦٥
 المدينة ٤١٠ • ٤٢٠ • ٦٦٠ • ٦٧٠ • ٦٨٠ • ١٢١ •
 ١٩٠ • ٢١٨ • ٢١٩ • ٢٢٠ • ٢٢٢ •
 ٢٢٣ • ٢٢٤ • ٢٢٥ • ٢٣١ • ٣١٤ •
 ٣١٦ • ٣٢١ • ٣٣٩ • ٣٩٣ • ٤٤٥ •
 ٤٤٧ • ٤٥٠ • ٥١٣ • ٥٥٠ • ٦٥٧ •
 ٦٦٠ • ٦٦٣ • ٦٦٥ • ٦٦٦ • ٦٦٧ •
 ٦٦٨ • ٦٧٢ • ٦٧٣ • ٦٧٦ •
 مرآة الجنان ٤٧٤

المسعودي ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٤ ،
 ١٤٩ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،
 ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٠٤ ،
 ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٢٢ ، ٢٥٦ ، ٢٧٦ ،
 ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٨ ،
 ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٥٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ،
 ٣٩٦ ، ٤٠٧ ، ٤٢٨ ، ٤٠٦ ، ٤٥٧ ،
 ٤٦٢ ، ٤٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٩٤ ، ٥٥٤ ،
 ٥٨٣ ، ٦٣٨ ، ٦٦٣ ، ٦٦٧ ، ٦٧٠ ،
 ٧٣١

مسلم بن بكار العقيلي ٦٨٢

مسلم بن عقبة المري ٢١٨

مسلم بن نصر الأعرابي ٥١٧
 أبو مسلم الخراساني ٥١ ، ٦٧ ،
 ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٨٩ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ،
 ١٠٩ ، ١١٢ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،
 ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،
 ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،
 ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ،
 ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٧ ، ١٩١ ، ٢١١ ،
 ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،
 ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ،
 ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ،
 ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ،
 ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ،
 ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ،
 ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،
 ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ،
 ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ،
 ٣٣٣ ، ٣٤٨ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٤٦٦

٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٦ ،
 ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٥ ، ٨٨ ،
 ٩٠ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ،
 ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،
 ١٥٦ ، ١٧٧ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ،
 ١٩٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ،
 ٢١٠ ، ٣١٠ ، ٣٥٧ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ،
 ٣٦٧ ، ٤٨٥ ، ٦٣٧ ، ٦٤٧

الرواية ١١ ، ٤٩ ، ٩٩ ، ١١٠

الروج ٢٠١

مروج الذهب ٢٠٥

مروزي ٩٦ ، ٦١٤

مربة ٣٧٨

المزة ٧٢٢ ، ٧٢٣

مزدك ١٢٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨١ ،
 ٢٨٤ ، ٢٩٠ ، ٢٩٩

المزكية ١٧ ، ٢٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ١٢٣ ،
 ١٥٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ،
 ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١

مزنة بنت مروان بن محمد ٣٩١
 مسافر بن كثير الشيباني (القصاب)
 ٢٢٨

المستجد (كتاب) ١٩٥

المستعين (خليفة) ٥٤٣

المستكفي ١٧٩

المستجد بالله ١٧٠

مسجد الرسول ٣٩٣

مسرور الكبير (الخادم) ٤٦٥ ، ٤٦٧ ،
 ٤٦٨ ، ٤٧٥ ، ٤٨٢ ، ٥٤٦ ، ٥٦٠ ،
 ٦٢٧

مسعر ٢٢٤

٤٦٠ ، ٤٣٣ ، ٣٩٣ ، ٣٩٢ ، ٣٨٩
 ٤٩٧ ، ٥٢٤ ، ٥٢٣ ، ٥١٨ ، ٥١٧ ، ٤٩٧
 ٥٥٤ ، ٥٥٠ ، ٥٤٩ ، ٥٣٨ ، ٥٣٦
 ٥٥٧ ، ٥٧٩ ، ٥٧٨ ، ٥٧٧ ، ٥٧٦ ، ٥٥٧
 ٥٨٤ ، ٥٨٩ ، ٥٨٨ ، ٥٨٧ ، ٥٨٦ ، ٥٨٤
 ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠٤
 ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦١٠ ، ٦٢٥ ، ٦٣٠
 ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٦٧ ، ٦٧٦ ، ٦٩٥
 ٧٠٠ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٦
 ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧٢٣
 مصعب بن الزبير ٦٩
 مصعب بن زريق ٦٨٣
 المصمغان ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩
 المصيصة (العمورة) ٣٦٩ ، ٥١٧ ، ٦٤٠ ، ٧٣١
 مضر ٣٩ ، ٥١ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٣٠
 ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٩
 ٢٠٦ ، ٢٤١ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٥١٦
 ٦٢٢ ، ٦٣٤ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٧
 ٧٢٧
 المطبق ٣٠٣ ، ٤٥٥ ، ٦٤٧ ، ٦٩٤
 المطلب بن عبد الله ٤٤٧
 المطهر بن طاهر المقدسي ٢٧٥
 المطوعة ٦٣٤ ، ٦٤٩ ، ٦٩٠
 مطيع بن اياس ٣٠٥
 معاذ بن مسلم ٢٩٣
 ابو معاذ الفاريابي ٦٨٣
 ابو المعالي الكلابي (الشاعر) ٣٩٩
 معاوية ٢٦ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٣٩
 ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٦
 ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٨

٤٧٢ ، ٥٢٩ ، ٥٥٢ ، ٥٥٩ ، ٦٢٩
 مسلمة البجلي ٦٢٣
 مسلمة بن عبد الملك ٦١ ، ١٩٦ ، ٣٩١
 مسلمة بن هشام ٧٤
 مسلمة بن يعقوب حفيد عبد الملك بن مروان ٧٢٢
 ابو مسلمة ١٢٠
 بني مسلمة ١٢٠
 المسلمية (الحرمينية) (الملحة)
 ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٨
 ٢٩١ ، ٣٠٠
 المسودة ١٠٤ ، ٦٣١ ، ٦٧٤
 المسيب بن زهير الضبي ٢٩٣ ، ٣١٤
 المسيب بن زهير ٧٣٥
 المسيح عيسى بن مريم (المهدي المخلص
 المسيح) ٨٠ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٧٠
 ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٦ ، ٢٧١ ، ٢٨٩ ، ٥٧٩
 المسيحية المسيحيون ١٦ ، ٢٤ ، ٨٣
 ٢٨٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٨١
 ٣٨٢ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠
 المصاره ٣٧٨
 مصر ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢
 ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٥٣ ، ٥٤
 ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٨ ، ٨١
 ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٣
 ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩
 ١٧٧ ، ٢٠٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٦٠
 ٢٦٩ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤
 ٣٣١ ، ٣٥٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٥ ، ٣٨٢

المعلی بن جنیس ٦٥٧

المعمرية ٣١

معن بن زائدة الشيباني ٢٣٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٧٣ ، ٣١٤ ، ٥٢٠ ، ٥٢٥ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٨١

معيوف بن يحيى الحجوري ٣٦٩

ابن معيوف ٧١٤ ، ٧١٧

المغرب المغربية ٤١ ، ١٦٠ ، ٢١٧ ، ٢٢٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٣٣١ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩ ، ٣٩٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٤٠ ، ٥٦٣ ، ٦٠٧ ، ٦٧٦

المغيرة بن سعيد العجلي ٣١

المفلس العبدی ٢٤٧ ، ٢٥٧

المفضل الضبي ٣٨٧

المفضليه ٣١

مقاتل بن حكيم العكي ١٩٨ ، ٢١٢ ، ٢٢٨

مقاتل بن صالح ٣٦٤

مقاتل الطالبين (كتاب) ٦٧١

المقتدر ٦٣٣

القدسني ١٨٨ ، ٢٠٤ ، ٢٩٥ ، ٣٤٨ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٣٦ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٧١٠

ابن المقفع ١٦١ ، ٢٠٣ ، ٣٩٤ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٣١ ، ٥٣٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٧٩ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦٣٨

٩٧ ، ١٧٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٤٩ ، ٥٠٨ ، ٥٤٣ ، ٦٧٠ ، ٧٣١

معاوية الثاني ٢٠٤

معاوية بن المنصور أبو عبد الله ٣٠٤

أبو معاوية الضريز ٤٠٠

معاوية بن يسار أبو عبيد الله بن عمران (وزير المهدي) ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٩٠ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٨٣

معبد الجهني ٤٥ ، ١٧٧

معبد بن الخليل التميمي ٣٣٦

المعز ٦٦١ ، ٧٤١

المعز بن المتوكل ٥٢٠

المعتزلة (الاعتزال) ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٧٣ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ٢٢٥ ، ٤١٢ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٥١٥ ، ٥٣٣ ، ٦٧٠

المعتصم محمد بن أبي إسحاق ، ١٦٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٠٣ ، ٤٥٠ ، ٤٥٣ ، ٤٨٧ ، ٥٣٧ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٦ ، ٥٥٣ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٣ ، ٦٢٥ ، ٦٢٨ ، ٦٣٠ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٥٢ ، ٦٧٦ ، ٦٩٦ ، ٧٠٩ ، ٧١٢ ، ٧٢٤ ، ٧٣٢

المعتضد ٢٠٣ ، ٥٤٠ ، ٦٧٧

المعتمد ٧٤١

المعتمر مولى أبي العميطر ٧٢٢

معرة النعمان ٥١٧

معرة ٣٣٦

المعلی ٦٠٨

٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،
 ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ،
 ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٧٢ ،
 ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٨٥ ،
 ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ،
 ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ،
 ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ،
 ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ،
 ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ،
 ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،
 ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ،
 ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ،
 ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٤ ،
 ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،
 ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ،
 ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ،
 ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨ ،
 ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ،
 ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ،
 ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٤٠٢ ،
 ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١١ ،
 ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ،
 ٤٢٥ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ،
 ٤٥٨ ، ٤٦٦ ، ٤٧٣ ، ٤٩٠ ، ٤٩٥ ،
 ٤٩٨ ، ٥٠٣ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ،
 ٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥١٩ ،
 ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ،
 ٥٢٧ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ،
 ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ،
 ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ،
 ٥٥٤ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٣ ،

القنع ١٧١ ، ٢٦٣ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ،
 ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ،
 القنعية ٢٧٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ،
 مكة ٢٦ ، ٤١ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٩٠ ،
 ١٩٣ ، ٢٠٨ ، ٢٥٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٨ ،
 ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٤٤٥ ،
 ٤٤٧ ، ٤٨٢ ، ٤٨٨ ، ٥١٨ ، ٦٦٢ ،
 ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ،
 ٦٧٦

مكران ٣٨ ، ٣١٨ ، ٥٩٦ ، ٦٨٥

الملائكة ٢٧١ ، ٢٧٤

الملايو ٣٣٨

مليد بن حرمة الشيباني ٢٣٠

الملتان ٣٣٣ ، ٣٣٦

ملطية ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٦٤٠

مملوكي ٦٢٨

منبج ٧٢٥

المنستير ٦٩٣

المنصور (أبو جعفر عبد الله بن محمد

ابن علي بن عبد الله بن العباس) ٤٧ ،

٤٨ ، ١٢٦ ، ١٤٣ ، ١٤٩ ، ١٥٤ ،

١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،

١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ،

١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ،

١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ،

٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،

٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ،

٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،

٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ،

٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،

٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ،

٣٨٨ ، ٣٨٧ ، ٣٧٠ ، ٣٥٤ ، ٣٤٦
 ٣٩٣ ، ٣٩٢ ، ٣٩١ ، ٣٩٠ ، ٣٨٩
 ٤١٥ ، ٣٩٨ ، ٣٩٦ ، ٣٩٥ ، ٣٩٤
 ٤٢٠ ، ٤١٩ ، ٤١٨ ، ٤١٧ ، ٤١٦
 ٤٢٥ ، ٤٢٤ ، ٤٢٣ ، ٤٢٢ ، ٤٢١
 ٤٥٥ ، ٤٥٤ ، ٤٣٦ ، ٤٣٥ ، ٤٢٧
 ٥١٤ ، ٤٩٠ ، ٤٦٢ ، ٤٥٨ ، ٤٥٦
 ٥٢٧ ، ٥٢٦ ، ٥٢٥ ، ٥٢٤ ، ٥٢٣
 ٥٥٣ ، ٥٥٢ ، ٥٤٦ ، ٥٤٢ ، ٥٣٩
 ٥٦٧ ، ٥٦٣ ، ٥٦١ ، ٥٥٩ ، ٥٥٤
 ٥٨٤ ، ٥٨٣ ، ٥٨٢ ، ٥٧٤ ، ٥٦٩
 ٦١٤ ، ٦٠٦ ، ٦٠٢ ، ٥٨٦ ، ٥٨٥
 ٦٣٦ ، ٦٣٢ ، ٦٣١ ، ٦٢٦ ، ٦١٧
 ٦٥٩ ، ٦٥٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٧ ، ٦٣٩
 ٦٨٠ ، ٦٧٨ ، ٦٦٧ ، ٦٦٤ ، ٦٦١
 ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٦ ، ٧٠١ ، ٧٠٦

المهدي بن علوان الخارجي ٤١٤

مهدي بن فيروز ٢٧٦

المهدي المنتظر ٢٩ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٥٢
 ١٧١ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ٢٠٦ ، ٢١٦
 ٢٦٨ ، ٣٨٩ ، ٦٥٦ ، ٧٢٠ ، ٧٤٠

مهرجان قذق ٢٧٦

المهلب بن أبي صفرة ٣٨ ، ٩٧ ، ٢٣٠

آل المهلب المهلبية ٧٨ ، ٦٩١ ، ٦٩٢

٦٩٣

المهني بن جعفر ٦٧٧

الموالي : ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦

٢٧ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤١

٤٤ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٩٣

٥٦٤ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٩ ، ٥٧٦
 ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣
 ٥٨٧ ، ٥٨٩ ، ٥٩٤ ، ٥٩٩ ، ٦٠١
 ٦٠٥ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٧ ، ٦١٨
 ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٦ ، ٦٢٩
 ٦٣١ ، ٦٣٣ ، ٦٣٧ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠
 ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٨ ، ٦٥٧ ، ٦٥٩
 ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٩٠ ، ٦٩٦ ، ٧٠٦
 ٧١٢ ، ٧٣٥

النصورة ٣٣٤ ، ٣٣٦

منصور بن جمهور الكلبي ٢١٠ ، ٢٤٧

٢٥٢ ، ٣٣٣

منصور بن زياد ٤٦٩

منصور بن عبد الله بن يوسف البرم

٥١٧

المنصور بن عمر ١٣٥

منصور بن المهدي ٤٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩

منغوليا ١٣ ، ٣٣٣ ، ٣٥١

منقذ بن عبد الرحمن الهلالي ٢٠٤

منى ٦٦٦

المنيطرة ٢٠١ ، ٣٧٠

منيع التلوخي ٥١٦

المهاجرون ٢٢٠ ، ٣٩٢ ، ٥٢٢ ، ٦٥٧

المهتدي ٥٧٤

المهدي محمد بن المنصور ١٢٩ ، ١٦٠

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٩ ، ١٩٢ ، ٢٣٤

٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٥١ ، ٢٧٢

٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤

٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥

٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٣

٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٨ ، ٣٣٢

ابو موسى السراج ٢٥٤
 موشائيل ماميكونيان ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤
 الموصل ٣٩ ، ٤٠ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٦ ، ١٥٦ ، ١٩٠ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢١٨ ، ٢٣٠ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣٢٤ ، ٣٦٠ ، ٣٦٥ ، ٣٩٧ ، ٤٤٧ ، ٥١٦ ، ٥٨٤ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٤ ، ٦٢٩ ، ٦٣٤ ، ٦٧٨ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٧٢٦ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤
 موقان ٥٩٧
 المونوتيليتية ١٦
 المونوفيسيتية ١٦
 ميافارقين ٣٢٦ ، ٥١٦
 الميانج ٣٥٨
 البحر الميت ١١٤
 ميخائيل (امبراطور) ٧٣٠
 ميديا - المذ ٢٧٤ ، ٣٣٣ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦
 الميديون ٣٢٦
 الميروفانجيون ١٣ ، ٣٨٠
 ميسرة المدغري ٦٧
 ميسرة النبال ابو رباح ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢
 ميشيل السرياني ٥٥٨
 ميور ٣٨١
 مينسا ٥٧٨
 ن
 النابتة ٢٠٦

٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ٢٢٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٨٠ ، ٣١٤ ، ٣٢٠ ، ٣٧٨ ، ٤١٩ ، ٤٦٦ ، ٤٩٥ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٣٧ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٦١ ، ٦١٣ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٣٠ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٥١ ، ٦٧٣ ، ٦٨٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧١١ ، ٧٣٦
 موريان ٣١١
 موسى (النبي) ٧٩ ، ١٢١ ، ٢٨٩
 موسى بن الامين الناطق بالحق ٤٢٨ ، ٤٤١
 موسى التميمي ٢٥٢
 موسى بن صعب الموصل ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧
 موسى بن عبد الملك ٥٣٤
 موسى بن عيسى ٤١٩
 موسى الكاظم بن جعفر الصادق ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦٢ ، ٦٦٥ ، ٦٧٠
 موسى بن كعب ١٩٨ ، ٢٤٧ ، ٣١٣ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤
 موسى بن المبارك البشكري ٥١٦
 موسى بن مصعب ٧٠١
 موسى بن يحيى البرمكي ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٧١ ، ٤٧٧ ، ٤٨١ ، ٧١٨ ، ٧١٩

٣٥٦ ، ٣٦١ ، ٣٧٠ ، ٤٥٦ ، ٥٢٩
 نصر بن حبيب المهلبى ٦٩١ ، ٦٩٢
 ابو نصر بن السري ٧٠٤
 نصر بن سيار ٣٥ ، ٥١ ، ٥٩ ، ٧٠ ،
 ٩٠ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ،
 ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ،
 ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
 ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،
 ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٩٣ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ،
 ٥٧٧ ، ٧٣٧
 نصر بن شيث النصري العقيلي ٥١٦ ،
 ٥١٨ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ،
 ٧٣٠
 نصر بن مالك الخزاعي ١٢٢ ، ٥٢٥ ،
 نصيبين ٣٩ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٥١٦ ،
 ٦٨١
 النظام ٥٣١
 النظامية اصحاب ابراهيم بن يسار
 النظام ٤٦
 نظام الملك ٢٧٥
 النعمان مولى لموي ٧٢٤
 النعمان بن عثمان ٥٣٩
 نعيم بن حازم ٤١٣ ، ٤٩٣ ،
 نفوسة ٢٤٢ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ،
 نقفور ٦٣٢
 بنو نمير ٧٢٢
 نهاوند ١٠٤ ، ١٤٧
 نهروان ٤٢٠ ، ٦٨٤
 ما وراء النهر ٤٣ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٩٦ ،
 ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١٢ ،
 ١٢٥ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ٢٤٨ ، ٢٥٨ ،

تذبليون ٢٠٦
 ابو النار ٢٢٤
 ناربد ٣٣٦
 نافع بن الأزرق ٣٧ ، ٣٨
 ناووس ٢٨٢
 نباته بن حنظلة الكلابي ١٤٥
 النبط النبطية الانباط ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ،
 ٦٦ ، ١١٧ ، ١٦٨ ، ٢٠١ ، ٢٢٥ ،
 ٣٧٠ ، ٥٧٧ ، ٦٠١
 آل النبي ٤٣
 آل نجاح ٧١١
 نجاح بن سلمة ٥٣٤ ، ٥٤٢
 نجدة بن عطية الحنفي ٣٨
 النجدات (فرقة خارجية) ٣٨٥
 نجران نجرانية ٥٩٨
 النجود ٧١١
 النخذ (اندخوز) ١٠٨
 ابو نخيلة الشاعر ٣٠٥
 ابن النديم ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ،
 ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٤٦٦ ، ٤٧٣
 نردك (كتاب) ٥٣١
 نرشخ ٢٩١ ، ٢٩٢
 النرشخي ١٠٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ،
 ٢٩٢ ، ٧٣٩
 نزار ٣٥٨
 نزوة ٢٢٨
 نسا ١٢٢ ، ١٣٨ ، ٧٣٦
 النسطورية نساطرة ١٦ ، ١٧ ، ٣٢٣ ،
 ٣٤١ ، ٥٨٣
 نسف ١٣٨ ، ٢٩١ ، ٧٣٧
 النصارى ١٧ ، ٢٠ ، ٥٥ ، ١١٠ ،

٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ،
٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ،
٥٣٩ ، ٥٤٧ ، ٥٥٩ ، ٥٧١ ، ٥٧٦ ،
٥٨٩ ، ٥٩٣ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ،
٧٠٢

هارون الرشيد بن محمد بن عبد الله
١٥٧ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ،
١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢٣٧ ،
٢٤٣ ، ٣١٨ ، ٣٣٢ ، ٣٥٠ ، ٣٥٧ ،
٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ،
٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ،
٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ،
٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ،
٤١٣ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ،
٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ،
٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ،
٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ،
٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ،
٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ،
٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ،
٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ،
٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ،
٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ،
٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ،
٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ،
٤٩٨ ، ٥١٤ ، ٥٢٦ ، ٥٣٤ ،
٥٣٥ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ،
٥٤٧ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ،
٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ،
٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ،
٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٤ ، ٥٧٦ ،

٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ،
٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣١٧ ، ٣٤٦ ،
٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٥ ، ٤٠٤ ، ٥٥٩ ،
٦٣٣ ، ٦٤١ ، ٦٨٨ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ،
٧٤٠

أبو نواس ٣٨٥

النوبة النوبيون ١٣ ، ١٥ ، ٥٣٥ ،
٥٣٦ ، ٥٥١ ، ٥٥٥ ، ٦٣٠

النوبهار ٤٥٦ ، ٤٥٧

نوح ٢٨٩

النورة (الهاب) ١٤٦

نوفل بن الفرات ٥٨٩

قرية النوقان ٤٩٤

نولدكه ٣١٥

النويري ٦٩١

نيرغ ٤٧ ، ٤٨

نيسابور ١٨ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١٣٢ ،

١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،

٢٧١ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ،

٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٥٥٧ ، ٥٧١ ،

٦٨٦ ، ٧٣٦

نيكلسون ٣٦ ، ١٨٧

النيل (وادي) ١٣ ، ٨٢ ، ٨٤

— ه —

الإمام الهادي علي بن محمد الجواد

ابن الكاظم ٦٦١

الهادي موسى بن محمد بن عبد الله

١٧٩ ، ٣٨٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ،

٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ،

٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ،

هانيام ٣٣٨
 ابن هبيرة ٣٢٢ ، ٤٤٤ ، ٥٥٢
 هجر ٣١٦
 ابن الهذيل العلاف ٤٦
 الهذيلية ٤٦
 هذين ١٤١
 هرة ١٣٧ ، ١٣٨ ، ٢٨٦ ، ٢٩٣ ، ٥٥٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٥ ، ٦٨٤
 هرثمة بن اعين ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٦٣ ، ٤٧٧ ، ٤٩٣ ، ٥٨١ ، ٥٩١ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٣٦ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٨٠ ، ٦٩٣ ، ٦٩٥ ، ٧٠٣ ، ٧٠٧ ، ٧١٨ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠
 هرطقة ٤٨
 هرقلية ٦٣٢
 هرمز بن الفرخان ٢٧٩
 ابو هرمة ٢٠٤
 ابو هريرة الراوندي ٢٧٤
 ابو هريرة الزناني ٢٤٠
 ابو هريرة محمد بن فروخ الازدي ٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٦٨٠ ، ٦٨١
 هشام بن عبد الملك ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٤ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٦٠ ، ١٧١ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٩ ، ١٩٥
 ٣٣٧ ، ٤٥٧ ، ٥٧٦
 هشام بن عمرو التغلبي ٣٣٥ ، ٣٣٦
 الهفوات النادرة (كتاب) ٥١
 هماكر ١٤١
 همذان ١٨ ، ١٢٠ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ،

٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٤ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٣٢ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٦ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٨ ، ٧٠٠ ، ٧٠٢ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٤ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩
 بنو هاشم الهاشميون ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٤ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٩٢ ، ٤٠٥ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٨٥ ، ٥٢٢ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٦٢٤ ، ٦٣٩ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٠ ، ٦٥٨ ، ٦٦٠ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٧٤٠
 الهاشمية ٣٣ ، ٣٤ ، ١١٤ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٧٤ ، ١٩٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٧٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣
 هاشم بن حكيم (حكيم بن عطاء المقنع)
 ٢٨٨ ، ٢٨٩
 هان مي موميني ٣٥١

الواصلية ٤٧
واضح (مولى المنصور) ٣٦٥ ، ٣١٥
وان (بحيرة) ١٥
الوثنيون ١٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥٦
وثيق ٢٢٤
الوخش ٣٥٣
ابو الورد مجزاة بن الكوثر الكلابي
القيسي ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٤٩
حرب الوردتين الانكليزية ١٥٩
ورق عنب ٥١
ابو الوزير عمر بن مطرف ٥٤٢
الوضاحية ٧٩
وكيع ٥٧٠
الولاية والقضاة (كتاب) ٥٤٩ ، ٥٧٠
الوليد الثاني ٥٠ ، ٦٢ ، ٧٥ ، ٧٦
١٣٥ ، ٩٩ ، ٨٥
الوليد بن سعد الجمال ١٤٦
الوليد بن طريف الشاري ٦٧٨ ،
٦٨١ ، ٦٨٢
الوليد بن عبد الملك ١٢ ، ٤٩ ، ٥٠
٥٤ ، ٨٤ ، ١١٤ ، ١٤٠ ، ٣٣٧
٣٩٣ ، ٧٣١
الوليد بن معاوية ١٥٩
الوليد بن يزيد ٣٥ ، ٣٩ ، ٥٩ ، ٧٣
٧٤ ، ٧٧ ، ٣٧٣ ، ٤٧٤
آل وهب ٥٣٤
ابو الخصيب وهيب بن عبد الله
النسائي ٧٣٦

- ي -

ياجوج ٦٣٣

١٨٥ ، ٢٠٦ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٣١٧
٣٢٦ ، ٤٣٢ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٥٥٤
٥٥٧ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨
الهنود الهند ١٦ ، ٢٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣
٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣
٣٤٤ ، ٣٦٥ ، ٣٨٤ ، ٤١٤ ، ٤٥٧
٦٠٠ ، ٦٣٠ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٧٣٠
٧٣١
هند بنت اسماء ٨٩
الهند الصينية ١٤
هند كوش (جبال) ١٢
الهندوسية ١٦
المحيط الهندي ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨
٣٤٣ ، ٣٤٦
هونان فو ٣٤٠
هوى هوى ٣٣٩
الهيثم بن زياد الخزاعي ٢١٠
الهيصم بن جابر ابو بيهس ٣٧
الهيصم بن عبد المجيد الهمداني ٧١١
- و -
الواثق ١٧٩ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٦٠
٧٤١
الواحات ٣١٧ ، ٧٠٢
الوارث بن كعب ٦٧٧
واسط ١٨ ، ٣٩ ، ١٤٧ ، ١٤٩
١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٩٨ ، ٢١٥
٢٢٥ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤
٣٢٨ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٥١٦ ، ٥١٧
٦٥٠ ، ٦٧٣
واصل بن عطاء ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨
١٧٧

يزيد بن اسلم ٥٩
 يزيد بن اسيد السلمي ٣١٣ ، ٣٥٨
 ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢
 يزيد بن بلال اليمني ٥١٦
 يزيد الثالث (الناقص) ابن الوليد بن
 عبد الملك ٥٠ ، ٦٢ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ١٣٥
 يزيد الثاني بن عبد الملك ٥٠ ، ٥٥ ،
 ٥٩ ، ٦١ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ١٧٧ ، ٢٣٢ ،
 ٧٣١
 يزيد بن جرير القسري ٤٤٨
 يزيد بن حاتم بن قبيصة ٢٤٢ ،
 ٢٤٣ ، ٣٧٦
 يزيد بن حاتم المهلب ٢٣٠ ، ٢٥١ ،
 ٣٥٨ ، ٦٩١
 يزيد بن خالد القسري ٦٨
 يزيد بن زياد ابو غسان ٢١١
 ابو زكريا يزيد بن محمد بن اياس
 الازدي ٥٨٤
 يزيد بن مزيد الشيباني ٢٣٥ ،
 ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٣٦٠ ، ٣٩٨ ، ٤١٩ ،
 ٤٢١ ، ٤٧٣ ، ٦٨١ ، ٦٨٤
 يزيد بن معاوية ٥٧ ، ٧١ ، ٢٠٤ ،
 ٦٣٥ ، ٦٦٧
 يزيد بن منصور ٢٨٦ ، ٥٥٩
 يزيد بن المهلب ٦٦ ، ١١٧
 يزيد بن هبيرة ٦٩ ، ١٣٤ ، ١٤٥ ،
 ١٤٧ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٨٦ ،
 ١٩١ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢١٥
 اليسيرة ٦٥٨
 اليعاقبة ٦٨٢
 يعفر بن عبد الرحيم بن ابراهيم

ياسين التميمي ٦٨٠
 يافا ٣١٦
 اليافعي ٤٨٤
 ياقوت الحموي ٤٥٧
 يشرب ٢٠٥ ، ٣٣٩
 يحيى بن ارميا ٧٢٤
 يحيى بن اكرم ٤٩٥ ، ٥٧٠
 يحيى البرمكي بن خالد ٣٩٧ ، ٣٩٨ ،
 ٤٠٢ ، ٤١٨ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ،
 ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٥٦ ،
 ٤٥٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ ،
 ٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٨٠ ،
 ٤٨١ ، ٤٨٤ ، ٤٨٨ ، ٥٥٠ ، ٥٥٩ ،
 ٥٧٦ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٩٢ ،
 ٥٩٥ ، ٦٤٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٧ ،
 ٧١٩ ، ٧٣٣
 يحيى بن خاقان ٥٣٤
 يحيى الدمشقي ٤٥
 يحيى بن زيد بن علي ٣٤ ، ٣٥ ،
 ١٣٧ ، ٢٨٠
 يحيى بن عبد الله المحض (العلوي)
 ٢١٧ ، ٢٥٩ ، ٤٧١ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ،
 ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٥٦٩ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ،
 ٦٦٩
 يحيى بن علي ٣١٣ ، ٤٠٩
 يحيى بن قارب ٥٧١
 يحيى بن محمد بن علي العباسي ١٩٩
 يحيى بن معاذ ٥٩٢ ، ٧٢٤
 يزد ابعادان ٥٣٤
 ابن يزدان ٥٣٥
 اليزيدية ٢٠٦

الحوالي ٧١١

اليعفرية (دولة) ٧١١

ابو يعفور ٨٩

يعقل الجزار ٢٢٤

يعقوب (النبي) ٣٠٧ ، ٣٨٩

أبو حاتم يعقوب ابن حبيب ٢٤١ ، ٢٤٢

يعقوب بن داوود ٤٥٥ ، ٥٢٧

٥٢٩ ، ٥٥٩ ، ٥٨٣ ، ٥٨٧ ، ٦٦٤

٦٦٥ ، ٧٠٧ ، ٦٧٩

يعقوب بن صالح الهاشمي ٥١٧

اليقوي ١٠٢ ، ١١٩ ، ١٣١ ، ١٤٩

١٥٨ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢١١

٢١٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٥٥

٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٥٤ ، ٣٦٤ ، ٣٩٠

٣٩١ ، ٣٩٦ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٣٠

٤٣٤ ، ٤٤٩ ، ٤٥١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤

٤٦٥ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٩٢ ، ٥١٦

٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥٤ ، ٥٧٠ ، ٥٧٣

٥٩١ ، ٦٦٤ ، ٦٧٠ ، ٦٨٤ ، ٧١٠

٧٤٢

اليمامة ٢٣١ ، ٥٠١ ، ٦٢٣

اليمانية ١٥ ، ٣٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢

٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥

٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٩٠ ، ٩٩ ، ١٠٠

١٠١ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٢٣

١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥

١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٥٧

١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٩٢ ، ١٩٦ ، ٢٠٦

٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢

٢٩٢ ، ٦٢٣ ، ٦٣٤ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧

٧٠٩ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٦

٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧٢٠ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤

اليمن ٢٦ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠

٤١ ، ٥٥ ، ٦٨ ، ٨٢ ، ١٤٢ ، ١٨٨

٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٤

٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٧١ ، ٣٧٦

٣٩٥ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٥١ ، ٥٠١

٥١٦ ، ٥١٩ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٦٣

٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠٤ ، ٦٠٧ ، ٦٢٢

٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٦٢ ، ٦٦٤ ، ٦٧٠

٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧٢١

٧٢٣ ، ٧٢٦

يوحنا الدمشقي ٢٧ ، ١٧٧

ابو يوسف الحنفي ٣٨٥ ، ٣٨٦

٥٣٧ ، ٥٤٥ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩

٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٩

٥٩٠ ، ٦٠١ ، ٧٣٤

يوسف البرم بن ابراهيم ١٧١ ، ٢٣٧

٢٩٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤

يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب

الفهري ٢٠٨ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧

٣٧٨

يوسف بن عمر ٥٨ ، ١١٧

يوسف بن عمران الثقفي ٣٤ ، ١٧١

يوسف بن القاسم ٤٠١

يوسف بن هيرة ٧٥

يونس بن أبي فروة ٣١٢ ، ٥٣٤	يوسف بن أبي يوسف ابو معشر ٥٧١
يهود يهودية ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٠ ،	اليونان ١٥ ، ١٦ ، ٨٤ ، ١٧٦ ، ٣٣٧ ،
٣٤ ، ١١٠ ، ٣٤١ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ،	٣٦٥ ، ٣٨٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ،
٣٨١ ، ٧٢٤	يونس احد رجال الرشيد ٤٧٦



ابن أبي نسعة ١٢٥	ابان بن عبد الحميد اللاحقي (الشاعر)
ابن أبي النعيم (الشاعر) ٨٧	٢١٥ ، ٢١١
ابن الاثير ٣١١	الاباضية ٧١
ابن البطريق ٣٤٠	ابراهيم ١٣١
ابن جريج ٦٧ - ٦٨	البطريق ابراهيم ١٣٩
ابن الجوزي ٥٨ - ٢٤٢ - ٢٤٥	ابراهيم اخو سلمويه ١٣٩
ابن حوقل ١٤٨	ابراهيم اخو ذي النفس الزكية ١٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٨١
ابن خرداذبة ٢٩٦ - ٣٤١	ابراهيم بن السندي ٢٧٣
ابن دلعيان ٢١٠ - ٢٢١	ابراهيم بن سياة ٢١٠ ، ٢٢٩
ابن الراوندي ٢١١ - ٢١٣	ابراهيم بن عبد الله المحض (يراجع
ابن سعد ٩٦	ابراهيم اخر النفس الزكية)
ابن سكرة (الشاعر) ١٦	ابراهيم بن محمد ١٣ - ٢٠ - ٢٤
ابن السمان ٦٠	ابراهيم الخفي ٥٣
ابن سليمان (المؤرخ) ١٧٢	ابراهيم الطيب ١١٥ - ١١٩
ابن شعيب ٢٩١ - ٢٩٢	ابراهيم القرشي ١٤٥
ابن شهابه ٢٢٦	ابراهيم المهدي ٨٦
ابن الطباخ الكشكري ١١٨	ابن أبي أصيبعة ٢٧٤
ابن طولون ١٥٢	ابن أبي ذؤيب ٥٤ ، ٦٠ ، ٦٨
ابن طيفور (المؤرخ) ٥٧ - ٩٥	بن أبي السمط (الشاعر)
ابن عائشة ٨٧	ابن أبي طاهر ٤٣ ، ٦٣ ، ٨٦
ابن عبد ربه ١٤ - ٥٨ - ٦٧ - ٦٨	ابن أبي عروبة ٦٧ ، ٦٨
٨٨ - ٢٧٣	ابن أبي مسلم ٢٣٨
ابن عثمان ٣٧	ابن أبي ليلى ٦٨
ابن عون النصراني ١٣٤	
ابن قتيبة الدينوري (المؤرخ) ١٤ - ٥٨ - ٦٠ - ٢٤٢	

١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ،
 ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ،
 ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧ ،
 ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ،
 ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٠٠ ،
 ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٠ ، ٣٢٨ ،
 ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ،
 ٣٤٠ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣

ابو الحسن الاشعري ٧٣

ابو حمزة الخارجي ٢٧

ابو حمزة الصوفي ٢٠٠

ابو حنيفة النعمان ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٢ ،
 ٦٣ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ،
 ٧٢ ، ٧٣ ، ٢١٣

ابو الخير الناصبي (الشاعر) ٢٢

ابو راعطة ١٨٢

ابو ربيع محمد بن الليث ٢١٣

ابو روح ١٦٥ ، ١٦٦

ابو زيد حنين بن اسحاق ٦٧ ، ١٢٩

ابو اسحق ٣٢٤ ، ٣٢٥

ابو سعيد رحا ١٩٥

ابو مسلمة الخلال ٢٨

ابو سليم القائد ٣٣٥

ابو سليمان فرج ٣٣٤

ابو السمط (الشاعر) ١٦

ابو العباس الخليفة ١٠ ، ١١ ، ١٣ ،

٢١ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ١١٣ ،

١١٤ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ،

٢١٧ ، ٢٦٥ ، ٣٠١

ابو عبيد الله بن معاوية ٢٢٢

ابن قيم الجوزية ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٦٩

ابن كثير (المؤرخ) ٥٦

ابن لهيعة ٦٧ ، ٦٨

ابن المبارك ٦٧

ابن المرتضى ٨٣

ابن المرتضى العيني ٢٧٤

ابن مزيد (راجع يزيد بن مزيد)

ابن المقفع ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١١ ،

٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩

ابن مناذر ٢٣٣

ابن المزالي (الشاعر) ٢٣

ابن نباتة ٣٤٠

ابن التميمي ١٥٩ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،

٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،

٢٤٦ ، ٣٣٩

ابن الهيثم ٨٣

ابن وهب ٦٧

ابو النجاشي ٥٤ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٠ ،

ابو بكر الرازي ٢١٣

ابو بكر الصديق ٣٩ ، ٨٨ ، ٩٩

ابو جعفر الاسكافي ١٨١

ابو جعفر المنصور ٨ ، ١١ ، ١٣ ،

١٨ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ،

٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٨ ،

٤٢ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ،

٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ،

٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٦٩ ،

٧١ ، ٨١ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٣ ،

١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ،

١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،

١٢٧ ، ١٣٥ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥

ابو يونس سنسريه الاسواري ١٩٨
الابلة ١٤٢

اتراك (راجع الترك)

اثناسيوس الصيلاني ١١٧

احمد بن ابي خالد ٢٨٣

احمد بن ابي داود ٤٠ ، ٦٥ ، ٩٥ ،

٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٥٣ ، ٢٣٥ ،

٢٥٣

احمد بن اسد ٢٧٨

احمد بن اسراييل ١٧١

احمد بن خبل ٦٣ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٩٤ ،

٩٦ ، ٩٧ ، ٢١٣

احمد بن نصر الخزاعي ٤٨ ، ٩٧ ،

٩٨

الاخشيد (ملك) ٢٧٩

ادرولية (مكان) ٣٠٣ ، ٣٠٤

آدم حفيد عمر بن عبد العزيز ٢٠٥ ،

٢١٠ ، ٢٢٩

اذنه بلدة ٢٩٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢

اذريجان ٢٣٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ،

٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ،

٢٥٧

ارابيسوس (بلدة) ٣٠٤

الاردن ٢١٦

ارتق معركة ٢٥٣

اردبيل ٢٥١

ارسوف ٢٩٩

الارمن ١٦٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،

٢٤٨ ، ٢٥٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٣ ،

٣٢٠ ، ٣٢٧

ارميناق (بلدة) ٣٢٧

ابو عبيدة الجراح ١٦١

ابو العتاهيه ٣٤١

ابو علي رجاء يزدان بخت ١٩٥

ابو علي محمد الجبائي ٢١٣

ابو عمر حفص الفرد ١٨١

ابو عمر الزاهد ٥٣ ، ٨٥

ابو عون ١٥١

ابوعون عبد الملك بن يزيد الازدي ١٢٦

ابو عيسى الوراق ١٨١ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥

ابو قريش ١٢٨ ، ١٣٥ ، ١٤٢

ابو ليلى ٢٦٠

ابو محمد التونجتي ٢١٣

ابو محمد هشام بن الحكم ٢١٣

ابو مسلم الخراساني ٥٠ ، ٢٤٢

ابو معاوية الضير ٦٠

ابو منصور البغدادي ٢٤٧

ابو موسى بن موسى ٣٣

ابو مينا ١٢٥ ، ١٢٦

ابو نواس ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٣

ابو نوح الكاتب ١٣٦

ابوهاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية

٨٠

ابو هذيل العلاف ٧٨ ، ٨٣ ، ١٧٩ ،

٢١٢

ابو هلال الديموري ١٩٥

ابو وهب عبد الصمد بن عبد الاعلى

الشيباني ٢٠٠

ابو يوسف القاضي ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٥ ،

٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ١٠٤ ،

٢٦٣

أشنه (مدينة) ٣٠٨	أرمينية ٧٩ ، ٢٣٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ،
أصهذ (ملك) ٢٤٧ ، ٢٥٧	٢٥٥ ، ٢٦٤ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ،
أصفهان ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ،	٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ،
٢٥٤	٢٩٦ ، ٢٩٣
الأصمعي ٢٣٢	آريوس ١٧٢
المانيسا ٢٤٤	أزد شير ٢٠٨ ، ٢٣١
أضاليا (خليج) ٣١٢	استاذ سيز ٢٣٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨
الأعمش ٥٣ ، ٦٣	استوراكيس ، قائد ٣١٣
أغالبة ٢٧١ ، ٣١٩ ، ٣٢٠	أسحق بن أبي زيد ١٢٩
الأغاني ٣٤٠	أسحق بن إبراهيم ٩٥
أغريق ١٩٠	أسحق بن اسماعيل ٢٨٨
الأسقف أفرام ١٣٧ ، ١٣٨	أسحق بن الرشيد ٣٢٤ ، ٣٣٤
أفريقيا ٤٥ ، ٧١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،	(تراجع صفحة ٣٢٤ ، ٣٣٤ المقتسم)
٢٧١	أسحق الترك ١٩٦
أفسوس (بلدة) ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٤	أسحق الرهاوي ١١٧
الأفشين ١٣٦ ، ١٦٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،	أسحق بن سليمان ١٦٣ ، ٢١١
٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ،	أسحق اليعقوبي ١١٥
٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢	أسكدار (بلدة) ٣٠٥
أقباط ١٠٣ ، ١١٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،	أسكندرونة ٢٩٤ ، ٢٩٧
١٢٥ ، ٣٢٤	أسكندرية ٣١
آل أبي طالب ١١	اسماعيل بن داود ١٣١
آلارد (المورخ) ١٧٧	اسماعيل بن سليمان ٢٢٨
آل بختيشوع ١٥٦	اسماعيل بن عياش ٦٥
الباك (قائد) ٢٩٣	اسواريون ٢٦٧
آل البيت ١٠ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٧١	الأسود البحر ٢٩٢
آل جفنه ٣١٤	آسيا ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٣١٢ ، ٣٣١ ،
آل علي ٣٤ ، ٨٨	٣٤١
آل محمد ٩ ، ١٠ ، ٢٨	أشروسنة ٤١ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ،
اليون (ملك) ٣٠٦	٢٨٣
الامين ٢٥ ، ٣٧ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٦٢ ،	أشوط (ملك) ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ،
٨٤ ، ٨٦ ، ١٣٦ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،	٢٩٠
	أشناس ١٩٦

الاييسورية ، اسرة ٢٩٣ ، ٢٩٤ ،
 ٣١٢ ، ٢٩٦
 ايطاليا ٣١٢
 ايوب ٧٩
 ايوب (البطريق) ٣٢٢ - ٣٣٨
 ايوب بن قاسم ١٨٠

ب

نابك الحزمي ١٩٦ - ٢٣٧ - ٢٤٠ ،
 ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،
 ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،
 ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،
 ٢٥٧ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٣٧
 بابكان ٢٠٨
 البابكية ١٨٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ،
 ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٤
 بابل ١٩٥ - ٢٠٢ - ٢٢٥
 بابلية ٣٢٢
 البابليون ١٩
 بار باليسبوس ٣٢٧
 بارتولد (مؤرخ) ٣٣٨
 باردانس (ثائر) ٣١٤
 باله (ملك) ٢٧١
 بالس (مدينة) ٣٢٧
 باميان مملكة ٢٧٩
 باجرمي بلدة ١٢٢
 بحر الخزر ١١١
 البحرين ١٠٢ ، ٢٧٣
 بخارى ٢٨١
 البر (حصن) ٢٥٤
 البدن (بلدة) ٢٤٦

٢٦٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩١ ، ٣٢٠ ،
 اناضول ٢٥٦ ، ٢٦٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ،
 ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ،
 ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٧ ،
 الانبار ١٣٠ ، ١٤٧ ،
 انباط ٧ ، ١٩٠ ،
 الاندلس ٤٩ ، ٦٩ ، ٢٦٥ ، ٣٢٤ ،
 انس بن ابي شيخ ٢٣٢
 الانصار ٢٧ ، ٣٥ ، ٤٤ ،
 انطاكية ١٣٧ ، ٢٩٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٧ ،
 ٣٢٩ ، ٣٣٧ ،
 انطونيوس (الشهيد) ١٦٥
 انقرة ٣٠٥ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ،
 ٣١٦ ، ٣٣٩ ،
 انوشروان ٢٠٨ ، ٢٣١ ،
 اهواز ١٣٠ ، ١٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٦٦ ،
 اوسية ١٢٧
 اوغسطه (ملكة) ٣٠٦ ،
 اوروبا ٣٢٦
 الاوزاعي ١٩٩ - ٢٦٣ ،
 ايباس بن معاوية ٧٥
 ايران - ايرانيون ٧ ، ٤١ ، ٤٢ ،
 ٧١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،
 ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٠ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ،
 ١٥٨ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،
 ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ،
 ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٧ ،
 ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣١٦ ،
 ايرني (ملكه) ٢٩٣ ، ٣٠٦ ، ٣١٢ ،
 ٣١٣

٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ،	البدندون (نهر) ٣٢٥ ، ٣٢٠
٩٨ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،	البرز ، (بلدة) ٢٥٣ ، ٢٤٦
٢٣٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ،	البرامكة ٢٨٤ ، ٢٣٢
٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ،	البردان ، (مكان) ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤
٢٨٥ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ،	برماموس (بلدة) ٣٢٧
٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ،	البيستان (بلدة) ٣٠٤ ، ٣٠٥
٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٤٠ ،	اليسفور ٣٠٥ ، ٣١٢
البقاع ١٢٢	برمك ٢٣٢
بكر (مؤرخ) ٣٣٨	برمكية ٢٠٤ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٤
بلغار ٣١٢ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ،	٣٣٦
٣٣٨	البرهمية ٢٦٦
البلقان ٣٢٠ ، ٣٢١ ،	بزر جمهر ٢٠٨
بلهيب ١٤٠	بشار بن برد (الشاعر) ٢٣ ، ٢٠١
البلو بونيز (جزء) ٣١٩	٢٠٢ ، ٢٠٩ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨
بغداد هرمز (ملك) ٢٧٩	بشر بن داوود ٢٧١
بغداد (بلدة) ١٢٢	بشير الرحال ٥٣
بندلي جوزي ١٤٦	بشر بن المعتز ٧٨ ، ٨٣
بند جمع ٢٩	بشر بن الوليد الكندي ٣٩ ، ٨٨
بنو سامة ٢٧١	بشر المريسي ٨٧ ، ٩٣
بنو سهل ٢٠٤	البصرة ٣٤ ، ٣٨ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦
بنو عبد المطلب ١٢	٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨١
بنو المهلب ٢٧١	٨٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨
بنو هاشم ١١ ، ١٢ ، ٣٥ ، ٣٨ ،	٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧
٨٥ ، ٨٨	٢٦٩ ، ٢٧٥
بها فريد ١٩٦ ، ٢١٥	البطائح (موقع) ٢٥٥
البيد / بطريق ٣١٣	البطائحية (فرقة) ١٠٣
بوصير / ١٢٥٥	بعلبك ١٢٢
البورز / جبال ٢٣٧	بغبور (ملك) ٢٧٩
البيروني / مؤرخ ٢٦ ، ٢١٠	بغداد ٢٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٢
بيزنطة ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٢٢ ، ٢٤٧ ،	٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٧ ، ٦٢
٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٦ ، ٢٨٤ ، ٢٩١ ،	٦٨ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨

٢٩٤ تيو فيلوس

٢٥٦ تيو فوبوس

ث

ثابت بن نصر الخزاعي ٣١٨ ، ٣٣٥

ثمارة بن الوليد العبسي ٣٠٣

ثمارة بن اشرس ٧٨ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٥

ثور بن يزيد الكلاعي ٢١٦

ج

جابر بن الجفص ٥٣

الجاحظ ٥٩ ، ١٠٧ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨

٢١٧ ، ٢١١ ، ٢٠٨

جان السفير ٢٢٤

جاويدان بن سهل ٢٤٣ ، ٢٤٥

جب المستشرق ٦ ، ٥٢

الجبرية ٢٠١

مجبريل بن يحيى ٣٢٩

الجبل ١٢٢

جدة ٣١

جرجان ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩

٢٥٨ ، ٢٥٧ ، ٢٤٦ ، ٢٣٩

جرجيس بن بختيشوع ١١٤

جرمانيك (بلدة) ٣٢٧

الجزائر ١٠٥

الجزيرة ٤٢ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ١٠٢ ، ١٠٣

١١٠ ، ١٠٩ ، ١٠٨ ، ١٠٦ ، ١١٢

١٢٢ ، ١٢٠ ، ١١٧ ، ١١٣ ، ١٨٩

٣٠٨ ، ٢٢٥ ، ١٩٧ ، ١٩٤ ، ٣١١

٣٣٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٠ ، ٣٢٢ ، ٣١١

٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٥ ، ٣١٢

٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣

٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨

٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣

٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧

٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٢١

البيروني / مؤرخ ٣٢١

البلاذري ١٩٧ ، ٢٧١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧

٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٣١٠ ، ٢٨٧

ت

تانزيت ٣٠٦

تانغ ٢٧٦

التبت ٣٣ ، ٤١ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٣٧

تبريز ٢٣٧

الترك ٧ ، ٤١ ، ١١١ ، ١٩٤ ، ٢٦٢ ، ٢٧٣

٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١

٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٧٥

تركستان ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩

ترمد ٧٩

التغزغز ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٢

٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣

التنوخى (الشاعر) ١٧

التنوخى (يراجع الاسم) ٥٩

توماس الصقلي ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٣٨

٣٣٧ ، ٣١٩

تونس ٣١٩

تيو فانوس (المؤرخ) ١٢٢

تيو فيل بن ميخائيل ٢٤٨ ، ٢٥٤ ، ٣٢٣

٣٢٤ ، ٣٤٠ ، ٣٢٠

تيو فوب ٢٤٨ ، ٢٥٦ ، ٣٢٠ ، ٢٨٧

الحدث (مدينة) ٣٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،
 ٣٠٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٩٧ ،
 ٣٣٣
 الحديث ١١٩
 حران ١١٧ ، ١٩٩ ، ٢٢٣ ، ٣٢٢ ،
 ٢٨٥
 الحرائية (فرقة) ١٠٣
 الحرة (موقعه) ٢٧
 الحسن بن ابراهيم بن عبدالله المحض ٣٥
 الحسن البصري ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧
 الحسن بن ذكوان ٧٩
 الحسن بن علي ١٤
 الحسن بن علي الباذ عيسى ٢٩١
 الحسن بن صالح ٥٣
 الحسن بن قحطبة ٣٠٣ ، ٣٢٩ ،
 ٣٣٠ ، ٣٣١
 الحسين بن الخليل ٢٣٣
 الحسين بن عبد الله العباس ٢٠٥
 الحسين بن علي ١٤
 الحسين بن علي ٣٦
 الحسين بن الضحاك (الشاعر) ٢٣
 الحصين الثعلبي ٢٨٣
 حفص بن سالم ٧٩
 حلب ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٩٧
 الحكم ٧٣ يراجع الاسم
 حماد التركي ٢٦ ، ١١٦ ، ١١٧
 حماد (الراوية) ٢٠١ ، ٢١٠
 حماد بن الزبرقان ٢٠١
 حماد بن سلمة ٦٧ ، ٦٨
 حماد عجرد ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ،
 ٢١٠ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٣١

٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠
 جزيرة العرب ١١١
 جستنيان ٢٩٤
 الجعد بن درهم ٧٨ ، ٩٣ ، ١٩٣ ،
 ١٩٩ ، ٢٠١
 جعفر البرمكي ٢٣٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٥ ،
 ٣١٠ ، ٣١١
 جعفر بن ابي جعفر ٢٢٧
 جعفر بن دينار ٢٥٥
 جعفر الصادق ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ ،
 ٦٩ ، ٧١
 الجهشياري ٨٣ ، ١١٦ ، ٢٢٦
 الجهم بن صفوان ٧٨ ، ٧٩ ، ٩٣
 الجهمية ٢١٣
 جنديسابور ١١٤
 جورجيوس (البطريق) ١١٨
 جورجيا ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١
 جيحان نهر ٢٩٤ ، ٣٢٧
 جيفوية (ملك) ٢٧٩ ، ٢٨٢

ح

حاتم بن حرثمه ٢٤٩
 الحارث بن سريج ٢٥
 الحارث بن عبد المطلب ٢٢٩
 حاني (بلده) ٢٩٧
 حاني (حصن) ٣٢٧
 الحجاج بن مطر ٣٤٠
 الحجاج بن يوسف ٧٥ ، ٨٨
 الحجاز ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ،
 ٣٦ ، ٣٧ ، ٥٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٢ ،
 ٧٣ ، ٣٠٤

٧٩ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٣ ، ١١٣ ، ١٨٩ ،
 ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
 ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،
 ٢٥١ ، ٢٦٠ ، ٢٧٧ ، ٢٨٧ ، ٢٨٠ ،
 ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،
 ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ،
 ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١

خرتبرت / حصن ٢٩٧ ، ٣٢٧
 خرسوبوليس (مدينة) ٣٠٥
 خرسیون بلدة ٣٢٧

الخرمية ١٩٤ ، ٢١٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،
 ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ،
 ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،
 ٢٥٥ ، ٢٥٦

الخرز ٢٦٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ،
 ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ،
 ٢٩٣ ، ٣١٣

الخرلخي ٢٨١

الخرلخية (مملكة) ٢٧٩

خزيمة بن خازم ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ،
 ٢٩٠

خازم بن خزيمة ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،
 الخصيب الطبيب ١١٤ ، ٢٠٧ ،
 ٢١٥

الخطيب البغدادي (المؤرخ) ٨٣ ،
 ٢٤٢

خلدة (حصن) ٣٢٧

الخليج العربي ٣٢٦

خليفة بن خياط ٣٩ ، ٤٥

الخوارج ٨ ، ٧١ ، ٨٣ ، ٢٧٧ ،
 ٢٧٨ ، ٢٨٤

الحمة (مكان) ٣٠٤

حمدويه محمد بن عيسى الميساني
 ٢٢٤

حمران بخر ٢٩٦

حمزة بن اترك ٢٨٣

حمزين بلاد ٢٨٥

حميد بن سعيد ٢٣٥

حميد بن معيوف ٣١٨ ، ٣١٩

حمراء الموالي ١٩٢

حمص ٢١٦

الحميمة ١٩٧

حنحل (ملك) ٢٨٧

حصن زياد ٢٩٧

جهورن (ملك) ٢٧٩

حوز (بلدة) ٢٩٩

حيدر بن كاوس راجع الانشين ٢٨٢ ،
 ٢٨٣

الحيرة ١٩٢

حيون بن النجم ٢٨٦

خ

خالد الدرويش ٤٧

خالد بن الللاح ١٩٩

خالد بن عبد الله القسري ٩٣ ، ١٩٥ ،
 ١٩٩ ، ٢٠٠

خالد بن يزيد بن مزيد ٢٩١

خاقان (ملك) ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٦

ختل ٢٨١

خجندة (بلاد) ٢٨١

خداش ٢١٥

خراسان ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٧١ ،

خوارزم ٢٨١ ، ٢٩٣
الخياط راجع جعفر بن دينار
الخيزران ٣٦

د

دابق ٢٢٢ ، ٣٠٣
دارا (بلدة) ١١٨
داريا ٧٨
داوود الاسقف ١١٨
داوود بن روح ٢٢٨
داوود بن علي ١٠ ، ٢٢٩
داوود بن عيسى ٣١٨
داوود بن هبيرة ٢١٧
داوود بن يزيد ٢٧٠ ، ٢٧١
دار السلام راجع بغداد
دبسة ٣١٧
دبيل ٢٨٩
دعبل الخزاعي (الشاعر) ١٧
الدكن ٢٧٢ ، ٢٧٣
الدلتا ١١٠ ، ١٢٣ ، ٢٦٥ ، ٣٢٤
الدمستق ٣٠٦
دمشق ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٢٢ ،
١٢٣ ، ١٩٩ ، ٣٢٣
الدهاقين ٢٠٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥
دوين ٢٩٢
ديار بكر ٢٩٧
دي سنان (مؤرخ) ٣٣٣
الديصانية (فرقة) ١٣ ، ١٩٤ ، ٢٢٢
ديو قليسيان ٣٤١
الدهرية (فرقة) ٧٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦
الديلم ٤١ ، ٧٣ ، ٢٣٧ ، ٢٤٦ ، ٢٦٠

دينور ٢٣٧
دينيسوس الثلمحري (المؤرخ) ١٠٧ ،
١٢٠

ذ

ذي القلاع (حصن) ٣١٨
الذهبي المؤرخ ٦٧ ، ٢٤٥
ذو النفس الزكية محمد ١٠ ، ١١ ،
١٨ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٤ ،
٣٩ ، ٤٤ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٦٣

ر

رابطة بنت ابي العباس ٢٢٩
راشتراكوتا ٢٧٣
رافع بن الليث ٢٤٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ،
٣٢٠
الرافعة ٢٩٧ ، ٣١٨
دانسيحان (مؤرخ) ٣٣٦
الراوندية ٢١٥ ، ٢٢٢
الراين ٣٢٨
الراي ٢٧٩
الربض ٣٢٢
رتبيل ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣
الربيع ٦١ راجع الاسم
الربيع بن يونس ١١٥ ، ١١٦ ، ٢٢٦ ،
٢٢٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥
ربيعة ٢٧٠ ، ٢٨٥
رجاء بن حياة ١٩٩
الرس ٢٤٦
رشيد ١٢٥
الرشيد راجع هارون الرشيد

الرخا (من آل محمد) ٧

الرقعة ٣٩ ، ٣١٩

رقية بنت عمرو ٣٥

الرها ١٨٩

رودس ٣١٩

روزبة بن داؤويه ٢١٧

روما ١٠٣

الروم ٤٢ ، ٩٤ ، ١٠٦ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٧

٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨

٢٥٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥١ ، ٢٥٨

٢٦٧ ، ٢٧٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤

٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢

٣٠٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧

٣١١ ، ٣١٠ ، ٣٠٩ ، ٣٠٨ ، ٣١٢

٣١٦ ، ٣١٥ ، ٣١٤ ، ٣١٣ ، ٣١٧

٣٢١ ، ٣٢٠ ، ٣١٩ ، ٣١٨ ، ٣٢٢

٣٢٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٤ ، ٣٢٣ ، ٣٢٧

٣٣١ ، ٣٣٠ ، ٣٢٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣٣

٣٣٦ ، ٣٣٥ ، ٣٣٤ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧

٣٤١ ، ٣٤٠ ، ٣٣٩ ، ٣٣٨ ، ٣٤١

الرومان ١٩ ، ١٠٨

الري ٢٢٣ ، ٢٣٨ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠

ز

الزباب (الموقعة) ٢٨ ، ١١٩ ، ١٢٤

زارادشت ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٣

٢٠٦ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٨٣

الزاد شتية (فرقة) ١٠٢ ، ١٠٣

٢٢٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٥٠

زاغروس ١٧ ، ٢٣

زباله ٣٣

زبطرة ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٣٢١ ، ٣٣٠

٣٣١

زبطرة ٢٩٧

زبيدة ٣٢ ، ٤٠

زرارة بن اعين ٢٥٣

الامام زفر ٢٦٣

زخر بن هذيل ٧١ ، ٧٢

الزط ٢٥٥ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨

٢٦٩

زمرم ٣٢

زنجاريا ٢٦٤

زنجان ٢٥١

الزندقه ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩١

١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧

١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣

٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨

٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣

٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨

٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣

٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨

٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣

٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦

زياد بن عبد الله الحارثي ٢٩

زيد بن الخطاب ٢٨٥

زيد بن علي زين العابدين ٧١ ، ٨٠

زيد بن علي بن الحسين ٤٨

المزيدية (فرقة) ٧١ ، ٨١

س

سابور

سابور بن شهريار ٢٦١

ساروس ٣٢٧

الساسانيون ١٩١ ، ١٩٤ ، ٢٠٣

سالم بن اجوز ٩٣

سامراء ٩٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٣٠١
 سانكارا ٢٧٥
 ساويرس - ساويرس ابن المقفع
 (المؤرخ) ٤١ ، ١٢٣ ، ١٢٤
 سجستان ٢٣٨ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ،
 ٢٧٩ ، ٢٨٣
 السجستاني الخارجي ٣٩
 سخا ١١٠
 سرجيس ١١٨
 سرخاستان ٢٤٤
 سرنديب ٢٧٢
 السريان ٩٠ ، ١٠٣ ، ١١١ ، ١١٨ ،
 ١١٩ ، ١٩٤ ، ٢٠٥
 سعد بن ابي وقاص ٢٧٧
 سعيد بن سلم بن قتيبة ٣١٩
 سعيد بن يحيى ٥٣
 مسفران (راجع وند اسفران)
 سفيان بن عيينة ٥٧
 سفيان الثوري ٤٦ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦١ ،
 ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
 سمالو ١٢٢ ، ٣٠٤
 سمياط ٣٠٢ ، ٣٢٧
 سلاجقة ٢٨٠
 سلام ، (مترجم) ٣٤١
 سلول (يراجع الاسم) ١٢٣
 سلم الخاسر (الشاعر) ٢٣ ، ٢٣٣ ،
 ٢٣٥ ، ٢٦١
 سلم الفرعاني ٢٥٨
 سليمان بن راشد ٣١٢
 سليمان بن عبد الله ٣١١
 سليمان بن علي ٣٣٠
 سليمان بن وهب ١١٧

سليمان خادم الرشيد ٣٢٩
 سمود ١١٠ ، ١٢٥
 سنان ٣١٨ ، ٣٢٣
 سنباذ ١٩٦ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢
 السند ٤١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ ،
 ٢٨٠
 سندان ٢٧١ ، ٢٧٢
 سندس ٣٢٣
 السندي بن شاهك ٨٨ ، ٢٧٣ ، ٣١٩
 السندي بن يحيى ٢٧٣
 سنفاقورة ٢٧٥
 سهل بن سلامة الانصاري ٤٧
 سهل بن سنباط ٢٥٣
 السواد ١٠٩ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٨٩
 سوار بن عبد الله ٥٥ ، ٦٥
 السوداء (كنيسة) ٣١٧
 السور ٣٤١
 سورية ٣١٠ ، ٣١٢
 سورين (المطران) ١١٤ ، ١١٨
 السياجه ٢٦٨
 سيحون ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣٢٧
 السيد الحميري (الشاعر) ١١ ، ١٧
 السيوطي (المؤرخ) ٥٧ ، ٦٥ ، ٨٩ ،
 ٩٤
 سيونيا ٢٤٧

ش

شبيب بن شيبه ٨٢ ، ١١٦
 شراحيل بن معن بن زائدة ٣١٨
 الشاش ٢٨١ ، ٢٨٣
 الشافعي (راجع محمد بن ادريس)

الصفانيان ٢٨١
 الصفد ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٣
 صفير (مولى المهدي) ٣٠٢
 الصفا والروة ٣١
 الصفصاف ٣١٣ ، ٣١٧
 صفوان الانصاري (الشاعر) ٧٩
 الصقالبة ٣١٧
 صقلية ٢٦٤ ، ٣٠٦ ، ٣١٣ ، ٣٢٠ ،
 ٣٢٥ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠
 صملة ٣١٨ ، ٣٢٣
 الصنارية ٢٩٠ ، ٢٩٢
 الصوفية ٢٠٦
 الصولي ٩٦
 الصين ١١١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،
 ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠

ض

ضرار بن عمرو ٨٣

ط

الطالبيون ٢٨٠
 الطالقان (بلاد) ٢٨٠
 طاهر بن الحسين ٢٦٠
 طاهر بن عبد الله ٢٨٣
 طبرستان ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،
 ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ،
 ٢٧٩
 طرابلس ١٢٢
 الطبري (المؤرخ) ٣٥ ، ٣٩ ، ٥٦ ،
 ٩٥ ، ٩٨ ، ١٩٢ ، ٢١٥ ، ٢٣٩ ،
 ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،
 ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٨٦ ،

الشام ٢٠ ، ٣٥ ، ٥٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ،
 ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٩٤ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ،
 ١٠٦ ، ١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٩٧ ،
 ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢١٦ ، ٢٢٥ ، ٢٤٩ ،
 ٢٦٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٣ ، ٣١٠ ،
 ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ،
 ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤

شروان ٢٨٩

شروين ٢٧٩

الشعوبية ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،
 ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٧ ،

٢٠٨ ، ٢٣٥

الشماسية ٣٠٤

شمال ٣٢٣

شمشاط ٢٩٧

شهریار بن شردین ٢٦٠ ، ٢٦١

شليمون (المطران) ١١٩

الشيبياني ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٣ ،
 ٣٤٢

الشير ٢٧٩

الشيرز ٢٦٠

الشيعة ٨٣ ، ٩٤ ، ٢٢٢ ، ٢٣٥

شيروين ٢٥٨

ص

الصابئة (فرقة) ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٩٩ ،
 ٢٢٢ ، ٢٢٣

صالح بن عبد القدوس ٢٠١ ، ٢١٠ ،
 ٢١١ ، ٢١٥ ، ٢٢٧

صالح بن علي ١٢٢ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،
 ٣٣٣

الصائفة ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٣٤

عبد الله بن خردذابة ٢٦٠
عبد الله بن الزبير ٢٠ ، ٢٧
عبد الله بن سبأ ٢٠
عبد الله بن شبرمة ٦٥
عبد الله بن شعيب ٢٩٢
عبد الله بن طاهر ٨٩ ، ٢٨٣
عبد الله بن علي ٦٠ ، ٦٢ ، ٢١٧ ، ٣٣٣
عبد الله المحض ١٠ ، ٢٨ ، ٨٠
عبد الله بن مالك ٢٤٠ ، ٣١٩
عبد الله بن معاوية ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٢٦
عبد الله بن طاووس ٦٠
عبد الله بن العباس ١٣ ، ٢٨
عبد الله بن المقفع ٢٢١
عبد القهار ٢٣٨
عبد الكبير بن زيد ٢٨٥
عبد الكريم بن أبي العوجاء ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٣٥
عبد الكريم بن عبد الحميد ٣٠٥ ، ٣١١
عبد الملك بن شهاب ٢٦٧
عبد الملك بن صالح ، الشاعر ٢٣ ، ٣٣٤ ، ٣١١
عبد الملك بن مروان ، الخليفة ١٩٠ ، ٢٦٣
عبد الوهاب بن ابراهيم ٣٣١ ، ٣٣٣
عبد الواحد بن عبد الملك ٢٦٨
عبيد بن الحبحاب ١٢٣
عتاب بن ابراهيم ٥٦
عثمان الطويل ٧٩

٢٨٧ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣١٥ ، ٣٢٣ ، ٣١٦
طبرية (ناحية) ٢٦١
طازاد (الأرمني البطريق) ٣٠٥
طخارستان ٢٧٩ ، ٢٨١
طرخان (ملك الترك) ٢٧٩
طرخان (قائد) ٢٥٢
طرسوس ٢٩٨ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣١٠ ، ٣١٣ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤
طرطوس ٤٠ ، ٩٦ ، ٢٩٦ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٣٢
طما ١٢٤
الطوانة (بلدة) ٣٢٤ ، ٣٢٥
طوروس (جبال) ٣٢١
طيحا تاوس النسطوري ١١١
ع
عباد بن العوام ٥٥٣
العباس ٢٢٠ ، ٢٣٠
العباس بن عبد المطلب ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ٨٨
العباس بن المأمون ٣٢٤ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤
العباس بن محمد ٣٠٢ ، ٣٣٢
عبد الجبار الزنديق ٢٢٤
عبد الجبار المحتسب ٢٢٢
عبد الرحمن بن زياد ٥٤
عبد الرحمن بن سالم ٦٥
عبد الرحمن بن أبي الزند ٦٥
عبد الحميد الكاتب ٢٠٧
عبد الحميد مضروب ٢٥٨
عبد الله بن حارث ٧٩

٩٩ ، ١١٣ ، ١٢٤ ، ١٩٨ ، ٢٢٠

عمر بن الخطاب ٣٩ ، ١٠٢ ، ١١٣

عمر بن العلاء ٢٣٨

عمر الكلواذي ٢٢٣

عمرو بن عبيد ٤٦ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ٦٨

٨١ ، ٨٢

عمر بن محمد العركي ٢٣٣ ، ٢٣٩

العمودية ، أسرة ٢٤٨ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦

عمورية ، بلدة ٣٢٤ ، ٣٢٧ ، ٣٣١

٣٣٦ ، ٣٣٩

عمورية ، موقعة ٢٥٤

عمرو ، قائد ٣٢٠ ، ٣٣٧

العواصم ٢٩٧

عوانة بن الحكم الكلبي ٥٣

عين زربة ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٣١٧ ، ٣٣١

٣٣٢

عين طاب ٢٩٧

عيسى بن محمد بن أبي خالد ٤٧

عيسى الطبري الزاهد ٨٣

عياض بن سنان ٣٣٤

عيسى بن شهلانا ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨

١١٩

عيسى بن علي ٢٠٧ ، ٢١٧ ، ٣٠٢

غ

الغز ، بلاد ٢٨٣

الفساسنة ٣١٤

غسان بن عباد ٢٧١

غسان بن عبد الملك ٢٦٨

الغطريف بن عطاء ٢٨٠

الغمر بن العباس ٣٠٣

غوطة دمشق ٧٨

غيلان الدمشقي ٧٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩

العثمانية ٤٨

العجم ٢٤٦ ، ٢٥٧

عرفات ٣٢ ، ٣٩ ، ٣١٠ ، ٣١١

العراق ٢٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٥٠

٧١ ، ٧٢ ، ٩٠ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦

١١٣ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٤

١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠

٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٧

٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٧٤ ، ٢٨٥

٣٠٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣١

عسقلان ٢٩٩

عصمة الكردي ٢٤٧

علي بن احمد الاندلسي ٨٥

علي بن سليمان ٣٠٨

علي بن صالح بن حي ٢٨٨

علي الرضا ٨٧

علي بن أبي طالب ١٢ ، ١٣ ، ١٤

٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩

علي بن عبد الله ١٣ ، ٢١

علي هشام ٢٤٩

علي بن عيسى بن ماهان ٢٣٣ ، ٢٣٩

٢٦٠ ، ٢٨٩

علي بن موسى الرضا ١٤

علي بن يقطين ٢٣٠

علوي ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥

علويون ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣

١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٨

٣٦ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٥٥ ، ٦٤ ، ٦٩

٧١ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ٢٨٠

عثمان ٢٧٣

عمران بن داود ٢٧١

عمر بن عبد العزيز ٥٤ ، ٧٥ ، ٧٩

ف

فارس ٢٢١ ، ٢٦٩
 فارسبوراكان ٢٨٨
 فازيلييف ٢٦٣ ، ٣٢٠ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨
 فاطمة بنت الرسول ١١ ، ١٤ ، ٤٠
 الفاطمية ٢٤٢
 فالي ٢٧٢
 فنج ٣٦
 الفرات ١١٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣١٨ ،
 ٣٢٧ ، ٣٣١
 فراشة مولى المهدي ٢٥٨
 فراغة ١٩ ، ٢٨٣
 فرج بن سليم ٣٠٤
 الفرس ١٩ ، ١٩٠ ، ٢٠٨ ، ٢١٨ ،
 ٢٤١ ، ٢٤٩
 فرغانة ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨١
 الفرنجة ٢٦٥ ، ٣١٢
 فرنزان ٢٧٩
 الفضل البرمكي ٢٣٩
 الفضل بن الربيع ٨٨
 الفضل بن عبد الملك ٣١١
 الفضل بن ماهان ٢٧١
 الفضل بن يحيى ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٥
 فلسطين ٧٣ ، ٢٩٨

ق

القادسية ٥٣٣
 قارن ٢٦٠
 القاسم بن ابراهيم بن طباطبا ٨٩
 القاسم بن ابراهيم الحسني ٢١٣
 القاسم بن الرشيد ٣١١ ، ٣١٣ ،
 ٣٣٤ ، ٣١٤

القاسم السعدي ٧٩

قالقلا ٣٠٣
 القاهرة ٢٦ ، ٤٩
 قبادق ٣٢٧
 قبادوقيا ٣٢٧
 قبرص ٣١٢ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٤٠
 قبط ، راجع اقباط
 قدامة بن جعفر ٢٩٧
 القروية ، فرقة ٨٢ ، ٢٠١
 القدس ١١٩
 قرماسين ٢٤٠
 قره ٣١٤ ، ٣٢٣
 قریش ٣٥ ، ٣٦ ، ٢٠٥ ، ٢٧٠
 قزوين ٢٥٧
 قسطنطين ، البطريق ١٢٥
 قسطنطين الخامس ٣١٢ ، ٣٣٧
 قسطنطين السادس ٢٩٣ ، ٣٠٦ ،
 ٣٢٣
 القسطنطينية ٢٥٦ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ،
 ٣٠٠ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ،
 ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ،
 ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ،
 ٣٤١
 القفطي ٣٣٩
 القفقاس ٢٤٢ ، ٢٨٤ ، ٢٩٢
 قلقلية ٣١٤
 قلوزية ٣٣١
 قناة السويس ٣١٠
 قنسرین ٣٣٣
 قوفريانوس ١١٥
 قيسارية ٣٠٥

قيس ، قبيلة ١٢٣
القيسية ٢٢٦ ، ٢٧٠ ، ٢٩٢

ك

كابل شاه ٢٧٨
كابول ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤
كاشان ٢٧٨
كاماكس ٢٩٠
كانتون ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧
كاهن ، مؤرخ ٢٥٦
كاوس التركي ٢٨٢ ، ٢٨٣
الكرخ ٤٧
الکرد ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧
كرمنشاه ٢٤٧
الكرك ٣٤
كربت ٢٦٤ ، ٣٢٢ ، ٣٣٨
كريسوبولس ٣٠٧
كريم ، مؤرخ ٣٣٣
كسرى انو شروان ١٩٢
الكعبة ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٦٢ ،
٢٨٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٢
كفريا ٣٣٠
كلثوم بن عمرو العتابي ٨٣
الكهف ٣٤١
كور بلخ ٢٨١
كوروم ٣١٤
الكوفة ٢٠ ، ٢٨ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٦١ ،
٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٩ ، ٩٣ ،
٩٦ ، ١١٣ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ،
١٩٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٧١
كولم تلي ٢٧٣
الكيسانية ، فرقة ١٣

كينسوم ٣٣٧
كشكر ١١٨
كيليكيا ٣٢٧

ل

اللاز ، إمارة ٢٦٠
اللارس ، نهر ٣١٣ ، ٣٣٤
لبنان ١٢٢ ، ٣١٨
اللقطة ٢٣٧
اللكام ، جبال ٢٩٧ ، ٢٢٧
لوثر ٢٤٤
لؤلؤة ، حصن ٣٢٤
لومينا ١٢٥
الليث بن سعد ٥٤ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٧ ،
٦٩
الليث بن طريف ٢٩٦
ليو ، عالم ٣٤٠
ليو الرابع ٢٩٣ ، ٣٠٢
ليو الخامس ٢٩١ ، ٢٩٤

م

ماجدة ، حصن ٣٠٦ ، ٣٢٣
مأجوج ، قوم ٣٤١
الماروني ١٠٣
المارين ٣٢٨
المازيار ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٦١
ماسبدان ، بلدة ٢٤٦ ، ٢٥٠
مالك بن أنس ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٥٣ ،
٥٧ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ،
٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣
مالك بن الهيثم ٤٨

ماوراء النهر ٢٠٢ ، ٢٦٤ ، ٢٧٨ ،	الأمون ، الخليفة ١٤ ، ١٨ ، ٢٥ ،
٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤	٣٢ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،
المبارك بن فضالة ٥٦	٤٦ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ،
مبسوسة ٣٢٧	٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٤ ، ٧٦ ،
المتوسط ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٣١٠ ، ٣١٧ ،	٧٨ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ،
٣٢٥ ، ٣٢٧	٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ،
المتوكل ، الخليفة ١٦ ، ١٧ ، ٤٠ ،	٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ،
٩٩ ، ٢١٣ ، ٢٨٧ ، ٣٠٠ ، ٣٣٥ ،	١٠٩ ، ١١١ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٣ ،
محرز بن ابراهيم ٢٦٨	٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٣ ، ٢٣٣ ،
محمد بن ابراهيم ٣١١ ، ٣٣١	٢٣٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٦٠ ،
محمد بن أبي العباس ٢١٥	٢٦١ ، ٢٧١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ،
محمد الأمين : راجع الأمين	٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٠١ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ،
محمد الباقر ٨٠	٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨ ،
محمد بن أبي أيوب ٢٢٨	٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ،
محمد بن أبي ليلى ٦٥	٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٥ ،
محمد بن ادريس الشافعي ٦٨ ، ٧٣ ،	الأمون الصغير ٣٤١
٧٤ ، ٢٦٣	ما ميكونيان ، أسرة ٢٨٨ ، ٢٩٢ ،
محمد بن البعيث ٢٤٩	مانيز كرد ، مملكة ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧ ،
محمد بن الحسن الشيباني ٢٦٣	ماهان بن الفضل ٢٧٢
محمد بن الحنفية ١٣	ماني ١٩١ ، ١٩٩ ، ٢١٠ ، ٢٢١ ،
محمد بن سعيد الشامي ٢١٦	الانوية ٧٩ ، ٩٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،
محمد بن سليمان ٨٣	١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ،
محمد بن شجاع الثلجي ٢١٣	١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
محمد بن طيفور ٢٢٨	٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،
محمد بن عبد الله المحض ٨٠	٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ،
محمد بن علي ١٣ ، ٢٠ ، ٢٤ ،	٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ،
محمد بن علي بن عبد الله ٢٦	٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ،
محمد بن عمران الطلحي ٥٥	٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ،
محمد بن علي العباس ١٩٧	الانويون ١٠٨
محمد بن غيلان ٥٣	ماهانيه ١٩٤
محمد بن الفضل ٢٧٢	ماهوية الواسطي ١١٧

محمد بن موسیٰ ۳۴۱

محمد بن هرمز ۵۳

محمد بن یزید ۳۱۹

المحمدة ٣.٤ ، ٣٣.

محمد ذو النفس الزكية : راجع ذو

النفس الزكية

الحمره ١٩٤ ٢٣٣ ٢٣٧ ٢٣٩

٢٥٧٦ ٢٤٣٦ ٢٤٢

المجوس 1.1 1.6 1.7 1.13

255

المحوسبة ١.٢ ، ١.٣ ، ١٩٦٦ ، ٤٢.٥٦

٦ ٢٣٢ ٦ ٢٢١ ٦ ٢١٨ ٦ ٢١٧ ٦ ٢٠٧

٢٥. ٦ ٢٤١ ٦ ٢٣٦ ٦ ٢٣٥

المختار الشافى ٢٤

سخراق مولیٰ بنی تمیم ۳۷

المداين ١١٤ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ٢٢١

مدينة ٢٨ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ،

‘ Y 3 ‘ Y. ‘ 79 ‘ 78 ‘ 73 ‘ 8.

2.. 6 191

سرازیه ۲.۳

لما رآه ، قرية ٢٥٢

لمداد أبو موسى ٩٣

عشر ٣٠٣ ، ٣١٩ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠ ،

777

٢٢١ قه ن

المرقونية ، فرقة ١.٣ ، ١٩٤٠

مرمره، بحر ۲۹۶، ۳۰۵

رند ، بلدة ٢٤٧

۲۳۹، ۲۳۳، ۹۳ و

يروان بن أبي حفصة ، الشاعر ، ١٥٠

٢٣٦١٩

روان بن الحكم ٢٥

المغيرة بن يزيد ٢٧٠
 المقدسي ٢٤٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٤١
 المقرئ ، المورخ ١٢٣ ، ٢٤٥
 مقلاص ٣٨
 مقلوبية ، حصن ٣١٧
 المقنع ١٩٦ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢ ، ٢٧٨
 المقنعية ١٨٥
 مكة ٢٢ ، ٢٦ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٥٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠
 مكوكيه ، ملك ٣٠٢
 ملاطية ، بلدة ٢٩٧ ، ٣٢٧ ، ٣٣١ ، ٣٣٣
 الملبار ، ساحل ٢٧٢ ، ٢٧٣
 ملطية ، بلدة ٢٥٤
 الملكاني ١٠٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥
 منى ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٩
 منبج ٢٩٧ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٢٧ ، ٣٣٤
 المنذر بن عبد الله ٦٢
 المنذر بن محمد الجارودي ٢٦٨
 منصور ، حصن ٣٣١
 المنصور : راجع أبو جعفر
 منصور بن جعونه ٣٣٢
 منصور بن المهدي ٢٤٧
 منصور خراسان ٢٤
 منصور النعميري ، الشاعر ١٦ ، ١٧
 منصور اليمن ٢٤
 المنصوره ، مدينة ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠
 منكجور الفرغاني ٢٤٧

مطر الوراق ٥٣
 مطبوره ، مدينة ٣١٣ ، ٣٢٣ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩
 مطر بن فاطمة ٢٤٢
 المطيع ، الخليفة ٨٥
 مطيع بن إياس ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣١
 معاوية بن أبي سفيان ٢٥ ، ٣٠ ، ٥٣ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٣
 معاوية بن زفر ٣١١
 معاوية بن عبيد الله ٢٢٦
 معبد الجهني ١٩٨
 المعتزلة ، فرقة ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٦ ، ٩٦ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٣٥
 المعتصم بالله ، الخليفة ٢٦ ، ٤١ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٢١ ، ١٩٥ ، ٢١٤ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦
 المعتضد ، الخليفة ٨٥
 المعلى بن محمد البصري ١٨
 معمر بن راشد الأزدي ٦٨
 معمر بن عمرو ٨٣
 معن بن زائدة ٦٠ ، ٢٧٧
 معيوف بن يحيى ٣٠٨
 المغرب ٤٢ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٩ ، ٢٦٥ ، ٢٧١

منكه الطبيب ٢٧٣

المهدي ، الخليفة ١٣ ، ١٦ ، ١٨ ،
 ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ،
 ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤١ ،
 ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٣ ، ٥٦ ،
 ٥٧ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧٠ ، ٨١ ،
 ٨٢ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٦ ،
 ١١٨ ، ١٩٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
 ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ،
 ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،
 ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،
 ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،
 ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ،
 ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ،
 ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،
 ٣١٢ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ،
 ٣٣٣ ، ٣٣٤ ،
 المهديّة ٣٠٤ ، ٣٣٠ ،
 مهرا ٢٠٠ ،
 المهلهل بن صفوان ٢٣٨ ،
 موسى النبي ١٧٨ ،
 موسى بن يحيى ٢٧١ ،
 موسى اليهودي ١١٥ ،
 موسكو ٢٩٣ ،
 موشايل ، ملك ٢٨٨ ،
 الموصل ١١٩ ، ١٢١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ،
 ميخائيل ١٢٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ،
 ميخائيل الأول ٢٩٤ ،
 ميخائيل الثاني ٢٤٧ ، ٢٩٤ ، ٣٢٠ ،
 ٣٢٣

ميخائيل الثالث ٣٤١

ميخائيل الكبير ، المؤرخ ١٠٨ ،
 الميد ، قبائل ٢٦٦ ، ٢٧٢ ،
 ميشيل السوري ٣٣٧ ،
 منويل ، قائد ٣٣٨ ،
 ميماس ٢٩٩

ن

ناربد ٢٦٨ ،
 الناطلوس ٣٢٧ ،
 نجران ١١٣ ،
 النجرانية ، فرقة ١١٣ ،
 النجم بن هاشم ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،
 النزارية ٢٧٠ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ ،
 النساطرة ١٠٣ ، ١١١ ، ١١٤ ،
 ١١٩ ، ١٢٢ ،
 النسطورية ٩١ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ١٩٤ ،
 النشوى ٢٨٩ ،
 النصارى ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،
 ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ،
 ١٩٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ،
 ٢١٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨٤ ، ٣٣٧ ،
 نصر بن حبيب ٢٨٩ ،
 نصر بن سيار ٢٠ ،
 نصر بن شيبث ٣٢٠ ، ٣٣٧ ،
 نصر بن هرمز السمرقندي ١٩٥ ،
 النصرانية ١٠٢ ،
 نصيبين ١١٥ ،
 النظام ٧٨ ، ٨٣ ، ٢١٢ ،
 النقاش الانطاكي ٣٣٤ ،
 نقد ٢٥٠

هـ

الهادي ، الخليفة ٢٥ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٤٣ ، ٧٠ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٣١ ، هارون الرشيد ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ١١١ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، هارون بن عمران ١٧٨ ، الهارونية ٣٣٠ ، الهارونية ، بلدة ٢٩٦ ، الهارونية ، حصن ٣٢٧ ، ٣٣٢ ، الهاشميون ٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢٢٩ ، الهاشميون الطالبيون ٢٥ ، هراة ، مدينة ٢٧٧ ، هرثمة بن أعين ٢٤٩ ، ٢٨١ ، ٣١٩ ، هرقل ٢٩٤

نقفوز ٢٩٤ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٨ ، نوبخت ، المنجم ١١٥ ، نيسبرك ، المستشرق ٨٠ ، نيقوميديا ٣٠٥ ، نقيطا ٣٠٦ ، نيكتاس ٣٠٦ ، نيوفوب ٣٣٧

و

وابراج ٢٧٩ ، الواق ، الخليفة ١٨ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٢١٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤١ ، واسط ١٨٩ ، والبة بن الحباب ٢٠١ ، وان ٣٢٧ ، واصل بن عطاء ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٢١٢ ، واش ٢٥٨ ، الوجه القبلي ١١٠ ، الوليد بن عبد الملك ٣٠ ، ٣٨ ، ١٩٥ ، ٢٦٣ ، الوليد بن مسلم ٥٣ ، ٦٨ ، الوليد بن يزيد ٢٠ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، وندا سفران ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ونداهرمز ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، وهوفور ٢٧٩

يحيى بن مسكين ٣٧
 يحيى الحرشي ٢٨٥
 يزدان نبخت ٢٣٣ ، ٢٣٤
 يزدان بن باذان ٢٠٧ ، ٢٣٠
 يزيد بن أسيد ٣٠٣
 يزيد بن بدر ٣٠٨
 يزيد بن الحباب المذحجي ٢٦٨
 يزيد بن عبد الملك ١٢٤
 يزيد بن الفيض ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣١
 يزيد بن مخلد ٣١٨ ، ٣١٩
 يزيد بن مزيد ٢٥٩ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦
 يزيد بن هارون الواسطي ٩٥
 يزيد بن هبيرة ٢١٧
 يزيد بن الوليد ، الخليفة ٧٨
 البعاقبة ، فرقة ١٠٣ ، ١١١ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ٣٠٣
 يعقوب بن ابراهيم : راجع القاضي
 ابو يوسف
 يعقوب بن داود ٢٢٨
 يعقوب بن الفضل ٢٠٥ ، ٢٢٩
 يعقوب الجنديسا بوري ١١٤
 اليعقوبي ، المؤرخ ٢٩ ، ٣٣ ، ٩٠ ، ١٠٣ ، ٢١٠ ، ٢٢١ ، ٢٤٩ ، ٢٥٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣١١ ، ٣٣٦
 اليعقوبية ٩١ ، ١١٠ ، ١٩٤
 اليشكري ، الخارجي ٣٩ ، ٤٥
 يقطن بن موسى ٣٣
 يقظان بن عبد الأعلى ٣٢١

هرقله ، مدينة ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٣ ، ٣١٦
 هرمز : راجع ونداهرمز
 هشام بن الحكم ٨٣
 هشام بن عبد الملك ٢٥ ، ٣٠ ، ٤٨ ، ١٢٤ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢١٤
 هشام بن الغاز الجرشي ٦٥
 هشام التغلبي ٢٦٦
 الهلنستية ٣٢٢
 همدان ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٤
 هنادكه ٢٦٦
 الهند ٨٤ ، ١١٥ ، ١٩٠ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٣٤٠
 الهندوكية ٢٧٥
 الهندي ، بحر ٣١٠ ، ٣٢٦
 هولاكو ٣٠١

ي

ياجوج ٣٤١
 يافا ٢٩٩
 ياقوت ٢٤٦
 يخنس ١٢٥
 يحيى بن اكثم ٥٤ ، ٥٧ ، ٧٠ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٥
 يحيى بن خالد البرمكي ٨٣ ، ٢١٣ ، ٢٣١ ، ٣٠٤
 يحيى بن زياد ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢٢٢
 يحيى بن عبد الله ٥٣ ، ٥٤

يوحنا النحوي ٣٢٤	اليمامة ، منطقة ٣٧٣
يوسف البرم ٤٥ ، ٢٣٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣	اليمن ٣٣ ، ٣٥ ، ٦٠ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٢٤٩ ، ٣٠٣
يوسف بن راشد السلمي ٢٨٥	اليمنية، اليمنية ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٨٩
يوسف بن عمر الثقفي ٢٠ ، ٤٨	اليهود ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٠٨
اليونان ٣١٩ ، ٣٤٠	٢٧٧ ، ١٩٩ ، ١١٣
يونس بن ابي فروة ٢٠١ ، ٢٣١	يوحنا بن ماسويه ٣٣٩

الفهرس

الفصل الاول :

- ٥ السياسة الدينية
- ٥ الملامح العامة للسياسة الدينية العباسية
- ٩ ١ - القربى من الرسول وحق الارث
- ١٩ ٢ - القيام بأمر الدين
- ٤٨ ٣ - تمثيل الجماعة الاسلامية في الحكم
- ٤ - توطيد المذهب السني وصيرورته
- ٦٥ المذهب الرسمي

الفصل الثاني :

- ١٠١ السياسة مع الذمة
- ١٠١ الموقف من الذمة (النصارى واليهود والمجوس)
- ١٠٢ أ - أهل الذمة
- الأسس العامة للموقف العباسي
- ١٠٤ والذمي
- ١١٣ ج - الذمة في عصر المنصور
- ١٢٧ د - الذمة في عصر الرشيد
- ١٢٨ أولا - استخدام الذميين في الدولة
- ١٣٥ ثانياً - العلاقة مع المؤسسات الكنسية
- قضايا الاضطهاد (تنوخ • تغلب
- أقباط مصر • نصارى الجزيرة •

- ٧٠٥ -

دولة بني العباس ج ٢ - ٤٥ م

- ١٥٨ • قرارات التضييق على الذمة
١٧٧ رابعاً - الجدل الديني مع أهل الذمة

الفصل الثالث :

- ١٨٥ المشاكل والحركات الدينية
١٨٥ ١ - مشكلة الزندقة
١٨٦ أ - الشعوية
١٩١ ب - حركة الزندقة
٢١٢ ج - قصة المكافحة
٢٣٦ ٢ - الحركات الدينية الايرانية
٢٣٧ أ - الحزمية (المحمرة)
٢٤٠ ب - البابكية
٢٥٧ ج - قضية طبرستان

الفصل الرابع :

- ٢٦٢ العلاقات الخارجية (١ - مع الشرق ومع الروم)
١ - العلاقات مع الشرق والشمال (قطاع الهند •
٢٦٥ الصين • تركستان • الخزر)
٢٦٥ أولاً : الهند
٢٧٥ ثانياً : الصين
٢٧٧ ثالثاً : مع الترك
٢٨٤ رابعاً : الخزر والأرمن
٢٩٣ ٢ - العلاقات مع الشمال الغربي (جبهة الروم)
٢٩٤ البيزنطيون
٢٩٦ نظام الدفاع العربي

- ٣٠٠ العمليات الحربية ٠ أ - غزوات المهد
 ٣٠٨ ب - غزوات الرشيد
 ٣٢٠ ج - غزوات المأمون
 ٣٢٥ معنى الحروب مع الروم وميزاتها ونتائجها
 ٣٣٨ العلاقات الحضارية مع الروم

الفصل الخامس :

- العلاقات الخارجية (٢ - في البحر المتوسط
 ٣٤٧ والغرب)
 ١ - القوى البحرية العباسية في المتوسط
 ٣٤٧ أ - العاسيون والبحر المتوسط
 ٣٥٣ ب - الغزوات العباسية في المتوسط
 ٣٥٧ ٢ - القوى البحرية الإسلامية في المتوسط
 ٣٥٧ أ - الصراع البحري
 ٣٦٠ ب - فتح كريت
 ٣٦٣ ج - فتح صقلية
 ٣ - العلاقات مع الجنوب (جنوب مصر وحوض
 ٣٦٩ النيل)
 ٣٧٠ - مع البجة
 ٣٧٤ - مع النوبة
 ٣٧٧ - مع الواحات
 ٣٧٩ ٤ - العلاقات مع المغرب
 ٣٧٩ أ - مع المغرب العربي
 ٣٨٠ (دولة برغواطة ، الدولة الصالحية)

٣٨١	الدولة المدارية
٣٨٢	الدولة الرستمية
٣٨٣	الدولة الادريسية
٣٩٤	ب - مع أمارة الأندلس
٣٩٦	ج - الغرب (العلاقات مع الفرنجة)
٣٩٦	أ - مصادر الموضوع
٣٩٨	ب - العلاقات
٤٠٠	ج - أسباب العلاقات وت نتائجها
٤٠١	د - مناقشة المصادر والموضوع

الفصل السادس:

٤٠٩	عصر المعتصم (فترة القلق)
٤١١	الخلفاء (المعتصم، الواثق بالله ، المتوكل على الله)

الفصل السابع :

٤٢٨	الترك وسامراء
٤٢٨	١ - الاتراك : عنصر جديد
٤٣٧	٢ - عاصمة جديدة : سامراء
٤٤٥	٣ - عاصمة المتوكل : المتوكلية

الفصل الثامن :

٤٥١	مشاكل الحكم
٤٥١	ولاية العهد
٤٦١	٢ - الوزارة
٤٦٥	٣ - الكتاب والمصادر

الفصل التاسع :

- ٤٦٩ مشاكل الرعية
- ٤٦٩ ١ - ثورات العقائد
- أولاً - الثورات الايرانية •
- ٤٧٠ - ثورة المازيار
- ٤٧٥ ب - قضية الأفشين
- ٤٨٤ ثانياً - ثورات العلويين
- ٤٨٦ ثالثاً - ثورات الخوارج
- ٢ - ثورات الاقاليم :
- ٤٨٨ أولاً - ثورات أرمنية
- ٤٩٨ ثانياً - في اذربيجان
- ٤٩٩ ثالثاً - ثورات الشام
- ٥١٤ رابعاً - ثورات الأعراب في البادية العربية
- ٥١٦ خامساً - ثورات برقة

الفصل العاشر :

- ٥٢٢ العلاقات الخارجية (في عصر المعتصم)
- ١ - العلاقات مع الأمم المختلفة
- أ - قطاع الهند والمحيط الهندي والشرق
الصيني
- ٥٢٣
- ب - العلاقات مع الترك والخزر
- ٥٣١ ج - العلاقات مع البجة والنوبة (جنوب
مصر)
- ٥٣٥
- د - صراع القوى البحرية في المتوسط
- ٥٤٢

	أ - في عهد المعتصم
٥٥٩	٢ - العلاقات مع الروم
٥٦٠	أ - في عهد المعتصم
٥٧٢	ب - في عهد الواثق
٥٧٤	ج - في خلافة المتوكل
٥٨٢	خاتمة
٥٨٥	المصادر والمراجع العربية المختارة
٥٨٥	١ - المصادر العربية الأولى
٥٩٩	٢ - المراجع العربية الحديثة والمترجمة
٦٠٧	٣ - مراجع باللغات الأجنبية
٦٠٩	استدراكات
٦٢٠	كشاف الاعلام للجزء الأول
٦٨٠	كشاف الاعلام للجزء الثاني
٧٠٥	فهرس الجزء الثاني

* * *

تصويب

الجزء الثاني من دولة بني العباس

مرة أخرى نضطر أسفين الى تصويب بعض الأخطاء المطبعية التي لم يكن مناص من أن تتسرب الى الكتاب في جزئه الثاني أيضاً وليس بالإمكان التفاوض عنها. ونرجو أن تصحح قبل القراءة ولم نسجل على أي حال سوى الهام منها .

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
٨	بين ٧ و ٨	تنقض الفقرة التالية : ٤ -	توطيد المذهب السني وتبنيه كمذهب رسمي للجماعة الإسلامية لمقابلة الاتجاهين الفكريين العلوي والخارجي بمذهب فكري متكامل .
٩	٢	من أهل الرسول	من حق أهل الرسول
٩	٦	المستخدمتين	المستمدتين
١١	١٤	الحكم من	الحكم عن
١٢	١٦	وارثة وموروثة	وارثه ومورثه
١٢	١٨	فأدر كنا من ما	فأدر كنا منه ما ...
١٦	٥	من دون يتم	من دون تيم
١٦	٨	ولا تقدمكم	ولا تقدم
١٦	١٠	يصحح بيت الشعر كما يلي إن الخلافة مذ كانت ومزبدات	موسومة بفتى من آل عباس
١٩	١١	الناس اجبتوك	الناس اجتبتوك
٢١	٥	وحضنا	وخصنا
٢٦	٤	المقرنة	المقرونة
٢٨	٥	بدا	بدا

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
٣٠	٥	هامش المنصور قيل	المنصور وهو خليفة قبل
٣٤	١١	يتقرب	تقرب
٣٥	١٤	ولو لم يكن	ولم يكن
٣٨	١٣	اسمه مقلاصاً	اسمه مقلاص
٤١	٢١	المتوكل	المعتصم
٤٨	١٠	وعرفنا	عرفنا
٤٨	١٧	وصفها	وضعها
٥٢	٢	سلياسته	سياسة
٥٣	١٤	الجمض	الجففى
٥٣	٢٥	الخض	التقى
٥٤	٥	تخرجهم	تخرجهم
٥٦		السطر الأخير الله إن	والله إنني لأعلم أن
٥٨	١٢ و ١٣		ت حذف الكلمات المكررة حتى كلمة : للنصيحة
٦٥	١	وتلخر	وتزخر
٦٧	١	الواشحة	الواشحة
٦٧	١٠	أنجم	الجم
٦٧	قبل الآخر	ضعف	صنف
٦٨	١١	المغزلي	المعتزلي
٧٠	١	وإذا كان من مذهب	وإذا كان مذهب
٧٢	١٦	انطلق	انطلقا
٧٥	١	وكان	وكان
٧٦	١٣	السطر مكرر ويكتب العقلية ضمن إطار الاسلام	لختلف القضايا التي يثيرها الإيمان لان القرآن ...
٨٠	٧	كان	كان
٨٠	١٨	الفرصة	الفرضية
٨١	٣	ومى ذلك	ومع ذلك
٨١	٦	السياسي عن	السياسي غير

الصفحة	السطر	الخط	التصويب
٨٢	٣	أو يقول	أو القول
٨٢	١٢	البراهين	البراهين
٨٥	٧	كانوا يشغبوا	كانوا يشغبون
٩٧	١	كتابة خفيفة	كتابة ضعيفة
١٠٢	١٤	إنما في ذلك للنصراني إنما تستعمل في ذلك العصر للنصراني	
١٠٣	٨	ونماذج	ونماذج
١٠٤	١٠ و ٩	التطبيق العملي	مكررة ولذلك تحذف وتتصل
		التطبيق العملي	الجملة
١٠٧	الآخر	عبدة الرقوس	عبدة الرؤوس
١٠٩	قبل الأخير	مرغمة التطبيق	مرعية التطبيق
١١١	٣	وبدهي أنه	وبدهي أن
١١١	٦	بل تعد هذه	بل تعد هذه الفترة
١١٣	١	فان اللميين كانوا	فان اللميين الذين كانوا
١١٩	٦	من النصارى	من النصارى بهذا
١٢٥	١٤ و ١٦	حنايشوع	حنا نيشوع
١٢٧	١٢	وشال البطريق	وشال البطريق
١٢٧	١٣	ادخل عليم افرام	ادخل عليه افرام
١٤٢	٢	لان لم تسمع	لانا لم نسمع
١٤٢	١٢	اي خطر	اي حظر
١٤٣	٨	لهم بغداد	لهم في بغداد
١٤٨	١٥	الصور القائمة	الصور القائمة
١٤٩	٣	تكون القيمة هي	تكون القيمة الاولى هي
١٦٦	قبل الأخير	الصلبان	رفع الصلبان
١٦٨	قبل الأخير	من قلائسهم	في قلائسهم
١٧٢	١٢	واساسه	واسامه
١٧٣	٧	الاقطاط	الاقطاع
١٧٩	١٨	مسألة اياي	مسألته اياي
١٨١	٤	كتاج	كتاب

الصفحة	السطر	الخطا	التصويب
١٨١	٦	المقتطفات في	المقتطفات وكتب في
١٨٢		قبل الاخير	وكتاب في
١٨٨	٤	البفن	الفبن
١٩١	٢	التكوين الهدف	التكوين والهدف
١٩٣	٧	مغبنان	مغبيان
١٩٣		الاخير اذا اوضحت	اذا اوضحت
١٩٤		قبل الاخير	كان يعزو
٢٠١	١٧	عبد القدوس ولنذكر عبد القدوس والجعد بن درهم	ولنذكر
٢٠٩	١٩	اسكن النار	اسكن النارا
٢١٣	٨	بكتاب على	بكتاب الرد على
٢١٤	١١	سبع سنوات (١٦٣) - اربع سنوات (١٦٧) -	
٢٢٣		قبل الاخير سنوات رؤساء سنوات ثلاثة رؤساء	
٢٢٤	١٧	الزائفة	الزائفة
٢٢٥	الاول	الشكاك ...	يضاف بعد هذه الكلمة ما يلي : كما اهتم الشيعة بالرد عليهم وقد كتب أبو محمد هشام بن الحكم الكوفي مولى شيبان وهو من أصحاب جعفر الصادق ومن متكلمي الشيعة (سنة ١٩٠ وسنة ٢٠٠) كتاباً في الرد على الزنادقة وكتاباً في الرد على أصحاب الاثنين .
٢٢٥	١٨	السطر مكرر	يحذف السطر ويكتب بدلا عنه : بجانب بغداد او في خراسان وما وراء النهر ولم تشمل المكافحة المانويين وإلا انتهت
٢٢٧	الاول	بعرض	بعرض

الصفحة	السطر	الخط	التصويب
٢٢٧	٥	العصري	البصري
٢٢٩	٩	جعلت الله عهداً	جعلت لله عهداً
٢٢٩	١٧	ربطة	ربطة
٢٣١	١٦	كالذي من أمر	كالذي كان من أمر
٢٣١	١٧	ابنه	ابنة
٢٣٢	٣	انتهى	انتهت
٢٣٢	٨	تفرح بها	تفرح بمكافحتها
٢٣٣	١٧	المجاورة	المحاورة
٢٣٤	١٧	ملاحظة	ملاحقة
٢٣٥	١٨	من الكتب	من الكتب
٢٤٤	١٥	الى الحبس	إلى الحبس
٢٤٥	١٢	وحيثا	وحيثما
٢٤٧	١٧ و ١٨	مكانهما غير صحيح	يوضع السطر ١٧ بعد السطر ١٨
٢٥٣		قبل الأخير في الهامش	بطريق بطريق البطارقة انطاكية
٢٥٥	٢	والصبيان لهم	والصبيان جعلت لهم
٢٥٦		قبل الأخير منها	بينهما
٢٥٦		الهامش ١	ينقصه اسم المرجع Bury صفحات ٢٣١ و ٢٥٣ - ٢٥٤
٢٥٨	١٣	المصحفان	المصنفان
٢٦٠	٨	الجيلية لم	الجيلية ولم
٢٦٠	١٨	فانقطعوا	فانقطعوا
٢٦١	٣	سلام	سلم
٢٦٦		قبل الأخير	منبوذين محرم
٢٧٢	٦	وطولا الهند	وطولا وكاتب الهند
٢٧٤	١٣	والقصة لو	والقصة ولو
٢٧٥	٧	بالتوجد	بالتوحيد
٢٧٦	٦	وصل سنة	وصل أحدها سنة
٢٧٩	٩	الخرلخية	الخرلخية

الصفحة	السطر	الخطا	التصويب
٢٧٩	١٠	جيفونة	جيفونية
٢٧٩	١١	بيفو	بيفو
٢٨٠	١٠	(الأتراك والبرانيين)	(الأتراك والبرانيين)
٢٨٤	٧	أرمينية منطقة	أرمينية في منطقة
٢٨٧	٧	تهور... التهور	تهود... التهود
٢٨٨	١	وحرامة	وصرامة
٢٨٨	٨	حلت بالامن	حلت بالارمن
٣٠٠	١	مناظر	عناصر
٣٠١	١١	مع الروم هي	مع الروم هو
٣٠٤	٨	الثغر الأول سنة ١٧٥	الثغر الأول سنة ١٦٨/٧٨٥
٣٠٨		السطر الأخير (١٧٠ - ١٨٠)	(١٧٠ - ١٨٦ هـ)
٣١٩	١٣	بن آلمين... الصانقة	بن آعين... الصانقة
٣١٩	٢١	شاهن	شاهك
٣٢٠	١٢	العمودية	العمورية
٣٢١	١٠	فلم يجد	فلم يجبه
٣٢٥	١٥	قلى نهر	على نهر
٣٣٠	٤	الهارونة	الهارونية
٣٣٧	١٤	بيزنطة دوما	بيزنطة دوما وقد شكلوا لديهم
			فرقة حربية حاربت بجانب
			الروم .
٣٤٥	١٠	موار المتايا	موارد المتايا
٣٤٥	١٥	ولثاروا المعارضة	ولثارا المعارضة
٣٦٩	٧	مهمل هذه	مهمل هو
٣٧٣	٢	يرمغون	يرفغون
٣٧٦	١٢ و ١١	ولم تتبدل ...	تحذف إحدى الجملتين
		ولم تتبدل	
٣٨٢	الآخر	واذا انقسم	وقد انقسم
٣٨٧	٥	ونلفت النظر	ويلفت النظر
٣٨٧	١٢	تناصر	تناحر

الصفحة	السطر	الخطا	التصويب
٣٩٣	٩	إن انه	الا انه
٣٩٦	الأول	عرضته عليه	عرضته عليه
٤١٢	١٥	في طرطوس	في طرسوس
٤١٩	٣	الوائق إلى	الوائق إلى
٤١٩	١٨	خطئة	خطئة
٤٢١	٤	طالب ما احسن	طالب مثل ما احسن
٤٢٣	٣	بالثحدث	بالتحديث
٤٢٨	عنوان الفصل	الفصل التاسع عشر	الفصل السابع
٤٣٠	٣	سكة التجارية	سكة البخارية
٤٤٩	١٠	الفي الفي	الفي الف
٤٥٢	١٥	النبوية	النبوية
٤٥٥	الآخر	النبي	البنوي
٤٥٩	١٢	الفراغة	الفراغة
٤٦٣	١٢	ولعل ما يفسر	ولعل هذا ما يفسر
٤٦٧	١٧	مخلف	مخلد
٤٧٦	٤	محاكمة	محاكمته
٤٧٧	١٣	السطر مكرر	يحذف ويكتب بدلا منه ما يلي :
			يعزو هذه النصيحة الى حقد
			القاضي على الافشين لكلام
			بلغه عنه فانها
٤٧٩	٢٠	فابقى	فأبى
٤٨٠	٣	سامهم ... آخرين	سامهم ... آخرين
٤٨١	١٣	على الشكل ورد	على الشكل الذي ورد
٤٨١	السطر الأخير	على وجهها	على وجهها
٤٨٦	٢	فجاء من المدينة	فجاء به من المدينة
٤٨٦	٦	وامره بهدم	وامر بهدم
٤٩٠	٧	تحولا متقطع	تحولا متقطعا
٤٩٦	٤	اسواق النخاسة	اسواق النخاسة
٤٩٦	السطر الأخير	ولكن حدد	ولكن جدد
٤٩٧	٣	بلدة برعة	بلدة بردعة

الصفحة	السطر	الخطا
٤٩٩	١٩	رغم ما يلقينهم
٥٠١	٣	وان حروف
٥٠٣	١٦	سنة ٦٢٩
٥٠٥	٥	ثم صنع السيف
٥٠٦	١٥	بيهنس المبرقع
٥٠٦	٢١	البتت نيانا
٥٠٧	١٧	سوى ان نجد
٥٠٧	١٨	يترحل ثلاث
٥١٢	٢	التمرد من قليل
٥١٢	٨	جمص سنة
٥١٥	٦٥	منذ هذه الفترة حتى جملة زائدة . تحذف سقوطها
٥١٨	١٣	اخرى برنيق
٥١٨	١٤	اجداية
٥٢٦	١٤	يبدو انه المراكب
٥٢٩	الاول	لهذا التبرير
٥٣٣	١٣	وحقر ملوكهم
٥٤٤	الاخير	فرضه
٥٦٢	٣	السبب فيها فشل السبب في فشل هذه الحملة الحملة
٥٦٥	الاخير	تنصيبهم
٥٧١	١٥	فوضع الملح
٥٧٥	١٧	المحدود
٥٧٩	١١	شراذمة
٥٨١	١٥	غشاء أجوى
٥٨٢	٩	آسيا الصغرى